

المستطرفة

في كل فن مستطرفة

تأليف

شهاب الدين بن أحمد بن الفتح الأبيشي

شرحه ووضع هوامشه

ابراهيم بن محمد

المكتبة النوفيقية

المُسْتَطَرَف

فِي كُلِّ فَرْسٍ مُسْتَطَرَف

تأليف
شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الألبشيري

شرحه ووضّعه هو أمّش
إبراهيم أمين محمد

المكتبة التوفيقية
للمام للباب الأخضر - سولنا الحسن

مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الملك العظيم العلى الكبير، الغنى اللطيف الخبير، المنفرد بالعز والبقاء، والإرادة والتدبير، الخى العليم الذى ليس كمثله شئ. وهو السميع البصير، تبارك الذى بيده الملك، وهو على كل شئ قدير، أحمده حمد عبد معترف بالعجز والتقصير، وأشكره على ما أعان عليه على قصد ويسر من عسير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا مشير، ولا ظهير له ولا وزير. وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله البشير النذير السراج المنير، المبعوث إلى كافة الخلق من غنى وفقير، ومأمور وأمير، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه صلاة يفوز قائلها من الله بمغفرة وأجر كبير، وينجو بها فى الآخرة من عذاب السعير، وحسبنا الله ونعم الوكيل فنعم المولى ونعم النصير.

أما بعد: فقد رأيت جماعة من ذوى الهمم، جمعوا أشياء كثيرة من الآداب والمواعظ والحكم، وبسطوا مجلدات فى التواريخ والنوادر، والأخبار، والحكايات، واللطائف، ورقائق الأشعار، وألفوا فى ذلك كتباً كثيرة، وتفرد كل منها بفرائد فوائد لم تكن فى غيره من الكتب محصورة، فاستخرت الله تعالى وجمعت من مجموعها هذا المجموع اللطيف، وجعلته مشتملاً على كل فن ظريف، وسميته (المستطرف فى كل فن مستظرف) واستدللت فيه بآيات كثيرة من القرآن العظيم، وأحاديث صحيحة من أحاديث النبى الكريم، وطرزته بحكايات حسنة عن الصالحين الأخيار، ونقلت فيه كثيراً مما أودعه الزمخشري فى كتابه «ربيع الأبرار» وكثيراً مما نقله ابن عبد ربه فى كتابه «العقد الفريد» ورجوت أن يجد مطالعه فيه كل ما يقصد ويريد، وجمعت فيه لطائف وظرائف عديدة، من منتخبات الكتب النفيسة المفيدة، وأودعته من الأحاديث النبوية، والأمثال الشعرية، والألفاظ اللغوية، والحكايات الجدية، والنوادر الهزلية، ومن الغرائب والدقائق، والأشعار والرقائق، ما تشنف بذكره الأسماع، وتقر برؤيته العيون، وينشرح بمطالعه كل قلب محزون.

من كل معنى يكاد الميت يفهمه حسناً ويعشقه القراطس والقلم

وجعلته يشتمل على أربعة وثمانين باباً من أحسن الفنون، متوجة بألفاظ كأنها الدرّ المكنون، كما قال بعضهم شعراً فى المعنى:

ففى كل باب منه درٌ مؤلفٌ كنظم عقود زيتها الجواهر
فإن نظم العقد الذى فيه جواهر على غير تأليف فما الدرّ فاخر

وضمته كل لطيف، ونظمت به بكل ظريف، وقرنت الأصول فيه بالفصول، ورجوت أن يتيسر لى ما رمته من الوصول. وجعلت أبوابه مقدمة، وفصلتها فى مواضعها مرتبة منظمة، ليقصد الطالب إلى كل باب منها عند الاحتياج إليه، ويعرف مكانه بالاستدلال عليه، فيجد كل معنى فى بابه إن شاء الله تعالى والله المسؤول فى تيسير المطلوب، وأن يلهم الناظر فيه ستر ما يراه من خلل وعيوب، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وهذه فهرست الكتاب والله سبحانه المهن للصعاب.

(الباب الأول) فى مباني الإسلام: وفيه خمسة فصول. (الباب الثانى) فى العقل والذكاء والحق والدم وغير ذلك. (الباب الثالث) فى القرآن العظيم وفضله وحرمة وما أعد الله تعالى لقارئه من الثواب العظيم، والأجر الجسيم. (الباب الرابع) فى العلم والآداب وفضل العالم والمتعلم. (الباب الخامس) فى الآداب والحكم وما أشبه ذلك. (الباب السادس) فى الأمثال السائرة وفيه فصول. (الباب السابع) فى البيان والبلاغة والفصاحة، وذكر الفصحاء من الرجال والنساء، وفيه فصول. (الباب الثامن) فى الأجوبة المسكنة والمستحسنة، ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك. (الباب التاسع)

فى ذكر الخطب والخطباء، والشعراء، وسرقاتهم، وكبوات الجياد، وهفوات الأمجاد. (الباب العاشر) فى التوكل على الله تعالى، والرضا بما قسم والقناعة، وذم الحرص والطمع، وما أشبه ذلك وفىه فصول. (الباب الحادى عشر) فى المشورة والتصيحة، والتجارب، والنظر فى العواقب. (الباب الثانى عشر) فى الوصايا الحسنة، والمواعظ المستحسنة، وما أشبه ذلك. (الباب الثالث عشر) فى الصمت وصون اللسان، والنهى عن الغيبة والسعى بالنميمة، ومدح العزلة وذم الشهرة، وفىه فصول. (الباب الرابع عشر) فى الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام، وما يجب للسلطان على الرعية، وما يجب لهم عليه. (الباب الخامس عشر) فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبته. (الباب السادس عشر) فى الوزراء وصفاتهم وأحوالهم، وما أشبه ذلك. (الباب السابع عشر) فى ذكر الحجاب والولاية، وما فيها من الغرر والخطر. (الباب الثامن عشر) فيما جاء فى القضاء وذكر القضاة، وقبول الرشوة والهدية على الحكم، وما يتعلق بالديون، وذكر القصاص والمتصوفة وفىه فصول. (الباب التاسع عشر) فى العدل والإحسان والإنصاف، وغير ذلك. (الباب العشرون) فى الظلم وشؤمه وسوء عواقبه، وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك. (الباب الحادى والعشرون) فى بيان الشروط التى تؤخذ على العمال، وسيرة السلطان فى استجباء الخراج وأحكام أهل الذمة وفىه فصلان. (الباب الثانى والعشرون) فى اصطناع المعروف، وإغاثة الملهوف، وقضاء الحوائج للمسلمين، وإدخال السرور عليهم. (الباب الثالث والعشرون) فى محاسن الأخلاق ومساوئها. (الباب الرابع والعشرون) فى حسن المعاشرة، والمودة، والأخوة، والزيارة، وما أشبه ذلك. (الباب الخامس والعشرون) فى الحياء والتواضع، ولين الجانب وخفض الجناح، وفىه فصلان. (الباب السابع والعشرون) فى العجب والكبر والخيلاء، وما أشبه ذلك. (الباب الثامن والعشرون) فى الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت. (الباب التاسع والعشرون) فى الشرف والسؤدد وعلو الهمة. (الباب الثلاثون) فى الخير والصلاح، وذكر السادة الصحابة وذكر الأولياء والصالحين، رضى الله عنهم أجمعين. (الباب الحادى والثلاثون) فى مناقب الصالحين وكرامات الأولياء، رضى الله عنهم. (الباب الثانى والثلاثون) فى ذكر الأشرار والفجّار، وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاهة. (الباب الثالث والثلاثون) فى الجود والسخاء والكرم، ومكارم الأخلاق واصطناع المعروف، وذكر الأمجاد وأحاديث الأجواد. (الباب الرابع والثلاثون) فى البخل والشح وذكر البخلاء، وأخبارهم وما جاء عنهم. (الباب الخامس والثلاثون) فى الطعام وآداب الضيافة وآداب المضيف والمضيف، وأخبار الأكلة وما جاء عنهم وغير ذلك. (الباب السادس والثلاثون) فى العفو والحلم والصفح، وكظم الغيظ، والاعتذار وقبول المعذرة، والعتاب، وما أشبه ذلك. (الباب السابع والثلاثون) فى الوفاء بالوعد وحسن العهد ورعاية الذمم. (الباب الثامن والثلاثون) فى كتمان السر وتحصينه، وذم إفشائه. (الباب التاسع والثلاثون) فى الغدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد، وفىه فصول. (الباب الأربعون) فى الشجاعة وثمرتها والحروب وتديرها وفضل الجهاد، وشدة البأس والتحريض على القتال، وفىه فصول. (الباب الحادى والأربعون) فى ذكر أسماء الشجعان، ذكر الأبطال وطبقاتهم وأخبارهم، وذكر الجبناء وأخبارهم، وذم الجبن. (الباب الثانى والأربعون) فى المدح والثناء وشكر النعمة، والمكافأة، وفىه فصول. (الباب الثالث والأربعون) فى الهجاء ومقدماته. (الباب الرابع والأربعون) فى الصدق والكذب، وفىه فصلان. (الباب الخامس والأربعون) فى بر الوالدين وذم العقوق وذكر الأولاد وما يجب لهم وعليهم، وصلة الرحم والقربات، وذكر الأنساب، وفىه فصول. (الباب السادس والأربعون) فى الخلق وصفاتهم وأحوالهم، وذكر الحسن والقبح والطول والقصر والألوان واللباس، وما أشبه ذلك. (الباب السابع والأربعون) فى ذكر الحلى والمصوغ والطيب والتطيب، وما جاء فى التختيم. (الباب الثامن والأربعون) فى الشباب والشيب والصحة والعافية وأخبار العمرين، وما أشبه ذلك، وفىه فصول. (الباب التاسع والأربعون) فى الأسماء والكنى والألقاب، وما استحسنت منها. (الباب الخمسون) فى الأسفار والاغتراب، وما قيل فى الوداع والفراق والحث على ترك الإقامة بدار الهوان، وحب الوطن والحنين إلى الأوطان. (الباب الحادى والخمسون) فى ذكر الغنى وحب المال والافتخار بجمعه. (الباب الثانى والخمسون) فى ذكر الفقر ومدحه. (الباب الثالث والخمسون) فى ذكر التلطف فى السؤال، وذكر من سئل

فجاد. (الباب الرابع والخمسون) فى ذكر الهدايا والتحف، وما أشبه ذلك. (الباب الخامس والخمسون) فى العمل والكسب والصناعات والحرف، والعجز والتوانى وما أشبه ذلك. (الباب السادس والخمسون) فى شكوى الزمان وانقلابه بأهله، والصبر على المكاره، والتسلى عن نوائب الدهر، وفيه ثلاثة فصول. (الباب السابع والخمسون) فيما جاء فى اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة، والسرور بعد الحزن، ونحو ذلك. (الباب الثامن والخمسون) فى ذكر العبيد والإماء والخدم، وفيه فصلان. (الباب التاسع والخمسون) فى أخبار العرب، وذكر غرائب من عوائدهم وعجائب أمرهم. (الباب الستون) فى الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والطيرة والفراصة والنوم والرؤيا. (الباب الحادى والستون) فى الحيل والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد، والتيقظ والتبصر، ونحو ذلك. (الباب الثانى والستون) فى ذكر الدواب والوحوش والطيور والهوام والحشرات، مرتباً على حروف المعجم. (الباب الثالث والستون) فى ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم. (الباب الرابع والستون) فى خلق الجن وصفاتهم. (الباب الخامس والستون) فى ذكر البحار وما فيها من العجائب، وذكر الأنهار والآبار، وفيه فصول. (الباب السادس والستون) فى ذكر عجائب الأرض وما فيها من الجبال والبلدان وغرائب البنيان، وفيه فصول. (الباب السابع والستون) فى ذكر المعادن والأحجار وخواصها. (الباب الثامن والستون) فى ذكر الأصوات والألحان وذكر الغناء واختلاف الناس، ومن كرهه واستحسنه. (الباب التاسع والستون) فى ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم، ونوادير الجلساء فى مجالس الخلفاء. (الباب السبعون) فى ذكر القينات والأغاني. (الباب الحادى والسبعون) فى ذكر العشق ومن بلى به، والافتخار به والعفاف، وأخبار من مات بالعشق، وما فى معنى ذلك، وفيه فصول. (الباب الثانى والسبعون) فى ذكر رقائق الشعر والموايا والدوبيت، وكان وكان، والموشحات، والزجل، والحماق، والقومة، والألغاز، ومدح الأسماء والصفات، وفيه فصول. (الباب الثالث والسبعون) فى ذكر النساء وصفاتهم ونكاحهن وطلاقهن، وما يمدح وما يذم من عشرتهن، وفيه فصول. (الباب الرابع والسبعون): فى ذم الخمر وتحريمها والنهى عنها. (الباب الخامس والسبعون) فى المزاح والنهى عنه وما جاء فى الترخيص فيه والبسط والتنعم وفيه فصول. (الباب السادس والسبعون) فى النوادر والحكايات وفيه فصول. (الباب السابع والسبعون) فى الدعاء وآدابه وشروطه، وفيه فصول. (الباب الثامن والسبعون) فى القضاء والقدر وأحكامه والتوكل على الله تعالى. (الباب التاسع والسبعون) فى التوبة وشروطها والندم والاستغفار. (الباب الثمانون) فى ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء، من السنة والعيادة وثوابها، وما أشبه ذلك، وفيه فصول. (الباب الحادى والثمانون) فى ذكر الموت وما يتصل به من القبر وأحواله. (الباب الثانى والثمانون) فى الصبر والتأسى والتعازى والمراثى ونحو ذلك، وفيه فصول. (الباب الثالث والثمانون) فى ذكر الدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها، ونحو ذلك. (الباب الرابع والثمانون) فى فضل الصلاة على النبى ﷺ وهو آخر الأبواب، ختمتها بالصلاة على سيد العباد. أرجو بذلك شفاعته ﷺ يوم المعاد.

المؤلف

فى مبانى الإسلام وفيه خمسة فصول

الفصل الأول : فى الإخلاص لله تعالى والثناء عليه

وهو أن تعلم أن الله تعالى واحد لا شريك له. فرد لا مثل له. صمد لا ند له. أزلى قائم، أبدى دائم، لا أول لوجوده، ولا آخر لأبديته. قيوم لا فيه الأبد ولا يغيره الأمد، بل هو الأول والآخر والظاهر والباطن منزّه عن الجسميّة ليس كمثله شئ وهو فوق كل شئ فوقيته لا تزيد بعداً عن عباده وهو أقرب إلى العبيد من جبل الوريد وهو على كل شئ شهيد.

وهو معكم أينما كنتم لا يشابهه قرب الأجسام كما لا يشابه ذاته ذوات الأجرام، منزّه عن أن يحده زمان، مقدس عن أن يحيط به مكان تراه أبصار الأبرار فى دار القرار على ما دلت عليه الآيات والأخبار. حتى قادر جبار قاهر لا يعتره عجز ولا قصور ولا تأخذه سنة ولا نوم، له الملك والملكوت والعزة والجبروت.

خلق الخلق وأعمالهم، وقدر زرزاقهم وآجالهم لا تحصى مقدوراته ولا تنهى معلوماته عالم بجميع المعلومات لا يغرب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السموات. يعلم السر وأخفى ويطلع على هواجس الضمائر وخفيات السرائر يريد للكائنات مدبر للحادثات لا يجرى فى ملكه قليل ولا كثير ولا جليل ولا حقير خير أو شر نفع أو ضرر إلا بقضائه وقدره وحكمه ومشيته، فمأ شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

هو المبدئ المعيد الفاعل لما يريد لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوقيفه ورحمته ولا قوة له على طاعته إلا بمحبته وإرادته. لو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا فى العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته لعجزوا.

سميع بصير متكلم بكلام خلقه وكل ما سواه سبحانه وتعالى فهو حادث أوجده بقدرته وما من حركة وسكون إلا وله فى ذلك. حكمة دالة على وحدانيته. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة : ١٦٤].

وقال أبو العتاهية:

فيا عجباً كيف يُعصى الإله	أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شئ له آية	تدل على أنه الواحد
ولله فى كل تحريكة	وتسكينة فى الورى شـاهـد

وقال غيره :

كل ما ترتقى إليه بوهـم	من جلال وقـدرة وسناء
فالذى أبدع البرية أعلى	منه سبحانه مبدع الأشياء

وقال على رضى الله عنه فى بعض وصاياه لولده: «اعلم يا بنى أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه إله واحد لا يضاده فى ملكه أحد». وعنه عليه الصلاة والسلام: «كل ما يتصور فى الأذهان فالله سبحانه بخلافه».

وقال لبید بن ربیع^(١):

(١) لبید بن ربیع: هو لبید بن ربیع بن مالك، أبو عقيل العامري، أحد الشعراء الفرسان الأشراف فى الجاهلية، من أهل عالية نجد، أدرك الإسلام، ويعد من الصحابة، ومن المؤلفات قلوبهم، وهو من أصحاب المعلقات فى الجاهلية، وكان كريماً توفى سنة (٤١هـ-٦٦١م).

ألا كل شيء ما خلا الله باطلٌ وكل نعيم لا محالة رائلٌ
 وكل ابن أنثى لو تطاول عـمـره إلى الغاية القصوى فـلـلقـبـر آيل
 وكل أناسٍ سوف تدخل بينهم دويبة تصفر منها الأنايل
 وكل امرئ يومئذٍ يعرف سعـيـه إذا حـصـلت عند الإله الحـصـائل

وروى أن النبي ﷺ قال وهو على المنبر: «إن أشعر كلمة قالتها العرب: ألا كل شيء ما خلا الله باطل».

ثم بعد هذا الاعتقاد الإقرار بالشهادة بأن محمداً رسول الله بعثه برسالاته إلى الخلائق كافة وجعله خاتم الأنبياء، ونسخ بشريعه الشرائع وجعله سيد البشر والشفيع المشفع في المحشر، وأوجب على الخلق تصديقه فيما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة.

فلا يصح إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت، من سؤال منكر ونكير، وهما ملكان من ملائكة الله تعالى يسألان العبد في قبره عن التوحيد والرسالة، ويقولان له: من ربك وما دينك ومن نبيك؟ ويؤمن بعذاب القبر وأنه حق، وأن الميزان حق، والصراط حق، والحساب حق، وأن الجنة حق، والنار حق، وأن الله تعالى يدخل الجنة من يشاء بغير حساب وهم المقربون، وأنه يخرج عصاة الموحدين من النار بعد الانتقام، حتى لا يبقى في جهنم من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان ويؤمن بشفاعة الأنبياء ثم بشفاعة العلماء ثم بشفاعة الشهداء، وأن يعتقد فضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، ويحسن الظن بجميعهم على ما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار. فمن اعتقد جميع ذلك مؤمناً به موقناً فهو من أهل الحق والسنة، مفارق لعصابة الضلال والبدعة، رزقنا الله الثبات على هذه العقيدة، وجعلنا من أهلها، ووفقنا للدوام إلى المات على التمسك والاعتصام بحبلها، إنه سميع مجيب. فهذه العقيدة قد اشتملت على أحد أركان الإسلام الخمسة، قال رسول الله ﷺ: «بنى الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً».

الفصل الثاني: في الصلاة وفضلها

قال الله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَبُوا مَعَ الرَّاكِبِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]. واختلفوا في اشتقاق اسم الصلاة مم هو، فقيل هو من الدعاء، وتسمية الصلاة دعاء، معروفة في كلام العرب، فسميت الصلاة صلاة لما فيها من الدعاء. وقيل: سميت بذلك من الرحمة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] فهي من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن الناس دعاء. قال ﷺ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى» أي ارحمهم. وقيل: سميت بذلك من الاستقامة من قولهم صليت العود على النار إذا قومته، والصلاة تقيم العبد على طاعة الله وخدمته وتنهاه عن خلافه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وقيل لأنها صلة بين العبد وربّه. وعن رسول الله ﷺ قال: «علم الإيمان الصلاة، فمن فرغ لها قلبه وحافظ عليها بحدودها فهو مؤمن» وعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال وهو على المنبر: «إن الرجل ليشيب عارضاء في الإسلام وما أكمل لله تعالى صلاة» قيل: وكيف ذلك؟ قال: «لا يتم ركوعها وسجودها وخشوعها وتواضعه وإقباله على الله فيها». وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: «كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه». وقيل للحسن^(١): ما بال المهجدين من أحسن الناس وجوهاً؟ فقال: «لأنهم خلوا بالرحمن فالبسهم نوراً من نوره». وقال بعضهم: «لا تفوت أحدًا صلاة في جماعة إلا

(١) الحسن البصري: هو الحسن البصري (٢١-١١٠هـ) إمام أهل البصرة وحبر الأمة في زمانه، ولد في المدينة وشب في كنف علي بن أبي طالب، وعظمت هيته في القلوب، فكان يدل على الولاية فيأمرهم وينهاهم وكان في غاية الفصاحة تنصب الحكمة من فيه. انظر (سير أعلام النبلاء) للذهبي (٥٦٣/٤) ترجمة (٢٢٣).

بذنب». وكانت رابعة العدوية^(١) تصلى فى اليوم واللييلة ألف ركعة، وتقول: والله ما أريد بها ثواباً ولكن ليسر ذلك رسول الله ﷺ. ويقول للأنبياء عليهم الصلاة والسلام: انظروا إلى امرأة من أمتى هذا عملها فى اليوم واللييلة. وقال بعضهم: صليت خلف ذى النون المصرى، فلما أراد أن يكبر رفع يديه وقال: «الله» ثم بهت وبقي كأنه جسد لا روح فيه إعظاماً لربه جل وعلا، ثم قال: «الله أكبر» فظننت أن قلبى انخلع من هيبة تكبيره. وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود كذب من ادعى محبتى. وإذا جن عليه الليل نام عنى، أليس كل محب يحب الخلوة بحبيبه؟ ولعبد الله بن المبارك رضى الله تعالى عنه:

إذا ما الليل أظلم كـأبدوه فـيـفـرُّـعـنـهـمُ و همُّ ركـوعُ
أطـار الخـوفُ نـومـهـمُ فقـامـوا وأهل الأمن فى الدنـيـا هـجـوعُ

وكان سيدى الشيخ الإمام العلامة فتح الدين بن أمين الدين الحكيم التحريرى رحمه الله، كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات

يا أيها الراكـد كم ترقـدُ قم يا حـبـيـبى قد دنا الموعدُ
وخـذ من الليل ولو سـاعـة تحظى إذا ما هجع الرقـد
من نام حـتى ينقـضى ليلـه لم يبلغ المنزل لو يجـهـدُ

وكان سيدى أويس القرنى لا ينام ليله ويقول: «ما بال الملائكة لا يفترون ونحن نفتـر» وقال حذيفة رضى الله عنه: «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة» وقال هشام بن عروة: «كان أبى يطيل المكتوبة ويقول هى رأس المال». وقال أبو الطفيل: «سمعت أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه يقول: «يا أيها الناس قوموا إلى نيرانكم فاطفئوها، سمعت رسول الله ﷺ يقول الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر». وجزأ محمد بن المنكدر، عليه وعلى أمه وعلى أخته، الليل أثلاثاً، فماتت أخته. فجزأه عليه وعلى أمه، فماتت أمه. فقام الليل كله. وكان مسلم بن بشار إذا أراد أن يصلى فى بيته يقول لأهله: تحدثوا فليست أسمع حديثكم. وكان إذا دخل البيت سكت أهله فلا يسمع لهم كلام. فإذا قام إلى الصلاة تحدثوا وضحكوا ووقع حريق إلى جنبه وهو فى الصلاة فما شعر به حتى أطفئ، وكان الحمام يقع على رأس ابن الزبير فى المسجد الحرام يحسبه جذعاً منصوباً لطول انتصابه فى الصلاة. وكانت العصفير تقع على ظهر إبراهيم بن شريك وهو ساجد كما تقع على الحائط. وختم القرآن فى ركعة واحدة، أربعة من الأئمة عثمان بن عفان وتميم الدارى، وسعيد بن جبير وأبو حنيفة رضى الله تعالى عنهم. ورأى الأوزاعى شاباً بين القبر والمنبر، فلما طلع الفجر استلقى ثم قال: «عند الصباح يحمد القوم السرى». فقال: يا ابن أخى لك ولاصحابك لا للجمالين. وكان خلف بن أيوب لا يطرد الذباب عن وجهه فى الصلاة، فقليل له: كيف تصبر؟ فقال: «بلغنى أن الفساق يتصبرون تحت الشياطين ليقال فلان صبور. وأنا بين يدى ربى أفلا أصبر على ذباب يقع على». وقال أبو صفوان ابن عوانة: «ما من منظر أحسن من رجل عليه ثياب بيض وهو قائم يصلى فى القمر كأنه يشبه الملائكة» وقال الحسن: «ما كان فى هذه الأمة أعبد من فاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ، وكانت تقوم بالأسحار حتى تورمت قدماه». وقام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه، وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وكانت دموعه تقع فى مصلاه كوكف المطر، وكان إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يسمع لقلبه خفقان وغليان، هذا خوف الحبيب والخليل مع ما أعطيا من الإجلال والإكرام وشرف المقام. فالعجب كيف يطمئن قلب من أزعجته الآثام. وقال رسول الله ﷺ لرجل قال له: ادع الله أن يجعلنى رفيقك فى الجنة؟ فقال: «أعنى على نفسك بكثرة السجود»^(١). وقال حاتم الأصم رحمه الله تعالى: «فاتنى صلاة الجماعة مرة فعزانى أبو إسحاق البخارى وحده، ولو مات لى ولد لعزانى أكثر من عشرة آلاف لأن مصيبة الدين عندهم أهون من مصيبة الدنيا». وكان السلف رضى الله تعالى عنهم يعزون أنفسهم ثلاثة أيام إذا

(١) رابعة العدوية: هى رابعة بنت إسماعيل العدوية، أم الخير، مولاة آل عتيك، البصرية، صالحة مشهورة، من أهل البصرة لها أخبار فى العبادة والنسك. اختلف فى سنة وفاتها، قيل: توفيت بالقدس سنة (١٣٥هـ - ٧٥٢م).

(٢) أخرجه مسلم (١/٣٥٣).

فاتتهم التكبيرة الأولى، وسبعاً إذا فاتتهم الجماعة. وقال ابن عباس رضى الله عنهما: «ركعتان مقتصدتان فى تفكر، خير من قيام ليلة والقلب ساه».

وأنشد بعضهم :

خسر الذى ترك الصلاة وخابا	وأبى معاداً صالحاً ومآباً
إن كان يجحدها فحسبك أنه	أضحى بربك كافراً مرتاباً
أو كان يتركها لنوع تكاسل	غطى على وجهه الصواب حجاباً
فالشافعى ومالك رأيا له	إن لم يتب حد الحسام عقاباً
والرأى عندى للإمام عذابه	بجمميع تأديب يراه صواباً

اللهم أعنا على الصلاة وتقبلها منا بكرمك ولا تجعلنا من الغافلين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

ومما يستحسن إلحاقه بهذا الفصل ذكر شيء من فضل السواك والأذان.

أما السواك: فقد قال الرسول ﷺ: «لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»^(١). وقال أيضاً: «صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة على غير سواك». وقال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه: «كان رسول الله ﷺ إذا قام ليتجهج شاص فاه بالسواك». وقال ﷺ: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب». وعنه ﷺ أنه قال: «لو يعلم الناس ما فى السواك لبات مع الرجل فى لحافه». وقال أيضاً: «أفواهم طرق لكلام ربكم فنظفوها». والاختيار فى السواك أن يكون بعود الأراك. ويجزى بغيره من العيدان وبالسعد والإشنان، والخرقة الخشنة وغير ذلك مما ينظف. ويستاك عرضاً مبتدئاً بالجانب الأيمن من فيه، وينوى به الإتيان بالسنة. والسواك بعود الزيتون يزيل الحفر من الأسنان. وقال الأصحاب يقول عند السواك: «اللهم بارك لى فيه يا أرحم الراحمين». ويستاك فى ظاهر الأسنان وباطنها، ويمر السواك على أطراف أسنانه وأضراسه وسقف حلقه إمراراً لطيفاً، ويستاك بعود متوسط لا شديد اليوسة ولا شديد اللين، فإن اشتد يسه لينه بالماء، وقد قيل: إن من فضائل السواك أنه يذكر الشهادة عند الموت ويسهل خروج الروح.

وأما الأذان فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من آذانه». قيل فى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [فصلت: ٣٣]. نزلت فى المؤذنين. وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «يغفر الله للمؤذن مدى صوته، ويشهد له ما سمعه من رطب ويابس». وعن معاوية رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة». رواه مسلم، وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إذا نودى للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين». رواه البخارى ومسلم، وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة» رواه البخارى. والأحاديث فى فضله كثيرة مشهورة والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل الثالث : فى الزكاة وفضلها

قرن الله سبحانه وتعالى الزكاة بالصلاة فى مواضع شتى من كتابه. قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥]. وعن بريدة رضى الله تعالى عنه، عن النبى ﷺ

(١) أخرجه الترمذى (١/٣٥).

ﷺ أنه قال: «ما حبس قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر» وعن عائشة رضى الله عنها عن النبي ﷺ قال: «ما خالطت الزكاة مالا قط إلا أهلكته». وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «من كان عنده ما يزكى ولم يزك ومن كان عنده ما يحج ولم يحج سأل الرجعة». يعنى قوله تعالى: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

ولنلحق بهذا الفصل ذكر شيء من الصدقة وفضلها وما جاء فيها وما أعد الله تعالى للمتصدقين من الأجر والثواب، ودفع البلاء. قال الله تعالى: ﴿إِن اللّٰهُ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. الآية. والآيات الكريمة فى ذلك كثيرة، والأحاديث الصحيحة فيه مشهورة. وروى الترمذى فى جامعه بسنده، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره». وفى صحيح مسلم، وموطأ مالك، وجامع الترمذى، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقص مال من صدقة». أو قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع عبد إلا رفعه الله تعالى».

ودخلت امرأة شلاء على عائشة رضى الله عنها فقالت: «كان أبى يحب الصدقة وأمى تبغضها، لم تتصدق فى عمرها إلا بقطعة شحم وخلقة، فرأيت فى المنام كأن القيامة قد قامت، وكان أمى قد غطت عورتها بالخلقة وفى يدها الشحمة تلحسها من العطش، فذهبت إلى أبى وهو على حافة حوض يسقى الناس، فطلبت منه قدحاً من ماء فسقيت أمى، فنوديت من فوقى ألا من سقاها، فثل الله يدها فانتبهت كما ترين».

ووقف سائل على امرأة وهى تتعشى فقامت فوضعت لقمة فى فيه، ثم بكرت إلى زوجها فى مزرعته، فوضعت ولدها عنده وقامت لحاجة تريد قضاءها، فاخترسه الذئب، فوقفت وقالت: «يارب ولدى»، فأتاها آت فأخذ بعنق الذئب، فاستخرجت ولدها من غير أذى ولا ضرر، فقال لها: «هذه اللقمة بتلك اللقمة التى وضعتها فى فم السائل».

وعشش ورشان فى شجرة فى دار رجل، فلما همت أفراخه بالطيران زينت امرأة ذلك الرجل له، أخذ أفراخ ذلك الورشان، ففعل ذلك مراراً، وكلما فرخ الورشان أخذوا أفراخه، فشكا الورشان ذلك إلى سليمان عليه السلام وقال: يا رسول الله أردت أن يكون لى أولاد يذكرون الله تعالى من بعدى، فأخذها الرجل بأمر امرأته، ثم أعاد الورشان الشكوى، فقال سليمان لـشيطانين: إذا رأيتماه يصعد الشجرة فشقا نصفين». فلما أراد الرجل أن يصعد الشجرة اعترضه سائل فأطعمه كسرة من خبز شعير، ثم صعد وأخذ الأفراخ على عادته. فشكا الورشان ذلك إلى سليمان عليه السلام، فقال للشيطانين: «ألم تفعلما ما أمرتكما به؟» فقالا: اعترضنا ملكان فطرحانا فى الخافقين.

وقال السخعى: كانوا يرون أن الرجل الظلوم إذا تصدق بشيء دفع عنه البلاء. وكان الرجل يضع الصدقة فى يد الفقير ويتمثل قائماً بين يديه ويسأله قبولها حتى يكون هو فى صورة السائل، وقال رسول الله ﷺ: «الصدقة تسد سبعين باباً من الشر». وعنه ﷺ قال: «ردوا صدمة البلاء ولو بمثل رأس الطائر من طعام». وروى عنه ﷺ أنه قال: «ردوا مذمة السائل ولو بظلف محرق». وعنه أيضاً ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة». وقال عيسى صلوات الله وسلامه عليه: «من رد سائلاً خائباً لم تغش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام». وكان نبينا محمد ﷺ يناول المسكين بيده، وعنه ﷺ: «ما من مسلم يكسو مسلماً ثوباً إلا كان فى حفظ الله ما كانت عليه منه رقعة». وقال عبد العزيز بن عمير: الصلاة تبلغك نصف الطريق والصوم يبلغك باب الملك والصدقة تدخلك عليه. وعن الربيع بن خيثم أنه خرج فى ليلة شاتية وعليه برنس خز، فرأى سائلاً فأعطاه إياه، وتلا قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البر وإن سوء الخلق شؤم وحسن الملكة نماء، والصدقة تدفع ميتة السوء». وقال يحيى بن معاذ: ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا من الصدقة، وعن عمر رضى الله عنه: أن الأعمال تباغت فقالت الصدقة: أنا أفضلكن، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تداركوا الهموم والغموم بالصدقات يدفع الله ضرركم وينصركم على عدوكم». وعن عبيد بن عمير قال: يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط، وأعطش ما كانوا قط، فمن أطعم لله أشبعه الله، ومن سقى لله سقاه الله،

ومن كسا لله كساه الله . وقال الشعبي : من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أخرج من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه . وكان الحسن بن صالح إذا جاءه سائل ، فإن كان عنده ذهب أو فضة أو طعام أعطاه ، فإن لم يكن عنده من ذلك شيء أعطاه دهنًا أو غيره مما يتفجع به ، فإن لم يكن عنده شيء أعطاه كحلًا أو أخرج إبرة وخيطًا فرقع بهما ثوب السائل .

ووجه رجل ابنه في تجارة فمضت أشهر ولم يقع له على خير ، فتصدق برغيفين وأرخ ذلك اليوم ، فلما كان بعد سنة رجع ابنه سالمًا رابحًا ، فسأله أبوه : هل أصابك في سفرك بلاء؟ قال : نعم غرقت السفينة بنا في وسط البحر ، وغرقت في جملة الناس ، وإذا بشابين أخذاني فطرحاني على الشط ، وقالا لي : قل لوالدك هذا برغيفين فكيف لو تصدقت بأكثر من ذلك؟! وقال على رضى الله تعالى عنه وكرم الله وجهه : «إذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك فيوافيك به حيث تحتاج إليه ، فاغتنم حمله إياه» . ولله در القائل حيث قال :

يبكى على الذاهب من ماله وإنما يبقى الذى يذهب

وحكى أن رجلاً عبد الله سبعين سنة ، فبينما هو فى معبده ذات ليلة إذ وقفت به امرأة جميلة فسأته أن يفتح لها ، وكانت ليلة شاتية فلم يلتفت إليها ، وأقبل على عبادته ، فولت المرأة ، فنظر إليها ، فأعجبته فملك قلبه وسلبت له ، فترك العبادة وتبعها وقال : إلى أين؟ فقالت : إلى حيث أريد . فقال : هيهات صار المراد مريدًا والأحرار عبيدًا . ثم جذبها فأدخلها مكانه ، فأقامت عنده سبعة أيام ، فعند ذلك تذكر ما كان فيه من العبادة ، وكيف باع عبادة سبعين سنة بمعصية سبعة أيام ، فبكى حتى غشى عليه ، فلما أفاق قالت له : يا هذا والله أنت ما عصيت الله مع غيرى ، وأنا ما عصيت الله مع غيرك ، وإنى أرى فى وجهك أثر الصلاح ، فبالله عليك إذا صالحك مولاك فاذكرنى . قال : فخرج هائماً على وجهه ، فأواه الليل إلى خربة فيها عشرة عميان ، وكان بالقرب منهم راهب يبعث إليهم كل ليلة بعشرة أرغفة ، فجاء غلام الراهب على عادته بالخبز ، فمد ذلك الرجل العاصى يده ، فأخذ رغيفاً ، فبقى منهم رجلاً لم يأخذ شيئاً ، فقال : أين رغيفى؟ فقال الغلام : قد فرقت عليكم العشرة . فقال : آيت طاوياً ، فبكى الرجل العاصى وناول الرغيف لصاحبه وقال لنفسه : أنا أحق أن آيت طاوياً لأننى عاص ، وهذا مطيع ، فنام واشتد به الجوع حتى أشرف على الهلاك . فأمر الله تعالى ملك الموت بقبض روحه فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . فقالت ملائكة الرحمة : هذا رجل فر من ذنبه ، وجاء طائعاً . وقالت ملائكة العذاب : بل هو رجل عاص ، فأوحى الله تعالى إليهم أن زنوا عبادة السبعين سنة بمعصية السبع ليال ، فوزنوها فرجحت المعصية على عبادة السبعين سنة ، فأوحى الله إليهم أن زنوا بمعصية السبع ليال بالرغيف الذى أثر به على نفسه . فوزنوا ذلك ، فرجح الرغيف فتوفته ملائكة الرحمة ، وقبل الله توبته .

وحكى أن رجلاً جلس يوماً يأكل هو وزوجته وبين أيديهما دجاجة مشوية ، فوقف سائل ببابه ، فخرج إليه وانتهره ، فذهب ، فاتفق بعد ذلك أن الرجل افتقر وزالت نعمته ، وطلق زوجته ، وتزوجت بعده برجل آخر ، فجلس يأكل معها فى بعض الأيام وبين أيديهما دجاجة مشوية ، وإذا بسائل يطرق الباب ، فقال الرجل لزوجته : ادفعى إليه هذه الدجاجة ، فخرجت بها إليه فإذا هو زوجها الأول ، فدفعته إليه الدجاجة ورجعت وهى باكية ، فسألها زوجها عن بكائها ، فأخبرته أن السائل كان زوجها ، وذكرت له قصتها مع ذلك السائل الذى انتهره زوجها الأول ، فقال لها زوجها : وأنا والله ذلك السائل .

وذكر عن مكحول أن رجلاً أتى إلى أبى هريرة رضى الله عنه فقال : ادع الله لابنى فقد وقع فى نفسى الخوف من هلاكه . فقال له : ألا أدلك على ما هو أنفع من دعائى وأنجح وأسرع إجابة؟ قال : بلى . قال : تصدق عنه بصدقة تنوى بها نجاة ولدك وسلامة ما معه ، فخرج الرجل من عنده ، و تصدق على سائل بدينار وقال : هذا خلاص ولدى وسلامته وما معه ، فنادى فى تلك الساعة مناد فى البحر : ألا إن الفداء مقبول وزيد مغاث . فلما قدم سأل أبوه عن حاله فقال : يا أبت لقد رأيت فى البحر عجيباً يوم كذا وكذا فى وقت كذا وكذا - وهو اليوم الذى تصدق فيه والده عنه بالدينار - وذلك أنا أشرفنا على الهلاك والتلف ، فسمعنا صوتاً من الهواء : ألا إن الفداء مقبول وزيد مغاث . وجاءنا رجال عليهم ثياب بيض فقدموا السفينة إلى جزيرة كانت بالقرب منا وسلمنا وصرنا بخير أجمعين . والآثار والحكايات فى ذلك كثيرة وفيما أشرت إليه كفاية لمن وعى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى والله أعلم .

الفصل الرابع: في الصوم وفضله وما أعد الله للصائم من الأجر والثواب

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]. قيل: الصوم عموم وخصوص وخصوص الخصوص: فصوم العموم: هو كف البطن والفرج وسائر الجوارح عن قصد الشهوة، وصوم الخصوص: هو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام، وصوم خصوص الخصوص: هو صوم القلب عن الهمم الدنية وكفه عما سوى الله بالكلية. قال رسول الله ﷺ «زكاة الجسد الصيام». وعنه ﷺ أنه قال: «للصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره، وفرحة عند لقاء ربه». وقال وكيع في قواء تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. إنها أيام الصوم تركوا فيها الأكل والشرب. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من أفطر يوماً في رمضان من غير رخصة رخصها الله له، لم يقض عنه صيام الدهر». وروى في صحيح النسائي عنه أيضاً ﷺ أنه قال: «إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين». وروى الزهري أن تسيحة واحدة في شهر رمضان أفضل من ألف تسيحة في غيره. وروى عن قتادة أنه كان يقول: من لم يغفر له في شهر رمضان فلن يغفر له في غيره. وقال رسول الله ﷺ: «لو يعلم الناس ما في شهر رمضان من الخير لتسمنت أمتي أن يكون رمضان السنة كلها» «ولو أذن الله للسماوات والأرض أن تتكلما لشهدتا لمن صام رمضان بالجنة». وقال ﷺ: «ليس من عبد يصلي في ليلة في شهر رمضان إلا كتب الله له بكل ركعة ألفاً وخمسمائة حسنة، وبنى له بيتاً في الجنة من ياقوتة حمراء لها سبعون ألف باب، لكل باب منها مصراعان من ذهب، وله بكل سجدة يسجد لها شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام». وقال ﷺ: «إن لكل صائم دعوة فإذا أراد أن تقبل، فليقل في كل ليلة عند فطره: يا واسع المغفرة اغفر لي». وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: من صام يوماً من رمضان خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فإذا انسلخ عنه الشهر وهو حي لم يكتب عليه خطيئة حتى الحول، ومن عطش نفسه لله في يوم شديد الحر من أيام الدنيا كان حقاً على الله أن يرويه يوم القيامة. وقال بعضهم: الصيام زكاة البدن ومن صام الدهر فقد وهب نفسه لله تعالى. وروى في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر». وعنه ﷺ أنه قال: «صيام ثلاثة أيام من كل شهر كصيام الدهر» وهي الأيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر. وفي صحيح البخاري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه».

وفضل الصوم غزير لأنه خصه الله تعالى بالإضافة إليه كما ثبت في الصحيح من الحديث عن النبي ﷺ أنه قال مخبراً عن ربه عز وجل: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به». وقد يكتفى في فضله بهذا الحديث الجليل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الفصل الخامس: في الحج وفضله

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ حُجٌّ أَلْبَسَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. وقال رسول الله ﷺ: «من خرج من بيته حاجاً أو معتمراً فمات. أجرى الله له أجر الحاج والمعتمر إلى يوم القيامة». وقال ﷺ: «من استطاع الحج ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً». وفي الحديث: «أن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة». وفيه: «أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفة فظن أن الله لم يغفر له وهو أفضل يوم في الدنيا». وفي الخبر: «أن الحجر الأسود ياقوتة من يواقيت الجنة، وأنه يبعثه الله يوم القيامة وله عيان ولسان ينطق به، يشهد لمن استلمه بحق وصدق». وجاء في الحديث الصحيح: «إن آدم عليه الصلاة والسلام لما قضى مناسكه لقيته الملائكة. فقالوا: يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام». وقال مجاهد^(١): «إن الحجاج إذا قدموا مكة لحقتهم الملائكة فسلموا على ركبهم

(١) مجاهد: هو مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي مولى بني مخزوم، تابعي، مفسر من أهل مكة، قال الذهبي: شيخ القراء والمفسرين، ولكن كتابه في «التفسير» يتبعه المفسرون، وسئل الأعمش عن ذلك فقال: كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب، يعني النصارى واليهود. ويقال: إنه مات وهو ساجد سنة (١٠٤ هـ - ٧٢٢ م) انظر «ميزان الاعتدال» للذهبي (٤٣٩/٣).

الإبل، وصافحوا ركبان الحمر، واعتنقوا المشاة اعتناقاً. وكان من سنة السلف رضى الله عنهم أن يشيعوا الغزاة، ويستقبلوا الحجاج ويقبلوهم بين أعينهم، ويسألوهم الدعاء لهم، ويبادروا ذلك قبل أن يتدنسوا بالآثام. وعن النبي ﷺ: «إن الله قد وعد هذا البيت أن يحججه كل سنة ستمائة ألف، فإن نقصوا كملهم الله تعالى من الملائكة، وإن الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة فكل من حجها يتعلق بأستارها ويسعى حولها حتى تدخل الجنة فيدخل معها».

وحكى أن جميلة الموصلية^(١) بنت ناصر الدولة أبى محمد بن حمدان حجت سنة ست وثمانين وثلاثمائة فصارت تاريخاً مذكوراً. قيل: إنها سقت أهل الموسم كلهم السويف بالطبرزد والثلج، واستصحبت البقول المزروعة فى المراكن على الجمال، وأعدت خمسمائة راحلة للمنقطعين، ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار، ولم تستصح فيها وعندها إلا بشموع العنبر، وأعتقت ثلاثمائة عبد ومائتى جارية، وأغنت الفقراء والمجاورين. ولما بنى آدم عليه الصلاة السلام البيت وقال: يارب إن لكل عامل أجراً، فما أجر عملى؟ قال: إذا طفت به غفرت لك ذنوبك. قال: زدنى. قال: جعلته قبلة لك ولأولادك، قال: يارب زدنى. قال: أغفر لكل من استغفرنى من الطائفين به من أهل التوحيد من أولادك. قال: يارب حسبى. وفى الحديث: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة». وقيل للحسن: ما الحج المبرور؟ قال: أن ترجع زاهداً فى الدنيا راغباً فى الآخرة.

وأول من كسا الكعبة الديباج عبد الله بن الزبير، وكانت كسوتها المسوح والإنطاع وكان يطيبها حتى يوجد ريحها من خارج الحرم. وكان حكيم بن حزام يقيم عشية عرفة مائة بدنة ومائة رقبة، فيعتق الرقاب عشية عرفة وينحر البدن يوم النحر، وكان يطوف بالبيت فيقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، نعم الرب ونعم الإله أحبه وأخشاه.

وروى الحسن بن على رضى الله عنهما يطوف بالبيت، ثم صار إلى المقام فصلى ركعتين، ثم وضع خده على المقام فجعل يبكى ويقول: عبيدك ببابك خويدمك ببابك سائلك ببابك مسيكنك ببابك. يردد ذلك مراراً ثم انصرف رضى الله عنه، فمر بمساكين معهم فلق خبز يأكلون، فسلم عليهم فدعوه إلى الطعام، فجلس معهم، وقال: لولا أنه صدقة لأكلت معكم. ثم قال: قوموا بنا إلى منزلى. فتوجهوا معه، فأطعمهم وكساهم وأمر لهم بدراهم.

وحج عبد الله بن جعفر رضى الله عنه ومعه ثلاثون راحلة وهو يمشى على رجله حتى وقف بعرفات فأعتق ثلاثين مملوكاً وحملهم على ثلاثين راحلة وأمر لهم بثلاثين ألفاً، وقال: أعتقهم لله تعالى لعله يعتقنى من النار. وقال الحسن بن على رضى الله عنهما: إني لأستحى من ربي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته، فمشى من المدينة إلى مكة عشرين مرة.

ومن لطيف ما أنشد عمرو بن حبان الضرير حين لم يهد إليه الحجاج شيئاً:

كأن الحجيج الآن لم يقربوا منى ولم يحملوا منها سواكاً ولا نعلا
أتونا فما جادوا بعود أراكه ولا وضعوا فى كف طفل لنا نقلا

وقال غيره:

يحجون بالمال الذى يجمعونه حراماً إلى البيت العتيق المحرم
ويزعم كل منهم أن وزره يحط ولكن فوقه فى جهنم

(١) جميلة الموصلية: هى جميلة بنت ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان صاحب الموصل إحدى شهيرات النساء فى الكرم والعقل والجمال، لم تزوج أنفة أن يتحكم بها الزوج، وحجت وكان معها أربع مائة جارية، ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار، وألقيت فى دجلة فماتت غرقاً سنة (٣٧١هـ - ٩٨١م).

وقال آخر:

حجّ في الدهر حـجـجـة	حجّ فيها وأحرمها
وأنا من الحجـجـا	ر كما راح مسحـرـما
فهو ذو الحجـجـة الذي	ما توقى مُحـرـمـا

وتخاصم بدوى مع حاج عند منصرف الناس فقبل له: أتخاصم رجلاً من الحجاج فقال:

يحجّ لكيما يغفر الله ذنبه	ويرجع قد حطت عليه ذنوب
---------------------------	------------------------

وقال أبو الشمقمق:

إذا حجـجـت بمال أصله دنس	فما حجـت ولكن حجـت العير
ما يقبل الله إلا كل طيبة	ما كل من حج بيت الله مبرور

والله سبحانه وتعالى أعلم.

فى العقل والذكاء والحق وذمه وغير ذلك

نص الله سبحانه وتعالى فى محكم كتابه العزيز ومنزل خطابه الوجيه على شرف العقل، وقد ضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال وأوضحها، وبين بدائع مصنوعاته وشرحها، فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]، وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له: اقبل، فأقبل ثم قال له: ادبر، فأدبر، فقال عز من قائل: وعزتى وجلالى ما خلقت خلقاً أعز على منك، بك آخذ وبك أعطى وبك أحاسب وبك أعاقب»، وقال أهل المعرفة والعلم: العقل جوهر مضمّن خلقه الله عز وجل فى الدماغ، وجعل نوره فى القلب يدرك به المعلومات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة.

واعلم أن العقل ينقسم إلى قسمين: قسم لا يقبل الزيادة والنقصان، وقسم يقبلهما، فأما الأول فهو العقل الغريزى المشترك بين العقلاء، وأما الثانى فهو العقل التجريبي وهو مكتسب، وتحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع، وباعتبار هذه الحالة يقال إن الشيخ أكمل عقلاً وأتم دراية، وإن صاحب التجارب أكثر فهماً وأرجح معرفة، ولهذا قيل: من بيضت الحوادث سواد لثته، وأخلقت التجارب لباس جدته، وأراه الله تعالى لكثرة ممارسته، تصاريف أقداره وأقصيته، كان جديراً برزاة العقل ورجاحة الدراية، وقد يخصص الله تعالى بالطفاه الخفية من يشاء من عباده، فيفيض عليه من خزائن مواهبه رزاة عقل وزيادة معرفة تخرجه عن حد الاكتساب ويصير بها راجحاً على ذوى التجارب والآداب، ويدل على ذلك قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام فيما أخبر الله تعالى فى محكم كتابه العزيز حيث يقول: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْعُكُمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] فمن سبقت له سابقة من الله تعالى فى قسم السعادة، وأدركته عناية أزية، أشرقت على باطنه أنوار ملكوتية وهداية ربانية، فاتصف بالذكاء والفتنة قلبه، وأسفر عن وجه الإصابة ظنه، وإن كان حديث السن قليل التجربة، كما نقل فى قصة سليمان بن داود عليهما السلام وهو صبي حيث رد حكم أبيه داود عليه السلام فى أمر الغنم والحرث.

وشرح ذلك فيما نقله المفسرون أن رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما صاحب غنم، والآخر صاحب حرث فقال أحدهما: إن هذا دخلت غنمه بالليل إلى حرثى فأهلكته وأكلته ولم تبق لى فيه شيئاً، فقال داود عليه السلام: الغنم لصاحب الحرث عوضاً عن حرثه، فلما خرجا من عنده مرا على سليمان عليه السلام، وكان عمره إذ ذاك على ما نقله أئمة التفسير إحدى عشرة سنة، فقال لهما: ما حكم بينكما الملك؟ فذكرا له ذلك، فقال: غير هذا أرفق بالفريقين، فعادا إلى داود عليه السلام وقالوا له ما قاله ولده سليمان عليه السلام فدعاه داود عليه السلام وقال له: ما هو الأرفق بالفريقين؟ فقال سليمان: تسلم الغنم إلى صاحب الحرث - وكان الحرث كرمياً قد تدلت عناقيده فى قول أكثر المفسرين - فيأخذ صاحب الكرم الأغنام يأكل لبنها ويتنفع بدها ونسلها، ويسلم الكرم إلى صاحب الأغنام ليقوم به، فإذا عاد الكرم إلى هيئته وصورته التى كان عليها ليلة دخلت الغنم إليه سلم صاحب الكرم الغنم إلى صاحبها وتسلم كرمه كما كان بعناقيده وصورته، فقال له داود: القضاء كما قلت، وحكم به كما قال سليمان عليه السلام، وفى هذه القصة نزل قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [ص: ٧٨] فههناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعِلْماً [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]، فهذه المعرفة والدراية لم تحصل لسليمان بكثرة التجربة وطول المدة، بل حصلت بعناية ربانية والطف إلهية، وإذا قذف الله تعالى شيئاً من أنوار مواهبه فى قلب من يشاء من خلقه اهتدى إلى مواقع الصواب، ورجح على ذوى التجارب والاكتساب فى كثير من الأسباب، ويستدل على حصول كمال العقل فى الرجل بما يوجد منه وما يصدر عنه، فإن العقل معنى لا يمكن مشاهدته، فإن المشاهدة من خصائص الأجسام، فأقول: يستدل على عقل الرجل بأمور متعددة منها: ميله إلى محاسن الأخلاق وإعراضه عن رذائل الأعمال، ورغبته فى إسداء صنائع المعروف وتجنبه ما يكسبه عاراً ويورثه سوء السمعة، وقد قيل لبعض الحكماء: بم يعرف عقل الرجل؟ فقال: بقله سقطه

فى الكلام، وكثرة إصابته فيه، فقيل له: فإن كان غائباً، فقال: بإحدى ثلاث إما برسوله وإما بكتابه وإما بهديته، فإن رسوله قائم مقام نفسه، وكتابه يصف نطق لسانه، وهديته عنوان همته، فبقدر ما يكون فيها من نقص يحكم به على صاحبها، وقيل: من أكبر الأشياء شهادة على عقل الرجل حسن مداراته للناس، ويكفى أن حسن المداراة يشهد لصاحبه بتوفيق الله تعالى إياه، فإنه روى عن النبي ﷺ أنه قال: «من حرم مداراة الناس فقد حرم التوفيق» فمقتضاه أن من رزق المداراة لم يحرم التوفيق، وقالوا: العاقل الذى يحسن المداراة مع أهل زمانه، وقال رسول الله ﷺ: «الجنة مائة درجة تسعة وتسعون منها لأهل العقل وواحدة لسائر الناس»، وقال على بن عبيدة: العقل ملك والخصال رعية، فإذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل إليها، فسمعه أعرابى فقال: هذا كلام يقطر عسله، وقيل: بأيدى العقول تمسك أعنة النفوس، وكل شئ إذا كثر رخص إلا العقل فإنه كلما كثر غلا، وقيل: لكل شئ غاية وحد، والعقل لا غاية له ولا حد، ولكن الناس يتفاوتون فيه تفاوت الأزهار فى المروج، واختلف الحكماء فى ماهيته فقال قوم: هو نور وضعه الله طبعاً وغمزة فى القلب كالنور فى العين، وهو يزيد وينقص ويذهب ويعود وكما يدرك بالبصر شواهد الأمور كذلك يدرك بنور القلب المحجوب والمستور، وعمى القلب كعمى البصر، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقيل محل العقل الدماغ وهو قول أبو حنيفة رحمه الله تعالى، وذهب جماعة إلى أنه فى القلب كما روى عن الشافعى رحمه الله تعالى واستدلوا بقوله تعالى: ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]، وبقوله تعالى: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، أى عقل، وقالوا: التجربة مرآة العقل، ولذلك حمدت آراء المشايخ حتى قالوا: المشايخ أشجار الوقار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم فهم وعليكم بآراء الشيوخ فإنهم إن عدموا ذكاء الطبع فقد أفادتهم الأيام حيلة وتجربة، قال الشاعر:

ألم تر أن العقل زين لأهله ولكن تمام العقل طول التجارب

وقال آخر:

إذا طال عمر المرء فى غير آفة أفادت له الأيام فى كرها عقلاً

وقال عامر بن عبد قيس: إذا عَقَلَكَ عَقْلُكَ عما لا يعينك فأنت عاقل، ويقال: لا شرف إلا شرف العقل ولا غنى إلا غنى النفس، وقيل: يعيش العاقل بعقله حيث كان كما يعيش الأسد بقوته حيث كان، قال الشاعر:

إذا لم يكن للمرء عقل فإنه وإن كان ذا بيت على الناس هين

ومن كان ذا عقل أجل لعقله وأفضل عقل عقل من يتدين

وقالوا: العاقل لا تبطره المنزلة السنية، كالجبل لا يتزعزع وإن اشتدت عليه الرياح، والجاهل تبطره أدنى منزلة كالخشيش يحركه أدنى ريح، وقيل لعلى رضى الله عنه: صف لنا العاقل؟ قال: هو الذى يضع الشئ مواضعه، قيل: فصف لنا الجاهل؟ قال: قد فعلت، يعنى الذى لا يضع الشئ مواضعه، وقال المنصور لولده: خذ عنى ثنتين: لا تقل من غير تفكير ولا تعمل بغير تدبير، وقال أردشير: أربعة تحتاج إلى أربعة: الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقرباة إلى المودة، والعقل إلى التجربة، وقال كسرى أنوشروان: أربعة تؤدى إلى أربعة: العقل إلى الرياسة، والرأى إلى السياسة، والعلم إلى التصدير، والحلم إلى التوقير، وقال القاسم بن محمد: من لم يكن عقله أغلب الخصال عليه كان حثفه من أغلب الخصال عليه، وقيل أفضل العقل معرفة العاقل بنفسه، وقيل: ثلاثة هن رأس العقل: مداراة الناس، والاقتصاد فى المعيشة، والتعجب إلى الناس، وقيل: من أعجب برأى نفسه بطل رأيه، ومن ترك الاستماع من ذوى العقول مات عقله، وعن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه أنه قال: أهل مصر أعقل الناس صغاراً، وأرحمهم كباراً، وقيل: العاقل المحروم خير من الأحمق المزدوق، وقيل: لا ينبغي للعاقل أن يمدح امرأة حتى تموت، ولا طعاماً حتى يستمره، ولا يثق بخليل حتى يستقرضه، وقيل: طول اللحية أمان من العقل، وسئل بعضهم: أيما أحمد فى الصبا الحياء أم الخوف؟ قال: الحياء لأن الحياء يدل على العقل، والخوف يدل على الجبن، وقيل: غضب العاقل على فعله

وغضب الجاهل على قوله، وقال أبو الدرداء^(١) رضى الله تعالى عنه: قال لى رسول الله ﷺ: «يا عويمر اردد عقلا تزد من الله تعالى قرباً»، قلت: بأبى وأمى ومن لى بالعقل؟ قال: «اجتنب محارم الله تعالى وأد فرائض الله تعالى تكن عاقلاً، ثم تنقل إلى صالح الأعمال تزد فى الدنيا عقلاً، وتزد من الله قرباً وعزاً»، وحكى بعض أهل المعرفة قال: حياة النفس بالروح، وحياة الروح بالذكر، وحياة القلب بالعقل، وحياة العقل بالعلم، ويروى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه كان ينشد هذه الأبيات ويترنم بها:

إن المكارم أخلاق مطهرة	فالعقل أولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها	والجود خامسها والعرف سادها
والبر سابعها والصبر ثامنها	والشكر تاسعها واللين عاشيها
والعين تعلم من عيني محدثها	إن كان من حزبه أو من أعاديها
والنفس تعلم أنى لا أصدقها	ولست أرشد إلا حين أعصيها

وقال بعض الحكماء: العاقل من عقله فى إرشاد، ورأيه فى إمداد، فقوله سديد، وفعله حميد، والجاهل من جهله فى إغراء، فقوله سقيم، وفعله ذميم، ولا يكتفى فى الدلالة على عقل الرجل الاغترار بحسن ملبسه وملاحة سمته وتسريح لحيته وكثرة صلفته ونظافة بزته، إذ كم من كنيف مبيض، وجلد مفضض، وقد قال الأصمعى^(٢): رأيت بالبصرة شيخاً له منظر حسن وعليه ثياب فاخرة، وحوله حاشية وهرج، وعنده دخل وخرج، فأردت أن أختبر عقله، فسلمت عليه وقلت: ما كنية سيدنا؟ فقال: أبو عبد الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، قال الأصمعى: فضحكت منه وعلمت قلة عقله وكثرة جهله، ولم يدفع ذلك عنه غزارة خرجته ودخله، وقد يكون الرجل موسوماً بالعقل مرموقاً بعين الفضل، فيصدر منه حالة تكشف عن حقيقة حاله وتشهد عليه بقله عقله واختلاله، وقيل: إن إياس بن معاوية القاضى كان من أكابر العقلاء، وكان عقله يهديه إلى سلوك طرق لا يكاد يسلكها من لم يهتد، فكان من جملة الوقائع التى صدرت منه وشهدت له بالعقل الراجح والفكر القادح أنه كان فى زمانه رجل مشهور بين الناس بالأمانة، فاتفق أن رجلاً أراد أن يحج، فأودع عند ذلك الرجل الأمين كيساً فيه جملة من الذهب، ثم حج فلما عاد من حجه جاء إلى ذلك الرجل وطلب كيسه منه فأنكره وجحدته، فجاء إلى القاضى إياس وقص عليه القصة، فقال القاضى: هل أخبرتك بذلك أحداً غيرى؟ قال: لا، قال: فهل علم الرجل أنك أتيت إلى؟ قال: لا، قال: انصرف واكتم أمرك ثم عد إلى بعد غد، فانصرف ثم إن القاضى دعا ذلك الرجل المستودع فقال له: قد حصل عندى أموال كثيرة ورأيت أن أودعها عندك فاذهب وهين لها موضعاً حصيناً، فمضى ذلك الرجل وحضر صاحب الوديعة بعد ذهاب الرجل، فقال له القاضى إياس: امض إلى خصمك واطلب منه وديعتك، فإن جحدك فقل له امض معى إلى القاضى إياس أتحاكم أنا وأنت عنده، فلما جاء إليه دفع إليه وديعته فجاء إلى القاضى وأعلمه بذلك، ثم إن ذلك الرجل المستودع جاء إلى القاضى طامعاً فى تسليم المال، فسبه القاضى وطرده، وكانت هذه الواقعة مما تدل على عقله وصحة فكره. ولما مات بعض الخلفاء اختلفت الروم واجتمعت ملوكها فقال: الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض، فتمكنا الغرة منهم والوثبة عليهم، وعقدوا لذلك المشورات، وتراجعوا فيه بالمناظرات، وأجمعوا على أنه فرصة الدهر، وكان رجل منهم من ذوى العقل والمعرفة والرأى غائباً عنهم، فقالوا: من الحزم عرض الرأى عليه، فلما أخبروه بما أجمعوا عليه قال: لا أرى ذلك صواباً، فسألوه عن

(١) أبو الدرداء: هو عمير بن مالك بن قيس بن أمية الأنصارى الخزرجى، أبو الدرداء، صحابى من الحكماء الفرسان القضاة، كان قبل البعثة تاجراً بالمدينة، ثم انقطع للعبادة، ولما ظهر الإسلام اشتهر بالشجاعة والنسك، وهو أحد الذين جمعوا القرآن حفظاً، على عهد النبى ﷺ روى عنه أهل الحديث (١٧٩) حديثاً، توفى بالشام سنة (٣٢هـ - ٦٥٢م). انظر «الإصابة فى تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانى (٤٥/٣، ٤٦).

(٢) الأصمعى: هو عبد الله بن قُريب بن على بن أصمع الباهلى، أبو سعيد الأصمعى، راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان، نسبته إلى جدّه أصمع، كان كثير التطواف بالبوادي، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها، ويتحف بها الخلفاء، قال الاخفش: ما رأينا أحداً أعلم بالشعر من الاصمعى، وكان الاصمعى يقول: أحفظ عشرة آلاف أرجوزة، تصانيفه كثيرة: «الإبل» و«الأضداد» ولد بالبصرة وتوفى فيها سنة (٢١٦هـ - ٨٣١م).

علة ذلك فقال: في غد أخبركم إن شاء الله تعالى، فلما أصبحوا أتوا إليه وقالوا: قد وعدتنا أن نخبرنا في هذا اليوم بما عولنا عليه، فقال: سمعاً وطاعة، وأمر بإحضار كليين عظيمين كان قد أعدهما، ثم حرض بينهما وحرص كل واحد منهما على الآخر، فتواثبا وتهاشبا حتى سالت دماؤهما، فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنده وأرسل على الكليين ذنباً كان قد أعد له لذلك، فلما أبصراه تركا ما كانا عليه وتألفت قلوبهما ووثبا جميعاً على الذئب فقتلاه، فأقبل الرجل على أهل الجمع فقال: مثلكم مع المسلمين مثل هذا الذئب مع الكلاب، لا يزال الهرج بين المسلمين مالم يظهر لهم عدو من غيرهم، فإذا ظهر تركوا العداوة بينهم وتألفوا على العدو فاستحسنوا قوله واستصوبوا رأيه فهذه صفة العقلاء.

وأما ذم الأحمق: فقد قال ابن الأعرابي: الحماققة مأخوذة من حمقت السوق إذا كسدت فكأنه كاسد العقل والرأى، فلا يشاور ولا يلتفت إليه في أمر من الأمور، والحمق غريزة لا تنفع فيها الحيلة وهو داء دواؤه الموت، قال الشاعر:

لكل داء دواء يستطب به
إلا الحماققة أعيت من يداويها

والحمق مذموم، قال رسول الله ﷺ: «الأحمق أبغض الخلق إلى الله تعالى إذ حرمه أعز الأشياء عليه وهو العقل»، ويستدل على صفة الأحمق من حيث الصورة بطول اللحية لأن مخرجها من الدماغ، فمن أفرط طول لحيته قل دماغه، ومن قل دماغه قل عقله، ومن قل عقله فهو أحمق، وأما صفته من حيث الأفعال فترك نظره في العواقب وثقته بمن لا يعرفه، والعجب وكثرة الكلام وسرعة الجواب، وكثرة الالتفات والخلو من العلم، والعجلة والخفة والسفه والظلم والغفلة والسهو والخيلاء، إن استغنى بطن وإن افتقر قنط، وإن قال أفحش، وإن سئل بخل، وإن سأل ألح، وإن قال لم يحسن، وإن قيل له لم يفقه، وإن ضحك قهقهه، وإن بكى صرخ، وإن اعتبرنا هذه الخلال وجدناها في كثير من الناس، فلا يكاد يعرف العاقل من الأحمق، قال عيسى عليه السلام: «عالجت الأبرص والأكمه فأبرأتهم، وعالجت الأحمق فأعيانى» والسكوت عند الأحمق جوابه، ونظر بعض الحكماء إلى أحمق على حجر فقال: حجر على حجر.

وحكى أن أحمقين اصطحباً في طريق، فقال أحدهما للآخر: تعال نتمن على الله فإن الطريق تقطع بالحديث، فقال أحدهما: أنا أتمنى قطائع غنم أنتفع بلبنها ولحمها وصوفها، وقال الآخر: أنا أتمنى قطائع ذئاب أرسلها على غنمك حتى لا تترك منها شيئاً، قال: ويحك أهذا من حق الصحبة وحرمة العشرة، فتصايحا وتخاصما، واشتدت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالأطواق، ثم تراضيا على أن أول من يطلع عليهما يكون حكماً بينهما، فطلع عليهما شيخ بحمار عليه زقان من عسل، فحدثاه بحدثهما، فترل بالزقين وفتحهما حتى سال العسل على التراب، ثم قال: صب الله دمي مثل هذا العسل إن لم تكونا أحمقين.

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: كان رجل يتعبد في صومعة فأمطرت السماء، وأعشبت الأرض، فرأى حماره يرعى في ذلك العشب فقال: يارب لو كان لك حمار لرعيت مع حمارى هذا، فبلغ ذلك بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهم أن يدعو عليه، فأوحى الله إليه: لا تدع عليه فإنى أجازى العباد على قدر عقولهم، ويقال فلان ذو حمق وافر وعقل نافر ليس معه من العقل إلا ما يوجب حجة الله عليه، وخطب سهل هند ابنة عتبة فحمقته فقال:

وما هو جى يا هند إلا سـجـيـةٌ
أجر لها ذيل بحسن الخـلائق
ولو شئت خادعت الفتى عن قـلـوصه
ولا طمت فى البطحاء من كل طارق

ويقال للأبله السليم القلب هو من بقر الجنة لا ينطح ولا يرمح، والأحمق المؤذى هو من بقر سقر والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى القرآن وفضله وحرمة وما أعد الله تعالى لقارئه

من الثواب العظيم والأجر الجسيم

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (١٧)﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]، وسمى الله تعالى القرآن كريماً فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧)﴾ [الواقعة: ٧٧]، وسماه حكيماً، فقال تعالى: ﴿يَسَّ (١) وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ (٢)﴾ [يس: ١، ٢]، وسماه مجيداً فقال تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ (١)﴾ [ق: ١]، أنزله الله تعالى على سيد الأنام وخاتم الأنبياء الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، فكان من أعظم معجزاته أن أعجز الله الفصحاء عن معارضته وعن الإتيان بآية من مثله، قال تعالى: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨)﴾ [الإسراء: ٨٨]، فهو النور المبين والحق المستبين لا شئ أسطع من أعلامه ولا أصدع من أحكامه ولا أفصح من بلاغته ولا أرجح من فصاحته ولا أكثر من إفادته ولا ألد من تلاوته، قال رسول الله ﷺ: «القرآن فيه خبر من قبلكم ونبا من بعدكم وحكم ما بينكم»، وقال أيضاً ﷺ: «أصغر البيوت بيت صفر من كتاب الله تعالى»، وقال الشعبي^(١): الذى يقرأ القرآن إنما يحدث عن ربه عز وجل، ووفد غالب بن صعصعة على على بن أبى طالب كرم الله وجهه، ومعه ابنه الفرزدق فقال له: من أنت؟ قال: غالب بن صعصعة، قال: ذو الإبل الكثيرة؟ قال: نعم، قال: فما فعلت بإبلك؟ قال: أذهبتها النواشب وزعزعتها الحقوق، قال: ذلك خير سبلها، ثم قال له: يا أبا الأخطل من هذا الذى معك؟ قال: ابنى وهو شاعر، قال: علمه القرآن فهو خير له من الشعر، فكان ذلك فى نفس الفرزدق حتى قيد نفسه وآلى على نفسه أن لا يحل قيده حتى يحفظ القرآن فحفظه فى سنة وفى ذلك قال:

وما صبّ رجلى فى حديد مجاشع مع القيسد إلا حاجة لى أريدها

وقال أنس رضى الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «يا بنى لا تغفل عن قراءة القرآن إذا أصبحت وإذا أمسيت، فإن القرآن يحى القلب الميت، وينهى عن الفحشاء والمنكر».

وحكى الزمخشري فى كتابه «ربيع الأبرار» قال: ومن حكايات الحشوية ما قيل إن إبراهيم الخواص مر بمصروع فأذن فى أذنه فناداه الشيطان من جوفه دعنى أقتله فإنه يقول القرآن مخلوق، وكان سفيان الثورى رحمه الله تعالى إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة، وأقبل على قراءة القرآن، وكان الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى إذا دخل شهر رمضان يفر من مذاكرة الحديث ومجالسة أهل العلم، ويقبل على القراءة فى المصحف، وكان أبو حنيفة والشعبي رحمهما الله تعالى يختمان فى رمضان ستين ختمة، وقال على رضى الله تعالى عنه: من قرأ القرآن فمات فدخل النار فهو ممن كان يتخذ آيات الله هزواً، وقال الشعبي: اللسان عدل على الأذن والقلب فاقراً قراءة تسمعها أذنك ويفهمها قلبك، وقال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظم الله»، وعنه ﷺ أنه قال: «إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد»، قيل يا رسول الله وما جلاؤها؟ قال: «قراءة القرآن وذكر الموت»، وقال عمر بن ميمون: من نشر مصحفاً حين يصلى الصبح فقرأ مائة آية رفع الله له مثل عمل جميع أهل الدنيا، وقال على كرم الله وجهه: من قرأ القرآن وهو قائم فى الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة، ومن قرأه وهو جالس فى الصلاة فله بكل

(١) الشعبي: هو عامر بن شراحيل بن عبد ذى كبار، الشعبي الحميرى، أبو عمرو، راوية، من التابعين، يضرب المثل بحفظه، سئل عما بلغ إليه حفظه، فقال: ما كتبت سوداء فى بيضاء، ولا حدثنى رجل بحديث إلا حفظته، وهو من رجال الحديث الثقات، كان فقيهاً، شاعراً. توفى بالكوفة سنة (١٠٣هـ - ٧٢١م).

حرف خمسون حسنة، ومن قرأه في غير الصلاة وهو على وضوء فخمسة وعشرون حسنة، ومن قرأه على غير وضوء فعشر حسنات، وقال ابن عباس رضى الله عنهما: لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلها وأتدبرهما أحب إلى من أن أقرأ القرآن كله هذرمة، وقال رسول الله ﷺ: «اقرأوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا»، وعن صالح المزنى قال: قرأت القرآن على رسول الله ﷺ في المنام فقال لى: «يا صالح هذه القراءة فأين البكاء؟» وكان عثمان رضى الله عنه يفتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة وليلة السبت بالأنعام إلى هود وليلة الأحد بيوسف إلى مريم وليلة الاثنين بطلح إلى طسم نبأ موسى وفرعون وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن ويختم ليلة الخميس، وعن رضى الله عنه: لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها، وكان عكرمة بن أبى جهل رضى الله تعالى عنه ولعن أباه، إذا نشر المصحف أغمى عليه ويقول: هو كلام ربى، وأبطأت عائشة رضى الله عنها على رسول الله ﷺ ليلة، فقال: «ما حبسك؟» قالت: قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتاً منه فقام فاستمع إليه طويلاً ثم قال: «هذا سالم مولى أبى حذيفة، الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثله»، وقال ابن عيينة، رأيت رسول الله ﷺ فى المنام فقلت يا رسول الله قد اختلفت على القراءات فعلى قراءة من تأمرنى فقال: «على قراءة أبى عمرو»، وعن أبى عمرو أنى لم أزل أطلب أن أقرأه كما قرأه رسول الله ﷺ وكما أنزل عليه فقدمت مكة فلقيت بها عدة من التابعين ممن قرأ على الصحابة رضى الله عنهم أجمعين، فقرأت عليهم فاشدد بها يدك، فينبغى للإنسان أن يحافظ على تلاوة القرآن ليلاً ونهاراً سافراً وحضراً.

وقال الشيخ محيى الدين النووى رحمه الله تعالى فى كتابه الأذكار: قد كان للسلف رضى الله عنهم عادات مختلفة فى القدر الذى يختمون فيه، فكانت جماعة منهم يختمون فى كل شهر ختمة وآخرون فى كل عشر ليال ختمة، وآخرون فى كل ثلاث ليال ختمة، وكان كثيرون فى كل يوم وليلة ختمة، وختم جماعة فى كل يوم وليلة ختمتين، وختم بعضهم فى اليوم والليلة ثمان ختمات، أربعاً فى الليل، وأربعاً فى النهار، وروى أن مجاهداً رحمه الله تعالى كان يختم القرآن فى شهر رمضان فيما بين المغرب والعشاء، وأما الذين ختموا القرآن فى ركعة فلا يحصون لكثرتهم، فمنهم عثمان بن عفان، وقيم الدارى، وسعيد بن جبير رضى الله تعالى عنهم، وروينا فى مسند الإمام المجمع على حفظه وجلاله وإتقانه وبراعته أبى محمد الدارمى رحمه الله، عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه، قال: إذا وافق ختم القرآن أول الليل، صلت عليه الملائكة حتى يصبح، وإذا وافق أول النهار، صلت عليه الملائكة حتى يمسي، قال الدارمى: هذا حديث حسن عن سعد، وأفضل القراءة ما كان فى الصلاة وأما فى غير الصلاة فأفضلها قراءة الليل، والنصف الأخير منه أفضل من الأول، والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة، وأما قراءة النهار فأفضلها بعد الصبح، ولا كراهة فى وقت من الأوقات، ولا فى أوقات النهى عن الصلاة، ويستحب الاجتماع عند الختم لحصول البركة، وقيل: إن الدعاء يستجاب عند ختم القرآن، وإن الرحمة تنزل عند ختمه، ويستحب الدعاء عقب الختم استحباباً مؤكداً تأكيداً شديداً، ويجب على القارئ الإخلاص فى قراءته، وأن يريد بها وجه الله تعالى وأن لا يقصد بها توصلاً إلى شئ سوى ذلك، وأن يتأدب مع القرآن ويستحضر فى ذهنه أنه يناجى ربه سبحانه وتعالى، ويتلو كتابه فيقرأ على حالة من يرى الله تعالى، فإنه إن لم يكن يراه فإن الله يراه، وينبغى للقارئ إذا أراد القراءة أن ينظف فمه بالسواك وأن يكون شأنه الخشوع والتدبر والخضوع فهذا هو المقصود والمطلوب وبه تشرح الصدور ويتيسر المرغوب، ودلائله أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر، وقد كان الواحد من السلف رضى الله عنهم يتلو آية واحدة ليلة كاملة يتدبرها، ويستحب البكاء والتباكى لمن لا يقدر على البكاء فإن البكاء عند القراءة صفة العارفين، وشعار عباد الله الصالحين، قال الله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)﴾ [الإسراء: ١٠٩]، وقال السيد الجليل صاحب الكرامات والمعارف والمواهب واللطائف إبراهيم الخواص رضى الله تعالى عنه: دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلو البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين، وقد جاءت آثار بفضيلة رفع الصوت بالقراءة، وآثار بفضيلة الإسرار، قال العلماء: إن أراد

القارئ بالأسرار بعد الرياء فهو أفضل في حق من يخاف ذلك، فإن لم يخف الرياء فالجهر أفضل بشرط أن لا يؤذى غيره، من مصل أو نائم أو غيرهما، والأحاديث في فضل القراءة وآداب حملة القرآن كثيرة غير محصورة، من أراد الزيادة فلينظر في كتاب التبيان في آداب حملة القرآن لشيخ مشايخ الإسلام محيي الدين النووي قدس الله روحه ونور ضريحه، وقد جاء في فضل القرآن أحاديث كثيرة، وروى في فضل قراءة سور من القرآن في اليوم واللييلة فضل كبير، منها يس، وتبارك الملك، والواقعة، والدخان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: من قرأ يس في يوم وليلة ابتغاء وجه الله تعالى غفر له، وفي رواية له، من قرأ سورة الدخان في ليلة أصبح مغفوراً له، وفي رواية عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة»، وعن جابر رضي الله عنه قال كان رسول الله ﷺ لا ينام كل ليلة حتى يقرأ ألم تنزيل الكتاب، وتبارك الملك، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: من قرأ في ليلة إذا زلزلت الأرض كانت له كعدل نصف القرآن، ومن قرأ قل يا أيها الكافرون كانت له كعدل ربع القرآن، ومن قرأ قل هو الله أحد كانت له كعدل الثلث، والأحاديث بنحو ما ذكرناه كثيرة وقد أشرنا إلى المقاصد منها، والله تعالى أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى العلم والأدب وفضل العالم والمتعلم

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١]، وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ودراسة تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه عبادة، وتعليمه صدقة، وبذله لأهله قرينة» لأنه معالم الحلال والحرام، وبيان سبيل الجنة، المؤنس فى الوحشة، والمحدث فى الخلوة، والجليس فى الوحدة، والصاحب فى الغربة، والدليل على السراء، والمعين على الضراء، والزين عند الأخلاء، والسلاح على الأعداء، بالعلم يبلغ العبد منازل الأخيار فى الدرجات العلى، ومجالسة الملوك فى الدنيا، ومرافقة الأبرار فى الآخرة، والفكر فى العلم يعدل الصيام، ومذاكرته تعدل القيام، وبالعلم توصل الأرحام وتفصل الأحكام، وبه يعرف الحلال والحرام، وبالعلم يعرف الله ويوحده، وبالعلم يطاع الله ويعبد.

قيل: العلم درك حقائق الأشياء مسموعاً ومعقولاً، وقال النبى ﷺ: «خير الدنيا والآخرة مع العلم وشر الدنيا والآخرة مع الجهل»، وعنه عليه الصلاة والسلام: «يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة فلا يفضل أحدهما على الآخر، ولغدوة فى طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة، ولا يخرج أحد فى طلب العلم إلا وملك موكل به، يشره بالجنة، ومن مات وميراثه المحابر والأقلام دخل الجنة»، وقال على كرم الله وجهه: أقل الناس قيمة أقلهم علماً، وقال أيضاً رضى الله عنه: العلم نهر والحكمة بحر والعلماء حول النهر يطوفون والحكماء وسط البحر يغوصون والعارفون فى سفن النجاة يسيرون، وقال موسى عليه السلام فى مناجاته: إلهى من أحب الناس إليك؟ قال: عالم يطلب علماً، وقال بعض السلف رضى الله عنهم: العلوم أربعة: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنجوم للأزمان، والنحو للسان، وقيل: العالم طيب هذه الأمة والدنيا داؤها، فإذا كان الطيب يطلب الداء فمتى يبرىء غيره.

وسئل الشعبى عن مسألة فقال: لا علم لى بها، فقل له: ألا تستحى؟ فقال: ولم أستحى مما لم تستح الملائكة منه حين قالت: لا علم لنا، وعن النبى ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل على أدناكم»، وروى: كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وقال على كرم الله وجهه: من نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، وقيل: مؤدب نفسه ومعلمها أحق بالإجلال من مؤدب الناس ومعلمهم، وأنشدوا:

هلا لنفسك كان ذا التعليم
كـيـمـا يصح به وأنت سقيم
أبدأ وأنت من الرشاد عديم
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
بالقول منك وينفع التعليم
عار عليك إذا فعلت عظيم

يا أيها الرجل المعلم غيره
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا
فأبدأ بنفسك فأنهها عن غيرها
فهناك يقبل ما تقول ويهتدى
لا تنه عن خلق وتأتى مثله

وقال بعضهم:

لا يطلبون العلم للعلم
وعادة للغش والظلم

إنى رأيت الناس فى عـصـرنا
إلا مـبـاهـاة لأصحابه

نظر رجل إلى امرأته وهي صاعدة في السلم، فقال لها: أنت طائق إن صعدت، وطائق إن نزلت، وطائق إن وقفت، فرمت نفسها إلى الأرض، فقال لها: فذاك أبى وأمى إن مات الإمام مالك احتاج إليك أهل المدينة في أحكامهم، وقال النبي ﷺ: «هالك أمتى في شيئين: ترك العلم وجمع المال»، وسئل رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال، فقال: «العلم بالله، والفقه في دينه»، وكررها عليه، فقال يا رسول الله: أسألك عن العمل، فتخبرني عن العلم، فقال: «إن العلم ينفعك معه قليل العمل، وإن الجهل لا ينفعك معه كثير العمل»، وقال عيسى عليه السلام: من علم وعمل عد في الملكوت الأعظم عظيماً.

وقال الخليل عليه السلام: العلوم أقفال والأسئلة مفاتيحها، وعنه عليه السلام: زلة العالم مضروب بها الطبل، وزلة الجاهل يخفيها الجهل، وقال الحسن: رأيت أقواماً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: من عمل بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه، والعامل بغير علم كالسائر على غير طريق، فاطلبوا العلم طلباً لا يضر بالعبادة، واطلبوا العبادة طلباً لا يضر بالعلم، وقال يزيد بن ميسرة: من أراد بعلمه وجه الله تعالى أقبل الله بوجهه ووجوه العباد إليه، ومن أراد بعلمه غير وجه الله صرف وجهه ووجوه العباد عنه، وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أخبركم بأجود الأجواد»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الله أجود الأجواد، وأنا أجود ولد آدم، وأجود من بعدى رجل علم علماً فنشره، يبعث يوم القيامة أمة وحده، ورجل جاد بنفسه في سبيل الله حتى قتل»، وقال الثوري: كان يقال: العالم الفاجر فتنة لكل مفتون، وعن الفضيل رحمه الله تعالى أنه قال: لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وأعزوا هذا العلم وصانوه وأنزلوه حيث أنزله الله إذا خضعت لهم رقاب الجبابرة وانقاد لهم الناس، وكانوا لهم تبعاً، ولكنهم أذلوا أنفسهم وبذلوا علمهم لأبناء الدنيا فهانوا وذلوا، فإننا لله وإنا إليه راجعون، فاعظم بها مصيبة والله أعلم، وللقاضى العلامة أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجاني^(١) وقد أحسن كل الإحسان كأنما طرزت في خلع حسان:

بدا طمع صيرته لى سلماً
لأخذ من لاقيت لكن لأخدم
إذا فأتباع الجهل قد كان أسلم
كبا حين لم نحرس من حماء وأظلم
ولو عظموه في النفوس لعظم
محياء بالأطماع حتى تجهما

ولم أقض حق العلم إن كنت كلماً
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي
أشقى به غرساً وأجنيه ذلة
فإن قلت زند العلم كتاب فإنما
لو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا

وقيل: من لم يتعلم في صغره لم يتقدم في كبره، وقال الفضيل: شر العلماء من يجالس الأمراء، وخير الأمراء من يجالس العلماء، وقال لقمان: جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فإن الله يحيى القلوب بنور الحكمة كما يحيى الأرض بماء السماء، قيل: من عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار، وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا رأى طالبى العلم قال: مرحباً بكم ينابيع الحكمة ومصابيح الظلمة، خلقتان الثياب جدد القلوب، رياحين كل قبيلة، وقال على رضي الله عنه: كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه من لا يحسنه، ويفرح به إذا نسب إليه، وكفى بالجهل ضعة أن يتبرأ منه من هو فيه ويغضب إذا نسب إليه، وعن النبي ﷺ: «ما أتى الله أحداً علماً إلا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه أحداً»، ودعا بعضهم لآخر فقال: جعلك الله ممن يطلب العلم رعاية لا رواية، ومن يظهر حقيقة ما يعلمه بما يعمل، وعن عمر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «على باب الجنة شجرة تحمل ثماراً كئدى النساء، يخرج من تحتها عين ماء يشرب منها العلماء والمتعلمون مثل اللبن الحليب، والناس عطاش، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: من تعلم باباً من العلم ليعلمه الناس ابتغاء وجه

(١) الجرجاني: هو على بن عبد العزيز بن الحسن الجرجاني، أبو الحسن، قاضى من العلماء بالأدب، كثير الرحلات له شعر حسن، ولد بجرجان وولى قضاءها ثم قضاء الرى، فقضاء القضاة، وله «تفسير القرآن» و«تهذيب التاريخ» و«ديوان الشعر» توفى بنيسابور سنة (٣٩٢هـ - ١٠٠٢م).

الله أعطاه الله أجر سبعين نبياً، وعن أنس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ: «ويل لأمتي من علماء السوء، يتخذون العلم تجارة يبيعونها لا أربح الله تجارتهم».

شعر:

العلم أنفس شئ أنت داخـره
من يدرس العلم لم تدرس مـفاخره
أقبل على العلم واستقبل مقاصده
فأول العلم إقبال وآخره

قال الشعبي: دخلت على الحجاج حين قدم العراق، فسألني عن اسمي، فأخبرته، ثم قال: يا شعبي: كيف علمك بكتاب الله؟ قلت: عني يؤخذ، قال: كيف علمك بالفرائض؟ قلت: إلى فيها المتهى، قال: كيف علمك بأنساب الناس؟ قلت: أنا الفيصل فيها، قال: كيف علمك بالشعر؟ قلت: أنا ديوانه، قال: لله أبوك، وفرض لى أموالاً، وسودنى على قومي، فدخلت عليه وأنا صعلوك من صعاليك همدان، وخرجت وأنا سيدهم. قال البستي^(١):

إذا لم يزد علم الفتى قلبه هدى
وسيرته عدلاً وأخلاقه حسناً
فبشـره أن الله أولاه فـتنة
تغشيه حرماناً وتوسعه حزناً

وقال الهيثم بن جميل: شهدت مالك بن أنس رضى الله عنه، سئل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال فى اثنتين وثلاثين منها لا أدري، وقال الأوزاعي: شكت النواويس إلى الله تعالى ما تجد من نتن ريح الكفار، فأوحى الله إليها بطون علماء السوء أنتن مما أنتن فيه، وقال على رضى الله عنه: من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض، ولصالح اللخمي:

تعلم إذا ما كنت لست بعالم
فما العلم إلا عند أهل التعلم
تعلم فإن العلم أزين للفتى
من الحلة الحسناء عند التكلم

ودخل عبد الله بن مسلم الهذلي على المهدي فى القراء فأخذ عشرة آلاف درهم، ثم دخل فى الرماة، فأخذ عشرة آلاف درهم، ثم دخل فى المغنين فأخذ كذلك، ثم دخل فى القصاص فأخذ كذلك، فقال المهدي: لم أر كاليوم أجمع لما يجمع الله فى أحد منك، وملّ جماعة من الحكماء مجالسة رجل فتواروا عنه فى بيت فرقى السطح، وجعل يستمع من كوة، حتى وقع عليه الثلج، فصبر، فشكر الله ذلك، فجعله إمام الحكماء لا يختلفون فى شئ إلا صدروا عن رأيه، وشكا رجل إلى وكيع بن الجراح سوء الحفظ، فقال له: استعن على الحفظ بترك المعاصي، فأنشأ يقول:

شكوت إلى وكيع سوء حـفظى
فأرشدنى إلى ترك المعاصى
وذلك أن حـفظ العلم فـضل
وفـضل الله لا يؤتى لـعاصى

ووجد فى بعض الآثار عن بعضهم أنه قال: إذا أردت أن تكون أحفظ الناس فقل عند رفع الكتاب أو المصحف أو ابتداء القراءة فى كل شئ أردت، بسم الله وسبحان الله، ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، عدد كل حرف كتب ويكتب أبد الأبدین، ودهر الدهرين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) البُستى: هو على بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البستى، أبو الفتح، شاعر عصره وكاتبه، ولد فى بست (قرب سجستان) وإليها نسبته، له: «ديوان شعر» صغير فيه بعض شعره، وفى كتب الأدب كثير من نظمه غير مدون. توفى فى بلدة أوزجند سنة (٤٠٠هـ). (١٠١٠م).

قيل: وإذا أردت أن لا تنسى حرفاً فقل قبل القراءة: اللهم افتح علينا حكمتك، وانشر علينا رحمتك يا ذا الجلال والإكرام، وإذا أردت أن ترزق الحفظ فقل خلف كل صلاة مكتوبة: آمنت بالله الواحد الأحد الحق لا شريك له وكفرت بما سواه.

ومن فوائد سيدى الشيخ صالح شهاب الدين أحمد بن موسى بن عجيل رحمه الله تعالى فى الحفظ يقرأ فى كل يوم عشر مرات ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا آتَيْنَا حَكَمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩] إلى قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾، يا حى يا قيوم يارب موسى وهارون، ويارب إبراهيم، ويارب محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام، ألزمنى الفهم وارزقنى العلم والحكمة والعقل، برحمتك يا أرحم الراحمين، وعن أبى يوسف قال: مات لى ولد فأمرت من يتولى دفنه ولم أدع مجلس أبى حنيفة خوفاً أن يفوتنى منه يوم. وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة: ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بالحديث، ولا أحفظ له من محمد بن إسماعيل البخارى حتى كان يقال: إن حديثاً لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث، وقال البخارى رحمه الله تعالى: أحفظ مائة ألف حديث صحيح، ومائتى ألف حديث غير صحيح، وقال ما وضعت فى كتابى الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين، وقال: أخرجته من ستمائة ألف حديث، وصنفته فى ست عشرة سنة، وجعلته حجة فيما بينى وبين الله تعالى، وقال مجاهد: أتينا عمر بن عبد العزيز لنعلمه، فما برحنا حتى تعلمنا منه، وكان يقال الليث بن سعد^(١) رحمه الله تعالى ذهب علمه كله بموته، ولهذا قال الشافعى لما قدم مصر بعد موته: والله لأنت أعلم من مالك وإنما أصحابك ضيعوك، وقال الليث بن سعد: ما هلك عالم قط إلا ذهب ثلثا علمه ولو حرص الناس، ويقال: إذا سئل العالم فلا تجب أنت، فإن ذلك استخفاف بالسائل والمستول، وقالوا: من خدم المحابر خدمته المنابر.

شعر:

لا تدخـر غـيـر العـلو م فـإنـهـا نـعم الذـخـائر
فـالمـرء لـو رـيـح البـقـا ع مع الجـهـالة كـان خـاسـر

وللشافعى رضى الله تعالى عنه شعر:

أخـى لـن تـنـال العـلم إلـا بـسـتـة سـأـبـيـك عـن تـفـصـيـلـهـا بـيـان
ذـكـاء و حـرـص و اجـتـهـاد و بـلـغـة و صـحـبـة أـسـتـاذ و طـول زـمـان

وقال الزهرى^(٢): العلماء أربعة، سعيد بن المسيب بالمدينة، وعامر الشعبى بالكوفة، والحسن البصرى بالبصرة، ومكحول بالشام، وقال بعضهم: العلماء سرج الأزمنة كل عالم سراج زمانه يستضيء به أهل عصره، وقيل لإبراهيم بن عيينة: أى الناس أطول ندامة؟ قال: أما فى الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره، وأما فى الآخرة فعالم مفرط.

شعر:

كـن عـالمـاً وارض بـصـف النـعـال و لا تـكـن صـدراً بـغـيـر الكـمـال
فـإن تـصـدـرت بـلا آـلة صـيـرت ذاك الصـدر صـف النـعـال

وقيل: لما اجتمع موسى بالخضر عليهما السلام، جاء عصفور فأخذ بمنقاره من البحر قطرة ثم حط على ورك الخضر، ثم طار فتظر الخضر إلى موسى عليه السلام، وقال: يا نبى الله إن هذا العصفور يقول يا موسى أنت على علم من علم

(١) الليث بن سعد: هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن، أبو الحارث القهفى، عالم الديار المصرية.

(٢) الزهرى: هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهرى، من بنى زهرة بن كلاب، من قريش، أبو بكر، أول من دون الحديث، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء، تابعى، من أهل المدينة، كان يحفظ ألفين ومئتين حديث، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: عليكم بآبى شهاب فإنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه. توفى رحمه الله بشعب سنة (١٢٤هـ - ٧٤٢م).

الله علمكه الله لا يعلمه الخضر، والخضر على علم من علم الله علمه إياه لا تعلمه أنت، وأنا على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه أنت ولا الخضر، وما علمى وعلمك وعلم الخضر فى علم الله إلا كهذه القطرة من هذا البحر، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: خلق الله تعالى أربعين ألف عالم، الإنس والجن عالمان، والبواقي لا يعلمها إلا هو، وقال موسى عليه السلام: يارب قد قلت للسموات والأرض اتنيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين، فلو لم تطعك السموات والأرض ماذا كنت فاعلاً بهما؟ قال: يا موسى كنت أمر دابة من دوابي أن تبتلعهما، قال موسى: يارب وأين تلك الدابة؟ قال: فى مرج من مروجي، قال موسى: يارب وأين ذلك المرج؟ قال: فى علم من علمى لا يعلمه إلا أنا، وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن فى فكرة، فقال: «فيم تفكرون؟ تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله، فإن الله خلق من جانب العرب أرضاً يقال لها البيضاء، تقطعها الشمس فى أربعين يوماً، فيها خلق ما عصوا الله طرفه عين»، فقال ابن عمر: يا رسول الله أين إبليس منهم؟ قال: «ما علموا بإبليس خلق أم لا»، قال: أمن بنى آدم؟ قال: «ما علموا بآدم خلق أم لا، فهذه كلها مما أعدها الله فى علم غيبه، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون»، وقال قتادة^(١): لو كان أحد منا مكتفياً من العلم لاكتفى نبي الله موسى عليه السلام إذ قال: هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً، وقال الحكماء أفضل العلم وقوف العالم عند علمه، وقال بعضهم: ليس العلم ما خزنته الدفاتر وإنما العلم ما خزنته الصدور، وقيل: العلم يؤدى إلى التصدير، وقيل: من تواضع للعلم ناله ومن لم يتواضع له لم ينله، وقيل: من برق علمه برق وجهه ومن لم يستفد بالعلم مالا اكتسب به جمالا، العلم نور وهدى، والجهل غى وردى، وقال بعضهم: العالم يعرف الجاهل، والجاهل لا يعرف العالم، لأن العالم كان جاهلاً، والجاهل لم يكن عالماً، وقيل: أربعة يسودون العبد: العلم والأدب والصدق والأمانة، وقيل: أهل العراق أطلب الناس للعلم، وقال حماد بن سلمة^(٢): مثل الذى يطلب الحديث ولا يعرف النحو كمثل الحمار عليه مخلاة لا شعير فيها، ولإبراهيم بن خلف المهرانى:

النحو يصلح من لسان الالكـ والمرء تكرمه إذا لم يلحن
وإذا طلبت من العلوم أجلها فأجلها منها مقيم الألسن

وقال على بن بشار:

رأيت لسان المرء آية عقله وعنوانه فـانظر بماذا تعنون
ولا تغدُ إصلاح اللسان فإنه يخبر عما عنده ويبين
ويعجبني زى الفتى وجماله فيسقط من عيني ساعة يلحن

ودخل أعرابي السوق فوجدهم يلحنون فقال: سبحان الله يلحنون ويربحون، وكلم أبو موسى بعض قواده فلحن، فقال: لم لا تنظر فى العربية؟ فقال: بلغنى أن من نظر فيها قل كلامه، فقال: ويحك لأن يقل كلامك بالصواب خير لك من أن يكثر كلامك بالخطأ، وكان يقال: مجالسة الجاهل مرض للعاقل، وقال أبو الأسود الدؤلى إذا أردت أن تعذب عالماً فاقرن به جاهلاً، وقال الشاعر:

(١) قتادة: هو قتادة بن دعامة بن قنادة بن عزيز، أبو الخطاب السدوسى البصرى، مفسر حافظ ضرير أكمه. قال الإمام أحمد بن حنبل: قتادة أحفظ أهل البصرة. وكان مع علمه بالحديث رأساً فى العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب. وكان يرى القدر، وقد يدلّس فى الحديث. مات بواسط فى الطاعون سنة (١١٨هـ - ٧٣٦م).

(٢) حماد بن سلمة: هو حماد بن سلمة بن دينار البصرى الربيعى بالولاء، أبو سلمة، مفتى البصرة، وأحد رجال الحديث، ومن النحاة، كان حافظاً ثقة مأموناً، إلا أنه لما كبر ساء حفظه، فتركه البخارى، وأما مسلم فاجتهد وأخذ من حديثه بعض ما سمع منه قبل تغيره. توفى رحمه الله سنة (١٦٧هـ - ٧٨٤م).

جهلت ولا تدري بأنك جاهل وممن لى بأن تدري بأنك لا تدري
وقال رجل للحسن أنا أفصح الناس: قال: لا تقل هذا، قال: فخذ على كلمة واحدة، قال: هذه واحدة، أبو جهل
كناه المسلمون بذلك وكانت قريش تكنيه أبا الحكم، فقال حسان رضى الله تعالى عنه:

الناس كنوه أبـــــا حكم والله كناه أبـــــا جهل

وأما ما جاء فى الأدب: فقد قال بعض الحكماء العقل يحتاج إلى مادة من الأدب كما تحتاج الأبدان إلى قوتها من
الطعام، وقال على كرم الله وجهه: الأدب كنز عند الحاجة عون على المروءة، صاحب فى المجلس أنيس فى الوحدة
تعمر به القلوب الواهية، وتحيا به الألباب الميتة، وينال به الطالبون ما حاولوا، وقيل: عقل بلا أدب كشجاع بلا سلاح.
وحكى أن رجلاً تكلم بين يدي المأمون فأحسن، فقال: ابن من أنت؟ قال: ابن الأدب يا أمير المؤمنين، قال: نعم
النسب انتسبت إليه، ولهذا قيل: المرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت، ومن حيث يوجد لا من حيث يولد، قال
الشاعر:

كن ابن من شئت واكتسب أدباً يغنيك محمودة عن النسب
إن الفستى من يقول ها أنا ذا ليس الفستى من يقول كان أبى

وقال بعض الحكماء: من كثر أدبه كثر شرفه وإن كان وضعياً، وبعد صيته وإن كان خاملاً، وساد وإن كان غريباً،
وكثرت حوائج الناس إليه وإن كان فقيراً، قال بعض الشعراء:

لكل شئ زينة فى الورى وزينة المرء تمام الأدب
قد يشرف المرء بأدابه فـينا وإن كان وضعيـع الأدب

وقال بعض الأعاجم مفتخراً:

مالي عقلى وهمتى حسبي ما أنا مولى وما أنا عربى
إذا انتسمى منتم إلى أحد فـاننى منتم إلى أدبى

وقيل: الفضل بالعقل والأدب لا بالأصل والحسب، وقيل: المرء بفضيلته وبكماله لا بجماله، وبأدابه لا بثيابه، وقيل
لرجل: من أدبك؟ قال: رأيت جهل الجهال قبيحاً فاجتنبته فتأدبت، ومن أدب ولده صغيراً سر به كبيراً، من عرف
الأدب اكتسب به المال والجاه، خير الخلال الأدب، وشر المقال الكذب، وقيل لسقراط ما الفرق بين من له أدب ومن لا
أدب له؟ قال: كالفرق بين الحيوان الناطق والحيوان الذى ليس بناطق، ودخل أبو العالية على ابن عباس رضى الله عنهما
فأقعده معه على السرير وأقعده رجلاً من قريش تحته، فرأى سوء نظرهم إليه وحموضة وجوههم، فقال: مالكم تنظرون
إلى نظر الشحيح إلى الغريم المفلس، هكذا الأدب يشرف الصغير على الكبير ويرفع المملوك على المولى، ويقعد العبيد
على الأسرة، وقال جالينوس: إن ابن الوضع إذا كان أديباً كان نقص أبيه زائداً فى منزلته، وابن الشريف إذا كان غير
أديب كان شرف أبيه زائداً فى سقوطه، وقيل: أحسن الأدب أن لا يفتخر المرء بأدبه، وسمع معاوية رجلاً يقول أنا
غريب فقال: كلا الغريب من لا أدب له، ويقال: إذا فاتك الأدب فالزم الصمت فهو من أعظم الآداب، ولعبد الملك بن
صالح:

فى الناس قوم أضاعوا مجد أولهم ما فى المكارم والتقوى لهم أرب
سوء التـأديب أرداهم وأرذلهم وقد يزين صـحيح المنصب الأدب

وقيل أربعة تسود العبد: الأدب والعلم والصدق والأمانة، وقال بعض الحكماء خمسة لا تتم إلا بخمسة، لا يتم
الحسب إلا بالأدب، ولا يتم الجمال إلا بالخلوة، ولا يتم الغنى إلا بالجود، ولا يتم البطش إلا بالجرأة، ولا يتم الجهاد
إلا بالتوفيق، والله تعالى أعلم.

فى الآداب والحكم وما أشبه ذلك

قال الحكماء: إذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه الطاعة، وألزمه القناعة، وفقهه فى الدين، وعضده باليقين، فاكتفى بالكفاف، واكتسب بالعفاف، وإذا أراد به شراً حبب إليه المال، وبسط منه الآمال، وشغله بديناه ووكله إلى هواه، فركب الفساد وظلم العباد. الثقة بالله أركى أمل والتوكل عليه أوفى عمل. من لم يكن من دينه واعظ لم تنفعه المواعظ. من سره الفساد ساءه المعاد. كل يحصد ما زرع ويجزى بما صنع. لا يغرنك صحة نفسك وسلامة أمسك، فمدة العمر قليلة وصحة النفس مستحيلة. من أطاع هواه باع دينه بديناه. ثمرة العلوم العمل بالمعلوم. من رضى بقضاء الله لم يسخطه أحد، ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد. أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه. خير الناس من أخرج الحرص من قلبه، وعصى هواه فى طاعة ربه. نصرة الحق شرف ونصرة الباطل سرف. البخيل حارس نعمته وخازن لورثته. من لزم الطمع عدم الورع. إذا ذهب الحياء حل البلاء. علم لا ينفع كدواء لا ينفع. من جهل المرء أن يعصى ربه فى طاعة هواه، ويهين نفسه فى إكرام دنياه. أيام الدهر ثلاثة: يوم مضى لا يعود إليك، ويوم أنت فيه لا يدوم عليك، ويوم مستقبل لا تدرى ما حاله ولا تعرف من أهله. من كثر ابتهاجه بالمواهب اشتد انزعاجه للمصائب. لا تبت على غير وصية وإن كنت من جسمك فى صحة، ومن عمرك فى فسحة. عظم المسىء بحسن أفعالك ودل على الجميل بجميل خلالك. إياك وفضول الكلام فإنه يظهر من عيوبك ما بطن، ويحرك من عدوك ما سكن. لا يجد العجول فرحاً ولا الغضوب سروراً ولا الملول صديقاً. حسن النية من العبادة. حسن الجلوس من السياسة. من زاد فى خلقه نقص فى حظه. من ائتمن الزمان خانه. أظهر الناس محبة أحسنهم لقاء. لا يكمل للإنسان دينه حتى يكون فيه أربع خصال: يقطع رجاءه مما فى أيدي الناس، ويسمع شتم نفسه ويصبر، ويحب للناس ما يحب لنفسه، ويثق بمواعيد الله. إياك والحسد فإنه يفسد الدين، ويضعف اليقين، ويذهب المروءة. قيل لأفلاطون: ما الشيء الذى لا يحسن أن يقال، وإن كان حقاً؟ قال: مدح الإنسان نفسه. أربعة تؤدى إلى أربعة: الصمت إلى السلامة، والبر إلى الكرامة، والجود إلى السيادة، والسكر إلى الزيادة. من ساء تديره أهلكه جده. الغرة ثمرة الجهل. آفة القوة استضعاف الخصم، آفة النعم قبيح المن، آفة الذنب حسن الظن. الحزم أسد الآراء والغفلة أضرب الأعداء. من قعد عن حيلته أقامته الشدائد، ومن نام عن عدوه أيقظته المكائد. من قرب السفلة وأطرح ذوى الأحساب والمروءات استحق الخذلان. من عفا تفضل. من كظم غيظه فقد حلم. من حلم فقد صبر. ومن صبر فقد ظفر. من ملك نفسه عند أربع حرمة الله على النار حين يغضب وحين يرغب وحين يرهب وحين يشتهى. من طلب الدنيا بعمل الآخرة فقد خسرهما، ومن طلب الآخرة بعمل الدنيا فقد ربحهما. كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله فاقصره على الجميل، واقتصر منه على القليل. كل امرئ يعرف بقوله، ويوصف بفعله فقل سديداً وافعل حميداً. من عرف شأنه وحفظ لسانه وأعرض عما لا يعنيه وكف عن عرض أخيه دامت سلامته، وقلت ندامته. كن صموتاً وصدوقاً. فالصمت حرز، والصدق عز. من أكثر مقاله ستم، من أكثر سؤاله حرم. من استخف بإخوانه خذل، ومن اجتراً على سلطانه قتل. ما عز من أذل جيرانه، ولا سعد من حرم إخوانه. خير النوال ما وصل قبل السؤال. أولى الناس بالنوال أزهدهم فى السؤال. من حسن صفائه وجب اصطفاؤه. من غاظك بقبيح الشتم منه فغظه بحسن الحلم عنه. من يبخل بماله على نفسه جاد به على زوج عرسه. إذا اصطنعت المعروف فاستره، وإذا اصطنع إليك فأنشره. من جاور الكرام أمن من الإعدام. من طاب أصله زكا فرعه. من أنكر الصنعة استوجب القطيعة. من بمعروفه سقط شكره، من أعجب بعمله حبط أجره. من رضى من نفسه بالإساءة شهد على أصله بالرداءة. من رجع فى هبته بالغ فى خسته. من رقى فى درجات الهمم عظم فى عيون الأمم. من كبرت همته كثرت قيمته. من ساء خلقه ضاق رزقه. من صدق فى مقاله زاد فى جماله. من هان عليه المال توجهت إليه الآمال. من جاد بماله جل، ومن جاد بعرضه ذل. خير المال ما أخذ من الحلال، وصرف فى النوال، وشر المال ما أخذ من الحرام، وصرف فى الآثام. أفضل المعروف إغاثة

الملهوف . من تمام المروءة أن تنسى الحق لك ، وتذكر الحق عليك ، وتستكبر الإساءة منك ، وتستصغرها من غيرك . من أحسن المكارم عفو المقتدر . جود الرجل يُحبُّه إلى أصدقائه ، ويخله ييغضه إلى أودائه . لا تنسى إلى من أحسن إليك ، ولا تعن على من أنعم عليك . من كثر ظلمه واعتداؤه قرب هلاكه وفناؤه . من طال تعديه كثرت أعاديته . شر الناس من ينصر الظلوم ، ويخذل المظلوم . من حفر حفيراً لأخيه كان حتفه فيه . من سل سيف العدوأة أغمد في رأسه . من لم يرحم العبرة سلب النعمة ، ومن لم يقل العثرة سلب القدرة . لا تحاج من يذهلك خوفه ، ويملكك سيفه . صمتٌ تسلم به خير من نطق تندم عليه . من قال ما لا ينبغي سمع ما لا يشتهي . جرح الكلام أصعب من جرح الحسام . من سكت عن جاهل فقد أوسع جواباً ، وأوجعه عتاباً . من أمارت شهوته أحيا مروءته . من كثرت عوارفه كثرت معارفه . من لم تقبل توبته عظمت خطيئته . إياك والبغى فإنه يصرع الرجال ، ويقطع الآجال . الناس في الخير أربعة أقسام : منهم من يفعله ابتداء ، ومنهم من يفعله اقتداء ، ومنهم من يتركه حرماناً ، ومنهم من يتركه استحساناً ، فمن فعله ابتداء فهو كريم ، ومن فعله اقتداء فهو حكيم ، ومن تركه حرماناً فهو شقي ، ومن تركه استحساناً فهو دني . من سالم سلم ، ومن قدّم الخير غنم ، ومن لزم الرقاد عدم المراد . ومن دام كسله خاب أمله . العجول مخطيء وإن ملك ، والمتأنى مصيب وإن هلك . من أمارات الخذلان معاداة الإخوان . استفساد الصديق من عدم التوفيق . الفرق مفتاح الرزق . من نظر في العواقب سلم من النوائب ، ومن أسرع في الجواب أخطأ في الصواب . من ركب العجل أدركه الزلل . من ضعفت آراؤه قويت أعداؤه . من قلّت فضائله ضعفت وسائله . من فعل ما شاء لقي ما ساء . من كثر اعتباره قل عثاره . من ركب جده غلب ضده . القليل مع التدبير أبقي من الكثير مع التبذير . ظن العاقل أصح من يقين الجاهل . قليل تحمد آخرته خير من كثير تدم عاقبته . من خاف سطورتك ثمنى موتك . إذا استشرت الجاهل اختار لك الباطل . من أعجبه آراؤه غلبته أعداؤه . من قصر عن السياسة صغر عن الرياسة . لا تشتك ضعفك إلى عدوك ، فإنك تشمت بك ، وتطمعه فيك ، من لم يعمل لنفسه عمل للناس ، ومن لم يصبر على كده صبر على الإفلاس . من أفشى سره أفسد أمره . الحازم من حفظ ما في يده ، ولم يؤخر شغل يومه لغده . من طلب ما لا يكون طال تعب . لا تفتح باباً يعيبك سده ، ولا ترم سهماً يعجزك رده . سوء التدبير سبب التدمير . أغمد سيفك ما ناب عنك لسانك . ليس العجب من جاهل يصحب جاهلاً ، ولكن العجب من عاقل يصحبه ، لأن كل شيء يفر من ضده ، ويميل إلى جنسه . إذا نزل القدر بطل الحذر . رب عطب تحت طلب ، ومنية تحت أمنية . لا يخلو المرء من ودود يمدح ، وعدو يقده . الجوع خير الخضوع . الكذوب متهم وإن صدقت لهجته ، ووضحت حجته . من طأوعه طرفه اشتد حتفه . من لم تسر حياته لم تغم وفاته . من أعظم الذنوب تحسين العيوب . الشرف بالهمم العالية لا بالرّمم البالية . إذا ملك الأراذل هلك الأفاضل . من ساءت أخلاقه طاب فراقه . من حسنت خصاله طاب وصاله . بعدُ يورث الصفا خير من قرب يوجب الجفا . اللسان سيف قاطع لا يؤمن حده ، والكلام سهم نافذ لا يمكن رده . من اطلع على جاره انتهكت حجب أستاره . أجهل الناس من قل صوابه ، وكثر إعجابه . أظهر الناس نفاقاً من أمر بالطاعة ، ولم يآتمر بها ، ونهى عن المعصية ، ولم يته عنها . من سلا عن المسلوب كمن لم يسلب ، ومن صبر على النكبة كمن لا ينكب ، الفضيلة بكثرة الآداب لا بفرهة الدواب . من زادت شهوته نقصت مروءته . من عرف بشيء نسب إليه ، من اعتاد شيئاً حرص عليه . عند الجدال يظهر فضل الرجال . من آخر الأكل لذ طعامه ، من آخر النوم طاب منامه . موت في دولة وعز خير من حياة في ذلة وعجز . مقاساة الفقر هي الموت الأحمر ، ومسألة الناس هي العار الأكبر . حق يضر خير من باطل يسر . كم من مرغوب فيه يسوء ولايسر ، ومرهوب منه ينفع ولا يضر . عثرة الرجل تزيل القدم ، وعثرة اللسان تزيل النعم . المزاج يورث الضغائن . من حلم ساد ومن تفهم ازداد . معاشرة ذوى الألباب عمارة القلوب . شر ما صحب المرء الحسد ربما أصاب الأعمى رشده ، وأخطأ البصير قصده . اليأس خير من التضرع إلى الناس . لا تكن ضاحكاً في غير عجب ولا ماشياً في غير أرب . من سعى بالنميمة حذره القريب ومقتنه الغريب . الاستشارة عين الهداية ، وقد خاطر من استبد برأيه . أشرف الغنى ترك المني . من ضاق خلقه مله أهله . الحسد للصديق من سقم المودة . كل الناس راض عن عقله . دنياك كلها وقتك الذي أنت فيه . استر سوءة أخيك ، لما يعلم فيك . خمول

الذكر أسنى من الذكر الذميمة. العجلة أخت الندامة.

من كرم أصله لأن قلبه ومن قلَّ له زاد عجبه. ربما أدرك بالظن الصواب. ليس لمعجب رأى، ولا لمتكبر صديق. سل عن الرفيق قبل الطريق. وعن الجار قبل الدار. لاتعادين أحداً، فإنك لاتخلو من عداوة جاهل أو عاقل، فالخذر من حكمة العاقل وجهل الجاهل. ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدل على ربه. من قلَّ سروره كان الموت راحته. لاتردن على ذى خطأ خطاه، فيستفيد منك علماً، ويتخذك عدواً. استحي من ذم، من لو كان حاضراً، لبالغت في مدحه ومدح من لو كان غائباً، لساغت إلى ذمه.

وقيل: المنفعة توجب المحبة، والمضرة توجب البغضة، والمخالفة توجب العدواة، والمتابعة توجب الألفة، والعدل يوجب اجتماع القلوب، والجور يوجب الفرقة، وحسن الخلق يوجب المودة، وسوء الخلق يوجب المباعضة، والانبساط يوجب المؤانسة، والانقباض يوجب الوحشة، والكبر يوجب المقت، والتواضع يوجب الرفعة، والجود يوجب المدح، والبخل يوجب الذم، والتواني يوجب التضييع، والحزم يوجب السرور، والخذر يوجب السلامة، وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة، وبالتأني تسهل المطالب، وبحسن المعاشرة تدوم المحبة، وبخفض الجانب تانس النفوس، وبسعة خلق المرء يطيب عيشه، والاستهانة توجب التباعد، وبكثرة الصمت تكون الهيبة، وبعدل المنطق تجلب الجلالة، وبالنصفة تكثر المواصلة، وبالأفضال يعظم القدر، وبصالح الأخلاق تزكو الأعمال، وباحتمال المؤن يجب السؤدد، وبالحلم على السفيه تكثر أنصارك عليه. وبالرفق والتودد تستحق اسم الكرامة وبترك ما لايعنيك يتم لك الفضل.

واعلم أن السياسة تكسو أهلها المحبة. ومن صَغِرَ الهمة الحسد للصديق على النعمة. والنظر في العواقب نجاة. ومن لم يحلم ندم. ومن صبر غنم، ومن سكت سلم. ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم. ومن أطاع هواه ضل. ومع العجلة الندامة ومع التأني السلامة. وزارع البر يحصد السرور. وصاحب العقل مغبوط. وصداقة الجاهل نَصَب. إذا جهلت فاسأل، وإذا زللت فارجع، وإذا أسأت فاندم، وإذا ندمت فاقطع. المروءات كلها تبع للعقل، والرأى تبع للتجربة، والعقل أصله الثبوت وثمرته السلامة، والأعمال كلها تتبع القدر. واختار العلماء أربع كلمات من أربعة كتب فمن التوراة: من قنع شبع. ومن الإنجيل: من اعتزل نجا. ومن الزبور: من سكت سلم. ومن القرآن: ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾ [آل عمران: ١٠١]. واجتمعت حكماء العرب والعجم على أربع كلمات، لاتحمل بطنك ما لايطيق. ولا تعمل عملاً لا ينفعك. ولا تغتر بامرأة. ولا تثق بمال ولو كثر. والله تعالى أعلم.

في الأمثال السائرة وفيه فصول

الفصل الأول: فيما جاء من ذلك في القرآن العظيم وأحاديث النبي الكريم

اعلم أن الأمثال من أشرف ما وصل به اللبيب خطابه، وحلّى بجواهره كتابه. وقد نطق كتاب الله تعالى، وهو أشرف الكتب المنزلة بكثير منها، ولم يخل كلام سيدنا رسول الله ﷺ عنها، وهو أفصح العرب لساناً، وأكملهم بياناً، فكم في إirاده وإصداره من مثل يعجز عن مباراته في البلاغة كل بطل. وسنذكر إن شاء الله تعالى بعد ذلك نبذة من أمثال العرب والمولدين والعامّة.

فمن أمثال كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ [آل عمران: ٩٢]. ﴿الآن حصحص الحق﴾ [يوسف: ٥١]. ﴿قضى الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ [يوسف: ٤١]. ﴿أليس الصبح بقريب﴾ [هود: ٨١]. ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ [الأعراف: ٩٥]. ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾ [النجم: ٥٨]. ﴿أنأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾ [البقرة: ٤٤]. ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ [سبا: ٥٤]. ﴿لكل نبا مستقر﴾ [الأنعام: ٦٧]. ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾ [الإسراء: ٨٤]. ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ [النساء: ١٩]. ﴿وإن تصبهم سيئة يفرحوا بها﴾ [آل عمران: ١٢٠]. ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ [المدثر: ٣٨]. ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة﴾ [الأنعام: ٤٤]. ﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ [المائدة: ٩٩]. ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ [التوبة: ٩١]. ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾ [الحشر: ١٤]. ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ [الرحمن: ٦٠]. ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾ [فاطر: ١٤]. ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾ [الأنفال: ٢٣]. ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ [الروم: ٣٢]. ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ [البقرة: ٢٨٦]. ﴿لا يستوى الخبيث والطيب﴾ [المائدة: ١٠٠]. ﴿ففررت منكم لما خفتكم﴾ [الشعراء: ٢١]. ﴿وإن كثيراً من الخطاء لينى بعضهم على بعض﴾ [ص: ٢٤]. ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ [الصف: ٢]. ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء﴾ [النساء: ٤٩]. ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسوءكم﴾ [المائدة: ١٠١]. ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾ [يس: ٤٦]. ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ [الأنعام: ٢٨]. ﴿اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم﴾ [المائدة: ٩٨]. ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون﴾ [المؤمنون: ٧٥]. ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]. ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ [الزخرف: ٢٣]. ﴿يأليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾ [الزخرف: ٣٨]. ﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ [الذاريات: ٣٦]. ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ [الأعراف: ١٨٧]. ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ [النجم: ٣٢]. ﴿كل يوم هو في شأن﴾ [الرحمن: ٢٩]. ﴿فبأى حديث بعده يؤمنون﴾ [الأعراف: ١٨٥]. ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ [هود: ١٢٣، النحل: ٩٣]. ﴿واجرهم هجرأ جميلاً﴾ [المزمل: ١٠]. ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾ [فصلت: ٤٦، الجاثية: ١٥]. ﴿إن هي إلا فتنتك﴾ [الأعراف: ١٥٥]. ﴿فاعتبروا يا أولى الأبصار﴾ [الحشر: ٢]. ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ [الواقعة: ٧٦]. ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ [الملك: ٣]. ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ [ص: ٨٨]. ﴿وكان بين ذلك قواماً﴾ [الفرقان: ٦٧]. ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ [الصفات: ٦١]. ﴿كل من عليها فان﴾ [الرحمن: ٢٦]. ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ [آل عمران: ١٨٥]. ﴿أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ [الطور: ١٥].

ومن الأمثال من الحديث النبوى: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى). (نية المرء خير من عمله). (آفة العلم النسيان). (من حسن إسلام المرء تركه ما لايعنيه). (إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه). (أنزلوا الناس منازلهم). (اليد العليا خير من اليد السفلى). (من مات غريباً مات شهيداً). (مطل الغنى ظلم). (يد الله مع الجماعة). (الجار قبل الدار). (والرفيق قبل الصديق). (من غشنا فليس منا). (سيد القوم خادهم). (الحياء شعبة من الإيمان). (تخيروا بنظفكم). (ابدأ بنفسك ثم بمن تعول). (حدث عن البحر ولا حرج). (المجالس بالأمانات). (كل ميسر لما خلق له).

(اطلبوا الخير من حسان الوجوه). (إياك وما يعتذر منه). (الوحدة خير من جليس السوء). (استعينوا على الحوائج بالكتمان). (الندم توبة). (لا يكون المؤمن طعناً ولا لعاناً). (دع ما يربيك إلى ما لا يربيك). (من كثر سواد قوم فهو منهم). (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً). (انتظار الفرج عبادة). (كاد الفقر أن يكون كافراً). (نعم صومعة الرجل بيته). (الأعمال بخواتيمها).

الفصل الثاني: في أمثال العرب

إن من البيان لسحراً. إن الجواد قد يعثر. إن البلاء موكل بالمنطق. إن أخا الهيجاء من يسعى معك. ومن يضر نفسه لينفعك. أنف في السماء وإست في الماء. إن الذليل الذي ليست له عضد. أي الرجال المهذب إنما هو كبرق خلب. إذا أدبر الدهر عن قوم كفى عدوهم أمرهم. إياك أعنى فاسمعي يا جارة، إن لم يكن وفاق ففراق. إنك لا تجني من الشوك العنب. إذا حان القضاء ضاق القضاء. إن المناكح خيرها الأبرار. إذا كنت مناضحاً فنادحاً بذوات القرون. أوى إلى ركن بلا قواعد. إياك أن تضرب بلسانك عنقك. أكل وحمد خير من أكل وذم. آفة المروءة خلف الوعد. إذا قلت له زن طأطأ رأسه وحزن. إذا أتاك أحد الخصمين، وقد فقت عينه، فلا تقض له حتى يأتيك خصمه، فلعله فقت عيناه. ترك الذنب أيسر من طلب التوبة. اتق شر من تحسن إليه. الناس إخوان، وشتي في الشيم. بلغ السيل الزبى. أجمع كلبك يتبعك. حافظ على الصديق، ولو في الحريق. اشتدى يا أزمة تنفرجى. اتبع السيئة الحسنة تمحها. الخيل أعرف بفرسانها. رمتني بطرفها وانسلت. رب رمية من غير رام. الرياح مع السماح. رب أكلة تمنع أكالات. استراح من لا عقل له. رب أخ لم تلده أمك. رب طمع أدى إلى عطب. ربما كان السكوت جواباً. رب ملوم لا ذنب له. رب عين أثم من لسان. رحم الله من هداني إلى عيوبى. ركوب الخنافس ولا المشى على الطنافس. سبق السيف العذل. زوج من عود خير من قعود. سبك من بلغك السب. سحابة صيف عن قليل تنقشع. شر أيام الديك، يوم تغسل رجلاه. طاعة النساء ندامة. اطلب تظفر. طرف الفتى يخبر عن لسانه. ظاهر العتاب خير من باطن الحقد. عند الصباح يحمد القوم السرى. والظلم مرتعه وخيم. عند النطاح يغلب الكيش الأجم.

العبد يُقرع بالعصا والحار تكفيه الملامة

اعقل وتوكل. العتاب قبل العقاب. عند الرهان تعرف السوابق. عند الامتحان يكرم المرء أو يهان. عند النازلة تعرف أخاك. فى القمر ضياء، والشمس أضوأ منه. القول ما قالت حذام. لقد أسمعت لو ناديت حياً. أقلل طعامك يحمد منامك. كل فتاة بأبيها معجبة. كل كلب ببابه نباح. كساد العروس أن يكون ملكاً. كثرة العتاب توجب البغضاء. أكثر مصارع الرجال تحت بروق المطامع. الكلام أنشئ، والجواب ذكر. كل إناء يرشح بما فيه. كما تزرع تحصد. كل امرئ فى بيته صبى. كلب جوال خير من أسد رابض. لقد ذل من بالت عليه الثعالب. ليس الخبر كالعيان. لكل صارم نبوة، ولكل جواد كبوة. لكل قادم دهشة. لعل لها عذراً وأنت تلوم. لكل ساقطة لاقطة. لكل مقام مقال. لك لسان من رطب ويدان من خشب. للباطل جولة ثم يضمحل. ليست النائحة الثكلى مثل المستأجرة. لكل غد طعام. لكل دهر دولة ورجال. لا عطر بعد عروس. لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. لا يضر السحاب نباح الكلاب. لا تقتن من كلب سوء جرواً. مقتل الرجل بين فكيه. ماحك جلدك مثل ظفرك. من عتب على الدهر طال عتبه. معاتبة الإخوان خير من فقدهم. النفس مولعة بحب العاجل. هذه بتلك والبادى أظلم. يا حبذا الإمارة ولو على الحجارة. يكسو الناس وإسته عارية. يدك منك وإن كانت شلاء.

الفصل الثالث: في أمثال العامة والمولدين

التسلط على الممالك دناءة. اجلس حيث يؤخذ بيدك وتبر، ولا تجلس حيث يؤخذ برجلك وتجر. أجراً الناس على الأسد أكثرهم له رؤية. الحاجة تفتق الحيلة. الحاوى لا ينجو من الحيات. الحية تدور وإلى الرحى ترجع. المؤذى ردى كلما جلوته صدى. الأسواق موائد الله فى أرضه. السلامة إحدى الغنيمتين. الشاة المذبوحة لا يؤلفها السلخ. الطير بالطير يصاد. اطلع القرد فى الكنيف فقال: هذه المرأة لهذا الوجه الظريف. العادة طبيعة خامسة. الغائب حجة معه. الخضوع عند الحاجة رجولية. الناس أتباع لمن غلب. النكاح يفسد الحب. النصيح بين الملاء تقريع. الحر حر وإن مسه الضر. والعبد عبد وإن ملك الدر. الثقيل إذا تخفف صار طاعوناً. أضيع من حلى على زنجية. العمل للزرنينخ والاسم

للنورة. أنشط من أير دخل نصفه البغل. الهرم لايفزعه صوت الجللجل. بدن وافر وقلب كافر.

تزاوروا ولا تجاوروا. تعاشروا كالأخوان وتعاملوا كالأجانب. ثمرة العجلة الندامة. جواهر الأخلاق تفضحها المعاشرة. حيثما سقط لقط. خذ اللص قبل أن يأخذك. خذ القليل من اللثيم وذمه. وذل من لاسفيه له. ريق العدو سم قاتل. رب ساع كقاعد. زكاة البدن العلل. رلق الحمار وكان من سهوة المكارى. زلة الرجل عظم يجبر. وزلة اللسان لا تبقى ولا تذر. سلطان غشوم خير من فتنة تدوم. سواء قوله وبوله. سفير السوء يفسد ذات البين. شهر ليس لك فيه رزق لا تعد أيامه. صديق الوالد عم الولد. ضرب الطبل تحت الكسا. طاعة الولاة بقاء العز. طفيلى ويقترح. عناية القاضى خير من شاهدى عدل. دلت على أهلها براقش. (وهو اسم كلبة نبحت فدللت على الجيش فقتلوهم) غش القلوب يظهر فى فلتات الألسن وصفحات الوجوه. غنى المرء فى الغربة وطن. فر من الموت وفى الموت وقع. فم يسبح وقلب يذبح. فلان كالكعبة يزار ولا يزور. قيل للزمار، تهياً للزمر قال: الزمار فى كمى والريح فى فمى. كل قليلا تعش كثيراً. كلامه ريح فى قفص. كالإبرة تكسو الناس وهى عريانة. كلمة حكمة من جوف خرب. كاد المريب يقول: خذونى. كنت سندالاً فصرت مطرقة. كل ما فاتك من الدنيا فهو غنيمة. كلما طار قصوا جناحه. لو كان المزاح فحلاً لم ينتج إلا شراً. لسان الجاهل مفتاح حتفه. لكل جديد لذة. لو ضاعت صفة ما وجدت إلا فى قفاه. لو كان فى اليوم خير ما فات الصياد. من اعتمد على شرف آبائه فقد عقهم. من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلاً. وبالله التوفيق.

الفصل الرابع: فى الأمثال من الشعر المنظوم مرتبة على حروف المعجم

حرف الألف:

وكلّ نعيم لا محالة زائلُ
فقد بطل السحر والساحرُ
فأبعدكن الله من شجرات
فأى مكان من مكانك الطف
فليس يخفى عليه كيف ينفعه
ضللت وإن تقصد إلى الباب تهتد
على طرف الهجران إن كان يعقلُ
وإن كان لى مال فأنت صديقى
بالجسد يرزق منهم من يرزق
هل جديد مثل ملبوس خلق
والعواري حكمها أن تسترد
إذا رأى منك يوماً غيرة وثبا
أن ترى مقلتاى طلعة حرُ
فدعه فدولته ذاهبه
عليك فكن له ثابت الجنان
فدونك الحبل به فاختنق
فعلامه الإدبار فيها تظهر
فإحدهما لاشك ذلك آخذه
فلا تلم الصبيان فيه على الرقص
سمت بجناحيها إلى الجو تصعد
أصبت حليماً أو أصابك جاهل
وجاوزه إلى ما تستطيعُ

ألا كل شيء ما خلا الله باطل
إذا جاء موسى وألق العصا
إذا لم يكن فيك ظل ولا خبا
إذا كنت فى فكرى وقلبي ومقلتي
إذا أراد كريمٌ منع صاحبه
إذا ما أتيت الأمر من غير باب
إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته
إذا لم يكن عندى نوال هجرتنى
الناس فى طلب المعشاش وإنما
أيها السائل عما قد مضى
إنما أنفسنا عارية
إن العدو وإن أبدى مسالمة
أتمنى على الزمان محالاً
إذا ملك لم يكن ذاهبه
إذا ثارت خطوب الدهر يومئذ
إذا كنت لا ترضى بما قد ترى
إن الأمور إذا بدت لزوالها
إذا ضاع شيء بين أم وبناتها
إذا كان رب البيب بالطبل ضارباً
إذا ما أراد الله إهلاك نملة
إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا
إذا لم تستطع أمراً فدعه

إذا صوت العصفور طار فؤاده
أهن عامراً تكرم عليه فلما
إذا محاسنى اللاتى أتيت بها
إخوان صدق ما راوك بغبطة
إذا اعتاد الفتى خوض المنايا
ألم تر أن المرء تدرى يمينه
إذا أنت لم تعلم طبيبك كل ما
إذا أنت حملت الخيون أمانة
أكل خليل هكذا غير منصف
إذا أنت عبت المرء ثم أتيت به
أسأت إذ أحسنت ظنى بكم
الحادثات إذا ألم خطوبها
الخير لا يأتك متصلاً
العلم ينهض بالخيريس إلى العلا
الكفر بالنعمة يدعو إلى
أيا دارهم ما كنت أنت بدارهم
أقلب طرفى لا أرى غير صاحب
إذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن

حرف الباء الموحدة:

بنا فوق ما تشكو فصبراً لعلنا
بالملاح نصلح ما نخشى تغييره
بنى عمنا إن العدو شأنها

حرف التاء المثناة الفوقية:

تحن إليه أفئدة البرايا
تلوم على القطيعة من أتاها
تلجىء الضرورات فى الأمور إلى
تفرقت الظباء على حراش
تجتلى الأذن منه أحسن مما

حرف الجيم:

ولكن نخشيد الناب عند الشرائد
أخو عامر بن مسنه بهوان
عُدَّت ذنباً فقل لى كيف اعتذر
فإذا افتقرت فقد هوى بك من هوى
فأسر ما يمر به الوحول
فيقطعها عمداً ليسلم سائره
يسؤك أبعدت الدواء عن السقم
فإنك قد أسندتها شر مسند
وكل زمان للكرام بخيل
فأنت ومن تزرى عليه سواء
والحزم سوء الظن بالناس
فلها مساو مرة ومحاسن
والشر يسبق سيله مطره
والجهل يقع بالفتى المنسوب
زوالها والشكر أبقى لها
ولا أنا مذ سار الركاب بهم أنا
يميل مع النعماء حيث تميل
قضاء ولكن ذاك غرم على غرم

نرى فرجاً يشفى السقام قريباً
فكيف بالملاح إن حلت به الغيـر
ضغائن تبقى فى نفوس الأقارب

وتهواه الخلائق للسماع
وأنت سنتها للناس قبلى
سلوك ما لا يليق بالأدب
وما يدرى حراش ما يصيد
تجتلى العين من وجوه البدور

جن له الدهر فنال الغنى
جريت أهلى وأهليه فما تركت

حرف الحاء المهملة:

حيّاك من لم تكن ترجو تحيته

حرف الخاء المعجمة:

خفض الجاش واصبـرن رويداً
خليلى إنّ الحبّ صعبٌ مـراسه
خاطرٌ بنفسك كى تصيب غنيمـةً
خيالك فى عينى وذكرك فى فـمى
نحن من آمنت ولا تركن إلى أحـد

حرف الدال المهملة:

داود مـحمودٌ وأنت مـلهمٌ
دعيني أنهب الأموال حـتى

حرف الدال المعجمة:

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله

حرف الراء:

رُبَّ مـهزولٍ سـمينٌ عـرضه
ردّوا على صـحائفها سـودتها
رضيت ولا أرضى إذا كان مـسخطى
ربّ يوم بكيت منه فلمـا

حرف الزاى:

زنيمٌ ليس يعـرف من أبوه

حرف السين المهملة:

سرورى أن تبقى بخير ونعمـة
سـوء حظى أنالنى منك مـجرراً

آه لمن أغـفلـه الدهر
إلى التجارب فى ودّ امرئٍ غـرضاً

لولا الدراهم ما حيّاك إنسانٌ

فـالـرزايا إذا تـوالـت تولت
وإن عـزـيز القـوم فـيـه يهـان
إن الجـلوس مع العـيـال قـبـيحٌ
ومـثـلـواك فى قلبى فـأين تـغـيبُ
فما نصحتك إلا بعد تجريبى

عـجـباً لـذاك وأتـمـما من عـود
أعفاً الأكرمين عن اللثام

وأخـو الجـهـالة فى الشقاء منعم

وسـمـين الجـسم مـهـزولُ الحـسب
فـيـكم بـلا حقٍ ولا اسـتـحقاق
من الأمر ما فيه رضا صاحب الأمر
صـرت فى غـيـره بكيت عـليه

بغى الأم ذو حـسبٍ لثـيم

وانى من الدنـيا بـذلك قـانـع
فـعلـى الحـظ لا عـليك العـتابُ

سبكناه ونحسب به لجيناً
ستذكرنى إذا جربت غيرى
حرف الشين المعجمة:

فأبدى الكير عن خبث الحديد
وتعلم أننى نعم الصديق

شفيعى إليك الله لأرباً غيره
شكرتك قبل الخير إن كنت واثقاً
حرف الصاد المهملة:

وليس إلى رد الشفيع سبيلُ
بأنى بعد الخير لاشك شاكرُ

صَحَّحْ لَنَا وَالْهَـ أَوَّلَا
حرف الضاد المعجمة:

وأنت فى حل من السوالدة

ضاقَت ولو لم تضق لما انفرجت
حرف الطاء المهملة:

والعسر مفتاح كل ميسور

طويل عمر المعالى والندى أبداً
طوبى لأعين قوم أنت بينهمُ
حرف الظاء المشالة:

قصير عمر الأعداى والمواعيد
القومُ فى نزهة من وجهك الحسن

ظهرت خياناتُ الثقات وغيرهمُ
ظلمت امرأ كلفته غير خلقه
حرف العين المهملة:

حتى اتهمنا رؤية الأبصار
وهل كانت الأخلاق إلا غرائزُ

علم الله كيف أنت فأعطا
على المرء أن يسعى لما فيه نفعه
عسى فرجٌ يأتى به الله إنه
عتبت على عمرو فلما تركته
حرف الغين المعجمة:

ك المحلّ الجليل من سلطانه
وليس عليه أن يساعده الدهرُ
له كل يوم فى خليقته أمرُ
وجربت أقواماً بكيت على عمرو

غنى بلا دين عن الخلق كلهم
غلامٌ أتاه اللؤم من شطر نفسه
حرف الفاء:

وإن الغنى إلا عن الشيء لا به
ولم يأتته من شطر أم ولا أب

فلم أر كالأيام للممرء واعظاً
فنفسك أكرمها فلانك إن تُهن
فصبرٌ جميلٌ أن في اليأس راحةً
فما أكثر الأصحاب حين تعدّهم
فإن كانت الأجسام منا تباعدت
فلو كان حمداً يخلد المرء لم يم
فإن تفق الأنام وأنت منهم

حرف القاف:

قد يجمعُ المالَ غيرَ آكلِهِ
قد زال ملك سليماني فعاوده
قد يدرك المتأني نَجح حاجته
قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه

حرف الكاف:

كلوا اليوم من رزق الإله وأبشروا
كفى زاجراً للممرء أيام دهره
كنت من كربتي أفرّ إليهم
كانوا بنى أم ففارق شملهم
كل المصائب قد تمرّ على الفتى
كأنك من كل النفوس مركبٌ
كالكلب إن جاع لم يمنعك بصبصة

حرف اللام:

لعمرك ما يدري الفتى كيف يتقى
لعمري ما ضاقت بلادٌ بأهلها
للموت فينا سهامٌ وهى صائبةٌ
لو أن خففة عقله فى رجله
لو كان ما بى فى صخر لأنحله
لعمرك ما الأيام إلا مُعاراةٌ
لكل امرئٍ حالان بؤسٌ ونعمّةٌ

ولا كصروف الدهر للممرء هادياً
عليك فلن تلقى لها الدهر مكرماً
إذا الغيث لم يطر بلادك مساطره
ولكنهم فى النائبات قليلٌ
فإن المدى بين القلوب قريب
ولكن حمداً المرء غير مخلّد
فإن المسك بعض دم الغزال

ويأكل المال غير من جمعه
والشمس تنحط فى المجرى وترتفع
وقد يكون من المستعجل الزل
خلقٌ وجيبٌ قميصه مرقوع

فإن على الخلاق رزقكم غدا
تروح له بالواعظات وتغتدى
فهم كربتى فأين الفرار
عدم العقول وخفة الأحلام
فتهون غير شماتة الأعداء
فأنت إلى كل الأنام حبيبٌ
وإن ينل شبعاً ينبج من الأشر

إذا هو لم يجعل له الله واقياً
ولكن أخلاق الرجال تضيقُ
من فاته اليوم سهمٌ لم يفثه غدا
سبق الغزال ولم يفثه الأرنب
فكيف يحمله خلقٌ من الطين
فما استطعت من معروفها فتزود
وأعطفهم فى النائبات أقاربهُ

حرف الميم:

مَنْ يَحْمَدُ النَّاسَ يَحْمَدُوهُ
مَنْ لَمْ يَعْدِدْنَا إِذَا مَرَضْنَا
مَتَى يَبْلُغُ الْبَنِيَانُ يَوْمَآ تَمَامَهُ
مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ رَتَبَتُهُ
مَنْ النَّاسُ مِنْ يَغْشَى الْأَبَاعِدَ نَفْعُهُ
مَا كَانَ فِي الْمَخْدَعِ مِنْ أَمْرِكُمْ
مَا قَامَ عَمَرُوْهُ فِي الْوَلَا

حرف النون:

نَسُودُ أَعْلَاهَا وَتَأْبَى أَصُولُهَا
نَحْنُ بَنُو الْمَوْتَى فَمِمَّا بَالِنَا
نَدِمْتُ نَدَامَةَ الْكَسْبِ لَمَّا

حرف الهاء:

هَنَّاكُمُ اللَّهُ بِالْدُنْيَا وَمَتَعَكُم
هَلْ بِالْخَوَادِثِ وَالْأَيَّامِ مِنْ عَجَبٍ
هَبِ الدُّنْيَا تَقَادَ إِلَيْكَ عَفْوَاً
هَنِيئاً لِمَنْ لَا ذَاقَ لِلدَّهْرِ لَوْعَةً
هَمْ يَحْسَدُونِي عَلَى مَوْتِي فَوَاحِزْنِي

حرف الواو:

وَلَمْ أَرِ كَالْمَعْرُوفِ أَمَّا مَذَاقُهُ
وَإِذَا خَشِيتُ مِنَ الْأُمُورِ مَقْدَرًا
وَالرِّزْقِ يَخْطِئُ بَابَ عَاقِلٍ قَوْمِهِ
وَلَا يَغْفِرُكَ طَوْلَ الْحَلَمِ مَنِي
وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يُوْطَّنُ نَفْسَهُ
وَإِذَا أَتَيْتُكَ مَذْمُومَتِي مِنْ نَاقِصٍ
وَمَا لِلْمَرْءِ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ
وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالْهَلَالِ وَضُوئِهِ

وَالنَّاسُ مِنْ عَابِهِمْ يَعْصَابُ
إِنْ مَاتَ لَمْ نَشْهَدْ الْجَنَازَةَ
إِذَا كُنْتُ تَبْنِيهِ وَغَيْرُكَ يَهْدُمُ
فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيْءٌ وَلَا يَضَعُ
وَيَشْقَى بِهِ حَتَّى الْمَمَاتِ أَقَارِبُهُ
فَلِإِنَّهُ فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ
يَهْدِي قَائِمًا حَتَّى قَعْدُ

وَلَيْسَ إِلَى رَدِّ الشُّبُهَاتِ سَبِيلُ
نَعِيفٌ مِمَّا لَا بَدَّ مِنْ شَرِّهِ
رَأَتْ عَيْنَاهُ مِمَّا صَنَعَتْ يَدَاهُ

بِمَا نَحِبُ لَكُمْ مِنْهَا وَنَرْضَاهُ
أَمْ هَلْ إِلَى رَدِّ مَا قَدْ فَاتَ مِنْ طَلَبِ
أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى الزَّوَالِ
وَلَمْ تَأْخُذْ الْأَيَّامَ مِنْهُ نَصِيْبًا
حَتَّى عَلَى الْمَوْتِ لَا أَخْلُوَ مِنَ الْحَسَدِ

فَحَلُّوْهُ وَأَمَّا وَجْهُهُ فَجَمِيلُ
وَهَرَبْتُ مِنْهُ فَنَحْوُهُ تَتَوَجَّهُ
وَيَبِيتُ بَوَّاباً بِبَابِ الْأَحْمَقِ
فَمِمَّا أَبْدَأُ تَصَادَفْنِي حَلِيمًا
عَلَى نَائِبَاتِ الدَّهْرِ حِينَ تَنْوِبُ
فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلُ
إِذَا مَا عَدُّ مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ
يُوفَى تَمَامَ الشُّهُرِ ثُمَّ يَغِيْبُ

وقد تسلب الأيام حالات أهلها
ومن يأمن الدهر الخئون فإننى
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد
ومن يكن الغراب له دليلاً
ومن يك مثلى ذا عيالٍ ومفتراً
ولربما منع الكريم ومسا به
ولا بات يسقينا سوى الماء وحده
ومن عاش فى الدنيا فلا بد أن يرى
ولو دامت الدولات دامت لغيرانا
وأحسن فإنَّ المرء لا بدَّ مَيِّتٌ
ولا ترين الناس إلَّا تجمملاً
وما لأمريءٍ طولُ الخلود وإنَّما
ولربَّ نازلةٍ يضيق بها الفتى
وكان رجائى أن أعود ممثعاً
وتجلدى للشمامتين أريهم
ولا بد من شكوى إلى ذى مروءةٍ
وهوَن حزنى عن خليلى أننى
ويومٌ علينا ويومٌ لنا

حرف اللام ألف:

لا تنظرنَّ إلى الجهالة والحجى
لا يسأل المرء عن خلائقه
لا يصبر الحر تحت ضميم
لاتنه عن خلق وتأتى مثله
لا يبالى الشتم عرضٌ
لا تنظرون إلى أمريءٍ ما أصله
لا يسكن المرء فى أرض يهان بها
لا يقبلون الشكر ما لم ينعموا
لا أسأل الناس عمّا فى ضمائرهم

حرف الباء المثناة التحتية:

وتعدو على أسد الرجال الثعالب
برأى الذى لا يأمن الدهر أقستدى
ذخيراً يكون كصالح الأعمال
يمرّ به على جـفيف الكلاب
من الزاد يطرح نفسه أى مطرح
بخلٍ ولكن سوء حظ الطالب
وهذا جزاء من بات ضيف الضفادع
من العيش ما يصفو وما يتكدر
رعايا ولكن ما لهنّ دوام
وإنك مجزى بما كنت ساعياً
وإن كنت صفر الكفّ والبطن طاوياً
يُخلدُه طول الثناء فيـخلد
ذرعاً وعند الله منها المخرج
فصار رجائى أن أعود مسلماً
أنى لريب الدهر لا أتضعضع
يواسيك أو يسليك أو يتوجع
إذا شئت لاقيت الذى مات صاحبه
ويومٌ نساءً ويومٌ نُسررَ

وانظر إلى الإقبال والإدبار
فى وجهه شاهدٌ من الخبر
وانما يصبر الحر الحمار
عارٌ عليك إذا فعلت عظيم
كلّـه شـتم ودم
وانظر إلى أفـعاله ثم احكم
إلا من العجز أو من قلّة الحيل
نعماً يكون لها الثناء تباعاً
ما فى ضميرى لهم من ذاك يكفينى

يفسر من المنية كل حى
يريك الرضا والغل حشو جفونه
يهمهم للشعير إذا رآه
يفارقنى من لا أطيق فراقه
يزيد تفضلاً وأزيد شكراً
يواسى الغراب الذئب فى كل صيده
يغرون علينا أن تصاب جسومنا
يغر الفتى مر اللبالي سليمة
يغفـظنى وهو على رسله
يريك البشاشة عند اللقاء

ولا ينجى من القدر الحذر
وقد تنطق العينان والفم ساكت
ويعبس إن رأى وجه اللجام
ويصحبنى فى الناس من لا أريده
وذلك دأبه أبداً ودأبى
وما صارت الغربان فى سعف النخل
وتسلم أعراض لنا وعقول
وهن به عمتا قليل غوائر
والمرء فى غيظ سواه حليم
ويبريك فى السر برى القلم

الفصل الخامس: فى الأمثال السائرة بين الرجال والنساء مرتبة على حروف المعجم

حرف الألف: إن كنت ما تعمل جميل اعمل كما يعمل معك. إذا أبغضك جارك، حول باب دارك. إذا كان صاحبك عسل، لاتلحسه كله. المستعجل والبطيء عند المعديلة يلتقى. ألف ذقن، ولا سلام عليكم. ألف ذقن ولا ذقنى. إذا غاب عنك أصله، كانت دلائل نسبته فعله. إذا وصلت وسلم الله بع بما قسم الله. إذا كنت أعمى وأطروش شم رائحة النقوش. إذا كان النيذ دردى، والعشيق كردى، والبقول فول حار، والعشاء بيسار إيش يكون الحال. إذا كان الفطن أحمر، والمغسل أعور، والدكة مخلعة، والنعش مكسر، اعلم أن الميت من أهل سقر، والوادي الأحمر. إيش ينفع الضراط عند طلوع الروح قال تقريف للحاضرين وتفريق للملائكة. القشر والنشر والعشا خبيزة. أكل الدقة والنوم فى الأزقة ولا دجاجة محمرة يعقبها مشقة. إيش أنت فى الحارة يا منخل بلا طارة. الرجم بالطوب ولا الهروب. إذا وقعت يافصيح لا تصيح. أقرع يقول لأقرع امش بنا نزرع فى بركة القرعان إيش ما يطلع يطلع النصف لى والربع لى والثلث لى والثلث الآخر لك ولى. والله العدو ما يبقى حبيب حتى يصير الحمار طيب. اقعد يا حمار حتى ينبت لك الشعير. أى موضع راح الحزين يلقي جنازة.

قال الشاعر:

إن دام هذا السير يا مسعود لا جمل يبقى ولا قعود

غيره:

إذا لم تكن لى والزمان شرُّ برم فلا خير فيك والزمان ترللى

غيره:

إذا أقبلت كادت تقاد بشعرة وإذا أدبرت كادت تقاد السلاسل

حرف الباء الموحدة: بينما يتروى البخيل قضى الكريم حاجته. بينما يسعد المغتر فرغ عمره. بينما أصل قبره نسيته هم. يعدل بينما المغتر حاله جاء الموت شاله. بينما يخلص ربنا حتى اتفرقت جوزة حلقى. بينما يقطع الجريد يفعل

الله ما يريد. بينما يجيء الدرياق من العراق يكون الملسوع مات. بين حانا ويانا حلقت لحانا. بدوى مقروح لقي التمر مطروح أين يخلى ويروح. بدال لحمتك وقلقاسك هات لك شد على رأسك. بدال اللحمة والبادنجان هات لك قميص يا عريان. بدال لحمتك الثلاثة هات لك شد ياشماتة. بقى للكلب سرج وغاشية وغلمان وحاشية. بقى للخرا مرا ويحلف بالطلاق. بعد الجوع والقلة بقى لك حمار وبغلة.

حرف الناء المثناة فوق: تموت الحدادى وعينها فى الصيد. تعالوا بنا نقتبح ونرجع غدا نصطلىح. تدحرج الخرا لعند البعر قال له: إيش أنت؟ قال له: بزم قردش. ترك الفضول من حزم العقول. تراب العمل ولا زعفران البطالة. تسكر وتخانق ما هو شئ موافق. تجارة الأحمق على أهل بيته. تضارب الريح مع الموج. جاء الهم على النواتية. تزاوروا ولا تجاوروا. تبات نار تصبح رماد لها رب يدبرها.

حرف الناء المثناة: ثوب العيرة ما يدفى. ثقليل واسمه صخر بن جبل. ثور علقوه أغمى عليه قال: حتى يطلع شئ يرشوه عليه. ثور عاجز ما يدور ساقية. ثقليل من أولاد الزنا مرّ العناء. ثوب عليه وثوب على الودت، قال: أنا اليوم أحسن من كل من فى البلد.

حرف الجيم: جور القط ولا عدل القار. جمل موضع جمل يبرك. جهد المقل دموعه. جمل بحبه قال: وأين المحبة جيت أصطاد صادونى. جار له حق وجار ما له حق وجار لاصحبته عافية. جارك مرآك إن لم ينظر وجهك نظر قفاك. جا كتاب من عند خاله قال كل من هو فى حاله. جا كتاب من عند عمه قال كل من هو ملهى بهمه. جاءوا ينعلوا خيل الباشا مدت أم قويق رجلها. جوزوها له مالها إلا له. جوزوا مشكاح لريما ما على الاثنين قيمة.

حرف الحاء المهملة: حاجة لاتهمك وصى عليها زوج أمك. حول حببى ما عونته وقدرته مع كانونة. حمار خنكوه بالتوت على باب الغيط يموت. حلينا القلوع وأرسيينا وأصبحنا على ما أمسينا. حب ووارى وكره ودارى. حدثنى ونصحتنى عايرتنى وفرحتنى. حط فليساتك فى كمك واشتر أبوك وأمك. حبة قرص تخرب أرض.

حرف الخاء المعجمة: خذنى وارغبى فيه. أنا حصاد ملوخية وعند الخبز آكل مية وعند الشغل ما لى نية. خبثت لى وصلحت لك. خذ ذا الصبى فوق صبيانك تمام لأحزانك. خزينة فى جره وملحه فى صره. خبزه بلا أدام ويعزم على الجيران.

حرف الدال المهملة: دار الظالم خراب ولو بعد حين. درهم لك ودرهم عليك لا لك ولا عليك. دواء ما لاتشتهى النفوس تعجيل الفراق.

حرف الذال المعجمة: ذا درب مايسد ريح. ذى ما هى رمانة إلا قلوب ملانة. ذا لى وذا أيدى عليه. ذى مائدة ما يقعد عليها طفيلى. ذا الخبز ما هو من ذا العجين. ذا الولد خرا من ظرفه كل من شال رجله حك أنفه. ذكروا مصر القاهرة قامت باب اللوق بحشائشها. ذكروا المدن جاءت القرى تحجل.

حرف الراء المهملة: راح ذاك الزمان بناسه وجا هذا الزمان بفاسه. وكل من تكلم بالحق كسروا راسه. رأوا حجار راكب حيط قالوا: إلى أين يا حجار قال: مسافر. قالوا: من كانت هذه المطية مطيته لايشرق ولا يغرب. رأوا سكران يقرأ قالوا: غن تشاكل روحك. رأوا شيخاً يتهجى قالوا يختم على الصراط. رأوا وردانة على سنداس قالوا: مالذى الفسيقة إلا ذى البليطة. رأوا على قبره مكتوب ياسعادة ساكنه، قالوا: ابصر من يزاحمه. راكب بلاش ويناغش مراة الرئيس. ركبك وراى حطيت يدك فى الخرج. راح الجندى وخلقى خلقه عندى. رزق الكلاب على المجانين. راسين فى عمامة ما يكون. راحت على جمل، وجاءت على قطة قال مالذى الشيلة إلا ذى الحطة. ركبت خنفسة زمر زنبور قال: ماذا الجوق الجليل إلا لمقطعات النيل.

قال الشاعر:

ش بـفـ _____ ضـله بين الورى
ووجـودهم مـثـل الخـرا

راح الذى كـنا نـعـيـ _____
وبقى الذين حـيـيـ _____ اتهم

حرف الزاى المعجمة: زقزوق على بركة يضحك وهو ضحكة. زاوية بلا عيش بنيت ليش. زوج القصيرة يحسبها صغيرة. زوجت بتنى أقعد فى دراها جاتنى وأربعة وراها.

قال الشاعر :

زوجت بنتی تنسست
جاء غزلها في اكلها

ویمتلی بیستی قمم اش
ونیکھ طلع بلاش

زنبور زن علی حجر مسن، قال له: إیش ترید قال: الحسك قال: أنا الحس البولاد. زنبور زن علی فلس جحش، قال له: إیش تطلب قال: له عسل. قال له: قصدت معدن یادندن.

حرف السين المهملة: سل المجرب ولا تنس الطيب. سموك مسحر قال فرغ رمضان. سموك جبل قال وطولت. سموك راجح قال إن شاء الله تجي الحق. سبع وزر ولا استتر.

قال الشاعر :

سَيِّغْنِي اللَّهُ عَنْ بَقَرَاتٍ دَنَ وَيَأْتِي اللَّهُ بِالسَّلْبِ حَلِيبَ

وقال آخر :

سَيِّغْنِي اللَّهُ عَنْ زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَيَأْتِي اللَّهُ بِالْفُجَرِ الْقَرِيبِ

حرف الشين المعجمة: شره ووضيع ويغضب سريع. شيء ما نابِه وتقطعت ثيابه. شعر يحلق وشعر ما يحلق. شرب السموم القاتلة ولا الحاجة إلى السفل. شمنى ولا تدعكنى. شيء ما يجيء على القلب عنايته صعبة. شراء العبد ولا تربيته. شخت بغلة عامت زيلة.

حرف الصاد المهملة: صام سنة وفطر على بصلة. صبرى على الحبيب ولا فقدته. صاحب يضر عدو مبين. صباح الفوال ولا صباح العطار. صباحك يا أعور قال ذى خناقة بايته. صباح الخير يا جارى أنت فى دارك وأنا فى دارى.

حرف الضاد المعجمة: ضرب الحبيب كأكل الزبيب. ضربتین فی الرأس تعمی. ضرب ويكى وسبق يشتكى. ضربة على كيس غيرى كأنها فى عدل حنا. ضمنتوا حداية لغراب قال: الكل يطيروا. ضربوا بياع الكسبرة خرى بياع التوم، قال ذى داهية جات على الخضرية.

حرف الطاء المهملة: طارت الطيور بأرزاقها. طفيلي ويجلس فى الصدر. طفيلى ويقترح. طويل الكم خطار قليل
الفرح فى الدار. طبق وجارية على صحن بسارية. طبلوا جاكم عثمان يد من ورا ويد من قدام. طعامك ما جانى
ودخانك عمانى. طار طيرك وأخذه غيرك. طول ما أعيش يكفينى رعى الحشيش. طول الغيبة وجانا بالخيبة.

حرف الظاء المعجمة: ظهر ك عندى نصف الليل.

حرف العين المهملة: عنقود مدلى فى الهوا من لا يصل إليه يقول حامض ولا استوى. عشق بداله لا أباله. عاشق ما يسمع بكاء صغير. عاشق ما يسمع كلام مفارق. عاشق مقل شيء ما زرع إيش جا يستغل. عزومة حسبت عليك كل ويحلق عينيك. عند المخاضة بيان القليلط. عند الطعان بيان الفارس من الجبان. عريان التينة وفى حزامه سكيانة. عريان وفى كمه ميزان.

حرف الغين المعجمة: غابت السباع ولعبت الضباع. غربه وكربه ما يحمل الحال. غطاس وقلقاس نحسين في قدره. غالى السوق ولارخيص البيت.

حرف الفاء: فرجة بلا كسر تعمى البصر. فقير ونفير وكلامه كثير ويقول هاتوا عشا من يخنى. فوق الشراطة ملخ أودانة. فارس خرا ويسوق فى الوحل. فارس خرا واسمه عتتر. فارس خرا ويسابق الخيل. فرد ضربة فى الرأس تكفى. فصدوا قرد شرط قالوا به دم زايد. فرغت الرعاية يا جاثم.

حرف القاف: قالوا للأعمى زوق عصاتك قال هو أنا محب فيها. قالوا للحمار اجتزر قال مضغ المحال ما ينطلى. قالوا للقرد شب قال: أيادى ملاح وتمسك الماصول. قالوا للقرد اطلب من ربك قال هو أنا عنده بوجه يبسط. قالوا للجمل زمر قال لا شفف ملمومة ولا أيادى مفرودة. قالوا للذبة طرزي قالت ذى خفة أيادى. قالوا للكلاب احرثوا قالوا ما جرت بهذا عادة. قالوا للغراب مالك تسرق الصابون قال الأذى طبعى. قالوا لبقر الديوان إذا متم يكفنوكم فى حرير قالوا اشتبهنا نروح بجلودنا. قالوا للغزاة ارحلى حركت ذنبها. قالوا للعرب ارحلوا حملوا المناسف.

حرف الكاف: كل من عودته بأكلك كلما نظرك جاع. كشكار دايم ولا علامة مقطوعة. كل كرها واشرب كرها ولا تعاشر كرها. كل هم كاوى عند همى ياوى. كل شىء لا يشبه قانيه حرام. كل مائة عصفور ما يجو حداية. كل ألف مصة ما يجو بغصة. كل ألف بوسة ما يجو بعبوسة. كملت يا لحمان بالشعر والصنان. كمل حبيى كل المعانى أعرج وقليط ومعجبانى. كمل حبيى وأكمل أعرج وقليط وأحول وفيه عادة أخرى لمن يواصل يخرا. كأنه خان للغجر ولا يوحشه من غاب ولا يؤانسه من حضر. كأنه من طواحين الكشكار داير على رجل الفار. كأنه عصفور بينك بلاش ويأوى فى الأعشاش.

حرف اللام: لولاك ياكى ما كلت يافى. لولاك يالسانى ما انكسيت ياقفاى. لولا الغيرة والحسد كانت العجوزة كفت بلد. لولا أختك ماصرت ابن عمك. لو قليناها بلية ما جاءت هكذا. لو كان فيها خير ما رماها طير. لك وعليك ما يصعب عليك. لك أسوة بغيرك. لقمة بدقة ولا خروف بزقة. لقمة تحت حيلة ولا خروف بعيطه. لو سلم الكرم من حارسه طابت مغارسه. لو تقطع يده وتدليها من فيه صنعة ما يخليها. لو عمل لى من الذهب وليمة هو عندى بتلك العين القديمة. لو شال رأسه إلى السما كأنه عصيدة بما. لو نظر الجمل لصنمه كان كدمه. لولا الكشط والبراية ما كانت لأولاد الخرا كتاب.

حرف الميم: محبة بلا حبه ما تساوى حبه. ما شلتك يا دمعى إلا لشدتى. من عاشر غير جنسه دق الهم صدره. من قدم النحس تعب فى تأخيره. من عاشر الحداد احترق بناره. من عاشر الزبدانى فاحت عليه روايحه. من ركب فى غير سرجه وغرزه دخل الهوا إسته وهزه. من لا يحط يده لزندة ما يعرف حره من برده. ما رأيتك يا نور حتى ابيضت العيون. ما لى على فراقكم جلد إلا هجاجى من البلد. ما كفانا هم أبونا قام جاب أبوه. وقال خذوا جدكم ربوه. من عدم نابه ونصابه و ثيابه وشبابه كان الموت أولى به. من يكلم القبح يروح عرضه وينفضح. ما تنقدوهم كلهم زغليه ما فيهم من يعجب النقاد. من أولاد الزنا مر العنا.

حرف النون: نواية تسند الجره قال وتسند الزير الكيسر. نفسك أتلفت أى شىء أخلفت. نصف البلا ولا البلا كله. ناقص ونحاس. ناموسة باتت على شجرة أصبحت تقول خاطرك قالت لها: وأنت كنت على أى ورقة. نيتك مطيتك. نسيت يا فلاح ما كنت فيه كعبك المشقق والوحل فيه. نيك حتى تبقى ديك.

حرف الهاء: هانت الزلاية حتى أكلها بنو وائل. هان المسك وانتشر. هدية تعر قومها تخليتها ولا لومها. هدية الأحباب على ورق السداب. قال هو أعمى عن ورق الوز. هو عرس تأكل وتنسل. أهدوا هدية وأعينهم فيها يقول الله يردما. هاتوا ذا الغزل المخبل لذا القلب المدبل.

حرف الواو: واحد نتفه وآخر لقفه وقال آخر ياقريب الفرج. واحد يخطبوا له وهم قائم عليه قال أنا فى حاجتك. واحد جائر رأى قرد يجرش ترمس قال مالذى الفاكهة البدرية إلا ذى الصورة القمرية. واحد سموه عنبر وصنعتة سرباتي، قال الذى كسبه فى الاسم خسره فى الصنعة. وحش ويكش ويقعد فى الوش ويغنى بلينا بكم. وقت أكل الدجاج ما يفتكرونى وفى وقت شيل التراب هات يدك. وإيش قام على تومه بفضل الحكومة وقت الشوا واليخنى ما

قلت يا أخى الحقنى ووقت ضرب الدرہ قلت اصفعوا واصفعنى .

حرف اللام ألف: لاتعيرنى ولا أعيرك الدهر حيرنى وحيرك . لا أصل شريف ولاوجه ظريف . لا أخوك ولا ابن عمك تشقق ثوبك على إيش . لا عاش بليق . لاحراس ولا دراس . لا عاش العار ولا بنى له دار . لا ربح ثوابه ولا خلاه لأصحابه . لا فى الفراق نجد راحة ولا فى الوصل . لاتشكرن فتى حتى تجربه . لاتفرح لمن يروح حتى تنظر من يجرى . لا يضر السحاب نبج الكلاب . لا يغرك نظريفى الأصل فى ريقى .

حرف الياء: ياشب مليح ما أحسن وصفك لا فى يدك ولا طرفك . يا ويل من ذاق الغنى بعد جوعه يموت وفى قلبه من الهم واجس . يطارق الباب بعد العشى لاتطرق الباب ما تم شى . يا من ملنا ما كان حلنا . لسا ما لنا فى العشرة سنة . يهنيكم قدومه قد جاكم بشومه . ياليتنا انكسرنا ولا بك انتصرنا . يا ويل من كان عشيّه من بيت خيه . ياطالب الشر بلا أصل تعال للصائم بعد العصر .

أمثال النساء

حرف الألف: أحبك يا سوارى مثل معصمى . الذى فى قلب أم حنين تحلم به فى الليل . إن كتنى حرة لاتضيعى نقابك بره . إن لم تعملى وتفتخرى وإلا اقعدى وانعفرى . إن كانت الداية أحسن من الوالدة قال ذى داهية عياره . الكلام لك ياجاره إلا أنت حماره . إيش تعمل الماشطة فى الوجه المشووم . إيش قام على الحزينة بالنقش والزينة . إيش ينفع النفخ فى الوجه الأصم . أرمله عدس ومتزوجه عدس . اقعدى بعدسكى اسم الزوج ولاطعم الترميل . العاقلة فينا تزنى يقطينا . إذا كان زوجى راضى إيش فضول القاضى . استعارت الرعنة شىء حسبته لها أخذت المقص ودارته لها . اقعدى فى عشك حتى يجرى حد ينشك .

حرف الباء الموحدة: بعد أن كتنى لى وحدى بقيت أسمع أخبارك . بعد سنة وشهرين جابت بنت بشقرين . بعد أن كان زوجها بقى طباخ فى عرسها . بعد مشيك فى الحلقة بقالك سلالم وغرفه واسمك ستيته . بعد أمى وأختى الكل جيرانى . بينما تنتقب الحولة انصرف القاضى . بنت الخرا تزف لابن الخرا بدف . باتت ناموسة على جميزة قالت صبحك الله بالخير قالت من درى بك قبله . بدال ما تمشى وتهزى كتفك رقى فردة خفك . بخرا أو تراحم بالبوس . بقى لأم سيسى برقع وللصفدة زماره . بعد مشيك فى الخلافى لبستى الصافى . بعيد على الحزينة تستعمل الزينة .

حرف التاء: تابت القعبة يوم وليلة وقالت ما بقى فى البلد حكام . تضاربت المجنونة والحمقاء حسبته الرعنة من حقا . تضارب وتتعرى وتصيح ياقله رجالى . تأخذوا أبونا وتكابرونا . ترتانه وبيبانه ومفاتيح الخزانة . تباغت الرعنة بشعر بنت أختها . تخلونى وإلا استحل بجارنا قالت إذا كان ذا فى قلبك خذيه بلا استحلال . تتغمسى بالخارج ولا تخلقى الغنج . تقعد عيوشه فى ديارتها ما لأحد حاجة فى زيارتها .

حرف الثاء: ثوب سيدى ثوب حيبى ثوب ستى ثوب قعبه .

حرف الجيم: جاره بجاره والعداوه خساره . جانى عدولى ورتالى ما هى محبه إلا شماته لى . جاريه وزبيده على باذنجان مقلية . جاتنا العدو مكحلة قطران لا غيره وقلبها فرحان . جاب ثيابه يغسلهم بلا صابونه معهم .

حرف الحاء المهملة: حوله وتنتقب بنخ . حزانى ما عندهم دقيق اشتروا لهم منخل رقيق . حزانى ما عندهم خبز اشتروا لهم بعشرة ملوخية . حزينة وواعية . حيلة ومرضعة وعلى كتفها أربعة ، وطلعت الجبل تجيب دوا للحبل . حوله ونصرانية لاملوحة ولا أصل طيب . حزينة ما لها مملوك سمت زنبورها خوشكلام . حزينة مالها ملك اكرت لها بواب . حزينة مالها كاملية طلبت لها خف وشعرية .

حرف الخاء المعجمة: خطبوها تعززت وكان زمان البوار . خلت زوجها مكروب وراحت تشوف المصلوب . خذى قطيفة واكتمى سرى قالت ما يطاوعنى قلبى . خلت ما يعينها واتبع حك رجلها .

حرف الدال المهملة: درى زوجك بكتبك تى نهارك مع ليلتك . دق من أسفل ولا تطلع ما أنت على القلب .

حرف الذال المعجمة: ذكرت العجوز أطلالها.

حرف الراء: رقصتى ما أحستى كان قعادك أجمل. رعنا يضحكوا بها وهى تضحك تساعدهم. رأوا جاموسه منقبه بحصير قالوا ما لذا الشكل الوضع إلا ذا القماش الرفيع. راحت تبيع ربه غابت جمعة. راحت رجال الهية وبقيت رجال الخية. راحت رجال اللحم والقلقاس وبقيت رجال الخبز بالفسفاس. رأوا خنفسة على مكنسة قالوا ما لذي الصيفة إلا ذا الحمار الأزعر.

حرف الزاى: زمر بالزميميره تبان لك العاقله من المجينينه. زوجى ما حكم على قام لى عشيقى بشمعة. زوجوا بنت نشادى لسرباتى قالوا قليلات الخرا تندحرج لبعضها.

حرف السين المهملة: سودا وتتنقش بسباخ سودا. سألوها عن أبيها قالت جدى شعيب.

حرف الشين المعجمة: شدى قرطاسك من عند موسى قالوا داشى ما فرحتى به وأنتى عروسة وشامته ومعزية.

حرف الصاد المهملة: صارت القعبة واعظة. صارت القويقة شاعرة.

حرف الضاد المعجمة: ضحك ابن سنة غمى على أمه قالت ما أخف دمه.

حرف الطاء المهملة: طلعت ترحم نزلت تتوحم.

حرف الظاء المعجمة: ظريفة وعفيفة ولها نفس شريفة.

حرف العين المهملة: عميا تحفف مجنونة وتقول حواجبك سود مقرونة. عاقلة جابت طفلة وجاتها خطار واشتروا لها قلحاس ذكر وحطب أخضر فى نهار مطر وقالوا لها اطبخى. على قدر لمحة تقع الصلحة. عجوزة وجابت غلام إذا جنت لا تلام. عجوزة وخرفانة دى داهيه كمانه.

حرف الغين المعجمة: غيرك يقوم مقامك عlish قلبى أعذبه.

حرف الفاء: فرحت حزينة خربت مدينة.

حرف القاف: قالوا للمغانى اتزوقوا قلبوا عصايهم. قعبة ما كنست بيتها كنست المسجد. قالوا دى قعبة تطلب الثواب.

حرف الكاف: كل من تبعت هواها صارت سراويلها رداها. كبرتى يا برقوقة وبقي لك دبوقه. كانوا مغانى صاروا ملاهى. كلى قلبه وباتى هنيه كأنها من الباسطية قماش على جريدة. كأنها حزمة فجل أصفر وعرقها أخضر. كأنها من عمائم اليهود صفرا طويلة رفيعة. كأنها من بيت الوالى ما يتحدث فيها سوى الحاشية. كأنها ضبه جعيدى مخلوعة ولا تأخذ شىء.

حرف اللام: لو كان ما ينقش إلا السمان بارت المواشط من زمان. للساعة ما حبلت جابت المرسين. لولا المعايير ما كانت الحراير.

حرف الميم: ماشطة وتمشط بتتها. من افكرنا بياسميننا ما نسينا. منقبة قفل على خزانة.

حرف النون: نواية تسند الجره قال وتسند الزير الكبير.

حرف الهاء: هش يا دبانة أنا حبلى من مولانا.

حرف الواو: وجه لايرى بالذهب يشتري.

حرف اللام ألف: لا أنتى مليحة ولا تغنى بايش تدلى. لا راحت ولا جات كما هى.

حرف الياء: يعيش المدلل بلا مكلل. يا غزالة الأقمار أين كنتى بالنهار. يا ما تحت النقاب والشعرية من كل بلية. يا من ملنا ما كان حلنا للساعة ما لنا فى العشرة سنة.

فى البيان والبلاغة والفصاحة وذكر الفصحاء من الرجال والنساء وفىه فصول

الفصل الأول فى البيان والبلاغة

أما البيان فقد قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن: ١ - ٤] وقال عليه السلام: «إن من البيان لسحرا». قال ابن المعتز^(١): البيان ترجمان القلوب وصيقل العقول. وأما حده فقد قال الجاحظ^(٢): البيان اسم جامع لكل ما كشف لك عن المعنى.

وأما البلاغة فإنها من حيث اللغة هى أن يقال: بلغت المكان إذا أشرفت عليه وإن لم تدخله. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَامْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢]. وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِاللِّغَةِ﴾ [القلم: ٣٩]. أى وثيقة كأنها قد بلغت النهاية. وقال اليونانى: البلاغة وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة. وقال الهندى: البلاغة تصحيح الأقسام، واختيار الكلام. وقال الكندى: يجب للبليغ أن يكون قليل اللفظ كثير المعانى. وقيل: إن معاوية سأل عمرو بن العاص من أبلغ الناس؟ قال: أقلهم لفظاً، وأسهلهم معنى، وأحسنهم بديهة. ولو لم يكن فى ذلك الفخر الكامل لما خص به سيد العرب والعجم عليه السلام وافتخر به حيث يقول: «نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم». وذلك أنه كان عليه الصلاة والسلام يتلفظ باللفظ اليسير الدال على المعانى الكثيرة. وقيل: ثلاثة تدل على عقول أصحابها، الرسول على عقل المرسل، والهدية على عقل المهدي. والكتاب على عقل الكاتب. وقال أبو عبد الله وزير المهدي: البلاغة ما فهمته العامة ورضيت به الخاصة. وقال البحترى: خير الكلام ما قل وجل ودل ولم يمل. وقالوا: البلاغة ميدان لا يقطع إلا بسوابق الأذهان، ولا يسلك إلا ببصائر البيان.

وقال الشاعر:

لك البلاغة ميدانٌ نشأت به وكلنا بقصصور عنك نعترفُ
مهَّد لى العذر فى نظم بعثت به من عنده الدرّ لأيهدى له الصَّدفُ

وروى أن ليلى الأخيلية مدحت الحجاج فقال: يا غلام اذهب إلى فلان، فقل له يقطع لسانها، قال: فطلبت حجماً فقالت: ثكلتك أمك إنما أمرك أن تقطع لسانى بالصلة، فلولا تبصرها بأنحاء الكلام ومذاهب العرب والتوسعة فى اللفظ ومعانى الخطاب لتم عليها جهل هذا الرجل.

وقال الثعالبى: البليغ من يحول الكلام على حسب الأمالى، ويخيط الألفاظ على قدر المعانى. والكلام البليغ ما كان لفظه فحلاً، ومعناه بكرة. وقال الإمام فخر الدين الرازى رحمة الله تعالى عليه فى حد البلاغة: إنها بلوغ الرجل بعبارة كنه ما فى قلبه مع الاحتراز عن الإيجاز المخل، والتطويل الممل، ولهذه الأصول شعب وفصول لا يحتمل كشفها هذا المجموع ويحصل الغرض بهذا القدر وبالله التوفيق إلى أقوم طريق.

الفصل الثانى: فى الفصاحة

قال الإمام فخر الدين الرازى رحمة الله تعالى عليه: اعلم أن الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد، وأصلها من

(١) ابن المعتز: هو عبد الله بن محمد بن المعتز بالله بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العباسى، أبو العباس الشاعر المبدع، خليفة يوم وليلة، كان مولعاً بالأدب وكان يقصد فصحاء العرب ويأخذ منهم، وصنّف كتباً منها: «الزهر والرياض» و«البديع» و«طبقات الشعراء» وغيرها توفى سنة (٢٩٦هـ - ٩٠٩م).

(٢) الجاحظ: هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى بالولاء، اللبى، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، مولده ووفاته بالبصرة، قتلته مجلدات مكتبته حيث وقعت عليه، له تصانيف كثيرة منها «الحيوان» و«البخلاء» و«البيان والتبيين» وغيرهم توفى سنة (٢٥٥هـ - ٨٦٩م).

قولهم أفصح اللب إذا أخذت عنه الرغبة. وأكثر البلغاء لا يكادون يفرقون بين البلاغة والفصاحة، بل يستعملونها استعمال الشئيين المترادفين على معنى واحد في تسوية الحكم بينهما. ويزعم بعضهم أن البلاغة في المعاني، والفصاحة في الألفاظ، ويستدل بقولهم معنى بليغ ولفظ فصيح.

وقال يحيى بن خالد: ما رأيت رجلاً قط إلا هبته حتى يتكلم، فإن كان فصيحاً عظم في صدرى، وإن قصر سقط من عيني.

وقد اختلف الناس في الفصاحة، فمنهم من قال: إنها راجعة إلى الألفاظ دون المعاني، ومنهم من قال: إنها لاتخص الألفاظ وحدها واحتج من خص الفصاحة بالألفاظ بأن قال: نرى الناس يقولون هذا لفظ فصيح، وهذه الألفاظ فصيحة، ولا نرى قائلاً يقول: هذا معنى فصيح، فدل على أن الفصاحة من صفات الألفاظ دون المعاني، وإن قلنا إنها تشمل اللفظ والمعنى لزم من ذلك تسمية المعنى بالفصيح، وذلك غير مألوف في كلام الناس، والذي أراه في ذلك أن الفصيح هو اللفظ الحسن المألوف في الاستعمال بشرط أن يكون معناه المفهوم منه صحيحاً حسناً. ومن المستحسن في الألفاظ تباعد مخارج الحروف، فإذا كانت بعيدة المخارج جاءت الحروف متمكنة في مواضعها غير قلقة ولا مكدودة، والمعيب من ذلك كقول القائل:

لو كنت كنتَ كتمت الحب كنت كما كُنا وكنت ولكن ذاك لم يكن
وكقول بعضهم أيضاً:

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف
وكقول الآخر:

وقبر حرب بمكان قـفـر وليس قرب قبر حرب قبر

قيل: إن هذا البيت لا يمكن إنشاده في الغالب عشر مرات متوالية إلا ويغلط المنشد فيه لأن القرب في المخارج يحدث ثقلًا في النطق به. وقيل: من عرف بفصاحة اللسان لحظته العيون بالوقار. وبالفصاحة والبيان استولى يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام على مصر وملك زمام الأمور وأطلعه ملكها على الخفى من أمره المستور. قال الشاعر:

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده ولم يبق إلا صورة اللحم والدم

وسمع النبي ﷺ من عمه العباس كلاماً فصيحاً فقال: بارك الله لك يا عم في جمالك. أي فصاحتك. وعرضت على المتوكل جارية شاعرة، فقال أبو العيناء^(١) يستجيزها أحمد الله كثيراً. فقالت: حيث أنشاك ضريراً. فقال: يا أمير المؤمنين قد أحسنت في إساءتها فاشتريها. وقال فيلسوف: كما أن الآنية تمتحن بأطيانها، فيعرف صحيحها من مكسورها، فكذلك الإنسان يعرف حاله من منطقته. وقال المبرد^(٢) قلت للمجنون أجزنى هذا البيت:

أرى اليوم يوماً قد تكاثف غيمه وإبراقه فالـيوم لاشك ماطر

(١) أبو العيناء: هو محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر الهاشمي، بالولاء، أبو العيناء، أديب فصيح، من ظرفاء العالم، ومن أسرع الناس جواباً، اشتهر بنوادره ولطائفه، كان ذكياً جداً، حسن الشعر، مليح الكتابة والترسل، خبيث اللسان في سب الناس والتعريض بهم، كف بصره بعد الأربعين، توفي في البصرة سنة (٢٨٣هـ - ٨٩٦م).

(٢) المبرد: هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد، إمام العربية ببغداد في زمنه، وأحد أئمة الأدب والأخبار ولد بالبصرة سنة (٢١٠هـ) ومن تصانيفه (الكامل) و(إعراب القرآن) و(المقتضب) توفي ببغداد سنة (٢٨٦هـ - ٨٩٩م).

فقال:

وقد حجبت فيه السحاب شمسَه كما حجبت وردَ الحدود المحاجرُ

وقال عبد الملك لرجل: حدثني، فقال: يا أمير المؤمنين افتتح، فإن الحديث يفتح بعضه بعضاً. وقال الهيثم بن صالح لابنه: يا بني إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب، قال يا أبت فإن أنا أكثرت وأكثرت يعني كلاماً وصواباً، قال: يا بني، ما رأيت موعوظاً أحق بأن يكون واعظاً منك. وقال الشعبي^(١): كنت أحدث عبد الملك بن مروان وهو يأكل فيحبس اللقمة فأقول: أجزها أصلحك الله، فإن الحديث من وراء ذلك، فيقول: والله لحديثك أحب إليّ منها. وقال ابن عيينة^(٢): الصمت منام العلم، والنطق يقظته، ولا منام إلا بتيقظ ولا يقظة إلا بمنام. قال ابن المبارك^(٣):

وهذا اللسان يريد الفؤاد يدلّ الرجل على عقله

ومرّ رجل بأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، ومعه ثوب، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: أتبيعه؟ فقال: لا، رحمك الله، فقال أبو بكر: لو تستقيمون لقومت ألسنتكم، هلا قلت لا ورحمك الله.

ومنه: ما حكى أن المأمون سأل يحيى بن أكثم عن شيء، فقال: لا، وأيد الله أمير المؤمنين، فقال المأمون: ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها. وكان الصاحب يقول: هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ. ويقال: اللسان سبع صغير الجرم عظيم الجرم، وقال بعضهم شعراً:

سحبان يقصر عن بحور بيانه عجزاً ويفرق منه تحت عباب

وكذا قسّ ناطقٌ بعكازه يعيماً لديه بحجة وجواب

وقيل: إنه حجّ مع ابن المنكدر شابان، فكانا إذا رأيا امرأة جميلة قالوا: قد أبرقنا، وهما يظنان أن ابن المنكدر لا يظن، فرأيا قبة فيها امرأة، فقالوا: بارقة وكانت قبيحة، فقال ابن المنكدر: بل صاعقة. وكان أصحاب أبي علي الثقفي إذا رأوا امرأة جميلة يقولون: حجة، فعرضت لهم قبيحة، فقالوا: داحضة. وكتب إبراهيم المهدي: إياك والتبع لو حشى الكلام طمعاً في نيل البلاغة فإن ذلك العناء الأكبر، وعليك بما سهل مع تجنبك الألفاظ السفلى. ويقال: القول على حسب همة القائل يقع. والسيف بقدر عضد الضارب يقطع. وقال الأحنف: سمعت كلام أبي بكر حتى مضى، وكلام عمر حتى مضى، وكلام عثمان حتى مضى، وكلام علي حتى مضى رضي الله تعالى عنهم، ولا والله ما رأيت فيهم أبلغ من عائشة. وقال معاوية رضي الله عنه: ما رأيت أبلغ من عائشة رضي الله تعالى عنها، ما أغلقت باباً فأرادت فتحه إلا فتحته، ولا فتحت باباً فأرادت إغلاقه إلا أغلقت.

ومن غريب الكنايات الواردة على سبيل الرمز، وهو من الذكاء والفصاحة ما حكى أن رجلاً كان أسيراً في بني بكر ابن وائل وعزموا على غزو قومه، فسألهم في رسول يرسله إلى قومه، فقالوا: لا ترسله إلا بحضرتنا لثلاثتهم وتحذرهم، فجاءوا بعبد أسود، فقال له: أتعتقل ما أقول لك، قال: نعم إني لعاقل، فأشار بيده إلى الليل، فقال: ما هذا؟ قال: الليل، قال: ما أراك إلا عاقلاً، ثم ملأ كفيه من الرمل وقال: كم هذا؟ قال: لا أدري وإنه لكثير، فقال: أيما أكثر التجوم أم النيران؟ قال: كل كثير، فقال: أبلغ قومي التحية، وقل لهم يكرموا فلاناً يعني أسيراً كان في أيديهم من

(١) الشعبي: هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار، الشعبي الحميري، أبو عمرو، راوية من التابعين، يضرب المثل بحفظه، ولد سنة (١٩هـ)، اتصل بعبد الملك بن مروان، وكان يقول: لأحدثني رجل بحديث إلا حفظته، وكان فقيهاً شاعراً، توفي سنة (١٠٣هـ - ٧٢١م).

(٢) ابن عيينة: هوسفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، أبو محمد، محدث الحرم المكي من الموالى، ولد بالكوفة سنة (١٠٧هـ)، كان حافظاً ثقة، واسع العلم كبير القدر، قال الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز، له «الجامع» في الحديث، وكتاب في «التفسير» توفي في مكة سنة (١٩٧هـ - ٨١٤م).

(٣) ابن المبارك: هو يحيى بن المبارك بن المغيرة العدوي، أبو محمد، البزدي، عالم بالعربية والأدب سكن بغداد، فصحب يزيد بن منصور الحميري (خال المهدي) يؤدب ولده فنسب إليه واتصل بالرشيد فعهد إليه تأديب المأمون، من كتبه: (النوادر) في اللغة والمقصود والممدود، توفي بمرور سنة (٢٠٢هـ - ٨١٨م).

بكر بن وائل، فإن قومه لى مكرمون، وقل لهم إن العرفج قد دنا وشكت النساء، وأمرهم أن يعرفوا ناقتى الحمراء فقد أطالوا ركوبها، وأن يركبوا جملى الأصهب بأمانة ما أكلت معكم حيساً، واسألوا عن خبرى أخى الحرث. فلما أدى العبد الرسالة إليهم قالوا: لقد جن الأعور، والله ما نعرف له ناقة حمراء ولا جملاً أصهب، ثم دعوا بأخيه الحرث فقصوا عليه القصة، فقال: قد أنذركم، أما قوله: قد دنا العرفج، يريد أن الرجال قد استلأموا ولبسوا السلاح وأما قوله: شكت النساء أى أخذت الشكاء للسفر، وأما قوله: أعروا ناقتى الحمراء أى ارتحلوا عن الدهناء، واركبوا الجملى الأصهب، أى الجبل. وأما قوله: أكلت معكم حيساً، أى أن أخلاطاً من الناس قد عزموا على غزوكم لأن الحيس يجمع التمر والسمن والأقط، فامثلوا أمره وعرفوا لحن الكلام وعملوا به فنجوا.

وأسرت طيء غلاماً من العرب، فقدم أبوه ليفديه، فاشتطوا عليه، فقال أبوه: والذى جعل الفرقدين يسميان ويصبحان على جبل طيء ما عندى غير ما بذلته ثم انصرف، وقال: لقد أعطيته كلاماً إن كان فيه خير فهمه، فكأنه قال له الزم الفرقدين يعنى فى هروبك على جبل طيء، ففهم الابن ما أراده أبوه وفعل ذلك فنجى.

وكانت علية بنت المهدي تهوى غلاماً خادماً اسمه طل، فحلف الرشيد أن لا تكلمه ولا تذكره فى شعرها، فاطلع الرشيد يوماً عليها وهى تقرأ فى آخر سورة البقرة، ﴿فإن لم يصبها وابل﴾ [البقرة: ٢٦٥]، فالذى نهى عنه أمير المؤمنين. ومن ذلك قولهم: تركت فلاناً يأمر وينهى وهو على شرف الموت، أى يأمر بالوصية وينهى عن النوح، ويقال: ما رأيت فلاناً، أى ما ضربته فى رتته، ولا كلمته أى ما جرحته، فإن الكلوم الجراح، وما رأيت ربيعاً، فالربيع حظ الأرض من الماء، والربيع النهر، وما رأيت كافراً ولا فاسقاً، فالكافر السحاب والفاسق الذى تجرد من ثيابه، وما رأيت فلاناً راکعاً ولا ساجداً ولا مصلياً، فالراعى العائر الذى كبا لوجهه، والساجد المدمن النظر، والمصلى الذى يجىء بعد السابق، وما أخذت لفلان دجاجة ولا فروجاً، فالدجاجة الكبة من الغزل، والفروجة الدراعة، وما أخذت لفلان بقرة ولا ثوراً، فالبقرة العيال الكثيرة. يقال: جاء فلان يسوق بقرة، أى عياله، والثور القطعة الكبيرة من الأقط.

وحكى أن معاوية رضى الله عنه بينما هو جالس فى بعض مجالسه وعنده وجوه الناس فيهم الأحنف بن قيس إذ دخل رجل من أهل الشام، فقام خطيباً، وكان آخر كلامه أن لعن علياً رضى الله تعالى عنه ولعن لاعنه، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين إن هذا القاتل لو يعلم أن رضاك فى لعن المرسلين للعنهم، فائق الله يا أمير المؤمنين ودع عنك علياً رضى الله تعالى عنه، فلقد لقي ربّه، وأفرّد فى قبره، وخلا بعمله، وكان والله المبرور سيفه الطاهر ثوبه العظيمة مصيبته، فقال معاوية: يا أحنف لقد تكلمت بما تكلمت، وأيم الله لتصعدن على المنبر فتلعنه طوعاً أو كرهاً، فقال له الأحنف: يا أمير المؤمنين إن تعفى فهو خير لك وإن تجبرنى على ذلك، فوالله لا تجرى شفتاى به أبداً، فقال: قم فاصعد، قال: أما والله لأنصفنك فى القول، والفعل، قال: وما أنت قائل إن أنصفتنى، قال: أصعد المنبر، فأحمد الله وأثنى عليه، وأصلى على نبيه محمد ﷺ ثم أقول: أيها الناس إن أمير المؤمنين معاوية أمرنى أن ألعن علياً، ألا وإن معاوية وعلياً اقتتلا فاختلفا، فادعى كل واحد منهما أنه مبقى عليه وعلى فتنه، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله، ثم أقول اللهم العن أنت وملائكتك وأنبيائك وجميع خلقك الباغى منهما على صاحبه، والعن الفتنه الباغية، اللهم العنهم لعناً كثيراً أمنوا رحمكم الله. يامعاوية لا أزيد على هذا ولا أنقص حرفاً ولو كان فيه ذهاب روحى. فقال معاوية: إذا نعتك يا أبا بحر.

وقال معاوية لعقيل بن أبى طالب: إن علياً قد قطعك وأنا وصلتك ولا يرضينى منك إلا أن تلعه على المنبر قال: أفعل، فصعد المنبر، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ: أيها الناس إن معاوية بن أبى سفيان قد أمرنى أن ألعن على بن أبى طالب، فالعنوه فعليه لعنة الله، ثم نزل، فقال له معاوية: إنك لم تبن من لعنت منهما بينه، فقال: والله لا زدت حرفاً ولا نقصت حرفاً، والكلام إلى نية المتكلم. ودخلت امرأة على هارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقالت: يا أمير المؤمنين: أقر الله عينك، وفرحك بما أتاك، وأتم سعدك لقد حكمت فقسطت، فقال لها: من تكونين أيتها المرأة. فقالت: من آل برمك ممن قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم، فقال: أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله، ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك، ثم التفت إلى الحاضرين

من أصحابه، فقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة، فقالوا: ما نراها قالت إلا خيراً، قال: ما أظنكم فهمتم ذلك، أما قولها أقر الله عينك، أى أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها، وفرحك بما أتاك، فأخذته من قوله تعالى: ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة﴾ [الأنعام: ٤٤] وأما قولها: وأتم الله سعدك، فأخذته من قول الشاعر:

إذا تم أمرٌ بدا نقصُهُ ترقبُ زوالاً إذا قيل، تمَّ

وأما قولها لقد حكمت فقسطت، فأخذته من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥] فتعجبوا من ذلك.

وحكى أن بعضهم دخل على عدوه من النصارى، فقال له: أطل الله بقاءك، وأقر عينك، وجعل يومى قبل يومك، والله إنه ليسرنى ما يسرك، فأحسن إليه، وأجازه على دعائه، وأمر له بصلة، وكان ذلك دعاء عليه لأن معنى قوله: أطل الله بقاءك حصول منفعة المسلمين به فى أداء الجزية، وأما قوله: وأقر عينك، فمعناه سكن الله حركتها أى أعمأها، وأما قوله: وجعل يومى قبل يومك، أى جعل الله يومى الذى أدخل فيه الجنة قبل يومك الذى تدخل فيه النار، وأما قوله: إنه ليسرنى ما يسرك، فإن العافية كما تسره تسر الآخر. فانظر إلى الاشتراك وفائدته، ولولا الاشتراك ما تهيأ لتستر مراد ولا سلم له فى التخلص قياد، وكان حماد الراوية^(١) لا يقرأ القرآن، فكلفه بعض الخلفاء القراءة فى المصحف، فصحف فى نيف وعشرين موضعاً من جملتها قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨] بالغين المعجمة والسين المهملة، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥] بالباء الموحدة ﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ [القصص: ٨] بالباء الموحدة. وقوله: ﴿وَمَا يَجْعَلُ بَيَاتِنَا إِلَّا كُلَّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢] بالجيم والباء الموحدة. وقوله: ﴿هم أحسن أثاثاً ورثياً﴾ [مريم: ٧٤] بالزاي وترك الهمزة. وقوله: ﴿عذابى أصيب به من أشياء﴾ [الأعراف: ١٥٦] بالسين المهملة. وقوله: ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة﴾ [البقرة: ١٣٨] بالنون والعين المهملة. وقوله: ﴿سلام عليكم لا تبتغى﴾ [القصص: ٥٥] بإسقاط التاء. وقوله: ﴿بل الذين كفروا فى عزة وشقاق﴾ [ص: ٢] بالغين المعجمة والراء المهملة قرن الشقاق بالغرة، وهذا لا يقع إلا من الأذكياء.

وحكى أن المأمون ولى عاملاً على بلاد، وكان يعرف منه الجور فى حكمه، فأرسل إليه رجلاً من أرباب دولته ليمتحنه، فلما قدم عليه أظهر له أنه قدم فى تجارة لنفسه، ولم يعلمه أن أمير المؤمنين عنده علم منه، فأكرم نزله وأحسن إليه، وسأله أن يكتب كتاباً إلى أمير المؤمنين المأمون يشكر سيرته عنده ليزداد فيه أمير المؤمنين رغبة، فكتب كتاباً فيه بعد الثناء على أمير المؤمنين: أما بعد، فقد قدمنا على فلان، فوجدناه آخذاً بالعزم، عاملاً بالخزم، قد عدل بين رعيته، وساوى فى أقضيته، أغنى القاصد، وأرضى الوارد، وأنزلهم من منازل الأولاد، وأذهب ما بينهم من الضغائن والأحقاد، وعمر منهم المساجد الدائرة، وأفرغهم من عمل الدنيا، وشغلهم بعمل الآخرة، وهم مع ذلك داعون لأمر المؤمنين يريدون النظر إلى وجهه والسلام. فكان معنى قوله: آخذاً بالعزم، أى إذا عزم على ظلم أو جور، فعله فى الحال، وقوله: قد عدل بين رعيته وساوى فى أقضيته، أى أخذ كل مامعهم حتى ساوى بين الغنى والفقير، وقوله: عمر منهم المساجد الدائرة، وأفرغهم من عمل الدنيا، وشغلهم بعمل الآخرة، يعنى أن الكل صاروا فقراء لا يملكون شيئاً من الدنيا، ومعنى قوله: يريدون النظر إلى وجه أمير المؤمنين، أى ليشكوا حالهم وما نزل بهم. فلما جاء الكتاب إلى المأمون عزله عنهم لوقته، وولى عليهم غيره.

وفى ذلك ما حكى: أن القاضى الفاضل^(٢) كان له صديق خصيص به وكان صديقه هذا قريباً من الملك الناصر

(١) حماد الراوية: هو حماد بن سابور بن المبارك، أبو القاسم، أول من لقب بالراوية، وكان من أعلم الناس بأيام العرب وأشعارهم وأخبارهم وأنسابهم ولغاتهم، توفى سنة (١٥٥هـ - ٧٧٢م).

(٢) القاضى الفاضل: هو عبد الرحيم بن على بن سعيد اللخمي، المعروف بالقاضى الفاضل، كان من وزراء السلطان صلاح الدين، وكان صلاح الدين يقول: لا تنظروا أنى ملكك البلاد بسيرتكم بل بقلم الفاضل، توفى رحمه الله سنة (٥٩٦هـ - ١٢٠٠م).

صلاح الدين وكان فيه فضيلة تامة فوق بينه وبين الملك أمر فغضب عليه وهم بقتله فتسحب إلى بلاد التتر وتوصل إلى أن صار وزيراً عندهم وصار يعرف التتر كيف يتوصل إلى الملك الناصر بما يؤذيه . فلما بلغه ذلك نفر منه وقال للفاضل اكتب إليه كتاباً عرفه فيه أنني أَرْضَى عليه واستعطفه غاية الاستعطاف إلى أن يحضر فإذا حضر قتلته واسترحت منه فتحير الفاضل بين الاثنين صديقه يعز عليه والملك لا يمكنه مخالفته فكتب إليه كتاباً واستعطفه غاية الاستعطاف ووعده بكل خير من الملك فلما انتهى الكتاب ختمه بالحمدلة والصلاة والسلام على النبي ﷺ وكتب إن شاء الله تعالى كما جرت به العادة في الكتب .

فشدد إن ثم أوقف الملك على الكتاب قبل ختمه فقرأه في غاية الكمال، وما فهم إن، وكان قصد الفاضل ﴿إن الملائكة يأتون بك ليقتلوك﴾ [القصص: ٢٠] فلما وصل الكتاب إلى الرجل فهمه وكتب جوابه بأنه سيحضر عاجلاً فلما أراد أن ينهي الكتاب ويكتب إن شاء الله تعالى مد النون وجعل في آخرها ألفاً وأراد بذلك ﴿إننا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها﴾ [المائدة: ٢٤]، فلما وصل الكتاب إلى الفاضل فهم الإشارة ثم أوقف الملك على الجواب بخطه ففرح بذلك .

وحكى أن بعض الملوك طلع يوماً إلى أعلى قصره يتفرج، فلاحته منه التفاتة، فرأى امرأة على سطح دار إلى جنب قصره لم ير الرءاؤون أحسن منها، فالتفت إلى بعض جواريه، فقال لها: لمن هذه؟ فقالت: يا مولاي هذه زوجة غلامك فيروز، قال: فتزل الملك وقد خامره حبها، وشغف بها، فاستدعى فيروز، وقال له: يا فيروز، قال: ليك يا مولاي، قال: خذ هذا الكتاب وامض إلى البلد الفلانية، واتنى بالجواب، فأخذ فيروز الكتاب، وتوجه إلى منزله، فوضع الكتاب تحت رأسه، وجهاز أمره، وبات ليلته، فلما أصبح ودع أهله وسار طالباً لحاجة الملك، ولم يعلم بما قد دبره الملك، وأما الملك فإنه لما توجه فيروز قام مسرعاً وتوجه متخفياً إلى دار فيروز، فقرع الباب قرعاً خفيفاً، فقالت امرأة فيروز: من بالباب؟ قال: أنا الملك سيد زوجك، ففتحت له، فدخل وجلس، فقالت له: أرى مولانا اليوم عندنا، فقال: راتر: فقالت: أعوذ بالله من هذه الزيارة، وأما أظن فيها خيراً، فقال لها: ويحك إننى الملك سيد زوجك، وما أظنك عرفتني فقالت: بل عرفتك يا مولاي، ولقد علمت أنك الملك، ولكن سبقتك الأوائل في قولهم:

سأترك ماءكم من غير وردٍ	وذاك لكثرة الورد فـيـهـ
إذا سقط الذباب على طعام	رفعت يدي ونفسي تشتهيه
وتجنب الأسود وورد ماءٍ	إذا كان الكلاب ولغـنـ فـيـهـ
ويرتجع الكريم خميص بطنٍ	ولا يرضى مساهمة السفـيـهـ

وما أحسن يا مولاي قول الشاعر:

قل للذي شَفَّه الغرامُ بنا	وصاحب الغدر غير مصحوب
والله لا قال قائل أبداً	قد أكل الليث فضلة الذيب

ثم قالت: أيها الملك تأتى إلى موضع شرب كلبك تشرب منه، قال: فاستحيا الملك من كلامها وخرج وتركها، فنسى نعله في الدار، هذا ما كان من الملك . وأما ما كان من فيروز، فإنه لما خرج وسار تفقد الكتاب، فلم يجده معه في رأسه، فتذكر أنه نسيه تحت فراشه، فرجع إلى داره، فوافق وصوله عقب خروج الملك من داره، فوجد نعل الملك في الدار، فطاش عقله، وعلم أن الملك لم يرسله في هذه السفارة إلا لأمر يفعله، فسكت ولم يبد كلاماً، وأخذ الكتاب، وسار إلى حاجة الملك، فقضاها، ثم عاد إليه، فأنعم عليه بمائة دينار، فمضى فيروز إلى السوق، واشترى ما يليق بالنساء، وهياً هدية حسنة وأتى إلى زوجته، فسلم عليها، وقال لها: قومي إلى زيارة بيت أبيك، قالت وما ذاك؟ قال: إن الملك أنعم علينا وأريد أن تظهرى لأهلك ذلك، قالت: حباً وكرامة، ثم قامت من ساعتها، وتوجهت إلى بيت أبيها، ففرحوا بها، وبما جاءت به معها، فأقامت عند أهلها شهر، فلم يذكرها زوجها ولا ألم بها، فأتى إليه أخوها،

وقال يا فيروز: إما أن نخبرنا بسبب غضبك، وإما أن تحاكمنا إلى الملك، فقال: إن شئتم الحكم، فافعلوا، فما تركت لها على حقاً، فطلبوه إلى الحكم، فأتى معهم، وكان القاضي إذ ذاك عند الملك جالساً إلى جانبه، فقال أخو الصبية: أيد الله مولانا قاضي القضاة إنى أجرت هذا الغلام بستاناً سالم الحيطان بيثر ماء معين عامرة، وأشجار مشمرة، فأكل ثمره، وهدم حيطانه، وأخرب بثره، فالتفت القاضي إلى فيروز، وقال له: ما تقول يا غلام؟ فقال فيروز: أيها القاضي قد تسلمت هذا البستان وسلمته إليه أحسن ما كان، فقال القاضي: هل سلم إليك البستان كما كان؟ قال: نعم، ولكن أريد منه السبب لرده. قال القاضي: ما قولك؟ قال: والله يا مولاي ما رددت البستان كراهة فيها، وإنما جئت يوماً من الأيام، فوجدت فيه أثر الأسد، فخفت أن يغتالني، فحرمت دخول البستان إكراماً للأسد، قال: وكان الملك متكئاً فاستوى جالساً، وقال: يا فيروز ارجع إلى بستانك آمناً مطمئناً، فوالله إن الأسد دخل البستان ولم يؤثر فيه أثراً، ولا التمس منه ورقاً، ولا ثمرأ ولا شيئاً، ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة، وخرج من غير بأس، والله ما رأيت مثل بستانك، ولا أشد احترازاً من حيطانه على شجره، قال: فرجع فيروز إلى داره، ورد زوجته، ولم يعلم القاضي ولا غيره بشيء من ذلك والله أعلم.

وهذا كله مما يأتي به الإنسان من غرائب الكنايات الواردة على سبيل الرمز، ومنه ما يجده المستر من أمره من الراحة في كتمان حاله مع لزوم الصدق، ورضا الخصم بما وافق مراده لأن في المعارض مندوحة عن الكذب. كما روى في غزوة بدر أن النبي ﷺ كان سائراً بأصحابه يقصد بدرأ، فلقيهم رجل من العرب فقال: ممن القوم؟ فقال له النبي ﷺ: «من ماء» أخذ ذلك الرجل يفكر ويقول: من ماء من ماء يرددها لينظر أى العرب يقال لهم ماء، فسار النبي ﷺ بأصحابه لوجهته، وكان قصده أن يكتم أمره وقد صدق رسول الله ﷺ في قوله: فإن الله عز وجل قال: ﴿فليُنظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق﴾ [الطارق: ٥، ٦]. وكما روى عن أبي بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال للكافر الذي سأل عن رسول الله ﷺ وقت ذهابهما إلى الغار: هو رجل يهديني السبيل، وقد صدق فيما قال رضى الله عنه فقد هداه الله وهدانا السبيل، ولا سبيل أوضح ولا أقوم من الإسلام. وكما حكى عن الإمام الشافعي^(١) رضى الله عنه أنه لما سأل بعض المعتزلة بحضرة الرشيد ما تقول في القرآن؟ فقال الشافعي: إياي تعنى، قال: نعم. قال: مخلوق، فرضى خصمه منه بذلك، ولم يرد الشافعي إلا نفسه. وكما حكى عن ابن الجوزي^(٢) رحمه الله تعالى أنه سئل وهو على المنبر وتحت جماعه من ممالك الخليفة وخاصته، وهم فريقان قوم سنية وقوم شيعة، فقليل له: من أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر أم على رضى الله عنهما، فقال: أفضلهما بعده من كانت ابنته تحتها، فأرضى الفريقين ولم يرد إلا أبا بكر رضى الله عنه لأن الضمير في ابنته يعود إلى أبي بكر رضى الله عنه، وهى عائشة رضى الله عنها، وكانت تحت رسول الله ﷺ، والشيعه ظنوا أن الضمير في ابنته يعود إلى رسول الله ﷺ وهى فاطمة رضى الله عنها، وكانت تحت على رضى الله عنه، فهذه منه جيدة حسنة وكلمة باتت جفون الفريقين منها وسنة، والله أعلم.

الفصل الثالث: ذكر الفصحاء من الرجال

دخل الحسن بن الفضل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم، فأحب الحسن أن يتكلم، فزجره وقال: يا صبي تتكلم في هذا المقام؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت صبيّاً، فلست أصغر من هدهد سليمان ولا أنت بأكبر من سليمان عليه السلام حين قال: أحطت بما لم تحط به، ثم قال: ألسم تر أن الله فهم الحكم سليمان ولو كان الأمر بالكبر لكان داود أولى.

ولما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز، أتته الوفود، فلإذا فيهم وفد الحجاز، فنظر إلى صبي صغير السن، وقد

(١) الشافعي: هو محمد بن إدريس، أبو عبد الله، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه نسبة الشافعية ولد بغزة بفلسطين سنة (١٥٠هـ) وحمل منها إلى مكة وهو ابن ستين، وزار بغداد مرتين، قال الميرد: كان الشافعي أشعر الناس وأدبهم وأعرفهم بالفقه والقراءات وقال أحمد بن حنبل: ما أحد ممن بيده محبرة أو أوراق إلا وللشافعي في رقبته مئة، قصد مصر سنة (١٩٩هـ) وتوفي بها سنة (٢٠٤هـ - ٨٢٠م).

(٢) ابن الجوزي: هو عبد الرحمن بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج، علامة عصره في التاريخ والحديث، كثير التصانيف له: «الأذكياء وأخبارهم» و«المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» وغيرها توفي في بغداد سنة (٥٩٧هـ - ١٢٠١م).

أراد أن يتكلم فقال: ليتكلم من هن أسن منك، فإنه أحق بالكلام منك، فقال الصبي: يا أمير المؤمنين لو كان القول كما تقول لكان في مجلسك هذا من هو أحق به منك، قال: صدقت، فتكلم، فقال: يا أمير المؤمنين، إنا قدمنا عليك من بلد تحمد الله الذي من علينا بك، ما قدمنا عليك رغبة منا ولا رهبة منك، أما عدم الرغبة، فقد أمانا بك في منازلنا، وأما عدم الرهبة، فقد أمانا جورك يعدلك، فتحن وفد الشكر والسلام. فقال له عمر رضى الله عنه: عظمى يا غلام. فقال: يا أمير المؤمنين إن أناساً غرهم حلم الله وثناء الناس عليهم، فلا تكن ممن يغره حلم الله وثناء الناس عليه، فتزل قدمك وتكون من الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]. فنظر عمر في سن الغلام فإذا له اثنتا عشرة سنة، فأنشدهم عمر رضى الله تعالى عنه:

تعلّم فليس المرء يولد عـالمًا وليس أخو علم كمن هو جاهلٌ
فلإن كـبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفّت عليه المحافل

وحكى أن البادية قد حطت أيام هشام^(١)، فقدمت عليه العرب، فهابوا أن يكلموه، وكان فيهم درواس بن حبيب، وهو ابن ست عشرة سنة، له ذؤابة، وعليه شملتان، فوقعت عليه عين هشام، فقال لحاجبه: ما شاء أحد أن يدخل على إلا دخل حتى الصبيان، فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقاً فقال: يا أمير المؤمنين إن للكلام نشرأ وطياً، وإنه لا يعرف ما فى طيه إلا بنشره، فإن أذن لى أمير المؤمنين أن أنشره نشرته، فأعجبه كلامه، وقال له: أنشره لله درك، فقال: يا أمير المؤمنين إنه أصابتنا سنون ثلاث سنة أذابت الشحم وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم، وفى أيديكم فضول مال، فإن كانت لله ففرقوها على عباده، وإن كانت لهم، فعلام تحبسونها عنهم، وإن كانت لكم، فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزى المتصدقين، فقال هشام: ما ترك الغلام لنا فى واحدة من الثلاث عنراً، فأمر للبواذى بمائة ألف دينار، وله بمائة ألف درهم، ثم قال له: ألك حاجة؟ قال: ما لى حاجة فى خاصة نفسى دون عامة المسلمين، فخرج من عنده وهو من أجل القوم.

وقيل: إن سعد بن ضمرة الأسدى لم يزل يغير على النعمان بن المنذر يستلب أمواله حتى عيل صبره، فبعث إليه يقول إن لك عندى ألف ناقة على أنك تدخل فى طاعتى، فوفد عليه وكان صغير الجثة، فاقتحمته عينه وتنقصه، فقال مهلاً أيها الملك إن الرجال ليسوا بعظم أجسامهم، وإنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، إن نطق نطق ببيان، وإن صال صال بجنان، ثم أنشأ يقول:

يا أيها الملك المرجو نائله إني لمن معشر شمرى زهر
فلا تغررك الأجسام إن لنا أحلام عباد وإن كنا إلى قصر
فكم طويل إذا أبصرت جثته تقول هذا غداة الروح ذو ظفر
فلإن ألم به أمر فافظمه رأيته خاذلاً بالاهل والزمر

فقال: صدقت، فهل لك علم بالأمور، قال: إنى لأنقض منها المفتول، وأبرم منها المحلول، وأجبلها حتى تجول، ثم أنظر فيها إلى ما تؤول، وليس للدهر بصاحب من لا ينظر فى العواقب. قال: فتعجب النعمان من فصاحته وعقله، ثم أمر له بألف ناقة وقال له: يا سعد إن أقممت واسيناك، وإن رحلت وصلناك، فقال: قرب الملك أحب إلى من الدنيا وما فيها، فأنعم عليه وأدناه، وجعله من أخصى ندمائه.

وحكى أن هرقل ملك الروم كتب إلى معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه يسأله عن الشيء ولا شيء، وعن دين لا

(١) هشام: هو هشام بن عبد الملك بن مروان، من ملوك الدولة الاموية فى الشام، ولد فى دمشق سنة (٧١هـ) وبويع فيها بعد وفاة أخيه يزيد سنة (١٠٥هـ) وكان حسن السياسة، يفظاً فى أمره، يباشر الاعمال بنفسه، توفى سنة (١٢٥هـ - ٧٣٤م).

يقبل الله غيره، وعن مفتاح الصلاة، وعن غرس الجنة، وعن صلاة كل شيء، وعن أربعة فيهم الروح، ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء، وعن رجل لا أب له، وعن رجل لا أم له، وعن قبر جرى بصاحبه، وعن قوس قزح ما هو، وعن بقعة طلعت عليها الشمس مرة واحدة ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها، وعن ظاعن ظعن مرة واحدة، ولم يظعن قبلها ولا بعدها، وعن شجرة نبتت من غير ماء، وعن شيء تنفس ولا روح له، وعن اليوم وأمس وغد وبعد غد، وعن البرق والرعد وصوته، وعن المحو الذي في القمر. فليل لمعاوية لست هناك ومتى أخطأت في شيء من ذلك سقطت من عينه، فاكتب إلى ابن عباس يخبرك عن هذه المسائل. فكتب إليه فأجابه، أما الشيء فالماء، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. وأما لاشيء فإنها الدنيا تبيد وتفتنى، وأما دين لا يقبل الله غيره، فلا إله إلا الله، وأما مفتاح الصلاة، فالله أكبر، وأما غرس الجنة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأما صلاة كل شيء فسبحان الله وبحمده، وأما الأربعة الذين فيهم الروح، ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فأدم وحواء وناقصة صالح وكبش إسماعيل، وأما الرجل الذي لا أب له فالمسيح، وأما الرجل الذي لا أم له، فأدم عليه السلام، وأما القبر الذي جرى بصاحبه، فحوت يونس عليه السلام سار به في البحر. وأما قوس قزح فأمان من الله لعباده من الغرق، وأما البقعة التي طلعت عليها الشمس مرة واحدة، فبطن البحر حين انفلق لبنى إسرائيل، وأما الظاعن الذي ظعن مرة ولم يظعن قبلها ولا بعدها، فجبل طور سيناء كان بينه وبين الأرض المقدسة أربع ليال، فلما عصت بنو إسرائيل أطاره الله تعالى بجناحين، فنادى مناد إن قبلتم التوراة كشفته عنكم وإلا ألقيتها عليكم، فأخذوا التوراة معذرين، فرده الله تعالى إلى موضعه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١]. وأما الشجرة التي تنبت من ماء، فشجرة البقطين التي أنبتها الله تعالى على يونس عليه السلام، وأما الشيء الذي يتنفس بلا روح، فالصبح. قال تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]. وأما اليوم فعمل وأمس فمثل، وغد فأجل، وبعد غد فأمل، وأما البرق بمخاريق بأيدي الملائكة تضرب بها السحاب، وأما الرعد، فاسم الملك الذي يسوق السحاب وصوته زجره، وأما المحو الذي في القمر، فقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]. ولولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار، ولا النهار من الليل. ودعا بعض البلغاء لصديق له، فقال: نعم الله عليك ما أنت فيه، وحقق ظنك فيما ترجوه، وتفضل عليك بما لم تحتسبه.

وحكى أن الحجاج سأل يوماً الغضبان بن القبعثري عن مسائل يمتحنه فيها من جملتها أن قال له: من أكرم الناس؟ قال: أفقهم في الدين وأصدقهم لليمين، وأبذلهم للمسلمين، وأكرمهم للمهانيين، وأطعمهم للمساكين. قال: فمن الأم الناس؟ قال: المعطى على الهوان، المقتر على الإخوان، الكثير الألوان. قال: فمن شر الناس؟ قال: أطولهم جفوة، وأدومهم صبوة، وأكثرهم خلوة، وأشدهم قسوة. قال: فمن أشجع الناس؟ قال: أضربهم بالسيف، وأقراهم للضيف، وأتركهم للحييف. قال: فمن أجبن الناس؟ قال: المتأخر عن الصفوف المنقبض عن الزخوف، المرتعش عند الوقوف، المحب ظلال السقوف الكاره لضرب السيوف. قال: فمن أثقل الناس؟ قال: المتفتن في الملام، الضنين بالسلام، المهذار في الكلام، المقبب^(١) على الطعام. قال: فمن خير الناس؟ قال: أكثرهم إحساناً وأقومهم ميزاباً، وأدومهم غفراناً، وأوسعهم ميداناً، قال: لله أبوك، فكيف يعرف الرجل الغريب، أحسب هو أم غير حسيب؟ قال: أصلح الله الأمير إن الرجل الحسيب يدلك أدبه وعقله وشمائله و عزة نفسه وكثرة احتماله وبشاشته وحسن مداراته على أصله، فالعاقل البصير بالأحساب يعرف شمائله، والنذل الجاهل بجهله، فمثله كمثل الدرة إذا وقعت عند من لا يعرفها ازدراها، وإذا نظر إليها العقلاء عرفوها وأكرموها، فهي عندهم لمعرفتهم بها حسنة نفيسة، فقال الحجاج: لله أبوك، فما العاقل والجاهل؟ قال: أصلح الله الأمير العاقل الذي لا يتكلم هنراً، ولا ينظر شزراً، ولا يضمّر غدراً، ولا يطلب عذراً، والجاهل هو المهذار في كلامه، المنان بطعامه، الضنين بسلامه، المتطاول على إمامه، الفاحش على غلامه، قال: لله أبوك، فما الحارم الكيس؟ قال: المقبل على شأنه، التارك لما لا يعنيه، قال: فما العاجز؟ قال: المعجب بأرائه الملتفت إلى ورائه،

(١) وهو الجالس على الطعام كأنه قبة.

قال: هل عندك من النساء خير؟ قال: أصلح الله الأمير إنى بشأنهن خير إن شاء الله تعالى. إن النساء من أمهات الأولاد بمنزلة الأضلاع إن عدلتها انكسرت، ولهن جوهر لا يصلح إلا على المدارة، فمن دارهن انتفع بهن وقرت عينه، ومن شاوورهن كدرن عيشه، وتكدرت عليه حياته، وتنغصت لذاته، فأكرمهن أعفهن، وأفخر أحسابهن العفة، فإذا رلن عنها فهن أنتن من الجيفة، فقال له الحجاج^(١): يا غضبان إنى موجهك إلى ابن الأشعث^(٢) وافد، فماذا أنت قائل له؟ قال: أصلح الله الأمير أقول ما يرديه ويؤذيه ويضنيه، فقال: إنى أظنك لاتقول له ما قلت وكأنى بصوت جلاجلك تجلجل فى قصرى هذا، قال: كلا أصلح الله الأمير سأحدد له لسانى، وأجريه فى ميدانى، قال: فعند ذلك أمره بالمسير إلى كرمان، فلما توجه إلى ابن الأشعث وهو على كرمان بعث الحجاج عيناً عليه أى جاسوساً، وكان يفعل ذلك مع جميع رسله، فلما قدم الغضبان على ابن الأشعث قال له: إن الحجاج قد هم بخلعك وعزلك، فخذ حذرك، وتغذ به قبل أن يتعشى بك فأخذ حذره عند ذلك، ثم أمر للغضبان بجائزة سنية، وخلع فاخرة، فأخذها وانصرف راجعاً، فأتى إلى أرملة كرمان فى شدة الحر والقيظ وهى رملة شديدة الرمضاء، فضرب قبه فيها، وحط عن رواحله فبينما هو كذلك إذا بأعرابى من بنى بكر بن وائل قد أقبل على بعير قاصداً نحوه وقد اشتد الحر وحميت الغزاة وقت الظهيرة، وقد ظمى ظمأ شديداً، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال الغضبان: هذه سنة وردها فريضة قد فاز قائلها وخسر تاركها، ما حاجتك يا أعرابى؟ قال: أصابتنى الرمضاء وشدة الحر والظمأ، فيممت قبتك أرجو بركتها، قال الغضبان: فهلا تيممت قبة أكبر من هذه وأعظم، قال: أيتها تعنى؟ قال: قبة الأمير ابن الأشعث. قال: تلك لا يوصل إليها. قال: إن هذه أمتع منها، فقال الأعرابى: ما اسمك يا عبد الله؟ قال: آخذ، فقال: وما تعطى؟ قال: أكره أن يكون لى اسمان. قال: بالله من أين أنت؟ قال: من الأرض. قال: فأين تريد؟ قال: أمشى فى مناكبها. فقال الأعرابى وهو يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة الحر: أتقرض الشعر؟ قال: إنما يقرض الفأر. فقال: أفستسجع؟ قال: إنما تسجع الحمامة، فقال: يا هذا ائذن لى أن أدخل قبتك. قال: خلفك أوسع لك. فقال: قد أحرقنى حر الشمس، قال: ما لى عليها من سلطان، فقال: الرمضاء أحرقت قدمى، قال: بل عليها تبرد، فقال: إنى لا أريد طعامك، ولا شرابك، قال: لاتعرض لما لاتصل إليه، ولو تلفت روحك، فقال الأعرابى: سبحان الله. قال: نعم من قبل أن تطلع أضراسك، فقال الأعرابى: ما عندك غير هذا؟ قال: بلى. هراوة أضرب بها رأسك، فاستغاث الأعرابى يا جار بنى كعب. قال الغضبان: بش الشيخ أنت، فوالله ما ظلمك أحد فتستغيث، فقال الأعرابى: ما رأيت رجلاً أقسى منك أتيتك مستغيثاً فحجبتنى وطردتنى، هلا أدخلتنى قبتك وطارحتنى القريض؟ قال: ما لى بمحادثتك من حاجة، فقال الأعرابى: بالله ما اسمك، ومن أنت؟ فقال: الغضبان بن القبعثرى. فقال: اسمان منكرا ن خلقا من غضب. قال: قف متوكئاً على باب قبتى برجلك هذه العوجاء، فقال: قطعها الله إن لم تكن خيراً من رجلك هذه الشنعاء، قال الغضبان: لو كنت حاكماً لجرت فى حكومتك لأن رجلى فى الظل قاعدة ورجلك فى الرمضاء قائمة، فقال الأعرابى: إنى لأظنك حرورياً. قال: اللهم اجعلنى ممن يتحرى الخير ويريده، فقال: إنى لأظن عنصرك فاسداً. قال: ما أقدرنى على إصلاحه، فقال الأعرابى: لا أرضاك الله ولا حياك ثم ولى، وهو يقول:

لا بارك الله فى قوم تسودهم إنى أظنك والرحمن شيطانا
أيت قبته أرجو ضيافته فأظهر الشيخ ذو القرنين حرمانا

فلما قدم الغضبان على الحجاج وقد بلغه الجاسوس ما جرى بينه وبين ابن الأشعث وبين الأعرابى قال له الحجاج: يا غضبان كيف وجدت أرض كرمان؟ قال: أصلح الله الأمير أرض يابسة الجيش، بها ضعاف هزلاء إن كثروا جاعوا، وإن قلوا ضاعوا، فقال له الحجاج: ألسنت صاحب الكلمة التى بلغتني أنك قلت لابن الأشعث تغذ بالحجاج قبل أن يتعشى

(١) الحجاج: هو الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفى، أبو محمد، قائد، داهية، سفاك للدماء، خطيب ولد ونشأ فى الحجاز سنة (٤٠هـ)، وانتقل إلى الشام فلحق بنائب عبد الملك بن مروان، ثم ولاء عبد الملك مكة والمدينة والطائف ثم أضاف إليها العراق والثورة قائمة فيها، فقمع الثورة، وثبتت له الإمارة، وقال بعضهم: ما روى مثل الحجاج لمن أطاعه ولا مثله لمن عصاه، توفى سنة (٩٥هـ - ٧١٤م).

(٢) ابن الأشعث: هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندى، أمير من القادة الشجعان الدهاء، وهو صاحب الوقائع مع الحجاج، وتم له سجستان وكرمان والبصرة وفارس، توفى سنة (٨٥هـ - ٧٠٤م).

بك، فوالله لأحبسك عن الوساد، ولأنزلك عن الجياد، ولأشهرنك في البلاد، قال: الأمان أيها الأمير، فوالله ما ضرت من قيلت فيه ولا نفعت من قيلت له، فقال له: ألم أقل لك كأنى بصوت جلاجلك تجلجل في قصرى هذا، اذهبوا به إلى السجن، فذهبوا به، فقيد وسجن، فمكث ماشاء الله، ثم إن الحجاج ابنتى الخضراء بواسطة فأعجب بها، فقال لمن حوله: كيف ترون قبتي هذه وبناءها؟ فقالوا: أيها الأمير إنها حصينة مباركة منيعة، نضرة بهجة، قليل عيبها كثير خيرها، قال: لِمَ لم تخبروني بنصح؟ قالوا: لا يصفها لك إلا الغضبان، فبعث إلى الغضبان، فأحضره، وقال له: كيف ترى قبتي هذه وبناءها؟ قال: أصلح الله الأمير بنيتها في غير بلدك لا لك ولا لولدك لاتدوم لك، ولا يسكنها وارثك، ولا تبقى لك، وما أنت لها بياق، فقال الحجاج: قد صدق الغضبان ردوه إلى السجن، فلما حملوه قال: ﴿سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾ [الزخرف: ١٣] فقال: أنزلوه، فلما أنزلوه قال: ﴿رب أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾ [المؤمنون: ٢٩] فقال: اضربوا به الأرض، فلما ضربوا به الأرض قال: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخلقكم تارة أخرى﴾ [طه: ٥٥] فقال: جروه، فأقبلوا يجرونه وهو يقول: ﴿بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم﴾ [هود: ٤١] فقال الحجاج: ويلكم اتركوه فقد غلبنى دهاء وخبثاء، ثم عفا عنه، وأنعم عليه، وخلقى سبيله.

وحدث الزبير قال: دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون، وقد كانت ضياعهم أخذت، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. محمد بن عبد الملك بين يديك سليل نعمتك وغصن من أغصان دوحتك، أتأذن له فى الكلام، فقال: تكلم. فقال: الحمد لله رب العالمين ولا إله إلا الله رب العرش العظيم، وصلى الله والملائكة على محمد خاتم النبيين، ونستمع الله لحياطة ديننا ودنيانا، ورعاية أدياننا وأقصادنا ببقائك يا أمير المؤمنين، ونسأل الله أن يمد فى عمرك من أعمارنا، وأن يقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا، فإن الحق لا تغفو آثاره، ولا ينهدم مناره، ولا ينبت حبله، ولا يزول ما دمت بين الله وبين عباده، والأمين على بلاده يا أمير المؤمنين. هذا المقام مقام العائد بظلك، الهارب إلى كنفك، الفقير إلى رحمتك وعدلك من تعاود النوائب وسهام المصائب وكَلَب الدهر، وذهاب النعمة، وفى نظر أمير المؤمنين ما يفرج كربه المكروب، ويبرد غليل القلوب، وقد نفذ أمر أمير المؤمنين فى الضياع التى أفادناها نعم آبائه الطيبين، ونوافل أسلافه الطاهرين الراشدين، وقد قمت مقامى هذا متوسلاً إليك بآبائك الطيبين وبالرشيد خير الهداة الراشدين، والمهدى ناصر المسلمين، والمنصور منكل الظالمين، ومحمد خير المحمدين بعد خاتم النبيين مزدلفاً^(١) إليك بالطاعة التى أفرع عليها غصنى واحتنكت بها سنى، وریش بها جناحى، متعوذاً من شماتة الأعداء وحلول البلاء، ومقارفة الشدة بعد الرخاء يا أمير المؤمنين قد مضى جدك المنصور وعمك صالح بن على جدى وبينهما من الرضاع والنسب ما علمه أمير المؤمنين، وعرفه، وقد أثبت الله الحق فى نصابه، وأقرهم فى داره وأربابه، يا أمير المؤمنين إن الدهر ذو اغتيال، وقد يقلب حالاً بعد حال، فارحم يا أمير المؤمنين الصبية الصغار والعجائز الكبار الذين سقاهاهم الدهر كدرأ بعد صفو، ومرأ بعد حلو، وهبنا نعم آبائك اللاتى غدتنا صغاراً وكباراً وشباباً وأشياخاً وأمشاجاً فى الأصلاب، ونطقاً فى الأرحام، وقد منا فى القرابة حيث قدمنا الله منك فى الرحم، فإن رقابنا قد ذلت لسخطك، ووجوهنا قد عنت لطاعتك، فأقلنا عثرتنا يا أمير المؤمنين، إن الله قد سهل بك الوعور وجلا بك الديجور^(٢) وملا من خوفك القلوب والصدور، بك يردع الفاسق ويقمع بك المنافق، فارتبط نعم الله عندك بالعفو والإحسان فإن كل راع مسؤول عن رعيته، وإن النعم لا ينقطع المزيد فيها حتى ينقطع الشكر عليها، يا أمير المؤمنين إنه لا عفو أعظم من عفو إمام قادر عن مذنب عاثر. وقد قال الله جل ثناؤه، وتعالى قدرته: ﴿وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾ [النور: ٢٢] أحاط الله أمير المؤمنين بستره الوافى ومنعه الكافى ثم أنشد يقول:

لهم قُـربى وليس لهم تلاد
وأنت الرأس تتبعك العباد
وأرجو أن يطيب بك المعاد
وكيف يقلل سؤددك البلاد

أـمـير المؤمنين أـتـاك ركب
هم الصـدر المقـدم من قـريش
لـقد طابت بك الدنـيا ولذت
فكيف تنالكم لحظات عين

(٢) الديجور: الظلمة.

(١) مزدلفاً: مقرباً.

قال: فاستحسن المأمون كلامه وأمر له بالحلل الفاخرة والجواهر السنية، وأمر برد ضياعه وقرب منزله وأدناه، ودفع إليه من المال ما أغناه.

ومن حكايات الفصحاء ونوادر البلغاء ما حكى أن عبد الملك بن مروان جلس يوماً وعنده جماعة من خواصه وأهل مسامرته، فقال: أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه وله على ما يتمناه، فقام إليه سويد بن غفلة، فقال: أنا لها يا أمير المؤمنين، قال: هات. فقال: نعم يا أمير المؤمنين. أنف بطن ترقوة ثغر جمجمة حلق خد دماغ ذكر رقبة زند ساق شفة صدر ضلع طحال ظهر عين غيب فم قفا كف لسان منخر نغزغ هامة، وجه يد، وهذه آخر حروف المعجم، والسلام على أمير المؤمنين، فقام بعض أصحاب عبد الملك، وقال: يا أمير المؤمنين أنا أقولها ثلاثاً، فقال: هات ولك ما تتمناه، فابتدأ يقول: أنف أسنان أذن، بطن بنصر بزة، ترقوة تمرة تينة، ثغر ثنايا ثدى، جمجمة جنب جبهة، حلق حنك حاجب، خد خنصر خاصرة، دبر دماغ درادير، ذقن ذكر ذراع، رقبة رأس ركبة، زند زردمة رب، فهناك ضحك عبد الملك حتى استلقى على قفاه، ساق سررة سبابة، شفة شفر شارب، صدر صدع صلعة، ضلع ضفيرة ضررس، طحال طرة طرف: ظهر ظفر ظلم، عين عنق عاتق، غيب غلصمة غنة، فم فك فؤاد، قلب قفا قدم، كف كتف كعب، لسان لحية لوح، منخر مرفق منكب، نغزغ ناب نن، هامة هيئة هيف، وجه وجنة ورك، يمين يسار يافوخ. ثم نهض مسرعاً فقبل الأرض بين يدي أمير المؤمنين قال: فعندها ضحك عبد الملك وقال: والله ما تريدنا عليها شيئاً أعطوه ما يتمناه، ثم أجازوه وأنعم عليه، وبالحق في الإحسان إليه.

وكان الحجاج بن يوسف الثقفي من الفصحاء، وكان على عتوه وإسرافه جواداً، وكان إذا ضحك واستغرق في الضحك أتبع ذلك الاستغفار مرات، وكان يطعم على ألف خوان، وكان يطوف على الموائد ويقول: يا أهل الشام مزقوا الخبز لثلاث يهود إليكم ثانياً، وكان يجلس على كل مائدة عشرة رجال، وذلك في كل يوم وكان يقول: أرى الناس يتخلفون عن طعامي، فليل له: إنهم يكرهون الحضور قبل أن يدعوا، فقال: قد جعلت رسولي إليهم كل يوم الشمس إذا طلعت وعند المساء إذا غربت.

حكى عن عبد الملك بن عمير أنه قال: لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق جمع أهل بيته وأولى النجدة من جنده، وقال: أيها الناس، إن العراق كدر ماؤها، وكثر غوغاؤها، واملولح عذبتها، وعظم خطبها، وظهر ضرامها، وعسر إخماد نيرانها فهل من ممد لهم بسيف قاطع، وذعن جامع، وقلب ذكي، وأنف حمى، فيخمد نيرانها، ويردع غيلانها، وينصف مظلومها، ويدأوى الجرح حتى يندمل فتصفو البلاد، وتأمين العباد، فسكت القوم، ولم يتكلم أحد، فقام الحجاج فقال: يا أمير المؤمنين أنا للعراق: قال: ومن أنت لله أبوك؟ قال: أنا الليث الضمضام، والهزير الهشام، أنا الحجاج بن يوسف. قال: ومن أين؟ قال: من ثقيف كهوف الضيوف ومستعمل السيوف. قال: اجلس لا أم لك، فلست هناك. ثم قال: ما لى أرى الرؤوس مطرقة والألسن معتقلة، فلم يجبه أحد، فقام إليه الحجاج وقال: أنا مجندل الفساق، ومطفئ نار النفاق، قال: ومن أنت؟ قال: أنا قاصم الظلمة، ومعدن الحكمة الحجاج بن يوسف معدن العفو والعقوبة، آفة الكفر والريسة، قال إليك عنى، وذاك فلست هناك، ثم قال: من للعراق؟ فسكت القوم، وقام الحجاج وقال: أنا للعراق، فقال: إذن أظنك صاحبها والظافر بغنائمها وإن لكل شيء يا ابن يوسف آية وعلامة، فما آيتك وما علامتك؟ قال: العقوبة والعفو، والاقتدار والبسط، والازورار والإدناء، والإبعاد والجفاء، والبر والتأهب، والحزم وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيوب، فمن جادلنى قطعته، ومن نازعنى قصمته، ومن خالفنى نزعته، ومن دنا منى أكرمته، ومن طلب الأمان أعطيته، ومن سارع إلى الطاعة بجلته، فهذه آيتى وعلامتى وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبلونى فإن كنت للأعناق قطعاً، وللأموال جماعاً، وللأرواح نزاعاً، ولك فى الأشياء نفاعاً، وإلا فليستبدل بى أمير المؤمنين، فإن الناس كثير، ولكن من يقوم بهذا الأمر قليل، فقال عبد الملك: أنت لها، فما الذى تحتاج إليه؟ قال: قليل من الجند والمال، فدعا عبد الملك صاحب جنده فقال: هبىء له من الجند شهوته وألزمهم طاعته، وحذرهم مخالفتة، ثم دعا الخازن، فأمره بمثل ذلك، فخرج الحجاج قاصداً نحو العراق قال عبد الملك بن عمير: فبينما

نحن في المسجد الجامع بالكوفة إذ أتانا آت فقال: هذا الحجاج قدم أميراً على العراق، فتناولت الأعناق نحوه وأفرجوا له عن صحن المسجد، فإذا نحن به يمشى وعليه عمامة حمراء مثلثاً بها، ثم صعد المنبر، فلم يتكلم كلمة واحدة، ولا نطق بحرف حتى غص المسجد بأهله، وأهل الكوفة يومئذ ذرو حالة حسنة وهيئة جميلة، فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته ومواليه وأتباعه عليهم الخبز والديباج قال: وكان في المسجد يومئذ عمير بن صابئ التميمي، فلما رأى الحجاج على المنبر قال لصاحب له: أسبه لكم؟ قال: اكفف حتى نسمع ما يقول، فأبى ابن صابئ وقال: لعن الله بنى أمية حيث يولون ويستعملون مثل هذا على العراق، وضيع الله العراق حيث يكون هذا أميرها، فوالله لو دام هذا أميراً كما هو ما كان بشيء، والحجاج ساكت ينظر يميناً وشمالاً، فلما رأى المسجد قد غص بأهله قال: هل اجتمعتم؟ فلم يرد عليه أحد شيئاً، فقال: إني لا أعرف قدر اجتماعكم، فهل اجتمعتم؟ فقال رجل من القوم: قد اجتمعنا أصلح الله الأمير، فكشف عن لثامه، ونهض قائماً فكان أول شيء نطق به أن قال: والله إني لأرى رؤساً أئمنت وقد حان قطافها وإني لصاحبها، وإني لأرى الدماء تفرق بين العمائم واللحى، والله يا أهل العراق إن أمير المؤمنين نشر كنانة بين يديه فعجم عيدانها، فوجدني أمرها عوداً، وأصليها مكسراً، فرماكم بى لأنكم طلما أترتم الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال، والله لأنكلن بكم في البلاد، ولأجعلنكم مثلاً في كل واد، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، وإني يا أهل العراق لا أعد إلا وفيت، ولا أعزم إلا أمضيت، فإياي وهذه الزرافات والجماعات، وقيل: وقال وكان ويكون، يا أهل العراق: إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فاتاها وعيد القرى من ربها، فاستوثقوا واستقيموا، واعملوا ولا تميلوا، وتابعوا، وبإيعوا، واجتمعوا، واستمعوا، فليس منى إلا الإهدار والإكثار إنما هو هذا السيف، ثم لا ينسلخ الشتاء من الصيف حتى يذل الله لأمر المؤمنين صعبكم، ويقيم له أودكم ثم إني وجدت الصدق مع البر ووجدت البر في الجنة، ووجدت الكذب مع الفجور، ووجدت الفجور في النار، وقد وجهني أمير المؤمنين إليكم، وأمرني أن أنفق فيكم وأوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب ابن أبي صفرة^(١)، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً يتخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه، يا غلام: اقرأ كتاب أمير المؤمنين، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم، فلم يرد أحد شيئاً، فقال الحجاج: اكفف يا غلام، ثم أقبل على الناس فقال: أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون شيئاً عليه؟ هذا أدبكم الذي تأدبتم به، أما والله لأؤدبنكم أدباً غير هذا الأدب، اقرأ يا غلام، فقرأ حتى بلغ قوله: سلام عليكم فلم يبق أحد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام، ثم نزل بعدما فرغ من خطبته وقراءته، ووضع للناس عطاياهم، فجعلوا يأخذونها حتى أتاه شيخ يرعش، فقال: أيها الأمير إني على الضعف كما ترى، ولي ابن هو أقوى منى على الأسفار، أفتقبله بديلاً منى؟ فقال: نقبله أيها الشيخ، فلما ولي قال له قائل: أتدرى من هذا أيها الأمير؟ قال: لا. قال: هذا عمير بن صابئ الذي يقول:

هممت ولم أفعل وكسدت وليتني تركت على عثمان تبكى حلاله

ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان رضى الله عنه وهو مقتول، فوطئ في بطنه، فكسر ضلعين من أضلعه، فقال الحجاج: ردوه فلما ردوه قال له الحجاج: أنت الفاعل بأمر المؤمنين عثمان ما فعلت يوم قتل الدار؟ إن في قتلك أيها الشيخ إصلاحاً للمسلمين. ياسياف اضرب عنقه، فاضرب عنقه، وكان من أمره بعد ذلك ما عرف وستر.

ومن حكايات الحجاج ما حكى أنه لما أسرف في قتل أسرى دير الجماجم، وأعطى الأموال، بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فشق عليه، وكتب إليه، أما بعد، فقد بلغني عنك إسراف في الدماء، وتبذير في العطاء، وقد حكمت عليك في الدماء في الخطأ بالدية، وفي العمد بالقود، وفي الأموال أن تردها إلى مواضعها، ثم تعمل فيها برأى، فإنما هو مال الله تعالى، ونحن أمناؤه، فإن كنت أردت الناس لى فما أغناني عنهم، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم، وسيأتيك عنى أمران: لين وشدة، فلا يؤمنتك إلا الطاعة، ولا يوحشك إلا المعصية، وإذا أعطاك الله

(١) المهلب: هو المهلب بن أبي صفرة ظالم من سراق الأودى العتكي، أبو سعيد، أمير بطاش، جواد، قال فيه عبد الله بن الزبير: هذا سيد أهل العراق، ولأه عبد الملك بن مروان ولاية خراسان، توفي سنة (٨٣هـ - ٧٠٢م).

عز وجل الظفر، فلا تقتلن جانحاً، ولا أسيراً، وكتب في أسفل الكتاب:

إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها	وتطلب رضائي بالذي أنا طالبه
فإن تر مني غفلة قرشية	فيا ربما قد غص بالماء شارب
وإن تر مني وثبة أموية	فهذا وهذا كل أنا صاحب
فلا تأمنني والحوادث جممة	فإنك تجزي بالذي أنت كاسب
فلا تعد ما يأتيك حقاً علمته	يقمن به يوماً عليك نواديه
فلا تمنعن الناس حقاً علمته	ولا تعطين ما ليس للناس واجبه
فإنك إن أعطى الحقوق فلأنما	النوافل شيء لا يشيبك واهبه

فلما ورد الكتاب على الحجاج كتب إلى أمير المؤمنين: أما بعد، فقد ورد كتاب أمير المؤمنين بذكر إسرافي وتبذيري في الأموال، ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية، ولا قضيت حقوق أهل الطاعة، فإن كان قتلى العصاة إسرافاً وإعطائي المطيعين تبذيراً، فليمض لي أمير المؤمنين ما سلف والله ما أصبت القوم خطأ فأوديهم ولا ظلمتهم عمداً فأقاديهم ولا قتلت إلا لك، ولا أعطيت إلا فيك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، وكتب في أسفل الكتاب:

إذا أنا لأبغى رضاك وأتقى	أذاك فليلى لا توارى كواكبـه
وما لامرئ بعد الخليفة جنة	تقيه من الأمر الذي هو راكبـه
إذا قارف الحجاج فيك خطيئة	لقامت عليه بالصباح نواديـه
فلذا أنا لم أدن الشفيق لنصحـه	وأقص الذي تسرى إلى عـقـاربـه
وأعطى المواسى في البلاء عطية	لرد الذي ضاقت على مـذاهـبـه
فمن يتقى بؤسى ويرجو مودتي	ويخشى غداً والدهر جم نوائبـه
وأمرى إليك اليوم ما قلت قلته	وما لم تقله لم أقل ما يقاربـه
ومهمما أردت اليوم منى أردته	وما لم ترده اليوم لئى مجانبـه
وقف بى على حد الرضا لا أجوزه	مدى الدهر حتى يرجع الدر حالبـه
والأ فدعنى والأمور فلأتنى	شفيق رفيق أحكمته تجاربـه

فلما انتهى الكتاب إلى عبد الملك قال: خاف أبو محمد صولتي ولم يعاود لأمر كرهته إن شاء الله تعالى، فمن يلومنى على محبته، يا غلام اكتب إليه: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب وأنت أعلى عيناً بما هناك.

وفى مروج الذهب للمسعودي: أن أم الحجاج وهى الفارعة بنت همام، ولدته مشوهاً لادبر له، فثقب له دبر وأبى أن يقبل الثدى وأعياهم أمره، فيقال: إن الشيطان تصور له فى صورة الحرث بن كلدة^(١) حكيم العرب، فسألهم عن ذلك، فأخبره مخبر من أهله، فقال لهم: اذبحوا له تيساً وألقوه دمه، وأولغوه فيه، ثم اطلوا به وجهه، ففعلوا ذلك، فقبل الثدى، فلأجل ذلك كان لا يصبر عن سفك الدماء، وكان يخبر عن نفسه أن أكبر لذاته سفك الدماء وارتكاب أمور لا يقدر غيره عليها، وكانت أمه متزوجة قبل أبيه الحرث بن كلدة، فدخل عليها يوماً فى السحر، فوجدها تخلل أسنانها

(١) الحرث بن كلدة: هو الحرث بن كلدة الثقفى، طبيب العرب فى عصره، وأحد الحكماء المشهورين من أهل الطائف، رحل إلى بلاد فارس رحلتين فأخذ الطب عن أهلها، واختلفوا فى إسلامه، وكان النبى ﷺ يأمر من به علة أن يأتيه فيستطب عنده، له كلام فى الحكمة، وكتاب «محاوره فى الطب» توفى سنة (نحو ٥٠ هـ - نحو ٦٧٠ م).

فطلقها، فسألته لم فعل؟ فقال لها: إن كنت باكرت الغداء فأنت شرهة، وإن كان بقايا طعام بفيك، فأنت قذرة، فقالت: كل ذلك لم يكن، وإنما تخللت من شظايا السواك، فقال: قضى الأمر، فتزوجها بعده يوسف بن عقيل الثقفي فأولدها الحجاج. وقيل إن الحجاج تقلد الإمارة وهو ابن عشرين سنة، ومات وله ثلاث وخمسون سنة، وكان من عنف السياسة، وثقل الوطأة، وظلم الرعية، والإسراف في القتل على ما لا يبلغه وصف، أحصى من قتله الحجاج بأمره سوى من قتله في حروبه فكانوا مائة ألف وعشرين ألفاً، ووجد في سجنه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، لم يجب على أحد منهم قطع، ولا قتل، وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد، ولم يكن لحبسه سقف يستر الناس من الحر والبرد، وقيل للشعبي^(١)، أكان الحجاج مؤمناً؟ قال: نعم بالطاغوت، وقال: لو جاءت كل أمة بخيبتها وفاسقها وجئت بالحجاج وحده لزدنا عليهم والله أعلم، وقد مضى القول في ذكر الفصحاء من الرجال وحكاياتهم وما أعان الله تعالى عليه واستحضرت من أخبارهم، وأنا قائل إن شاء الله تعالى ما استحضرت من ذكر فصحاء النساء وأخبارهن وحكاياتهن والله المستعان.

ذكر فصحاء النساء وحكاياتهن

حكى عن أبي عبد الله النميري أنه قال: كنت يوماً مع المأمون وكان بالكوفة، فركب للصيد ومعه سرية من العسكر، فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة، فأطلق عنان جواده وكان على سابق من الخيل، فأشرف على نهر ماء من الفرات، فإذا هو بجارية عربية خماسية القد، قاعدة النهدي، كأنها القمر ليلة تمامه، ويدها قرية قد ملأتها وحملتها على كتفها، وصعدت من حافة النهر فانحلت وكاؤها فصاحت برفيع صوتها: يا أبت أدرك فاها قد غلبني فوها لا طاقة لي بفيها، قال: فعجب المأمون من فصاحتها ورمت الجارية القرية من يدها، فقال لها المأمون: يا جارية من أي العرب أنت؟ قالت: أنا من بنى كلاب، قال: وما الذي حملك أن تكوني من الكلاب؟ فقالت: والله لست من الكلاب وإنما أنا من قوم كرام غير لثام يقرون الضيف، ويضربون بالسيف، ثم قالت: يافتى من أي الناس أنت؟ فقال: أو عندك علم بالأنساب؟ قالت: نعم. قال لها: أنا من مضر الحمراء، قالت: من أي مضر؟ قال: من أكرمها نسباً، وأعظمها حسباً، وخيرها أما وأباً، وعن تهابه مضر كلها قالت: أظنك من كنانة، قال: أنا من كنانة، قالت: فمن أي كنانة؟ قال: من أكرمها مولداً وأشرفها محتداً وأطولها في المكرمات يداً، ممن تهابه كنانة وتخافه، فقالت: إذن أنت من قريش، قال: أنا من قريش، قالت: من أي قريش؟ قال: من أجملها ذكراً وأعظمها فخراً، ممن تهابه قريش كلها وتخشاها، قالت: أنت والله من بنى هاشم، قال: أنا من بنى هاشم، قالت: من أي هاشم؟ قال: من أعلاها منزلة، وأشرفها قبيلة، ممن تهابه هاشم وتخافه، فعند ذلك قبلت الأرض، وقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين، وخليفة رب العالمين. قال: فعجب المأمون وطرب طرباً عظيماً وقال: والله لا أتزوجن بهذه الجارية لأنها من أكبر الغنائم، ووقف حتى تلاحقته العساكر، فنزل هناك، وأنفذ خلف أبيها وخطبها منه، فزوجه بها وأخذها وعاد مسروراً، وهي والدة ولده العباس والله أعلم.

وحكى أن هند بنت النعمان كانت أحسن أهل زمانها، فوصف للحجاج حسننها، فأنفذ إليها يخطبها، وبذل لها مالا جزيلاً، وتزوج بها، وشرط لها عليه بعد الصداق مائتي ألف درهم ودخل بها، ثم إنها انحدرت معه إلى بلدة أبيها المعرة وكانت هند فصيحة أدبية، فأقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة، ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق فأقامت معه ما شاء الله، ثم دخل عليها في بعض الأيام وهي تنظر في المرأة وتقول:

وما هند إلا مهرة عربية سليلة أفراس تحللها بغل
فلئن ولدت فحلاً فلله درها وإن ولدت بغلاً فجاء به البغل

فانصرف الحجاج راجعاً ولم يدخل عليها، ولم تكن علمت به، فأراد الحجاج طلاقها، فأنفذ إليها عبد الله بن طاهر، وأنفذ لها معه مائتي ألف درهم، وهي التي كانت لها عليه، وقال: يا ابن طاهر طلقها بكلمتين، ولا تزد

(١) تقدمت ترجمته.

عليهما، فدخل عبد الله بن طاهر عليها، فقال لها: يقول لك أبو محمد الحجاج كنت فبتت، وهذه المائتا ألف درهم التي كانت لك قبله، فقالت: اعلم يا ابن طاهر: أنا والله كنا فما حمدنا، وينا فما ندمنا، وهذه المائتا ألف درهم التي جئت بها بشارة لك بخلاص من كلب بنى ثقيف، ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ووصف له جمالها، فأرسل إليها يخطبها، فأرسلت إليه كتاباً تقول فيه بعد الثناء عليه اعلم يا أمير المؤمنين، أن الإناء ولغ فيه الكلب فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك من قولها، وكتب إليها يقول: إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً إحداهن بالتراب، فاغسلي الإناء يحل الاستعمال، فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة، فكتبت إليه بعد الثناء عليه، يا أمير المؤمنين، والله لا أحل العقد إلا بشرط، فإن قلت ما هو الشرط؟ قلت: أن يقود الحجاج محملي من المعرة إلى بلدك التي أنت فيها، ويكون ماشياً حافياً بحلته التي كان فيها أولاً، فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ضحك ضحكاً شديداً، وأنفذ إلى الحجاج وأمره بذلك، فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب وامثل الأمر ولم يخالف، وأنفذ إلى هند يأمرها بالتجهز، فتجهزت، وسار الحجاج في موكبه حتى وصل المعرة بلد هند، فركبت هند في محمل الزفاف، وركب حولها جواربها وخدمها، وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير بها فجعلت هند تتواغد عليه وتضحك مع الهيفاء دايتها، ثم إنها قالت للهيفاء: ياداية اكشفي لى سجف المحمل، فكشفت، فوقع وجهها في وجه الحجاج، فضحكت عليه، فأنشأ يقول:

فإن تضحكى منى فيا طول ليلة تركتك فيها كالقبا المفرج
فأجابته هند تقول:

وما نبالى إذا أرواحنا سلمت بما فقدناه من مال ومن نسب
فالمال مكسب والعز مرجع إذا النفوس وقاها الله من العطب

ولم تزل كذلك تضحك وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة، فرمت بدينار إلى الأرض، ونادت: يا جمال إنه قد سقط منا درهم، فارفعه إلينا، فنظر الحجاج إلى الأرض، فلم يجد إلا ديناراً، فقال: إنما هو دينار، فقالت: بل هو درهم قال: بل دينار، فقالت: الحمد لله سقط منا درهم، فعوضنا الله ديناراً، فخجل الحجاج وسكت، ولم يرد جواباً، ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان، فتزوج بها، وكان من أمرها ما كان، وقد وجدت في بعض النسخ ما هو أوسع من هذا ولكن اقتصر على القليل منه إذ فيه الغرض والله أعلم.

وقيل: إن جارية عرضت على الرشيد ليشتريها، فتأملها وقال لمولاها: خذ جاريتك، فلولا كلف بوجهها وخنس بأنفها لا اشتريتها، فلما سمعت الجارية مقالة أمير المؤمنين قالت مبادرة: يا أمير المؤمنين اسمع منى ما أقول، فقال: قولى، فأنشأت تقول:

ما سلم الظبى على حسنه كلا ولا البدر الذى يوصف
الظبى فسيه خنس بيّن والبدر فسيه كلف يعرف

قال: فعجب من فصاحتها وأمر بشرائها. وقيل: عرضت على المأمون جارية بارعة الجمال فائقة في الكمال، غير أنها كانت تعرج برجلها، فقال لمولاها، خذ بيدها وارجع، فلولا عرج بها لا اشتريتها فقالت الجارية: يا أمير المؤمنين إنه في وقت حاجتك لا يكون بحيث تراه، فأعجبه سرعة جوابها وأمر بشرائها.

ومن ذلك ما حكى أن كريم الملك كان من ظرفاء الكتاب، فعبر يوماً تحت جوسق بيستان، فرأى جارية ذات وجه زاهر، وكمال باهر، لا يستطيع أحد وصفها، فلما نظر إليها ذهل عقله، وطار لبه، فعاد إلى منزله وأرسل إليها هدية نفيسة مع عجود كانت تخدمه، وكانت الجارية عزباء. وكتب إليها رقعة يعرض إليها الزيارة في جوسقها، فلما قرأت الرقعة قبلت الهدية، ثم أرسلت إليه مع العجور عنبراً، وجعلت فيه زر ذهب، وربطت ذلك على منديل، وقالت للعجود: هذا جواب رقعتي، فلما رأى كريم الملك ذلك لم يفهم معناه، وتخير في أمره، وكانت له ابنة صغيرة السن، فلما رأت أباها متحيراً في ذلك قالت: يا أبت أنا علمت معناه قال: وما هو لله درك؟ قالت:

أهدت لك العنبرَ في جوفهِ زرُّ من السببر خفى اللحامِ
فالزر والعنبر معنهما زرُّ هكذا مختفياً في الظلامِ

قال: فعجب من فطنتها وفصاحتها واستحسن ذلك منها.

وحكى أن طائفة من بنى تميم كانوا يكسرون أول الفعل، فمرت فتاة منهم جميلة الصورة على جماعة، فتأداها شخص منهم وأراد أو يوقعها فيما ينسب إليهم من كسر الفعل، فقال: لآى شيء يا بنى ما تميم تكتنون؟ فقالت: ولم لانكتنى وكسرت الفعل، فضحك عليها، وقال أفعل إن شاء الله، فخرجت من قوله وتغير وجهها، وأرادت أن توقعه كما أوقعها، فقالت له: هل تحسن شيئاً من العروض؟ قال: نعم. قالت قطع لى:

حـــــولوا عنا كنيـــــتكم يا بنى حـــــالة الخطب

فقطعه، فوقف على عن ثم ابتدا بالنون والألف مع بقية الحروف فضحكت عليه، وأضحكت أصحابه، فقال: ويحك لم تبرحى حتى أخذت بثارك.

وحكى أن شاعراً كان له عدو، فبينما هو سائر ذات يوم فى بعض الطرق إذا هو بعدوه، فعلم الشاعر أن عدوه قاتله لا محالة، فقال له ياهذا: أنا أعلم أن المنية قد حضرت، ولكن سألتك الله إذا أنت قتلتنى امض إلى دارى وقف بالباب وقل: ألا أيها البنتان إن أباكما، فقال: سمعاً وطاعة، ثم إنه قتله، فلما فرغ من قتله أتى إلى داره، ووقف بالباب وقال: ألا أيها البنتان إن أباكما. وكان للشاعر ابنتان فلما سمعتا قول الرجل: ألا أيها البنتان إن أباكما. أجابتا بضم واحد: قتيل خذا بالثأر ممن آتاكما ثم تعلقتا بالرجل، ورفعته إلى الحاكم فاستقرره فأقر بقتله فقتله، والله أعلم.

وقيل: بينما كثير عزة^(١) مار بالطريق يوماً إذا هو بعجوز عمياء على قارعة الطريق تمشى، فقال لها تنحى عن الطريق، فقالت له: ويحك ومن تكون؟ قال: أنا كثير عزة. قالت: قبحك الله، وهل مثلك يتنحى له عن الطريق، قال: ولم؟ قالت: ألسن القائل:

وما روضة بالحسن طيبة الشرى يعج الندى جئـجـاءها وعـرارها

باطيب من أردان عـزـة مـوهـناً إذا أوقـدت بالمجـمر اللدن نـارها

ويحك ياهذا! لو تبخر بالمجمر اللدن مثلى ومثل أمك لطاب ريحها، لم لا قلت مثل سيدك امرئ القيس:

وكنـت إذا ما جئـت بالليل طارـقاً وجـدت بها طيباً وإن لم تطيب

فقطعه ولم يرد جواباً. وقيل: أتى الحجاج بامرأة من الخوارج، فقال لأصحابه: ما تقولون فيها؟ قالوا: عاجلها بالقتل أيها الأمير. فقالت الخارجية: لقد كان وزراء صاحبك خيراً من وزرائك يا حجاج. قال: ومن هو صاحبى؟ قالت: فرعون استشارهم فى موسى عليه السلام فقالوا: أرجه وأخاه. وأتى بأخرى من الخوارج، فجعل يكلمها وهى لاتنظر إليه، فقيل لها: الأمير يكلمك، وأنت لاتنظرين إليه، فقالت: إنى لأستحي أن أنظر إلى من لاينظر الله إليه.

وحكى ابن الجوزى^(٢) فى كتابه المنتظم فى مناقب عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لما ولى عمر رضى الله عنه الخلافة بلغه أن أصدقة أزواج النبى خمس مائة درهم، وأن فاطمة رضى الله عنها كان صداقها على على بن أبى طالب كرم الله وجهه أربع مائة درهم، فأدى اجتهاد أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أن لايزيد على صداق البضعة النبوية فاطمة رضى الله عنها، فصعد المنبر وحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: أيها الناس لاتزيدوا فى مهور النساء على أربع مائة درهم، فمن زاد ألقيت زيادته فى بيت مال المسلمين، فهاب الناس أن يكلموه، فقامت امرأة فى يدها طول،

(١) كثير عزة: هو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعى، أبو صخر، شاعر تميم مشهور من أهل المدينة، أكثر إقامته بمصر، وفى المؤرخين من يذكر أنه من غلاة الشيعة، وينسبون إليه القول بالتناسخ، وكان عفيفاً فى حبه لعزة بنت حميل وأكثر فيها الشغل حتى سمى بها، له: ديوان شعر، توفى بالمدينة سنة (١٠٥ هـ - ٧٢٣ م).

(٢) تقدمت ترجمته.

فقالت له: كيف يحل لك هذا، والله تعالى يقول: ﴿وَأْتَيْتُم مِّن قُنَظَارٍ فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ [النساء: ٢٠] فقال عمر رضى الله عنه: امرأة أصابت ورجل أخطأ. وقيل: جاءت امرأة إلى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه، فقالت: يا أمير المؤمنين إن زوجي يصوم النهار، ويقوم الليل، فقال لها: نعم الرجل زوجك، وكان في مجلسه رجل يسمى كعباً، فقال: يا أمير المؤمنين: إن هذه المرأة تشكو زوجها في أمر مباحته إياها عن فراشه، فقال له: كما فهمت كلامها احكم بينهما، فقال كعب: على زوجها، فأحضر، فقال له: إن هذه المرأة تشكوك، قال: أفي أمر طعام أم شراب؟ قال: بل في أمر مباحته إياها عن فراشه، فأشدت المرأة تقول:

يا أيها القاضي الحكيم أنشده ألهى خليلي عن فراشي مسجده
نهـاره وليله لا يرقـده فلست في أمر النساء أحـمه

فأنشأ الزوج يقول:

رهدنى في فرشها وفي الحلل أنى امرؤ أذهلنى ما قد نزل
في سورة النمل وفي السبع الطول وفي كتاب الله تخويف يجل

فقال له القاضي:

إن لها عليك حقاً لم يزل في أربع نصيبها لمن عقل

فمعاطها ذاك ودع عنك العلل

ثم قال: إن الله تعالى أحل لك من النساء مثني وثلاث ورابع، فلك ثلاثة أيام بلياليهن ولها يوم وليلة، فقال عمر رضى الله عنه: لا أدري من أيكم أعجب أمن كلامها أم من حكمك بينهما؟ اذهب فقد وليتك البصرة.

(حكاية المتكلمة بالقرآن)

قال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى: خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام، فبينما أنا في بعض الطريق إذا أنا بسواد على الطريق، فتميزت ذاك، فإذا هي عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف، فقلت: عليك السلام ورحمة الله وبركاته، فقالت: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ [يس: ٥٨]، قال: فقلت لها: يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان؟ قالت: ﴿ومن يضل الله فلا هادي له﴾ [الأعراف: ١٨٦]، فعلمت أنها ضالة عن الطريق، فقلت لها: أين تريدین؟ قالت: ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ [الإسراء: ١]، فعلمت أنها قد قضت حجة، وهي تريد بيت المقدس، فقلت لها: أنت منذ كم في هذا الموضع؟ قالت: ﴿ثلاث ليال سويًا﴾ [مريم: ١٠]، فقلت: ما أرى معك طعاماً تأكلين؟ قالت: ﴿هو يطعمنى ويسقنى﴾ [الشعراء: ٧٩] فقلت: فبأى شيء تتوضئين؟ قالت: ﴿فإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾ [النساء: ٤٣]، فقلت لها: إن معي طعاماً، فهل لك في الأكل؟ قالت: ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ [البقرة: ١٨٧]، فقلت: ليس هذا شهر رمضان. قالت: ﴿ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم﴾ [البقرة: ١٥٨]، فقلت: قد أبيع لنا الإفطار في السفر. قالت: ﴿وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ [البقرة: ١٨٤]، فقلت: لم لا تكلمينى مثل ما أكلمك؟ قالت: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ [ق: ١٨]، فقلت: فمن أى الناس أنت؟ قالت: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ [الإسراء: ٣٦] فقلت: قد أخطأت فاجعلينى في حل، قالت: ﴿لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم﴾ [يوسف: ٩٢] فقلت: فهل لك أن أحملك على ناقتى هذه فتدركى القافلة، قالت: ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه

الله ﴿البقرة: ١٩٧﴾ قال: فأناخت ناقتي، قالت: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾ [النور: ٣٠] فغضت بصرى عنها
 وقلت لها: اركبي، فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت: ﴿وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت
 أيديكم﴾ [الشورى: ٣٠] فقلت لها: اصبري حتى أعقلها، قالت: ﴿قفهنها سليمان﴾ [الأنبياء: ٧٩] فعقلت الناقة وقلت
 لها: اركبي فلما ركبت قالت: ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ [الزخرف: ٤٣] قال:
 فأخذت بزمام الناقة، وجعلت أسعى وأصيح فقالت: ﴿واقصد في مشيك واغضض من صوتك﴾ [لقمان: ١٩] فجعلت
 أمشي رويداً رويداً وأترنم الشعر، فقالت: ﴿فاقرؤوا ما تيسر من القرآن﴾ [المزمل: ٢٠] فقلت لها: لقد أوتيت خيراً كثيراً،
 قالت: ﴿وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ [البقرة: ٢٩٩] فلما مشيت بها قليلاً قلت: ألك زوج؟ قالت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا
 تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ [المائدة: ١٠١] فسكت، ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة، فقلت لها: هذه القافلة
 فمن لك فيها؟ فقالت: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ [الكهف: ٤٦] فعلمت أن لها أولاداً فقلت: وما شأنهم في الحج؟
 قالت: ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾ [النحل: ١٦] فعلمت أنهم أدلاء الركب، فقصدت بها القباب والعمارات فقلت:
 هذه القباب فمن لك فيها؟ قالت: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ [النساء: ١٢٥] ﴿وكلم موسى تكليماً﴾ [النساء: ١٤٦]
 ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾ [مريم: ١٢] فناديت يا إبراهيم يا موسى يا يحيى فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا، فلما
 استقر بهم الجلوس قالت: ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه﴾ [الكهف: ١٩]
 فمضى أحدهم فاشترى طعاماً فقدمه بين يدي فقالت: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ [الحاقة: ٢٤]
 فقلت: الآن طعامكم على حرام حتى تخبروني بأمرها، فقالوا: هذه أمانا لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة
 أن تزل فيسخط عليها الرحمن، فسبحان القادر على ما يشاء، فقلت: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل
 العظيم﴾ [الجمعة: ٤] والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

فى الأجوبة المسكتة والمستحسنة ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك

قيل: إن معن بن زائدة^(١) دخل على المنصور، فقال له: هيه يا معن تعطى مروان بن أبى حفصة^(٢) مائة ألف على قوله:

معن بن زائدة الذى زادت به شرفاً على شرف بنو شيبان

فقال: كلا يا أمير المؤمنين إنما أعطيته على قوله:

ما زلت يوم الهاشمية معلناً بالسيف دون خليفة الرحمن

فمنعت حوزته وكنت وقاه من وقع كل مهنـدٍ و سنان

فقال: أحسنت والله يا معن وأمر له بالجوائز والخلع. ووفد ابن أبى محجن على معاوية، فقام خطيباً فأحسن، فحسده معاوية وأراد أن يوقعه، فقال له: أنت الذى أوصاك أبوك بقوله:

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمية تروى عظامى بعد موتى عروقهـا

ولا تدفنى فى الفلاة فلاننى أخاف إذا مات أن لا أذوقهـا

وقال: بل أنا الذى يقول أبى:

لا تسأل الناس ما مالى وكثرته وسائل الناس ما جودى وما خلقى

أعطى الحسام غداة الروع حصته وعامل الرمح أرويه من العلق

وأطعن الطعنة النجلاء عن عرض وأكتم السر فيه ضربة العنق

ويعلم الناس أنى من سراتهم إذا سما بصر الرعيد بالفرق

فقال له معاوية: أحسنت والله يا ابن أبى محجن، وأمر له بصلة وجائزة.

وقيل: أخذ عبد الملك بن مروان بعض أصحاب شبيب الحارثى، فقال له: ألت القائل:

ومنا شريد والبطين وقعب ومنا أمير المؤمنين شبيب

فقال: يا أمير المؤمنين إنما قلت ومنا أمير المؤمنين شبيب، وأردت بذلك مناداة لك. فكان ذلك سبباً لنجاته.

ودخل شريك بن الأعور على معاوية وكان دميماً، فقال له معاوية: إنك لدميم والجميل خير من الدميم وإنك لشريك وما لله من شريك، وإن أباك لأعور والصحيح خير من الأعور، فكيف سدت قومك؟ فقال له: إنك معاوية وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت الكلاب، وإنك لابن صخر، والسهل خير من الصخر، وإنك لابن حرب والسلم خير

(١) معن بن زائدة: هو معن بن عبد الله بن مطر الشيباني، أبو الوليد، من أشهر أجواد العرب، وأحد الشجعان الفصحاء، أدرك العصرين الأموي والعباسي، فلما صار الأمر إلى بنى العباس طلبه المنصور فاستتر وتغلغل في البادية، ودافع عن المنصور دون الثوار من أهل خراسان فعفى عنه المنصور وأكرمه وجعله من خواصه وولاه اليمن ثم سجستان مات قتيلاً سنة (١٥١هـ - ٧٦٨م).

(٢) مروان: هو مروان بن سليمان بن يحيى بن أبى حفصة، كان جده أبو حفصة مولى لمروان بن الحكم اعتقه يوم الدار، قيل كان طبيباً يهودياً فأسلم، وكان يمدح المهدي والرشيـد ومعن بن زائدة، وجمع من الجوائز والهيـات ثروة عظيمة، وكان يتقرب إلى الرشيد بهجاء العلوية، توفي ببغداد سنة (١٨٢هـ - ٧٩٨م).

من الحرب، وإنك لابن أمية وما أمية إلا أمة صغرت، فكيف صرت أمير المؤمنين؟ ثم خرج وهو يقول:

أيشتمنى معاوية بن حرب وسيفي صارم ومعى لساني
وحسولى من ذوى يزنٍ ليوث ضراغمة تهش إلى الطعان
يعير بالدمامة من سفاه وربات الحجال من الغوانى

ودخل يزيد بن أبى مسلم صاحب شرطة الحجاج على سليمان بن عبد الملك بعد موت الحجاج، فقال له سليمان: قبح الله رجلاً أجرك رسنه، وأولاك أمانته، فقال: يا أمير المؤمنين رأيتنى والأمر لك وهو عنى مدبر، فلو رأيتنى وهو على مقبل لاستكبرت منى ما استصغرت، واستعظمت منى ما استحققت، فقال سليمان: أترى الحجاج استقر فى جهنم! فقال: يا أمير المؤمنين لا تقل ذلك، فإن الحجاج وطأ لكم المنابر، وأذل لكم الجبابرة، وهو يجرى يوم القيامة عن يمين أبيك وشمال أخيك، فحيثما كانا كان.

وقال يهودى لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه: ما لكم لم تلبثوا بعد نبيكم إلا خمس عشرة سنة حتى تقاتلتم، فقال على كرم الله وجهه: ولم أنتم لم تحب أقدامكم من البلل حتى قتلتم يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. ووجد الحجاج على منبره مكتوباً ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۝﴾ [الزمر: ٨]، فكتب تحته ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝﴾ [آل عمران: ١١٩]. ودخل عقيل^(١) على معاوية وقد كف بصره، فأجلسه معه على سريره ثم قال له: أنتم معشر بنى هاشم تصابون فى أبصاركم، فقال له عقيل: وأنتم معشر بنى أمية تصابون فى بصائركم. وقيل: اجتمعت بنو هاشم يوماً عند معاوية فأقبل عليهم وقال: يا بنى هاشم إن خيرى لكم لمنوح، وإن بابى لكم لمفتوح فلا يقطع خيرى عنكم، ولا يرد بابى دونكم، ولما نظرت فى أمرى وأمركم رأيت أمراً مختلفاً، إنكم ترون أنكم أحق بما فى يدي منى، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقوقكم قتلتم أعطانا دون حقنا، وقصر بنا عن قدرنا، فصرت كالمسلوب والمسلوب لا حمد له هذا مع إنصاف قائلكم وإسعاف سائلكم، قال: فأقبل عليه ابن عباس رضى الله عنهما فقال: والله ما منحتنا شيئاً حتى سألناه، ولا فتحت لنا باباً حتى قرعناه، ولئن قطعت عنا خيرك فخير الله أوسع منك، ولئن أغلقت دوننا باباً لنكفن أنفسنا عنك، وأما هذا المال فليس لك منه إلا ما للرجل من المسلمين ولولا حقنا فى هذا المال لم يأتك منا زائر يحمله خف ولا حافر، أكفاك أم أزيدك، قال كفسانى يا ابن عباس. وقال معاوية يومها: أيها الناس إن الله حبا قريش بثلاث فقال لنبية ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ونحن عشيرته الأقربون، وقال تعالى: ﴿وَأِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۝﴾ [الزخرف: ٤٤]. ونحن قومه، وقال: ﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٍ ۝﴾ [قريش: ١]. ونحن قريش، فأجابه رجل من الأنصار فقال: على رسلك يا معاوية فإن الله تعالى يقول: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ۝﴾ [الأنعام: ٦٦]. وأنتم قومه. وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝﴾ [الزخرف: ٥٧]، وأنتم قومه وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۝﴾ [الفرقان: ٣٠]، وأنتم قومه ثلاثة بثلاثة ولو زدتنا لزدناك.

وقال معاوية أيضاً لرجل من اليمن: ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة! فقال: أجهل من قومي قومك الذين قالوا حين دعاهم رسول الله ﷺ: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال: ٣٢]، ولم يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه. وقال يوماً لجارية بن قدامة: ما كان أهونك على قومك إذ سموك جارية! فقال: ما كان أهونك على قومك إذ سموك معاوية وهى الأنثى من الكلاب! قال: اسكت لا أم لك. قال: أم لى ولدتنى أما والله إن القلوب التى أبغضناك بها لبين جوانحناء، والسيوف

(١) عقيل: هو عقيل بن أبى طالب بن عبد المطلب الهاشمى القرشى، وكنيته أبو يزيد أعلم قريش بأيامها ومآثرها ومثالبها وأنسابها، وكان ممن يتحاكم الناس إليه فى قريش، وخرج مع قريش للقتال فى بدر، فأسره المسلمون ثم اقتدى ورجع مكة، وأسلم بعد الخديبية، وشهد غزوة مؤتة وكان الناس يأخذون عنه الأنساب فى مسجد المدينة. توفى سنة (٦٠هـ - ٦٨٠م).

التي قاتلناك بها لفي أيدينا، وإنك لم تهلكنا قسوة، ولم تملكنا عنوة، ولكنك أعطيتنا عهداً وميثاقاً، وأعطيناك سمعاً وطاعة، فإن وفيت لنا وفينا لك، وإن نزعنا إلى غير ذلك فلما تركنا وراءنا رجالاً شداداً، وأسنة حداداً، فقال معاوية، لا أكثر الله في الناس مثلك يا جارية، فقال له: قل معروفاً فإن شر الدعاء محيط بأهله. وخطب معاوية يوماً فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] فعلام تلوموني إذا قصرت في عطاياكم فقال له الأحنف^(١): وإنا والله لا نلومك على ما في خزائن الله ولكن على ما أنزل الله لنا من خزائنه فجعلته في خزائنك وحلت بيننا وبينه. وقيل دخل مجنون الطاق يوماً إلى الحمام وكان بغير مئزر فرآه أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه وكان في الحمام فغمض عينيه فقال المجنون: متى أعماك الله؟ قال: حين هتك سترك.

ومن ذلك ما حكى أن الحجاج خرج يوماً متنزهاً فلما فرغ من نزته صرف عنه أصحابه، وانفرد بنفسه، فإذا هو بشيخ من بنى عجل فقال له: من أين أيها الشيخ؟ قال: من هذه القرية. قال: كيف ترون عمالك؟ قال: شر عمال، يظلمون الناس، ويستحلون أموالهم، قال: فكيف قولك في الحجاج؟ قال: ذاك ما ولى العراق شر منه قبحه الله، وقبح من استعمله، قال: أتعرف من أنا؟ قال: لا، قال: أنا الحجاج، قال: جعلت فداك أو تعرف من أنا؟ قال: لا. فلان بن فلان مجنون بنى عجل أصرع في كل يوم مرتين، قال: فضحك الحجاج منه وأمر له بصلة.

وقال رجل لصاحب منزل: أصلح خشب هذا السقف فإنه يقرقع. قال: لا تخف فإنه يسبح. قال: إني أخاف أن تدركه رقة فيسجد.

وقالت عجوز لزوجها: أما تستحي أن تزنى ولك حلال طيب؟ قال: أما حلال فنع، وأما طيب فلا. وقال ملك لوزيره: ما خير ما يرزقه العبد؟ قال: عقل يعيش به، قال: فإن عدمه، قال: أدب يتحلى به، قال: فإن عدمه؟ قال: مال يستره، قال: فإن عدمه؟ قال: فصاعقة تحرقه وتريح منه العباد والبلاد. وتنبأ رجل في زمن المنصور فقال له المنصور: أنت نبي سفلة؟ فقال: جعلت فداك كل نبي يبعث إلى شكله.

ومن الأجوبة المسكتة المستحسنة

ما ذكر أن إبراهيم^(٢) مغنى الرشيد غنى يوماً بين يديه فقال له: أحسنت أحسن الله إليك، فقال له: يا أمير المؤمنين إنما يحسن الله إلى بك، فأمر له بمائة ألف درهم. وقال رجل لبعض العلوية: أنت بستان، فقال العلوى: وأنت النهر الذى يسقى منه البستان. وذهبت عائشة رضى الله تعالى عنها شاة ونصذقت بها وأفضلت منها كتفاً، فقال لها النبی ﷺ: «ما عندك منها؟» فقالت: ما بقى منها إلا كتف، فقال: «كلها بقى إلا كتفاً»، وقال عبد الله بن يحيى لأبى العيناء: كيف الحال؟ قال: أنت الحال. فانظر كيف أنت لنا، فأمر له بمال جزيل وأحسن صلته، وكان عمرو بن سعد بن سالم فى حرس المأمون ليلة فخرج المأمون يتفقد الحرس، فقال لعمرو: من أنت؟ قال: عمرو عمرك الله بن سعد أسعدك الله بن سالم سلمك الله قال: أنت تكلؤنا الليلة؟ قال: الله يكلؤنا يا أمير المؤمنين وهو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين فقال المأمون:

إن أخا الهيجاء من يسعى معك ومن يضمر نفسه لينفك
ومن إذا رأيت الزمان صددك شئت فيك شمله ليجمعك

(١) الأحنف: هو لقب لصاحب الترجمة، لحنف فى رجله، أى اعوجاج، واختلفوا فى اسمه فقيل: (الضحاك) وقيل (صخر) وهو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المزى السعدى المقرئ التميمى، أبو بحر، سيد تميم، وأحد العظماء الدهاء الفصحاء الشجعان الفاتحين يضرب به المثل فى الحلم، وشهد الفتوح فى خراسان واعتزل الفتنة يوم الجمل، ثم شهد صفين مع على، وخطبه وكلماته متفرقة فى كتب التاريخ والأدب والبلدان وهى حرة بالجمع توفى سنة (٧٢هـ - ٦٩١م).

(٢) إبراهيم الموصلى: هو إبراهيم الموصلى، رئيس المطربين، أبو إسحاق إبراهيم بن ماهان بن بهمن الفارسى الأصل، الأرجانى برع فى الآداب والشعر والموسيقى، واتصل بالخلفاء والبرامكة، وكان ندى الصوت جداً توفى سنة (١٨٨هـ).

ادفعوا إليه أربعة آلاف دينار قال عمرو: وددت لو أن الأبيات طالت، وقال المعتصم للفتح بن خاقان^(١) وهو صبي صغير: أرايت يا فتح أحسن من هذا الفص لفص كان في يده؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين: اليد التي هو فيها أحسن منه، فأعجبه جوابه وأمر له بصلة وكسوة. وقيل إن رجلاً سأل العباس رضى الله عنه: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فقال: رسول الله ﷺ أكبر وأنا ولدت قبله، وقال معاوية لسعيد بن مرة الكندى: أنت سعيد؟ قال: أمير المؤمنين السعيد وأنا ابن مرة، وقال المأمون للسيد بن أنس: أنت السيد؟ قال: أمير المؤمنين السيد وأنا ابن أنس، وقال الحجاج للمهلب وهو يماشيهِ: أنا أطول أم أنت؟ قال: الأمير أطول، وأنا أبسط قامة أراد الطول وهو الفضل. والأجوبة بهذا المعنى كثيرة لو تتبعناها لعجزت عنها ولكنى اقتصرت على هذا وأوجزت، وفيما ذكرته من ذلك كفاية وأسأل الله تعالى العون والعناية.

(١) الفتح بن خاقان : هو الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج، أبو محمد ، أديب شاعر، فصيح ، كان في نهاية الفطانة والذكاء، فارسى الأصل من أبناء الملوك، اتخذته المتوكل العباسى أخاً له، واستوزره وجعل له إمارة الشام على أن ينيب عنه وله: «اختلاف الملوك» و «الصيد والجوارح» وقتل مع المتوكل سنة (٢٤٧هـ ٨٦١م).

فى ذكر الخطب والخطباء والشعر والشعراء وسرقاتهم

وكبوات الجياد وهفوات الأمجاد

قيل: خطب المأمون فقال: اتقوا الله عباد الله وأنتم فى مهل، بادروا الأجل ولا يغرنكم الأمل، فكأنى بالموت قد نزل، فشغلت المرء شواغله، وتولت عنه فواصله، وهيت أكفانه، وبكاه جيرانه، وصار إلى التراب الخالى بجسده البالى، فهو فى التراب عفير، وإلى ما قدم فقير. وقال الشعبي: ما سمعت أحداً يخطب إلا تمنيت أن يسكت مخافة أن يخطيء ما خلا زياد فإنه لا يزداد إكثاراً إلا ازداد إحساناً.

وخطب على رضى الله عنه فقال فى خطبته: عباد الله الموت ليس منه فوت، إن أقمتم أخذكم، وإن فررتم منه أدرككم، الموت معقود بنواصيكم، فالتجاء النجاء والوحا الوحاء، فإن وراءكم طالباً حثيثاً وهو القبر، ألا وإن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، ألا وإنه يتكلم فى كل يوم ثلاث كلمات فيقول: أنا بيت الظلمة، أنا بيت الوحشة، أنا بيت الديدان ألا وإن وراء ذلك اليوم يوماً أشد منه يوماً يشيب فيه الصغير، ويسكر فيه الكبير ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]. ألا وإن وراء ذلك اليوم يوماً أشد منه فيه نار تتسعر حرها شديد وقعرها بعيد، وحليها حديد، وماؤها صديد، ليس لله فيها رحمة، قال: فبكى المسلمون بكاء شديداً، ثم قال: ألا وإن وراء ذلك اليوم ﴿جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] أدخلنا الله وإياكم دار النعيم، وأجارنا وإياكم من العذاب الأليم.

وخطب الحجاج بن يوسف فقال فى بعض خطبه: إن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن رضى الله عنه خطب بالبصرة فقال: أيها الناس كل كلام فى غير ذكر فهو لغو، وكل صمت فى غير فكر فهو سهو، والدنيا حلم والآخرة يقظة، والموت متوسط بينهما، ونحن فى أضغاث أحلام. قيل: اجتمع الناس عند معاوية وقام الخطباء لبيعة يزيد، وأظهر قوم الكراهة، فقام رجل من الخطباء من عذرة يقال له يزيد بن المقنع فاخترط من سيفه شبراً ثم قال: أمير المؤمنين هذا وأشار إلى معاوية، ثم قال: فإن يهلك، فهذا وأشار إلى يزيد، ثم قال: فمن أبى فهذا، وأشار إلى سيفه، فقال له معاوية: أنت سيد الخطباء.

فصل

فى ذكر الشعر والشعراء وسرقاتهم

قيل: ما استدعى شارد الشعر بمثل الماء الجارى والشرف العالى، والمكان الخضر الخالى، وقيل: أمسك على النابغة الجعدى^(١) أربعين يوماً فلم ينطق بالشعر، ثم إن بنى جعدة غزوا فظفروا، فاستخفه الطرب والفرح، فرام الشعر، فذل له ما استصعب عليه، فقال له قومه: والله لننحن بإطلاق لسان شاعرنا أسر منا بالظفر بعدونا. وقال أبو نواس: ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة منهن الخنساء وليلى، فما ظنك بالرجال؟ وقال الخليل: الرجال الشعراء أمراء الكلام يتصرفون فيه كيف شاءوا، جائز لهم فيه ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقيدده، ومن تسهيل اللفظ وتعقيده، وقيل: وفد زياد بن عبد الله على معاوية فقال له: أقرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: أقرضت القريض؟ قال: نعم. قال: أرويت الشعر؟ قال: لا. فكتب إلى عبد الله أبا زياد بارك الله لك فى ابنك فأروه الشعر، فقد وجدته كاملاً، وإنى سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: ارووا الشعر فإنه يدل على محاسن الأخلاق، ويقى مساوئها، وتعلموا الأنساب فرب رحم مجهولة قد وصفت بعريان النسب، وتعلموا من النجوم ما يدلكم على سبلكم فى البر والبحر، ولقد هممت بالهرب يوم صفين، فما ثبتنى إلا قول القائل:

(١) النابغة الجعدى: هو قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة الجعدى العامرى، أبو ليلى شاعر مفلح صحابى اشتهر فى الجاهلية وسمى (النابغة)، وكان ممن هجر الأوثان، ونهى عن الخمر قبل ظهور الإسلام ووقد على النبى ﷺ توفى نحو سنة (٥٠هـ - ٦٧٠م).

أقول لها إذا جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستنريحي

وقيل: لم ير قط أعلم بالشعر والشعراء من خلف الأحمر^(١)، كان يعمل الشعر على السنة الفحول من القدماء، فلا يتميز عن مقولهم، ثم تنسك، فكان يختم القرآن كل يوم وليلة، وبذل له بعض الملوك مالا جزيلا على أن يتكلم في بيت من الشعر شكوا فيه فأبى. وكان الحسن بن علي رضي الله عنه يعطي الشعراء، ف قيل له في ذلك، فقال: خير مالك ما وقيت به عرضك. وقال أبو الزناد: ما رأيت أروى للشعر من عروة قلت له: ما أرواك يا أبا عبد الله؟ فقال: وما روايتي مع رواية عائشة رضي الله عنها ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعرا، وكان رسول الله ﷺ يتمثل بقول القائل: «كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيا» ولم ينطق به موزونا، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أشهد أنك رسول الله حقًا وتلا قوله تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي﴾ [يس: ٦٩].

ولنذكر نبذة من سرقات الشعراء وسقطاتهم

فمن ذلك قول قيس بن الخطيم وهو شاعر الأوس وشجاعها:

وما المال والأخلاق إلا معارةٌ فما استطعت من معروفها فتزود

وكيف يخفى ما أخذه مع اشتها قسيده طرفه بن العبد وهي معلقة على الكعبة يقول فيها:

لعمرك ما الأيام إلا معارة فما استطعت من معروفها فتزود

ومن ذلك قول عبدة بن الطيب:

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

أخذه من قول امرئ القيس

فلو أنها نفسي تموت شريتها ولكنها نفس تساقط أنفسا

ويقال من سرق شيئًا واسترقه، فقد استحقه، وهو أن يسرق الشاعر المعنى دون اللفظ. فمن السرقة الفاحشة قول كثير في عبد الملك بن مروان:

إذا ما أراد الغزو لم يشن همه حصان عليها عقد در يزينها

أخذه من قول الخطيئة ولم يغير سوى الروي:

إذا ما أراد الغزو لم يشن همه حصان عليها لؤلؤ وشنوف

وجرير على سعة تبحره وقدرته على غرر الشعر وابتكار الكلام نقل قوله:

فلو كان الخلود بفضل قوم على قوم لكان لنا الخلود

(١) خلف الأحمر: هو خلف بن حيان، أبو محرز، المعروف بالأحمر، راوية، عالم بالأدب شاعر من أهل البصرة، كان أبواه موليين من فرغانة، ثم اعتقا، قال معمر بن النثي: خلف معلم الأصمعي ومعلم أهل البصرة، وقال الاخفش: لم أدرك أحداً أعلم بالشعر من خلف والأصمعي، له: «ديوان الشعر» و «جبال العرب» توفي في نحو سنة (١٨٠هـ-٧٩٦م).

من قول زهير^(١) وهو شعر مشهور يحفظه الصبيان وترويه النسوان وهو:

فلو كان حمد يخلد المرء لم يمت ولكن حمد المرء غير مخلد

وقد قال الشماخ:

وأمر ترجى النفس ليس بنافع وآخر تخشى ضيره لا يضيرها

وهو مأخوذ من قول الآخر:

ترجى النفوس الشئ لا تستطيعه وتخشى من الأشياء ما لا يضيرها

وأبو تمام مع قوته وقدرته على الكلام يقول:

وأحسن من نور تفتح الصبا بياض العطايا في سواد المطالب

أخذه من قول الأخطل:

رأيت بياضاً في سواد كانه بياض العطايا في سواد المطالب

ومن سقطات الشعراء

ما قيل: إن أبا العتاهية^(٢) كان مع تقدمه في الشعر كثير السقط، روى أنه لقي محمد بن مبادر بمكة، فمازحه وضاحكه، ثم إنه دخل على الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين هذا شاعر البصرة يقول قصيدة في كل سنة، وأنا أقول في كل سنة مائتي قصيدة، فأدخله الرشيد إليه وقال: ما هذا الذي يقول أبو العتاهية، فقال: يا أمير المؤمنين لو كنت أقول كما يقول:

ألا يا عتبة الساعة أموت الساعة الساعة
لقلت كثيراً ولكني أقول:

ابن عبد الحميد يوم توفي ما درى نعشه ولا حاملوه
هد ركنًا ما كان بالمهدود ما على النعش من عفاف وجود

فأعجب الرشيد قوله وأمر له بعشرة آلاف درهم، فكاد أبو العتاهية يموت غمًا وأسفًا. وكان بشار بن برد يسمونه أبا المحدثين، ويسلمون إليه في الفضيلة والسبق، وبعض أهل اللغة يستشهد بشعره ومع ذلك قال:

إنما عظمى سليمى حبيبتي قصب السكر لا عظم الحامل
وإذا أدنيت منها بصلاً غلب المسك على ريح البصل

(١) زهير: هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني، من مضر، حكيم الشعراء في الجاهلية، ومن أئمة الأدب من يفضل على شعراء العرب كافة، كان أبوه شاعراً وخاله شاعراً وأخته سلمى شاعرة، وابناه كعب ويجير شاعران، وأخته الخنساء شاعرة، وأشهر شعره معلقته، توفي سنة (١٣) ق هـ - ٦٠٩ م).

(٢) أبو العتاهية: هو إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني، العززي أبو إسحاق الشهير بأبي العتاهية، شاعر مكثري، سريع الخاطر، في شعره إبداع، كان ينظم المثة والمثة والخمسين بيتاً في اليوم، حتى لم يكن للإحاطة بجميع شعره من سبيل، توفي في بغداد سنة (٧٢٥ هـ - ١٣٢٥ م).

هذا مع قوله :

إذا قامت لمشييتها تثنت كأن عظامها من خيزران
ومع قوله فى الفخر :

كأن مئثار النقع فوق رؤوسنا وأسيفنا ليل تهاوى كواكبه
ومع قوله أيضاً :

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

وأبو الطيب المتنبى فى فضله المشهور وأخذه بزمام الكلام، وقوته على رقائق المعانى وعلى ما فى شعره من الحكم والأمثال السائرة يقول :

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً

وغير شيء معناه المعدوم، والمعدوم لا يرى فهذا سقط فاحش. ومما يستهجن من قوله وتكاد أن تمجه الأسماع قوله :

تقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا قـلـلـل عـشـ كلهن قـلـلـل

وقوله وقد جمع بين قبح اللفظ وبرودة المعنى :

إن كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حيثئذ من الإسلام

ومن معانيه المسروقة قوله :

ونهب نفوس أهل النهب أولى بأهل المجد من نهب القمماش

أخذه من قول أبى تمام :

إن الأسود أسود الغاب همتها يوم الكريهة فى المـسلـوب لا السلب

قال أبو عبد الله الزبيرى : اجتمع راوية جرير، ورواية كثير، ورواية جميل، ورواية الأحوص، ورواية نصيب، فافتخر كل منهم وقال : صاحبى أشعر، فحكموا السيدة سكينه بنت الحسين^(١) رضى الله عنهما بينهم لعقلها وتبصرها بالشعر، فخرجوا حتى استأذنوا عليها، وذكروا لها أمرهم فقالت لراوية جرير أليس صاحبك الذى يقول :

طـرقـتـك صائـدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام

وأى ساعة أحلى من الزيارة بالطروق! قبح الله صاحبك وقبح شعره فهلا قال : فادخلى بسلام. ثم قالت لراوية كثير أليس صاحبك الذى يقول :

يقر بعينى ما يقر بعينها وأحسن شيء ما به العين قـرت

وليس شيء أقر بعينها من النكاح، أوجب صاحبك أن ينكح! قبح الله صاحبك وقبح شعره. ثم قالت لراوية جميل أليس صاحبك الذى يقول :

(١) سكينه : هى سكينه بنت الحسين بن على بن أبى طالب، نبيلة، شاعرة، من أجمل النساء وأطيبهن نفساً، سيدة نساء عصرها، تجالس الأجلة من قريش، فيجتمع إليها الشعراء فيجلسون بحيث تراهم ولا يرونها، وتسمع كلامهم فتفاضل بينهم وتناقشهم وتحييهم، توفيت سنة (١١٧هـ - ٧٣٥م) رحمها الله. انظر «أعلام النساء» لكحالة (٢/٢٠٢-٢٢٤).

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها ولكن طلائها لما فات من عقلي

فما أراه هوى، وإنما طلب عقله. قبح الله صاحبك وقبح شعره. ثم قالت لراوية نصيب أليس صاحبك الذي يقول:
أهيم بدعدٍ ما حبيت فإن أمت فوا حزني من ذا يهيم بها بعدى

فما له همة إلا من يتعشقها بعده. قبحه الله وقبح شعره هلا قال:

أهيم بدعدٍ ما حبيت فإن أمت فلا صلحت دعدٍ لذي خلة بعدى

ثم قالت لراوية الأحوص أليس صاحبك الذي يقول:

من عاشقين تواعدا وتراسلا ليلا إذا نجم الثريا حلقا
باتنا بأنعم ليلة وألذها حتى إذا وضع الصبح تفرقا

قبحه الله وقبح شعره. هلا قال: تعانقا. فلم تكن على واحد منهم، وأحجم رواتهم عن جوابها رضى الله عنها.
وروى ابن الكلبي^(١) قال: لما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز وفدت إليه الشعراء كما كانت تفد على الخلفاء من قبله، فأقاموا ببابه أياماً لا يؤذن لهم في الدخول حتى قدم عدى بن أرطاة عليه وكان منه بمكانة فتعرض له جرير وقال:

يا أيها الرجل المزجى مطيته
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقية
لا تنس حاجتنا لاقيت مغفرة
هذا زمانك إنى قد خلا زمني
أنى لدى الباب كالمشدود فى قرن
قد طال مكثى عن أهلى وعن وطنى

فقال: نعم يا أبا عبد الله، فلما دخل على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه قال: يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك، وألستهم مسمومة، وسهامهم صائبة، فقال عمر رضى الله عنه: ما لى وللشعراء، فقال: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ مدح فأعطى، وفيه أسوة لكل مسلم، قال: صدقت، فمن بالباب منهم؟ قال: ابن عمك عمر بن أبى ربيعة^(٢) القرشى قال: لا قرب الله قرابته ولا حيا وجهه، أليس هو القاتل:

ألا ليبتنى فى يوم تدنو منيتى
وليت طهورى كسان ريقك كله
ويا ليت سلمى فى القبور ضجيعتى
شممت الذى ما بين عينيك والضم
وليت حنوطى من مشاشك والدم
هنالك أو فى جنة أو جهنم

فليتة عدو الله تمنى لقاءها فى الدنيا، ثم يعمل عملاً صالحاً، والله لا يدخل على أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟

(١) ابن الكلبي: هو هشام بن محمد بن أبى النضر بن السائب بن بشر الكلبي، أبو المنذر، مؤرخ، عالم بالأنساب وأخبار العرب، وأيامهم، من أهل الكوفة، كثير التصانيف له نيف ومئة وخمسون كتاباً، منها: «جمهرة الأنساب»، و«الكنى»، و«نسب الخيل»، و«أسواق العرب» توفى سنة (٢٠٤هـ - ٨١٩م).

(٢) عمر بن أبى ربيعة: هو عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومي القرشى، أبو الخطاب، أرق شعراء عصره، من طبقة جرير والفردق، ولم يكن فى قریش أشعر منه، ولد فى الليلة التى توفى بها عمر بن الخطاب سنة (٢٣هـ) فسمى باسمه، مات غرقاً سنة (٩٣هـ - ٧١٢م).

قال جميل بن معمر العذري^(١) قال: أليس هو القاتل:

ألا ليتنا نحيا جميعاً فإن نمت
فما أنا في طول الحياة براغب
أظل نهـاري لا أراها وتلتـقي

يوافى لدى الموت ضريحي ضريحها
إذا قيل قد سوى عليها صفيحها
مع الليل روي في المنام وروحها

والله لا يدخل على أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: كثير عزة قال: أليس هو القاتل:

رهبان مدين والذين عهدتهم
لو يسمعون كما سمعت حديثها
يكون من حذر الفراق قـوداً
خروا لعزة ركعاً وسجوداً

أبعده الله، فوالله لا يدخل على أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: الأحوص الأنصاري^(٢) قال: أبعده الله،
والله لا يدخل على أبداً، أليس هو القاتل، وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جاريته حتى هرب بها منه:

الله بينى وبين سـيـدها
يفر منى بها وأتبعه

فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: همام بن غالب الفرزدق. قال: أليس هو القاتل يفتخر بالزنا في قوله:

هما دلياني من ثمانين قامة
فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا
فقلت ارفعوا الأجراس لا يفتنونا بنا
كما انقض باز لين الريش كاسره
أحي فيرجى أم قتيل نحاذره
ووليت في أعقاب ليل أبادره

والله لا دخل على أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: الأخطل التغلبي. قال: أليس هو القاتل:

ولست بصائم رمضان عمري
ولست بزاجر عيـاً بكوراً
ولست بقائم كالعبد يدعو
ولكني سأشربها شـمـولاً
ولست بأكل لحم الأضاحي
إلى أطلال مكة بالنجـاح
قبيل الصبح حي على الفلاح
وأسجد عند منبلج الصبح

أبعده الله عني، فوالله لا دخل على أبداً، ولا وطئ لي بساطاً، وهو كافر، فمن بالباب غيره ممن الشعراء ممن
ذكرت؟ قال: جرير. قال: أليس هو القاتل:

طرقـتك صائدة القلوب وليس ذا
وقت الزيارة فارجعي بسلام

فإن كان ولا بد، فهذا، فأذن له قال عدى بن أرطاة^(٣): فخرجت فقلت: ادخل يا جرير، فدخل وهو يقول:

إن الذي بعث النبي محمداً
وسع الخلائق عدله ووقاره
جعل الخلافة في الإمام العادل
حتى ارعـووا وأقام ميل المائل

(١) جميل العذري: هو جميل بن عبد الله بن معمر العذري القضاعي، شاعر، من عشاق العرب، افتتن ببشنة، من فتيات قومه، فتناقل الناس أخبارهما، توفي (٨٢هـ - ٧٠١م).

(٢) الأحوص: هو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم من بني ضبيعة، شاعر هجاء، صافى الديباجة كان معاصراً لجرير والفرزدق، من سكان المدينة، وفد على الوليد بن عبد الملك فأكرمه، ثم بلغه عنه مأساه في سيرته فردّه إلى المدينة وأمر بجلده، ولقب بالأحوص لضيق في مؤخر عينيه، له: «ديوان الشعر» توفي سنة (١٠٥هـ - ٧٢٣م).

(٣) عدى بن أرطاة: هو عدى بن أرطاة الفزاري، أبو وائلة، أمير أهل دمشق، كان من العقلاء والشجعان، ولاء عمر بن عبد العزيز على البصرة سنة (٩٩هـ)، فاستمر إلى أن قتله معاوية بن يزيد بن المهلب، بواسط في فتنة أبيه (يزيد) بالعراق سنة (١٠٢هـ - ٧٢٠م).

إني لأرجو منه نفعًا عاجلاً والنفس مولعة بحب العاجل
والله أنزل في الكتاب فريضة لابن السبيل والفقير العائل

فلما مثل بين يديه قال: يا جرير اتق الله ولا تقل إلا حقًا، فأنشأ يقول:

كم باليمامة من شعشاء أرملة ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
من بعد ذلك يكفى فقد والده كالفرخ في العش لم يدرج ولم يطر
أذكر الجهد والبلوى التي نزلت أم قد كفاني ما بلغت من خبري
إنا نرجو إذا ما الغيث أخلفنا من الخليفة ما نرجو من المطر
إن الخلافه جاءته على قدر كما أتى ربه موسى على قدر
هذي الأرامل قد قضيت حاجتها فمن حاجة هذا الأرملة الذكر
الخير ما دمت حيًا لا يفارقنا بورك يا عمر الخيرات من عمر

فقال: والله يا جرير لقد وافيت الأمر، ولا أملك إلا ثلاثين دينارًا فعشرة أخذها عبد الله ابني، وعشرة أخذتها أم عبد الله، قم قال لخادمه: ادفع إليه العشرة الثالثة، فقال: والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب مال اكتسبته، ثم خرج فقال له الشعراء: ما وراءك يا جرير؟ فقال: ورائي ما يسوءكم خرجت من عند أمير يعطى الفقراء ويمنع الشعراء، وإنني عنه لراض، ثم أنشأ يقول:

رأيت رقى الجن لا تستفزه وقد كان شيطاني من الجن راقياً

ومما جاء في كبوات الجياد وهفوات الأمجاد

قال الأحنف الشريف: من عدت سقطاته، وقلت عثراته، وقالوا: كل صارم ينبو، وكل جواد يكمبو، وكان الأحنف ابن قيس حليماً سيداً يضرب به المثل، وقد عدت له سقطه وهو أن عمرو بن الأهتم دس إليه رجلاً يسفهاه فقال: يا أبا بحر ما كان أبوك في قومه؟ قال: كان أوسطهم وسيدهم، ولم يتخلف عنهم، فرجع إليه ثانيًا، فقطن أنه من قبل عمرو ابن الأهتم^(١)، فقال: ما كان أبوك؟ قال: كانت له فتوة ومروءة، ومكارم أخلاق، ولم يكن أهتم سلاجًا، وقال سعيد ابن المسيب: ما فاتني الأذان في مسجد رسول الله ﷺ منذ أربعين سنة، ثم قام يريد الصلاة فوجد الناس قد خرجوا من المسجد، وقال قتادة: ما نسيت شيئاً قط، ثم قال: يا غلام ناولني نعلی. قال: النعل في رجلك. وكان هشام بن عبد الملك من رجال بني أمية ودهاتهم، وقد عدت له سقطات منها: أن الحادي حدا به يوماً فقال:

إني عليك أيها النجى أكرم من يمشى به المطى

فقال هشام: صدقت. وذكر عنده سليمان وأخوه، فقال: والله لأشكونه يوم القيامة إلى أمير المؤمنين عبد الملك، ولما ولي الخلافة قال: الحمد لله الذي أنقذني من النار بهذا المقام. قال النابغة: أي الرجال المهذب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) عمرو بن الأهتم: هو عمرو بن سنان بن سمي التميمي المنقري، أبو ربيعي أحد السادات الشعراء الخطباء في الجاهلية، والإسلام من أهل نجد، كان يدعى (المكحل) لجماله في شبابه، وفد على النبي ﷺ فأسلم، ولما تكلم بين يدي النبي أعجبه كلامه فقال: إن من البيان لسحراً، وكان شعره في مجالس الملوك حللاً متشرة، ولم يكن في بادية العرب في زمانه أخطب منه، ولقب بالأهتم لأن ثنيته هتمت يوم الكلاب، توفي سنة (٥٧هـ - ٦٧٧م).

فى التوكلى على الله تعالى والرضا بما قسم والقناعة وذم الحرص

والطمع وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: فى التوكلى على الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [٢]. [الأنفال: ٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]. وعن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «يدخل الجنة أقوام أفندتهم مثل أفندة الطير». رواه مسلم. قيل: معناه متوكلون، وقيل: قلوبهم رقيقة وعن البراء بن عازب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصاً وتعود بطائناً»، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود من دعائى أجبتة، ومن استغاثنى أغثته، ومن استنصرنى نصرته، ومن توكل على كفيته، فأنا كافى المتوكلين وناصر المستنصرين، وغياث المستغيثين، ومجيب الداعين.

وحكى أنه كان فى زمن هارون الرشيد قد حصل للناس غلاء سعر، وضيق حال حتى اشتد الكرب على الناس اشتداداً عظيماً، فأمر الخليفة هارون الرشيد الناس بكثرة الدعاء والبكاء، وأمر بكسر آلات الطرب، ففى بعض الأيام روى عبد يصفق ويرقص ويغنى، فحمل إلى الخليفة هارون الرشيد، فسأله عن فعله ذلك من دون الناس، فقال: إن سيدى عنده خزانة بر، وأنا متوكل عليه أن يطعمنى منها، فلهذا أنا إذا لا أبالى فأنا أرقص وأفرح، فعند ذلك قال الخليفة: إذا كان هذا قد توكل على مخلوق مثله، فالتوكل على الله أولى، فسلم للناس أحوالهم، وأمرهم بالتوكل على الله تعالى.

وحكى أن حاتم الأصم^(١) كان رجلاً كثير العيال، وكان له أولاد ذكور وإناث، ولم يكن يملك حبة واحدة، وكان قدمه التوكل فجلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدث معهم، فتعرضوا لذكر الحج، فدخل الشوق قلبه، ثم دخل على أولاده، فجلس معهم يتحدثهم، ثم قال لهم: لو أذنتم لأبيكم أن يذهب إلى بيت ربه فى هذا العام حاجاً، ويدعو لكم ماذا عليكم لو فعلتم؟ فقالت زوجته وأولاده: أنت على هذه الحالة لا تملك شيئاً ونحن على ما ترى من الفاقة، فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة؟ وكان له ابنة صغيرة فقالت: ماذا عليكم لو أذنتم له ولا يهتمكم ذلك، دعوه يذهب حيث شاء، فإنه مناول للرزق، وليس برزاق، فذكرتهم ذلك، فقالوا: صدقت والله هذه الصغيرة يا أبانا انطلق حيث أحببت، فقام من وقته وساعته وأحرم بالحج، وخرج مسافراً، وأصبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم يوبخونهم كيف أذنوا له بالحج، وتأسف على فراقه أصحابه وجيرانه، فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة ويقولون: لو سكت ما تكلمنا، فرفعت الصغيرة طرفها إلى السماء، وقالت إلهى وسيدى ومولاى عودت القوم بفضلك وأنت لا تضيعهم فلا تخيبهم، ولا تخجلنى معهم، فبينما هم على هذه الحالة إذ خرج أمير البلدة متصيذاً، فانقطع عن عسكره وأصحابه، فحصل له عطش شديد، فاجتاز بيت الرجل الصالح حاتم الأصم، فاستسقى منهم ماء، وقرع الباب فقالوا: من أنت؟ قال: الأمير ببابكم يستسقيكم، فرفعت زوجة حاتم رأسها إلى السماء وقالت: إلهى وسيدى سبحانك البارحة بتنا جياعاً، واليوم يقف الأمير على بابنا يستسقيناً، ثم إنها أخذت كوزاً جديداً وملأته ماء، وقالت للمتناول منها: اعذرونا، فأخذ الأمير الكوز وشرب منه، فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال: هذه الدار لأمير؟ فقالوا: لا والله بل لعبد من عباد الله الصالحين يعرف بحاتم الأصم. فقال الأمير: لقد سمعت به، فقال الوزير: يا سيدى لقد سمعت أنه البارحة أحرم بالحج وسافر ولم يخلف لعياله شيئاً، وأخبرت أنهم البارحة باتوا جياعاً، فقال الأمير: ونحن أيضاً قد ثقلنا عليهم اليوم، وليس من المروءة أن يثقل مثلنا على مثلهم، ثم حل الأمير منطقته من وسطه ورمى بها فى الدار، ثم قال لأصحابه: من

(١) حاتم الأصم: هو حاتم بن عنوان، أبو عبد الرحمن، المعروف بالأصم، زاهد، اشتهر بالورع والتشوف، له كلام مدون فى الزهد والحكم، من أهل بلخ، وشهد بعض معارك الفتوح، وكان يقال: حاتم الأصم لقمان هذه الأمة، توفى سنة (٢٣٧هـ - ٨٥١م).

أحبني، فليلق منطقته، فحل جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها إليهم، ثم انصرفوا، فقال الوزير: السلام عليكم أهل البيت، لا تينكم الساعة بضمن هذه المناطق، فلما أنزل الأمير رجع إليهم الوزير، ودفع إليهم ثمن المناطق مالا جزيلًا واستردها منهم، فلما رأت الصبية الصغيرة ذلك بكت بكاءً شديداً، فقالوا لها: ما هذا البكاء؟ إنما يجب أن تفرحي، فإن الله قد وسع علينا، فقالت: يا أم. والله إنما بكائي كيف بنتا البارحة جياغاً، فنظر إلينا مخلوق نظرة واحدة، فأغنانا بعد فقرنا، فالكريم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلى أحد طرفة عين، اللهم انظر إلى أبنينا، ودبره بأحسن التدبير، هذا ما كان من أمرهم.

وأما ما كان من أمر حاتم أبيهم، فإنه لما خرج محرماً ولحق بالقوم توجع أمير الركب، فطلبوا له طبيباً، فلم يجدوا، فقال: هل من عبد صالح، فدل على حاتم، فلما دخل عليه وكلمه دعا له فعوفى الأمير من وقته، فأمر له بما يركب، وما يأكل، وما يشرب، فنام تلك الليلة مفكراً في أمر عياله، فقيل له في منامه: يا حاتم من أصلح معاملته معنا أصلحنا معاملتنا معه، ثم أخبر بما كان من أمر عياله، فأكثر الثناء على الله تعالى، فلما قضى حجه ورجع تلقته أولاده، فعانق الصبية الصغيرة وبكى، ثم قال: صغار قوم كبار قوم آخرين. إن الله لا ينظر إلى أكبركم ولكن ينظر إلى أعرفكم به، فعليكم بمعرفته والاتكال عليه فإنه من توكل على الله فهو حسبه.

ومن كلام الحكماء، من أيقن أن الرزق الذي قسم له لا يفوته تعجل الراحة، ومن أعلم أن الذي قضى عليه لم يكن ليخطئه فقد استراح من الجزع، ومن علم أن مولاه خير له من العباد، فقصده كفاه همه وجمع شمله، وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت عند النبي ﷺ يوماً فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت، فأسأل الله، وإذا استعنت باستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن تنفعك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن تضرك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف».

ورفع إلى الرشيد أن بدمشق رجلاً من بنى أمية عظيم المال والجاه كثير الخيل والجند، يخشنى على المملكة منه، وكان الرشيد يومئذ بالكوفة، قال منارة خادماً الرشيد: فاستدعاني الرشيد وقال: اركب الساعة إلى دمشق وخذ معك مائة غلام واثنتي بفلان الأموى، وهذا كتابي إلى العامل لا توصله له إلا إذا امتنع عليك، فإذا أجاب فقيده وعادله بعد أن تحصي جميع ما تراه وما يتكلم به، واذكر لى حاله وماله، وقد أجلتك لذهابك ستاً، ولمجيئك ستاً، وإقامتك يوماً، أفهمت؟ قلت: نعم. قال: فسر على بركة الله، فخرجت أطوى المنازل ليلاً ونهاراً لا أنزل إلا للصلاة أو لقضاء حاجة حتى وصلت ليلة السابع باب دمشق، فلما فتح الباب دخلت قاصداً نحو دار الأموى، فإذا هي دار عظيمة هائلة، ونعمة طائلة، وخدم وحشم، وهيبة ظاهرة، وحشمة وافرة، ومصاطب متسعة، وغلمان فيها جلوس، فهجمت على الدار بغير إذن، فبهتوا وسألوا عني، فقيل لهم: إن هذا رسول أمير المؤمنين، فلما صرت في وسط الدار رأيت أقواماً محتشمين، فظننت أن المطلوب فيهم، فسألت عنه، فقيل لى: هو في الحمام، فأكرموني، وأجلسوني، وأمروا بمن معى ومن صحبني إلى مكان آخر، وأنا أتفقد الدار، وأتأمل الأحوال، حتى أقبل الرجل من الحمام ومعه جماعة كثيرة من كهول وشبان وحفدة وغلمان، فسلم على وسألني عن أمير المؤمنين، فأخبرته وأنه بعافية، فحمد الله تعالى، ثم أحضرت له أطباق الفاكهة فقال: تقدم يا منارة كل معنا، فتأملت تأملاً كثيراً إذ لم يمكنني، فقلت: ما أكل، فلم يعاودني، ورأيت ما لم أره إلا في دار الخلافة، ثم قدم الطعام، فوالله ما رأيت أحسن ترتيباً، ولا أعطر رائحة، ولا أكثر آتية منه، فقال: تقدم يا منارة، فكل. قلت: ليس لى به حاجة، فلم يعاودني ونظرت إلى أصحابي فلم أجد أحداً منهم عندي، فحرت لكثرة حفدته، وعدم من عندي، فلما غسل يديه أحضر له البخور فتبخر، ثم قام فصلى الظهر، فأتم الركوع والسجود، وأكثر من الركوع بعدها، فلما فرغ استقبلني وقال: ما أقدمك يا منارة؟ فناولته كتاب أمير المؤمنين، فقبله ووضعته على رأسه، ثم فضه وقراه، فلما فرغ من قراءته استدعى جميع بنيه وخواص أصحابه وغلمانه وسائر عياله، فضاقت الدار بهم على سعتها، فطار عقلى، وما شككت أنه يريد القبض على، فقال: الطلاق يلزمه والحج والعق والصدقة، وسائر أيمان البيعة لا يجتمع منكم اثنان في مكان واحد حتى ينكشف أمره، ثم أوصاهم على الحریم ثم استقبلني وقدم رجله

وقال: هات يا منارة قيودك، فدعوت الحداد فقيده وحمل حتى وضع في المحمل وركبت معه في المحمل، وسرنا، فلما صرنا في ظاهر دمشق ابتدا يحدثني بانسباط ويقول: هذه الضيعة لى تعمل فى كل سنة بكذا وكذا، وهذا البستان لى وفيه من غرائب الأشجار وطيب الثمار كذا وكذا، وهذه المزارع يحصل لى منها كل سنة كذا وكذا، فقلت: يا هذا ألسنتك تعلم أن أمير المؤمنين أهمه أمرك حتى أنفذنى خلفك وهو بالكوفة ينتظرك، وأنت ذاهب إليه ما تدري ما تقدم عليه، وقد أخرجتك من منزلك ومن بين أهلك ونعمتك وحيداً فريداً، وأنت تحدثنى حديثاً غير مفيد ولا نافع لك ولا سألتك عنه، وكان شغلك بنفسك أولى بك، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد أخطأت فراستى فيك يا منارة ما ظننت أنك عند الخليفة بهذه المكانة إلا لوفور عقلك، فإذا أنت جاهل عامى لا تصلح لمخاطبة الخلفاء، أما خروجى على ما ذكرت فإنى على ثقة من ربه الذى بيده ناصيتى وناصية أمير المؤمنين، فهو لا يضر ولا ينفع إلا بمشيئة الله تعالى، فإن كان قد قضى على بأمر فلا حيلة لى بدفعه ولا قدرة لى على منعه، وإن لم يكن قد قدر على بشيء فلو اجتمع أمير المؤمنين وسائر من على وجه الأرض على أن يضرونى لم يستطيعوا ذلك إلا بإذن الله تعالى، وما لى ذنب فأخاف، وإنما هذا واش وشى عند أمير المؤمنين ببهتان، وأمير المؤمنين كامل العقل، فإذا اطلع على براءتى فهو لا يستحل مضرتى، وعلى عهد الله لا كلمتك بعدها إلا جواباً. ثم أعرض عنى وأقبل على التلاوة وما زال كذلك حتى وافينا الكوفة بكرة اليوم الثالث عشر، وإذا النجب قد استقبلتنا من عند أمير المؤمنين تكشف عن أخبارنا، فلما دخلت على الرشيد قبلت الأرض، فقال: هات يا منارة أخبرنى من يوم خروجك عنى إلى يوم قدومك على، فابتدأت أحدثه بأمورى كلها مفصلة والغضب يظهر فى وجهه، فلما انتهيت إلى جمعه لأولاده وغلمانه، وخواصه وضيق الدار بهم، وتفقدى لأصحابى، فلم أجد منهم أحداً أسود وجهه، فلما ذكرت يمينه عليهم تلك الأيمان المغلظة تهلل وجهه، فلما قلت إنه قدم رجله أسفر وجهه واستبشر، فلما أخبرته بحديثى معه فى ضياعه وبساتينه وما قلت له، وما قال لى. قال هذا رجل محسود على نعمته، ومكذوب عليه، وقد أزعجناه وأرعبناه وشوشنا عليه وعلى أولاده وأهله. أخرج إليه، وانزع قيوده، وفكه وأدخله على مكرماً، ففعلت، فلما دخل قبل الأرض، فرحب به أمير المؤمنين وأجلسه، واعتذر إليه، فتكلم بكلام فصيح، فقال له أمير المؤمنين: سل حوائجك، فقال: سرعة رجوعى إلى بلدى وجمع شملى بأهلى وولدى قال: هذا كائن، فسل غيره؟ قال: عدل أمير المؤمنين فى عماله ما أحوجنى إلى سؤال. قال: فخلع عليه أمير المؤمنين، ثم قال: يا منارة اركب الساعة معه حتى ترده إلى المكان الذى أخذته منه، قم فى حفظ الله وودائعه ورعايته ولا تقطع أخبارك عنا وحوائجك، فانظر حسن توكله على خالقه، فإنه من توكل عليه كفاه ومن دعاه لباه، ومن سألَه أعطاه ما تمناه.

وروى أن هذه الكلمات وجدها كعب الأحبار^(١) مكتوبة فى التوراة فكتبها وهى: يا ابن آدم لا تخافن من ذى سلطان ما دام سلطانى باقياً، وسلطانى لا ينفد أبداً، يا ابن آدم لا تخش من ضيق الرزق ما دامت خزائنى ملائكة، وخزائنى لا تنفذ أبداً، يا ابن آدم لا تأنس بغيرى، وأنا لك، فإن طلبتنى وجدتنى، وإن أنست بغيرى فتك وفاتك الخير كله، يا ابن آدم خلقتك لعبادتى، فلا تلعب، وقسمت رزقك فلا تتعب، وفى أكثر منه فلا تطمع، ومن أقل منه فلا تجزع، فإن أنت رضىت بما قسمته لك أرحمت قلبك وبدنك، وكنت عندى محموداً، وإن لم ترض بما قسمته لك فوعزتى وجلالى لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش فى البر ولا ينالك منها إلا ما قد قسمته لك، وكنت عندى مذموماً، يا ابن آدم خلقت السموات السبع والأرضين السبع، ولم أعى بخلقهن أيعينى رغيك أسوقه لك من غير تعب، يا ابن آدم أنا لك محب، فبحقى عليك كن لى محباً، يا ابن آدم لا تطالبنى برزق غد كما لا أطلبك بعمل غد، فإنى لم أنس من عصانى، فكيف من أطاعنى وأنا على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط.

قال الشاعر:

وما ثم إلا الله فى كل حالةٍ فلا تتكل يوماً على غير لطفه
فكم حالةٍ تأتى ويكرهها الفتى وخيرته فيها على رغم أنفه

(١) كعب الأحبار: هو كعب بن ماتع بن ذى هجن الحميرى، أبو إسحاق، تابعى كان فى الجاهلية من كبار علماء اليهود فى اليمن وأسلم فى زمن أبى بكر، وقدم المدينة، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الأمم الغابرة، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة ثم سكن فى حمص وتوفى فيها سنة (٣٢٢هـ-٦٥٢م).

ولمؤلفه رحمه الله تعالى :

توكل على الرحمن فى الأمر كله فما خاب حقًا من عليه توكلًا
وكن واثقًا بالله واصبر لحكمه تفز بالذى ترجوه منه تفضلاً

الفصل الثامن: فى القناعة والرضا بما قسم الله تعالى

جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. أن المراد بها القناعة. وقال عليه السلام: «القناعة مال لا ينفذ». وقيل: يا رسول الله ما القناعة؟ قال: «الإياس مما فى أيدي الناس» «وإياكم والطمع فإنه الفقر الحاضر». وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه من القناعة بالجانب الأوفر، وإنه كان يشتهى الشيء فيدافعه سنة، قال الكندى:

العبد حر ما قنع والحر عبد ما طمع

وقال بشر بن الحرث: خرج فتى فى طلب الرزق، فبينما هو يمشى فأعيا، فأوى إلى خراب يستريح فيه، فبينما هو يدير بصره إذ وقعت عيناه على أسطر مكتوبة على حائط، فتأملها فإذا هى:

إنى رأيتك قاعداً مستقبلى فعلمت أنك للهـموم قرين
هون عليك وكن بربك واثقاً فأخو التوكل شأنه التهوين
طرح الأذى عن نفسه فى رزقه لما تيقن أنه مضمون

قال: فرجع الفتى إلى بيته، ولزم التوكل وقال: اللهم أدبنا أنت. قال الجاحظ: إنما خالف الله تعالى بين طبائع الناس ليوفق بينهم فى مصالحهم، ولولا ذلك لاختاروا كلهم الملك والسياسة والتجارة والفلاحة، وفى ذلك بطلان المصالح، وذهاب المعاش، فكل صنف من الناس مزين لهم ما هم فيه، فالحائك إذا رأى من صاحبه تقصيراً أو خللاً قال: ويلك يا حجام، والحجام إذا رأى مثل ذلك من صاحبه قال: ويلك يا حائك، فجعل الله تعالى الاختلاف سبباً للاتلاف، فسبحانه من مدبر قادر حكيم، ألا ترى إلى البدوى فى بيت من قطعة خيش معمد بعظام الجيف كلبه معه فى بيته لباسه شملة من وبر أو شعر، ودواؤه بعير الإبل وطيبه القطران وبعير الأطباء، وحلى زوجته الودع، وثماره المقل^(١)، وصيده اليربوع وهو فى مفازة لا يسمع فيها إلا صوت بومة، وعواء ذئب وهو قانع بذلك مفتخر به.

وقال سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه: يا بنى إذا طلبت الغنى، فاطلبه فى القناعة، فإنها مال لا ينفذ، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر، وعليك بالإياس، فإنك لم تياس من شيء إلا أغناك الله عنه.

وأصاب داود الطائى فاقة كبيرة، فجاءه حماد بن أبى حنيفة رضى الله عنه بأربعمائة درهم من تركة أبيه وقال: هى من مال رجل ما أقدم عليه أحد فى زهده وورعه وطيب كسبه، فقال: لو كنت أقبل من أحد شيئاً لقبقتها تعظيماً للميت، وإكراماً للحى، ولكنى أحب أن أعيش فى عز القناعة.

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: اتخذوا البيوت منازل، والمساجد مساكن، وكلوا من بقل البرية، واشربوا من الماء القراح، وأخرجوا من الدنيا بسلام.

وأشد المبرد:

إن ضن زيد بما فى بطن راحته فالأرض واسعة والرزق مبسوط
إن الذى قدر الأشياء بحكمته لم ينسنى قاعداً والرحل محطوط

(١) المقل: ثمر الدوم.

قال لى عبد الواحد بن زيد: ما أحسب أن شيئاً من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا، ولا أعلم درجة أرفع من الرضا وهو رأس المحبة، قيل له: متى يكون العبد راضياً عن ربه؟ قال: إذا سرته المصيبة كما تسره النعمة. وكان عبد الله بن مرزوق من ندماء المهدي، فسكر يوماً ففاته الصلاة فجاءته جارية له بجمرة، فوضعتها على رجله، فانتبه مذعوراً فقالت له: إذا لم تصبر على نار الدنيا، فكيف تصبر على نار الآخرة. فقام فصلى الصلوات، وتصديق بما يملكه وذهب يبيع البقل، فدخل عليه فضيل وابن عينة، فإذا تحت رأسه لبنة وما تحت جنبه شيء، فقالا له: إنه لم يدع أحد شيئاً لله إلا عوضه الله منه بديلاً، فما عوضك عما تركت له؟ قال: الرضا بما أنا فيه.

وقال الثوري: ما وضع أحد يده فى قصعة غيره إلا ذل له، وقال الفضيل: من رضى بما قسم الله له بارك الله له فيه. وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: الشمس فى الشتاء جلالى، ونور القمر سراجى، وبقل البرية فاكهتى، وشعر الغنم لباسى، أبيت حيث يدركنى الليل ليس لى ولد يموت، ولا بيت يخرب، أنا الذى كبيت الدنيا على وجهها. بيت مفرد:

إن القناعة من يحلل بساحتها لم يلق فى ظلها همها يؤرقه

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: انظروا إلى الطير تغدو وتروح ليس معها شيء من أرزاقها، لا تحرث، ولا تحصد، والله يرزقها، فإن زعمتم أنكم أكبر بطوناً من الطير، فهذه الوحوش والبقر والحمر لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها. وقيل: وفد عروة بن أدنية على هشام بن عبد الملك، فشكا إليه خلته، فقال له ألسن القائل:

لقد علمت وما الإسراف من خلقى إن الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسمى إليه فيعطينى تطلبه ولو قعدت أتانى ليس يعطينى

وقد جئت من الحجاز إلى الشام فى طلب الرزق فقال: يا أمير المؤمنين لقد وعظت فأبلغت، وخرج، فركب ناقته وكر إلى الحجاز راجعاً، فلما كان من الليل نام هشام على فراشه، فذكر عروة، فقال فى نفسه رجل من قريش قال حكمة ووفد على، فجيته ورددته خائباً، فلما أصبح وجه إليه بألفى دينار، ففرغ عليه الرسول باب داره بالمدينة، وأعطاه المال، فقال: أبلغ أمير المؤمنين منى السلام وقل له: كيف رأيت قولى سعت، فأكدت، فرجعت، فأتانى رزقى فى منزلى. ولما ولى عبد الله بن عامر العراق قصده صديقان له أنصارى وثقفى، فلما سارا تخلف الأنصارى وقال: الذى أعطى ابن عامر العراق قادر على أن يعطينى، فوفد الثقفى وقال: أحوز الحظين، فلما دخل على عبد الله بن عامر قال له: ما فعل زميلك الأنصارى؟ قال: رجع إلى أهله، فأمر للثقفى بأربعة آلاف دينار، وبعث إلى الأنصارى بثمانية آلاف دينار فخرج الثقفى وهو يقول:

فوالله ما حرص الحريص بنافع فيغنى ولا زهد القنوع بضائر
خرجنا جميعاً من مساقط روسنا على ثقة منا بجود ابن عامر
فلما أنخنا الناجعات ببابه تخلف عنى اليثربى ابن جابر
وقال ستكفينى عطية قادر على ما يشاء اليوم للخلق قاهر
فإن الذى أعطى العراق ابن عامر لربى الذى أرجو لسد مفاقرى
فقلت خلالي وجهه ولعله سيجعل لى حظ الفتى المتزاور
فلما رأتى سأل عنه صبابه إليه كما حنت ظوار الأباعر
فأبت وقد أيقنت أن ليس نافعا ولا ضائراً شيء خلاف المقادر

قيل: أوحى الله تعالى إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه: أتدري لِمَ رزقت الأحمق؟ قال: لا يارب. قال: ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالاحتيال، ولبعض العرب:

ولا تجزع إذا أعسرت يوماً	فقد أيسرت في الزمن الطويل
ولا تظنن بربك ظن سـوءٍ	فإن الله أولى بالجميل
وإن العسر يتبعه يسار	وقول الله أصدق كل قيل
فلو أن العـقول تسوق رزقاً	لكان المال عند ذوى العـقول

وأوحى الله تعالى إلى يوسف عليه الصلاة والسلام: انظر إلى الأرض فتظر إليها، فانفجرت، فرأى دودة على صخرة ومعها الطعام، فقال له: أتراني لم أغفل عنها، وأغفل عنك، وأنت نبي وابن نبي.

ودخل على بن أبي طالب رضى الله عنه المسجد، وقال لرجل كان واقفاً على باب المسجد: أمسك على بغلتى، فأخذ الرجل لجامها، ومضى وترك البغلة، فخرج على وفى يده درهمان ليكافئ بهما الرجل على إمساكه بغلته فوجد البغلة واقفة بغير لجام، فركبها ومضى، ودفع لغلامه درهمين يشتري بهما لجاماً، فوجد الغلام اللجام فى السوق قد باعه السارق بدرهمين فقال على رضى الله عنه: إن العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر ولا يزداد على ما قدر له.

وقيل لراهب: من أين تأكل؟ فأشار إلى فيه وقال: الذى خلق هذه الرحى يأتيها بالطحين، وقال سليم بن المهاجر الجبلى:

كسوت جميل الصبر وجهى فصانه	به الله عن غشيان كل بخيل
فما عشت لم آت البخيل ولم أقم	على بابه يوماً مقام ذليل
وإن قليلاً يستر الوجه أن يرى	إلى الناس مبدولاً لغير قليل

وصلى معروف الكرخى خلف إمام، فلما فرغ من صلاته قال الإمام لمعروف: من أين تأكل؟ قال: اصبر حتى أعيد صلاتى التى صليتها خلقتك. قال: ولم؟ قال: لأن من شك فى رزقه شك فى خالقه. وقال أبو حازم: ما لم يكتب لى لو ركبـت الريح ما أدركته، وقال عمر بن أبى عمر اليونانى:

غلا السـعر فى بغداد من بعد رخصة	وأنى فى الحـالين بالله واثق
فلست أخاف الضيق والله واسع	غناه ولا الحـرمـمان، والله رازق

وقال القهستانی^(١):

غنى بلا دنيا عن الخلق كلهم	وأن الغنى الأعلى عن الشئ لابه
----------------------------	-------------------------------

وقال منصور الفقيه:

الموت أسـهل عنـدى	بين القـنـا والأسـنة
والخـيل تجـرى سـراعاً	مـقطـعات الأعنة
مـن أن يـكـون لـنـذل	على فـضل ومنـة

(١) القُهْستَانِي : هو محمد بن جمعة بن خلف، أبو قریش القهستانی الأصم، من حفاظ الحديث، قال ابن ناصر الدين: متقن ثقة مكثر رحال، له «المسند الكبير» و«كتاب فى الحديث» توفى بقهستان سنة ٣١٣هـ-٩٢٥م.

وأُشَدُّ أَعْرَابِي:

أَيَا مَالِكَ لَا تَسْأَلِ النَّاسَ وَالتَّمَسَّسَ بِكَفِّكَ فَضَّلَ اللَّهُ فَالْأَلَّهُ أَوْسَعَ
وَلَوْ تَسْأَلِ النَّاسَ التَّرَابَ لَا وَشَكُوا إِذَا قَلِيلَ هَاتُوا أَنْ يَمْلُوا وَيَمْنَعُوا

وَقَالَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْصِنِي قَالَ: «عَلَيْكَ بِالْيَأْسِ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَإِيَّاكَ وَالطَّمْعَ فَإِنَّهُ فَقْرٌ حَاضِرٌ»، وَقِيلَ:
إِذَا وَجَدْتَ الشَّيْءَ فِي السُّوقِ، فَلَا تَطْلُبْهُ مِنْ صَدِيقِكَ، وَقِيلَ لِأَعْرَابِيَّةٍ: مِنْ أَيْنَ مَعَاشُكُمْ؟ قَالَتْ: لَوْ لَمْ نَعِشْ إِلَّا مِنْ
حَيْثُ نَعْلَمُ لَمْ نَعِشْ. وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: أَحْسِنِ الْأَحْوَالَ حَالَ يَغْبِطُكَ بِهَا مِنْ دُونِكَ وَلَا يَحْقِرْكَ مَعَهَا مِنْ فَوْقِكَ.
وَقَالَ الْمَعْرِيُّ:

إِذَا كُنْتَ تَبْغِي الْعَيْشَ فَابْغِ تَوْسَطًا فَعِنْدَ التَّنَاهَى يَقْصُرُ الْمُتَطَاوِلُ
تَوَقَّى الْبُذُورَ النِّقْصَ وَهِيَ أَهْلَةٌ وَيَدْرِكُهَا النِّقْصَانُ وَهِيَ كَوَامِلُ

وَقَالَ آخَرُ:

اقْنَعْ بِأَيْسَرِ رِزْقٍ أَنْتَ نَائِلُهُ وَاحْذَرْ وَلَا تَتَمَرَّضْ لِلْإِرَادَاتِ
فَمَا صَفَا الْبَحْرُ إِلَّا وَهُوَ مُتَقَصِّصٌ وَلَا تَعْكُرْ إِلَّا فِي الزِّيَادَاتِ

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ اسْتَظْهَرَ عَلَى الدَّهْرِ بِخَفَةِ الظَّهْرِ. قَالَ هِشَامُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْبَصْرِيُّ:

وَكَمْ مَلِكٌ جَانَبَتْهُ عَنْ كِرَاهَةٍ لِإِغْلَاقِ بَابٍ أَوْ لِتَشْدِيدِ حَاجِبِ
وَلِيَ فِي غِنَى نَفْسِي مَرَادٌ وَمِزْهَبٌ إِذَا انْصَرَفَتْ عَنِّي وَجُوهُ الْمَذَاهِبِ

وَقِيلَ: يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمَرْءُ فِي دُنْيَاهُ كَالْمَدْعُوِّ إِلَى الْوَلِيمَةِ إِنْ أَتَتْهُ صَحْفَةٌ تَتَاوَلَهَا، وَإِنْ لَمْ تَأْتِهِ لَمْ يَرْصُدهَا وَلَمْ يَطْلُبْهَا.
وَقَالَ شَقِيقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْبَلْخِيُّ: قَالَ لِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهْمَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: أَخْبِرْنِي عَمَّا أَنْتَ عَلَيْهِ قُلْتَ: إِنْ رَزَقْتَ
أَكَلْتَ، وَإِنْ مَنَعْتَ صَبَرْتَ. قَالَ: هَكَذَا تَعْمَلُ كَلَابُ بَلْخٍ؟ فَقُلْتُ: كَيْفَ تَعْمَلُ أَنْتَ؟ قَالَ: إِنْ رَزَقْتَ أَثَرْتُ، وَإِنْ مَنَعْتَ
شَكَرْتُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ:

هِيَ الْقَنَاعَةُ فَالزَّمْهَا تَعِشْ مَلِكًا لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْكَ إِلَّا رَاحَةُ الْبَدَنِ
وَانْظُرْ لِمَنْ مَلِكُ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ الْقَطْنِ وَالْكَفَنِ

وَقَالَ آخَرُ:

وَإِنْ الْقَنَاعَةُ كَنْزُ الْغِنَى فَصَصَرْتُ بِأَذْيَالِهَا مِمَّتْكَ
فَلَا ذَا يِرَانِي عَلَى بَابِهِ وَلَا ذَا يِرَانِي لَهُ مِنْهَا مِمَّتْكَ
فَصَصَرْتُ غَنِيًّا بِلَا دَرَاهِمَ أَمَرْتُ عَلَى النَّاسِ شَبَابَهُ الْمَلِكِ

جَاءَ فَتَحُ الْمُوصَلِيِّ إِلَى أَهْلِهِ بَعْدَ الْعَتَمَةِ، فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُمْ شَيْئًا لِلْعِشَاءِ وَوَجَدَهُمْ بِغَيْرِ سَرَّاجٍ، فَجَلَسَ لَيْلَتَهُ يَبْكِي مِنْ
الْفَرَحِ وَيَقُولُ: بَأَى يَدِ كَانَتْ مَنِي تَرَكْتُ مِثْلِي عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الفصل الثالث: فى ذم الحرص والطمع وطول الأمل

قال الله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢)﴾ [التكاثر: ١، ٢].

وروى أن النبى ﷺ قرأ: (الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) قال: «يقول ابن آدم مالى مالى، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت، ولبست فأبليت، وتصدقت فأمضيت».

وروى عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها، أن النبى ﷺ قال: «يا عائشة إن أردت اللحوق بى، فليكفك من الدنيا كزاد الراكب، وإياك ومجالسة الأغنياء، ولا تستخلفى ثوباً حتى ترقيه».

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «صلاح أول هذه الأمة بالرشد واليقين، وهلاك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل». وقيل: الحرص ينقص من قدر الإنسان ولا يزيد فى رزقه، وقيل لحكيم: ما بال الشيخ أحرص على الدنيا من الشاب؟ قال: لأنه ذاق من طعم الدنيا ما لم يذقه الشاب وما أحسن ما قال بعضهم:

إذا طاوعت حرصك كنت عبداً لكل ديننة تدعى إليها

وقال آخر وأجاد:

قد شاب رأسى ورأس الدهر لم يشب إن الحريص على الدنيا لفى تعب

وقيل للإسكندر: ما سرور الدنيا؟ قال: الرضا بما رزقت منها. قيل: فما غمها؟ قال: الحرص عليها.

وقال الحسن: لو رأيت الأجل ومروره لنسيت الأمل وغروره.

وقال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه: اشترى أسامة بن زيد وليدة بمائة دينار إلى شهر، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا تعجبون من أسامة اشترى إلى شهر؟ إن أسامة لطويل الأمل».

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: كان نبى الله ﷺ يخرج فيبول ثم يمسح بالتراب، فأقول: إن الماء منك قريب، فيقول: ما يدرينى لعلى ما أبلغه، وعن أبى هريرة رضى الله عنه يرفعه: «لا يزال الكبير شاباً فى اثنين، حب المال وطول الأمل». وقيل لمحمد بن واسع: كيف تجددك؟ قال: قصير الأجل، طويل الأمل، مسىء العمل، وقيل: من جرى فى عنان أمله كان عاتراً بأجله، لو ظهرت الآجال لافتضحت الآمال، ولقد أحسن أبو العباس أحمد بن مروان فى قوله:

وذى حرص تراه يلم وفراً ككلب الصييد يمسك وهو طاور
لوارثه ويدفع عن حمامه فريسته ليأكلها سواء

ولقد أحسن من قال فى الجناس الحقيقى:

إذا ما نازعتك النفس حرصاً ولا تحرص ليوم أنت فيه
فأمسكها عن الشهوات أمسك وعبد فـرزق يومك رزق أمسك

ومن كلام الحكماء: إياكم وطول الأمل، فإن من ألهاه أمله أخزاه عمله، قال عبد الصمد بن المعدل^(١):

ولى أمل قطعت به الليالى أرانى قد فنيت به ودامى

(١) عبد الصمد بن المعدل: هو عبد الصمد بن المعدل بن غيلان بن الحكم العبدى، من بنى عبد القيس، أبو القاسم، من شعراء الدولة العباسية، ولد ونشأ فى البصرة كان هجاءً شديد العارضة سكيراً، مات نحو (٢٤٠ هـ ٨٥٤ م).

قال الحسن: إياكم وهذه الأمانى، فإنه لم يعط أحد بالأمنية خيراً قط فى الدنيا ولا فى الآخرة.
وقال قس بن ساعدة^(١):

وما قد تولى فهو لا شك فائت
فهل ينفعنى لىتنى ولعلنى
وقال آخر:

ولا تتعلل بالأمانى فإنها
عطايا أحاديث النفوس الكواذب
وقال آخر وأجاد:

الله أصدق والأمال كاذبة
وجل هذى المنى فى الصدر موسواس
وقال آخر:

شط المزار بسعدى وانتهى الأمل
إلا رجاء فما ندرى أندركه
وقال أبو العتاهية:

لقد لعبت وجد الموت فى طلبى
ولو شمرت فكرتى فيما خلقت له
وله أيضاً:

تعالى الله يا سلم بن عمرو
هب الدنيا تقاد إليك عفواً
وقد ضمنت البيت الأخير فقلت:

أيا من عاش فى الدنيا طويلاً
وأتعب نفسه فيما سيفنى
أفنى العمر فى قيل وقال
وجمع من حرام أو حلال
هب الدنيا تقاد إليك عفواً
أليس مصير ذلك للزوال

(١) قس بن ساعدة: هو قس بن عمرو بن عدى بن مالك الإيادى، من بنى إباد، أحد حكماء العرب، ومن كبراء خطبائهم فى الجاهلية، ويقال إنه أول عربى خطب متوكئاً على سيف أو عصا، وكان يفد على قبصر الروم زائراً، فيكرمه ويعظمه، توفى نحو سنة (٢٣٣ق هـ - نحو ٦٠٠م).

فى المشورة والنصيحة والتجارب والنظر فى العواقب

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ﴾: [آل عمران: ١٥٩]، واختلف أهل التأويل فى أمره بالمشاورة مع ما أمده الله تعالى من التوفيق على ثلاثة أوجه: أحدها: أنه أمره بها فى الحرب ليستقر له رأى الصحيح، فيعمل عليه، وهذا قول الحسن، ثانيها: أنه أمره بالمشاورة لما علم فيها من الفضل، وهذا قول الضحاك، ثالثها: أنه أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون وإن كان فى غنية عن مشورتهم، وهذا قول سفيان، وقال ابن عيينة: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أمراً شاور فيه الرجال، وكيف يحتاج إلى مشاورة المخلوقين من الخالق مدبر أمره، ولكنه تعليم منه ليشاور الرجل الناس، وإن كان عالماً، وقال عليه الصلاة والسلام: «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، ولا افتقر من اقتصد»، وقال عليه الصلاة والسلام: «من أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله زل»، وكان يقال: ما استنبط الصواب بمثل المشاورة، وقال حكيم: المشورة موكل بها التوفيق لصواب الرأى.

وقال الحسن: الناس ثلاثة، فرجل رجل، ورجل نصف رجل، ورجل لا رجل، فأما الرجل الرجل فذو الرأى والمشورة، وأما الرجل الذى هو نصف رجل، فالذى له رأى ولا يشاور، وأما الرجل الذى ليس برجل، فالذى ليس له رأى ولا يشاور.

وقال المنصور لولده: خذ عنى اثنتين: لا تقل فى غير تفكير، ولا تعمل بغير تدبير، وقال الفضل: المشورة فيها بركة وإنى لأستشير حتى هذه الحبشية الأعجمية، وقال أعرابى: لا مال أوفر من العقل، ولا فقر أعظم من الجهل، ولا ظهر أقوى من المشورة، وقيل: من بدأ بالاستخارة، وثنى بالاستشارة، فحقيق أن لا يخيب رأيه، وقيل: الرأى السديد أحمى من البطل الشديد.

قال أبو القاسم النهروندى:

وما ألف مطرور السنان مسدد يعارض يوم الروع رأياً مسدداً

وقال على رضى الله عنه: خاطر من استغنى برأيه، وسمع محمد بن داود وزير المأمون قول القائل:

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأى أن يترددا

فأضاف إليه قوله:

وإن كنت ذا عزم فانفذه عاجلاً فإن فساد العزم أن يتقيدا

ولمحمد بن إدريس الطائى:

ذهب الصواب برأيه فكأنما آراؤه اشتقت من التأيد

فإذا دجا خطب تبلج رأيه صبحاً من التوفيق والتسديد

ولمحمد الوراق:

إن البليب إذا تفرق أمره فتق الأمور مناظراً ومشاوراً

وأخو الجهالة يستبد برأيه فتراه يعتسف الأمور مخاطرأ

وقال الرشيد حين بدا له تقديم الأمين على المأمون فى العهد:

لقد بان وجه الرأي لى غير أننى
فكيف يرد الدر فى الضرع بعدما
أخاف التواء الأمر بعد استوائه
عدلت عن الأمر الذى كان أحزماً
توزع حتى صار نهياً مقسماً
وأن ينقض الحبل الذى كان أبرماً
وقال آخر:

خليلى ليس رأى فى جنب واحد
أشيراً على اليوم ما تريان
ووصف رجل عضد الدولة فقال له: وجه فيه ألف عين، وفم فيه ألف لسان، وصدر فيه ألف قلب، وقال أزدشير ابن بابك: أربعة تحتاج إلى أربعة، الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقراءة إلى المودة، والعقل إلى التجربة، وقال: لا تستحقر رأى الجزيل من الرجل الحقير، فإن الدرة لا يستهان بها لهوان غائصها، وقال جعفر بن محمد: لا تكونن أول مشير، وإياك والرأى الخطير، وتجنب ارتجال الكلام، ولا تشيرن على مستبد برأيه، ولا على متلون، ولا على لحوح، وقيل: ينبغى أن يكون المستشار صحيح العلم، مهذب الرأى، فليس كل عالم يعرف الرأى الصائب، وكم ناقد فى شئ ضعيف فى غيره.
قال أبو الأسود الدؤلى:

وما كان ذى نصح بمؤتيك نصحه
وما كل مؤت نصحه بلبيب
ولكن إذا ما استجمعاً عند واحد
فحق له من طاعة بنصيب

وكان اليونان والفرس لا يجمعون وزراءهم على أمر يستشيرونهم فيه وإنما يستشيرون الواحد منهم من غير أن يعلم الآخر به لمعان شتى منها لثلا يقع بين المستشارين منافسة، فتذهب إصابة الرأى، لأن من طباع المشركين فى الأمر التنافس والطعن من بعضهم فى بعض، وربما سبق أحدهم بالرأى الصواب فحسدوه وعارضوه، وفى اجتماعهم أيضاً للمشورة تعريض السر للإذاعة، فإذا كان كذلك وأذيع السر لم يقدر الملك على مقابلة من أذاعه للإبهام، فإن عاقب الكل عاقبهم بذنب واحد، وإن عفا عنهم ألحق الجانى بمن لا ذنب له، وقيل: إذا أشار عليك صاحبك برأى ولم تحمد عاقبته فلا تجعل ذلك عليه لوماً وعتاباً بأن تقول: أنت فعلت، وأنت أمرتني، ولولا أنت، فهذا كله ضجر ولوم وخفة.
وقال أفلاطون: إذا استشارك عدوك، فجرد له النصيحة لأنه بالاستشارة قد خرج عن عداوتك إلى موالاةك، وقيل: من بذل نصحه واجتهاده لمن لا يشكره فهو كمن بذر فى السباخ.
قال الشاعر يمدح من له رأى وبصيرة:

بصير بأعقاب الأمور كأنما
يخطب به من كل أمر عواقبه

وقال ابن المعتز: المشورة راحة لك، وتعب على غيرك، وقال الأحنف: لا تشاور الجائع حتى يشبع، ولا العطشان حتى يروى، ولا الأسير حتى يطلق، ولا المقل حتى يجد.

ولما أراد نوح بن مريم قاضى مروان أن يزوج ابنته استشار جارا له مجوسياً، فقال: سبحان الله! الناس يستفتونك وأنت تستفتينى، قال: لا بد أن تشير على، قال: إن رئيس الفرس كسرى كان يختار المال، ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال، ورئيس العرب كان يختار الحسب، ورئيسكم محمد كان يختار الدين، فانظر لنفسك بمن تقتدى، وكان يقال: من أعطى أربعاً لم يمنع أربعاً، من أعطى الشكر لم يمنع المزيد، ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول، ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة، ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب، وقيل: إذا استخار الرجل ربه واستشار صحبه وأجهد رأيه فقد قضى ما عليه، ويقضى الله تعالى فى أمره ما يحب، وقال بعضهم: خمير الرأى خير من فطيره، وتقديمه خير من تأخير، وقالت الحكماء: لا تشاور معلماً، ولا راعى غنم، ولا كثير القعود من النساء، ولا صاحب حاجة يريد

قضاءها، ولا خائفاً، ولا حاقناً، وقيل: سبعة لا ينبغي لصاحب أن يشاورهم، جاهل، وعدو وحسود، ومراء، وجبان، وبخيل، وذو هوى، فإن الجاهل يضل، والعدو يريد الهلاك، والحسود يتمنى زوال النعمة، والمرائي واقف مع رضا الناس، والجبان من رأيه الهرب، والبخيل حريص على جمع المال، فلا رأى له في غيره، وذو الهوى أسير هواه فلا يقدر على مخالفته.

وحكى أن رجلاً من أهل يثرب يعرف بالأسلمى^(١) قال: ركبني دين أثقل كاهلي، وطالبني به مستحقوه، واشتدت حاجتي إلى ما لا بد منه، وضائق على الأرض، ولم أهدأ إلى ما أصنع، فشاورت من أثق به من ذوى المودة والرأى، فأشار على بقصد المهلب بن أبي صفرة بالعراق، فقلت له: تمنعني المشقة وبعد الشقة وتيه المهلب، ثم إنى عدلت عن ذلك المشير إلى استشارة غيره، فلا والله ما زادني على ما ذكره الصديق الأول، فرأيت أن قبول المشورة خير من مخالفتها، فركبت ناقتي وصحبت رفقة في الطريق، وقصدت العراق، فلما وصلت دخلت على المهلب، فسلمت عليه وقلت له: أصلح الله الأمير إنى قطعت إليك الدهناء، وضربت أكباد الإبل من يثرب، فإنه أشار على بعض ذوى الحجى والرأى بقصدك لقضاء حاجتى، فقال: هل آتينا بوسيلة أو بقرابة وعشيرة، فقلت: لا، ولكنى رأيتك أهلاً لقضاء حاجتى، فإن قمت بها فأهل لذلك أنت، وأن يحل دونها حائل لم أدم يومك، ولم أياس من غدك، فقال المهلب لحاجبه: اذهب به وادفع إليه ما فى خزانة مالنا الساعة، فأخذنى معه، فوجدت فى خزانته ثمانين ألف درهم، فدفعتها إلى، فلما رأيت ذلك لم أملك نفسى فرحاً وسروراً، ثم عاد الحاجب به إليه مسرعاً، فقال: هل ما وصلك يقوم بقضاء حاجتك؟ فقلت: نعم أيها الأمير وزيادة، فقال: الحمد لله على نجاح سعيك، واجتثاثك جنى مشورتك، وتحقيق ظن من أشار عليك بقصدنا، قال الأسلمى: فلما سمعت كلامه وقد أحرزت صلته أنشدته وأنا واقف بين يديه:

يا من على الجود صاغ الله راحته	فليس يحسن غير البذل والجود
عمت عطايك أهل الأرض قاطبة	فأنت والجود منحوتان من عود
من استشار فباب النجاح منفتح	لديه فيما ابتغاه غير مردود

ثم عدت إلى المدينة فقضيت ديني، ووسعت على أهلى، وجازيت المشير على، وعاهدت الله تعالى أن لا أترك الاستشارة فى جميع أمورى ما عشت.

وحكى عن الخليفة المنصور أنه كان صدر من عمه عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس أمور مؤلمة لا تحتملها حراسة الخلافة ولا تتجاوز عنها سياسة الملك، فحبسه عنده، ثم بلغه عن ابن عمه عيسى بن موسى بن على، وكان والياً على الكوفة ما أفسد عقيدته فيه، وأوحشه منه، وصرف وجه ميله إليه عنه، فتألم المنصور من ذلك وساء ظنه، وتأرق جفنه، وقل أمنه، وتزايد خوفه، وحزنه، فأدته فكرته إلى أمر دبره وكتمه عن جميع حاشيته وستره، واستحضر ابن عمه عيسى بن موسى وأجراه على عادة إكرامه، ثم أخرج من كان بحضرته وأقبل على عيسى وقال له: يا ابن العم إنى مطلقك على أمر لا أجد غيرك من أهله، ولا أرى سواك مساعداً لى على حمل ثقله، فهل أنت فى موضع ظنى بك، وعامل ما فيه بقاء نعمتك التى هى منوطة ببقاء ملكى، فقال له عيسى بن موسى: أنا عبد أمير المؤمنين ونفسى طوع أمره ونهيه، فقال: إن عمى وعمك عبد الله قد فسدت بطانته، واعتمد على ما بعضه يبيع دمه، وفى قتله صلاح ملكنا، فخذ به إليك واقتله سرّاً، ثم سلمه إليه، وعزم المنصور على الحج مضمراً أن ابن عمه عيسى إذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص، وسلمه إلى أعمامه أخوة عبد الله ليقتلوه به قصاصاً، فيكون قد استراح من الاثنين عبد الله وعيسى، قال عيسى: فلما أخذت عمى وفكرت فى قتله رأيت من الرأى أن أشاور فى قضيته من له رأى عسى أن أصيب الصواب فى ذلك، فأحضرت يونس بن قرة الكاتب، وكان لى حسن ظن فى رأيه، وعقيدة صالحة فى معرفته، فقلت له: إن أمير المؤمنين دفع إلى عمه عبد الله وأمرنى بقتله وإخفاء أمره، فما رأيك فى ذلك وما تشير به؟ فقال لى يونس: أيها الأمير احفظ نفسك يحفظ عمك وعم أمير المؤمنين، فإنى أرى لك أن تدخله فى مكان داخل دارك وتكتم أمره عن كل أحد ممن عندك، وتتولى بنفسك حمل طعامه وشرابه إليه، وتجعل دونه مغالق وأبواباً، وأظهر لأمر المؤمنين أنك قتلتهم وأنفذت

(١) الأسلمى: هو نضلة بن عبيد بن الحارث الأسلمى، أبو برزة، صحابى، غلبت عليه كنيته واختلف فى اسمه، كان من سكان المدينة، ثم البصرة، وشهد مع على قتال أهل النهروان، ثم شهد قتال الأزارقة مع المهلب بن أبى صفرة، مات بخراسان سنة (٦٥هـ - ٦٨٥م).

أمره فيه، وانتهيت إلى العمل بطاعته، فكأنى به إذا تحقق منك أنك فعلت ما أمرك به، وقتلت عمه أمرك بإحضاره على رؤوس الأشهاد، فإن اعترفت أنك قتلت به أمره أنكر أمره لك وأخذك بقتله وقتلك، قال عيسى بن موسى: فقبلت مشورة يونس وعملت بها، وأظهرت لأمر المؤمنين أنى أنفذت أمره، ثم حج المنصور، فلما قدم من حجه وقد استقر في نفسه أننى قد قتلت عمه عبد الله دس إلى عمومته أخوة عبد الله، وحثهم على أن يسألوه فى أخيهم، ويستوهبوه منه، فجاؤوا إليه وقد جلس والناس بين يديه على مراتبهم، فسألوه فى عبد الله فقال: نعم إن حقوقكم تقتضى إسعافكم بحاجتكم كيف وفيها صلة رحم وإحسان إلى من هو فى مقام الوالد، ثم أمر بإحضار عيسى بن موسى، فأحضر لوقته فقال: يا عيسى كنت دفعت إليك قبل خروجى إلى الحج عمى عبد الله ليكون عندك فى منزلك إلى حين رجوعى، فقال عيسى: قد فعلت يا أمير المؤمنين، فقال المنصور: وقد سألنى فيه عمومته وقد رأيت الصفح عنه وقضاء حاجتهم وصلة الرحم بإجابة سؤالهم فيه، فأتينا به الساعة، قال عيسى: فقلت يا أمير المؤمنين ألم تأمرنى بقتله والمبادرة إلى ذلك؟ قال: كذبت لم أمرك بذلك ولو أردت قتله لأسلمته إلى من هو بصدد ذلك، ثم أظهر الغيظ، وقال لعمومته: قد أقر بقتل أخيكم مدعياً أننى أمرته بقتله، وقد كذب على، قالوا: يا أمير المؤمنين فادفعه إلينا لنقتله به ونقتص منه، فقال: شأنكم به، قال عيسى: فأخذونى إلى الرحبة واجتمع الناس على، فقام واحد من عمومته إلى وسل سيفه ليضربنى به، فقلت له: يا عم أفاعل أنت؟ قال: أى والله كيف لا أقتلك وقد قتلت أخى فقال لهم: لا تعجلوا وردونى إلى أمير المؤمنين فردونى إليه فقلت: يا أمير المؤمنين إنما أردت قتلى بقتله، والذى دبرته على عصمنى الله تعالى من فعله، وهذا عمك باق حى سوى، فإن أمرتنى بدفعه إليهم دفعته الساعة، فأطرق المنصور، وعلم أن ريح فكره صادفت إعصاراً وأن انفراجه بتدبيره قارف خساراً، ثم رفع رأسه وقال: اثنا به، فمضى عيسى وأحضر عبد الله، فلما رآه المنصور قال لعمومته: اتركوه عندي وانصرفوا حتى أرى فيه رأياً، قال عيسى: فتركتهم وانصرفوا وانصرف إخوته، فسلمت روحى، وزالت كربتى، وكان ذلك ببركة الاستشارة بيونس وقبول مشورته والعمل بها، ثم إن المنصور أسكن عبد الله فى بيت أساسه قد بنى على الملح ثم أرسل الماء حوله ليلاً فذاب الملح وسقط البيت، فمات عبد الله، ودفن بمقابر باب الشام، وسلم عيسى من هذه المكيدة ومن سهام مراميها البعيدة.

ومما جاء فى النصيحة: اعلّموا أن النصيحة للمسلمين وللخلائق أجمعين من سنن المرسلين، قال الله تعالى إخباراً عن نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤]. وقال شعيب عليه السلام: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣]. وقال صالح عليه السلام: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إن الدين النصيحة إن الدين النصيحة إن الدين النصيحة». قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامةهم».

فالنصح لله هو وصفه بما هو أهله وتزويجه عما ليس له بأهل، والقيام بتعظيمه، والخضوع له ظاهراً وباطناً، والرغبة فى محابه والبعد عن مساخطه، وموالاته من أطاعه، ومعاداته من عصاه، والجهاد فى رد العصاة إلى طاعته قولاً وفعلًا. والنصيحة لكتابه إقامته فى التلاوة، وتحسينه عند القراءة. وتفهم ما فيه، والذب عنه من تأويل المحدثين وطعن الطاعنين، وتعليم ما فيه للخلائق أجمعين. قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]. والنصيحة للرسول عليه السلام إحياء سنته بالطلب لها وإحياء طريقته فى بث الدعوى، وتأليف الكلمة، والتخلق بالأخلاق الطاهرة. والنصيحة للأئمة معاونتهم على ما كلفوا القيام به بستانيتهم عند الغفلة، وإرشادهم عند الهفوة، وتعليمهم ما جهلوا، وتحذيرهم ممن يريد بهم سوء، وإعلامهم بأخلاق عمالهم وسيورتهم فى الرعية، وسد خلتهم عند الحاجة، ورد القلوب النافرة إليهم. والنصيحة لعامة المسلمين الشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم والرحمة لصغيرهم وتفريج كربهم وتوقى ما يشغل خواطرهم، ويفتح باب الوسواس عليهم.

واعلم أن جرعة النصيحة مرة لا يقبلها إلا أولو العزم. وقال ميمون بن مهران^(١): قال لى عمر بن عبد العزيز رضى

(١) ميمون بن مهران: هو ميمون بن مهران الرقى، أبو أيوب، فقيه من القضاة، كان مولى لامرأة بالكوفة، واعتقه، فنشأ فيها، ثم استوطن الرقة (من بلاد الجزيرة الفراتية) فكان عالم الجزيرة وسيدھا استعمله عمر بن عبد العزيز على خراجها وقضائها، وكان ثقة فى الحديث، كثير العبادة، توفى سنة (١١٧هـ - ٧٣٥م).

الله عنه: قل لى فى وجهى ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكره، وفى مشور الحكم: ودك من نصحك وقلاك من مشى فى هواك. وقال أبو الدرداء^(١) رضى الله عنه: إن شتم لأنصحن لكم، إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحبون الله تعالى إلى عباده ويعملون فى الأرض نصحاً. ولورقة بن نوفل^(٢):

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم
لا شئ مما ترى تبقى بشاشتته
لم تغن عن هرمز يوماً ذخائره
إنى النذير فلا يغرركم أحد
إلا الإله ويردى المال والولد
والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

وقال بعض الخلفاء لجرير بن يزيد: إنى قد أعددتك لأمر. قال: يا أمير المؤمنين. إن الله تعالى قد أعد لك منى قلباً معقوداً بنصيحتك، ويداً مبسوطة لطاعتك، وسيفاً مجرداً على عدوك. وأنشد الأصمعى:

النصح أرخص ما باع الرجال فلا
إن النصائح لا تخفى مناهلها
ولمعاذ بن مسلم:

نصحتك والنصيحة إن تعدت
فخالفت الذى لك فيه حظ
هوى المنصوح عزلهما القبول
فنالكَ دون ما أملت غول

وقيل: أشار فيروز بن حصين على يزيد بن المهلب أن لا يضع يده فى يد الحجاج فلم يقبل منه، وسار إليه، فحبسه وحبس أهله فقال فيروز:

أمرتكَ أمراً حازماً فعصيتنى
أمرتكَ بالحجاج إذ أنت قادر
فما أنا بالباكى عليك صباة
فأصبحت مسلوب الإمارة نادماً
فنفستك أولى اللوم إن كنت لائماً
وما أنا بالداعى لتراجع سالماً

ويقال: من أصفر وجهه من النصيحة، اسود لونه من الفضيحة. وقال طرفة:

ولا ترفس دن النصيح من ليس أهله
وإن أمراً يوماً تولى برأيه
وفى مثله قال بعضهم:

من الناس من أن يستشرك فتجتهد
فلا تمنحن الرأى من ليس أهله
له الرأى يستغششك مالم تتابعه
فلا أنت محمود ولا الرأى نافعه

والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) أبو الدرداء: هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصارى الخزرجى، صحابى، من الحكماء الفرسان القضاة، كان قبل البعثة تاجراً فى المدينة، ثم انقطع للعبادة، ولما ظهر الإسلام اشتهر بالشجاعة والنسك، وفى الحديث (عويمر حكيم أمتى)، (ونعم الفارس عويمر) ولأه معاوية قضاء دمشق، قال ابن الجوزى، كان من العلماء الحكماء، وهو أحد الذين جمعوا القرآن حفظاً، توفى سنة (٣٢هـ - ٦٥٢م).

(٢) ورقة بن نوفل: هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، من قریش، حكيم جاهلى، اعتزل الاوثان قبل الإسلام، تنصّر، وقرأ كتب الاديان، أدرك أوائل عصر النبوة ولم يدرك الدعوة، وهو ابن عم السيدة خديجة أم المؤمنين، توفى سنة نحو (١٢ق هـ - ٦١١م).

فى الوصايا الحسنة والمواظب المستحسنة وما أشبه ذلك

قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]. ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [آل عمران: ١١٤]. والآيات فى ذلك كثيرة مشهورة وفوائدها جمة منشورة.

وروي فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

وقال شيخنا محيى الدين النووى^(١) رحمه الله تعالى عليه فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]. إن هذه الآية الكريمة مما يغتر بها أكثر الجاهلين ويحملونها على غير وجهها بل الصواب فى معناها أنكم إذا فعلتم ما أمرتم به لا يضرركم ضلالة من ضل.

ومن جملة ما أمروا به الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والآية مرتبة فى المعنى على قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩].

وقال محمد بن تمام: الموعظة جند من جنود الله تعالى، ومثلها مثل الطين يضرب به على الحائط إن استمسك نفع وإن وقع أثر.

ومن كلام على رضى الله تعالى عنه: لا تكونن ممن لا تنفعه الموعظة إلا إذا بالغت فى إيلامه، فإن العاقل يتعظ بالأدب، والبهايم لا تتعظ إلا بالضرب.

وأنشد الجاحظ:

وليس يزجركم ————— ما توعظون به
والبهم يزجرها الراعى فستزجر

وكتب رجل إلى صديق له: أما بعد، فعظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك، واستح من الله بقدر قربه منك، وخفه بقدر قدرته عليك والسلام. وقيل: من كان له من نفسه واعظ كان له من الله حافظ، وقال لقمان: الموعظة تشق على السفیه كما يشق صعود الوعر على الشيخ الكبير. قيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: إنك إن أتيتنى بعد آبق كتبتك عندى حميداً، ومن كتبتك عندى حميداً لم أعذبه بعدها أبداً، وقال الرشيد لمنصور بن عمار: عظمى وأوجز، فقال: يا أمير المؤمنين: هل أحد أحب إليك من نفسك، قال: لا. قال: إن أردت أن لا تسئ إلى من تحب فافعل، وقال النبى ﷺ فى بعض خطبه: «أيها الناس الأيام تطوى، والأعمار تفتى، والأبدان فى الشرى تبلى، وإن الليل والنهار يتراکضان تراکض البريد، ويقربان كل بعيد، ويخلقان كل جديد، وفى ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ورغب فى الباقيات الصالحات.

ولما لقي ميمون بن مهران الحسن البصرى^(٢) قال له: لقد كنت أحب أن ألقاك فعظمى، فقرأ الحسن البصرى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾

(١) النووى: هو يحيى بن شرف بن مرى بن حسن الخرامى الحورانى، النووى، الشافعى، أبو زكريا، محيى الدين، علامة بالفقه والحديث ولد فى نوا (من قرى حوران بسوريا) سنة (٦٣١هـ-١٢٣٣م) وإليها نسبته. تعلم فى دمشق، وأقام بها زمناً طويلاً من كتبه «تهذيب الاسماء واللغات» «تصحيح التنبية» فى فقه الشافعية، و «شرح صحيح مسلم» و «رياض الصالحين» وغيرها توفى سنة (٦٧٦هـ-١٢٧٧م).

(٢) الحسن البصرى: هو الحسن بن يسار البصرى، أبو سعيد، تابعى، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة فى زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء والفصحاء الشجعان النساك، ولد بالمدينة سنة (٢١هـ) وسكن البصرة، وعظمت هيته فى القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، قال الغزالي: كان الحسن البصرى أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء، وأقربهم هدياً من الصحابة، توفى رحمه الله سنة (١١٠هـ-٧١٨م) بالبصرة.

مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿٢٠٧﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧]. فقال: عليك السلام أبا سعيد لقد وعظتني أحسن موعظة.

ولما ضرب ابن ملجم لعنه الله علياً رضى الله عنه، دخل منزله فاعترتة غشية ثم أفاق، فدعا الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما وقال: أوصيكما بتقوى الله تعالى، والرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا، ولا تأسفا على شيء فاتكما منها، فإنكما عنها راحلان. افعلوا الخير وكونا للظالم خصماً، وللمظلوم عوناً، ثم دعا محمداً ولده وقال له: أما سمعت ما أوصيت به أخويك، قال: بلى قال: فإني أوصيك به، وعليك ببر أخويك وتوقيرهما، ومعرفة فضلهما، ولا تقطع أمراً دونهما، ثم أقبل عليهما وقال: أوصيكما به خيراً، فإنه أخوكما وابن أبيكما وأنتما تعلمان أن أباه كان يحبه، فأحباه، ثم قال: يا بني أوصيكم بتقوى الله في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الصديق والعدو، والعمل في النشاط والكسل، والرضا عن الله في الشدة والرخاء، يا بني ما شر بعده الجنة بشر، ولا خير بعده النار بخير، وكل نعيم دون الجنة حقير، وكل بلاء دون النار عافية، يا بني من أبصر عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره، ومن رضى بما قسم الله له لم يحزن على ما فاتته، ومن سل سيف البغي قتل به، ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيها، ومن هتك حجاب أخيه هتك عورات بنيه، ومن نسي خطيئته استعظم خطيئته غيره، ومن أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله زل، ومن تكبر على الناس ذل، ومن خالط الأئذال احتقر، ومن دخل مداخل السوء اتهم، ومن جالس العلماء وقر، ومن مزح استخف به، ومن أكثر من شيء عرف به، ومن أكثر كلامه كثر خطؤه، ومن كثر خطؤه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار. يا بني الأدب ميزان الرجل، وحسن الخلق خير قرين، يا بني العافية عشرة أجزاء: تسعة منها في الصمت إلا عن ذكر الله تعالى، وواحدة في ترك مجالسة السفهاء، يا بني زينة الفقر الصبر، وزينة الغنى الشكر. يا بني لا شرف أعلى من الإسلام ولا كرم أعز من التقوى ولا شفيح أنجح من التوبة، ولا لباس أجمل من العافية. يا بني الحرص مفتاح التعب ومطية النصب.

ولما حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة، نظر إلى أهله ليكون حوله فقال: جاد لكم هشام بالدنيا، وجدتم له بالبكاء، وترك لكم جميع ما جمع، وتركتم عليه ما حمل، ما أعظم منقلب هشام إن لم يغفر الله له.

وقال الأوزاعي للمنصور في بعض كلامه: يا أمير المؤمنين أما علمت أنه كان بيد رسول الله ﷺ جريدة يابسة يستاك بها ويردع بها المنافقين، فأتاه جبريل عليه السلام. فقال: يا محمد ما هذه الجريدة التي بيدك؟ اقذفها لا تملأ قلوبهم رعباً، فكيف بمن سفك دماء المسلمين، واتهب أموالهم، يا أمير المؤمنين: إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدشة خدشها أعرابياً من غير تعمد. يا أمير المؤمنين: لو أن ذنباً من النار صب، ووضع على الأرض لأحرقها، فكيف بمن يتجرعه، ولو أن ثوباً من النار وضع على الأرض لأحرقها، فكيف بمن يتقمصه، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب، فكيف بمن يتسلسل بها، ويرد فضلها على عاتقه.

وروى زيد بن أسلم عن أبيه قال: قلت لجعفر بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه، وكان والي المدينة: احذر أن يأتي رجل غداً ليس له في الإسلام نسب، ولا أب ولا جد، فيكون أولى برسول الله ﷺ منك، كما كانت امرأة فرعون أولى بموسى، وكما كانت امرأة نوح، وامرأة لوط أولى بفرعون، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، ومن أسرع به عمله لم يبطئ به نسبه.

وروى زياد عن مالك بن أنس رضى الله عنه قال: لما بعث أبو جعفر إلى مالك بن أنس وابن طاوس قال: دخلنا عليه وهو جالس على فرش، وبين يديه أنطاع قد بسطت، وجلادون بأيديهم السيوف يضربون الأعناق، فأوماً إلينا أن اجلسا فجلسنا، فأطرق زماناً طويلاً ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاوس وقال: حدثني عن أبيك. قال: سمعت أبي يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى في ملكه، فأدخل عليه الجور في حكمه». فأمسك أبو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه قال: ما لك؟ فضممت ثيابي مخافة أن ينالها شيء من دم ابن طاوس، ثم قال: يا ابن طاوس ناولني هذه الدواة. فأمسك عنه، فقال: ما يمنعك أن تناولنيها، قال: أخاف أن تكتب بها معصية، فأكون شريكك فيها. فلما سمع ذلك قال: قوما عني. فقال ابن طاوس: ذلك ما كنا نبغي. قال: مالك، فمازلت أعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم.

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال لكعب الأحبار: يا كعب خوفنا. قال: أوليس فيكم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؟ قال: بلى يا كعب، ولكن خوفنا. فقال: يا أمير المؤمنين اعمل، فإنك لو وافيت يوم القيامة بعمل سبعين نبياً، لا دريت عملهم مما ترى، فنكس عمر رضى الله عنه رأسه، وأطرق ملياً، ثم رفع رأسه، وقال: يا كعب خوفنا. فقال: يا أمير المؤمنين لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالشرق ورجل بالمغرب لغلى دماغه، حتى يسيل من حرها، فنكس عمر ثم أفاق، فقال: يا كعب زدنا، فقال: يا أمير المؤمنين إن جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة، فلا يسقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول: يارب لا أسألك اليوم إلا نفسى.

وقال سيدى الشيخ أبو بكر الطرطوشى^(١) رحمه الله تعالى عليه: دخلت على الأفضل بان أمير الجيوش، وهو أمير على مصر، فقلت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد السلام على نحو ما سلمت رداً جميلاً، وأكرمى إكراماً جزيلاً، وأمرنى بدخول مجلسه، وأمرنى بالجلوس فيه. فقلت: أيها الملك إن الله تعالى قد أحلك محلاً علياً شامخاً، وأنزلك منزلاً شريفاً باذخاً، وملكك طائفة من ملكه، وأشركك فى حكمه، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك، فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك، وليس الشكر باللسان، وإنما هو بالفعال والإحسان. قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، واعلم أن هذا الذى أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان قبلك، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك، فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة، فإن الله تعالى سائلك عن الفتيل والنقيير والقطمير. قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)﴾ [الأنبياء: ٤٧]، واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد آتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليه السلام، فسخر له الإنس والجن والشياطين والطير والوحش والبهايم، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع فقال له: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩)﴾ [ص: ٣٩]، فوالله ما عدها نعمة كما عدتموها، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن تكون استدراجاً من الله تعالى، ومكرأ به. فقال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]. فافتح الباب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، وأغث الملهوف، أعانك الله على نصر المظلوم، وجعلك كهفاً للملهوف وأماناً للخائف. ثم أتممت المجلس بأن قلت قد جبت البلاد شرقاً وغرباً، فما اخترت مملكة وارتحت إليها، ولذت لى الإقامة فيها غير هذه المملكة، ثم أنشدته:

والناس أكيس من أن يحمدا رجلاً
حتى يروا عنده آثار إحسان

وقال الفضل بن الربيع^(٢): حج هارون الرشيد سنة من السنين، فبينما أنا نائم ذات ليلة إذ سمعت قرع الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: أجب أمير المؤمنين، فخرجت مسرعاً، فقلت: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلى أتيتك، فقال: ويحك قد حال فى نفسى شئ لا يخرج به إلا عالم، فانظر لى رجلاً أسأله عنه، فقلت: ههنا سفيان بن عيينة، فقال: امض بنا إليه، فأتيناه، فقرعت عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعاً، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلى أتيتك، فقال: جد لما جئنا له، فحادثه ساعة، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم. فقال: يا أبا العباس اقض دينه ثم انصرفنا. فقال: ما أغنى عنى صاحبك شيئاً، فانظر لى رجلاً أسأله، فقلت: ههنا عبد الرزاق بن همام، فقال: امض بنا إليه، فأتيناه، فقرعت عليه الباب، فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعاً، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلى أتيتك، فقال: جد لما جئنا به، فحادثه ساعة، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم. فقال: يا أبا العباس اقض دينه، ثم انصرفنا. فقال: ما أغنى عنى صاحبك شيئاً، فانظر لى رجلاً أسأله، فقلت: ههنا

(١) الطرطوشى: هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشى الفهرى الأندلسى، أبو بكر الطرطوشى، ويقال له ابن رندقة، أديب، من فقهاء المالكية الحفاظ من أهل طرطوشة بشرقى الأندلس تفقه فى بلاده ورحل إلى المشرق، وأقام فى الشام وتولى التدريس، وكان زاهداً لم يتشبت من الدنيا بشئ. له: «سراج الملوك» و«الحوادث والبدع» توفى سنة (٥٢٠هـ - ١١٢٦م).

(٢) الفضل بن الربيع: هو الفضل بن الربيع بن يونس، أبو العباس، وزير أديب حازم، كان أبوه وزيراً للمنتصور العباسى استجبه المنصور، واستوزره الرشيد البرامكة، توفى بطوس سنة (٢٠٨هـ - ٨٢٤م).

الفضيل بن عياض، فقال: امض بنا إليه، فأتيناه، فإذا هو قائم يصلي في غرفته يتلو آية من كتاب الله تعالى وهو يرددّها، فقرعت عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: مالي ولأمير المؤمنين، فقلت: سبحان الله! أما تحب عليك طاعته؟ ففتح الباب ثم ارتقى إلى أعلى الغرفة، فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة، فجعلنا نحول عليه بأيدينا، فسبقت كف الرشيد كفى إليه، فقال: أواه من كف ما أليتها إن نجت غداً من عذاب الله تعالى؟ فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب نقي، فقال: جدد لما جئنا له رحمك الله تعالى، فقال: وفيم جئت حملت على نفسك، وجميع من معك حملوا عليك، حتى لو سألتهم أن يتحملوا عنك شقاً من ذنب ما فعلوا ولكان أشدهم حباً لك أشدهم هرباً منك. ثم قال: إن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي، ورجاء بن حيوة، فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء، فأشيروا علي. فعد الخلافة بلاء، وعددتها أنت وأصحابك نعمة، فقال سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله، فصم عن الدنيا، وليكن إفطارك فيها على الموت. وقال محمد بن كعب: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله تعالى، فليكن كبير المسلمين عندك أباً، وأوسطهم عندك أخاً، وأصغرهم عندك ولداً، فبر أباك، وارحم أخاك، وتحن على ولدك. وقال رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله تعالى، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واکره لهم ما تكره لنفسك، ثم متى شئت مت، وإني لأقول هذا، وإني لأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام، فهل معك رحمك الله مثل هؤلاء القوم من يأمر بك بمثل هذا. فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً حتى غشى عليه، فقلت له: ارفق بأمر المؤمنين، فقال: يا ابن الربيع قتلته أنت وأصحابك، وأرفق به أنا، ثم أفاق هارون الرشيد، فقال: زدني. فقال يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه شكاً إليه سهرراً، فكتب له عمر يقول: يا أخى اذكر سهر أهل النار في النار وخلود الأبدان، فإن ذلك يطرد بك إلى ربك نائماً ويقظان، وإياك أن تزل قدمك عن هذا السبيل، فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك، فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه، فقال له عمر: ما أقدمك؟ فقال له: لقد خلعت قلبي بكتابك لا وليت ولاية أبداً حتى ألقى الله عز وجل، فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً ثم قال: زدني. قال يا أمير المؤمنين إن العباس عم النبي ﷺ جاء إليه، فقال يا رسول الله أمرني إمارة، فقال له النبي ﷺ: «يا عباس، نفس تحيها خير من إمارة لا تحصيها. إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل»، فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً، ثم قال: زدني يرحمك الله. فقال: يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقى هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسى وفي قلبك غش لرعيك، فإن النبي ﷺ قال: «من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة»، فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم دين لربي يحاسبني عليه، فالويل لى إن ناقشني، والويل لى إن سألتني، والويل لى إن لم يلهمنى حاجتى، قال هارون: إنما أعنى دين العباد. قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، وإنما أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧، ٥٨]. فقال له هارون: هذه ألف دينار، فخذها وانفقها على عيالك وتقربها على عبادة ربك، فقال: سبحان الله أنا دلتك على سبيل الرشاد تكافئني أنت بمثل هذا سلمك الله ووفقك، ثم صمت، فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده، فقال لى هارون: إذا دلتني على رجل فدلني على مثل هذا، فإن هذا سيد المسلمين اليوم. واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له شروط وصفات، قال سليمان الخواص: من وعظ أخاه فيما بينه وبينه، فهي نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الأشهاد فإنما بكته. وقالت أم الدرداء^(١) رضى الله تعالى عنها: من وعظ أخاه سرّاً فقد سره وزانه، ومن وعظه علانية فقد ساءه وشانه، ويقال: من وعظ أخاه سرّاً فقد نصحه وسره، ومن وعظه جهراً فقد فضحه وضره. وعن عبد العزيز بن أبي داود قال: كان الرجل إذا رأى من أخيه شيئاً أمره في ستر، ونهاه في ستر، فيؤجر في ستره ويؤجر في أمره، ويؤجر في نهيه. وعن عمر رضى الله تعالى عنه: إذا رأيتم أخاكم ذا زلة فقوموه وسددوه، وادعوا الله أن يرجع به إلى التوبة، فيتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان على أخيك. وبالله التوفيق إلى أقوم طريق، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) أم الدرداء: هي خيرة بنت أبي حذرر واسمه سلامة بن عمير بن أبي سلمة الأسلمي، صحابية تعرف بأمر الدرداء الكبرى، من فضليات النساء وذوات الراى فيهن، حفظت عن النبي ﷺ وعن زوجها (أبو الدرداء) روى عنها جماعة من التابعين، توفيت سنة نحو (٣٠هـ - ٦٥٠م).

فى الصمت وصون اللسان والنهى عن الغيبة والسعى بالنميمة

ومدح العزلة وذم الشهرة وفيه فصول

الفصل الأول: فى الصمت وصون اللسان

قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنْ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

واعلم أنه ينبغى للعاقل المكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً تظهر المصلحة فيه، ومتى استوى الكلام وتركه فى المصلحة فالسنة الإمساك عنه، لأنه قد يجبر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه بل هذا كثير وغالب فى العادة والسلامة لا يعادلها شئ، وروينا فى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت».

قال الشافعى رضى الله تعالى عنه فى الأم: إذا أراد أحدكم الكلام فعليه أن يفكر فى كلامه فإن ظهرت المصلحة تكلم، وإن شك لم يتكلم حتى تظهر.

وروينا فى صحيحيهما عن أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه قال: قلت يا رسول الله: أى المسلمين أفضل؟ قال: «من سلم الناس من لسانه ويده».

وروينا فى كتاب الترمذى عن عقبة بن عامر رضى الله تعالى عنه قال: قلت يا رسول الله: ما النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك». قال الترمذى حديث حسن. وروينا فى كتاب الترمذى، وابن ماجه، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه». والأحاديث الصحيحة فى ذلك كثيرة، وفيما أشرت كفاية لمن وفقه الله تعالى.

وأما الآثار عن السلف وغيرهم فى هذا الباب فكثيرة لا تحصر لكن ننبه على شئ منها.

فمما جاء من ذلك ما بلغنا أن قس بن ساعدة، وأكثم بن صيفى اجتماعاً، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت فى ابن آدم من العيوب؟ فقال: هى أكثر من أن تحصر، وقد وجدت خصلة إن استعملها الإنسان سترت العيوب كلها. قال: وما هى؟ قال: حفظ اللسان.

وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه لصاحبه الربيع: يا ربيع لا تتكلم فيما لا يعينك، فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها، وقال بعضهم مثل اللسان مثل السبع، إن لم توثقه عدا عليك ولحقك شره.

ومما أشدوه فى هذا الباب:

احفظ لسانك أيها الإنسان	لا يلدغ نك إنه ثعبان
كم فى المقابر من قتيل لسانه	كانت تهاب لقاء الشجعان

وقال الفارسى:

لعمرك إن فى ذنبى لشغلا	لنفسى عن ذنوب بنى أمية
على ربى حسابهم إليهم	تناهى علم ذلك لا إليهم

وقال على رضى الله عنه: إذا تم العقل نقص الكلام، وقال أعرابى: رب منطق صدع جمعاً وسكوت شعب صدعاً، وقال وهب بن الورد: بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء: تسعة منها فى الصمت، والعاشر فى عزلة الناس، وقال على بن

هشام رحمة الله تعالى عليه:

لعمرك إن الحلم زين لأهله ومما الحلم إلا عـادة وتحلم
إذا لم يكن صمت الفتى عن ندامة وعى فإن الصمت أولى وأسلم

وقال ابن عيينة: من حرم الخير فليصمت، فإن حرمهما فالملوت خير له، وعن رسول الله ﷺ أنه قال لأبي ذر^(١) رضى الله عنه: «عليك بالصمت إلا من خير، فإنه مطردة للشيطان، وعون على أمر دينك». ومن كلام الحكماء: من نطق في غير خير فقد لغا، ومن نظر في غير اعتبار فقد سها، ومن سكت في غير فكر فقد لها، وقيل: لو قرأت صحيفتك لأغمدت صفيحتك ولو رأيت ما في ميزانك لختمت على لسانك. ولما خرج يونس عليه السلام من بطن الحوت طال صمته، فقيل له: ألا تتكلم؟ فقال: الكلام صيرنى في بطن الحوت. وقال حكيم: إذا أعجبك الكلام فاصمت، وإذا أعجبك الصمت فتكلم، وكان يقال: من السكوت ما هو أبلغ من الكلام لأن السفه إذا سكت عنه كان في اغتنام، وقيل لرجل: بم سادكم الأحنف، فوالله ما كان بأكبركم سناً، ولا بأكثركم مالاً؟ فقال: بقوة سلطانه على لسانه، وقيل: الكلمة أسيرة في وثاق الرجل، فإذا تكلم بها صار في وثاقها، وقيل: اجتمع أربعة ملوك، فتكلموا، فقال ملك الفرس: ما ندمت على ما لم أفل مرة، وندمت على ما قلت مراراً، وقال قيصر: أنا على رد ما لم أفل أقدر منى على رد ما قلت، وقال ملك الصين: ما لم أتكلم بكلمة ملكتها، فإذا تكلمت بها ملكتنى، وقال ملك الهند: العجيب ممن يتكلم بكلمة إن رفعت ضرت وإن لم ترفع لم تنفع، وكان بهرام جالساً ذات ليلة تحت شجرة، فسمع منها صوت طائر، فرماه، فأصابه، فقال: ما أحسن حفظ اللسان بالطائر والإنسان. لو حفظ هذا لسانه ما هلك، وقال على رضى الله تعالى عنه: بكثرة الصمت تكون الهيبة. وقال عمرو بن العاص رضى الله عنه: الكلام كاللداء إن أقللت منه نفع، وإن أكثرته منه قتل، وقال لقمان لولده: يا بني إذا افتخر الناس بحسن كلامهم، فافتخر أنت بحسن صمتك، يقول اللسان كل صباح وكل مساء للجوارح كيف أنتن، فيقلن بخير إن تركتنا.

قال الشاعر:

احفظ لسانك لا تقول فتبتلى إن البلاء موكـل بالمنطق

الفصل الثامن: فى تحريم الغيبة

اعلم أن الغيبة من أقبح القبائح وأكثرها انتشاراً فى الناس حتى لا يسلم منها إلا القليل من الناس وهى ذكرك الإنسان بما يكره ولو بما فيه سواء كان فى دينه أو بدنه أو نفسه أو خلقه أو خلقه أو ماله أو ولده أو والده أو زوجته أو خادمه أو عمامته أو ثوبه أو مشيته أو حركته أو بشاشته أو خلاعته أو غير ذلك مما يتعلق به سواء ذكرته بلفظك أو بكتابك أو رمزت إليه بعينك أو يدك أو رأسك أو نحو ذلك، فأما الدين فكقولك سارق خائن ظالم متهاون بالصلاة متساهل فى النجاسات ليس باراً بوالديه قليل الأدب لا يضع الزكاة مواضعها ولا يجتنب الغيبة، وأما البدن فكقولك أعمى أو أعرج أو أعمش أو قصير أو طويل أو أسود أو أصفر، وأما غيرهما فكقولك فلان قليل الأدب متهاون بالناس لا يرى لأحد عليه حقاً، كثير النوم كثير الأكل وما أشبه ذلك، أو كقولك فلان أبوه نجار أو إسكاف أو حداد أو حائك تريد تنقيصه بذلك أو فلان سيئ الخلق متكبر، وراء معجب عجول جبار ونحو ذلك أو فلان واسع الكم طويل الذيل وسخ الثوب ونحو ذلك، وقد روي فى صحيح مسلم وسنن أبى داود والترمذى والنسائى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: وإن كان فى أخى ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته» قال الترمذى حديث حسن صحيح. وروينا فى سنن أبى داود والترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا. قال بعض الرواة تعنى قصيرة. فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته» أى خالطته مخالطة يتغير بها طعمه وريحه لكثرة نتنها وروينا فى سنن أبى داود عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بى إلى السماء مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون

لحوم الناس ويقعون في أعراضهم». وروى عن جابر رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا، ثم قال رسول الله ﷺ: إن الرجل ليزنى فيتوب، فيتوب الله عليه وإن صاحب الغيبة لم يغفر له حتى يغفر له صاحبها». وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال: من اغتاب المسلمين وأكل لحومهم بغير حق وسعى بهم إلى السلطان، جئ به يوم القيامة مزرقه عيناه يتأذى بالويل والثبور ويعرف أهله ولا يعرفونه، وقال معاوية بن قرة: أفضل الناس عند الله أسلمهم صدرأ وأقلهم غيبة، وقال الأحنف: في خصمتان: لا اغتاب جليسى إذا غاب عني، ولا أدخل في أمر قوم لا يدخلونني فيه. وقيل للربيع بن خيثم: ما نراك تعيب أحداً فقال: لست عن نفسي راضياً فأتفرغ لذم الناس وأنشد:

لنفسى أبكى لست أبكى لغيرها لنفسى من نفسى عن الناس شاغل
وقال كثير عزة:

وسعى إلى بغيب عزة نسوة جعل الإله خدودهن نعالها

وقال محمد بن حزم: أول من عمل الصابون سليمان وأول من عمل السويق ذو القرنين وأول من عمل الحيس يوسف، وأول من عمل خبز الجرادق غمروذ، وأول من كتب في القراطيس الحجاج، وأول من اغتاب إبليس لعنه الله اغتاب آدم عليه السلام.

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام أن المغتاب إذا تاب فهو آخر من يدخل الجنة، وإن أصر فهو أول من يدخل النار. ويقال لا تأمن من كذب لك أن يكذب عليك، ومن اغتاب عندك غيرك، أن يغتابك عند غيرك. وقيل للحسن البصرى رضى الله تعالى عنه إن فلاناً اغتابك، فأهدى إليه طبقاً من رطب فأثاه الرجل وقال له: اغتبتك فأهديت إلى، فقال الحسن: أهديت إلى حسناتك فأردت أن أكافئك.

وعن ابن المبارك رحمه الله تعالى قال: لو كنت مغتاباً أحداً لا غتبت والذى لأنهما أحق بحسناتى، وإذا حاكى إنسان إنساناً بأن يمشى متعارجاً أو متطأطأ أو غير ذلك من الهيئات، يريد تنقيصه بذلك فهو حرام. وبعض المتفقهين والمتعبدین يعرضون بالغيبة تعريضاً تفهم به كما تفهم بالتصريح، فيقال لأحدهم كيف حال فلان فيقول الله يصلحنا، الله يغفر لنا، الله يصلحه، نسأل الله العافية، نحمد الله الذى لم يبتلينا بالدخول على الظلمة، نعوذ بالله من الكبر، يعافينا الله من قلة الحياء، الله يتوب علينا، وما أشبه ذلك مما يفهم تنقيصه فكل ذلك غيبة محرمة.

واعلم أنه كما يحرم على المغتاب ذكر الغيبة كذلك يحرم على السامع استماعها، فيجب على من يستمع إنساناً يبتدئ بغيبة أن ينهأ إن لم يخف ضرراً، فإن خافه وجب عليه الإنكار بقلبه ومفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقتها، فإن قال بلسانه اسكت وقلبه يشتهى سماع ذلك، قال بعض العلماء، إن ذلك نفاق. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨]. وما أنشدوه في هذا المعنى:

وسمعتك صن عن سماع القبيح كصون اللسان عن النطق به
فلنك عند سماع القبيح شريك لقائله فانتبه
وكم أزعج الحارص من طالب فوافى النية فى مطلبه

الفصل الثالث: فى تحريم السعاية بالنميمة

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مُّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝﴾ [القلم: ١٠، ١١]. وحسبك بالنمام خسة ورذيلة، سقوطه وضعته والهماز المغتاب الذى يأكل لحوم الناس، الطاعن فيهم. وقال الحسن البصرى: هو الذى يغمز بأخيه فى المجلس وهو الهمزة اللمزة. وقال على والحسن البصرى رضى الله عنهما: العتل الفاحش السيئ الخلق، قال ابن عباس رضى الله عنهما: العتل الفاتك الشديد المنافق، وقال عبيد بن عمير: العتل الأكل الشروب القوى الشديد، يوضع فى الميزان فلا يزن شعيرة. وقال الكلبي: هو الشديد فى كفره. وقيل: العتل الشديد الخصومة بالباطل، والزنيم

هو الذى لا يعرف من أبوه. قال الشاعر:

زئيم ليس يعرف من أبوه بغى الأم ذو حسب لئيم

وروي في صحيح البخاري ومسلم عن حذيفة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة غمام». وروي أن النبي ﷺ مر بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتره من بوله». قال الإمام أبو حامد الغزالي رحمة الله تعالى عليه: النميمة إنما تطلق في الغالب على من ينم قول الغير إلى المقول فيه كقوله فلان يقول فيك كذا، فيبغى للإنسان أن يسكت عن كل ما رآه من أحوال الناس إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع معصية، وينبغى لمن حملت إليه النميمة وقيل له قال فيك فلان كذا أن لا يصدق من نم إليه لأن النمام فاسق، وهو مردود الخير، وأن ينهاء عن ذلك وينصحه ويقبح فعله ويبغضه في الله تعالى، فإنه بغض عند الله والبغض في الله واجب، وأن لا يظن بالمنقول عنه سوء، لقول الله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]. وسعى رجل إلى بلال بن أبى بردة برجل وكان أمير البصرة، فقال له انصرف حتى أكشف عنك، فكشف عنه فإذا هو ابن بغى يعنى ولد زنا. قال أبو موسى الأشعري رضى الله عنه: لا ينم على الناس إلا ولد بغى. وروي أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بشراركم، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: شراركم المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة والباغون العيوب».

وروي أبو هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون كل شغاز، ملعون كل قتات، ملعون كل غمام، ملعون كل منان». والشغاز المحرش بين الناس يلقي بينهم العدو، والقتات: النمام، والمنان: الذى يعمل الخير ويمن به. وأما السعاية إلى السلطان وإلى كل ذى قدرة فهي المهلكة والحالقة التى تجمع الخصال الذميمة، من الغيبة وشؤم النميمة والتغريز بالنفوس والأموال فى النوازل والأحوال، وتسلب العزيز عز وتحط المكين عن مكانته والسيد عن مرتبته، فكم دم أراقه سعى ساع، وكم حريم استبيح بنميمة غمام، وكم من صفيين تباعدا وكم من متواصلين تقاطعا، وكم من محبين افترقا، وكم من إلفين تهاجرا وكم من زوجين تطالقا، فليتنق الله ربه عز وجل، رجل ساعدته الأيام وتراخت عنه الأقدار أن يصغى لساع أو يستمع لتمام. ووجد فى حكم القدماء: أبغض الناس إلى الله المثلث. قال الأصمعى: هو الرجل يسعى بأخيه إلى الإمام فيهلك نفسه وأخاه وإمامه. وقال بعض الحكماء: احذروا أعداء العقول ولصوص المودات وهم السعاة والناممون، إذا سرق اللصوص المتاع سرقوا هم المودات. وفى المثل السائر: من أطاع الواشى ضيع الصديق، وقد تقطع الشجرة فتنبت، ويقطع اللحم السيف فيندمل، واللسان لا يندمل جرحه. ودفع إنسان رقعة إلى صاحب بن عباد يحثه فيها على أخذ مال يتيم وكان مالا كثيرا، فكتب إليه على ظهرها: والنميمة قبيحة وإن كانت صحيحة، والميت رحمه الله واليتيم جبره الله والساعى لعنه الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وروي فى كتاب أبى داود والترمذى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لا يبلغنى أحد من أصحابى عن أحد شيئا فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»

. ومن الناس من يتلون ألوانا ويكون بوجهين ولسانين، فيأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه، وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً. قال صالح بن عبد القدوس رحمه الله تعالى:

قل للذى لست أدري من تلونه	أناصح أم على غش يناجيني
إنى لأكثر مما سمتنى عجبا	يد تشح وأخرى منك تأسونى
تغتابنى عند أقوام وتمدحنى	فى أخيرين وكل عنك يأتينى
هذان شيطان قد نافيت بينهما	فأكفف لسانك عن شتمى وتزيينى

وقيل: لآلف لحوح جموح خير من واحد متلون. وكان يشبه المتلون بأبى براقش، وأبى قلمون، فأبو براقش طائر منقط باللوان النقوش يتلون فى اليوم ألوانا وأبو قلمون ضرب من ثياب الحرير ينسج بالروم يتلون ألوانا، ويقال للطائش الذى لا ثبات معه أبو رياح، تشبيهاً بمثال فارس من نحاس بمدينة حمص على عمود حديد فوق قبة بباب الجامع يدور

مع الريح ويمناه ممدودة وأصابها مضمومة إلا السبابة، فإذا أشكل عليهم مهب الريح عرفوه به، فإنه يدور بأضعف نسيم يصيبه، والذي يعمل الصبيان من قرطاس على قصبة، يسمى أبا رياح، أيضاً ويقال: أخلاق الملوك مثل في المتلون. قال بعضهم:

ويوم كـأخلاق الملوك تلونا
أشبهه إياك يا من صفاته
فصحو وتغييم وطل ووابل
دنو وإعراض ومنع ونائل

وكلم معاوية الأحنف في شيء بلغه عنه، فأنكره الأحنف، فقال له معاوية: بلغني عن الثقة، فقال له الأحنف: إن الثقة لا يبلغ مكروهاً. وكان الفضل بن سهل يبغض السعاية، وإذا أتاه ساع يقول له: إن صدقتنا أبغضناك، وإن كذبتنا عاقبتنا، وإن استقلتنا أقلناك. وكتب في جواب كتاب ساع: نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول إجازة، وليس من دل على شيء وأخبر به كمن قبله وأجاره، فاتقوا الساعي فإنه لو كان في سعائته صادقاً لكان في صدقه لثيماً إذ لم يحفظ الحزمة ولم يستر العورة. وقيل: من سعى بالنميمة حذره الغريب ومقته القريب. وقال المأمون: النميمة لا تقرب مودة إلا أفسدتها، ولا عدواة إلى جدتها، ولا جماعة إلى بددتها، ثم لا بد لمن عرف بها ونسب إليها، أن يجتنب ويخاف من معرفته ولا يوثق بمكانه وأنشد بعضهم:

من نم في الناس لم تؤمن عتاربه
كالسبيل بالليل لا يدرى به أحد
الويل للعهد منه كيف ينقضه
وقال آخر:

يسمى عليك كما يسمى إليك فلا
وقال صالح بن عبد القدوس^(١) رحمه الله تعالى:

من يخبرك بشئتم عن أخ
ذاك شئ لم يواجـهـك به
وقال آخر:

إن تعلموا الخير أخفوه وإن علموا
وقال آخر:

إن سمعوا ربة طاروا بها فرحاً
صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به
منى وما سمعوا من صالح دفنوا
وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

وقال الحسن: ستر ما عاينت أحسن من إشاعة ما ظننت. وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه: من سمع بفاحشة فأفشأها فهو كالذي أتأها.

(وما جاء في النهي عن اللعن)

ما روي في صحيح البخاري ومسلم عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لعن المؤمن كقتله». وروينا في صحيح مسلم أيضاً عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يكون اللعانون

(١) صالح بن عبد القدوس: هو صالح بن عبد الله بن عبد القدوس الأزدى الجذامي، مولاهم، أبو الفضل، شاعر حكيم، كان متكلماً يعظ الناس في البصرة، وشعره كله أمثال وحكم وآداب، اتهم عند المهدي العباسي بالزندقة فقتله ببغداد، وعُي في آخر عمره قتل سنة (١٦٠هـ-٧٧٧م).

شفعاء ولا شهداء يوم القيامة». وروينا في سنن أبي داود، عن أبي الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا لعن شيئاً صعدت اللعنة إلى السماء، فتغلق أبواب السماء دونها ثم تهبط إلى الأرض، فتغلق أبوابها دونها، ثم تأخذ يميناً وشمالاً فإذا لم تجد مساعاً رجعت إلى الذى لعن إن كان أهلاً لذلك، وإلا رجعت إلى قائلها». ويجوز لعن أصحاب الأوصاف المذمومة على العموم كقوله: لعن الله الظالمين، لعن الله الكافرين، لعن الله اليهود، والنصارى، لعن الله الفاسقين، لعن الله المصورين ونحو ذلك.

وثبت في الأحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ: «لعن الواصلة والمستوصلة»، وأنه قال: «لعن الله آكل الربا»، وأنه قال: «لعن الله المصورين»، وأنه قال: «لعن الله من لعن والديه»، وأنه قال: «لعن الله من ذبح لغريم الله»، وأنه قال: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وأنه قال: «لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال»، وجميع هذه الألفاظ في البخارى ومسلم بعضها فيهما، وبعضها فى أحدهما، والله أعلم.

(وما جاء فى العزلة ومدح الخمول وذم الشهرة)

قال رسول الله ﷺ: «الخمول نعمة، وكل يتبرأ والظهور نقمة وكل يتمنى». وقال بعضهم:

تلحف بالخممول تعش سليماً وجالس كل ذى أدب كريم
وقال جعفر بن الفراء:

من أخمل النفس أحياءاً وروحها ولم يبت طاوياً منها على ضرر
إن الرياح إذا اشتدت عواصفها فليس ترمى سوى العالى من الشجر

وقال أعرابى: رب وحدة أنفع من جليس ووحشة أنفع من أنيس. وكان أبو معاوية الضرير يقول: فى خصلتان، ما يسرنى بهما رد بصرى قلة الإعجاب بنفسى، وخلو قلبى من اجتماع الناس إلى. وقال عمر رضى الله عنه: خذوا حظكم من العزلة. وصعد حسان على أطم من أطام المدينة ونادى بأعلى صوته يا صباحاه، فاجتمعت الخزرج، فقالوا ما عندك؟ قال: قلت بيت شعر، فأحببت أن تسمعه. قالوا: هات يا حسان. فقال:

وإن امرءاً أمسى وأصبح سالماً من الناس إلا ما جنى لسعيد

ولما بنى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه منزله بالعقيق قيل له: تركت منازل إخوانك وأسواق الناس ونزلت بالعقيق، فقال: رأيت أسواقهم لاغية ومجالسهم لاهية، فوجدت الاعتزال فيما هنالك عافية. وقيل لعروة أحنى مرداس: لم لا تحدثنا ببعض ما عندك من العلم؟ فقال: أكره أن يميل قلبى باجتماعكم إلى حب الرئاسة، فأخسر الدارين. وقال سفيان بن عيينة: دخلنا على الفضل فى مرضه نعوذه، فقال ما جاء بكم، والله لو لم تحيثوا لكان أحب إلى، ثم قال: نعم الشئ المرض لولا العيادة، وقيل للفضل: إن ابنك يقول: وددت لو أنى بالمكان الذى أرى الناس فيه، ولا يرونى، فقال: ويح ابنى لم لا أتمها، فقال: لا أراهم ولا يرونى، وقال على رضى الله تعالى عنه: طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وطوبى لمن لزم بيته، وأكل قوته، واشتغل بطاعته، ويكى على خطيئته، فكان من نفسه فى شغل، والناس منه فى راحة. وقال سفيان: الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الناس. وقيل لراهب فى صومعته: ألا تنزل، فقال: من مشى على وجه الأرض عثر. والكلام فى مثل هذا كثير، وقد اكتفينا بهذا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الملك والسلطان وطاعة ولادة أمور الإسلام وما يجب

للسلطان على الرعية وما يجب لهم عليه

روى عن الحسن أنه قال للحجاج: سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول قال رسول الله ﷺ: «وقروا السلاطين ويجلوهم، فإنهم عز الله وظله فى الأرض إذا كانوا عدولاً»، فقال الحجاج: ألم تكن فيهم إذا كانوا عدولاً؟ قال: قلت: بلى. وعن عمر رضى الله تعالى عنه قال: قلت للنبي ﷺ: أخبرنى عن هذا السلطان الذى ذلت له الرقاب وخضعت له الأجساد ما هو؟ قال: «ظل الله فى الأرض، فإذا أحسن فله الأجر وعليكم الشكر، وإذا أساء فعليه الإصر وعليكم الصبر». وعنه عليه الصلاة والسلام: «أما راع استرعى رعيته، ولم يحطها بالأمانة والنصيحة من ورائها إلا ضاقت عليه رحمة الله تعالى التى وسعت كل شئ». وقال مالك بن دينار رضى الله تعالى عنه: وجدت فى بعض الكتب يقول الله تعالى: أنا ملك الملوك، رقاب الملوك بيدى، فمن أطاعنى جعلتهم عليه رحمة، ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة، لا تشغلوا ألسنتكم بسب الملوك، ولكن توبوا إلى الله يعطفهم عليكم. وقال جعفر بن محمد رحمة الله تعالى عليه: كفارة عمل السلطان الإحسان إلى الإخوان. وقال كسرى لسيرين: ما أحسن هذا الملك لو دام، فقال: لو دام لأحد ما انتقل إلينا. ومر طارق الشرطى بابن شبرمة فى موكبه فقال:

أراها وإن كانت تحب فلإنها —————
سحابة صيف عن قليل تقشع

وجلس الإسكندر يوماً فما رفع إليه حاجة فقال: لا أعد هذا اليوم من أيام ملكى. وقال الجاحظ: ليس شئ الذ ولا أسر من عز الأمر والنهى، ومن الظفر بالأعداء، ومن تقليد المن أعناق الرجال لأن هذه الأمور تصيب الروح، وحظ الذهن وقسمة النفس، وقيل: الملك خليفة الله فى عباده، ولن يستقيم أمر خلافة مع مخالفة. وقال الحجاج: سلطان تخافه الرعية خير من سلطان يخافها. وقال أردشير لابنه: يا بنى الملك والدين أخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر، فالدين أس والملك حارس، وما لم يكن له أس فمهدوم، وما لم يكن له حارس فضائع. قيل: لما دنت وفاة هرمز وامراته حامل، عقد التاج على بطنها وأمر الوزراء بتدبير المملكة حتى يولد له ولد، فتملك، وأغار العرب على نواحي فارس فى صباه، فلما أدرك ركب، وانتخب من أهل النجدة فرساناً وأغار على العرب، فانتبهكهم بالقتل، ثم خلع أكتاف سبعين ألفاً، فقليل له: ذو الأكتاف، وأمر العرب حيثئذ بإرخاء الشعور وليس المصبغات، وأن يسكنوا بيوت الشعراء وأن لا يركبوا الخيل إلا عراة.

وقيل: من أخلاق الملوك حب التفرد. كان أردشير إذا وضع التاج على رأسه لم يضع أحد على رأسه قضيب ريحان، وإذا لبس حلة لم ير أحد مثلها، وإذا تختم بخاتم كان حراماً على أهل المملكة أن يتختموا بمثله.

وكان سعيد بن العاص بمكة إذا اعتم لم يعتم أحد بمثل عمامته ما دامت على رأسه. وكان الحجاج إذا وضع على رأسه عمامة لم يجترأ أحد من خلق الله أن يدخل عليه بمثلها. وكان عبد الملك إذا لبس الخف الأصفر لم يلبس أحد مثله حتى ينزعه. وأخبرنى من سافر إلى اليمن أنه لا يأكل الأوز بها أحد غير الملك.

وقيل: من حق الملك أن يفحص عن أسرار الرعية فحصى المرضعة عن ابنها، وكان أردشير متى شاء قال: لأرفع أهل مملكتي وأضعهم كان عندك فى هذه الليلة كيت وكيت، حتى كان يقال: يأتى ملك من السماء، وما ذاك إلا بتفحصه وتيقظه.

وكان علم عمر رضى الله عنه بمن نأى عنه كعلمه بمن بات معه على وساد واحد. ولقد اقتفى معاوية أثره وتعرف إلى زياد رجل، فقال: أتتعرف إلى وأنا أعرف بك من أهلك وأملك، وأعرف هذا البرد الذى عليك؟ ففزع الرجل حتى ارتعد من كلامه.

وعن بعض العباسيين قال: كلمت المأمون رحمه الله تعالى في امرأة خطبتها، وسألته النظر إليها، فقال: يا أبا فلان من قصتها وحليتها وفعلها وشأنها كيت وكيت، فوالله ما زال يصفها ويصف أحوالها حتى أبهتني.

(ومما جاء في طاعة ولادة أمور الإسلام)

أمر الله تعالى بذلك في كتابه العزيز على لسان نبيه الكريم فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وروي في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضى الله عنهما قال: «بايعت رسول الله ﷺ على شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة والسمع والطاعة، والنصح لكل مسلم».

وسئل كعب الأحبار عن السلطان، فقال: ظل الله في أرضه من ناصحه اهتدى، ومن غشه ضل. وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه: «لا تسبوا السلطان فإنه ظل الله في الأرض، به يقوم الحق ويظهر الدين، وبه يدفع الله الظلم ويهلك الفاسقين». وقال عمر بن عبد العزيز لمؤدبه: كيف كانت طاعتى لك؟ قال: أحسن طاعة. قال: فأطعنى كما كنت أطيعك، خذ من شاربك حتى تبدو شفتاك، ومن ثوبك حتى تبدو عقباك.

وعن أبي هريرة رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصى الله، ومن أطاع امرئ فقد أطاعنى، ومن عصى امرئ فقد عصانى».

وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن النبي أمر بالسمع والطاعة لولى الأمر ومناصحته ومحبه والدعاء له. ولو تتبعنا ذلك لطال الكلام، لكن اعلم أرشدنى الله وإياك إلى الاتباع، وجنبنا الزيغ والابتداع، أن من قواعد الشريعة المطهرة والملة الحنيفية المحرزة أن طاعة الأئمة فرض على كل الرعية، وأن طاعة السلطان تؤلف شمل الدين وتنظم أمور المسلمين، وأن عصيان السلطان يهدم أركان الملة، وأن أرفع منازل السعادة طاعة السلطان، وأن طاعته عصمة من كل فتنة، وبطاعة السلطان تقام الحدود وتودى الفروض، وتحقن الدماء، وتؤمن السبل، وما أحسن ما قالت العلماء: إن طاعة السلطان هدى لمن استضاء بنورها وأن الخارج عن طاعة السلطان منقطع العصمة برئ من الذمة، وأن طاعة السلطان حبل الله المتين ودينه القويم، وأن الخروج منها خروج من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ومن غش السلطان ضل وزل، ومن أخلص له المحبة والنصح حل من الدين والدنيا في أرفع محل، وأن طاعة السلطان واجبة أمر الله تعالى بها في كتابه العظيم المنزل على نبيه الكريم. وقد اقتصرنا في ذلك على ما أوردناه واكتفينا بما بيناه، ونسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا وأن يعيذنا من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، وأن يصلح شأننا، إنه قريب مجيب، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبته

أما صحبة السلطان: فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما، قال لى أبى: يا بنى إنى أرى أمير المؤمنين يستخليك ويستشيرك ويقدمك على الأكابر من أصحاب محمد ﷺ، وإنى أوصيك بخلال ثلاث: لا تفشين له سرأ، ولا تجرين عليه كذبأ، ولا تغتابن عنده أحدأ، قال الشعبي رحمه الله تعالى: قلت لابن عباس كل واحدة منهن خير من ألف، فقال: إى والله، ومن عشرة آلاف.

وقال بعض الحكماء: إذا زادك السلطان تأنيساً فزده إجلالاً، وإذا جعلك أخأ، فاجعله أبأ، وإذا زادك إحسانأ، فزده فعل العبد مع سيده، وإذا ابتليت بالدخول على السلطان مع الناس، فأخذوا فى الثناء عليه، فعليك بالدعاء له ولا تكثر فى الدعاء له عند كل كلمة، فإن ذلك شبيه بالوحشة والغربة.

وقال مسلم بن عمر لمن خدم السلطان: لا تغتر بالسلطان إذا أدناك ولا تتغير منه إذا أقصاك.

وروى أن بعض الملوك استصحب حكيمأ، فقال له: أصحبك على ثلاث خصال، قال: وما هن؟ قال: لا تهتك لى سترأ، ولا تشتم لى عرضأ، ولا تقبل فى قول قاتل حتى تستشيرنى، قال: هذا لك. فماذا لى عليك؟ قال: لا أفشى لك سرأ، ولا أدخر عنك نصيحة، ولا أؤثر عليك أحدأ، قال: نعم الصاحب للمستصحب أنت.

وقال بزرجمهر: إذا خدمت ملكأ من الملوك، فلا تطعه فى معصية خالكك، فإن إحسانه إليك فوق إحسان الملك، وإيقاعه بك أغلظ من إيقاعه.

وقالوا: اصحب الملوك بالهية لهم والوقار لأنهم إنما احتجوا عن الناس لقيام الهية وإن طال أنسك بهم تزده غمأ.

وقالوا: علم السلطان وكأنك تتعلم منه، وأشر عليه وكأنك تستشير، وإذا أحلك السلطان من نفسه بحيث يسمع منك، ويثق بك، فإياك والدخول بينه وبين بطانته، فإنك لا تدري متى يتغير منك، فيكونون عونأ عليك، وإياك أن تعادى من إذا شاء أن يطرح ثيابه، ويدخل مع الملك فى ثيابه فعل. وفى الأمثال القديمة احذروا زمارة المخدة وفيه قيل: بيت منفرد:

ليس الشفيع الذى يأتيك مستزراً مثل الشفيع الذى يأتيك عريانأ

وقال يحيى بن خالد: إذا صحبت السلطان فداره مداراة المرأة العاقلة لصحبة الزوج الأحمق.

وأما ما جاء فى التحذير من صحبة السلطان: فقد اتفقت حكماء العرب والعجم على النهى عن صحبة السلطان، قال فى كتاب كليله ودمته: ثلاثة لا يسلم عليها إلا القليل: صحبة السلطان، واثتمان النساء على الأسرار، وشرب السم على التجربة. وكان يقال قد خاطر بنفسه من ركب البحر، وأعظم منه خطراً من صحب السلطان. وكان بعض الحكماء يقول: أحق الأمور بالتثبت فيها أمور السلطان، فإن من صحب السلطان بغير عقل، فقد لبس شعار الغرور. وفى حكم الهند صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطر.

وقيل للعتابى^(١): لم لا تصحب السلطان على ما فيك من الأدب؟ قال: لأنى رأيت يعطى عشرة آلاف فى غير شئ، ويرمى من السور فى غير شئ، ولا أدرى أى الرجلين أكون. وقال معاوية لرجل من قریش: إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبى، ويبطش ببطش الأسد. وقال ميمون بن مهران: قال لى عمر بن عبد العزيز يا ميمون احفظ عنى أربعأ: لا تصحب السلطان وإن أمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر، ولا تخلون بامرأة وإن أقرأتها القرآن، ولا تصل من قطع رحمه فإنه لك أقطع، ولا تتكلم بكلام اليوم تعتذر منه غداً، وكم رأينا، وبلغنا ممن صحب السلطان من أهل الفضل

(١) العتابى: هو كلثوم بن عمرو بن أيوب التغلبى، أبو عمرو، من بنى عتاب بن سعد، كاتب، حسن الترسل، وشاعر مجيد، يسلك طريقة النابغة، من أهل الشام، كان ينزل قنسرین، رُمى بالزندقة، فطلبه الرشيد فهرب، وله: «فنون الحكم» و «الأداب» وغيرها، توفى سنة (٢٢٠ هـ - ٨٣٥ م).

والعقل والعلم والدين ليصلحه ففسد هو به ، فكان كما قيل :

عدوى البليد إلى الجليد سريعة والجمر يوضع فى الرماد فيخمد

ومثل من صحب السلطان ليصلحه ، مثل من ذهب ليقيم حائطاً مائلاً ، فاعتمد عليه ليقيمه ، فخر الحائط عليه فاهلكه .

قال الشاعر :

ومعاشر السلطان شبه سفينة فى البحر ترجف دائماً من خوفه
إن أدخلت من مائه فى جوفها يغتالها مع مائها فى جوفه

وفى كتاب كليله ودمنة : لا يسعد من ابتلى بصحبة الملوك ، فإنهم لا عهد لهم ولا وفاء ولا قريب ولا حميم ، ولا يرغبون فيك إلا أن يطمعوا فيما عندك ، فيقربوك عند ذلك ، فإذا قضوا حاجتهم منك تركوك ورفضوك ، ولا ود للسلطان ولا إخاء ، والذنب عنده لا يغفر .

وقالت الحكماء : صاحب السلطان كراكب الأسد يخافه الناس وهو لمركوبه أخوف . وقال محمد بن واسع : والله لسف التراب ولقضم العظم خير من الدنو من أبواب السلاطين . وقال محمد بن السماك : الذباب على العذرة خير من العابر على أبواب الملوك . وقيل : من صحب السلطان قبل أن يتأدب ، فقد غرر بنفسه . وقال ابن المعتز : من شارك السلطان فى عز الدنيا شاركه فى ذل الآخرة ، وعنه إذا زادك السلطان تأنيلاً وإكراماً فزده تهيئاً واحتشاماً . وقال أبو على الصغاني^(١) : إياك والملوك ، فإن من والاهم أخذوا ماله ومن عاداهم أخذوا رأسه . وقيل : مكتوب على باب قرية من قرى بلخ اسمها بهار ، أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاثة : عقل ، وصبر ومال ، وتحت مكتوب : كذب عدو الله من كان له واحد منها لم يقرب باب السلطان . وقال حسان بن ربيع الحميرى : لا تثقن بالملك فإنه ملول ، ولا بالمرأة فإنها خثون ولا بالدابة فإنها شرود . وقال عبيد بن عمير : ما ازداد رجل من السلطان قرباً إلا ازداد من الله بعداً ، ولا كثرت أتباعه إلا كثرت شياطينه ، ولا كثر ماله إلا كثر حسابه ، وقال ابن المبارك رحمه الله :

أرى الملوك بأدنى الدين قد قنعوا ولا أرىهم رضوا فى العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال بعضهم فى ولادة بنى مروان :

إذا ما قطعتم ليلكم بمدامكم وأفنيتمموا أيامكم بمنام
فمن ذا الذى يغشاكم فى ملمة ومن ذا الذى يغشاكم بسلام
رضيتم من الدنيا بأيسر بلغة بلثم غلام أو بشرب مدام
ولم تعلموا أن اللسان موكل بمدح كرام أو بدم لشام

نهت الحكماء عن خدمة الملوك ، فقالوا : إن الملوك يستعظمون فى الثواب رد الجواب ، ويستقلون فى العقاب ضرب الرقاب ، وقيل : شر الملوك من أمنه الجري وخافه البرئ . والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وحسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) أبو على الصغاني : هو الصاغاني الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر العلوى العمري الصاغاني الحنفى رضى الدين ، أعلم أهل عصره فى اللغة ، وكان فقيهاً محدثاً ، ولد فى لاهور بالهند (٥٧٧هـ) ونشأ بغزنة (فى بلاد السند) ودخل بغداد ، له : «مجمع البحرين» و «التكملة» و «العياب» وغيرها ، توفى بمكة كما أوصى سنة (٦٥٠هـ - ١٢٥٢م) .

فى ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم وما أشبه ذلك

قال الله تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام: ﴿واجعل لى وزيراً من أهلى﴾ [طه: ٢٩]. فلو كان السلطان يستغنى عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران عليه السلام. ثم ذكر حكمة الوزارة، فقال: ﴿أشدد به* أزرى وأشركه فى أمرى﴾ [طه: ٣١، ٣٢] دلت هذه الآية على أن الوزارة تشد قواعد المملكة، وأن يفوض إليه السلطان إذا استكملت فيه الخصال المحموده، ثم قال: ﴿كى نسبحك كثيراً* ونذكرك كثيراً﴾ [طه: ٣٣، ٣٤] دلت هذه الآية على أن بصحية العلماء والصالحين وأهل الخبرة والمعرفة، تنتظم أمور الدنيا والآخرة، وكما يحتاج أشجع الناس إلى السلاح، وأفره الخيل إلى السوط، وأحد السفار إلى المسن، كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم وأعلمهم إلى الوزير.

وروى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصمة الله. وقال وهب بن منبه، قال موسى لفرعون: آمن ولك الجنة ولك ملكك. قال: حتى أشاور هامان، فشاوره فى ذلك، فقال له هامان: بينما أنت إله تعبد إذ صرت تعبد، فأنف واستكبر، وكان من أمره ما كان. وعلى هذا النمط كان وزير الحجاج يزيد بن مسلم لا يألوه خبالاً، ولبس القراء شر قرين لشر خدين، وأشرف منازل الأدميين النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة، وفى الأمثال: نعم الظهير الوزير. وأولى ما يظهر نبل السلطان وقوة تمييزه وجودة عقله فى انتخاب الوزراء واستنقاء الجلساء ومحاذة العقلاء، فهذه ثلاث خلال تدل على كماله، وبهذه خلال يجمل فى الخلق ذكره، وترسخ فى النفوس عظمته، والمراء موسوم بقرينه، وكان يقال حلية الملوك وزينتهم وزراؤهم.

وفى كتاب كيلة ودمنة: لا يصلح السلطان إلا بالوزراء والأعوان، وقال شريح بن عبيد: لم يكن فى بنى إسرائيل ملك إلا ومعه رجل حكيم إذا رآه غضبان كتب إليه صحائف، وفى كل صحيفة: ارحم المسكين واخش الموت، واذكر الآخرة، فكلما غضب الملك ناوله الحكيم صحيفة حتى يسكن غضبه، ومثل الملك الخير والوزير السوء الذى يمنع الناس خيره ولا يمكنهم من الدنو منه، كالماء الصافى فيه التمساح، فلا يستطيع المراء دخوله، وإن كان سابحاً وإلى الماء محتاجاً، ومثل السلطان كمثّل الطبيب، ومثل الرعية كمثّل المرضى، ومثل الوزير كمثّل السفير بين المرضى والأطباء، فإذا كذب السفير بطل التدبير. وكما أن السفير إذا أراد أن يقتل أحد من المرضى وصف للطبيب نقيض دائه، فإذا سقاه الطبيب على صفة السفير هلك العليل، كذلك الوزير ينقل إلى الملك ما ليس فى الرجل، فيقتله الملك، فمن ههنا شرط فى الوزير أن يكون صدوقاً فى لسانه عدلاً فى دينه مأموناً فى أخلاقه بصيراً بأمور الرعية، وتكون بطانة الوزير أيضاً من أهل الأمانة والبصيرة، وليحذر الملك أن يولى الوزارة لثيماً، فاللثيم إذا ارتفع جفا أقاربه وأنكر معارفه، واستخف بالأشراف وتكبر على ذوى الفضل، ودخل بعض الوزراء على بعض الخلفاء وكان الوزير من أهل العقل والأدب، فوجد عنده رجلاً ذمياً كان الخليفة يميل إليه ويقربه، فقال الوزير منشداً:

يا ملكاً طاعته لازمه وحسبه مفترض واجب

إن الذى شرفه من أجله يزعم هذا أنه كاذب

وأشار

إلى الذمى، فأسأله يا أمير المؤمنين عن ذلك، فسأله، فلم يجد بداً من أن يقول هو صادق، فاعترف بالإسلام. وكان بعض الملوك قد كتب ثلاث رقاع، وقال لوزيره: إذا رأيتى غضبان، فادفع إلى رقعة بعد رقعة، وكان فى الأولى أنك لست ياله، وأنك ستموت، وتعود إلى التراب، فياكل بعضك بعضاً، وفى الثانية: ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء، وفى الثالثة: اقض بين الناس بحكم الله، فإنهم لا يصلحهم إلا ذلك. ولما كانت أمور المملكة عائدة إلى الوزراء، وأزمة الملوك فى أكف الوزراء سبق فيهم من العقلاء المثل السائر، فقالوا لا تغتر بمودة الأمير إذا غشك الوزير،

وإذا أحبك الوزير، فتم لا تخش الأمير، ومثل السلطان كالدار والوزير بابها، فمن أتى الدار من بابها ولج ومن أتاها من غير بابها انزعج. وموقع الوزارة من المملكة كموقع المرأة من البصر، فكما أن من لم ينظر في المرأة لا يرى محاسن وجهه وعيوبه، كذلك السلطان إذا لم يكن له وزير لا يعلم محاسن دولته وعيوبها. ومن شروط الوزير أن يكون كثير الرحمة للخلق رءوفاً بهم.

واعلم أنه ليس للوزير أن يكتم عن السلطان نصيحة، وإن استقلها، وموضع الوزير من المملكة كموضع العينين من الرأس، وكما أن المرأة لا تريك وجهك إلا بصفاء جوهرها وجودة صقلها ونقاها من الصدأ. كذلك السلطان لا يكمل أمره إلا بجودة عقل الوزير، وصحة فهمه، ونقاء قلبه. والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

فى ذكر الحجاب والولاية وما فيها من الغرر والخطر

أما الحجاب: فقد قيل: لا شئ أضيع للمملكة وأهلك للرعية من شدة الحجاب. وقيل: إذا سهل الحجاب أحجمت الرعية عن الظلم، وإذا عظم الحجاب هجمت على الظلم. وقال ميمون بن مهران، كنت عند عمر بن عبد العزيز، فقال لحاجبه: من بالباب؟ فقال: رجل أناخ ناقته الآن، يزعم أنه ابن بلال مؤذن رسول الله ﷺ، فأذن له أن يدخل، فلما دخل قال: حدثنى أبى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من ولى شيئاً من أمور المسلمين ثم حجب عنه حجه الله عنه يوم القيامة»، فقال عمر لحاجبه: الزم بيتك، فما روى على بابه بعد ذلك حاجب. وكان خالد بن عبد الله القشيري يقول لحاجبه: إذا أخذت مجلسى فلا تحجب عنى أحداً. فإن الوالى لا يحتجب إلا لثلاث: عيب يكره أن يطلع عليه أحد، أو ريبة يخاف منها أن تظهر، أو بخل يكره معه أن يسأل شيئاً. وكانت العجم تقول: لا شئ أضيع للملكة من شدة حجاب الملك، ولا شئ أهيب للرعية وأكف لهم عن الظلم من سهولته. وقيل لبعض الحكماء: ما الجرح الذى لا يتدمل؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم، ثم يرده بغير قضائها، قيل: فما الذى هو أشد منه؟ قال: وقوف الشريف بباب الدنى ثم لا يؤذن له. ووقف عبد الله بن العباس بن الحسن العلوى على باب المأمون يوماً، فنظر إليه الحاجب ثم أطرق، فقال عبد الله لقوم معه: إنه لو أذن لنا لدخلنا، ولو صرفنا لانصرفنا، ولو اعتذر إلينا لقبلا، وأما النظرة بعد النظرة والتوقف بعد التعرف فلا أفهم معناه، ثم تمثل بهذا البيت.

وما عن رضى كان الحمار مطيتى ولكن من يمشى سـىـرى بما ركب
ثم انصرف، فبلغ ذلك المأمون، فضرب الحاجب ضرباً شديداً وأمر لعبد الله بصلة جزيلة وعشر دواب.
قال الشاعر:

رأيت أناساً يسرعون تبادراً إذا فتح البواب بابك أصبعا
ونحن جلوس ساكتون رزاة وحلماً إلى أن يفتح الباب أجمعا
ووقف رجل خراسانى بباب أبى دلف العجلى حيناً فلم يؤذن له فكتب رقعة وتلطف فى وصولها إليه وفيها:
إذا كان الكريم له حجاب فأجابه أبو دلف بقوله:

إذا كان الكريم قليل مـال ولم يعذر تعلل بالحجاب
وأبواب الملوك محجبات فلا تستنكرون حجاب بابى
ومن محاسن النظم فى ذم الاحتجاب قول بعضهم:
سأهجركم حتى يلين حجابكم على أنه لا بد سـوف يلين
خذوا حذرکم من صفوة الدهر إنها وإن لم تكن خانج فسوف تخون
وقال آخر:

مـا إذا على بواب داركم الذى لم يعطنا إذناً ولا يستأذن
لو ردنا رداً جميلاً عنكم أو كان يدفع بالتى هى أحسن
وقال آخر:

أميرت بالتسهيل فى الإذن لى ولم ير الحـاجب أن يأذنا
فلن ترانى بعـدها عـائداً ولن تراه بعـد مـستأذنا

وقال آخر:

فـيـهـا لـحـسـن صـنـيـعـك التـكـدـير
وـبـبـاب دـارك مـنـكـر و نـكـيـر

ولـقـبـد رآيت بـبـاب دـارك جـفـوة
مـبـاب دـارك حـين تـدخـل جـنة

وقال آخر:

مـحـيـاه مـن فـرط الجـهـالة حـالك
و حـاجـبـها مـن دـون رـضـوان مـالك

إـذا جـئت ألقى عـند بابك حـاجـبـاً
و مـن عـجب مـعـناك جـنة قـاصـد

وقال آخر:

و لو كـنت أعمى عـن جـمـيـع المـسـالك
و حـولت رـجـلى مـسـرعاً نـحو مـالك

سـأـتـرك باباً أنت تـمـلك إـذنه
فـلو كـنت بـواب الجـنـان تـركـتـها

وقال آخر:

و العـبـد بـالبـاب الكـريـم يـلـوذ
تـتـعـب فـكل مـحـاصـر مـأخـوذ

مـاذا يـفـيـدك أن تـكون مـحـجـبـاً
مـا أنت إلا فـي الحـصـار مـعـى فـلا

وقال أبو تمام:

عـلى مـا أرى حـتى يـلـين قـلـيلاً
و لا فـاز مـن قـد نال مـنـه و صـولاً
و جـسـدنا إـلى تـرك المـجـى سـبـيلاً

سـأـتـرك هـذا البـاب مـا دام إـذنه
فـما خـاب مـن لـم يأتـه مـتـعـمداً
إـذا لـم لـجـد للإذن عـندك مـوضـعاً

واستأذن رجل على أمير فقال للحاجب: قل له إن الكرى قد خطب إلى نفسي وإنما هي هجعة وأهب، فخرج الحاجب، فقال له الرجل: ما الذى قال لك؟ قال: قال كلاماً لا أفهمه وهو يريد أن لا يأذن لك. وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: إنما أمهل فرعون مع دعواه الألوهية لسهولة إذنه وبذل طعامه. وقال عمرو بن مرة الجهنى لمعاوية سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من أمير يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة والمسألة إلا أغلق الله أبواب السموات دون حاجته وخلته ومسألته». وجاء النامى الشاعر لبعض الأمراء فحجبه، فقال:

لمـثـلك مـن أـمـيـر أو وـزـير
تـمـادت فـيـهـم غـيـر الدـهـور
و بـاتوا فـى المـحـابـس والقـبـور
رأينا فـيـهـم كـل السـرور

سـأصـبر إن جـفوت فـكم صـبرنا
رـجـونا مـم فـلـمـا أخـلفـونا
فـبـتـنا بـالسـلامـة و هى غـنـم
و لما لـم نـنـل مـنـهـم سـروراً

وأنشدوا فى ذلك أيضاً:

بـمـنازل مـن دونهـا الحـجـباب
فـلـلـه لـيس لـبـابـه بـواب

قـل لـلـذـين تـحـجـبـوا عـن رـاغـب
إـن حـال عـن لـقـيـا كـم بـوابـكم

واستأذن سعد بن مالك على معاوية، فحجبه، فهتف بالبكاء، فأتى الناس وفيهم كعب فقال: وما يبكيك يا سعد؟ فقال: وما لى لا أبكى وقد ذهب الأعلام من أصحاب رسول الله ﷺ ومعاوية يلعب بهذه الأمة؟ فقال كعب لا تبك، فإن فى الجنة قصرأ من ذهب يقال له عدن أهله الصديقون والشهداء، وأنا أرجو أن تكون من أهله. واستأذن بعضهم على خليفة كريم وحاجبه لثيم، فحجبه فقال:

فى كل يوم لى ببـابك وقـفـة أطوى إليـه سـائـر الأبواب
وإذا حـضرت رغبـت عنك فـإنه ذنب عـقـوبـته على البـواب

وأما ذكر ذكر الولايات وما فيها من الخطر العظيم: فقد قال الله تعالى لداود عليه السلام: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)﴾ [ص: ٢٦].

جاء فى التفسير أن من اتبع الهوى أن يحضر الخصمان بين يديك فتود أن يكون الحق للذى فى قلبك محبة خاصة، وبهذا سلب سليمان بن داود ملكه. قال ابن عباس رضى الله عنهما: كان الذى أصاب سليمان بن داود عليهما السلام أن ناساً من أهل جرادة امرأته، وكانت من أكرم نسائه عليه، تحاكموا إليه مع غيرهم، فأحب أن يكون الحق لأهل جرادة فيقضى لهم، فعوقب بسبب ذلك حيث لم يكن هواه فيهم واحداً.

وروى عن عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها من مسألة وكلت إليها». وقال معقل بن يسار رضى الله عنه: سمعت النبى ﷺ يقول: «ما من عبد يسترعيه الله رعية، فلم يحطها بنصيحته إلا لم يجد رائحة الجنة».

وفى الحديث: «من ولى من أمور المسلمين شيئاً ثم لم يحطهم بنصيحته كما يحوط أهل بيته، فليتبوا مقعده من النار». وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعث إلى عاصم يستعمله على الصدقة، فأبى، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة يؤتى بالوالى فيقف على جسر جهنم، فيأمر الله تعالى الجسر فينتفض انتفاضة فيزول كل عضو منه عن مكانه، ثم يأمر الله تعالى بالعظام، فترجع إلى أماكنها، فإن كان لله مطيعاً أخذ بيده، وأعطاه كفلين من رحمته، وإن كان لله عاصياً انخرق به الجسر فهوى به فى نار جهنم مقدار سبعين خريفاً»، فقال عمر رضى الله عنه: سمعت من النبى ﷺ ما لم أسمع قال: نعم. وكان سلمان وأبو ذر حاضرين، فقال سلمان: أى والله يا عمر ومع السبعين سبعون خريفاً فى واد يلهب التهاباً، فضرب عمر رضى الله عنه بيده على جبهته وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. من يأخذها بما فيها، فقال سلمان من أرغم الله أنفه وألصق خده بالأرض.

وروى أبو داود فى السنن قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إن أبى عريف على الماء، وإنى أسألك أن تجعل لى العرافة من بعده، فقال النبى ﷺ: «العرافاء فى النار». وروى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة الإمام الجائر». وقالت عائشة رضى الله عنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقاضى العدل يوم القيامة، فيلقى من شدة الحساب ما يود أنه لم يقض بين اثنين فى تمرة». وقال الحسن البصرى إن النبى ﷺ دعا عبد الرحمن بن سمرة يستعمله، فقال يا رسول الله خر لى فقال: «اقعد فى بيتك». وقال أبو هريرة رضى الله عنه ما من أمير يؤمر على عشرة إلا جئ به يوم القيامة مغلولاً، أنجاه عمله أو أهلكه. وقال طاوس لسليمان بن عبد الملك: هل تدري يا أمير المؤمنين من أشد الناس عذاباً يوم القيامة؟ قال سليمان: قل. فقال طاوس: أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله فى ملكه فجار فى حكمه، فاستلقى سليمان على سريره وهو يبكى، فما زال يبكى حتى قام عنه جلساؤه. وقال ابن سيرين: جاء صبيان إلى أبى عبيدة السلماني يتخبرون إليه فى ألواحهم، فلم ينظر إليهم، وقال: هذا حكم لا أتولى حكماً أبداً. وقال أبو بكر بن أبى مریم: حج قوم، فمات صاحب لهم بأرض فلاة، فلم يجدوا ماء، فأتاهم رجل فقالوا له: دلنا على الماء. فقال: احلفوا لى ثلاثاً وثلاثين يمينا أنه لم يكن صرافاً ولا مكاساً ولا عريفاً، ويروى ولا عرافاً، ولا بريداً، وأنا أدلكم على الماء، فحلفوا له ثلاثاً وثلاثين يمينا كما قال، فدلهم على الماء، فقالوا له: أعنا على غسله فقال: لا. حتى تحلفوا لى ثلاثاً وثلاثين يمينا - كما تقدم. فحلفوا له، فصلى عليه، ثم التفتوا فلم يجدوا أحداً، فكانوا يرون أنه الخضر عليه السلام. وقال أبو ذر رضى الله عنه: قال لى رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إنى أحب لك ما أحب لنفسى، وإنى أراك ضعيفاً، فلا تتأمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم». ومن غريب ما اتفق وعجيب ما سبق: ما حكى أن ملكاً من ملوك الفرس يقال له أردشير، وكان ذا مملكة متسعة

وجند كثير، وكان ذا بأس شديد، قد وصف له بنت ملك بحر الأردن بالجمال البارع، وأن هذه البنت بكر ذات خدر، فسير أردشير من يخطبها من أبيها، فامتنع من إجابته، ولم يرض بذلك، فعظم ذلك على أردشير، وأقسم بالآيمان المغلظة ليفزون الملك أبا البنت، وليقتلنه هو وابنته شر قتلة، وليمثلن بهما أخبث مثلة، فسار إليه أردشير في جيوشه، فقاتله، فقتله أردشير وقتل سائر خواصه، ثم سأل عن ابنته المخطوبة، فبرزت إليه جارية من القصر من أجمل النساء وأكمل البنات حسناً وجمالاً وقدرأ واعتدالاً، فبهت أردشير من رؤيته إياها، فقالت له: أيها الملك إننى ابنة الملك الفلاني ملك المدينة الفلانية، وأن الملك الذى قتلته أنت قد غزا بلدنا وقتل أبى وقتل سائر أصحابه قبل أن تقتله أنت، وأنه أسرنى فى جملة الأسارى وأتى بى فى هذا القصر، فلما رأتنى ابنته التى أرسلت تخطبها أحبتنى، وسألت أباها أن يتركنى عندها لتأنس بى، فتركنى لها، فكنت أنا وهى كأننا روحان فى جسد واحد، فلما أرسلت تخطبها خاف أبوها عليها منك فأرسلها إلى بعض الجزائر فى البحر الملح عند بعض أقاربه من الملوك، فقال أردشير: وددت لو أنى ظفرت بها فكنت أقتلها شر قتلة، ثم إنه تأمل الجارية فرأها فائقة فى الجمال، فمالت نفسه إليها، فأخذها للتسرى، وقال هذه أجنبية من الملك ولا أحنث فى يمينى بأخذها، ثم إنه واقعها وأزال بكارتها، فحملت منه، فلما ظهر عليها الحمل، اتفق أنها تحدثت معه يوماً، وقد رآته منشرح الصدر، فقالت له: أنت غلبت أبى وأنا غلبتك، فقال لها: ومن أبوك؟ فقالت له: هو ملك بحر الأردن، وأنا ابنته التى خطبتها منه، وأننى سمعت أنك أقسمت لتقتلنى فتحييت عليك بما سمعت، والآن هذا ولدك فى بطنى، فلا يتهياً لك قتلى، فعظم ذلك على أردشير إذ قهرته امرأة وتحييت عليه حتى تخلصت من يديه، فانتهرها، وخرج من عندها مغضباً، وعول على قتلها، ثم ذكر لوزير ما اتفق له معها، فلما رأى الوزير عزمه قوياً على قتلها خشى أن تحدث الملوك عنه بمثل هذا، وأنه لا يقبل فيها شفاعة شافع، فقال أيها الملك: إن رأى هو الذى خطر لك والمصلحة هى التى رأيتها أنت، وقتل هذه الجارية فى هذا الوقت أولى وهو عين الصواب لأنه أحق من أن يقال إن امرأة قهرت رأى الملك وحنثته فى يمينه لأجل شهوة النفس، ثم قال أيها الملك: إن صورتها مرحومة وحمل الملك معها، وهى أولى بالستر، ولا أرى فى قتلها أستر ولا أهون عليها من الغرق، فقال له الملك: نعم ما رأيت خذها غرقها، فأخذها الوزير ثم خرج بها ليلاً إلى بحر الأردن ومعه ضوء ورجال وأعوان، فتحيل إلى أن طرح شيئاً فى البحر أوهم من كان معه أنها الجارية، ثم إنه أخفاها عنده، فلما أصبح جاء إلى الملك، فأخبره أنه غرقها، فشكره على ما فعل، ثم إن الوزير ناول الملك حقاً مختوماً وقال: أيها الملك إننى نظرت مولدى، فرأيت أجلى قد دنا على ما يقتضيه حساب حكماء الفرس فى النجوم، وإن لى أولاداً وعندى مال قد ادخرته من نعمتك، فخذ إذا أنا مت إن رأيت، وهذا الحق فيه جوهر أسأل الملك أن يقسمه بين أولادى بالسوية فلإنه إرثى الذى قد ورثته من أبى وليس عندى شئ ما اكتسبته منه إلا هذا الجوهر، فقال له الملك يطول الرب فى عمرك ومالك لك ولأولادك سواء كنت حياً أو ميتاً، فألح عليه الوزير أن يجعل الحق عنده وديعة فأخذها الملك وأودعه عنده فى صندوق، ثم مضت أشهر الجارية، فوضعت ولداً ذكراً جميلاً حسن الخلقة مثل فلقة القمر، فلاحظ الوزير جانب الأدب فى تسميته، فرأى أنه إن اخترع له اسماً وسماه به، وظهر لوالده بعد ذلك، فيكون قد أساء الأدب، وإن هو تركه بلا اسم لم يتهياً له ذلك، فسماه شاه بور ومعنى شاه بور بالفارسية ابن ملك، فإن شاه ملك، وبور ابن، ولغتهم مبنية على تأخير المتقدم وتقديم المتأخر، وهذا تسمية ليس فيها مؤاخذه، ولم يزل الوزير يلاطف الجارية والولد إلى أن بلغ الولد حد التعليم، فعلمه كل ما يصلح لأولاد الملوك من الخط والحكمة والفروسية، وهو يوهم أنه مملوك له اسمه شاه بور، إلى أن راهق البلوغ هذا كله وأردشير ليس له ولد، وقد طعن فى السن وأقعد الهرم، فمرض وأشرف على الموت، فقال للوزير: أيها الوزير: قد هرم جسمى وضعفت قوتى وإنى أرى أنى ميت لا محالة، وهذا الملك يأخذه من بعدى من قضى له به. فقال الوزير: لو شاء الله أن يكون للملك ولد، كان قد ولى بعده الملك، ثم ذكره بأمر بنت ملك بحر الأردن وبحملها، فقال الملك: لقد ندمت على تغريقها. ولو كنت أبقيتها حتى تضع، فلعل حملها يكون ذكراً، فلما شاهد الوزير من الملك الرضا، قال: أيها الملك إنها عندى حية ولقد ولدت ووضعت ولداً ذكراً من أحسن الغلمان خلقاً وخلقاً، فقال الملك: أحق ما تقول؟ فأقسم الوزير أن نعم، ثم قال: أيها الملك إن فى الولد روحانية تشهد بأبوة الأب وفى الوالد روحانية تشهد ببوة الابن، لا يكاد ذلك ينخرم أبداً، وإننى آتى بهذا الغلام بين عشرين غلاماً فى سنه وهيبته ولباسه، وكلهم ذوو آباء معروفين خلا هو.

ولانى أعطى كل واحد منهم صولجاناً وكرة وآمرهم أن يلعبوا بين يديك فى مجلسك هذا، ويتأمل الملك صورهم، وخلقتهم وشمائلهم، فكل من مالت إليه نفسه وروحانيته فهو هو، فقال الملك: نعم التدبير الذى قلت، فأحضرهم الوزير على هذه الصورة ولعبوا بين يدي الملك، فكان الصبى منهم إذا ضرب الكرة وقربت من مجلس الملك تمنعه الهيبة أن يتقدم ليأخذها إلا شاه بور، فإنه كان إذا ضربها، وجاءت عند مرتبة أبيه تقدم، فأخذها ولا تأخذها الهيبة منه، فلاحظ أردشير ذلك منه مراراً، فقال: أيها الغلام ما اسمك؟ قال: شاه بور، فقال له: صدقت أنت ابنى حقاً، ثم ضمه إليه وقبله بين عينيه، فقال له الوزير: هذا هو ابنك أيها الملك، ثم أحضر بقية الصبيان ومعهم عدول فأنبت لكل صبى منهم والداً بحضرة الملك، فتحقق الصدق فى ذلك، ثم جاءت الجارية وقد تضاعف حسنهما وجمالها، فقبلت يد الملك، فرضى عنها، فقال الوزير: أيها الملك قد دعت الضرورة فى هذا الوقت إلى إحضار الحق المختوم، فأمر الملك بإحضاره، ثم أخذ الوزير وفك ختمه وفتحته فإذا فيه ذكر الوزير وأنشياء مقطوعة مصانة فيه من قبل أن يتسلم الجارية من الملك، وأحضر عدولاً من الحكماء وهم الذين كانوا فعلوا به ذلك، فشهدوا عند الملك بأن هذا الفعل فعلناه به من قبل أن يتسلم الجارية بليلة واحدة، قال: فدهش الملك أردشير وبهت لما أبداه هذا الوزير من قوة النفس فى الخدمة، وشدة مناصحته، فزاد سروره وتضاعف فرحه لصيانة الجارية وإثبات نسب الولد ولحوقه به، ثم إن الملك عوفى من مرضه الذى كان به وصح جسمه، ولم يزل يتقلب فى نعمه وهو مسرور بابنه إلى أن حضرته الوفاة، ورجع الملك إلى ابنه شاه بور بعد موت أبيه، وصار ذلك الوزير يخدم ابن الملك أردشير وشاه بور يحفظ مقامه ويرعى منزلته حتى توفاه الله تعالى، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمداً وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

فيما جاء في القضاء وذكر القضاة وقبول الرشوة والهدية على الحكم

وما يتعلق بالديون وذكر القصاص والمتصوفة وفيه فصول

الفصل الأول: فيما جاء في القضاء وذكر القضاة وأحوالهم وما يجب عليهم

قال الله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ [ص: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]. وقال رسول الله ﷺ: «من حكم بين اثنين تحكما إليه وارتضياه، فلم يقض بينهما بالحق، فعليه لعنة الله»، وعن أبي حازم قال: دخل عمر على أبي بكر رضوان الله عليهما، فسلم عليه، فلم يرد عليه، فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف: أخاف أن يكون وجد على خليفة رسول الله ﷺ، فكلّم عبد الرحمن أبا بكر، فقال: أتانى، وبين يدي خصمان قد فرغت لهما قلبي وسمعي وبصري، وعلمت أن الله سألني عنهما وعما قالا وقلت. وادعى رجل على على عند عمر رضى الله عنهما وعلى جالس، فالتفت عمر إليه وقال: يا أبا الحسن قم فاجلس مع خصمك، فتناظرا، وأنصرف الرجل، ورجع على إلى مجلسه، فتيّن لعمر التغير في وجه على، فقال يا أبا الحسن ما لى أراك متغيراً، أكرهت ما كان؟ قال: نعم. قال: وما ذاك؟ قال: كنتى بحضرة خصمى. هلا قلت يا على قم، فاجلس مع خصمك، فأخذ عمر برأس على رضى الله عنهما، فقبله بين عينيه، ثم قال بأبى أنتم بكم هداانا الله وبكم أخرجنا من الظلمات إلى النور.

وعن أبى حنيفة رضى الله عنه: القاضى كالغريق فى البحر الأخضر إلى متى يسبح وإن كان سابحاً. وأراد عمر بن هبيرة أن يولى أبا حنيفة القضاء، فأبى، فحلف ليضربنه بالسياط، وليسجنه، فضربه حتى انتفخ وجه أبى حنيفة ورأسه من الضرب، فقال: الضرب بالسياط فى الدنيا أهون على من الضرب بمقامع الحديد فى الآخرة. وعن عبد الملك بن عمير عن رجل من أهل اليمن قال: أقبل سيل باليمن فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه، فكشف عن باب مغلق فظنناه كنزاً، فكتبنا إلى أبى بكر رضى الله تعالى عنه، فكتب إلينا، لا تحركوه حتى يقدم إليكم كتابى، ثم فتح، فإذا برجل على سرير عليه سبعون حلة منسوجة بالذهب وفى يده اليمنى لوح مكتوب فيه هذان البيتان:

إذا خان الأمير وكاتباه وقاضى الأرض داهن فى القضاء
فويل ثم ويل ثم ويل لقاضى الأرض من قاضى السماء

وإذا عند رأسه سيف أشد خضرة من البقلة مكتوب عليه هذا سيف عاد بن إرم. عن ابن أبى أوفى عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الله مع القاضى مالم يجز، فإذا جار برئ الله منه ولزمه الشيطان». وقال محمد بن حريث: بلغنى أن نصر بن على راودوه على القضاء بالبصرة، واجتمع الناس إليه فكان لا يجبههم فلما ألحوا عليه دخل بيته ونام على ظهره وألقى ملاءة على وجهه وقال: اللهم إن كنت تعلم أنى لهذا الأمر كاره فاقبضنى إليك فقبض. وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «القضاة جسور للناس يرون على ظهورهم يوم القيامة». وقال حفص بن غياث لرجل كان يسأله عن مسائل القضاء: لعلك تريد أن تكون قاضياً، لأن يدخل الرجل أصبعه فى عينيه فيقلعهما ويرمى بهما خير له من أن يكون قاضياً. وقيل أول من أظهر الجور من القضاة بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى، كان أمير البصرة وقاضياً فيها وكان يقول إن الرجلين يتقدمان إلى فأجد أحدهما أخف على قلبى من الآخر فأقضى له. وتقدم المأمون بين يدي القاضى يحيى بن أكثم مع رجل ادعى عليه ثلاثين ألف دينار، فطرح للمأمون مصلى يجلس عليه فقال له يحيى لا تأخذ على خصمك شرف المجلس، ولم يكن للرجل بيعة، فأراد أن يحلف المأمون فدفع إليه المأمون ثلاثين ألف دينار وقال: والله ما دفعت لك هذا المال إلا خشية أن تقول العامة إنى تناولتك من جهة القدرة ثم أمر ليحى بمال وأجزل عطاءه. وقدم

خادم من وجوه خدام المعتضد بالله إلى أبي يوسف بن يعقوب في حكم فارتفع الخادم على خصمه في المجلس فزجره الحاجب عن ذلك فلم يقبل، فقال أبو يوسف قم أتؤمر أن تقف بمساواة خصمك في المجلس فتمتنع، يا غلام اتنى بعمر بن أبي عمرو النخاس فإنه إن قدم على الساعة أمرته ببيع هذا العبد وحمل ثمنه إلى أمير المؤمنين، ثم إن الحاجب أخذ بيده حتى أوقفه بمساواة خصمه فلما انقضى الحكم رجع الخادم إلى المعتضد وبكى بين يديه وأخبره بالقصة، فقال له لو باعك لأجزت بيعه ولم أردك إلى ملكي، فليست منزلتك عندي تزن رتبة المساواة بين الخصمين في الحكم فإن ذلك عمود السلطان وقوام الأديان والله تعالى أعلم. وقال الأبرش العكلى يمدح بعض القضاة:

رفضت وعطلت الحكومة قبله في آخرين وملأها روضها
حتى إذا قام ألف بينها بالحق حتى جمعت أو فاضها
وفي ضد ذلك قول بعضهم:

أبكى وأندب ملة الإسلام إذ صرت تقعد مقعد الحكام
إن الحوادث ما علمت كثيرة وأراك بعض حوادث الأيام

وتقدمت امرأة إلى قاض، فقال لها جامعك شهودك، فسكتت فقال كاتبه: إن القاضي يقول لك جاء شهودك معك، قالت: نعم، هلا قلت مثل ما قال كاتبك كبر سنك وقل عقلك وعظمت لحيثك حتى غطت على لبك ما رأيت ميتاً يقضى بين الأحياء غيرك. وقيل المضروب بهم المثل في الجهل وتحريف الأحكام، قاضى منى وقاضى كسكر وقاضى أيدج، وهو الذى قال فيه أبو إسحاق الصابى:

يا رب علج علج مثل البعير الأهرج
رأيت به مطلعاً من خلف باب مرج
وخلفه عذوبة تذهب طوراً وتجي
فقلت من هذا ترى فقيل قاضى أيدج
وقاضى شلبة وهو الذى قال فيه أبو الحسن الجوهري:
رأيت رأساً كدبة ولحية كالمذبة
فقلت من أنت قل لى فقال قاضى شلبة

وتقدمت امرأة جميلة إلى الشعبي فادعت عنده فقضى لها فقال هذيل الأشجعي:

فتن الشعبي لما رفع الطرف إليها
فتنته ببنان كيف لو رأى معصمها
ومشت مشياً رويداً ثم هزت منكبيها
فقضى جوراً على الخصم ولم يقض عليها

فتناشدها الناس وتداولوها حتى بلغت الشعبي فضرب الأشجعي ثلاثين سوطاً.

وحكى ابن أبى ليلى قال: انصرف الشعبي يوماً من مجلس القضاء ونحن معه فمررنا بخادمة تغسل الثياب وهى تقول: فتن الشعبي لما وأعادته ولم تعرف بقية البيت فلقتها الشعبي وقال: رفع الطرف إليها ثم قال أبعد الله أما أنا فما قضيت إلا بالحق، وأنشد بعضهم فى أمين الحكم:

تتماوتن إذا مشيت تخشعاً حتى تصيب وديعة ليستم

الفصل الثامن: فى الرشوة والهدية على الحكم وما جاء فى الديون

أما الرشوة، فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «لعن الله الراشى والمرتشى». وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لا تولوا اليهود ولا النصارى فإنهم يقبلون الرشا ولا يحل فى دين الله الرشا، قال الشهيدى: وأصحابنا اليوم أقبل للرشا منهم.

وفى نوابغ الحكم أن البراطيل تنصر الأباطيل. وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: من شفع شفاعة ليرد بها حقاً أو يدفع بها ظلماً، فأهدى له فقبل فذلك السحت، فقبل له، ما كنا نرى السحت إلا الأخذ على الحكم، قال الأخذ على الحكم كفر، وأنشد المبرد رحمه الله تعالى:

ركنت إذا خاصمت خصماً كـبـتـه
على الوجه حتى خاصمتنى الدراهم
فلمـا تنازعنا الحكومـة غلبت
على وقـالت قم فـإنك ظالم

وأما الدين وما جاء فيه نعوذ بالله من غلبة الدين وقهر الرجال: فقد روى عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «من تداين بدين وفى نفسه وفاؤه ثم مات، تجاوز الله عنه وأرضى غريمه بما شاء. ومن تداين بدين وليس فى نفسه وفاؤه ثم مات، اقتص الله لغريمه منه يوم القيامة». رواه الحاكم. وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى له بجنائز لم يسأل عن شئ من عمل الرجل، ويسأل عن دينه فإن قيل عليه دين كف عن الصلاة عليه، وإن قيل ليس عليه دين صلى عليه، فأتى بجنائز، فلما قام ليكبر ﷺ قال: «هل على صاحبكم من دين؟» فقالوا ديناران يا رسول الله، فعدل النبى ﷺ عنه وقال: «صلوا على صاحبكم»، فقال على كرم الله وجهه: هما على يا رسول الله وهو برئ منهما، فتقدم رسول الله ﷺ فصلى عليه، ثم قال لعلى رضى الله عنه: «جزاك الله عنه خيراً، فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك، إنه ليس من ميت يموت وعليه دين إلا وهو مرتهن بدينه، ومن فك رهان ميت فك الله رهبانه يوم القيامة».

وقال بعض الحكماء: الدين هم بالليل وذل بالنهار، وهو غل جعله الله فى أرضه فإذا أراد الله أن يذل عبداً جعله طوقاً فى عنقه. وجاء سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه يتقاضى ديناً له على رجل، فقالوا: خرج إلى الغزو، فقال أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن رجلاً قتل فى سبيل الله، ثم أحى، ثم قتل لم يدخل الجنة حتى يقضى دينه». وعن الزهرى قال: لم يكن رسول الله ﷺ يصلى على أحد عليه دين، ثم قال بعد: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم من مات وعليه دين فعلى قضاؤه ثم صلى عليهم» وعن جابر لا هم إلا هم الدين ولا وجع إلا وجع العين. وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من تزوج امرأة بصداق ينوى أن لا يؤديه إليها، فهو زان، ومن استدان ديناً ينوى أن لا يقضيه فهو سارق»، وقال حبيب بن ثابت: ما احتجب إلى شئ استقرضه إلا استقرضته من نفسى، أراد أنه يصبر إلى أن تمكن الميسرة، ونظيره قول القائل:

وإذا غـلا شئ على تركـتـه
فـيكون أرخص ما يكون إذا غـلا

وقال بعضهم أيضاً:

لقد كان القريض سـمـير قلبى
فألهمتني القروض عن القريض

وقال غيلان بن مرة التميمى:

وإنى لأقضى الدين بالدين بعدما
يرى طالبى بالدين أن لست قاضياً

فأجابه ثعلبة بن عمير:

إذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن قضاء ولكن ذاك غرم على غرم

واستقرض من الأصمعي خليل له فقال: حباً وكرامة، ولكن سكن قلبي برهن يساوي ضعف ما تطلبه، فقال: يا أبا سعيد أما تثق بي؟ قال: بلى، وإن خليل الله كان واثقاً بربه، وقد قال له: ولكن ليطمئن قلبي، اللهم أوف عتادين الدنيا بالميسرة، ودين الآخرة بالمغفرة، برحمتك يا أرحم الراحمين.

الفصل الثالث: في ذكر القصاص والمتصوفة وما جاء في الرياء ونحو ذلك

أما ما جاء في ذكر القصاص والمتصوفة: فقد روى عن خباب بن الارت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بني إسرائيل لما قصوا هلكوا». وروى أن كعباً كان يقص، فلما سمع الحديث ترك القصص. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: لم يقص أحد على عهد رسول الله ﷺ ولا عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلى رضي الله عنهم وإنما كان القصص حين كانت الفتنة، وقال ابن المبارك: سألت الثوري، من الناس؟ قال العلماء، قلت: فمن الأشراف؟ قال: المتقون، قلت: فمن الملوك؟ قال: الزهاد، قلت: فمن الغوغاء؟ قال: القصاص الذين يستأصلون أموال الناس بالكلام، قلت: فمن السفهاء؟ قال: الظلمة. قيل: وهب رجل لقاص خاتماً بلا فص، فقال: وهب الله لك في الجنة غرفة بلا سقف. وقال قيس بن جبير النهشلي: الصعقة التي عند القصاص من الشيطان. وقيل لعائشة رضي الله عنها: إن أقواماً إذا سمعوا القرآن صعقوا، فقالت: القرآن أكرم وأعظم من أن تذهب منه عقول الرجال. وسئل ابن سيرين عن أقوام يصعقون عند سماع القرآن، فقال: ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط، فيقرأ عليهم القرآن من أوله إلى آخره فإن صعقوا، فهو كما قالوا. وكان يبرو قاص يبكي بمواعظه، فإذا طال مجلسه بالبكاء أخرج من كمه طنبوراً صغيراً فيحركه ويقول: مع هذا الغم الطويل يحتاج إلى فرح ساعة. وقال بعضهم: قلت لصوفي بعني جبتك، فقال: إذا باع الصياد شبكته فبأي شيء يصيد. وسئل بعض العلماء عن المتصوفة، فقال: أكلة رقصة، ووعظ عيسى عليه السلام بني إسرائيل، فأقبلوا يمزقون الثياب، فقال: ما ذنب الثياب، أقبلوا على القلوب فعاتبوها.

وأما ما جاء في الرياء: فقد قال الله تعالى: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]. وعن معاذ ابن جبل رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا معاذ احذر أن يرى عليك آثار المحسنين، وأنت تخلو من ذلك فتحشر مع المرائين». وقيل: لو أن رجلاً عمل عملاً من البر فكتمه ثم أحب أن يعلم الناس أنه كتّمه، فهو من أقبح الرياء. وقيل: كل ورع يحب صاحبه أن يعلمه غير الله، فليس من الله في شيء. وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: ما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء». وقيل: بينما عابد يمشي ومعه غمامة على رأسه تظله، فجاء رجل يريد أن يستظل معه، فمنعه، وقال: إن أقمت معي لم يعلم الناس أن الغمامة تظلني، فقال له الرجل: قد علم الناس أنني لست ممن تظله الغمامة، فحولها الله تعالى إلى ذلك الرجل. وقال عبد الأعلى السلمي يوماً: الناس يزعمون أنني مرء وكنت أمس والله صائماً ولا أخبرتك بذلك أحداً. اللهم اصلح فساد قلوبنا واستر فضائنا برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم.

فى العدل والإحسان والإنصاف وغير ذلك

اعلم أرشدك الله أن الله تعالى أمر بالعدل، ثم علم سبحانه وتعالى أنه ليس كل النفوس تصلح على العدل بل تطلب الإحسان وهو فوق العدل فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]. فلو وسع الخلاق العدل ما قرن الله به الإحسان. والعدل ميزان الله تعالى فى الأرض الذى يؤخذ به للضعيف من القوى والمحق من المبطل. واعلم أن عدل الملك يوجب محبته، وجوره يوجب الافتراق عنه، وأفضل الأزمنة ثواباً أيام العدل. وروينا من طريق أبى نعيم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «لعمل الإمام العادل فى رعيته يوماً واحداً أفضل من عمل العابد فى أهله مائة عام أو خمسين عاماً». وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السماء». وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال لكعب الأحبار: أخبرنى عن جنة عدن، قال يا أمير المؤمنين لا يسكنها إلا نبى أو صديق أو شهيد أو إمام عادل، فقال عمر: والله ما أنا نبى، وقد صدقت رسول الله ﷺ وأما الإمام العادل، فإننى أرجو أن لا أجور، وأما الشهادة فأتى لى بها. قال الحسن: فجعله الله صديقاً شهيداً حكماً عدلاً. وسأل الإسكندر حكماً أهل بابل: أيما أبلغ عندكم؟ الشجاعة أو العدل، قالوا: إذا استعملنا العدل استغينا به عن الشجاعة. ويقال: عدل السلطان أنفع من خصب الزمان. وقيل: إذا رغب السلطان عن العدل رغب الرعية عن طاعته. وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يشكو إليه من خراب مدينته ويسأله مالا يرمها به، فكتب إليه عمر قد فهمت كتابك، فإذا قرأت كتابى، فحصد مدينتك بالعدل، ونق طرقها من الظلم، فإنه مرمتها والسلام. ويقال: إن الحاصل من خراج سواد العراق فى زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان مائة ألف ألف وسبعة وثلاثين ألف ألف، فلم يزل يتناقص حتى صار فى زمن الحجاج ثمانية عشر ألف ألف، فلما ولى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ارتفع فى السنة الأولى إلى ثلاثين ألف ألف، وفى الثانية إلى ستين ألف ألف، وقيل أكثر. وقال: إن عشت لأبلغنه إلى ما كان فى أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فمات فى تلك السنة. ومن كلام كسرى لا ملك إلا بالجند، ولا جند إلا بالمال، ولا مال إلا بالبلاد، ولا بلاد إلا بالرعايا، ولا رعايا إلا بالعدل.

ولما مات سلمة بن سعيد كان عليه ديون للناس ولأمر المؤمنين المنصور، فكتب المنصور لعامله استوف لأمر المؤمنين حقه، وفرق ما بقى بين الغرماء، فلم يلتفت إلى كتابه، وضرب للمنصور بسهم من المال، كما ضرب لأحد الغرماء، ثم كتب للمنصور: إنى رأيت أمير المؤمنين كأحد الغرماء، فكتب إليه المنصور: ملئت الأرض بك عدلاً. وكان أحمد بن طولون والى مصر متحلياً بالعدل مع تجبره وسفكه للدماء، وكان يجلس للمظالم وينصف المظلوم من الظالم.

حكى أن ولده العباس استدعى بمغنية وهو يصطبغ يوماً، فلقبها بعض صالحى مصر ومعها غلام يحمل عودها فكسره، فدخل العباس إليه وأخبره بذلك، فأمر بإحضار ذلك الرجل الصالح، فلما أحضر إليه قال: أنت الذى كسرت العود، قال: نعم. قال: أفعلت لمن هو؟ قال: نعم هو لابنك العباس، قال: أفما أكرمته لى، قال: أكرمه لك بمعصية الله عز وجل، والله تعالى يقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]. ورسول الله ﷺ يقول: «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق». فأطرق أحمد بن طولون عند ذلك، ثم قال: كل منكر رأيت فغيره وأنا من ورائك. ووقف يهودى لعبد الملك بن مروان فقال: يا أمير المؤمنين إن بعض خاصتك ظلمنى فانصفنى منه وأذقنى حلاوة العدل، فأعرض عنه، فوقف له ثانياً، فلم يلتفت إليه، فوقف له مرة ثالثة، وقال: يا أمير المؤمنين إنا نجد فى التوراة المتزلة على كليم الله موسى صلوات الله وسلامه عليه: إن الإمام لا يكون شريكاً فى ظلم أحد حتى يرفع إليه فإذا رفع إليه ذلك ولم يزل، فقد شاركه فى الظلم والجور. فلما سمع عبد الملك كلامه فزع ويبعث فى الحال إلى من ظلمه، فعزله وأخذ لليهودى حقه منه.

وروى أن رجلاً من العقلاء غصبه بعض الولاة ضيعة له، فأتى إلى المنصور، فقال له: أصلحك الله يا أمير المؤمنين

أذكر لك حاجتي أم أضرب لك قبلها مثلاً؟ فقال: بل أضرب المثل. فقال: إن الطفل الصغير إذا نابه أمر يكرهه فإنما يفرع إلى أمه إذ لا يعرف غيرها وظناً منه أن لا ناصر له غيرها، فإذا ترعرع واشتد كان فراره إلى أبيه، فإذا بلغ وصار رجلاً وحدث به أمر شكاه إلى الوالي لعلمه أنه أقوى من أبيه، فإذا زاد عقله شكاه إلى السلطان لعلمه أنه أقوى ممن سواه، فإن لم ينصفه السلطان شكاه إلى الله تعالى لعلمه أنه أقوى من السلطان، وقد نزلت بي نازلة، وليس أحد فوقك أقوى منك إلا الله تعالى، فإن انصفتني وإلا رفعت أمري إلى الله تعالى في الموسم، فإنني متوجه إلى بيته وحرمة. فقال المنصور: بل تنصفك، وأمر أن يكتب إلى واليه برد ضيعته إليه. وكان الإسكندر يقول: يا عباد الله إنما إلهكم الله الذي في السماء الذي نصر نوحاً بعد حين، الذي يسقيكم الغيث عند الحاجة، وإليه مفزعكم عند الكرب، والله لا يبلغني أن الله تعالى أحب شيئاً إلا أحببته واستعملته إلى يوم أجلي، ولا أبغض شيئاً إلا أبغضته وهجرته إلى يوم أجلي، وقد أثبت أن الله تعالى يحب العدل في عباده ويبغض الجور من بعضهم على بعض، فويل للظالم من سيفي وسوطي، ومن ظهر منه العدل من عمالي، فليتكئ في مجلسي كيف شاء، وليتمن على ما شاء قلن تخطئه أمنيته، والله تعالى المجازي كلا بعمله. ويقال: إذا لم يعمر الملك ملكه بالإنصاف خرب ملكه بالعصيان.

وقيل: مات بعض الأكاسرة فوجدوا له سفظاً، ففتح، فوجد فيه حبة رمان كأكبر ما يكون من النوى معها رقعة مكتوب فيها: هذه من حب رمان عمل في خراجة بالعدل. وقيل: تظلم أهل الكوفة من واليهم، فشكوه إلى المأمون، فقال: ما علمت في عمالي أعدل ولا أقوم بأمر الرعية وأعود بالرفق عليهم منه، فقال رجل منهم: يا أمير المؤمنين ما أحد أولى بالعدل والإنصاف منك، فإن كان بهذه الصفة فعلى أمير المؤمنين أن يوليّه بلداً بلداً حتى يلحق كل بلد من عدله مثل الذي لحقنا ويأخذ بقسطه منه كما أخذنا، وإذا فعل ذلك لم يصبنا منه أكثر من ثلاث سنين، فضحك المأمون من قوله وعزله عنهم. وقدم المنصور البصرة قبل الخلافة، فنزل بواصل بن عطاء^(١) وقال: بلغني أبيات عن سليم بن يزيد العدوي في العدل، فقم بنا إليه، فأشرف عليهم من غرفة، فقال لواصل: من هذا الذي معك؟ قال: عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم، فقال: رحب على رحب، وقرب على قرب، فقال: إنه يحب أن يسمع أبيات في العدل، فقال: سمعاً وطاعة، وأنشد يقول:

حتى متى لا نرى عدلاً نُسرّ به	ولا نرى لولاة الحق أعوانا
مستمسكين بحق قائمين به	إذا تلون أهل الجور ألوانا
يا للرجس لئلا لا دواء له	وقائد ذي عمى يقتاد عميانا

فقال المنصور: وددت لو أني رأيت يوم عدل ثم مت. وقيل: لما ولي عمر بن عبد العزيز أخذ في رد المظالم، فابتدأ بأهل بيته، فاجتمعوا إلى عمة له كان يكرمها وسألوها أن تكلمه، فقال لها: إن رسول الله ﷺ سلك طريقاً، فلما قبض سلك أصحابه ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ فلما قضى الأمر إلى معاوية جره يميناً وشمالاً، وأيم الله لئن مدّ في عمري لأردنه إلى ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ وأصحابه. فقالت له: يا ابن أخي إنني أخاف عليك منهم يوماً عصيياً، فقال: كل يوم أخافه دون يوم القيامة، فلا أمنيته الله. وقال وهب بن منبه: إذا هم الوالي بالجور أو عمل به أدخل الله النقص في أهل مملكته في الأسواق والزروع والضروع وكل شيء، وإذا هم بالخير والعدل أو عمل به أدخل الله البركة في أهل مملكته كذلك. وقال الوليد بن هشام: إن الرعية لتصلح بصلاح الوالي وتفسد بفساده. وقال ابن عباس رضى الله عنهما: إن ملكاً من الملوك خرج يسير في مملكته متكرراً، فنزل على رجل له بقرة تحلب قدر ثلاث بقرات، فتعجب الملك من ذلك وحدثه نفسه بأخذها، فلما كان من الغد حلبت له النصف مما حلبت بالأمس، فقال له الملك: ما بال حلبها نقص أرعت في غير مرعاها بالأمس؟ فقال: لا ولكن أظن أن ملكنا رآها أو وصله خيرها فهم بأخذها، فنقص لبنها، فإن الملك إذا ظلم أو هم بالظلم ذهب البركة. فتأب الملك وعاهد ربّه في نفسه أن لا يأخذها

(١) واصل بن عطاء: هو واصل بن عطاء الغزالي، أبو حذيفة من موالى بنى ضبة أو بنى مخزوم، رأس المعتزلة، ومن أئمة البلغاء والتكلمين، سمي أصحابه بالمعتزلة لاعتزاله حلقة درس الحسن البصري، ومنهم طائفة تنسب إليه تسمى الواصلية وهو الذي نشر مذهب الاعتزال، مات سنة (١٣١هـ).

ولا يحسد أحداً من الرعية، فلما كان من الغد حلبت عاداتها. ومن المشهور بأرض المغرب أن السلطان بلغه أن امرأة لها حديقة فيها القصب الحلو وأن كل قصبة منها تعصر قدحاً، فعزم الملك على أخذها منها، ثم أتاها وسألها عن ذلك، فقالت: نعم، ثم إنها عصرت قصبة فلم يخرج منها نصف قدح، فقال لها: أين الذى كان يقال؟ فقالت: هو الذى بلغك إلا أن يكون السلطان قد عزم على أخذها منى، فارتفعت البركة منها، فتاب الملك وأخلص لله النية وعاهد الله أن لا يأخذها منها أبداً، ثم أمرها فعصرت قصبة منها فجاءت ملء قدح.

وحكى سيدى أبو بكر الطرطوشى^(١) رحمه الله فى كتابه «سراج الملوك» قال: حدثنى بعض الشيوخ من كان يروى الأخبار بمصر قال: كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب ولم يكن فى ذلك الزمان نخلة تحمل نصف ذلك، فغصبها السلطان، فلم تحمل شيئاً من ذلك العام. ولا ثمرة واحدة، وقال لى شيخ من أشياخ الصعيد أعرف هذه النخلة وقد شاهدتها وهى تحمل عشرة أرادب ستين وية وكان صاحبها يبيعها فى سنى الغلاء كل وية بدينار.

وحكى أيضاً رحمه الله تعالى قال: شهدت فى الإسكندرية والصيد مطلق للرعية السمك يطفو على الماء لكثرتة، وكانت الأطفال تصيده بالخرق من جانب البحر، ثم حجزه الوالى ومنع الناس من صيده، فذهب السمك حتى لا يكاد يوجد إلى يومنا هذا، وهكذا تتعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنون ضمائرهم إلى الرعية إن خيراً وإن شراً فشر. وروى أصحاب التواريخ فى كتبهم قالوا كان الناس إذا أصبحوا فى زمان الحجاج يتساءلون إذا تلاقوا من قتل البارحة ومن صلب ومن جلد ومن قطع وما أشبه ذلك، وكان الوليد بن هشام صاحب ضياع واتخاذ مصانع فكان الناس يتساءلون فى زمانه عن البنیان والمصانع والضياع وشق الأنهار وغرس الأشجار، ولما ولى سليمان بن عبد الملك وكان صاحب طعام ونكاح كان الناس يتحدثون ويتساءلون فى الأطعمة الرفيعة ويتغالون فى المناكح والسرارى ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك، ولما ولى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان الناس يتساءلون كم تحفظ من القرآن وكم وردك كل ليلة وكم يحفظ فلان وكم يختم وكم يصوم من الشهر وما أشبه ذلك. فينبغى للإمام أن يكون على طريقة الصحابة والسلف رضى الله عنهم ويقتدى بهم فى الأقوال والأفعال فمن خالف ذلك فهو لا محالة هالك وليس فوق السلطان العادل منزلة إلا نبي مرسل أو ملك مقرب، وقد قيل: إن مثله كمثل الرياح التى يرسلها الله تعالى بشراً بين يدي رحمة فيسوق بها السحاب ويجعلها لقاحاً للثمرات وروحاً للعباد، ولو تتبععت ما جاء فى العدل والإنصاف وفضل الإمام العادل لألفت فى ذلك مجموعاً جامعاً لهذا المعنى ولكن اقتصدت على ما ذكرته مخافة أن يمله الناظر ويسأله السامع، وبالله التوفيق إلى أقوم طريق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) أبو بكر الطرطوش: هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلق القرشى الفهرى الأندلسى، أبو بكر الطرطوشى ويقال له ابن رندقة أديب من فقهاء المالكية الحفاظ، من أهل طرطوشة بشرقى الأندلس، توفى سنة (٥٢٠هـ - ١١٢٦م).

فى الظلم وشؤمه وسوء عواقبه وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك

قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [١٨: هود] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢] قيل: هذا تسلية للمظلوم ووعيد للظالم وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، وقال رسول الله ﷺ: «من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم خرج من الإسلام»، وقال أيضاً ﷺ: «رحم الله عبداً كان لأخيه قبله مظلمة فى عرض أو مال فأتاه فتحلله منها قبل أن يأتى يوم القيامة وليس معه دينار ولا درهم»، وقال أيضاً ﷺ: «من اقتطع حق امرئ مسلم أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة»، فقال له رجل: يا رسول الله ولو كان شيئاً يسيراً قال: «ولو كان قضيباً من أراك». وعن حذيفة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله تعالى إلى يا أبا المرسلين يا أبا المنذر أنذر قومك فلا يدخلوا بيتاً من بيوتى ولأحد من عبادى عند أحد منهم مظلمة، فإنى ألعنه ما دام قائماً يصلى بين يدي حتى يرد تلك الظلامة إلى أهلها فأكون سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويكون من أوليائى وأصفيائى ويكون جارى مع النبين والصديقين والشهداء والصالحين فى الجنة». وعن على رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «إياك ودعوة المظلوم فإنما يسأل الله تعالى حقه»، وعنه ﷺ أنه قال: «ما من عبد ظلم فشحخص ببصره إلى السماء إلا قال الله عز وجل: لبيك عبدى حقاً لأنصرك ولو بعد حين»، وعنه أيضاً أنه قال: «ألا إن الظلم ثلاثة فظلم لا يغفر وظلم لا يترك وظلم مغفور لا يطلب، فأما الظلم الذى لا يغفر فالشرك بالله والعياذ بالله تعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] وأما الظلم الذى لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً، وأما الظلم المغفور الذى لا يطلب فظلم العبد نفسه». ومر رجل برجل قد صلبه الحجاج فقال: يارب إن حلمك على الظالمين قد أضر بالمظلومين فنام تلك الليلة فرأى فى منامه أن القيامة قد قامت وكأنه قد دخل الجنة، فرأى ذلك المصلوب فى أعلى عيسى وإذا مناد ينادى حلمى على الظالمين أحل المظلومين فى أعلى عيسى. وقيل: من سلب نعمة غيره سلب نعمته غيره. وسمع مسلم بن بشار رجلاً يدعو على من ظلمه فقال له: كل الظالم إلى ظلمه فهو أسرع فيه من دعائك. ويقال: من طال عدوانه زال سلطانه، وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم، ورئى لوح فى أفق السماء مكتوب فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله وتحت هذا البيت:

فلم أر مثل العدل للمرء رافعاً ولم أر مثل الجور للمرء واضعاً

وقال الشاعر:

كنت الصحيح وكنا منك فى سقم
دعت عليك أكف طالما ظلمت
فإن سقمت فلنا سالمون غدا
ولن ترد يد مظلومة أبداً

وكان معاوية يقول: إنى لأستحى أن أظلم من لا يجد على ناصراً إلا الله، وقال أبو العيئة: كان لى خصوم ظلمة فشكوتهم إلى أحمد بن أبى داود وقلت: قد تضافروا على وصاروا يداً واحدة فقال: يد الله فوق أيديهم، فقلت له: إن لهم مكرراً فقال: ولا يحق المكر السىء إلا بأهله، قلت: هم فئة كثيرة فقال: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله. وقال يوسف بن إسباط: من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه. وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال أبو القاسم ﷺ: «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه وإن كان أخاه لأبيه وأمه»، وقال مجاهد: يسلط الله على أهل النار الجرب فيحكون أجسادهم حتى تبدو العظام، فيقال لهم: هل يؤذيك هذا فيقولون: إى والله، فيقال لهم: هذا بما كنتم تؤذون المؤمنين». وقال ابن مسعود رضى الله عنه: لما كشف الله العذاب عن قوم يونس عليه السلام ترادوا المظالم بينهم حتى كان الرجل ليقلع الحجر من أساسه فيرده إلى صاحبه، وقال أبو ثور بن يزيد: الحجر فى

البنيان من غير حله عربون على خرابه، وقال غيره: لو أن الجنة وهي دار البقاء أسست على حجر من الظلم لأوشك أن تخرب، وقال بعض الحكماء: اذكر عند الظلم عدل الله فيك، وعند القدرة قدرة الله عليك، لا يعجبك رحب الذراعين سفاك الدماء فإن له قاتلاً لا يموت، وقال سحنون بن سعيد: كان يزيد بن حاتم يقول: ما هبت شيئاً قط هيتي من رجل ظلمته وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله فيقول: حسبك الله، الله بيني وبينك. وقال بلال بن مسعود: اتق الله فيمن لا ناصر له إلا الله. وبكى على بن الفضل يوماً فقليل له: ما يبكيك؟ قال: أبكى على من ظلمني إذا وقف غداً بين يدي الله تعالى ولم تكن له حجة. وروى أن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد له ناصرًا غيري»، ونادى رجل سليمان بن عبد الملك وهو على المنبر يا سليمان اذكر يوم الأذان فترسل سليمان من على المنبر ودعا بالرجل فقال له: ما يوم الأذان؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤] قال: فما ظلامتك؟ قال: أرض لى بمكان كذا وكذا أخذها وكيلك، فكتب إلى وكيله ادفع إليه أرضه وأرضاً مع أرضه. وروى أن كسرى أنوشروان كان له معلم حسن التأديب يعلمه حتى فاق في العلوم فضربه المعلم يوماً من غير ذنب فأوجعه فحقد أنوشروان عليه، فلما ولي الملك قال للمعلم: ما حملك على ضربى يوم كذا وكذا ظلماً؟ فقال له: لما رأيته ترغب فى العلم رجوت لك الملك بعد أبيك فأحببت أن أذيقك طعم الظلم لئلا تظلم فقال أنوشروان: زه زه.

وقال محمد بن سويد وزير المأمون:

فَلَا تَأْمَنَنَّ الدَّهْرَ حَرًّا ظَلَمْتَهُ فَمَا لَيْلٌ حَرًّا إِنْ ظَلَمْتَ بَنَائِمَ

وروى أن بعض الملوك رقم على بساطه:

لَا تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مَقْتَدِرًا فَالظُّلْمُ مَصْدَرُهُ يَفْضِي إِلَى التَّدْمِ
تَنَامُ عَيْنَاكَ وَالْمَظْلُومُ مَتَّبِعُهُ يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللَّهِ لَمْ تَنَمْ

وما أحسن ما قال الآخر:

أَتَهَزُّ بِالدَّعَاءِ وَتَزْدْرِيه وَمَا تَدْرِي بِمَا صَنَعَ الدَّعَاءُ
سَهَامُ اللَّيْلِ نَافِذَةٌ وَلَكِنْ لَهَا أَمَدٌ وَلِلْأَمَدِ انْقِضَاءُ
فِي مَسْكِنِهَا إِذَا مَا شَاءَ رَبِّي وَيُرْسِلُهَا إِذَا نَفَذَ الْقَضَاءُ

وقال أبو الدرداء: إياك ودمعة اليتيم ودعوة المظلوم فإنها تسرى بالليل والناس نيام، وقال الهيثم بن فراس السامى من بنى سامة بن لؤى فى الفضل بن مروان:

تَجَبَّرْتَ يَا فَضْلُ بَنُ مَرْوَانَ فَاعْتَبِرْ فَقَبْلَكَ كَانَ الْفَضْلُ وَالْفَضْلُ وَالْفَضْلُ
ثَلَاثَةُ أَهْلَاكِ مَضَوْا لِسَبِيلِهِمْ أَبَادَهُمُ الْمَوْتُ الْمَشْتَتِ وَالْقَتْلُ

يريد: الفضل بن الربيع، والفضل بن يحيى، والفضل بن سعد. ووجد تحت فراش يحيى بن خالد البرمكى رقعة مكتوب فيها:

وَحَقُّ اللَّهِ إِنَّ الظُّلْمَ لَوْ مُ وَأَنَّ الظُّلْمَ مَرْتَعُهُ وَخَسِيمُ
إِلَى دِيَّانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمَضَى وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ

ووجد القاسم بن عبيد الله المكتفى فى مصلاه رقعة مكتوباً فيها:

بَغَى وَلِلْبَغَى سَهَامٌ تَنْتَظِرُ

أنفذ في الأحشاء من وخز الإبر سهام أيدي القاتنين في السحر

وقال المنصور لابن هبيرة حين أراد أن يوليه القضاء: ما كنت لألى هذا بعدما حدثنى إبراهيم، قال: وما حدثك إبراهيم؟ قال: حدثنى عن علقمة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الظلمة وأعوان الظلمة وأشياع الظلمة حتى من برى لهم قلمًا أو لاق لهم دواة، فيجمعون فى تابوت من حديد ثم يرمى بهم فى نار جهنم». وروى هارون بن محمد بن عبد الملك الزيات قال: جلس أبى للمظالم يومًا فلما انقضى المجلس رأى رجلًا جالسًا فقال له: ألك حاجة؟ قال: نعم. أدننى إليك فإنى مظلوم وقد أعوزنى العدل والإنصاف، قال: ومن ظلمك؟ قال: أنت ولست أصل إليك فأذكر حاجتى قال: وما يحجبك؟ وقد ترى مجلسى مبذولًا. قال: يحجبني عنك هيبتك وطول لسانك وفصاحتك. قال: فقيم ظلمتك؟ قال: فى ضيعتى القلانية أخذها وكيلك غصبًا منى بغير ثمن فإذا وجب عليها خراج أديته باسمى لثلا يثبت لك اسم فى ملكها فيطبل ملكى فوكيلك يأخذ غلتها وأنا أؤدى خراجها وهذا لم يسمع بمثله فى المظالم، فقال له محمد: هذا قول تحتاج معه إلى بينة وشهود وأشياء، فقال له: الرجل يؤمننى الوزير من غضبه حتى أجيب؟ قال: نعم قد أمتك. قال: البينة هم الشهود وإذا شهدوا فليس يحتاج معهم إلى شىء آخر فما معنى قولك بينة وشهود وأشياء وأى شىء هذه الأشياء إن هى إلا الجور وعدولك عن العدل؟ فضحك محمد وقال: صدقت والبلاء موكل بالمنطق وإنى لأرى فيك مصطنعًا ثم وقع له برد ضيعته وأن يطلق له مائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعته وصيره من أصحابه فكان قبل أن يتوصل إلى الإنصاف وإعادة ضيعته له، يقال له: يا فلان كيف الناس فيقول: بشر بين مظلوم لا ينصر وظالم لا ينتصر، فلما صار من أصحاب محمد بن عبد الملك ورد عليه ضيعته وأنصفه قال له: ليلة كيف الناس الآن؟ قال: بخير. قال اعتمدت معهم الإنصاف ورفعت عنهم الإجحاف ورددت عليهم الغصوب وكشفت عنهم الكروب وأنا أرجو لهم ببقائك نيل كل مرغوب والفوز بكل مطلوب.

ومما نقل فى الآثار الإسرائيلية فى زمان موسى صلوات الله وسلامه عليه أن رجلا من ضعفاء بنى إسرائيل كان له عائلة وكان صيادًا يصطاد السمك ويقوت منه أطفاله وزوجته، فخرج يومًا للصيد فوقع فى شبكته سمكة كبيرة ففرح بها ثم أخذها ومضى إلى السوق لبيعها ويصرف ثمنها فى مصالح عياله، فلقيه بعض العوانية فرأى السمكة معه فأراد أخذها منه فمنعه الصياد، فرفع العوانى خشبة كانت بيده فضرب بها رأس الصياد ضربة موجعة وأخذ السمكة منه غصبًا بلا ثمن فدعا الصياد عليه وقال: إلهى جعلتنى ضعيفًا وجعلته قويًا عنيقًا، فخذ لى بحقى منه عاجلاً فقد ظلمنى ولا صبر لى إلى الآخرة، ثم إن ذلك الغاصب الظالم انطلق بالسمكة إلى منزله وسلمها إلى زوجته وأمرها أن تشويها فلما شوتها قدمتها له ووضعها بين يديه على المائدة ليأكل منها ففتحت السمكة فاهًا ونكزته فى أصبع يده نكزة طار بها عقله وصار لا يقر بها قراره فقام وشكا إلى الطبيب ألم يده وما حل به فلما رآها قال له: دواؤها أن تقطع الأصبع لثلا يسرى الألم إلى بقية الكف، فقطع أصبعه فانتقل الألم والوجع إلى الكف واليد وازداد التألم وارتعدت من خوفه فرائضه فقال له الطبيب: ينبغى أن تقطع اليد إلى المعصم لثلا يسرى الألم إلى الساعد فقطعها فانتقل الألم إلى الساعد فما زال هكذا كلما قطع عضوًا انتقل الألم إلى العضو الآخر الذى يليه فخرج هائمًا على وجهه مستغيثًا إلى ربّه ليكشف عنه ما نزل به، فرأى شجرة فقصدها فأخذه النوم عندها فنام فرأى فى منامه قائلًا يقول: يا مسكين إلى كم تقطع أعضائك امض إلى خصمك الذى ظلمته فارضه، فانتبه من النوم وفكر فى أمره فعلم أن الذى أصابه من جهة الصياد، فدخل المدينة وسأل عن الصياد وأتى إليه فوق بين يديه يتمرغ على رجليه وطلب منه الإقالة مما جناه، ودفع إلى شيتًا من ماله وتاب من فعله فرضى عنه خصمه الصياد فسكن فى الحال ألمه وبات تلك الليلة فرد الله تعالى عليه يده كما كانت ونزل الوحي على موسى عليه السلام: يا موسى وعزتى وجلالى لولا أن ذلك الرجل أرضى خصمه لعذبتة مهما امتدت به حياته.

ومما تضمنته أخبار الأخيار ما رواه أنس رضى الله عنه قال: بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه

قاعد إذ جاءه رجل من أهل مصر فقال: يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك، فقال عمر رضى الله عنه: لقد عذت بمجير فما شأنك؟ فقال: سأبقت بفرسى ابناً لعمر بن العاص وهو يومئذ أمير على مصر فجعل يقنعنى بسوطه ويقول: أنا ابن الأكرمين فبلغ ذلك عمرًا أباه فخشى أن آتيك فحبسنى فى السجن فانفلت منه فهذا الحين آتيتك، فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص إذا أتاك كتابى هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان، وقال للمصرى: أقم حتى يأتيتك فأقام حتى قدم عمرو وشهد موسم الحج فلما قضى عمر الحج وهو قاعد مع الناس وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه قام المصرى فرمى إليه عمر رضى الله عنه بالدرة، قال أنس رضى الله عنه: فلقد ضربه ونحن نشتهى أن يضربه فلم ينزع حتى أحيينا أن ينزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين قال يا أمير المؤمنين: قد استوفيت واشتفيت قال ضعها على ضلع عمرو، فقال يا أمير المؤمنين: لقد ضربت الذى ضربنى قال: أما والله لو فعلت ما منعك أحد حتى تكون أنت الذى تنزع، ثم أقبل على عمرو بن العاص وقال: يا عمرو متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ فجعل عمرو يعتذر إليه ويقول إنى لم أشعر بهذا. وقيل: لما ظلم أحمد بن طولون^(١) قبل أن يعدل استغاث الناس من ظلمه وتوجهوا إلى السيدة نفيسة^(٢) يشكونه إليها فقالت لهم: متى يركب؟ قالوا فى غد، فكتبت رقعة ووقفت بها فى طريقه وقالت: يا أحمد يا ابن طولون فلما رآها عرفها فترجل عن فرسه وأخذ منها الرقعة وقرأها فإذا فيها ملكتم فأسرتم وقدرتم فقهرتم وخولتم ففسقتم وردت إليكم الأرزاق فقطعتم هذا وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة لا سيما من قلوب أوجعتموها وأكباد جوعتموها وأجساد عريتموها، فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم اعملوا ما شئتم فإننا صابرون وجوروا فإننا بالله مستجيرون واطلموا فإننا إلى الله متظلمون ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، قال: فعدل لوقته.

وحكى أن الحجاج حبس رجلاً فى حبسه ظلمًا فكتب إليه رقعة فيها: قد مضى من بؤسنا أيام ومن نعيمك أيام والموعود القيامة والسجن جهنم والحاكم لا يحتاج إلى بينة، وكتب فى آخرها:

ستعلم يا نؤوم إذا التقينا	غداً عند الإله من الظلوم
أما والله إن الظلم لنؤم	ومما زال الظلوم هو الملموم
سـينقطع التلذذ عن أناس	أداموه وينقطع النعيم
إلى ديـان يوم الدين نمضى	وعند الله تجتمع الخـصوم

وحكى أبو محمد الحسين بن محمد الصالحى قال: كنا حول سرير المعتضد بالله ذات يوم نصف النهار فنام بعد أن أكل فأنبته مترعجاً وقال: يا خدام، فأسرعنا الجواب فقال: ويلكم أعينونى والحقوا بالشط فأول ملاح ترونه منحدرًا فى سفينة فارغة فاقبضوا عليه واتنوني به ووكلوا بالسفينة من يحفظها، فأسرعنا فوجدنا ملاحًا فى سفينة منحدره وهى فارغة فقبضنا عليه ووكلنا بها من يحفظها وصعدنا به إلى المعتضد، فلما رآه الملاح كاد يتلف فصاح عليه المعتضد صيحة عظيمة كادت روحه تذهب منها وقال: أصدقنى يا ملعون عن قضيتك مع المرأة التى قتلتها اليوم وإلا ضربت عنقك، فتلعثم وقال: نعم، كنت سحرًا فى المشرعة الفلانية فتزلت امرأة لم أر مثلها عليها ثياب فاخرة وحلى كثيرة وجواهر فطمعت فيها واحتلت عليها حتى سددت فمها وغرقتها وأخذت جميع ما كان عليها ثم طرحتها فى الماء ولم أجسر على حمل

(١) أحمد بن طولون: هو أحمد بن طولون، أبو العباس، الأمير صاحب الديار المصرية، والشامية والنفور، تركى مستعرب، كان شجاعاً جواداً حسن السيرة، موصوفاً بالشدة على خصومه وكثرة الإثخان والفتك فبمن عصاه، بنى الجامع المنسوب إليه بالقاهرة، ومن آثاره قلعة يافا بفلسطين، ولى أمر النفور ودمشق ثم مصر، سفك كثيراً من الدماء فى مصر والشام، توفى سنة (٢٧٠هـ - ٨٨٤م).

(٢) السيدة نفيسة: هى نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب، صاحبة المشهد المعروف بمصر، تقية صالحة، عالمة بالتفسير والحديث، ولدت بمكة سنة (١٤٥هـ) ونشأت فى المدينة، حجت ثلاثين حجة، وكانت تحفظ القرآن، وسمع عليها الإمام الشافعى، وكان العلماء يزورونها ويأخذون عنها، وهى أمية، ولكنها سمعت الكثير من الحديث، توفيت فى مصر سنة (٢٠٨هـ - ٨٢٤م).

سلبها إلى دارى لثلا يفشو الخبر على، فعولت على الهروب والانحدار إلى واسط فصبرت إلى أن خلا الشط في هذه الساعة من الملاحين وأخذت في الانحدار فتعلق بى هؤلاء القوم فحملوني إليك، فقال: وأين الحلى والسلب؟ قال: فى صدر السفينة تحت البوارى. قال المعتضد: على به الساعة، فحضروا به فأمر بتغريق الملاح ثم أمر أن ينادى ببغداد من خرجت له امرأة إلى المشرعة الفلانية سحرًا وعليها ثياب فاخرة وحلى فليحضر، فحضر فى اليوم الثانى ثلاثة من أهلها وأعطوا صفتها وصفة ما كان عليها فسلم ذلك إليهم، قال: فقلت يا مولاي من أين علمت أو أوحى إليك بهذه الحالة وأمر هذه الصبية؟ فقال: بل رأيت فى منامى رجلاً شيخاً أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادى يا أحمد أول ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه وقرره على المرأة التى قتلها اليوم ظلمًا وسلبها ثيابها وأقم عليه الحد ولا يفتك، فكان ما شاهدتم. فيتعين على كل ولى أمر أن يعدل فى الأحكام، وأن يتبصر فى رعيته وعلى كل غافل أن يكف يده عن الظلم ويسلك سنن العدل ويعامل بالإنصاف ويراقب الله فى السر والعلانية ويعلم أن الله يجازى على الخير والشر ويعاقب الظالم على ظلمه ويتصبر للمظلوم ويأخذ له حقه ممن ظلمه، وإذا أخذ الظالم لم يفلته والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

فى بيان الشروط التى تؤخذ على العمال وسيرة السلطان فى استجباء الخراج

وأحكام أهل الذمة وفيه فصلان

الفصل الأول: فى سيرة السلطان فى استجباء الخراج والإنفاق من بيت المال وسيرة العمال

قال جعفر بن يحيى: الخراج عماد الملوك وما استعزوا بمثل العدل وما استنذروا بمثل الظلم، وأسرع الأمور فى خراب البلاد تعطيل الأرضين وهلاك الرعية، وانكسار الخراج من الجور، ومثل السلطان إذا أجحف بأهل الخراج حتى يضعفوا عن عمارة الأرضين مثل من يقطع لحمه ويأكله من الجوع فهو إن شيع من ناحية فقد ضعف من ناحية أخرى، وما أدخل على نفسه من الضعف والوجع أعظم مما دفع عن نفسه من ألم الجوع، ومثل من كلف الرعية فوق طاقتهم كالذى يطين سطحه بتراب أساس بيته وإذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الأرضين فيتركونها فتخرب الأرض ويهرب المزارعون فتضعف العمارة ويضعف الخراج ويتيج من ذلك ضعف الأجناد وإذا ضعف الجند طمع الأعداء فى السلطان.

وروى أن المأمون أرق ذات ليلة فاستعدى سميراً يحدثه فقال: يا أمير المؤمنين كان بالموصل بومة وبالبصرة بومة فخطبت بومة الموصل بنت بومة البصرة لابنها، فقالت بومة البصرة: لا أجيب خطبة ابنك حتى تجعلى فى صداق ابنتى مائة ضيعة خربة، فقالت بومة الموصل: لا أقدر عليها لكن إن دام والينا سلمه الله علينا سنة واحدة فعلت ذلك، قال: فاستيقظ لها المأمون وجلس للمظالم وأنصف الناس بعضهم من بعض وتفقد أمور الولاة والعمال والرعية. وقال أبو الحسن بن على الأسدى: أخبرنى أبى قال: وجدت فى كتاب قبلى باللغة الصعيدية مما نقل بالعربية أن مبلغ ما كان يستخرج لفرعون فى زمن يوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه من أموال مصر لخراج سنة واحدة من الذهب العين أربعة وعشرون ألف ألف وأربعمائة دينار، من ذلك ما ينصرف فى عمارة البلاد كحفر الخللجان والإنفاق على الجسور وشق الترع وتقوية من يحتاج إلى التقوية من غير رجوع عليه بها لإقامة العوامل والتوسعة فى البلدان وغير ذلك من الآلات. وأجرة من يستعان به لحمل البذر وسائر نفقات تطبيق الأرض، ثمانمائة ألف دينار ولما ينصرف للأرامل والأيتام وإن كانوا غير محتاجين حتى لا يخلو أمثالهم من بر فرعون أربعمائة ألف دينار، ولما ينصرف لكهنتهم وبيوت صلاتهم مائتا ألف دينار، ولما ينصرف فى الصدقات مما يصب صباً وينادى عليه، برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة ولم يحضر، فيحضر لذلك جمع كثير، مائتا ألف دينار، فإذا فرقت الأموال على أربابها دخل أمناء فرعون إليه وهنؤوه بفرقة الأموال ودعوا له بطول البقاء ودوام العز والنعماء والسلامة، وأنهوا إليه حال الفقراء فيأمر بإحضارهم وتغيير شعثهم ويمد لهم السماط فيأكلون بين يديه ويشربون ويستفهم من كل واحد منهم عن سبب فاقتة فإن كان ذلك من آفة الزمان زاد عليه مثل الذى كان له، ولما ينصرف فى نفقات فرعون الراتبة فى كل سنة مائتا ألف دينار ويفضل بعد ذلك مما يتسلمه يوسف الصديق عليه السلام للملك يجعله فى بيت المال لنوائب الزمان أربعة عشر ألف ألف وستمائة ألف دينار. وقال أبو رهم: كانت أرض مصر أرضاً مدبرة حتى أن الماء ليجرى تحت منازلها وأفنيته فيحبسونه حيث شاؤوا ويرسلونه حيث شاؤوا، وذلك قول فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]. وكان ملك مصر عظيماً لم يكن فى الأرض أعظم منه ملكاً وكانت الجنان بحافتى النيل متصلة لا ينقطع منها شئ عن شئ، والزروع كذلك من أسوان إلى رشيد وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعاً لما دبروا من جسورها وحافاتها والزروع ما بين الجبلين من أولها إلى آخرها، وذلك قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعَيُْونِ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦)﴾ [الدخان: ٢٥، ٢٦].

وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما: استعمل فرعون هامان على حفر خليج سردوس فأخذ فى حفره وتدييره، فجعل أهل القرى يسألونه أن يجرى لهم الخليج تحت قراهم ويعطوه مالا فكان يذهب به من قرية إلى قرية من المشرق

إلى المغرب ومن الشمال إلى القبلة ويسوقه كيف أراد وإلى حيث قصد، فليس خليج بمصر أكثر عطوفاً منه فاجتمع له من ذلك أموال عظيمة جزيلة فحملها إلى فرعون وأخبره بالخبر، فقال له فرعون: إنه ينبغي للسيد أن يعطف على عبيده ويفيض عليهم من خزائنه وذخائره ولا يرغب فيما بأيديهم، رد على أهل القرى أموالهم، فرد عليهم ما أخذهم منهم. فإذا كانت هذه سيرة من لا يعرف الله ولا يرجو لقاءه ولا يخاف عذابه ولا يؤمن بيوم الحساب، فكيف تكون سيرة من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ويوقن بالحساب والثواب والعقاب.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥]. قال: هى خزائن مصر، ولما استوثق أمر مصر ليوسف عليه السلام، وكمل وصارت الأشياء إليه وأراد الله تعالى أن يعوضه على صبره، لما لم يرتكب محارمه وكانت مصر أربعين فرسخاً فى مثلها، وما أطاع يوسف فرعون وهو الريان بن مصعب وناب عنه إلا بعد أن دعاه إلى الإسلام فأسلام، وكانت السذون التى حصل فيها الغلاء والجوع مات العزيز وتملك يوسف، وافترقت زليخا، وعمى بصرها فجعلت تتكفّف الناس فقيل لها: لو تعرضت للملك ربما يرحمك ويعينك ويغنيك فطالما كنت تحفظينه وتكرمينه، ثم قيل لها لا تفعلى لأنه ربما يتذكر ما كان منك إليه من المراودة والحبس فيسئ إليك ويكافئك على ما سبق منك إليه، فقالت: أنا أعلم بحلمه وكرمه فجلست له على رابية فى طريقه يوم خروجه وكان يركب فى زهاء مائة ألف من عظماء قومه وأهل مملكته، فلما أحست به قامت ونادت سبحان من جعل الملوك عبيداً بمعصيتهم والعبيد ملوكاً بطاعتهم، فقال يوسف عليه السلام: من أنت؟ فقالت: أنا التى كنت أخدمك بنفسى وأرجل شعرك بيدي وأكرم مشواك بجهدى وكان منى ما كان، وقد ذقت وبال أمرى وذهبت قوتى وتلف مالى وعمى بصرى وصرت أسأل الناس، فمنهم من يرحمنى ومنهم من لا يرحمنى، وبعدما كنت مغبوبة أهل مصر كلها صرت مرحومة بهم بل محرومتهم وهذا جزاء المفسدين، فبكى يوسف عليه السلام بكاءً شديداً وقال لها: هل فى قلبك من حبك إياى شيء؟ قالت: نعم والذى اتخذ إبراهيم خليلاً لنظرة إليك أحب إلى من ملء الأرض ذهباً وفضة، فمضى يوسف وأرسل إليها يقول: إن كنت أيماً تزوجناك وإن كنت ذات بعل أغنيانا. فقالت لرسول الملك: أنا أعرف أنه يستهزئ بى هو لم يردنى فى أيام شبابى وجمالى، فكيف يقبلنى وأنا عجوز عمياء فقيرة؟ فأمر بها يوسف عليه السلام فجهزت وتزوج بها وأدخلت عليه فصف يوسف عليه السلام قدميه وقام يصلى ودعا الله تعالى باسمه العظيم الأعظم، فرد الله عليها حسنها وجمالها وشبابها وبصرها كهيتها يوم راودته فواقعها، فإذا هى بكر فولدت له إفرايم بن يوسف ومنشا بن يوسف وطاب فى الإسلام عيشهما حتى فرق الموت بينهما، فينبغى للقوى أن لا ينسى الضعيف وللغنى أن لا ينسى الفقير، فرب مطلوب يصير طالباً ومرغوب فيه يصير راغباً، ومسؤول يصير سائلاً، وراحم يصير مرحوماً، فنسأل الله تعالى أن يرحمنا برحمته ويغنينا بفضله.

ولما ملك يوسف عليه السلام خزائن الأرض كان يجوع ويأكل من خبز الشعير، فقيل له: اتجوع ويملك خزائن الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع.

ومن حسن سيرة العمال: ما روى أن عمر رضى الله عنه استعمل على حمص رجلاً يقال له: عمير بن سعد، فلما مضت السنة كتب إليه عمر رضى الله عنه أن أقدم علينا، فلم يشعر عمر إلا وقد قدم عليه ماشياً حافياً عكازاً بيده وإداوته ومزوده وقصعته على ظهره، فلما نظر إليه عمر قال له: يا عمير آجبنا أم البلاد بلاد سوء؟ فقال يا أمير المؤمنين: أما نهاك الله أن تجهر بالسوء، وعن سوء الظن؟ وقد جئت إليك بالدنيا أجرها بقرابها، فقال له: وما معك من الدنيا؟ قال: عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدواً إن لقيته ومزود أحمل فيه طعامى وإداوة أحمل فيها ماء لشربى ولطهورى، وقصعة أتوضأ فيها وأغسل فيها رأسى وأكل فيها طعامى، فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد إلا تبع لما معى، قال: فقام عمر رضى الله عنه من مجلسه إلى قبر رسول الله ﷺ وأبى بكر رضى الله عنه، فبكى بكاءً شديداً، ثم قال: اللهم ألحقنى بصاحبى غير مفتضح ولا مبدل، ثم عاد إلى مجلسه، فقال: ما صنعت فى عملك يا عمير، فقال: أخذت الإبل من أهل الإبل، والجزية من أهل الذمة عن يد وهم صاغرون ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، فوالله يا أمير المؤمنين لو بقى عندى منها شيء لأتيتك به، فقال عمر: عد إلى عملك يا عمير، قال: أشدك

الله يا أمير المؤمنين أن تردني إلى أهلي، فأذن له فأتى أهله، فبعث عمر رجلاً يقال له حبيب بمائة دينار وقال له: اختبر لى عميراً وأنزل عليه ثلاثة أيام حتى ترى حاله هل هو فى سعة أم ضيق، فإن كان فى ضيق فادفع إليه المائة دينار، فأتاه حبيب، فنزل به ثلاثاً، فلم ير له عيشاً إلا الشعير والزيت، فلما مضت ثلاثة أيام قال يا حبيب: إن رأيت أن تتحول إلى جيراننا فلعلهم أن يكونوا أوسع عيشاً منا، فإننا والله وتالله لو كان عندنا غير هذا لأثرناك به. قال: فدفع إليه المائة دينار، وقال: قد بعث بها أمير المؤمنين إليك، فدعا بفرو خلق لامراته، فجعل يصير منها الخمسة دنانير والستة والسبعة، ويبعث بها إلى إخوانه من الفقراء إلى أن أنفدها، فقدم حبيب على عمر، وقال: جئتك يا أمير المؤمنين من عند أزهدي الناس وما عنده من الدنيا قليل ولا كثير، فأمر له عمر بوسقين من طعام وثوبين، فقال يا أمير المؤمنين أما الثوبان فأقبلهما، وأما الوسقان فلا حاجة لى بهما عند أهلى صاع من بر هو كافيهما حتى أرجع إليهم.

وروى أن عمر رضى الله عنه صرّ أربعمائة دينار وقال للغلام: اذهب بها إلى أبى عبيدة بن الجراح^(١) ثم تربص عنده فى البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع بها، فذهب بها الغلام إليه، وقال له: يقول لك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اجعل هذه فى بعض حوائجك قال: وصله الله ورحمه، ثم دعا بجاريته وقال لها: اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفدها، فرجع الغلام إلى عمر وأخبره فوجده قد عد مثلها لمعاذ بن جبل، فقال له: انطلق بها إلى معاذ بن جبل، وانظر ما يكون من أمره، فمضى إليه وقال له كما قال لأبى عبيدة بن الجراح ففعل معاذ كما فعل أبو عبيدة، فرجع الغلام فأخبره عمر، فقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض رضى الله تعالى عنهم أجمعين.

الفصل الثانى : فى أحكام أهل الذمة

روى عن عبد الرحمن بن غنم قال: كتبنا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين صالح نصارى أهل الشام. بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من نصارى مدينة كذا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائنا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث فى مدائننا ولا فيما حواليسها كنيسة ولا ديراً ولا قلية ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان مختطاً منها فى خطط المسلمين فى ليل ولا فى نهار، وأن نوسع أبوابها للمار وابن السبيل، وأن ننزل من مربنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم، ولا نؤوى فى كنائسنا ولا فى منازلنا جاسوساً ولا نكتمه عن المسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شرعنا ولا ندعو إليه أحداً، ولا نمنع أحداً من ذوى قرابتنا الدخول فى دين الإسلام إن أراد، وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس وأن لا نتشبه بالمسلمين فى شيء من ملابسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نتكنى بكنائهم، ولا نركب فى السروج، ولا نتقلد بالسيوف، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية، أو لا نبيع الخمر، وأن تجز مقادير رؤوسنا ونلزم زيناً حيثما كنا، وأن نشد الزنار على أوساطنا، ولا نظهر صلباننا، ولا كتبنا فى شيء من أسواق المسلمين وطرقهم، ولا نضرب بالنواقيس فى كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران فى شيء من طرق المسلمين، ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، ولا نتطلع على منازلهم، وقد شرطنا ذلك على أنفسنا وعلى أهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا فى شيء مما شرطناه لكم، وضمنناه على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل بنا ما يحل بأهل المعاندة والشقاق. فكتب إليه عمر رضى الله عنه أن امض ما سأله والحق فيه حرفين واشترطهما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم، أن لا يشتروا شيئاً من سبائى المسلمين ومن ضرب مسلماً عمداً فقد خلع عهده.

وروى أن بنى ثعلبة دخلوا على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فقالوا يا أمير المؤمنين إنا قوم من العرب أفرض لنا، قال: نصارى؟ قالوا: نصارى. قال: ادعوا إلى حجاماً، ففعلوا فجز نواصيهم وشق من أرديتهم حزمًا يحتزمون بها، وأمرهم أن لا يركبوا بالسروج وأن يركبوا على الأكف من شق واحد. وروى أن أمير المؤمنين الخليفة جعفر المتوكل

(١) أبو عبيدة بن الجراح: هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال القهري القرشى، الأمير القائد فاتح الديار الشامية، والصحابى أحد العشرة المبشرين بالجنة، قال ابن عساکر: داهيتا قریش أبو بکر وأبو عبيدة، وكان لقبه أمين الأمة، ولى قيادة الجيش الزاحف إلى الشام، توفى رحمه الله فى طاعون عمواس سنة (١٨هـ - ٣٦٩م).

أقصى اليهود والنصارى ولم يستعملهم وأذلهم وأبعدهم وخالف بين زبيهم وزى المسلمين وقرب منه أهل الحق وأبعد عنه أهل الباطل، فأحيا الله به الحق وأمات به الباطل، فهو يذكر بذلك، ويترحم عليه ما دامت الدنيا. وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: لا تستعملوا اليهود والنصارى، فإنهم أهل رشا فى دينهم ولا يحل فى دين الله الرشا. ولما استقدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبا موسى الأشعري رضى الله عنه من البصرة وكان عاملاً بها للحساب، دخل على عمر وهو فى المسجد فاستأذن لكتابه وكان نصرانياً، فقال له عمر: قاتلك الله وضرب بيده على فخذيه، ولتت ذمياً على المسلمين، أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]. هلا اتخذت حنيفاً؟ فقال يا أمير المؤمنين لى كتابته وله دينه، فقال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ ذلهم الله ولا أذنيهم إذا أقصاهم الله. وكتب بعض العمال إلى عمر رضى الله عنه أن العدو قد كثر وأن الجزية قد كثرت، أفنستعين بالأعاجم؟ فكتب إليه أنهم أعداء الله وأنهم لنا غششة فأنزلوهم حيث أنزلهم الله.

ولما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر لحقه رجل من المشركين عند الحرة فقال: إنى أريد أن أتبعك وأصيب معك. قال: أتؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا، قال: ارجع، فلن نستعين بمشرك، ثم لحقه عند الشجرة فقال: جئتكم لأتبعك وأصيب معك. قال: أتؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا. قال: فارجع، فلن أستعين بمشرك، ثم لحقه عند ظهر البداء، فقال له مثل ذلك، فأجابه بمثل الأول، فقال: نعم. فخرج به وفرح به المسلمون، وكان له قوة وجلد وهذا أصل عظيم فى أن لا يستعان بكافر، هذا وقد خرج ليقاتل بين يدي النبى ﷺ ويراق دمه، فكيف استعملهم على رقاب المسلمين. وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه إلى عماله أن لا تولوا على أعمالنا إلا أهل القرآن، فكتبوا إليه إنا قد وجدنا فيهم خيانة، فكتب إليهم إن لم يكن فى أهل القرآن خير، فأجدر أن لا يكون فى غيرهم. قال أصحاب الشافعى: ويلزمهم أن يتميزوا فى اللباس عن المسلمين، وأن يلبسوا قلانس يميزونها عن قلانس المسلمين بالحمرة، ويشدوا الزنابير على أوساطهم ويكون فى رقابهم خاتم من نحاس أو رصاص أو جرس يدخلون به الحمام، وليس لهم أن يلبسوا العمام ولا الطيلسانات، وأما المرأة فإنها تشد الزنار تحت الإزار، وقيل: فوق الإزار وهو الأولى، ويكون فى عنقها خاتم تدخل به الحمام، ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض، ولا يركبون الخيل ولا البغال، ولا الحمير إلا بالكف عرضاً ولا يركبون بالسروج، ولا يتصدرون فى المجالس ولا يبدأون بالسلام، ويلجأون إلى أضيق الطرق ويمنعون أن يتناولوا على المسلمين فى البناء، وتجاوز المساواة، وقيل: لا تجوز. وإن تملكوا داراً عالية أقروا عليها، ويمنعون من إظهار المنكر كالخمر والتخزير والناقوس والجهر بالتوراة والإنجيل، ويمنعون من المقام فى أرض الحجاز وهى مكة والمدينة واليمامة وإن امتنعوا من أداء الجزية والتزام أحكام أهل الملة انتقض عهدهم، وإن زنى أحد منهم بمسلمة أو أصابها بنكاح أو آوى عيناً للكفار أو دل على عورة المسلمين أو فتن مسلماً عن دينه أو قتله أو قطع عليه الطريق تنتقض ذمته، وفى تقدير الجزية اختلاف بين العلماء، فمنهم من قال: إنها مقدرة الأقل والأكثر على ما كتب به عمر رضى الله عنه إلى عثمان بن حنيف بالكوفة، فوضع على الغنى ثمانية وأربعين درهماً وعلى من دونه أربعة وعشرين درهماً، وعلى من دونه الاثنى عشر درهماً، وذلك بمحض من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين ولم يخالفه أحد وكان الصرف اثنا عشر دينار، وهذا مذهب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل، وأحد قولى الشافعى، ويجوز للإمام أن يزيد على ما قدره عمر، ولا يجوز أن ينقص عنه ولا جزية على النساء والمماليك والصبيان والمجانين. وأما الكنائس، فأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن تهدم كل كنيسة بعد الإسلام، ومنع أن تجدد كنيسة، وأمر أن لا تظهر عليه خارجه من كنيسة ولا يظهر صليب خارج من كنيسة إلا كسر على رأس صاحبه، وكان عروة بن محمد يهدمها بصنعاء وهذا مذهب علماء المسلمين أجمعين. وشدد فى ذلك عمر بن عبد العزيز وأمر أن لا يترك فى دار الإسلام بيعة ولا كنيسة بحال قديمة ولا حديثة، والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى اصطناع المعروف وإغاثة الملهوف وقضاء حوائج المسلمين

وإدخال السرور عليهم

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُواْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]. وقال رسول الله ﷺ: «من مشى فى عون أخيه ومنفعته، فله ثواب المجاهدين فى سبيل الله»، وعن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «الخلق كلهم عيال الله، فأحب خلقه إليه أنفعهم لعياله»، رواه البزار والطبرانى فى معجمه، ومعنى عيال الله فقراء الله تعالى، والخلق كلهم فقراء الله تعالى، وهو يعولهم، وروينا فى مسند الشهاب عن عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ أنه قال: «خير الناس أنفعهم للناس»، وعن كثير بن عبيد بن عمرو بن عوف المزنى، عن أبيه، عن جده، رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لى خلقاً خلقهم لقضاء حوائج الناس، ألى على نفسه أن لا يعذبهم بالنار، فإذا كان يوم القيامة وضعت لهم منابر من نور يحدثون الله تعالى والناس فى الحساب». وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من سعى لأخيه المسلم فى حاجة، فقضيت له أو لم تقض غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»، وكتب له براءة من النار وبرائة من النفاق». وعن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من قضى لأخيه المسلم حاجة كنت واقفاً عند ميزانه، فإن رجح وإلا شفت له». رواه أبو نعيم فى الحلية.

وروينا فى مكارم الأخلاق لأبى بكر الخرائطى، عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مشى فى حاجة أخيه المسلم كتب الله له بكل خطوة سبعين حسنة وكفر عنه سبعين سيئة، فإن قضيت حاجته على يديه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فإن مات فى خلال ذلك دخل الجنة بغير حساب». وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من مشى مع أخيه فى حاجة فأنصحه فيها جعل الله بينه وبين الناس سبع خنادق ما بين الخندق والخندق كما بين السماء والأرض». رواه أبو نعيم وابن أبى الدنيا. وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله عند أقوام نعماً يقرها عندهم ما داموا فى حوائج الناس ما لم يملوا فإذا ملوا نقلها الله إلى غيرهم» رواه الطبرانى. ورأينا من طريق الطبرانى بإسناد جيد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد أنعم الله عليه نعمة، فأسبغها عليه ثم جعل حوائج الناس إليه، ففترم، فقد عرض تلك النعمة للزوال». وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أغاث ملهوقاً كتب الله له ثلاثاً وسبعين حسنة واحدة منها يصلح بها آخرته ودنيه والباقى فى الدرجات». وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أندرون ما يقول الأسد فى زئيره؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: يقول: اللهم لا تسلطنى على أحد من أهل المعروف»، رواه أبو منصور الديلمى، فى مسند الفردوس. وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قيل يا رسول الله أى الناس أحب إليك؟ قال: «أنفع الناس للناس، قيل: يا رسول الله، فأى الأعمال أفضل؟ قال: إدخال السرور على المؤمن، قيل: وما إشباع جوعته وتنفيس كربته، وقضاء دينه، ومن مشى مع أخيه فى حاجة كان كصيام شهر ١٢٨ سرور المؤمن؟ قال: واعتكافه، ومن مشى مع مظلوم يعينه ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام، ومن كف غضبه ستر الله عورته، وإن الخلق السىء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل». وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لقى أخاه المسلم بما يحب ليسره بذلك سره الله يوم القيامة»، رواه الطبرانى فى الصغير بإسناد حسن، وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أدخل على أهل بيت من المسلمين سروراً لم يرض الله له سروراً دون الجنة»، رواه الطبرانى. وعن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدخل رجل على مؤمن سرور إلا خلق الله من ذلك السرور ملكاً يعبد الله تعالى ويوحده، فإذا صار العبد فى قبره أتاه ذلك السرور، فيقول له: أمتعرفنى، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا السرور الذى أدخلتنى على فلان. أنا اليوم أؤانس وحشتك وألقنك حجتك وأثبتك بالقول الثابت، وأشهد مشاهدك يوم القيامة وأشفع لك إلى ربك وأريك منزلك فى الجنة»، رواه

ابن أبي الدنيا. وعن علي بن أبي طالب رضى الله عنه يرفعه: «إذا أراد أحدكم الحاجة فليبكر لها يوم الخميس وليقرأ إذا خرج من منزله آخر سورة آل عمران، وآية الكرسي، وأنا أنزلناه في ليلة القدر، وأم الكتاب، فإن فيها حوائج الدنيا والآخرة»، وهو حديث مرفوع. ومن كلام الحكماء إذا سألت كريماً حاجة، فدعه يفكر فإنه لا يفكر إلا في خير وإذا سألت، لثيماً حاجة فعاجله، لثلاً يشير عليه طبعه أن لا يفعل. وسأل رجل رجلاً حاجة، ثم توانى عن طلبها، فقال له المسؤول: أثمت عن حاجتك؟ فقال: ما نام عن حاجته من أسهرك لها، ولا عدل بها عن محبة النجع من قصدك بها، فعجب من فصاحته وقضى حاجته وأمر له بمال جزيل. وقال مسلمة لنصيب: سلنى، فقال: كفك بالعطية أبسط من لسانى بالمسألة، فأمر له بألف دينار. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها، وعنه أيضاً قال: لا تكثر على أخيك بالحوائج فإن العجل إذا أقرط في مص ثدى أمه نطحته. وقال ذو الرياستين لثمامة بن أشرس ما أدري ما أصنع بكثرة الطلاب؟ فقال: زل عن موضعك وعلى أن لا يلقالك منهم أحد، فقال له: صدقت، وجلس لهم في قضاء حوائجهم. وحدث أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخى قال: عرضت على أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات^(١) رقعة في حاجة لى، فقرأها ووضعها من يده، ولم يوقع فيها بشيء، فأخذتها وقمت وأنا أقول متمثلاً من حيث يسمع هذين البيتين:

وإذا خطبت إلى كريم حاجة
فلربما منع الكريم ومما به
وأبى فلا تقعد عليه بحاجب
بخل ولكن سوء حظ الطالب

فقال: وقد سمع ما قلت أرجع يا أبا جعفر، بغير سوء حظ الطالب ولكن إذا سألتمونا الحاجة، فعادونا، فإن القلوب بيد الله تعالى، فأخذ الرقعة ووقع فيها بما أردت. وسأل إسحاق بن ربيع، إسحاق بن إبراهيم المصعبى أن يوصل له رقعة إلى المأمون، فقال لكاتبه: ضمها إلى رقعة فلان، فقال:

تأن لحاجتى واشدد عراها
إذا شاركتها بلبان أخرى
فقد أضحت بمنزلة الضياع
أضر بها مشارك الرضاع

وقال أبو دقاقة البصرى:

أضحت حوائجنا إليك مناخه
أطلق فديتك بالنجاح عقالها
معقولة برحابك الوصال
حتى تشور معاً بغير عقال

وقال سلم الخاسر:

إذا أذن الله في حاجة
فلا تسأل الناس من فضلهم
أتاك النجاسات على رسله
ولكن سل الله من فضله

ولله در القائل حيث قال:

أيها المادح العبيد ليعطى
فاسأل الله ما طلبت إليهم
إن لله ما بأيدي العبيد
وارج فريض المقسم الجواد

(١) ابن الفرات: هو علي بن محمد بن موسى، أبو الحسن، ابن الفرات، وزير، من الدهاة الفصحاء الأدباء الأجواد، وهو مهد الدولة للمقتدر العباسى، ولى ديوان السواد، ثم بلغ رتبة الوزارة، توفى قتلاً سنة (٣١٢هـ - ٩٢٤م).

وعن عبد الله بن الحسن بن الحسين رضى الله تعالى عنهم قال: أتيت باب عمر بن عبد العزيز فى حاجة، فقال: إذا كانت لك حاجة إلى، فارسل إلى رسولا أو اكتب لى كتابًا، فإنى لأستحي من الله أن يراك بياىى. وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال: والذى وسع سمعه الأصوات، ما من أحد أودع قلبًا سرورًا إلا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفًا، فإذا نزلت به نائبة جرى إليها كالماء فى انحداره حتى يطردها عنه كما تطرد غريبة الإبل، وقال لجابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهما: يا جابر من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه، فإن قام بما يجب لله فيها عرضها للدوام والبقاء، وإن لم يقم فيها بما يجب لله عرضها للزوال. نعوذ بالله من زوال النعمة ونسأله التوفيق والعصمة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا دائمًا أبدًا إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

رسول الله ﷺ إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل: ما بال فلان، ولكن يقول ما بال أقوام يقولون حتى لا يفضح أحداً، وعنه ﷺ: «ما شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق»، وعنه أيضاً ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه كن له: من صدق لسانه زكاه عمله، ومن حسنت نيته زيد في رزقه، ومن حسن بره لأهل بيته زيد له في عمره»، ثم قال: «وحسن الخلق وكف الأذى يزيدان في الرزق». وقيل: «سوء الخلق يعدى لانه يدعو إلى أن يقابل بمثله»، وكتب الحسن بن علي إلى أخيه الحسين رضي الله عنهم في إعطائه الشعراء، فكتب إليه الحسين أنت أعلم مني بأن خير المال ما وقى به العرض، فانظر إلى شرف أدبه، وحسن خلقه كيف ابتداء كتابه فأنت أعلم مني، وكان بينه وبين أخيه كلام، فقليل له: ادخل على أخيك، فهو أكبر منك، فقال: إني سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول: «أيما اثنين جرى بينهما كلام، فطلب أحدهما رضا الآخر كان سابقه إلى الجنة» وأنا أكره أن أسبق أخي الأكبر إلى الجنة، فبلغ ذلك الحسن، فجاءه عاجلاً رضي الله عنهما، وأنشد في المعنى:

وإني لآلقي المرء أعلم أنه عدو وفي أحشائه الضغن كامن
فأمنحه بشراً فيرجع قلبه سليماً وقد ماتت لديه الضغائن

وسرق بعض حاشية جعفر بن سليمان جوهرة نفيسة وباعها بمال جزيل، فانفذ إلى الجوهريين بصفتها، فقالوا: باعها فلان من مدة، ثم إن ذلك الرجل الذي سرقها قبض عليه وأحضر بين يدي جعفر، فلما رأى ما ظهر عليه قال له: أراك قد تغير لونك ألسنت يوم كذا طلبت مني هذه الجوهرة فوهبتها لك، وأقسم بالله لقد أنسيت هذا، ثم أمر للجوهري بثمانها، وقال للرجل: خذها الآن حلالة طيباً وبيعها بالثمن الذي يطيب خاطرك به، لا تبع بيع خائف. ودخل محمد بن عباد على المأمون، فجعل يعممه بيده وجارية على رأسه تبسم، فقال لها المأمون: ممّ تضحكين؟ فقال ابن عباد: أنا أخبرك يا أمير المؤمنين تتعجب من قبحي وإكرامك إياي، فقال لا تعجبي فإن تحت هذه العمامة كرمًا ومجدًا قال الشاعر:

وهل ينفع الفتيان حسن وجوهمهم إذا كانت الأعراض غير حسان
فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى فما كل مصقول الحديد يمانى

وحكى أن بهرام الملك خرج يوماً للصيد فانفرد عن أصحابه، فرأى صيداً، فتبعه طامعاً في لحاقه حتى بعد عن عسكريه، فنظر إلى راع تحت شجرة، فنزل عن فرسه ليبول، وقال للراعى: احفظ على فرسى حتى أبول، فعمد الراعى إلى العنان وكان ملبساً ذهباً كثيراً، فاستغفل بهرام وأخرج سكيناً، فقطع أطراف اللجام وأخذ الذهب الذي عليه، فرفع بهرام نظره إليه، فرآه فغض بصره وأطرق برأسه إلى الأرض وأطال الجلوس حتى أخذ الرجل حاجته، ثم قام بهرام، فوضع يده على عينيه، وقال للراعى قدم إلى فرسى، فإنه قد دخل في عيني من سافى الريح، فلا أقدر على فتحهما، فقدمه إليه، فركب وسار إلى أن وصل إلى عسكريه، فقال لصاحب مراكبه إن أطراف اللجام قد وهبتها، فلا تهمن بها أحداً.

وذكر أن أنوشروان وضع الموائد للناس في يوم نيروز وجلس، ودخل وجوه أهل مملكته في الإيوان، فلما فرغوا من الطعام جاءوا بالشراب وأحضرت الفواكه والمشوم في آنية الذهب والفضة، فلما رفعت آنية المجلس أخذ بعض من حضر جام ذهب وزنه ألف مثقال وخبأه تحت ثيابه وأنوشروان يراه، فلما فقدته الشرابى صاح بصوت عال لا يخرج من أحد حتى يفتش، فقال كسرى: ولم؟ فأخبره بالقضية، فقال قد أخذه من لا يرده ورآه من لا ينم عليه، فلا تفتش أحداً فأخذ الرجل الجلام ومضى فكسره، وصاغ منه منطقة وحلية لسيفه وحدد له كسوة جميلة، فلما كان في مثل ذلك اليوم جلس الملك ودخل ذلك الرجل بتلك الحلية، فدعاه كسرى، وقال له: هذا من ذاك، فقبل الأرض، وقال: نعم أصلحك الله. وقال عبد الله بن طاهر كنا عند المأمون يوماً، فنادى بالخدام يا غلام، فلم يجبه أحد، ثم نادى ثانياً، وصاح يا غلام، فدخل غلام تركى وهو يقول: ما ينبغي للغلام أن يأكل ولا يشرب كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام

إلى كم يا غلام، فنكس المأمون رأسه طويلاً، فما شككت أنه يأمرني بضرب عنقه، ثم نظر إلى فقال: يا عبد الله إن الرجل إذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خدمه، وإذا ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خدمه، وأنا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لتحسن أخلاق خدمنا.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: ورد علينا الوليد بن عتبة بن أبى سفيان المدينة واليها، وكان وجهه ورقة من ورق المصحف، فوالله ما ترك فينا فقيراً إلا أغناه، ولا مديوناً إلا أدى عنه دينه، وكان ينظر إلينا بعين أرق من الماء، يكلمنا بكلام أحلى من الجنى ولقد شهدت منه مشهداً لو كان من معاوية لذكرته، تغدينا يوماً عنده، فأقبل الفراش بصحفة، فعر في وسادة، فوقعت الصحيفة من يده، فوالله ما ردها إلا ذقن الوليد، وانكب جميع ما فيها في حجره فبقى الغلام متمثلاً واقفاً ما معه من روحه إلا ما يقيم رجله، فقام الوليد فدخل، فغير ثيابه، وأقبل علينا تبرق أسارير جبهته، فأقبل على الفراش وقال: يا بائس ما أرانا إلا روعناك. اذهب، فأنت وأولادك أحرار لوجه الله تعالى. ومرض أحمد بن أبى داود، فعاده المعتصم، وقال: نذرت إن عافاك الله تعالى أن أتصدق بعشرة آلاف دينار، فقال أحمد: يا أمير المؤمنين، فاجعلها في أهل الحرمين، فقد لقوا من غلاء الأسعار شدة، فقال: نويت أن أتصدق بها على من هنا، وأطلق لأهل الحرمين مثلها، فقال أحمد: متع الله الإسلام وأهله بك يا أمير المؤمنين، فإنك كما قال النميرى لأبيك الرشيد رحمة الله تعالى عليه:

إن المكارم والمعروف أوديةٌ أحلك الله منها حيث تجتمع
من لم يكن بأمين الله معتصماً فليس بالصلوات الخمس يتففع

وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت حسن الخلق؟ فقال: من قيس بن عاصم، بينما هو ذات يوم جالس في داره إذ جاءته خادمة له بسفود عليه شواء حار، فترعت السفود من اللحم وألقته خلف ظهرها فوقع على ابن له، فقتله لوقته، فدهشت الجارية، فقال: لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى. وكان ابن عمر رضى الله عنهما إذا رأى أحداً من عبده يحسن صلاته يعتقه، فعرفوا ذلك من خلقه، فكانوا يحسنون الصلاة مراعاة له، فكان يعتقهم، ف قيل له في ذلك، فقال: من خدعنا في الله انخدعنا له. وروى أن أبا عثمان الزاهد اجتاز ببعض الشوارع في وقت الهاجرة، فألقى عليه من فوق سطح طست رماد، فتغير أصحابه، ويسطوا ألسنتهم في الملقى للرماد، فقال أبو عثمان: لا تقولوا شيئاً، فإن من استحق أن يصب عليه النار، فصولح بالرماد لم يجز له أن يغضب، وقيل لإبراهيم بن أدهم تغمده الله تعالى برحمته: هل فرحت في الدنيا قط؟ فقال: نعم مرتين إحداهما أنى كنت قاعداً ذات يوم، فجاء إنسان فبال على، والثانية كنت جالساً فجاء إنسان فصفعنى. وروى أن على بن أبى طالب كرم الله وجهه دعا غلاماً له، فلم يجبه، فدعاه ثانياً وثالثاً فرآه مضطجعاً، فقال: أما تسمع يا غلام؟ قال: نعم. قال: فما حملك على ترك جوابي؟ قال: أمنت عقوبتك، فتكاسلت، فقال: اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

وحكى أن أبا عثمان الخيرى دعاه إنسان إلى ضيافة، فلما وافى باب الدار قال له الرجل: يا أستاذ ليس لى وجه فى دخولك، فأنصرف رحمك الله، فأنصرف أبو عثمان، فلما وافى منزله عاد الرجل إليه، وقال: يا أستاذ ندمت وأخذ يعتذر له، وقال: احضر الساعة، فقام معه فلما وافى داره قال له مثل ما قال فى الأولى، ثم فعل به ذلك أربع مرات، وأبو عثمان ينصرف ويحضر، ثم قال: يا أستاذ إنما أردت بذلك اختبارك والوقوف على أخلاقك، ثم جعل يعتذر له ويمدحه، فقال أبو عثمان: لا تمدحنى على خلق نجهه فى الكلاب، فإن الكلب إذا دعى حضر وإذا زجر انزجر. وقال الحرث بن قصى: يعجبني من القراء كل فصيح مضحك، فأما الذى تلقاه ببشر ويلقاك بوجه عبوس فلا كثر الله فى المسلمين مثله.

ومن محاسن الأخلاق: ما حكى عن القاضى يحيى بن أكثم^(١) قال: كنت نائماً ذات ليلة عند المأمون، فعطش،

(١) يحيى بن أكثم: هو يحيى بن محمد بن قطن التميمى الأسيدى المرورى، أبو محمد، قاضى، رفيع القدر، عالى الشهرة، من نبلاء =

فامتنع أن يصيح بـغلام يسقيه، وأنا نائم، فينغص على نومي، فرأيت أنه قد قام يمشي على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء وبينه وبين المكان الذي فيه الكيزان نحو من ثلاثمائة خطوة، فأخذ منها كوزاً، فشرب، ثم رجع يمشي على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذي أنا عليه، فخطا خطوات خائف لئلا ينبهني حتى صار إلى فراشه، ثم رأيت أنه آخر الليل قام يبول، وكان يقوم في أول الليل وآخره، فقعد طويلاً يحاول أن يتحرك فيصيح بالـغلام، فلما تحركت وثب قائماً وصاح يا غلام، وتأهب للصلاة. ثم جاءني، فقال لي: كيف أصبحت يا أبا محمد؟ وكيف كان مبيتك؟ قلت: خير مبيت جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين، قال: لقد استيقظت للصلاة، فكرهت أن أصيح بالـغلام، فأزعجك، فقلت يا أمير المؤمنين قد خصك الله تعالى بأخلاق الأنبياء، وأحب لك سيرتهم، فهناك الله تعالى بهذه النعمة، وأتمها عليك، فأمر لي بآلف دينار، فأخذتها وانصرفت. قال: وبت عنده ذات ليلة، فأنتبه وقد عرض له السعال، فجعلت أرمقه، وهو يحشو فمه بكم قميصه يدفع به السعال حتى غلبه، فسعل وأكب على الأرض لئلا يعلو صوته، فأنتبته، قال يحيى: وكنت معه يوماً في بستان ندور فيه، فجعلنا نمر بالرياحان، فيأخذ منه الطاقة والطاقتين ويقول لقيم البستان: أصلح هذا الحوض، ولا تغرس في هذا الحوض شيئاً من البقول، قال يحيى: ومشينا في البستان من أوله إلى آخره، وكنت أنا مما يلي الشمس والمأمون مما يلي الظل، فكان يجذبني أن أتحوّل أنا في الظل، ويكون هو في الشمس، فامتنع من ذلك حتى بلغنا آخر البستان، فلما رجعنا قال: يا يحيى والله لتكونن في مكاني ولأكونن في مكانك حتى آخذ نصيبى من الشمس كما أخذت نصيبك، وتأخذ نصيبك من الظل كما أخذت نصيبى، فقلت: والله يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيك يوم الهول بنفسى لفعلت، فلم يزل بي حتى تحولت إلى الظل وتحول هو إلى الشمس، ووضع يده على عاتقى، وقال: بحياتى عليك إلا ما وضعت يدك على عاتقى مثل ما فعلت أنا، فإنه لا خير في صحبة من لا ينصف، انظر إلى أخلاقهم رضى الله تعالى عنهم ما أحسنها وإلى أفعالهم ما أزينها، نسأل الله تعالى أن يحسن أخلاقنا، وأن يبارك لنا في أرزاقنا إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

= الفقهاء، يتصل نسبه بأشعث بن قيس حاكم العرب ولى قضاء البصرة ثم بغداد وكان حسن العشرة وحلو الحديث، توفى في الرملة إحدى قرى المدينة سنة (٢٤٢هـ - ٨٥٧م).

فى حسن المعاشرة والمودة والأخوة والزيارة وما أشبه ذلك

اعلم أن المودة والأخوة والزيارة سبب التألف، والتألف سبب القوة، والقوة سبب التقوى، والتقوى حصن منيع وركن شديد بها يمنع الضيم وتنازل الرغائب وتنجح المقاصد، وقد من الله تعالى على قوم وذكرهم نعمته عليهم بأن جمع قلوبهم على الصفاء وردّها بعد الفرقة إلى الألفة والإخاء، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. ووصف نعيم الجنة وما أعد فيها لأولياؤه من الكرامة، إذ جعلهم إخواناً على سرر متقابلين، وقد سن رسول الله ﷺ الإخاء وندب إليه، وأخى بين الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين. وقد ذكر الله تعالى أهل جهنم وما يلقون فيها من الألم إذ يقولون: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم، وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه: الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين، وأنشدوا فى ذلك:

ومما المرء إلا بإخوانه كما يقبض الكف بالمعصم
ولا خير فى الكف مقطوعة ولا خير فى الساعد الأجذم

وقال زياد: خير ما اكتسب المرء الإخوان فإنهم معونة على حوادث الزمان ونوائب الحداث، وعون فى السراء والضراء، ومن كلام على رضى الله عنه وكرم الله وجهه:

عليك بإخوان الصفا فإنهم عماد إذا استجدتهم وظهور
وإن قليلاً ألف خل وصاحب وإن عدواً واحداً لكثير

وقال الأوزاعي: الصاحب للصاحب كالرقعة فى الثوب إن لم تكن مثله شانتة. وقال عبد الله بن طاهر: المال غاد ورائح، والسلطان ظل زائل، والإخوان كنوز وافرة. وقال المأمون للحسن بن سهل: نظرت فى اللذات فوجدتها كلها مملولة سوى سبعة، قال: وما السبعة يا أمير المؤمنين؟ قال: خبز الخنطة، ولحم الغنم، والماء البارد، والثوب الناعم، والرائحة الطيبة، والفراش الواطئ، والنظر إلى الحسن من كل شيء، قال: فأين أنت يا أمير المؤمنين من محادثة الرجال؟ قال: صدقت، وهى أولاهن. وقال سليمان بن عبد الملك: أكلت الطيب ولبست اللين وركبت الفاره واقتضضت العذراء، فلم يبق من لذاتى إلا صديق أطرح معه مؤنة التحفظ. وكذلك قال معاوية رضى الله عنه: نكحت النساء حتى ما أفرق بين امرأة وحائط، وأكلت الطعام حتى لا أجد ما استمرته، وشربت الأثربة حتى رجعت إلى الماء، وركبت المطايا حتى اخترت نعلى، ولبست الثياب حتى اخترت البياض، فما بقى من اللذات ما تتوق إليه نفسى إلا محادثة أخ كريم. وأنشدوا فى معنى ذلك:

ومما بقيت من اللذات إلا محادثة الرجال ذوى العقول
وقد كنا نعدّهم قليلاً فقد صاروا أقلّ من القليل

وقال ليلى :

ما عاتب المرء اللبيب كنفه والمرء يصلحه المجلس الصالح

وقال آخر :

إذا ما أتت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالاً لزلتة عذرا

وقيل لابن السماك: أى الإخوان أحق ببقاء المودة؟ قال: الوافر دينه، الوافى عقله، الذى لا يملك على القرب ولا ينسك على البعد، إن دنوت منه داناك، وإن بعدت عنه راعاك، وإن استعنت به عضدك، وإن احتجت إليه رفدك، وتكون مودة فعله أكثر من مودة قوله. وأنشدوا فى المعنى:

إن أخاك الصديق من يسعى معك
ومن إذا ربُّ الزمان صدعك
وقال غيره:

وليس أخى من ودنى بلسان
ومن ماله مالى إذا كنت معدماً
وقال أبو تمام:

من لى بإنسان إذا غضبته
وإذا صببوت إلى المدام شربت من
وتراه يصغى للحديث بطرفه
وجهلته كأن الحلم رد جوابه
أخلاقه وسكرت من آدابه
وبقلبى له ولعله أدرى به

وقيل لخالد بن صفوان: أى إخوانك أحب إليك؟ قال: الذى يسد خلتي ويعفر زلتى ويقل عثرتى. وقيل: من لا يؤاخى إلا من لا عيب فيه قل صديقه، ومن لم يرض من صديقه إلا بإيثاره على نفسه دام سخطه، ومن عاتب على كل ذنب ضاع عتبه، وكثر تعب. قال الشاعر:

ومن لم يغمض عينه عن صديقه
وعن بعض ما فيه يت وهو عاتب
وقال آخر:

إذا كنت فى كل الأمور معاتباً
وإن أنت لم تشرب مراراً على الأذى
صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
ظمت وأى الناس تصفو مشاربه

وقال: إذا رأيت من أخيك أمراً تكرهه أو خلة لا تحبها فلا تقطع حبله ولا تصرم وده، ولكن داو كلمته واستر عورته وابقه وإبراً من عمله. قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦]. فلم يأمره بقطعهم، وإنما أمره بالبراءة من عملهم السيئ. وقال ﷺ: «الأرواح أجناد مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف». وقال عليه الصلاة والسلام: إن روحى المؤمنين ليلتقيان من مسيرة يوم ما رأى أحدهما صاحبه. وفى ذلك قال بعضهم:

هويتكم بالسمع قبل لقائكم
وخبرت عنكم كل جود ورفع
وسمع الفتى يهوى لعمرى كطرفه
فلما التقينا كنتم فوق وصفه

وقال آخر:

تبسم الشجر عن أوصافكم فغدا
فمن هناك عشقناكم ولم نركم
من طيب ذكركم نشرأ فأحيانا
والأذن تعشق قبل العين أحيانا

ما تحاب اثنان في الله إلا كان أفضلهما عند الله أشدهما حباً لصاحبه، ما زار أخ أخاً في الله شوقاً إليه ورغبة في لقائه إلا نادته ملائكة من ورائه طبت وطابت لك الجنة، وقالوا: ليس سرور يعدل لقاء الإخوان، ولا غم يعدل فراقهم. وقالوا: شر الإخوان الواصل في الرخاء الخاذل عند الشدة، وقالوا: إن من الوفاء أن تكون لصديق صديقاً، ولعدو صديقاً عدواً، وقالوا: أعجب الأشياء ودّ من يهودى وحفظ من نصراني، ورياضة من دهرى، وكرم من أعجمى، والحذر من الكريم إذا أهنته، واللئيم إذا أكرمته، والعاقل إذا أخرجته، والأحمق إذا مازحته، والفاجر إذا عاشرته. وقالوا: اصحب من الإخوان من أولئك جمائل كثيرة فكافأته بجميلة واحدة، فنسى جمائله وبقي شاكراً ناشراً ذاكراً لجميلتك، يوليك عليها الإحسان الكثير الجزيل ويجعل أنه ما بلغ من مكافأتك القليل. وقال ابن عائشة: لقاء الخليل شفاء الغليل. وقال بعض الحكماء إذا وقع بصرك على شخص، فكرهته فاحذره جهداً، قال عبد الله بن طاهر:

خليلي للبغضاء حالٌ مبينةٌ وللحب آثارٌ تُرى ومعارفُ
فما تُنكر العينان فالقلب مُنكرٌ وما تعرف العينان فالقلب عارفٌ

وقال آخر:

وكنّت إذا الصديق أراد غيظي وشرفني على ظمماً بريقي
غفرت ذنوبه وكظمت غيظي مخافة أن أعيش بلا صديق

وقال آخر :

وليس فتى الفتيان من جلّ همٍّ صَبوحٌ وإن أمسي ففضل غبوقِ
ولكن فتى الفتيان من راح أو غداً لضرر عُدو أو لنفع صديقِ

وأما آداب المعاشرة: فالبشاشة والبشر وحسن الخلق والأدب، فعن جابر بن عبد الله رضي عنهما، عن النبي ﷺ قال: «من أخلاق النبيين والصديقين البشاشة إذا تراءوا والمصافحة إذا تلاقوا». وكان القعقاع بن شور الهذلي إذا جالسه رجل يجعل له نصيباً من ماله ويعينه على حوائجه، ودخل يوماً على معاوية، فأمر له بألف دينار وكان هناك رجل قد فسح له في المجلس، فدفعها للذي فسح له، فقال:

وكنّت جليس قعقاع بن ثورٍ وما يشقى بقعقاع جليسُ
ضحكوك السن إن نطقوا بخيرٍ وعند الشر مطراق عبوسُ

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لجليسى على ثلاث: أن أرمقه بطرفي إذا أقبل، وأوسع له إذا جلس، وأصغى له إذا حدث، ويقال: لكل شيء محل، ومحل العقل مجالسة الناس، ومثل الجليس الحسن كالعطار إن لم يصبك من عطره أصابك من رائحته. ومثل الجليس السوء، مثل الكبريت إن لم يحرق ثوبك بناره أذاك بدخانته. وكانت تحية العرب: «صبحتك الأئمة وطيب الأظعمة» وتقول أيضاً: «صبحتك الأفالخ وكل طير صالح». ووصف المأمون ثمامة بحسن المعاشرة، فقال: إنه يتصرف مع القلوب تصرف السحاب مع الجنوب. وقيل: أول ما يتعين على الجليس الإنصاف في المجالسة بأن يلحظ بعين الأدب مكانه من مكان جليسه فيكون كل منهما في محله. وقال ﷺ: «ذو العلم والسلطان أحق بشرف المنزل». وقال جعفر الصادق^(١) رضي الله عنه، إذا دخلت منزل أخيك فاقبل كرامته كلها ما عدا

(١) جعفر بن محمد: هو جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط، الهاشمي القرشي، أبو عبد الله، الملقب بالصادق، سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، كان من أجلاء التابعين، وعلى درجة عالية في العلم، توفي سنة (١٤٨هـ - ٧٦٥م).

الجلوس في الصدور وينبغي للإنسان أن لا يقبل بحديثه على من لا يقبل عليه، فقد قيل: إن نشاط المتكلم بقدر إقبال السامع، ويتعين عليه أن يحدث المستمع على قدر عقله ولا يتدع كلاماً لا يليق بالمجلس، فقد قيل: لكل مقام مقال، وخير القول ما وافق الحال. وأوجبوا على المستمع أنه إذا ورد عليه من المتكلم ما كان مر بسمعه أولاً أن لا يقطع عليه ما يقوله، بل يسكت إلى أن يستوعب منه القول. وعدوا ذلك من باب الأدب ولعله إذا صبر وسكت استفاد من ذلك زيادة فائدة لم تكن في حفظه. وقيل: ثمانية إن أمينوا فلا يلوموا إلا أنفسهم، الجالس في مجلس ليس له بأهل، والمقبل بحديثه على من لا يسمعه، والداخل بين اثنين في حديثهما ولم يدخله فيه، والمتعرض لما لا يعنيه، والمتأمر على رب البيت في بيته، والآتي إلى مائدة بلا دعوة، وطالب الخير من أعدائه، والمستخف بقدر السلطان. ويتعين على المجلس أن يراعى ألفاظه ويكون على حذر أن يعثر لسانه خصوصاً إذا كان جليسه ذا هيبة، فقد قيل: رب كلمة سلبت نعمة. وقال أبو العباس السفاح: ما رأيت أغزر من فكر أبي بكر الهذلي لم يعد على حديثاً قط وقيل: إن أبا العباس كان يحدثه يوماً إذ عصفت الريح فأرمت طستاً من سطح إلى المجلس، فارتاع من حضر ولم يتحرك الهذلي ولم تزل عينه مطابقة لعين السفاح فقال: ما أعجب شأنك يا هذلي، فقال: إن الله يقول: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤]. وإنما لي قلب واحد، فلما غمره النور بمحادثة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال، فلو انقلبت الخضراء على الغبراء ما أحسست بها ولا وجمت لها، فقال السفاح: لئن بقيت لك لأرفعن مكانك، ثم أمر له بمال جزيل وصلة كبيرة. وكان ابن خارجة يقول: ما غلبني أحد قط غلبة رجل يصغى إلى حديثي.

وفي نوابغ الحكم: أكرم حديث أخيك بإنصاتك وصنّه من وصمة التفاتك. وقيل: من حق الملك إذا ثأب أو ألقى المروحة من يده أو مدّ رجله أو تمطى أو اتكأ أو فعل ما يدل على كسله أن يقوم من بحضرته، وكان أردشير إذا تمطى قام سماره. ومن حق الملك أن لا يعاد عليه حديث وإن طال الدهر. قال روح بن زنباع^(١): أقمت مع عبد الملك سبع عشرة سنة، فما أعدت عليه حديثاً إلا مرة واحدة، فقال لي قد سمعته منك. وعن الشعبي قال: ما حدثت بحديث مرتين رجلاً بعينه. وقال عطاء بن أبي رباح: إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت له كأنى لم أسمع قط، وقد سمعت به من قبل أن يولد. وقيل: المودة طلاقة الوجه والتودد إلى الناس. وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه: إن المسلمين إذا التقيا، فضحك كل واحد منهما في وجه صاحبه ثم أخذ بيده تحاتت ذنوبهما كتحات ورق الشجر، وقيل: البشر يدل على السخاء كما يدل النور على الثمر. وقيل: من السنة إذا حدثت القوم أن لا تقبل على واحد منهم، ولكن اجعل لكل واحد منهم نصيباً. وقالوا: إذا أردت حسن المعاشرة فالتق عدوك وصديقك بالطلاقة ووجه الرضا والبشاشة ولا تنظر في عطفك ولا تكثر الالتفات ولا تقف على الجماعات، وإذا جلست فلا تكبر على أحد وتحفظ من تشييك أصابعك، ومن العبث بلحيتك، ومن اللعب بخاتمك، وتخليل أسنانك، وإدخال أصبعك في أنفك، وكثرة بصاقتك، وكثرة التمطى والتشاؤب في وجوه الناس وفي الصلاة، وليكن مجلسك هادئاً وحديثك منظوماً مرتباً، واصغ إلى كلام مجالسك واسكت عن المضاحك ولا تتصنع تصنع المرأة في التزين، ولا تلح في الحاجات ولا تشجع أحداً على الظلم ولا تهازل أمتك ولا عبدك، فيسقط وقارك عندهما، وإذا خاصمت فانصف وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك وتفكر في حاجتك، ولا تكثر الإشارة بيدك ولا الالتفات إلى من وراءك وأهدى غضبك وتكلم، وإذا قربك سلطان فكن منه على حذر، واحذر انقلابه عليك وكلمه بما يشتهى ولا يحملنك لطفه بك على أن تدخل بينه وبين أهله وحشمه، وإن كنت لذلك مستحقاً عنده، وإياك وصديق العافية فإنه أعدى الأعداء ولا تجعل مالك أكرم من عرضك، ولا تجالس الملوك فإن فعلت فالترم ترك الغيبة ومجانبة الكذب وصيانة السر وقلة الحوائج وتهذيب الألفاظ والمذاكرة بأخلاق الملوك والحذر منهم وإن ظهرت المودة، ولا تتجشأ بحضرته ولا تخلل أسنانك بعد الأكل عندهم، ولا تجالس العامة فإن فعلت فأداب ذلك ترك الخوض في حديثهم وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم والتغافل عما يجرى من سوء ألفاظهم، وإياك أن تمازح لبياً أو سفيهاً، فإن اللبيب يحقد عليك والسفيه يتجراً عليك، ولأن المزاح يخرق الهيبة ويذهب بماء الوجه ويعقب الحقد ويذهب بحلاوة الإيمان والود ويشين فقه الفقيه ويجرئ السفيه ويميت القلب ويباعد عن الرب تعالى ويكسب الغفلة والذلة، ومن بلى

(١) روح بن زنباع: هو روح بن زنباع بن روح بن سلامة الجذامي، أبو زرعة، أمير فلسطين وسيد اليمانية في الشام وقائدها وخطيبها وشجاعها قيل: له صفة، كان عبد الملك بن مروان يقول: جمع روح طاعة أهل الشام ودهاء أهل العراق وفقه أهل الحجاز توفي سنة (٨٤هـ - ٧٠٣م).

فى مجلس بمزاح أو لفظ، فليذكر الله عند قيامه، فقد ورد عن النبى ﷺ أنه قال: «من جلس فى مجلس فكثرت فيه لفظه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك غفر له ما كان فى مجلسه ذلك».

وأما آداب المسيرة: فقد روى أن رسول الله ﷺ تعقب هو وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ورجل آخر من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فى سفر على بعير، فكان إذا جاءت نوبته فى المشى مشى، فيعزمان عليه أن لا يمشى فى أبى ويقول: ما أنتم بأقدر منى على مشى وما أنا بأغنى منكم عن أجر، وقال ﷺ: «لا تتخذوا ظهور الدواب كراسى». وقيل: «لا تتقدم الأصاغر على الأكابر إلا فى ثلاث: إذا ساروا ليلاً أو خاضوا سيلاً أو واجهوا خيلاً»، وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه فى ثلاث، فى نكته وغيبته ووفاته.

وأما ما جاء فى الإخوان القليلى الموافاة العديمى المكافاة الذين ليس عندهم لصديق مصافة

فقال وهب بن منبه: صحبت الناس خمسين سنة فما وجدت رجلاً غفر لى زلة ولا أقالنى عثرة ولا ستر لى عورة. وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: إذا كان الغدر طبعاً، فالثقة بكل أحد عجز. وقيل لبعضهم: ما الصديق؟ قال: اسم وضع على غير مسمى وحيوان غير موجود. قال الشاعر:

سممنا بالصديق ولا نراه
على التحقيق يوجد فى الأنام
وأحبه محالاً ثمقوه
على وجهه المجرار من الكلام

وقال أبو الدرداء: كان الناس ورقاً لا شوك فيه، فصاروا شوكاً لا ورق فيه، وقال جعفر الصادق لبعض إخوانه: أقلل من معرفة الناس وأنكر من عرفت منهم، وإن كان مائة صديق فاطرح تسعة وتسعين وكن من الواحد على حذر. وقيل لبعض الولاة: كم لك من صديق؟ فقال: أما فى حال الولاية فكثير وأنشد:

الناس إخوان من دامت له نعم
والويل للممرء إن زلت به القدم

ولما نكب على بن عيسى الوزير لم ينظر ببابه أحداً من أصحابه الذين كانوا يألفونه فى ولايته، فلما ردت إليه الوزارة وقف أصحابه ببابه ثانياً فقال:

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها
فكلما انقلب يوماً به انقلبوا
يعظمون أخوا الدنيا فإن وثبت
يوماً عليه بما لا يشتهى وثبوا
وقال آخر:

فما أكثر الأصحاب حين نعدهم
ولكنهم فى النائبات قليل
وقال البحتري:

إياك تغتر أو تخدعك بارقة
من ذى خداع يرى بشراً وأطافاً
فلو قلبت جميع الأرض قاطبة
وسرت فى الأرض أوساطاً وأطرافاً
لم تلق فيها صديقاً صادقاً أبداً
ولا أخوا يذل الإنصاف إن صافى
وقال بعضهم فى المعنى أيضاً:

خليلى جربت الزمان وأهله
فما نالنى منهم سوى الهم والعنا
وعاشرت أبناء الزمان فلم أجد
خليلاً يوفى بالعهود ولا أنا
وقال آخر:

لما رأيت بنى الزمان ومما بهم
فعلمت أن المستحيل ثلاثة

بيت مفرد:

وكل خليل ليس في الله وده
وقال آخر:

إذا ما كنت متخذًا خليلًا
فلما كنت لم يخنك أخ أمين

وقال آخر :

تحت عودي ثم تزعم أنني
وليس أخى من ودى بلسانه
ومن ماله مالى إذا كنت معدما

خل وفى للشهداء أصطفى
الغول والعنقاء والخل الوفى

فلما فى وده غير واثق

فلا تأمن خليلك أن يخوننا
ولكن قلما تلقى أمينا

أودك إن رأى عنك لعازب
ولكن أخى من ودى وهو غائب
ومالى له إن أعوزته النوائب

ولما غضب السلطان على الوزير ابن مقلة^(١) وأمر بقطع يده لما بلغه أنه زور عنه كتابًا إلى أعدائه وعزله، لم يأت إليه أحد ممن كان يصحبه ولا توجع له، ثم إن السلطان ظهر له فى بقية يومه أنه برئ مما نسب إليه فخلع عليه ورد إليه وظائفه، فأنشد يقول هذه الأبيات:

تحالف الناس والزمان
عادانى الدهر نصف يوم
يا أيها المعرضون عنا
ومثله فى المعنى:

أخوك أخوك من يدنو وترجو
إذا حاربت حارب من تعادى
وقال أبو بكر الخالدي :

وأخ رخصت عليه حتى ملنى
ما فى زمانك من يعز وجوده

فحيث كان الزمان كانوا
فانكشف الناس لى وبانوا
عودوا فقد عاد لى الزمان

مودته وإن دعى استجابا
وزاد سلاحه منك اقترابا

والشئ مملول إذا مالا يرخص
إن رمته إلا صديق مخلص

يجب على الإنسان أن لا يصحب إلا من له دين وتقوى، فإن المحبة فى الله تنفع فى الدنيا والآخرة وما أحسن ما قال بعضهم:

وكل محبة فى الله تبقى
وكل محبة فيما سواه

على الحالين من فرج وضيق
فكالخلفاء فى لهب الحريق

(١) ابن مقلة: هو محمد بن على بن الحسين بن مقلة أبو على، وزير من الشعراء الأدباء، يضرب بحسن خطه المثل ولى جباية الخراج فى بعض فارس، ثم استوزره المقتدر قطعت يده اليمنى لأنه كتب بها محرصًا، ثم قطع لسانه وسجن حتى مات سنة (٣٢٨هـ - ٩٤٠م).

فينبغي للإنسان أن يتجنب معاشره الأشرار ويترك مصاحبة الفجار ويهجر من ساءت خلته وقبحت بين الناس سيرته، قال الله تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨]. فأثبت الله المماثلة بيننا وبين البهائم وذلك إنما هو في الأخلاق خاصة، فليس أحد من الخلق إلا وفيه خلق من أخلاق البهائم، ولهذا تجد أخلاق الخلائق مختلفة فإذا رأيت الرجل جاهلاً في خلائقه غليظاً في طبائعه قوياً في بدنه لا تؤمن ضغائنه فألحقه بعالم النمورة، والعرب تقول: أجهل من نمر وإذا رأيت الرجل هجماً على أعراض الناس فقد مائل عالم الكلاب فإن دأب الكلب أن يجفو من لا يجفوه ويؤذى من لا يؤذيه، فعامله بما كنت تعامل به الكلب إذا نبج، ألسنت تذهب وتتركه، وإذا رأيت إنساناً قد جبل على الخلاف إن قلت نعم قال لا، وإن قلت لا قال نعم، فألحقه بعالم الحمير، فإن دأب الحمار إن أدنيت به بعد وإن أبعدته قرب، فلا تنتفع به ولا يمكنك مفارقتة، وإن رأيت إنساناً يهجم على الأموال والأرواح فألحقه بعالم الأسود وخذ حذرك منه كما تأخذ حذرك من الأسد. وإذا بليت بإنسان خبيث كثير الروغان فألحقه بعالم الثعالب، وإذا رأيت من يمشى بين الناس بالنميمة ويفرق بين الأحبة فألحقه بعالم الظربان، وهي دابة صغيرة تقول العرب عند تفرق الجماعة مشى بينهم ظربان فتفرقوا. وإذا رأيت إنساناً لا يسمع الحكمة والعلم وينفر من مجالسة العلماء ويألف أخبار أهل الدنيا، فألحقه بعالم الخنافس، فإنه يعجبها أكل العذرات وملامسة النجاسات وتنفر من ريح المسك والورد وإذا شمت الرائحة الطيبة ماتت لوقتها. وإذا رأيت الرجل يصنع بنفسه كما تصنع المرأة لبعولها، يبيض ثيابه ويعدل عمامته وينظر في عطفه، فألحقه بعالم الطواويس. وإذا بليت بإنسان حقود لا ينسى الهفوات ويجازى بعد المدة الطويلة على السقطات، فألحقه بعالم الجمال، والعرب تقول أحقد من جمل، فتجنب قرب الرجل الحقود وعلى هذا النمط فليحترز العاقل من صحبة الأشرار وأهل الغدر ومن لا وفاء لهم فإنه إذا فعل ذلك سلم من مكائد الخلق وأراح قلبه وبدنه والله أعلم.

وأما الزيارة والاستدعاء إليها: فقد قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى: «وجبت محبتي للمتحابين في المتبازلين في المتزاورين في، اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي». وقال ﷺ: «من عاد مريضاً أو زار أخاً نادى مناد أن طبت وطاب ممشاك وتبوات من الجنة منزلاً». وقيل: «المحبة شجرة أصلها الزيارة».

قال الشاعر:

زُرْ مَنْ تَحِبَّ وَإِنْ شَطَّتْ بِكَ الدَّارُ وَحَالَ مِنْ دُونِهِ حَجَبٌ وَأَسْتَارُ
لَا يَمْنَعُنِكَ بُعْدٌ مِنْ زِيَارَتِهِ إِنْ الْمَحِبَّ لِمَنْ يَهْـوَاهُ زَوَّارُ

ولتكن الزيارة غيباً لقوله ﷺ: «زُرْ غَيْبًا تَزِدُّ حُبًّا».

قال الشاعر في معنى ذلك:

عَلَيْكَ يَا غُـبَّابَ الزِّيَارَةِ إِنَّهَا إِذَا كَثُرَتْ صَارَتْ إِلَى الْهَجْرِ مَسْلَكَا
أَلَمْ تَرَأَنَّ الْغُـيْثَ يَسَامُ دَائِمًا وَيَسْأَلُ بِالْأَيْدِي إِذَا هُوَ أَمْسَكَا

ويقال: الإكثار من الزيارة محل، والإقلال منها مخل، وكتب صديق إلى صديقه هذا البيت:

إِذَا مَا تَقَطَّاعُنَا وَنَحْنُ بِبَلَدَةٍ فَمَا فَضْلُ قَرَبِ الدَّارِ مَنَّا عَلَى الْبَعْدِ

وقال آخر:

وَإِنْ مَرَرْتُ بِالْـدِيَارِ الَّتِي بِهِيَ سُلَيْمَى وَلَمْ أَلَمْ بِهَا لَجَفَاءَ

وقال آخر:

قد أتانا من آل سعدى رسولٌ حبّذا ما يقول لى وأقول

وقال آخر :

أزور بيوتًا لاصقات بيوتها وقلبي فى البيت الذى لا أزوره

وزار محمد بن يزيد المهلبى المستعين ووهب له مائتى ألف درهم، وأقطعه أرضًا فقال:

وخصصتني بزيارة أضحى لنا مجد به طول الزمان مؤثلا
وقضيت دينى وهو دين وافرٌ لم يقضه مع جوده المتوكل

وكتب المأمون إلى جاريته الخيزران يستدعيها للزيارة:

نحن فى أفضل السرور ولكن ليس إلا بكم يتم السرور
عيب ما نحن فيه يا أهل ودى أنكم غببتم ونحن حذور
فأجدوا المسير بل إن قدرتم أن تطيروا مع الرياح فطيروا

وقيل لفيلسوف: أى الرسل أنجح؟ قال: الذى له جمال وعقل. وقيل: إذا أرسلتم رسولاً فى حاجة، فاتخذوه حسن لوجه حسن الاسم. وقال لقمان لابنه: يا بنى لا تبعث رسولاً جاهلاً، فإن لم تجد حكيمًا عارفاً، فكن رسول نفسك، وقال بعضهم:

إذا أبطأ الرسول فقل نجاحٌ ولا تفرح إذا عجل الرسول

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم وفضل الشفاعة وإصلاح ذات البين وفيه فصلان

الفصل الأول: فى الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة: ١٢٨]. ووصف الله نفسه لعباده فقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣)﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقال الله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)﴾ [الفاتحة: ١]. قال المفسرون «الرحمن» اسم رقيق يدل على العطف والرفقة واللطف والكرم والمنة والحلم على الخلق، والرحيم مثله. وقيل: يقال رحمن الدنيا ورحيم الآخرة. وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لا يضع الله الرحمة إلا على رحيم، قلنا يا رسول الله كلنا رحيم». قال: ليس الرحيم الذى يرحم نفسه وأهله خاصة، ولكن الرحيم الذى يرحم المسلمين» رواه أبو يعلى والطبرانى. وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «من لا يرحم لا يرحم، ومن لا يغفر لا يغفر له». وعنه ﷺ قال: «ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر لكم». وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ، «قال الله عز وجل: إن كنتم تريدون رحمى فارحموا خلقى» رواه أبو محمد بن عدى فى كتاب الكامل.

ورويانا من طريق الطبرانى، عن الشعبى، عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتواصلهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»، قال الطبرانى: إني رأيت رسول الله ﷺ فى المنام، فسألته عن هذا الحديث، فقال النبى ﷺ، وأشار بيده: «صحيح صحيح صحيح ثلاثاً». وعن ابن مسعود رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمر عليه يده نور يوم القيامة». ودخل عامل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه، فوجده مستلقياً على ظهره وصبياناه يلعبون على بطنه، فأنكر ذلك عليه، فقال له عمر: كيف أنت مع أهلك؟ قال: إذا دخلت سكت الناطق. فقال له: اعتزل فإنك لا ترفق بأهلك وولئك، فكيف ترفق بأمة محمد ﷺ. وروى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أبدال أمتى لن يدخلوا الجنة بالأعمال ولكن يدخلونها برحمة الله وسخاوة النفس وسلامة الصدور والرحمة لجميع المسلمين».

الفصل الثانى: فى الشفاعة وإصلاح ذات البين

قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِتًا (٨٥)﴾ [النساء: ٨٥]. وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يسأل العبد عن جاهه كما يسأل عن عمره، فيقول له جعلت لك جاهاً، فهل نصرت به مظلوماً أو قمعت به ظالماً أو أغثت به مكروباً؟». وقال ﷺ: «أفضل الصدقة أن تعين بجاهك من لا جاه له». وعن أبى بردة، عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جاءنى طالب حاجة فاشفعوا له لى تؤجروا، ويقضى الله تعالى على لسان نبيه ما شاء». وعن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة صدقة اللسان»، قيل: يا رسول الله، وما صدقة اللسان؟ قال: «الشفاعة تفك بها الأسير وتحقق بها الدماء، وتجرب بها المعروف إلى أخيك، وتدفع عنه بها كريبه». رواه الطبرانى فى المكارم. وقال على رضى الله عنه: الشفيع جناح الطالب. وقال رجل لبعض الولاة: إن الناس يتوسلون إليك بغيرك، فينالون معروفك ويشكرون غيرك، وأنا أتوسل إليك بك ليكون شكرى لك لا لغيرك. وقيل: كان المنصور معجباً بمحادثة محمد بن جعفر بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم، وكان الناس لعظم قدره يفزعون إليه فى الشفاعات، فثقل ذلك على المنصور، فحجبه مدة، ثم لم يصبر عنه، فأمر الربيع أن يكلمه فى ذلك، فكلمه، وقال: اعف يا أمير

المؤمنين لا تثقل عليه في الشفاعات، فقبل ذلك منه، فلما توجه إلى الباب اعترضه قوم من قريش معهم رقاع، فسألوه إيصالها إلى المنصور، فقص عليهم القصة، فأبوا إلا أن يأخذها، فقال: اقذفوها في كمي، ثم دخل عليه وهو في الخضراء مشرف على مدينة السلام وما حولها من البساتين، فقال له: أما ترى إلى حسنها يا أبا عبد الله؟ فقال له: يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيما أتاك وهناك بإتمام نعمته عليك فيما أعطاك، فما بنت العرب في دولة الإسلام ولا العجم في سالف الأيام أحصن ولا أحسن من مدينتك ولكن سمجتها في عيني خصلة، قال: وما هي؟ قال: ليس لي فيها ضيعة، فتبسم، وقال: قد حسنتها في عينك بثلاث ضياع قد أقطعتكها، فقال: أنت والله يا أمير المؤمنين شريف الموارد كريم المصادر، فجعل الله تعالى باقي عمرك أكثر من ماضيه، ثم أقام معه يومه ذلك، فلما نهض ليقوم بدت الرقاع من كفه، فجعل يردهن ويقول: أرجعن خائبات خاسرات، فضحك المنصور وقال: بحقك عليك ألا أخبرتنى وأعلمتنى بخبر هذه الرقاع، فأعلمه، وقال ما أتيت يا ابن معلم الخير إلا كريماً، وتمثل بقول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر:

لسنا وإن أحسبنا كـرمت يوماً على الأحساب نتكل
نبني كـمما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

وتصفح الرقاع وقضى حوائجهم عن آخرها، قال محمد: فخرجت من عنده وقد ربحت وأربحت. وقال المبرد أتاني رجل لأشفع له في حاجة، فأنشدني لنفسه:

إني قـصـدتك لا أدلى بمـعـرفة ولا بقرب ولكن قد فشت نعمك
فـبـت حـيـران مكروباً يؤرقني ذل الغريب ويغشيني الكرى كرمك
ما زلت أنكب حتى زلزلت قدمي فاحتل لتثبيتها لا زلزلت قدمك
فلو هممت بغير العرف ما علقت به يدك ولا انقادات له شيءك

قال: فشفعت له وأثلته من الإحسان ما قدرت عليه، وكتب رجل إلى يحيى بن خالد رقعة فيها هذا البيت:

شـفـيعي إليك الله لا شيء غـيـره وليس إلى رد الشفيع سبيل

فأمره بلزوم الدهليز، فكان يعطيه كل يوم عند الصباح ألف درهم فلما استوفى ثلاثين ألفاً، ذهب الرجل، فقال يحيى والله لو أقام إلى آخر عمره ما قطعها عنه. وقال آخر:

وقد جنتكم بالمصطفى متشفعاً وما خاب من بالمصطفى يتشفع
إلى باب مولانا رفعت ظلامي عسى الهم عني والمصائب ترفع

وقال آخر:

تشفع بالنبي فكل عـبـد يُجـاز إذا تشفع بالنبي
وقال آخر:

ولا تجزع إذا ضاقت أمور فكم لله من لطف خفي

وروى أن جبريل عليه السلام قال: يا محمد لو كانت عبادتنا لله تعالى على وجه الأرض لعملنا ثلاث خصال: سقى الماء للمسلمين، وإعانة أصحاب العيال، وستر الذنوب على المسلمين إذا أذنبوا. اللهم استر ذنوبنا واقض عنا تبعاتنا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الحياء والتواضع ولين الجانب وخفض الجناح وفيه فصلان

الفصل الأول: فى الحياء

قالت عائشة رضى الله عنها: مكارم الأخلاق عشرة: صدق الحديث، وصدق اللسان، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، والمكافأة بالصنيع، وبذل المعروف، وحفظ الذمام للجار، وحفظ الذمام للصاحب وقرى الضيف ورأسهن الحياء. قال رسول الله ﷺ: «الحياء شعبة من الإيمان». وقال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت». وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: من كسا بالحياء ثوبه لم ير الناس عيبه. وعن زيد بن على عن آبائه يرفعونه: «من لم يستح فهو كافر». قال أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه: إني لأدخل البيت المظلم اغتسل فيه من الجنابة فأحنى فيه صلبى حياء من ربى، وقال بعضهم: الوجه المصون بالحياء كالجوهر المكتون فى الوعاء. وقال الخواص: إن العباد عملوا على أربع منازل، على الخوف والرجاء والتعظيم والحياء، فأرفعها منزلة الحياء لما أيقنوا أن الله يراهم على كل حال قالوا: سواء علينا رأيناه أو رأنا، وكان الحاجز لهم عن معاصيه الحياء منه. ويقال: القناعة دليل الأمانة، والأمانة دليل الشكر، والشكر دليل الزيادة، والزيادة دليل بقاء النعمة، والحياء دليل الخير كله.

الفصل الثانى: فى التواضع ولين الجانب وخفض الجناح

قال الله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]. وقال رسول الله ﷺ: أفضل العبادات التواضع. وقال ﷺ: «لا ترفعونى فوق قدرى، فتقولوا فى ما قالت النصارى فى المسيح، فإن الله عز وجل اتخذنى عبداً قبل أن يتخذنى رسولا»، وأتاه رجل فكلمه فأخذته رعدة، فقال ﷺ له: «هون عليك، فإنى لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد»، وكان ﷺ يرفع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم فى مهنة أهله، ولم يكن متكبرا ولا مستجبرا، أشد الناس حياء وأكثرهم تواضعا، وكان إذا حدث بشىء مما أتاه الله تعالى قال: ولا فخر. وقال ﷺ: «إن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً فاعفوا بعزكم الله، وإن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة، فتواضعوا يرفعكم الله، وإن الصدقة لا تزيد المال إلا غناء فتصدقوا بزدكم الله». وقال عدى بن أرطاة لإياس بن معاوية: إنك لسريع المشية، قال ذلك أبعد من الكبر وأسرع فى الحاجة. وخرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير، فقال معاوية لابن عامر: اجلس، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحب أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار». وقيل: التواضع سلم الشرف. ولبس مطرف بن عبد الله الصوف وجلس مع المساكين، ف قيل له فى ذلك، فقال: إن أبى كان جباراً، فأحببت أن أتواضع لربى لعله أن يخفف عن أبى تجبره، وقال مجاهد: إن الله تعالى لما أغرق قوم نوح شمخت الجبال وتواضع الجودى فرفعه فوق الجبال، وجعل قرار السفينة عليه. وقال الله تعالى لموسى عليه السلام: «هل تعرف لم كلمتك من بين الناس؟» قال: لا يا رب. قال: «لأنى رأيتك تتمرغ بين يدى فى التراب تواضعا لى». وقيل: من رفع نفسه فوق قدره استجلب مقت الناس. وقال أبو مسلم صاحب الذخيرة: ما تاه إلا وضيع ولا فاخر إلا لقيط، وكل من تواضع لله رفعه الله. فسبحان من تواضع كل شىء لعز جبروت عظمت.

وصلى الله على سيدنا محمداً وعلى آله وصحبه وسلم.

العجب والكبر والخيلاء وما أشبه ذلك

اعلم أن الكبر والإعجاب يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل، وحسبك من رذيلة تمنع من سماع النصيح وقبول التأديب، والكبر يكسب المقت، ويمنع من التألف. قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر»، وقال رسول الله ﷺ: «من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه». وقال الأحنف بن قيس: ما تكبر أحد إلا من ذلة يجدها في نفسه. ولم تزل الحكماء تتحامي الكبر وتأنف منه. ونظر أفلاطون إلى رجل جاهل معجب بنفسه فقال: وددت أتى مثلك في ظنك وأن أعدائي مثلك في الحقيقة. ورأى رجل رجلاً يخال في مشيه، فقال: جعلني الله مثلك في نفسك ولا جعلني مثلك في نفسي. وقال الأحنف: عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر. ومر بعض أولاد المهلب بمالك بن دينار وهو يتبختر في مشيه، فقال له مالك: يا بني لو تركت هذه الخيلاء لكان أجمل بك، فقال: أوما تعرفني؟ قال: أعرفك معرفة أكيدة أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة، فأرخى الفتى رأسه وكف عما كان عليه. وقالوا لا يدوم الملك مع الكبر وحسبك من رذيلة تسلب الرياسة والسيادة، وأعظم من ذلك أن الله تعالى حرم الجنة على المتكبرين، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]، فقرن الكبر بالفساد. وقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. وقال بعض الحكماء: ما رأيت متكبراً إلا ما تحول ما به بى، يعنى أتكبر عليه.

واعلم أن الكبر يوجب المقت ومن مقتته رجاله لم يستقم حاله، والعرب تجعل جذية الأبرش غاية في الكبر، يقال: إنه كان لا ينادم أحداً لتكبره ويقول: إنما ينادمنى الفرقدان. وكان ابن عوانة من أقبح الناس كبراً. روى أنه قال لغلامه: اسقني ماء، فقال: نعم، فقال: إنما يقول نعم من يقدر أن يقول لا، اصفعوه، فصفع ودعا أكاراً فكلمه، فلما فرغ دعا بماء فتمضمض به استقذاراً لمخاطبته، ويقال: فلان وضع نفسه في درجة لو سقط منها لتكسر.

قال الجاحظ: المشهورون بالكبر من قريش بنو مخزوم، وبنو أمية، ومن العرب: بنو جعفر بن كلاب، وبنو زرارة بن عدى، وأما الأكاسرة فكانوا لا يعدون الناس إلا عبيداً وأنفسهم إلا أرباباً، وقيل لرجل من بنى عبد الدار: ألا تأتى الخليفة، فقال: أخاف أن لا يحمل الجسر شرفى، وقيل للحجاج بن أرطاة: ما لك لا تحضر الجماعة؟ قال: أخشى أن يراحمنى البقالون. وقيل: أتى وائل بن حجر إلى النبي ﷺ فأقطعه أرضاً، وقال لمعاوية: اعرض هذه الأرض عليه واكتبها له، فخرج معه معاوية في هاجرة شديدة، ومشى خلف ناقته فأحرقه حر الشمس، فقال له: اردفنى. خلفك على ناقتك، قال: لست من أرداف الملوك، قال: فأعطينى نعليك. قال: ما بخل بمنعنى يا ابن أبى سفيان، ولكن أكره أن يبلغ أقيال اليمن أنك لبست نعلى. ولكن امش فى ظل ناقتى فحسبك بها شرفاً، وقيل: إنه لحق زمن معاوية ودخل عليه، فأقعده معه على السرير وحده. وقال المسرور بن هند لرجل: أتعرفنى؟ قال: لا، قال: أنا المسرور بن هند، قال فتعساً ونكساً لمن لم يعرف القمر. قال الشاعر:

قول لأحمق يلوى التيه أخذه
لو كنت تعلم ما فى التيه لم ته
التيه مفسدة للدين منقبصة
للعقل مهكلة للعرض فانتبه

وقيل: لا يتكبر إلا كل وضع، ولا يتواضع إلا كل رفيع، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت

فمن شواهد المفاخرة قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨]. نزلت في علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه، وعقبة بن أبي معيط، وكانا تفاخرا، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت: ٤٠]. نزلت في أبي جهل، وعمار بن ياسر، والنسب إلى سيدنا رسول الله ﷺ أشرف الأنساب، وقد قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»، وقد نفى الله تعالى الفخر بالأنساب بقوله تعالى: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. فالفخر في الإسلام بالتقوى. وقال رسول الله ﷺ: «إن نبيكم واحد، وإن أباكم واحد، وإنه لا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا هل بلغت؟».

وقال الأصمعي: بينما أنا أطوف بالبيت ذات ليلة إذ رأيت شاباً متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول:

يا كاشف الضر والبلوى مع السقم
وأنت يا حي يا قيوم لم تنم
فأرحم بكائي بحق البيت والحرم
فمن يجود على العصاة بالكرم

يا من يجيب دعا المضطر في الظلم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا
أدعوك ربي حزيناً هائماً قلقاً
إن كان جودك لا يرجوه ذو سقم
ثم بكى بكاءً شديداً وأنشد يقول:

شكوت إليك الضر فأرحم شكايتي
فهب لي ذنوبي كلها واقض حاجتي
وما في الوري عيب جنى كجنايتي
فأين رجائي ثم أين مخافتي

ألا أيها المقصود في كل حاجتي
ألا يا رجائي أنت تكشف كربتي
أتيت بأعمال قبائح رديئة
أتحرقني بالنار يا غاية المنى

ثم سقط على الأرض مغشياً عليه، فدنوت منه، فإذا هو زين العابدين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، فرفعت رأسه في حجرى وبكيت، فقطرت دمعة من دموعى على خده ففتح عينيه وقال: من هذا الذى يهجم علينا؟ قلت: عبيدك الأصمعي، سيدي ما هذا البكاء والجزع، وأنت من أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة؟ أليس الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]. فقال: هيهات هيهات يا أصمعي إن الله خلق الجنة لمن أطاعه، ولو كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان حراً قرشياً، أليس الله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [١٠١] ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [١٠٢] وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [١٠٣] [المؤمنون: ١٠١ - ١٠٣]. والفخر وإن نهت عنه الأخبار النبوية ومجته العقول الذكية إلا أن العرب كانت تفتخر بما فيها من البيان طبعاً لا تكلفاً، وجبلة لا تعلماً، ولم يكن لهم من ينطق بفضلهم إلا هم ولا ينبه على مناقبهم سواهم، وكان كعب بن زهير^(١) إذا أنشد شعراً قال لنفسه: أحسنت وجاوزت والله الإحسان، فيقال له: أتخلف على شعرك؟ فيقول: نعم لأنى أبصر به منكم. وكان الكميت إذا قال قصيدة صنع لها خطبة في الثناء عليها، ويقول عند إنشادها: أى علم بين جنبي وأى لسان بين فكى. وقال الجاحظ، ولو لم يصف الطيب مصالح دوائه للمعالجين ما وجد له طالب، ولما أبدع ابن المقفع فى رسالته التى سماها باليتيمة تنزيهاً لها عن المثل، سكنت من النفوس موضع إرادته من تعظيمها، ولو لم ينحلها هذا الاسم لكانت كسائر رسائله.

(١) كعب بن زهير: هو كعب بن زهير بن أبى سلمى المازنى، أبو المضرّب، شاعر عالى الطبقة، من أهل نجد له (ديوان شعر) كان ممن اشتهر فى الجاهلية، ولما ظهر الإسلام هجا النبى ﷺ وأقام يشب ببناء المسلمين فهدر النبى ﷺ دمه، فجاءه كعب مستأثماً وقد أسلم فعفا عنه، توفى سنة (٢٦ هـ - ٦٤٥ م).

وسنذكر في هذا الباب إن شاء الله تعالى شيئاً من نظم البلغاء ونثرهم في الافتخار ومن تفاخر منهم بعون الله وفضله رتيسيره .

قال أبو بكر الهذلي: سائرت المنصور فعرض لنا رجل على ناقة حمراء تطوى الفلاة وعليه جبة حمراء وعمامة عدنية، وفي يده سوط يكاد يمس الأرض، فلما رآه المنصور أمرني بإحضاره، فدعوته، وسألته عن نسبة وبلاده وعن قومه وعشيرته وعن ولادة الصدقة، فأحسن الجواب، فأعجبه ما رأى منه، فقال أنشدني شعراً فأنشده شعر لأوس بن حجر وغيره من الشعراء من بني عمرو بن تميم، وحدثه حتى أتى على بيت شعر لطريف بن تميم وهو قوله:

إن الأمور إذا أوردتها صـدـرت إن الأمور لها ورد وإصـدار

فقال: ويحك ما كان طريف فيكم حيث قال هذا البيت؟ قال: كان أثقل العرب على عدوه وطأة وأقراهم لضيغه، وأحوطهم من وراء جاره، اجتمعت العرب بعكاظ، فكلهم أقروا له بهذه الخلال، فقال له: والله يا أخا بني تميم لقد أحسنت إذ وصفت صاحبك، ولكنني أحق ببيته منه ومن شعر أبي الطحان:

وإني من القوم الذين هم هم إذا مات منهم سيد قام صاحبه
نجوم سماء كلما غاب كوكب بدا كوكب تأوى إليه كواكبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
وما زال فيهم حيث كان مسوداً تسير المنايا حيث سارت ركائبه

ولما قدم معاوية المدينة صعد المنبر فخطب وقال: من ابن علي رضي الله تعالى عنه؟ فقام الحسن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله عز وجل لم يبعث بعثاً إلا جعل له عدواً من المجرمين، فأنا ابن علي وأنت ابن صخر وأمك هند وأمى فاطمة وجدتك قبلة وجدتي خديجة، فلعن الله الأئمة حسباً وأحملنا ذكراً وأعظمنا كفراً وأشدنا نفاقاً، فصاح أهل المسجد آمين آمين، فقطع معاوية خطبته ودخل منزله. وروى أن معاوية خرج حاجاً فمر بالمدينة ففرق على أهلها أموالاً ولم يحضر الحسن بن علي رضي الله عنهما، فلما خرج من المدينة اعترضه الحسن بن علي فقال له معاوية مرحباً برجل تركنا حتى نفد ما عندنا وتعرض لنا لبيخلنا، فقال له الحسن: ولم ينقد ما عندك وخراج الدنيا يجيء إليك، فقال معاوية، إني قد أمرت لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة وأنا ابن هند، فقال الحسن قد رددته عليك وأنا ابن فاطمة. ودخل الحسين يوماً على يزيد بن معاوية فجعل يزيد يفتخر ويقول: نحن ونحن ولنا من الفخر والشرف كذا وكذا والحسين ساكت فأذن المؤذن فلما قال: أشهد أن محمداً رسول الله قال الحسين: يا يزيد جد من هذا؟ فخجل يزيد ولم يرد جواباً. وفي ذلك يقول علي بن محمد بن جعفر:

لقد فاخرتنا من قريش عصابة بمط خلدود وامتداد أصابع
فلما تنازعنا الفخار قضى لنا عليهم بما نهوى ثناء الصوامع
ترانا سكوئاً والشهيد بفضلنا عليهم جهير الصوت من كل جامع

وله أيضاً:

إني وقومى من أنساب قومهم كمسجد الخيف من بحبوحة الخيف
ما علق السيف منا بابن عاشرة إلا وهمته أمضى من السيف

وتفاخر العباس بن عبد المطلب وطلحة بن شيبة وعلى بن أبي طالب، فقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، وقال طلحة: أنا خادم البيت ومعى مفتاحه فقال على: ما أدري ما تقولان أنا صليت إلى هذه القبلة قبلكما بستة أشهر، فنزلت: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩].

وتفاخر رجلان على عهد موسى عليه السلام فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة آباء مشركين، فقال الآخر: أنا ابن فلان ولولا أنه مسلم ما ذكرته، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: أما الذى عد تسعة آباء مشركين فحق على الله أن يجعل عاشرهم فى النار، والذى انتسب إلى أب مسلم فحق على الله أن يجعله مع أبيه المسلم فى الجنة. قال سلمان الفارسي:

أبى الإسلام لا أب لى ســــــــــــــــواه إذا افــــــــــــــــتخروا بـقــــــــــــــــيسٍ أو تميم

وتفاخر جرير والفرزدق عند سليمان بن عبد الملك، فقال الفرزدق: أنا ابن محبى الموتى، فأنكر سليمان قوله، فقال يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، وجدى فدى الموءودات فاستحياهن، فقال سليمان: إنك مع شعرك لفقير. وكان صعصة جد الفرزدق أول من فدى الموءودات. وللعباس بن عبد المطلب:

إن القــــــــــــــــبائل من قــــــــــــــــريش كلها لــــــــــــــــيــــــــــــــــرون أنا هام أهل الأبطح
وترى لنا فــــــــــــــــضلاً على ساداتها فــــــــــــــــضل المنار على الطريق الأوضح

وكتب الحكم بن عبد الرحمن المرواني من الأندلس إلى صاحب مصر يفتخر:

ألسنا بنى مــــــــــــــــروان كيف تبدلت بنا الحــــــــــــــــال أو دارت علينا الدوائر
إذا ولد المولود منا تهللت له الأرض واهتضت إليه المنابر

وكتب كتاباً يهجو فيه ويسبه، فكتب إليه صاحب مصر: أما بعد، فإنك عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبتك والسلام. وكان أبو العباس السفاح يعجبه السمر ومنازعة الرجال بعضهم بعضاً، فحضر عنده ذات ليلة إبراهيم بن مخزومة الكندي، وخالد بن صفوان بن الأهمم فخاضوا فى الحديث وتذاكروا مصر واليمن، فقال إبراهيم بن مخزومة: يا أمير المؤمنين إن أهل اليمن هم العرب الذين دانت لهم الدنيا ولم يزالوا ملوكاً ورثوا الملك كابراً عن كابر وأخراً عن أول منهم النعمان والمنذر ومنهم عياض صاحب البحرين ومنهم من كان يأخذ كل سفينة غصباً وليس من شيء له خطر إلا إليهم ينسب، إن سئلوا أعطوا وإن نزل بهم ضيف قروه، فهم العرب العاربة وغيرهم المتعربة. فقال أبو العباس: ما أظن التميمي رضى بقولك، ثم قال: ما تقول أنت يا خالد؟ قال: إن أذن لى أمير المؤمنين فى الكلام تكلمت، قال: تكلم ولا تهب أحداً، قال: أخطأ المقتحم بغير علم، ونطق بغير صواب، وكيف يكون ذلك لقوم ليس لهم السن فصيحة، ولا لغة صحيحة نزل بها كتاب ولا جاءت بها سنة يفتخرون علينا بالنعمان والمنذر ونفتخر عليهم بخير الأنام وأكرم الكرام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فله المنة به علينا وعليهم، فمننا النبی المصطفى والخليفة المرتضى ولنا البيت المعمور، وزمزم، والخطيم، والمقام، والحجابه، والبطحاء، وما لا يحصى من المآثر، ومننا الصديق والفاروق وذو النورين، والرضا والولى وأسد الله وسيد الشهداء، وبنا عرفوا الدين، وأناهم اليقين، فمن راحمنا راحمناه ومن عادانا اصطلمناه، ثم أقبل خالد على إبراهيم فقال: ألك علم بلغة قومك؟ قال: نعم. قال: فما اسم العين عندكم؟ قال: الجمجمة، قال: فما اسم السن؟ قال: الميدن، قال: فما اسم الأذن؟ قال: الصنارة، قال: فما اسم الأصابع؟ قال: الشناتير، قال: فما اسم الذئب؟ قال: الكنع، قال: أفعالم أنت بكتاب الله عز وجل؟ قال: نعم. قال: فإن الله

تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، وقال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]، فتحن العرب والقرآن بلساننا أنزل، ألم تر أن الله تعالى قال: ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ [المائدة: ٤٥] ولم يقل، والجمجمة بالجمجمة، وقال تعالى: ﴿وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾ [المائدة: ٤٥] ولم يقل والمیدن بالمیدن. وقال تعالى: ﴿وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ﴾ [المائدة: ٤٥] ولم يقل والصنارة بالصنارة، وقال تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ [البقرة: ١٩] ولم يقل شناتيرهم في صناراتهم، وقال تعالى: ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧]، ولم يقل فأكله الكنع، ثم قال لإبراهيم: إني أسألك عن أربع إن أقررت بهن قهرت وإن جحدتهن كفرت، قال: وما هن؟ قال: الرسول منا أو منكم؟ قال: منكم. قال: فالقرآن أنزل علينا أو عليكم؟ قال: عليكم. قال: فالمنبرفينا أو فيكم؟ قال: فيكم. قال: فالييت لنا أو لكم. قال: لكم قال: فاذهب فما كان بعد هؤلاء فهو لكم بل ما أنتم إلا سائس قرد، أو دابغ جلد أو ناسخ برد، قال: فضحك أبو العباس، وأقر لخالد وجباهما جميعاً.

وقال بشار بن برد يفتخر:

هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
ذرا منبر صلي علينا وسلمما

إذا نحن صلنا صولة مضرية
إذا ما أعرنا سيلاً من قبيلة

وقال السموأل بن عادياء:

فكل رداء يرتديه جـمـمـيـل
فليس إلى حسن الثناء سبـيـل
فقللت لها إن الكرام قليل
شباب تسامى للعلا وكهول
عزیز وجار الاكثـرـين ذليل
منيع يرد الطرف وهو كليل
إلى النجم فـسـرع لا يزال طویل
إذا ما رآته عامـر وسلول
وتكرمه آجـالهم فـسـتـطول
ولا ظل منا حيث كان قـنـيـل
وليست على غير الطبـات تسيل
كهـام ولا فينا يعد بخيل
ولا ينكرون القـسـول حين نقـسـول
قـسـول بما قال الكرام فـعـسـول
ولا ذمنا في النـازـلـين نـزـيـل
لها غرر مشهورة وحجـول
بها من قـسـراع الدارعين فلول
فتغمد حتى يستباح قـتـيـل
فليس سـواء عـالـم وجـهـول

إذا المرء لم يندس من اللؤم عـرـضـه
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها
تعبـرنا أنا قليل عـدـيدنا
وما قل من كانت بقاياها مثـلنا
وما ضرنا أنا قليل وجارنا
لنا جبل يحـتـله من نجـيـره
سرى أصله تحت الثرى وسـمـما به
وإنما أناس لا نرى القـتـل سـبـبة
يقـرب حب الموت آجـالنا لنا
وما مات منا سيد حتف أنفه
تسيل على حد الطبـات نفوسنا
ونحن كماء المزن ما في نصـابنا
وننكر إن شئتنا على الناس قـسـولهم
إذا سيد منا خلا قام سـيـد
وما خمـدت نار لنا دون طـارق
وأيامنا مشهورة في عـدونا
وأسـيـافنا في كل شـرق ومـغـرب
مـمـودة أن لا تل نصـالها
سلى إن جهلت الناس عنا وعنهم

فلما بنا بني الريان قطب لقومهم تدور رحاهم حولهم وتجول

ولما قدم وفد تميم على رسول الله ﷺ ومعهم خطيبهم وشاعرهم، خطب خطيبهم، فافتخر، فلما سكت أمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس أن يخطب بمعنى ما خطب به خطيبهم، فخطب ثابت بن قيس فأحسن، ثم قام شاعرهم وهم الزبرقان بن بدر فقال:

نحن الملوك فلا حي يفاخرنا فينا العلاء وفينا تنصب البيع
ونحن نطعمهم في القحط ما أكلوا من العبيط إذا لم يؤنس الفزع
ونححر الكوم عبطاً في أرومتنا للنازلين إذا ما أنزلوا شجعوا
تلك المكارم حزناتها مقارعة إذا الكرام على أمثالها اقترعوا

ثم جلس، فقال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت قم، فقام فقال:

إن الذوائب من فـهـر وإخوتهم قد بينوا سنّاً للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعا
سجية تلك منهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع
لو كان في الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سببقهم تبع
لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا
ولا يضمنون عن جار بفضلهم ولا يعسهم في مطمع طمع
خذ منهم ما أتوا عفواً إذا عطفوا ولا يكن همك الأمر الذي منعوا
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تفرقت الأهواء والشيع

فقال التميميون عند ذلك: وربكم إن خطيب القوم أخطب من خطيبنا وإن شاعرهم أشعر من شاعرنا، وما انتصفنا ولا قاربنا، وقال شاعر من بني تميم:

أبـغـى آل شـداد علينا وما يرعى لشدادٍ فصـيل
فإن تغمد مناصلنا نجدها غلاظاً في أنامل من يصول

وقال سالم بن أبي ابصه:

عليك بالقصد فيما أنت فاعله إن التـخـلق يأتى دونه الخلق
وموقف مثل حد السيف قمت به أحمى الذمار وترميني به الحدق
فما زلقت ولا أبديت فاحشة إذا الرجال على أمثالها زلقوا

وأما التفاضل والتفاوت

فقد روى أن رسول الله ﷺ كان إذا نظر لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل قال: «يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى»، لأنهما كانا من خيار الصحابة وأبواهما أعدى عدو لله ولرسوله ﷺ، ومن كلام على رضى الله عنه لمعاوية رضى الله عنه: أما قولك إنا بنو عبد مناف فكذلك نحن، ولكن ليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبى طالب. وقال أحمد بن سهل الرجال ثلاثة: سابق ولا حق وماحق، فالسابق الذى سبق بفضلته، واللاحق الذى لحق بأبيه فى شرفه، والمالحق الذى محق شرف آبائه. وقيل: إن عائشة بنت عثمان كفلت أبا الزناد صاحب الحديث، وأشعب الطماع ورثتهما، قال أشعب: فكنت أسفل وكان يعلو حتى بلغت أنا وهو هاتين الغيتين، وقال أبو العواذل زكريا بن هارون:

على وعبد الله بينهما أب
ألم تر عبد الله يلحى على الندى
وشتان ما بين الطبايع والفعل
عليًا ويلحاه على على البخل

وحج أبو الأسود الدؤلى بامرأته وكانت شابة جميلة فعرض لها عمر بن أبى ربيعة، فغازلها، فأخبرت أبا الأسود، فأتاه فقال:

وانى لينهانى عن الجـهل والخنا
حياء وإسلام وتقوى وأنى
فشـتان ما بينى وبينك إننى
وعن شتم أقوام خلأق أربع
كريم ومثلى من يضر وينفع
على كل حال أستقيم وتضلع

وقال ربيعة الرقى:

لشتان ما بين اليزيديين فى السدى
يزيد سليم سـالم المال والفـتى
فهم الفـتى الأزدي إتلاف ماله
فلا يحسب القيسى أنى هجـوته
يزيد سليم والأعـز بن حـاتم
فتى الأزدي للأموال غير مسـالم
وهم الفـتى القيسى جمع الدراهم
ولكننى فـضلت أهل المكارم

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر فى أخيه الحسين:

يقول أنا الكبير فعظمونى
إذا كان الصغير أعم نفعا
ولم يأت الكبير بيوم خير
ألا ثكلتك أمك من كـبـير
وأجلد عند نائبة الأمـور
فما فضل الكبير على الصغـير

والله أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في الشرف والسؤدد وعلو الهمة

قال رسول الله ﷺ: «من رزقه الله مالاً فبذل معروفه وكف أذاه فذلك السيد». وقيل لقيس بن عاصم: بيم سدت قومك؟ قال: لم أخاصم أحداً إلا تركت للصلح موضعاً. وقال سعيد بن العاص: ما شأنت رجلأ مذ كنت رجلاً لأنى لم أشاتم إلا أحد رجلين إما كريم، فأنا أحق أن أجله، وإما لثيم فأنا أولى أن أرفع نفسى عنه. وقالوا: من نعت السيد أن يكون يملأ العين جمالاً، والسمع مقالاً. وقيل: قدم وفد من العرب على معاوية وفيهم الأحنف بن قيس، فقال الحاجب: إن أمير المؤمنين يعزم عليكم أن لا يتكلم منكم أحد إلا لنفسه، فلما وصلوا إليه قال الأحنف: لولا عزم أمير المؤمنين لأخبرته أن رادفة ردت ونازلة نزلت، ونائبة نابت، والكل بهم حاجة إلى المعروف من أمير المؤمنين، فقال له معاوية: حسبك يا أبا بحر، فقد كفت الشاهد والغائب.

وقال رجل للأحنف: بم سدت قومك، وما أنت بأشرفهم بيتاً، ولا أصبحهم وجهاً، ولا أحسنهم خلقاً؟ فقال: بخلاف ما فيك، قال: وما ذاك؟ قال: تركى من أمرك ما لا يعنينى، كما عناك من أمرى ما لا يعنيك، وقيل: السيد من يكون للأولياء كالغيث الغادى، وعلى الأعداء كالليث العادى. وكان سبب ارتفاع عرابة الأوسى وسؤده أنه قدم من سفر، فجمعه والشماع بن ضرار المزنى الطريق، فتحدثا، فقال له عرابة: ما الذى أقدمك المدينة يا شماع؟ قال: قدمتها لامتار منها، فملا له عرابة رواحله برأً وقرأً وأحفه بتحف غير ذلك، فأنشد يقول:

وَأَيُّتْ عَرَابَةَ الْأَوْسَى يَسْمُو
إِذَا مَا رَايَةَ رَفَعَتْ بِمَجْدِ

وأما علو الهمة فهو أصل الرياسة

فممن علت همته وشرفت نفسه عمارة بن حمزة، قيل: إنه دخل يوماً على المنصور، وقعد في مجلسه، فقام رجل، وقال: مظلوم يا أمير المؤمنين، قال: من ظلمك؟ قال: عمارة بن حمزة غصبني ضيعتي، فقال المنصور: يا عمارة قم، فاقعد مع خصمك، فقال: ما هو لي بخصم إن كانت الضيعة له، فلست أنازعها فيها، وإن كانت لي فقد وهبتها له، ولا أقوم من مقام شرفني به أمير المؤمنين ورفعني، وأقعد في أدنى منه لأجل ضيعة. وتحدث السفاح هو وأم سلمة يوماً في نزاهة نفس عمارة وكبره، فقالت له: ادع به وأنا أهب له سبحتي هذه، فإن ثمنها خمسون ألف دينار، فإن هو قبلها علمنا أنه غير نزه النفس، فوجه إليه فحضر، فحادثته ساعة، ثم رمت إليه بالسبحة، وقالت: هي من الطرف وهي لك، فجعلها عمارة بين يديه، ثم قام وتركها، فقالت: لعله نسيها، فبعث بها إليه مع خادم فقال للخادم: هي لك، فرجع الخادم فقال: قد وهبها لي، فأعطت أم سلمة للخادم ألف دينار واستعادتها منه. وأهدى عبيد الله بن السري^(١) إلى عبد الله بن طاهر^(٢) لما ولي مصر مائة وصيف مع كل وصيف ألف دينار، ووجه إليه بذلك ليلاً فردده وكتب إليه لو قبلت هديتك ليلاً لقبلتها نهاراً وما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون.

(١) عبيد الله بن السري: هو عبيد الله بن السري بن الحكم، أمير مصر، وابن أميرها، بايع له الحيد وأقره المأمون العباسي، وأقبل عبد الله بن طاهر ماراً بالشام حتى بلغ مصر موفداً من قبل المأمون فدفعه عبيد الله مدة، وجاءه أمان المأمون على الصلح بينه وبين ابن طاهر، فلما التقيا خلع عليه ابن طاهر وأمره أن يخرج للمأمون، فخرج وأقام بالعراق إلى أن توفي سنة (٢٥١ هـ - ٨٦٥ م).

(٢) عبد الله بن طاهر: هو عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب ابن ذريق الخنزاعي، بالولاء، أبو العباس، أمير خراسان، ومن أشهر الولاة في العصر العباسي، أصله من بادغيس بخراسان، ولي إمارة الشام مدة، ونقل إلى مصر ثم إلى الدينور، ثم إلى خراسان، ثم كانت له طبرستان وكرمان والري والسواد، وكان أكثر الناس بطلاً للمال، مع علم وتجربة قال ابن خلكان: كان عبد الله سيداً نبيلاً عالى الهمة شهماً، توفى في مروسنة (٢٣٠هـ - ٨٤٤م).

وكان سبب فتح المعتصم عمورية أن امرأة من الثغر سبيت، فنادت وامحمداه وامعتصماه، فبلغه الخبر، فركب لوقته وتبعه الجيش فلما فتحها قال: لبيك أيتها المنادية. وكان سعيد بن عمرو بن العاص ذا نخوة وهمة، قيل له في مرضه: إن المريض يستريح إلى الأيمن وإلى الشرج ما به إلى الطبيب، فقال: أما الأيمن، فهو جزع وعار، والله لا يسمع الله مني أنيئاً، فأكون عنده جزوعاً، وأما وصف ما بي إلى الطبيب، فوالله لا يحكم غير الله في نفسي إن شاء أمسكها، وإن شاء قبضها.

ومن كبر النفس ما روى عن قيس بن زهير أنه أصابته الفاقة واحتاج فكان يأكل الخنظل حتى قتله، ولم يخبر أحداً بحاجته. ومن الشرف والرياسة حفظ الجوار، وحمى الذمار. وكانت العرب ترى ذلك ديناً تدعو إليه وحققاً واجباً تحافظ عليه، وكان أبو سفيان بن حرب إذا نزل به جار قال: يا هذا إنك اخترتني جاراً واخترت داري داراً، فجنابة يدك على دونك وإن جنت عليك يد، فاحتكم حكم الصبي على أهله. وكان الفرزدق يجير من عاذ بقبر أبيه غالب بن صعصعة، فممن استجار بقبر أبيه فأجاره امرأة من بني جعفر بن كلاب خافت لما هجا الفرزدق بني جعفر أن يسميها وينسبها، فعازت بقبر أبيه، فلم يذكر لها اسماً ولا نسباً ولكن قال:

عجوز تصلى الخمس عاذت بغالب فلا والذي عاذت به لا أضيرها

وقال مروان بن أبي حفصة:

هم يمنعون الجار حتى كأنما لجارهم بين السماكين منزل

وقال ابن نباتة:

ولو يكون سواد الشعير في ذمم ما كان للشيب سلطان على القمم

وقيل: إن الحجاج أخذ يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وعذبه واستأصل موجوده وسجنه، فتوصل يزيد بحسن تعلقه وأرغب السجن واستماله، وهرب هو والسجان، وقصد الشام إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان، وكان الخليفة في ذلك الوقت الوليد بن عبد الملك، فلما وصل يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك أكرمه وأحسن إليه، وأقامه عنده، فكتب الحجاج إلى الوليد يعلمه أن يزيد هرب من السجن وأنه عند سليمان بن عبد الملك أخى أمير المؤمنين، وولى عهد المسلمين وأن أمير المؤمنين أعلى رأياً، فكتب الوليد إلى أخيه سليمان بذلك، فكتب سليمان إلى أخيه يقول يا أمير المؤمنين إننى ما أجرت يزيد بن المهلب إلا لأنه هو وأبوه وإخوته من صنائعنا قديماً وحديثاً، ولم أجر عدواً لأمر المؤمنين، وقد كان الحجاج قصده وعذبه وأغرمه أربعة آلاف ألف درهم ظلماً، ثم طالبه بعدها بثلاثة آلاف ألف درهم، وقد صار إلى واستجار بى، فأجرتة وأنا أغرم عنه هذه الثلاثة آلاف ألف درهم، فإن رأى أمير المؤمنين، أن لا يخزنى في ضيقى فليفعل، فإنه أهل الفضل والكرم، فكتب إليه الوليد: إنه لا بد أن ترسل إلى يزيد مغلولاً مقيداً، فلما ورد ذلك على سليمان أحضر ولده أيوب فقيده ودعا يزيد بن المهلب فقيده، ثم شد قيد هذا إلى قيد هذا بسلسلة وغلها جميعاً بغلين وأرسلهما إلى أخيه الوليد، وكتب إليه: أما بعد، يا أمير المؤمنين فقد وجهت إليك يزيد وابن أخيك أيوب ابن سليمان، ولقد هممت أن أكون ثالثهما، فإن هممت يا أمير المؤمنين بقتل يزيد، فبالله عليك أبداً بأيوب من قبله، ثم اجعل يزيد ثانياً واجعلنى إذا شئت ثالثاً والسلام.

فلما دخل يزيد بن المهلب وأيوب بن سليمان في سلسلة واحدة أطرق الوليد استحياء وقال: لقد أسأنا إلى أبى أيوب إذ بلغنا به هذا المبلغ، فأخذ يزيد ليتكلم ويحتج لنفسه فقال له الوليد ما يحتاج إلى كلام فقد قبلنا عذرك وعلمنا ظلم الحجاج. ثم إنه أحضر حداذاً وأزال عنهما الحديد وأحسن إليهما ووصل أيوب ابن أخيه بثلاثين ألف درهم ووصل يزيد

ابن المهلب بعشرين ألف درهم، وردهما إلى سليمان، وكتب كتاباً إلى الحجاج يقول له: لا سبيل لك على يزيد بن المهلب، فإياك أن تعاودنى فيه بعد اليوم. فسار يزيد إلى سليمان بن عبد الملك وأقام عنده فى أعلى المراتب وأرفع المنازل.

وحكى أن رجلاً من الشيعة كان يسعى فى فساد الدولة فجعل المهدي لمن دل عليه أو أتى به مائة ألف درهم، فأخذه رجل من بغداد فأيس من نفسه فمر به معن بن زائدة فقال له: يا أبا الوليد أجرنى أجارك الله، فقال معن للرجل ما لك وما له فقال: إن أمير المؤمنين طالبه قال: خل سبيله، قال: لا أفعل، فأمر معن غلمانته فأخذوه غصباً وأردفه بعضهم خلفه ومضى الرجل فأخبر أمير المؤمنين المهدي بالقصة، فأرسل خلف معن فأحضره فلما دخل عليه قال له: يا معن أتجبر على، قال: نعم يا أمير المؤمنين قتلت فى يوم واحد فى طاعتكم خمسة آلاف رجل هذا مع أيام كثيرة تقدمت فيه طاعتى أفماترونى أهلاً أن تحيروا إلى رجلاً واحداً استجار بى، فاستحيا المهدي وأطرق طويلاً ثم رفع رأسه وقال: قد أجرنا من أجرت يا أبا الوليد، قال: إن رأى أمير المؤمنين أن يصل من استجار بى فيكون قد أجاره وحباه، قال: قد أمرت له بخمسين ألف درهم فقال معن: يا أمير المؤمنين ينبغي أن تكون صلوات الخلفاء على قدر جنيات الرعية وأن ذنب الرجل عظيم فإن رأى أمير المؤمنين أن يجزل صلته فليفعل، قال: قد أمرت له بمائة ألف درهم، فرجع معن إلى منزله ودعا بالرجل ودفع له المال ووعظه وقال له: لا تتعرض لمساخط الخلفاء، وكان جعفر بن أبى طالب يقول لأبيه: يا أبت إنى لأستحى أن أطعم طعاماً وجيرانى لا يقدرّون على مثله، فكان أبوه يقول: إنى لأرجو أن يكون فيك خلف من عبد المطلب. وسقط الجراد قريباً من بيت بعض العرب فجاء أهل الحى فقالوا: نريد جارك. فقال: أما إذ جعلتموه جارى فوالله لا تصلّون إليه، وأجاره حتى طار فسمى مجير الجراد، وقيل: هو أبو حنبل والحكايات فى معنى ذلك كثيرة والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الخير والصلاآ وذكى السادة الصحابة

وذكر الأولياء الصالحين رضى الله تعالى عنهم أجمعين

اعلم أن أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على رضى الله عنهم أجمعين، وفضائلهم أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر وإنى والله أحبهم وأحب من يحبهم، وأسأل الله أن يمتنى على محبة النبى محمد ﷺ ومحبتهم وأن يحشرنا فى زميرتهم وتحت الويتهم إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير. شعر:

إنى أحب أبا حفص وشيعته كما أحب عتيقًا صاحب الغار
وقد رضىت عليًا قدوة علمًا وما رضىت بقتل الشيخ فى الدار
كل الصحابة ساداتى ومعتقدى فهل على بهذا القول من عار

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائمًا؟» فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «فمن أطعم اليوم منكم مسكينًا؟» فقال أبو بكر: أنا، فقال رسول الله ﷺ: «فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟» فقال أبو بكر: أنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعن فى أحد إلا دخل الجنة». وقال رسول الله ﷺ: «لو كان بعدى نبى لكان عمر»، وقال له النبى ﷺ: «والذى بعثنى بالحق بشيرًا ما سلكت واديًا إلا سلك الشيطان واديًا غيره»، ولما أسلم رضى الله عنه قال: يا رسول الله ألسنا على الحق؟ قال: «بلى»، قال: والذى بعثك بالحق نبيًا لا نعبد الله سرًا بعد هذا اليوم. ولما قدم عمر رضى الله عنه الشام وقف على طور سيناء فأرسل البطريق عظيمًا لهم وقال: انظر إلى ملك العرب فرآه على فرس وعليه جبة صوف مرقعة مستقبل الشمس بوجهه ومخلاته فى قربوس السرج وعمر يدخل يده فيها ويخرج فلق خبز يابس يمسحها من التبن ويلوكها، فوصفه للبطريق فقال: لا نرى بمحاربة هذا طاقة اعطوه ما شاء. وأما أمير المؤمنين عثمان رضى الله تعالى عنه ففضائله كثيرة ومناقبه شهيرة فهو جامع القرآن، ومن استحيت منه ملائكة الرحمن رضى الله عنه. وقال جميع بن عمير: دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت لها: أخبرينى من كان أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، قالت: فاطمة، قلت: إنما أسألك عن الرجال، قالت: زوجها، فوالله لقد كان صوامًا قوامًا. ولقد سألت نفس رسول الله ﷺ فى يده فردها إلى فيه، قلت: فما حملك على ما كان فأرسلت خمارها على وجهها وبكت وقالت: أمر قصى على، وقال معاوية لضرار بن حمزة الكنانى: صف لى عليًا فاستعفى فألح عليه فقال: أما إذن فلا بد أنه والله كان بعيد المدى، شديد القوى، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلب كفه ويعاتب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن، وكان والله يجيبنا إذا سألناه، ويأتينا إذا دعوناه، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هية له، يعظم أهل الدين ويحب المساكين لا يطمع القوى فى باطله، ولا يئأس الضعيف من عدله، فأشهد الله لقد رأيت فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه وقد مثل فى محرابه قابضًا على لحيته يتململ تلمل الخائف ويبكى بكاء الحزين، فكأنى الآن أسمعه يقول: يا دنيا إلى تعرضت أم إلى تشوقت هيهات هيهات غرى غيرى لقد أبنتك ثلاثًا لا رجعة لى فىك فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير، أه من قلة الزاد ووحشة الطريق، قال: فوكفت دموع معاوية حتى ما يملكها على لحيته وهو يمسحها وقد اختنق القوم بالبكاء، وقال رحم الله أبا الحسن: كان والله كذلك فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال: حزننى عليه والله حزن من ذبح ولدها فى حجرها فلا ترقأ عبرتها ولا تسكن حيرتها ثم قام فخرج. وقيل: أول من سل سيفًا فى سبيل الله تعالى الزبير بن العوام رضى الله عنه وذلك أنه صاح على أهل مكة ليلاً صائح، فقال: قتل محمد، فخرج مستجرًا وسيفه معه صلتًا فتلقاء رسول الله ﷺ فقال: «ما لك يا زبير؟» قال: سمعت أنك قتلت، قال: «فماذا أردت أن تصنع؟» قال: أردت والله أن أستعرض على

أهل مكة. وروى أخبط بسيفي من قدرت عليه فضمه رسول الله ﷺ وأعطاه إزاراً له فاستتر به وقال له: «أنت حوارى ودعا له».

قال الأوزاعي: كان للزبير ألف مملوك يؤدون الضريبة لا يدخل بيت ماله منها درهم بل كان يتصدق بها، وباع داراً له بستمائة ألف درهم فقيل له: يا أبا عبد الله غبت، قال: كلا والله لم أغبن أشهدكم أنها في سبيل الله تعالى، وهبط جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ يوم أحد فقال: مَنْ حملك على ظهره؟ وكان حمله على ظهره طلحة حتى استقل على الصخرة، قال: «طلحة»، قال: أقرئه السلام واعلمه أني لا أراه يوم القيامة في هول من أهوالها إلا استنقذته منه. من هذا الذي عن يمينك؟ قال: «المقداد بن الأسود»^(١)، قال: إن الله يحبه ويأمرك أن تحبه. من هذا الذي بين يديك يتقى عنك؟ قال: «عمار بن ياسر»، قال: بشره بالجنة حرمت النار على عمار. ومر أبو ذر على النبي ﷺ ومعه جبريل عليه السلام في صورة دحية الكلبي فلم يسلم، فقال جبريل: هذا أبو ذر لو سلم لرددنا عليه. فقال: «أتعرفه يا جبريل؟» قال: والذي بعثك بالحق نبياً لهو في ملكوت السموات السبع أشهر منه في الأرض، قال: «بم نال هذه المنزلة؟» قال: بزهد في هذه الحطام الفانية. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن ألف بيت من جيرانه البلاء»، ثم قرأ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال أبو بكر السفاح لأبي بكر الهذلي: بم بلغ الحسن ما بلغ؟ قال: جمع كتاب الله تعالى وهو ابن اثني عشرة سنة لم يجاوز سورة إلى غيرها حتى يعرف تأويلها، ولم يقلب درهماً قط في تجارة ولم يل عملاً لسلطان ولم يأمر بشيء حتى يفعله ولم ينه عن شيء حتى يدعه، قال السفاح: بهذا بلغ. وقال الجاحظ: كان الحسن يستثنى من كل غاية فيقال: فلان أزهّد الناس إلا الحسن وأفقه الناس إلا الحسن وأفصح الناس إلا الحسن وأخطب الناس إلا الحسن، وقال بعضهم: كان عمر بن عبد العزيز أزهّد من أويس لأن عمر ملك الدنيا فزهّد فيها وأويس لم يملكها، فقيل لو ملكها لفعل كما فعل عمر فقال: ليس من لم يجرب كمن جرب. وقال أنس في ثابت البناني: إن للخير مفاتيح وإن ثابتاً من مفاتيح الخير. وكان حبيب الفارسي من أخيار الناس وهو الذي اشترى نفسه من ربه أربع مرات بأربعين ألفاً، كان يخرج من البصرة فيقول: يا رب اشتريت نفسي منك بهذه ثم يتصدق بها. وكان أيوب السخيتاني من أزهّد الناس وأورعهم، ذكر عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى فقال: رحم الله أيوب لقد شهدت منه مقاماً عند منبر النبي ﷺ لا أذكر ذلك المقام إلا اقشعر جلدي. وقال سفيان الثوري: جهدت جهدي على أن أكون في السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك فلم أقدر. وكان الخليل بن أحمد النحوي من أزهّد الناس وأعلامهم نفساً وكان الملوك يقصدونه ويذلون له الأموال فلا يقبل منها شيئاً، وكان يحج سنة ويفزّو سنة حتى مات رحمه الله. وقال ابن خارجة: جالست ابن عون عشرين سنة فما أظن الملكين كتباً عليه شيئاً، وروى أنه غسل كرر بن وبرة فلم يوجد على جسده مثقال لحم.

وعن محمد بن الحسن قال: كان أبو حنيفة واحد زمانه، لو انشقت عنه الأرض لانشقت عن جبل من الجبال في العلم والكرم والزهد والورع.

وحج وكيع بن الجراح أربعين حجة ورابط في عبادان أربعين ليلة وختم بها القرآن أربعين ختمة وتصدق بأربعين ألفاً وروى أربعة آلاف حديث، وما روى واضعاً جنبه قط. ووقف عمر بن عبد العزيز على عطاء بن أبي رباح وهو أسود مفلقل الشعر، يفتي الناس في الحلال والحرام فتمثل يقول: تلك المكارم لا قعبان من لبن.

ومن مشايخ الرسالة رضوان الله عليهم أجمعين سيدي أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المغربي أستاذ إبراهيم بن شيان، كان عجيب الشأن لم يأكل مما وصلت إليه أيدي بني آدم سنين كثيرة وكان أكله من أصول العشب شيئاً تعود أكله.

(١) المقداد بن عمرو: هو المقداد بن عمرو، يعرف بابن الأسود، الكندي البهرازي الحضرمي، أبو معبد، أو أبو عمرو، وصحابي من الأبطال، هو أحد السبعة الذين كانوا أول من أظهروا الإسلام، وهو أول من قاتل علياً فرس في سبيل الله، كان من ساكنان حضرموت، شهد بدرًا وغيرها، وسكن المدينة، توفي بقرىها، ودفن فيها رحم الله سنة ٥٣٣ هـ - ٦٥٣ م).

ومنهم سيدى فتح بن شخرف بن داود يكنى أبا نصر من الزاهدين الورعين، لم يأكل الخبز ثلاثين سنة، قال أحمد ابن عبد الجبار: سمعت أبى يقول: صحبت فتح بن شخرف ثلاثين سنة فلم أره رفع رأسه إلى السماء، ثم رفعها يوماً فقال: طال شوقى إليك فعجل قدومى عليك. وقال محمد بن جعفر: سمعت إنساناً يقول غسلنا فتح بن شخرف فراينا مكتوب على فخذه لا إله إلا الله فتوهمناه مكتوباً وإذا هو عرق داخل الجلد، ومات ببغداد فصلى عليه ثلاثاً وثلاثين مرة أقل قوم كانوا يصلون عليه كانوا نحو من خمسة وعشرين ألفاً إلى ثلاثين ألفاً.

ومنهم سيدى فتح بن سعيد الموصلى يكنى أبا نصر من أقران بشر الحافى وسرى السقطى كبير الشأن فى باب الورع والمجاهدات. قال إبراهيم بن نوح الموصلى: رجع فتح الموصلى إلى أهله بعد صلاة العثممة وكان صائماً فقال عشونى فقالوا: ما عندنا شيء نعشيك به، فقال: ما بالكم جلوس فى الظلمة؟ فقالوا: ما عندنا شيء نسرج به، فجعل يبكى من الفرح ويقول إلهى مثلى يترك بلا عشاء ولا سراج بأى يد كانت منى، فما زال يبكى إلى الصباح. وقال فتح: رأيت بالبادية غلاماً لم يبلغ الحلم وهو يمشى وحده ويحرك شفتيه فسلمت عليه فرد على السلام، فقلت إلى أين؟ فقال: إلى بيت ربي عز وجل فقلت: بماذا تحرك شفتيك؟ قال: أتلو كلام ربي، فقلت: إنه لم يجر عليك فلم التكليف؟ قال: رأيت الموت يأخذ من هو أصغر سنّاً منى، فقلت: خطاك قصيرة وطريقك بعيدة، فقال: إنما على نقل الخطا وعليه البلاغ، فقلت: أين الزاد والراحلة؟ قال: زادى يقينى وراحلتى رجلاى، فقلت: أسالك عن الخبز والماء، قال: يا عماء أرايت لو دعاك مخلوق إلى منزله أكان يجمل بك أن تحمل زادك إلى منزله؟ قلت: لا، فقال: إن سيدى دعا عباده إلى بيته وأذن لهم فى زيارته فحملهم ضعف يقينهم على حمل أزوادهم وإنى استقبحت ذلك فحفظت الأدب معه، أفتراه يضيعنى؟ فقلت: حاشا وكلا ثم غاب عن بصرى فلم أره إلا بمكة فلما رأتى قال: أنت أيها الشيخ بعد على ذلك الضعف من اليقين.

ومنهم سيدى أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيرى صاحب شاه الكرمانى ويحيى بن معاذ الرازى وكان يقال فى الدنيا ثلاثة لا رابع لهم، أبو عثمان الحيرى بنيسابور والجنيد ببغداد وأبو عبد الله الحلاج بالشام، ومن كلامه لا يكمل الرجل حتى يستوى فى قلبه أربعة أشياء: المنع والعطاء والعز والذل، وقال: منذ أربعين سنة ما أقامنى الله تعالى فى حال فكرهته، ولا نقلنى إلى شيء فسخطه.

ومنهم سيدى سليمان الخواص يكنى أبا تراب كان أحد الزهاد المعروفين والعباد الموصوفين سكن الشام ودخل بيروت وكان أكثر مقامه ببيت المقدس، قيل: اجتمع حذيفة المرعشى وإبراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط فتذاكروا الفقر والغنى وسليمان ساكت، فقال بعضهم: الغنى من كان له بيت يسكنه وثوب يستره وسداد من عيش يكفه عن فضول الدنيا، وقال بعضهم: الغنى من لم يحتج إلى الناس. فقيل لسليمان: ما تقول أنت فى ذلك، فبكى وقال: رأيت جوامع الغنى فى التوكل ورأيت جوامع الفقر فى القنوط، والغنى حق الغنى من أسكن الله فى قلبه من غناه يقيناً ومن معرفته توكلأ، ومن قسمته رضا فذلك الغنى حق الغنى وإن أمسى طاوياً وأصبح معوزاً فبكى القوم من كلامه.

ومنهم سيدى أبو سليمان بن عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الداراني أحد رجال الطريقة قدس الله سره، كان من أجل السادات وأرباب الجد فى المجاهدات، ومن كلامه: من أحسن فى نهاره كفى فى ليله ومن أحسن فى ليله كفى فى نهاره، ومن صدق فى ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه، والله تعالى أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له، وقال: لكل شيء علامة وعلامة الخذلان ترك البكاء، وقال: لكل شيء صداً وصداً نور القلب شيع البطن. وقال أحمد بن أبى الخوارى شكوت إلى أبى سليمان الوسواس فقال: إذا أردت أن ينقطع عنك فأى وقت أحسبت به فافرح فإنك إذا فرحت به انقطع عنك لأنه لا شيء أبغض إلى الشيطان من سرور المؤمن، وإذا اغتممت به زادك، وقال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى: اجتمعوا ليلاً على أبى سليمان الداراني فسمعوه يقول: يا رب إن طالبتنى بسريرتى طالبتك بتوحيدك، وإن طالبتنى بذنوبى طالبتك بكرمك، وإن جعلتنى من أهل النار أخبرت أهل النار بحبى إياك.

وقال على بن الحسين الحداد: سألت أبا سليمان بأى شيء تعرف الأبرار؟ قال: بكتمان المصائب وصيانة الكرامات. وروى عنه قال: نمت ليلة عن وردى فإذا حوراء تقول لى: أو تنام وأنا أربى لك فى الخدور منذ خمسمائة عام.

ومنهم سيدى أبو محمد عبد الله بن حنيف من زهاد المتصوفة كوفى الأصل ولكنه سكن أنطاكية. ومن كلامه: لا تنغم إلا من شيء يضرك غداً ولا تفرح إلا بشيء يسرك غداً، وله كرامات ظاهرة وبركات متواترة.

ومنهم سيدى أبو عبد الله محمد بن يوسف البناء أصبهانى الأصل كتب عن ستمائة شيخ ثم غلب عليه الانفراد والخلوة إلى أن خرج إلى مكة بشرط التصوف وقطع البادية على التجريد، وكان فى ابتداء أمره يكسب فى كل يوم ثلاثة دراهم وثلاثاً فيأخذ من ذلك لنفسه دانقاً ويتصدق بالباقي، ويختم مع العمل كل يوم ختمة فإذا صلى العتمة فى مسجده خرج إلى الجبل إلى قريب الصبح، ثم يرجع إلى العمل، وكان يقول فى الجبل: يا رب إما أن تهب لى معرفتك أو تأمر الجبل أن ينطبق علىّ فلانى لا أريد الحياة بلا معرفتك.

ومنهم سيدى يحيى بن معاذ الرازى قدس الله سره يكنى أبا زكرياء أحد رجال الطريق كان أوحده وقته، ومن كلامه: لا تكن ممن يفضحه يوم موته ميراثه، ويوم حشره ميزانه، وقال: ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال: إن لم تنفعه فلا تضره وإن لم تسره فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تدمه، وقال: الصبر على الخلوة من علامات الإخلاص، وقال: بشى الصديق صديقاً يحتاج إلى أن يقال له: اذكرنى فى دعائك، وقال: على قدر حبك لله يحبك الخلق وعلى قدر خوفك من الله تهابك الخلق وعلى قدر شغلك بالله تشتغل فى أمرك الخلق، وقال: من كان غناه فى كيسه لم يزل فقيراً، ومن كان غناه فى قلبه لم يزل غنياً، ومن قصد بحوائجه المخلوقين لم يزل محروماً.

وروى أنه قدم شيرازاً فجعل يتكلم على الناس فى علم الأسرار، فأنته امرأة من نسائها فقالت: كم تريد أن تأخذ من هذه البلدة؟ قال: ثلاثون ألفاً أصرفها فى دين على بخراسان، فقالت: لك على ذلك أن تأخذها وتخرج من ساعتك، فرضى بذلك فحملت إليه المال فخرج من الغد، فعوتبت تلك المرأة فيما فعلت فقالت: إنه كان يظهر أسرار أولياء الله تعالى للسوقة والعامة فغرت على ذلك.

ومنهم سيدى يوسف بن الحسين الرازى يكنى أبا يعقوب كان وحيد وقته فى إسقاط التصنع، عالماً أديباً صاحب ذا النون المصرى وأبا تراب التخشى. من كلامه: إذا أردت أن تعلم العاقل من الأحق فحدثه بالمحال فإن قبل فاعلم أنه أحق. وقال: إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص فاعلم أنه لا يجىء منه شيء، وقال: لأن ألقى الله تعالى بجميع المعاصى أحب إلىّ من أن ألقاه بذرة من التصنع، وقال أبو الحسن الدراج: قصدت زيارة ابن الحسين الرازى من بغداد فلما دخلت بلده سألت عن منزله فكل من سأله يقول أى شيء تريد من هذا الزنديق فضيقوا صدرى حتى عزمت على الانصراف، فبت تلك الليلة فى مسجد ثم قلت فى نفسى: جئت هذه البلدة فلا أقل من زيارته فلم أزل أسأل عنه حتى وصلت إلى مسجده فوجدته جالساً فى المحراب وبين يديه مصحف يقرأ فيه فدنوت منه وسلمت عليه فرد على السلام وقال: من أين؟ قلت: من بغداد، فقال: أحسن من قولهم شيئاً؟ قلت: نعم، وأنشدته:

رأيتك تبني دائماً فى قطيعتى ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبني

فأطبق المصحف ولم يزل يبكى حتى ابتلت لحيته وثوبه ورحمته من كثرة بكائه ثم التفت إلى وقال: يا بنى أتلوم أهل البلد على قولهم يوسف بن الحسين زنديق وها أنا ذا من وقت صلاة الصبح أقرأ القرآن ولم تقطر من عيني قطرة وقد قامت على القيامة بهذا البيت.

ومنهم سيدى حاتم بن علوان الأصم قدس الله سره يكنى أبا عبد الرحمن من أكابر مشايخ خراسان صاحب شقيق البلخى، ومن كلامه: ألزم خدمة مولاك تأتلك الدنيا راغمة والآخرة راغبة، وقال: من ادعى ثلاثاً بغير ثلاث فهو كذاب، من ادعى حب الله تعالى من غير ورع عن محارمه فهو كذاب، ومن ادعى محبة النبى ﷺ من غير محبة الفقر فهو كذاب، ومن ادعى حب الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذاب، وسأله رجل علام بنيت أمرك فى التوكل على الله عز وجل؟ قال: على أربع خصال علمت أن رزقى لا يأكله غيرى فاطمأنت به نفسى، وعلمت أن عملى لا يعمل به غيرى فأنأ مشغول به، وعلمت أن الموت يأتينى بغتة فأنأ أبادره، وعلمت أنى لا أخلو من عين الله عز وجل حيث كنت فأنأ أستحى منه.

وسبب تسميته بالأصم ما حكاه أبو على الدقاق أن امرأة جاءت تسأله عن مسألة، فاتفق أنه خرج منها صوت ريح فخبلت المرأة، فقال حاتم: ارفعى صوتك وأراها أنه أصم فسرت المرأة بذلك وقالت: إنه لم يسمع الصوت فغلب عليه هذا الاسم رحمة الله تعالى عليه.

ومنهم الحسن بن أحمد الكاتب من كبار مشايخ المصريين صاحب أبا بكر المصرى وأبا على الروذبارى وكان أوحد مشايخ وقته، من كلامه: روائح نسيم المحبة تفوح من المحيين وإن كتموها، وتظهر عليهم دلائلها وإن أخفوها، وتدل عليهم وإن ستروها، وأنشدوا فى هذا المعنى:

إذا ما أسـرت أنـفس النـاس ذكـره تبـينه فـيهم ولم يتكلمـرا
تطـيب به أنـفـاسهم فتـذيعهـا وهل سر مسكٍ أودع الريح يكتـم

ومن كلامه أيضاً: إذا انقطع العبد إلى الله تعالى بالكلية، فأول ما يفيد الاستغناء به عن الناس. وقال: صحبة الفساق داء ودواؤها مفارقتهم، وقال: إذا سكن الخوف فى القلب لا ينطق اللسان بما لا يعنيه.

ومنهم سيدى جعفر بن نصر الخلدى يكنى بأبى محمد، بغدادى المنشأ والمولد، صاحب الجنيد وانتمى إليه وحج قريباً من ستين حجة، روى أنه مر بمقبرة الشونيزية وامرأة على قبر تندب وتبكى بكاءً بحرقة، فقال لها: ما لك تبكين؟ فقالت: ثكلى بولدى، فأنشأ يقول:

يقـولون ثكـلى ومن لم يذق فـراق الأـحـبـة لم يثـكل
لـقد جرعتنى لـيالى الفـراق شـراباً أـمـر من الحنـظل

وروى أنه كان له فص فوق منه يوماً فى الدجلة، وكان عنده دعاء مجرب لرد الضالة إذا دعا به عادت، فدعا به فوجد الفص فى وسط أوراق كان يتفحصها، وصورة الدعاء أن تقول: يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع على ضالتي. وقد روى أنه يقرأ قبله سورة الضحى ثلاثاً، وروى الحافظ أبو بكر الخطيب فى تاريخه قال: ودعت فى بعض حجاتي زين الكبير الصوفى، فقلت: زودنى شيئاً فقال: إن فقدت شيئاً أو أردت أن يجمع الله بينى وبينك وبين إنسان، فقل: يا جامع الناس لا ريب فيه اجمع بينى وبين كذا، فإن الله يجمع بينك وبين ذلك الشيء أو الإنسان.

ومنهم سيدى معروف بن فيروز الكرخى. قدس الله سره يكنى أبا محفوظ من كبار المشايخ مجاب الدعوة وهو أستاذ السرى، وكان أبواه نصرانيين، فأسلماه إلى مؤدبهم وهو صبى، فكان المؤدب يقول له: قل هو ثالث ثلاثة، فيقول: بل هو الواحد الصمد، فضربه المؤدب على ذلك ضرباً وجيعاً، فهرب منه، فكان أبواه يقولان: ليت يرجع إلينا على أى دين شاء، فتوافقه عليه، فرجع إلى أبويه، فدق الباب فقبل: من بالباب؟ فقال: معروف، فقيل: على أى دين؟ فقال: على دين الإسلام، فأسلم أبواه، وكان مشهوراً بإجابة الدعوة، ومن كلامه رضى الله عنه: إذا أراد الله بعبد خيراً فتح له باب العمل، وأغلق عليه باب الفترة والكسل، وكان يعاتب نفسه ويقول: يا مسكين كم تبكى وتندب أخلص تخلص، وقال سرى: سألت معروفاً عن الطائعين لله بأى شىء قدروا على الطاعات لله عز وجل؟ قال: بخروج حب الدنيا من قلوبهم ولو كانت فى قلوبهم لما صحت لهم سجدة، ومن إنشاداته:

الماء يغـسل ما بالثـوب من درنٍ وليس يغـسل قلب المذنـب الماء

وقال إبراهيم الأطروش: كان معروف قاعداً يوماً على الدجلة ببغداد، فمر بنا صبيان فى زورق يضربون بالملاهى ويشربون، فقال له أصحابه: أما ترى هؤلاء يعصون الله تعالى على هذا الماء؟ فادع عليهم، فرفع يديه إلى السماء وقال: إلهى وسيدى كما فرحتهم فى الدنيا أسألك أن تفرحهم فى الآخرة، فقال له أصحابه: إنما سألناك أن تدعو عليهم، ولم

نقل لك ادع لهم، فقال: إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا ولم يضرهم ذلك. وقال سرى: رأيت معروفاً في المنام كأنه تحت العرش والله تعالى يقول لملائكته: من هذا؟ فقالوا: أنت أعلم يا رب، قال: هذا معروف الكرخي سكر بحبي لا يفيق إلا بقلبي، وقيل له في مرضه: أوص، فقال: إذا مت فتصدقوا بقميصي هذا، فلاني أحب أن أخرج من الدنيا عرياناً كما دخلتها عرياناً، وقال أبو بكر الخياط: رأيت في المنام كأنني دخلت المقابر، فإذا أهل القبور جلوس على قبورهم وبين أيديهم الريحان، وإذا أنا بمعروف الكرخي بينهم يذهب ويجيء، فقلت يا أبا محفوظ: ما فعل الله بك؟ أو ليس قد مت؟ قال: بلى. ثم أنشد يقول:

موت التقي حياة لا نفاذ لها قد مات قوم وهم في الناس أحياء

ومنهم قاسم بن عثمان الكرخي يكنى أبا عبد الملك من أجلاء المشايخ صحب أبا سليمان الداراني وغيره، وكان من أقران السرى والحارث المحاسبى، وكان أبو تراب النخشبى يصحبه، ومن كلامه: من أصلح فيما بقى من عمره غفر له ما مضى وما بقى، ومن أفسد فيما بقى من عمره أخذ بما مضى وما بقى. وقال: السلامة كلها في اعتزال الناس، والفرح كله في الخلوة بالله عز وجل، وسئل عن التوبة، فقال: التوبة رد المظالم وترك المعاصي وطلب الحلال وأداء الفرائض. وقال لأصحابه: أوصيكم بخمس: إن ظلمتم فلا تظلموا، وإن مدحتم فلا تفرحوا، وإن ذمتم فلا تحزنوا، وإن كذبتهم فلا تغضبوا، وإن خانوكم فلا تخونوا. وقال محمد بن الفرج: سمعت قاسم بن عثمان يقول: إن لله عبداً قصدوا الله بهمهم فآفردوه بطاعتهم واكتفوا به في توكلهم، ورضوا به عوضاً عن كل ما خطر على قلوبهم من أمر الدنيا، فليس لهم حبيب غيره، ولا قرّة عين إلا فيما قرب إليه، وكان يقول: قليل العمل مع المعرفة خير من كثير العمل بلا معرفة، ثم قال: اعرف وضع رأسك ونم، فما عبد الله الخلق بشيء أفضل من المعرفة.

وروى عنه أنه قال: رأيت في الطواف حول البيت رجلاً فتقربت منه، فإذا هو لا يزيد على قوله: اللهم قضيت حاجة المحتاجين وحاجتي لم تقض، فقلت له: ما لك لا تزيد على هذا الكلام؟ فقال: أحدثك، كنا سبعة رفقاء من بلاد شتى غزونا أرض العدو فاستأسرونا كلنا، فاعتزل بنا لتضرب أعناقنا، فنظرت إلى السماء، فإذا سبعة أبواب مفتحة عليها سبع جوار من الحور العين في كل باب جارية، فقدم رجل منا فضربت عنقه، فرأيت جارية في يدها منديل قد هبطت إلى الأرض، فضربت أعناق الستة وبقيت أنا، وبقي باب وجارية، فلما قدمت لتضرب عنقي استوهبنى بعض خواص الملك، فوهبنى له، فسمعتها تقول: بأى شيء فاتك هذا يا محروم؟ وأغلقت الباب، فأنا يا أخى متحسر على ما فاتنى. قال قاسم بن عثمان: أراه أفضلهم لأنه رأى ما لم يروا وترك يعمل على الشوق.

ومنهم سيدى أبو بكر دلف بن جحدر الشبلبي، كان جليل القدر مالكي المذهب، عظيم الشأن. صحب الجنيد^(١)، ومن في عصره، وكان يبالغ في تعظيم الشرع المطهر، وكان إذا دخل شهر رمضان المعظم جد في الطاعات، ويقول: هذا شهر عظمه ربى، فأنا أولى بتعظيمه. وسئل عن قول النبي ﷺ: «خير عمل المرء كسب يمينه»، فقال: إذا كان الليل، فخذ ماء وتهيأ للصلاة، وصل ما شئت، ومد يديك، وسل الله عز وجل، فذلك كسب يمينك، ولما حج ورأى مكة المشرفة شرفها الله تعالى وقع مغشياً عليه، فلما أفاق أنشد يقول:

هذه دارهم وأنت محب ما بقاء الدمار في الأماق

وروى أنه قال: كنت يوماً جالساً، فجرى في خاطري أنى بخيل، فقلت: مهما فتح الله على به اليوم أدفعه إلى أول فقير يلقاني، قال: فبينما أنا متفكر إذ دخل على شخص ومعه خمسون ديناراً، فقال: اجعل هذه في مصالحك، فأخذتها وخرجت، وإذا أنا بفقير مكفوف بين يدي مزين يحلق رأسه، فتقدمت إليه وناولته الصرة، فقال لى: ادفعها للمزين،

(١) الجنيد: هو محمد بن الجنيد البغدادي الحزاز، أبو القاسم: صوفى من العلماء بالدين، مولده ونشأته ووقاته ببغداد أصل أبيه من نهاوند، وكان يعرف بالقواريرى نسبة إلى عمل القوارير، ثم عرف بالحزاز لأنه كان يعمل الخبز، وهو شيخ في مذهب التصوف، توفي سنة (٢٩٧هـ - ٩١٠م).

فقلت له: إنها دنائير، فقال: إنك لبخيل، قال: فناولتها للمزين، فقال المزين: إن من عاداتنا أن الفقير إذا جلس بين أيدينا لا نأخذ منه أجراً، قال: فرميتها في الدجلة، وقلت ما أعزك أحد إلا أذله الله تعالى.

ومنهم سيدى زرقان بن محمد أخو ذى النون المصرى صاحب سياحة كان بجبل لبنان.

حكى عن يوسف بن الحسين الرازى قال: بينما أنا بجبل لبنان أدور إذ أبصرت زرقان أخا ذى النون المصرى جالساً على عين ماء وقت صلاة العصر، فسلمت عليه وجلست من ورائه، فالتفت إلى وقال: ما حاجتك؟ فقلت: بيتا شعر سمعتهما من أخيك ذى النون المصرى أعرضهما عليك، فقال: قل. فقلت سمعته يقول:

قد بقينا مذبذبين حيارى نطلب الوصول ما إليه سبيل
فدواعى الهوى تخف علينا وخلاف الهوى علينا ثقليل

فقال زرقان ولكنى أقول:

قد بقينا مذهلين حيارى حـبـبـنا ربنا ونعم الوكيل
حيثما الفوز كان ذاك منانا وإليه فى كل أمر نميل

فعرضت أقوالهما على طاهر المقدسى. فقال: رحم الله ذا النون المصرى، رجع إلى نفسه، فقال ما قال، ورجع زرقان إلى ربه، فقال ما قال. وقال أبو عبد الرحمن السلمى: زرقان بن محمد أخو ذى النون المصرى، وأظن أنه أخوة مؤاخاة لا أخوة نسب، وكان من أقرانه ورفقائه.

ومنهم سيدى أبو عبد الله النباجى سعيد بن يزيد كان من أقران ذى النون المصرى، ومن أقران أستاذى أحمد بن أبى الحوارى، له كلام حسن فى المعرفة وغيرها، روى عنه أنه قال: أصابنى ضيق وشدة فبت وأنا مفكر فى المسير إلى بعض إخوانى، فسمعت قائلاً يقول لى فى النوم: أيجمل بالحر المرید إذا وجد عند الله ما يريد أن يميل بقلبه إلى العبيد، فانتبهت وأنا من أغنى الناس.

ومنهم سيدى بشر بن الحرث قدس الله روحه يكنى أبا نصر أحد رجال الطريقة، أصله من مرو وسكن بغداد وكان من كبار الصالحين وأعيان الأتقياء المتورعين، صحب الفضيل بن عياض، وروى عن سرى السقطى وغيره، ومن كلامه لا تكن كاملاً حتى يأمنك عدوك وكيف يكون فيك خير وأنت لا يأمنك صديقك؟ وقال: أول عقوبة يعاقبها ابن آدم فى الدنيا مفارقة الأحباب، وقال: غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه وخفاء مكانه عنهم. وقال: التكبر على التكبر من التواضع. وسئل عن الصبر الجميل، فقال: هو الذى لا شكوى فيه إلى الناس. وقيل: إنه لقى رجلاً سكران، فجعل الرجل يقبل يد بشر ويقول: يا سيدى يا أبا نصر، ويشر لا يدفعه عن نفسه، فلما ولى الرجل تغرغرت عينا بشر وجعل يقول: رجل أحب رجلاً على خير توهمه لعل المحب قد نجا والمحبوب لا يدرى ما حاله، وروى أن امرأة جاءت إلى أحمد بن حنبل تسأله، فقالت: إني امرأة أغزل بالليل والنهار، وأبيعه ولا أبيع غزل الليل من غزل النهار، فهل على ذلك شيء؟ فقال: يجب أن تبينى، فلما انصرفت قال أحمد لابنه: اذهب، فانظر أين تدخل، فرجع، فقال: دخلت دار بشر، فقال: قد عجبت أن تكون هذه السائلة من غير بيت بشر. ولما مرض مرضه الذى مات فيه قال له أهله: نرفع ماءك إلى الطبيب قال: أنا بعين الطبيب يفعل بى ما يريد، فألحوا عليه، فقال لأخته: ادفعى إليهم الماء فدفعته إليهم فى قارورة وكان بالقرب منهم طبيب نصرانى فدفعوا إليه القارورة فقال: حركوا الماء، فحركوه، فقال: ضعوه فوضعوه، فقالوا له: ما بهذا وصفت لنا. قال: وبماذا وصفت لكم؟ قالوا: وصفت بأنك أحذق أهل زمانك فى الطب، قال: هو كما وصفت لكم، أن هذا الماء إن كان ماء نصرانى، فهو ماء راهب قد فتت الخوف كبده وإن كان ماء مسلم، فماء بشر الخافى لأن ما فى زمانه أخوف منه، قالوا: هو ماء بشر، فقال: أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فلما رجعوا إلى بشر قال لهم: أسلم الطبيب. قالوا له: ومن أعلمك بهذا؟ قال: لما خرجتم من عندى نوديت يا بشر ببركة مائك

أسلم الطيب. توفى سنة سبع وعشرين ومائتين.

ومنهم سيدى أبو زيد طيغور بن عيسى البسطامي من أجل المشايخ كبير الشأن، ومن كلامه: ما زلت أسوق إلى الله تعالى نفسى وهى تبكى إلى أن سقتها وهى تضحك. وسئل: بأى شىء وجدت هذه المعرفة؟ فقال: ببطن جائع وبدن عار، وقيل له: ما أشد ما لقيت فى سبيل الله تعالى؟ فقال: لا يمكن وصفة، فقيل له: ما أهون ما لقيته نفسك منك؟ فقال: أما هذا فنعم دعوتها إلى شىء من الطاعات، فلم تجبني، فمنعتها الماء سنة، وقال: الناس كلهم يهربون من الحساب، ويتجافون عنه، وأنا أسأل الله تعالى أن يحاسبني، فقيل له: لم؟ فقال: لعله يقول فيما بين ذلك: يا عبدى، فأقول: لبيك، فقله لى: عبدى أحب إلى من الدنيا وما فيها، ثم بعد ذلك يفعل بى ما يشاء، وقال له رجل: دلى على عمل أتقرب به إلى ربى، فقال: أحب أولياء الله ليحبوك فإن الله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه، فلعله ينظر إلى اسمك فى قلب ولى، فيغفر لك. وسئل عن المحبة، فقال: استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك. توفى سنة إحدى وستين ومائتين رحمه الله تعالى.

ومنهم شيخ الطائفة سيدى أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريرى شيخ وقته وفريد عصره، أصله من نهاوند ومولده ومنشأه ببغداد صاحب جماعة من المشايخ، وصاحب خاله السرى، والحارث المحاسبى ودرس الفقه على أبى ثور، وكان يفتى فى مجلسه بحضرته وهو ابن عشرين سنة. ومن كلامه رضى الله عنه: علامة إعراض الله تعالى عن العبد أن يشغله بما لا يعنيه، وقال: الأدب أدبان: أدب السر وأدب العلانية، فأدب السر طهارة القلوب، وأدب العلانية حفظ الجوارح من الذنوب. ورؤى فى يده يوماً سبحة، فقيل له: أنت مع تمككك وشرفك تأخذ بيدك سبحة؟ فقال: نعم سبب وصلنا به إلى ما وصلنا لا تركه أبداً. وقال الحسن بن محمد السراج: سمعت الجنيد يقول: رأيت إبليس فى منامى، وكأنه عريان، فقلت له: ألا تستحي من الناس؟ فقال: بالله هؤلاء عندك من الناس لو كانوا من الناس ما تلاعبت بهم كما يتلاعب الصبيان بالكرة، ولكن الناس عندى ثلاثة نفر: فقلت ومن هم؟ قال: فى مسجد الشونيزى قد أضنوا قلبى وأنحلوا جسمى كلما هممت بهم أشاروا إلى الله عز وجل، فأكد أن أحرق، قال الجنيد: فانتبهت من نومى، ولبست ثيابى وجئت إلى مسجد الشونيزى ليل، فلما دخلت أخرج أحدهم رأسه وقال: يا أبا القاسم أنت كلما قيل لك شىء تقبل. قيل: إن الثلاثة الذين كانوا فى مسجد الشونيزى أبو حمزة، وأبو الحسن الشورى، وأبو بكر الدقاق رضى الله عنهم، وقال محمد بن قاسم الفارسى: بات الجنيد ليلة العيد فى الموضع الذى كان يعتاده فى البرية، فإذا هو وقت السحر بشاب ملتف فى عباءة وهو يبكى ويقول:

بحرمة غربتى كم ذا الصدود	ألا تحنوا علىّ ألا تجودوا
سرور السيد قد عم النواحي	وحزنى فى ازدياد لا يبيد
فلن كنت اقترفت خلال سوء	فعذرى فى الهوى أن لا أعود

توفى الجنيد رحمه الله تعالى سنة سبع وتسعين ومائتين ببغداد وصلى عليه نحو ستين ألفاً رضوان الله عليهم أجمعين. ومن صحبته وانتفعت بصحبته وفاضت الخيرات على بركاته سيدى الشيخ الإمام العالم العامل أبو المعالى وأبو الصدق أبو بكر بن عمر الطرينى المالكى قدس الله سره وروحه ونور ضريحه، كان أوحده زمانه فى الزهد والورع قامعاً لأهل الضلال والبدع، وله أسرار ظاهرة وبركات متواترة. قد أطاع أمره الخلائق عجماً وعرباً، وانتشر ذكره فى البلاد شرقاً وغرباً وأنت الملوك إلى بسابه واختاروا أن يكونوا من جملة أصحابه، ما أتاه مكروب إلا فرج الله كربته ولا طالب حاجة إلا قضى الله حاجته، كان محافظاً على النوافل ملازماً للفرص، وكان أكثر أكله من المباح من نبات الأرض، لم يمتع نفسه فى الدنيا بالآكل والمشرب اللذيذة بل قيل: إنه غضب على نفسه مرة فمنعها شرب الماء شهوراً عديدة، وكان رضى الله عنه كثير الشفقة والحنو على أصحابه نصوحاً لجميع خلق الله من أعدائه وأحبابه، يدخل عليه أعدى عدوه، فيقبل ببشره ويره عليه، فيخرج من عنده وهو أحب الناس إليه، كما قال بعضهم:

وإذنى لألقى المرء أعلم أنه
فأمنحه بشرى فيرجع قلبه
عدوى وفى أحشائه الضغن كامن
سليماً وقد ماتت لديه الضغائن

وكانت جملة أهل زمانه عليه وأحوالهم فى كل أمر راجعة إليه، وكنت كثيراً ما أسمعه يتمثل بهذا البيت:

وما حملونى الضيم إلا حملته
لأنى محب والمحب حـمـول

وكان رضى الله عنه كثير المصافاة عظيم الموافاة، شأنه الحلم والستر لم يهتك حرمة مسلم ولا فضحه، وما استشاره أحد فى أمر إلا أرشده إلى الخير ونصحه، صحبت به رضى الله عنه نحو خمس عشرة سنة، فكأنها من طيبها كانت سنة، ما قطع به يوماً واحداً عنى حتى كنت أظن أن ليس عنده أخص منى، وكان ذلك فعله مع جميع أصحابه قاطبة. بيض الله وجهه فى القيامة، وبلغه من فضل ربه مآربه، وكان رضى الله عنه فقيهاً فى مذهب الإمام مالك، إمام كبير لم ير له فى زمانه من شبيه ولا نظير، وله فى علم الحقيقة أقوال، وكم رأينا له من مكاشفات وأحوال ولو تبعت مناقبه لاتسع الكلام، ولكنى أقول: كان أوحده عصره والسلام.

عاش رضى الله عنه نيفاً وستين سنة، وكان الناس فى زمانه فى عيشة راضية، وأحوال حسنة، وكان رضى الله عنه كثير الأمراض والأسقام حصل له فى آخر عمره ضعف شديد أقام به نحو سنة، ثم تزايد مرضه فى العشر الأول من ذى الحجة الحرام، فلما كانت ليلة الحادى عشر اشتد به الأمر واحتضر، ولم يزل فى النزاع إلى ثلث الليل الأول من الليلة المذكورة، ثم توفى رحمه الله تعالى سعيداً حميداً فى ليلة الجمعة حادى عشر ذى الحجة الحرام سنة سبع وعشرين وثمانمائة، ولما أخبر الناس بوفاته عظم مصابه على المسلمين، ووقع النوح والبكاء والأسف فى أقطار البلدان حتى طوائف المخالفين للملة من النصارى وغيرهم، وصاروا يبكون ويتوجعون ويتأسفون على فراقه، وكيف لا، وهو إمام العصر، علامة الدهر حق فيه قول القائل:

حلف الزمـان لـيأتين بمثله
حشت يمينك يا زمان فكفـر

رضى الله عنه ورضى عنا به، ونفعنا ببركته فى الدين والدنيا والآخرة، فشرعوا فى تجهيزه وغسله، فكنت ممن حضر غسله، ولكن لم يكن ذهنى معى فى تلك الساعة لما جرى علينا من المصيبة بفقده، كيف لا، وقد كان والدنا شفوفاً وباراً محسناً غشوقاً، فلما انتهى غسله رضى الله عنه جاء القضاة والنواب والكشاف والولاة وحملوه على أعناقهم ومضوا به إلى جامع الخطبة بالمحلة فضاق بهم الجامع على سعته، وضاحت بهم الشوارع والسكك والطرق من كثرة الناس، فلم ير أكثر جمعاً ولا أغزر دمعاً من ذلك اليوم، وهذا دليل على أنه كان قطب أهل زمانه.

قال الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه: بيننا وبينهم الجنائز. يريد بذلك اجتماع الناس، والله أعلم. فارتفع نعشه على أعناقهم وتقدم للصلاة شيخه العارف بالله تعالى سيدى سليمان الدواخلى نفعنا الله ببركته، ودفن يوم الجمعة بزاويته التى أنشأها بسندفامع والده الشيخ الإمام العالم العلامة مفتى المسلمين سراج الدين أبى حفص عمر الطرىنى المالكى فى قبر واحد. نفعنا الله ببركته، وجعل الجنة مثقبه ومشواه، وحشرنا وإياه فى زمرة سيد الأولين والآخرين محمد خاتم النبیین، وأفضل المسلمين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، ونسأله لنا التوفيق والإعانة، وأن يتمتع المسلمين بطول بقاء أخيه سيدنا ومولانا الشيخ شمس الدين محمد الطرىنى أدام الله أيامه للمسلمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فى مناقب الصالحين وكرامات الأولياء رضى الله عنهم

اعلم أن كرامات الأولياء لا تنكر ومناقبهم أكثر من أن تحصر، نسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم فى زمرة نبيينا محمد ﷺ يوم المحشر إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

حكاية: قال مالك بن دينار^(١) رحمه الله تعالى: احتبس عنا المطر بالبصرة فخرجنا نستسقى مراراً، فلم نر للإجابة أثراً، فخرجت أنا و عطاء السلمى، وثابت البنانى، ويحيى البكاء، ومحمد بن واسع، وأبو محمد السخيتانى، وحبيب الفارسى، وحسان بن ثابت بن أبى سنان، وعتبة الغلام، وصالح المزنى، حتى إذا صرنا إلى المصلى بالبصرة خرج الصبيان من المكاتب، ثم استسقيناً، فلم نر للإجابة أثراً حتى انتصف النهار وانصرف الناس وبقيت أنا وثابت البنانى بالمصلى، فلما أظلم الليل إذا أنا بعبد أسود مليح رقيق الساقين عليه جبة صوف قومت ما عليه بدرهمين، فجاء بماء فتوضأ، ثم جاء إلى المحراب، فصلى ركعتين خفيفتين، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: إلهى وسيدى ومولائى إلى كم ترد عبادك فيما لا ينفعلك، أنفد ما عندك أم نقص ما فى خزانك، أقسمت عليك بحبك لى إلا ما أسقيتنا غيثك الساعة. قال: فما تم كلامه حتى تغييمت السماء وجاءت بمطر كافواه القرب. قال مالك: فتعرضت له، وقلت له: يا أسود أما تستحى مما قلت؟ قال: وما قلت؟ قلت قولك: بحبك لى وما يدريك أنه يحبك؟ قال: تنح عنى يا من اشتغل عنه بنفسه، أفتراه بدانى بذلك إلا لمحبه إياى؟ ثم قال: محبته لى على قدره، ومحبتى له على قدرى، فقلت له: يرحمك الله ارفق قليلاً، فقال: إنى مملوك وعلى فرض من طاعة مالكى الصغير، قال: فانصرف وجعلنا نقفوا أثره على البعد حتى دخل دار نخاس، فلما أصبحنا أتينا النخاس، فقلت: يرحمك الله، أعندك غلام تبيعه منا للخدمة؟ قال: نعم عندى مائة غلام للبيع، فجعل يعرض علينا غلاماً بعد غلام حتى عرض علينا سبعين غلاماً، فلم ألق حبيبى فيهم، فقال: عودا إلى فى غير هذا الوقت، فلما أردنا الخروج من عنده دخلنا حجرة خربة خلف داره، وإذا بالأسود قائم يصلى، فقلت: حبيبى ورب الكعبة، فجئت إلى النخاس، فقلت له: معنى هذا الغلام، فقال: يا أبا يحيى هذا الغلام ليست له همة فى الليل إلا البكاء، وفى النهار إلا الخلوة والوحدة، فقلت له: لا بد من أخذه منك ولك الشمن، وما عليك منه، فدعاه، فجاء وهو يتناعس، فقال: خذه بما شئت بعد أن تبرئنى من عيوبه كلها، فاشتريته منه بعشرين ديناراً، وقلت له: ما اسمك؟ قال: ميمون، فأخذت بيده أريد المنزل، فالتفت إلى وقال: يا مولائى الصغير لماذا اشتريتنى وأنا لا أصلح لخدمة المخلوقين؟ فقلت له: والله يا سيدى إنما اشتريتك لأخدمك بنفسى، قال: ولم ذلك؟ فقلت: ألت صاحبنا البارحة بالمصلى؟ قال: بلى، وقد اطلعت على ذلك، قلت: نعم، وأنا الذى عارضتك البارحة فى الكلام بالمصلى. قال: فجعل يمشى حتى أتى إلى مسجد، فاستأذنى ودخل المسجد، فصلى فيه ركعتين خفيفتين، ثم رفع طرفه إلى السماء، وقال: إلهى وسيدى ومولائى، سر كان بينى وبينك أطلعت عليه غيرك، فكيف يطيب الآن عيشى. أقسمت عليك بك إلا ما قبضتنى إليك الساعة، ثم سجد، فانتظرت ساعة، فلم يرفع رأسه، فجئت إليه وحركته، فإذا هو قد مات رحمة الله تعالى عليه، قال: فمددت يديه ورجليه، فإذا هو ضاحك مستبشر، وقد غلب البياض على السواد ووجهه كالقمر ليلة البدر، وإذا شاب قد دخل من الباب، وقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أعظم الله أجورنا وأجوركم فى أخينا ميمون، هاكم الكفن، فناولنى ثوبين ما رأيت مثلهما قط، فغسلناه وكفنناه فيهما ودفناه. قال مالك بن دينار: فقببره نستسقى إلى الآن، ونطلب الحوائج من الله تعالى رحمة الله عليه.

وحكى عن حذيفة المرعى رضى الله عنه، وكان قد خدم إبراهيم الخواص رضى الله عنه وصحبه مدة، فقيل له: ما أعجب ما رأيت منه؟ فقال: بقينا فى طريق مكة أياماً لم نأكل طعاماً، فدخلنا الكوفة، فأوينا إلى مسجد خرب، فنظر إلى إبراهيم وقال: يا حذيفة أرى بك أثر الجوع، فقلت هو كما ترى، فقال: على بدواة وقرطاس، فأحضرتهما إليه،

(١) مالك بن دينار: هو مالك بن دينار البصرى، أبو يحيى، من رواة الحديث، كان ورعاً يأكل من كسب يده، ويكتب المصاحف بالأجرة، توفى سنة (١٣١ هـ - ٧٤٨ م).

فكتب بسم الله الرحمن الرحيم، أنت المقصود بكل حال، والمشار إليه بكل معنى ثم قال:

أنا حامدٌ أنا شاكرٌ أنا ذاكرٌ	أنا جائعٌ أنا ضائعٌ أنا عارى
هي ستنةٌ وأنا الضمين لنصفها	فكن الضمين لنصفها يابارى
مدحى لغبيرك لهبُ نارٍ خضتها	فأجرٌ عبيدك من لهيب النار

قال حذيفة: ثم دفع إلى الرقعة، وقال: اخرج بها ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى، وادفعها إلى أول من يلقاك، قال: فخرجت، فأول من لقيني رجل على بغلة، فناولته الرقعة، فأخذها فقرأها وبكى، وقال: ما فعل بصاحب هذه الرقعة؟ قلت: هو في المسجد القلاني، فدفع إلى صرة فيها ستمائة درهم، فأخذتها ومضيت، فوجدت رجلاً، فسألته من هذا الراكب على البغلة؟ فقال: هو رجل نصراني، قال: فجئت إبراهيم وأخبرته بالقصة، فقال: لا تمس الدراهم، فإن صاحبها يأتي الساعة، فلما كان بعد الساعة أقبل النصراني راكباً على بغلته، فترجل على باب المسجد، ودخل، فأكب على إبراهيم يقبل رأسه ويديه ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: فبكى إبراهيم الخواص فرحاً به وسروراً، وقال الحمد لله الذي هدانا لهذا الإسلام وشرعة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

وحكى أن بعضهم كان ملاحاً يبحر النيل المبارك بمصر، قال: كنت أعدى من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي، ومن الشرقي إلى الجانب الغربي، فبينما أنا ذات يوم في الزورق إذا بشيخ مشرق الوجه عليه مهابة، فقال: السلام عليكم، فرددت عليه السلام، فقال: أتحملني إلى الجانب الغربي لله تعالى، فقلت: نعم، فطلع إلى الزورق وعديت به إلى الجانب الغربي، وكان على ذلك الفقير مرقعة ويده ركوة وعصا، فلما أراد الخروج من الزورق قال: إني أريد أن أحملك أمانة، قلت: وما هي؟ قال: إذا كان غداً وقت الظهر تجدني عند تلك الشجرة ميتاً وستنسى، فإذا ألهمت، فأتني وغسلني وكفني في الكفن الذي تجده عند رأسي، وصلّ علىّ وادفني تحت الشجرة، وهذه المرقعة والعصا والركوة يأتيك من يطلبها منك، فادفعها إليه، ولا تحتقره، قال الملاح: ثم ذهب وتركني، فتعجبت من قوله، وبت تلك الليلة، فلما أصبحت انتظرت الوقت الذي قال لي، فلما جاء وقت الظهر ونسيت، فما تذكرت إلا قريب العصر، فسرت بسرعة، فوجدته تحت الشجرة ميتاً ووجدت كفنًا جديداً عند رأسه تفوح منه رائحة المسك، فغسلته وكفنته فلما فرغت من غسله حضر عندي جماعة عظيمة لم أعرف منهم أحداً فصلينا عليه، ودفنته تحت الشجرة، كما عهد إليّ ثم عدت إلى الجانب الشرقي، وقد دخل الليل، فتمت، فلما طلع الفجر وبانت الوجوه إذا أنا بشاب قد أقبل علىّ، فحفظت النظر في وجهه، فإذا هو من صبيان الملاحى كان يخدمهم، فأقبل وعليه ثياب رقاق، وهو مخضوب الكفين وطاره تحت إبطه، فسلم عليّ، فرددت عليه السلام، فقال: يا ملاح أنت فلان بن فلان. قلت: نعم. قال: هات الوديعة التي عندك. قلت: من أين لك هذا؟ قال: لاتسأل، فقلت لا بد أن تخبرني، فقال: لا أدري. إلا أن البارحة كنت في عرس فلان التاجر، فسهرنا نرقص ونغنى إلى أن ذكر الله الذاكرون على المآذن، فتمت لاستريح، وإذا برجل قد أيقظني وقال: إن الله تعالى قد قبض فلاناً الولي وأقامك مقامه، فسر إلى فلان بن فلان صاحب الزورق، فإن الشيخ أودع لك عنده كيت وكيت، قال: فدفعتها له، فخلع أثوابه الرقاق ورمى بها في الزورق، وقال: تصدق بها على من شئت، وأخذ الركوة والعصا ولبس المرقعة وسار، وتركني أتحمق وأبكي لما حرمت من ذلك، وأقمت يومى ذلك أبكى إلى الليل، ثم تمت فرأيت رب العزة جل جلاله في النوم، فقال: ياعبدى أثقل عليك أن منتت على عبد عاص بالرجوع إلىّ، إنما ذلك فضلى أوتيته من أشياء من عبادي، وأنا ذو الفضل العظيم.

وحكى أبو إسحاق الصعلوكى قال: خرجت سنة إلى الحج، فبينما أنا في البادية تائه، وقد جن الليل وكانت ليلة مقمرة إذ سمعت صوت شخص ضعيف يقول: يا أبا إسحاق قد انتظرتك من الغداة، فدنوت منه فإذا هو شاب نحيف الجسم قد أشرف على الموت، وحوله رياحين كثيرة منها ما أعرف ومنها ما لا أعرف، فقلت له: من أنت، ومن أين

أنت؟ قال: من مدينة شمشاط كنت في عزة ورفعة، ذللتني نفسي بالغبية والعزلة، فخرجت، وقد أشرفت الآن على الموت فدعوت الله تعالى أن يقيض لي ولياً من أوليائه وأرجو أن تكون أنت هو، فقلت: ألك حاجة؟ قال: نعم لي والددة وأخوة وأخوات، فقلت: هل اشتقت إليهم قط؟ قال: لا. إلا اليوم اشتقت أن أشم ريحهم، فهممت أريدهم فاحتوشنتني السباع والهوام وبكين معي، وحملوا إلي هذه الرياحين التي تراها، قال أبو إسحاق: فبينما أنا معه يرق له قلبي وإذا بحية عظيمة في فمها باقة نرجس كبيرة، فقالت: دع ولي الله تعالى، فإن الله يغار على أوليائه، قال: فغشي عليه، وغشي عليّ، فما أفقت إلا وهو قد خرجت روحه رحمه الله، قال: فدخلت مدينة شمشاط بعدما حججت فاستقبلتني امرأة بيدها ركوة ما رأيت أشبه بالشباب منها، فلما رأته نادته: يا أبا إسحاق ما شأن الشاب الذي مات غريباً، فإني منتظرتك منذ كذا؟ فذكرت لها القصة إلى أن قلت أشم ريحهم، فصاحت أواه أواه قد بلغ والله الشم، ثم شهقت شهقة خرجت روحها فخرج إليها بنات أتراب عليهن مرقعات ومروط، فكفلن أمرها وتولين دفنها وهن مستترات رضوان الله على الجميع. شعر:

يا نسيماً هب من وادي قبا خبريني كيف حال الغربا
كم سألت الدهر أن يجتمعنا مثل ما كنا عليه فابى

وحكى أن رجلاً كان يعرف بدينار العيار وكان له والددة صالحة تعظه وهو لا يتعظ، فمر في بعض الأيام بمقبرة، فأخذ منها عظماً، فتفتت في يده، ففكر في نفسه وقال: ويحك يا دينار كأني بك وقد صار عظمك هكذا رفاتاً والجسم تراباً، فندم على تفريطه وعزم على التوبة، ورفع رأسه إلى السماء وقال: إلهي وسيدي ألقيت إليك مقاليد أمري فاقبلني وارحمني، ثم أقبل نحو أمه متغير اللون منكسر القلب، فقال: يا أماه ما يصنع بالعبد الآبق إذا أخذه سيده؟ قال: يخشن ملبسه ومطعمه ويغل يديه وقدميه، فقال: أريد جبة من صوف وأقراصاً من شعر، وغلين وافعل بي كما يفعل بالعبد الآبق لعل مولاي يرى ذلي فيرحمني ففعلت به ما أراد، فكان إذا جن عليه الليل أخذ في البكاء والعيول ويقول لنفسه: ويحك يا دينار ألك قوة على النار؟ كيف تعرضت لغضب الجبار، ولا يزال كذلك إلى الصباح، فقالت له أمه: يا بني أرفق بنفسك، فقال: دعيني أتعب قليلاً لعلني أستريح طويلاً، يا أماه إن لي غداً موقفاً طويلاً بين يدي رب جليل ولا أدري أيؤمر بي إلى ظل ظليل أو إلى شر مقيل، قالت: يا بني خذ لنفسك راحة، قال: لست للراحة أطلب، كأنك يا أماه غداً بالخلائق يساقون إلى الجنة وأنا أساق إلى النار مع أهلها، فتركته وما هو عليه، فأخذ في البكاء والعبادة وقراءة القرآن، فقرأ في بعض الليالي: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]. ففكر فيها وجعل يبكي حتى غشى عليه، فجاءت أمه إليه، فنادته، فلم يجبها، فقالت له: يا حبيبي وقرة عيني أين الملتقى؟ فقال بصوت ضعيف: يا أماه إن لم تجدني في عرصات القيامة، فاسألي مالكا خازن النار عني، ثم شهق شهقة، فمات رحمه الله تعالى، فغسلته أمه وجهازته، وخرجت تنادي: أيها الناس هلموا إلى الصلاة على قتيل النار، فجاء الناس من كل جانب، فلم ير أكثر جمعاً ولا أغزر دمعاً من ذلك اليوم فلما دفنوه نام بعض أصدقائه تلك الليلة، فرآه يتبختر في الجنة وعليه حلة خضراء، وهو يقرأ الآية ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، ويقول: وعزته وجلاله سألني ورحمني وغفر لي وتجاوز عني ألا أخبروا عني والدتي بذلك.

وحكى عن الحسن البصري قال: نزل سائل بمسجد، فسأل الناس أن يطعموه كسرة، فلم يطعموه، فقال الله تعالى للملك الموت: اقبض روحه فإنه جائع، فقبض روحه، فلما جاء المؤذن رآه ميتاً، فأخبر الناس بذلك، فتعاونوا على دفنه، فلما دخل المؤذن المسجد وجد الكفن في المحراب مكتوباً عليه: هذا الكفن مردود عليكم بنس القوم أنتم استطعمكم فقير، فلم تطعموه حتى مات جوعاً، من كان من أحبائنا لانكله إلى غيرنا.

وحكى أبو علي المصري قال: كان لي جار شيخ يغسل الموتى فقلت له يوماً: حدثني بأعجب ما رأيت من الموتى، فقال: جاءني شاب في بعض الأيام مليح الوجه حسن الثياب، فقال لي: أتغسل لنا هذا الميت؟ قلت: نعم. فتتبعته حتى

أوقفني على باب، فدخل هنيهة، فإذا بجارية هي أشبه الناس بالشاب قد خرجت وهي تمسح عينيها، فقالت: أنت الغاسل؟ قلت: نعم. قالت: بسم الله ادخل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فدخلت الدار وإذا أنا بالشاب الذي جاءني يعالج سكرات الموت، وروحه في لبته، وقد شخص بصره، وقد وضع كفه وحنوطه عند رأسه، فلم أجلس إليه حتى قبض، فقلت: سبحان الله هذا ولي من أولياء الله حيث عرف وقت وفاته، فأخذت في غسله، وأنا أرتعد، فلما أدرجته أتت الجارية وهي أخته، فقبلته، وقالت: أما إنني سألحق بك عن قريب، فلما أردت الانصراف شكرت لي، وقالت: ارسل إلي زوجتك إن كانت تحسن ما تحسنه أنت، فارتعدت من كلامها وعلمت أنها لاحقة به، فلما فرغت من دفنه جئت أهلي فقصص عليها القصة وأتيت بها إلى الجارية، فوقفت بالباب واستأذنت، فقالت: بسم الله تدخل زوجتك، فدخلت زوجتي وإذا بالجارية مستقبلة القبلة وقد ماتت، فغسلتها زوجتي وأنزلتها على أخيها رحمة الله عليهما. شعر:

أحببنا بتم عن الدار فاشتكت
وفارقتم الدار الأنيسة فاستوت
كلأنكم يوم الفراق رحلت
وكنت شحياً من دموعي بقطرة
يراني بساماً غليلي يظن بي
وكم ضحكة في القلب منها حرارة
رعى الله أياماً بطيب حديثكم
فما قلت إياها بعدها لمسامر
لبعدكم آصالها وضحاها
رسوم مبانيتها وفاح كلاها
بنومي فعميني لاتصيب كراها
فقد صرت سمحاً بعدكم بدمها
سروراً وأحشائي السقام ملاها
يشب لظاها لو كَشَشفت غطاها
تقضت وحياتها الحيا وسقاها
من الناس إلا قسالة قلبي آها

وحكى سرى السقطي^(١) رحمه الله تعالى قال: أرقت ليلة ولم أقدر على النوم فلما طلع الفجر صليت، فلما أصبحت دخلت المارستان فإذا أنا بجارية مقيدة مغلولة وهي تقول:

تُغفل يدي إلى عنقي
وبين جوانحي كبعد
ومما خانت ومما سرقت
أحسن بها قد احتسرت

قال: فقلت للقيم: ما هذه الجارية؟ قال: هذه جارية اختل عقلها، فحبست لعلها تصلح، فلما سمعت كلامه تبسمت وقالت:

معشر الناس ما جننت ولكن
لم غللت يدي ولم آت ذنباً
أنا مفتونة بحب حبيب
ما على من أحب مولى المولى
أنا سكرانة وقلبي صاحي
غير هتكي في حبه وافترضاحي
لست أبغى عن بابه من براح
وارتضاه لنفسه من جناح

قال: فلما سمعت كلامها بكيت بكاء شديداً، فقالت: يا سرى هذا بكاؤك من الصفة، فكيف لو عرفته حق المعرفة؟ قال: فبينما هي تكلمني إذ جاء سيدها، فلما رآني عظمي، فقلت: والله هي أحق مني بالتعظيم، فلم فعلت بها هذا؟ قال: لتقصيرها في الخدمة، وكثرة بكائها وشدة حنينها وأنيها كأنها ثكلى، لاتنام ولاتدعنا ننام، وقد أشتريتها بعشرين

(١) سرى السقطي: هو سرى بن المغلس السقطي، أبو الحسن، من كبار المتصوفة، بغدادى المولد والوفاة، وهو أول من تكلم في بغداد بلسان التوحيد وأحوال الصوفية، وكان إمام البغداديين وشيخهم في وقته، وهو خال الجنيد، وأستاذه، قال: الجنيد: ما رأيت أعبد من السرى، أتت عليه ثمان وتسعون سنة، ما روى مضطجعا إلا في علة الموت توفى سنة (٢٥٣هـ - ٨٦٧م).

الف درهم لصناعتها فإنها مطربة، قلت: فما كان بدء أمرها؟ قال: كان العود في حجرها يوماً، فجعلت تقول:

وَحَقُّكَ لَانْقَضَتْ الدَّهْرَ عَهْدًا وَلَا كَدَّرَتْ بَعْدَ الصَّفَرِ وَدًا
مَلَأَتْ جَوَانِحِي وَالْقَلْبَ وَجْدًا فَكَيْفَ أَقْرَبُ يَا سَكْنَى وَأَهْدًا
فَيَا مَنْ لَيْسَ لِي مَوْلَى سِوَاهُ تُرَاكَ رَضِييْتَنِي بِالْبَابِ عَبْدًا

فقلت لسيدها: أطلقها وعلى ثمنها، فصاح وافقراء من أين لك عشرون ألفاً ياسرى؟ فقلت: لا تعجل على، فقال: تكون في المارستان حتى توفياني ثمنها، فقلت: نعم، قال سرى: فانصرفت وعيني تدمع وقلبي يخشع، وأنا والله ما عندي درهم من ثمنها، فبت طول ليلتي أتضرع إلى الله تعالى، فإذا بطارق يطرق الباب، ففتحت، فدخل على رجل ومعه ستة من الخدم ومعهم خمس بدر، فقال: أتعرفني ياسرى: قلت: لا، قال: أنا أحمد بن المثنى كنت نائماً، فهتف بى هاتف وقال لى: يا أحمد هل لك في معاملتنا؟ فقلت: ومن أولى منى بذلك؟ فقال: احمل إلى سرى السقطى خمس بدر من أجل الجارية الفلانية، فإن لنا بها عناية، قال سرى: فسجدت لله شكراً وجلست أتوقع طلوع الفجر، فلما طلع صلينا وذكرنا، وانصرفنا نحوها، فسمعناها تقول:

قَدْ تَصَبَّبْتُ إِلَى أَنْ عَمِلَ مِنْ حُبِّكَ صَبِيرِي
ضَمَاقَ مَنْ غَلَى وَقَسِيرِي وَامْتَهَنَانِي مِنْكَ صَدْرِي
لَيْسَ يَخْشَفُنِي عَنْكَ أَمْرِي يَا مَنْنِي قَلْبِي وَذَخِيرِي
أَنْتَ قَدْ تُعَمِّتُ رَقِي وَتَفْكَ الْيَسُومَ أَسْرِي

قال سرى: فبينما أنا أسمعها، وإذ بمولاها قد جاء وهو يبكي، فقلت: لا بأس عليك قد جئناك برأس مالك وريح عشرة آلاف درهم، فقال: والله لا فعلت ذلك. قلت: نزيديك. قال: والله لو أعطيتني ما بين الخافقين ما فعلت، وهى حرة لوجه الله تعالى، فقال: فتعجبت من ذلك، وقلت: ما كان هذا كلامك بالأمس، فقال: حيي لا توبخنى فالذى وقع لى من التوبيخ كفانى، وأشهدك أنى قد خرجت من جميع مالى صدقة فى سبيل الله تعالى، وإنى هارب إلى الله تعالى، فبالله لا تردنى عن صحبتك، فقلت: نعم. ثم التفت، فرأيت صاحب المال يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قال: يا أستاذى ما قبلنى مولاي لما ندبني إليه ورد على ما بذلت أشهدك أنى قد خرجت من جميع ما أملكه لله تعالى فى سبيل الله، وكل عبد أملكه وجارية أحرار لوجه الله تعالى، قال سرى: فقلت: ما أعظم بركتك يا جارية. قال: فنزعنا الغل من عنقها، والقيد من رجلها، وأخرجناها من المارستان، فنزعت ما كان عليها من ناعم الثياب، ولبست خماراً من صوف ومدرعة من شعر وولت، قال سرى: فتوجهت أنا ومولاها وصاحب المال إلى مكة، فبينما نحن نطوف إذ سمعنا صوتاً، فتبعناه فإذا هى امرأة كالخيال، فلما رأتنى قالت: السلام عليك يا سرى، فقلت لها: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته من أنت؟ فقالت: لا إله إلا الله وقع الشك بعد المعرفة، فتأملتها، فإذا هى الجارية، فقلت لها: ما الذى أفادك الحق بعد انفرادك عن الخلق؟ فقالت: أنسى به وحشتى من غيره، ثم توجهت إلى البيت، وقالت: إلهي كم تخلفنى فى دار لا أرى فيها أنيساً، قد طال شوقى، فعجل قدومى عليك، ثم شهقت شهقة وخرت ميتة رحمة الله تعالى عليها، فلما نظر إليها مولاها بكى وجعل يدعو ويضعف كلامه إلى أن خر إلى جانبها ميتاً، رحمة الله عليه، فدفنهما فى قبر واحد. شعر:

بحرمة ما قد كان بينى وبينكم من الودِّ إلا ما رجعتم إلى وصلى
ولا تحرمونى نظرة من جمالكم فلن تجدوا عبداً ذليلاً لكم مثلى
فوالله ما يهوى فؤادى سواكم ولو رشقوه بالأسنة والنبل

وحكى أنه كان فى زمن بنى إسرائيل رجل من العباد الموصوفين بالزهد، وكان قد سخر الله له سحابة تسير معه حيث يسير، فاعتراه فتور فى بعض الأيام، فأزال الله عنه سحابته وحجب إجابته، فكثر لذلك حزنه وشجونه، وطال كمدّه وأثنيه، ومازال يشتاقي إلى زمن الكرامة ويبكى ويتأسف ويتحسر ويتلهف، فقام ليلة من الليالى، فصلى ما شاء الله وبكى وتضرع ودعا الله تعالى ونام، فقبل له فى المنام: إذا أردت أن يرد الله تعالى عليك سحابتك، فائت الملك الفلانى فى بلد كذا واسأله أن يدعو الله لك أن يرد عليك سحابتك، قال: فسار الرجل يقطع الأرض حتى وصل إلى تلك البلد التى ذكرت له فى المنام، فدخلها وسأل من يرشده إلى قصر الملك، فجاء إلى القصر وإذا عند بابه غلام جالس على كرسى عظيم من الذهب الأحمر مرصع بالدر والجوهر والناس بين يديه يسألونه حوائجهم، وهو يصرف الناس، فوقف الرجل الصالح بين يديه وسلم عليه، فقال له الغلام: من أين أنت، وما حاجتك؟ فقال: من بلاد بعيدة، وقصدي الاجتماع بالملك، فقال له الغلام: لاسبيل لك اليوم، فسل حاجتك أقضها لك إن استطعت، فقال: إن حاجتى لا يقضيها إلا الملك، فقال الغلام: إن الملك ليس له إلا يوم واحد فى الجمعة يجتمع إليه الناس فيه، فاذهب حتى يأتى ذلك اليوم، فانصرف الرجل إلى مسجد دائر، وأقام يعبد الله تعالى فيه، وأنكر على الملك لاحتجابه على الناس، فلما كان ذلك اليوم الذى يجلس فيه الملك جاء إلى القصر، فوجد خلقاً كثيراً عند الباب ينتظرون الإذن، فوقف مع جملة الناس، فلما خرج الوزير أذن للناس فى الدخول، فدخل أرباب الحوائج، ودخل صاحب السحابة معهم، وإذا بالملك جالس وبين يديه أرباب دولته على قدر مراتبهم، فجعل رأس النوبة يقدم الناس واحداً بعد واحد حتى وصلت النوبة لصاحب السحابة، فلما نظر إليه الملك قال: مرحباً بصاحب السحابة. اجلس حتى أفرغ من حوائج الناس، وأنظر فى أمرك. قال: فتحير صاحب السحابة فى أمره، فلما فرغ الملك من حوائج الناس قام من مجلسه، فأخذ بيد صاحب السحابة وأدخله معه إلى قصره، ثم مشى به فى دهليز القصر، فلم يجد فى طريقه إلا مملوكاً واحداً، فسار به حتى انتهى إلى باب من جريد، وإذا به بناء مهديم وحيطان مائلة، وبیت خرب فيه برش وليس هناك ما يساوى عشرة دراهم إلا سجادة خلقة، وقدر للضوء وحصيرة رثة وشئ من الخوص فانخلع الملك من ثياب الملك، ولبس مرقعة من صوف وجعل على رأسه قلنسوة من شعر، ثم جلس وأجلس صاحب السحابة، ونادى يا فلانة، قالت: ليك. قال: أتدريين من هو الليلة ضيفنا؟ قالت: نعم هو صاحب السحابة فدعا بها لحاجة، فخرجت، فإذا هى امرأة كالشن البالى عليها مسح من شعر خشن، وهى شابة صغيرة، قال الرجل: فالتفت إلى الملك، وقال: يا أخى نطلعك على حالنا، أو نقضى حاجتك وتنصرف، فقلت: والله لقد شغلنى حالكما عما جئت بسببه، فقال الملك: الله يعلم أنه كان لى فى هذا الأمر آباء كرام صالحون يتوارثون المملكة كابراً عن كابر، فلما توفوا إلى رحمة الله تعالى، ووصل الأمر إلى بغض الله إلى الدنيا وأهلها فأردت أن أسبح فى الأرض، وأترك الناس ينظرون لهم من يسوس أمرهم، فيملكونه عليهم، فخفت عليهم دخول الفتنة، وتضييع الدين، والشرائع، وتبديل شمل الدين فبايعونى وأنا والله كاره، فتركت أمورهم على ما كانت عليه، وجعلت السباط على عادته، والحراس على حالها، والممالك على دأبها، ولم أغير شيئاً، وأقعدت الممالك على الأبواب بالسلاح إرهاباً لأهل الشرور وردعاً عن أهل الخير وتركت القصر مزيناً على حاله وفتحت له باباً وهو الذى رأيته يوصلنى إلى هذه الخربة، فأدخل فيها وأنزع ثياب الملك وألبس هذا، وأضفر الخوص وأبيعه، وأتقوت من ثمنه أنا وزوجتى هذه التى رأيته وهى ابنة عمى زهدت فى الدنيا كزهدى واجتهدت حتى صارت كالشن البالى، والناس لا يعلمون ما نحن فيه ثم إنى أقمت لى نائباً ينوب عنى طول الجمعة، وعلمت أنى مسؤول، فجعلت لى يوماً فى الجمعة أبرز للناس فيه وأكشف مظالمهم كما رأيت، وأنا على هذه الحالة مدة، فأقم عندنا يرحمك الله حتى نبيع خويصاتنا ونبتاع من ثمنها طعاماً ونقطر معنا، وتبيت عندنا الليلة ثم تنصرف بحاجتك إن شاء الله تعالى، فلما كان آخر النهار دخل علينا غلام خماسى العمر، فأخذ ما عملاه من خوص وسار به إلى السوق، فباعه واشترى من ثمنه خبزاً وفولاً واشترى ببقاى ثمنه خوصاً، فلما كان عند الغروب أظفرا وأظفرت معهما بيت عندهما. قال: فقاما فى نصف الليل يصليان ويكيان، فلما كان السحر قال الملك: اللهم إن عبدك هذا يطلب منك رد سحابته وإنك قد دللته علينا،

اللهم ارددّها عليه إنك على كل شيء قدير، والمرأة تؤمن على دعائه، وإذا بالسحابة قد طلعت من قبل السماء فقال لى: لك البشارة بقضاء حاجتك وتعجيل إجابتك. قال: فودعتهما وانصرفت والسحابة معى كما كانت، فأنا بعد ذلك لا أسأل الله تعالى بسرهما شيئاً إلا أعطانى إياه رحمة الله تعالى عليهما. شعر:

استعمل الصبر تجنى بعده العسلا
ومرغ الخدّ فى اعتابه سحراً
فما يفوز بوصل يا أخى سوى
هذا الحبيب ينادى فى الدجى سحراً
ولازم الباب حتى تبلغ الأملا
واحمل لمرضاته فى الحب كل بلا
صب لشغل الهوى والوجد قد حملا
فانهض وكن رجلاً بالسعى قد وصلا

وحكى عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى قال: خرجت إلى مكة حاجاً، فبينما أنا سائر إذ رأيت شاباً ساكتاً لا يذكر الله تعالى، فلما جن الليل رفع وجهه نحو السماء وقال: يا من لا تسره الطاعات، ولا تضره المعاصى هب لى ما لا يسرك، واغفر لى ما لا يضررك. ثم رأته بذى الحليفة وقد لبس إحرامه والناس يلبن وهو لا يلبى، فقلت هذا جاهل، فدنوت منه، فقلت له: يافتى، قال: لبيك، قلت له: لم لا تلبى؟ فقال يا شيخ: وما تغنى التلبية، وقد بارزته بذنوب سالفات وجرائم مكتوبات، والله إنى لأخشى أن أقول لبيك، فيقول: لا لبيك ولا سعديك لا أسمع كلامك، ولا أنظر إليك، فقلت له: لا تقول ذلك، فإنه حلیم إذا غضب رضى، وإذا رضى لم يغضب، وإذا وعد وفى ومتى تواعد عفا، فقال يا شيخ: أتشير على بالتلبية؟ قلت: نعم، فبادر إلى الأرض واضطجع ووضع خده على التراب وأخذ حجراً فوضعه على خده الآخر، وأسبل دموعه وقال: لبيك اللهم لبيك قد خضعت لك وهذا مصرعى بين يديك، فأقام كذلك ساعة، ثم مضى، فما رأته إلا بمنى وهو يقول: اللهم إن الناس ذبحوا ونحروا، وتقربوا إليك، وليس لى شيء أن أقرب به سوى نفسى، فتقبلها منى ثم شهق شهقة وخر ميتاً رحمة الله تعالى عليه.

وحكى أنه كان بمدينة بغداد رجل يعرف بأبى عبد الله الأندلسى، وكان شيخاً لكل من بالعراق وكان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ، وكان يقرأ القرآن بجميع الروايات، فخرج فى بعض السنين إلى السياحة، ومعه جماعة من أصحابه مثل الجنيد والشبلى وغيرهما من مشايخ العراق. قال الشبلى: فلم نزل فى خدمته، ونحن مكرمون بعناية الله تعالى إلى أن وصلنا إلى قرية من قرى الكفار فطلبنا ماء نتوضأ به، فلم نجد، فجعلنا ندور بتلك القرية، وإذا نحن بكنائس وبها شمامسة، وقساوسة ورهبان، وهم يعبدون الأصنام، والصلبان، فتعجبنا منهم ومن قلة عقولهم، ثم انصرفنا إلى بئر فى آخر القرية، وإذا نحن بجوار يستقى الماء على البئر وبينهن جارية حسنة الوجه ما فيهن أحسن ولا أجمل منها، وفى عنقها قلائد الذهب، فلما رآها الشيخ تغير وجهه وقال: هذه ابنة من؟ فقيل له: هذه ابنة ملك هذه القرية، فقال الشيخ: فلم لا يدللها أبوها ويكرمها ولا يدعها تستقى الماء؟ فقيل له: أبوها يفعل ذلك بها حتى إذا تزوجها رجل أكرمه وخدمته ولا تعجبها نفسها، فجلس الشيخ ونكس رأسه، ثم أقام ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب، ولا يكلم أحداً، غير أنه يؤدى الفريضة، والمشايخ واقفون بين يديه، ولا يدرون ما يصنعون، قال الشبلى: فتقدمت إليه، وقلت له: ياسيدى إن أصحابك ومريدك يتعجبون من سكوتك ثلاثة أيام وأنت ساكت لم تكلم أحداً، قال: فأقبل علينا، وقال: يا قوم اعلموا أن الجارية التى رأيتها بالأمس قد شغفت بها حباً، واشتغل بها قلبى، وما بقيت أقدر أفارق هذه الأرض.

قال الشبلى^(١): فقلت: يا سيدى أنت شيخ أهل العراق ومعروف بالزهد فى سائر الآفاق، وعدد مريدك اثنا عشر ألفاً، فلا تفضحننا وإياهم بحرمة الكتاب العزيز. فقال يا قوم: جرى القلم بما حكم، ووقعت فى بحار العدم وقد انحلت عنى الولاية، وطويت عنى أعلام الهداية، ثم إنه بكى بكاء شديداً، وقال يا قوم: انصرفوا، فقد نفذ

(١) الشبلى: هو دلف بن جحدر الشبلى، ناسك، كان فى مبدأ أمره والياً فى ديباوند (من نواحي رستاق الرى) وولى الحجابة للموفق العباسى، وكان أبوه حاجب الحجاب، ثم ترك الولاية وعكف على العبادة، فاشتهر بالصلاح، له شعر جيد سلك به مسالك المتصوفة: أصله من خرسان، ونسبته إلى قرية شبلة، توفى ببغداد سنة (٣٣٤هـ - ٩٤٦م).

القضاء والقدر، فتعجبنا من أمره، وسألنا الله تعالى أن يجيرنا من مكروه، ثم بكينا وبكى حتى أروى التراب، ثم انصرفنا عنه راجعين إلى بغداد، فخرج الناس إلى لقائه، ومريدوه في جملة الناس، فلم يروه، فسألوا عنه، فعرفناهم بما جرى، فمات من مريدیه جماعة كثيرة حزناً عليه وأسفاً، وجعل الناس ييكون ويتضرعون إلى الله تعالى أن يرده عليهم وغلقت الرباطات، والزوايا والخوانق، ولحق الناس حزن عظيم فأقمنا سنة كاملة، وخرجت مع بعض أصحابي نكشف خبره، فأتينا القرية، فسألنا عن الشيخ، فقليل لنا: إنه في البرية يرعى الخنازير، قلنا: وما السبب في ذلك؟ قالوا: إنه خطب الجارية من أبيها، فأبى أن يزوجه إلا ممن هو على دينها ويلبس العباءة ويشد الزنار، ويخدم الكنائس ويرعى الخنازير، ففعل ذلك كله، وهو في البرية يرعى الخنازير.

قال الشبلي: فانصدعت قلوبنا، وانهملت بالبكاء عيوننا، وسرنا إليه، وإذا به قائم قدام الخنازير، فلما رأنا نكس رأسه، وإذا عليه قلنسوة النصاري، وفي وسطه زنار، وهو متوكئ على العصا التي كان يتوكأ عليها إذا قام إلى المحراب، فسلمنا عليه، فرد علينا السلام، فقلنا: يا شيخ ما ذاك وماذا وما هذه الكروب والهموم بعد تلك الأحاديث والعلوم؟ فقال: يا إخواني وأحبائي ليس لي من الأمر شيء، سيدي تصرف في كيف شاء، وحيث أراد أبعثنى عن بابه بعد أن كنت من جملة أحبابه، فالحذر الحذر يا أهل وداده من صده وإبعاده، والحذر الحذر يا أهل المودة والصفاء من القطيعة والجفاء، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: يا مولاي ما كان ظني فيك هذا، ثم جعل يستغيث ويبكي ونادى يا شبلي اتعظ بغيرك، فنادى الشبلي بأعلى صوته: بك المستعان وأنت المستغاث، وعليك التكلان. اكشف عنا هذه الغمة بحلمك، فقد دهمنا أمر لا كاشف له غيرك، قال: فلما سمعت الخنازير بكاءهم، وضجيجهم أقبلت إليهم وجعلت تمرغ وجوهها بين أيديهم وزعقت زعقة واحدة دويت منها الجبال. قال الشبلي: فظننت أن القيامة قد قامت، ثم إن الشيخ بكى بكاءً شديداً. قال الشبلي: فقلنا له: هل لك أن ترجع معنا إلى بغداد؟ فقال: كيف لي بذلك، وقد استرعت الخنازير بعد أن كنت أرعى القلوب؟ فقلت: يا شيخ كنت تحفظ القرآن وتقرؤه بالسبع فهل بقيت تحفظ منه شيئاً؟ فقال: نسيته كله إلا آيتين، فقلت: وما هما؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨] والثانية قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨]. فقلت: يا شيخ كنت تحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ، فهل تحفظ منها شيئاً؟ قال: حديثاً واحداً، وهو قوله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»، قال الشبلي: فتركناه، وانصرفنا، ونحن مستعجبون من أمره، فسرنا ثلاثة أيام وإذا نحن به أمامنا قد تطهر من نهر وطلع، وهو يشهد شهادة الحق، ويجدد إسلامه، فلما رأيناه لم نملك أنفسنا من الفرح والسرور، فنظر إلينا، وقال: يا قوم اعطوني ثوباً طاهراً، فأعطيناه ثوباً، فلبسه، ثم صلى وجلس، فقلنا له: الحمد لله الذي ردك علينا، وجمع شملنا بك، فصف لنا ما جرى لك، وكيف كان أمرك؟ فقال يا قوم: لما وليتم من عندي سألت بالوداد القديم، وقلت له: يا مولاي أنا المذنب الجاني، فعفا عني بجوده، وبستره غطاني، فقلنا له: بالله نسألك هل كان لمحتك من سبب؟ قال: نعم. لما وردنا القرية، وجعلتم تدورون حول الكنائس قلت في نفسي: ما قدر هؤلاء عندي، وأنا مؤمن موحد، فنوديت في سري ليس هذا منك، ولو شئت عرفتك، ثم أحسست بطائر قد خرج من قلبي، فكان ذلك الطائر هو الإيمان. قال الشبلي: ففرحنا به فرحاً شديداً، وكان يوم دخولنا يوماً عظيماً مشهوداً، وفتحت الزوايا، والرباطات والخوانق، ونزل الخليفة للقاء الشيخ، وأرسل إليه الهدايا، وصار يجتمع عنده لسماع علمه أربعون ألفاً، وأقام على ذلك زماناً طويلاً ورد الله عليه ما كان نسيه من القرآن والحديث، وزاده على ذلك.

فبينما نحن جلوس عنده في بعض الأيام بعد صلاة الصبح، وإذا نحن بطارق يطرق باب الزاوية، فنظرت من الباب، فإذا شخص ملثف بكساء أسود، فقلت له: ما الذي تريد؟ فقال: قل لشيخكم إن الجارية الرومية التي تركتها بالقرية الفلانية قد جاءت لخدمتك. قال: فدخلت فعرفت الشيخ، فاصفر لونه وارتعد، ثم أمر بدخولها، فلما دخلت عليه بكت بكاءً شديداً، فقال لها الشيخ: كيف كان مجيئك، ومن أوصلك إلى هاهنا؟ قالت: يا سيدي لما وليت من قريتنا

جائنى من أخبرنى بك، فبت ولم يأخذنى قرار، فرأيت فى منامى شخصاً وهو يقول: إن أحببت أن تكونى من المؤمنات، فاتركى ما أنت عليه من عبادة الأصنام، واتبعى ذلك الشيخ، وادخلى فى دينه، فقلت: وما دينه؟ قال: دين الإسلام، قلت: وما هو؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فقلت: كيف لى بالوصول إليه؟ قال: اغمضى عينيك، واعطينى يدك، ففعلت، فمشى قليلاً، ثم قال: افتحى عينيك، ففتحتهما، فإذا أنا بشاطئ الدجلة، فقال: امضى إلى تلك الزاوية، واقترنى منى الشيخ السلام، وقولى له: إن أخاك الخضر يسلم عليك، قال: فأدخلها الشيخ إلى جواره، وقال: تعبدى هاهنا فكانت أعبد أهل زمانها تصوم النهار وتقوم الليل حتى نحل جسمها، وتغير لونها، فمرضت مرض الموت، وأشرفت على الوفاة، ومع ذلك لم يرها الشيخ، فقالت: قولوا للشيخ يدخل على قبل الموت، فلما بلغ الشيخ ذلك دخل عليها، فلما رآته بكت، فقال لها: لا تبكى، فإن اجتماعنا غداً فى القيامة فى دار الكرامة، ثم انتقلت إلى رحمة الله تعالى، فلم يلبث الشيخ بعدها إلا أياماً قلّلت حتى مات رحمة الله تعالى عليه.

قال الشبلى: فرأيت فى المنام، وقد تزوج سبعين حوراء وأول ما تزوج بالجارية، وهما مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله، وكفى بالله عليمًا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى ذكر الأشرار و الفجار وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاهة

عن النواس بن سميان رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «قبل قيام الساعة يرسل الله ريحاً باردة طيبة، فتقبض روح كل مؤمن ويبقى شرار الخلق يتهارجون تهارج الحمير، وعليهم تقوم الساعة». وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: كفى بالمرء شراً أن لا يكون صالحاً ويقع فى الصالحين. وقال لقمان لابنه: يا بني كذب من قال الشر يطفىء الشر، فإن كان صادقاً فليوقد نارين ثم ينظر هل تطفىء إحداهما الأخرى، وإنما يطفىء الشر الخير كما يطفىء الماء النار. ووصف بعضهم رجلاً من أهل الشر فقال: فلان عُرِّيَ من حلة التقوى ومُحِيَّ عنه طابع الهدى، لاثنيه يد المراقبة، ولا تكفه خيفة المحاسبة، وهو لدعائم دينه مضيع ولدواعى شيطانه مطيع. شعر:

كَأَنَّهُ التَّيْسُ قَدْ أودى به هَرَمٌ فـلَا لَحْمٌ وَلَا صُوفٌ وَلَا ثَمَرُ

وقيل: من فعل ما شاء لقى ما ساء. وقيل: زنى رجل بجارية فأحبها، فقالوا له: يا عدو الله هلا إذا ابتليت بفاحشة عزلت؟ قال: قد بلغنى أن العزل مكروه، قالوا: فما بلغك أن الزنا حرام؟. وقيل لأعرابي كان يتعشق قينة: ما يضرك لو اشتريتها ببعض ما تنفق عليها، قال: فمن لى إذ ذاك بلذة الخلسة ولقاء المسارقة وانتظار الموعد. وقال أبو العيئة: رأيت جارية مع النخاس وهى تحلف أن لا ترجع لمولاها، فسألته عن ذلك، فقالت: ياسيدى إنه يواقعنى من قيام، ويصلى من قعود، ويشتمنى بأعراب، ويلحن فى القرآن، ويصوم الخميس والاثنين، ويفطر رمضان، ويصلى الضحى، ويترك الفرض. فقلت: لا أكثر الله فى المسلمين مثله.

وكانت ظُلْمَةُ القوادة وهى صغيرة فى المكتب تسرق دوايات الصبيان وأقلامهم، فلما شبت زنت، فلما كبرت قادت. وقال صاحب المسالك والممالك إن عامة ملوك الهند يرون الزنا مباحاً، خلا ملك قمار، قال الزمخشري^(١) رحمه الله: أقمت بقمار سنين، فلم أر ملكاً أغير منه، وكان يعاقب على الزنا وشرب الخمر. وقمار ينسب إليها العود القمارى كما ينسب إلى مندل، قال مسكين الدارمي:

وَلَا ذَنْبَ لِلْعُودِ الْقَمَارِيِّ إِنَّهُ يُحَرِّقُ إِنْ نَمَتْ عَلَيْهِ رَوَائِحُهُ

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: عهدت الناس وهوام تبع لأديانهم، وإن الناس اليوم أديانهم تبع لأهوائهم. وقال رسول الله ﷺ: «حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

ما جاء فى الوقاحة والسفاهة وذكر الغوغاء

قال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت»، وفى ذلك قيل:

إِذَا لَمْ تَصْنِ عَرْضًا وَلَمْ تَخْشِ خَالِقًا وَتَسْتَحِ مَخْلُوقًا فَمَا شِئْتَ فَاصْنَعِ

وقال ابن سلام: العاقل شجاع القلب والأحمق شجاع الوجه. وذم رجل قوماً، فقال: وجوههم وأيديهم حديد أى وقاح بخلاء. ووصف رجل وقحاً فقال: لو دق الحجارة بوجهه لردّها ولو خلا بأستار الكعبة لسرقها، قال الشاعر:

لَوْ أَنَّ لِي مِنْ جِلْدِ وَجْهِكَ رَقْعَةً لَجَعَلْتُ مِنْهَا حَافِرًا لِلْأَشْهَبِ

وقال آخر:

إِذَا رَزَقَ الْفَتَى وَجْهًا وَقَاحًا تَقَلَّبَ فِي الْأُمُورِ كَمَا يَشَاءُ

(١) الزمخشري: هو محمود بن عمر بن محمد، أبو القاسم الخوارزمي، صاحب كتاب «الكشاف» فى التفسير وهو أحد الأئمة العلماء بالدين والتفسير واللغة والأدب توفى سنة (٥٣٨هـ - ١١٤٤م).

وقال أنوشروان: أربعة قبائح وهى فى أربعة أقبح: البخل فى الملوك، والكذب فى القضاة، والحسد فى العلماء، والوقاحة فى النساء. ويقال: من جسر أيسر ومن هاب خاب. قال الشاعر:

لا تكونن فى الأمور هيباً فإلى خيبة يصير الهيب

وقال على رضى الله عنه: إذا هبتَ أمراً فقع فيه، فإنَّ شراً توقيه أعظم مما تخاف منه. وقال رضى الله عنه: الغوغاء إذا اجتمعوا ضروا، وإذا افترقوا نفعوا، فقل: قد علمنا مضرة اجتماعهم فما منفعة افتراقهم؟ قال: يرجع أهل المهن إلى مهنتهم، فيتتبع الناس بهم كرجوع البناء إلى بنائه والنساج إلى منسجه، والخباز إلى مخبزه. وقال بعض السلف: لا تسبوا الغوغاء، فإنهم يطفئون الحريق ويخرجون الغريق. وقال الأحنف: ما قل سفهاء قوم إلا ذلوا. وقال حكيم: لا يخرجن أحد من بيته إلا وقد أخذ فى حجره قيراطين من جهل، فإن الجاهل لا يدفعه إلا الجهل أراد السفه. قال الشاعر:

ألا لا يجـهـلن أحـدٌ علينا فنـجـهـل فـوق جـهـل الجاهلينا

وقيل: الجاهل من لاجاهل له. أى: من لاسفيه له يدفع عنه. وقيل: بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه جالس، إذ جاء أعرابى، فلطمه، فقام إليه واقد بن عمرو، فجلد به الأرض، فقال عمر: ليس بعزيز من ليس فى قومه سفیه. وقال الشاعر:

ولا يلبث الجهال أن يتهضموا أخا الحلم ما لم يستعن بجهول

وقال صالح بن جناح:

إذا كنت بين الجهل والحلم قاعداً وخُيِّرت أئى شئت فالحلم أفضل
ولكن إذا أنصفت من ليس منصفاً ولم يرض منك الحلم فالجهل أمثل

وقال الأحنف بن قيس:

وذى ضغن أبیتُ القسولَ عنه بحلم فاستمرَّ على المقال
ومن يحلم وليس له سفيهة يلاق المضلات من الرجال

وقال آخر:

فإن كنت محتاجاً إلى الحلم إننى إلى الجهل فى بعض الأحيان أحوج
ولى فرس للخير بالخير ملجم ولى فرس للشر بالشر مسرج
فمن رام تقوى فلانى مقوم ومن رام تعوىجى فلانى معوج

وقال آخر:

فإن قيل حلمٌ قلت للحلم موضعٌ وحلم الفتى فى غير موضعه جهل

اللهم إنا نعوذ بك أن نجعل أو يجهل علينا برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق واصطناع المعروف

وذكر الأمجاد وأحاديث الأجواد

اعلم أن الجود بذل المال، وأنفعه ما صرف فى وجه استحقاقه، وقد ندب الله تعالى إليه فى قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. قيل: إن الجود والسخاء والإيثار بمعنى واحد. وقيل: من أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر فهو صاحب جود، ومن أثر غيره بالحاضر، وبقي هو فى مقاساة الضرر فهو صاحب إيثار. وأصل السخاء هو السماحة، وقد يكون المعطى بخيلاً إذا صعب عليه البذل، والممسك سخياً إذا كان لا يستصعب العطاء.

فمن الإيثار ما حكى عن حذيفة العدوى أنه قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى فى القتلى ومعى شئ من الماء، وأنا أقول، إن كان به رفق سقيته، فإذا أنا به بين القتلى، فقلت له: أسقيك؟ فأشار إلى أن نعم، فإذا برجل يقول: آه، فأشار إلى ابن عمى أن انطلق إليه واسقه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك؟ فأشار إلى أن نعم. فسمع آخر يقول: آه، فأشار إلى أن انطلق إليه، فجثته، فإذا هو قد مات. فرجعت إلى هشام، فإذا هو قد مات. فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات.

ومن عجائب ما ذكر فى الإيثار: ما حكاه أبو محمد الأزدي قال: لما احترق المسجد بمرو ظن المسلمون أن النصارى أحرقوه فأحرقوا خاناتهم فقبض السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخانات وكتب رقاعاً فيها القطع والجلد والقتل ونثرها عليهم فمن وقع عليه رقعته فعل به ما فيها. ف وقعت رقعة فيها القتل بيد رجل فقال: والله ما كنت أبالى لولا أم لى وكان بجنبه بعض الفتيان فقال له: فى رقعتى الجلد وليس لى أم فخذ أنت رقعتى وأعطنى رقعتك ففعل، فقتل ذلك الفتى وتخلص هذا الرجل.

وقيل لقيس بن سعد: هل رأيت قط أسخى منك؟ قال: نعم، نزلنا بالبادية على امرأة فجاء زوجها، فقالت له: إنه نزل بنا ضيفان. فجاءنا بناقة فنحراها، وقال: شأنكم. فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرتها، وقال: شأنكم، فقلنا: ما أكلنا من التى نحرت البارحة إلا القليل، فقال: إني لا أطعم ضيفانى البائت. فبقينا عنده أياماً، والسماء تمطر وهو يفعل كذلك، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار فى بيته، وقلنا للمرأة: اعتذرى لنا إليه ومضيها، فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلفنا قفوا أيها الركب اللثام، أعطيتمونا ثمن قرانا، ثم إنه لحقنا، وقال: خذوها وإلا طعتكم برمحي هذا، فأخذناها وانصرفنا.

وقال بعض الحكماء: أصل المحاسن كلها الكرم، وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام وسخاؤها بما تملك على الخاص والعام، وجميع خصال الخير من فروعه، وقال رسول الله ﷺ: «تجاوزوا عن ذنب السخى فإن الله آخذ بيده كلما عثر وفاتح له كلما افتقر». وعن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط، فقال: لا. وعنه ﷺ أنه قال: «السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار، والبخل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة قريب من النار، ولجاهلٌ سخى أحب إلى الله من عابدٍ بخل». وقال بعض السلف: منع الموجود سوء ظن بالمعبود. وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٣٩) [سبا: ٣٩]. وقال الفضيل: ما كانوا يعدون القرض معروفاً. وقال أكثم بن صيفى: صاحب المعروف لا يقع وإن وقع وجد له متكناً. وقيل للحسن بن سهل: لا خير فى السرف، فقال: لا سرف فى الخير، فقلب اللفظ واستوفى المعنى. ووجد مكتوباً على حجر: «انتهاز الفرص عند إمكانها ولا تحمل نفسك هم ما لم يأتك، واعلم أن تقشيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك، فكم من جامع لبعل حليلته». وقال على رضى الله تعالى عنه: ما جمعت من المال فوق قوتك فإتما أنت فيه خازن لغيرك. وقال النعمان بن المنذر يوماً لجلسائه: من أفضل الناس عيشاً وأنعمهم بالاً وأكرمهم طباعاً، وأجلهم فى النفوس قدراً؟ فسكت القوم، فقام فتى فقال: آييت اللعن، أفضل الناس من عاش الناس فضله. فقال:

صدقته. وكان أسماء بن خارجة يقول: ما أحب أن أرد أحداً عن حاجة، لأنه إن كان كريماً أصون عرضه أو لثيماً أصون عنه عرضي. وكان مورك العجلي يتلطف في إدخال السرور والرفق على إخوانه، فيضع عند أحدهم البذرة، ويقول له: امسكها حتى أعود إليك، ثم يرسل يقول له: أنت منها في حل. وقال الحسن رضي الله عنه: باع طلحة بن عثمان رضي الله تعالى عنه أرضاً بسبعمئة ألف درهم، فلما جاء المال قال: إن رجلاً يبيت هذا عنده لا يدري ما يُطرقه لغرير بالله تعالى ثم قسمه في المسلمين.

ولما دخل المنكدر على عائشة رضي الله عنها قال لها: يا أم المؤمنين أصابتنى فاقة فقالت ما عندي شيء، فلو كان عندي عشرة آلاف درهم لبعثت بها إليك. فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف درهم من عند خالد بن أسيد فأرسلت بها إليه في أثره، فأخذها ودخل بها السوق، فاشتري جارية بألف درهم، فولدت له ثلاثة أولاد، فكانوا عباد المدينة، وهم محمد وأبو بكر، وعمر بنو المنكدر. وأكرم العرب في الإسلام طلحة بن عبيد الله رضي الله تعالى عنه، جاء إليه رجل، فسأله برحم بينه وبينه، فقال هذا حائطي بمكان كذا وكذا، وقد أعطيت فيه مائة ألف درهم، يراح إلى بالمال العشية، فإن شئت فالمال، وإن شئت فالحائط. وقال زياد بن جرير: رأيت طلحة بن عبيد الله فرق مائة ألف في مجلس وإنه ليخيط لإزاره بيده.

وذكر الإمام أبو علي القالي في كتاب الأمالي: (١) أن رجلاً جاء إلى معاوية رضي الله تعالى عنه فقال له: سألتك بالرحم التي بيني وبينك إلا ما قضيت حاجتي، فقال له معاوية: أمن قريش أنت؟ قال: لا، قال: فأي رحم بيني وبينك؟ قال: رحم آدم عليه السلام. قال: رحم مجفوة والله لاكونن أول من وصلها، ثم قضى حاجته.

وروي أن الأشعث بن قيس أرسل إلى عدي بن حاتم يستعير منه قدوراً كانت لأبيه حاتم، فملأها مالا وبعث بها إليه، وقال: إنا لا نعيها فارغة. وكان الأستاذ أبو سهل الصعلوكي من الأجواد، ولم يتناول أحداً شيئاً وإنما كان يطرحه في الأرض، فيتناوله الآخذ من الأرض، وكان يقول: الدنيا أقل خطراً من أن ترى من أجلها يد فوق يد أخرى. وقد قال النبي ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى». وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهم، عن الكرم فقال: هو التبرع بالمعروف قبل السؤال، والرافة بالسائل مع البذل. وقدم رجل من قريش من سفر، فمر على رجل من الأعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر وأضر به المرض، فقال له: يا هذا أعنا على الدهر، فقال لغلّامه: ما بقي معك من النفقة فادفعه إليه، فصب في حجره أربعة آلاف درهم فهم ليقوم، فلم يقدر من الضعف فبكى، فقال له الرجل: ما يبكيك لعلك استقلت ما دفعناه إليك؟ فقال: لا والله ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني. وقال بعضهم: قصد رجل إلى صديق له فدق عليه الباب، فخرج إليه وسأله عن حاجته، فقال: علي دين كذا وكذا، فدخل الدار وأخرج إليه ما كان عليه، ثم دخل الدار باكياً، فقالت له زوجته: هلا تعللت حيث شئت عليك الإجابة، فقال: إنما أبكى لأنني لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى أن سألني.

ويروي أن عبد الله بن أبي بكر، وكان من أجود الأجواد، عطش يوماً في طريقه، فاستسقى من منزل امرأة، فأخرجت له كوزاً، وقامت خلف الباب وقالت: تنحوا عن الباب، وليأخذه بعض غلمانكم، فإني امرأة عذب مات زوجي منذ أيام، فشرب عبد الله الماء وقال: يا غلام احمل إليها عشرة آلاف درهم، فقالت: سبحان الله أتسخر بي؟ فقال: يا غلام احمل إليها عشرين ألفاً، فقالت: أسأل الله العافية، فقال: يا غلام احمل إليها ثلاثين ألفاً فما أمست، حتى كثر خطابها. وكان رضي الله تعالى عنه ينفق على أربعين داراً من جيرانه عن يمينه، وأربعين عن يساره، وأربعين أمامه، وأربعين خلفه، ويبعث إليهم بالأضاحي والكسوة في الأعياد، ويعتق في كل عيد مائة مملوك رضي الله تعالى عنه.

ولما مرض قيس بن سعد بن عبادة استبطأ إخوانه في العيادة، فسأل عنهم فقيل له: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: أخزى الله مالا يمنع عني الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً ينادي من كان لقيس عنده مال، فهو منه في حل. فكسرت عتبة بابها بالعشي لكثرة العواد. وكان عبد الله بن جعفر من الجود بالمكان المشهود وله فيه أخبار يكاد سامعها ينكرها لبعدها عن المعهود، وكان معاوية يعطيه ألف ألف درهم في كل سنة، فيفرقها في الناس ولا يرى إلا

(١) أبو علي القالي: هو إسماعيل بن القاسم بن عيزون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان أبو علي القالي، أحفظ أهل زمانه للغة والشعر والأدب، تعلم في بغداد، ثم رحل إلى المغرب، وله: «النوادر» و«أمالي القالي» و«البارع»، توفي في قرطبة سنة (٣٥٦هـ - ٩٦٧م).

وعليه دين. وسمن رجل بهيمة ثم خرج بها لبيعها، فمر بعبد الله بن جعفر رضى الله تعالى عنه، فقال: يا صاحب البهيمة أتبيعها؟ قال: لا، ولكنها هي لك هبة، ثم تركها له، وانصرف إلى بيته، فلم يلبث إلا يسيراً، وإذا بالحمالين على بابه عشرين نفرأ. عشرة منهم يحملون حنطة، وخمسة لحماً وكسوة، وأربعة يحملون فاكهة ونقلأ، وواحد يحمل مالأ، فأعطاه جميع ذلك، واعتذر إليه رضى الله تعالى عنه.

ولما مات معاوية رضى الله تعالى عنه، وفد عبد الله بن جعفر على يزيد ابنه، فقال: كم كان أمير المؤمنين معاوية يعطيك؟ فقال: كان رحمه الله يعطينى ألف ألف، فقال يزيد: قد زدناك لترحمك عليه ألف ألف. فقال: بأبى وأمى أنت، فقال: ولهذه ألف ألف، فقال: أما إنى لا أقولها لأحد بعدك، فقيل ليزيد: أعطيت هذا المال كله من مال المسلمين لرجل واحد، فقال: والله ما أعطيته إلا لجميع أهل المدينة، ثم وكل به يزيد من صحبه وهو لا يعلم لينظر ما يفعل، فلما وصل المدينة فرق جميع المال حتى احتاج بعد شهر إلى الدين. وخرج رضى الله تعالى عنه هو والحسنان، وأبو دحية الأنصارى رضى الله تعالى عنهم من مكة إلى المدينة، فأصابتهم السماء بمطر، فلجأوا إلى خباء أعرابى، فأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى سكنت السماء، فذبح لهم الأعرابى شاة، فلما ارتحلوا قال عبد الله للأعرابى: إن قدمت المدينة، فسل عنا، فاحتاج الأعرابى بعد سنين، فقالت له امرأته: لو أتيت المدينة، فلقيت أولئك الفتيان، فقال: قد نسيت أسماءهم، فقالت: سل عن ابن الطيار، فأتى المدينة، فلقي سيدنا الحسن رضى الله تعالى عنه، فأمر له بمائة ناقة بفحولها وبرعاتها، ثم أتى الحسين رضى الله تعالى عنه، فقال: كفانا أبو محمد مؤونة الإبل، فأمر له بألف شاة، ثم أتى عبد الله بن جعفر رضى الله تعالى عنه، فقال: كفانى إخوانى الإبل والشيء، فأمر له بمائة ألف درهم. ثم أتى أبا دحية رضى الله تعالى عنه، فقال: والله ما عندى مثل ما أعطوك، ولكن اتنى بإيلك، فأوقرها لك تمرأ. فلم يزل اليسار فى عقب الأعرابى من ذلك اليوم.

وقال الحسن والحسين يوماً لعبد الله بن جعفر رضى الله عنهم: إنك قد أسرفت فى بذل المال، فقال: بأبى أنتما. إن الله عز وجل عودنى أن يتفضل علىّ، وعودته أن أتفضل على عباده، فأخاف أن أقطع العادة، فيقطع عنى المادة، وامتدحه نصيبأ، فأمر له بخيل، وأثاث، ودنانير ودراهم. فقال له رجل: مثل هذا الأسود تعطى له هذا المال؟ فقال: إن كان أسود فإن ثنائه أبيض، ولقد استحق بما قال أكثر مما نال، وهل أعطيناه إلا ثيابأ تبلى ومالأ يفنى، وأعطانا مدحأ يروى وثنأ يبقى، وخرج عبد الله رضى الله تعالى عنه يوماً إلى ضيعة له، فنزل على حائط به نخيل لقوم، وفيه غلام أسود يقوم عليه، فأتى بقوته ثلاثة أقراص، فدخل كلب، فدنا من الغلام، فرمى إليه بقرص، فأكله، ثم رمى إليه بالثانى والثالث، فأكلهما. وعبد الله ينظر إليه، فقال: يا غلام. كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت؟ قال: فلم أثرت هذا الكلب؟ قال: أرضنا ما هى بأرض كلاب، وإنه جاء من مسافة بعيدة جائعأ، فكرهت أن أرده، قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوى يومى هذا، فقال عبد الله بن جعفر: ألام على السخاء، وإن هذا لأسخى منى، فاشتري الحائط، وما فيه من النخيل والآلات واشترى الغلام ثم أعتقه، ووهبه الحائط بما فيه من النخيل والآلات. فقال الغلام: إن كان ذلك لى فهو فى سبيل الله تعالى، فاستعظم عبد الله ذلك منه، فقال: وجود هذا وأبخل أنا؟ لا كان ذلك أبداً.

وكان عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما من الأجواد، أتاه رجل وهو بفناء داره، فقام بين يديه، قال: يا ابن عباس إن لى عندك يداً وقد احتجت إليها، فصعد فيه بصره، فلم يعرفه، فقال: ما يدك؟ قال: رأيتك واقفاً بفناء زمزم وغلامك يمنح لك من مائها، والشمس قد صهرتْك، فظللتك بفضل كسائى حتى شربت. فقال: أجل إنى لأذكر ذلك، ثم قال لغلامه: ما عندك؟ قال: مائتا دينار، وعشرة آلاف درهم. فقال: ادفعها إليه، وما أراها تفى بحق يده. وقدم عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما على معاوية مرة، فأهدى إليه من هدايا النوروز حلالأ كثيرة ومسكأ، وأنية من ذهب وفضة، ووجهها إليه مع حاجبه، فلما وضعها بين يديه نظر إلى الحاجب، وهو ينظر إليها، فقال له: هل فى نفسك منها شىء؟ قال: نعم، والله إن فى نفسى منها ما كان فى نفس يعقوب من يوسف عليهما السلام، فضحك عبد الله، وقال: خذها، فهى لك، قال: جعلت فداءك أخاف أن يبلغ ذلك معاوية، فيحقد علىّ، قال: فاختمها بخاتمك، وسلمها إلى الخازن، فإذا كان وقت خروجنا حملناها إليك ليلاً، فقال الحاجب: والله لهذه الحيلة فى الكرم أكثر من الكرم.

وحبس معاوية عن الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما صلاته، فقيل: لو وجهت إلى ابن عمك عبد الله بن عباس، فإنه قدم بنحو ألف ألف، فقال الحسين: وأنى تقع ألف ألف من عبد الله، فوالله لهو أجود من الريح إذا عصفت، وأسخر من البحر إذا زخر، ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب يذكر فيه حبس معاوية صلاته عنه، وضيق حاله وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم، فلما قرأ عبد الله كتابه انهملت عيناه، وقال: ويلك يا معاوية أصبحت لين المهادر، رفيع العماد، والحسين يشكو ضيق الحال، وكثرة العيال، ثم قال لوكيله: احمل إلى الحسين نصف ما أملكه من ذهب وفضة ودواب، وأخبره أني شاطرته، فإن كفاه وإلا احمل إليه النصف الثاني، فلما أتاه الرسول قال: إنا لله وإنا إليه راجعون. ثقلت والله على ابن عمي، وما حسبت أنه يسمح لنا بهذا كله رضوان الله عليهم أجمعين.

وجاء رجل من الأنصار إلى عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما فقال له: يا ابن عم محمد ﷺ إنه ولد لي في هذه الليلة مولود، وإنني سميت به باسمك تبركا بك، وإن أمه ماتت، فقال له: بارك الله لك في الهبة، وأجرك على المصيبة، ثم دعا بوكيله، وقال له: انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه، وادفع لأبيه مائتي دينار لينفقها على تربيته، ثم قال للأنصاري: عد إلينا بعد أيام، فإنك جئتنا، وفي العيش ييس، وفي المال قلة، فقال الأنصاري: جعلت فداك لو سبقت حائماً بيوم ما ذكرته العرب.

وقال أبو جهم بن حذيفة يوماً لمعاوية: أنت عندنا يا أمير المؤمنين كما قال ابن عبد كلال:

يقيناً ما نخاف وإن ظننا	به خير أرائاه يقينا
نميل على جوانبه كأننا	إذا ملنا نميل على أبينا
نقلبه لنخبر حالتيه	فنخبر منهما كرمنا ولينا

فأمر له بمائة ألف درهم، وأنشده عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما:

بلوت الناس قرناً بعد قرن	فلم أر غير ختالٍ وقال
ولم أر في الخطوب أشدّ قعاً	وأَمْضى من معاداة الرجّال
وذقت مرارة الأشياء طراً	فما شيءٌ أَمَرٌ من السّوال

فأعطاه مائة ألف درهم. ودخل عليه الحسن يوماً وهو مضطجع على سريره، فسلم عليه، وأقعده عند رجله وقال: ألا تعجب من قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تزعم أنني لست للخلافة أهلاً، ولا لها موضعاً؟ فقال الحسن: أو عجباً مما قلت؟ قال: كل العجب. قال الحسن: وأعجب من هذا كله جلوسى عند رجلك، فاستحيا معاوية، واستوى جالساً، ثم قال: أقسمت عليك يا أبا محمد إلا ما أخبرتنى كم عليك ديناً؟ قال: مائة ألف درهم، فقال يا غلام: اعط أبا محمد ثلاثمائة ألف درهم مائة ألف يقضى بها دينه، ومائة يفرقها على مواليه، ومائة يستعين بها على نوائبه، وسوغها إليه الساعة. وكان معن بن زائدة من الأجواد وكان عاملاً على العراق بالبصرة، قيل: إنه أتى إليه أحد الشعراء، فأقام ببابه مدة يريد الدخول عليه، فلم يتهيأ له ذلك، فقال يوماً لبعض الخدم: إذا دخل الأمير البستان، فعرفنى، فلما دخل أعلمه بذلك، فكتب الشاعر بيتاً ونقشه على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل البستان، وكان معن جالساً على القناة، فلما رأى الخشبة أخذها، وقرأها فإذا فيها بيت مفرد:

أيا جودَ معنٍ ناجٍ معناً بحاجتى فليس إلى معنٍ سواك شَفيعُ

فقال: من الرجل صاحب هذه؟ فأتى به إليه، فقال: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بدر، فأخذها وانصرف. ووضع معن الخشبة تحت بساطه، فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط ونظر فيها، وقال: على بالرجل صاحب هذه، فأتى به، فقال له: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بدر، فأخذها وانصرف. ووضع

معن الخشبة تحت بساطه، فلما كان فى اليوم الثالث أخرجها، ونظر فيها، وقال: على بالرجل صاحب هذه، فأتى به إليه، فقال له: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بدر، فأخذها وتفكر فى نفسه وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه، فخرج من البلد بما معه، فلما كان اليوم الرابع طلب الرجل فلم يجده، فقال معن: لقد ساء والله ظنه، ولقد هممت أن أعطيه حتى لا يبقى فى بيت مالى درهم، ولا دينار. وفيه يقول القائل:

يقولون معن لا زكاة لماله وكيف يزكى المال من هو باذله
إذا حال حول لم تجد فى دياره من المال إلا ذكره وجمائله
تراه إذا جنته متهللاً كأنك تعطيه الذى أنت نائله
تعوذ بسط الكف حتى لو أنه أراد انقباضاً لم تطعه أنامله
فلو لم يكن فى كفه غير نفسه لجاد بها فليتنق الله سائله

ومن قول معن:

دعيني أتهب الأموال حتى أعف الأكرمين عن اللثام

وكان يزيد بن المهلب من الأجواد الأسخياء، وله أخبار فى الجود عجيبة. من ذلك ما حكاه عقيل بن أبى طالب^(١) رضى الله تعالى عنه قال: لما أراد يزيد بن المهلب الخروج إلى واسط أتيته، فقلت: أيها الأمير إن رأيت أن تأذن لى، فأصحبك، قال: إذا قدمت واسط، فأتنا إن شاء الله تعالى، فسافر، وأقمت، فقال لى بعض إخوانى اذهب إليه، فقلت: كان جوابه فيه ضعيف، قالوا: أتريد من يزيد جواباً أكثر مما قال؟ قال: فسرت حتى قدمت عليه، فلما كان فى الليل دعيت إلى السمر، فتحدث القوم حتى ذكروا الجوارى، فالتفت إلى زيد، وقال: إيه يا عقيل، فقلت:

أفاض القوم فى ذكر الجوارى فأما الأعزبون فلن يقولوا

قال: إنك لم تبق عزباً. فلما رجعت إلى منزلى إذا أنا بخادم قد أتانى ومعه جارية وفرش بيت وبدره عشرة آلاف درهم، وفى الليلة الثانية كذلك، فمكثت عشر ليالى، وأنا على هذه الحالة، فلما رأيت ذلك دخلت عليه فى اليوم العاشر، فقلت أيها الأمير: قد والله أغنيت وأقنيت، فإن رأيت أن تأذن لى فى الرجوع، فأكبت عدوى وأسر صديقى، فقال: إنما أخيرك بين خلتين إما أن تقيم فنوليك، أو ترحل فنغنيك. فقلت: أولم تغنينى أيها الأمير؟ قال: إنما هذا تغنى أثاث المنزل، ومصلحة القدم، فنالنى من فضله ما لا أقدر على وصفه.

وحدث أبو اليقظان عن أبيه قال: حج يزيد بن المهلب، فطلب حلاقاً يحلق رأسه، فجاءه بحلاق، فحلق رأسه، فأمر له بخمسة آلاف درهم، فتحير الحلاق ودهش، وقال: آخذ هذه الخمسة آلاف وأمضى إلى أم فلان أخبرها أنى قد استغنيت؟ فقال: أعطوه خمسة آلاف أخرى، فقال: امرأتى طالق إن حلقت رأس أحد بعدك. وقيل: إن الحجاج حبسه على خراج وجب عليه، مقداره مائة ألف درهم، فجمعت له، وهو فى السجن، فجاء الفرزدق يزوره، فقال للحاجب: استأذن لى عليه، فقال: إنه فى مكان لا يمكن الدخول عليه فيه، فقال الفرزدق: إنما أتيت متوجعاً لما فيه، ولم آت ممتدحاً، فأذن له، فلما أبصره قال:

أبا خالد ضاقت خراسانُ بعدكم وقال ذوو الحاجات أين يزيدُ
فما قطرت بالشرق بعدك قطرة ولا أخضر بالمروين بعدك عود
وما لسرور بعد عزك بهجة وما لجواد بعد جودك جود

(١) عقيل بن أبى طالب: هو عقيل بن عبد مناف (أبى طالب) بن عبد المطلب الهاشمى القرشى وكنيته أبو يزيد، أعلم أهل قريش بأيامها ومآثرها ومثالبها، وأنسابها، صحابى فصيح اللسان شديد الجواب، وكان أحد الأربعة التى تتحاكم إليهم قريش فى المنازعات، أسلم بعد الحديبية، وكان الناس يأخذون عنه الأنساب والأخبار فى مسجد المدينة، وكان فى حلب وأطرافها جماعة يتسبون إليه، يعرفون ببنى عقيل توفى سنة (٦٠هـ - ٦٨٠م).

فقال يزيد للحاجب: ادفع إليه المائة ألف درهم التي جمعت لنا ودع الحاجاج ولحمى يفعل فيه ما يشاء، فقال الحاجب للفرزدق هذا الذي خفت منه لما منعتك من دخولك عليه، ثم دفعها إليه، فأخذها وانصرف. ومرت يزيد بن المهلب عند خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه، بعجوز أعرابية، فذبحت له عتراً، فقال لابنه: ما معك من النفقة؟ قال: مائة دينار. قال: ادفعها إليها، فقال: هذه يرضيها اليسير وهي لاتعرفك. قال: إن كان يرضيها اليسير، فأنا لا أَرْضِي إلا بالكثير، وإن كانت لاتعرفنى فأنا أعرف نفسى. وقال مروان بن أبى الحبوب الشاعر: أمر لى المتوكل بمائة وعشرين ألفاً وخمسين ثوباً، ورواحل كثيرة، فقلت أبياتاً فى شكره، فلما بلغت قولى:

فَأَمْسَكَ نَدَى كَفِّكَ عَنى وَلَا تَزِدْ فَقَدْ خَفْتُ أَنْ أَطْغى وَأَنْ أَتَجَبَّرَا

فقال: والله لا أمسك حتى أغرقك بجودى، وأمر له بضياح تقوم بألف ألف. وقال أبو العيناء: تذاكروا السخاء، فاتفقوا على آل المهلب فى الدولة المروانية، وعلى البرامكة فى الدولة العباسية، ثم اتفقوا على أن أحمد بن أبى داود أسخى منهم جميعاً وأفضل. وسئل إسحاق الموصلى عن سخاء أولاد يحيى بن خالد، فقال: أما الفضل فيرضيك فعله، وأما جعفر، فيرضيك قوله، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد، وفى يحيى يقول القائل:

سَأَلْتُ النَّدَى هَلْ أَنْتِ حَرٌّ فَقَالَ لَا وَلَكِنِّى عَبْدٌ لِيَحْيى بْنِ خَالِدٍ
فَقُلْتُ شَرًّا قَالَ لَا بَلْ وَرَاءَهُ تَوَارَثْنِى مِنَ الْوَالِدِ بَعْدَ الْوَالِدِ

وفى الفضل يقول القائل:

إِذَا نَزَلَ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيى بِبَلَدَةٍ رَأَيْتَ بِهَا غَيْثَ السَّمَاحَةِ يَنْبُتُ
فَلَيْسَ بِسَقَالٍ إِذَا سِيلَ حَاجَةٌ وَلَا بِمَكْبٍ فِى ثَرَى الْأَرْضِ يَنْكُتُ

وفى محمد يقول القائل:

سَأَلْتُ النَّدَى وَالْجُودَ مَالِى أَرَاكُمَا تَبَدَّلْتُمَا عِزًّا بِذُلٍّ مُؤَبَّدٍ
وَمَا بَالُ رُكْنِ الْمَجْدِ أَمْسَى مَهْدَمًا فَقَالَ أَصْبَنَا بِابْنِ يَحْيى مُحَمَّدٍ
فَقُلْتُ فَهَلَا مُتَّمَا بَعْدَ مَوْتِهِ وَقَدْ كَتَمَا عَبْدِيهِ فِى كُلِّ مَشْهَدٍ
فَقَالَا أَقْمَنَا كِى نَعِزَّى بِفَقْدِهِ مَسَافَةً يَوْمٍ ثُمَّ نَتْلُوهُ فِى غَدٍ

وقال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وكرم الله وجهه: من كانت له حاجة فليرفعها إلى فى كتاب لأصون وجهه عن المسألة. وجاءه رضى الله تعالى عنه أعرابى، فقال: يا أمير المؤمنين إن لى إليك حاجة، الحياء يمنعنى أن أذكرها، فقال: خطها فى الأرض، فكتب إنى فقير فقال: يا قنبر اكسه حلتى، فقال الأعرابى:

كَسَوْتَنِى حَلَّةً تَبْلَى مُحَاسِنَهَا فَسَوْفَ أَكْسُوكَ مِنْ حَسَنِ الثَّنَا حَلَلَا
إِنْ نَلْتُ حَسْنَ الثَّنَا قَدْ نَلْتُ مَكْرَمَةً وَلَيْسَ تَبْغِى بِمَا قَدِمْتَهُ بَدَلَا
إِنْ الثَّنَاءُ لِيَحْيى ذَكَرَ صَاحِبِهِ كَالْغَيْثِ يَحْيى نَدَاهُ السَّهْلَ وَالْجَبَلَا
لَا تَزْهَدْ الدَّهْرَ فِى عَرَفٍ بَدَأَتْ بِهِ كُلُّ أَمْرٍ سَوْفَ يَجْزِى بِالَّذِى فَعَلَا

فقال: يا قنبر زده مائة دينار، فقال يا أمير المؤمنين: لو فرقتها فى المسلمين لأصلحت بها من شأنهم. فقال رضى الله تعالى عنه: صه يا قنبر، فإننى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اشكروا لمن أثنى عليكم وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه» ولعبد الله بن جدعان:

إنى وإن لم ينل مالى مداخلتى وهب ما ملكت كـ نسي من المال
لا أحبس المال إلا حيث أنفقته ولا يُغَيِّرُنِي حَالٌ إِلَى حَالٍ

وقال بعض العرب لولده: يا بنى لاتزهدن فى معروف فإن الدهر ذو صروف فكم راغب كان مرغوباً إليه، وطالب كان مطلوباً ما لديه، وكن كما قال القائل:

وعُدَّ من الرحمن فضلاً ونعمة عليك إذا ما جاء للخير طالبُ
ولا تمنعنَّ ذا حاجةٍ جاء راغباً فإنك لاتدرى متى أنت راغب

وقال بعضهم:

أبيتُ خميصَ البطن عريان طاوياً وأوثر بالزاد الرفيق على نفسى
وأمنحه فرشى وافترش الثرى وأجعل ستر الليل من دونه لبسى
حذار أحاديث المحافل فى غدٍ إذا ضمّنى يوماً إلى صدره رمسى

وقال يحيى البرمكى^(١): أعط من الدنيا وهى مقبلة، فإن ذلك لا ينقصك منها شيئاً، وأعط منها وهى مدبرة فإن منعك لا يبقى عليك منها شيئاً، فكان الحسن بن سهل يتعجب من ذلك، ويقول: لله دره ما أطبعه على الكرم، وأعلمه بالدنيا، وقد أملى يحيى من نظمه فقال:

لاتبخلنَّ بدنياً وهى مقبلة فليس يُنْقِصَهَا التبذير والسرفُ
فإن تولت فأحرى أن تجود بها فليس تبقى ولكن شكرها خلف

وقال يحيى لولده جعفر: يا بنى مادام قلمك يرعد فامطره معروفاً وقال بعضهم:

لاتكثرى فى الجود لائمى وإذا بخلت فأكثرى لومى
كفى فليست بحاملٍ أبداً ما عشت همَّ غدٍ إلى يومى

وقال على رضى الله عنه وكرم وجهه: لاتستح من عطاء القليل، فالحرمان أقل منه. وسئل إسحاق الموصلى عن المخلوع، فقال: كان أمره كله عجباً، كان لا يبالى أن يقعد مع جلسائه، وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر. كان عنده سليمان بن أبى جعفر يوماً، فأراد الرجوع إلى أهله، فقال له: سفر البر أحب إليك أم سفر البحر؟ قال: البحر ألين على. فقال: أوفروا له زورقه ذهباً وأمر له بألف ألف درهم.

وشكا سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان، موسى شهوات إلى سليمان بن عبد الملك، وقال: قد هجاني يا أمير المؤمنين، فاستحضره سليمان، وقال: لا أم لك أتتهجو سعيداً؟ قال يا أمير المؤمنين: أخبرك الخبر: عشقت جارية مدنية، وأتيت سعيداً، فقلت: إنى أحب هذه الجارية وإن مولاتها أعطيت فيها مائتى دينار وقد أتيتك، فقال لى: بورك فيك، فقال سليمان: ليس هذا موضع بورك فيك. قال: فأتيت يا أمير المؤمنين سعيد بن خالد، فذكرت له حالى، فقال: يا جارية هاتى مطرفاً، فأتته بمطرف خز، فصر لى فى كل زاوية مائتى دينار، فخرجت وأنا أقول:

(١) يحيى البرمكى: هو يحيى بن خالد بن برمك، أبو الفضل، الوزير السرى الجواد، سيد بنى برمك وأفضلهم وهو مؤدب الرشيد العباسى ومعلمه ومريه، ولما ولى الخلافة دفع خاتمه إلى يحيى، وقلده أمره فبدأ يعلو شأنه، واشتهر يحيى بجوده وحسن سياسته، واستمر إلى أن نكب الرشيد البرامكة فقبض عليه وسجنه فى (الرقعة) إلى أن مات فقال الرشيد: مات أعقل الناس وأكملهم. مات سنة (١٩٠ هـ - ٨٠٥).

أبا خالد أعنى سعيد بن خالد
ولكننى أعنى ابن عائشة الذى
عقيد الندى ما عاش يرضى به الندى
ذروه ذروه إنكم قد رقدتموا
أخا العرف لا أعنى ابن بنت سعيد
أبو أبويه خالد بن أسيد
فإن مات لم يرض الندى بعقيد
وما هو عن إحسانكم برقود

فقال سليمان: قل ما شئت. وكتب كلثوم بن عمر إلى بعض الكرماء رقعة فيها:

إذا تكرهت أن تعطى القليل ولم
بث النوال ولا تمنعك قلتُهُ
تقدر على سعة لم يظهر الجود
فكل ما سد فقرأ فهو محمود

فشاطره ماله حتى بعث إليه بنصف خاتمه وفردة نعله. وباع عبد الله بن عتبة بن مسعود أرضاً بثمانين ألفاً، فقيل له: لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخراً؟ فقال: بل اجعله ذخراً لى، واجعل الله ذخراً لولدى، وقسمه بين ذوى الحاجات. وكان ابن مالك القشيري من الأجواد، قيل: إنه أنهب الناس ماله بعكاظ ثلاث مرات، فعاتبه خاله، فقال:

يا خال ذرنى ومالى ما فعلت به
فلن أطيـعك إلا أن تُخلدنى
الحمـد لا يشترى إلا بمكرمة
وخذ نصيبك منه إننى مودى
فانظر بكيدك هل تستطيع تخليدى
ولن أعيش بمال غير محمود

وقال المهلب: عجت لمن يشتري الممالك بماله كيف لا يشتري الأحرار بفعاله. ونزل بأبى البحرى وهب بن وهب القرشى ضعفاً، فسارع عبده إلى إنزاله وخدموه أحسن خدمة، وفعلوا به كل جميل، فلما هم بالرحيل لم يقربه أحد منهم وتجنبوه، فأنكر ذلك عليهم، فقالوا: نحن إنما نعين النازل على الإقامة ولا نعينه على الرحيل. ووفدت ليلى الأخيلية^(١) على الحجاج، فقالت فيه:

إذا ورد الحجاج أرضاً مريضة
شفاها من الداء العضال الذى بها
تتبع أقصى دائها فشفاها
غلام إذا هز القناة سقاها

فقال: لا تقولى غلام، ولكن قولى همام. يا غلام: اعطها خمسمائة فقالت: يا أيها الأمير اجعلها نعماً، فجعلها إبلاً إنثاءً، وقال أبو الفياض الطبرى:

والعزّ ضعيف لا يراه بربعه
والجود أعلى كعب كعب قبلنا
من لا يرى بذل التلاد تلادا
فمضى جواداً يوم مات جوادا

وقال آخر:

(١) ليلى الأخيلية: هى ليلى بنت عبد الله الرحال بن شداد بن كعب، الأخيلية، من بنى عامر من صعصعة شاعرة فصيحة ذكية، اشتهرت بأخبارها مع توبة بن الحمير، ووفدت على (الحجاج) مرات فكان يكرمها ويقربها، وهى فى الشعر دون النساء مرتبة، وكانت بينها وبين الثابتة الجعدى مهاجرة، ولها «ديوان ليلى الأخيلية» توفيت سنة (٨٠هـ - ٧٠٠ م).

أيقنت أن من السماح شجاعة وعلمت أن من السماح جوداً

وقال أحمد بن حمدون النديم: عملت أم المستعين بساطاً على صورة كل حيوان من جميع الأجناس، وصورة كل طائر من ذهب، وأعينهم يواقيت وجواهر، أنفقت عليه مائة ألف ألف دينار وثلاثين ألف دينار، وسألته أن يقف عليه، وينظر إليه، فكسل ذلك اليوم عن رؤيته. وقال أحمد بن حمدون: فقال لي، ولأترجة الهاشمي: اذهباً، فانظر إليه، وكان معنا الحاجب، فمضينا ورأيناه، فوالله ما رأينا في الدنيا شيئاً أحسن منه، ولا شيئاً حسناً إلا وقد عمل فيه، فمددت أنا يدي إلى غزال من ذهب عيناه ياقوتتان، فوضعت في كمي، ثم جثناه، فوصفنا له حسن ما رأيناه، فقال أترجة: يا أمير المؤمنين: إنه قد سرق منه شيئاً، وغمزه على كمي، فأريته الغزال، فقال: بحياتي عليكما أرجعاً، فخذما أحببتهما، فمضينا، فملأنا أكمامنا وأقبلنا نمشي كالحبالى، فلما رأنا ضحكك، فقال بقية الجلساء: ونحن فما ذنبنا يا أمير المؤمنين؟ فقال: قوموا، فخذوا ما شئتم، ثم قام ووقف على الطريق ينظر كيف يحملون ويضحك. ونظر يزيد المهلبى سطلاً من ذهب مملوء مسكاً، فأخذه بيده وخرج، فقال له المستعين: إلى أين؟ فقال: إلى الحمام يا أمير المؤمنين. فضحك من قوله، وأمر الفراشين والخدم أن يتهبوا الباقي، فانتهبوه، فوجهت إليه أمه تقول: سر الله أمير المؤمنين لقد كنت أحب أن يراه قبل أن يفرقه، فإننى أنفقت عليه مائة ألف ألف دينار، فقال: يحمل إليها مثل ذلك حتى تعيد مثله، ففعلت، ومضى حتى رآه، وفعل به كفعله الأول. ودخل طلحة بن عبد الله بن عوف السوق يوماً، فوافق فيه الفرزدق، فقال يا أبا فراس: اختر عشراً من الإبل، ففعل، فقال ضم إليها مثلها، فلم يزل يقول مثل ذلك حتى بلغت مائة، فقال: هي لك، فقال:

يا طلح أنت أخو الندى وعقيدُهُ إن الندى ما مات طلحةً ماتا
إن الندى ألقى إليك رحاله فـبـحـيـثُ بـتَ من المنازل باتا

وقدم زياد الأعجم على عبد الله بن الحشرج بنيسابور، فأكرمه، وأنعم عليه، وبعث إليه بألف دينار، فقال:

إن السماح والروء والندى فى قُبّةٍ ضربت على ابن الحشرج

فقال: زدنى، فقال: كل شيء وثمانه. ووفد أبو عطاء السدى على نصر بن سيار بخراسان مع رفيقين له، فأنزله، وأحسن إليه، وقال: ما عندك يا أبا عطاء؟ فقال: وما عسى أن أقول، وأنت أشعر العرب غير أنى قلت بيتين. قال: هات ما قلت فقال:

يا طالب الجود إمّا كنت تطلبُهُ فاطلبُ على بابهِ نصرَ بنِ سيارِ
الواهبُ الخيلَ تغدو فى أعنتها مع القيان وفيها ألف دينارِ

فأعطاه ألف دينار، ووصائف، وكساه كسوة جميلة، فقسم ذلك بين رفيقيه، ولم يأخذ منه شيئاً، فبلغ ذلك نصراً، فقال: يا له. قاتله الله من سيد، ما أضخم قدره، ثم أمر له بمثله. وقال العتبي: أشرف عمرو بن هبيرة يوماً من قصره، فإذا هو بأعرابى يرقل قلوصله، فقال عمرو لحاجبه: إن أردنى هذا الأعرابى، فأوصله إلى، فلما وصل الأعرابى سأله الحاجب، فقال: أردت الأمير، فدخل به إليه، فلما مثل بين يديه قال له: ما حاجتك؟ فأشدد الأعرابى يقول:

أصلحك الله قلّ ما بيدي ولا أطيق العيال إذا كثرُوا
أنّاخ دهرى على كلّ كَلِّه فـأرسلونى إليك وانظروا

فأخذت عمر الأريحية، فجعل يهتز فى مجلسه ثم قال:

أرسلوك إلىَّ وانتظروا إذن والله لا تجلس حتى ترجع إليهم، ثم أمر له بألف دينار. وقيل: أراد ابن عامر أن يكتب لرجل خمسين ألف درهم، فسجى القلم بخمسمائة ألف، فراجع الخازن في ذلك، فقال: انفضه، فما بقى إلا نفاذه، وأن خروج المال أحب إلىَّ من الاعتذار، فاستشرفه الخازن فقال: إذا أراد الله بعبد خيراً صرف القلم عن مجرى إرادة كاتبه إلى إرادته، وأنا أردت شيئاً وأراد الجواد الكريم أن يعطى عبده عشرة أضعافه، فكانت إرادة الله الغالبة، وأمره النافذ. ووقف أعرابي على ابن عامر، فقال: يا قمر البصرة، وشمس الحجاز، ويا ابن ذروة العرب، وابن بطحاء مكة، برحت بى الحاجة، وأكدت بى الآمال إلا بفنائك، فامنحنى بقدر الطاقة لا بقدر المجد والشرف والهمة، فأمر له بمائتي ألف درهم. وسمع المأمون قول عمارة بن عقيل:

أتركُ إن قلتَ درهم خــــالــــد زيارته إنى إذاً للــــمــــيم

فقال: أو قلت دراهم خالد احملاوا إليه مائة ألف درهم، فبعثها خالد بن يحيى إلى عمارة بن عقيل، وقال: هذه قطرة من سحابتك. ولما عزل عبد الرحمن بن الضحاك عن المدينة بكى، ثم قال: والله ما بكائي جزءاً من العزل، ولا أسفاً على الولاية، ولكن أخاف على هذه الوجوه أن يلى أمرها من لا يعرف لها حقاً. وأراد الرشيد أن يخرج إلى بعض المتفرجات، فقال يحيى بن خالد بن عبد العزيز وكان على نفقاته: ما عند وكلائنا من الأموال؟ قال: سبعمائة ألف درهم. قال: فاقبضها إليك يا رجاء. فلما كان من الغد دخل عليه رجاء، فقبل يده وعنده منصور بن زياد، فلما خرج رجاء قال يحيى لمنصور: قد ظننت أن رجاء توهم أنا قد وهبنا المال، وإنما أمرناه بقبضه من الوكلاء ليحفظه علينا لحاجتنا إليه في وجهنا هذا، فقال منصور: أنا أستخبر لك هذا. فقال يحيى: إذن يقول لك، قل له يقبل يدي كما قبلت يده، فلا تقل له شيئاً، فقد تركتها له. وقيل: إن الرشيد وصل في يوم واحد بألف ألف وثلاثمائة ألف وخمسين ألفاً. ووصل المنصور في يوم واحد لبنى هاشم، ووجوه قواده بعشرة آلاف ألف دينار على ما ذكر.

وعن الأخفش الصغير^(١) قال: كان أسيد بن عنقاء الفزارى من أكبر أهل زمانه قدراً وأكثرهم أدباً، وأفصحهم لساناً، وأثبتهم جناناً، فطال عمره ونكبه دهره، فخرج عشية ينتفل لأهله، فمر به عميلة الفزارى، فسلم عليه، وقال: ما أصادرك يا عم إلى ما أرى؟ فقال: بخل مثلك بماله وصون وجهي عن مسألة الناس، فقال: والله لئن بقيت إلى غد لأغيرن ما أرى من حالك، فرجع ابن عنقاء إلى أهله، فأخبرها بما قال له عميلة، فقالت له: لقد غرك كلام غلام في جنح الليل، قال: فكأنما ألقيت فاه حجراً وبات متململاً بين رجاء ويأس، فلما كان وقت السحر سمع رغاء الإبل وصهيل الخيل تحت الأموال، فقال: ما هذا؟ قالوا: عميلة قد قسم ماله شطرين، وبعث إليك بشطره، فأنشأ يقول:

رأى على ما بى عميلة فاشتنكى إلى ماله حالى فواسى وما هجر
ولما رأى المجد استعميرت ثيابه تردى رداءً ســــابغ الذيل واتزر
غلامٌ حباه الله بالحسن يافعاً له سيمياءٌ لاتشق على البصر
كان الثريا علقت في جبينه وفى أنفه الشعري وفى جيده القمر

وكان عمر بن عبيد الله بن معمر التميمي^(٢) قيل: إنه كان لرجل جارية يهواها، فاحتاج إلى بيعها، فابتاعها منه ابن معمر بمال جزيل، فلما قبض ثمنها أنشأت تقول:

(١) الأخفش: هو على بن سليمان بن الفضل، أبو المحاسن، المعروف بالأخفش الأصغر، نحوى، من العلماء، من أهل بغداد، أقام بمصر، وخرج إلى حلب ثم عاد إلى بغداد، من تصانيفه (شرح سيويه) و (الأنواء) و (المهذب) توفي سنة (٣١٥هـ - ٩٢٧م).

(٢) عبيد الله بن معمر: هو عمر بن عبيد الله بن معمر بن عثمان التميمي القرشى، سيد بنى تميم فى عصره، من كبار القادة الشجعان الأجواد، كان من رجال مصعب بن الزبير أيام ولايته فى العراق، ولى بلاد فارس، أرسله عبد الملك لقتال (أبى فديك)، قال قطرى بن فجاءة يصفه: بطل يقاتل لدينه وملكه بعزيمة لم أر مثلاً لأحد، ما حضر حرباً إلا كان أول فارس يقتل قرنه توفي سنة (٨٢هـ - ٧٠١م).

هنيئاً لك المال الذي قد قبضته ولم يبق في كفى غير التحسّر
أبوء بحزن من فراقك مـوجع أناجى به صـدراً طويـل الفـكر
فأجابها بقوله:

ولولا قـعود الدهر بى عنك لم يكن يفرقنا شىء سوى الموت فاعذرى
عليك سـلاماً لزيارة بيننا ولا وصل إلا أن يشاء ابن مـمر

فقال ابن معمر: قد شئت وقد وهبتك الجارية وثمنها، فخذها وانصرف. ووفد أبو الشمقمق إلى مدينة سابور يريد محمد بن عبد السلام فلما دخلها توجه إلى منزله، فوجده في دار الخراج يطالب، فدخل عليه يتوجه له، فلما رآه محمد قال:

ولقد قـدمتُ على رجـالٍ طالما قدم الرجال عليهم فتمولوا
أخنى الزمانُ عليهم فكأنما كانوا بأرضٍ أقفرت فتحولوا
فقال أبو الشمقمق:

الجـودُ أفلسهم وأذهب مـالهم فاليوم إن راموا السـماحةً يـخلوا

قال: فخلع محمد ثوبه وخاتمه ودفعهما إليه، فكتب بذلك مستوفى الخراج إلى الخليفة، فوقع إلى عامله بإسقاط الخراج عن محمد بن عبد السلام في تلك السنة، وإسقاط ما عليه من البقايا، وأمر له بمائة ألف درهم معونة على مروءته. وقال أبو العيـناء: حصلت لى ضيقة شديدة، فكتمتها عن أصدقائي، فدخلت يوماً على يحيى بن أكثم القاضى، فقال: إن أمير المؤمنين جلس للمظالم، وأخذ القصص، فهل لك فى الحضور؟ قلت: نعم، فمضيت معه إلى دار أمير المؤمنين، فلما دخلنا عليه أجلسه وأجلسنى، ثم قال: يا أبا العيـناء، بالآلفة والمحبة ما الذى جاء بك فى هذه الساعة؟ فأنشدته:

لقد رجـوتك دونَ الناس كلهم وللرجاءِ حـقوقُ كلِّها تـجبُ
إن لم يكن لى أسبابٌ أعيشُ بها ففى العـلـا لك أخلاقُ هـى السـبب

فقال: يا سلامة انظر أى شىء فى بيت مالنا دون مال المسلمين، فقال: بقية من مال، قال: فادفع له منها مائة ألف درهم، وابعث له بمثلها فى كل شهر. فلما كان بعد أحد عشر شهراً مات المأمون، فبكى عليه أبو العيـناء، حتى تقرحت أجفانه، فدخل عليه بعض أولاده، فقال: يا أبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء، فأنشأ أبو العيـناء يقول:

شـيئان لو بكت الدماءُ عليهما عـيناي حـتى يؤذنا بـذهاب
لم يـلغـا المـعـشـار من حـقيهما فـقد الشـباب وـفرقة الأحـباب

وكان أحمد بن طولون كثير الصدقة، وكان راتبه منها فى الشهر ألف دينار سوى ما يطراً عليه من نذر أو صلة، وسوى ما يطبخ فى دار الصدقة. وكان الموكل بصدقته سليم الخادم، فقال له سليم يوماً: أيها الأمير إننى أطوف القبائل، وأدق الأبواب لصدقاتك، وإن اليد تمد إلى، وفيها الحناء، وربما كان فيها الخاتم الذهب والسوار الذهب، أفأعطى أم أرد؟ قال: فأطرق طويلاً، ثم قال: كل يد امتدت إليك فلا تردها. وقال سلمة بن عياش فى جعفر بن سليمان:

وما شـم أنفى ریحٌ كـف شـمـمـتـها من الناس إلا ریحٌ كـفـك أـطـيبُ

فأمر له بألف دينار ومائة مثقال مسك ومائة مثقال عنبر. وكان عبد العزيز بن عبد الله جواداً. مضيافاً، فتغدى عنده

أعرابي يوماً، فلما كان من الغد مر على بابه، فرأى الناس في الدخول على هيتهم الأمس، فقال: أوكل يوم يطعم الأمير الناس؟ قالوا: نعم، فأنشأ يقول:

أكل يوم كأنه عيدٌ أضحي عند عبد العزيز أو عيدٌ فطري
وله ألف جفنةٍ مترعراتٍ كل قدر يدها ألف قدر

وتعشى الناس ليلة عند سعيد بن العاص^(١)، فلما خرجوا بقي فتى من الشام قاعداً، فقال له سعيد: ألك حاجة؟ وأطفا الشمعة كراهة أن يخلج الفتى، فذكر أن أباه مات، وخلف ديناً وعيالاً، وسأله أن يكتب له كتاباً إلى أهل دمشق ليقوموا ببعض إصلاح حاله، فدفع له عشرة آلاف دينار وقال له: لا أدعك تقاسى الذل على أبوابهم. ودخل رجل على علي بن سليمان الوزير، فقال له: سألتك بالله العظيم ونبيّه الكريم إلا ما أجزتني من خصمي، فقال: ومن خصمك حتى أجيرك منه؟ فقال: الفقر، فأطرق الوزير ساعة، وقال: قد أمرت لك بمائة ألف درهم، فأخذها وانصرف. فبينما هو في الطريق إذ أمر الوزير برده إليه، فلما رجع قال له: سألتك بالله العظيم ونبيّه الكريم متى أتاك خصمك معقفاً، فارجع إلينا متظلماً. وقال الأعمش: كانت عندي شاة، فمرضت، وفقدت الصبيان لبنها، فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشى ويسألني. هل استوفت علفها؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها، وكانت تحتى لبد أجلس عليه، فكان إذا خرج يقول: خذ ما تحت اللبد حتى وصل إلى من علة الشاة أكثر من ثلاثمائة دينار من بره حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ.

وحكى أبو قدامة القشيري قال: كنا مع يزيد بن يزيد يوماً، فسمع صائحاً يقول: يائزید بن مزید، فطلبه فأتى به إليه، فقال: ما حملك على هذا الصياح؟ قال: فقدت دابتي ونفدت نفقتي، وسمعت قول الشاعر:

إذا قيل من للجود والمجد والندی فنادی بصوت يائزید بن مزید

فأمر له بفرس أبلق كان معجباً به، وبمائة دينار، وخلعه سنية فأخذها وانصرف.

وحكى أن قوماً من العرب جاءوا إلى قبر بعض أسخياتهم يزورونه فباتوا عند قبره، فرأى رجل منهم صاحب القبر في المنام وهو يقول له: هل لك أن تبعني بعيرك بنجيبي؟ وكان الميت قد خلف نجيباً، وكان للرائي بعير سمين، فقال: نعم، وباعه في النوم بعيره بنجيبي، فلما وقع بينهما عقد البيع عمد صاحب القبر إلى البعير، فنحره في النوم، فانتبه الرائي من نومه، فوجد الدم يسبح من نحر بعيره، فقام وأتم نحره وقطع لحمه وطبخوه وأكلوا، ثم رحلوا وساروا، فلما كان اليوم الثاني وهم في الطريق سائرون استقبلهم ركب، فتقدم منهم شاب، فنادى، هل فيكم فلان بن فلان؟ فقال صاحب البعير: نعم ها أنا فلان بن فلان فقال: هل بعث من فلان الميت شيئاً؟ قال: نعم. بعته بعيري بنجيبي في النوم، فقال: هذا نجيبه، فخذ، وأنا ولده، وقد رأيته في النوم، وهو يقول: إن كنت ولدي، فادفع نجيبى إلى فلان. فانظر إلى هذا الرجل الكريم كيف أكرم أضيافه بعد موته.

وروى عن الهيثم بن عدي أنه قال: تمارى ثلاثة نفر في الأجواد، فقال رجل: أسخى الناس في عصرنا هذا عبد الله ابن جعفر، فقال الآخر: أسخى الناس: قيس بن سعد بن عبادة، فقال الآخر: بل أسخى الناس اليوم عرابة الأوسى، فتنازعوا بفناء الكعبة، فقال لهم رجل: لقد أفرطتم في الكلام، فليمض كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتى ننظر بما يعود، فنحكم على العيان. فقام صاحب ابن جعفر فوافاه، وقد وضع رجله في ركاب راحلته يريد ضيعة له، فقال الرجل: يا ابن عم رسول الله ﷺ ابن سليل منقطع به، قال: فأخرج رجله، وقال: ضع رجلك واستو على الناقة، وخذ ما في الحقيبة، وكان فيها مطارف خز وأربعة آلاف دينار. ومضى صاحب قيس، فوجده نائماً فقالت له جارية

(١) سعيد بن العاص: هو سعيد بن العاص بن سعيد بن أمية، الأموي القرشي، صحابي من الأمراء والولاة الفاتحين، روى في حجر عمر بن الخطاب، وولاة عثمان بن عفان الكوفة، وهو شاب، وهو أحد الذين كتبوا المصحف لعثمان، وكان قوياً فيه شدة، سخياً، فصيحاً توفي سنة (٥٩هـ - ٦٧٩م).

قيس: ما حاجتك؟ فقال: ابن سبيل ومنقطع به، فقالت له الجارية: حاجتك أهون من إيقاظه، هذا كيس فيه سبعمائة دينار ما في دار قيس اليوم غيرها، وامض إلى معاطن الإبل، فخذ راحلة من راحله، وما يصلحها، وعبدًا، وامض لشأنك، قيل: إن قيسا لما انتبه أخبرته الجارية بما صنعت، فأعتقها، ولو لم تعلم أن ذلك يرضيه ما جسرت أن تفعله، فخلق خدام الرجل مقتبس من خلقه، قال بعض الشعراء:

وَإِذَا اخْتَبَرْتَ وَدَّ صَدِيقِي فَاخْتَبِرْ وَدَّهَ مِنَ الْغُلَمَانِ

ومضى صاحب عرابة، فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة، فقال: يا عرابة ابن سبيل ومنقطع به. وكان معه عبدان، فصفق بيده اليمنى على اليسرى، وقال: أواه أواه، والله ما أصبح ولا أمسى الليلة عند عرابة شيء، ولا تركت له الحقوق مالا، ولكن خذ هذين العبدين، فقال الرجل: والله ما كنت بالذي يسلبك عبدك، فقال: إن أخذتهما، وإلا فهما حران لوجه الله تعالى، فإن شئت، فأعتق، فأخذ الرجل العبدين ومضى. ثم اجتمعوا وذكروا قصة كل واحد، فحكموا لعرابة لأنه أعطى على جهد. قيل: إن شاعراً قصد خالد بن يزيد، فأنشده شعراً يقول فيه:

سَأَلْتُ النَّدَى وَالْجُودَ حَرَّانَ أَتُتَمَّا فَقَالَا يَقِينًا إِنَّا لَعَبِيدُ
فَقُلْتُ وَمَنْ مَوْلَاكُمْ فَتَطَاوَلَا إِلَى وَقَالَا خَالِدُ وَيَزِيدُ

فقال: يا غلام أعطه مائة ألف درهم، وقل له: إن زدتنا زدناك فأنشد يقول:

كَرِيمُ كَرِيمِ الْأَمْهَاتِ مَهْدَبُ تَدَقُّقُ يَمْنَاهِ النَّدَى وَشُمَمُ
هُوَ الْبَحْرُ مِنْ أَى الْجِهَاتِ أَتَيْتَهُ فَلَجَّئْتُهُ الْمَعْرُوفُ وَالْجُودُ سَاحِلُهُ
جَوَادُ بَسِيطِ الْكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ دَعَاها لِقَبْضٍ لَمْ تَجِبْهُ أَنَامِلُهُ

فقال يا غلام: أعطه مائة ألف درهم وقل له: إن زدتنا زدناك، فقال: حسب الأمير ما سمع، وحسبى ما أخذت وانصرف.

وأما الذين انتهى إليهم الجود في الجاهلية: فهو حاتم بن عبد الله الطائي^(١)، وهرم بن سنان، وخالد بن عبيد الله، وكعب بن أمية الأيادي. و ضرب المثل بحاتم وكعب، وحاتم أشهرهما، فأما كعب، فجاد بنفسه، وأثر رفيقيه بالماء في المفازة، ومات عطشاً، وليس له خبر مشهور. وأما خالد بن عبيد الله، فإنه جاء إليه بعض الشعراء ورجله في الركاب يريد الغزو، فقال له: إنى قلت فيك بيتين من الشعر، فقال: فى مثل هذا الحال؟ قال: نعم، فقال: هاتهما، فأنشده يقول:

يَا وَاحِدَ الْعَرَبِ الَّذِى مِمَّا فِي الْأَنَامِ لَهُ نَظِيرُ
لَوْ كَانَ مِثْلَكَ آخِرُ مَا كَانَ فِي الدُّنْيَا فَقِيرُ

فقال: يا غلام، أعطه عشرين ألف دينار، فأخذها وانصرف. وأما حاتم، فأخباره كثيرة، وآثاره في الجود شهيرة، ويكنى أبا سفانة وأبا عدى، وكان يسير فى قومه بالمرباع والمرباع ربع الغنيمة، وكان ولده عدى يعادى النبی ﷺ، فبعث النبی ﷺ علياً إلى طي، فهرب عدى بأهله وولده ولحق بالشام، وخلف أخته سفانة، فأسرته خيل رسول الله ﷺ، فلما أتى بها إلى النبی ﷺ قالت: يا محمد هلك الوالد، وغاب الرافد، فإن رأيت أن تخلنى عنى، ولاتشمت بى أحياء العرب، فإن أبى كان سيد قومه يفك العانى، ويقتل الجانى، ويحفظ الجار، ويحمى الذمار، ويفرج عن المكروب،

(١) حاتم الطائي: هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشر الطائي القمطاني، أبو عدى، فارس شاعر جواد، جاهلى، يضرب به المثل فى الجود، كان من أهل نجد، مات فى عوارض (جيل فى بلاد طى) سنة (٤٦ ق هـ - ٥٧٨ م) شعره كثير ضاع معظمه وبقي ديوان صغير.

ويطعم الطعام، ويفشى السلام، ويحمل الكل، ويعين على نوائب الدهر، وما أتاه أحد في حاجة فردة خائباً، أنا بنت حاتم الطائي، فقال لها النبي ﷺ: «يا جارية هذه صفات المؤمنين حقاً، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه. خلوا عنها، فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق». وقال فيها: «ارحموا عزيز قوم ذل وغنيا افتقر، وعالمًا ضاع بين جهال». فأطلقها ومن عليها، فاستأذنته في الدعاء له، فأذن لها، وقال لأصحابه: «اسمعوا وعوا» فقالت: أصاب الله ببرك مواعقه، ولا جعل لك إلى لثيم حاجة، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلا وجعلك سبباً في ردها عليه. فلما أطلقها النبي ﷺ رجعت إلى قومها، فأتت أخاها عدياً وهو بدومة الجندل، فقالت له يا أخي: ائت هذا الرجل قبل أن تعلقك حبائله، فإنني قد رأيت هدياً ورأياً سيغلب أهل الغلبة رأيت خصلاً تعجبنى. رأيت يحب الفقير، ويفك الأسير ويرحم الصغير ويعرف قدر الكبير، وما رأيت أجود ولا أكرم منه ﷺ وإنى أرى أن تلحق به، فإن يك نبياً فللسابق فضله، وإن يك ملكاً فلن نذل في عز اليمن.

فقدم عدي إلى النبي ﷺ فالتقى له وسادة محشوة ليفاً، وجلس النبي ﷺ على الأرض، فأسلم عدي بن حاتم، وأسلمت أخته سفانة بنت حاتم المتقدم ذكرها، وكانت من أجود نساء العرب، وكان أبوها يعطيها الضريبة من إبله فتهبها وتعطيها الناس، فقال لها أبوها: يا بنية إن الكريمين إذا اجتمعا في المال أنلفاه، فلما أن أعطى وتمسكى، وإما أن أمسك وتعطى، فإنه لا يبقى على هذا شيء، فقالت له: منك تعلمت مكارم الأخلاق. قال ابن الأعرابي: كان حاتم الطائي من شعراء الجاهلية، وكان جواداً يشبه جوده شعره ويصدق قوله فعله، وكان حيثما نزل عرف منزله، وكان مظفراً إذا قاتل غلب، وإذا سئل وهب، وإذا سابق سبق وإذا أسر أطلق، وكان إذا أهل رجب الذي كانت تعظمه مضر في الجاهلية نحر كل يوم عشرين من الإبل وأطعم الناس، واجتمعوا إليه، وكان قد تزوج ماوية بنت عفير، وكانت تلومه على إتلاف المال، فلا يلتفت لقولها. وكان لها ابن عم يقال له مالك، فقال لها يوماً: ما تصنعين بحاتم، فوالله لئن وجد مالا ليتلفه، وإن لم يجد ليتكلفن ولئن مات ليركن أولاداً عالة على قومك. فقالت ماوية: صدقت إنه كذلك.

وكانت النساء يطلقن الرجال في الجاهلية وكان طلاقهن أن يكن في بيوت من شعر، فإن كان باب البيت من قبل المشرق حولته إلى المغرب، وإن كان من قبل المغرب حولته إلى المشرق، وإن كان من قبل اليمن حولته إلى الشام، وإن كان قبل الشام حولته إلى اليمن، فإذا رأى الرجل ذلك علم أنها طلقته، فلم يأتها، ثم قال ابن عمها: طلقى حاتم وأنا أتزوجك، وأنا خير لك منه، وأكثر مالا، وأنا أمسك عليك، وعلى ولدك. فلم يزل بها حتى طلقته، فأتاها حاتم وقد حولت باب الخباء، فقال حاتم لولده: يا عدي ما ترى ما فعلت أمك؟ فقال: قد رأيت ذلك. قال: فأخذ ابنه وهبط بطن واد، فنزل فيه، فجاء قوم، فنزلوا على باب الخباء كما كان ينزلون، وكان عدتهم خمسين فارساً، فضاقت بهم ماوية ذرعاً وقالت لجاريته: اذهبي إلى ابن عمي مالك، وقولي له: إن أضيافاً لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلاً، فأرسل إلينا بشيء نقريهم ولبنا نسقيهم، وقالت لها انظري إلى جبينه وفمه، فإن شافهك بالمعروف فاقبلي منه، وإن ضرب بحلته على زوره، ولطم رأسه، فاقبلي ودعيه. فلما أتته وجدته متوسداً وطباً من لبن، فأيقظته وأبلغته الرسالة وقالت له: إنما هي الليلة حتى يعلم الناس مكان حاتم، فلطم رأسه بيده وضرب بحلته، وقال: اقريها السلام. وقولي لها: هذا الذي أمرتك أن تطلقى حاتم لأجله، وما عندي لبن يكفي أضياف حاتم. فرجعت الجارية، فأخبرتها بما رأت وبما قال لها، فقالت لها: اذهبي إلى حاتم وقولي له: إن أضيافك قد نزلوا بنا الليلة ولم يعلموا مكانك فأرسل إلينا بناقة نقريهم ولبن نسقيهم، فأتت الجارية حاتم، فصاحت به، فقال: لبيك قريباً دعوت، فأخبرته بما جاءت بسببه، فقال لها: حبا وكرامة، ثم قام إلى الإبل، فأطلق اثنتين من عقاليهما وصاح بهما حتى أتيا الخباء، ثم ضرب عراقيهما، فطفقت ماوية تصيح: هذا الذي طلقتك بسببه. نترك أولادنا وليس لهم شيء، فقال لها: ويحك يا ماوية الذي خلقهم وخلق الخلق متكفل بأرزاقهم. وكان إذا اشتد البرد وغلب الشتاء أمر غلمانته بنار فيوقدون في بقاع الأرض لينظر إليها من ضل عن الطريق ليلاً، فيقصدها، ولم يكن حاتم يمسك شيئاً ما عدا فرسه وسلاحه، فإنه كان لا يجود بهما، ثم جاد بفرسه في سنة مجدية.

حكى أن ملكان ابن أخى ماوية قال: قلت لها يوماً: يا عمة حديثي ببعض عجائب حاتم وبعض مكارم أخلاقه، فقالت: يا ابن أخى أعجب ما رأيت منه أصابت الناس سنة أذهبت الخف والظلف، وقد أخذني وإياه الجوع وأسهرنا، فأخذت سفانة، وأخذ عدياً، وجعلنا نعللهمما حتى ناما، فأقبل عليّ يحدثني ويعللني بالحديث حتى أنام، ففرقت به لما به من الجوع، فأمسكت عن كلامه لينام، فقال لي: أنمت؟ فلم أجبه، فسكت ونظر في فناء الخباء، فإذا شيء قد أقبل، فرفع رأسه، فإذا امرأة فقال: ما هذا؟ فقالت: يا أبا عدى أتيتك من عند صبية يتعاونون كالكلاب أو كالذئاب جوعاً، فقال لها: أحضري صبيانك، فوالله لأشبعنهم، فقامت سريعة لأولادها، فرفعت رأسى وقلت له: يا حاتم، بما تشبع أطفالها، فوالله ما نام صبيانك من الجوع إلا بالتعليل، فقال: والله لأشبعنك وأشبعن صبيانك وصبيانها، فلما جاءت المرأة نهض قائماً، وأخذ المديّة بيده وعمد إلى فرسه، فذبحه، ثم أجج ناراً ودفع إليها الشفرة، وقال: قطعي واشوي وكلي وأطعمي صبيانك، فأكلت المرأة وأشبعت صبيانها، فأيقظت أولادى وأكلت وأطعمتهم، فقال: والله إن هذا لهُو اللؤم تأكلون وأهل الحى حالهم مثل حالكم، ثم أتى الحى بيتاً بيتاً يقول لهم انهضوا النار، فاجتمعوا حول الفرس، وتقنع حاتم بكسائه وجلس ناحية، فوالله ما أصبحوا وعلى وجه الأرض منها قليل ولا كثير إلا العظم والحافر، ولا والله ما ذاقها حاتم، وإنه لأشدهم جوعاً، وأخباره كثيرة شهورة ومن شعره:

أماوى إنَّ المال غُـادٍ ورائحٌ ويبقى من المال الأحاديث والذكرُ
وقد علم الأقوام لو أنَّ حاتمًا أراد ثراءَ المال كـَـانَ له وفـرُّ

وأغار قوم على طييء، فركب حاتم فرسه وأخذ رمحه ونادى فى جيشه وأهل عشيرته، ولقى القوم، فهزمومهم وتبعهم، فقال له كبيرهم: يا حاتم هب لى رمحك، فرمى به إليه، فقيل لحاتم: عرضت نفسك للهلاك، ولو عطف عليك لقتلك. فقال: قد علمت ذلك، ولكن ما جواب من يقول هب لى؟ ولما مات عظم على طييء موته، فادعى أخوه أنه يخلفه، فقالت له أمه: هيهات شتان والله ما بين خلفتيكما، وضعته، فبقى والله سبعة أيام لا يرضع حتى ألقيت إحدى ثدى طفلًا من الجيران، وكنت أنت ترضع ثدياً ويدك على الآخر، فأنتى لك ذلك. قال الشاعر:

يعيش الندى ما عاش حاتم طييء وإن مات قامت للسقاء مآتم

وكانت العرب تسمى الكلب داعى الضمير، ومتمم الغم، ومشيد الذكر لما يجلب بمن الأضياف بنباحه. والضمير: الغريب، وكانوا إذا اشتد البرد وهبت الرياح، ولم تشب النيران فرقوا الكلاب حوالى الحى وربطوها إلى العمدة لتستوحش فتنبح، فتهدى الضلال وتأتى الأضياف على نباحها. والحكايات فى ذكر الأجواد والكرماء والأسخياء وأهل المعروف وما كانوا عليه من السخاء والكرم أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر. ففى مثل هذه المناقب فليتنافس المتنافسون وليثلها فليعمل العاملون، فإن فيها عز الدنيا وشرف الآخرة، وحسن الصيت وخلود جميل الذكر، فإننا لم نجد شيئاً يبقى على ممر الدهر إلا الذكر حسناً كان أو قبيحاً. وقد قال الشاعر:

ولا شيء يدوم فكن حـديثاً جميلَ الذكر فالدينا حديثُ

فانتهاز فرصة العمر ومساعدة الدنيا ونفوذ الأمر وقدم لنفسك كما قدموا، تذكر بالصالحات كما ذكروا، وادخر نفسك فى القيامة كما ادخروا، واعلم أن المأكول للبدن والموهوب للمعاد والمتروك للعدو، فاختر أى الثلاث شئت. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى البخل والشح وذكر البخل وأخبارهم وما جاء عنهم

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٧]. وقال رسول الله ﷺ: «ياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم». وعنه ﷺ أنه قال: «البخل جامع لمساوى القلوب وهو زمام يقاد به إلى كل سوء». وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنهما: إن البخل لو كان قميصاً ما لبسته أو كان طريقاً ما سلكته. وقيل: بخلاء العرب أربعة: الحطيثة وحميد الأرقط وأبو الأسود الدؤلى وخالد بن صفوان. فأما الحطيثة^(١) فمر به إنسان وهو على باب داره ويده عصا، فقال: أنا ضيف فأشار إلى العصا وقال: لكعاب الضيفان أعددتها. وأما حميد الأرقط، فكان هجاء للضيفان فحاشاً عليهم، نزل به مرة أضياف، فأطعمهم قمراً، وهجاهم وذكر أنهم أكلوه بنواه. وأما أبو الأسود، فتصدق على سائل بتمرة، فقال له: جعل الله نصيبك من الجنة مثلها. وكان يقول: لو أطعنا المساكين فى أموالنا كنا أسوأ حالاً منهم. وأما خالد بن صفوان، فكان يقول للدرهم إذا دخل عليه: يا عيار كم تعير وكم تطوف وتطير، لأطيلن حبسك. ثم يطرحه فى الصندوق ويقفل عليه. وقيل له: لم لا تنفق، ومالك غريض؟ فقال: الدهر أعرض منه، وأنشد بعضهم:

وهبنى جمعت المال ثم خزنته وحانت وفاتى هل أزد به عملاً
إذا خزن المال البخيل فليته سيورته غمماً ويعقبه وزراً

واستأذن حنظلة على صديق له بخيل، فقيل: هو محموم، فقال: كلوا بين يديه حتى يعرق. وكتب سهل بن هارون كتاباً فى مدح البخل وأهداه إلى الحسن بن سهل فوقع على ظهره، «قد جعلنا ثوابك عليه ما أمرت به فيه». وقال ابن أبى فتن:

ذرىنى وإتلافى لمالى فـلـانـى أحب من الأخلاق ما هو أجمل
وإن أحق الناس باللوم شاعر يلوم على البخيل الرجال ويبخل

وكان عمر بن يزيد الأسدى بخيلاً جداً، أصابه القولنج فى بطنه فحقنه الطيب بدهن كثير فأنحل ما فى بطنه فى الطست، فقال لغلامه: اجمع الدهن الذى نزل من الحقنة واسرج به. وكان المنصور شديد البخل جداً، مر به مسلم الحادى فى طريقه إلى الحج، فحدا له يوماً يقول الشاعر:

أغرّ بين الحاجبين نوره يزينه حياؤه وخيـره
ومسكه يشوبه كافوره إذا تغلدى رفعت ستوره

فطرب حتى ضرب برجله المحمل ثم قال: ياربيع أعطه نصف درهم، فقال مسلم: نصف درهم! يا أمير المؤمنين، والله لقد حدوت لهشام، فأمر لى بثلاثين ألف درهم. فقال: تأخذ من بيت مال المسلمين ثلاثين ألف درهم، ياربيع: وكل به من يستخلص منه هذا المال. قال الربيع: فما زلت أمشى بينهما وأروضه حتى شرط مسلم على نفسه أن يحدو له فى ذهابه وإيابه بغير مؤنة.

وكان أبو العتاهية^(٢)، ومروان بن أبى حفصة بخيلين يضرب بيخلهما المثل، قال مروان: مافرحت بشىء أشد مما فرحت بمائة ألف درهم وهبها لى المهدي، فوزنتها فرجحت درهماً، فاشتريت به لحماً. واشترى يوماً لحماً بدرهم، فلما

(١) الحُطَيْثَةُ: هو جرول بن أوس بن مالك العبسى، أبو ملكية، شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام كان هجاءً عنيفاً، لم يكذب يسلم من لسانه أحد، وهجا أمه وأباه ونفسه له «ديوان شعر». توفى سنة (٤٥هـ - ٦٦٥م).

(٢) أبو العتاهية: هو إسماعيل بن القاسم بن سويد العثرى، العثرى (من قبيلة عذرة) بالولاء، أبو إسحاق الشهير بالعتاهية، شاعر مكثراً، سريع الخاطر، فى شعره فن وإبداع توفى سنة (٢١١هـ - ٨٢٦م).

وضعه فى القدر دعاه صديقه، فرد اللحم على القصاب ينقصان دانقين، فجعل القصاب ينادى على اللحم ويقول: هذا لحم مروان، واجتاز يوماً بأعرابيه، فأضافته فقال: إن وهب لى أمير المؤمنين مائة ألف درهم وهبت لك درهماً، فوهبه سبعين ألف درهم، فوهبها أربعة دوانق.

ومن الموصوفين بالبخل أهل مرو، يقال: إن من عادتهم إذا توافقوا فى سفر أن يشتري كل واحد منهم قطعة لحم ويشكها فى خيط ويجمعون اللحم كله فى قدر، ويمسك كل واحد منهم طرف خيطه، فإذا استوى جر كل منهم خيطه وأكل لحمه وتقاسما المرق. وقيل لبخيل: من أشجع الناس؟ قال: من سمع وقع أضراس الناس على طعامه ولم تنشق مرارته. وقيل لبعضهم: أما يكسوك محمد بن يحيى؟ فقال: والله لو كان له بيت مملوء إبراً، وجاء يعقوب ومعه الأنبياء شفعاء والملائكة ضمناً يستعير منه إبرة ليخيط بها قميص يوسف الذى قد من دبر، ما أعاره إياها، فكيف يكسونى؟ وقد نظم ذلك من قال:

لو أن دارك أنبتت لك واحدة ————— إبراً يضيق بهــــا فناء المنزل
وأناك يوسف يستعيرك إبرة ————— ليخيط قد قميصه لم تفعل

وكان المتنبي بخيلاً جداً مدحه إنسان بقصيدة، فقال له: كم أملت منا على مدحك؟ قال: عشرة دنائير. قال له: والله لو ندفنت قطن الأرض بقوس السماء على جباه الملائكة مادفعت لك دانقاً^(١). وقال دعبل: كنا عند سهل بن هارون، فلم نبرح حتى كاد يموت من الجوع، فقال: ويلك يا غلام آتنا غداءنا، فأتى بقصعة فيها ديك مطبوخ تحته ثريد قليل، فتأمل الديك فرآه بغير رأس، فقال لغلامه: وأين الرأس؟ فقال: رميته، فقال: والله إنى لأكره من يرمى برجله، فكيف برأسه؟ ويحك أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء ومنه يصيح الديك ولولا صوته ما أريد، وفيه فرقه الذى يتبرك به وعينه التى يضرب بها المثل، فيقال: شراب كعين الديك، ودماغه عجيب لوجع الكلية، ولم نر عظماً أهش تحت الأسنان من عظم رأسه، وهبك ظننت أنى لا آكله، أما قلت عنده من يأكله. انظر فى أى مكان رميته فأنتى به. فقال: والله لا أدرى أين رميته، فقال: ولكنى أنا أعرف أين رميته. رميته فى بطنك، الله حسبك. وقيل من الناس من يبخل بالطعام ويجود بالمال وبالعكس. قال بعضهم فى أبى دلف:

أبو دلف يُضَيِّعُ ألفَ ألف ————— ويضربُ بالخصام على الرغيف
أبو دلفٍ لمطبِّخه قِطاراً ————— ولكن دونه سلّ الســـــيوف

واشتكى رجل مروزى صدره من سعال، فوصفوا له سويق اللوز فاستثقل النفقة، ورأى الصبر على الوجع أخف عليه من الدواء، فبينما هو يماطل الأيام ويدافع الآلام إذ أتاه بعض أصدقائه، فوصف له ماء النخالة، وقال: إنه يجلو الصدر، فأمر بالنخالة فطبخت له وشرب من مائها، فجلا صدره، ووجدته يعصم، فلما حضر غداؤه أمر به، فرفع إلى العشاء، وقال لامراته: اطبخى لأهل بيتنا النخالة فإنى وجدت ماءها يعصم ويجلو الصدر. فقالت: لقد جمع الله لك بهذه النخالة بين دواء وغذاء، فالحمد لله على هذه النعمة.

وعن خاقان بن صبح قال: دخلت على رجل من أهل خراسان ليلاً فأتانا بمسرجة فيها فتيلة فى غاية الرقة، وقد علق فيها عوداً بخيط، فقلت له: ما بال هذا العود مربوطاً؟ قال: قد شرب الدهن وإذا ضاع ولم نحفظه احتجنا إلى غيره، فلا نجد إلا عوداً عطشاناً، ونخشى أن تشرب الدهن. قال: فبينما أنا أتعجب وأسأل الله العافية إذ دخل علينا شيخ من أهل مرو، فنظر إلى العود، فقال الرجل: يا فلان لقد فررت من شىء ووقعت فيما هو شر منه، أما علمت أن الريح والشمس يأخذان من سائر الأشياء وينشقان هذا العود، لم لا اتخذت مكان هذا العود إبرة من حديد، فإن الحديد أملس وهو مع ذلك غير نشاف، والعود أيضاً ربما يتعلق به شعرة من قطن الفتيلة فينقصها. فقال له الرجل الخراسانى: أرشدك الله، ونفع بك، فلقد كنت فى ذلك من المسرفين. وقال الهيثم بن عدى: نزل على أبى حفصة الشاعر رجل من اليمامة، فأخلى له المنزل ثم هرب مخافة أن يلزمه قراه فى هذه الليلة فخرج الضيف واشترى ما احتاج إليه، ثم رجع وكتب إليه:

(١) الدائق: سدس الدرهم.

يا أيها الخارج من بيته وهارباً من شدة الخوف
ضيفك قد جاء بزاد له فارجع وكن ضيفاً على الضيف

واشترى رجل من البخلاء داراً وانتقل إليها، فوقف ببابه سائل فقال له: فتح الله عليك. ثم وقف ثان. فقال له مثل ذلك، ثم وقف ثالث، فقال له مثل ذلك، ثم التفت إلى ابنته، فقال لها: ما أكثر السؤال في هذا المكان. قالت يا أبت ما دمت مستمسكاً لهم بهذه الكلمة فما تبال كثروا أم قلوا. وألام اللثام وأبخلهم حميد الأرقط الذي يقال له هجاء الأضياف، وهو القائل في ضيف له يصف أكله بهذه البيت من قصيدة له:

ما بين لقمته الأولى إذا انحدرت وبين أخرى تليها قيد أظفور
وقال فيه أيضاً:

تجهز كفاه ويحدر حلقه إلى الزور ما ضمت عليه الأنامل

وأكل أعرابي مع أبي الأسود رطباً فأكثر، ومد أبو الأسود يده إلى رطبة ليأخذها فسبقه الأعرابي إليها فسقطت منه في التراب، فأخذها أبو الأسود وقال: لا أدعها للشيطان يأكلها، فقال الأعرابي: والله ولا جبريل وميكائيل لو نزل من السماء ما تركها. وقال الأعرابي: لنزيل نزل به: نزلت بواد غير ممطور ورجل بك غير مسرور، فأقم بعدم أو ارحل بندم وللحمدوني:

رأيت أبا زارة يومــــاً
لئن وُضِعَ الخــــوان ولا ح شــــخص
فقال سوى أبيك فذاك شــــيخ
فــــقام وقال من حــــق إليــــه
أبى وأبنا أبى والكلب عــــندي
وقــــال له ابن لى يا ابن كلب
إذا حــــضر الطعمــــام فلا حــــقوق
فما فى الأرض أقــــبح من خــــوان
فأين هذا من القائل:

بخيل يرى فى الجود عــــاراً وإنما
إذ المرء أــــثرى ثم لم يــــرج نفعــــه
وقال آخر:

وأمرةً بالبخل قلت لها اقــــصرى
أرى الناس إــــخوان الكزيم ومــــا أرى

وقالوا: إذا سألت لثيماً فعاجله ولا تدعه يفكر، فإنه كلما فكر ازداد بعداً، وقال ريعى الهمداني:

جمعت صنوف المال من كل وجهة
وإن لأرجو أن أموت وتنقضى
وما نلتها إلا بكف كريم
حياتي وما عندي يدٌ للثميم
وأشد الجاحظ لأبى الشمقمق:

مَنْ تَعَلَّمَتْ هَذَا
أَمَّا مَرَرْتُ بِعَبِيدٍ
أَنْ لَا تَجُودَ بِشَيْءٍ
لِعَبِيدِ حَسَاتِمِ طِيٍّ

ومما قالته الشعراء في البخلاء وطعامهم فمن أهدى ما قيمهم بيت جرير في بني تغلب

والتغلبى إذا تنحنح للقسرى
له أيضاً فيهم:
حك إستتسه وتمثل الأمثالا

قومٌ إذا أكلوا أخفوا كلامهم
قوم إذا استنبح الضيفان كلبهم
فتمنع البول شحاً أن تجود به
والخبز كالعبر الهندي عندهم
واستوثقوا من رجاج الباب والدار
قالوا لأمتهم بولى على النار
وما تبول لهم إلا بمقدار
والقمح خمسون أرباً بدينار

فأين هؤلاء من الذى قال فيه الشاعر:

أبلغ بين حاجبيه نوره
وقال بعضهم فى بخیل:
إذا تغدى رفعت ستوره

أتانا بخيلٌ بخبيلٍ له
إذا ما تنفس حول الخوان
وقال آخر:
كمثل الدارهم فى رقتيه
تطير فى البيت من خفتيه

تراهم خشية الأضياف خرساً
وقال آخر وقد بات عند بخیل:
يقيمون الصلاة بلا أذان

فبئتنا كأنا بينهم أهل مآثم
يحدث بعضنا بعضاً بمصابه
وقال آخر:
على ميّت مستودع بطن ملحد
ويأمر بعضنا بعضاً بالتجلد

وجيرة لا نرى فى الناس مثلهم
إن يوقدوا يوسعوننا من دخانهم
وقال آخر وأجاد:
إذا يكون لهم عيلاً وإفطار
وليس يبلغنا ما تطبخ النار

فصدق إيمانه إن قال مجتهداً
فلإن هممت به فاعبث بخبزته
قد كان يعجبني لو أن غيرته
وقال آخر:
لا والرغيف فذاك البرّ من قسمه
فلإن موقعها من لحمه ودمه
على جرادقه كانت على حرمه

ذهب الكرام فلا كرام
من لا يقبل ولا ينيب
وبقى العوضاريط اللثام
لولا يشم له طعم اللثام

وقال آخر:

خليلى من كعب أعينا أذاكما
ولا تبخلاً بخل ابن قزعة إنه

وقال آخر:

إذا جئته فى حاجة سدّ باب

وقال آخر:

له يومــــــــــــــــان يوم ندى ويوم
فأما جوده فعلى قحاب

وقال آخر:

زففت إلى نبهان من صفو فكرتى
فقبلها عشراً وهام بحبها

وقال آخر:

لو عبّر البحر بأمواجه
وكفّفه مملوءة خردلاً

وقال آخر:

يا قائماً فى داره قاعداً
قد مات أضيافك من جوعهم

وقال آخر:

نوالك دونه شوك القناد
فلو أبصرت ضيفاً فى منام

وقال آخر:

لا تعجبن لخبر زلّ من يده

وقال ابن أبى حازم:

وقالوا قد مدحت فتى كريماً
بلوت ومرّ به خمسون حولاً
فلا أحد يعدّ ليوم خير

على دهره إنّ الكريم مــــــــــــمين
مخافة أن يرجى نداء حزين

فلم تلقه إلا وأنت كمين

يسل السيف فيه من القراب
وأما سيفه فعلى الكلاب

عروساً غدا بطن الكتاب لها صدرا
فلما ذكرت المهر طلقها عشرا

فى ليلة مظلمة باردة
ما سقطت من كفه واحدة

من غير معنى لا ولا فائدة
فاقرأ عليهم سورة المائدة

وخبزك كالثريا فى البعاد
لحرمت الرقاد إلى المعاد

فالكوكب النحس يسقى الأرض أحياناً

فقلت وكيف لى بفتى كريم
وحسبك بالمجرب من عليم
ولا أحد يجود على عديم

ومن رؤساء أهل البخل: محمد بن الجهم، وهو الذي قال: وددت لو أن عشرة من الفقهاء وعشرة من الخطباء

وعشرة من الشعراء وعشرة من الأدباء تواطؤوا على ذمي واستسهلوا شتمى حتى يتشر ذلك فى الآفاق، فلا يمتد إلى أمل أمل ولا ييسط نحوى رجاء راج. وقال له أصحابه يوماً: إنا نخشى أن نقعد عندك فوق مقدار شهوتك، فلو جعلت لنا علامة نعرف بها وقت استئقالك لمجالستنا، فقال: علامة ذلك أن أقول يا غلام هات الغداء. وقال عمرو بن ميمون: مررت ببعض طرق الكوفة فإذا أنا برجل يخاصم جاراً له، فقلت: ما بالكما؟ فقال أحدهما: إن صديقاً لى زارنى فاشتتهى رأساً فاشتريته وتغدينا وأخذت عظامه فوضعتها على باب دارى أتجمل بها فجاء هذا فأخذها ووضعها على باب داره يوهم الناس أنه هو الذى اشترى الرأس. قال رجل من البخلاء لأولاده: اشترُوا لى لحماً فاشتروه، فأمر بطبخه فلما استوى أكله جميعه حتى لم يبق فى يده إلا عظمة، وعيون أولاده ترمقه. فقال: ما أعطى أحداً منكم هذه العظمة حتى يحسن وصف أكلها. فقال ولده الأكبر: أشمشمها يا أبت وأمصها حتى لا أدع للذر فيها مقيلاً قال: لست بصاحبها. فقال الأوسط: ألوكها يا أبت والحسها حتى لا يدرى أحد لعام هى أم لعامين. قال: لست بصاحبها، فقال الأصغر: يا أبت أمصها ثم أدقها وأسفها سفاً. قال: أنت صاحبها، وهى لك زادك الله معرفة وحزماً. ووقف أعرابى على باب أبى الأسود وهو يتغدى، فسلم فرد عليه ثم أقبل على الأكل ولم يعزم عليه، فقال له الأعرابى: أما إنى قد مررت بأهلك، قال: كذلك كان طريقك. قال: وامراتك حيلى. قال: كذلك كان عهدى بها. قال: قد ولدت. قال: كان لابد لها أن تلد. قال: ولدت غلامين. قال: كذلك كانت أمها. قال: مات أحدهما. قال: ما كانت تقوى على إرضاع اثنين. قال: ثم مات الآخر. قال: ما كان لىبقى بعد موت أخيه. قال: وماتت الأم. قال: حزناً على ولديها. قال: ما أطيب طعامك. قال: لأجل ذلك أكلته وحدى ووالله لا ذقته يا أعرابى. وقيل: خرج أعرابى قد ولّاه الحجاج بعض النواحي فأقام بها مدة طويلة، فلما كان فى بعض الأيام ورد عليه أعرابى من حيه فقدم إليه الطعام وكان إذ ذاك جائعاً، فسأله عن أهله وقال: ما حال ابنى عمير؟ قال: على ما تحب قد ملأ الأرض والحقى رجالاً ونساءً. قال: فما فعلت أم عمير؟ قال: صالحة أيضاً. قال: فما حال الدار؟ قال: عامرة بأهلها. قال: وكلبنا إيقاع؟ قال: قد ملأ الحقى نبجاً، قال: فما حال جملى زريق؟ قال: على ما يسرك. قال: فالتفت إلى خادمه وقال: ارفع الطعام فرفعه ولم يشبع الأعرابى ثم أقبل عليه يسأله وقال: يا مبارك الناصية أعد على ما ذكرت، قال: سل عما بدا لك، قال: فما حال كلبى إيقاع؟ قال: مات. قال: وما الذى أماته؟ قال: اختنق بعظمة من عظام جملى زريق فمات. قال: أو مات جملى زريق؟ قال: نعم. قال: وما الذى أماته؟ قال: كثرة نقل الماء إلى قبر أم عمير. قال: نعم. قال: وما الذى أماته؟ قال: سقطت عليه الدار. قال: أو سقطت الدار؟ قال: نعم. قال: فقام له بالعصا ضارباً فولى من بين يديه هارباً.

وحكى بعضهم قال: كنت فى سفر فضلت عن الطريق فرأيت بيتاً فى القلاة فأتيته، فإذا به أعرابية فلما رأتنى قالت: من تكون؟ قلت: ضيف. قالت: أهلاً ومرحباً بالضيف انزل على الرحب والسعة، قال: فتزلت فقدمت لى طعاماً فأكلت، وماء فشربت، فبينما أنا على ذلك إذ أقبل صاحب البيت فقال: من هذا؟ فقالت: ضيف. فقال: لا أهلاً ولا مرحباً ما لنا وللضيف، فلما سمعت كلامه ركبت من ساعتى وسرت فلما كان من الغد رأيت بيتاً فى القلاة فقصدته فإذا فيه أعرابية فلما رأتنى قالت: من تكون؟ قلت: ضيف، قالت: لا أهلاً ولا مرحباً بالضيف وما لنا وللضيف؟ فبينما هى تكلمنى إذ أقبل صاحب البيت فلما رأتى قال: من هذا؟ قالت: ضيف. قال: مرحباً وأهلاً بالضيف. ثم أتى بطعام حسن فأكلت وماء فشربت فتذكرت ما مر بى بالأمس فتبسمت، فقال: مم تبسمك؟ فقصصت عليه ما اتفق لى مع تلك الأعرابية وبعلمها وما سمعت منه ومن زوجته، فقال: لاتعجب إن تلك الأعرابية التى رأيتها هى أختى وإن بعلمها أخو امرأتى هذه، فغلب على كل طبع أهله. وحكايات هؤلاء وأمثالهم كثيرة وأخبارهم ونوادرهم شهيرة، وفيما ذكرته كفاية. وأسأل الله تعالى التوفيق والهداية إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير ولا حول ولا قوة إلا الله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الطعام وآدابه والضيافة وآداب المضيف وأخبار الأكلة وما جاء عنهم وغير ذلك

أما إباحة الطيب من المطاعم: فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ [المائدة: ٤] ﴿قُلْ مَن حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. وقال رسول الله ﷺ: «محرم الحلال كمحلل الحرام». وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده فى مأكله ومشربه». وكان الحسن رضى الله تعالى عنه يقول: ليس فى اتخاذ الطعام سرف. وسئل الفضيل عمن يترك الطيبات من اللحم والخبيص^(١) للزهد، فقال: ما للزهد وأكل الخبيص؟ ليتك تأكل وتتقى الله إن الله لا يكره أن تأكل الحلال إذا اتقيت الحرام، انظر كيف برك بوالديك وصلتك للرحم وكيف عطفك على الجار وكيف رحمتك للمسلمين وكيف كظمك للغيط وكيف عفوك عمن ظلمك وكيف إحسانك إلى من أساء إليك وكيف صبرك واحتمالك للأذى، أنت إلى أحكام هذا أحوج من ترك الخبيص.

وأما نعوت الأطعمة وما جاء فيها: فقد نقل الرشيد أنه سأل أبا الحرث عن الفالودج واللورنج أيهما أطيب، فقال: يا أمير المؤمنين لا أقضى على غائب. فأحضرهما إليه، فجعل يأكل من هذا لقمة ومن هذا لقمة ثم قال: يا أمير المؤمنين كلما أردت أن أقضى لأحدهما أتى الآخر بحجته. واختلف الرشيد وأم جعفر فى الفالودج واللورنج أيهما أطيب فحضر أبو يوسف القاضى فسأله الرشيد عن ذلك فقال: يا أمير المؤمنين لا يقضى على غائب فأحضرهما فأكل حتى اكتفى، فقال له الرشيد: احكم. قال: قد اصطلاح الخصمان يا أمير المؤمنين. فضحك الرشيد وأمر له بألف دينار، فبلغ ذلك زبيدة فأمرت له بألف دينار إلا ديناراً. وسمع الحسن البصرى رجلاً يعيب الفالودج فقال: لباب البر بلعاب النحل بخالص السمن ما أظن عاقلاً يعيبه. وقال الأصمعى: أول من صنع الفالودج عبد الله بن جدعان. وأتى أعرابى بفالودج فأكل منه لقمة فقبل له: هل تعرف هذا؟ فقال: هذا وحياتك الصراط المستقيم. وكان أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ اللحم. وعن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم». وكان ﷺ يقول: «هو سيد الطعام فى الدنيا والآخرة وهو يزيد فى السمع ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل». وكان ﷺ يحب الدباء^(٢) ويقول: «يا عائشة إذا طبختم قدرًا فأكثروا فيها من الدباء فإنها تشد القلب الحزين وهى شجرة أختي يونس». وعنه ﷺ أنه قال: «عليكم بالقرع فإنه يشد الفؤاد ويزيد فى الدماغ، وعليكم بالعدس فإنه يرق القلب ويغزر الدمعة». وعن أبى رافع قال: كان أبو هريرة رضى الله تعالى عنه يقول: أكل التمر أمان من القولنج وشرب العسل على الريق أمان من الفالج، وأكل السفرجل يحسن الولد وأكل الرمان يصلح الكبد والزبيب يشد العصب ويذهب بالنصب والوصب والكرفس يقوى المعدة ويطيب النكهة، وأطيب اللحم الكتف. وكان يديم أكل الهريسة وكان يأكل على سباط معاوية ويصلى خلف على ويجلس وحده. فسئل عن ذلك فقال: طعام معاوية أدمم، والصلاة خلف على أفضل، وهو أعلم والجلوس وحدى لى أسلم. وسميت المتوكلية بالمتوكل والمأمونية بالمأمون، وقال الحسن بن سهل يوماً على مائدة المأمون: الأرز يزيد فى العمر فسأله المأمون عن ذلك فقال: يا أمير المؤمنين إن طب الهند صحيح وهم يقولون: إن الأرز يرى منامات حسنة، ومن رأى مناماً حسناً كان فى نهارين فاستحسن قوله ووصله. وقال أبو صفوان: الأرز الأبيض بالسمن والسكر ليس من طعام أهل الدنيا. وقيل لأبى الحرث: ما تقول فى الفالودجة؟ قال: وددت لو أنها وملك الموت اعتلجا فى صدرى والله لو أن موسى لقى فرعون بالفالودجة لآمن ولكنه لقيه بعصا. وكانت العرب لاتعرف الألوان إنما كان طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح، حتى كان زمن معاوية رضى الله تعالى عنه فاتخذ الألوان. ويقال للمرقة المسخنة: بنت نارين وكان بعض المترفهين يقول: جنبوا مائدتى بنت نارين. وقالوا: كل طعام أعيد عليه التسخين مرتين فهو فاسد. وقيل: إذا لقي اللحم فى العسل ثم أخرج بعد شهر طرياً فإنه لا يتغير. ويقال للسكبا^(٣): سيد المرق وشيخ الأطعمة وزين الموائد. ويقال: إذا طبخت اللحم بالخل فقد ألقيت عن معدتك ثلث المؤنة، ويقال للخبز: ابن حبة. قال بعضهم:

(١) الخبيص: الحلواء.

(٢) الدباء: القرع.

(٣) السكبا: لحم يطبخ بخل.

فى حـبـة القلب منى زرعت حُبَّ ابن حـبـة

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما رفعه: أكرموا الخبز قالوا: وما كرامته يارسول الله؟ قال: «لا ينتظر به الأدام إذا وجدتم الخبز فكلوه حتى تؤتوا بغيره». وفى الحديث: «من داوم على اللحم أربعين يوماً قسا قلبه ومن تركه أربعين يوماً ساء خلقه»، وقيل: المائدة التى أنزلت على بنى إسرائيل كان عليها كل البقول إلا الكراث، وسمكة عند رأسها خل وعند ذنبها ملح وسبعة أرغفة على كل واحد زيتون وحب رمان. ودخل ابن قزعة يوماً على عز الدولة وبين يديه طبق فيه موز فتأخر عن استدعائه، فقال: ما بال مولانا ليس يدعونى إلى الفوز بأكل الموز؟ فقال: صفه حتى أطعمك منه فقال: ما الذى أصف من حسن لونه فيه سبائك ذهبية كأنه حشيت زبداء وعسلأ، أطيب الشمر كأنه مخ الشحم، سهل المقشر لين المكسر عذب المطعم بين الطعوم سلس فى الخلقوم، ثم مد يده وأكل. وسمع رجلاً يذم الزبد فقال له: ما الذى ذممت منه سواد لونه أم بشاعة طعمه أم صعوبة مدخله أم خشونة ملمسه؟ وقيل له: ما تقول فى الباذنجان، فقال: أذئاب المحاجم وبطون العقارب وبزور الزقوم. قيل له: إنه يحشى اللحم فيكون طيباً، فقال: لو حشى بالتقوى والمغفرة ما أفلح. وصنع الحجاج وليمة واحتفل فيها ثم قال لزازان: هل عمل كسرى مثلها؟ فاستعفاه، فأقسم عليه فقال: أولم عبدٌ عند كسرى فأقام على رؤوس الناس ألف وصيفة، فى يد كل واحدة إبريق من ذهب. فقال الحجاج: أف والله ما تركت فارس لمن بعدها من الملوك شرفاً. وأهدى رجل إلى آخر فالوذجة زنخة وكتب إليه: إنى اخترت لعملها السكر السوسى والعسل الماردانى والزعفران الأصبهانى، فأجابه والله العظيم ما عملت إلا قبل أن توجد أصبهان وقبل أن تفتح السوسى وقبل أن يوحى ريك إلى النحل. وقيل: إن أبا جهم بن عطية كان عيناً لأبى مسلم الخولانى على المنصور، فأحس المنصور بذلك فطاولة الحديث يوماً حتى عطش، فاستسقى فدعا له بقدر من سويق اللوز فيه السم فناوله إياه فشرب منه فما بلغ داره حتى مات فقيل فى ذلك:

تجنب سويق اللوز لاتقربنه فـشـرب سويق اللوز أردى أبا جهـم
وقال أبو طالب المأمونى:

فما حملت كف امرئ متطعماً الذ وأشهى من أصابع زينب

وأصابع زينب ضرب من الحلوى يعمل ببغداد، يشبه أصابع النساء المنقوشة. ودخل السائب على على رضى الله عنه فى يوم شات، فناوله قدحاً فيه عسل وسمن ولبن، فأباه فقال: أما إنك لو شربته لم تزل دفتاً شبعان سائر يومك. وعن نافع بن أبى نافع قال: كان أبو طالب يعطى علياً قدحاً من اللبن يصبه على اللات، فكان على يشرب اللبن ويبول على اللات.

وأما الزهد فى المآكل: فقد زهد فيه كثير من الأخيار مع القدرة عليه، ومنهم من لا يقدر عليه. قالت عائشة رضى الله تعالى عنها: والذى بعث محمداً ﷺ بالحق ما كان لنا منخل ولا أكل رسول الله ﷺ خبزاً منخولاً منذ بعثه الله تعالى إلى أن قبض، قيل: فكيف كنتم تأكلون الشعير؟ قالت: كنا نقول أف أف. وعن جابر رضى الله تعالى عنه رفعه: «نعم الأدم الخل وكفى بالمرء سرفاً أن يتسخط ما قرب إليه». وقال عمر رضى الله تعالى عنه: ما اجتمع عند رسول الله ﷺ أدمان إلا أكل أحدهما وتصدق بالآخر. وقالت عائشة رضى الله عنها: ما كان يجتمع لونا فى لقمة فى فم رسول الله ﷺ، إن كان لحماً لم يكن خبزاً وإن كان خبزاً لم يكن لحماً، وعن النبى ﷺ أنه قال: «يا على ابدأ بالملح واختم به فإن فيه شفاء من سبعين داء». وروى أن نبياً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام شكى إلى الله الضعف فأمره أن يطبخ اللحم باللبن فإن القوة فيهما. وسنذكر فضل الزهد فى المآكل والمشارب فى باب مدح الفقراء إن شاء الله تعالى.

وأما ما جاء فى آداب الأكل: فقد قال رسول الله ﷺ: «من قال عند مطعمه ومشربه بسم الله خير الأسماء بسم الله رب الأرض والسماء لم يضره ما أكل وما شرب». وكان ﷺ إذا وضع بين يديه الطعام قال: «بسم الله اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وعليك خلفه»، وقال ﷺ: «من أكل طعاماً فقال: الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن ليس ثوباً فقال: الحمد لله الذى كسانى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه». وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها: قال رسول الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى، فإن نسى فى أوله فليقل بسم الله أوله وآخره». وفى حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: «قال: رسول

الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله»، وقال ﷺ: «الأكل في السوق دناءة». وعن أنس رضي الله تعالى عنه «أن النبي ﷺ زجر عن الشرب قائماً قال: فسألناه عن الأكل قائماً فقال: هو شر من الشرب». وأوصى رجل من خدام الملوك ابنه فقال: إذا أكلت فضم شفطيك، ولا تلتفتن يميناً ولا شمالاً ولا تلقمن بسكين ولا تجلس فوق من هو أشرف منك وأرفع منزلة، ولا تبصق في الأماكن النظيفة. ومن هذا ما رواه الزهري أن النبي ﷺ نهى عن النفخ في الطعام والشراب، وقال على رضي الله تعالى عنه: «نهى رسول الله ﷺ أن يؤكل الطعام حاراً». وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: «ما عاب النبي ﷺ طعاماً قط إن اشتهاه أكله ولا تركه». وقال عمر بن هبيرة: عليكم بمباكرة الغداء فإن مباكرته تطيب النكهة وتعين على المروءة قيل: وما إبعائه على المروءة؟ قال: أن لا تتوق نفسك إلى طعام غيرك. وعن النبي ﷺ قال: «من أكل من سقط المائدة عاش في سعة وعوفي في ولده وولد ولده من الحمق»، وعنه ﷺ: «من سقط شيئاً من الطعام فأكله حرم الله جلده على النار». وكان الحرث بن كلدة يقول: إذا تغدى أحدكم فليتم على غدائه، وإذا تعشى فليخط أربعين خطوة. وقيل: خير الغداء بواكره وخير العشاء سوافره. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ أن يتبع الرجل بصره لقمة أخيه. وقال الحجاج لأعرابي يوماً على سمائه: ارفق بنفسك فقال: وأنت يا حجاج اغضض من بصرك. وقال معاوية لرجل على مائدته: خذ الشعرة من لقمته فقال: وإنك تراعيني مراعاة من يرى الشعرة في لقمته، لا أكلت لك طعاماً أبداً. ووضع معاوية بين يدي الحسن بن علي رضي الله عنهما دجاجة، ففكها فقال معاوية: هل بينك وبين أمها عداوة؟ فقال الحسن: فهل بينك وبين أمها قرابة؟ أراد معاوية أن الحسن يوقر مجلسه كما توقر مجالس الملوك، والحسن أعلم منه بالأدب والرسوم المستحسنة رضي الله تعالى عنهما. وأحضر أعرابي على مائدة بعض الخلفاء فقدم جدي مشوى فجعل الأعرابي يسرع في أكله منه، فقال له الخليفة: أراك تأكله بحرد كأن أمه نطحتك، فقال: أراك تشفق عليه كأن أمه أرضعتك.

وأما ما جاء في كثرة الأكل: فقد روى عن حذيفة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ: «من قل طعامه صح بطنه وصفا قلبه، ومن كثر طعامه سقم بطنه وقسا قلبه». وعنه ﷺ: «لا تملئوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب كالزرع إذا كثر عليه الماء مات». وقال ﷺ: «ما زين الله رجلاً بزينة أفضل من عفاف بطنه»، وقال عمرو بن عبيد: ما رأيت الحسن ضحاكاً إلا مرة واحدة، فقال رجل من جلسائه: ما آذاني طعام قط فقال له آخر: أنت لو كانت في معدتك الحجارة لطحنتها. وقال على كرم الله وجهه: البطنة تذهب الفطنة. وقال ابن المقفع: كانت ملوك الأعاجم إذا رأت الرجل نهماً شراً أخرجه من طبقة الجدد إلى باب الهزل، ومن باب التعظيم إلى باب الاحتقار. وتقول العرب: أقلل طعاماً تحمد مناماً، وكانت العرب تعبر بعضها بكثرة الأكل وأنشدوا:

لست بأَكْـالٍ كَأَكْلِ الْعَبِيدِ ولا بنوم كنوم الفـهـد

وأنشد الأصمعي لرجل من بني فهد:

إذا لم أزر إلا لأكل أكـلـة فلا رفعت كفى إلى طعامي
فما أكلت إن نلتها بغنيمة ولا جوعاً إن جمعتها بغرام

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: أراد رسول الله ﷺ أن يشتري غلاماً فألقى بين يديه تمرأ فاكل فأكثر فقال ﷺ: «إن كثرة الأكل شؤم». وقالوا: الوحدة خير من جليس سوء، والجليس سوء خير من الأكل سوء. وشكا أبو العيناء إلى صديق له سوء الحال، فقال: اشكر، فإن الله قد رزقك الإسلام والعافية، قال: أجل، ولكن بينهما جوع يقلقل الكبد، ودعت أبا الحرث حبيبة له، فحادثته ساعة، فجاء فطلب الأكل فقالت له: أما في وجهي ما يشغلك عن الأكل، قال: جعلت فداءك لو أن جميلاً وبثينه قعدا ساعة لا يأكلان لبصق كل منهما في وجه صاحبه وافترقا.

وأما أخبار الأكلة: فقد قيل: إن وهب بن جرير سأل ميسرة البراش عن أعجب ما أكل، فقال: أكلت مائة رغيف بمكوك بلح. ومر ميسور المذكور يوماً يقوم وهو راكب حماراً، فدعوه للضيافة، فذبحوا له حماره وطبخوه، وقدموه له، فأكله كله، فلما أصبح طلب حماره ليركبه، فقيل له: هو في بطنك. وقال المعتمر بن سليمان: قلت لهلال المازني ما أكلة بلغتني عنك، قال: جعت مرة ومعى بغير لى، فنحرته وسويته وأكلته، ولم أبق منه إلا شيئاً يسيراً حملته على

ظهري، فلما كان الليل أردت أن أجامع أمة لي، فلم أقدر أن أصل إليها، فقالت: كيف تصل إليّ وبيننا جمل، فقلت له: كم تكفيك هذه الأكلة، فقال: أربعة أيام. وقال الأصمعي: إن سليمان بن عبد الملك كان شرهاً نهماً وكان من شره أنه إذا أتى بالسفود عليه الدجاج السمين المشوي لا يصبر إلى أن يبرد، ولا أن يؤتى بمنديل، فيأخذ بكمه، فيأكل واحدة واحدة حتى يأتي عليها، فقال الرشيد: ويحك يا أصمعي ما أعلمك بأخبار الناس إنني عُرِضْتُ على جباب سليمان، فرأيت فيها آثار الدهن، فظننته طيباً حتى حدثتني، ثم أمر لي بجبة منها، فكنت إذا لبستها أقول هذه جبة سليمان بن عبد الملك.

وقال الشمردل وكيل عمرو بن العاص قدم سليمان بن عبد الملك الطائف، فدخل هو وعمر بن عبد العزيز إلى، وقال: يا شمردل: ما عندك ما تطعمني؟ قلت: عندي جدي كأعظم ما يكون سمناً، قال: عجل به فأتيته به كأنه عكة سمن، فجعل يأكل منه ولا يدعو عمر حتى إذا لم يبق منه إلا فخذاً قال: هلم يا أبا جعفر، فقال: إنني صائم فأكله، ثم قال: يا شمردل ويلك أما عندك شيء؟ قلت: ست دجاجات كأنهن أفخاذ نعام، فأتيته بهن فأتى عليهن، ثم قال: يا شمردل أما عندك شيء؟ قلت: سويق كأنه قراضة الذهب، فأتيته به، فعبه حتى أتى عليه، ثم قال يا غلام: أفرغت من غدائنا؟ قال: نعم. قال: ماهو؟ قال: نيف وثلاثون قدراً، قال: اتنى بقدر قدر، فأتاه بها ومعه الرقاق، فأكل من كل قدر ثلثه، ثم مسح يده واستلقى على فراشه وأذن للناس فدخلوا، وصف الخوان، فقعده وأكل مع الناس. وكان هلال ابن الأسعر يضع القمع على فيه ويصب اللبن أو النبيذ، وكان غليظاً عتلاً وقال أعرابي لرجل رآه سمياً: أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك. وقال أبو المحسر الأعرابي: كانت لي بنت تجلس على المائدة فتبرز كفاً كأنها صلفة في ذراع كأنه جمارة، فلا تقع عينها على لقمة نفيسة إلا خصتني بها، فكبرت وزوجتها، وصرت أجلس على المائدة مع ابن لي فيبرز كفاً كأنها كرنافة، فوالله لن تسبق عيني إلى لقمة طيبة إلا سبقت يده إليها. وقال مسلم بن قتيبة: عددت للحجاج أربعة وثمانين رغيفاً مع كل رغيف سمكة. ويقال: فلان يحاكي حوت يونس في جودة الالتقام، وعصا موسى في سرعة الالتهام.

وقيل لأبي مرة: أي الطعام أحب إليك؟ قال: لحم سمين وخبز سميد أضرب فيه ضرب ولى السوء في مال اليتيم. وقال صدقة بن عبيد المازني: أولم لي أبي لما تزوجت، فعمل عشر جفان ثريد من جزور، فكان أول من جاءنا هلال المازني، فقدمنا له جفنة مترعة، فأكلها، ثم أخرى، فأكلها، حتى أتى على الجميع، ثم أتى بقربة مملوءة من النبيذ، فوضع طرفها في شدقه وفرغها في جوفه، ثم قام فخرج وأستأنفنا عمل الطعام. وكان عبيد الله بن زياد يأكل في كل يوم خمس أكلات، فخرج يوماً يريد الكوفة، فقال له رجل من بني شيان: الغداء أصلح الله الأمير، فنزل، فذبح له عشرين طائراً من الأوز، فأكلها، ثم قدم الطعام، فأكل ثم أتى بزنبيلين في أحدهما تين، وفي الآخر بيض، فجعل يأكل من هذا تينة، ومن هذا بيضة حتى أتى على ذلك جميعه، ثم رجع وهو جائع. وكان ميسرة البراش يأكل الكبش العظيم ومائة رغيف، فذكر ذلك للمهدي، فقال: دعوت يوماً بالفيل وأمرت، فألقى إليه رغيف رغيف، فأكل تسعة وتسعين، وألقى إليه تمام المائة، فلم يأكله.

وحدث الشيخ نبيه الدين الجوهري أنه سمع الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام يقول: إن معاوية بن أبي سفيان كان يأكل في كل يوم مائة رطل بالدمشقي ولايشع. ونزل رجل بصومعة راهب، فقدم إليه الراهب أربعة أرغفة، وذهب ليحضّر العدس، فحمّله وجاء، فوجده قد أكل الخبز، فأتى بخبز فوجده قد أكل العدس، ففعل معه ذلك عشر مرات، فسأله الراهب: أين مقصدك؟ قال: إلى الأردن. قال: لماذا؟ قال: بلغني أن بها طيباً حاذقاً أسأله عما يصلح معدتي، فإنني قليل الشهوة للطعام، فقال له الراهب: إن لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قال: إذا ذهبت وأصلحت معدتك، فلا تجعل رجوعك على.

وأما المهازلة على الطعام: فقد روى عن يحيى بن عبد الرحمن رضى الله تعالى عنه قال: قالت عائشة رضى الله عنها: كان عندي رسول الله ﷺ، وسودة فصنعت حريرة، فجثت به، فقلت لسودة: كلي، فقالت: لا أحبه، فقلت: والله لتأكلين أو لأطخن وجهك، فقالت: ما أنا بذائقة، فأخذت من الصحيفة شيئاً، فلطخت به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها، فتناولت من الصحيفة شيئاً، فلطخت به وجهي، وجعل رسول الله ﷺ يضحك. واشترى غندر

يوماً سمكاً وقال لاهله: أصلحوه، ونام، فأكل عياله السمك ولطخوا يده، فلما انتبه قال: قدموا إلى السمك، قالوا: قد أكلت. قال: لا، قالوا: شم يدك، ففعل، فقال: صدقتم، ولكن ما شبعتم. ودخل الحمدوني على رجل وعنده أقوام بين أيديهم أطباق الحلوى ولا يمدون أيديهم، فقال: لقد ذكرتموني ضيف إبراهيم وقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ [هود: ٧٠] ثم قال: كلوا رحمكم الله فضحكوا، وأكلوا. والحكايات في ذلك كثيرة.

وأما الضيافة وإطعام الطعام: فقد قال الله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٤]. وقال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ولا يؤذ جاره». وقال ﷺ: «من أكل وذو عينين ينظر إليه ولم يواسه ابتلى بداء لا دواء له». وقال الحسن: كنا نسمع أن إحدى مواجب الرحمة إطعام الأخ المسلم الجائع. وقيل لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام: بم اتخذك الله خليلاً؟ قال بثلاث: ما خیرت بين شيتين إلا اخترت الذى لله على غيره، ولا اهتممت بما تكفل لى به، ولا تغديت ولا تعشيت إلا مع ضيف. ويقولون: ما خلا مضيف الخليل عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا ليلة واحدة من ضيف. وكان الزهرى إذا لم يأكل أحد من أصحابه من طعامه حلف لا يحدثه عشرة أيام. وقالوا: المائدة مرزوقة. أى من كان مضيافاً وسع الله عليه، وقالوا: أول من سن القرى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. وأول من ثرد الثريد وهشمه هاشم، وأول من أفطر جيرانه على طعامه فى الإسلام عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما، وهو أول من وضع موائد على الطريق، وكان إذا خرج من بيته طعام لا يعود منه شيء، فإن لم يجد من يأكله تركه على الطريق. وقيل لبعض الكرماء: كيف اكتسبت مكارم الأخلاق، والتأدب مع الأضياف؟ فقال: كانت الأسفار تحوجنى إلى أن أفد الناس، فما استحسنته من أخلاقهم اتبعته وما استقبحتته اجتنبتها.

وأما آداب المضيف: فهو أن يخدم أضيافه ويظهر لهم الغنى وبسط الوجه، فقد قيل: البشاشة فى الوجه خير من القرى، قالوا: فكيف بمن يأتى بها وهو ضاحك؟ وقد ضمن الشيخ شمس الدين البديوى رحمه الله هذا الكلام بأبيات، فقال:

إذا المرء وافى منزلاً منك قاصداً	قراك وأرمته لديك المسالك
فكن باسماً فى وجهه مهلاً	وقل مرحباً أهلاً ويوم مبارك
وقدم له ما تستطيع من القرى	عجولاً ولا تبخل بما هو هالك
فقد قيل بيت سالف متقدم	تداوله زيد وعمرو ومالك
بشاشة وجه المرء خير من القرى	فكيف بمن يأتى به وهو ضاحك

وقالت العرب: تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة وإطالة الحديث عند المؤكلة، وقال حاتم الطائي:

سلى الطارق المعتبر يا أم مالك	إذا ما أتانى بين نارى ومجزرى
أبسط وجهى إنه أول القرى	وأبذل معروفى له دون منكبرى

وقال آخر فى عبد الله بن جعفر:

إنك يا ابن جعفر خير فتى	وخيرهم لطارق إذا أتى
-------------------------	----------------------

ولله در القائل:

الله يعلم أنه ما سررتنى	شيء كطارقة الضيوف النزل
ما زلت بالترحيب حتى خلتنى	ضيفاً له والضيف رب المنزل

أخذه من قول الشاعر:

ياضييفنا لو ررتنا لوجدتنا نحن الضييفوف وأنت ربّ المنزل

وما أحسن ما قال سيف الدولة بن حمدان:

منزلنا رحبٌ لمن زاره
وكل ما فيه حلالٌ له
نحن سواءٌ فيهِ والطارقُ
إلا الذي حرّمه الخالقُ

وقال الأصمعي: سألت عيينة بن وهب الدارمي عن مكارم الأخلاق فقال: أوّما سمعت قول عاصم بن وائل:
وأنا لنقرى الضيفَ قبل نزوله
وقال بعض الكرام:

أضاحك ضيفي قبل أن أنزل راحله
وما الخصب للأضياف أن تكثر القرى
ويخصب عندي والمحلّ جديبٌ
ولكنّما وجه الكريم خصيبٌ
وقال آخر:

عودت نفسي إذا ما الضيف نبهني
ومن آداب المضيف أن يتفقد دابة ضيفه ويكرمها قبل إكرام الضيف قال الشاعر:

مطية الضيف عندي تلو صاحبه
لن يأمن الضيف حتى تكرم الفرسا

وقال علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما: من تمام المروءة خدمة الرجل ضيفه كما خدمهم أبونا إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه بنفسه وأهله. أما سمعت قول الله عز وجل؟ ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾ [هود: ٧١]. ومن آداب المضيف أن يحدث أضيافه بما تميل إليه نفوسهم، ولا ينام قبلهم، ولا يشكو الزمان بحضورهم، ويبش عند قدومهم، ويتألم عند وداعهم، وأن لا يحدث بما يروعه به. كما حكى بعضهم قال: استدعاني إسحاق بن إبراهيم الظاهري إلى أكل هريسة في بكرة نهار فدخلت، فأحضرت لنا الهريسة فأكلنا، فإذا شعرة قد جاءت على لقمة غفل عنها طبّاخه، فاستدعى خادمه، فأسر إليه شيئاً لم نعلمه، فعاد الخادم ومعه صينية مغطاة، فكشف عن الصينية، فإذا يد الطباخ مقطوعة تختلج، فتكدر علينا عيشنا وقمنا من عنده ونحن لانعقل. فيجب على المضيف أن يراعى خواطر أضيافه كيفما أمكن ولا يغضب على أحد بحضورهم، ولا ينغص عيشهم بما يكرهونه، ولا يعبس بوجهه ولا يظهر نكداً، ولا ينهر أحداً ولا يشتمه بحضرتهم، بل يدخل على قلوبهم السرور بكل ما أمكن.

كما حكى عن بعض الكرام أنه دعا جماعة من أصحابه إلى بستانه وعمل لهم سماًطاً وكان له ولد جميل الطلعة، فكان الولد في أول النهار يخدم القوم ويأسون به، ففي آخر النهار صعد إلى السطح، فسقط فمات لوقته، فحلف أبوه على أمه بالطلاق الثلاث أن لا تصرخ ولا تبكي إلى أن تصبح، فلما كان الليل سأله أضيافه عن ولده، فقال: هو نائم، فلما أصبحوا وأرادوا الخروج قال لهم: إن رأيتم أن نصلي على ولدي، فإنه بالأمس سقط من على السطح، فمات لساعته، فقالوا له: لم لا أخبرتنا حين سألناك؟ فقال: ما ينبغي لعاقل أن ينغص على أضيافه في التذاذهم ولا يكدر عليهم في عيشهم، فتعجبوا من صبره وتجلده، ومكارم أخلاقه، ثم صلوا على الغلام وحضروا دفنه وبكوا عليه وانصرفوا، وعلى المضيف أن يأمر غلمانه بحفظ نعال أضيافه وتفقد غلمانهم بما يكفيهم، ويسهل حجابهم وقت الطعام ولا يمنع وارداً. وقيل لبعض الأمراء الكرام: لا بأس بالحجاب لئلا يدخل من لا يعرفه الأمير ويحترز عن العدو، فقال: إن عدواً يأكل طعامنا ولا يتخذع لا يمكنه الله منا، والأليق بالكريم الرئيس أن يمنع حاجبه من الوقوف ببابه عند حضور الطعام، فإن ذلك أول الشناعة عليه، وعليه أن يسهر مع أضيافه ويؤانسهم بلذيق المحادثة وغريب الحكايات، وأن يستميل قلوبهم بالبذل لهم من غرائب الظرف إن كان من أهل ذلك، وأن يرى أضيافه مكان الخلاء، فقد قيل عن ملك الهند أنه قال: إذا ضافك أحد فأره الكنيف فإنني ابتليت به مرة، فوضعت في قلنسوتي. وقالوا: لا بأس أن يدخل دار أخيه يستطعم للصدقة الوكيدة.

وقد قصد النبي ﷺ والشيخان منزل الهيثم بن التيهان وأبى أيوب الأنصاري، وكذلك كانت عادة السلف رضى الله تعالى عنهم. وكان لعون بن عبد الله المسعودي ثلاثمائة وستون صديقاً، فكان يدور عليهم في السنة، ولا بأس أن يدخل الرجل بيت صديقه، فيأكل وهو غائب، فقد دخل رسول الله ﷺ دار بريرة رضى الله عنها، فأكل طعامها وهي غائبة، وكان الحسن رضى الله عنه يوماً عند بقال، فجعل يأخذ من هذه الجبونة تينة ومن هذه فستقة فيأكلها، فقال له هشام: ما بدا لك يا أبا سعيد في الورع؟ فقال له: يا لكع اقل على آية الأكل، فتلا: ﴿ولا أعلی أنفسکم أن تأكلوا من بیوتکم﴾ إلى قوله: ﴿أو صديقکم﴾ [النور: ٦١] فقال الصديق: من استروحت إليه النفس واطمأن إليه القلب، وعلى المضيف الكريم أن لا يتأخر عن أضيافه ولا يمنعهم عن ذلك قلة ما في يده بل يحضر إليهم ما وجد. فقد جاء عن أنس وغيره من الصحابة رضى الله عنهم أنهم كانوا يقدمون الكسرة اليابسة وحشف التمر. ويقولون: ما ندرى أيهما أعظم وزراً الذي يحتقر ما قدم إليه أو الذي يحتقر ما عنده أن يقدمه. وعن أنس رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من ألقم أخاه لقمة حلوة صرف الله عنه مرارة الموقف».

حكى عن الإمام الشافعي رضى الله عنه أنه كان نازلاً عند الزعفراني ببغداد، فكان الزعفراني يكتب في كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويدفعها إلى الجارية، فأخذها الشافعي منها يوماً وألقى فيها لوناً آخر، فعرف الزعفراني ذلك، فأعتق الجارية سروراً بذلك، وكانت سنة السلف رضى الله عنهم أن يقدموا جملة الألوان دفعة ليأكل كل شخص ما يشتهي. ومن السنة أن يشيع المضيف الضيف إلى باب الدار، وعلى المضيف إذا قدم الطعام إلى أضيافه أن لا ينتظر من يحضر من عشيرته، فقد قيل: ثلاثة تضي: سراج لا يضيء، ورسول بطيء، ومائدة ينتظر لها من يجيء، ونزل الإمام الشافعي رضى الله عنه بالإمام مالك رضى الله عنه، فصب بنفسه الماء على يديه وقال له: لا يرعك ما رأيت مني، فخدمة الضيف على المضيف فرض.

أعرض طعامك وإبدله لمن أكلا
واحلف على من أبى واشكر لمن فعلا
ولا تكن سابري العرض محتشماً
من القليل فلست الدهر محتفلاً

ومن البخلاء من يعزم على الضيف، فيعتذر له، فيمسك عنه بمجرد الاعتذار، كأنه تخلص من ورطة، وقيل لبعض البخلاء: ما الفرج بعد الشدة؟ قال: أن يعتذر الضيف بالصوم. ومن البخلاء من يعجبه طعامه ويصف زياديه ويشتهي أن تبقى على حالها، ومنهم من يحضر طعامه فإذا رآه ضيوفه أمر بأن يرفع منها أطيبها وأشهاها إلى النفوس، ويعتذر أن في أصحابه من يحضر بالغداة عنده.

وحكى عن بعض البخلاء أنه استأذن عليه ضيف وبين يديه خبز وزبدية فيها عسل نحل، فرفع الخبز وأراد أن يرفع العسل، فدخل الضيف من قبل أن يرفعه، فظن البخيل أن ضيفه لا يأكل العسل بلا خبز، فقال له: ترى أن تأكل عسلاً بلا خبز، قال: نعم، وجعل يلعق العسل لعقة بعد لعقة، فقال له البخيل: مهلاً يا أخى والله إنه يحرق القلب، قال: نعم صدقت، ولكنه قلبك.

وحكى عن بعضهم أنه قال: غلب على الجوع مرة، فقلت: أمضى إلى دار فلان لأتغدى عنده، فجئت إلى باب بيته فوجدت غلامه، فقلت له: أين سيدك؟ فقال: والله لا قلت لك عليه إلا أن أعطيتني كسرة، قال: فرجعت هارباً. ومن البخل تقديم الشيء السير وتفخيمه.

وحكى عن بعض البخلاء أنه حلف يوماً على صديقه، وأحضر له خبزاً وجبناً وقال له: لاتستقل الجبن، فإن الرطل منه بثلاثة دراهم، فقال له ضيفه: أنا أجعله بدرهم ونصف، قال: وكيف ذلك؟ قال: أكل لقمة بجبن ولقمة بلا جبن، فأين هؤلاء من الذى يقول:

قالت أما ترحلُ تبغى الغنى . قلت فمن الطارق المعتم

قالت فهل عندك شيء له
فكم وحق الله من ليلة
إن الغنى بالنفس ياهله

وقال بعض البخلاء:

قلت نعم جهد الفتى المعدم
قد أطمع الضيف ولم أطمع
ليس الغنى بالمال والدرهم

سرى نحونا يبع القرى طوى الحشى
فبات له منا إلى الصبح شاتم

لقد عملت فيه الظنون الكواذب
يعدد تطفيل الضيوف وضارب

فستان ما بين القائلين.

وأما آداب الضيف: فهو أن يسادر إلى موافقة المضيف في أمور منها: أكل الطعام، ولا يعتذر بشبع بل يأكل كيف أمكن. فقد حكى أنه ورد على بعض الأعراب ضيف، فدخل به إلى بيته وقدم له الطعام، فقال الضيف: لست بجائع، وإنما أحتاج إلى مكان أبيت فيه، فقال الأعرابي: إذا كان هذا، فكن ضيف غريب، فإني لا أرى أن تمدحني في البلاد وتهجونى فيما بينى وبينك.

وحكى عن بعض التجار قال: استدعانى أبو حفص محمد بن القاسم الكرخى لأعرض عليه قماشاً من تجارتي، فبينما أنا بين يديه، وإذا بأطباق الفاكهة قد حضرت فقامت من مجلسه، فقال: يا فلان. ما هذا الخلق العامى؟ اجلس، فجلست وتحققت كرمه وجعلت أكل الكمثرى فى لقمة والتفاحة فى لقمة، ثم قدم الطعام وكنت جائعاً فأكلت جيداً ثم انصرفت، فلم أشعر فى اليوم الثانى إلا وقد جاءنى غلامه بيغلتته، فاستدعانى إليه، فقال: يا فلان إني قليل الأكل بطيء الهضم، ولقد طابت لى مؤاكلتك بالأمس، فأريد أن لاتنقطع بعدها عني، قال: فكنت متى انقطعت حضر غلامه فى طلبى، فحصل له بقربى منه مال كثير وجاء عريض.

ومن آداب الضيف أيضاً أن لا يسأل صاحب المنزل عن شيء من داره سوى القبلة، وموضع قضاء الحاجة، وأن لا يتطلع إلى ناحية الحرم وأن لا يخالفه إذا أجلسه فى مكان وأكرمه به، وأن لا يمتنع من غسل يديه. وإذا رأى صاحب المنزل قد تحرك بحركة فلا يمنعه منها. فقد نقل فى بعض المجاميع أن بعض الكرماء كان عريداً على أضيافه سيء الخلق بهم، فبلغ ذلك من الأذكياء، فقال: الذى يظهر لى من هذا الرجل أنه كريم الأخلاق، وما أظن سوء أخلاقه إلا لسوء أدب الأضياف، ولا بد أن أتطفل عليه لأرى حقيقة أمره، قال: فقصدته وسلمت عليه، فقال: هل لك أن تكون ضيفى. قلت: نعم فسار بين يدي إلى أن جاء إلى باب داره، فأذن لى، فدخلت، فأجلسنى فى صدر مجلسه، فجلست حيث أجلسنى، وأعطانى مسنداً، فاستندت إليه، فأخرج لى شطرنجاً، وقال: أتقن شيئاً؟ قلت: نعم. فلعبت معه، فلما حضر الطعام جعل يقدم لى ما استطابه، وأنا أكل، فلما فرغنا قدم طستاً وإبريقاً وأراد أن يسكب الماء على يدي، فلم أمنعه من ذلك، وأراد الخروج من بين يدي بعد أن قدم نعلى، فلم أردّه عن ذلك، فلما أراد الرجوع. قلت: ياسيدى أنشدك الله إلا فرجت عني كربة؟ قال: وما هي؟ فأخبرته الخبر، فقال: والله ما يحوجنى لذلك إلا سوء أدبهم، يصل الضيف إلى دارى، فأجلسه فى الصدر، فيأبى ذلك، ثم أقدم إليه الطعام، فلا أتخفه بشيء مستظرف إلا رده على، ثم أريد أن أصب الماء على يديه عند الغسل، فيحلف بالطلاق الثلاث ما تفعل، ثم أريد أن أشيعه، فلا يمكننى من ذلك، فأقول فى نفسى لا يحكم الإنسان على نفسه حتى فى بيته، فعند ذلك أشتمه وألعه وأضربه، وفى معنى ذلك يقول بعضهم:

إن كان ذا حزم وطبع لطيف

إن شاء أن ينصف أو أن يحسيف

لا ينبغى للضيف أن يعترض

فالامر للإنسان فى بيته

ومما يعاب على الضيف أمور منها كثرة الأكل المقرط، إلا أن يكون بدويًا، فإنها عادته. ومنها أن يتبع طريق الشربين

كمن يتخذ معه خريطة مشمعة يقلب فيه الزبادى والأوراق والحلوى وغير ذلك، ومنها أن يأخذ معه ولده الصغير ويعلمه أن يبكى وقت الانصراف من الطعام ليعطى على اسم ولده الصغير. ومنها: قبح المؤاكلة، وقد عد فيها عيوب كثيرة، فمنها: المتشاور والعداد والجراف والرشاف والنفاض والقراض والبهاث والثلاث والعوام والقسام والمخلل والمزبد والمرنخ والمرشش والمفتش والمنشف والملبب والصباغ والنفاخ والحامى والمجنح والشطرنجى والمهندس والمتمنى والفضولى.

فأما المتشاور: فهو الذى يستحكم جوعه قبل فراغ الطعام، فلا تراه إلا متطلعاً لناحية الباب يظن أن ما دخل هو الطعام. وأما العداد: فهو الذى يستغرق فى عد الزبادى ويعد على أصابعه، ويشير إليها، وينسى نفسه. والجراف: هو الذى يجعل اللقم فى جانب الزبدية ويجرف بها إلى الجانب الآخر. والرشاف: هو الذى يجعل اللقمة فى فيه ويرتشفها، فيسمع لها حين البلع حس ولا يخفى على جلسائه، وهو يلتذ بذلك. والنفاض: هو الذى يجعل اللقمة فى فيه وينفض أصابعه فى الزبدية. والقراض: هو الذى يقرض اللقمة بأطراف أسنانه حتى يهذبها ويضعها فى الطعام بعد ذلك. والبهاث: هو الذى يبهت فى وجه الأكلين حتى يبهتهم، ويأخذ اللحم من بين أيديهم. والثلاث: هو الذى يلت اللقمة بأطراف أصابعه قبل وضعها فى الطعام. والعوام: هو الذى يميل ذراعيه يمنة ويسرة لأخذ الزبادى. والقسام: هو الذى يأكل نصف اللقمة ويعيد باقىها فى الطعام من فيه. والمخلل: هو الذى يخلل أسنانه بأظفاره، والمزبد: هو الذى يحمل معه الطعام. والمرنخ: هو الذى يرنخ اللقمة فى الأوراق، فلا يبلغ الأولى حتى تلين الثانية. والمرشش: هو الذى يفسخ الدجاج بغير خبرة فيرش على مؤاكله. والمفتش: هو الذى يفتش على اللحم بأصابعه. والمنشف: هو الذى ينشف يديه من الدهن باللقم ثم يأكلها. والملبب: هو الذى يملأ الطعام لباباً. والصباغ: هو الذى ينقل الطعام من زبدية إلى زبدية ليبرده. والنفاخ: هو الذى ينفخ فى الطعام. والحامى: هو الذى يجعل اللحم بين يديه فيحميه من مؤاكله. والمجنح: هو الذى يزاحم مؤاكله بجناحيه حتى يفسح له فى المجلس، فلا يشق عليه الأكل. والشطرنجى: هو الذى يرفع الزبدية ويضع زبدية أخرى مكانها. والمهندس: هو الذى يقول لمن يضع الزبادى ضع هذه هنا وهذه ههنا، حتى يأتى قدامه ما يحب. والمتمنى: هو الذى يقول: ليتنى لم يكن معى من يأكل. والفضولى: هو الذى يقول لصاحب المنزل عند فراغ الطعام، إن كان قد بقى عندك فى القدور شيء، فاطعم الناس، فإن فيهم من لم يأكل.

ومن الأضياف من لا يلد له حديث إلا وقت غسل يديه، فيبقى الغلام واقفاً والإبريق فى يده والناس يتظرونه. ومنهم من يغسل يديه بالأشنان مرة واحدة، فلماذا اجتمع الوسخ والزفر تسوك بهما. ومنهم من يدخل بالدار فيستدئ بالهندسة أولاً، فيقول: كان ينبغي أن يكون باب المجلس من ههنا، والإيوان كان ينبغي أن يكون من ههنا، ويتنقل من الهندسة إلى ترتيب المجلس، فينقل الفاكهة من موضعها إلى موضع آخر، وإن كان قد استحكم جوعه استعفى من الطعام، وذهل عن بقية الأضياف وشدة جوعهم. ومنهم من يخرج فيطوف على أصدقاء صاحب الدعوة، فيتألم من انقطاعهم ويستوحش من غيبتهم ويسلطهم على عرض صاحبهم.

ولقد حكى عن مغن غير مجيد أنه لم يطل ولا ليلة واحدة، وما ذاك إلا أنه كان إذا سئل أين كنت؟ قال: كنت عند الناس، وإذا قيل له: أين أكلت؟ قال: أكلت فى بطنى، وإذا قيل له: أين شربت؟ قال: شربت فى فمى. ومنهم من يفهم عن صاحب الدعوة أنه يقول لغلامه: اشتر كذا، فيقول: والله العظيم أو الطلاق الثلاث يلزمه ما يشتري شيئاً فأذوقه، فيعجز صاحب المنزل ويخجله إذا لم يكن فى بيته شيء موجود، وليت شعري إذا كان لا يأكل فلاى شيء حضر. ومنهم من يرى صاحب البيت قد أسر إلى صديقه شيئاً، فيقول: ما الذى قال المولى لصاحبنا، وهو لا يريد أن يعلمه، ومنهم من يستعجل صاحب المنزل بالأكل ويشكو الجوع ويظن أن ذلك بسط مكارم الأخلاق، وإنما ذلك يكون فى بيته لا فى بيوت الناس. ومنهم من يقول لصاحب الدعوة: من يغنى لنا، فيقول: فلان، فيقول له: غلظت لم لا دعوت فلاناً، ومنهم من يسأل صاحب البيت، كيف قوته فى النكاح، فيقول له: أنا رجل كبير قد ضعفت قوتى وشهوتى، أو يقول: ما لى قوة طائلة فى ذلك، فيقول: أنا والله كلما مر على عام تزايدت شهوتى وكثر لهذا الفن تشوفى، ويعلن بذلك حتى تسمعه صاحبة البيت. ومنهم من يشكو حاله مع أهل بيته ويذكر نفقته عليهن وكسوته لهن وكثرة إنعامه وإحسانه إليهن، وما عليه زوجته من سوء الأخلاق وكبر النفس، لتستقل زوجة صاحب البيت ما هى فيه

مع زوجها، وربما كان ذلك سبباً لفراقها منه، ومنهم من تعجبه نفسه ويستحسن لباسه، ويستطيب رائحته، وإذا سمع الغناء تواجد، وأظهر الطرب، وحرك رأسه، ويقوم قائماً يتمايل حتى يرى أهل الرجل أنه لطيف الشكل بديع الحركات، ويظن في نفسه أنه يعشق وأن رسول صاحبة البيت لا يبطيء عنه، ومنهم من يقال له: لعب الشطرنج، فيأباه ويشغل بالدندنة، فيقع في الفضول. ومنهم من يتأمر على غلمان صاحب البيت ويهين أولاده، ويظن أنه يدل عليهم، ومنهم من يقول له صاحب البيت: كل، فيقول: ما أكل إلا أنا ورفيقي. ومنهم من يسمع السائل على الباب، فيتصدق عليه من مال صاحب البيت بغير إذنه أو يقول للسائل: فتح الله عليك، ومنهم من يدعو الناس لصاحب الوليمة بغير إذنه ويقلده بذلك المن وأكثر الناس واقع في ذلك. نسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا وأن يعيذنا من شرور أنفسنا بمنه وكرمه إنه جواد كريم رؤوف رحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى العفو والحلم والصفح وكظم الغيظ والاعتذار

وقبول المذرة والعتاب وما أشبه ذلك

قد نذب الله عز وجل نبيه ﷺ إلى الصفح والعفو بقوله تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥)﴾ [الحجر: ٨٥]. قيل: هو الرضا بلا عتب. وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وقال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران: ١٣٤]. وقال تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾ [الشورى: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت فصوراً مشرفة على الجنة، فقلت: يا جبريل لمن هذه؟ قال: للكواظمين الغيظ والعافين عن الناس». وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه: لما بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن قال: «ما زال جبريل عليه السلام يوصينى بالعفو، فلولا علمى بالله لظننت أنه يوصينى بترك الحدود». وقال الحسن بن أبى الحسن: إذا كان يوم القيامة نادى مناد، من كان له على الله أجر فليقم، فلا يقوم إلا العافون عن الناس، وتلا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال على كرم الله وجهه: أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة. وكان المأمون رحمه الله تعالى يحب العفو ويؤثره، ويقول: لقد حبيب إلى العفو حتى أنى أخاف أن لا أتاب عليه، وكان يقول: لو علم أهل الجرائم لذتى فى العفو لارتكبوها، وقال: لو علم الناس حبى للعفو لما تقربوا إلى إلا بالجنایات. وقال على كرم الله وجهه: إذا قدرت على عدوك، فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه، وقال رضى الله تعالى عنه: أقبلوا ذوى المروءات عثراتهم، فما يعثر منهم عاثر إلا ويده بيد الله يرفعه. وقال رضى الله عنه: إن أول عوض الحليم عن حلمه، أن الناس أنصار له على الجاهل. وقال المنتصر: لذة العفو يلحقها حمد العاقبة، ولذة التشفى يلحقها ذم الندم. وقال ابن المعتز: لاتشن وجه العفو بالتقريع به. وقيل: ما عفا عن الذنب من قرع به. وقال رجل لرجل سبه: إياك عنى، فقال له: وعنك أعرض. وكان الأحنف رحمه الله تعالى كثير العفو والحلم وكان يقول: ما أذانى أحد إلا أخذت فى أمره بإحدى ثلاث: إن كان فوقى عرفت له فضله، وإن كان مثلى تفضلت عليه، وإن كان دونى أكرمت نفسى عنه، وكان مشهوراً بين الناس بالحلم وبذلك ساد عشيرته، وكان يقول: وجدت الاحتمال أنصر لى من الرجال. وقيل له: ممن تعلمت الحلم؟ فقال: من قيس بن عاصم. كنا نختلف إليه فى الحلم كما يختلف إلى الفقهاء فى الفقه، ولقد حضرت عنده يوماً، وقد أتوه بأخ له قد قتل ابنه، فجاؤوا به مكتوفاً، فقال: ذعرتم أخى أطلقوه، واحملوا إلى أم ولدى ديتة، فإنها ليست من قومنا، ثم أنشأ يقول:

أقول للنفس تصبيراً وتعزيةً إحدى يدي أصابتنى ولم ترد
كلاهما خلف من فقد صاحبه هذا أخى حين أدعوه وذا ولدى

وقيل: من عادة الكريم إذا قدر غفر، وإذا رأى زلة ستر. وقالوا: ليس من عادة الكريم سرعة الغضب والانتقام. وقيل: من انتقم فقد شفى غيظه، وأخذ حقه، فلم يجب شكره، ولم يحمد فى العالمين ذكره، والعرب تقول: لاسؤدد مع الانتقام، والذي يجب على العاقل إذا أمكنه الله تعالى أن لا يجعل العقوبة شيمته، وإن كان لا بد من الانتقام، فليرفق فى انتقامه إلا أن يكون حداً من حدود الله تعالى. وقال المنصور لجان عجز عن العذر: ما هذا الوجوم وعهدى بك خطيباً لسنأ؟ فقال: يا أمير المؤمنين ليس هذا موقف مباهاة، ولكنه موقف توبة، والتوبة بالاستكانة والخضوع، فرق له وعفا عنه. وسعى إلى المنصور برجل من ولد الأشر النخعى، ذكر له عنه أنه يميل إلى بنى على والتعصب لهم، فأمر بإحضاره فلما مثل بين يديه قال: يا أمير المؤمنين ذنبى أعظم من نعمتك، وعفوك أعظم من ذنبى، ثم قال:

فهبني مسيئاً كالذي قلت ظالماً
فإن لم أكن للعفو منك لسوء ما
فعمفواً جميلاً كي يكون لك الفضلُ
أتيت به أهلاً فـأنت له أهل

فعفا عنه، وأمر له بصلة. وأحضر إلى المأمون رجل قد أذنب ذنباً، فقال له: أنت الذي فعلت كذا وكذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أنا ذاك الذي أسرف على نفسه واتكل على عفوك، فعفا عنه وخلي سبيله. وأحضر إلى الهادي رجل من أصحاب عبد الله بن مالك، فوبخه على ذنب، فقال: يا أمير المؤمنين إن إقرارى يلزمنى ذنباً لم أفعله، ويلحق بى جرماً لم أقف عليه، وإنكارى رد عليك، ومعارضة لك، ولكنى أقول:

فإن كنت تبغى بالعقاب تشفياً
فلا تزهدن عند التجاوز فى الأجر

فقال: لله درك من معتذر بحق أو باطل، ما أمضى لسانك، وأثبت جناتك وعفا عنه وخلي سبيله. وركب يوماً عمرو بن العاص رضى الله عنه بغلة له شهباء، ومر على قوم فقال بعضهم: من يقوم للأمير، فيسأله عن أمه وله عشرة آلاف؟ فقال واحد منهم: أنا، فقام وأخذ بعنان بغلته، وقال: أصلح الله الأمير، أنت أكرم الناس خيلاً، فلم ركبت دابة إشهب وجهها؟ فقال: إني لا أمل دابتي حتى تملىنى، ولا أمل رفيقى حتى يملنى. فقال: أصلح الله الأمير، أما العاص فقد عرفناه وعلمنا شرفه فمن الأم؟ قال: على الخبير سقطت. أمى النابغة بنت حرملة بن عزة سبتها رماح العرب، فأتى بها سوق عكاظ، فبيعت، فاشتراها عبد الله بن جدعان، ووهبها للعاص بن وائل، فولدت، وأنجبت، فإن كان قد جعل لك جعل، فارجع وخذه، وأرسل عنان الدابة. وقيل: إن أمه كانت بغياً عند عبد الله بن جدعان، فوطئها فى طهر واحد أبو لهب وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، والعاص بن وائل، فولدت عمراً، فادعاه كلهم، فحكمت فيه أمه، فقالت: هو للعاص، لأن العاص هو الذى كان يتفق عليها. وقالوا: كان أشبه بأبى سفيان. وكان الواثق يتشبه بالمأمون فى أخلاقه وحلمه، وكان يقال له: المأمون الصغير. نقل عنه أنه دخلت عليه ابنة مروان بن محمد، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال: لست به، فقالت: السلام عليك أيها الأمير، فقال لها: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، فقالت: ليسعنا عدلكم، فقال: إذا لايق على وجه الأرض منك أحد لأنكم حاربتم على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه، ومنعتم حقه، وسمتم الحسن رضى الله عنه، ونقضتم شرطه، وقتلتم الحسين رضى الله عنه، وسبيتم أهله، ولعنتم على بن أبى طالب رضى الله عنه على منابركم وضربتم على بن عبد الله ظملاً بسيفكم، فعدلنا لايقى منكم أحداً، فقالت: فليسعنا عفوكم، قال: أما هذا فنعم، وأمر برد أموالها عليها، وبالف فى الإحسان إليها.

وكان معاوية رضى الله عنه يعرف بالحلم، وله فيه أخبار مشهورة وآثار مذكورة، وكان يقول: إني لأنف أن يكون فى الأرض جهل لايسعه حلمى، وذنب لايسعه عفوى، وحاجة لايسعها جودى، وهذه مروءة عالية المرتبة. وقال له رجل يوماً: ما أشبه إستك بإست أمك، فقال: ذاك الذى أعجب أبا سفيان منها. وكتب معاوية إلى عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه يعتذر إليه من شىء جرى بينهما، يقول: من معاوية بن أبى سفيان إلى عقيل بن أبى طالب. أما بعد، يا بنى عبد المطلب، فأنتم والله فروع قصى ولباب عبد مناف وصفوة هاشم، فأين أخلاقكم الراسية وعقولكم الكاسية؟ وقد والله أساء أمير المؤمنين ما كان جرى، ولن يعود مثله إلى أن يغيب فى الثرى، فكتب إليه عقيل يقول:

صدقت وقلت حقاً غير أنى
أرى أن لا أراك ولا ترانى
ولست أقول سوءاً فى صديقى
ولكننى أصد إذا جفانى

فركب إليه معاوية رضى الله عنه، وناشده فى الصفع عنه، واستعطفه حتى رجع.

وحكى عنه رضى الله عنه أنه لما ولى الخلافة، وانتظمت إليه الأمور وامتلأت منه الصدور، وأذعن لأمره الجمهور، وساعده فى مراده القدر المقدور، استحضر ليلة خواص أصحابه وذآكرهم، وقائع أيام صفين، ومن كان يتولى كبر الكريهة من المعروفين، فأنهمكوا فى القول الصحيح والمريض وآل حديثهم إلى من كان يجتهد فى إيقاد نار الحرب عليهم

بزيادة التحريض، فقالوا: امرأة من أهل الكوفة تسمى الزرقاء بنت عدى كانت تعتمد الوقوف بين الصفوف وترفع صوتها صارخة: يا أصحاب على تسمعهم كلاماً كالصوارم، مستحثة لهم بقول لو سمعه الجبان لقاتل، والمدير لقابل، والمسالمة لحارب، والفار لكر، والمتزلزل لاستقر. فقال لهم معاوية رضى الله عنه: أيكم يحفظ كلامها؟ فقالوا: كلنا نحفظه، قال: فما تشيرون على فيها؟ قالوا: نشير بقتلها، فإنها أهل لذلك. فقال لهم معاوية رضى الله عنه: بشما أشرت، وقبحاً لما قلت، أيحسن أن يشتهر عنى أننى بعدما ظفرت وقدرت قتلت امرأة قد وفيت لصاحبها، إنى إذا للثيم، لا والله لا فعلت ذلك أبداً. ثم دعا بكاتبه فكتب كتاباً إلى واليه بالكوفة أن أنفذ إلى الزرقاء بنت عدى مع نفر من عشيرتها وفرسان من قومها، ومهد لها وطاء ليناً ومركباً ذلولاً، فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها وقرأ عليها، فقالت بعد قراءة الكتاب: ما أنا بزائغة عن الطاعة، فحملها فى هودج، وجعل غشاه خزاً مبطناً، ثم أحسن صحبتها، فلما قدمت إلى معاوية قال لها: مرحباً وأهلاً خير مقدم قدمه وافد، كيف حالك يا خالة، وكيف رأيت سيرك؟ قالت: خير مسير، فقال: هل تعلمين لم بعثت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى. قال: أأنت راكبة الجمل الأحمر يوم صفين، وأنت بين الصفوف توقدين نار الحرب، وتحرضين على القتال؟ قالت: نعم، قال: فما حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين إنه قد مات الرأس ويتر الذنب، والدهر ذو غير ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر. فقال: صدقت، فهل تعرفين كلامك، وتحفظين ما قلت؟ قالت: لا والله، قال: لله أبوك، فلقد سمعتك تقولين: أيها الناس إن المصباح لا يضيء فى الشمس، وإن الكواكب لا تضيء مع القمر، وإن البغل لا يسبق الفرس، ولا يقطع الحديد إلا بالحديد، ألا من استرشدنا أرشدناه، ومن سألنا أخبرناه إن الحق كان يطلب ضالة فأصابها، فصبراً يامعشر المهاجرين والأنصار، فكأنكم وقد التأم شمل الشتات، وظهرت كلمة العدل وغلب الحق باطله، فإنه لا يستوى المحق والمبطل، ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨]، فالترال التزال، والصبر الصبر، ألا وإن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء، والصبر خير الأمور عاقبة، اتوا الحرب غير ناكسين، فهذا يوم له ما بعده. يا زرقاء. أليس هذا قولك وتحريضك؟ قالت: لقد كان ذلك، قال: لقد شاركت علياً فى كل دم سفكه، فقالت: أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين، وأدام سلامتك. مثلك من يبشر بخير ويسر جليسه، فقال معاوية: أوقد سرك ذلك؟ قالت: نعم، والله لقد سرنى قولك وأنى لى بتصديقه، فقال لها معاوية: والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب إلى من حبكم له فى حياته، فاذكرى حوائجك تقض. فقالت: يا أمير المؤمنين إنى آليت على نفس أن لا أسأل أحداً بعد على حاجة، فقال: قد شار على بعض من عرفك بقتلك، فقالت: لؤم من المشير، ولو أطعته لشاركته، قال: كلا بل نعفو عنك ونحسن إليك ونرعاك، فقالت: يا أمير المؤمنين كرم منك، ومثلك من قدر فعفاً، وتجاوز عمن أساء وأعطى من غير مسألة، قال: فأعطاها كسوة ودراهم، وأقطعها ضيعة تغل لها فى كل سنة عشرة آلاف درهم، وأعادها إلى وطنها سالمة، وكتب إلى والى الكوفة بالوصية بها وبعشيرتها.

وقيل: كان لعبد الله بن الزبير رضى الله عنهما أرض وكان له فيها عبيد يعملون فيها، وإلى جانبها أرض لمعاوية وفيها أيضاً عبيد يعملون فيها، فدخل عبيد معاوية فى أرض عبد الله بن الزبير، فكتب عبد الله كتاباً إلى معاوية يقول له فيه: أما بعد، يا معاوية، إن عبيدك قد دخلوا فى أرضى، فأنهم عن ذلك، وإلا كان لى ولك شأن، والسلام. فلما وقف معاوية على كتابه، وقرأه دفعه إلى ولده يزيد، فلما قرأه قال له معاوية: يا بنى ما ترى؟ قال: أرى أن تبعث إليه جيشاً يكون أوله عنده وآخره عندك يأتونك برأسه، فقال: بل غير ذلك خير منه يابنى، ثم أخذ ورقة، وكتب فيها جواب كتاب عبد الله بن الزبير، يقول فيه: أما بعد، فقد وقفت على كتاب ولد حوارى رسول الله ﷺ، وساءنى ما ساء، والدنيا بأسرها هينة عندى فى جنب رضاه، نزلت عن أرضى لك فأضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد والأموال والسلام. فلما وقف عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما على كتاب معاوية رضى الله عنه، كتب إليه: قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، ولا أعدمه الرأى الذى أحله من قريش هذا المحل والسلام. فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله بن الزبير، وقرأه رمى به إلى ابنه يزيد، فلما قرأه تهلل وجهه، وأسفر، فقال له أبوه: يابنى من عفا ساد، ومن حلم عظم، ومن تجاوز استمال إليه القلوب، فإذا ابتليت بشيء من هذه الأدواء، فداؤه بمثل هذا الدواء.

ولما دخل الفيل من دمشق واجتمع الناس لرؤيته صعد معاوية في مكان مرتفع ينظر إليه . فبينما هو كذلك إذ نظر في بعض الحجر من قصره رجلاً مع بعض حرمه ، فأتى الحجرة ودق الباب ، فلم يكن من فتحه بد ، فوقعت عينه على الرجل ، فقال له : يا هذا في قصرى ، وتحت جناحى تهتك حرمتى ، وأنت فى قبضتى ، ما حملك على هذا؟ قال : فبهت الرجل وقال : حلمك أوقعنى ، فقال له معاوية : فإن عفوت عنك تسترها على ، قال : نعم . فعفا عنه وخلقى سبيله . وهذا من الحلم الواسع أن يطلب الستر من الجانى ، وهو عروض قول الشاعر :

إذا مرضتكم أتيناك نعودكم وتذنبون فنأتىكم ونعتذر

وحكى عن الربيع مولى الخليفة المنصور قال : ما رأيت رجلاً أربط جاشاً ، وأثبت جناحاً من رجل سعى به إلى المنصور ، أن عنده ودائع وأموالاً لبنى أمية ، فأمرنى بإحضاره ، فأحضرتة إليه ، فقال له المنصور : قد رفع إلينا خبر الودائع ، والأموال التى عندك لبنى أمية ، فأخرج لنا منها ، واحضرها ، ولا تكتم منها شيئاً ، فقال : يا أمير المؤمنين وأنت وارث بنى أمية؟ قال : لا ، قال : فوصى لهم فى أموالهم ورباعهم؟ قال : لا ، قال : فما سألتك عما فى يدى من ذلك؟ قال : فأطرق المنصور ، وتفكر ساعة ، ثم رفع رأسه وقال : إن بنى أمية ظلموا المسلمين فيها ، وأنا وكيل المسلمين فى حقوقهم ، وأريد أن آخذ ما ظلموا المسلمين فيه ، فأجعله فى بيت أموالهم . فقال : يا أمير المؤمنين ، فيحتاج إلى إقامة بيّنة عادلة أن ما فى يدى لبنى أمية مما خأنوه وظلموه ، فإن بنى أمية قد كانت لهم أموال غير أموال المسلمين . قال : فأطرق المنصور ساعة ، ثم رفع رأسه وقال : يا ربيع ، ما أرى الشيخ إلا قد صدق ، وما يجب عليه شىء ، وما يسعنا إلا أن نعفو عما قيل عنه ، ثم قال : هل لك من حاجة؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين أن تجمع بينى وبين من سعى بى إليك ، فوالله الذى لا إله إلا هو ما فى يدى لبنى أمية مال ولا وديعة ، ولكننى لما مثلت بين يديك وسألتنى عما سألتنى عنه قابلت بين هذا القول الذى ذكرته الآن ، وبين ذلك القول الذى ذكرته أولاً ، فرأيت ذلك أقرب إلى الخلاص والنجاة . فقال : ياربيع اجمع بينه وبين من سعى به ، فجمعت بينهما ، فلما رآه قال : هذا غلامى اختلس لى ثلاثة آلاف دينار من مالى وأبق منى وخاف من طلبى له ، فسعى بى عند أمير المؤمنين . قال : فشدد المنصور على الغلام وخوفه ، فأقر بأنه غلامه ، وأنه أخذ المال الذى ذكره وسعى به كذباً عليه وخوفاً من أن يقع فى يده ، فقال له المنصور : سألتك أيها الشيخ أن تعفو عنه ، فقال : قد عفوت عنه ، وأعتقته ووهبته الثلاثة آلاف التى أخذها وثلاثة آلاف أخرى أدفعها إليها . فقال له المنصور : ما على ما فعلت من مزيد؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين إن هذا كله لقليل فى مقابلة كلامك لى وعفوك عنى ، ثم انصرف . قال الربيع : فكان المنصور يتعجب منه ، وكلما ذكره يقول : ما رأيت مثل هذا الشيخ ياربيع .

وغضب الرشيد على حميد الطوسى ، فدعا له بالنطع والسيف فبكى ، فقال له : ما يبكيك؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت لأنه لا بد منه ، وإنما بكيت أسفاً على خروجى من الدنيا ، وأمير المؤمنين ساخط على ، فضحك وعفى عنه ، وقال : إن الكريم إذا خادعته انخدع . وأمر زياد بضرب عنق رجل ، فقال : أيها الأمير إن لى بك حرمة ، قال : وما هى؟ قال : إن أبى جارك بالبصرة ، قال : ومن أبوك؟ قال : يا مولاي إنى نسيت اسم نفسى ، فكيف لا أنسى اسم أبى؟ فرد زياد كمة على فمه ، وضحك وعفا عنه . وأمر الحجاج بقتل رجل فقال : أسألك بالذى أنت غداً بين يديه أذل موقفاً منى بين يديك إلا عفوت عنى ، فعفا عنه . ولما ضرب الحجاج رقاب أصحاب ابن الأشعث أتى رجل من بنى قميم ، فقال : والله يا حجاج لئن كنا أسأنا فى الذنب ما أحسنت فى العفو ، فقال الحجاج : أف لهذه الجيف ! أما كان فيهم من يحسن الكلام مثل هذا؟ وعفا عنه وخلقى سبيله . وكان إبراهيم بن المهدي يقول : والله ما عفا عنى المأمون تقريباً إلى الله تعالى ، ولا صلة للرحم ، ولكن له سوق فى العفو يكره أن تكسد بقتلى . وستل الفضل عن الفتوة ، فقال : الصفح عن عشرات الإخوان . وفى بعض الكتب المنزلة : أن كثرة العفو زيادة فى العمر . وأصله قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكِّتْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧] وقال يزيد بن مزيد : أرسل إلى الرشيد ليلاً يدعونى ، فأوجست منه خيفة ، فقال لى : أنت القاتل : أنا ركن الدولة والناثر لها ، والضارب أعناق بغاتها؟ لا أم لك ، أى ركن ، وأى ناثر أنت؟ قلت : يا أمير المؤمنين ما قلت هذا ، إنما قلت : أنا عبد الدولة ، والناثر لها ، فأطرق وجعل ينحل غضبه عن وجهه ، ثم ضحك ،

فقلت أحسن من هذا قولي:

خلافه الله في هارون ثابتة وفي بنيه إلى أن ينفخ الصور

فقال: يا فضل اعطه مائتي ألف درهم قبل أن يصبح. وأمر مصعب بن الزبير بقتل رجل، فقال: ما أقبح بي أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة، ووجهك هذا الذي يستضاء به، فأتعلق بأطواقك وأقول: أي رب سل مصعباً لم قتلني؟ فقال: أطلقوه، فلما أطلقوه، قال: أيها الأمير اجعل ما وهبت لي من حياتي في خفض عيش. قال: قد أمرت لك بمائة ألف درهم، فقال:

أيما المذنب الخطاء والعفـفو واسع ولو لم يكن ذنبٌ لما عُـرِفَ العـفـفو

وتغيط عبد الملك بن مروان على رجل، فقال: والله لئن أمكنني الله منه لأفعلن به كذا وكذا، فلما صار بين يديه قال له رجاء بن حيوة: يا أمير المؤمنين قد صنع الله ما أحببت، فاصنع ما أحب الله، فعفا عنه وأمر له بصلة. وقال الحسن: إن أفضل رداء تردى به الإنسان الحلم. وهو والله عليك أحسن من برد الخبر. وفيه قال أبو تمام:

رفيق حواشي الحلم لو أن حلمه يكفـيك ما ماريت في أنه برد

ويقال: الحليم سليم، والسفيه كليم، وقال محمد بن عجلان: ما شيء أشد على الشيطان من عالم معه حلم، إن تكلم تكلم بعلم، وإن سكت سكت بحلم، يقول الشيطان: سكوته على أشد من كلامه. شعر:

إذا كنت تبغى شيمة غير شيمة طُبِعَتْ عليها لم تطعك الضرائبُ

وعن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما: أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب. وفي التوراة: اذكرني إذا غضبت أذكرك إذا غضبت، فلا أمحقك فيما أمحق، وإذا ظلمت فاصبر، وارض بنصرتي، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك. وكان ابن عون إذا غضب على إنسان قال له: بارك الله فيك، وكانت له ناقة كريمة، فضربها الغلام فأندر عينها. فقالوا: إن غضب ابن عوان، فإنه يغضب اليوم، فقال للغلام: غفر الله لك. وقال رجل لرسول الله ﷺ: أي شيء أشد؟ قال: «غضب الله». قال: فما يباعدني من غضب الله؟ قال: «لاتغضب». ويقال: من أطاع الغضب أضاع الأرب^(١). قال أبو العتاهية:

ولم أر في الأعداء حين اختبرتهم عدواً لعقل المرء أعدي من الغضب

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بالمرء إثماً أن يقال له: اتق الله فيغضب، ويقول عليك نفسك. وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عامل من عماله: أن لاتعاقب عند غضبك، وإذا غضبت على رجل، فاحبسه، فإذا سكن غضبك فأخرجه، فعاقبه على قدر ذنبه، ولا تجاوز به خمسة عشر سوطاً. وقيل لابن المبارك رحمه الله تعالى: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة واحدة. قال: ترك الغضب. وقال المعتز بن سليمان: كان رجل ممن كان قبلكم يغضب، ويشد غضبه، فكتب ثلاث صحائف، فأعطى كل صحيفة رجلاً. وقال للأول: إذا اشتد غضبي، فقم إلى بهذه الصحيفة وناولنيها، وقال للثاني: إذا سكن بعض غضبي فناولنيها، وقال للثالث: إذا ذهب غضبي، فناولنيها. وكان في الأولى: «اقصر، فما أنت وهذا الغضب، إنك لست بإله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً». وفي الثانية: «ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء». وفي الثالثة: «احمل عباد الله على كتاب الله، فإنه لا يصلحهم إلا ذاك». روى أنه

(١) الأرب: الحاجة.

أنوشروان . وكان الشعبي أولع شيء بهذا البيت :

ليست الأحلام في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب

وعن معاذ بن جبل، عن أنس رضى الله عنهما، عن النبي ﷺ: مَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَخِيرَهُ فِي أَى الْحُورِ شَاءَ. وروى: «مَلَأَهُ اللَّهُ أَمْنًا وَإِيمَانًا» وقال ابن السماك: أَذْنَبَ غَلَامٌ لَامْرَأَةً مِنْ قَرِيشٍ، فَأَخَذَتْ السُّوْطَ، وَمَضَتْ خَلْفَهُ حَتَّى إِذَا قَارَبَتْهُ رَمَتْ بِالسُّوْطِ وَقَالَتْ: مَا تَرَكْتُ السُّقُوتَى أَحَدًا يَشْفَى غَيْظَهُ. وقال أبو ذر لغلّامه: لِمَ أَرَسَلْتَ الشَّاةَ عَلَى عِلْفِ الْفَرَسِ؟ قَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أَغِيْظَكَ، قَالَ: لِأَجْمَعْنَ مَعَ الْغِيْظِ أَجْرًا أَنْتَ حَرُّ لُوجِهِ اللَّهِ تَعَالَى. «وَاسْتَأْذَنَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَذْنُ لَهُمْ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا: بَلِ السَّامُ عَلَيْكُمْ، وَاللَّعْنَةُ، فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ، فَقَالَتْ: أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا، قَالَ: قَدْ قُلْتَ وَعَلَيْكُمْ». ورفع إلى عبد الملك بن مروان أعرابى يقال له: حمزة، سرق، وقامت عليه البيّنة، فهمّ عبد الملك بقطع يده، فكتب إليه حمزة من السجن يقول شعر:

يدى يا أمير المؤمنين أعيـذها بعفوك أن تلقى مقاماً يشينها
فلا خير فى الدنيا وكانت خبيثة إذا ما شمال فارقتها يمينها

قال: فأبى عبد الملك إلا قطعه، فدخلت عليه أم حمزة وقالت: يا أمير المؤمنين بنى وكاسبى وواحدى، فقال لها عبد الملك: بشس الكاسب لك هذا حد من حدود الله تعالى، فقالت: يا أمير المؤمنين اجعله أحد ذنوبك التى تستغفر الله منها، فقال عبد الملك: ادفعوه إليها، وخلقى سبيله. شعر:

إذا ما طاش حلمك عن عدو وهان عليك هجران الصديق
فلست إذا أخا عفو وصفح ولا لأخ على عهـد وثيق
إذا زلّ الرفـفـيق وأنت تمّن بلا رفقٍ بقـسـيت بلا رفـفـيق
إذا أنت اتّخذت أخاً جديداً لما أنكرت من خلقٍ عـسـتـيـق
فما تدري لعلك مستجير من الرمضاء فرّ إلى الحريق
فكم من سالكٍ لطريقٍ آمن أتاه ما يحذر فى الطريق

وشتّم رجل رجلاً فقال له: يا هذا لا تغرق فى شتمنا ودع للصّـلـح موضعا، فإنى أبيت مشاتمة الرجال صغيراً، فلن أجيتها كبيراً، وإنى لا أكافىء من عصى الله فى أكثر من أن أطيع الله فيه.

وحكى عن جعفر الصادق رضى الله عنه أن غلاماً له وقف يصب الماء على يديه، فوقع الإبريق من يد الغلام فى الطست، فطار الرشاش فى وجهه، فنظر جعفر إليه نظر مغضب، فقال: يا مولاي «والكاظمين الغيظ» قال: قد كظمت غيظى، قال: «والعافين عن الناس» قال: قد عفوت عنك، قال: «والله يحب المحسنين» قال: اذهب، فأنت حر لوجه الله تعالى. وقيل: لما قدم نصر بن منيع بين يدى الخليفة، وكان قد أمر بضرب عنقه، قال: يا أمير المؤمنين اسمع منى كلمات أقولها. قال: قل، فأنشأ يقول:

زعموا بأن الصقر صادف مرة عصفور بر ساقه التقدير
فتكلم العصفور تحت جناحه والصقر منقض عليه يطير
إنى لمثلك لا أئتم لقـمـمـة ولئن شويت فلئننى لحقير
فتهاون الصقر المدل بصيده كرمياً وأفلت ذلك العصفور

قال فعفا عنه وخلق سبيله . قال الشاعر:

أقرر بذنبك ثم اطلب تجاوزهم
عنه فإن جحود الذنب ذنبان
وقال بعضهم:

يستوجب العفو الفتى إذا اعترف
لقلوبه قل للذين كـفـروا
وقال آخر:

إذا ذكـرت أياديك التي سلفت
مع قبيح فعلى وزلاتى ومجترمى
أكـسـاد أقتل نفسى ثم يدركنى
علمى بأنك مجبول على الكرم

وروى أن عمر رضى الله تعالى عنه رأى سكران، فأراد أن يأخذه ليعزره، فشتمه السكران، فرجع عنه، فقيل له: يا أمير المؤمنين لما شتمك تركته، قال: إنما تركته لأنه أغضبني، فلو عززته لكنت قد انتصرت لنفسى، فلا أحب أن أضرب مسلماً لحمية نفسى. وغضب المنصور على رجل من الكتاب، فأمر بضرب عنقه، فأنشأ يقول:

وإننا الكاتبون وإن أسأنا
فهـبنا للكرام الكاتبينـا

فعفا عنه وخلق سبيله وأكرمه . وقال الرشيد لأعرابى: بم بلغ فيكم هشام بن عروة هذه المنزلة؟ قال: يحلمه عن سفيهنـا، وعفوه عن مسيئنا، وحمله عن ضعيفنا. لامنان إذا وهب، ولا حقود إذا غضب، رحب الجنان سمح البنان، ماضى اللسان، قال: فأوما الرشيد إلى كلب صيد كان بين يديه، وقال: والله لو كانت هذه فى هذا الكلب لاستحق بها السؤدد. وقيل لمعن بن رائدة: المؤاخذة بالذنب من السؤدد؟ قال: لا، ولكن أحسن ما يكون الصفح عمن عظم جرمه، وقل شفاعوه، ولم يجد ناصراً. وقال محمود الوراق:

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب
فمما الناس إلا واحد من ثلاثة
فأما الذى فوقى فأعرف قدره
وأما الذى دونى فإن قال صنت عن
وأما الذى مثلى فإن زل أو هفا
وإن عظمت منه على الجرائم
شريف ومشروف ومثل مقاوم
وأبـع فـيـه الحق والحق لازم
إجابته نفسى وإن لام لائم
تفضلت إن الحر بالفضل حاكم

وقال الأحنف بن قيس لابنه: يا بنى إذا أردت أن تؤاخى رجلاً فأغضبه، فإن أنصفك، وإلا فاحذره. قال الشاعر:

إذا كنت مختصاً لنفسك صاحباً
فإن كان فى حال القطيعة منصفاً
ومن أمثال العرب: احلم تسد. قال الشاعر:

لن يبلغ المجرد أقوام وإن شرفوا
ويشتموا فتري الألوام مسفرة
حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام
لاصفح ذل ولكن صفح إكرام
وقال آخر:

وجـهـل رددناه بفضـل حلومنا ولو أننا شـئنا رددنا بالجـهـل

وقال الأحنف: إياكم ورأى الأوغاد، قالوا: وما رأى الأوغاد؟ قال: الذين يرون الصفح والعفو عاراً. وقال رجل لأبى بكر الصديق رضى الله عنه: لأسبنك سباً يدخل معك قبرك؟ فقال: معك والله يدخل لا معى. وقيل: إن الأحنف سبّه رجل وهو يماشيه فى الطريق، فلما قرب من المنزل وقف الأحنف وقال له: يا هذا إن كان قد بقى معك شيء، فهات، وقله ههنا، فلانى أخاف أن يسمعك قتيان الحى فيؤذوك، ونحن لانتحب الانتصار لأنفسنا. وقال لقمان لابنه: يا بنى ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا أخوك إلا عند الحاجة إليه، ومن أشعر بيت قيل فى الحلم قول كعب بن زهير:

إذا أنت لم تعرض عن الجـهـل والخنـا أصبت حليماً أو أصابك جاهل

وقال آخر:

وإذا بغى باغ عليك بجـهـله فاقـتـله بالمعروف لا بالمنكر

وقال آخر:

قل ما بدا لك من صدقٍ ومن كذبٍ حلمى أصم وأذنى غيرُ صماء

ويروى فى بعض الأخبار، أن ملكاً من الملوك أمر أن يصنع له طعام، وأحضر قوماً من خاصته فلما مد السماط (١) أقبل الخادم وعلى كفه صحن فيه طعام، فلما قرب من الملك أدركته الهيبة فعثر فوقع من مقر الصحن شيء يسير على طرف ثوب الملك، فأمر بضرب عنقه، فلما رأى الخادم العزيمة على ذلك عمد بالصحن فصب جميع ما كان فيه على رأس الملك، فقال له: ويحك ماهذا؟ فقال: أيها الملك إنما صنعت هذا شحاً على عرضك، لئلا يقول الناس إذا سمعوا ذنبى الذى به تقتلنى: قتله فى ذنب خفيف لم يضره وأخطأ فيه العبد، ولم يقصده، فتنسب إلى الظلم والجور. فصنعت هذا الذنب العظيم لتعذر فى قتلى وترفع عنك الملامة. قال: فأطرق الملك ملياً ثم رفع رأسه إليه وقال: يا قبيح الفعل يا حسن الاعتذار، قد وهبنا قبيح فعلك وعظيم ذنبك لحسن اعتذارك، اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

وحكى عن أمير المؤمنين المأمون وهو المشهود له بالاتفاق على علمه، والمشهور فى الآفاق بعفوه وحلمه، أنه لما خرج عمه إبراهيم المهدي عليه وبايعه العباسيون بالخلافة ببغداد وخلعوا المأمون، وكان المأمون إذ ذاك بخراسان فلما بلغه الخبر قصد العراق فلما بلغ بغداد اختفى إبراهيم بن المهدي وعاد العباسيون وغيرهم إلى طاعة المأمون ولم يزل المأمون متطلباً لإبراهيم حتى أخذه وهو منتقب مع نسوة، فحبس ثم أحضر حتى وقف بين يدى المأمون فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال المأمون: لاسلم الله عليك ولا قرب دارك، استغواك الشيطان حتى حدثتك نفسك بما تنقطع دونه الأوهام. فقال له إبراهيم: مهلاً يا أمير المؤمنين فإن ولى الشار محكم فى القصاص والعفو أقرب للتقوى، ولك من رسول الله ﷺ شرف القرابة وعدل السياسة وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب كما جعل كل ذى ذنب دونك، فإن أخذت فبحقك وإن عفوت فبفضلك، والفضل أولى بك يا أمير المؤمنين ثم قال هذه الأبيات:

ذنبى إليك عظيمٌ وأنت أعظم مننه
فخذ بحققك أو لا فاصفح بعفوك عنه
إن لم أكن فى فضالى من الكرام فكُنْه

فلما سمع المأمون كلامه وشعره ظهرت الدموع فى عينيه وقال: يا إبراهيم الندم توبة وعفو الله تعالى أعظم مما تحاول

(١) السماط: هو بساط من الجلد يوضع عليه الطعام.

وأكثر مما تأمل، ولقد حجب إلى العفو حتى خفت أن لا أؤجر عليه، لا تثريب عليك اليوم. ثم أمر بفك قيوده وإدخاله الحمام وإزالة شعثه وخلع عليه ورد أمواله جميعها إليه فقال فيه مخاطباً:

رددت مالى ولم تبخل على به وقبل ردك مالى قد حقنت دمي
فإن جحدتك ما أوليت من كرم إنى لبس اللوم أولى منك بالكرم

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يأمره أن يبعث إليه برأس عباد بن أسلم البكرى، فقال له عباد: أيها الأمير أنشدك الله لا تقتلني، فوالله إنى لأعول أربعاً وعشرين امرأة ما لهن كاسب غيرى. فرق لهن واستحضرهن وإذا واحدة منهم كالبدر، فقال لها الحجاج: ما أنت منه؟ قالت: أنا بنته فاسمع يا حجاج منى ما أقول ثم قالت:

أحجاجُ إِمّا أن تمّنَ بتركه علينا وإمّا تقتلنا معاً
أحجاج لا تفجع به إن قتلتَه ثمّاناً وعشراً واثنتين وأربعاً
أحجاج لا تترك عليه بناته وخالاته يندبهن الدهر أجماً

فبكى الحجاج ورق له واستوهبه من أمير المؤمنين عبد الملك وأمر له بصلة. ولما قدم عيينة بن حصن على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من السفر الذين يدينهم عمر رضى الله عنه، وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً. فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخى لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لى عليه، فاستأذن له عمر فلما دخل قال: هيه يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم فينا بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله سبحانه وتعالى قال لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وأن هذا من الجاهلين فوالله ما جاوزها عمر رضى الله عنه حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله تعالى.

وحكى أن رجلاً زور ورقة عن خط الفضل بن الربيع، تتضمن أنه أطلق له ألف دينار ثم جاء بها إلى وكيل الفضل، فلما وقف الوكيل عليها لم يشك أنها خط الفضل فشرع فى أن يزن له ألف دينار، وإذا بالفضل قد حضر ليتحدث مع وكيله فى تلك الساعة فى أمر مهم فلما جلس أخبره الوكيل بأمر الرجل وأوقفه على الورقة فنظر الفضل فيها ثم نظر فى وجه الرجل فرآه كاد يموت من الوجع والحجل فأطرق الفضل بوجهه ثم قال للوكيل: أتدرى لم أتيتك فى هذا الوقت؟ قال: لا، قال: جئت لاستنهضك حتى تعجل لهذا الرجل إعطاء المبلغ الذى فى هذه الورقة، فأسرع عند ذلك الوكيل فى وزن المال وناوله الرجل فقبضه وصار متحيراً فى أمره فالتفت إليه الفضل وقال له: طب نفساً وامض إلى سبيلك آمناً على نفسك فقبل الرجل يده وقال له: سترتنى سترك الله فى الدنيا والآخرة، ثم أخذ المال ومضى. فيجب على الإنسان أن يتأسى بهذه الأخلاق الجميلة والأفعال الجليلة ويقتفى سنة نبيه عليه الصلاة والسلام، فقد كان أكثر الناس حلماً وأحسنهم خلقاً وأكرمهم خلقاً وأكثرهم تجاوزاً وصفحاً وأبرهم للمقتر عليه نجحاً، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

وأما ما جاء فى العتاب: فقد قيل العتاب خير من الحقد ولا يكون العتاب إلا على زلة. وقد مدحه قوم فقالوا: العتاب حدائق المتحايين ودليل على بقاء المودة. وقد قال أبو الحسن بن منقذ شعراً:

أسطو عليه وقلبي لو تمكّن من يدى غلهم غليظاً إلى عنقى
وأستعير له من سطوتي حنقاً وأين ذل الهوى من عزة الحنق

وذمه بعضهم، قال إياس بن معاوية: خرجت فى سفر ومعى رجل من الأعراب فلما كان فى بعض المناهل لقيه ابن

عم فتعانقا وتعاتبا وإلى جانبهما شيخ من الحى فقال لهما: أنعما عيشاً إن المعاتبة تبعث التجنى والتجنى يبعث المخاصمة والمخاصمة تبعث العدواة ولا خير فى شيء ثمرته العدواة. قال الشاعر:

فدع ذكر العتاب فرب شر طويلى هاج أوله العتتاب

وقيل: العتاب من حركات الشوق وإنما يكون هذا بين المتحايين قال الشاعر:

علامة ما بين المحبين فى الهوى عتابهم فى كل حق وباطل

وكتب بعضهم يعاتب صديقه على تغير حاله معه يقول:

عرضنا أنفسنا عزت علينا عليك فاستخف بها الهوان
ولو أنا رفعاها لعزت ولكن كل معروض مهان

وقال آخر يعاتب صديقه:

وكنت إذا ما جئت أنديت مجلى ووجهك من تلك البشاشة يقطر
فمن لى بالعين التى كنت مرة إلى بها فى سالف الدهر تنظر

وقال أبو الحسن بن منقذ:

أخلاقك الغر الجايا ما لها حملت قذى الواشين وهى سلاف
ومرأة رأيت فى عبيدك ما لها صدئت وأنت الجوهر الشفاف

وقال آخر يعاتب صديقه على كتاب أرسله إليه وفيه حط عليه:

اقرأ كتابك واعتبره قريباً فكفى بنفسك لى عليك حسيباً
أكذا يكون خطاب إخوان الصفا إن أرسلوا جعلوا الخطاب خطوباً
ما كان عذرى أن أجبت بمثله أو كنت بالعتب العنيف مجيباً
لكنتى خفت انتقاص مودتى فيعد إحسانى إليك ذنباً

وقال آخر:

أراك إذا ما قلت قولاً قبلته وليس لأقوالى ليدك قبول
ومما ذاك إلا أن ظنك سىء بأهل الوفا والظن فيك جميل
فكن قائلاً قول الحماسى تائهاً بنفسك عجباً وهو منك قليل
ونكر إن شئت على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول

وكان لمحمد بن الحسن بن سهل صديق فنالته إضاعة ثم ولى عملاً فأثرى فقصده محمد مسلماً فرأى منه تغيراً فكتب

إليه:

لئن كانت الدنيا أنالتك ثروة
فقد كشف الإثراء منك خلائقاً
وقال آخر فى المعنى:

فأصبحت ذا يسرٍ وقد كنتَ ذا عسرٍ
من اللؤم كانت تحت ثوبٍ من الفقر

دعوتَ الله أن تسمو وتعلو
فلما أن سموت بعدت عني

علو النجم فى أفق السماء
فكان إذاً على نفسى دعائى

وكان ابن عرادة السعدى مع سلم بن زياد بخراسان وكان له مكرماً وابن عرادة يتجنى عليه ففارقه وصاحب غيره ثم ندم ورجع إليه وقال:

عتبت على سلم فلمّا فقدته
رجعت إليه بعد تجريب غيره
وقال مسلم بن الوليد:

وصاحبت أقواماً بكيت على سلم
فكان كبيره بعد طولٍ من السقم

ويرجى عني إليك إذا نأت بى
وقال أبو الحسن القابسى:

ديارى عنك تجربة الرجى

إذا أنا عاتبت الملوّم فلأتمّ
وهبه ارفعوى بعد العتاب ألم تكن
أخطّ بأقلامى على الماء أحرفاً
مودته طبعاً فصارت تكلفاً

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: معاتبة الصديق أهون من فقدته وما أحسن ما قيل فى العتاب:

وفى العتاب حياةٌ بين أقوام
وهو المحكّ لذى لبسٍ وإبهام

فما ثم شىء أحسن من معاتبة الأحياب ولا ألد من مخاطبة ذوى الألباب والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمّى وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الوفاء بالوعد وحفظ العهد ورعاية الذمم

أرجح دليل يتمسك به الإنسان كتاب الله تعالى الذى من تمسك به هداه ومن استدل به أرشده هداه. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]. وقال جل ذكره وتقدس اسمه: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد: ٢٠]. وقال جل وعلا: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١]. وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]. والآيات فى ذلك كثيرة من أشدها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٢، ٣].

وروى فى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان». فالوفاء من شيم النفوس الشريفة والأخلاق الكريمة والخلال الحميدة، يعظم صاحبه فى العيون وتصدق فيه خطرات الظنون، ويقال: الوعد سحابة والإنجاز مطره. وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لكل شىء رأس ورأس المعروف تعجيله، وأنشدوا:

إذا قلت فى شىء نعم فــــأتمه
ولا فقل لا تسترح وترح بها
فإن نعم دين على الحر واجب
لئلا يقول الناس إنك كاذب
وقال آخر:

لا كلف الله نفساً فوق طاقتها
فلا تعد عدة إلا وفيت بها
ولا تجرود يد إلا بما تجدد
واحذر خلاف مقال للذى تعد

وقال أعرابى: وعد الكريم نقد وتعجيل ووعد اللئيم مظل وتعليل وقال أعرابى أيضاً: العذر الجميل خير من المظل الطويل. ومدح بشار خالد بن برمك فامر له بعشرين ألفاً فأبطأت عليه فقال لقائده: أقمنى حيث يمر فأقامه فمر فأخذ بنجام بغلته وأنشأ يقول:

أظلت علينا منك يوماً سحابة
فلا غيمها يجلى فيياس طامع
أضاء لها برق وأبطأ رشاشها
ولا غيثها يأتى فتروى عطاشها
فقال: لا تبرح حتى تؤتتى بها. وقال صالح اللخمي:
لئن جمع الآفات فالبخل شرها
ولا خير فى وعد إذا كان كاذباً
وشر من البخل المواعيد والمطل
ولا خير فى قول إذا لم يكن فعل

وقيل: ماتت للهذلى أم ولد، فأمر المنصور الربيع أن يعزیه ويقول له: إن أمير المؤمنين موجه إليك جارية نفيسة لها أدب وظرف يسليك بها، وأمر لك معها بفرس وكسوة وصلة. فلم يزل الهذلى يتوقع وعد أمير المؤمنين ونسيه المنصور، فحج المنصور ومعه الهذلى فقال المنصور وهو بالمدينة: إنى أحب أن أطوف الليلة المدينة فاطلب لى من يطوف بى. فقال الهذلى: أنا لها يا أمير المؤمنين فطاف به حتى وصل بيت عاتكة، فقال: يا أمير المؤمنين وهذا بيت عاتكة الذى يقول فيه

يا بيت عاتكة الذى أتغزل
إنى لأمنحك الصدود وإننى
حذر العدا وبه الفؤاد موكل
قسماً إليك مع الصدود لأميل

فكره المنصور ذكر بيت عاتكة من غير أن يسأله عنه فلما رجع المنصور أمر القصيدة على قلبه فإذا فيها:
وأراك تفعل ما تقول وبعضهم
مذق اللسان يقول ما لا يفعل

فذكر المنصور الوعد الذى كان وعد به الهذلى فأنجزه له واعتذر إليه . وقال الشاعر:

تعجيل وعد المرء أكرومة
والحر لا يطل معروفيه
تنشـر عنه أطيب الذكـر
ولا يليق المطل بالـحر
وقال آخر:

ولقد وعدت وأنت أكرم واعد
أنعم على بما وعدت تكرمـاً
لا خير فى وعد بغير تمام
فالمطل يذهب بهجة الإنعام
وقال آخر:

لعبدك وعد قد تقدم ذكره
وقد جمعت فيك المكارم كلها
فأوله حمـد وآخره شكر
فمالك عن تأخير مكرمة عذر
وقال آخر:

وميمـاد الكريم عليه دين
يذكره سلامك ما عليه
فلا تزد الكريم على السلام
ويغنيك السلام عن الكلام
وقال آخر:

شكاك لسانى ثم أمسكت نـصفه
فلن لم تنجز ما وعدت تركتني
فنصف لسانى بامتداحك ينطق
وباقى لسانى بالذممة مطلق
وقال آخر:

باتت لوعدك عيني غير راقدة
هذا وقد بت من وعد على ثقة
والليل حى الدياجى منبت السحر
فكيف لو بت من هجر على حذر
وقال آخر:

نذكر بالرقاع إذا نسينا
ويأبى الله أن تنسى الكرام

وأما الوفاء بالمعهد ورعاية النعم: فقد نقل فيه من عجائب الوقائع وغرائب البدائع ما يطرب السامع ويشنف المسامع، كقضية الطائي وشريك نديم النعمان بن المنذر، وتلخيص معناها أن النعمان كان قد جعل له يومين يوم يؤس من صادفه فيه قتله وأرداه، ويوم نعيم من لقيه فيه أحسن إليه وأغناه. وكان هذا الطائي قد رساه حادث دهره بسهام فاقته وفقره، فأخرجته الفاقة من محل استقراره ليرتاد شيئاً لصيبته وصغاره، فبينما هو كذلك إذ صادفه النعمان في يوم يؤسه فلما رآه الطائي علم أنه مقتول وأن دمه مطلوب، فقال: حيا الله الملك إن لي صبية صغاراً وأهلاً جيعاً وقد أرقت ماء وجهي في حصول شيء من البلغة لهم، وقد أقدمني سوء الحظ على الملك في هذا اليوم العبوس وقد قربت من مقر الصبية والأهل وهم على شفا تلف من الطوى، ولن يتفاوت الحال في قتلى بين أول النهار وآخره، فإن رأى الملك أن يأذن لي في أن أوصل إليهم هذا القوت وأوصي بهم أهل المروءة من الحى لئلا يهلكوا ضياعاً ثم أعود إلى الملك وأسلم نفسي لنفاذ أمره. فلما سمع النعمان صورة مقاله وفهم حقيقة حاله ورأى تلهفه على ضياع أطفاله رق له ورثى لحاله، غير أنه قال له: لا آذن لك حتى يضمك رجل معنا فإن لم ترجع قتلناه، وكان شريك بن عدى بن شرحبيل نديم النعمان معه فالتفت الطائي إلى شريك وقال له:

ياشريك بن عدى	مما من الموت انهزام
من لأطفال ضمام	عندموا طعم الطعام
بين رجوع وانتظار	وافترقار وسقام
يا أخا كل كريم	أنت من قوم كرام
يا أخا النعمان جدلى	بضممان والتزام
ولك الله بأنى	راجع قبل الظلام

فقال شريك بن عدى: أصلح الله الملك، على ضمانه فمر الطائي مسرعاً وصار النعمان يقول لشريك: إن صدر النهار قد ولى ولم يرجع، وشريك يقول: ليس للملك على سبيل حتى يأتى المساء فلما قرب المساء قال النعمان لشريك: قد جاء وقتك قم فتأهب للقتل. فقال شريك: هذا شخص قد لاح مقبلاً وأرجو أن يكون الطائي فإن لم يكن فأمر الملك ممثلاً، قال: فبينما هم كذلك وإذا بالطائي قد اشتد عدوه فى سيره مسرعاً حتى وصل. فقال: خشيت أن ينتضى النهار قبل وصولي. ثم وقف قائماً وقال: أيها الملك مر بأمرك فأطرق النعمان ثم رفع رأسه وقال: والله ما رأيت أعجب منكما أما أنت يا طائي فما تركت لأحد فى الوفاء مقاماً يقوم فيه ولا ذكراً يفتخر به، وأما أنت يا شريك فما تركت لكريم سماحة يذكر بها فى الكرماء. فلا أكون أنا الأم الثلاثة ألا وأنى قد رفعت يوم يؤسى عن الناس ونقضت عادتي كرامة لوفاء الطائي وكرم شريك. فقال الطائي:

ولقد دعتنى للخلاف عشيروتى	فعددت قولهم من الإضلال
إنى امرؤ منى الوفاء سجية	وفعال كل مهذب مفضال

فقال له النعمان: ما حملك على الوفاء وفيه إتلاف نفسك؟ فقال: دينى، فمن لا وفاء فيه لا دين له. فأحسن إليه النعمان ووصله بما أغناه وأعادته مكرماً إلى أهله وأتاله ما تمناه.

ومن ذلك ما حكى أن الخليفة المأمون لما ولى عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر والشام وأطلق حكمه، دخل على المأمون بعض إخوانه يوماً فقال: يا أمير المؤمنين إن عبد الله بن طاهر يميل إلى ولد أبى طالب وهواه مع العلويين وكذلك كان أبوه قبله، فحصل عند المأمون شيء من كلام أخيه من جهة عبد الله بن طاهر فتشوش فكره وضاق صدره، فاستحضر شخصاً وجعله فى زى الزهاد والنسك الغزاة ودسه إلى عبد الله بن طاهر، وقال له: امض إلى مصر

وخالط أهلها وداخل كبراءها واستملهم إلى القاسم بن محمد العلوي، واذكر مناقبه، ثم بعد ذلك اجتمع ببعض بطانة عبد الله بن طاهر ثم اجتمع بعبد الله بن طاهر بعد ذلك وادعه إلى القاسم بن محمد العلوي واكشف باطنه وابحث عن دفين نيته، وائتني بما تسمع. ففعل ذلك الرجل ما أمره به المأمون وتوجه إلى مصر ودعا جماعة من أهلها، ثم كتب ورقة لطيفة ودفعها إلى عبد الله بن طاهر وقت ركوبه، فلما نزل من الركوب وجلس في مجلسه خرج الحاجب إليه وأدخله على عبد الله بن طاهر وهو جالس وحده فقال له: لقد فهمت ما قصدت فهات ما عندك، فقال: ولي الأمان؟ قال: نعم. فأظهر له ما أراده ودعاه إلى القاسم بن محمد، فقال له عبد الله: أوتنصفني فيما أقوله لك؟ قال: نعم. قال: فهل يجب شكر الناس بعضهم لبعض عند الإحسان والمنة؟ قال: نعم، قال: فيجب على وأنا في هذه الحالة التي تراها من الحكم والنعمة والولاية ولي خاتم في المشرق وخاتم في المغرب، وأمرى فيما بينهما مطاع وقولي مقبول، ثم إنني التفت يمينا وشمالا فأرى نعمة هذا الرجل غامرة وإحسانه فائضا على، أفشدعوني إلى الكفر بهذه النعمة وتقول: اغدر وجانب الوفاء، والله لو دعوتني إلى الجنة عيانا لما غدرت، ولما نكثت بيعته وتركت الوفاء له، فسكت الرجل، فقال له عبد الله: والله ما أخاف إلا على نفسك، فارحل من هذا البلد. فلما يش الرجل منه وكشف باطنه وسمع كلامه رجع إلى المأمون، فأخبره بصورة الحال، فسر ذلك، وزاد في إحسانه إليه، وضاعف إنعامه عليه.

ومما يعد من محاسن الشيم ومكارم أخلاق أهل الكرم ويحث على الوفاء بالعهود ورعاية الذمم ما رواه حمزة بن الحسين الفقيه في تاريخه. قال: قال لي أبو الفتح المنطقي: كنا جلوساً عند كافور الإخشيدي^(١)، وهو يومئذ صاحب مصر والشام، وله من البسطة والمكنة، ونفوذ الأمر وعلو القدر وشهرة الذكر ما يتجاوز الوصف والحصر، فحضرت المائدة والطعام، فلما أكلنا نام وانصرفنا، ولما انتبه من نومه طلب جماعة منا، وقال: امضوا الساعة إلى عقبة التجارين، وسلوا عن شيخ منجم أعور كان يقعد هناك، فإن كان حياً، فاحضروه، وإن كان قد توفي فسلوا عن أولاده، واكشفوا أمرهم. قال: فمضينا إلى هناك، وسألنا عنه، فوجدناه قد مات، وترك بنتين إحداهما متزوجة، والأخرى عاتق، فرجعنا إلى كافور وأخبرناه بذلك، فسير في الحال واشترى لكل واحدة منهما داراً وأعطاهما مالا جزيلاً وكسوة فاخرة، وزوج العاتق، وأجرى على كل واحدة منهما رزقاً وأظهر أنهما من المتعلقين به لرعاية أمورهما، فلما فعل ذلك وبالحق فيه ضحك وقال: أتعلمون سبب هذا؟ قلنا: لا، فقال: اعلموا أني مررت يوماً بالدهم المنجم، وأنا في ملك ابن عباس الكاتب، وأنا بحالة رثة، فوقفت عليه، فنظر إلى واستجلبني وقال: أنت تصير إلى رجل جليل القدر، وتبلغ منه مبلغاً كبيراً، وتنال خيراً كثيراً، ثم طلب مني شيئاً، فأعطيته درهمين كانا معي، ولم يكن معي غيرهما، فرمى بهما إلى وقال: أبشرك بهذه البشارة وتعطيني درهمين؟ ثم قال: وأريدك أنت والله تملك هذا البلد وأكثر منه، فاذا صرت إلى الذي وعدتك به ولا تنس. فقلت له: نعم، فقال: عاهدني أن تفي لي ولا يشغلك ذلك عن افتقادي، فعاهدته، ولم يأخذ مني الدرهمين، ثم إنني شغلت عنه بما تجدد لي من الأمور والأحوال وصرت إلى هذه المنزلة ونسيت ذلك، فلما أكلنا اليوم وثمت رأيت في المنام قد دخل علي، وقال لي: أين الوفاء بالعهد الذي بيني وبينك، وإتمام وعدك؟ لا تغدر، فيغدر بك، فاستيقظت وفعلت ما رأيتم، ثم زاد في إحسانه إلى بنات المنجم وفاء لوالدهما بما وعده، والله أعلم.

ومما أسفرت عنه وجوه الأوراق وأخبرت به الثقات في الآفاق، وظهرت روايته بالشام والعراق وضرب به الأمثال في الوفاء بالاتفاق، حديث السموأل بن عادي^(٢)، وتلخيص معناه، أن امرأ القيس الكندي لما أراد المضي إلى قيصر ملك الروم أودع عند السموأل دروعاً وسلاحاً وأمتعة تساوي من المال جملة كثيرة، فلما مات امرؤ القيس أرسل ملك كندة يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند السموأل، فقال السموأل: لا أدفعها إلا لمستحقها وأبى أن يدفع إليها منها شيئاً.

(١) كافور الإخشيدي: هو كافور بن عبد الله الإخشيدي أبو المسك الأمير المشهور، صاحب المنى، كان عبداً حبشياً اشتراه الإخشيدي ملك مصر فنسب إليه، وأعطاه فتوفي عنده ومارالت همته تصعد حتى ارتقى إلى ملك مصر، وكان فظناً حسن السياسة، كان يدعى له على المنابر بمكة ومصر والشام إلى أن توفي بالقاهرة سنة (٣٥٧هـ - ٩٦٨م).

(٢) السموأل: هو السموأل بن غريض بن عادي الأزد، شاعر جاهلي حكيم، من سكان خير (شمالي المدينة) كان يتنقل بينها وبين حصن له سماه (الأبلق) وله ديوان صغير. توفي في سنة (٦٥هـ - ٥٦٠م).

فعاوده، فأبى وقال : لا أغدر بدمتي ولا أخون أمانتي ولا أترك الوفاء والواجب علىّ. فقصدته ذلك الملك من كندة بعسكره، فدخل السموال في حصنه وامتنع به، فحاصره ذلك الملك. وكان ولد السموال خارج الحصن، فظفر به ذلك الملك، فأخذه أسيراً ثم طاف حول الحصن وصاح بالسموال، فأشرف عليه من أعلى الحصن، فلما رآه قال له: إن ولدك قد أسرته، وها هو معي، فإن سلمت إلى الدروع والسلاح التي لامرئ القيس عندك رحلت عنك وسلمت إليك ولدك، وإن امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر، فاختار أيهما شئت. فقال له السموال: ما كنت لأخفر ذمامي وأبطل وفائي. فاصنع ما شئت، فذبح ولده وهو ينظر، ثم لما عجز عن الحصن رجع خائباً. واحتسب السموال ذبح ولده وصبر محافظة على وفائه، فلما جاء الموسم وحضر ورثة امرئ القيس سلم إليهم الدروع والسلاح، ورأى حفظ ذمامه ورعاية وفائه أحب إليه من حياة ولده وبقائه، فسارت الأمثال في الوفاء تضرب بالسموال، وإذا مدحوا أهل الوفاء في الأنام ذكروا السموال في الأول، وكم أعلى الوفاء رتبة من اعتقله بيديه وأغلى قيمة من جعله نصب عينيه، واستنطق الأفواه لفاعله بالثناء عليه، واستنطق الأيدي المقبوضة عنه بالإحسان إليه.

ومما وضع في بطون الدفاتر واستحسنته عيون البصائر ونقلته الأصاغر عن الأكابر وتداولته اللسنة من الأوائل والأواخر، ما رواه خادم أمير المؤمنين المأمون، قال: طلبني أمير المؤمنين ليلة، وقد مضى من الليل ثلثه فقال لي: خذ معك فلاناً وفلاناً وسامهما أحدهما على بن محمد، والآخر دينار الخادم، واذهب مسرعاً لما أقوله لك، فإنه قد بلغني أن شيخاً يحضر ليلاً إلى دور البرامكة، وينشد شعراً ويذكرهم ذكراً كثيراً ويندبهم ويكي عليهم، ثم ينصرف، فامض الآن أنت وعلى ودينار حتى تروا هذه الخرابات، فاستتروا خلف بعض الجدران، فإذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد شيئاً، فأتوني به. قال: فأخذتهما ومضيئنا حتى أتينا الخرابات، وإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسی حديد، وإذا شيخ وسيم له جمال وعليه مهابة ووقار قد أقبل، فجلس على الكرسي وجعل يبكي ويتحب ويقول:

ولما رأيت السيف جندل جعفرأ
ونادى منادٍ للخليفة في يحيى
بكيت على الدنيا وزاد تأسفى
عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطلها ورددها، فلما فرغ قبضنا عليه، وقلنا له: أجب أمير المؤمنين، ففرغ فزعاً شديداً، وقال: دعوني حتى أوصي وصية، فإنني لا أوقن بعدها بحياة. ثم تقدم إلى بعض الدكاكين، فاستفتح، وأخذ ورقة، وكتب فيها وصية ودفعها إلى غلامه، ثم سرنا به، فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين رجره، وقال له: من أنت، وبماذا استوجبت البرامكة منك؟ ما تفعله في خرائب دورهم وما تقوله فيها؟ قال الخادم: ونحن وقوف نسمع، فقال: يا أمير المؤمنين إن للبرامكة عندي أيادي خطيرة، أفتأذن لي أن أحدثك حديثي معهم؟ قال: قل. قال: يا أمير المؤمنين أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك، وقد زالت عني نعمتي كما تزول عن الرجال، فلما ركبني الدين، واحتجت إلى بيع مسقط رأسي ورؤوس أهلي، أشاروا على بالخروج إلى البرامكة، فخرجت من دمشق ومعني نيف وثلاثون امرأة وصبياً وصبية، وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المساجد، فدعوت بثويات لي كنت قد أعددتها لأستمنح بها الناس، فلبستها وخرجت وتركتهم جيعاً لا شيء عندهم، ودخلت شوارع بغداد أسأل عن دور البرامكة، فإذا أنا بمسجد مزخرف وفيه مائة شيخ بأحسن زي وزينة وعلى الباب خادمان، فطمعت في القوم وولجت المسجد وجلست بين أيديهم وأنا أقدم وأؤخر والعرق يسيل مني لأنها لم تكن صناعتي، وإذا بخادم قد أقبل فدعا القوم، فقاموا وأنا معهم، فدخلوا دار يحيى بن خالد، ودخلت معهم، وإذا بيحيى جالس على دكة له في وسط بستان، فسلمنا، وهو يعدنا مائة وواحد وبين يديه عشرة من ولده، وإذا غلام أمرد عذاراه خداه قد أقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم ممنطقون في وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال، ومع كل خادم مجمرة من ذهب في كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهر، قد قرن بها مثلها من العنبر السلطاني، فوضعه بين يدي الغلام إلى جنب يحيى، ثم قال يحيى للمقاضي: تكلم وزوج ابنتي عائشة من ابن عمي هذا. فخطب القاضي، وزوجه، وشهد أولئك الجماعة، وأقبلوا علينا النثار بينادق المسك والعنبر، فالتقطت، واللّه يا أمير المؤمنين ملء كمي، ونظرت، فإذا نحن في المكان ما بين يحيى

والمشايخ وولده والغلام مائة واثنى عشر رجلاً، فخرج إلينا مائة واثنى عشر خادماً مع كل خادم صينية من فضة عليها ألف دينار، فوضعوا بين يدي كل رجل منا صينية، فرأيت القاضي والمشايخ يصبون الدنانير في أكمامهم ويجعلون الصواني تحت آباطهم، ويقوم الأول فالأول، حتى بقيت وحدي بين يدي يحيى لا أجسر على أخذ الصينية، فغمزني الخادم، فجسرت وأخذتها، وجعلت الذهب في كمي، وأخذت الصينية في يدي وقمت، وجعلت ألتفت إلى ورائي مخافة أن أمنع من الذهاب بها، فبينما أنا كذلك في صحن الدار ويحيى يلحظني إذ قال للخادم: اتنى بذلك الرجل. فرددت إليه، فأمر بصب الدنانير والصينية وما كان في كمي، ثم أمرني بالجلوس، فجلست فقال لي: ممن الرجل؟ فقصصت عليه قصتي، فقال للخادم: اتنى بولدي موسى، فأتى به، فقال له: يا بني هذا رجل غريب، فخذ به إليك واحفظه بنفسك وبنعمتك. فقبض موسى على يدي وأدخلني إلى دار من دوره، فأكرمني غاية الإكرام، وأقامت عنده يومى وليلتي في الدار عيش، وأتم سرور، فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال: إن الوزير قد أمرني بالعطف على هذا الرجل، وقد علمت اشتغالي في دار أمير المؤمنين فاقبضه إليك، وأكرمه، ففعل ذلك وأكرمني غاية الإكرام، فلما كان من الغد تسلمني أخوه أحمد، ثم لم أزل في أيدي القوم يتداولوني عشرة أيام لا أعرف خبر عيالي وصياني أفي الأموات هم أم في الأحياء. فلما كان اليوم الحادي عشر جاءني خادم ومعه جماعة من الخدم، فقالوا لي: قم، فانخرج إلى عيالك بسلام. فقلت: وأويلاه سلبت الدنانير والصينية، وأخرج إلى عيالي في هذه الحالة. إنا لله وإنا إليه راجعون فرفع الستر الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم الرابع، فلما رفع الخادم الستر الأخير قال لي: مهما كان لك من الحوائج، فارفعها إلى فلاني مأمور بقضاء جميع ما تأمرني به، فلما رفع الستر رأيت حجرة كالشمس حسناً ونوراً واستقبلني منها رائحة الند والعود ونفحات المسك، وإذا بصياني وعيالي يتقبلون في الحرير والديبا، وحمل إلى ألف درهم وعشرة آلاف دينار ومنشورين بضيعتين، وتلك الصينية التي كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق، وأقامت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاثة عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب اصطنعوني، فلما جاءتهم البلية، ونزل بهم من أمير المؤمنين الرشيد ما نزل، أجحفتني عمرو بن مسعدة والزمنى في هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفي دخلهما به، فلما تحامل على الدهر كنت في أواخر الليل أقصد خرابات القوم، فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إليّ وأشكرهم على إحسانهم. فقال المأمون: على بعمر بن مسعدة، فلما أتى به قال: يا عمرو، أتعرف هذا الرجل؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة، قال: كم ألزمته في ضيعته؟ قال: كذا وكذا، قال: رد له كل ما استأدته منه في مدته، ووقع له بهما ليكونا له ولعقبه من بعده، قال: فعلا نحيب الرجل ويكاؤه، فلما رأى المأمون كثرة بكائه قال: يا هذا قد أحسنا إليك، فلم تبكي؟ قال: يا أمير المؤمنين وهذا أيضاً من صنائع البرامكة، إذ لو لم آت خراباتهم، فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبري بأمر المؤمنين، ففعل ما فعل، فمن أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين. قال إبراهيم بن ميمون: فلقد رأيت المأمون قد دمعت عيناه، وظهر عليه حزنه وقال: لعمرى هذا من صنائع البرامكة، فعليهم فابك، وإياهم فاشكر، ولهم فأوف وإحسانهم فاذكر. وقيل: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل، ودوام عهده، فانظر إلى حنينه إلى أوطانه وتشوقه إلى إخوانه وكثرة بكائه على ما مضى من زمانه قال الشاعر:

سقى الله أطلال الوفاء بكفه
فقد درست أعلامه ومنازله
وقال آخر:

أشدد يدك بمن بلوت وفاءه
إن الوفاء من الرجال عزيز

وقال مالك بن عمار اللخمي: كنت جالساً في ظل الكعبة أيام الموسم عند عبد الملك بن مروان، وقبيصة بن ذؤيب، وعروة بن الزبير، وكنا نخوض في الفقه مرة، وفي المذاكرة مرة، وفي أشعار العرب، وأمثال الناس مرة، فكنت لا أجد عند أحد ما أجده عند عبد الملك بن مروان من الاتساع في المعرفة والتصرف في فنون العلم، وحسن استماعه إذا حدث، وحلاوة لفظه إذا حدث، فخلوت معه ليلة، فقلت له: والله إنني لمسرور بك لما شاهدته من كثرة تصرفك وحسن حديثك، وإقبالك على جليسك، فقال: إن تعش قليلاً، فسترى العيون طامحة إليّ، والأعناق نحوى متطاولة، فإذا صار

الأمر إلى، فلعلك أن تنقل إلى ركابك، فلأملأن يديك. فلما أفضت إليه الخلافة، توجهت إليه، فوافيته يوم الجمعة، وهو يخطب على المنبر، فلما رآنى أعرض عني، فقلت: لعله لم يعرفني، أو عرفني وأظهر لى نكره، فلما قضيت الصلاة ودخل بيته لم ألبث أن خرج الحاجب، فقال: أين مالك بن عمار؟ فقلت، فأخذ بيدي، وأدخلني عليه، فمد إلى يده وقال: إنك تراءيت لى فى موضع لا يجوز فيه إلا ما رأيت، فأما الآن، فمرحبا وأهلاً، كيف كنت بعدى؟ فأخبرته، فقال: أتذكر ما كنت قلت لك؟ قلت: نعم، فقال: واللّه ما هو بميراث وعيناه، ولا أثر رويناه، ولكنى أخبرك بخصال منى سمت بها نفسى إلى الموضع الذى ترى، ما خنت ذا ود قط، ولا شمت بمصيبة عدو قط، ولا أعرضت عن محدث حتى ينتهى حديثه، ولا قصدت كبيرة من محارم الله تعالى متلذذاً بها، فكنت أؤمل بهذه أن يرفع الله تعالى منزلى وقد فعل.

ثم دعا بغلام، فقال له يا غلام: بؤنه منزلاً فى الدار، فأخذ الغلام بيدي، وأفرد لى منزلاً حسناً، فكنت فى الذ حال، وأنعم بال، وكان يسمع كلامى وأسمع كلامه، ثم أدخل عليه فى وقت عشاءه، وغدائه، فيرفع منزلى ويقبل على ويحدثنى، ويسألنى مرة عن العراق ومرة عن الحجاز حتى مضت لى عشرون ليلة، فتغديت يوماً عنده، فلما تفرق الناس نهضت قائماً، فقال: على رسلك، فقعدت، فقال: أى الأمرين أحب إليك المقام عندنا مع النصفة لك فى المعاشرة، أو الرجوع إلى أهلك ولك الكرامة، فقلت: يا أمير المؤمنين فارقت أهلى وولدى على أنى أزور أمير المؤمنين، وأعود إليهم، فإن أمرنى أمير المؤمنين اخترت رؤيته على الأهل والولد، فقال: لا، بل أرى لك الرجوع إليهم والخيار لك بعد فى زيارتنا، وقد أمرنا لك بعشرين ألف دينار، وكسوناك وحملناك. أترانى قد ملأت يديك؟ فلا خير فيمن ينسى إذا وعد وعداً، وزرنا إذا شئت، صحبتك السلامة.

ومن ذلك ما روى عن أبى بكار الأعمى، وكان قد انقطع إلى آل برمك، قال مسرور الكبير: لما أمرنى الرشيد بقتل جعفر بن يحيى دخلت عليه، فوجدت عنده أبا بكار الأعمى يغنيه ويقول:

فلا تحزن فكل فتى سيأتى
عليه الموت يطرق أو يغادى

فقلت: فى هذا والله قد أتيتك، ثم أمسكت بيد جعفر وأقمته، وضربت عنقه، فقال أبو بكار: ناشدتك الله إلا ما ألحقنى به، فقلت له: ما الذى حملك على هذا؟ فقال: أغثنى عن الناس، فقلت: حتى أستمّر الرشيد، ثم أحضرت الرأس إلى الرشيد، وأخبرته بخبر أبى بكار، فقال: هذا رجل فيه مصطنع أضمه إليك، وانظر ما كان يجرى عليه جعفر فادفعه إليه. وكان يحيى بن خالد إذا أكد فى يمينه قال: لا والذى جعل الوفاء أعز ما يرى. قال أبو فراس بن حمدان الشاعر:

بمن يتقى الإنسان فيمّا ينوبه
وقد صار هذا الناس إلا أقلهم
ومن أين للحر الكريم صـحـاب
ذئاباً على أجسادهم ثياب

وسأل المنصور بعض بطانة هشام عن تدبيره فى الحروب، فقال: كان رحمه الله تعالى يفعل كذا وكذا، فقال المنصور: عليك لعنة الله تطأ بساطى وتترحم على عدوى؟ فقال: إن نعمة عدوك لقلادة فى عنقى لا ينزعها إلا غاسلى، فقال له المنصور: ارجع يا شيخ، فإننى أشهد أنك لوفى حافظ للخير، ثم أمر له بمال، فأخذه، ثم قال: واللّه لولا جلالة أمير المؤمنين وإمضاء طاعته ما لبست لأحد بعد هشام نعمة. فقال له المنصور: لله درك، فلو لم يكن فى قومك غيرك لكنت قد أبقيت لهم مجداً مخلداً. وخرج سليمان بن عبد الملك، ومعه يزيد بن المهلب فى بعض جبابين الشام، فإذا امرأة جالسة على قبر تبكى، قال سليمان: فرفعت البرقع عن وجهها، فحككت شمساً عن متون غمامة، فوقفنا متحيرين ننظر إليها، فقال لها يزيد بن المهلب: يا أمة الله: هل لك فى أمير المؤمنين بعلاً؟ فنظرت إلينا، ثم أنشأت تقول:

فلان تسألانى عن هواى فلانه
يحول بهذا القبر يا فتيان
وانى لاستحييه والترب بيننا
كما كنت أستحييه وهو يرانى

ومن ذلك ما روى عن نائلة بنت القرافصة بن الأحوص الكلبي زوج عثمان رضى الله عنهما، أن عثمان لما قتل أصابتها ضربة على يدها، وخطبها معاوية، فردته، وقالت: ما يعجب الرجل منى؟ قالوا: ثنياك، فكسرت ثناياها، وبعثت بها إلى معاوية، فكان ذلك مما رغب قريشاً فى نكاح نساء بنى كلب. ولما أحس مصعب بن الزبير بالقتل دفع إلى مولاه زياد فص ياقوت قيمته ألف ألف، وقال له: انج بهذا فأخذه زياد ودقه بين حجرين، وقال: والله لا يتفجع به أحد بعدك. ولما قدم هذبة بن الخشرم للقتل بحضرة مروان بن الحكم، قالت زوجته: إن لهذبة عندي وديعة، فأمهله حتى آتيك بها، فقال: أسرع، فإن الناس قد كثروا، وكان مروان قد جلس لهم بارزاً عن داره، فمضت إلى السوق، وأتت إلى قصاب، فقالت أعطني شفرتك، وخذ هذين الدرهمين، وأنا أردّها عليك، فأخذتها وقربت من حائط وأرسلت ملحفاً على وجهها، ثم جدعت أنفها من أصله، وقطعت شفتيها وردت الشفرة إلى القصاب. ثم أقبلت حتى دخلت بين الناس، فقالت: أترانى يا هذبة متزوجة بعد ما ترى، فقال: الآن طابت نفسى بالموت، فجزاك الله من حليلة وفية خيراً.

ولنجعل لهذا الباب من القضايا ختاماً هو أوجزها كلاماً، وأحسنها نظاماً، وأبينها حكماً وإحكاماً، وهى قضية جمعت الأمرين: وفاءً وغدرًا، وعرفاً ونكرًا، وخيراً وشرًا، ونفعاً وضرًا، واشتملت على حال شخصين أحدهما وفى بعهدده ففاز ونجا وحاز من مقترحات مناه ما أمل ورجا، وغدر الآخر، فلم يجد له من جزاء غدره إلى النجاة فرجاً، ولم يلق له من ضيق الغدر مخرجاً. وهو ما ذكره عبد الله بن عبد الكريم، وكان مطلعاً على أحوال أحمد بن طولون عارفاً بأموره عالماً بوروده وصدوره، فقال: ما معناه أن أحمد بن طولون وجد عند سقايته طفلاً مطروحاً، فالتقطه ورباه وسماه أحمد وشهره باليتيم، فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاءً وفطنة، وأحسنهم زياً وصورة، فصار يرعاه ويعلمه حتى تهذب وتمرن، فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده أبا الجيش خمارويه به، فأخذه إليه، فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير أبو الجيش إليه، وقال له: أنت عندى بمكانة أركانك بها، ولكن عادتى أنى أخذ العهد على كل من أصرفه فى شيء أنه لا يخوننى فعاهدته، ثم حكمه فى أمواله وقدمه فى أشغاله، فصار أحمد اليتيم مستحوذاً على المقام حاكماً على جميع الحاشية الخاص والعام، والأمير أبو الجيش بن طولون يحسن إليه، فلما رأى خدمته متصفة بالنصح ومساعدته متسمة بالنجح ركن إليه، واعتمد فى أمور بيوته عليه، فقال له يوماً: يا أحمد امض إلى الحجرة الفلانية ففى المجلس حيث أجلس سبحة جوهر، فأتتنى بها، فمضى أحمد، فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياه مع شاب من الفراشين ممن هو من الأمير بمحل قريب، فلما رآياه خرج الفتى وجاءت الجارية إلى أحمد وعرضت نفسها عليه، ودعته إلى قضاء وطره، فقال لها: معاذ الله أن أخون الأمير وقد أحسن إلى وأخذ العهد على، ثم تركها، وأخذ السبحة وانصرف إلى الأمير وسلمها إليه. وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد بعدما أخذ السبحة، وخرج من الحجرة لثلاً يذكرها للأمير، فأقامت أياماً لم تجد من الأمير ما غيره عليها. ثم اتفق أن الأمير اشترى جارية وقدمها على حظاياه، وغمرها بعطاياه، واشتغل بها عمن سواها، وأعرض لشغفه بها عن كل من عنده حتى كاد لا يذكر جارية غيرها، ولا يراها، وكان أولاً مشغولاً بتلك الجارية الخاسرة الخائنة الغادرة العائبة العاهرة الفاسقة الفاجرة، فلما أعرض عنها اشتغلاً بالجارية الجديدة المجدة السعيدة الحامدة المحمودة الوصيصة الموصوفة الأليفة المألوفة العارفة المعروفة، وصرف لبهجة محاسنها وكثرة آدابها وجهه من ملاعبة أترابها، وشغلته بعذوبة رضابها عن ارتشاف رضب أضرابها، وكانت تلك الجارية الأولى لحسنها متأمرة على تأميره لا تخاف من وليه ولا نصيره، فكبر عليها إعراضه عنها، ونسبت ذلك إلى أحمد اليتيم لاطلاعه على ما كان منها، فدخلت على الأمير وقد ارتدت من الكآبة بجلباب نكرها، وأعلنت بالبكاء بين يديه لإتمام كيدها ومكرها، وقالت: إن أجمد اليتيم راودنى عن نفسى. فلما سمع الأمير ذلك

استشاط غيظاً وغضباً، وهم في الحال بقتله، ثم عاوده حاكم عقله، فتأنى في فعله، واستحضر خادماً يعتمد عليه، وقال له: إذا أرسلت إليك إنساناً ومعه طبق من ذهب، وقلت لك على لسانه املاً هذا الطبق مسكاً، فاقتل ذلك الإنسان واجعل رأسه في الطبق، وأحضره مغطى، ثم إن الأمير أبا الجيش جلس لشربه، وأحضر عنده ندماء الخواص، وأدناهم لمجلس قربه، وأحمد اليتيم واقف بين يديه آمن في سربه لم يخطر بخاطره شيء، ولا هجس هاجس في قلبه، فلما مثل بين يدي الأمير، وأخذ منه الشراب شرع في التدبير، فقال: يا أحمد خذ هذا الطبق وامض به إلى فلان الخادم، وقل له: يقول لك أمير المؤمنين املاً هذا الطبق مسكاً، فأخذه أحمد اليتيم ومضى، فاجتاز في طريقه بالمغنين وبقية الندماء، والخواص، فقاموا إليه وسألوه الجلوس معهم، فقال: أنا ماض في حاجة للأمير أمرني بإحضارها في هذا الطبق، فقالوا له: أرسل من ينوب عنك في إحضارها وخذها أنت وادخل بها على الأمير، فأدار عينيه، فرأى الفتى الفراش الذي كان مع الجارية، فأعطاه الطبق، وقال له: امض إلى فلان الخادم وقل له: يقول لك الأمير املاً هذا الطبق مسكاً، فمضى ذلك الفراش إلى الخادم، فذكر له ذلك، فقتله، وقطع رأسه وغطاه وجعله في الطبق، وأقبل به، فناوله لأحمد اليتيم، فأخذه وليس عنده علم من باطن الأمر، فلما دخل به على الأمير كشفه وتأمله وقال: ما هذا؟ فقص عليه خبره وقعوده مع المغنين وبقية الندماء وسؤالهم له الجلوس معهم، وما كان من إنفاذ الطبق، وإرساله مع الفراش، وأنه لا علم عنده غير ما ذكره. قال: أتعرف لهذا الفراش خبر يستوجب به ما جرى عليه؟ فقال: أيها الأمير إن الذي تم عليه بما ارتكبه من الخيانة، وقد كنت رأيت الإعراض عن إعلام الأمير بذلك، وأخذ أحمد يحدثه بما شاهده وما جرى له من حديث الجارية من أوله إلى آخره، لما أنفذه لإحضار السبعة الجوهر، فدعا الأمير أبو الجيش بتلك الجارية واستقررها، فأقرت بصحة ما ذكره أحمد، فأعطاه إياها، وأمره بقتلها، ففعل، وازدادت مكانة أحمد عنده، وعلت منزلته لديه وضاعف إحسانه إليه، وجعل أزمة جميع ما يتعلق به بيده. فانظر رحمك الله إلى آثار الوفاء كيف تحمي من المعاطب، وتنجي من قبضة التلف بعد إمضاء القواضب، ويفضي بصاحبه إلى ارتقاء غوارب المراتب، فهذا الغلام لما وفى لمولاه بعهد، وهو بشر مثله، وليس في الحقيقة بعبد، واطلع الله عز وجل على صدق نيته وقصده دفع عنه هذه القتلة الشنيعة بلطف من عنده، فإذا كان العبد مع خالقه ورازقه وافياً في طاعته بعقده كيف لا يفيض عليه من الطاف مواهب بره ورفده ويفتح له من أنواع رحمته وأقسام نعمته مالا يحسب له من بعده، وقالوا: ليس شيء أوفى من القمرية إذا مات ذكرها لم تقرب آخر بعده ولا تزال تنوح عليه إلى أن تموت. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

فى كتمان السر وتحصينه وذم إفشائه

قال الله تعالى حكاية عن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف: ٥]، فلما أفشى يوسف عليه السلام رؤياه بمشهد امرأة يعقوب أخبرت إخوته، فحل به ما حل. ومن شواهد الكتاب العزيز فى السر قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤]. أى بمتهم. وفى الحديث: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذى نعمة محسود». وقال على رضى الله عنه وكرم وجهه: سرُّك أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره، واعلم أن أمناء الأسرار أقل وجوداً من أمناء الأموال، وحفظ الأموال أسير من كتمان الأسرار، لأن إحراز الأموال منيعة بالأبواب والأقفال، وإحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق. وحمل الأسرار أثقل من حمل الأموال فإن الرجل يستقل بالحمل الثقيل، فيحمله ويمشى به، ولا يستطيع كتم السر. وأن الرجل يكون سره فى قلبه، فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحقه من حمل الأثقال، فإذا أذاعه استراح قلبه، وسكن خاطره، وكأنما ألقى عن نفسه حملاً ثقيلاً. وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه: القلوب أوعى والشفاه أقالها، والألسن مفاتيحها، فليحفظ كل إنسان مفتاح سره. ومن عجائب الأمور أن الأموال كلما كثرت خزائنها كان أوثق لها، وأما الأسرار فإنها كلما كثرت خزائنها كان أضيع لها، وكم من إظهار سر أراق دم صاحبه ومنعه من بلوغ مآربه ولو كتمه أمن من سطوته. وقال أنوشروان: من حصن سره، فله بتحصينه خصلتان، الظفر بحاجته، والسلامة من السطوات. وقيل: كلما كثرت خزائن الأسرار زادت ضياعاً. وقيل: انفرد بسرك لا تودعه حازماً فيزل، ولا جاهلاً فيخون، وقال كعب بن سعد الغنوى:

ولست بمبد للرجال سـريرتى ولا أنا عن أسرارهم بسـؤول

وقال أبو مسلم صاحب الدولة:

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت عنه ملوك بنى مروان إذ جهدوا
مازلت أسعى عليهم فى ديارهم والقوم فى غفلة بالشام قد رقدوا
حتى ضربتهم بالسيف فانتبهوا من نومة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعا غنماً فى أرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد

وأسر رجل إلى صديقه حديثاً، ثم قال له: أفهمت؟ قال: بل جهلت. ثم قال له: أحفظت؟ قال: بل نسيت. وقيل لبعضهم: كيف كتمانك للسر؟ قال: أجحد المخبر، وأحلف للمستخبر. وقال المهلب: أدنى أخلاق الشريف كتمان السر وأعلى أخلاقه نسيان ما أسر إليه. ومن أحسن ما قيل فى كتمان السر قول الشاعر:

ولها سرائر فى الضمير طويتها نسى الضمير بأنها فى طيه

وقد أجازته الشيخ شمس الدين البدوى فقال:

إنى كنت حديث ليلى لم أبح يوماً بظاهره ولا بخففيه
وحفظت عهد ودادها متمسكاً فى حبها برشاده أو غيبه
ولها سرائر فى الضمير طويتها نسى الضمير بأنها فى طيه

وقيل: كتمان الأسرار يدل على جواهر الرجال، وكما أنه لا خير في آنية لا تمسك ما فيها، فكذلك لا خير في إنسان لا يمسك سره، قال الشاعر:

ومستودعي سرّاً كتّمت مكانه
وخفت عليه من هوى النفس شهوة
عن الحس خوفاً أن ينم به الحس
فأودعته من حيث لا يبلغ الحس

وقال قيس بن الخطيم^(١):

أجود بمكنون التلاد وإننى
وإن ضيع الأقوام سرى فإننى
بـرى عمن سألنى لـضنين
كتوم لأسرار العشير أمين

وقال جعفر بن عثمان:

يا ذا الذى أودعنى سره
لم أجـره قط على فكرتى
لا ترج أن تسـمعه منى
كـأنه لم يجـر فى أذنى

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: ما أفشيت سرى إلى أحد قط، فأفشاء، فلمته إذ كان صدرى به أضيق. وقال الأحنف بن قيس: يضيق صدر الرجل بسره، فإذا حدث به أحداً قال: اكتمه على. قال الشاعر:

إذا المرء أفشى سره بلسانه
إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه
ولام عليه غيره فهو أحـمق
فصدر الذى يستودع السر أضيق

وقال آخر:

إذا ما ضاق صدر عن حديث
وإن عاتبت من أفشى حديثى
وأفشته الرجال فمن تلوم
وسرى عنده فلأنا المـلوم

وقال صالح بن عبد القدوس: لا تودع سرّك إلى طالبه، فالطالب للسر مضيع، ولا تودع مالك عند من يستدعيه، فالطالب للوديعة خائن. وقيل لأعرابي: ما بلغ من حفظك للسر؟ قال: أفرقه تحت شغاف قلبى ثم أجمعه وأنساه كأنى لم أسمعه. وكان أحزم الناس من لا يفشى سره إلى صديقه مخافة أن يقع بينهما شر، فيفشي عليه. وقال حكيم: قلوب الأحرار قبور الأسرار، وقيل: الطمأنينة إلى كل أحد قبل الاختبار حمق. وقال بعضهم:

إذا ما غفرت الذنب يوماً لصاحب
ولست إذا ما صاحب خان عهده
فلست معيداً ما حيت له ذكرا
وعندى له سر مـذيعاً له سرّاً

وأين هذا من قول القائل:

(١) قيس بن الخطيم: هو قيس بنى الخطيم بن عدى الأوسى، أبو يزيد، شاعر الأوس، وأحد صناديدها في الجاهلية، أول ما اشتهر به تتبعه قاتلى أبيه وجده حتى قتلها، أدرك الإسلام وترث في قبوله، فقتل قبل أن يدخل فيه له «ديوان» توفى سنة (٢٢٠ هـ - ٦٢٠ م).

ولا تودع الأسرار أذنى فلما تصبى ماءً فى إناء مشتم

أو القائل:

ولا أكنتم الأسرار لكن أذيعوها
وإن قليل العـقل من بات ليلة
ولا أدع الأسرار تعلو على قلبى
تقلبـه الأسرار جنباً إلى جنب

وقال آخر:

وإنك كلما استودعت سرّاً
أتمّ من النسـيم على الرياض

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى:

أناس أمناهم فنموا حـديثنا
فلما كنمنا السر عنهم تقولوا

ولله در المتنـبى حيث قال:

وللسر منى موضع لا يناله
نديم ولا يفضى إليه شراب

وقد اقتصرنا من ذلك على هذا القدر اليسير، وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

فى الغدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد وفيه فصول

الفصل الأول: فى الغدر والخيانة

قال رسول الله ﷺ: «أعجل الأشياء عقوبة البغى». وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المكر والخديعة والخيانة فى النار». وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: ثلاث من كن فيه كن عليه: البغى والنكث والمكر. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]. وكم أوقع القدر فى المهالك من غادر، وضاق عليه من موارد الهلكات فسيحات المصادر، وطوقه غدره طوق خزى، فهو على فكه غير قادر، وأوقعه فى خطة خسف وورطة حتف، فما له من قوة ولا ناصر، ويشهد لصحة هذه الأسباب ما أحاطت به علوم ذوى الألباب من قصة ثعلبة بن حاطب الأنصارى، وتلخيص معناها أن ثعلبة هذا كان من أنصار النبى ﷺ فجاءه يوماً وقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً، فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه». ثم أتاه بعد ذلك مرة أخرى، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً، فقال رسول الله ﷺ: «يا ثعلبة أما لك فى رسول الله أسوة حسنة، والذي نفسى بيده لو أردت أن تسير الجبال معى ذهباً وفضة لسارت». ثم أتاه بعد ذلك مرة ثالثة، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً، والذي بعثك بالحق نبياً لئن رزقنى الله مالاً لأعطين كل ذى حق حقه. وعاهد الله تعالى على ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة ما قال»، فأتخذ ثعلبة غنماً فنمت كما ينمو الدود، فضاعت عليه المدينة، فتتحنى عنها، ونزل وادياً من أوديتها، وهى تنمو كما ينمو الدود، وكان ثعلبة لكثرة ملازمته للمسجد يقال له: حمامة المسجد، فلما كثرت الغنم وتتحنى صار يصلى مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر، ويصلى بقية الصلوات فى غنمه، فكثرت ونمت حتى بعد عن المدينة، فصار لا يشهد إلا الجمعة، ثم كثرت ونمت فتباعد أيضاً عن المدينة حتى صار لا يشهد جمعة ولا جماعة، فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس ويسألهم عن الأخبار، فذكره رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «ما فعل ثعلبة؟» قالوا: يا رسول الله اتخذ غنماً ما يسعها واد، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح ثعلبة». فأنزل الله تعالى آية الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلين، رجل من بنى سليم، ورجل من جهينة وكتب لهما أنصاب الصدقة، وكيف يأخذانها، وقال لهما: «مرا بثعلبة بن حاطب، ويرجل آخر من بنى سليم، فخذوا صدقاتهما». فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة، وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية، أو ما هذه إلا أخت الجزية؟ انطلقا حتى تفرغا، ثم عودا إلى، فانطلقا، وسمع بهما السلمى، فنظر إلى خيار إبله، فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رآياه قال: ما هذا؟ قال: خذاه، فإن نفسى به طيبة، فمرا على الناس وأخذوا الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة، فقال: أرونى كتابكما، فقرأه، ثم قال: ما هذه إلا جزية، أو ما هذه إلا أخت الجزية؟ اذهبا حتى أرى رأياً. قال: فذهبا من عنده، وأقبلا على رسول الله ﷺ، فلما رآهما قال قبل أن يتكلما: «يا ويح ثعلبة»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨) [التوبة: ٧٥ - ٧٨]. وكان عند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة، فسمع ذلك، فخرج حتى أتاه، فقال: ويحك يا ثعلبة قد نزل الله فىك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبى ﷺ، فسأله أن يقبل صدقته، فقال: «إن الله تعالى منعى أن أقبل منك صدقة»، فجعل ثعلبة يحثو التراب على رأسه ووجهه فقال رسول الله ﷺ: «هذا عملك قد أمرتك، فلم تطعنى»، فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع إلى منزله، وقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً، ثم أتى إلى بكر الصديق رضى الله عنه حين استخلف فقال: قد علمت منزلتى من رسول الله ﷺ

وموضعى من الأنصار، فاقبل صدقتى، فقال أبو بكر رضى الله عنه: لم يقبلها رسول الله ﷺ منك، فلا أقبلها أنا، فقبض أبو بكر رضى الله تعالى عنه، ولم يقبلها، فلما ولى عمر رضى الله عنه أتاه، فقال: يا أمير المؤمنين اقبل صدقتى، فلم يقبلها منه، وقال: لم يقبل رسول الله ﷺ ولا أبو بكر رضى الله عنه، فأنا لا أقبلها؟ وقبض عمر رضى الله عنه، ولم يقبلها، ثم ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه، فسأله أن يقبل صدقته، فقال له: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر رضى الله عنهما، فأنا لا أقبلها. ثم هلك ثعلبة فى خلافة عثمان رضى الله عنه.

فانظر إلى سوء عاقبة غدره كيف أذاقه وبال أمره ووسمه بسمة عار قضت عليه بخسره، وأعقبه نفاقاً يخزيه يوم فاقتته وفقره، فأى خزى أرجح من ترك الوفاء بالميثاق، وأى سوء أقبح من غدر يسوق إلى النفاق، وأى عار أفصح من نقض العهد إذا عدت مساوئ الأخلاق، وكان يقال: لم يغدر غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء واتضاع قدره عن احتمال المكارة فى جنب نيل المكارم. قال الشاعر:

غـدـرت بـأمر كنت أنت جـذبتنا إليه وبئس الشـيـمة الغـدر بالعـهد

ولما حلف محمد الأمين للمؤمنون فى بيت الله الحرام، وهما وليا عهد، طالبه جعفر بن يحيى أن يقول: خذلى الله إن خذلت، فقال ذلك ثلاث مرات، فقال الفضل بن الربيع: قال لى الأمين فى ذلك الوقت عند خروجه من بيت الله: يا أبا العباس أجد نفسى أن أمرى لا يتم، فقلت له: ولم ذلك؟ أعز الله الأمير قال: لأنى كنت أحلف وأنا أنوى الغدر وكان كذلك لم يتم أمره.

وورد فى أخبار العرب أن الضيزن بن معاوية بن قضاة، كان ملكاً بين دجلة والفرات وكان له هناك قصر مشيد يعرف بالجوسق وبلغ ملكه الشام فأغار على مدينة سابور ذى الاكتاف، فأخذها وأخذ أخت سابور وقتل منهم خلقاً كثيراً، ثم إن سابور جمع جيوشاً وسار إلى ضيزن فأقام على الحصن أربع سنين لا يصل منه إلى شىء، ثم إن النضيرة بنت الضيزن عركت - أى حاضت - فخرجت من الريض وكانت من أجمل أهل دهرها، وكذلك كانوا يفعلون بنسائهم إذا حضن، وكان سابور من أجمل أهل زمانه، فرآها ورأته فعشقها وعشقه وأرسلت إليه تقول: ما تجعل لى إن دلتك على ما تهدم به هذه المدينة وتقتل أبى؟ فقال: أحكمك، فقالت: عليك بحمامة مطوقة ورقاء فاكتب عليها بحيض جارية ثم أطلقها فلإنها تقعد على حائط المدينة فتداعى المدينة كلها، وكان ذلك طلسماً لا يهدمها إلا هو، ففعل ذلك فقالت له: وأنا أسقى الحرس الخمر فإذا صرعوا فاقتلهم، ففعل ذلك فتداعت المدينة وفتحها سابور عنوة وقتل الضيزن، واحتمل ابنته النضيرة وأعرس بها، فلما دخل بها لم تزل ليلتها تتضرر وتتململ فى فراشها وهو من حرير محشو بربيش النعام، فالتمس ما كان يؤذيها فلإذا هو ورقة آس التصقت بعكثها^(١) وأثرت فيها، وقيل: كان ينظر إلى مخ عظمها من صفاء بشرتها، ثم إن سابور بعد ذلك غدر بها وقتلها. وقيل: إنه أمر رجلاً فركب فرساً جموحاً وضفر غدائرها بذنبه، ثم استركضه فقطعها قطعاً قطعه الله ما أغدره. وتقول العرب: جزانى جزاء سنمار، وهو أن أزدجرد بن سابور لما خاف على ولده بهرام وكان قبله لا يعيش له ولد سأل عن منزل صحيح مرى فدل على ظهر الجزيرة، فدفع ابنه بهرام إلى النعمان وهو عامله على أرض العرب وأمره أن يبنى له جوسقاً فامثل أمره، وبنى له جوسقاً كأحسن ما يكون وكان الذى بنى الجوسق رجلاً يقال له سنمار، فلما فرغ من بنائه عجبوا من حسنه فقال: لو علمت أنكم توفونى أجرته لبنيتى بناء يدور مع الشمس حيث دارت، فقالوا: وإنك لتبنى أحسن من هذا ولم تبته، ثم أمر به فطرح من أعلى الجوسق فتقطع، فكانت العرب تقول: جزانى جزاء سنمار. ومن غدر عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله، غدر بعلى رضى الله عنه وقتله. وعمرو بن جرموز غدر بالزبير بن العوام رضى الله عنه وقتله، وأبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبه لعنه الله، غدر بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقتله. وجعل المنصور العهد إلى عيسى بن موسى ثم غدر به وأخره وقدم المهدي عليه، فقال عيسى:

(١) عكثها: العُكْنُ والاعكان: الاطواء فى البطن من السمن.

بسيّفى ونار الحرب زاد سعيـرها
فذل معاديها وعز نصيـرها
وأبدى مكيدات لها وأثيرها
ولاحت له شمس تلالاً نورها
وأوسق أوساقاً من الغدر عيـرها

أينسى بنو العباس ذبى عنهم
فتحت لهم شرق البلاد وغربها
أقطع أرحاماً على عـزيزة
فلما وضعت الأمر فى مستقره
دفعت عن الأمر الذى أستحقه

وخرج قوم لصيد فطردوا ضبعة حتى ألجؤوها إلى خباء أعرابى فأجارها وجعل يطعمها ويسقيها، فبينما هو نائم ذات يوم إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وهربت، فجاء ابن عمه يطلبه، فوجده ملقى فتبعها حتى قتلها، وأنشد يقول:

يلاقى كما لاقى مجير أم عامر
أحاليب ألبان اللقاح الدوائر
فـرته بأنياب لها وأظافر
يجود بمعروف على غير شاكر

ومن يصنع المعروف مع غير أهله
أعد لها لما استجارت بيته
وأسمنها حتى إذا ما تمكنت
فقل لذوى المعروف هذا جزاء من

وحكى بعضهم قال: دخلت البادية فإذا أنا بعجوز بين يديها شاة مقتولة وإلى جانبها جرو ذئب. فقالت: أندري ما هذا؟ فقلت: لا، قالت: هذا جرو ذئب أخذناه صغيراً وأدخلناه بيتنا وربيناه، فلما كبر فعل بشاتى ما ترى، وأنشدت:

وأنت لشــاتنا ابن ربيب
فــــــــمن أنبــــــــاك أن أباك ذيب
فــــــــلا أدب يــــــــفيد ولا أديب

بقرت شويهتى وفجعت قومي
غذيت بدها ونشأت معها
إذا كان الطباع طباع سوء

اللهم إنا نعوذ بك من البغى وأهله، ومن الغادر وفعله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفصل الثانى: فى السرقة والسراق

قيل: مر عمر بن عبيد بجماعة وقوف فقال: ما هذا؟ قيل: السلطان يقطع سارقاً، فقال: لا إله إلا الله سارق العلانية يقطع سارق السر. وأمر الإسكندر بصلب سارق، فقال: أيها الملك إنى فعلت ما فعلت، وأنا كاره. فقال: وتصلب أيضاً وأنت كاره. وسرق مدنى قميصاً، فأعطاه لابنه يبيعه، فسرق منه، فجاء له، فقال: بكم بعته؟ قال: برأس المال. وقال أكتل السلمى، وكان لصاص فاتكاً:

أجر جر حبلى ليس فيه بعير
وأجمال ربي فى البلاد كثير

وإنى لأستحى من الله أن أرى
وأن أسأل المرء الدنىء بعيره

قال الفرزدق:

ولكن متى ما يسرق القوم يأكل

وإن أبا الكرشاء ليس بسارق

وكان لعمر بن دويرة البجلي أخ قد كلف بنت عم له، فتسور عليها الدار ذات ليلة، فأخذه أخوتها وأتوا به خالد

ابن عبد الله القسرى، وجعلوه سارقاً، فسأله خالد، فصدقهم ليدفع الفضيحة عن الجارية، فهم خالد بقطعه، فقال عمر أخوه:

أخالد قد والله أوطئت عشوة
أقـرر بما لم يأتـه المرء إنه
وما العاشق المظلوم فينا بسارق
رأى القطع خيراً من فضيحة عاشق

فعفا عنه خالد وزوجه الجارية.

الفصل الثالث: فيما جاء فى العداوة والبغضاء

قد ذكر الله عز وجل العداوة والبغضاء فى كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ٦٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]. وقال رسول الله ﷺ: «أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك». وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: العداوة تتوارث، وقال زياد بن عبد الله:

فلو أنى بليت بهـاشـمى
صـبـرت على عـداوتـه ولكن
خـولـتـه بنو عـبـد المـدان
تـعـالوا فـانـظـروا بـمن ابـتلانى

وبث رجل فى وجه أبى عبيدة مكروهاً، فأنشأ يقول:

فلو أن لحـمى إذ وهى لعـبـت به
لهـون وجـدى أو لـسلى مصـيـبـتى
سـبـاع كـرام أو ضـبـاع وأذـوب
ولـكنـمـا أودى بـلـحـمى أكلـب

وقيل لكسرى: أى الناس أحب إليك أن يكون عاقلاً؟ قال: عدوى، قيل: كيف ذلك؟ قال: لأنه إذا كان عاقلاً كنت منه فى عافية وأمن. وقيل: كونوا من المرء الدغل أخوف من الكاشح المعلن، فإن مداواة أهل العلل الظاهرة أهون من مداواة ما خفى وبطن. وقالوا: إياك أن تعادى من إذا شاء طرح ثيابه، ودخل مع الملك فى لحافه. وقال أبو العتاهية:

تنـح عن القـبـح ولا تـردـه
سـتـلقى من عـدوك كل كـيـد
ومـن أولـيـتـه حـسناً فـزده
إذا كـاد العـدو ولم تـكـده

وكانت جليلة بنت مرة أخت جساس تحت كليب، فقتل أخوها زوجها وهى حبلى بهجرس بن كليب، فلما كبر وشب قال:

أصـاب أبى خـالى ومـا أنا بالذى
وأورث جـساس بن مـرة غـصـة
أمـيل وأمـرى بـين خـالى ووالدى
إذا ما اعـترتنى حـرها غـير بارـد

ثم قال بعد ذلك:

يا للرجـال لـقلب مـا له جـلد
كـيف العـزاء وثـارى عـند جـساس

ثم حمل على خاله فقتله وقال:

ألم ترني ثارت لأبى كليباً
غسلت العار عن جسم ابن بكر
وقلـد يرجى المرشح للدخول
بجساس بن مرة ذى البتول

بيت:

سن العداوة آباء لنا سلفوا
فلن تبـيـد وللاباء أبناء

ويقال: دار عدوك لأحد أمرين: إما لصداقة تؤمنك، أو لفرصة تمكتك، وكتب سويد إلى مصعب:

فبلغ مصعباً عنى رسولى
تعلم أن أكـثـر من تناجى
وهل تلقى النصيح بكل واد
وإن ضحكوا إليك هم الأعـادى

ويقال: فلان كثير المراق مر المذاق. وقال الحجاج لخارجى: والله إنى لأبغضك، قال: أدخل الله الجنة أشدنا بغضاً لصاحبه. ولما أراد أنوشروان أن يقتل ابنه هرمز ولاية العهد استشار عظماء مملكته، فأنكروا عليه، وقال بعضهم: إن أمه تركية وقد علمت فى أخلاقهم ما علمت، فقال: إن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات، وكانت أم قباذ تركية، وقد رأيت من حسن سيرته ما رأيت، فقيل: هو قصير وذلك يذهب ببهاء الملك، فقال: إن قصره من رجله ولا يكاد يرى إلا جالساً أو راكباً، فلا يستين ذلك فيه. فقيل: هو بغض فى الناس، فقال: أراه هلك ابنى هرمز، فقد قيل: إذا كان فى الإنسان خير واحد ولم يكن ذلك الخير المحبة فى الناس فلا خير فيه، وإذا كان فيه عيب واحد ولم يكن ذلك العيب البغض فى الناس فلا عيب فيه:

ولست براء عـيـب ذى الود كله
فمعين الرضا عن كل عيب كـليـلة
ولا بغض ما فيه إذا كنت راضياً
كما أن عين السخط تبدى المساويا

وفى المعنى قيل:

وعين البغض تبرر كل عيب
وعين الحب لا تجدد العيوب

وعن أبى حيان قال: قال لقمان: نقلت الصخور وحملت الحديد، فلم أر شيئاً أثقل من الدين، وأكلت الطيبات وعانقت الحسان، فلم أر شيئاً ألد من العافية. وأنا أقول لو نزحوا البحار وكنسوا القفار لوجدوها أهون من شماته الأعداء خصوصاً إذا كانوا مساهمين فى نسب أو مجاورين فى بلد. اللهم إنا نعوذ بك من تتابع الإثم وسوء الفهم وشماته ابن العم. وقيل لأيوب عليه السلام: أى شئ كان عليك فى بلائك أشد؟ قال: شماته الأعداء. وأنشد الجاحظ:

تقول العاذلات تسـل عنها
وكيف ونظرة منها اختـلـاساً
وداو عليل قلبك بالسـلو
ألد من الشـمـاتة بالعـدو

وقال ابن أبى جهينة المهلبى:

كل المصائب قـبـد تمر على الفتى
فتـهـون غير شماتة الأعداء

وقال الجاحظ : ما رأيت سناناً أنفذ من شماتة الأعداء . وقيل : لما قبض رسول الله ﷺ سمع بموته نساء من كندة وحضرموت ، فخضبن أيديهن وضربن بالدفوف ، فقال رجل منهم :

أبلغ أبا بكر إذا جاءته أن البغايا من بنى مرام
أظهرن في موت النبی شماتة وخضبن أيديهن بالعملام
فأقطع هديت أكفهن بصارم كالبرق أومض في متون غمام

فكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى المهاجر عامله ، فأخذهن وقطع أيديهن . ويقال : فلان يتربص بك الدوائر ويتمنى لك الغوائل ، ولا يؤمل صلاحاً إلا في فسادك ولا رفعة إلا في سقوط حالك . وقال حكيم : لا تأمن عدوك وإن كان ضعيفاً ، فإن القناة قد تقتل ، وإن عدمت السنان . قال الشاعر :

فلا تأمن عدوك لو تراه أقل إذا نظرت من القصراد
فإن الحرب ينشأ من جبان وإن النار تضرم من رماد

بيت مفرد :

فمن لم يكن منكم مسيئاً فإنه يشد على كف المسىء فيجلب

وقال عبد الله بن سليمان بن وهب :

كفاية الله خير من توقينا وعادة الله في الماضي تكفينا
كاد الأعداء فلا والله ما تركوا قولاً وفعلًا وتلقينا وتهجينا
ولم نزد نحن في سر وفي علن على مقالتنا يا ربنا اكفينا
فكان ذاك ورد الله حاسدنا بغيطه لم ينل تقديره فينا

الفصل الرابع: في الحسد

قال الله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [النساء : ٥٤] وقال رسول الله ﷺ : «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود» . وقال علي رضي الله عنه : الحاسد مغتاذ على من لا ذنب له . وقيل : الحسود غضبان على القدر . ويقال : ثلاثة لا يهنا لصاحبها عيش : الحقد والحسد وسوء الخلق . وقيل : بش الشعر الحسد . وقيل لبعضهم : ما بال فلان يبغضك ؟ قال : لأنه شقيقي في النسب ، وجاري في البلد ، وشريكي في الصناعة ، فذكر جميع دواعي الحسد ، وقال أعرابي : الحسد داء منصف يفعل في الحاسد أكثر من فعله في المحسود ، وهو مأخوذ من الحديث : «قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله» . وقال الفقيه أبو الليث السمرقندي رحمة الله تعالى عليه : يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود ، أولها : غم لا ينقطع . الثانية : مصيبة لا يؤجر عليها ، الثالثة : مذمة لا يحمد عليها ، الرابعة : سخط الرب ، الخامسة : يغلق عنه باب التوفيق .

ومن ذلك ما حكى أن رجلاً من العرب دخل على المعتصم فقربه وأدناه وجعله نديمه ، وصار يدخل على حريمه من غير استئذان . وكان له وزير حاسد فغار من البدوى وحسده ، وقال في نفسه : إن لم أحتل على هذا البدوى في قتله أخذ بقلب أمير المؤمنين ، وأبعدني منه ، فصار يتلطف بالبدوى حتى أتى به إلى منزله ، فطبخ له طعاماً ، وأكثر فيه من الثوم ،

فلما أكل البدوى منه قال له: احذر أن تقترب من أمير المؤمنين، فيشم منك رائحة الثوم، فيتأذى من ذلك فإنه يكره رائحته، ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين، فخلا به وقال: يا أمير المؤمنين إن البدوى يقول عنك للناس: إن أمير المؤمنين أبخر وهلك من رائحة فمه. فلما دخل البدوى على أمير المؤمنين جعل كفه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم، فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستتر فمه بكفه قال: إن الذى قاله الوزير عن هذا البدوى صحيح، فكتب أمير المؤمنين كتاباً إلى بعض عماله يقول فيه: إذا وصل إليك كتابى هذا، فاضرب رقبة حامله، ثم دعا البدوى ودفع إليه الكتاب، وقال له: امض به إلى فلان واثنى بالجواب. فامثل البدوى ما رسم به أمير المؤمنين وأخذ الكتاب وخرج به من عنده، فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير، فقال: أين تريد؟ قال: أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان، فقال الوزير فى نفسه: إن هذا البدوى يحصل له من هذا التقليد مال جزيل، فقال له: يا بدوى ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذى يلحقك فى سفرك، ويعطيك ألفى دينار؟ فقال: أنت الكبير، وأنت الحاكم، ومهما رأيته من الرأى افعل. قال: اعطنى الكتاب، فدفعه إليه، فأعطاه الوزير ألفى دينار، وسار بالكتاب إلى المكان الذى هو قاصده، فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير. فبعد أيام تذكر الخليفة فى أمر البدوى، وسأل عن الوزير، فأخبر بأن له أياماً ما ظهر، وأن البدوى بالمدينة مقيم، فتعجب من ذلك وأمر بإحضار البدوى، فحضر، فسأله عن حاله، فأخبره بالقصة التى اتفقت له مع الوزير من أولها إلى آخرها، فقال له: أنت قلت عنى للناس أنى أبخر؟ فقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين أن أتحدث بما ليس لى به علم، وإنما كان ذلك مكرماً منه وحسداً، وأعلمه كيف دخل به إلى بيته وأطعمه الثوم وما جرى له معه. فقال أمير المؤمنين: قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله. ثم خلع على البدوى واتخذته وزيراً وراح الوزير بحسده. وقال المغيرة شاعر آل المهلب:

آل المهلب قوم إن مدحتهم كانوا الأكارم آباءً وأجدادا
إن العرائن تلقاها محسدة ولا ترى للشام الناس حسادا

وقال عمر رضى الله عنه: يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك وقال مالك بن دينار: شهادة القراء مقبولة فى كل شيء إلا شهادة بعضهم على بعض، فإنهم أشد تحاسداً من التيوس. وعن أنس رضى الله تعالى عنه رفعه: «إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» وقال منصور الفقيه:

منافسة الفتى فيما يزول على تقصصان همته دليل
ومختار القليل أقل منه وكل فوائد الدنيا قليل

يقول الله عز وجل: الحاسد عدو نعمتى متسخط لفعلى غير راض بقسمتى التى قسمت لعبادى. قال الشاعر:

أيا حاسداً لى على نعمتى أتدرى على من أسأت الأدب
أسأت على الله فى حكمه لأنك لم ترض لى مـا وهب
فأخزأك رى بأن زادنى وسدد عليك وجوه الطلب

وقال الأصمعى: رأيت أعرابياً قد بلغ عمره مائة وعشرين سنة، فقلت له: ما أطول عمرك؟ فقال: تركت الحسد فبقيت. وقالوا: لا يخلو السيد من ودود يمدح وحسود يقده. وقال ابن مسعود رضى الله عنه: ألا لا تعادوا نعم الله، قيل: ومن يعادى نعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله. وقيل لعبد الله بن عروة: لم لزمتم البدو، وتركتم قومك؟ فقال: وهلبقى إلا حاسد على نعمتى أو شامت على نكبة، وقال الشاعر:

رغدا بلا قتر صفواً بلا رنق
فالغل فى القلب مثل الغل فى العنق

يا طالب العيش فى أمن وفى دعة
خلص فؤادك من غل ومن حسد

وقال آخر:

د فلان صبرك قاتله
إن لم تجدد مساكنا تاكله

اصبر على حسد الحسو
كالنار تاكل بعضهما

وفى نوابغ الحكم: الحسد حسك من تعلق به هلك، ولبعضهم:

لا عاش من عاش يوماً غير محسود

إنى حسدت فزاد الله فى حسدى

وقال نصار بن سيار:

يا ذا العارج لا تنقص لهم عددا
فمثل ما بى مما يجلب الحسدا

إنى نشأت وحسادى ذوو عدد
إن يحسدونى على ما بى لما بهم

وكان عمر رضى الله عنه يقول: نعوذ بالله من كل قدر وافق إرادة حاسد. وقيل لأرسطاطاليس: ما بال الحسود أشد غمًا؟ قال: لأنه أخذ بنصيبه من غموم الدنيا، ويضاف إلى ذلك غمه لسرور الناس. والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها وفضل الجهاد وشدة البأس

والتحريض على القتال وفيه فصلان

الفصل الأول: في فضل الجهاد في سبيل الله وشدة البأس

قد أثنى الله تعالى على الصابرين في البأس والضراء وحين البأس، ووصف المجاهدين فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُومٌ﴾ [الصف: ٤]. وندب إلى جهاد الأعداء ووعد عليه أفضل الجزاء. والرأى في الحرب إمام الشجاعة. قال رسول الله ﷺ: «الحرب خدعة». وقال ﷺ: «ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دم في سبيله أو قطرة دمع في جوف ليل من خشيته». وسمع رجل عبد الله بن قيس رضى الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الجنة تحت ظلال السيوف»، فقال: يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله ﷺ يقوله، قال: نعم، فرجع إلى أصحابه، فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه، فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو، فضرب به حتى قتل.

وكتب أبو بكر الصديق رضى الله عنه إلى خالد بن الوليد: اعلم أن عليك عيوناً من الله ترعاك وتراك، فإذا لقيت العدو فاحرص على الموت توهب لك السلامة، ولا تغسل الشهداء من دمائهم، فإن دم الشهيد يكون له نوراً يوم القيامة. وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ حين انتهينا إلى خيبر: «الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». وعنه رفعه: «الغدوة في سبيل الله أو راحة خير من الدنيا وما فيها». وعن ابن مسعود رفعه: «إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل». وقيل: إن أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضى الله عنه لم يشهد بدرأ، فلم يزل متحسراً يقول: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غيبت عنه، فلما كان يوم أحد قال: «واها لريح الجنة دون أحد». فقاتل حتى قتل، فوجد في بدنه بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته الربيع بنت النضر: فما عرفت أخى إلا ببنايه. وعن فضالة بن عبيد رفعه: «كل ميت يختم على عمله إلا المراط فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتنة القبر». وعن سهل بن حنيف رفعه: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه. فنسأل الله أن يرزقنا الشهادة، ويجعلنا من الذين أحسنوا فلهم الحسنی وزيادة.

الفصل الثاني: في الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها

اعلم أن الشجاعة عماد الفضائل، ومن فقدوها لم تكمل فيه فضيلة. ويعبر عنها بالصبر وقوة النفس. قال الحكماء: وأصل الخير كله في ثبات القلب والشجاعة عند اللقاء على ثلاثة أوجه: الوجه الأول: إذا التقى الجمعان وتزاحف العسكران، وتكالحت الأحداق بالأحداق، برز من الصف إلى وسط المعترك يحمل ويكر وينادى: هل من مبارز. والثاني: إذا نشب القوم واختلطوا ولم يدر أحد منهم من أين يأتيه الموت، يكون رابط الجأش ساكن القلب حاضر اللب لم يخالطه الدهش ولا تأخذه الحيرة، فيتقلب تقلب المالك لأمواله القائم على نفسه. والثالث: إذا انهزم أصحابه يلزم الساقة ويضرب في وجوه القوم ويحول بينهم وبين عدوهم، ويقوى قلوب أصحابه، ويرجى الضعيف ويمدهم بالكلام الجميل، ويشجع نفوسهم، فمن وقع أقامه ومن وقف حمّله ومن كبا به فرسه حمّاه، حتى يئس العدو منهم، وهذا أحمدهم شجاعة. وعن هذا قالوا: إن المقاتل من وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين، ومن أكرم الكرم الدفاع عن الحرم.

وحكى سيدى أبو بكر الطرطوشى رحمة الله تعالى عليه في كتابه «سراج الملوك» قال: كان شيوخ الجند يحكون لنا

فى بلادنا، قالوا: دارت حرب بين المسلمين والكفار، ثم افترقوا، فوجدوا فى المعترك قطعة خوذة قدر الثلث بما حوته من الرأس، فقالوا: إنه لم ير قط ضربة أقوى منها ولم يسمع بمثلها فى جاهلية ولا إسلام، فحملتها الروم وعلقتها فى كنيسة لهم، فكانوا إذا عيروا بانهزامهم يقولون: لقينا أقواماً هذا ضربهم، فيرحل أبطال إليها ليروها. قالوا: ومن الحزم أن لا يحتقر الرجل عدوه وإن كان ذليلاً، ولا يغفل عنه وإن كان حقيراً، فكم برغوث أسهر فيلاً، ومنع الرقاد ملكاً جليلاً. قال الشاعر:

فلا تحقـرن عدوا رماك وإن كان فى ساعديه قـصر
فإن السيوف تحـز الرقاب وتعجز عما تنال الإبر

واعلموا أن الناس قد وضعوا فى تدبير الحروب كتباً ورتبوا فيها ترتيباً، ولنصف منها أشياء نبدأ منها أولاً بما ذكره الله تعالى فى القرآن العظيم. قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] فقلوه تعالى: «ما استطعتم» مشتمل على كل ما هو فى مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة. وفسر النبى ﷺ القوة حين مر على أناس يرمون، فقال: «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي». وأفضل العدة أن تقدم بين يدي اللقاء عملاً صالحاً من صدقة وصيام ورد المظالم وصلة الرحم ودعاء مخلص، وأمر بمعروف، ونهى عن منكر، وأمثال ذلك. والشأن كل الشأن فى استجادة القواد، وانتخاب الأمراء، وأصحاب الألوية، فقد قالت حكماء العجم: أسد يقود ألف ثعلب خير من ثعلب يقود ألف أسد. فلا ينبغي أن يقدم الجيش إلا الرجل ذو البسالة والنجدة، والشجاعة والجرأة، ثابت الجأش، صارم القلب، صادق البأس، ممن قد توسط الحروب، ومارس الرجال ومارسوه، ونازل الأقران وقارع الأبطال عارفاً بمواضع الفرص خبيراً بمواضع القلب والميمنة والميسرة من الحروب، فإنه إذا كان كذلك وصدر الكل عن رأيه كانوا جميعاً كأنهم مثله، فإنه إن رأى لقراع الكتائب وجهاً وإلا رد الغنم إلى الزريبة.

واعلم أن الحرب خدعة عند جميع العقلاء، وكان عظماء الترك يقولون: ينبغي للعاقل العظيم القيادة أن يكون فيه عدة أخلاق من البهائم، شجاعة الديك، وبحث الدجاجة، وقلب الأسد، وحيلة الخنزير، وروغان الثعلب، وصبر الكلب على الجراح، وحراسة الكركى، وغارة الذئب، وسمن نغير، وهى دويبة تكون بخراسان تسمن على التعب والشقاء. وكان يقال: أشد خلق الله تعالى عشرة: الجبال، والحديد ينحت الجبال، والنار تأكل الحديد، والماء يطفىء النار، والسحاب يحمل الماء، والرياح تصرف السحاب، والإنسان يتقى الريح بجناحيه، والسكر يصرع الإنسان، والنوم يذهب السكر، والهم يمنع النوم، فأشد خلق ربك الهم. اللهم إنا نعوذ بك من الهم والحزن.

ومن الخيل فى الحرب أن ييث جواسيسه فى عسكر عدوه ليستعلم أخبارهم، ويستميل قلوب رؤسائهم، وذى الشجاعة منهم، فيدس إليهم، ويعدهم وعداً جميلاً، ويقوى أطماعهم فى نيل ما عنده من الهبات الفخيمة والولايات السنية، وإن رأى وجهاً عاجلهم بالهدايا وسامهم إما الغدر بصحبهم، وإما الاعتزال وقت اللقاء، ويكتب على السهام أخباراً مزورة، ويرمى بها فى جيوشهم. واعلم أن الحيلة لا ترد القضاء والقدر، وأن الدول إذا زالت صارت حيلتها وبالاً عليها، وإذا أذن الله تعالى فى حلول البلاء كانت الآفة فى الحيلة. وقال الحكماء: إذا نزل القضاء كان العطب فى الحيلة. ويغلب الضعيف بإقبال دولته كما يغلب القوى ببقاء مدته، فمن الحزم المؤلف عند سواس الحروب أن تكون حماة الرجال، وكماة الأبطال فى القلب، فإنه إذا انكسر الجناحان كانت العيون ناظرة إلى القلب، فإذا كانت رايته تخفق وطبولة تضرب كان حصناً للجناحين يأوى إليه كل منهزم، وإذا انكسر القلب تمزق الجناحان. مثال ذلك: أن الطائر إذا انكسر أحد جناحيه ترجى عودته ولو بعد حين، وإذا انكسر الرأس ذهب الجناحان. وقل عسكر انكسر قلبه فأفلح أو تراجع، اللهم إلا أن تكون مكيدة من صاحب الجيش، فيخلى القلب قصداً وتعمداً، حتى إذا توسطه العدو، واشتغل بنهبه انطلق عليه الجناحان. فقد فعل ذلك رجال من أهل الحروب، ويقال: حبيب إلى عدوك الفرار بأن لا تتبعهم إذا انهزموا. ويقال: الشجاع محبب حتى إلى عدوه، والجبان مبغض حتى إلى أمه. ولما أقبل كسرى بن هرمز إلى محاربة بهرام قال له صاحبه: أما تستعد؟ قال: عدتى ثبات قلبى، وإصابة رأى، ونصل سيفى، ونصرة خالقي. وخرج يزيد بن

عبد الملك من بعض مقاصيره وعليه درع، وذلك فى أيام قتال يزيد بن المهلب، فأشده مسلمة قول الخطيئة:

قوم إذا حاربوا شددوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار

فقال يزيد: إنما ذاك إذا حاربنا أكفاءنا، وأما مثل هذا ونظرائه فلا. فقام إليه مسلمة، فقبله بين عينيه، وقيل: لما مات ملك الفرس أرادوا أن يملكوا عليهم رجلاً من آل ساسان، فوفد عليهم بهرام جور فقال: اعمدوا إلى أسدين جائعين، فاطرحوا بينهما التاج، فمن أخذه فهو الملك. ففعلوا، فدنا منهما فأهويا نحوه، فأخذ برأس أحدهما، فأدناه من رأس الآخر، ثم نطحه به فقتلها جميعاً، وشد على التاج فأخذه ووضع على رأسه، وملكته الفرس عليهم.

وقيل: لم يكن فى العجم أرمى من الملك بهرام خرج يتصيد يوماً، وهو مردف حظية له كان يعشقها، فعرضت له ظباء، فقال: فى أى موضع تريدان أن أضع هذا السهم؟ فقالت: أريد أن تشبه ذكرانها بالإناث وإناثها بالذكران، فرمى ظبياً ذكراً بنشابة ذات شعبتين فاقتلع قرنيه، ورمى ظبية بنشابتين أثبتهما فى موضع القرنين، ثم سأله أن يجمع بين ظلف الظبي وأذنه بنشابة، فرمى أصل الأذن ببندقة ثم أهوى الظبي برجله إلى أذنه ليحتك، فرماه بنشابة فوصل أذنه بظلفه. ويقال: إن من أعظم المكاييد فى الحرب الكمين، وذلك أن الفارس لا يزال على حمية فى الدفاع وحمى الذمار حتى يلتفت فيرى وراءه بنداً منشوراً، ويسمع صوت الطبل، فحيث يكون همه خلاص نفسه. وعليك بانتخاب الفرسان واختيار الأبطال ولا تنس قول الشاعر:

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عنى

بل قد جرب ذلك، فوجد الواحد خيراً من عشرة آلاف، وسأحكى لك من ذلك ما ترى فيه العجب، فمن ذلك: لما التقى المستعين بن هود مع الطاغية بن روميل النصراني على مدينة وشقة من ثغور بلاد الأندلس، وكان العسكران كالمكافئين، كل واحد منهما يقارب عشرين ألف مقاتل خيل ورجل. فحدث من حضر الواقعة من الأجناد قال: لما دنا اللقاء. قال الطاغية ابن روميل لمن يثق بعقله وممارسته للحروب من رجاله: استعلم لى من فى عسكر المسلمين من الشجعان الذين نعرفهم كما يعرفوننا ومن غاب منهم ومن حضر، فذهب، ثم رجع، فقال له: فيهم فلان وفلان، فعد سبعة رجال. فقال له: انظر من فى عسكرى من الرجال المعروفين بالشجاعة، ومن غاب منهم، فعدهم، فوجدهم ثمانية رجال لا يزيدون، فقام الطاغية ضاحكاً مسروراً، وهو يقول: ما أبيضك من يوم. ثم ثارت الحرب بينهم، فلم تزل المضاربة بين الفريقين لم يول أحدهم دبره، ولا ترحزح عن مقامه، حتى فنى أكثر العسكرين، ولم يفز واحد منهم، قال: فلما كان وقت العصر نظروا إلينا ساعة، ثم حملوا علينا جملة ودخلوا مداخلة، ففرقوا بيننا، وصرنا شطرين، وحالوا بيننا وبين أصحابنا، فكان ذلك سبب وهتنا وضعفنا، ولم تقم الحرب إلا ساعة ونحن فى خسارة معهم، فأشار مقدم العسكر على السلطان أن ينجو بنفسه، وانكسر عسكر المسلمين، وتفرق جمعهم، وملك العدو مدينة وشقة. فليعتبر ذو الحزم والبصيرة من جمع يحتوى على أربعين ألف مقاتل، ولم يحضره من الشجعان المعدودين إلا خمسة عشر نفرأ، وليعتبر بضمان العليج بالظفر واستبشاره بالغنيمة لما زاد فى أبطاله رجل واحد.

وحكى سيدى أبو بكر الطرطوشى رحمة الله تعالى عليه قال: سمعت أستاذنا القاضى أبا الوليد يحيى قال: بينما المنصور بن أبى عامر فى بعض غزواته إذ وقف على نشز من الأرض مرتفع، فرأى جيوش المسلمين من بين يديه، ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله قد ملأوا السهل والجبل، فالتفت إلى مقدم العسكر، وهو رجل يعرف بابن المضجعى، فقال له: كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير؟ قال: أرى جمعاً كثيراً وجيشاً واسعاً كبيراً، فقال له المنصور: ما ترى هل يكون فى هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والنجدة والبسالة؟ فسكت ابن المضجعى. قال له المنصور: ما سكوتك، ليس فى هذا الجيش ألف مقاتل؟ قال: لا، فتعجب المنصور، ثم قال: فهل فيهم خمسمائة مقاتل من الأبطال المعدودين؟ قال: لا، فحنق المنصور، ثم قال: أففيهم مائة رجل من الأبطال؟ قال: لا، قال: أففيهم خمسون رجلاً من الأبطال؟ قال: لا، قال: فسبه المنصور، وأغلظ عليه، وأمر به، فأخرج على أسوأ حال، فلما توسطوا بلاد الروم

اجتمعت الروم، وتصاف الجمعان، فبرز عالج من الروم بين الصفين شاكي السلاح، وجعل يكر ويفر ويقول: هل من مبارز، فبرز إليه رجل من المسلمين، فتجاولا ساعة، فقتله العالج، ففرح المشركون، وصاحوا. واضطرب المسلمون لها، ثم جعل العالج يموج بين الصفين وينادي: هل من مبارز اثنين لواحد، فبرز إليه رجل من المسلمين، فتجاولا ساعة، فقتله العالج، وجعل يكر ويحمل، وينادي ويقول: هل من مبارز؟ ثلاثة لواحد، فبرز إليه رجل من المسلمين، فقتله العالج، فصاح المشركون، وذل المسلمون، وكادت أن تكون كسرة، فقليل للمنصور: ما لها إلا ابن المضجعي؟ فبعث إليه، فحضر. فقال له المنصور: ألا ترى ما صنع هذا العالج الكلب منذ اليوم؟ فقال: لقد رأيته، فما الذي تريد؟ قال: أن تكفى المسلمين شره. قال: الآن يكفى المسلمون شره إن شاء الله تعالى، ثم قصد إلى رجال يعرفهم، فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد تهرت أوراكاها هزالاً، وهو حامل قربة ماء بين يديه على الفرس، والرجل في حليته، ونفسه غير متصنع، فقال له ابن المضجعي: ألا ترى ما يصنع هذا العالج منذ اليوم قال: قد رأيته، فما الذي تريد؟ قال: أريد أن تكفى المسلمين شره. قال: حباً وكرامة. ثم إنه وضع القربة بالأرض، وبرز إليه غير مكترث به، فتجاولا ساعة، فلم ير الناس إلا المسلم خارجاً إليهم يركض ولا يدرون ما هناك، وإذا برأس العالج يلعب بها في يده، ثم ألقى الرأس بين يدي المنصور، فقال له ابن المضجعي: عن هؤلاء الرجال أخبرتك. قال: فرد ابن المضجعي إلى منزلته، وأكرمه ونصر الله جيوش المسلمين وعساكر الموحدين.

حكى أنه كان للعرب فارس يقال له: ابن فتحون، وكان أشجع العرب والعجم في زمانه، وكان المستعين يكرمه ويعظمه ويجري له في كل عطية خمسمائة دينار، وكانت جيوش الكفار تهابه، وتعرف منه الشجاعة، وتخشى لقاءه. فيحكى أن الرومي كان إذا سقى فرسه ولم يشرب يقول له: ويلك لم لا تشرب؟ هل رأيت ابن فتحون في الماء. فحسده نظراؤه على كثرة العطاء، ومنزلته من السلطان، فوشوا به عند المستعين، فأبعده ومنعه من عطائه. ثم إن المستعين أنشأ غزوة إلى بلاد الروم، فتقابل المسلمون والمشركون صفوفاً، ثم برز عالج إلى وسط الميدان، ونادى وقال: هل من مبارز؟ فبرز إليه فارس من المسلمين، فتجاولا ساعة، فقتله الرومي، فصاح المشركون سروراً، وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل الكلب الرومي يجول بين الصفين وينادي: هل من اثنين لواحد؟ فخرج إليه فارس من المسلمين، فقتله الرومي، فصاح الكفار سروراً، وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل الكلب يجول بين الصفين وينادي ويقول: ثلاثة لواحد، فلم يجترأ أحد من المسلمين أن يخرج إليه. وبقي الناس في حيرة، فقليل للسلطان: ما لها إلا أبو الوليد ابن فتحون، فدعاه، وتلطف به، وقال له: يا أبا الوليد: أما ترى ما يصنع هذا العالج؟ فقال: ها هو بعيني، قال: فما الحيلة فيه؟ قال: الساعة أكفى المسلمين شره، فلبس قميص كتان، واستوى على سرج فرسه بلا سلاح، وأخذ بيده سوطاً طويلاً، وفي طرفه عقدة معقودة، ثم برز إليه، فتعجب منه النصراني، ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه فلم تخط طعنة النصراني سرج ابن فتحون، وإذا ابن فتحون متعلق برقبة الفرس ونزل إلى الأرض لا شيء منه في السرج، ثم انقلب في سرجه وحمل على العالج وضربه بالسوط، فالتوى على عنقه، فجذبه بيده من السرج، فاقتلعه، وجاء به يجره حتى ألقاه بين يدي المستعين، فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ في صنعه مع أبي الوليد بن فتحون، فاعتذر إليه، وأكرمه، وأحسن إليه، وبالحق في الإنعام عليه، وردّه إلى أحسن أحواله، وكان من أعز الناس إليه.

وينبغي لقائد الجيش أن يخفى العلامة التي هو مشهور بها، فإن عدوه قد يستعلم حيلته وألوان خيله ورايته، ولا يلزم خيمته ليلاً ولا نهاراً، وليبدل زيه ويغير خيمته كي لا يلتصق عدوه غرة منه، وإذا سكن الحرب، فلا يمشى في النفر اليسير من قومه خارج عسكريه، فإن عيون عدوه متجسسة عليه، وبهذا الوجه كسر المسلمون جيوش إفريقية عند فتحها، وذلك أن الحرب سكنت وسط النهار، فجعل مقدم العدو يمشى خارج عسكريه يتميز عساكر المسلمين، فجاء الخبر إلى عبد الله بن أبي السرح وهو نائم في قبتة، فخرج فيمن وثق به من رجاله، وحمل على العدو، فقتل الملك، وكان الفتح. وبمثل هذا قهر ألب أرسلان ملك الترك، ملك الروم وقمعه وقتل رجاله وأباد جمعه. وكانت الروم قد جمعت جيوشاً يقل أن يجمع لغيرهم من بعدهم مثلها، وكان قد بلغ عددهم ستمائة ألف، كتائب متواصلة، وعساكر مترادفة، وكراديس يتلو بعضها بعضاً، لا يدركهم الطرف ولا يحصيهم العدد، وقد استعدوا من الكراع والسلاح والمجانيق،

والآلات المعدة للحروب، وفتح الحصون بما لا يحصى، وكانوا قد قسموا بلاد المسلمين الشام والعراق، ومصر، وخراسان، وديار بكر، ولم يشكوا أن الدولة قد دارت لهم، وأن نجوم السعود قد خدمتهم، ثم استقبلوا بلاد المسلمين فتواترت أخبارهم إلى بلاد المسلمين، واضطربت لها ممالك أهل الإسلام، فاحتشد للقائهم الملك ألب أرسلان، وهو الذى يسمى الملك العادل، وجمع جموعه بمدينة أصبهان، واستعد بما قدر عليه، ثم خرج يؤمهم، فلم يزل العسكران يتدانيان إلى أن عادت طلائع المسلمين إلى المسلمين، وقالوا لألب أرسلان: غداً يتراءى الجمعان، فبات المسلمون ليلة الجمعة، والروم فى عدد لا يحصيهم إلا الله الذى خلقهم، وما المسلمون فيهم إلا أكلة جائع، فبقى المسلمون وجلين لما دهمهم، فلما أصبحوا صباح يوم الجمعة نظر بعضهم إلى بعض، فهال المسلمين ما رأوا من كثرة العدو، فأمر ألب أرسلان أن يعد المسلمون، فبلغوا اثني عشر ألفاً فكانوا كالشامة البيضاء فى الثور الأسود، فجمع ذوى رأى من أهل الحرب والتدبير والشفقة على المسلمين، والنظر فى العواقب، واستشارهم فى استخلاص أصوب رأى، فتشاوروا برهة، ثم اجتمع رأيهم على اللقاء، فتوابع القوم وتحالّلوا وناصحوا الإسلام وأهله، وتأهبوا أهبة اللقاء، وقالوا لألب أرسلان: بسم الله نحمل عليهم، فقال ألب أرسلان: يا معشر أهل الإسلام أمهلوا، فإن هذا يوم الجمعة، والمسلمون يخطبون المنابر، ويدعون لنا فى شرق البلاد وغربها، فإذا زالت الشمس، وعلمنا أن المسلمين قد صلوا، ودعوا الله أن ينصر دينه حملنا عليهم إذ ذاك، وكان ألب أرسلان قد عرف خيمة ملك الروم وعلامته وزيه وزيتته وفرسه، ثم قال لرجاله: لا يتخلف أحد منكم أن يفعل كفعلى، ويتبع أثرى، ويضرب بسيفه، ويرمى سهمه حيث أضرب بسيفى، وأرمى بسهمى، ثم حمل برجاله حملة رجل واحد إلى خيمة ملك الروم، فقتلوا من كان دونها، ووصلوا إلى الملك، فقتلوا من كان دونه، وجعلوا ينادون بلسان الروم قتل الملك قتل الملك، فسمعت الروم أن ملكهم قد قتل فتبددوا، وتمزقوا كل ممزق، وعمل السيف فيهم أياماً، وأخذ المسلمون أموالهم، وغنائمهم، وأتوا بالملك أسيراً بين يدي ألب أرسلان والحبل فى عنقه، فقال له ألب أرسلان: ماذا كنت تصنع بى لو أسرتنى؟ قال: وهل تشك أننى كنت أقتلك، فقال له ألب أرسلان: أنت أقل فى عينى من أن أقتلك اذهبوا به، فبيعوه لمن يزيد فيه، فكان يقاد والحبل فى عنقه، وينادى عليه من يشتري ملك الروم، وما زالوا كذلك يطوفون به على الخيام، ومنازل المسلمين، وينادون عليه بالدراهم والفلوس، فلم يدفع فيه أحد شيئاً، حتى باعوه من إنسان بكلب، فأخذه الذى ينادى عليه، وأخذ الكلب، وأتى بهما إلى ألب أرسلان، وقال: قد طفت به جميع العسكر، وناديت عليه، فلم يبذل أحد فيه شيئاً سوى رجل واحد دفع فيه هذا الكلب، فقال: قد أنصفك إن الكلب خير منه. ثم أمر ألب أرسلان بعد ذلك بإطلاقه وذهب إلى القسطنطينية، فعزلته الروم، وكحلوه بالنار. فانظر ماذا يأتى على الملوك إذا عرفوا فى الحرب من الحيلة والمكيده. اللهم انصر جيوش المسلمين وعساكر الموحدين، واهلك الكفرة، والمشركين، وانصر المسلمين نصراً عزيزاً برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

فى ذكر أسماء الشجعان وذكر الأبطال وطبقاتهم وأخبارهم

وذكر الجبناء وأخبارهم وذم الجبن

الطبقة الأولى: الذين أدركوا الجاهلية والإسلام: حمزة بن عبد المطلب^(١) رضى الله عنه عم رسول الله ﷺ، أسد الله وأسد رسوله ﷺ. قتل فى غزاة أحد، رماه وحشى مولى جبير بن مطعم بحربة فقتله. وكان فارس قريش غير مدافع، وبطلها غير ممانع، وعظم قتله على النبى ﷺ ونذر أن يقتل به سبعين رجلاً من قريش، وكبر عليه فى الصلاة سبعين تكبيرة.

أمير المؤمنين على بن أبى طالب^(٢) رضى الله عنه وكرم وجهه. آية من آيات الله، ومعجزة من معجزات رسول الله ﷺ، ومؤيد بالتأييد الإلهى، كاشف الكروب ومجليها، ومثبت قواعد الإسلام ومرسيها، وهو المتقدم على ذوى الشجاعة كلهم بلا مرية ولا خلاف. روى عنه رضى الله عنه أنه قال: والذى نفس ابن أبى طالب بيده لآلف ضربة بالسيف أهون على من موة على فراش. وقال بعض العرب: ما لقينا كتيبة فيها على بن أبى طالب رضى الله عنه إلا أوصى بعضنا على بعض. وقال رضى الله عنه لمعاوية: قد دعوت الناس إلى الحرب، فدع الناس جانباً واخرج إلى ليعلم أين المران على قلبه، والمغطى على بصره، وأنا أبو الحسن قاتل جدك وخالك وأخيك شذخاً يوم بدر، وذلك السيف معى، وبذلك القلب ألقى عدوى. وقيل له كرم الله وجهه: إذا جالت الخيل، فأين نطلبك؟ قال: حيث تركتمونى. وقيل له: كيف كنت تقتل الأبطال؟ قال: لأنى كنت ألقى الرجل، فأقدر أنى أقتله، ويقدر هو أنى تقتله، فأكون أنا ونفسه عوناً عليه. وقال مصعب بن الزبير: كان على رضى الله عنه حذراً فى الحروب شديد الروغان لا يكاد أحد يتمكن منه، وكانت درعه صدرأ لا ظهر لها، فقيل له: أما تخاف أن تؤتى من قبل ظهرك، فقال: إذا مكنت عدوى من ظهرى، فلا أبقى الله عليه إن أبقى على. قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادى لعنة الله تعالى عليه، غدرة وهو فى صلاة الصبح. وسبب ذلك أن عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله تزوج بقطام بنت علقمة، وكانت خارجية، فقالت له: لا أقنع إلا بصداق أسميه وهو ثلاثة آلاف درهم، وعبد وأمة، وأن تقتل على بن أبى طالب. فقال لها: لك ما سألت إلا على بن أبى طالب، وكيف لى به؟ قالت: تغتاله، فإن سلمت أرحت الناس من شره، وأقمت مع أهلك، وإن أصبت دخلت الجنة. فقال:

ثلاثة آلاف وعـــبـــد وقـــيـــنة وضرب على بالحـــســـام المـــخـــذم

فلا مـــهـــر أغلى من على وإن عـــلا ولا فـــتـــك إلا دون فـــتـــك ابن ملجم

قيل: إنه طعنه وهو داخل المسجد فى الغلس، وذلك فى تاسع عشر من رمضان المعظم سنة أربعين. كفن رضى الله عنه فى ثلاثة أثواب، ودفن فى الرحبة مما يلى باب كندة من أبواب المسجد. قالوا: ولما ضربه ابن ملجم لعنه الله. ثار الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضى الله عنهم، فاحتضنوه، وقام المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب، فأخذه، فأومأ على رضى الله عنه إلى المغيرة أن صلى بالناس، فصلى بهم الفجر وأقبلت همدان، فدخلوا على على، فقالوا يا أمير المؤمنين: لا تقوم لهم قائمة إن شاء الله تعالى، فقال: لا تفعلوا إنما النفس بالنفس. قال: ثم إن الحسن رضى الله عنه صلى الفجر وصعد المنبر، فأراد الكلام، فخنقته العبرة، ثم نطق، فقال: الحمد لله على ما أحببنا وكرهنا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وإنى أحسب عند الله عز وجل مصابى بأفضل الآباء بعد رسول الله القائل ﷺ: «من أصيب بمصيبة فليتسل بمصيبته فى فإنها أعظم المصائب»،

(١) حمزة بن عبد المطلب: انظر ترجمته فى (الإصابة) ترجمة (١٨٢٦).

(٢) على بن أبى طالب: انظر ترجمته فى (الإصابة) ترجمة (٥٦٨٨).

والله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل على عبده الفرقان، لقد قبض فى هذه الليلة رجل ما سبقه الأولون بعد رسول الله ﷺ ولا يدركه الآخرون. فعند الله نحسب ما دخل علينا وعلى جميع أمة محمد ﷺ. فوالله لا أقول اليوم إلا حقاً، لقد دخلت مصيبة اليوم على جميع العباد والبلاد، والشجر، والدواب. ولقد قبض فى الليلة التى رفع فيها عيسى ابن مريم عليه السلام إلى السماء، وقبض فيها موسى بن عمران، ويوشع بن نون عليهما السلام وأنزل فيها القرآن على محمد ﷺ، ولقد كان رسول الله ﷺ يبعثه فى السرية، ويسير جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فما يرجع حتى يفتح الله عز وجل على يديه، وما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله، ألا إن أمور الله تعالى تجري على أحوالها، فما أحسنها من الله، وأسوأها من أنفسكم. ألا إن قريشاً أعطت أزمته شياطينها، فقادت بها بآعنتها إلى النار، فمنهم من قاتل رسول الله ﷺ حتى أظهره الله تعالى عليه، ومنهم من أسر الضغينة حتى وجد على النفاق أعواناً. رفع الكتاب، وجف القلم، وأمور تقضى فى كتاب قد خلا. ثم أطرق الحسن، فبكى الناس بكاءً شديداً، ثم نزل، فجرد سيفه، ودعا بابن ملجم، فأقبل يخطر واضعاً شعره على أذنيه حتى قام بين يديه، فقال: يا حسن إنى ما عاهدت الله تعالى على عهد قط إلا وفيت به. عاهدت الله تعالى على أن أقتل أباك وقد قتلتك، فإن تخلى أقتل معاوية، فإن أنا قتلتك أضع يدى على يدك، وإن أقتل، فهو الذى تريد. فقال الحسن رضى الله عنه: أما والله لا سبيل إلى بقائك، ثم قام إليه فضربه بالسيف، فاتقاه ابن ملجم بيد، ثم أسرع بالسيف فيه فقتله.

ومن الأبطال خالد بن الوليد بن المغيرة المخدومي^(١) رضى الله عنه. سيف الله وسيف رسوله ﷺ بطل مذكور، وفارس مشهور فى الجاهلية والإسلام. قتل مالك بن نويرة، وقتل مسيلمة الكذاب لعنه الله. وكان الفتح لخالد يوم اليمامة، وهو الذى فتح دمشق، وأكثر بلاد الشام، وله وقائع عظيمة فى الروم. أيد الله بها الإسلام. مات على فراشه، وكان يقول: لقد شهدت كذا وكذا زحفاً، وما فى جسدى موضع شبر إلا وفيه أثر طعنة أو ضربة أو رمية، وها أنا أموت على فراشى لا نامت عين الجبان. وكان ينشد ويرتجز ويقول:

لا ترعبونا بالسيف المبرقه أن السهام بالردى مفرقة
والحرب دونها العقال مطلقه وخالد من دينه على ثقفه
رضى الله عنه.

الزبير بن العوام^(٢) رضى الله عنه حوارى رسول الله ﷺ وابن عمته بطل شجاع لا يمارى، وشهم لا يجارى. قتله عمرو ابن جرموز، اغتاله وهو فى الصلاة.

عمرو بن معديكرب الزبيدي^(٣) فارس من فرسان الجاهلية، وله مواقف مذكورة، ومواطن مشهورة، وأسلم ثم ارتد، ثم عاد إلى الإسلام، وشهد حروب الفرس، وكان له فيها أفعال عظيمة، وأحوال جسيمة، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا رآه قال: الحمد لله الذى خلقنا وخلق عمرأ. روى عنه رضى الله عنه أنه سأله يوماً، فقال له: يا عمرو أى السلاح أفضل فى الحرب؟ قال: فعن أيها تسأل؟ قال: ما تقول فى السهام؟ قال: منها ما يخطىء ويصيب، قال: فما تقول فى الرمح؟ قال: أخوك وربما خانك. قال: فما تقول فى الترس؟ قال: هو الدائر، وعليه تدور الدوائر، قال: فما تقول فى السيف؟ قال: ذلك العدة عند الشدة. وقيل: إنه نزل يوم القادسية على النهر، فقال لأصحابه: إننى عابر على هذا الجسر قال: فإن أسرعتم مقدار جزر الجزور وجدتمونى وسيفى بيدي أقاتل به تلقاء وجهى، وقد عرفنى القوم، وأنا قائم بينهم. وإن بطأتم وجدتمونى قتيلاً بينهم. ثم انغمس فحمل على القوم، فقال بعضهم لبعض: يا بنى زبيد علام تدعون صاحبكم، والله ما نظن أنكم تدركونه حياً، فحلوا فانتهاوا إليه، وقد صرع عن فرسه، وقد أخذ برجل فرس رجل من العجم، فأمسكها والفارس يضرب فرسه، فلم تقدر أن تتحرك، فلما رأنا أدركناه رمى الرجل نفسه وخلقى فرسه، فركبه عمرو وقال: أنا أبو ثور كدتم والله تفقدوننى. فقالوا: أين فرسك؟ فقال: رمى بنشابة، فغار وشب فصرعنى. ويروى أنه حمل يوم القادسية على رستم وهو الذى كان قدمه يزدجرد ملك الفرس يوم

(١) خالد بن الوليد: انظر ترجمته فى (الإصابة) ترجمة (٢٢٠١).

(٢) الزبير بن العوام: انظر ترجمته فى (الإصابة) ترجمة (٢٧٨٩).

(٣) عمرو بن معد يكرب: انظر (الإصابة) ترجمة (٥٩٧٠).

القادسية على قتال المسلمين، فاستقبله عمرو وكان رستم على فيل، فضرب عمرو الفيل، فقطع عرقوبه، فسقط رستم وسقط الفيل عليه مع خرج كان فيه أربعون ألف دينار، فقتل رستم وانهزمت العجم. وقتل عمرو بنهاوند في وقعة الفرس بعد أن عمر حتى ضعف وكان من الشعراء المعدودين، وفيه يقول العباس بن مرداس:

إذا مات عمرو قلت للخيل أوطئى زيئداً فقد أودى بنجدها عمرو

ومنهم طلحة الأسدي^(١) رضى الله عنه، كان من أكبر الشجعان جاهلية وإسلاماً، ثم ارتد وتبأ، وجمع جمعاً عظيماً، ففل خالد بن الوليد جمعه وكان يتكهن، ثم عاد إلى الإسلام، وشهد حرب القادسية وغيرها من الفتوح. والمقداد بن الأسود^(٢) رضى الله عنه كان من أشجع الفرسان شديد البأس قوى الجنان رابط الجأش، وله في الشجعان اسم مشهور ووصف مذكور يعجز الواصف عن وصف صفاته رضى الله عنه وأرضاه. وسعد بن أبي وقاص^(٣) الزهرى الأنصارى رضى الله عنه كان فارساً بطلاً رامياً، وهو أول من رمى في سبيل الله بسهم، ولما قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه اعتزل، ولم يشهد الحرب بعده ومات حتف أنفه. أبو دجانة الأنصارى رضى الله عنه الذى خرج يتبخر بين الصفين، فقال عليه الصلاة والسلام: إنها لمشية يبغضها الله تعالى إلا في هذا الموضع. والمثنى بن حارثة الشيباني رضى الله عنه هو أول من فتح حرب الفرس. وأبو عبيد بن مسعود الثقفى رضى الله عنه، قاتل القوم يوم قس الناطف في حرب القادسية. وعمار بن ياسر رضى الله عنه صاحب رسول الله ﷺ الذى قال فيه رسول الله ﷺ: «الحق يدور مع عمار حيث دار»، وأخبر أنه تقتله الفتنة الباغية، فقتل بصفين مع على رضى الله عنه. هاشم بن عتبة رضى الله عنه من أكابر الشجعان، صاحب راية على رضى الله عنه بصفين. مالك بن الحارث النخعى الأشتر رضى الله عنه، مات مسموماً في شربة من عسل، فقال معاوية: إن لله جنوداً منها العسل. القعقاع بن عمرو طاعن الفيل في عشية القادسية رضى الله عنه.

الطبقة الثانية: عبد الله بن الزبير بن العوام رضى الله عنه، قاتل جرجير ملك أفريقية الذى كان يرى أنه أشجع أهل عصره. قال عمر بن عبد العزيز لابن أبي مليكة: صف لى عبد الله بن الزبير، فقال: والله ما رأيت جلدأ قط ركب على لحم ولا لحماً على عصب ولا عصباً على عظم مثل جلده، ولحمه وعصبه، ولا رأيت نفساً بين جنين مثل نفس ركب بين جنبيه. ولقد قام يوماً إلى الصلاة، فمر حجر من حجارة المنجنيق بين لحييه وصدريه، فوالله ما خشع له بصره وقطع له قراءته، ولا ركع دون الركوع الذى كان يركع. قتله الحجاج بعد أن حوضر بمكة، وأسلمه أصحابه وعشيرته وصلبه الحجاج، ألا إلى الله تصير الأمور.

أبو هاشم محمد بن على بن أبى طالب بن الحنفية رضى الله عنه، كان أبوه يلقيه في الوقائع ويتقى به العظام، وهو شديد البأس، ثابت الجنان، قيل له يوماً: ما بال أمير المؤمنين على كرم الله وجهه يقحمك الحروب دون الحسن والحسين رضى الله عنهما؟ فقال: لأنهما كانا عينيّه وكنت أنا يديه، فكان يتقى عينيّه بيديه. وقيل: إن أباه علياً رضى الله عنه اشترى درعاً فاستطالها، فأراد أن يقطع منها، فقال له محمد: يا أبت علم موضع القطع، فعلم على موضع منها، فقبض محمد بيده اليمنى على ذيلها، وبالأخرى على موضع العلامة، ثم جذبها، فقطعها من الموضع الذى حده أبوه. وكان عبد الله بن الزبير مع تقدمه في الشجاعة يحسده على قوته، وإذا حدث بهذا الحديث غضب. مات حتف أنفه بشعب رضوى. عبد الله بن حازم السلمى رضى الله عنه والى خراسان شجاع مضر وفارسها في عصره، قتله وكيع بن أبى سويد بخراسان في الفتنة. وكيع بن أبى سويد قاتل عبد الله بن حازم المتقدم ذكره، شجاع فاتك أهوج ولى خراسان. قيل: لما قتل عبد الله بن حازم، ولم يتم أمره لهوجه مات حتف أنفه. مصعب بن الزبير بن العوام شجاع بطل جواد، جاد بماله وبنفسه، قتله عبيد الله بن زياد في الحروب التى كانت بينه وبين عبد الملك بن مروان. عمير بن الحباب السلمى فارس الإسلام قتله بنو تغلب في الحرب التى كانت بينهم وبين قيس. مسلمة بن عبد الملك بن مروان فحل بنى أمية وفارسها ووالى حروبها، قيل: إنه جلس يوماً ليقضى بين الناس بمصر، فكلمته امرأة، فلم يقبل عليها،

(١) طلحة الأسدي: هو طلحة بن أسد بن عبد الله المختار أبو محمد الرقى. انظر ترجمته في (تاريخ مدينة دمشق) لابن عساكر (٥٢١/٨).

(٢) المقداد بن الأسود: هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن الأسود. انظر ترجمته في (الإصابة) (٤٥٤/٣) ترجمته (٨١٨٣).

(٣) سعد بن أبى وقاص: هو سعد بن مالك أبى وقاص بن أهيب أبو إسحاق الزهرى الصحابى أحد العشرة المبشرين بالجنة. انظر ترجمته في (الإصابة)

(٣٣/٢) ترجمة (٣١٩٤).

فقلت: ما رأيت أقل حياء من هذا قط، فكشف عن ساقه فلماذا فيها أثر تسع طعنات. فقال لها: هل ترين أثر هذا الطعن، والله لو أخرت رجلى قيد شبر ما أصابتنى واحدة منهن، وما منعنى من تأخيرها إلا الحياء، وأنت تنحلينى قلته. المعتصم بطل شجاع، فارس صنديد لم يكن فى بنى العباس أشجع منه ولا أشد قلباً. قال ابن أبى داود: كان المعتصم يقول لى: يا أبا عبد الله عض على ساعدى بأكثر قوتك، فأقول والله يا أمير المؤمنين ما تطيب نفسى بذلك، فيقول: إنه لا يضرنى فأروم ذلك، فلماذا هو لا تعمل فيه الأسنة، فكيف تعمل فيه الأسنان، ويقال: إنه طعنه بعض الخوارج، وعليه درع، فأقام المعتصم ظهره فقصم الرمح نصفين. وكان يشد يده على كتابة الدينار فيمحوها، ويأخذ عمود الحديد فيلويه حتى يصير طوقاً فى العنق.

إبراهيم بن الأشتر النخعى^(١) كان من الشجعان المعدودين، حارب عبيد الله بن زياد وهو فى أربعة آلاف، وعبيد الله فى سبعين ألفاً، فظفر به وقتله بيده وهزم جيشه. عبد الله بن الحر الجعفى، شجاع شاعر فائق له وقائع عظيمة هائلة، وأخباره فى الشجاعة مشهورة. جحدر بن ربيعة العكلى^(٢)، كان بطلاً شجاعاً فاتكاً مغيراً شاعراً، قهر أهل اليمامة، وأبادهم، فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف، فكتب إلى عامله يوبخه بتغلب جحدر عليه، ويأمر بالتجرد له حتى يقتله، أو يحمله إليه أسيراً، فوجه العامل إليه فتية من بنى حنظلة، وجعل لهم جعلاً عظيماً إن هم قتلوا جحدر أو أتوا به أسيراً، فتوجه الفتية فى طلبه حتى إذا كانوا قريباً منه أرسلوا يقولون له: إنهم يريدون الانقطاع إليه والارتفاق به، فوثق بذلك منهم، وسكن إلى قولهم، فبينما هو معهم يوماً إذا وثبوا عليه فشدوه وثاقاً، وقدموا به على العامل، فوجه به إلى الحجاج معهم، فلما قدموا به عليه ومثل بين يديه قال له: أنت جحدر؟ قال: نعم. أصلح الله الأمير. قال: ما جراك على ما بلغنى عنك؟ قال: أصلح الله الأمير: كلب الزمان، وجفوة السلطان وجرأة الجنان. قال: وما بلغ من أمرك؟ قال: لو ابتلانى الأمير، وجعلنى مع الفرسان لرأى منى ما يعجبه، قال: فتعجب الحجاج من ثبات عقله، ومنطقه، ثم قال: يا جحدر إنى قاذف بك فى حاجر فيه أسد عظيم، فإن قتلك كفانا مؤنتك، وإن قتلتك عفونا عنك. قال: أصلح الله الأمير قرب الفرج إن شاء الله تعالى فأمر به، فصفدوه بالحديد، ثم كتب إلى عامله أن يرتاد له أسداً ويحمله إليه، فتحيل العامل وارتاد له أسداً كان كاسراً خبيثاً قد أفنى عامة المواشى، فتحيلوا حتى أخذوه وصيروه فى تابوت وسحبوه على عجل، فلما قدموا به على الحجاج أمر به فألقى فى الحاجر ولم يطعم شيئاً ثلاثة أيام حتى جاع واستكلب، ثم أمر بجحدر أن ينزلوه إليه، فأعطوه سيفاً وأنزلوه إليه مقيداً، وأشرف الحجاج والناس حوله ينظرون إلى الأسد ما هو صانع بجحدر، وهو ينشد ويقول:

ليث وليث فى مـجـال ضنك كلاهما ذو قوة وسفك
وصولة وبطشة وفـتـك إن يكشف الله قناع الشك
فأنت لى فى قبضتى وملكى

ثم دنا منه وضربه بسيفه ففلق هامته، فكبر الناس وأعجب الحجاج ذلك، وقال: لله درك ما أنجبك، ثم أمر به، فأخرج من الحاجر وفك عنه قيوده وقال له: اختر إما أن تقيم معنا فنكرمك، ونقرب من منزلتك وإما أن نأذن لك، فتلحق ببلادك وأهلك على أن تضمن لنا أن لا تحدث بها حدثاً، ولا تؤذى بها أحداً، قال: بل أختار صحبتك أيها الأمير، فجعله من سماره وخواصه، ثم لم يلبث أن ولاه على اليمامة. وكان من أمره ما كان. المهلب بن أبي صفرة كان من الشجعان، ومن الأبطال المألوفة، وأولاده كلهم أنجاد أبطال إلا أن المغيرة من بينهم كان أشد تمكناً، وكان المهلب يقول: ما شهد معى المغيرة حرباً إلا رأيت البشرى فى وجهه، وحمل عليه بعض الشجعان، وفى يديه شجرة، فلما رآها نكس رأسه على قربوس السرج، وحمل من تحتها فبراها بسيفه. وكان المهلب يقول: أشجع الناس ثلاثة: ابن الكلية، وأحمر قریش، وراكب البغلة، فابن الكلية مصعب بن الزبير، وأحمر قریش عمر بن عبيد الله بن معمر ما لقي خيلاً قط إلا فرقها. وراكب البغلة عباد بن الحصين ما كان قط فى كربة إلا فرجها وهو من فرسان الإسلام. وكان للمهلب

(١) إبراهيم بن الأشتر: هو إبراهيم بن مالك بن الحارث النخعى. انظر (سير أعلام النبلاء) للذهبي (٣٥/٤) ترجمة (٧).

(٢) جحدر بن ربيعة: هو جحدر العكلى، شاعر من أهل اليمامة كان أيام الحجاج بن يوسف يقطع الطريق وينهب الأموال ما بين حجر واليمامة توفى سنة (١٠٠هـ).

فى الحروب مكايـد مشهورة ووقائعـه أبادت الخوارج بعد أن كانوا قد استولوا على المسلمين، وكان سيداً كريماً، مات حتف أنفه، وكذلك ابنه المغيرة، وفيه يقول زياد الأعجم:

مات المغيرة بعد طول تعرض للقتل بين أسنة وصفائح

وكان فى الخوارج فوارس مشهورة لا تثبت لهم الرجال، وذكرهم يطول، ويخرج عما أردناه. فمنهم: أبو بلال مرداس خرج فى أربعين فهزم ألفين وشيـب الخارجي الذى غرق فى الفرات، نذرت امرأته غزاة أن تصلى فى جامع الكوفة ركعتين تقرأ فى الأولى البقرة وفى الثانية آل عمران، فعبر بها جسر الفرات وأدخلها الجامع، ووقف على بابه يحميها حتى وفـت بنذرهما، والحجاج فى الكوفة فى خمسين ألفاً. ومنهم قطرى بن الفجاءة كان رأس الخوارج، وخاطبوه بأمر المؤمنين، وعظموه وبجلوه، وأشعاره فى الشجاعة تدل على مكانه منها، قتل فى بعض وقائع الخوارج.

الطبقة الثالثة: معن بن زائدة الشيباني قتله الخوارج بسجستان فى أيام المهدي. الوليد بن طريف الشيباني قتله يزيد بن مزيد. عمرو بن حنيف كان من الفرسان المـعدودة، نقل عنه أنه كان يتصيد، فتبع حمام وحش وما زال يركض إلى أن حاذاه، فجمع رجله ووثب من على فرسه وصار على ظهر حمام الوحش، وصار يحز عنقه بسيف أو سكين فى يده حتى قتله. أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي فارس بطل شاعر نديم جامع لما تفرق فى غيره، طعن فارسين رديفين، فأنفذ الرمح من ظهريهما، وحمل برمحه أربعة نفر، وفيه يقول بكر بن النطاح:

قالوا وينظم فارسين بطعنة يوم اللقاء ولا يراه جليلاً

لا تعجبوا لو كان مدقناته ميلاً إذا نظم الفوارس ميلاً

وسأله يوماً رجل شيئاً، فقال له: أتسأل وجدك القاتل:

ومن يفتقر منا يعش بحسامه ومن يفتقر من سائر الناس يسأل

وإننا لنلهو بالسيف كما لهت فتاة بعقد أو سحاب قرنفل

فخرج الرجل، فجرد سيفه، فلم يصادفه فى طريقه إلا وكيل لأبى دلف ومعه مال جزيل، فاستلبه منه وقتله، فبلغ الخبر أبا دلف فقال: دعوه، فإننى علمته فى نفسى. بكر بن النطاح بطل شجاع فارس فاتك له أشعار مشهورة، وأخبار مذكورة.

ومما جاء فى مدح السيف: قال رسول الله ﷺ: «الخير فى السيف والخير مع السيف والخير بالسيف». وكان صمصام عمرو أشهر سيوف العرب، ومن تمثل به نهشل، فقال:

أخ ماجد ما خاننى يوم مشهد كما سيف عمرو لم تخنه مضاربه

ولما وهبه عمرو لخالد بن سعيد بن العاص عامل رسول الله ﷺ على اليمن قال:

خليلى لم أخنه ولم يخنى إذا صاب أوساط العظام

خليلى لم أهبه من قـلاه ولكن المواهب للكرام

حبوت به كريماً من قریش فسـر به وصين عن اللثام

وودعت الصفى صفى نفسى على الصمصام أضعاف السلام

ولم يزل فى آل سعيد حتى اشتراه خالد بن عبد الله القسرى بـمال جزيل لهشام، وكان قد كتب إليه فيه، فلم يزل عند بنى مروان، ثم طلبه السفاح والمنصور والمهدي، فلم يجده، فجد الهادى فى طلبه حتى ظفر به، وكان مكتوباً عليه هذا البيت:

ذَكَرَ عَلَى ذَكَرٍ يَصُولُ بِصَارِمٍ

ذَكَرَ يَمَانُ فِي يَمِينِ يَمَانِي

وقال ابن الرومي:

لَمْ أَرْ شَيْئاً حَاضِراً نَفَعَهُ
يَقْضِي لَهُ الدَّرْهَمُ حَاجَاتِهِ

لِلْمَرْءِ كَالدَّرْهَمِ وَالسَّيْفِ
وَالسَّيْفِ يَحْمِيهِ مِنَ الْحَافِ

وقال زيد بن علي رضي الله عنهما:

السَّيْفُ يَعْرِفُ عِزْمِي عِنْدَ هِزَّتِهِ
إِنَّا لَنَأْمَلُ مَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا

وَالرَّمْحُ بِي خَبِيرٌ وَاللَّهُ لِي وَرَرٍ
مَنْ قَبْلَ تَأْمَلِهِ إِنْ سَاعَدَ الْقَدَرُ

وقال عبد الله بن طاهر:

يَبِيتُ ضَجِيعِي السَّيْفُ طَوْرًا وَتَارَةً
أَخُو ثِقَةٍ أَرْضَاهُ فِي الرُّوعِ صَاحِبًا
وَلَيْسَ أَخُو الْعُلِيَاءِ إِلَّا فَتًى لَهُ

يَعُضُ بِهَامَاتِ الرِّجَالِ مَضَارِبَهُ
وَفَوْقَ رِضَاهِ أَتْنِي أَنَا صَاحِبُهُ
بِهَا كَلَفٌ مَا تَسْتَقِرُّ رِكَائِبُهُ

وقدم عروة بن الزبير على عبد الملك بن مروان بعد قتل أخيه عبد الله، فطلب منه سيف الزبير، وقال له: رده على، فإنه السيف الذي أعطاه رسول الله ﷺ له يوم حنين، فقال له عبد الملك: أوتعرفه؟ قال: نعم. قال: بماذا؟ قال: أعرفه بما لا تعرف به سيف أبيك. أعرفه بقول الشاعر:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سَيُوفُهُمْ

بِهَنْ فَلَوْلَ مِنْ قَرَاعِ الْكَتَائِبِ

وقال الأجدع الهمداني:

لَقَدْ عَلِمْتُ نَسْوَانَ هَمْدَانَ أَتْنِي
وَأَبْذُلُ فِي الْهَيْجَاءِ وَجْهِي وَإِنِّي

لَهَنْ غِلْدَاةَ الرُّوعِ غَيْرَ خَذُولٍ
لَهُ فِي سَوَى الْهَيْجَاءِ غَيْرَ بَذُولٍ

وقال آخر:

عَشْرُونَ أَلْفَ فَتًى مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ
رَاحَتْ مَزَاوِدُهُمْ مَمْلُوءَةً أَمْلاً

إِلَّا كَأَلْفِ فَتًى مَقْدَامَةً بَطْلٍ
فَفَرَّغُوا وَأَوْكُوا مِنَ الْأَجْلِ

ومن أخبار الشجعان ما حكاه الفضل بن يزيد: قال: نزل علينا بنو ثعلب في بعض السنين، وكنت مشغولاً بأخبار العرب أن أسمعها وأجمعها، فبينما أنا أدور في بعض أحيائهم إذا أنا بامرأة واقفة في فناء خبائها، وهي آخذة بيد غلام قلما رأيت مثله في حسنه وجماله، له ذؤابتان كالسبع المنظوم، وهي تعاتبه بلسان رطب وكلام عذب تحن إليه الأسماع وترتاح له القلوب، وأكثر ما أسمع منها أي بني، وهو يتسم في وجهها قد غلب عليه الحياء والخجل، كأنه جارية بكر

لا يرد جواباً. فاستحسنت ما رأيت، واستحلّيت ما سمعت، فدنوت منه وسلمت، فرد على السلام، فوقفت أنظر إليها، فقالت: يا حضري ما حاجتك؟ فقلت: الاستكثار مما أسمع والاستمتاع بما أرى من هذا الغلام. فقالت: يا حضري إن شئت سقت إليك من خبره ما هو أحسن من منظره، فقلت: قد شئت يرحمك الله. فقالت: حملته والرزق عسر، والعيش نكد حملاً خفيفاً حتى مضت له تسعة أشهر، وشاء الله عز وجل أن أضعه، فوضعتة خلقاً سوياً، فوربك ما هو إلا أن صار ثالث أبويه حتى أفضل الله عز وجل، وأعطى وأتى من الرزق بما كفى وأغنى، ثم أرضعته حولين كاملين، فلما استتم الرضاع نقلته من خرق المهد إلى فراش أبيه، فربى كأنه شبل أسد أقيه برد الشتاء، وحر الهجير، حتى إذا مضت له خمس سنين أسلمته إلى المؤدب، فحفظه القرآن فتلاه، وعلمه الشعر فرواه، ورغب في مفاخر قومه وآبائه وأجداده، فلما أن بلغ الحلم واشتد عظمه وكمل خلقه حملته على عتاق الخيل فتفرس وتمرس ولبس السلاح ومشى بين بويات الحى الخيلاء، فأخذ في قرى الضيف وإطعام الطعام، وأنا عليه وجلّة أشفق عليه من العيون أن تصيبه، فاتفق أن نزلنا بمنهل من المناهل بين أحياء العرب، فخرج فتیان الحى فى طلب ثأر لهم، وشاء الله تعالى أن أصابته وعكة شغلته عن الخروج، حتى إذا أمعن القوم، ولم يبق فى الحى غيره، ونحن آمنون وادعون، ما هو إلا أن أدبر الليل وأسفر الصباح حتى طلعت علينا غرر الجياد وطلائع العدو، فما هو إلا هنيهة حتى أحرزوا الأموال دون أهلها، وهو يسألنى عن الصوت، وأنا أستر عنه الخبر إشفافاً عليه وضناً به، حتى إذا علت الأصوات وبرزت المخدرات رمى دثاره وثار كما يشور الأسد، وأمر بإسراج فرسه، ولبس لأمة حربه، وأخذ رمحه بيده ولحق حماة القوم، فطعن أدناهم منه فرمى به، ولحق أبعدهم منه فقتله، فانصرفت وجوه الفرسان، فأرأوه صبيّاً صغيراً لا مدد وراءه فحملوا عليه، فأقبل يؤم الييوت، ونحن ندعو الله عز وجل له بالسلامة، حتى إذا مدهم وراءه وامتدوا فى أثره عطف عليهم، ففرق شملهم وشئت جمعهم، وقلل كثرتهم ومزقهم كل ممزق، ومرق كما يمرق السهم، وناداهم: خلوا عن المال، فوالله لا رجعت إلا به، أو لأهلكن دونه، فانصرفت إليه الأقران، وتمايلت نحوه الفرسان، وتميزت له الفتیان، وحملوا عليه وقد رفعوا إليه الأسنة، وعطفوا عليه بالأعنة، فوثب عليهم وهو يهدر كما يهدر الفحل من وراء الإبل، وجعل لا يحمل على ناحية إلا حطمها، ولا كتيبة إلا مزقها حتى لم يبق من القوم إلا من نجا به فرسه، ثم ساق المال، وأقبل به، فكبر القوم عند رؤيته، وفرح الناس بسلامته، فوالله ما رأينا قط يوماً كان أسمع صباحاً وأحسن رواحاً من ذلك اليوم، ولقد سمعته يقول فى وجوه فتیان الحى هذه الأبيات:

إذا حشرجت نفس الجبان من الكرب
من الخوف مسلوب العزيمة والقلب
من السمهرى اللدن والمرهف العضب
سليل المعالى والمكارم والسبيب
وطرف قوى الظاهر والجوف والجنب
جبال الرواسى لانحططن إلى الترب
وبيت شريف فى ذرى ثعلب الغلب
لكن وأحمى يكن بالطعن والضرب
يهينيه بالفارس البطل النذب

تأملن فعلى هل رأيتن مثله
وضاقت عليه الأرض حتى كأنه
ألم أعط كلا حقه ونصيبه
أنا ابن أبى هند بن قيس بن مالك
أبى لى أن أعطى الظلامه مرهف
وعزم صحيح لو ضربت بحده الـ
وعرض نقى أتقى أن أعيبه
فلن لم أقاتل دونكن وأحتمى
فلا صدق اللاتى مشين إلى أبى

وقال الشاعر:

آراؤهم ووجوههم وسيوفهم فى الحوادث إذا دجون نجوم
منها معالم للهدى ومصباح تجلو الدجى والأخريات نجوم

وقال آخر:

فوارس قـوالون للخيل اقـدمى وليس على غير الرؤوس مجال
بأيديهم سـمر العـوالى كـأفـما تشب على أطرافهن ذبال

وقال آخر:

قوم إذا اقتحموا العجاج رأيتهم شمساً وخت وجوهم أقمارا
لا يعدلون برفدهم عن سائل عدل الزمان عليهم أو جارا
وإذا الصريرخ دعاهم للممة بذلوا النفوس وقارقوا الأعمارا

ذكر الجبن والجبناء وأخبارهم وما جاء عنهم

قد استعاذ سيدنا رسول الله ﷺ من الجبن، فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال» نعوذ بالله مما استعاذ منه سيد الخلق رسول الله ﷺ ويكفيك أن يقال فى وصف الجبان، إن أحس بعصفور طار فؤاده، وإن طنت بعوضة طال سهاده، يفزع من صرير الباب، ويقلق من طنين الذباب، إن نظر إليه شراً أغمى عليه شهراً يحسب خفوق الرياح قعقة الرماح، قال الشاعر:

إذا صوت العصفور طار فؤاده وليث حديد الناب عند الثرائد

وكان حسان بن ثابت^(١) رضى الله عنه من الجبناء^(٢)، روى عن ابن الزبير أنه قال: كان حسان فى قاع أطم مع النساء يوم الخندق، فأتاهم فى ذلك اليوم يهودى يطوف بالحصن، فقالت صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها: يا حسان إن هذا اليهودى كما ترى يطوف بالحصن، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءه من اليهود، فانزل إليه فاقتله. فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قال: فاعتجرت صفية، ثم أخذت عموداً ونزلت من الحصن، فضربت بالعمود حتى قتلتها، ورجعت إلى الحصن، فقالت: يا حسان قم إليه فاسلبه، فإنه ما منعنى من سلبه إلا أنه رجل، فقال: ما لى بسلبه من حاجة.

وقيل: كان لفتى من قریش جارية مليحة الوجه حسنة الأدب، وكان يحبها حباً شديداً، فأصابته إضاقة وفاقة، فاحتاج إلى ثمنها، فحملها إلى العراق، وكان ذلك فى زمن الحجاج بن يوسف، فابتاعها منه الحجاج فوقعته منه بمنزلة، فقدم عليه فتى من ثقيف من أقاربه، فأنزله قريباً منه، وأحسن إليه، فدخل على الحجاج، والجارية تكبسه، وكان

(١) حسان بن ثابت: هو حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجى الأنصارى، أبو وليد الصحابى المشهور، شاعر رسول الله ﷺ، من المخضرين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام عاش ستين سنة فى الجاهلية، ومثلها فى الإسلام، وشاعر شديد الهجاء، فحل الشعراء توفى فى المدينة سنة (٥٤هـ-٦٧٤م).

(٢) تعليق: أن يوصف حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ بالجبن أمر لا يصح، فهو صحابى جليل القدر، جليل المكانة، بل والافطع أن يضرب به المثل فى الجبن، وهذا أمر لا يجوز، وخاصة أن الرواية لم تصح وأن الصحابى كان قد أصيب بعلّة منته من التصرف كيف شاء. قال ابن الكلبي: كان حسان لسنّاً شجاعاً، فأصابته علة أحدثت فيه الجبن.

الفتى جميلاً، فجعلت الجارية تسارقه النظر، ففطن الحجاج بها، فوهبها له، فأخذها وانصرف، فباتت معه ليلتها وهربت بغلس فأصبح لا يدرى أين هي وبلغ الحجاج ذلك، فأمر منادياً أن ينادى برئت الذمة ممن رأى وصيفة من صفتها كذا وكذا، أو لم يحضرها، فلم يلبث أن أتى له بها، فقال لها الحجاج: يا عدوة الله كنت عندى من أحب الناس إلى، فاخترت ابن عمى شاباً حسن الوجه، ورأيتك تسارقينه النظر، فعلمت أنك شغفت به، فوهبتك له، فهربت من ليلتك. فقالت له يا سيدى: اسمع قصتى، ثم اصنع بى ما شئت. قال: هاتى ولا تخفى شيئاً. قالت: كنت للفتى القرشى، فاحتاج إلى ثمنى، فحملنى إلى الكوفة، فلما قربنا منها دنا منى فوقع على، فسمع زئير الأسد، فوثب واخترط سيفه وحمل عليه، وضربه، فقتله، وأتى برأسه، ثم أقبل على وما برد ما عنده، ثم قضى حاجته، وإن ابن عمك هذا الذى اخترته لى لما أظلم الليل قام إلى، فلما علا بطنى وقعت فأرة من السقف، فضرط، ثم غشى عليه، فمكث زماناً طويلاً وأنا أرش عليه الماء، وهو لا يفيق، فخفت أن يموت، فتهمنى به، فهربت فرعاً منك. فما ملك الحجاج نفسه من شدة الضحك، وقال: ويحك اكتمى هذا ولا تعلمى به أحداً. قالت: على أن لا تردنى إليه. قال: لك ذلك.

وحدث جابر لأبى حنيفة النميرى قال: كان لأبى حنيفة سيف ليس بينه وبين العصا فرق، وكان يسميه لعاب المنية، فأشرفت عليه ذات ليلة وقد انتضاه، وهو واقف على باب بيته، وقد سمع حساً فى داره، وهو يقول: أيها المغتر بن المجترى علينا بشس والله ما اخترت لنفسك خير قليل، وسيف صقيل، وهو لعاب المنية الذى سمعت به. اخرج بالعفو عنك قبل أن أدخل بالعقوبة عليك، ثم فتح الباب على وجل، فإذا كلب قد خرج، فقال: الحمد لله الذى مسخك كلب وكفانا حرباً. وخرج المعتصم يوماً إلى بعض متصيداته، فظهر له أسد، فقال لرجل من أصحابه أعجبه قوامه وسلاحه وتما خلقه: أفيك خير يا رجل؟ قال: لا، فضحك المعتصم، وقال: قبح الله الجبان. ورأى الإسكندر سميماً له لا يزال ينهزم، فقال له: يا رجل إما أن تغير فعلك، وإما أن تغير اسمك. ووقع فى بعض العساكر ضجة، فوثب خراسان إلى دابته ليلجمها، فصير اللجام فى الذنب من الدهش، وقال يخاطب الفرس: هب جبهتك عرضت، فनावيتك كيف طالت.

وخرج أسلم بن زرعة الكلابى فى ألفين لمحاربة أبى بلال مرداس، وكان مرداس فى أربعين، فانهزم أسلم منه فلاموه على ذلك، وذمه ابن أبى زياد، فقال: لأن يذمنى ابن أبى زياد حياً أحب إلى من أن يمدحنى ميتاً. وكان أسد بعد ذلك إذا خرج إلى السوق ومر بصبيان صاحوا به أبو بلال وراءك، فكبر ذلك عليه، فشكاهم إلى ابن أبى زياد، فأم صاحب الشرطة أن يكفهم عنه. وفى ذلك يقول بعضهم شعراً:

يقول جبان القوم فى حال سكره	وقد شرب الصهباء هل من مبارز
وإين الخيول الأعوجيات فى الوغى	أنازل منهم كل ليص مناهز
ففى السكر قيس وابن معدى وعامر	وفى الصحو تلقاء كبعض العجائز

هذا ما انتهى إلينا من هذا الباب، والحمد لله الكريم الوهاب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطاهرين، والحمد لله رب العالمين.

فى المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة وفيه فصول

الفصل الأول: فى المدح والثناء

المدح وصف الممدوح بأخلاق يمدح عليها صاحبها، يكون نعتاً حميداً، وهذا يصح من المولى فى حق عبده، فقد قال الله تعالى فى حق نبيه أيوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]. وقال تعالى لنبى محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢]. فعلى هذا يجوز مدح الإنسان بما فيه من الأخلاق الحميدة، وأما قوله ﷺ: «إذا رأيتم المادحين فاحثوا فى وجوههم التراب» فقد قال العتبى: هو المدح الباطل والكذب، وأما مدح الرجل بما فيه فلا بأس به وقد مدح أبو طالب والعباس وحسان وكعب وغيرهم رسول الله ﷺ ولم يبلغنا أنه حثا فى مادح تراباً، وقد مدح هو ﷺ المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم. وفى حثو التراب معنيان، أحدهما: التغليظ فى الرد عليه، والثانى: كأنه يقال: له يكفيك التراب. وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه إذا مدح قال: اللهم أنت أعلم بى من نفسى، وأنا أعلم بنفسى منهم، اللهم اجعلنى خيراً مما يحسبون، واغفر لى ما لا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون. ومدح سارية الدبلى رسول الله ﷺ وهو سارية الذى أمره عمر رضى الله عنه على السرية، وناداه فى خطبته بقوله: يا سارية الجبل، فمن مدحه فى رسول الله ﷺ قوله:

فما حملت من ناقةٍ فوق ظهرها أبر وأوفى ذمة من محمد

وهو أصدق بيت قالته العرب، ومن أحسن ما مدحه به حسان رضى الله عنه قوله:

وأحسن منك لم تر قط عيني وأجمل منك لم تلد النساءُ
خلقت مبرراً من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

ومن أحسن ما مدحه به عبد الله بن رواحة الأنصارى رضى الله عنه قوله:

لو لم تكن فيه آياتٌ مبينةٌ كانت بديهة تنبيك بالخير

ولما حججت وزرته ﷺ، تطلعت على جنبه المعظم وامتدحته بأبيات مطولة، وأنشدتها بين يديه بالحجرة الشريفة تجاه الصندوق الشريف وأنا مكشوف الرأس، وأبكى من جملتها:

يا سيد السادات جئتكَ قاصداً أرجو رضاك وأحتمى بحماكا
والله يا خير الخلائق إن لى قلباً مشوقاً لا يروم سواكا
وَوَحَى جِـاهَكَ إِنـنـى بـكَ مـغـرـم والله يعلم أننى أهواكـا
أنت الذى لولاك ما خلقَ امرؤ كلاً ولا خلق الورى لولاكـا
أنت الذى من نورك البدر اكتسى والشمس مشرقاً بنور بهاكـا
أنت الذى لما رفعت إلى السما بك قد سمت وتزينت لسراكـا

أنت الذي ناداك ربك مـرحـبـا
أنت الذي فـينا سـألت شـفـاعـة
أنت الـذى لـما تـوسـل آدم
وبك الخليل دـعا فـعـادت نـاره
ودعـاك أيوب لـضـرـمـسـه
وبك المـسيح أتى بشـيرـا مـخـبرـا
وكـذاك مـوسى لـم يـزل مـتـوسـلا
والأنبياء وكلٌ خـلق فى الـورى
لك مـعـجـزات أعـجـزت كل الـورى
نطق الذراع بـسـمـة لك مـعلـنا
والذئب جـاءك والغـزالـة قـد أتت
وكـذا الوحوش أتت إليك وسلـمت
ودعوت أشـجارا أتتك مطيـعة
والماء فاض بـراحـتيك وسـبـحت
وعليك ظـللت الغـمامـة فى الـورى
وكـذاك لا أثرٌ لـشـيـك فى الثرى
وشـفيت ذا العـاهات من أـمـراضه
ورددت عين قـتـادة بـعد العـمى
وكـذا حبيبٌ وابن عـفـرا عـندما
وعلى من رـمـد به داويـتـه
وسألت ربك فى ابن جابر بـعدما
ومسست شاة لأم مـعـبد بـعدما
ودعوت عام المحل ربك مـعلـنا
ودعوت كل الخلق فـانـقـادوا إلى
وخـفضت دين الكـفر يا علم الـهدى
أعـداك عـادوا فى القـليب بـجـهـلهم
فى يوم بدرٍ قـد أتت مـلائك
والفتح جـاءك يوم فـتـحك مـكة
هوذا ويونس من بـهـاك تـجـمـلا
قـد فـقت يا طه جـمـيع الأنبيـا
والله يا ياسين مـشـلك لـم يـكن
عن وصفك الشـعـراء يا مـدثر
إنجيل عيسى قـد أتى بك مـخـبرـا

ولقد دعـاك لقـربـه وحبـاك
ناداك ربك لـم تـكن لـسـواك
من ذنبه بك فـازو هو أبـاك
برداً وقـد خـمدت بنور سـناك
فأزـيل عـنه الضـرحـين دـعاك
بـصـفات حـسـنك مادحـا لـعـلاك
بك فى القـيامـة مـرتـج لـنداك
والرسل والأـمـلاك تـحت لـواك
وفـضائل جـلت فـليس تـحاكى
والضـب قـد لـبـاك حـين أتاك
بك تـستـجـير وتـحـتمى بـحـمـاك
وشكا البـعـير إليك حـين رآك
وسـعت إليك مـجـيبـة لـنداك
صم الحـصى بالـفـضل فى يـمـناك
والجـذع حنّ إلى كـريم لـقاك
والصـخر قـد غـاصت به قـدمـاك
ومـلأت كل الأرض من جـدواك
وابن الحـصـين شـفـيته بـشـفاك
جرحا شـفـتيهما بـلمـس يـداك
فى خـيـبر فـشـفى بـطـيب لـماك
قـد مات أحياء وقـد أرضاك
نشفت فـدـرت من شـفا رـقـياك
فـانـهـل قطـر السـحب عـند دـعاك
دعـواك طـوعـا سـامـعـين نـداك
ورفعت دينك فـاسـتـقام هـناك
صرعى وقـد حـرموا الرضا بـجـفاك
من عـند ربك قـاتلت أعـداك
والنصر فى الأحزاب قـد وافاك
وجـمال يوسـف من ضـيـاء سـناك
نورا فـسـبـحـان الـذى سـواك
فى العـالمين وحق من نبـاك
عـجزوا وكـلوا عن صـفات عـلاك
وأتى الكـتـاب لـنا بـمدح حـلاك

ماذا يقول المادحون وما عسى
والله لو أن البحار مدادهم
لم تقدر الثقلان تجمع ذرة
لى فيك قلب مغرم يا سيدى
فإذا سكت ففبك صمتى كله
وإذا سمعت فعنك قولاً طيباً
يا مالكى كن شافعى من فاقتى
يا أكرم الثقلين يا كثر الورى
أنا طامع فى الجود منك ولم يكن
فعساك تشفع فيه عند حسابه
ولأنت أكرم شافع ومشفع
فاجعل قرأى شفاعته لى فى غدٍ
صلى عليك الله يا خير الورى
وعلى صحابتك الكرام جميعهم

أن يجمع الكتاب من معناك
والعشب أقلام جعلن لذكاء
أبدأ وما استطاعوا له إدراكاً
وحشاشة محشوة بهواك
وإذا نطقت فمدح عليك
وإذا نظرت فلا أرى إلاك
إنى فقير فى الورى لغناك
جد لى بجودك وارضنى برضاك
لابن الخطيب من الأنام سواك
فلقد غدا مستمسكاً بعراك
ومن التجا لهماك نال وفاك
فعسى أرى فى الحشر تحت لواك
ما حن مشتاق إلى مثواك
والتابعين وكل من والاك

وماذا عسى أن يقول المادحون فى وصف من مدحه الله تعالى وأثنى عليه، وقد قال عليه السلام: «أنا سيد ولد آدم، ولا فخر»، والله لو أن البحار مداد، والأشجار أقلام، وجميع الخلائق كتاب لما استطاعوا أن يجمعوا التزير اليسير من بعض صفاته، ولكلوا عن الإتيان ببعض وصف معجزاته عليه السلام. ومدح رجل هشام بن عبد الملك، فقال له: يا هذا إنه قد نهى عن مدح الرجل فى وجهه، فقال: ما مدحتك، ولكن ذكركت نعم الله عليك لتجدد لها شكراً، فقال له هشام: هذا أحسن من المدح، ووصله وأكرمه. وكتب رجل إلى عبد الله بن يحيى بن خاقان: رأيت نفسى فيما أتعاطى من مدحك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر، والقمر الزاهر، وأيقنت أنى حيث انتهى من القول منسوب إلى العجز مقصر عن الغاية، فانصرفت عن الثناء عليك إلى الدعاء لك، ووكلت الإخبار عنك إلى علم الناس بك. وقال الحرث بن ريعة فى رجل من آل المهلب:

فتى دهره شطران فيمما ينويه ففى بأسه شطر وفى جوده شطر
فلا من بقاء الخير فى عينه قذى ولا من زئير الحرب فى أذنه وقى

وقال أعرابى لرجل: لا يذم بلد أنت تأويه، ولا يشتكى زمان أنت فيه. وكان الحجاج يستثقل زياد بن عمرو العكلى، فلما قدم على عبد الملك بن مروان قال: يا أمير المؤمنين إن الحجاج سيفك الذى لا ينبو، وسهمك الذى لا يطيش، وخادمك الذى لا تأخذه فيك لومة لائم، فلم يكن بعد ذلك على قلب الحجاج أخف منه. وقال رجل لآخر: أنت بستان الدنيا، فقال له: وأنت النهر الذى يسقى منه ذلك البستان. وقال رجل لأبى عمرو الزاهد صاحب كتاب الياقوتة فى اللغة: أنت والله عين الدنيا، فقال له: وأنت والله نور تلك العين. وقال القاسم بن أمية بن أبى الصلت الثقفى: (١)

(١) القاسم بن أمية: هو قاسم بن أمية بن أبى الصلت الثقفى، شاعر، ابن شاعر حكيم، من الطائفة يعد من الصحابة، عاش إلى ما بعد عثمان بن عفان، وورثاه، وله شعر فى مجالس ثعلب، والحماسة الصغرى وسمط الألى. توفى (بعد ٣٥هـ - بعد ٦٥٥م). انظر (الإصابة) (٣٠/ ٢٢٠) ترجمة (٧٠٥٠).

قَوْمٌ إِذَا نَزَلَ الْغَرِيبُ بَدَارَهُمْ
وَإِذَا دَعَوْتَهُمْ لِيَوْمٍ كَرِيهِةٍ
وَقَالَ أَوْسُ بْنُ حَاتِمٍ الطَّائِي:

فَإِنْ تَنَكَّحَى مَاوِيَةَ الْخَيْرِ حَاتِمًا
فَتَى لَا يَزَالُ الدَّهْرُ أَكْبَرَ هُمًّا
وَقَالَ ابْنُ حَمْدُونَ فِي آلِ الْمُهَلَّبِ:

آلُ الْمُهَلَّبِ مَعِشَرٌ أَمْجَادُ
شَادَ الْمُهَلَّبُ مَا بَنَى آبَاؤُهُ
وَكُنَّا مِنْ طَابِتٍ مَغَارِسُ نَبْتِهِ

تَرْكُوهُ رَبًّا صَوَاهِلِي وَقِيَانِ
سَدُّوا شُعَاعَ الشَّمْسِ بِالْفَرَسَانِ

فَمَا مِثْلُهُ فِينَا وَلَا فِي الْأَعَاجِمِ
فِكَأُكُ أَسِيرٍ أَوْ مَعُونَةٍ غَارِمِ

وَرِثُوا الْمَكَارِمَ وَالْوَفَاءَ فَسَادُوا
وَأَتَى بَنُوهُ مَا بَنَاهُ فَشَادُوا
وَبَنَى لَهُ الْأَبَاءُ وَالْأَجْسَادُ

وَكَانَ الْفَرَزْدَقُ هَجَاءَ لِعَمْرِ بْنِ هَبِيرَةَ، فَلَمَّا سَجَنَ وَنَقَبَ لَهُ السَّجْنَ وَسَارَ هُوَ وَبَنُوهُ تَحْتَ الْأَرْضِ قَالَ الْفَرَزْدَقُ:

لَمَّا رَأَيْتِ الْأَرْضَ قَدْ سَدَّ ظَهْرَهَا
دَعَوْتُ الَّذِي نَادَاهُ يُونُسُ بِعَدْمِهَا
وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا بَطْنُهَا لَكَ مَخْرَجًا
ثَوَى فِي ثَلَاثِ مَظْلَمَاتٍ فَفَرَجَا

فَقَالَ ابْنُ هَبِيرَةَ: مَا رَأَيْتِ أَشْرَفَ مِنَ الْفَرَزْدَقِ هَجَانِي أَمِيرًا وَمَدَحَنِي أَسِيرًا.

وَقَالَ سُرَى بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الرَّفَاءِ فِي خَالِدِ بْنِ حَاتِمٍ:

يَا وَاحِدَ الْعَرَبِ الَّذِي دَانَتْ لَهُ
إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَقِيْتُكَ سَالِمًا
قَحْطَانُ قَاطِبَةً وَسَادَ نَزَارَا
أَنْ لَا أَعَالِجَ بِعَدِّكَ الْأَسْفَارَا

وَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ فِي آلِ هَاشِمٍ:

يَا آلَ هَاشِمِ الْإِلَهَ حَبِيبَاكُمْ
قَوْمٌ لِأَصْلِهِمُ السِّيَادَةُ كُلُّهَا
مَا لَيْسَ يَبْلُغُهُ اللَّسَانُ الْمُفْصَلُ
قَدَمًا وَفَرَعُهُمُ النَّبِيُّ الْمُرْسَلُ

وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ دَعْبَلِ الْخَزَاعِي:

مَلِكَ الْأُمُورِ بِجُودِهِ وَحَسَامِهِ
فَأَطَاعَ أَمْرَ الْجُودِ فِي أَمْوَالِهِ
شَرَفًا يَقُودُ عَدُوَّهُ بِزِمَامِهِ
وَأَطَاعَ أَمْرَ اللَّهِ فِي أَحْكَامِهِ

وَقَالَ آخَرُ:

يَلْقَى السَّيُوفَ بِصَدْرِهِ وَبِنَحْرِهِ
وَيَقُولُ لِلطَّرَفِ اصْطَبِرْ لِسُنَى الْقَنَا
وَيَقِيمُ هَامَتَهُ مَقَامَ الْمَغْفَرِ
فَعَقَرَتْ رُكْنَ الْمَجْدِ إِنْ لَمْ تَعْقُرْ

وإذا ترادى شخص ضيف مقبل

متسربل أثواب محل أغبر

أومىء إلى الكوماء هذا طارق

نحسرتنى الأعداء إن لم تنحسر

وقال شاعر بنى تميم:

إذا لبسوا عمامتهم طووها

على كرم وإن سففروا أناروا

يسيع ويشترى لهم سواهم

ولكن بالطعان هم تجار

إذا كنت جـار بنى تميم

فأنت لأكرم الثقلين جار

وقالت امرأة من بنى نمر وقد حضرته الوفاة وأهلها مجتمعون من ذا الذى يقول:

لعمري ما رماح بنى نمر

بطائشة الصدور والأقصار

قالوا: زياد الأعجم. قالت: أشهدكم أن له الثلث من مالى، وكان مالا كثيرا، وأثنى رجل على رجل، فقال: هو

أفصح أهل زمانه إذا حدث، وأحسنهم استماعا إذا حدث وأمسكهم عن الملاحات إذا خولف يعطى صديقه النافلة ولا

يسأله الفريضة، له نفس عن الفحشاء محصورة وعلى المعالي مقصورة كالذهب الإبريز الذى يعز كل أوان والشمس

المنيرة التى لا تخفى بكل مكان هو النجم المضيء للحيوان، والمنهل البارد العذب للعطشان، وقال الحسن بن هانئ:

إذا نحن أثينا عليك بصالح

فأنت كما نشئ وفوق الذى نشئ

وإن جرت الألفاظ يوما بمدحة

لفيرك إنسانا فأنت الذى نعنى

وله فى الفضل بن الربيع:

لقد نزلت أبا العباس منزلة

ما إن ترى خلفها الأبصار مطرحا

وكلت بالدهر عينا غير غافلة

بجود كفك تأسو كل ما جرحا

وقال زياد الأعجم فى محمد بن القاسم الثقفى:

إن المنابر أصبحت مختالة

بمحمد بن القاسم بن محمد

قأد الجيوش لسبع عشرة حجة

يا قرب سورة سؤدد من مولد

ومن بدائع مدائح المتنبي قوله:

ليت المدائح تستوفى مناقبه

فما كليب وأهل الأعصر الأول

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به

فى طلعة البدر ما يغنيك عن زحل

وقد وجدت مكان القول ذا سعة

فإن وجدت لسانا قاتلا فقل

ومدح أبو العتاهية عمرو بن العلاء، فأعطاء سبعين ألفا وخلع عليه خلعا سنينة حتى إنه لم يستطع أن يقوم، فغار

الشعراء منه، فجمعهم وقال: يا لله العجب ما أشد حسد بعضكم لبعض إن أحدكم يأتينا ليمدحنا فيتغزل فى قصيدته

بخمسين بيتا، فما يبلغنا حتى يذهب رونق شعره، وقد تشبب أبو العتاهية بأبيات يسيرة ثم قال:

إنى أمنت من الزمان وصرفه

لما علقنت من الأمير حبالا

لو يستطيع الناس من إجلاله جعلوا له حرّ الوجوه نعالا
إن المطايا تشتكيك لأنهم قطعت إليك سباسبًا ورمالا
فإذا وردن بنا وردنا خفافًا وإذا صردن بنا صردن ثقالا

ووفد أبو نواس^(١) على الخصيب بمصر، فأذن له وعنده الشعراء، فأنشد الشعراء أشعارهم، فلما فرغوا قال أبو نواس: أنشد أيها الأمير قصيدة هي كعصا موسى تلقف ما صنعوا. قال: أنشدها، فأنشده قصيدته التي منها قوله:

إذا لم تزر أرض الخصيب ركبنا فأى فتى بعد الخصيب نزور
فتى يشترى حسن الشاء بماله ويعلم أن الدائرات تدور
فما فاته جود ولا ضلّ دونه ولكن يسير الجود حيث يسير

فاهتز الخصيب لها طربًا، وأمر له بألف دينار ووصيف ووصيفة.

وحكى أن أبا دلف سار يومًا مع أخيه معقل، فرأيا امرأتين تتماشيان فقالت إحدهما للأخرى: هذا أبو دلف؟ قالت: نعم الذى يقول فيه الشاعر:

إنما الدنيا بأبو دلف بين يديه ومحتضره
فإذا ولّى أبو دلف ولت الدنيا على أثره

فبكى أبو دلف حتى جرت دموعه، فقال له معقل: ما لك يا أخى تبكى؟ فقال: لأننى لم أقض حق الذى قال هذا. قال: أوكم تعطه مائة ألف درهم؟ قال: والله ما فى نفسى حسرة إلا لكونى لم أعطه مائة ألف دينار. ويقال: هذه المدحة، فأين المنحة؟ قال بعضهم:

إذا ما المدح صار بلا نوال من الممدوح كان هو الهجاء

وامتدح محمد بن سلطان المعروف بابن جيوش، محمد بن نصر صاحب حلب، فأجازه بألف دينار، ثم مات محمد ابن نصر، وقام ولده نصر مقامه، فقصده محمد بن سلطان بقصيدة مدحه بها منها:

تباعدت عنك حرمة لا زهادة وسرت إليكم حين مسنى الضر
فجاء أبو نصر بألف تصرمت وإنى عليم أن سيخلفها نصر

فلما فرغ من إنشادها قال نصر: والله لو قال: سيضاعفها نصر لأضعفتها له، وأعطاه ألف دينار فى طبق فضة. ومدح بعض الشعراء وقيل: هو البديع الهمذاني إنسانًا فقال:

يكاد يحكيه صوب الغيث منسكبًا لو كان طلق المحيا يطر الذهبا
والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا
وقال آخر:

أخو كرم يفضى الورى من بساطه إلى روض مجد بالسماح مجود

(١) أبو نواس: هو الحسن بن هانىء بن عبد الأول بن صباح الحكمى بالولاء، أبو نواس، شاعر العراق فى عصره، ولد فى الأهواز (من بلاد خوزستان) ونشأ بالبصرة، ودخل إلى بغداد، فاتصل فيها بالخلفاء من بنى العباس، قال الإمام الشافعى: لولا مجون أبى نواس لأخذت عنه العلم. له «ديوان شعر» و «الفكاهة والإتناس فى مجون أبى نواس» توفى سنة (١٩٨ هـ - ١٨٤ م) انظر «وفيات الأعيان» (٢/ ٩٥-١٠٤) ترجمة (١٧٠).

ويقال: فلان رقيق الجود ودخيله، وزميل الكرم ونزيله، وغرة الدهر وتحجيله، مواهبه الإنواء، وصدره الدهناء، عون موقوف على اللهيف، وغوثة مبذول للضعيف، يطفو جوده على موجوده، وهمته على قدرته، ينابيع الجود تتفجر من أنامله وريبع السماح يضحك عن فواضله، إن طلب كريماً فى جوده مت قبل وجوده أو ماجداً فى أخلاقه مت ولم تلاقه باسل تعود الإقدام حيث تزل الأقدام، وشجاع يرى الإحجام عاراً لا تمحوه الأيام، له خلق لو مازج البحر لنفى ملوحته. وصفى كدورته. خلق كنسيم الأشجار على صفحات الأنهار، وأطيب من زمن الورد فى الأيام، وأبهج من نور البدر فى الظلام، خلق يجمع الأهواء المتفرقة على محبته ويؤلف الآراء المتشتتة فى مودته، هو ملح الأرض إذا فسدت وعمارة الدنيا إذا خربت، يحل دقائق الأشكال، ويزيل جلائل الإشكال. البيان أصغر صفاته والبلاغة عنوان خطراته، كأنما أوحى التوفيق إلى صدره وحبس الصواب بين طبعه وفكره، فهو يبعث بالكلام ويقوده بالين زمام حتى كأن الألفاظ تتحاسد فى التسابق إلى خواطره، والمعانى تتغابر فى الامثال لأوامره، يوجز فلا يخل ويطنب فلا يمل، كلامه يشتد مرة حتى تقول الصخر أو أبس ويلين تارة حتى تقول الماء أو أسلس، فهو إذا أنشأ وشى وإذا عبر خبر، وإذا أوجز أعجز، تاهت به الأيام وباهت فى يمينه الأقالام، له أدب لو تصور شخصاً لكان بالقلوب مختصاً. قال الشاعر:

كما تصفو على الزمن العقار

له خلُق على الأيام يصفو

وقال آخر:

ما كان يذبل نوره بشتائه

لو كان يحوى الروض ناضر خلقه

ما صار نحس فى نجوم سمائه

أو قابل الأفلاك طالع سعده

وقال آخر:

وكفك فى شهب السنين غمام

ووجهك بدر فى الغياهب مشرق

سحاب ولا يغشاه منه ظلام

عجيب لبدر لا يزال أمامه

تلظى مكان البرق منه حسام

وأعجب من هذا غمام إذا سطا

وقال الحسين بن مطير الأسدى:

ويوم نعيم فيه للناس أنعم

له يوم بؤس فيه للناس أبؤس

ويمطر يوم البؤس من كفه الدم

فيمطر يوم الجود من كفه الندى

على الناس لم يصبح على الأرض مجرم

قلو أن يوم البؤس خلى عقابه

عن المال لم يصبح على الأرض معدم

ولو أن يوم الجود خلى يمينه

وللشيخ جمال الدين بن نباتة:

قدر على باغى مداه بعيد

والله ما عجبي لقدرك أنه

فى هذه الدنيا وأنت وحيد

إلا لكونك لست تشكو وحشة

ولصفى الدين الحلى:

عيًا وكم أعيت صفاتك خاطبا

أثنى فتشني صفاتك مظهرًا

نثنى عليك لما قضينا الواجبا

لو أثنى والخلق جميعًا ألسن

وللشيخ برهان الدين القيراطي:

أوصافكم تجرى أحاديثها
كما أحاديث الندى عنكم

وللشيخ جمال الدين بن نباتة:

روت عنك أخبار المعالي محاسناً
فوجهك عن بشرٍ وكفك عن عطا

وقال غيره:

من زار بابك لم تبحر جوارحه
فالعين عن قرة والكف عن صلة

ولأبي فراس بن حمدان:

لئن خلق الأنام لحب كـ
فلم يخلق بنو حمدان إلا

وقال آخر:

إن الهبات التي جاد الكرام بها
ما زلت تسبق حتى قال حاسدكم

ولمحمد بن منذر في آل برمك:

أتانا بنو الأملاك من آل برمك
لهم رحلة في كل عام إلى الندا
إذا نزلوا بطحاء مكة أشرفت
فما خلقت إلا لجود أكفهم
إذا رام يحيى الأمر ذلت صعا

ولما عزل إبراهيم بن المنذر عن صدقات البصرة تلقاه مجنون وأنشد:

ليت شعري أي قوم أجذبوا
نظر الله لهم من بيننا
يا أبا إسحاق سر في دعة
إنما أنت ربيع باكسر

وقال آخر:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم
ثم ارتقوا في شعاع الشمس وارتفعوا

وللحسين بن مطير الأسدي في المهدي:

مجرى النجوم الزهر في الأفق
تسندها الركبان من طرق

كفت بلسان الحال عن السن الحمد
وخلقك عن نبل ورأيك عن سعد

تروى أحاديث ما أوليت من من
والقلب عن جابر والسمع عن حسن

ومزمار وطنبور وعود
لمجد أو لبأس أو لجود

مطروقة وندی كفيك مبتكر
له طريق إلى العلياء مقتصر

فيا طيب أخبار وأحسن منظر
وأخرى إلى البيت العتيق المنور
يحيى وبالفصل بن يحيى وجعفر
وأقدامهم إلا لسمعي مظفر
وناهيك من داع له ومسدبر

فأغيثوا بك من بعد العجف
وحرمناك بذنب قد سلف
وامض مصحوباً فما منك خلف
حيثما صرفه الله انصرف

قوم لقليل اقعدوا يا آل عباس
إلى السماء فأنتم سادة الناس

لو يعبدُ الناسُ يا مهدي أفضلهم
أضحت يمينك من جودِ مـصـورة
لو أن من نوره مثقال خردلة
وقال آخر:

ما كان في الناس إلا أنت معبود
لا بل يمينك منها صورُ الجود
في السـود طراً إذا لابيضت السـود

أوليتني نعمًا وفضلاً زائداً
أقسمت لو جاز السجود لمنعم
وقال آخر:

وبررتني حـتى رأيتك والدا
ما كنت إلا راعياً لك ساجداً

ثناؤك في الدنيا من المسك أعطرُ
وكفك بحرٌ والأنامل أنهرُ
أعيذك بالرحمن من كل حاسدٍ
لساني قصيرٌ في مديحك سيدي

وحظك في الدنيا جـزـيلٌ موقر
رعى الله كفاً فيه بحرٌ وأنهرُ
فلا زالت الحساد تغـبـى وتـصـفر
لأنى فقيرٍ والفقير مقصّرُ

الفصل الثاني في هذا الباب: في شكر النعمة

أما الشكر الواجب على جميع الخلائق فشكر القلب، وهو أن يعلم العبد أن النعمة من الله عز وجل، وأن لا نعمة على الخلق من أهل السموات والأرض إلا وبدايتها من الله تعالى حتى يكون الشكر لله عن نفسك، وعن غيرك والدليل على أن الشكر محله القلب وهو المعرفة. قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. أيقنوا أنها من الله، وقيل: الشكر معرفة العجز عن الشكر وقد روى أن داود عليه السلام قال: إلهي كيف أشكرك وشكرى لك نعمة من عندك، فأوحى الله تعالى إليه: الآن قد شكرتني. وفي هذا يقال الشكر على الشكر أتم الشكر. ولمحمود الوراق:

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله
إذا مسّ بالسراء عم سرورها
فما منهما إلا له فيه نعمة
على له في مثلها يجب الشكر
وإن طالت الأيام واتصل العمـر
وإن مسّ بالضراء أعقبها الأجر
تضيق بها الأوهام والسر والجهر

وفي مناجاة موسى عليه السلام: إلهي خلقت آدم بيدك، وفعلت وفعلت، فكيف شكرك؟ فقال: علم أن ذلك مني، فكانت معرفته بذلك شكره لي. وأما شكر اللسان، فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]. ويروى عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بالنعمة شكر». وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: تذكروا النعم، فإن ذكرها شكر. وأما الشكر الذي في الجوارح، فقد قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]. فجعل العمل شكراً. وروى أن النبي ﷺ «قام حتى تورمت قدماء، فقبل له: يا رسول الله أتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً لله شكوراً». وقال أبو هارون: دخلت على أبي حازم، فقلت له: يرحمك الله ما شكر العينين؟ قال: إذا رأيت بهما خيراً ذكرته، وإذا رأيت بهما شراً سترته، قلت: فما شكر الأذنين؟ قال: إذا سمعت بهما خيراً حفظته، وإذا سمعت بهما شراً نسيت. وفي حكمة إدريس عليه الصلاة والسلام: لن يستطيع

أحد أن يشكر الله على نعمة بمثل الإنعام على خلقه ليكون صانعاً إلى الخلق مثل ما صنع الخالق إليه، فإذا أردت أن تحرس دوام النعمة من الله تعالى عليك، فأدم مواساة الفقراء. وقد وعد الله تعالى عباده بالزيادة على الشكر، فقال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]. وقد جعل لعباده علامة يعرف بها الشاكر، فمن لم يظهر عليه المزيد علمنا أنه لم يشكر، فإذا رأينا الغنى يشكر الله تعالى بلسانه، وماله في نقصان علمنا أنه قد خل بالشكر، إما أنه لا يزكى ماله أو يزكيه لغير أهله، أو يؤخره عن وقته، أو يمنع حقاً عليه من كسوة عريان، أو إطعام جائع أو شبه ذلك، فيدخل في قول النبي ﷺ: «لو صدق السائل ما أفلح من رده». قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. وإذا غيروا ما بهم من الطاعات غير الله ما بهم من الإحسان. وقال بعض الحكماء من أعطى أربعاً لم يمنع من أربع: من أعطى الشكر لا يمنع المزيد، ومن أعطى التوبة لا يمنع القبول، ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة، ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب. وقال المغيرة بن شعبه: اشكر من أنعم عليك وأنعم على من شكرك، فإنه لا بقاء للنعم إذا كفرت، ولا زوال لها إذا شكرت. وكان الحسن يقول: ابن آدم متى تنفك من شكر النعمة وأنت مرتهن بها، كلما شكرت نعمة تجده ذلك بالشكر أعظم منها عليك، فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة إلا إلى ما هو أعظم منها.

وروى أن عثمان بن عفان رضى الله عنه دعى إلى أقوام ليأخذهم على ريبة، فافترقوا قبل أن يأخذهم عثمان، فأعتق رقبة شكراً لله تعالى إذ لم يجز على يديه فضيحة مسلم. ويروى أن غملة قالت لسليمان بن داود عليهما السلام: يا نبي الله أنا على قدرى أشكر الله منك، وكان راكباً على فرس ذلول فخر ساجداً لله تعالى، ثم قال: لولا أنى أبجلك لسألتك عن أن تتزع منى ما أعطيتنى. وقال صدقة بن يسار: بينما داود عليه السلام فى محرابه إذ مرت به دودة، فتفكر فى خلقها، وقال: ما يعبا الله بخلق هذه، فأنطقها الله تعالى له، فقالت له: يا داود تعجبك نفسك، وأنا على قدر ما آتاني الله تعالى أذكر الله وأشكر له منك على ما آتاك. وقال على رضى الله عنه: احذروا إنفار النعم فما كل شارد مردود. وعنه عليه السلام: إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا اتصالها بقله الشكر. وقيل: إذا قصرت يداك عن المكافاة، فليطل لسانك بالشكر. وقال حكيم: الشكر ثلاث منازل: ضمير القلب، ونشر اللسان ومكافأة اليد. قال الشاعر:

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدي ولسانى والضمير المحجبا

وقال ابن عائشة: كان يقال: ما أنعم الله على عبد نعمة، فظلم بها إلا كان له حقاً على الله تعالى أن يزيلها عنه، وأنشد أبو العباس بن عمارة فى المعنى:

أعارك ماله لتقوم فيه بواجبه وتقضى بعض حقه
فلم تقصد لطاعته ولكن قويت على معاصيه برزقه
وقال آخر:

ولو أن لى فى كل منبت شعرة لساناً يطيل الشكر كنت مقصراً

وقال محمد بن حبيب الراوية: إذا قل الشكر خسر المن. وروى إذا جحدت الصنعة خسر الامتان. وسئل بعض الحكماء: ما أضيع الأشياء؟ قال: مطر الجود فى أرض سبخة لا يجف ثراها، ولا ينبت مرعاها، وسراج يوقد فى الشمس، وجارية حسناء تزف إلى أعمى، وصنعة تسدى إلى من لا يشكرها. وقال عبد الأعلى بن حماد: دخلت على المتوكل، فقال: يا أبا يحيى قد هممنا أن نصلك بخير فتدافعتة الأمور، فقلت: يا أمير المؤمنين بلغنى عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال: من لم يشكر الهمة لم يشكر النعمة. وأنشدته:

لاشكرن لك معروفاً هممت به فإن همك بالمعروف معروف
ولا ألومك إن لم يمضه قدر فالشر بالقدر المحتوم مصروف

وقال أبو فراس بن حمدان^(١):

وما نعمة مكفورة قد صنعتها إلى غير ذى شكر تمنعنى أخرى
سأتى جميلاً ما حيت فلئننى إذا لم أفدُ شكراً أفدت به أجراً

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: من امتطى الشكر بلغ به المزيد. وقيل: من جعل الحمد خاتمة النعمة جعله الله فاتحة للمزيد. وقال ابن السماك: النعمة من الله تعالى على عبده مجهولة، فإذا فقدت عرفت. وقيل: من لم يشكر على النعمة فقد استدعى زوالها. وكان يقال: إذا كانت النعمة وسيمة، فاجعل الشكر لها تيممة. وقال حكيم: لا تصطنعوا ثلاثة، اللثيم فإنه بمنزلة الأرض السبخة، والفاحش فإنه يرى أن الذى صنعت إليه إنما هو لمخافة فحشة، والأحمق فإنه لا يعرف قدر ما أسديت إليه. وإذا اصطنعت الكريم فازرع المعروف واحصد الشكر. ودخل أبو نخيلة على السفاح لينشده، فقال: ما عسيت أن تقول بعد قولك لمسلمة:

أمسلمة يا فخر كل خليفة ويا فارس الدنيا ويا جبل الأرض
شكرتك إن الشكر دين على الفتى وما كل من أوليته نعمة يقضى
وأحييت لى ذكرى وما كان خاملاً ولكن بعض الذكر أنبئه من بعض

وسمعه الرشيد فقال: هكذا يكون شعر الأشراف مدح صاحبه، ولم يضع نفسه. وعن نصر بن سيار عن عكرمة، عن ابن عباس رضى الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «من أنعم على رجل نعمة فلم يشكر له فدعا عليه استجيب له». ثم قال نصر: اللهم إني أنعمت على بنى سام فلم يشكروا، اللهم اقتلهم، فقتلوا كلهم. وعن على بن الحسين رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن ليشبع من الطعام، فيحمد الله تعالى، فيعطيه من الأجر ما يعطى الصائم القائم، إن الله شاكر يحب الشاكرين». وعن محمد بن على: ما أنعم الله على عبد نعمة، فعلم أنها من الله إلا كتب الله له شكرها قبل أن يحمد عليها، ولا أذن عبد ذنباً فعلم أن الله قد اطلع عليه إن شاء غفر له وإن شاء أخذه قبل أن يستغفره إلا غفر الله له قبل أن يستغفر. وأولى رجل رجلاً أعرابياً خيراً، فقال: لا أبلاك الله ببلاء يعجز عنه صبرك، وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك، وأنشد بعضهم وأجاد:

سأشكر لا إنى أجازيك منعماً بشكرى ولكن كى يزداد لك الشكر
وأذكر أياماً لدى اصطنعتها وآخر ما يبقى على الشاكر الذكر

وقال آخر:

أوليتنى نعماً أبوح بشكرها وكفيتنى كل الأمور بأسرها
فلأشكرنك ما حيت وإن أمت فلتشكرنك أعظمى فى قـبـرـها

(١) أبو فراس: هو الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبى الربعى، أبو فراس الحمدانى، أمير، شاعر، فارس، وهو ابن عم سيف الدولة، كان صاحب ابن عباد يقول: بدئ الشعر بملك وختم بملك - يعنى امرأ القيس وأبا فارس - وله وقائع كثيرة، قاتل بين يدى سيف الدولة توفى سنة (٣٥٧هـ - ٩٦٨م).

وقال آخر:

إلى فلم ينهض يا حسانك الشكر
فعدوى إقرارى بأن ليس لى عذر

أيا رب قد أحسنت عوداً وبداءة
فمن كان ذا عذر لديك وحجة

وقال محمود الوراق:

على نعم ما كنت قط لها أهلاً
كأنى بالتقصير أستوجب الفضلا

إلهى لك الحمد الذى أنت أهله
إن زدت تقصيراً تزدنى تفضلاً

وقد أحسن نصيب فى وصف الثناء والشكر بقوله:

ولو سكنوا أثنت عليك الحقائق

فما جوا وأثنوا بالذى أنت أهله

وقال رجل من غطفان:

به الزيادة عند الله والناس

الشكر أفضل ما حاولت ملتئماً

وقيل: اشكر المنعم عليك وأنعم على الشاكر لك تستوجب من ربك الزيادة ومن أخيك المناصحة.

الفصل الثالث: فى المكافأة

قال رسول الله ﷺ: «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تقدرُوا فادعوا له». ولما وفد النجاشى على رسول الله ﷺ، قام يخدمهم بنفسه، فقبل له: يا رسول الله: لو تركتنا كفيناك، فقال: كانوا لأصحابى مكرمين. وقيل: أتى رجل من الأنصار إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال:

أذكر صنيعى إذ فاجأك ذو سفه
يوم السقيفة والصديق مشغول

فقال عمر بأعلى صوته: ادن منى، فدنا منه، فأخذ بذراعه حتى استشرفه الناس وقال: ألا إن هذا ردّ عنى سفيهاً من قومه يوم السقيفة ثم حمله على نجيب وزاد على عطائه، وولاه صدقة قومه وقرأ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقال رجل لسعيد بن العاص، وهو أمير الكوفة: لى يدّ عندك بيضاء. قال: وما هى؟ قال: كبت بك فرسك، فتقدمت إليك قبل غلمانك، فأخذت بعضدك وأركبتك، وأسقيتك ماء، قال: فأين كنت إلى الآن؟ قال: حجبت عن الوصول إليك، قال: قد أمرنا لك بمائتى ألف درهم، وبما يملكه الحاجب إذ حجبك عنا.

وقال قطرى بن الفجاءة الخارجى: أسره الحجاج ثم منّ عليه، فأطلقه، فقيل له: عاود قتال عدو الله، فقال: هيهات شديداً مطلقها وأرق رقبة معتقها، ثم قال:

أقاتلُ الحجاجَ عن سلطانه
مإذا أقول إذا وقفت إزاءه
أقول جـار على لا إنى إذا
ونحذث الأقسام أن صنائعنا
بيد تقـر بأنـها مـولائـه
فى الصف واحتـجّت له فعـلاته
لاحق من جـارت عليه ولأته
غرست لدى فـحـنـظـلت نخـلاته

واجتاز الشافعى رحمه الله تعالى بمصر فى سوق الحدادين، فسقط سوطه، فقام إنسان، فأخذه ومسحه وناول له إياه فقال لغلامه: كم معك؟ قال: عشرة دنائير، قال: ادفعها إليه واعتذر له، واستشهد عبد الملك عامر الشعبى، فأنشده

لغير ما شعر حتى أنشد لحسان:

من سره شرف الحياة فلم يزل في عصابة من صالحى الأنصار
البائعين نفوسهم لنبيهم بالمشرفى وبالقنا الخطار
الناظرين بأعين محمرة كالجمر غير كليلة الأبصار

فقام أنصارى، فقال: يا أمير المؤمنين استوجب عامر الصلة على ستين من الإبل كما أعطينا حسان يوم قالها، فقال عبد الملك: وله عندى ستون ألفاً، وستون من الإبل. وعن على كرم الله وجهه: أحسنوا فى عقب غيركم تحفظوا فى عقبكم. وقال المدائنى^(١): رأيت رجلاً يطوف بين الصفا والمروة على بغلة، ثم رأته ماشياً فى سفر، فسألته عن ذلك فقال: ركبت حيث يمشى الناس، فكان حقاً على الله أن يرجلنى حيث يركب الناس.

ومما جاء فى المكافأة: ما حكى عن الحسن بن سهل^(٢) قال: كنت يوماً عند يحيى بن خالد البرمكى وقد خلا فى مجلسه لإحكام أمر من أمور الرشيد، فبينما نحن جلوس إذ دخل عليه جماعة من أصحاب الخوارج، فقضاها لهم، ثم توجهوا لشأنهم، فكان آخرهم قياماً أحمد بن أبى خالد الأحول، فنظر يحيى إليه والتفت إلى الفضل ابنه، وقال: يا بنى إن لأبيك مع أبى هذا الفتى حديثاً، فإذا فرغت من شغلى هذا، فذكرنى أحدثك به، فلما فرغ من شغله، وطعم قال له ابنه الفضل: أعزك الله يا أبى، أمرتنى أن أذكرك حديث أبى خالد الأحول، قال: نعم يا بنى. لما قدم أبوك من العراق أيام المهدي كان فقيراً لا يملك شيئاً، فاشتد بى الأمر إلى أن قال لى من فى منزلى: إنا قد كتمنا حالنا وزاد ضررنا ولنا اليوم أيام ما عندنا شيء نقتات به، قال: فبكيت يا بنى لذلك بكاءً شديداً، وبقيت ولهان وحيران مطرقاً مفكراً، ثم تذكرت منديلاً كان عندى، فقلت لهم: ما حال المنديل؟ فقالوا: هو باق عندنا، فقلت: ادفعوه لى، فأخذته، ودفعته إلى بعض أصحابى وقلت له: به بما تيسر فباعه بسبعة عشر درهماً، فدفعتها إلى أهلى، وقلت: انفقوها إلى أن يرزق الله غيرها، ثم بكرت من الغد إلى باب أبى خالد وهو يومئذ وزير المهدي، فلما الناس وقوف على داره ينتظرون خروجه، فخرج عليهم راكباً، فلما رآنى سلم على، وقال: كيف حالك؟ فقلت: يا أبا خالد ما حال رجل يبيع من منزله بالأمس منديلاً بسبعة عشر درهماً، فنظر إلى نظراً شديداً، وما أجابنى جواباً، فرجعت إلى أهلى كسير القلب، وأخبرتهم بما اتفق لى مع أبى خالد، فقالوا: بشس والله ما فعلت. توجهت إلى رجل كان يرتضيك لأمر جليل، فكشفت له سرى وأطلعته على مكنون أمرى، فأزريت عنده بنفسك وصغرت عنده منزلتك بعد أن كنت عنده جليلاً، فما يراك بعد اليوم إلا بهذه العين. فقلت: قد قضى الأمر الآن بما لا يمكن استدراكه، فلما كان من الغد بكرت إلى باب الخليفة، فلما بلغت الباب استقبلنى رجل، فقال لى: قد ذكرت الساعة بباب أمير المؤمنين، فلم ألتفت لقوله، فاستقبلنى آخر، فقال لى، كمقالة الأول، ثم استقبلنى حاجب أبى خالد، فقال لى: أين تكون قد أمرنى أبو خالد بإجلاسك إلى أن يخرج من عند أمير المؤمنين. فجلست حتى خرج، فلما رآنى دعانى، وأمر لى بمركب، فركبت وسرت معه إلى منزله، فلما نزل قال: على بفلان وفلان الخناطين، فأحضرا، فقال لهما: ألم تشتريا منى غلات السواد بثمانية عشر ألف ألف درهم؟ قالوا: نعم، قال: ألم اشترط عليكم شركة رجل معكما؟ قالوا: بلى، قال: هو هذا الرجل الذى اشترطت شركته لكما، ثم قال لى: قم معهما، فلما خرجنا قال لى: ادخل معنا بعض المساجد حتى نكلمك فى أمر يكون لك فيه الربح الهنىء، فدخلنا مسجداً، فقال لى: إنك تحتاج فى هذا الأمر إلى وكلاء وأمناء وكيايين وأعوان ومؤن لم تقدر منها على شيء، فهل لك أن تبيعنا شركتك بمال نعجله، فنتنفع به، ويسقط عنك التعب والكلف؟ فقلت لهما: وكم

(١) المدائنى: هو محمد بن عبد الله، أبو الحسن المدائنى، راوية مؤرخ، كثير التصانيف من أهل البصرة، سكن المدائن، ثم انتقل إلى بغداد فلم يزل بها إلى أن توفى، أورد ابن النديم نيف ومتى كتاب من مصنفاته فى المغازى، والسيرة النبوية، وأخبار النساء، والخلفاء، توفى سنة (٢٢٥هـ - ٨٤٠م).

(٢) الحسن بن سهل: هو الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسى، أبو محمد، وزير المأمون العباسى، وأحد كبار القادة والولاة فى عصره، اشتهر بالذكاء، والأدب، والفصاحة، وحسن التوقعات، والكرم، وهو والد بوران (زوجة المأمون) وكان المأمون يجله ويبالغ فى إكرامه، أصيب بمرض السويداء، فتغير عقله حتى شد فى الحديد، ثم شفى، توفى سنة (٢٣٦هـ - ٨٥١م).

تبذلان لى؟ فقالا: مائة ألف درهم، فقلت: لا أفعل، فمازالا يزيدانى وأنا لا أرضى إلى أن قال لى: ثلاثمائة ألف درهم ولا زيادة عندنا على هذا. فقلت: حتى أشاور أبا خالد. قال: ذلك لك. فرجعت إليه وأخبرته، فدعا بهما، وقال لهما: هل وافقتماه على ما ذكر؟ قالا: نعم. قال: اذهبا، فاقبضاه المال الساعة. ثم قال لى: أصلح أمرك وتهايا فقد قلدتك العمل. فأصلحت شأنى وقلدنى ما وعدنى به، فما زلت فى زيادة حتى صار أمرى إلى ما صار. ثم قال لولده الفضل: يا بنى فما تقول فى ابن من فعل بأبيك هذا الفعل، وما جزاؤه؟ قال: حق لعمرى وجب عليك له، فقال: والله يا ولدى ما أجد له مكافأة غير أنى أعزل نفسى وأوليه، ففعل ذلك رضى الله عنه، وهكذا تكون المكافأة.

ومن ذلك ما حكى عن العباس صاحب شرطة المأمون قال: دخلت يوماً مجلس المأمون ببغداد وبين يديه رجل مكبل بالحديد، فلما رآنى قال لى: عباس، قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: خذ هذا إليك فاستوثق منه، واحتفظ به، وبكر به إلى غد واحترز عليه كل الاحتراز. قال العباس: فدعوت جماعة، فحملوه ولم يقدر أن يتحرك فقلت فى نفسى: مع هذه الوصية التى أوصانى بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معى فى بيتى، فأمرتهم، فتركوه فى مجلس لى فى دارى، ثم أخذت أسأله عن قضيته، وعن حاله، ومن أين هو؟ فقال: أنا من دمشق، فقلت جزى الله دمشق وأهلها خيراً، فمن أنت من أهلها؟ قال: وعمن تسأل؟ قلت: أتعرف فلاناً؟ قال: ومن أين تعرف ذلك الرجل؟ فقلت: وقع لى معه قضية. فقال: ما كنت بالذى أعرفك خبره حتى تعرفنى قضيتك معه، فقال: ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق، فبغى أهلها وخرجوا علينا حتى إن السوالى تدلى فى زنبيل من قصر الحجاج، وهرب هو وأصحابه، وهربت فى جملة القوم، فبينما أنا هارب فى بعض الدروب، وإذا بجماعة يعدون خلفى، فما زلت أعدو أمامهم حتى فتهم، فمررت بهذا الرجل الذى ذكرته لك، وهو جالس على باب داره، فقلت: أغنى أغاثك الله، قال: لا بأس عليك ادخل الدار، فدخلت، فقالت زوجته: ادخل تلك المقصورة فدخلتها، ووقف الرجل على باب الدار، فما شعرت إلا وقد دخل والرجال معه يقولون هو والله عندك، فقال: دونكم الدار، ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامراته فيها، فقالوا: هو ههنا، فصاحت بهم المرأة ونهرتهم فانصرفوا، وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة وأنا قائم أرجف ما تحملنى رجلاى من شدة الخوف، فقالت المرأة: اجلس لا بأس عليك، فجلست، فلم ألبث حتى دخل الرجل، فقال: لا تخف قد صرف الله عنك شرهم، وصرت إلى الأمن والدعة إن شاء الله تعالى. فقلت له: جزاك الله خيراً، فما زال يعاشرنى أحسن معاشرة وأجملها، وأفرد لى مكاناً فى داره، ولم يحوجنى إلى شىء، ولم يفتر عن تفقد أحوالى، فأقمت عنده أربعة أشهر فى أرغد عيش وأهنته إلى أن سكنت الفتنة وهذأت وزال أثرها، فقلت له: أتأذن لى فى الخروج حتى أتفقد حال غلمانى، فلعلنى أقف منهم على خبر، فأخذ على المواليق بالرجوع إليه، فخرجت وطلبت غلمانى، فلم أر لهم أثراً، فرجعت إليه، وأعلمته الخبر، وهو مع هذا كله لا يعرفنى، ولا يسألنى، ولا يعرف اسمى، ولا يخاطبنى إلا بالكنية، فقال: علام تعزم؟ فقلت: عزمت على التوجه إلى بغداد، فقال: القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج، وها أنا قد أعلمتك. فقلت له: إنك تفضلت على هذه المدة، ولك على عهد الله أنى لا أنسى لك هذا الفضل، ولأوفينك مهما استطعت، قال: فدعا غلاماً له أسود، وقال له: أسرج الفرس الفلانى، ثم جهز آلة السفر، فقلت فى نفسى: أظن أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة أو ناحية من النواحي، فأقاموا يومهم ذلك فى كد وتعب، فلما كان يوم خروج القافلة جاءنى السحر، وقال لى: يا فلان قم فإن القافلة تخرج الساعة، وأكره أن تنفرد عنها، فقلت فى نفسى: كيف أصنع، وليس معى ما أتزود به ولا ما أكرى به مركوباً، ثم قمت، فإذا هو وامراته يحملان بقجة من أفخر الملابس وخفين جديدين وآلة السفر، ثم جاءنى بسيف ومنطقة، فشدهما فى وسطى، ثم قدم بغلاً، فحمل عليه صندوقين وفوقها فرش، ودفع إلى نسخة ما فى الصندوقين، وفيهما خمسة آلاف درهم، وقدم إلى الفرس الذى كان جهزه، وقال: اركب، وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركوبك. وأقبل هو وامراته يعتذران إلى من التقصير فى أمرى، وركب معى يشيعنى، وانصرفت إلى بغداد، وأنا أتوقع خبره لأفنى بعهدى له فى مجازاته ومكافأته، واشتغلت مع أمير المؤمنين، فلم أنفرغ أن أرسل إليه من يكشف خبره، فلماذا أنا أسأل عنه.

فلما سمع الرجل الحديث قال: لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء، ومكافأته على فعله ومجازاته على صنيعه بلا كلفة

عليك، ولا مؤنة تلزمك، فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أنا ذلك الرجل، وإنما الضر الذي أنا فيه غير عليك حالي، وما كنت تعرفه مني، ثم لم يزل يذكر لي تفاصيل الأسباب حتى أثبت معرفته. فما تمالك أن قمت وقبلت رأسه، ثم قلت له: فما الذي أشارك إلى ما أرى؟ فقال: هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التي كانت في أيامك، فنسبت إليّ، وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد، وأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت، وقيدت وبعث بي إلى أمير المؤمنين، وأمرى عنده عظيم وخطيبي لديه جسيم، وهو قاتلي لا محالة، وقد أخرجت من عند أهلي بلا وصية، وقد تبغى من غلمانى من ينصرف إلى أهلى بخبرى، وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لى أن ترسل من يحضره لى حتى أوصيه بما أريد، فإن أنت فعلت ذلك، فقد جاوزت حد المكافأة وقمت لى بوفاء عهدك. قال العباس: قلت يصنع الله خيراً. ثم أحضر حداً في الليل فك قيوده، وأزال ما كان فيه من الأنكال وأدخله حمام داره، وألبسه من الثياب ما احتاج إليه، ثم سير من أحضر إليه غلامه، فلما رآه جعل يبكى ويوصيه، فاستدعى العباس نائبه، وقال: على بالفرس الفلاني، والفرس الفلاني والبغل الفلاني، والبغلة الفلانية حتى عد عشرة ثم عشرة من الصناديق ومن الكسوة كذا وكذا، ومن الطعام كذا وكذا قال ذلك الرجل: وأحضر لى بدرة عشرة آلاف درهم، وكيساً فيه خمسة آلاف دينار، وقال لنائبه في الشرطة: خذ هذا الرجل وشيعة إلى حد الأنبار. فقلت له: إن ذنبى عند أمير المؤمنين عظيم، وخطيبي جسيم. وإن أنت احتججت بأنى هربت بعث أمير المؤمنين فى طلبى كل من على بابى فأرد وأقتل. فقال لى: انج بنفسك ودعنى أدبر أمرى، فقلت: والله ما أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتجت إلى حضورى حضرت، فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمر على ما يقول فليكن فى موضع كذا، فإن أنا سلمت فى غداة غد أعلمته، وإن أنا قتلت، فقد وقيت به بنفسى كما وقانى بنفسه، وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم، وتجهد فى إخراجه من بغداد. قال الرجل: فأخذنى صاحب الشرطة وصيرنى فى مكان أتق به، وتفرغ العباس لنفسه، وتحنط وجهه له كفتاً. قال العباس: فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا وأرسل المأمون فى طلبى ويقولون: يقول لك أمير المؤمنين هات الرجل معك وقم. قال: فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين، فإذا هو جالس وعليه ثيابه وهو ينتظرنا. فقال: أين الرجل؟ فسكت، فقال: ويحك أين الرجل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين اسمع منى، فقال: الله على عهد لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك. فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين ما هرب. ولكن اسمع حديثى وحديثه، ثم شأنك ما تريد أن تفعله فى أمرى قال: قل. فقلت: يا أمير المؤمنين كان من حديثى معه كيت وكيت وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته أننى أريد أن أفى له وأكافئه على ما فعله معى، وقلت أنا وسيدى ومولاى أمير المؤمنين بين أمرين: إما أن يصفح عني، فأكون قد وفيت وكافأت، وإما أن يقتلنى فأقيه بنفسى. وقد تحنطت وها كفى يا أمير المؤمنين، فلما سمع المأمون الحديث قال: ويلك لا جزاك الله عن نفسك خيراً. إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة، وتكافئه بعد المعرفة، والعهد بهذا لا غيره. هلا عرفتني خبره فكنا نكافئه عنك ولا نقصر فى وفائك له، فقلت: يا أمير المؤمنين إنه ههنا قد حلف أن لا يبرح حتى يعرف سلامتى، فإن احتجت إلى حضوره حضر. فقال المأمون: وهذه منه أعظم من الأولى اذهب الآن إليه، فطيب نفسه وسكن روعه واثنى به حتى أتولى مكافأته. قال العباس: فأتيت إليه، وقلت له: ليزل خوفك. إن أمير المؤمنين قال: كيت وكيت. فقال: الحمد لله الذى لا يحمد على السراء والضراء سواه، ثم قام، فصلى ركعتين ثم ركب وجئنا، فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه من مجلسه، وحدثه حتى حضر الغداء، وأكل معه وخلع عليه، وعرض عليه أعمال دمشق، فاستغفى، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولجمها وعشرة أبغال بالآنها وعشر بدر وعشرة آلاف دينار، وعشرة مماليك بدوابهم، وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به، وإطلاق خراجها، وأمره بمكاتبتها بأحوال دمشق، فصارت كتبه تصل إلى المأمون، وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لى: يا عباس هذا كتاب صديقك. والله تعالى أعلم.

ومن عجائب هذا الأسلوب وغرائب: ما أورده بن القاسم الأنباري^(١) رحمه الله تعالى، أن سواراً صاحب رجة سوار وهو من المشهورين، قال: انصرفت يوماً من دار الخليفة المهدي، فلما دخلت منزلى دعوت بالطعام، فلم تقبله نفسى،

(١) محمد بن القاسم: هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري، من أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة. ومن أكثر الناس حفظاً للشعر والأخبار، كان يتردد إلى أولاد الخليفة، الراضى بالله يعلمهم. من كتبه: «الزاهر فى اللغة» و«شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» و«إيضاح الوقف والإبتداء فى كتاب الله عز وجل» توفي سنة (٣٢٨هـ - ٩٤٠م).

فأمرت به، فرفع، ثم دعوت جارية كنت أحب حديثها وأشتغل بها فلم تطب نفسى، فدخل وقت القائلة، فلم يأخذنى النوم، فنهضت وأمرت ببغلة، فأسرجت وأحضرت فركبتها، فلما خرجت من المنزل استقبلنى وكيل لى ومعه مال، فقلت: ما هذا؟ فقال: ألفا درهم جيبتهما من مستغلك الجديد، قلت: أمسكها معك واتبعنى، فأطلقت رأس البغلة حتى عبرت الجسر، ثم مضيت فى شارع دار الرقيق حتى انتهيت إلى الصحراء، ثم رجعت إلى باب الأنبار، وانتهيت إلى باب دار نظيف عليه شجرة، وعلى الباب خادم، فعطشت، فقلت للخادم: أعندك ماء تسقينيه؟ قال: نعم، ثم دخل وأحضر قلة نظيفة طيبة الرائحة عليها منديل فناولنى، فشربت، وحضر وقت العصر، فدخلت مسجداً على الباب فصليت فيه، فلما قضيت صلاتى إذ أنا بأعمى يلتمس، فقلت: ما تريد يا هذا؟ قال: إياك أريد. قلت: فما حاجتك؟ فجاء حتى جلس إلى جانبى، وقال: شممت منك رائحة طيبة، فظننت أنك من أهل النعيم فأردت أن أحدثك بشيء، فقلت: قل، قال: ألا ترى إلى باب هذا القصر؟ قلت: نعم، قال: هذا قصر كان لأبى، فباعه، وخرج إلى خراسان وخرجت معه فزالت عنا النعم التى كنا فيها، وعميت، فقدمت هذه المدينة، فأتيت صاحب هذا الدار لأسأله شيئاً يصلنى به وأتوصل إلى سوار، فإنه كان صديقاً لأبى، فقلت: ومن أبوك؟ قال: فلان بن فلان فعرفته، فإذا هو كان من أصدق الناس لى، فقلت له: يا هذا إن الله تعالى قد أتك بسوار، منعه من الطعام والنوم والقرار، حتى جاء به، فأقعه بين يديك، ثم دعوت الوكيل، فأخذت الدراهم منه، فدفعتها إليه، وقلت له: إذا كان الغد فسر إلى منزلى، ثم مضيت، وقلت: ما أحدث أمير المؤمنين بشيء أظرف من هذا، فأتيته، فاستأذنت عليه فأذن لى، فلما دخلت عليه حدثته بما جرى لى فأعجبه ذلك وأمر لى بألفى دينار، فأحضرت، فقال: ادفعها إلى الأعمى، فنهضت لأقوم، فقال: اجلس، فجلست، فقال: أعليك دين؟ قلت: نعم. قال: كم دينك؟ قلت: خمسون ألفاً، فحادثنى ساعة، وقال امض إلى منزلك، فمضيت إلى منزلى فإذا بخادم معه خمسون ألفاً، وقال: يقول لك أمير المؤمنين اقض بها دينك. قال: فقبضت منه ذلك، فلما كان من الغد أبطأ على الأعمى، وأتانى رسول المهدي يدعونى فجئته، فقال: قد فكرت البارحة فى أمرك، فقلت: يقضى دينه، ثم يحتاج إلى القرض أيضاً، وقد أمرت لك بخمسين ألفاً أخرى، قال: فقبضتها وانصرفت، فجاءنى الأعمى، فدفعته إليه الألفى دينار، وقلت له: قد رزقك الله تعالى بكرمه، وكافأك على إحسان أبيك، وكافأنى على إساءة المعروف إليك، ثم أعطيته شيئاً آخر من مالى، فأخذه وانصرف. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومما هو أوضح حسناً وأرجح معنى: ما حكاه القاضى يحيى بن أكثم رحمة الله عليه قال: دخلت يوماً على الخليفة هارون الرشيد ولد المهدي وهو مطرق مفكر، فقال لى: أتعرف قائل هذا البيت؟

الخيرُ أبقى وإن طال الزمان به والشرُ أخبثُ ما أوعيت من زاد

فقلت: يا أمير المؤمنين إن لهذا البيت شأنًا مع عبيد بن الأبرص فقال: علىّ بعبيد، فلما حضر بين يديه قال له: أخبرنى عن قضية هذا البيت، فقال: يا أمير المؤمنين كنت فى بعض السنين حاجاً، فلما توسطت البادية فى يوم شديد الحر سمعت ضجة عظيمة فى القافلة ألحقت أولها بآخرها، فسألت عن القصة، فقال لى رجل من القوم: تقدم ترما بالناس، فتقدمت إلى أول القافلة، فإذا أنا بشجاع أسود فاغر فاه كالجدع وهو يخور كما يخور الثور ويرغو كرهاء البعير، فهالنى أمره وبقيت لا أهدى إلى ما أصنع فى أمره، فعدلنا عن طريقه إلى ناحية أخرى، فعارضنا ثانياً، فعلمت أنه لسبب ولم يجسر أحد من القوم أن يقربه، فقلت: أفدى هذا العالم بنفسى وأتقرب إلى الله تعالى بخلاص هذه القافلة من هذا، فأخذت قرية من الماء، فتقلدتها وسللت سيفى وتقدمت. فلما رآنى قربت منه سكن، وبقيت متوقعاً منه وثبة يبتلعنى فيها، فلما رأى القرية فتح فاه، فجعلت فم القرية فيه، وصببت الماء كما يصب الماء فى الإناء، فلما فرغت القرية تسبب فى الرمل ومضى، فتعجبت من تعرضه لنا وانصرافه عنا من غير سوء لحقنا منه. ومضينا لحجنا ثم عدنا فى طريقنا ذلك وحططنا فى منزلنا ذلك فى ليلة مظلمة مدلهمة، فأخذت شيئاً من الماء وعدلت إلى ناحية عن الطريق، فقضيت حاجتى ثم توضأت وصليت، وجلست أذكر الله تعالى، فأخذتنى عينى، فمنت مكانى، فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حساً، وقد ارتحلوا وبقيت منفرداً لم أر أحداً، ولم أهد إلى ما أفعله، وأخذتنى حيرة

وجعلت أضطرب وإذا بصوت هاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه يقول:

يا أيها الشخص المضل مركبه	ما عنده من ذى وشاد يصحبه
دونك هذا البكر منا تركبه	وبكر الميمون حقاً تجنبه
حتى إذا ما الليل زال غيبه	عند الصباح فى القلا تسببه

فنظرت، فإذا أنا ببكر قائم عندى، وبكرى إلى جانبى، فأنخته وركبته وجنبت بكرى، فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لى القافلة، وانفجر الفجر، ووقف البكر، فعلمت أنه قد حان نزولى فتحولت إلى بكرى وقلت:

يا أيها البكر قد أنجيت من كرب	ومن هموم تضل المدلج الهادى
ألا تخبرنى بالله خالقنا	من ذا الذى جاد بالمعروف فى الوادى
وارجع حميداً فقد بلغتنا مننا	بوركت من ذى سنام رائح غادى

فالتفت البكر إلىّ وهو يقول:

أنا الشجاع الذى أقيتني رمضاً	والله يكشف ضرّ الحائر الصادى
فجئت بالماء لما ضنّ حامله	تكرمنا منك لم تمنن بانكاد
فالخير أبقى وإن طال الزمان به	والشرّ أخسب ما أوعيت من زاد
هذا جزاؤك منى لا أمن به	فاذهب حميداً رعاك الخالق الهادى

فعجب الرشيد من قوله وأمر بالقصة والأبيات، فكتبت عنه، وقال: لا يضيع المعروف أين وضع، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

فى الهجاء ومقدماته

القصد من الهجاء الوقوف على ملحه وما فيه من ألفاظ فصيحة ومعان بديعة، لا التشفى بالأعراض والوقوع فيها. وليس الهجاء دليلاً على إساءة المهجو ولا صدق الشاعر فيما رماه به، فما كل مذموم بذييم، وقد يهجو الإنسان بهتاناً وظلماً أو عبثاً أو إرهاباً. قال المتوكل لأبى العيئة: كم تمدح الناس وتذمهم، قال: ما أحسنوا وأساءوا. وقد رضى الله تعالى على عبد من عبيده فمدحه، فقال: ﴿نعم العبد إنه أواب﴾ [ص: ٤٤] وغضب على آخر، فقال: ﴿مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم﴾ [القلم: ١١، ١٢]، قيل الزنيم: الملصق بالقوم وليس منهم، وقال دعبل^(١) فى المأمون بعد البيعة له، وقتل الأمين:

إنى من القوم الذين همو همو قتلوا أخاك وشرفوك بمقعد
شادوا لذكرك بعد طول خمولة واستنقذك من الحضيض الأوهد

فقال المأمون: ما أبهته ليت شعرى متى كنت خاملاً، وفى حجر الخلافة ربيت وبدرها غذيت. ولما قتل جعفر بن يحيى بكى عليه أبو نواس، فقيل له: أتبكي على جعفر وأنت هجوته؟ فقال: كان ذلك لركوب الهوى، وقد بلغه والله أنى قلت:

ولست وإن أطبت فى وصف جعفر بأول إنسان خرى فى ثيابه
فكتب يدفع إليه عشرة آلاف درهم يغسل بها ثيابه. ومن العبث بالهجو ما روى أن الخطيئة هم بهجاء. فلم يجد من يستحقه فقال:

أبت شفتى اليوم إلا تكلمما بسوء فلا أدري لمن أنا قائله
أرى بى وجهها قبّح الله خلقه فقبح من وجهه وقبح حامله
وعبث بأمه فقال:

تنحى فاجلسى عنا بعيداً أراح الله منك العـالمينا
أغربالاً إذا استودعت سرّاً وكانونا على المحـادثينا
حياتك ما علمت حياة سوء وموتك قد يسر الصالحين

وقال رجل: ما أبالى أهجيت أم مدحت. فقال له الأحنف: أرحت نفسك من حيث تعب الكرام. وقال رجل آخر: إن هجوتنى أتموت ابنتى؟ قال: لا، قال: أفتخرب ضيعتى؟ قال: لا، قال: فرجلى مع ساقى إلى حلقى فى حر أمك، قال: ولم تركت رأسك؟ قال: لأنظر ما تصنع. وأنا أقول: إنما يخشى من الهجو من يخاف على عرضه وأما من لا يخاف على عرضه فقد يستوى عنده المدح والذم وبش الرجل ذاك. وكان الرجل من نيمر إذا قيل له: ممن الرجل؟ يقول: من نيمر وأمال بها عنقه، فلما هجاهم جرير بقوله:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

(١) دعبل: هو دعبل بن على أبو على الخزامى الشاعر المشهور، له شعر فى الرقائق وكتاباً فى (طبقات الشعراء) أصله من الكوفة وقيل: اسمه محمد وكنيته، أبو جعفر، ودعبل لقب له، والدعبل: الشيء القديم، وكان خبيث اللسان، قبيح الهجاء، ولد سنة (١٤٨هـ) وتوفى سنة (٤٤٦هـ) وقيل: قتله المعتصم.

صار إذا قيل لأحدهم: ممن الرجل: يقول من بنى عامر. وما لقيت قبيلة من العرب بهجو ما لقيت نكير بهجو جرير.
وهجا ابن بسام رجلاً فقال:

يا طلوع الرقيب من غير ألف يا غريمًا أتى على ميعاد
يا ركوداً في وقت غيم وصيف يا وجوه التجار يوم كساد
وقصد ابن عينة قبضة المهلبى. واستماحه. فلم يسمح له بشيء فانصرف مغضباً، فوجه إليه داود بن يزيد بن
حاتم، فترضاه: وأحسن إليه، فقال فى ذلك:

داود محمود وأنت مذمم عجباً لذاك وأنتما من عود
ولربّ عود قد يشقّ لمسجد نصفاً وباقيه لحشّ يهودى
فالحشّ أنت له وذاك بمسجد كم بين موضع مسلح وسجود
هذا جزاؤك يا قبيص لأنه جادت يده وأنت قفل حديد

وله هجاء فى خالد:

أبوك لنا غيثٌ يغيث بوبله وأنت جرادٌ لست تبقي ولا تذر
له أثرٌ فى المكرمات يسرنا وأنت تعفى دائماً ذلك الأثر

وقال المبرد فى حقه: لم يجتمع لأحد من المحدثين فى بيت واحد هجاء رجل ومدح أبيه إلّا له. ولما قعد حماد بن
عجرد لتأديب ولد الأمين. قال بشار بن برد:

قل للأمين جزاك الله صالحة لا يجمع الله بين السخل والديب
السخل يعلم أن الذئب أكله والذئب يعلم ما بالسخل من طيب
وقال فيه أيضاً:

يا أبا الفـضل لا تنم وقع الذئب فى الفـنم
إن حماد عـجـرد شيخٌ سوءٍ قد اغـتـنم
بين فـخـذيه حـرـبةٌ فى غـفـلاف من الأدم
إن رأى ثم غـفـلةٌ يجمع الميم بالقلم
فشاعت الأبيات، فأمر الأمين بإخراج حماد.

وقال رجل لأخيه لأبويه: لأهجونك هجاء يدخل معك فى قبرك، قال: كيف تهجونى وأبوك أبى، وأمك أمى؟ قال
أقول:

بنى أمية هبوا طال نومكمو إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الماء والعود
فدخل يعقوب على المهدي، فأخبره أن بشاراً هجاء، فاغتاظ المهدي وانحدر إلى البصرة لينظر فى أمرها، فسمع أذاناً
فى ضحى النهار فقال: انظروا ما هذا، وإذا به بشار وهو سكران، فقال له: يا رنديق عجب أن يكون هذا من غيرك،
ثم أمر به فضربه سبعين سوطاً حتى أتلفه بها وألقى فى سفينة، فقال عين الشمقمق ترانى حيث يقول:

إن بشــــار بن برـدٍ تيس أعمى فى سـفـينة
فلما مات ألقيت جثته فى الماء . فحمله الماء ، فأخرجه إلى الدجلة ، فجاء بعض أهله ، فحملوه إلى البصرة ،
وأخرجت جنازته ، فما تبعه أحد ، وتباشر عامة الناس بموته لما كان يلحقهم من الأذى منه . وخاصم أبو دلامة رجلاً ،
فارتفعا إلى عافية القاضى ، فلما رآه أبو دلامة أنشد يقول :

لقد خاصمتنى دهاة الرجال وخاصمتها سنة وافية
فما أدحض الله لى حجة ولا خيب الله لى قافية
ومن خفت من جوره فى القضاء فلت أخافك يا عافية

فقال عافية : لأشكونك إلى أمير المؤمنين ولأعلمنه أنك هجوتنى قال له أبو دلامة : إذا والله يعزلك . قال : ولم ؟
قال : لأنك لا تعرف الهجاء من المدح ، قال : فبلغ ذلك المنصور ، فضحك وأمر له بجائزة . ودخل أبو دلامة على المهدي
وعنده إسماعيل بن على ، وعيسى بن موسى والعباس بن محمد ، وجماعة من بنى هاشم ، فقال له المهدي : والله لئن لم
تهج واحداً ممن فى هذا البيت لأقطعن لسانك . فنظر إلى القوم وتحير فى أمره ، وجعل ينظر إلى كل واحد ، فيغمزه بأن
عليه رضاه ، قال أبو دلامة ، فازددت حيرة ، فما رأيت أسلم لى من أن أهجو نفسى ، فقلت :

ألا أبلغ لديك أبا دلامة فلست من الكرام ولا كرامه
جمعت دمامة وجمعت لؤماً كذاك اللؤم تتبعه الدمامه
إذا لبس العمامة قلتُ قرداً وخنزيراً إذا نزع العمامة

فضحك القوم ولم يبق منهم أحداً إلا أجازه .

وقال ابن الأعرابى : إن أهجى بيت قاله المحدثون قول محمد بن وهب فى محمد بن هاشم :

لم تندُ كفاك من بذل النوال كما لم يند سـيـفك مـذ قـلـدته بدم

وهجا بعضهم القمر ، فقال : يهدم العمر ويوجب أجرة المنزل ويشحب الألوان ، ويقرض الكتان ، ويضل السارى ،
ويعين السارق ويفضح العاشق . ولابن منقذ فى ابن طليب المصرى وقد احترقت داره :

انظر إلى الأيام كيف تسوقنا قسراً إلى الأقدار بالأقدار
ما أوقد ابن طليب قط بداره ناراً وكان خرابها بالنار

وكان للوجيه بن صورة المصرى دلال الكتب ، دار بمصر موصوفة بالحسن فاحترقت ، فقال فيها ابن المنجم :

أقول وقد عاينت دار ابن صورة وللنار فيها وهجة تضرم
فما هو إلا كافر طال عمره فجاءته لما استبطأته جهنم

وقد أحسن الأديب كمال الدين على بن محمد بن المبارك الشهير بابن الأعمى فى ذم دار كان يسكنها حيث قال :

دار سكنت بها أقل صفاتها أن تكثر الحشرات فى جنباتها
الخير عنها نازح متباعد والشر دان من جميع جهاتها
من بعض ما فيها البعوض عذمته كم أعدم الأجفان طيب سناتها

وتبيت تسعدها براغيث متى
 رقص بتنقيط ولكن قافيه
 وبها ذباب كالضباب يسد عين
 أين الصوارم والقنا من فتكها
 وبها من الخطاف ما هو معجز
 وبها خفافيش تطير نهارها
 وبها من الجرذان ما قد قصرت
 وبه خنافس كالطنافس أفرشت
 لو شم أهل الحرب منتن فسووها
 وبنات وردان وأشكال لهوا
 أبداً تمص دمائنا فكانت لها
 وبها من النمل السليماني منا
 ما راعنى شيء سوى وزغاتها
 سجعت على أوكارها فظنتها
 وبها زنابير تظن عقارباً
 وبها عقارب كالأقارب رتع
 كيف السبيل إلى النجاة ولا نجاة
 منسوجة بالعنكبوت سماؤها
 فضجيجها كالرعد فى جنباتها
 والبوم عاكفة على أرجائها
 والجن يأتينا إذا جن الدجى
 والنار جزء من تلهب حرها
 شاهدت مكتوباً على أرجائها
 لا تقربوا منها وخافوها ولا
 أبداً يقول الداخلون ببابها
 قالوا إذا ندب الغراب منازلها
 ودارنا ألفاً غراب ناعق
 صبراً لعل الله يعقب راحه
 دار تبيت الجن تحرس نفسها
 كم بت فيها مفرداً والعين من

غنت لها رقصت على نغماتها
 قد قدمت فيه على أخواتها
 الشمس ما طربى سوى غنائها
 فينا وأين الأسد من وثباتها
 أبصارنا عن وصف كيفياتها
 مع ليلها ليست على عاداتها
 عنه العتاق الجرد فى حملاتها
 فى أرضها وعلت على جنباتها
 أردى الكمأة الصيد عن صهواتها
 مما يفوت العين كنه ذواتها
 حجارة لبدت على كاساتها
 قد قل ذر الشمس عن ذراتها
 فتعمودوا الله من لدغاتها
 ورق الحمام سجعن فى شجراتها
 حر السموم أخف من زفراتها
 فينا حمانا الله لدغ حماتها
 ولا حياة لمن رأى حيياتها
 والأرض قد نسجت على آفاتها
 وترايبها كالرمل فى خشناتها
 والدود يبحث فى ثرى عرصاتها
 تحكى الخيول الجرد فى حملاتها
 وجهنم تعزى إلى لفحانها
 ورأيت مسطوراً على جنباتها
 تلقوا بأيديكم إلى هلكاتها
 يارب نج الناس من آفاتها
 يتفرق السكان من ساحاتها
 كذب الرواة فأين صدق رواتها
 للنفس إذا غلبت على شهواتها
 فيها وتندب باختلاف لغاتها
 شوق الصباح تسح من عبراتها

وللشريف أبي يعلى الهاشمي البغدادي في نظام الملك يهدده بالهجاء يقول:

يا رازقاً للوحش في فلواتها
أخرى هب لي الخلد في جناتها
يا جامع الأرواح بعد شتاتها

وأقول يارب السموات العلا
أسكتني بجهنم الدنيا ففي
واجمع بمن أهواه شملى عاجلاً
ولبعضهم في بلان:

مست أنامله ظهري فأدمناني
ولا يسرح تسريحاً بإحسان

أشكوا إلى الله بلاناً بليت به
فلا يدلك تدليكا بمعرفة
وللشيخ شمس الدين البدوي في بلان أيضاً:

به حد الشففار المرهفات
على حلل الستور السابلات
فأبسهها وكسر فوقحاني
وذلك من عظيم المهلكات
يفسوح به على كل الجهات
يغسلني إذا حانت وفاتي

وبلان له ظهر يبساها
هرى جسمي فالبسه نجيعاً
ورام يلين أعضائي برفق
ولم أنظر له أبداً حميلاً
وأعمى مقلتي بصنان إبط
فلا تجعل إلهي مثل هذا
ولبعضهم في حمام:

حكى سقراً وفيها المجرمونا
فلإن عدنا فلإننا ظالمون

وحمام دخلناه لأمر
فيصطرخوا يقولوا أخرجونا

وللشريف أبي يعلى الهاشمي البغدادي في نظام الملك يهدده بالهجاء يقول:

أعاود من ذراك كما قدمت
بأقواه السقاة وما وردت
ويخبر عن نوالك إن كتبت
وقد عم الوري كرمأ سكت

أيجمل يا نظام الملك أتى
وأصدر عن حياضك وهي نهب
يدل على فعالك سوء حالي
إذا استخبرت ماذا نلت منه

وللشريف أبي يعلى الهاشمي البغدادي في نظام الملك يهدده بالهجاء يقول:

ومثلك إن قال قولاً يفى
ولا هجيت وأدخلت في
فغط الحديث ولا تكشف

أبا جعفر لست بالمنصف
فإن أنت أنجزت لي ما وعدت
وقد علم الناس ما بعد في

(١) الخوارزمي: هو محمد بن موسى الخوارزمي، فلكي، رياضي، مؤرخ، جغرافي، من أهل خوارزم، أقامه المأمون العباسي قياً على خزنة كتبه، وعهد إليه بجميع الكتب اليونانية، وترجمتها وأمره باختصار (المجسطي) لبطليموس، فاختصره وسماه (السنهتد) أي (الدهر الداهر) وله مصنفات منها «الجبر والمقابلة» و«تقويم البلدان» و«صورة الأرض من المدن والجبال» عاش إلى ما بعد وفاة الواثق بالله وتوفي حوالي (٨٥٠م).

وممن عرض بالهجو في شعره الخوارزمي^(١) قال في أبي جعفر:

أعد مدحى علىّ ونخذ سواء فقد أتعبتنى يامستريح
ولا تغضب إذا أنشدت يوماً سواء وقيل هذا صحيح

ومدح السراج الوراق إنساناً فلم يجزه فكتب يعرض له بالهجاء ويهدده يقول:

أعد مدحاً كذبت عليك فيه وقد عوقبت بالحرمان عنه
ولكنى سأصدق فيك قولاً فلا يصعب عليك الحق منه

مضوا ليحجّوا كأنها تكاد لفرط البشر أن توضح السبلا
وعادوا كأنّ القار فوق وجوههم فلا مرحباً بالقادمين ولا سهلاً
وجاءوا وما جادوا بعود أراكة ولا وضعوا في كف طفلٍ لنا بقلأ

وقال آخر:

إذا رمت هجواً في فلان تصدنى خلّاق قبح عنه لا تتزحزح
تجاوز قدر الهجو حتى كأنه بأقبح ما يهجي به المرء يمدح
وهجا بعضهم امرأة فقال:

لها جسم برغوثٍ وساق بعوضة ووجهه كوجه القرد بل هو أقبح
تُبرق عينيها إذا ما رأيتها وتعبس في وجه الضجيع وتكلح
لها منظرٌ كالنار تحسب أنها إذا ضحكت في أوجه الناس تلفح
إذا عاين الشيطان صورة وجهها تعود منها حين يمسي ويصبح
ولبعضهم في عظيم أنف:

لك وجهٌ وفيه قطعة أنف كجدارٍ قد دغموه ببغله
وهو كالقبر في المثال ولكن جعلوا نصفه على غير قبله
وفيه أيضاً:

رأينا للزكى جدار أنف يضامى في تشامخه الجبالا
تصدى للهلال لكى يراه فلولا عظمه لراى الهلالا
ولبعضهم في أبخر مخنث:

قالوا فلان به نتن فقلت لهم يا قوم قد حار فكرى فى مساويه
يا قوم لا تعجبوا من نتن نكهته فالأير يدفع ما فيه إلى فيه
ولصفى الدين الحلى:

رأى فرسى اصطبل عيسى فقال لى قفانبك من ذكرى حبيب ومترل

به لم أذق طعم الشعير كائننى
تقمقع من برد الشتاء أضالعى
وله أيضاً:

ليهنك إنَّ لى ولدًا وعبدًا
فهذا سابقٌ من غير سين
وله فى طبيب يدعى إسحاق:

مباضع إسحاق الطبيب كأنها
معودة أن لا تسلّ نصالها
وله فى أحق طويل اللسان:

لو أن قسوة وجهه فى قلبه
أو كان طول لسانه بيمينه
وهجا أعرابى رجلاً ثم مدحه فقال:

إنى مدحتك فى فساد قريحتى
لكن رأيت المسك عند فساده

وله أيضاً يقول:

وقال بعضهم فى حجّاج قدموا ولم يهدوا إليه شيئاً:

وقيل لبعضهم: ما تقول فى فلان وفلان؟ قال: هما الخمر والميسر إثمهما أكبر من نفعهما.

وقيل لرجل: كيف وجدت فلاناً؟ قال: طويل اللسان فى اللؤم، قصير الباع فى الكرم، وثاباً على الشر مناعاً للخير.

هجون زهيراً ثم إنى مدحته

وما زالت الأشراف تُهجى وتُمدح

وسمع أعرابى قوله تعالى: ﴿الاعراب أشد كفراً ونفاقاً﴾ [التوبة: ٩٧]. فانتفض، ثم سمع قوله تعالى: ﴿ومن الأعراب

ولقد قتلتك بالهجاء فلم تمتْ

إنّ الكلاب طويلة الأعمار

من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ [التوبة: ٩٩]. فقال: الله أكبر هجائاً ثم مدحتنا، وكذلك قال الشاعر:

إذا رضيت عنى كرامٌ عشييرتى

فلا زال غضباً على لئامها

استب رجلان، فقال أحدهما للآخر: لو قطع زبك وعلق، لم تبز زانية بالكوفة إلا عرفته. وقال أبو زيد العبدى:

وقال المتوكل لأبى العيناء: ما بقى أحد فى المجلس إلا هجاك، وذمك غيرى فقال:

بسقط اللوى بين الدخول فحومل
لما نسجتها من جنوبٍ وشمال

سواء فى المقال وفى المقام
وهذا عاقلٌ من غير لام

لها بفناء العالمين كفيلٌ
فتفمد حتى يستباح قتيلٌ

قنص الأسود وجندل الأبطال
أفنى الكنوز وأنفد الأموال

وعلمت أن المدح فىك يضيعُ
يدنى إلى بيت الخلا فيضوع

فى الصدق والكذب وفيه فصلان

الفصل الأول: فى الصدق

قال الله تعالى مبشراً للصادقين: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]. وقال تعالى: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. فمدحهم وبين لهم المغفرة والأجر العظيم.

وقال عمر رضى الله عنه: عليك بالصدق وإن قتلك، وما أحسن ما قيل فى ذلك:

عليك بالصدق ولو أنه أحرقك الصدق بنار الوعيد
وأبغ رضا المولى فأغضبى الورى من أسخط المولى وأرضى العبيد

وقال إسماعيل بن عبيد الله: لما حضرت أبى الوفاة جمع بينه، فقال لهم: يا بنى عليكم بتقوى الله وعليكم بالقرآن، فتعاهدوه، وعليكم بالصدق حتى لو قتل أحدكم قتيلاً، ثم سئل عنه أقربيه، والله ما كذبت كذبة قط مذ قرأت القرآن. وعن عائشة رضى الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ بم يعرف المؤمن؟ قال: «بوقاره ولين كلامه، وصدق حديثه». وقيل: لكل شىء حلية وحلية النطق الصدق.

وقال محمود الوراق:

الصدق منجاة لأربابه وقسرة تدنى من الرب

وقيل: الصدق عمود الدين، وركن الأدب، وأصل المروءة، فلا تتم هذه الثلاثة إلا به. وقال أرسطاطاليس: أحسن الكلام ما صدق فيه قائله، وانتفع به سامعه. وقال المهلب بن أبى صفرة: ما السيف الصارم فى يد الشجاع بأعز له من الصدق. وكان يقال على الصدوق: فلان وقف لسانه على الصدق. ويقال: الصدق محمود من كل أحد إلا من الساعى. ويقال: لو صدق عبد فيما بينه وبين الله تعالى حقيقة الصدق لاطلع على خزائن الغيب، ولكان أميناً فى السماوات والأرض. وقيل: من لزم الصدق وعود لسانه به وفق. ويقال: الصدق بالحر أحرى. وقال عتبة بن أبى سفيان: إذا اجتمع فى قلبك أمران لا تدرى أيهما أصواب، فانظر أيهما أقرب إلى هواك، فخالقه، فإن الصواب أقرب إلى مخالفة الهوى. وقال أرسطاطاليس: الموت مع الصدق خير من الحياة مع الكذب. وكان نقش خاتم ذى وزن: «وضع الخد للحق عز» وامتدح ابن ميادة جعفر بن سليمان، فأمرله بمائة ناقة، فقبل يده، وقال: والله ما قبلت يد قرشى غيرك إلا واحداً، فقال: أهو المنصور؟ قال: لا والله، قال: فمن هو؟ قال: الوليد بن يزيد. قال: فغضب، وقال: والله ما قبلتها لله تعالى، فقال: والله ولا يدك ما قبلتها لله تعالى، ولكن قبلتها لنفسى، فقال: والله لا ضرك الصدق عندى أعطوه مائة أخرى.

وقال عامر العدوانى فى وصيته: إنى وجدت صدق الحديث طرفاً من الغيب فاصدقوا، يعنى من لزم الصدق وعود لسانه وفق، فلا يكاد ينطق بشىء يظنه إلا جاء على ظنه. وخطب بلال لأخيه امرأة قرشية، فقال لأهلها: نحن من قد عرفتم، كنا عبيدين فاعتقنا الله تعالى، وكنا ضالين فهدانا الله تعالى، وكنا فقيرين فأغنانا الله تعالى، وأنا أخطب إليكم فلانة لأخى، فإن تنكحوها له فالحمد لله تعالى، وإن تردونا، فالله أكبر. فأقبل بعضهم على بعض. فقالوا: بلال ممن عرفتم سابقته، ومشاهده ومكانه من رسول الله ﷺ. فزوجوا أخاه، فزوجوه، فلما انصرفوا قال له أخوه: يغفر الله لك أما كنت تذكر سوابقنا ومشاهدنا مع رسول الله ﷺ وتترك ما عدا ذلك، فقال: مه يا أخى صدقت فأنكحك الصدق.

وخطب الحجاج فأطال، فقام رجل. فقال: الصلاة، فإن الوقت لا يتطرك والرب لا يعذرك، فأمر بحبسه، فاتاه قومه ورعموا أنه مجنون وسألوه أن يخلى سبيله، فقال: إن أقر بالجنون خليته، فقبل له، فقال: معاذ الله لا أرعم أن الله ابتلانى وقد عافانى. فبلغ ذلك الحجاج، فعفا عنه لصدقه.

الفصل الثانی: من هذا الباب: فی الکذب وما جاء فيه

قال الله تعالى في الكاذبين: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠]. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]. وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار. وتحروا الصدق فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة». وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كذب العبد كذبة تباعد الملكان عنه مسيرة ميل من تن ما جاء به». ويقال: راوى الكذب أحد الكذابين. ويقال: رأس المآثم الكذب وعمود الكذب البهتان. وقيل: أمران لا ينفكان من الكذب، كثرة المواعيد، وشدة الاعتذار. وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]. وهي لكل واصف كذب إلى يوم القيامة. وقال الأصمعي: قلت لكذاب أصدقت قط؟ قال: لولا أني أخاف أن أصدق في هذا لقلت لك لا، فتعجب.

وقال محمود بن أبي الجنود:

لى حيلة فـيـمن ينم وليس فى الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقول فـحـيـلتى فـيـه قـلـيـلـة

ويقال: فلان أكذب من لمعان السراب، ومن سحاب تموز. وكان بفارس محتسب يعرف بجراب الكذب، وكان يقول: إن منعت الكذب انشقت مرارتى، وإنى والله لأجد به مع ما يلحقنى من عاره من المسرة ما لا أجده بالصدق مع ما ينالنى من نفعه. وقال فيلسوف: من عرف من نفسه الكذب لم يصدق الصادق فيما يقوله. ولبعضهم:

حسب الكذوب من البلية بعض ما يحكى عليه
فمـتى سمعت بكذبة من غيره نسبت إليه

وأضاف صيرفى قوماً. فأقبل يحدثهم، فقال بعضهم: نحن كما قال تعالى: ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْأَلُونَ لِلْسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]. وعن عبد الله بن السدى قال: قلت لابن المبارك حدثنا حديثاً، قال: ارجعوا، فلست أحدثكم، فقل له: إنك لم تحلف، فقال: لو حلفت لكفرت وحديثكم، ولكن لست أكذب، فكان هذا أحب إلينا من الحديث. وقال مجاهد: يكتب على ابن آدم كل شيء حتى أنينه فى سقمه، وحتى أن الصبى يبكى، فتقول له أمه: اسكت واشترى لك كذا، ثم لا تفعل، فتكتب كذبة، وقال الفضيل: ما من مضغة أحب إلى الله تعالى من اللسان إذا كان صدوقاً. ولا مضغة أبغض إلى الله تعالى من اللسان إذا كان كذوباً. وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه مرفوعاً: «أعظم الخطايا اللسان الكذوب» قال الشاعر:

لا يكذب المرء إلا من مهانتبه أو فعله السوء أو من قلة الأدب
لبعض جيفة كلب خير رائحة من كسذبة المرء فى جـد وفى لعب

ولما نصب معاوية رضى الله تعالى عنه ابنه يزيد لولاية العهد أقعده فى قبة حمراء وجعل الناس يسلمون على معاوية، ثم يسلمون على يزيد، حتى جاء رجل، ففعل ذلك، ثم رجع إلى معاوية فقال: يا أمير المؤمنين اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها، والأحنف ساكت، فقال معاوية: ما لك لاتقول يا أبا بحر؟ فقال: أخاف الله تعالى

إن كذبت وأخافكم إن صدقت. فقال: جزاك الله خيراً عما تقول، ثم أمر له بالوف، فلما خرج الأحنف لقيه ذلك الرجل بالباب، فقال له: يا أبا بحر إني لأعلم أن هذا من شرار خلق الله تعالى، ولكنهم استوثقوا من الأموال بالأبواب والأقفال، فلسنا نطمع في إخراجها إلا بما سمعت، فقال له الأحنف: يا هذا أمسك، فإن ذا الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيهاً. وقيل: إن الكذب يحمّد إذا وصل بين المتقاطعين أو أصلح بين الزوجين، ويذم الصدق إذا كان غيبة، وقد رفع الحرج عن الكاذب في الحرب، وعن المصلح بين المرء وزوجه، وكان المهلب في حرب الخوارج يكذب لأصحابه يقوى بذلك جأشهم، فكانوا إذا رأوه مقبلاً إليهم، قالوا: جاءنا بكذب. وقال يحيى بن خالد: رأينا شارب خمر نزع ولصاً أقلع وصاحب فواحش رجيع، ولم نر كذاباً صار صادقاً. وكان عمر بن معد يكرب مشهوراً بالكذب. وقيل لخلف الأحمر وكان شديد التعصب لليمن: أكان ابن معد يكرب يكذب؟ فقال: كان يكذب في المقال، ويصدق في الفعال. قيل: إن بلالاً لم يكذب منذ أسلم رضي الله تعالى عنه، والحمد لله وحده.

فى بر الوالدين وذم العقوق وذكر الأولاد وما يجب لهم

وعليهم وصلة الرحم والقربات وذكر الأنساب وفيه فصول

الفصل الأول: فى بر الوالدين وذم العقوق

قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]. وعن على رضى الله تعالى عنه: لو علم الله شيئاً فى العقوق أدنى من أف لحرمة، فليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة، وليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار. وقيل: إن رضا الرب فى رضا الوالدين وسخط الرب فى سخط الوالدين.

وحكى أبو سهل عن أبى صالح، عن أبى نجيع، عن ربيعة، عن عبد الرحمن، عن عطاء بن أبى مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «من حج عن والده بعد وفاته كتب الله لوالده حجة وكتب له براءة من النار» وقال رسول الله ﷺ: «إياكم وعقوق الوالدين فإن ربح الجنة يوجد من مسيرة خمسمائة عام، ولا يجد ربحها عاق». وكان رجل من النساك يُقبل كل يوم قدم أمه، فأبطأ يوماً على إخوته، فسألوه، فقال: كنت أتمرغ فى رياض الجنة، فقد بلغنا أن الجنة تحت أقدام الأمهات، وبلغنا أن الله تعالى كلم موسى عليه السلام ثلاثة آلاف وخمسمائة كلمة فكان آخر كلامه، يارب أوصنى قال: أوصيتك بأمر حسن، قال له سبع مرات، قال حسبي، ثم قال: يا موسى ألا إن رضاها رضاى، وسخطها سخطى. وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه لابن مهران: لاتأتين أبواب السلاطين، وإن أمرتهم بمعروف أو نهيتهم عن منكر، ولا تخلون بامرأة وإن علمتها سورة من القرآن، ولا تصحب عاقاً، فإنه لن يقبلك وقد عاق والديه. وقال فيلسوف: من عاق والديه عقه ولده. وقال المأمون: لم أر أحداً أبر من الفضل بن يحيى بأبيه، بلغ على بره له أنه كان لا يتوضأ إلا بماء سخن، فمنعهم السجن من الوقود فى ليلة باردة، فلما أخذ يحيى مضجعه قام الفضل إلى قمقم نحاس فملأه ماء وأدناه من المصباح. فلم يزل قائماً وهو فى يده إلى المصباح حتى استيقظ أبوه من منامه.

وقيل: طلب بعضهم من ولده أن يسقيه ماء، فلما أتاه بالشرية نام أبوه. فما زال الولد واقفاً بالشرية فى يده إلى الصباح حتى استيقظ أبوه من منامه. وقال رجل لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: إن لى أماً بلغ منها الكبر أنها لا تقضى حاجتها إلا وظهرى لها مطية، فهل أديت حقها؟ قال: لا. لأنها كانت تصنع بك ذلك وهى تتمنى بقاءك، وأنت تصنعه وتتمنى فراقها. وقال ابن المنكدر: بت أكبس رجل أبى وبات آخر يصلى ولايسرنى ليلته بليلى. وقيل: إن محمد بن سيرين كان يكلم أمه كما يكلم الأمير الذى لا يتصف منه. وقيل لعلى بن الحسين رضى الله تعالى عنه: إنك من أبر الناس ولا تأكل مع أمك فى صحفة، فقال: أخاف أن تسبق يدي يدها إلى ما تسبق عيناها إليه، فأكون قد عققته.

الفصل الثانى: فى الأولاد وحقوقهم وذكر النجباء والأذكىاء والبلداء والأشقياء

قال رسول الله ﷺ: «الولد ريحانة من الجنة». وقال الفضل: ربح الولد من الجنة. وكان يقال: ابنك ريحانتك سبعا ثم حاجبك سبعا، ثم عدو أو صديق. وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال: قلت لسيدى رسول الله ﷺ يا رسول الله: هل يولد لأهل الجنة؟ قال: «والذى نفسى بيده إن الرجل يشتهى أن يكون له ولد، فيكون حملاً ووضعته وشبابه الذى ينتهى إليه فى ساعة واحدة». وقيل: من حق الولد على والده أن يوسع عليه حاله كى لا يفسق. وقال عمر رضى الله تعالى عنه: إنى لأكره نفسى على الجماع رجاء أن يخرج الله منى نسمة تسبحه وتذكره. وقال رضى الله تعالى عنه: أكثروا من العيال، فإنكم لاتدرون بمن ترزقون. وقال شبيب بن شبة: ذهب اللذات إلا من ثلاثة: شم الصبيان، وملاقة الإخوان، والخلوة مع النسوان. ودخل عمرو بن العاص على معاوية وعنده ابنته عائشة فقال: من هذه

وحكى الكسائي أنه دخل على الرشيد يوماً فأمر بإحضار الأمين والمأمون ولديه، قال: فلم يلبث قليلاً أن أقبل
ككوكبي أفق يزينهما هداهما ووقارهما وقد غضاً أبصارهما حتى وقفنا في مجلسه، فسلما عليه بالخلافة، ودعوا له
بأحسن الدعاء، فاستدناهما، وأسند محمداً عن يمينه وعبد الله عن يساره، ثم أمرني أن ألقى عليهما أبواباً من النحو،
فما سألتهما شيئاً إلا أحسنا الجواب عنه، فسره ذلك سروراً عظيماً، وقال: كيف تراهما؟ فقلت:

ثم قلت: ما رأيت - أعز الله أمير المؤمنين - أحداً من أبناء الخلافة ومعدن الرسالة وأغصان هذه الشجرة الزلالية آدب منهما السناً، ولا أحسن الفاظاً، ولا أشد اقتداراً على الكلام روية وحفظاً منهما، أسأل الله تعالى أن يزيد بهما الإسلام تأييداً وعزاً، ويدخل بهما على أهل الشرك ذلاً وقمعاً، وأمن الرشيد على دعائه، ثم ضمهما إليه، وجمع عليهما يديه، فلم يسطهما حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره، ثم أمرهما بالخروج وقال: كأنكم بهما وقد دهم القضاء، ونزلت مقادير السماء، وقد تشّت أمرهما، وافتترقت كلمتهما بسفك الدماء، وتهتك الستور. وكان يقال بنو أمية دنّ خل أخرج الله منه زقّ عسل، يعني عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه. وسب أعرابي ولده وذكر له حقه، فقال: يا أبتاه إن عظيم حقدك علىّ لا يبطل صغير حقى عليك. قال سيدى عبد العزيز الديرينى رحمه الله تعالى:

وقال هارون بن علي بن يحيى المنجم:

وقال أبو النصر مولى بني سليم:

241

وقال الحسن بن زيد العلوي:

قالوا عقيم لم يولد له ولدُ والمرء يخلفه من بعده الولدُ
فقلت من علقت بالحرب همته عاف النساء ولم يكثر له عدد

وكان الزبير بن العوام رضى الله عنه يرقص ولده ويقول:

أزهر من آل بنى عتيق
مبارك من ولد الصديق
ألذه كـمـا ألذ ريقى

وكانت أعرابية ترقص ولدها وتقول:

يا حـبـبـيـذا ريح الولد ريح الخزامى فى البلد
أهـكـذا كـلـ ولـد أم لم يلد مـثـلى أحـد

وكان أعرابى يرقص ولده ويقول:

أحببه حب الشحيح ماله
قد ذاق طعم الفقر ثم ناله
إذا أراد بذله بدا له

وكان لأعرابى امرأتان. فولدت إحداهما جارية والأخرى غلاماً، فرقصته أمه يوماً وقالت معايرة لضررتها:

الحمـد لله الحميد العالى أنقذنى العمام من الجـوالى
من كل شـوهاء كـشـن بالى لاتدفع الضميم عن العيـال
فسمعتها ضررتها فأقبلت ترقص ابتها وتقول:

ومـا على أن تكون جـارية تغسل رأسى وتكون الفـالـيه
وترفع الساقط من خـماريه حتى إذا بلغت ثـمـانيـه
أزرتها بنقبة يمانيه أنكحتها مروان أو معاوية

أصهار صدق ومهور غاليه

قال فسمعها مروان، فتزوجها على مائة ألف مثقال، وقال إن أمها حقيقة أن لا يكذب ظنها ويخان عهدها، فقال معاوية: لولا مروان سبقنا إليها لأضعفنا لها المهر ولكن لانحرم الصلة، فبعث إليها بمائتى ألف درهم والله أعلم.

ومما جاء فى الأولاد البلداء القليلى التوفيق قيل: نظر أعرابى إلى ولد له قبيح المنظر، فقال له: يا بنى إنك لست من زينة الحياة الدنيا. وقال رجل لولده وهو فى المكتب: فى أى سورة أنت؟ قال: لا أقسم بهذا البلد ووالدى بلا ولد، فقال: لعمرى من كنت أنت ولده، فهو بلا ولد. وأرسل رجل ولده يشتري له رشاء للبئر طوله عشرون ذراعاً، فوصل إلى نصف الطريق، ثم رجع فقال: يا أبت عشرون فى عرض كم؟ قال: فى عرض مصيبتى فيك يا بنى. وكان لرجل من الأعراب ولد اسمه حمزة، فبينما هو يوماً يمشى مع أبيه إذ برجل يصيح بشاب يا عبد الله، فلم يجبه ذلك الشاب، فقال: ألا تسمع؟ فقال: يا عم كلنا عبيد الله، فأى عبد تعنى، فالتفت أبو حمزة إليه وقال: يا حمزة ألا تنظر إلى بلاغة هذا الشاب؟ فلما كان من الغد إذ برجل ينادى شاباً يا حمزة، فقال حمزة ابن الأعرابى كلنا حماميز الله، فأى حمزة

تعنى، فقال له أبوه ليس يعنك يا من أحمد الله به ذكر أبيه. وكان لمحمد بن بشير الشاعر ابن جسيم، فأرسله فى حاجته، فأبطأ عليه، ثم عاد ولم يقضها، فنظر إليه ثم قال:

عقله عـقل طائر وهو فى خلقه الجـمل

فأجابه:

مـشـبـه بك يا أبى ليس لى عنك منتـقل

ونهى أعرابى ابنه عن شرب النبيذ، فلم يته وقال:

أمن شربة من ماء كرم شربتها

سأشرب فأسخط لأرضيت كلاهما

وقيل: قال ذلك يزيد بن معاوية لأبيه حين نهاه عن شرب الخمر.

ومما جاء فى صلة الرحم: قال رسول الله ﷺ: «صلة الرحم منهاة للولد مثرة للمال». وقيل: وجد حجر حين حفر إبراهيم الخليل عليه السلام أساس البيت، مكتوب عليه بالعبرانية، أنا الله ذو بكة خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمائى، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بته، أى قطعته. وقال رسول الله ﷺ: «أعجل الخير ثواباً صلة الرحم». وحدثنا أبو سهل عن صالح بن جرير بن عبد الحميد عن منصور، عن عطاء بن أبى مروان عن أبيه كعب الأحبار أنه قال: والذى فلق البحر لموسى بن عمران إن فى التوراة لمكتوباً، يا ابن آدم اتق ربك وبر والديك وصل رحمك، أزد فى عمرك، وأيسر لك فى يسرك، وأصرف عنك عسرك. وعن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «صنائع المعروف تقى مصارع السوء، وصدقة السر تطفى غضب الرب جلّ وعلا، وصلة الرحم تزيد فى العمر». وذكر تمام الحديث.

الفصل الثالث: من هذا الباب: فى ذكر الأنساب والأقارب والعشيرة

قال عمر رضى الله عنه: تعلموا أنسابكم تعرفوا بها أصولكم، فتصلوا بها أرحامكم. وقيل: لو لم يكن من معرفة الأنساب إلا اعتزازها من صولة الأعداء، وتنازع الأكفاء، لكان تعلمها من أحزم الرأى، وأفضل الثواب، ألا ترى إلى قول قوم شعيب عليه السلام حيث قالوا: ولولا رمطك لرجمناك، فأبقوا عليه لرمطه. وقال عمر رضى الله عنه: تعلموا العربية، فإنها تزيد فى المروءة، وتعلموا النسب، فربّ رحم مجهولة قد وصلت بعرفان نسبها.

وسئل عيسى عليه السلام: أى الناس أشرف؟ فقبض قبضتين من تراب، وقال: أى هاتين أشرف؟ ثم جمعهما وطرحهما، وقال: الناس كلهم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم. كان أبو كبشة جد رسول الله ﷺ من قبل أمه، فلما خالف رسول الله ، دين قريش قالوا: نزع عرق أبى كبشة، حيث خالفهم فى عبادة الشعرى. وقال خالد بن عبد الله القشيري: سألت واصل بن عطاء عن نسبه فقال: نسبى الإسلام الذى من ضيعه، فقد ضيع نسبه، ومن حفظه فقد حفظ نسبه، فقال خالد: وجه عبد وكلام حر. ومن كلام على كرم الله وجهه: أكرم عشيرتك، فإنهم جناحك الذى به تطير، فإنك بهم تصول وبهم تطول وهم العدة عند الشدة، أكرم كريمهم وعد سقيمهم، وأشركهم فى أمورك، ويسر عن معسرهم. وكان يقال: إذا كان لك قريب، فلم تمش إليه برجلك ولم تعطه من مالك، فقد قطعته. ويقال: حق الأقارب إعظام الأصغر للأكبر، وحنو الأكبر على الأصغر. قال رسول الله ﷺ: «حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده». قال بعضهم:

وإذا رزقت من النوافل ثروة

واعلم بأنك لم تسود فيهم

فامنح عشيرتك الأدنى فضلها

حتى ترى دمك الخ لائق سهلها

فى الخلق وصفاتهم وأحوالهم وذكر الحسن والقيح والقصر
والألوان والشباب وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: فى الحسن ومحاسن الأخلاق

والى سيدنا محمد رسول الله ﷺ ينتهى الحسن والجمال. كان سيدنا محمد ﷺ: ربعة من القوم لا بائناً من طول ولا تفتحمة عين من قصر، أبيض اللون مشرباً بحمرة، أدعج العينين، مفلج الشاى، دقيق المسربة، أزهر الجبين، واضح الخد، أقنى الأنف، كان عنقه إبريق فضة، ظاهر الوضأة يتلألاً وجهه تلألؤ القمر، شثن الكفين مسيح القدمين، واسع الصدر، من لبتة إلى سرتة شعر يجرى كالقضيبي، ليس فى بطنه ولا صدره شعر غيره، أشعر الذراعين والمنكبين، لم يبلغ شبيهه فى رأسه ولحيته عشرين شعرة، ضخم الكراديس، أنور المتجرد، إذا مشى كأنما ينحط من صبيب، وإذا التفت التفت جميعاً، بين كتفيه خاتم النبوة، كأنه زر حجلة، أو بيض حمامة، لونه كلون جسده، أبلغ الوجه، حسن الخلق وسيماً قسيماً فى جبينه زجج وفى عينيه دعج، وفى عنقه سطح، وفى لحيته كثافة، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سماء وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد وأحسنهم وأكملهم من قريب، كأنما منطق خرزات نظم يتحدثون. قال أنس رضى الله عنه: ما رأيت من ذى لمة سوداء فى حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ. ومدحه حسان بن ثابت رضى الله فقال:

وأحسن منك لم تر قط عيني وأجمل منك لم تلد النساءُ
خلقت مبرراً من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

اللهم صل وسلم عليه واجعله شفيعاً لمن يصلى عليه. وقال ﷺ: «ما حسن الله خلق عبد خلقه إلا استحيا أن يطعم لحمه النار». وقد كان المتوكل رحمه الله من أحسن الخلفاء العباسية وجهاً وأبهاهم منظراً. وكان مصعب بن الزبير من أحسن الناس وجهاً.

حكى أنه كان جالساً بفناء داره يوماً بالبصرة، إذ جاءت امرأة فوقفت تنظر إليه، فقال لها: ما وقوفك يرحمك الله؟ فقالت: طفء مصباحنا، فجئنا نقتبس من وجهك مصباحاً. وقيل لأعرابية ظريفة: ما بال شفتيك مشققة؟ فقالت: إن التين إذا حلا تشقق والورد يتشقق إذا مسه الندى. وكانت لبابة بنت عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهم من أجمل الناس وجهاً، وكانت عند الوليد بن عتبة بن أبى سفيان، فكانت تقول: ما نظرت وجهى فى مرآة مع إنسان إلا رحمته من حسن وجهى، إلا الوليد، فكنت إذا نظرت إلى وجهى مع وجهه رحمت وجهى من حسن وجهه. قال الشاعر:

ولو أنها فى عهد يوسف قطعت قلوب رجال لا أكف نساء
وقال كثير:

لو أن عزة حاكمت شمس الضحى فى الحسن عند موفق لقضى لها
ومما جاء فى محاسن الخلق منظوماً على الترتيب من الفرق إلى القدم:

ما قيل فى الشعر: كان يقال من تزوج امرأة أو اتخذ جارية فليتحسن من شعرها، فإن الشعر الحسن أحد الوجهين.
قال بكر بن النطاح:

بيضاء تسحب من قيام شعرها وتغيب فيه وهو وجه أسحم
فكانها فيه نهار ساطع وكأنه ليل عليها مظلم
وللمتنبي:

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها فى ليلة فارت ليالى أريعا
واستقبلت قمر السماء بوجهها فارتنى القمرين فى وقت معا

وله أيضا:

لبسن الوشى لا متجملات
وضفـرن الغدائر لا لحسن
وقال الصفدى:

لولا شفاعـة شعره فى صبه
لكن تنازل فى الشـفاعـة عنده
وقال ابن الصائغ:

ثنى غصناً ومدّ عليه فرعاً
وبليله على الأرداف منه
وقال آخر:

أرعى ثلاثاً يوم حمامه
فقلت والقـصـد ذواباته
وقال آخر:

بدت ثريا قرطها وشعرها
يا عجباً لشعرها لما ابتدى
وقال ابن المعتز:

توارت عن الواشى بليل ذوائب
يغطى عليها شعرها بظلامه
ومما قيل فى الأصداغ:

قال ابن المعتز:
ريمٌ يتـبـيه بحسن صـورته
وكانَ عقرب صدغه وقفت
وقال العادلى:

وعهدى بالعقارب حين تشتو
فما بال الشتاء أتى وهذى
وقال آخر:

وما ضره نارٌ بخديه ألهمت
عناقيد صدغيه بخديه تلتوى
شربت الهوى صرفاً زلاً وإتما
وقال آخر:

حلّ القبا ولوى صدغيه فانعقدا
وأسكبرتنى ثناياه وريقـتـه

ولكن كي يصنّ به الجمـالا
ولكن خفن فى الشعر الضلال

ما كان زار ولا أزال سقـامـا
فغدا على أقدامه يتـرامـى

كـحـظى حين أطلب منه وصـلا
فلم أر مثـل ذاك الفرع أصـلا

ذوائباً تعقب منها الغـوالى
واسهـرى فى ذى الـيـالى الطوال

متصلٌ بكعبها كما ترى
من الثريا فانتـهى إلى الثرى

لها من محيا واضح تحته فجرٌ
وفى الليلة الظلماء يفتقد البدرُ

عبث التعاس بلحظ مقلته
لما دنت من ورد وجنتـه

يخفف لدغها ويقلّ ضرّاً
عقارب صدغها تزداد شرّاً

ولكن بها قلبُ المحب يعذبُ
وأموج ردفيه بخصريه تلعب
لواظفه تسقى وقلبي يشربُ

واحيرتى بين محلول ومـعـقود
هل هذه الخمر من تلك العناقيدِ

(ومما قيل في مدح العذار) قال أبو فراس بن حمدان:

يا من يلوم على هواه جهالة
حسنت وطاب نسيماها فكأنها

وقال محمد بن وهب:

صدودك والهوى هتكا استتارى
وكم أبصرت من حسن ولكن
ولم أخلع عذاراً فـيـك إلا
وقال آخر:

ومعـذـر رقت حواشى خـدـه
لم يكس عارضه السواد وإنما
وقال آخر:

ومـهـفـهـف راقـت نضارة وجهه
أصلى بنار الخـد عنبـر خـالـه
وقال آخر:

أصبحت سلطان القلوب ملاحه
طلعت طلائع وجنتيك منيرة
وقال آخر:

يا ذا الذى خط العذار بخـدـه
ما صح عندي أن لحظك صارم
وقال آخر:

من لا رأى كعبه الحسن التى حرست
فلينظر النمل أضحى فوق عارضه
وقال بدر الدين الدماميني:

تحدث ليل عارضه باني
فأشرق صبح غـرته ينادى
وقال آخر:

وقالوا تسلى فقد شأنه
فقللت وهممت ولكننى
قال سيدى أبو الفضل بن أبى الوفاء:

على وجنتيه جنة ذات بهجة
حمى ورد خديه حماة عذاره

انظر إلى تلك السوالف تعذر
مسك تساقط فوق خـد أحمر

وساعدنى البكاء على اشتهاى
عليك لشقوتى وقع اختياري
لما عـايـنت من خلع العـذار

فقلوبنا وجداً عليه رقاق
نفضت عليه سوادها الأحداق

والعين تنظر منه أحسن منظر
فبدا العذار دخان ذاك العنبر

وجمال وجهك للبرية عسكر
بالنصر يقدمها اللواء الأخضر

خطين هاجبا لوعنة وبلا بلا
حتى حملت بعارضيك حمائلا

بالنمل حيث مقام النحل فى فمه
يطوف سبعاً حول ميسمه

سأسلوه وينصـرم المزار
حديث الليل يحـوه النهـار

عـذار أراحك من صـدـه
خلعت العـذار على خـدـه

ترى لعيون الناس فيها تراحما
فيا حسن ريحان العذار حماحما

وقال ابن نباتة^(١):

وبمهجتي رشاً يمس قوامه
شغف العذار بخده ورآه قد
وقال الموصلي:

لحديث نبت العارضين حلاوة
فلذا نهاني المرء قلت ترفقوا
وقال آخر:

أصبت مكسوراً بسهم لحاظه
حتى بدا سيف العذار مجرداً
وقال آخر:

يا صاح قد حضر المدام ومُنيتي
وكسا العذار الخد حسناً فاسقني
وقال ابن نباتة:

رضعت سلاح الصبر عنه فما له
وسال عذار فوق خديه سائل
(ومما قيل في ذم العذار) قال الشاعر:

غدا لما التحى ليلاً بهيماً
وقد كتب السواد بعارضيه
وقال آخر في ذمه:

قلت لأصحابي وقد مرّ بي
بالله يا أهل ودّي قففوا
وقال آخر:

ما زال ينتف ريحاناً بعارضه
كأنما طور سينا فوق عارضه
وقال آخر:

وما زال يحلف لي بكل اليّة
لما جنى نزل العذار بخده
قال ابن المعتز:

يارب إن لم يكن في وصله طمع
فاشف السقام الذي في لحظه مقلته

فكأنه نشوان من شفتيه
نعمت لوحظه فدب عليه

وطلاوة هامت بها العشاق
فإليكم هذا الحديث يساق

ومقيداً من صدغه بلسانه
فخشيت يقتلني وذا من شأنه

وحظيت بعد الهجر بالإيناس
واجعل حديثك كله في الكاس

يغازل بالألحاظ من لا يغارله
على خده فليقتق الله سائله

وكان كأنه قمر منير
لمن يقرر وجاءكم النذير

منتقياً بعد الضيا بالظلم
ثم انظروا كيف زوال النعم

حتى استطال عليه صار يحلقه
طول الزمان فموسى لا يفارقه

أن لا يزال مدى الزمان مصاحبى
فتعجبوا لسواد وجه الكاذب

ولم يكن فرج من طول جفوته
واستر ملاحه خديه بلحيته

(١) ابن نباتة: هو عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباتة التميمي السعدي (أبو نصر)، شاعر طاف البلاد، ومدح الملوك والوزراء، وله في سيف الدولة بن حمدان القصائد والمدائح، توفي ببغداد في شوال سنة (٤٠٥ هـ) ومن مصنفاته (ديوان شعر كبير) ودفن في مقبرة الخيزران من الجانب الشرقي.

ومما قيل في الجبين والحواجب: قال خالد الكاتب:

لها ظباء الرمل عينٌ مريضةٌ
ومن يانع الأغصان قد وقامة
وقال آخر:

غزاني الهوى في جيشه وجنوده
بميسرة أجنادها أعين المها
وقال آخر:

أيا قمرأ تبسم عن أقاح
جبينك المقبل والثنايا

ومما قيل في العيون: قال الأصمعي ما وصف أحد العيون بمثل ما وصف أحمد بن الرقاع في قوله:

وكأنها دون النساء أعينها
وسنان أقصده النعاس تلاعبت
وقال ابن المعتز:

عليمٌ بما تحت العيون من الهوى
فيجرح أحشائي بعين مريضة
وقال الأخطل^(١):

ولا تلمم بدار بنى كليب
ترى فيها بوارق مرهفات
وقال أبو فراس وأحسن:

ويضي بالحفاظ العيون كأنما
تصدين لى يوماً بمنعرج اللوى
سفرن بدوراً وانتقبن أهلة
وقال آخر:

ومريض جفن ليس يصرف طرفه
قد قلت إذ أبصرته متمائلاً
يا من يسلم خصره من ردفه
وقال أبو هتان:

أخو دنف رمته فاقصده
فواتك لأيقال سوى احورار
أصبن فؤاد مهجته فأضحى
كنسباً إن ترحل عنه جيش

ومن ناظر الريحان خضرة حاجب
ومن حالك الحبير اسوداد الذوائب

وهباً على الجيش من كل جانب
وميمنة تقضى بزج الحواجب

وياغصناً يميل مع الرياح
صباح في صباح في صباح

ومما قيل في العيون: قال الأصمعي ما وصف أحد العيون بمثل ما وصف أحمد بن الرقاع في قوله:

عينيه أحور من جاذر جاسم
في جفنة سنة وليس بنائم

سريع بكسر اللحظ والقلب جارح
كما لان متن السيف والحد قاطع

ولاتقرب لها أبداً رحالاً
يكذن يكذن بالحرق الرجالاً

هزن سيوفاً واستلن خناجرا
فغادرن قلبي بالتصبير غادرا
ومسن غصوناً والتفتن جاذرا

نحو امرئ إلا رماه بحتفه
والردف يجذب خصره من خلفه
سلم فؤاد محبته من طرفه

سهام من جفونك لاتطيش
بهن ولا سوى الأهداب ريش
سقيماً لا يموت ولا يعش
من البلوى أناخ به جيوش

(١) الأخطل: هو غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن سيجان، أبو مالك التغلبي النصراني المعروف بالأخطل الشاعر، سمي بالأخطل لخطل لسانه، وقيل لطول أذنيه ويعرف بذي الصليب، أكثر من مدح أمراء بني أمية ودعا إليهم وهجا خصومهم ولد سنة (١٩هـ - ٦٤٠م) ومات سنة (٩٠هـ - ٧٠٨م).

وقال آخر:

وجاؤا إليه بالتعساويز والرقى
وقالوا به من أعين الجن نظرة

وقال عز الدين الموصلى:

لهما عين لها غزو وعزل
وحاكت فى فعائلها المواضى

وقال برهان الدين القيراطى:

شبه السيف والسنان بعينى
فأتى السيف والسنان وقال

وله أيضا:

بأبى أهيف المعاطف لدن
ذو جفون مذ رمث منها كلاماً

وقال بدر الدين بن حبيب:

عيناه وقد شهدت بآنى مخطيء
يا حاكم الحب اتد فى قتلتى

وقال جلال الدين بن خطيب داريا:

شهدت جفون معذبى بملالة
لكننى لم أنأ عنه لأنه

وقال الشيخ عز الدين الموصلى:

يا مقللة الحب مهلاً
وأنت يا وجنتى

وقال ابن الصائغ:

لمثلنى من لواظها سهام
إذا رامت تشك به فؤاداً

وقال الصلاح الصفدى:

يا عاذلى على عين محجبة
وخذ فؤادى ودعه نصب مقلتها

وقال آخر:

بسهم أجفانه رمانى
إن مت مالى سواه خصم

وقال آخر:

سهم الجفن كم قتلت لنفس
فما أقوى جفونك وهى مرضى

فصبوا عليه الماء من شدة النكس
ولو أنصفوا قالوا به أعين الإنس

مكحلة ولى عين تبسكت
فيا لك مقللة غزلت وحاكت

من لقتلى بين الأنام استحلا
حدثنا دون ذاك حاشى وكلاً

حسد الأسمر المثقف قد
كلمتنى سيوفهن بخده

وأنت بخط عذاره تذكرارا
فالخط زور والشهود سكارى

مننى وأن وداده تكليف
خبر رواه الجفن وهو ضعيف

فقد أخذت بشارك
لا تحرقينى بنارك

لهما فى القلب فتك أى فتك
يموت المستهام بغير شك

خف سحر ناظرها فالسحر فيه خفى
لاترم نفسك بين السهم والهدف

فلذبت من هجره وبينه
لأنه قاتلى بعينه

مبرة من السلوى زكية
وأقدرها على قتل البسرية

ومما قيل في الخال: للصالح الصفدى:

بروحى خدّه المحمّر أضحى
كان الحسن يعشقه قديماً
ولابن الصائغ:

بروحى أفدى خاله فوق خدّه
تبارك من أخلّى من الشعر خدّه
للشيخ جمال الدين بن نباتة:

لله خالٌ على خدّ الحبيب له
أورثته حبة القلب القتيل به
وقال آخر:

يا سالباً قمر السماء جماله
أحرق قلبي فارتقى بشرارة
للشيخ تقي الدين بن حجة:

قلت للخـال إذ بدا
فزت يا عبـد قال لى
وقال ابن أبيك:

فى الجانب الأيمن من خدودها
حسبته لما بدا خالها
وقال الحسين بن الضحاك:

يا صائد الطير كم ذا
نصبت نقطة خـال
ومما قيل فى الحدود: قال ابن المعتز:

صل بخدى خديك تلقَ عجباً
فبـخـديك للربيع رياضُ
وقال آخر:

ورد الخـدود ونرجس اللحظات
شئٌ أسـرُّ به وأعلم أنه
ومما قيل فى الثغور: قال يوسف بن مسعود الصواف:

بروحى من ولى فـولى بمهجـتى
حمى ثغره منى بسيف لحاظه
وقال آخر:

عليه شامة شرط المحبة
فنقطه بدينار وجـبـه

ومن أنا فى الدنيا فأفدىه بالمال
وأسكن كل الحسن فى ذلك الخـال

فى العاشقين كما شاء الهوى عبث
وكان عهـدى بأن الخـال لا يرثُ

أبـسـتـنى فى الحزن ثوب مماته
علقت بخـدك فانطففت فى مائه

فى نقا جـيده السـعيد
أنا عبـدٌ لكل جـيد

نقطة مسك أشتهى شمها
وجدته من حسنـها عمها

باللحظ تضنى وتسـبى
فـصـدت طائر قلبى

من معان يحار فيها الضميرُ
وبخـدى للدموع غـدير

وتصافح الشفتين فى الخلوات
وحـياتـه أحلى من اللذات

وولى منامى وهو كالوصل شاردُ
وحـثام يحـمى ثغـره وهو بارد

أنفقت كنز مدامعى فى ثغره
وطلبت منه جزاء ذلك قبلة
وقال آخر:

راى ثغر من أهوى عذولى فقال لى
شغلت بهذا وارتبطت بحسنه
وقال ابن ريان:

لاحت على مبسمه المشتبهى
لا تعجبوا إن كثرت حوله
ومما قيل فى طيب الريق والنكهة: قال ذو الرمة:
أسيلة مجرى الدمع هيفاء طفلة
كان على فيها وما ذقت طعمه
وقال شهاب الدين الكردى:

ذكرت ريح حبيبى
وليس ذا بعجيب
وقال غيره:

رشفت ريقاً حلواً
وسوف أحظى بوصل
وقال الصلاح الصفدى:

نقل الأراك بأن ريقاً ثغره
قد صح ما نقل الأراك لأنه
وقال آخر:

ثلاث تجمعن فى ثغرها
فإن قيل ما هى قل لى أقل
وقال آخر:

يارب ممّن الوصال محجب
دارت مرأشفه على وكأسه
وقال آخر:

أريقاً من رضاك أم رقيقاً
وللصهباء أسماء ولكن
ومما قيل فى حسن الحديث: قال البحتري:

ولما التقينا والنقا موعداً لنا
لمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها

وجمعت فيه كل معنى شارد
فمضى وراح تغزلى فى البارد

ولم يدر أن اللوم فى خده يغرى
وأحسن ما كان الرباط على ثغرى

ثلاث شامات غدت فى التثام
فالمنهل العذب كثير الزحام

عروب كإيماض الغمام ابتسامها
زجاجة خمر طاب فيها مدامها

بشرب راح تعطّر
فالشىء بالشىء يذكر

ولم يكن لى صبر
فأول الغيث قطر

من قهوة مزجت بماء الكوثر
يرويه نصاً عن صحاح الجوهري

ملاح أدلتها واضحة
هى الطعم واللون والرائحة

بستوره كالبدريين غيومه
فسكرت فى الحالين من خرطومه

رشفت فكدت منه لن أريقاً
جهلت بأن فى الأسماء ريقاً

تعجب رائى الدر حسناً ولاقطه
ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

وقال سلم الخاسر:

ظللنا فببتنا عند أم محمد
إذا صمتت عنا ضجرنا لصمتها

وقال ابن الرومي:

يمسى ويصبح معرضاً فكأنه
ليست إساءته بناقصاً له

وما أحسن هذه الأبيات: وهي من طارف الشعر ووافره وناقده، وجيد الكلام، وبارع الوصف:

وكلّ حديث الناس إلا حديثها
جرحن بأعناق الأطباء وأعين الـ
رجحن بأرداف ثقال وأسوق
ومما قيل في رقة البشارة: قال ابن المعتز:

نضت عنها القميص لصب ماء
وقابلت الهواء وقد تعمرت
ومدت راحة كالماء منها
فلما قضت وطراً وهمت
رأت شخص الرقيب على تدان
فغاب الصبح منها تحت ليل
وقال آخر:

تغيّر عن مودته وحالاً
وعلمه التدلل كيف هجرى
ترى من فوق حقويه قضيباً
إذا كلمته أثرت فيه
وقال بشار:

وما ظفرت عيني غداة لقيتها
كحوراء من حور الجنان غريرة
ومنه أخذ أبو نواس قوله:

نظرت إلى وجهه نظرة
وقال آخر:

توهمه قلبي فأصبح خده
ومر بفكرى جسمه فجرحته
وقال آخر:

بيسوم ولم نشرب شراباً ولا خمراً
وإن نطقنا هاجت لألبابنا سكرًا

ملك عزيز قاهر سلطانه
در يساقطه إلى لسانه

رجيع وفيما حدثتك الطرائف
جـأذر وارتجت بهن الروادف
جزال وأعضاء عليها المطارف

قورد خدّها فرط الحياء
بمعتمد أرق من الهواء
إلى ماء عتيدي في إناء
على عجل إلى أخذ الرداء
فأسبلت الظلام على الضياء
وظل الماء يقطر فوق ماء

وكان مواصلاً فطوى الوصلاً
فليت الوصل كأن له دلالة
إذا ما حركته خطاه مالا
وإن حركته فالخمر سالا

بشيء سوى أطرافها والمحاجر
يرى وجهه في وجهها كل ناظر

فأبصرت وجهي في وجهه

وفيه مكان الوهم من نظري أثر
ولم أر جسماً قط تجرحه الفكر

سقى الله روضاً قد تبدى لناظر
وقد نضحت خداه من ماء ورد
وقال آخر:

وأهيف خدّه كُسى أحمراراً
فلو أخجلته بالقول جهدى
ومما قيل فى التقييل: لمظفر الأعمى:

قبلته فتلظى جمر وجته
وجال بينهما ماء ولا عجب
وقال آخر:

سألته فى ثغره قبلة
فهاكهافى فى الخد واقنع بها
وقال صاحب حماة:

قال الذى تيمنى
يروم منى قبلة
وللشيخ عز الدين الموصلى:

كالزرد المنظوم أصداغـه
بالغت فى اللثم وقبلته
وقال آخر:

رأيت الهلال على وجهه
سوى أن ذاك بعيد المزار
وذاك يغيب وذا حاضراً
ونفع الهلال قليل لنا
وقال ابن صابر:

قبلت وجته فألفت جـده
فأنهل من خديه فوق عذاره
فكأننى استقطرت ورد خدوده
وقال آخر:

قبلت رجل حبيبى
وقال تلثم رجلى
فقلت ما جئت بدعاً
رجل سمعت بك نحوى

به شادن كالغصن يلهو ويمرح
وكل إناء بالذى فـيه ينضح

وحاز الحسن فهو بلا شبيه
لحمرة خدّه ما بان فيه

وفاح من عارضيه العنبر العبق
لا ينطفئ ذا ولا ذا منه يحترق

فقال ثغرى لم يجر لثمه
ما قارب الشئ له حكمه

قولوا لمن قبلته
لو مات ما قبلته

وخدّه كالورد لما ورد
فى الخد تقبيلاً يفك الزرد

فلم أدر أيهم ما أنور
وهذا قـريب لمن ينظر
وما من يغيب كمن يحضر
ونفع الحبيب لنا أكثر

خجلاً وماس بعطفه المياس
عرق يحاكى الطل فوق الآس
بتصاعد الزفرات من أنفاسى

فأزور واحمرّ خـداً
لقـد تنازلت جـداً
ولا تجاوزت حـداً
حقوقها لا تؤدى

ومما قيل في الوجه الحسن: قال ابن نباتة:

إنسية في مثال الجن تحسبها
شقت لها الشمس ثوباً من محاسنها
وقال عبد الله بن أبي خبيص:

تصدّ من غير علة
كأنها حين تدنو
وإن أضواء بليل
وقال آخر:

أقسم بالله وآياته
ولا بدا وجهه طالعاً
وقال آخر:

أقيم مكان البدر إن أفل البدر
ففيك من الشمس المنيرة نورها
وقال عمر بن أبي ربيعة:

ذات حسن إن تغبّ شمس الضحى
أجمع الناس على تفضيلها
(أخذ أبو تمام هذا المعنى فردّه إلى المدح):
لو أن إجماعنا في فضل سؤده
وقال آخر:

يا مفرداً في الحسن والشكل
البدر من شمس الضحى نوره
وقال آخر:

ففي أربع منى حلت منك أربع
أوجهك في عيني أم الريق في فمي
فلما سمعه إسحق بن يعقوب الكندي قال هذا تقسيم فلسفي وجعله العلوي خمسة فقال:
وفي خمسة منى حلت منك خمسة
ووجهك في عيني ولمسك في يدي
وقال ابن نباتة:

أيها العاذل الغبّي تأمل
وتعجب لطرة وجبين
وقال محمود المخزومي:

شمساً بدت بين تشريق وتغميم
فالوجه للشمس والعينان للريم

بالعزّ أضحت مـ
شمسٌ عليها مـ
تفوق نور الأهلـ

ما نظرت عيني إلى مثله
إلا سألت الله من فضله

وقومي مقام الشمس قد أمها الفجر
وليس لها منك التبسم والثغر

قلنا من وجهها عنها خلف
وهوهم في سوى هذا اخـ

في الدين لم يخـ في الأمة اثنان

من دل عيني على قتلى
والشمس من نورك تستملى

فما أنا أدري أيها هاج لي كـ
أم النطق في سمعي أم الحب في قلبي

فريقك منها في فمي طيب الرشـ
ونطقك في سمعي وعرفك في أنفي

من غدا في صفاته القلب ذائب
إن في الليل والنهار عجائب

رأيتك في الشمس المنيرة غدوة
لأنك تزهو إن بدا الليل بهججة
وقال آخر:

إذا احتجبت لم يكفك البدر وجهها
وحسبك من خمير مذاقة ريقها
ومما قيل في البنان المخضب قال ابن الرومي:

وقفت وقفة بيباب الطاق
بنت ســـــــــــــــــبع وأربع وثلاث
قلت من أنت يا غزال فقالت
لا ترم وصلنا فـــــــــــــــــهنا
وقال الراضي بالله:

قالوا الرحيل فأنشبت أظفارها
فظننت أن بنانها من فضة
وقال آخر:

لما اعتنقنا للوداع وأعربت
فرقن بين محاجر ومعاجر
وقال آخر:

ولما تلاقينا رأيت بنانها
فقلت خضبت الكف بعدى أهكذا
فقلت وأذكت في الحشى لاعج الجوى
بكيت دماً يوم النوى فمسحته
وقال آخر:

دنوت عشية التوديع منى
فلم يمسح إكراماً جفوني
ومما قيل في النحور: قال دعبل:

أتاح لك الهوى بيضاً حسناً
نظرت إلى النحور فكدت تقضى
ومما قيل في نعت النهود: قال العباس بن الأحنف:
والله لو أن القلوب كقلبها
جال الوشاح على قضيب زانه
وقال آخر:

فكنت على عيني أبهى من الشمس
وشمس الضحى ليست تضيء إذا تضى

وتكفك فقد البدر إن غرب البدر
ووالله ما من ريقها حسبك الخمر

ظبية من مخدرات العراق
أسرت قلب صبيها المشتاق
أنا من لطف صنعة الخلاق
قد صبغناه من دم العشاق

في خلدنا وقد اعتلقت خطابها
قطفت بنور بنفسج عتابها

عـــــــــــــــــبراتنا عنا بدمع ناطق
وجمعن بين بنفسج وشقائق

مخضبة تحكى عصارة عندهم
يكون جزاء المستهمام المتيم
مقالة من بالود لم يتبهرم
بكفى فاحمرت بنانى من دمي

ولى عـــــــــينان بالدم تجريان
ولكن رمن تخضبـــــــــيب البنان

تباهى بالعيون وبالنحور
فكيف إذا نظرت إلى الخـــــــــصـــــــــور

ما رق للولد الضعيف الوالد
تفاح صدر ما حوته ناهد

ومحبوبة عند الوداع رأيتها
وتبكي حذار البين منها بدمعة
فتحست مجرى الدمع من وجناتها
وقد سفرت عن غرة بابلية
وقال عمر بن كلثوم:

تراك إذا دخلت على خـ
لنهد مثل حق العجاج حسناً
وقال آخر:

بصدرها كوكباً در كائهما
صانتهما بستور من علائها
وقال آخر:

صدور فوقهن حقاق عاج
يقول الناظرون إذا رأوه
وما تلك الحقاق سوى ثدى
نواهد لا يعبد لهن عيب
وقال آخر:

لقد فتكت عيون الغيد فينا
وتطعننا القودود إذا التقينا
وبما قيل في الأرداف والخصور: قال ابن الرومي:
وشربت كأس مدامة من كفتها
وتمايلت فضحكت من أردافها
وقال الطنبا المحاربي:

ردفه زاد في الشقالة حتى
نهض الخصر والقوام وقالوا
وقال آخر:

يا خصره كم جفأ
يا ردفه ملئت عنى
القيراطي:

بمدت روادف بـ
فقلت يا بدر هذا
وقال آخر:

تنشف دمعاً بالرداء المسك
تسيل على الخدين فى حسن مسلك
بقية طل فوق ورد ممعك
وصدر به نهـد بحق مفكك

قد امتدت عيون الكاشحينا
حصيناً من أكف اللامسينا

ركنان لم يدنسا من لمس مستلم
فالناس فى الحل والركنان فى الحرم

ودر زانه حسن اتساق
أهذا الحللى من هذى الحقاق
جعلن من الحقاق على وفاق
سوى منع المحب من العناق

بيض مرهفات وهى سود
بسمير من استتها النهود

مقرونة بمدامة من ثغرها
عجباً ولكنى بكيت لخصرها

أقعد الخصر والقوام السويًا
فضعيفان يغلبان قويا

تُبـدى وأنت نحيل
مما أنت إلا بخـيل

تحت الحنين لعـينى
حقاً خيالاً لحيـتى

أسائلها أين الوشاح وقد سرت
فقالت وأومت للسوار نحلتـه
وقال آخر:

بيضٌ وسمرٌ مقلتاه وقده
أقسى من الحجر الأصم فؤاده
وقال آخر:

رخيمات المقال مدلاتُ
جمعن فخامة وخلوص جيد
ومما قيل في المعاصم: قال عمر بن أبي ربيعة:

حسروا الوجوه بأذرع ومعاصم
حسروا الأكمة عن سواعد فضة
ومما قيل في اعتدال القوام: قال صلاح الدين الصفدي:

تقول له الأغصان مـذ هـز عطفه
فقم نحتكم للروض عند نسيمه

وقيل: ليس لأحد من شعراء العرب في نعت محاسن المرأة من الأوصاف البارة مع جودة السبك ورقة اللفظ ما
لذي الرمة حتى كأنه حضري من أهل المدن لا من أهل الدير، وقال القاضي مجد الدين بن مكناس:

كميلة خـود غيـر السكر حالها
فقام كغصن البان ليناً ومالها

أقول لحبي قم ومل يا معذبي
ولا تله عن شيء إذا ما حكيتها
وقال آخر:

ومُـحْكـمِ أعطافـه
فـاعـجب لـعادل قـده
وقال آخر:

ومـهـفـه عني يميل ولم يـل
لـم لا تـمـيل إلـى يا غـصـن النـقا
ومما قيل في الساق: قال ذو الرمة:

لم أنسه إذا قام يكشف عامداً
لاتعجبوا إن قام فيه قيامتي
وقال آخر:

جاءت بساقٍ أبيضٍ أملسٍ
فافتتت فيها جميع الوري
وقال ابن منقذ:

بدرٌ ولكنـه قـريبٌ
إن لم يكن قـده قـضيبٌ

معطلةً منه معطرة النشـر
إلى معصمى لما تـلقـلق في خـصرى

بدرٌ وليـلٌ وجنتـاه وشـعره
وأرق من شكوى المتيم خـصره

جواعل في الثرى قضيباً جـذالاً
رقداً بعد ذلك واعـتـدالاً

ورنوا بنجلٍ للقلوب كـوالـم
فكأنما انتصبت متنون صوارم

أتزعم أن اللين عندك مـا ثوى
لتقضى على من مال منا إلى الهوى

وقيل: ليس لأحد من شعراء العرب في نعت محاسن المرأة من الأوصاف البارة مع جودة السبك ورقة اللفظ ما
لذي الرمة حتى كأنه حضري من أهل المدن لا من أهل الدير، وقال القاضي مجد الدين بن مكناس:

كميلة خـود غيـر السكر حالها
فقام كغصن البان ليناً ومالها

في قـتل صبـ مـا غـوى
في النفس يحكم بالهـوى

يوماً إلى فصحت من ألم الجوى
فأجاب كيف وأنت من أهل الهوى

عني ساقه كاللؤلؤ البراق
إن القيامة يوم كشف النـاق

كلؤلؤ يبدو لعشاقها
وقامت الحرب على ساقها

ظبيٌ ولكنـه أنيس
فمـا لأعطافـه تميس

ومما قيل في مشى النساء: قال بعضهم:

يهززون للمشى أطرافاً مخضبةً
أو كساهن زاز ردينى تداوله
وقال آخر:

يمشين مشى قطا البطاح تأوداً
فكأنهن إذا أردن زيارةً
ومما قيل في العناق وطيه: لابن المعتز:

ما أقصر الليل على الرافد
كأننى عانقت ريحانةً
فلو ترانا فى قميص الدجى
وقال آخر:

وموشح نازعت فضل وشاحه
بات الغيور يشق جلد وجهه
وقال ابن المعتز:

أقول وجنح الدجى مسبل
ونحن ضجيعان فى مسجيد
أيا غداً إن كنت لى محسناً
ويا ليلة الوصل لاتقصصرى
وقال آخر:

ليل رقيق الطرتين تظلمت
لهونا بغزلان الصريمة تحته
قال ابن المعتز:

وكم عناق لنا وكم قسبل
نقر العصافير وهى خائفة
وقال ديك الجن:

ومعدولة مهما أمالت إزارها
لها القمر السارى شقيق وإنها
أقول لها والليل مرخ سدوله
لأنت المنى يا زين كل مليحة
وقال على بن الجهم^(١):

سقى الله ليلاً ضمنا بعد فرقة
فبتنا جميعاً لو تراق زجاجة

هز الشمال ضحى عيدان نسرين
أيدى الرجال فزاد المتن فى اللين

قبا البطون رواجح الأكفـال
يقلعن أرجلهن من أوحـال

وأهون السقم على العائد
تنفست فى ليلها البارد
حسبتنا فى جسد واحد

وأعرتة من ساعدى وشاحا
وأمال أعطافاً على ملاحا

ولليل فى كل فج يد
فلله ما ضمنا المسجد
فلا تدن من ليلتى يا غداً
كما ليلة الهجر لاتنفد

كواكبـه من بدره المتألق
غيت الهوى ما بين صدر ومرفق

مختلسات حذار مرتقب
من النواطيـر يانع الرطب

فغصن وأما قدما فقضب
لتطلع أحياناً له فيغيب
وغصن الهوى غصن الثبات رطيب
وأنت الهوى أدعى له فأجيب

وأدنى فؤاداً من فؤاد معذب
من الخمر فيما بيننا لم تسرب

(١) على بن الجهم: هو على بن الجهم بن بدر أبو الحسن السامى الخراسانى الأصل، البغدادى الشاعر المشهور صاحب الديوان المشهور، كان ناصياً منحرفاً عن على رضى الله عنه، وكان يسب أباه لأنه سماه علياً بغضاً منه لعلى رضى الله عنه، ولا رضى عن باغضه، وقع بينه وبين المتوكل عداوة لكونه هجاء، فنفاه وكتب إلى ابن طاهر الأمير فـصلبه يومئـكـامـلاً ثم أطلقه مات سنة (٢٤٩هـ).

وقال آخر:

يا ليل دُم لا أريد براحاً
حسبي به نوراً وحسبي ريقه
حسبي بمضحكه إذا استضحكته
طوقته طوق العناق بساعده
هذا هو اليوم النعيم فخلنا

وقال آخر:

ولم أنس ضمي للحبيب على رضا
ولا قبوله لي عند تقبيل خدّه

ورشفي رضا بـ كالرحيق الملسل
تنقل فلذات الهوى في التنقل
ومما قيل في السمن: قال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول: ما رأيت سميناً عاقلاً إلا محمد

ابن الحسن. قال الشاعر:

لا أعشق الأبيض المنفوخ من سمن
إن امرؤ أركب المهر المضمر في

لكنني أعشق السمن المهازيل
يوم الرهاب وغيري يركب الفيلا

ومما قيل في مدح الألوان والثياب: مدح البياض: قال رسول الله ﷺ: «البياض نصف الحسن»، وكان ﷺ أبيض
أزهر اللون مشرباً بحمرة. قال الشاعر:

بيض الوجوه كريمة أحسابهم

شم الأنوف من الطراز الأول

ومما قيل في مدح السواد: قيل لبعضهم: ما تقول في السواد؟ قال: النور في السواد أراد بذلك نور العينين في
سوادهما، وقال بعضهم:

قالوا تعشقتها سوداء قلت لهم
إنني امرؤ ليس شأن البيض مرتفعاً
وقال الحيقطان:

لون العوالي ولون المسك والعود
عندي ولو خلت الدنيا من السود

لئن كنت جمعد الرأس واللون فاحم
وإن سواد اللون ليس بضائر

فلئن بسيط الكف والعرض أزهراً
إذا كنت يوم الروع بالسيف أخطر

دخل إبراهيم بن المهدي على المأمون فقال: إنك لنعم الخليفة الأسود، فقال إبراهيم: نعم، فتمثل المأمون ببيت
نصيب، فقال:

إن كنت عبداً فنفسى حرة كرماء
ثم قال ياعم: أخرجنا الهزل إلى الجدد: فأنشد إبراهيم:
ليس يزري السواد بالرجل الشهم
إن يكن للسواد فيك نصيب
وقال آخر:

أو أسود اللون إنني أبيض الخلق
ولا بالفستى الأريب الأديب
فبياض الأخلاق منك نصيب

لام العواذل في سوداء فاحمة
وهام في الخال أقوام وما علموا

كأنها في سواد القلب تمثال
أنى أهيمن بشخص كله خال

وقيل لمدنى: كيف رغبتم فى السواد؟ فقال: لو وجدنا بيضاء لسودناها.

وقال آخر:

يكون الخال فى خد قبيح
فكيف يلام ذو عـشقٍ على من
فيراها كلـها فى الخـد خـالا
وقال آخر:

فاستحسنوا الخال فى خد فقلت لهم
وقال أبو حاتم المدنى ينشد:

ومن يك معجباً ببنات كسرى
وتفاخرت حبشية ورومية، فقالت الرومية: أنا حبة كافور، وأنت عدل فحم، فقالت الحبشية: أنا حبة مسك، وأنت عدل ملح، وقد قال الشاعر:

أحب لحبـها السودان حتى
وقال آخر:

أشبهك المسك وأشبهته
لاشك إذ لونكمـا واحـد
قائمة فى لونه قـاعـده
أنكمـا من طينة واحـده
ومما قيل فى الصفرة: قال الشاعر:

أصفراء كان الهجر منك مزاحاً
كان نساء الحى ما دامت فيهم
قباحاً فلمّا غبت صرن ملاحاً
وقال آخر:

قالوا به صفرة شانت محاسنه
عـيناه مطلوبة فى ثار من قتلت
فقلت ما ذاك من عيب به نزلا
فلست تلقاه إلا خائفاً وجلا

ومما قيل فى طول اللحية: قيل: إن اللحية الطويلة عش البراغيث. ونظر يزيد الشيبانى إلى رجل ذى لحية عظيمة تلتف على صدره وإذا هو خاضب، فقال له: يا هذا إنك من لحيتك فى مؤنة، فقال أجل، ولذلك أقول:

لها درهم بدهن فى كل جمعة
ولولا نوال من يزيد بن مـزيد
وأخـر للحناء ينتـدبان
لأصبح فى حافاتها الحمان
وقال إسحاق بن خلف فى قصير طويل اللحية:

ماشيت داود فاستضحكت من عجب
ما طول داود إلا طول لحيتـه
كأنه والد يمشى بمولود
يظن داود فيها غير موجود
وقال ابن المقفع:

تأملت أسواق العراق فلم أجـد
جلوساً عليها يتفضون لحاءهم
دكاكينهم إلا عليها المواليا
كما نفضت عـجف البغال المخاليا

ومما قيل فى عظم الخلقة والطول والقصر: قيل: خرب القهندز فبرزت منه جماجم أموات، فتصدعت جمجمة فانتثرت أسنانها، فوزن السن منها، فكان وزنها أربعة أـرطال، فأتى بها إلى ابن المبارك، فجعل يقلبها ويتعجب من

عظمها، ثم قال:

إِذَا مَا تَذَكَّرْتَ أَجْسَامَهُمْ تَصَاغَرَتْ النَّفْسُ حَتَّى تَهْوُونَ

وأراد ملك الروم أن يباهى أهل الشام فبعث إلى معاوية رجلين أحدهما طويل والثاني قصير شديد القوة، فدعا للطويل بقيس بن عباد، فنزع قيس سراويله ورمى بها إليه فلبسها الطويل، فبلغت ثدييه، فلاموا قيساً على نزع السراويل فقال:

أردت لكيما يعلم الناس أنها سراويل قيس والوفود شهود
وكي لا يقولوا خان قيس وهذه سراويل عباد أحرزتها ثمود
وإني من القوم اليمانيين سيد وما الناس إلا سيد ومسود

ثم دعا معاوية للرجل الشديد في قوته بمحمد بن الحنفية، فخيره بين أن يقعد فيقيمه أو يقوم فيقعده، فغلبه في الحالين وانصرفا مغلوبين.

وقيل: كان سلمة بن مرة الناموسي أسر امرأ القيس بن النعمان اللخمي الملك، وكان الناموسي قصيراً مقتحماً، واللخمي طويلاً جسيماً. فقالت بنت امرؤ القيس: يا هذا القصير اطلق أبى، فسمعه سلمة بن مرة، فقال:

لقد زعمت بنت امرئ القيس أننى قصيرٌ وقد أعيا أباه قصيرها
وربَّ طويلٍ قد نزع سلاحه وعانقته الخيل تدمى نحورها

وقالوا: عظم اللحية يدل على البله وعرضها على قلة العقل وصغرها على لطف الحركة، وإذا وقع الحاجب على العين دل على الحسد، والعين المتوسطة في حجمها تدل على الفطنة، وحسن الخلق والمروءة، والتي يطول تحديقها تدل على الحمق، والتي تكسر طرفها تدل على خفة وطيش، والشعر على الأذن يدل على جودة السمع، والأذن الكبيرة المنتصبة تدل على حمق وهذيان.

ومما قيل في القبح والدمامة: أراد رجل أن يكتب كتاباً لبعض أصحابه فلم يجد من يرسله معه إلا رجلاً وحش الصورة بشع المنظر، فلم يقدر على تحليته لفرط دمامته، فكتب إلى صاحبه يأتيك بهذا الكتاب آية من آيات الله تعالى وقدره، فدعه يذهب إلى نار الله وسقره.

ومر أبى الأسود الدؤلى بمجلس لبنى بشير فقال بعض فتيانهم: كأن وجهه وجه عجوز راحت إلى أهلها بطلاقها. وقال الجاحظ: ما أخجلنى قط إلا امرأة مرت بى إلى الصائغ، فقالت له اعمل مثل هذا، فبقيت مبهوتاً، ثم سألت الصائغ، فقال: هذه المرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان، فقلت: لا أدرى كيف أصوله، فأنت بك إلى لأصوره على صورتك، وفي الجاحظ يقول الشاعر:

لو يُمسَخ الخنزير مسخاً ثانياً ما كان إلا دون قبيح الجاحظ
رجلٌ ينوب عن الجحيم بوجهه وهو العمى فى عين كل ملاحظ
ولو أن امرأةً جلست تمثاله ورآه كان له كأعظم واعظ

وقال الأصمعى: رأيت بدوية من أحسن الناس وجهاً ولها زوج قبيح، فقلت: يا هذه أترضين أن تكونى تحت هذا؟ فقالت: يا هذا لعله أحسن فيما بينه وبين ربه، فجعلنى ثوابه، وأسأت فيما بينى وبين ربى، فجعله عذابى. أفلا أَرْضَى بما رضى الله به. وحج مخنث، فرأى رجلاً قبيح الوجه يستغفر، فقال: يا حبيبى ما أراك أن تبخل بهذا الوجه على جهنم. وقال بعضهم لرجل: طلع لى دمل فى أقبح المواضع، فقال له: كذبت هذا وجهك ليس فيه شيء. وخرج رجل قبيح الوجه إلى المتجر، فدخل اليمن، فلم ير فيها أحسن منه وجهاً فقال:

لم أر وجهاً حسناً منذ دخلت اليمينا
فسيما شقواء بلدة
وخطب رجل عظيم الأنف امرأة، فقال لها: قد عرفت أنى رجل كريم المعاشرة محتمل المكاره، فقالت لاشك فى احتمالك المكاره مع حملك هذا الأنف أربعين سنة.

وقال الشاعر فى رجل كبير الأنف:

لك وجهٌ وفيه قطعة أنفٍ كجدار قد أدموه بيغله
وهو كالقبر فى المثال ولكن جعلوا نصبه على غير قبله
وقال آخر:

لك أنف من أنوف أنفت منه الأنوف
أنت فى القسّس تصلّى وهو فى البسّيت يطوف
ومما قيل فى الثقلاء: قال مطيع بن إياس:

قلت لعباس أخينا يا ثقليل الثقلاء
أنت فى الصيف سمومٌ وجليلٌ فى الشتاء
أنت فى الأرض ثقليلٌ وثقليلٌ فى السّمماء

ومما قيل فى الملابس والوانها والعمائم ونحوها: قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: ١١]. وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]. وقال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده». وقال ﷺ: «تعمموا تزدادوا جمالا». وقال ﷺ: «العمائم تيجان العرب». وكان الزبير بن العوام يقاتل يوم بدر وعليه عمامة صفراء، فنزلت الملائكة، وعليهم عمائم صفراء قد أرخوها. وبعث رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل، فتخلف عن الجيش، وأتى إلى رسول الله ﷺ عليه عمامة سوداء من خز، فنقضها رسول الله ﷺ وعممه بيده وأسدلها بين كتفيه قدر شبر، وقال: هكذا اعتم يا ابن عوف. وبعث ملك الروم إلى النبی ﷺ جبة ديباج. فلبسها ثم كساها عثمان. وكان سعيد بن المسيب يلبس الحلة بألف درهم ويدخل المسجد، فقيل له فى ذلك، فقال: إني أجالس ربي. وقيل: المروءة الظاهرة الثياب الطاهرة. وقيل: البس البياض والسواد، فإن الدهر هكذا بياض نهار وسواد ليل.

ومما قيل فى لبس السواد قول أبي قيس:

رأيتك فى السواد قلت بدرأى بدا فى ظلمة الليل البهيم
وألقيت السواد فقلت شمس محت بشعاعها ضوء النجوم
وقدم تاجر إلى المدينة يحمل من خُمَر العراق، فباع الجميع إلا السود، فشكا إلى الدارمى ذلك، وكان الدارمى قد نسك وتعبد، فعمل بيتين، وأمر من يغنى بهما فى المدينة، وهما هذان البيتان:

قل للمليحة فى الخمار الأسود ماذا فعلت بزاهد متعبد
قد كان شمراً للصلاة إزاره حتى قعدت له بيباب المسجد

قال: فشاع الخبر فى المدينة أن الدارمى رجع عن زهده وتعشق صاحبة الخمار الأسود، فلم يبق فى المدينة مليحة إلا

اشترت لها خماراً أسود، فلما أنفذ التاجر ما كان معه رجع الدارمي إلى تعبدته وعمد إلى ثياب نسكه فلبسها، وقال آخر في لابسة الأحمر:

وجارية أذبت هـا الشطاره
بدت في قميص لها أخضر
فقلت لها ما اسم هذا اللباس
شققنا مرائر قوم به
تري الشمس من حسنهما مستعاره
كما ستر الورق الجلناره
فأبدت جواباً لطيف العباره
فنحن نسمة شق المراه
وقال آخر في لابسة ثوب خمري:

وشمس من قضيب في كثيب
سقتني ريقها صرفاً وحيث
وقال الصنوبري في لابسة أخضر:

في ثوبها الخمرى قد أقبلت
فملت سكرأ حين أبصرتها
بوجنة حمراء كالجمر
لاتنكروا سكرى من الخمر

وقال حكيم لابنه: إياك أن تلبس ما يديم الملك نظره إليك به، واعلم أن الوشى لا يلبسه إلا الأحقق أو ملك. وعليك بالبياض. وقيل: لباس البخلاء الاستبرق لطول بقاءه، ولباس المترفين السندس لقلة بقاءه، ولباس المقتصدين الديباج لتوسط بقاءه. وقال بعض الأمراء لحاجبه: أدخل على عاقلأ، فأتاه برجل: فقال: بم عرفت عقله؟ فقال: رأيت يلبس الكتان في الصيف والقطن في الشتاء، والملبوس في الحر، والجديد في البرد. وقيل: كان لأبرويز عمامة طولها خمسون ذراعاً إذا اتسخت ألقاها في النار فيحترق الوسخ ولا تحترق، وكان له رداء حسن يتلون كل ساعة وسروايل مجوهره، وتكة من أنابيب الزمرد، وقيل: الأقبية لباس الفرس، والقراطق لبس الهند، والأزر لباس العرب. وسئل بعض العرب عن الثياب، فقال: الصفر أشكل، والحممر أجمل، والخضر أقبل، والسود أهول، والبيض أفضل، وقال أفلاطون: الصبغ الشقائقى، والروائح الزعفرانية تسكن الغضب، والصبغ الياقوتى والروائح الوردية تحرك السرور، وإذا قرب اللون الأحمر إلى اللون الأصفر تحركت القوة العشقية، وإذا مزجت الحمرة بالصفرة تحركت القوة الغريزية، وإذا مزجت التفاحية بالحمرة تحركت الطبائع كلها، وكان مصعب بن الزبير يقول: لكل شيء راحة، وراحة البيت كنهه، وراحة الثوب طيه، وقال بعض الأعراب: رأيت في البصرة بروداً كأنها نسجت بأنواع الربيع، ودخل بعض العذرين على معاوية وعليه عباءة، فازدراه، فقال يا أمير المؤمنين: إن العباءة لاتكلمك وإنما يكلمك من فيها.

ومما قيل فيمن رذل لبسه وعرف نفسه: قال الأصمعي: رأيت أعرابياً فاستنشدته، فأنشدني أبياتاً، وروى أخباراً، فتعجبت من جماله وسوء حاله، فسكت سكتة ثم قال:

أأخى إن الحسادنا
لاتنكرن أن قـد رأيت
إن كـان أثوابى رثاناً
تـركـتني عـرك الأديم
أخـاك في طـمـرى عـديم
فـلـنـهن على كـريم

قال بعضهم: وقيل للشافعي رحمه الله تعالى:

على ثياب لو تقاس جميعها
وفيهن نفس لو يقاس ببعضها
وما ضر نصل السيف أخلاق غمده
بفلس لكان الفلس منهن أكثرا
نفوس الورى كانت أجل وأكبرا
إذا كان عضباً حيث وجهه يرى

ودخل بعضهم . على الرشيد فازدراه ، فأنشده :

تري الرجل الخفيف فتزديه	وفى أثوابه أسدٌ هــصـور
ويعجبك الطير فتبتليه	فـيـخلف ظنك الرجل الطير
لقد عظم البعير بغير لب	فلم يستغن بالعظم البعير
يصرفه الصبي بغير وجه	ويحسبه على الخسف الجرير
وتضربه الوليدة بالهراوى	فلا عارٌ عليه ولا نكير
فإن أك فى شراركمو قليلاً	فلئن فى خياركمو كثير

ويقال : كل ما تشتهيه نفسك والبس ما تشتهيه الناس وقد نظم من قال :

إن العيون رمتك إذ فاجأتها	وعليك من مهن الثياب لباسُ
أما الطعام فكل لنفسك ما اشتئت	واجعل لباسك ما اشتتهته الناسُ

وفى هذا القدر كفاية والله أعلم بالصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فى التختم والحلى والمصوغ والطيب والتطيب

وما أشبه ذلك

ما جاء فى التختم: عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يتختم فى يمينه، وقبض عليه الصلاة والسلام والخاتم فى يمينه. قال بعض من مدحه عليه الصلاة والسلام:

كف الرسالة ليس يخفى حسنها وتمام حسن الكف لبس الخاتم

وذكر السلامى أن رسول الله ﷺ كان يتختم فى يمينه، والخلفاء بعده، فنقله معاوية رضى الله تعالى عنه إلى اليسار، وأخذ الأموية بذلك، ثم نقله السفاح إلى اليمين، فبقى إلى أيام الرشيد رضى الله تعالى عنه، فنقله إلى اليسار، وأخذ الناس بذلك، وعن على رضى الله تعالى عنه، عن النبى ﷺ: «تختموا بخواتم العقيق، فإنه لا يصيب أحدكم غم ما دام عليه ذلك». وبلغ عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه أن ابنه اشترى فص خاتم بألف دينار، فكتب إليه عزمت عليك إلا ما بعت خاتمك بألف دينار وجعلتها فى بطن جائع، واستعمل خاتمًا من ورق وانقش عليه: رحم الله امرأ عرف قدر نفسه. وكان خاتم على رضى الله عنه من ورق، ونقشه: نعم القادر الله. وكان لأبى نواس خاتمان أحدهما عقيق مربع وعليه مكتوب:

تعاظمنى ذنبى فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظمًا

والآخر حديد صينى عليه: أشهد أن لا إله إلا الله مخلصًا، وأوصى عند موته أن يغسل الفص ويجعل فى فمه. قال جعفر بن محمد رضى الله تعالى عنه: ما افتقرت يد تختمت بخاتم فيروزج. وقيل: الخواتم أربعة: الياقوت للعطش، والفيزوج للمال، والعقيق للسنة، والحديد الصينى للحرز، وقيل للخوف، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر ما جاء فى الحلى: قيل: إن قرطى مارية بنت ظالم بن وهب بن الحرث بن معاوية كان فيهما درتان كبيض الحمام لم ير مثلهما، ولم يدر قيمتهما.

وقال محمد: بعثنى يوسف بن عمر إلى هشام بياقوتة حمراء يخرج طرفاها من كفى، كانت للرائقة جارية خالد بن عبد الله القسرى اشترتها بثلاثة وسبعين ألف دينار، وحبة لؤلؤ أعظم ما يكون من الحب، فدخلت عليه بهما فقال: اكتب معك بوزنهما، فقلت يا أمير المؤمنين: هما أعظم من أن يكتب بوزنهما، فقال: صدقت. وبعث معاوية إلى عائشة رضى الله تعالى عنها طوقًا من ذهب فيه جوهرة قومت بمائة ألف دينار، فقسمته بين أزواج النبى ﷺ. وكان ملك العرب كلما مرت عليه سنة من سنى ملكه زيدت فى تاجه خرزة، وكان يقال لها خرزات الملك.

ذكر ما جاء فى الطيب والتطيب: قال رسول الله ﷺ: «أطيب الطيب المسك». وعن عائشة رضى الله تعالى عنها: كأنى أنظر إلى ويبص الطيب فى مفارق رسول الله ﷺ وهو محرم. وعن سهل بن سعد يرفعه: «إن فى الجنة لمعى من مسك مثل مراعى دوابكم هذه». وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال: دخل علينا رسول الله ﷺ. فنام فعرق فجاءت أمى بقارورة، فجعلت تسلى العرق فيها فاستيقظ وقال: يا أم سليم: ما هذا الذى تصنعين؟ فقالت: هذا عرقك نجعله فى طيبنا، وهو من أطيب الطيب. وعن عمر رضى الله تعالى عنه قال: لو كنت تاجرًا ما اخترت على العطر إن فاتنى ريحه لم يفتنى ريحه، وناول المتوكل فتى فارة المسك فقال:

لئن كان هذا طيبنا وهو طيب لقد طيبتته من يدك الأنامل

وأهدى عبد الله بن جعفر لمعاوية قارورة من الغالية، فسأله: كم أنفق عليها؟ فذكر مالا جزيلا، فقال: هذه غالية فسميت بذلك. وشمها مالك بن سليمان بن خارجة من أخته هند بنت أسماء فقال: علميني كيف تصنعين طيبك؟ فقالت: لا أفعل تريد أن تعلمه جواريك هو لك منى كلما أردته، ثم قالت: والله إنى ما تعلمته إلا من شعرك حيث تقول:

أطيب الطيب عـــــــرف أم أبانٍ فأر مسكٍ بعنبرٍ مســــحوق

قال أبو قلابة: كان ابن مسعود رضى الله تعالى عنه إذا خرج من بيته إلى المسجد عرف جيران الطريق أنه مر من طيب ريحه، وعن الحسن بن زيد الهاشمي، عن أبيه قال: رأيت ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يطلو جسده. فإذا مر في الطريق قال الناس: أمر ابن عباس أم مر المسك؟ وعنه عن أبيه قال: رأيت ابن عباس رضى الله تعالى عنهما حين أحرم والغالية على صدغيه كأنها لزقة. وقال أبو الضحى: رأيت على رأس الزبير من المسك ما لو كان لى لكان رأس مالى. وقيل: لما بنى عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه بفاطمة بنت عبد الملك، أسرج فى مسارجه تلك الليلة بالغالية. وقال الشعبي: الرائحة الطيبة تزيد فى العقل، وقال على كرم الله وجهه: تشمموا النرجس ولو فى العام مرة، فإن فى قلب الإنسان حالة لا يزيلها إلا النرجس. وكان الشعبي يقول: إذا ورد الورد صدر البرد. وكانت الصحابة رضى الله عنهم يستحبون إذا قاموا من الليل أن يمسوا لحاهم بالطيب. وكان من اختلف فى طرقات المدينة وجد عرقا طيبا، قيل: ولذلك سميت طيبة. وأقول: والله ما طابت طيبة إلا بالقلب الطاهر ﷺ وما أحسن ما قيل:

إذا لم أطب فى طيــــبَةٍ عند طيبٍ به طيــــبَةٌ طابت فــــأين أطيــــب

وقيل: إن فأرة المسك دوية شبيهة بالخشف تصاد لسرتها، فإذا صاهاها الصياد عصب السرة بعصاة شديدة، فيجتمع فيها دمها ثم يذبحها، ثم يأخذ السرة فيدفنها فى الشعير حتى يستحيل الدم المجتمع فيها مسكا ذكيا بعد أن كان لا يرام نشا. وقد يوجد جرذان سود يقال لها فأرات المسك ليس عندها إلا رائحة لازمة لها.

وحكى أن العنبر يأتى على طفاوة الماء لا يدرى أحد معدنه، فلا يأكله شيء إلا مات ولا ينقره طائر إلا بقى منقاره فيه، ولا يقع عليه حيوان إلا نصلت أظفاره فيه، والتجار والعطارون ربما وجدوا أظفارا فيه. وقال الزمخشري عفا الله عنه: سمعت ناسا من أهل مكة يقولون: هو من زيد بحر سرنديب. وأجود العنبر الأشهب، ثم الأزرق، وأدونه الأسود. وفى حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: ليس فى العنبر زكاة إنما هو شيء نثره البحر. وأما العود، فأجوده المندى وهو منسوب إلى مندل قرية من قرى الهند. وأجوده أصليه وامتحان رطبه أن تطبع فيه نقش الخاتم، فإن انطبع، فرطب وإلا فلا، ومن خصائصه أن رائحته تطبع فى الثوب أسبوعا فلا يقمل ما دامت فيه. وأما الكافور فهو ماء شجر بجزيرة الكافور يحزونه بالحديد. فإذا خرج ظاهرا وضربه الهواء انعقد كالصمغ الجامدة على الأشجار. وأما الند فمصنوع وهو العود المستقطر والعنبر والبان:

لو كنت أحمل جـــــمرا حين زرتكم لم ينكر الكلب إنى صــــاحب الدار
لكن أتيت وريح المسك يقــــدمنى والعنبر الند مشــــبوب على النار

وكانت ملوك الفرس تأمر برفع الطيب بأيام الورد. وكان المتوكل يلبس أيام الورد الثياب الموردة ويفرض الورد فى مجلسه، ويطيب جميع آلاته بالورد. وقال الحسن بن سهل: أمهات الرياحين تقوى بأمهات الطيب. فالنرجس يقوى بالورد، والورد يقوى بالمسك. والبنفسج يقوى بالعنبر، والريحان يقوى بالكافور، والنسرین يقوى بالعود. وقال جالينوس: المسك يقوى القلب، والعنبر يقوى الدماغ، والكافور يقوى الرئة، والعود يقوى المعدة، والغالية تحل الزكام،

والصندل يحل الأورام، وعن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تردوا الطيب فإنه طيب الريح خفيف المحمل». تبخر بعض الأمراء وعنده أعرابي. ففرطت من الأمير ريح خفيفة، فأراد أن يعلم هل فطن بها الأعرابي أم لا؟ فقال: ما أطيب هذا المثلث! قال: نعم، ولكنك ريعتها. وقال الأحنف: إن شم رائحة المسك يحيى القلب. وقال سلمة لابن عباس وعنده جعفر بن سليمان: ما شمت أنفى من ريح مسك شمتته من الناس إلا ريح كفك أطيب. فأمر له بألف دينار، ومائة مثقال مسك، ومائة مثقال عنبر، والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الشباب والصحة والعافية وأخبار المعمرين

وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: فى الشباب وفضله

روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال: ما بعث الله نبيًا إلا شابًا ولا أوتى العلم عالمًا إلا شابًا، ثم تلا هذه الآية: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠)﴾ [الأنبياء: ٦٠]. وقد أخبر الله تعالى به، ثم أتى يحيى بن زكريا الحكمة فقال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبًيًا (١٢)﴾ [مريم: ١٢] وقال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فَتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف: ١٣]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ [الكهف: ٦٠]. وقال أنس رضى الله تعالى عنه: «قبض رسول الله ﷺ وليس فى رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء». وقد قدم رسول الله ﷺ أسامة بن زيد على جميع الأنصار وكبار المهاجرين على حدائنه سنة، وعتاب بن أسيد ولاء مكة وبها أكابر قريش، وعبد الله بن عباس على جلالة قدره وحفظه من العلم. وقال بعض البلغاء: الشباب باكورة الحياة، وأطيب العيش أوائله كما أن أطيب الثمار بواكيرها. والشباب أبلغ الشفعاء عند النساء وأكثر الوسائل لقلوبهن. ولذلك قال الشاعر:

أحلى الرجال مع النساء مواقعا من كان أشبههم بهن خدودا

وما بكت العرب على شىء ما بكت على الشباب، ولو لم يكن هذا الشباب حميدًا وزمانه حبيبًا لوسامة صورته وبهجة منظره وجمال خلقته واعتدال قامته لما جاور الله فى جنات خلده الشباب، كما قال رسول الله ﷺ: «جردًا مردًا أبناء ثلاثين» وقد جاء فى ذلك أشياء كثيرة ليس هذا موضع بسطها.

الفصل الثانى: فى الشيب وفضله

أول من شاب سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. وفى الخبر أن الله تعالى يقول: «الشيب نورى وأنا استحي أن أحرقه بنارى». وعن جعفر بن محمد، عن أبيه قال: جاء رجلان إلى النبى ﷺ شيخ وشاب، فتكلم الشاب قبل أن يتكلم الشيخ، فقال عليه الصلاة والسلام: «كبر كبر». وبهذه الرواية: «من وقر كبيرًا لكبر سنه آمنه الله من فرع يوم القيامة». وعن أنس رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى وعزتى وجلالى وفاقة خلقتى إلى إنى لأستحي من عبدى وأمتى يشيان فى الإسلام أن أعذبهما. ثم بكى، فقيل له: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: أبكى عن يستحي الله منه وهو لا يستحي من الله». وقال: «من بلغ ثمانين من هذه الأمة حرمه الله على النار». وقال: «إذا بلغ المؤمن ثمانين سنة فإنه أسير الله فى الأرض تكتب له الحسنات وتمحى عنه السيئات». وقيل: كان الرجل فيمن كان قبلكم لا يحتلم حتى يبلغ ثمانين سنة. وقال ابن وهب: إن أصغر من مات من ولد آدم ابن مائتى سنة، فبكته الإنس والجن لحدائنه سنة، وقال النخعى: كان يقال إذا بلغ الرجل أربعين سنة على خلق لم يتغير عنه حتى يموت. وعن ابن عباس رضى الله عنهما رفعه: «من أتى عليه أربعون سنة ثم لم يغلب خيره على شره فليستجهز إلى النار». وعن أنس رضى الله عنه قال: قال ملك الموت لنوح عليه الصلاة والسلام، يا أطول النبيين عمرًا كيف وجدت الدنيا ولذتها؟ قال: كرجل دخل فى بيت له بابان، فقام وسبط البيت ساعة، ثم خرج من الباب الثانى. ويقال: أطع أكبر منك ولو بليلة. وقال عبد العزيز بن مروان من لم يتعظ بثلاث لم ينته بشىء: الإسلام، والقرآن، والشيب. قال الشاعر:

يا عامر الدنيا على شيبه فبك أعاجيب لمن يعجب

ما عذر من يعمر بنيانه وعمره منه لم يخرّب

وقال الشعبي: الشيب علة لا يعاد منها ومصيبة لا يعزى عليها، وقال الفرزدق:

ويقول كيف يميل مثلك للظلم والشيب ينقص في الشباب كأنه
وعليك من عظم المشيب عذار ليل يصيح بعارضيّه نهار

وقال أبو دلف في بياض اللحية:

تكونني هم لبياضاء نابتة ومن عجب أنى إذا رمت قصّها
لها بغضة في مضمرة القلب ثابتة قصصت سواها وهي تضحك نابتة

وقال أيضا:

أرى شيب الرجال من الغوانى بمبلغ شيبهن من الرجال

وقال ابن المعتز:

فظللت أطلب وصلها بتذلي والشيب يغمزها بأن لا تفعل

قيل: صاح شاب بشيخ أحذب. بكم ابتعت هذا القوس يا عماه؟ فقال: يا بني إني أعطيتها بغير ثمن. ومر رجل أشمط بامرأة عجيبة في الجمال، فقال: يا هذه إن كان لك زوج فبارك الله لك فيه، وإلا فأعلمينا. فقالت كأنك تخطبني؟ قال: نعم، فقالت: إن في عيبا، قال: وما هو؟ قالت: شيب في رأسي، فثنى عنان دابته، فقالت: على رسلك، فلا والله ما بلغت، عشرين سنة ولا رأيت في رأسي شعرة بيضاء، ولكني أحبيت أن أعلمك أنى أكره منك مثل ما تكره مني، فأنشد، ويقال إنه لابن المعتز:

رأين الغوانى الشيب لاح بمفرقى فأعرضن عني بالحدود النواضر

وقال آخر:

سألتهما قبله يوما وقد نظرت فأعرضت ومالت وهي قائلة
شيبى وقد كنت ذا مالٍ وذا نعم لا والذي أوجد الأشياء من عدم
أفى الحياة يكون القطن حشوفى ما كان لى فى بياض الشيب من أرب

وقال آخر:

قالت أرى مسكة الشعر البهيم غدت فقلت طيب بطيب والتنقل فى
كافورة قد أحالتها يد الزمن معادن الطيب أمر غير ممتنهن
المسك للشم والكافور للكفن قالت صدقت وما أنكرت ذاك بدا

وقال آخر:

قالت أراك خضبت الشيب قلت لها
فقهقت ثم قالت من تعجبها

وقال ابن نباتة:

تبسم الشيب بوجه الفتى
وكيف لا يكي على نفسه

وقال ابن المعتز:

فما أقبح التفريط في زمن الصبا

وكان المأمون يتمثل بقول الشاعر:

رأت وضحا في الرأس منى فراعها
تفاريق شيب في السواد لوامع

ويقال في الرجل: إذا شاب، ليله عسعس وصبحه تنفس:

إذا نازع الشيب الشباب فأصلتا

وقال آخر:

أكان شيب العبد من نقرة القفا

وقال العتي:

قالت عهدتك مجنونًا فقلت لها

وقال علي بن ربيع:

كبرت ودق العظم منى وعقنى
وأصبحت أعشى أخبط الأرض بالعصا

وقال آخر:

عريت من الشباب وكنت غصنًا
ونحت على الشباب بدمع عيني

سترتك عنك يا سمعى ويا بصرى
تكاثر الغش حتى صار في الشعر

يوجب سح الدمع من جفنه
من ضحك الشيب على ذقنه

فكيف به والشيب في الرأس شامل

فريقان مبيض به وبهيم
فيا حسن ليل لاح فيه نجوم

سيفيهما فالشيب لا شك غالب

وشيب كرام الناس شيب المفارق

إن الشباب جنون برؤه الكبير

بنى وزالت عن فراشي العقائد
يقودوننى بيت البيوت الولائد

كما يعرى من الورق القضيب
فمما نفع البكاء ولا النحيب

فيا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب
وقال ابن النقيب:

وكم كان من عينٍ علىَّ وحافظ وكم كان من واشٍ لها ورقيب
فلما بدا شيبى اطمأنت قلوبهم ولم يحفظوني واكتفوا بمشيبى

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: ما شبهت الشباب إلا كشيء كان فى كمي فقط. قال الشاعر:

شيثان لو بكت الدماء عليهما عيناك حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما فقد الشباب وفرقة الأحباب

وقال الجاحظ:

أترجـو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت فى زمن الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوبٌ دريسٌ كالجديد من الشـباب

ومما جاء فى الخضاب: قال ﷺ: «عليكم بالخضاب فإنه أهيب لعدوكم وأعجب لنسائكم»، وعن أبى عامر الأنصارى رضى الله عنه: رأيت أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه يغير بالحناء والكتم. وقيل: خضاب الحناء يصفى البصر ويذهب بالصداع ويزيد فى البهاء.

تسود أعلاها وتابى أصولها وليس إلى رد الشباب سبيل
وقيل: وفد عبد المطلب بن هاشم على سيف بن ذى يزن. فقال له: لو خضبت شعرك، فلما رجع إلى مكة اختضب. فقالت امرأته نبيلة: ما أحسن هذا لو دام. فقال:

ولو دام لى هذا الخضاب جمده وكان بديلاً من خليلٍ قد انصرم
تمتعت منه والحياة قصيرة ولا بد من موت نبيلة أو هرم

وقال آخر:

يا خاضب الشيب الذى فى كل ثالثة يعود
إن الخضاب إذا نضجا فكأنه شيب جديد
فدع المشيب وما يريـد قد فلن يعود كما تريد

وقال محمود الوراق:

فما منك الشباب ولست منه إذا سامتك لحيتك الخضايا

الفصل الثالث: فى العافىة والصحة

عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إليك انتهت الأمانى يا صاحب العافىة». وعنه ﷺ أنه قال: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة أن يقال له ألم أصح بدنك وأرؤك بالماء البارد؟» وقال على رضى الله تعالى عنه فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (٨) [التكاثر: ٨]. هو الأمن والصحة والعافىة. وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: يسأل الله العباد عن الأبدان والأسماع والأبصار فيم استعملوها وهم أعلم بذلك، وقال ابن عيينة: من تمام النعمة طول الحياة فى الصحة والأمن والسرور. وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها: لو رأيت ليلة القدر ما سألت الله إلا العفو والعافىة. وقال قبيصة بن ذؤيب: كنا نسمع نداء عبد الملك بن مروان من وراء الحجرة فى مرضه: يا أهل النعم لا تستقلوا شيئاً من النعم مع العافىة. ويقال: البحر لا جوار له، والمملك لا صديق له، والعافىة لا ثمن لها، قال ابن الرومى:

إذا ما كساك الدهر سربال صحة ولم تخل من قوتٍ يحل ويقرب
فلا تغبطن أهل الكثير فلانما على قدر ما يعطيهم الدهر يسلب

ويقال: صحة الجسم أوفر القسم. وذكر بعضهم العافىة فقال: وأى وطاء وأى عطاء. وقال حكيم: إن كان شىء فوق الحياة فالصحة وإن كان شىء مثل الحياة فالغنى، وإن كان شىء فوق الموت فالمرض وإن كان شىء مثل الموت فالفقر. وقال على رضى الله تعالى عنه: ما المبتلى الذى اشتد به البلاء بأحوج إلى الدعاء من المعافى الذى لا يأمن البلاء. وقيل: إن فارة البيوت رأت فارة الصحراء فى شدة ومحنة، فقالت لها: ما تصنعين ها هنا؟ اذهبي معى إلى البيوت التى فيها أنواع النعيم والخصب، فذهبت معها وإذا صاحب البيت الذى كانت تسكنه قد هيا لها الرصد لبنة تحتها شحمة، فاقتحمت لتأخذ الشحمة فوقعت عليها اللبنة فحطمتها، فهربت الفارة البرية وهزت رأسها متعجبة وقالت: أرى نعمة كثيرة وبلاء شديداً ألا وإن الفقر والعافىة أحب إلى من غنى يكون فيه الموت، ثم فرت إلى البرية. وكان عند رومى خنزير فربطه إلى اسطوانة ووضع العلف بين يديه ليسمنه، وكان بجانبه أتان لها جحش، وكان ذلك الجحش يلتقط من العلف ما يتناثر، فقال لأمه: يا أماه ما أطيب هذا العلف لو دام. فقالت له: يا بنى لا تقربه، فإن وراءه الطامة الكبرى، فلما أراد الرومى أن يذبح الخنزير ووضع السكين على حلقه جعل يضرب ويتفخ، فهرب الجحش وأتى إلى أمه، وأخرج لها أسنانه وقال: ويحك يا أماه انظري هل بقى فى خلال أسناني شىء من ذلك العلف فاقلعيه. فما أحسن القنع مع السلامة، والله أعلم بالصواب.

الفصل الرابع: فى أخبار المعمرين فى الجاهلية والإسلام

قال الحسن رضى الله تعالى عنه: أفضل الناس ثواباً يوم القيامة المؤمن المعمر. وقال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخياركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: أطولكم أعماراً فى الإسلام إذا سدوا». وزعموا أن تبعاً الفزازى كان من المعمرين، وإنه دخل على بعض خلفاء بنى أمية، فسأله عن عمره، فقال: عشت أربعمائة وعشرين سنة فى فترة عيسى ابن مريم عليه السلام فى الجاهلية، وستين فى الإسلام. قال له: أخبرنى عما رأيت فى سالف عمرك قال: رأيت الدنيا ليلة فى أثر ليلة ويوماً فى أثر يوم، ورأيت الناس بين جامع مال مفرق ومفرق مال مجموع، وبين قوى يظلم، وضعيف يظلم، وصغير يكبر وكبير يهرم، وحى يموت وجنين يولد، وكلهم بين مسرور بموجود ومحزون بمفقود. وقد قال ابن الجوزى: إن آدم عليه السلام عاش ألف سنة، وعاش ابنه شيث تسعمائة سنة، وعاش ابنه مهلايل ثمانمائة وخمسة وتسعين سنة، وعاش ابنه إدريس ثلاثمائة وخمسة وتسعين سنة، وعاش ابنه هود تسعمائة واثنين وستين سنة، وعاش ابنه متوشلخ تسعمائة وستين سنة، وأما ابنه نوح عليه السلام، فروى عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال:

عاش نوح عليه السلام ألفاً وأربعمائة وخمسين عاماً. وأما الخضر عليه السلام واسمه خضرون فهو أطول بنى آدم عمراً. وذكر أن لقمان عليه السلام عاش ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة. وكانت العرب لا تعد من الأعمار إلا ما بلغ مائتين وعشرين سنة فما فوقها. وعاش أكثم بن صيفى ثلاثمائة وستين سنة وأدرك الإسلام، وعاش سطيج سبعمائة سنة، وعاش قس ابن ساعدة الأيادى سبعمائة سنة، وكان من حكماء العرب. وعاش لييد بن ربيعة الشاعر مائة وعشرين سنة، وأدرك الإسلام. وعاش دريد بن الصمة مائة وسبعين سنة حتى سقط حاجباه على عينيه وأدرك الإسلام ولم يسلم. ومن المعمرين عدى بن حاتم الطائى وزهير بن جنادة عاشا مائتين وعشرين سنة. ومن المعمرين ذو الأصابع العذرى عاش مائتين وعشرين سنة، وهو أحد حكماء العرب فى الجاهلية، ومن المعمرين: عمرو بن معد يكرب الزبيدى، ومن المعمرين: عبد المسيح بن نفيلة عاش ثلاثمائة وعشرين سنة وأدرك الإسلام. وقد رأيت رجلاً من أهل محلة مسير بالغربية، وذكر أنه بلغ من العمر مائة وأربعين سنة، وإن امرأته بلغت من العمر كذلك، ولقد رأيت منه ما لم أره من بعض شبان هذا العصر فى القوة وشدة البأس، ورأيت له ولداً شيخاً هو أشد قوة من ولده، وذلك فى صفر تسع وعشرين وثمانمائة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فى الأسماء والكنى والألقاب وما استحسنت منها

فأشرف الأسماء وأعظمها بسم الله الرحمن الرحيم قال الله تعالى: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥]. وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، عن رسول الله ﷺ: «من رفع قرطاساً من الأرض مكتوباً عليه بسم الله الرحمن الرحيم إجلالاً له، ولا سمه عن أن يداس كان عند الله من الصديقين، وخفف عنه وعن والديه العذاب وإن كانا مشركين». وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: لم يرن إبليس لعنه الله قط إلا ثلاث رنات، رنة حين لعن وأخرج من ملكوت السموات والأرض، ورنة حين ولد محمد ﷺ، ورنة حين أنزلت سورة الحمد وفى أولها بسم الله الرحمن الرحيم. وعن رسول الله ﷺ: «لا يرد دعاء أوله بسم الله الرحمن الرحيم، وإن أمتى يأتون يوم القيامة يقولون بسم الله الرحمن الرحيم فتثقل حسنتهم فى الميزان. فتقول الأمم: ما أثقل موازين أمة محمد، فتقول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ابتداء من كلامهم ثلاثة أسماء من أسماء الله تعالى لو وضعت فى كفة الميزان ووضعت سيئات الخلق فى كفة لرجحت كفة الأسماء».

وأما الأسماء والكنى: ففى صحيح مسلم عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب أسمائكم إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن. وأصدقها حارث وهمام وأقبحها حرب ومرة»، وينبغى أن تنادى من لا تعرف اسمه بعبارة لطيفة لا يتأذى بها ولا يكون فيها كذب كقولك يا فقيه، يا أخى، يا فقير، يا سيدى، يا صاحب الثوب الفلانى أو البغل الفلانى أو الفرس الفلانى أو السيف الفلانى وما أشبه ذلك. ودخل عبادة على المتوكل وبين يديه جام من ذهب فيه ألف مثقال، فقال له: أسألك عن شىء إن أجبتنى عنه ابتداء من غير أن تفكر فلك الجأ بما فيه، فقال: سل يا أمير المؤمنين، قال أسألك عن شىء له اسم ولا كنية له، وعن شىء له كنية ولا اسم له، قال: المنارة، وأبو رياح، فعجب المتوكل وأعطاه الجأ بما فيه. وقيل لعثمان «ذو النورين» رضى الله تعالى عنه لأنه هو ورقية كانا أحسن زوجين فى الإسلام، وقيل: لأنه تزوج برقية ثم بأم كلثوم ابنتى رسول الله ﷺ، ولم يوجد من تزوج بابنتى نبي غيره. وكان قتادة بن النعمان الأنصارى رضى الله تعالى عنه أصيب فى عينه يوم أحد فسقطت على خده فردها رسول الله ﷺ، فكانت أحسن وأصح من الأخرى، فكانت تعتل أى ترمد عينه الباقية ولا تعتل عينه المردودة، فقيل: ذو العينين. وقال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه: كنيته بهرة صغيرة كنت أحملها فى حجرى فألعب بها، وكان رسول الله ﷺ يقول: يا أبا هريرة، واختلف فى اسمه، فقيل: عبد الرحمن، وقيل: عبد شمس، وقيل: عمير، وقيل: سليمان، وقال الشعبى رضى الله تعالى عنه كنية الدجال أبو يوسف. ذو الشهرة أبو دجاجة الأنصارى رضى الله تعالى عنه كان له شهرة يلبسها بين الصفين. ذو الرياستين الفضل بن سهل لأنه دبر أمر السيف والقلم وولى رئاسة الجيوش والدواوين، ودخل عليه شاعر يوم المهرجان وبين يديه الهدايا، فقال:

والـيوم يوم المـهـرجـان	هديتى فـيـه الـلسـان
لك دولـتان حـديـثة	وقـديـمة وريـاسـة
لك فى الـورى مـن هـاشـم	نبت وبيت خـسـروان
علم الخـليـفة كـيف أنـ	ت فـصـرت فى هـذا المـكان

فأمر له بجميع الهدايا. المطيبون بنو عبد مناف وبنو أسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب، ونعيم بن مرة، والحارث ابن فهر غمسا أيديهم فى خلوق ثم تحالفوا. شيبه الحمد عبد المطلب لقب بشيبة كانت فى رأسه حين ولد، قال حذافة: بنو شيبه الحمد الذى كان وجهه

وقيل له: عبد المطلب لأن عمه المطلب مر به فى سوق مكة مردوفاً له فجعلوا يقولون: من هذا الذى وراءك فيقول: عبد لى. سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه اسمه عبد الله ولقباه العتيق والصديق لجماله وتصديقه بخبر الإسراء أو لأنه من صدق رسول الله ﷺ. سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه لقب بالفاروق لأنه قال يوم أسلم: لا

يُعبَد الله اليوم سرّاً، فظهر بالإسلام، وفرق بين الحق والباطل. الكامل سعد بن عباد، رضى الله تعالى عنه، لأنه كان يكتب ويحسن الرمى والعموم. طلحة بن عبد الله رضى الله تعالى عنه كان يقال له طلحة الخير، وطلحة الفياض، وطلحة الطلحات لسخائه، رشح الحجر، وأبو الريان عبد الملك بن مروان لقب بذلك لبخله وبخره، عكة العسل سعيد ابن العاص رضى الله تعالى عنه. الحبر عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنه لقب بذلك لعلمه، كان يقال له: مرة الحبر ومرة البحر. الأشدق عمرو بن سعيد لأنه كان مائل الشدق. الفياض عكرمة بن ربيع لقب بذلك لسخائه. المصطلق خزيم بن سعد الخزاعي قيل له المصطلق لحسن صوته وشدته، وكان أول من غنى من خزاعة. راح يكذب لقب به المهلب لأنه كان يضع الحديث أيام الخوارج فيحدث به، فإذا رآوه قالوا: راح يكذب. وأصل الغزال كان يكثر الجلوس في سوق الغزالين وكان يتبع العجائز فيتصدق عليهم ولم يكن غزلاً. سليمان التميمي كان داره ومسجده في بني تميم ولم يكن منهم وهو شيباني. أبو عمرو الشيباني لم يكن من بني شيبان، وإنما كان يعلم يزيد بن يزيد الشيباني. اليزيدي كان يعلم يزيد بن منصور الحميري فنسب إليه. ذو القروح امرؤ القيس كان ملك الروم كساه الحلة المسمومة فقرحته، وقالوا: لم تكن الكنى لأحد من الأمم إلا للعرب، وهى مفاخرهم، وقال بعضهم:

أَكْنِيهِ حِينَ أَنْادِيهِ لَا كَرْمِهِ وَلَا الْقَبِيْهِ وَالسُّوءَةَ الْقَلْبِ

وقيل فى قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]، أى كنياه، ولما ضرب موسى عليه الصلاة والسلام البحر ولم يتفلق أوحى الله تعالى إليه أن كنه، فقال انفلق أبا خالد، فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم.

وأما الألقاب: فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَبْزُوا بِالْأَلْقَابِ بِسْمِ الْأَسْمِ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١]. سماه الله تعالى فسوقاً. واتفق العلماء رضى الله تعالى عنهم على جواز ذلك على وجه التعريف لمن لا يعرف إلا بذلك. كالأعمش والأعمى والأعرج والأحول والأفطس والأقرع ونحو ذلك، وقل من المشاهير فى الجاهلية والإسلام من ليس له لقب، ولم يزل فى الأمم كلها يجرى فى المخاطبات والمكاتبات من غير تكبر. غير أنها كانت تطلق على حسب الموسومين. وأما ما استحسّن من تلقيب السفلة بالألقاب العلية حتى زال الفضل وذهب التفاوت وانقلب النقص والشرف شرعاً واحداً فمكرر، وهب أن العذر مبسوط فى ذلك، فما العذر فى تلقيب من ليس من الدين فى دبير ولا قبيل ولا له فيه ناقة ولا فصيل بل هو محتو على ما يضاد الدين، وينافى كمال الدين وشرف الإسلام، وهى لعمر الله الغصة التى لا تساغ والغبن الذى يعجز الصبر دونه فلا يستطيع، نسأل الله تعالى إعزاز دينه وإعلاء كلمته، وأن يصلح فسادنا ويوقظ غافلنا.

الرجل يكنى باسم ولده والمرأة كذلك، وإذا كنوا من لم يكن له ولد فعلى جهة التفاؤل وبناء الأمر على رجاء أن يعيش فيولد له، وقد يكنون بما يلائم المكنى من غير الأولاد كقول رسول الله ﷺ فى على رضى الله تعالى عنه أبو تراب، وذلك أنه نام فى غزوة ذى العشيرة، فذهب به النوم، فجاء رسول الله ﷺ وهو متمرغ فى التراب، فقال له: «اجلس أبا تراب، وكان أحب أسمائه إليه. وكقولهم أبى لهب لحمرة خديه ولونه. وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: وسمعتهم يكتنون الكبير الرأس والعمامة بأبى الرأس وأبى العمامة. وسمعت العرب ينادون الطويل اللحية يا أبا الطويلة. وسمعت عرب البحيرة يكتنون بأسماء بناتهم، كأبى زهو، وأبى سلطنة، وأبى ليلى ونحو ذلك، ولا حرج فى ذلك، وقد تكنى جماعة من أفاضل الصحابة بأبى فلانة منهم سيدنا عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه كان له ثلاث كنى أبو عمرو، وأبو عبد الله، وأبو ليلى. ومنهم أبو أمامة. وأبو رقية تميم الدارى، وأبو كريمة المقداد بن معد يكرب، وكثير من الصحابة ومن التابعين رضوان الله عليهم أجمعين. أبو عائشة مسروق بن الأجدع، وكان لأنس أخ صغير وله نغير يلعب به فمات، فدخل رسول الله ﷺ فرآه حزينا. فقال: «ما شأنه؟» فقالوا: مات نغيره. فقال: يا أبا عمير ما فعل النغير. ونظر المأمون إلى غلام حسن فى الموكب. فسأله عن اسمه. فقال: لا أدري. فقال:

تَسْمِيَتِ لَا أَدْرِ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِ بِمَا فَعَلَ الْحَبَّ الْمَبْرَحَ فِي صَدْرِي

وعن عليّ رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ: «إذا سميتُم الولد محمداً فأكرموه ووسعوا له في المجلس ولا تقبحوا له وجهاً» وعنه: «ما من قوم كان بينهم مشورة فحضر من اسمه محمداً أو أحمد فادخلوه في مشورتهم إلا كان خيراً لهم، وما من مائدة وضعت فحضر عليها من اسمه محمداً أو أحمد إلا قدس الله ذلك المنزل في كل يوم مرتين وكل ذلك بركة هذا الاسم الشريف».

وما جاء في مدح الأسماء منظوماً: قال بعضهم في مליح اسمه إبراهيم:

وأيت حبيبى فى المنام معانقى
وقد رق لى من بعد هجرٍ وقسوةٍ
وفيه أيضًا:

لا زال بابك كعبيةً محجوجة
حتى ينادى فى البقاع بأسرها
وتراها فوق الجباه وسيم
هذا المقام وأنت إبراهيم

وفيه أيضاً:

يا سَمِى الخليل إن فـؤادى
وعجيب يا قاتلى أن قلبى
ففيه من لوعة الغرام جـحيم
ففيه نار وأنت فيه مقـم

ولبعضهم فى ملىح اسمه عمر:

يا أعدل الناس اسمًا كم تجور على
أظنهم سرقوك القاف من قمر

وفيه أيضًا:

فؤاد مـضناك بالهـجران والسين
وأبدلوها بعينٍ خـيـفة العين

ما عليهم في الهوى لو نظروا
أبدلوا قـافك عـينا غلطا
حين سموك فقالوا عمر
أخطأوا ما أنت إلا قـمـر
ولبعضهم في مـليح حامل شمعة موقودة اسمه عثمان:

وَأَفَى إِلَى بِشْمَعَةَ وَضِيَاؤَهَا
نَادَيْتَهُ مَا الْأَسْمَ يَا كُلِّ الْمَنَى
وَلِبَعْضِهِمْ فِي مَلِيحِ اسْمِهِ يُوسُفَ:

يا من سبى الشعراء نمل عذاره
صيرت قلبى من صدودك فاطراً

النجم يشهد لى بأنى مدنف
فـامن على بزورة يا يوسف

وللصفى الحلى فيمن اسمه داود:

وفيه على الهوى بأس شديد
إذا داود لان له الحـديـد

وثقت بأن قلبى من حـديـد
فلان على هواك ولا عـجـيب

وله فيمن اسمه موسى:

حـوتـه صـوارم الحـدق المراض
وآية ذا سـواد فى بيـاض
كليم الله فى الحـقب المواضى

أتى موسى بآية خـال خـده
فـآية ذا بيـاض فى سـواد
فجاء بضد ما قد جاء موسى

وللقيراطى فى مليح اسمه بدر:

أن فـاق فى حـسنه وتما
بأنه اسم على مـسمى

سـمـوه بدرأ وذاك لما
وأجـمع النـاس إذا رأوه

ولمؤلفه رحمه الله تعالى فى قاضى القضاة علم الدين صالح البلقيني:

يسكب العلوم كبحر فضل طافح
والعلم يشفى إن يكن من صالح

وعظ الأيام إمامنا الحـبر الذى
فشفى القلوب بعلمه وبوعظه

وتوجهت مرة إلى بلتاج لأجتمع بالحاج خليل بن منصور فى ضرورة فلم أجده ولم يبق أحد من إخوته بقضاء ما
توجهت بسببه فقلت:

وأوصافه تزرى بكل جمـيل
ولا خير فى الدنيا بغير خليل

خصـال خليل كلهن حمـيدة
فلا خير فى بلتاج إن لم يكن بها

وقال آخر فى مقبل:

ما زال عنه كل يوم يسـأل
ويقـال لى هذا حبيبك مقـبل

يا من تحجب عن مـحب صـادق
من لى يوم فيه تـسمح باللقـا

ولبعضهم فى مليح اسمه محسن:

برتبة من الجمـال نالها
وكم دمـوع فى الهوى أسـألها

وأهيف يعلو على عـشـاقه
واسمه وهو العـجـيب مـحسن

ولصفى الدين الحلى فى اسم حسين:

حبيبى وافر والشوق منى
وأعجب أننى أهوى حسينا

ومما قيل فى أسماء النساء فى فاطمة:

عجبت من فساتنة لم تزل
تنكر ما ألقاه من وجدها

وقال ابن مكناس فى اسم عائشة:

يا دهر خبرنى بحققك واشفنى
أیحل أنى فى المحببة ميت

وقال شمس الدين البديرى فى اسم حليلة:

ولما رأتنى فى هواها متيما
فجادت بطيب الوصل منها ولم تجز

ولبعضهم فى اسم بركة دوبيت:

لما نصب الهوى لقلبى شرکة
يا قلب أفق ولا تمل لشركه

مردوفا أيضا:

لما نصب الهوى لقلبى شرکة
ناديت وقلبى تارك من تركه
يا قلب أفق ولا تمل للشركه
تغنيك سنين ساعة من برکه

طويل والهوى عندى مديد
وشوق فى محبته يزيد

لمرتجى الوصل لها فاطمة
وهى بشوقى والجوى عالة

فسهام فكرى فى أمورك طائشة
وحبيبتي من بعد موتى عائشة

أكابد من حر الغرام اليمه
ومن أين تدرى الجور وهى حلیمه

ناديت وقلبى تارك من تركه
تغنيك سنين ساعة من برکه

فى كل طريق
لو كان يفتيق
ما الشـرك يـليق
عن كل صديق

ولو تتبععت هذا المعنى لاحتجت إلى مجلدات ولكن فيما ذكرته كفاية والله الموفق وأسأله العناية وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فيما جاء في الأسفار والاغتراب وما قيل في الوداع

والفراق والحث على ترك الإقامة بدار الهوان وحب الوطن والحنين إليه

أما ما جاء في الأسفار والحث على ترك الإقامة بدار الهوان: فقد قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ [الملك: ١٥]. وفي الأثر: سافروا تغنموا، وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم الناس رحمة الله للمسافر لأصبح الناس على ظهر سفر، وهو ميزان الأخلاق إن الله بالمسافر رحيم». ويقال: الحركة ولود والسكون عاقر. وقال حكيم: السفر يسفر عن أخلاق الرجال. وكان بعضهم يريد السفر فيمنعه والده إشفاقاً عليه. فقال يوماً:

ألا خلّنى أمضى لشأنى ولا أكن	على الأهل كـلا إن ذا لشديد
تهيبى بنى ريب المنون ولم أكن	لأهرب عما ليس منه محييد
فلو كنت ذا مال لقرب مجلسى	وقيل إذا أخطأت أنت رشيد
فدعنى أجول الأرض عمري لعله	يسر صديق أو يغاظ حسود

وقال رسول الله ﷺ: «عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل ولا تطوى بالنهار». وقال كعب بن مالك رضى الله تعالى عنه: كان رسول الله ﷺ يكره أن يسافر الرجل فى غير رفقة، وقال ﷺ: «الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب»، وقال ﷺ: «إذا خرج ثلاثة فى ركب فليؤمروا أحدهم».

وقيل: أغار حذيفة بن بدر على هجان النعمان بن المنذر بن ماء السماء وسار فى ليلة مسافة ثمانى ليال، فضرب به المثل، وقال قيس بن الخطيم:

هممنا بالإقامة ثم سرنا مسير حذيفة الخير بن بدر

وسار ذكوان مولى عمر رضى الله تعالى عنه من مكة إلى المدينة فى يوم وليلة. وقال المأمون: لا شئ ألد من السفر فى كفاية وعافية، لأنك تحل كل يوم فى محلة لم تحل فيها، وتعاشر قوماً لم تعرفهم. ومما قيل فى ترك الإقامة بدار الهوان:

قال الفرزدق:

وفى الأرض عن دار القلى متحول وكل بلاد أوطنتك بلاد

وقال آخر:

ومما هى إلا بلدة مثل بلدتى خيأهما ما كان عوناً على دهر

وقال آخر:

وإذا البلاد تغيرت عن حالها فدع المقام وبادر التحويلا
ليس المقام عليك فرضاً واجباً فى بلدة تدع العزيز ذليلاً

وقال الصفي الحلبي:

تنقل فلذات الهوى فى التنقل
ففى الأرض أحباب وفيها منازل
ولا تستمع قول امرئ القيس إنه
ورد كل صافٍ لا تقف عند منهل
فلا تبك من ذكرى حبيب ومنزل
مضل ومن ذا يهتدى بمضل

وقال عبد الله الجعدى:

فإن تجف عنى أو تزرنى إهانة
أجد عنك فى الأرض الفريضة مذهباً

ومما قيل فى الوداع والفراق والشوق والبكاء: قال جرير:

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم
يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل

وقيل: لعمارة بن عقيل بن بلال بن جرير ما كان جدك صانعاً فى قوله فعلت ما لم أفعل؟ قال: كان يقطع عينيه حتى لا يرى مظعن أحبابه ثم أنشد يقول:

وما وجد مغلول بصنعاء موثق
قليل الموالى مسلم بجـزيرة
يقول له الحداد أنت معذب
بأكبر منى لوعنة يوم راعنى
بساقيه من ماء الحديد كبول
له بعد نومات العيون أليل
غد له غدٍ أو مسلم فقـتـيل
فراق حبيب ما إليه سبيل

وقال الشاعر:

وما أم خشف طول يوم وليلة
تهيم ولا تدرى إلى أين تبتغي
أضر بهتا حر الهجير فلم تجد
إذا أبعدت عن خشفها انعطفت له
بأوجع منى يوم شدوا حمولهم
بيلقعة بيداء ظمآن صاديا
مولهة حزنًا تجوز الفيافيا
لغلتها من بارد الماء شافيا
فالفته ملهوف الجوانح طاويا
ونادى مناد اليبين أن لا تلاقيا

وقال عبد العزيز الماجشون وهو من فقهاء المدينة: قال لى المهدي يا ماجشون ما قلت حين فارقت أحبابك قال: قلت يا أمير المؤمنين:

لله بالك على أحبابه جزعا
ما كان والله شؤم الدهر يتركنى
إن الزمان رأى ألف السرور لنا
فليصنع الدهر بى ما شاء مجتهداً
قد كنت أحذر هذا قبل أن يقع
حتى يجرعنى من بعدهم جرعا
فدب بالبين فيما بيتنا وسعى
فلا زيادة شئ فوق ما صنعنا

فقال والله لأعينك فأعطاء عشرة آلاف دينار.

وقال آخر:

وقفت يوم النوى منهم على بعد
إني خشيت على الأظعان من نفسي
وقال عمر بن أحمد:

أتى الرحيل فحين جد ترحلت
من لم يبت والبين يصدع قلبه
مهج النفوس له عن الأجساد
لم يدرك كيف تفتت الأكباد

وحكى بعضهم قال: دخلنا إلى دير هرقل فنظرنا إلى مجنون في شباك وهو ينشد شعراً فقلنا له: أحسنت، فأوماً بيده إلى حجر يرمينا به وقال المثلثي يقال أحسنت، ففررنا منه فقال: أقسمت عليكم إلا رجعتم حتى أشدكم فإن أحسنت فقولوا أحسنت وإن أنا أسأت فقولوا أسأت. فرجعنا إليه فأنشد يقول:

لما أناخوا قبيل الصبح عيسهمو
وقلبت بخلال السجف ناظرها
وودعت ببنان زانه عنهم
يا حادى العيس عرج كى أودعهم
إني على العهد لم أنقض مودتهم
وحملوها وسارت بالدمى الإبل
يرنو إلى ودمع العين ينهمل
ناديت لا حملت رجلاك يا جمل
يا حادى العيس فى ترحالك الأجل
يا ليت شعرى لطول البعد ما فعلوا

فقلنا له: ماتوا. فقال: والله وأنا أموت! ثم شهق شهقة فإذا هو ميت رحمه الله تعالى.

وقال آخر:

لما علمت بأن القوم قد رحلوا
شبكت عشرين على رأسى وقلت له
فـحـن لى وبكى بل رق لى ورثى
إن الخيام التى قد جئت تطلبهم
وراهب الدير بالناقوس مشتغل
يا راهب الدير هل مـسـرت بك الإبل
وقال لى يا فتى ضاقت بك الحيل
بالأمس كانوا هنا والآن قد رحلوا

وقال الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربى رحمه الله تعالى^(١):

ما رحلوا يوم ساروا البزل العيسا
من كل فاتكة الأحاظ مالكة
إذا تمشت على صرح الزجاج ترى
أسقفنة من بنات الروم عاطلة
وَحشِيَّة ما لها أنس قد اتخذت
إلا وقد حملوا فيها الطواويسا
تخالها فوق عرش الدر بلقيسا
شمسًا على فلك فى حجر إدريسا
ترى عليها من الأنوار ناموسا
فى بيت خلوتها للذكر ناووسا

(١) محيى الدين بن عربى: هو محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الله، الشيخ محيى الدين أبو بكر الطائى الحافى الأندلسى، المعروف بابن عربى، صاحب التصانيف الكثيرة فى التصوف. ولد فى الأندلس (٥٦٠هـ) وتوفى سنة (٦٣٨هـ). له كتب كثيرة منها: (مفاتيح الغيب) و«نسخة الحق» و«فصوص الحکم» و«التجليات» وغيرها.

إن أومات تطلب الإنجيل تحسبهم
ناديت إذ رحلوا للين ناقثتها
غميبت أجناد صبرى يوم بينهم
ساروا وأصبحت أنعى الربع بعدهم
وقال آخر:

ولما تبدت للرحيل جمالنا
تبدت لنا مذعورة من خبائنها
أشجارت بأطراف البنان وودعت
فقلت لها والله ما من مسافر
فشالت نقاب الحسن من فوق وجهها
وقالت إلهى كن لى عليه خليفة

وقال آخر:

يا راحلاً وجميل الصبر يتبعه
ما أنصفتك دموعى وهى دامية

وقال البغدادى^(١):

قالت وقد نالها للين أوجعه
اجعل يديك على قلبى فقد ضعفت
واعطف على المطايا ساعة فعسى
كأننى يوم ولت حسرة وأسى

وقال ابن البديرى:

قف حادياً ليلى فلانى وامق
وزم مطاياها قبيل مسيرها
ولا تزجرا بالسوق أظعان عيسها
ولما التقينا والغرام يذينا
وقفنا ودمع العين يحجب بيننا
فلا تسألاً ما حل بالين بيننا

قساقساً أو بطاريقاً شماميسا
يا حادى العيس لا تحدو بها العيسا
على الطريق كراديساً كراديسا
والوجد فى القلب لا ينفك مغروسا

وجد بنا سير وفاضت مدامع
وناظرها باللولؤ الرطب دامع
وأومت بعينيها متى أنت راجع
يسير ويدرى ما به الله صانع
فسالت من الطرف الكحيل مدامع
فيا رب ما خابت لديك الودائع

هل من سبيل إلى لقياك يتفق
ولا وفى لك قلبى وهو يحترق

والين صعب على الأحباب موقعه
قواه عن حمل ما فيه واضلعه
من شق الهوى بالين يجمعه
غريق بحر يرى الشاطئ ويمنعه

وتعجلاً يوماً على من يفارق
ليلتها منها بالتزود عاشق
فلن حبيبى للظعائن سائق
ونحن كلانا فى التفكير غارق
تسارقنى فى نظرة وأسارق
ولا تعجبا أنا مشوق وشائق

(١) البغدادى هو عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن على بن سعد، العلامة موفق الدين البغدادى، الشافعى، النحوى، المتكلم، الطبيب، الفيلسوف المعروف بابن اللباد، ولد ببغداد فى أحد الريعين سنة (٥٥٥هـ) وتوفى ببغداد سنة (٦٢٩هـ) وله تصانيف منها «كتاب أخبار مصر» و«كتاب فى القياس».

وقال أيضاً:

تذكرت ليلي حين شط مزارها
بكيت عليها والقنا يقصر القنا
وخالفت لوامي عليها وعذلي
ولم استطع يوم النوى رد عبيرة
فقال خليلي إذ رأى الدمع دائماً
لئن كان هذا الدمع يجري صبابة

وقال آخر:

مددت إلى التوديع كفاً ضعيفاً
فلا كان هذا آخر العهد منكمو

وقال آخر:

ولما وقفنا للوداع عشيّة
بكيت فأضحكت الوشاة شماتة
ولؤلؤه رحمه تعالى:

يا سادة في سويد القلب مسكنكم
أوحشتمونا وعز الصبر بعدكمو

وقال آخر:

لو أن مالك عالم بذرى الهوى
ما عذب العشاق إلا بالهوى
وقال ابن الوردي^(١):

دهرنا أضلحى ضنيننا
يا ليلي الوصل عودي

وقال الشريف الرضي:

عللاني بذكرهم واسقياني
وخذا النوم من جفوني فإني

وعادت منازلها خليات بلقع
وسمر العوالي للمنايا تشرع
وخالفت سهدي والخليون هجع
فؤادي أسي من حرها يتقطع
يفيض دماً من مقلتي ليس يدفع
على غير ليلي فهو دمع مضيع

وأخرى على الرمضاء فوق فؤادي
ولا كان ذا التوديع آخر زادي

وطرفي وقلبي دامع وخفف فوق
كأني سحاب والوشاة بروق

وفي منامي أرى أني أعانقهم
يا من يعز علينا أن نفارقهم

ومحله من أضلع العشاق
وإذا اسفاثوا غائهم بفراق

باللقا حلتى ضنيننا
أجمعينا أجمعينا

وامزجنا لي دمعى بكأس دهاق
قد خلعت الكرى على العشاق

(١) ابن الوردي: هو محمد بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس الإمام زين الدين بن الوردي المعري، الحلبي، الشافعي، فقيه، أديب، ناثر، لغوي، نحوي، مؤرخ، ولد بعمرة النعمان بسوريا، وولى القضاء بمنبج وتوفي بحلب سنة (٧٤٩هـ - ١٣٤٨م) وقد جاوز الستين، له تصانيف كثيرة منها «شرح ألفية بن مالك» و«خريدة العجائب وفريدة الغرائب».

وقال آخر عند ذلك :

قالوا أترقد إذ غبنا فقلت لهم
ما حق طرف هذاني نحو حسنكمو

وقال الموصلي :

فسدت لطول بعادكم أحلامنا
والطيف قد وعد الجفون بزورة

ومما قيل في البكاء: قال الشاعر:

رجوت طيف خياله
والذاريات جفوني

وقال آخر:

أرحم رحمت للوعتي
ودموع عيني لا تسلي

وقال آخر:

إن عيني مذ غاب شخصك عنها
بدموع كأنهن الغوادي

وقال آخر:

يا قلب صبراً على الفراق ولو
وأنت يا دمع إن ظهـرت بما

وقال آخر:

خاض العواذل في حديث مدامعي
فحبسته لأصون سر هواكمو

وقال ابن المواز:

رحت يوم الفراق أجري دموعي
قليل كم إذ تجري دموعك تعمي

نعم وأشفق من دمعى على بصرى
أنى أعذبه بالدمع والسهـر

وعقولنا وجفا الجفون منام
يا حبيذا إن صحت الأحلام

وكيف لي بهـجـوع
والمرسلات دموعي

وابعث خيالك في الكرى
عن حالها يا ما جرى

يأمر السهد في كراها وينهى
لا تسلي ما جرى على الخد منها

روعت ممن تحب بالبين
أخفيه من قلبي سقطت من عيني

مما غدا كالبحر سرعة سيره
حتى يخوضوا في حديث غيره

حسرة إذ قضى الفراق بيني
أوقف الدمع قلت من بعد عيني

وقال آخر:

لما لبست لبعد ثوب الضنى
أجريت وقف مدامعى من بعده
وغدوت من ثوب اصطبارى عاريا
وجعلته وقفاً عليه جاريا
وقال آخر:

ولم أر مثلى غاراً من طول ليله
وما زلت أبكى فى دجى الليل صبوة
وقال الموصلى:

عين أفاضت دموعى
ووجنة الخد قتالت
لطول صدد وبين
رأيت غلى بعينى

وقال آخر:

وما فارقت ليلى من مراد
بكيت نعم بكيت وكل ألف
ولكن شقوة بلغت مداها
إذا ماتت حبيبته بكاهها

وفى بعض الكتب السماوية: إن مما عاقبت به عبادى أن ابتليتهم بفراق الأحبة.

ومما جاء فى الحنين إلى الوطن: أما محبة الوطن فمستولية على الطباع مستدعية أشد الشوق إليها، روى أن أبان قدم على النبى ﷺ فقال يا أبان كيف تركت مكة؟ قال: تركت الإذخر وقد أعذق والنمام وقد أورك، فاغرورقت عينا رسول الله ﷺ، وقال بلال^(١) رضى الله تعالى عنه:

ألا ليت شعرى هل أبين ليلة
وهل أردن يوماً ميامه مجنة
برادٍ وحولى إذخر وجليل
وهل يبدون لى شامة وطفيل

وقيل: من علامة الرشد أن تكون النفس إلى بلدها تواقه وإلى مسقط رأسها مشتاقة.

ومن حب الوطن: ما حكى أن سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام أوصى بأن يحمل تابوته إلى مقابر آبائه. فمنع أهل مصر أولياؤه من ذلك، فلما بعث موسى عليه الصلاة والسلام وأهلك الله تعالى فرعون لعنه الله حمله موسى إلى مقابر آبائه، فقبره بالأرض المقدسة، وأوصى الإسكندر رحمه الله تعالى أن تحمل رسته فى تابوت من ذهب إلى بلاد الروم حباً لوطنه، واعتل سابر ذو الاكتاف وكان أسيراً ببلاد الروم، فقالت له بنت الملك، وكانت قد عشقته، ما تشتهى؟ قال: شربة من ماء دجلة وشمة من تراب اصطخر، فأتته بعد أيام بشربة من ماء وقبضة من تراب وقالت له: هذا من ماء دجلة ومن تربة أرضك، فشرب واشتم بالوهم فنفعه من علته، وقال الجاحظ: كان النفر فى زمن البرامكة إذا سافر أحدهم أخذ معه من تربة أرضه فى جراب يتداوى به، وما أحسن ما قال بعضهم:

بلاد الفناها على كل حـالة
ونسـتـعـذب الأرض التى لا هواء بها
وقد يؤلف الشئ الذى ليس بالحسن
وما ماؤها عذب ولكنها وطن

(١) بلال بن رباح: هو بلال بن رباح الحبشى مولى أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، ويكنى أبا عبد الله وكان من السابقين الأولين الذين عذبوا فى سبيل الله قال عنه رسول الله ﷺ: «بلال سابق الحبشة»، شهد المشاهد كلها مع رسول الله، مؤذن رسول الله ﷺ أعتقه أبو بكر وذهب إلى الشام مؤثراً الجهاد على الأذان إلى أن وافاه الأجل سنة (٢٠هـ) وكان سنة عند موته بضع وستون سنة.

ووصف بعضهم بلاد الهند، فقال: بحرهما در و جبالها ياقوت، وشجرها عود، وورقها عطر، وقال عبد الله بن سليمان في نهاوند: أرضها مسك، وترابها الزعفران، وثمارها الفاكهة، وحيطانها الشهد. وقال الحجاج لعامله على أصبهان: قد وليتك على بلدة حجرها الكحل، وذبابها النحل، وحشيشها الزعفران، وكان يقال: البصرة خزانة العرب وقبة الإسلام لانتقال قبائل العرب إليها واتخاذ المسلمين بها وطنًا ومركزًا، وكان أبو إسحاق الزجاج يقول: بغداد حاضرة الدنيا وما سواها بادية. وأنا أقول مصر كنانة الله في أرضه والسلام.

ومما جاء في ذم السفر: قيل لرجل: السفر قطعة من العذاب، فقال: بل العذاب قطعة من السفر، وقال بعضهم:

كل العذاب قطعة من السفر يا رب فارددنا على خير الحضر

وقيل لأعرابي: ما الغبطة؟ قال: الكفاية مع لزوم الأوطان. ومر إياس بن معاوية^(١) بمكان، فقال: أسمع صوت كلب غريب، فقيل له: بم عرفت ذلك؟ قال: بخضوع صوته، وشدة نباح غيره، وأراد أعرابي السفر، فقال لامرأته:

عدي السنين لغيبتي وتصبري وذري الشهور فإنهن قصار

فأجابته:

فاذكر صبابتنا إليك وشوقنا وارحم بناتك إنهن صغار

فأقام وترك السفر. ويقال: رب ملازم لمهنته فاز ببغيته.

وقال ابن الهيثم:

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

وفيما ذكرته كفاية، وأسأل الله التوفيق والهداية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) إياس بن معاوية: هو إياس بن معاوية بن قرة بن إياس بن هلال المزني، أبو وائلة البصري، قاضيها، كان يضرب به المثل في الذكاء والدهاء والعقل، توفي سنة (١٢١هـ).

فى ذكر الغنى وحب المال والافتخار بجمعه

قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]. وقيل: الفقر رأس كل بلاء وداعية إلى مقت الناس، وهو مع ذلك مسلبة للمروءة مذهبة للحياء. فمتى نزل الفقر بالرجل لم يجد بداً من ترك الحياء ومن فقد حياءه فقد مروءته، ومن فقد مروءته مقت، ومن مقت ازدرى به، ومن صار كذلك كان كلامه عليه لا له. وقال رسول الله ﷺ: «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس». وفى الحديث: «لا خير فيمن لا يحب المال ليصل به رحمه، ويؤدى به أمانته، ويستغنى به عن خلق ربه». وقال على كرم الله تعالى وجهه: الفقر الموت الأكبر، وقد استعاذ رسول الله ﷺ من الكفر والفقر وعذاب القبر، وقيل: من حفظ دنياه حفظ الأكرمين دينه وعرضه قال الشاعر:

لا تلمنى إذا وقــــــــــــــــيت الأواقى بالأواقى لماء وجــــــــــــــــهى واقى

وقال لقمان لابنه: يا بنى أكلت الخنظل وذقت الصبر، فلم أر شيئاً أضر من الفقر، فإن افتقرت فلا تحدث به الناس كيلا يتقصوك، ولكن اسأل الله تعالى من فضله، فمن ذا الذى سأل الله فلم يعطه أو دعاه فلم يجبه أو تضرع إليه فلم يكشف ما به. وكان العباس رضى الله تعالى عنه يقول: الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع للشمس، وهو عندهم أعذب من الماء وأرفع من السماء وأحلى من الشهد وأزكى من الورد، خطؤه صواب وسيناته حسنات وقوله مقبول، يرفع مجلسه ولا يعل حديثه، والمفلس عند الناس أكذب من لمعان السراب، وأثقل من الرصاص، لا يسلم عليه إن قدم ولا يسأل عنه إن غاب، إن حضر أزدروه، وإن غاب شتموه، وإن غضب صفعوه، مصافحته تنقض الوضوء، وقراءته تقطع الصلاة. وقال بعضهم: طلبت الراحة لنفسى فلم أجدها أروح من ترك ما لا يعنيه، وتوحشت فى البرية فلم أر وحشة أقر من قرين السوء، وشهدت الزحوف وغالبت الأقران فلم أر قريناً أغلب للرجل من المرأة السوء، ونظرت إلى كل ما يذل القوى ويكسره فلم أر شيئاً أذل له ولا أكبر من الفاقة.

وكل مقل حين يغدو لحاجة إلى كل ما يلقي من الناس مذبذب
وكانت بنو عمى يقولون مرحباً فلما رأونى معدماً مات مرحب

وقال آخر:

المال يرفع سقفاً لا عماد له والفقر يهدم بيت العز والشرف

وقال آخر:

جروح الليالى ما لهن طبيب وعيش الفتى بالفقر ليس يطيب
وحسبك أن المرء فى حال فقره تحمقه الأقوام وهو لبيب
ومن يغترر بالحادثات وصرفها يبيت وهو مغلوب الفؤاد سليب
وما ضرنى إن قال أخطأت جاهل إذا قال كل الناس أنت مصيب

وقال آخر:

الفقر يزرى بأقوام ذوى حسب

وقال آخر:

لعمرك إن المال قد يجعل الفتى
وما رفع النفس الدنية كالغنى

وقال آخر:

إذا قل مال المرء لانت قناته

وقال ابن الأحنف:

يمشى الفقير وكل شيء ضده
وتراه مبغوضاً وليس بمذنب
حتى الكلاب إذا رأت ذا ثروة
وإذا رأت يوماً فقيراً عابراً

وقال آخر:

فقر الفتى يذهب أنواره
والله ما الإنسان فى قومـه

وقال آخر:

إن الدراهم فى المواطن كلهـا
فهى اللسان لمن أراد فصاحة

وقال آخر:

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها
يعظمون أخوا الدنيا فإن وثبت

وقال بعض الفرس: من زعم أنه لا يحب المال فهو عندى كذاب.

وقال الكنانى:

أصبحت الدنيا لنا عبـرة
قد أجمع الناس على ذمها

وقد يسود بغير السيد المال

سنيّا وأن الفقير بالمرء قد يزرى
ولا وضع النفس النفيسة كالفقير

وهان على الأدنى فكيف الأباعد

والناس تغلق دونه أبوابها
ويرى العداوة لا يرى أسبابها
خضعت لديه وحركت أذناها
نبحت عليه وكشرت أنيابها

مثل اصفرار الشمس عند المغيب
إذا بلى بالفقر إلا غريب

تكسو الرجال مهابةً وجمالا
وهى السلاح لمن أراد قتالا

فكلما انقلبى يوماً به انقلبوا
يوماً عليه بما لا يشتهى وثبوا

فالحمد لله على ذلكا
وما أرى منهم لها تاركا

وقال الزمخشري:

وإذا رأيت صـمـوـة في مطلب فاحمل صـمـوبته على الدينار
وابعثه فيما تشتهيه فإنه حـجـر يلين قـوـة الأحـجـار

قال الثوري رحمه الله تعالى: لأن أخلف عشرة آلاف درهم يحاسبني الله عليها أحب إليّ من أن أحتاج إلى لثيم، وفي هذا المعنى قال الشاعر:

احـفـظ عـرى مـالك تحـظى به ولا تـفـرط فـيـه تـبـقى ذـليل
وإن يـقـوـلوا باخـل بالمـعـطـا فالبـخـل خـيـر من سـؤال البـخـيل
واحـفـظ عـلى نـفـسـك من زـلـة يـرى عـزـيز القـسـوم فـيـها ذـليل

وأما ما جاء في الاحتراز على الأموال: فقد قالوا: ينبغي لصاحب المال أن يحترز ويحتفظ عليه من المطمعين والمبرطحين والمحترفين والموهمين والمتنمين.

فأما المطمعون: فهم الذين يتلقون أصحاب الأموال بالبشر والإكرام والتحية والإعظام إلى أن يأنسوا بهم ويعرفوهم بالمشاهدة، وربما قضوا ما قدروا عليه من حوائجهم إلى أن يألّفوهم ويحصل بينهم سبب الصداقة، ثم إن أحدهم يذكر لصاحب المال في معرض المقال أنه كسب فائدة كثيرة في معيشته، ثم يمشی معه في الحديث إلى أن يقول إنني فكرت فيما عليك من المؤن والتنفقات، وهذا أمر يعود ضرره في المستقبل إن لم تساعد بالمكاسب، وغرضي التقرب إليك ونصحك وخدمتك، وأريد أن أوجه إليك فائدة من المتجر بشرط أن لا أضع يدي لك على مال بل يكون تحت يدك أو تحت يد أحد من جهتك. ويخرج له في صفة الناصحين المشفقين، فإذا أجابه إلى ذلك كان أمره معه على قسمين: إن ائتمنه، وجعل المال بيده أعطاه اليسير منه على صفة أنه من الربح، وطاول به الأوقات ودفع إليه في المدة الطويلة الشيء اليسير من ماله، ثم يحتج عليه ببعض الآفات ويدعى الخسارة، فإن لزمه صاحب المال قابحه، وبرطل من جملة المال صاحب جاء، فيدفعه ويقول: هذا راباني، فإن روعى صاحب المال وفق بينهما على أن يكتب عليه ببقية المال وثيقة، فلا يستوفي ما فيها إلا في الآخرة، وإن هو لم يأتمنه وعول أن يكون القبض بيده، والمتاع مخزوناً لديه، واطأ عليه البائعين والمشتريين وحصل لنفسه وعمل ما يقول به، فإن حصل لصاحب المال أدنى ربح أو همه أن مفاتيح الأرزاق بيده، وإن كسد المشتري أو رخص أحوال الأمر على الأقدار وقال: ليس لي علم بالغيب.

ومن أشد المطمعين المتعرضون لصناعة الكيمياء وهم الطماعون المطمعون في عمل الذهب والفضة من غير معدنها، فيجب أن يحذر التقرب منهم والاستماع لهم في شيء من حديثهم، فإن كذبهم ظاهر، وذلك أنهم يوهمون الغير أنهم ينيلونهم خيراً ويطلعونهم على صنعتهم ابتداء منهم لا حاجة، وهذا يستحيل. ويحتجون بأن ما يلجئهم إلى ذلك إلا عدم الإمكان وتعذر المكان، فمنهم من يكون شوقه إلى أن يدخل إلى مكان ويترك عنده عدة لها قيمة، فيأخذها وينسحب، ومنهم من يشترط أن عمله لا ينتهي إلى مدة فيقنع في تلك المدة بالأكل غدوة وعشية وسيله بعد ذلك إن كان معروفاً قال: فسد على العمل من جهة كيت وكيت، ويقول للذي ينفق عليه: هل لك في المعاودة؟ فإن حمله الطمع ووافقه كان هذا له أتم غرض، ثم يحتال آخر المدة على الفراق بأى سبب كان. وإن كان منكوراً غافلاً صاحب المكان وخرج هارباً، ومن المطمعين قوم يجعلون في الجبال أمارات من ردم وحجر ويأتون إلى أصحاب الأموال ويقولون: إنا نعرف علم كنز فيه من الأمارات كيت وكيت ثم يوقفونهم على ورقة متصنعة ويقولون: نريد أن تأخذ لنا عدة تنفق علينا ومهما حصل من فضل الله تعالى لنا ولك، فيوافقهم على ذلك، ويوطن نفسه على أن المدة تكون قريبة، فيعملون يوماً أو يومين فيظهر لهم أكثر الأمارات فيزداد طمعاً ويعتقد الصحة، ثم يدرجونه إلى أن ينفق عليهم ما

شاء الله تعالى، ويكون آخر أمرهم كصاحب الكيمياء. وإن كانوا منكرين ورغبتهم الطمعة في قماشه أو في العدة التي معه؛ فربما قتلوه هناك لأجل ذلك ومضوا، فهذا أمر المطمعين.

وأما المبرطحون: فهم من الخونة والناس بهم أكثر غرراً. وذلك أنهم إذا ندب صاحب المال أحد منهم لشراء حاجة سارع فيها واحتاط في جودتها وتوفير كيلها أو وزنها أو ذرعها ووضع من أصل ثمنها شيئاً وزنه من عنده حتى يبيض وجهه عند صاحب المال، ويعتقد نصحه وأمانته ونجح مساعيه، وكذلك إن ندبه لشيء يبيعه استظهر واستجاد النقد ولا يزال هكذا دأبه حتى يلقي مقاليد أموره إليه فيستعطفه، ويفوز به، ثم يغير الحال الأول في الباطن. فينبغي لصاحب المال أن لا يغفل عنه.

وأما المحترفون الموهمون: فهم الذين يتعرضون لذوى الأموال فيظهرون لهم الغنى والكفاية ويباسطونهم مباسطة الأصدقاء، ويعتمدون جودة اللباس ويستعملون كثيراً من الطيب، ثم إن أحدهم يذكر أنه يربح الأرباح العظيمة. فيما يعاينه ويذكر ذلك مع الغير، ولا يزال كذلك حتى يثبت ويستقر في ذهن صاحب المال أنه يكتسب في كل سنة الجمل الكثيرة من المال، وأنه لا يبالي إذا أنفق أو أكل أو شرب، فتشره نفس صاحب المال لذلك فيقول له على سبيل المداعبة يا فلان: تريد الدنيا كلها لنفسك، لم لا تشركنا في متاجرك هذه وأرباحك؟ فيقول له: أنت جبان يعز عليك إخراج الدينار، وتظن أنك إن أظهرته خطف منك، ولا تدري أنه مثل البازي إن أرسلته أكل وأطعمك، وإن أمسكته لم يصد شيئاً واحتجت إلى أن تطعمه، وإلا مات، وأنا والله لو كان عندي علم أنك تنبسط لهذا كنت فعلت معك خيراً كثيراً ولكن ما كان إلا هكذا، وما كان لا كلام فيه والعمل في المستأنف، فيشكره صاحب المال ويسأله أخذ المال فيمطله بتسليمه، فيزداد فيه رغبة إلى أن يسلمه إليه. فيكون حاله كحال المطمع إذا صار المال تحت يده.

وأما المتنمسون: فهم أهل الرياء المظهرون التعفف والنسك ومجانبة الحرام ومواظبة الصلاة والصيام لكي يشتهر ذكرهم عند الخاص والعام ثم يلقون ذوى الأموال بالبشر والإكرام والتلطف في المقال، ويمشون إلى أبواب الملوك على صفة التهاني بالأعياد. وربما يأتى معه بأحد من الأولاد، ويظهرون النزاهة والغنى، ويجعلون الدين سلماً إلى الدنيا، وأكثر أغراضهم أن تودع عندهم الأموال وتفوض إليهم الوصايا، ويجلبهم العوام، وتقبل شهادتهم الحكام وتندبهم الملوك إلى الوصايا والأموال، وهؤلاء أشرف من اللصوص والقطاع، وذلك أن شهرة اللصوص والقطاع تدعو إلى الاحتراز منهم، وتشبه هؤلاء بأهل الخير يحمل الناس على الاغترار بهم. قال الشاعر:

صلى وصيام لإمر كان أمّله حتى حواه فما صلى ولا صاماً

وقيل: لا فقير أفقر من غنى يأمن الفقر. قال الشاعر:

ألم تر أن الفقير يرجى له الغنى وأن الغنى يخشى عليه من الفقر

وأوصى بعض الحكماء ولده فقال له: يا بني عليك بطلب العلم، وجمع المال، فإن الناس طائفتان خاصة وعامة، فالخاصة تكرمك للعلم والعامة تكرمك للمال. وقال بعض الحكماء: إذا افتقر الرجل اتهمه من كان به موثقاً، وأساء به الظن من كان ظنه حسناً، ومن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بداً من ترك الحياء، ومن ذهب حياؤه ذهب بهاؤه، وما من خلة هي للغنى مدح إلا وهي للفقير عيب، فإن كان شجاعاً سمى أهوج، وإن كان مؤثراً سمى مفسداً، وإن كان حليماً سمى ضعيفاً، وإن كان وقوراً سمى بليداً، وإن كان لسنّاً سمى مهذاراً، وإن كان صموتاً سمى عيباً، قال ابن كثير:

الناس أتباع من دامت له نعم والويل للممرء إن زلت به القدم

المال زين ومن قلت دراهمه حتى كمن مـات إلا أنه صنم

لما رأيت أخلائى وخالصتى والكل مستتر عني ومحتشم

أبدوا جفاءً وإعراضاً فقلت لهم أذنبت ذنباً فقالوا ذنبك العدم

وكان ابن مقله وزيراً لبعض الخلفاء، فزور عنه يهودى كتاباً إلى بلاد الكفار وضمنه أموراً من أسرار الدولة، ثم تحيل اليهودى إلى أن وصل الكتاب إلى الخليفة فوقف عليه، وكان عند ابن مقله حظية هويت هذا اليهودى، فأعطته درجاً بخطه، فلم يزل يجتهد حتى حاكى خطه ذلك الخط الذى كان فى الدرج، فلما قرأ الخليفة الكتاب أمر بقطع يد ابن مقله، وكان ذلك يوم عرفة، وقد لبس خلعة العيد ومضى إلى داره وفى موكبه كل من فى الدولة، فلما قطعت يده وأصبح يوم العيد لم يأت أحد إليه ولا توجع له، ثم اتضحت القضية فى أثناء النهار للخليفة أنها من جهة اليهودى والجارية فقتلها أشر قتلة ثم أرسل إلى ابن مقله أموالاً كثيرة وخلعاً سنياً وندم على فعله واعتذر إليه، فكتب ابن مقله على باب داره يقول:

تَحَالَفَ النَّاسَ وَالزَّمَانَ	فَحَيْثُ كَانَ الزَّمَانُ كَانُوا
عَسَادَانِى الدَّهْرُ نَصَفَ يَوْمِ	فَنَانْكَشَفَ النَّاسُ لى وَيَانُوا
يَا أَيُّهَا الْمَعْرُضُونَ عَنِى	عُودُوا فَقَدْ عَادَ لى الزَّمَانُ
ثُمَّ أَقَامَ بَقِيَّةَ عَمْرِهِ يَكْتُبُ بِيَدِهِ الْيَسْرَى، قَالَ بَعْضُهُمْ:	
إِنَّمَا قُوَّةُ الظُّهُورِ النُّقُودُ	وَبِهَا يَكْمَلُ الْفَتَى وَيَسُودُ
كَمْ كَرِيمٍ أَرَى بِهِ الدَّهْرُ يَوْمًا	وَلَثِيمٍ تَسْعَى إِلَيْهِ الْوَفُودُ

والأطباء يعلمون أمراضاً من علاجها اللعب بالدينار وشرب الأدوية والمساليق التى يغلى فيها الذهب.

قال الشاعر:

أَحْرَصَ عَلَى الدَّرْهِمِ وَالْعَيْنِ	تَسْلَمُ مِنَ الْعَمَلِيلَةِ وَالْدَيْنِ
فَقُوَّةُ الْعَيْنِ بِإِنْسَانِهَا	وَقُوَّةُ الْإِنْسَانِ بِالْعَيْنِ

واعلم أن القلب عمود البدن، فإذا قوى القلب قوى سائر البدن، وليس له قوة أشد من المال. وبالعكس إذا ضعف الفقر ضعف له البدن.

حكى أن ملكاً رأى شيخاً قد وثب وثبة عظيمة على نهر فتخطاه، والشاب يعجز عن ذلك، فعجب منه، فاستحضره، فحادثه فى ذلك، فأراه ألف دينار مربوطة على وسطه. وقال لقمان لابنه: يا بنى شيثان إذ أنت حفظتهما لا تبالى بما صنعت بعدهما، دينك لمعادك ودرهمك لمعاشك. والكلام فى هذا المعنى كثير. وقد اقتصرنا منه على النزر اليسير. وقد كان فى الناس من يتظاهر بالغنى ويراه مروءة وفخراً.

فمن ذلك: ما حكى عن أحمد بن طولون^(١) أنه دخل يوماً بعض بساتينه فرأى النرجس وقد تفتح زهرة فاستحسنه، فدعا بغدائه فتغدى، ثم دعا بشرا به فشرب، فلما انتشى قال: على بألف مثقال من المسك، فشره على أوراق النرجس. ولنذكر الآن نبذة من الذخائر والتحف.

حكى الرشيد بن الزبير فى كتابه الملقب (بالعجائب والطرف): أن أبا الوليد ذكر فى كتابه المعروف بأخبار مكة أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة عام الفتح فى سنة ثمان من الهجرة، وجد فى الجب الذى كان فى الكعبة سبعين ألف أوقية من الذهب مما كان يهدى للبيت، قيمتها ألف ألف وتسعمائة ألف وتسعون ألف دينار. وباع زهرة التميمى يوم القادسية

(١) سبق ترجمته.

منطقة كان قد قتل صاحبها بثمانين ألف دينار، ولبس سلبه وقيمته خمسمائة ألف وخمسون ألفاً، وأصاب رجل يوم القادسية راية كسرى فعوض عنها ثلاثين ألف دينار، وكانت قيمتها ألف ألف دينار ومائتي ألف. ووجد المستورد بن ربيعة يوم القادسية إبريقاً مرصعاً بالجوهر، فلم يدر أحد ما قيمته، فقال رجل من الفرس: أنا أخذه بعشرة آلاف دينار، ولم يعرف قيمته، فذهب إلى سعد بن أبي وقاص، فأعطاه إياه وقال: لا تبعه إلا بعشرة آلاف دينار، فباعه سعد بمائة ألف دينار، ولما أتت الترك إلى عبد الله بن زياد ببخارى فى سنة أربع وخمسين كان مع ملكهم امرأته خاتون، فلما هزمهم الله تعالى أعجلوها عن لبس خفها فلبست إحدى فرديته ونسيت الأخرى، فأصابها المسلمون، فقومت بمائتي ألف دينار. ولما فتح قتيبة بن مسلم بخارى فى سنة تسع وثمانين وجد فيها قدر ذهب ينزل إليها بسلام. ودفع مصعب ابن الزبير حين أحس بالقتل إلى زياد مولاه فصاً من ياقوت أحمر، وقال له: انج به، و كان قد قوم ذلك الفص بألف ألف درهم، فأخذه زياد ورضه بين حجرين وقال: والله لا يتفع به أحد بعد مصعب، وذكر مصعب بن الزبير أن بعض عمال خراسان فى ولايته ظهر على كتز، فوجد فيه حلة كانت لبعض الأكاسرة مصوغة من الذهب مرصعة بالدر والجواهر والياقوت الأحمر والأصفر والزبرجد، فحملها إلى مصعب بن الزبير، فخرج من قومها فبلغت قيمتها ألفى ألف دينار، فقال: إلى من أدفعها؟ فقيل: إلى نسائك وأهلك. فقال: لا، بل إلى رجل قدم عندنا يداً، وأولانا جميلاً. ادع لى عبد الله بن أبى دريد، فدفعها إليه.

ولما صار موجود عماد الدولة فى قبضة أمير الجيوش وجد فى جملته دملج ذهب فيه جوهرة حمراء كالبيضة وزنها سبعة عشر مثقالاً، فأنفذها أمير الجيوش إلى المستنصر، فقومت بتسعين ألف دينار. ووجد فى بستان العباس بن الحسن الوزير مما أعد له من آلة الشرب يوم قتل، سبعمائة صينية من ذهب وفضة. ووجد له مائة ألف مثقال عنبر. وترك هشام ابن عبد الملك بعد موته اثني عشر ألف قميص وشى، وعشرة آلاف تكة حرير، وحملت كسوته لما حج على سبعمائة جمل، وترك بعد وفاته أحد عشر ألف دينار، ولم تأت دولة بنى العباس إلا وجميع أولاده فقراء لا مال لواحد منهم، وبين الدولة العباسية ووفاة هشام سبع سنين.

ولما قتل الأفضل ابن أمير الجيوش فى شهر رمضان سنة خمس عشر وخمسمائة، خلف بعده مائة ألف ألف دينار، ومن الدراهم مائة وخمسين إردباً وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج ودواة من الذهب قوم ما عليها من الجواهر والياقيات بمائتي ألف دينار، وعشرة بيوت فى كل بيت منها مسمار ذهب قيمته مائة دينار على كل مسمار عمامة لوتاً، وخلف كعبة عنبر يجعل عليه ثيابه إذا نزعها، وخلف عشرة صناديق مملوءة من الجوهر الفائق الذى لا يوجد مثله، وخلف خمسمائة صندوق كبار لكسوة حشمه وخلف من الزبادى الصينى والبلور المحكم وسق مائة جمل، وخلف عشرة آلاف ملعقة فضة وثلاثة آلاف ملعقة ذهب، وعشرة آلاف زبدية مملوءة فضة كبار وصغار، وأربع قدور ذهباً كل قدر وزنها مائة رطل، وسبعمائة جام ذهباً بفصوص زمرد، وألف خريطة مملوءة دراهم خارجاً عن الأرادب فى كل خريطة عشرة آلاف درهم، وخلف من الخدم والرقيق والحيل والبغال والجمال وحلى النساء ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى، وخلف ألف حسكة ذهباً وألفى حسكة فضة، وثلاثة آلاف نرجسة ذهباً، وخمسة آلاف نرجسة فضة، وألف صورة ذهباً وألف صورة فضة منقوشة عمل المغرب، وثلاثمائة ثور ذهباً، وأربعة آلاف ثور فضة، وخلف من البسط الرومية والأندلسية ما ملأ به خزائن الأيوان وداخل قصر الزمرد، وخلف من البقر والجاموس والأغنام ما يساع لبنه فى كل سنة بثلاثين ألف دينار، وخلف من الخواصل المملوءة من الحبوب ما لا يحصى.

ولما احتوى الناصر على ذخائر قصر العاضد وجد فيه طيلاً كان بالقرب من موضع العاضد محتفظاً به، فلما رآه سخروا منه، فضرب عليه إنسان فضرط، فضحكوا منه، ثم أمسكه آخر وضربه، فضرط، فضحكوا عليه، فكسروه استهزاء وسخرية، ولم يدروا خاصيته، وكانت الفائدة فيه أنه وضع للقولنج، فلما أخبروا بخاصيته ندموا على كسره. وقد جمعت الملوك من الأموال والذخائر والتحف كنوزاً لا تحصى، وبعد ذلك ماتوا ونفدت ذخائرهم، وفنيت أموالهم،

فسبحان من يدوم ملكه وبقاؤه . قال بعضهم:

هب الدنيا تقاد إليك عفوًا أليس مصير ذلك للزوال

فضمنت أنا هذا البيت وقلت:

أيا من عاش في الدنيا طويلا وأفنى العمر في قيل وقال
وأتعب نفسه فيما سيفنى وجمع من حرام أو حلال
هب الدنيا تقاد إليك عفوًا أليس مصير ذلك للزوال

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في ذكر الفقر ومدحه

قد دل قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْفَىٰ﴾ (٦) ﴿أَن رَّاهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ (٧) ﴿[العلق: ٦، ٧]﴾. على ذم الغنى إن كان سبب الطغيان. وسئل أبو حنيفة رحمه الله تعالى عن الغنى والفقر فقال: وهل طغى من طغى من خلق الله عز وجل إلا بالغنى وتلا هذه الآية المتقدمة. والمحققون يرون الغنى والفقر من قبل النفس لا في المال. وكان الصحابة رضي الله تعالى عنهم يرون الفقر فضيلة. وحدث الحسن رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بأربعين عاماً»، فقال جليس للحسن: أمن الأغنياء أنا أو من الفقراء؟ فقال: هل تغديت اليوم؟ قال: نعم، فهل عندك ما تتعشى به؟ قال: نعم، قال: فإذا أنت من الأغنياء. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كان النبي ﷺ يبيت طاوياً ليالى ما له ولا لأهله عشاء، وكان عامة طعامه الشعير، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع، وكان ﷺ يأكل خبز الشعير غير منخول. هذا وقد عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض، فأبى أن يقبلها صلوات الله وسلامه عليه، وكان يقول: «اللهم توفني فقيراً ولا تتوفني غنياً واحشرنى في زمرة المساكين». وقال جابر رضي الله تعالى عنه: دخل النبي ﷺ على ابنته فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها، وهى تطحن بالرحى، وعليها كساء من وبر الإبل، فبكى وقال: «تجرعى يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة».

قال الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ (٥) ﴿[الضحى: ٥]﴾. وقال ﷺ: «الفقر موهبة من مواهب الآخرة وهبها الله تعالى لمن اختاره، ولا يختار إلا أولياء الله تعالى». وفي الخبر إذا كان يوم القيامة يقول الله عز وجل للملائكة: أدنوا إلى أحبائي، فتقول الملائكة: ومن أحبائك يا إله العالمين؟ فيقول: فقراء المؤمنين أحبائي، فيدنونهم منه، فيقول: يا عبادي الصالحين إني ما زويت الدنيا عنكم لهوائكم على ولكن لكرامتكم تمتعوا بالنظر إلى وتمتعوا ما شئتم. فيقولون: وعزتك وجلالك لقد أحسنت إلينا بما زويت عنا منها، ولقد أحسنت بما صرفت عنا، فيأمر بهم، فيكرمون ويحبرون ويزفون إلى أعلى مراتب الجنان. وقال ﷺ: «هل تنصرون إلا بفقرائكم وضعفائكم، والذي نفسى بيده ليدخلن فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام، والأغنياء يحاسبون على زكاتهم». وقال عليه الصلاة والسلام: «رب أشعث أغبر ذي طمرين^(١) لا يؤبه به لو أقسم على الله تعالى لأبره - أى لو قال: اللهم إني أسألك الجنة لأعطاه الجنة - ولم يعطه من الدنيا شيئاً». وقال عليه الصلاة والسلام: «إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به، الذين إذا استأذنوا على الأمير لا يؤذن لهم، وإن خطبوا النساء لم ينكحوا، وإذا قالوا لم ينصت لهم، حوائج أحدهم تتلجلج في صدره لو قسم نوره على الناس يوم القيامة لوسعهم».

وروى عن خالد بن عبد العزيز أنه قال: كان حيوة بن شريح من البكائين، وكان ضيق الحال جداً، فجلست إليه ذات يوم وهو جالس وحده يدعو، فقلت له: يرحمك الله لو دعوت الله تعالى ليوسع عليك في معيشتك، قال: فالتفت يمينا وشمالاً فلم ير أحداً، فأخذ حصاة من الأرض وقال: اللهم اجعلها ذهباً، فإذا هى تبرة فى كفه ما رأيت أحسن منها، قال: فرمى بها إلى وقال: هو أعلم بما يصلح عباده، فقلت: ما أصنع بهذه؟ قال: أنفقها على عيالك، فهبته والله أن أردّها عليه، وقال عون بن عبد الله^(٢): صحبت الأغنياء فلم أجد فيهم أحداً أكثر منى همّاً لأنى كنت أرى ثياباً أحسن من ثيابى ودابة أحسن من دابتي، ثم صحبت الفقراء بعد ذلك، فاسترحت. قال بعضهم:

وقد يهلك الإنسان كثرة ماله كما يذبح الطاووس من أجل ريشه

وقال عبد الله بن طاهر:

ألم تر أن الدهر يهدم ما بنى ويأخذ ما أعطى ويفسد ما أسدى

فمن سره أن لا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئاً ينال به فقداً

(١) الطمر: الثوب البالى.

(٢) عون بن عبد الله: هو عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الإمام القدوة العابد، أو عبد الله الهذلى الكوفى، أخو فقيه المدينة عبيد الله، كان مرجئاً ثم تركه انظر (سير أعلام النبلاء) للذهبي (١٠٣/٥) ترجمة (٣٧).

وكان من دعاء السلف رضى الله تعالى عنهم: «اللهم إني أعوذ بك من ذل الفقر وبطر الغنى». وقيل: مكتوب على باب مدينة الرقة: ويل لمن جمع المال من غير حقه، ويولان لمن ورثه لمن لا يحمده وقدم على من لا يعذره. ولما فتحت بلخ فى زمن عمر رضى الله تعالى عنه وجد على بابها صخرة مكتوب فيها: إنما يتبين الفقير من الغنى بعد الانصراف من بين يدي الله تعالى أى: بعد العرض، قال الشاعر:

ومن يطلب الأعلى من العيش لم يزل
إذا شئت أن تحيا سعيداً فلا تكن
حزيناً على الدنيا رهين غبونها
على حالةٍ إلا رضيت بدونها

وقال آخر:

ولا ترهبن الفقر ما عشت فى غدٍ
لكل غنى رزق من الله وارد

وقال هارون بن جعفر الطالبي:

بوعدت همتى وقورب مالى
ما اكتسى الناس مثل ثوب اقتناع
ففعالى مقصر عن مقالى
ذو اصطبار على صروف الليالى

وقال أعرابي: من ولد فى الفقر أبطره الغنى، ومن ولد فى الغنى لم يزد إلا تواضعاً، فما أحسن الفقر وأكثر ثوابه، وأعظم أجر من رضى به، وصبر عليه، اللهم اجعلنا من الصابرين برحمتك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فى التلطف فى السؤال وذكر من سئل فجاد

روى الإمام مالك فى الموطأ عن زيد بن أسلم رضى الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «اعطوا السائل ولو جاء على فرس». وما سئل عليه السلام شيئاً قط، فقال لا. وأتى أعرابى إلى على رضى الله تعالى عنه، فسأله شيئاً، فقال: والله ما أصبح فى بيتى شىء فضل عن قوتى، فولى الأعرابى وهو يقول: والله ليسألك الله عن موقفى بين يديك يوم القيامة، فبكى على رضى الله تعالى عنه بكاءً شديداً، وأمر برده، وقال يا قنبر: اتنى بدرعى الفلانية، فدفعتها إلى الأعرابى، وقال: لا تخذعن عنها فطالما كشفت بها الكروب عن وجه رسول الله ﷺ، فقال قنبر: يا أمير المؤمنين كان يجزيه عشرون درهماً، فقال: يا قنبر والله ما يسرنى أن لى زنة الدنيا ذهباً وفضة، فتصدقت به، وقبل الله منى ذلك، وأنه يسألنى عن موقف هذا بين يدي. وقال على رضى الله تعالى عنه: إن لكل شىء ثمرة وثمره المعروف تعجيل السراح. وقال مسلمة لنصيب: سلنى. فقال: كفك بالعطية أبسط من لسانى بالمسألة، فقال لحاجبه: ادفع إليه ألف دينار. وسأل رجل الحسن رضى الله تعالى عنه فقال له: ما وسيلتك؟ قال: وسلتى أنى أتيتك عام أول فبررتنى، فقال: مرحباً بمن توسل إلينا بنا، ثم وصله وأكرمه. ويقال: الكريم إذا سئل ارتاح واللئيم إذا سئل ارتاع.

ولما وفد المهدي من الرى إلى العراق امتدحه الشعراء، فقال أبو دلالة:

إنى نذرت لشن رأيتك قـادماً
أرض العراق وأنت ذو وقـر
لتصلين على النبى محمد
ولتملأن دراهمًا حجـرى

فقال المهدي: صلى الله على محمد، فقال أبو دلالة: ما أسرعك للأولى وأبطأك عن الثانية، فضحك وأمر ببذرة، فصبت فى حجره. وسمع الرشيد أعرابية بمكة تقول:

طحننا كـلاكل الأعـوام
وبرتنا طـوارق الأيـام
فأتيناكمـو غـدا أكفـاً
لالتقـام من زادكم والطعام
فاطلبوا الأجر والمثوبة فينا
أيها الزائرون بيت الحرام

فبكى الرشيد، وقال لمن معه: سألتكم بالله تعالى إلا ما دفعتم إليها صدقاتكم، فألقوا عليها الثياب حتى وارتها كثرة وملأوا حجرها دراهم ودنانير. وسأل أعرابى بمكة وأحسن فى سؤاله، فقال: أخ فى الله وجار فى بلد الله وطالب خير من عند الله، فهل من أخ يواسينى فى الله. قال الشاعر:

ليس فى كل هـلية وأوانٍ
تتهيأ صنائع الإحسان
فلإذا أمكنت فبادر إليها
حذراً من تعذر الإمكان

وقال البصرى:

أضحت حوائجنا إليك مناخـة
معلقة بـرحابك الوصال
أطلق فديتك بالنجاح عقـالها
حتى تشور بنا بغير عقـال

وعن على رضى الله تعالى عنه قال: يا كميل مر أهلك أن يروحوا فى كسب المكارم ويدلجوا فى حاجة من هو نائم، فوالذى وسع سمعه الأصوات ما من أحد أودع قلباً سروراً إلا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفاً، فإذا نابته نائمة

جرى إليها كالماء في انحداره حتى يطردها عنه كما تطرد غريبة الإبل . وقال لجابر بن عبد الله : يا جابر من كثرت نعم الله تعالى عليه كثرت حوائج الناس إليه ، فإذا قام بما يجب لله فيها فقد عرضها للدوام والبقاء ، ومن لم يقم بما يجب لله فيها عرض نعمه لزوالها . وكان ليبد^(١) رحمه الله تعالى آلى على نفسه كلما هبت الصبا أن ينحر ويطعم ، وربما ذبح العتاق إذا ضاق الخناق ، فخطب الوليد بن عتبة يوماً فقال : قد علمت ما جعل أبو عقيل على نفسه فأعينوه على مروءته ، ثم بعث إليه بخمس من الإبل وبهذه الأبيات :

أرى الجزار يشحذ مدتيه
طويل الباع أبليج جمع فرى
و فى ابن الجـمـعـبـرى بما نواه
إذا هبت رياح بنى عـقـيل
كريم الجـد كالسيف الصـقـيل
على العـمـلات بالمال القليل

فدعا ليبد بتاً له خماسية وقال : يا بنية إنى تركت قول الشعر ، فأجيبى الأمير عنى فقالت :

إذا هبت رياح بنى عـقـيل
طويل الباع أبليج عيشى
بأمثال الهضاب كأن رعياً
أبا وهب جزاك الله خيراً
فعد إن الكريم له معاد
تداعينا لهبتها الوليد
أعان على مروءته لبـيد
عليها من بنى حام قعودا
نحـرناها وأطعمنا الثريد
وظنى فى ابن عـتـبـة أن يعودا

فقال : لقد أحسنت والله يا بنية لولا أنك سألت وقلت عد ، فقالت : يا أبت إن الملوك لا يستحيا منهم فى المسألة ، فقال : والله أنت فى هذا أشعر منى . ووفد رجل من بنى ضبة على عبد الملك ، فأنشده :

والله ما ندرى إذا ما فاتنا
ولقد ضربنا فى البلاد فلم نجد
فاصبر لعادتك التى عودتنا
أر لا فـارـشـدنا إلى من نذهب
طلب إليك من الذى نتطلب
أحـدأ سـواك إلى المكارم ينسب

فأمر له بألف دينار ، فعاد إليه من قابل ، وقال : يا أمير المؤمنين إن الروى لينازعنى وإن الحياء يمتنعنى ، فأمر له بألف دينار وقال : والله لو قلت حتى تنفذ بيوت الأموال لأعطيتك . وقيل : إن رجلاً عرض للمنصور ، فسأله حاجة فلم يقضها ، فعرض له بعد ذلك ، فقال له المنصور : أليس قد كلمتنى مرة قبل هذه ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، ولكن بعض الأوقات أسعد من بعض ويعض البقاع أعز من بعض ، فقال : صدقت ، وقضى حاجته وأحسن إليه .

وروى أن أبا دلالة الشاعر كان واقفاً بين يدي السفاح فى بعض الأيام فقال له : سلنى حاجتك ، فقال : كلب صيد ، فقال : اعطوه إياه ، فقال : ودابة أصيد عليها ، فقال : اعطوه دابة . فقال : وغلاماً يقود الكلب ويصيده ، قال : اعطوه غلاماً ، قال : وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه . قال : اعطوه جارية ، فقال : هؤلاء يا أمير المؤمنين عيال ولا بد لهم من دار يسكنونها . قال : اعطوه داراً تجمعهم ، قال : فإن لم يكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون ؟ قال : قد أقطعتهم عشر ضياع عامرة وعشر ضياع غامرة ، فقال : ما الغامرة يا أمير المؤمنين ؟ قال : ما لا نبات فيها . قال : قد أقطعتك يا أمير المؤمنين مائة ضيعة غامرة من فيافى بنى أسد ، فضحك وقال : اجعلوها كلها عامرة ، فانظر إلى حذقه بالمسألة ولطفه فيها كيف ابتدأ بكلب صيد فسهل القضية ، وجعل يأتى بمسألة بعد مسألة على ترتيب وفكاهة حتى سأل ما سأل ، ولو سأل

(١) ليبد بن ربيعة : هو ليبد بن ربيعة بن مالك بن جعفر أبو عقيل الهوازنى العامرى الشاعر المشهور أحد أشراف قومه ، عاش مائة وخمسين سنة ، وقيل لم يقل شعراً بعد إسلامه وقال : (أبدلنى الله به القرآن) وقيل قال بيتاً واحداً وهو :

ما عاتب المرء الكريم كفضه
والمرء يصلحه القرين الصالح

توفى سنة (٤١هـ - ٦٦١م) .

ذلك بديهة لما وصل إليه.

وحكى عن المأمون أنه قال ليحيى بن أكثم يوماً: سر بنا نتفرج، فسارا، فبينما هما فى الطريق وإذا بمقصة خرج منها رجل بقصة للمأمون يتظلم له، فنورت دابته، فألقته على الأرض صريعاً، فأمر بضرب عنق ذلك الرجل، فقال يا أمير المؤمنين: إن المضطر يتركب الصعب من الأمور وهو عالم به، ويتجاوز حد الأدب وهو كاره لتجاوزه، ولو أحسنت الأيام مطالبتي لأحسنت مطالبتك ولأنت على ما لم تفعل أقدر منى على رد ما قد فعلت. قال: فبكى المأمون وقال: بالله أعد على ما قلت، فأعاده، فالتفت المأمون إلى يحيى بن أكثم وقال: أما تنظر إلى مخاطبة هذا الرجل بأصغريه؟ والنبي ﷺ يقول: «المرء بأصغريه قلبه ولسنه». والله لا وقفت لك إلا وأنا قائم على قدمي، فوقف وأمر له بصلة جزيلة واعتذر إليه، فلم هم المأمون بالانصراف قال الرجل يا أمير المؤمنين: بيتان قد حضرائي، ثم أنشد يقول:

ما جاد بالوفر إلا وهو معتذر ولا عفا قط إلا وهو مقتدر
وكلماً قصده زاد نائله كالنار يؤخذ منها وهى تستعر

وقيل: إن بعض الحكماء لزم باب كسرى فى حاجة دهرًا، فلم يوصل إليه، فكتب أربعة أسطر فى ورقة ودفعها للحاجب، فكان فى السطر الأول: العديم لا يكون معه صبر على المطالبة، وفى السطر الثانى: الضرورة والأمل أقدمانى عليك، وفى السطر الثالث: الانصراف من غير فائدة شماتة الأعداء، وفى السطر الرابع: أما نعم فثمرة، وأما لا فمريحة. فلما قرأها كسرى دفع له فى كل سطر ألف دينار.

وحكى أن رجلاً كان جاراً لابن عبيد الله، فأصاب الناس قحط بالعراق حتى رحل أكثر الناس عنه، فعزم جار ابن عبيد الله على الخروج من البلاد فى طلب المعيشة، وكانت له زوجة لا تقدر على السفر، فلما رأت زوجها تهيأ للسفر قالت له: إذا سافرت من الذى ينفق علينا؟ قال: إن لى على ابن عبيد الله ديناً ومعى به إشهاد عليه شرعى، فخذى الإشهاد وقدميه إليه، فإذا قرأه أنفق عليك مما عنده حتى أحضر، ثم ناولها رقعة كتب فيها هذه الأبيات يقول:

قالت وقد رأت الأخمال محدجة والبين قد جمع المشكو والشاكي
من لى إذا غبت فى المحل قلت لها الله وابن عبيد الله مولاكى

فمضت إليه المرأة وحكت له ما قال زوجها، وأخبرته بسفره، وناولته الرقعة، فقرأها، وقال: صدق زوجك، وما زال ينفق عليها ويواصلها بالبر والإحسان إلى أن قدم زوجها فشكره على فضله وإحسانه.

وحكى أن مطيع بن إياس مدح معن بن زائدة بقصيدة حسنة، ثم أنشدها بين يديه، فلما فرغ من إنشاده أراد معن أن يباسطه، فقال يا مطيع: إن شئت أعطيناك وإن شئت مدحناك كما مدحتنا، فاستحيا مطيع من اختيار الثواب وكره اختيار المدح وهو محتاج، فلما خرج من عند معن أرسل إليه بهذين البيتين:

ثناء من أمير خير كسب لصاحب نعمة وأخى ثراء
ولكن الزممان برى عظامى ومالى كالدراهم من دواء

فلما قرأها معن ضحك وقال: ما مثل الدراهم من دواء. وأمر له بصلة جزيلة ومال كثير. قال الشاعر:

هزرتك لا إنى جعلتك ناسياً لأمرى ولا إنى أردت التقاضيا
ولكن رأيت السيف من بعد سله إلى الهز محتاجاً وإن كان ماضيا

وقال آخر:

ماذا لقيت من الجواد الأفضل
بخل الجواد بماله لم يجمع
لا بد أخبرهم وإن لم أسأل

ماذا أقول إذا رجعت وقيل لي
إن قلت أعطاني كذبت وإن أقبل
فاختر لنفسك ما أقول فلاني

وقال آخر:

يا نائمًا من جملة النوام
أم في المعاد تجود بالأنعام

لنواب الدنيا خباثتكم فانتبه
أعلى الصراط تزيل لوعة كربتي

ومما يستحسن إلحاقه بهذا الباب:

ذكر شيء مما جاء في ذم السؤال والنهي عنه: روى عن عبد الرحمن بن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله تعالى عنه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: ألا تبايعون رسول الله ﷺ؟ فبسطنا أيدينا وكنا حديثي عهد بالمبايعة، فقلنا قد بايعناك يا رسول الله، فعلام يا رسول الله نبايعك؟ قال: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وتقيموا الصلوات الخمس، وتطيعوا الله، وأسر كلمة خفية وهي: ولا تسألوا الناس شيئاً، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحداً يناوله إياه»، رواه مسلم. وقال رجل لابنه: إياك أن تريق ماء وجهك عند من لا ماء في وجهه، وكان لقمان يقول لولده: يا بني إياك والسؤال فإنه يذهب ماء الحياء من الوجه، وأعظم من هذا استخفاف الناس بك. وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام لأن تدخل يدك في فم التين إلى المرفق خير لك من أن تبسطها إلى غنى قد نشأ في الفقر. وقيل لأعرابي: ما السقم الذي لا يبرأ والجرح الذي لا يندمل؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم. وقال أبو محلم السعدي:

قديم الغنى في الناس إنك حامده
حديثنا ومن لا يورث المجسد والده

إذا رماك الدهر في الضيق فانتجع
ولا تطلبن الخير من أفاده

وقال رسول الله ﷺ: «مسألة الناس من الفواحش ما أحل من الفواحش غيرها». وقال عليه الصلاة والسلام: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه». قال الشاعر:

عوضنا ولو نال الغنى بسؤال
رجح السؤال وخف كل نوال

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله
وإذا السؤال مع النوال وزنته

وقال أحمد الأنباري:

وللبخل خير من سؤال بخيل
فلا تلق إنساناً بوجهه ذليل

لموت الفتى خير من البخل للغنى
لعمرك ما شيء لوجهك قيمة

وقال سلم الخاسر:

أتاك النجاسات على رسله

إذا أذن الله في حجاجته

فلا تسأل الناس من فضلكم
ويقال: أحب الناس إلى الله من سأل وأبغض الناس إلى الناس من احتاج إليهم وسألهم، وفي هذا المعنى قيل:
لا تسألن من ابن آدم حاجة
الله يغضب إن تركت سؤاله
وقال محمود الوراق^(١):

شاد الملوك قصورهم وتحصنوا
فأرغب إلى ملك الملوك ولا تكن
وقال ابن دقيق العيد:

وقائلة مات الكرام فمن لنا
فقلت لها من كان غاية قصده
إذا مات من يرجى فمقصودنا الذي

وقال بعض أهل الفضل:

لما افتقرت لصحي ما وجدتهمو
وها على بذل وجهي للورى سفها
لجأت لله لبى وأغناني
فلو بذلت إلى مولاى والانى

وسأل رجل رجلاً حاجة فلم يقضها فقال: سألت فلاناً حاجة أقل من قيمته، فردنى رد أقبح من خلقته. وسأل عروة مصعباً حاجة فلم يقضها فقال: علم الله تعالى أن لكل قوم شيخاً يفزعون إليه وأنا أفزع منك. ويقال: لا شئ أوجع للأخيار من الوقوف بباب الأشرار. وقال الإمام الشافعى رحمه الله تعالى:

بلوت بنى الدنيا فلم أر فيهم
فجردت من غمد القناعة صارماً
فلا ذا يرانى واقفاً فى طريقه
غنى بلا مال عن الناس كلهم
إذا ظالماً يستجسن الظلم مذهباً
فكله إلى صرف الليالى فإنها
فكم قد رأينا ظالماً متمرداً
فعما قليل وهو فى غفلاته
فأصبح لا مال ولا جاء يرتجى
سوى من غدا والبخل ملء إهابه
قطعت رجائى منهم بذيابه
ولا ذا يرانى قاعداً عند بابه
وليس الغنى إلا عن الشئ لا به
ولج عتواً فى قبيح اكتسابه
ستبدى له ما لم يكن فى حسابه
يرى النجم تيهها تحت ظل ركابه
أناخت صروف الحادثات ببابه
ولا حسنات تلتقى فى كتابه

(١) محمود الوراق: هو محمود بن الحسن الوراق البغدادى شاعر مجود أكثر من الشعر الحسن فى المواعظ والحكم، روى عنه (ابن أبى الدنيا) توفى نحو (٢٢٥هـ - ٨٤٠م)

وجوزى بالامر الذى كان فاعلاً

وصب عليه الله سوط عذابه

وقال آخر:

لا تسألن إلى صديق حاجة
واستغن بالشئ القليل فإنه
من عف خف على الصديق لقاءه
وأخوك من وفرت ما فى كفه

فيحول عنك كما الزمان يحول
ما صان عرضك لا يقال قليل
وأخو الحوائج وجهه مملول
ومتى علقت به فأنت ثقل

وقال آخر:

ليس جوداً أعطيت به سؤال
إنما الجود ما أنك ابتداء

قد يهز السؤال غير جواد
لم تذق فسيه ذلة الترداد

وقال آخر:

لا تحسب الموت موت البلى
كلاماً موت ولكن ذا

إنما الموت سؤال الرجاء
أخف من ذاك لذل السؤال

وقال الشافعى رضى الله تعالى عنه:

قنعت بالقوت من زماني
خوفاً من الناس أن يقولوا
من كنت عن ماله غنياً
ومن رأى بعين نقص
ومن رأى بعين تم

وصنت نفسي عن الهوان
فضل فلان على فلان
فلا أبالي إذا جفاني
رأيت به بالتي رأى
رأيت به كامل المعاني

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى ذكر الهدايا والتحف وما أشبه ذلك

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦] فسرهما بعضهم بالهدية، وقال ﷺ: «تهادوا تحابوا فإنها تجلب المحبة وتذهب الشحناء». وقال ﷺ: «الهدية مشتركة». وقال ﷺ: «من سألكم بالله فاعطوه ومن استعاذكم فاعيدوه ومن أهدى إليكم كرعاً فاقبلوه». وكان ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها ما هو خير منها. وفى الأثر: الهدية تجلب المودة إلى القلب والسمع والبصر. ومن الأمثال: إذا قدمت من سفر فأهد أهلك ولو حجراً. وقال الفضل ابن سهل: ما استرضى غضبان، ولا استعطف السلطان، ولا سلبت السخائم ولا دفعت المغارم، ولا استميل المحبوب، ولا توقى المحذور بمثل الهدية. وأتى فتح الموصلى بهدية وهى خمسون ديناراً فقال: حدثنا عطاء، عن النبى ﷺ: أنه قال: «من أتاه الله رزقاً من غير مسألة ورده فكأنما رده على الله تعالى». «وأهدى رسول الله ﷺ هدية إلى عمر: فردها، فقال: يا عمر لم رددت هديتى؟ فقال رضى الله عنه: إنى سمعتك تقول خيركم من لم يقبل شيئاً من الناس. فقال: يا عمر إنما ذاك ما كان عن ظهر مسألة، فأما إذا أتاك من غير مسألة فإنما هو رزق ساقه الله إليك». وقالت أم حكيم الخزاعية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تهادوا فإنه يضاعف الحب ويذهب بغوائل الصدور». ويقال: فى نشر المهادة طى المعادة.

ذكر أنواع الهدايا للخلفاء وغيرهم ممن قصرت به قدرته فأهدى اليسير وكتب معه مكاتبة يعتذر بها:

أهدى إلى سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ثمانية أشياء متباينة فى يوم واحد. فيلة من ملك الهند، وجارية من ملك الترك، وفرس من ملك العرب، وجوهر من ملك الصين، وإستبرق من ملك الروم، ودره من مك البحر، وجراة من ملك النمل، وذرة من ملك البعوض. فتأمل ذلك، وقال: سبحان القادر على جمع الأضداد. وأهدى ملك الروم إلى المأمون هدية، فقال المأمون: أهدوا له ما يكون ضعفها مائة مرة ليعلم عز الإسلام ونعمة الله تعالى علينا، ففعلوا ذلك، فلما عزموا على حملها قال: ما أعز الأشياء عندهم؟ قالوا: المسك والسمور. وقال: وكم فى الهدية من ذلك؟ قالوا: مائتا رطل مسكاً ومائتا فروة سمور.

وأهدت قطر الندى إلى المعتضد بالله فى يوم نيروز فى سنة، اثنتين وثمانين ومائتين هدية كان فيها عشرون صينية ذهب فى عشرة منها مشام عنبر وزنها أربعة وثمانون رطلاً، وعشرون صينية فضة فى عشرة منها مشام صندل زنتها نيف وثلاثون رطلاً، وخمس خلع وشى قيمتها خمسة آلاف دينار، وعملت شماعات ليوم النيروز بلغت النفقة عليها ثلاثة عشر ألف دينار.

وأهدى يعقوب بن الليث الصفار إلى المعتمد على الله هدية فى بعض السنين من جملتها عشرة بازات منها باز أبلق لم ير مثله، ومائة مهر، وعشرون صندوقاً على عشر بغال فيهم طرائف الصين وغرائب، ومسجد فضة بدرابزين يصلى فيه خمسة عشر إنساناً ومائة رطب من مسك، ومائة رطل عود هندى، وأربعة آلاف درهم.

وأهدت ثريا بنت الأوبارى ملكة إفرنجية وما والاها إلى المكتفى بالله فى سنة ثلاث وسبعين ومائتين. خمسين سيفاً وخمسين رمحاً وعشرين منسوجاً بالذهب، وعشرين خادماً صقلياً، وعشرين جارية صقلية، وعشرة كلاب كبار لا تطيقها السباع، وستة بازات، وسبعة صقور، ومضرب حرير متلون بجميع الألوان كلون قوس قزح، يتلون فى كل ساعة من ساعات النهار، وثلاثة أطيار من الأطيار الإفرنجية إذا نظرت إلى الطعام أو الشراب المسموم صاحت صياحاً منكراً وصفقت بأجنحتها حتى يعلم ذلك، وخرزاً يجذب النصول بعد نبات اللحم عليها بغير وجع، وحمارة وحشية عظيمة الخلقة فى قدر البغل، وآذانها شبه آذن البغل، وهى مخططة تخطيطاً عاماً لجميع خلقتها.

وأهدى قسطنطين ملك الروم إلى المستنصر بالله فى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة هدية عظيمة اشتملت قيمتها على ثلاثين قنطاراً من الذهب الأحمر كل قنطار منه عشرة آلاف دينار عربية قيمة ذلك ثلاثمائة ألف دينار عربية.

وحكى أن الخيزران^(١) جارية المهدي كانت أديبة شاعرة، فعزم المهدي على شراب دواء، فأنفذت إليه جام بلور فيه شراب اختارته له مع وصيفة بكر بارعة الجمال، وكتبت إليه تقول:

إذا خرج الإمام من الدواء وأعقب بالسلامة والشفاء
وأصلح حاله من بعد شرب بهذا الجـام من هذا الطلاء
فـينعم لـتي قـد أنفـذته إليه بزورة بعد العشاء
فسر بذلك ووقعت الجارية منه أعظم موقع، وزار الخيزران وأقام عندها يومين. وأهدى الصابي إلى عضد الدولة^(٢) أسطرلاباً في يوم المهرجان وكتب إليه يقول:

أهدي إليك بنو الأملاك واحتفلوا في مهرجان جديد أنت تبليه
لكن عـبـدك إبراهيم حين رأي سمو قـدرك عن شئ يدانيه
لم يرض بالأرض يهديها إليك وقد أهدي لك الفلك الأعلي بما فيه
وأهدى رجل إلى المتوكل قارورة ذهب وكتب معها بأن الهدية إذا كانت من الصغير إلى الكبير فكلما لطفت ودقت كانت أبهى وأحسن، وإذا كانت من الكبير إلى الصغير فكلما عظمت وجلت كانت أوقع وأنفع.

وأهدى مرة أبو الهذيلي إلى موسى بن عمران دجاجة ووصفها له بصفات جليلة، ثم لم يزل يذكرها، وكلما ذكر شئ بجـمـال أو سمن قال: هو أحسن أو أسمن من الدجاجة التي أهديتها إليكم، وإن ذكر حادث قال: ذلك قبل أن أهدى لكم الدجاجة بشهر، وما كان بين ذلك وبين إهداء الدجاجة إلا أيام قلائل، فصارت مثلاً لمن يستعظم الهدية، ويذكرها. قال لشاعر:

وإن امرأ أهدى إلي صنـيعة وذكرنيها مرة للثـمـيم

وقال سفيان الثوري: إذا أردت أن تتزوج فأهد للأم. وكان سفيان يروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: من أهدت إليه هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها، فأهدى إليه صديق له ثياباً من ثياب مصر وعنده قوم، فذكروا الخبر، فقال: إنما ذلك فيما يؤكل ويشرب أما في ثياب مصر فلا. وكتب الحمدوني إلى جارية اسمها برهان. وقد حج مواليتها، فقال:

حجوا مواليك يا برهان واعتمروا وقد أتتك الهدايا من مـوالـيك
فأطرفني بما قد أطرفوك به ولا تكن طرفتي غير المساويك
ولست أقبل إلا ما جلوت به ثـنـيتـيك وما رددت في فيك
وكتب بعضهم إلى صديقه وقد أهدى إليه هدية يسيرة يقول:

تفضل بالقـبـول علىّ إنـي بعثت بما يقل العـبـد عنـدك

وأهدى بعضهم إلى صديقه هدية في يوم نيروز، وكتب إليه يقول: هذا يوم سجرت فيه العادة بالطفاف العبيد للسادة، وقدّر الأمير يجلس عما تحيط به المقدرة، وفي سؤدده ما يوجب التفضل ببسط المعذرة، وقد وجهت ما حضر علماً بأنه لا يستكثر ما جل ولا يستقل لعبده ما قل، فإن رأى أن يتطول بقبول القليل كتطوله بإهداء الجزيل فعل، وجعل يقول:

رأيت كثير ما يهدي إليكم قليلاً فاقـتـصـرت على الدعاء

وبلغ الحسن بن عمارة أن الأعمش يقع فيه ويقول: ظالم ولي المظالم، فأهدى إليه هدية فمدحه الأعمش بعد ذلك وقال: الحمد لله الذي ولي علينا من يعرف حقوقنا، فقيل له: كنت تدمه ثم الآن تمدحه، فقال: حدثني خيشمة عن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها» وقال الملك بن مروان: ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها، الكتاب يدل على عقل كاتبه، والرسول يدل على عقل مرسله، والهدية تدل على عقل مهديها. والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) الخيزران: هي الخيزران بنت عطاء كانت من جواري المهدي وأعتقها وتزوجها فولدت له المهدي والرشيد وهي ملكة حارمة متفقهة بمانية الاصل تلقت الفقه عن الإمام الأوزاعي، ولعبت دوراً عظيماً في خلافة ولدها الهادي وشاركته في شئون الدولة توفت سنة (١٧٣هـ - ٧٨٩م).

فى العمل والكسب والصناعات والحرف وما أشبه ذلك

أما العمل: فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «أفضل العمل أدومه وإن قل». وقال على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه: قليل مدام عليه خير من كثير مملول. وفى التوراة: حرك يدك أفتح لك باب الرزق. وكان إبراهيم بن أدهم يسقى ويرعى ويعمل بالكراء ويحفظ البساتين والمزارع ويحصد بالنهار ويصلى بالليل. وعن على رضى الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله: ما ينفعنى عنى حجة العلم؟ قال: العمل. وعنه ﷺ أنه قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى». وقال الأوزاعى: إذا أراد الله بقوم سوءاً أعطاهم الجدل ومنعهم العمل. وأنشد يقول:

ومن المرء إلا حيث يجعل نفسه ففى صالح الأعمال نفسك فاجعل

وقال بعض الحكماء: لا شئ أحسن من عقل زانه حلم، ومن عمل زانه علم، ومن حلم زانه صدق. ودخل بعض الخواص على إبراهيم بن صالح وهو أمير فلسطين فقال له: عظمى. فقال له الولي: بلغنى رحمك الله أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم الموتى، فانظر ماذا تعرض على رسول الله ﷺ من عملك. فبكى إبراهيم حتى سالت دموعه. وقيل: من جد وجد، وأنشدوا فى المعنى:

إنى رأيت وفى الأيام تجريرة للصبر عاقبة حمودة الأثر
وقل من جسد فى أمر يحاوله واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وتقول العرب: فلان وثاب على الغرض، وقال بعضهم:

وإنى إذا باشـرت أمـراً أريد تدانت أقاصـيه وهان أشـده

وعن أنس رضى الله تعالى عنه: يتبع الميت ثلاث. يرجع اثنان ويبقى واحد، يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ولا يرجع عمله. وقال بعضهم: العمل سعى الأركان إلى الله، والنية سعى القلوب إلى الله، والقلب ملك والأركان جنود ولا يحارب الملك إلا بالجنود، ولا الجنود إلا بالملك. وقيل: الدنيا كلها ظلمات إلا موضع العلم، والعلم كله هباء إلا موضع العمل، والعمل كله هباء إلا موضع الإخلاص، هذا هو العمل.

وأما الكسب: فقد جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. أى دروع من الحديد، وذلك أن داود عليه الصلاة والسلام كان يدور فى الصحارى فإذا رأى من لا يعرفه تحدث معه فى أمر داود، فإذا سمعه عابه بشئ يصلحه من نفسه، فسمع يوماً من يقول: إنى لا أجد فى داود عيباً إلا أنه يأكل من غير كسبه، فعند ذلك صلى داود عليه الصلاة والسلام فى محرابه وتضرع بين يدى الله تعالى وسأله أن يعلمه ما يستعين به على قوته، فعلمه الله تعالى صنعة الحديد وجعله فى يده كالشمع، فاحترقها واستعان بها على أمره وسار يحكم منها الدروع. وقال رسول الله ﷺ: «وجعل رزقى تحت ظل رمحى فكانت حرفته الجهاد وقال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب العبد المحترف» وقال ﷺ: «إن الله تعالى يبغض العبد الصحيح الفارغ». وقال عليه الصلاة والسلام: «من اكتسب قوته ولم يسأل الناس لم يعذبه الله تعالى يوم القيامة. ولو تعلمون ما أعلم من المسألة لما سأل رجل رجلاً شيئاً وهو يجد قوت يومه، وليس عند الله أحب من عبد يأكل من كسب يده إن الله تعالى يبغض كل فارغ من أعمال الدنيا والآخرة». وعن أنس رضى الله تعالى عنه، عن النبى ﷺ: «من بات كالاً فى طلب الحلال أصبح مغفوراً له». وعن الحسن رحمه الله: كسب الدرهم الحلال أشد من لقاء الزحف. وقيل لمحمد بن مهران: إن ها هنا أقواماً يقولون نجلس فى بيوتنا وتأتينا أرزاقنا، فقال: هؤلاء قوم حمقى إن كان لهم مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن فليفعلا، وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة. وقال أيضاً: إنى لأرى الرجل فيعجبني، فأقول: آله حرفة؟ فإن قالوا لا، سقط من عينى، واشترى سليمان وسقاً من طعام وهو ستون صاعاً فقيل له فى ذلك فقال: إن النفس إذا أحرزت رزقها اطمأنت، قال بعضهم فى السعى:

خاطر بنفسك كى تصيب غنـيمة إن الجلوس مع العـيال قـبيـح

وقيل: إن أول من صنع لسان الميزان عبد الله بن عامر^(١)، وكان الناس إنما يزنون بالشاهينى. وعن أنس رضى الله عنه قال: غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ، فقالوا يا رسول الله: سعر لنا، فقال: إن الله الخالق القابض المسعر الرازق، وإنى لأرجو أن ألقى الله تعالى وليس أحد يطلبنى بمظلمة ظلمته بها فى أهل ولا مال.

وأما ما جاء فى العجز والتوانى: فقد روى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال: من أطاع التوانى ضيع الحقوق، ومن العجز طلب ما فات مما لا يمكن استدراكه وترك ما أمكن مما تحمد عواقبه.

قال الشاعر:

على المرء أن يسعى ويبذل جهده ويقضى إله الخلق ما كان قاضياً

ومثله قوله:

على المرء أن يسعى ويبذل نفسه وليس عليه أن يساءل الدهر

وقيل: احذر مجالسة العاجز، فإنه من سكن إلى عاجز أعداه من عجزه، وأمدته من جزعه وعوده قلة الصبر. ونسأه ما فى العواقب، وليس للعجز ضد إلا الحزم، وقال بعض العلماء: من الخذلان مسامرة الأمانى ومن التوفيق بغض التوانى: وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «باكروا فى طلب الرزق والحوائج فإن الغدو بركة ونجاح». وقال الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه: احرص على ما ينفعك، ودع كلام الناس فإنه لا سبيل إلى السلامة من السنة الناس، وقال على رضى الله تعالى عنه: التوانى مفتاح البؤس، وبالعجز والكسل تولدت الفاقة ونتجت الهلكة، ومن لم يطلب لم يجد وأفضى إلى الفساد. وقال حكيم: من دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير. وقال بعض الحكماء: الحركة بركة والتوانى هلكة والكسل شؤم، وكلب طائف خير من أسد رابض ومن لم يحترف لم يعتلف. وقيل: من العجز والتوانى تنتج الفاقة. قال هلال بن العلاء الرفاء هذين البيتين من جملة أبيات:

كأن التوانى أنكح العجز بنته وساق إليها حين زوجها مهراً
فراشاً وطيثاً ثم قال لها اتكى فإنكما لا بد أن تلدا الفقرا

وقال آخر:

توكل على الرحمن فى الأمر كله ولا ترغب فى العجز يوماً عن الطلب
ألم تر أن الله قــــــــــــــــال لمريم وهزى إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزه جتته ولكن كل رزق له سبب

وسأل معاوية رضى الله تعالى عنه سعيد بن العاص عن المروءة فقال: العفة والحرفة. وكان أيوب السخستيانى يقول: يا فتیان احترفوا فإنى لا آمن عليكم أن تحتاجوا إلى القوم، يعنى الأمراء. وقال رجل للحسن: إننى أنشر مصحفى فاقروه بالنهار كله، فقال: اقرأه بالغداة والعشى ويكون يومك فى صنعتك وما لا بد منه. ومر رحمه الله تعالى بإسكاف، فقال يا هذا: اعمل وكل، فإن الله يحب من يعمل ويأكل ولا يحب من يأكل ولا يعمل، وقال أبو تمام:

(١) عبد الله بن عامر: هو عبد الله بن عامر كُريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف يكنى أبا عبد الرحمن، وأمه دجاجة بنت أسماء بن الصلت، ولد بمكة بعد الهجرة بأربع سنين ولما شب ولأه عثمان بن عفان البصرة، وكان رجلاً سخياً شجاعاً، وصولاً لقومه ففتحت على عهده سجستان صلحاً وأرض الدوار وغزا أرض البارد وقلاع فارس وافتتح جور والكاريان الفنسجان وهما من دار ابجرى، ثم تآقت نفسه إلى خراسان ففتحها وفتح أبو شهر عنوة وغيرها، وهو أول من لبس الخبز بالبصرة، وهو أول من اتخذ الحياض بركة وأجرى إليها العين وسقى الناس الماء فذلك قائم إلى اليوم، توفى قبل معاوية بسنة وذلك سنة (٥٩هـ).

أعاذلتى ما أحسن الليل مَرَكَبًا
ذرينى وأهوال الزمان أقاسها
أرى عاجزاً يدعى جليداً لقسمه
وعففاً يسمى عاجزاً بعفافه
وليس بعجز المرء أخطاه الغنى
وقال آخر:

وأحسن منه فى الملمات راكبه
فأهواله العظمى تليها رغائبه
ولو كلف التقوى لكلى مضاربه
ولولا التقوى ما أعجزته مذهبه
ولا باحتيال أدرك المال كاسبه
يحيل على المقادر والقضاء

وقال أعرابى: العاجز هو الشاب القليل الحيلة الملازم للأمانى المستحيلة. ويقال: فلان يخدعه الشيطان عن الحزم، فيمثل له التوانى فى صورة التوكل، ويريه الهوينا بإحالاته على القدر. وقال لقمان لابنه: يا بنى إياك والكسل والضجر، فإنك إذا كسلت لم تؤد حقاً وإذا ضجرت لم تصبر على حق. وقال أبو العتاهية:

إذا وضع الراعى على الأرض صدره
فحق على المعزى أن تتبهددا

فالتوانى: هو الكسل وتضييع الحزم وعدم القيام على مصالح النفس وترك التسبب والاحتراف والإحالة على المقادير، وهذا من أقبح الأفعال.

وأما التأنى: فإنه خلاف التوانى، وهو الرفق ورفض العجلة والنظر فى العواقب. وقد قيل: من نظر فى عواقب الأمور سلم من آفات الدهور. ومما جاء فى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤]. وقال رسول الله ﷺ: «من أعطى حظه من الرفق أعطى حظه من الدنيا والآخرة». وقال عليه الصلاة والسلام لعائشة: «عليك بالرفق فإن الرفق لا يخالط شيئاً إلا زانه، ولا يفارق شيئاً إلا شانه». وفى التوراة: الرفق رأس الحكمة. وقالوا: العقل أصله الثبت وثمرته السلامة. ووجد على سيف مكتوباً: التأنى فيما يخاف فيه الفوت أفضل من العجلة فى إدراك الأمل. وقال بعض الحكماء: إذا شككت فاجزم وإذا استوضحت فاعزم. وقالوا: يد الرفق تجنى ثمرة السلامة، ويد العجلة تغرس شجرة الندامة، وأنشدوا فى ذلك:

قد يدرك المتأنى بعض حاجته
وقد يكون مع المستعجل الزلل

وقالوا: التأنى حصن السلامة والعجلة مفتاح الندامة. وقالوا: إذا لم يدرك الظفر بالرفق والتأنى: فيما يدرك؟. وقال المهلب: أناة فى عواقبها درك خير من عجلة فى عواقبها فوت. وقالوا: من تأنى نال ما تمنى. والرفق مفتاح النجاح. وقال بعض الحكماء إياك والعجلة فإنها تكنى أم الندامة، لأن صاحبها يقول قبل أن يعلم ويجب قبل أن يفهم، ويعزم قبل أن يفكر، ويحمد قبل أن يجرب، ولن تصحب هذه الصفة أحد إلا صحب الندامة وجانب السلامة.

وأما الصناعات والحرف وما يتعلق بها: فقد روى عن سهل بن سعد رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عمل الأبرار من الرجال الخياطة، وعمل الأبرار من النساء الغزل». وكان ﷺ يخيظ ثوبه ويخصف نعله، ويحلب شاته، ويعلف ناضحه. وقال سعيد بن المسيب: كان لقمان الحكيم خياطاً. وقيل: كان إدريس عليه السلام خياطاً. ووقف على بن أبى طالب كرم الله وجهه على خياط، فقال له: يا خياط نكلتك النواكل، صلّب الخيط ودقق الدروز، وقارب الغروز، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله الخياط الخائن وعليه قميص ورداء مما خاط وخان فيه، واحذر السقاطات، فإن صاحب الثوب أحق بها، ولا تتخذ بها الأيادى وتطلب المكافأة». وقال فيلسوف: إن من القبيح أن يتولى امتحان الصانع من ليس بصانع. وفى الحديث: «أكذب أمتى الصواغون الصباغون وكذب الدلال مثل». وقالوا: لكل أحد رأس مال ورأس مال الدلال الكذب. وقال عبد الرحمن بن شبيل سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«التجار هم الفجار، فقيل: أليس الله تعالى قد أحل البيع؟ قال: نعم. ولكن يحدثون فيكذبون، ويحلفون فيحشون». وقال الفضيل: بخس الموازين سواد في الوجه يوم القيامة، وإنما هلكت القرون الأولى لأنهم أكلوا الربا وعطلوا الحدود ونقصوا الكيل والميزان.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْزِلْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]. قيل: هم الحاكاة والأساكفة. وقيل: إن حائكًا سأل إبراهيم الحربي ما تقول فيمن صلى العيد ولم يشتر ناطقًا ما الذي يجب عليه؟ فتبسم إبراهيم، ثم قال: يتصدق بدرهمين، فلما مضى قال: ما علينا أن نفرح المساكين من مال هذا الأحمق. وقيل لرجل: هل فيكم حائك؟ قال: لا. قيل: فمن ينسج لكم ثيابكم؟ قال: كل منا ينسج لنفسه في بيته. وكان أردشير بن بابك لا يرتضى لمنادته ذا صناعة رديئة كحائك وحجام، ولو كان يعلم الغيب مثلاً. وقال كعب: لا تستشيروا الحاكاة، فإن الله تعالى سلب عقولهم ونزع البركة من كسبهم، لأن مريم عليها السلام مرت بجماعة من الحياكين، فسألتهن عن الطريق فدلوهن على غير الطريق، فقالت نزع الله البركة من كسبكم، وقال أبو العتاهية^(١):

ألا إنما التقوي هي العز والكرم وحبك للدنيا هو الذل والسقم
وليس على عبد تقي نقیصة إذا صحح التقوي وإن حاك أو حجم

وهذا ما أردنا سياقه في هذا الباب. والله الموفق للصواب، وصلى الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) أبو العتاهية: هو إسماعيل بن قاسم بن سويد بن كيسان أبو إسحاق المعروف بأبي العتاهية، مولده بعين التمر، موقعها بالحجاز قرب المدينة، ومنشأ الكوفة ثم سكن بغداد، لقب بأبي العتاهية، لاضطراب كان فيه، وقيل كان يحب المجون والخلاعة وأكثر شعره حكم وأمثال، وكان سهل القول، بعيد عن التكلف، مولده سنة (١٣٠هـ) مات ببغداد سنة (٢١١هـ) انظر «تاريخ بغداد» للخطيب (٦/ ٢٥٠) ترجمة (٣٢٨٨).

فى شكوى الزمان وانقلابه بأهله والصبر على المكاره

والتسلى عن نوائب الدهر وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول: فى شكوى الزمان وانقلابه بأهله

روى عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أنه قال: «ما من يوم ولا ليلة ولا شهر ولا سنة إلا والذى قبله خير منه سمعت ذلك من نبيكم ﷺ وكان معاوية رضى الله تعالى عنه يقول: معروف زماننا منكر زمان قد مضى، ومنكره معروف زمان لم يأت. وكانت ناقة رسول الله ﷺ العصباء لا تسبق، فجاء أعرابى فسبقها، فشق ذلك على الصحابة رضى الله تعالى عنهم، فقال ﷺ: «إن حقاً على الله أن لا يرفع شيئاً من هذه الدنيا إلا وضعه».

وحكى عن شيخ من همدان قال: بعثنى أهلى فى الجاهلية إلى ذى الكلاع الحميرى بهدايا، فمكثت شهراً لا أصل إليه، ثم بعد ذلك أشرف الشرافة من كوة، فخر له من حول القصر سجداً، ثم رأيت من بعد ذلك وقد هاجر إلى حمص واشترى بدرهم لحماً، وسمطه خلف دابته وهو القائل هذه الأبيات:

أف للدنيا إذا كانت كذا	أنا منه في بلاء وأذي
إن صفا عيش امرئ في صحبها	جرعته ممسكاً كأس الردي
ولقد كنت إذا ما قليل من	أنعم العالم عيشاً قليل ذا

وقال يونس بن ميسرة^(١): لا يأتى علينا زمان إلا بكينا منه ولا يتولى عنا زمان إلا بكينا عليه. ومن قوله ذلك:

رب يوم بكيت منه فلما	صرت في غيره بكيت عليه
----------------------	-----------------------

ومثله:

وما مر يوم أرتجى فيه راحة	فأخبره إلا بكيت على أمسي
---------------------------	--------------------------

ومن كلام ابن الأعرابى:

عن الأيام عـد فـعن قليل	تري الأيام في صـور الليالى
-------------------------	----------------------------

وقال رضى الله عنه: ما قال الناس لشيء طوبى إلا وقد خبأ له الدهر يوم سوء. قال الشاعر:

فما الناس بالناس الذين عهدتهم	ولا الدار بالدار التي كنت أعهد
-------------------------------	--------------------------------

ودخل داود عليه الصلاة والسلام غاراً، فوجد فيه رجلاً ميتاً وعند رأسه لوح مكتوب فيه، أنا فلان ابن فلان الملك عشت ألف عام، وبنيت ألف مدينة، وافترضت ألف بكر، وهزمت ألف جيش، ثم صار أمرى إلى أن بعثت زنبيلاً من الدراهم فى رغيف فلم يوجد، ثم بعثت زنبيلاً من الجواهر فلم يوجد، فدققت الجواهر واستفيتها فمت مكانى، فمن أصبح وله رغيف وهو يحسب أن على وجه الأرض أغنى منه أماته الله كما أماتنى. وذكر أن عبد الرحمن بن زياد لما ولى خراسان حاز من الأموال ما قدر لنفسه أنه إن عاش مائة سنة ينفق فى كل يوم ألف درهم على نفسه أنه يكفيه، فرؤى بعد مدة وقد احتاج إلى أن باع حلية مصحفه وأنفقها. وقال هيثم بن خالد الطويل: دخلت على صالح مولى منارة فى يوم شات وهو جالس فى قبة مغطاة بالسمور، وجميع فروشها سمور، وبين يديه كانون فضة ييخر فيه بالعود. ثم رأيت بعد ذلك فى رأس الجسر وهو يسأل الناس.

(١) يونس بن ميسرة: هو يونس بن ميسرة بن حليس أبو عبيد وأبو حليس الجبلانى الأعمى عالم دمشق طال عمره، حدث عن معاوية وعبد الله بن عمرو، روى عنه الأوزاعى وسعيد بن عبد العزيز، كان يقرئ القرآن فى الجامع وله كلام نافع فى الزهد والمعرفة قتل شهيداً سنة (١٣٢هـ).

ولما قتل عامر بن إسماعيل مروان بن محمد^(١) ونزل في داره وقعد على فرشه. دخلت عليه عبدة بنت مروان فقالت: يا عامر: إن دهرًا أنزل مروان عن فرشه وأقعدك عليه لقد أبلغ في عظتك. وقال مالك بن دينار: مررت بقصر تضرب فيه الجوارى بالدفوف ويقلن:

ألا يا دار لا يدخلك حزن
ولا يغدر بصاحبك الزمان
فنعم الدار تأوي كل ضيف
إذا ما ضاق بالضيف المكان

ثم مررت عليه بعد حين وهو خراب وبه عجوز، فسألته عما كنت رأيت وسمعت، فقالت: يا عبد الله إن الله يغير ولا يتغير والموت غالب كل مخلوق، قد والله دخل بها الحزن وذهب بأهلها الزمان. وقال أبو العتاهية:

لئن كنت في الدنيا بصيرًا فلانما
بلاغك منها مثل زاد المسافر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينه
فما فاته منها فليس بضائر

وقال عبد الملك بن عمير^(٢): رأيت رأس الحسين رضى الله عنه بين يدي ابن زياد في قصر الكوفة، ثم رأيت رأس زياد بين يدي المختار، ثم رأيت رأس المختار بين يدي مصعب، ثم رأيت رأس مصعب بين يدي عبد الملك، قال سفيان، فقلت له: كم كان بين أول الرؤوس وآخرها؟ قال: اثنتا عشرة سنة. وقال الشاعر:

إن للدهر صرعة فاحذر
لا تبين قنطار الشـرور
قد يبيت الفتى معافي فيردى
ولقد كان آمنًا مسرور
وكان محمد بن عبد الله بن طاهر^(٣) في قصره على الدجلة ينظر، فإذا هو بحشيش في وسط الماء وفي وسطه قصبة على رأسها رقعة، فدعا بها فإذا فيها مكتوب شعراً وهو للشافعي رضى الله تعالى عنه:

تاه الأعرج واستعلي به البطر
فقل له خير ما استعملته الحذر
أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت
ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها
وعند صفو الليالي يحدث الكدر

قال: فما انتفع بنفسه مدة. وأعجب ما وجد في السُّير خبر القاهر أحد الخلفاء وقلعه من الملك وخروجه إلى الجامع في بطانة جبة بغير طهارة، ومد يده يسأل الناس بعد أن كان ملكه لأقطار الأرض، فبإذن الله يعز من يشاء ويذل من يشاء. وقيل: كان لمحمد المهلبى قبل اتصاله بالسلطان حال ضعيف، فينما هو في بعض أسفاره مع رفيق له من أصحاب الحرث والمحراث إلا أنه من أهل الأدب إذ أنشده يقول:

ألا مسوت يباع فأشـتريه
فهذا العيش ما لا خير فيه
ألا رحم المهـيـمن نفس حـر
تصدق بالوفاء على أخيه

قال: فرثي له رفيقه وأحضر له بدرهم ما سد به رمقه، وحفظ الأبيات وتفرقا. ثم ترقى المهلبى إلى الوزارة، وأخنى الدهر على ذلك الرجل الذي كان رفيقه، فتوصل إلى إيصال رقعة إليه مكتوب فيها:

(١) مروان محمد: هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس أبو عبد الملك الأموي آخر خلفاء بني أمية، عرف بمروان الجعدي وبمروان الحممار، لأنه قيل: أصبر في الحرب من حمار، وكان بطلاً مقدماً داهية، جباراً، دوح الخوارج بالجزيرة ولد بالجزيرة سنة (٧٢هـ) وقتل سنة (١٣٢هـ) وعمره يناهز تسع وخمسون سنة قتله عامر بن إسماعيل أحد بني الحارث بن كعب، وبعث برأسه إلى العباس بالخيرة.
(٢) عبد الملك بن عمير: هو عبد الملك بن عمير بن سويد بن جارية القرشي، ويقال: اللخمي أبو عمرو ويقال: أبو عمر الكوفي المعروف بالقطبي، رأى على بن أبي طالب، وأبا موسى الأشعري، وهو صالح الحديث، روى أكثر من مائة حديث، وهو ثقة في الحديث توفي سنة (١٣٦هـ).
(٣) محمد بن عبد الله: هو محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعي الخراساني الأمير أبو العباس، كان رئيساً محتشماً، جواداً، مدحاً، أديباً شاعراً من أهل الإمرة والتقدم، ولاه المتوكل على الله إمرة بغداد، وعظم سلطانه في دولة المعتز بالله. ولد سنة (٢٠٩هـ - ٨٢٤م) وتوفي بمرض الخوانيق سنة (٢٥٣هـ - ٨٦٧م).

مقال مذكّر ما قد نسيه

ألا موت يباع فأشتره

ألا قل للوزير فسدته نفسي

أتذكر إذ تقول لضحك عيش

فلما قراها تذكر، فأمر له بسبعمئة درهم ووقع تحت رقعته: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]. ثم قلده عملاً يرتزق منه.

ودخل مسلمة بن زيد بن وهب على عبد الملك بن مروان فقال له: أى الزمان أدركته أفضل، وأى الملوك أكمل؟ فقال: أما الملوك فلم أر إلا حامداً وذاماً، وأما الزمان فيرفع أقواماً ويضع آخرين، وكلهم يذكر أن يبلى جديدهم ويفرق عديدهم ويهرم صغيروهم ويهلك كبيرهم. وقال حبيب بن أوس:

إلا بكيت عليه حين ينصـرم

ووجوه دنياه عليه مقبلة

أو غـاية إلا انحطاط المنزلة

لم أبك من زمن لم أرض خلتـه

وقال آخر

يا معرضاً عني بوجه مدبر

هل بعد حالك هذه من حالة

وقال عبد الله بن عروة بن الزبير^(١):

بشوا إلىّ ورحبوا بالمقبل

ولغ الكلاب تهـارشت فى المنزل

فأبادهم بتفـرق لا يجمع

كان الزمان بهم يضر وينفع

إلا وفيه للمكارم مرتع

وبقي الذين حـياتهم لا تنفع

ذهب الذين إذا رأونى مقبـلاً

وبقيت فى خلف كان حديثهم

وقال آخر فى معناه:

يا منزلاً عـبث الزمان بأهله

أين الذين عـهدتهم بك مرة

أيام لا يغـشي لذكرك مـربع

ذهب الذين يعـاش فى أكنافهم

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى^(٢):

محاسنه مقرونة ومعاييه

على حذر من أن تـذم عواقبه

وإنى رأيت الدهر منذ صـحبتـه

إذا سـرني فى أول الأمر لم أزل

وقال بعضهم:

والمنكرون لكل أمر منكر

بعضاً ليدفع معور عن معور

حشت يمينك يا زمان فكفر

ذهب الرجال المقتدى بفـعالهم

وبقيت فى خلف يزئـن بعـضه

حلف الزمان لـيأتين بمثلهم

وكان يقال: إذا أدير الأمر أتى الشر من حيث يأتى الخير، وكان يقال: بتقلب الدهر تعرف جواهر الرجال. ويقال: زمام العافية بيد البلاء ورأس السلامة تحت جناح العطب. وقال بعضهم: نحن فى زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدباراً، والشر إلا إقبالاً والشيطان فى هلاك الناس إلا طمعاً، اضرب بطرفك حيث شئت هل تنظر إلا فقيراً يكابد فقراً، أو غنياً

(١) عبد الله بن عروة: هو عبد الله بن عروة بن الزبير بن العوام القرشى الأسدى، أبو بكر المدنى وأمه فاخته بنت الأسود أبى البحرى، روى عن الحسن بن على بن أبى طالب، وعبد الله بن عمرو بن الخطاب، وروى له الجماعة سوى أبو داود.

(٢) إسحاق بن إبراهيم: هو إسحاق بن إبراهيم بن ميمون التميمى الموصلى أبو محمد، صاحب الموسيقى والشعر الرائق، والتصانيف الأدبية مع الفقه واللغة، ولد سنة بضع وخمسين ومائة وتوفى سنة (٢٣٥هـ).

بدل نعمة الله كفرًا، أو بخيلاً اتخذ بحق الله وفرًا، أو متمردًا كأن بسمعه عن سماع المواعظ وقرًا. وقال آخر: نحن في زمان إذا ذكرنا الموتى حييت القلوب، وإذا ذكرنا الأحياء ماتت القلوب. ويؤيد ذلك قوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر أخيه فيقول يا ليتني مكانه».

ويقال: لا يقاوم عز الولاية بذل العزل. بيت:

ما من مـسـيٍ وإن طالت إساءته
وقال الأمين:

يا نفس قـسـد حُـقَّ الحـسـد
كل امـرئ مما يـخـسـا
من یرتشف صـفـفـو الزمـا
وقال بعضهم:

وقائلة ما بال وجهك قد نضت
فقلت لها هاتي من الناس واحدًا
وللأمير أبي علي بن منقذ:

أما والذي لا يملك الأمر غيره
لئن كان كتمان المصائب مؤلمًا
وبي كل ما يبكي العيون أقله

وقال علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه: وأيم الله ما كام قوم قط في خفض عيش فزال عنهم إلا بذنوب اقترفوها، لأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد، ولو أن الناس حين ينزل بهم الفقر ويزول عنهم الغنى فزعوا إلى ربهم بصدق نياتهم لرد عليهم كل شارد وأصلح لهم كل فاسد. قال الشاعر:

يقولون الزمان به فساد
وكفي بالقرآن واعظًا. قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد: ١١]، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل الثاني: في الصبر على المكروه ومدح الثبوت وذم الجزع

قد مدح الله تعالى الصبر في كتابه العزيز في مواضع كثيرة، وأمر به، وجعل أكثر الخيرات مضافًا إلى الصبر، وأثنى على فاعله، وأخبر أنه سبحانه وتعالى معه، وحث على الثبوت في الأشياء، ومجانبة الاستعجال فيه، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾ [البقرة: ١٥٣]. فبدأ بالصبر قبل الصلاة، ثم جعل نفسه مع الصابرين دون المصلين. وقوله تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ [الزمر: ١٠]. وقواه تعالى ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا﴾ [السجدة: ٢٤]. وقوله تعالى ﴿ومتت كلمة ربك الحسنی على بنی اسرائیل بما صبروا﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وبالجمل، فقد ذكر الله سبحانه وتعالى الصبر في كتابه العزيز في نيف وسبعين موضعًا. وأمر نبيه ﷺ به فقال تعالى: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وقد روي عن النبي ﷺ في ذلك أخبار كثيرة، فمن ذلك قوله ﷺ: «النصر في الصبر». وقوله ﷺ: «بالصبر يتوقع الفرج». وقوله: «الأناة من الله تعالى والعجلة من الشيطان، فمن هداه الله تعالى بنور توفيقه ألهمه الصبر في مواطن طلباته والثبوت في حركاته وسكناته، وكثيرًا ما أدرك الصابر مراره أو كاد. وفات المستعجل غرضه أو كاد». وقال الأشعث بن قيس: دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه فوجدته قد أثر فيه صبره على العبادة الشديدة ليلاً ونهارًا، فقلت يا أمير المؤمنين: إلى كم تصبر على مكابدة هذه الشدة؟ فما زادني إلا أن قال:

اصبر على مضض الإدلاج في السحر
إني رأيت وفي الأيام تجربة
وقل من جـد في أمر يؤمله
وفي الرواح إلى الطاعات في البكر
للصبر عاقبة محمودة الأثر
واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

فحفظتها منه وألزمت نفسي الصبر في الأمور، فوجدت بركة ذلك. وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها، إلا حط الله بها من خطاياها». وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة». وقال ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط». رواه الترمذي، وقال حديث حسن. وعن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، عن أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ: «الضرب على الفخذ عند المصيبة يحبط الأجر، والصبر عند الصدمة الأولى، وعظم الأجر على قدر المصيبة، ومن استرجع بعد مصيبته جدد الله له أجرها كيوم أصيب بها».

وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: احفظوا عني خمساً. اثنتين واثنتين وواحدة. لا يخافن أحدكم إلا ذنبه، ولا يرجو إلا ربه، ولا يستحي أحد منكم إذا سئل عن شيء وهو لا يعلم أن يقول لا أعلم، واعلموا أن الصبر من الأمور بمنزلة الرأس من الجسد وإذا فارق الرأس الجسد فسد الجسد، وإذا فارق الصبر الأمور فسدت الأمور، وأيما رجل حبسه السلطان ظمناً، فمات في حبسه مات شهيداً فإن ضربه فمات، فهو شهيد.

وروى في الخبر لما نزل قوله تعالى: ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ [النساء: ١٢٣]. قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه يا رسول الله: كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال رسول الله ﷺ: غفر الله لك يا أبا بكر، أليس تمرض، أليس يصيبك الأذى، أليس تحزن؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: فهذا ما تجزون به يعني جميع ما يصيبك من سوء يكون كفارة لك، وبهذا اتضح لك أن العبد لا يدرك منزلة الأخيار إلا بالصبر على الشدة والبلاء.

وروى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة وأبو جهل وأصحابه جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس فقال أبو جهل لعنه الله: أيكم يقوم إلى سلا الجزور فيلقيه على كتفي محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم فأخذه وأتى به. فلما سجد ﷺ وضع بين كتفيه السلا والفرث والدم، فضحكوا ساعة وأنا قائم أنظر، فقلت: لو كان لي منعة لطرحته عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبي ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان، فأخبر فاطمة رضي الله عنها، فجاءت فطرحته عن ظهره، ثم أقبلت عليهم فسبتهم، فلما قضى ﷺ الصلاة رفع يديه فدعا عليهم فقال: اللهم عليك بقريش، ثلاث مرات، فلما سمع القوم صوته ودعائه ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته فقال: اللهم عليك بأبي جهل، وعتبة، وشيبة، وربيعة، والوليد، وأميمة بن خلف، فقال علي رضي الله عنه: والذي بعث محمداً بالحق رأيت الذين سماهم صرعى يوم بدر. وكان الصالحون يفرحون بالشدة لأجل غفران الذنوب لأن فيها كفارة السيئات ورفع الدرجات. وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثلاث من رزقهن فقد رزق خيرى الدنيا والآخرة. الرضا بالقضاء، والصبر على البلاء، والدعاء في الرخاء».

وحكى أن امرأة من بنى إسرائيل لم يكن لها إلا دجاجة، فسرقها سارق، فصبرت ورددت أمرها إلى الله، ولم تدع عليه، فلما ذبحها السارق، واتفق ريشها نبت جميعه في وجهه، فسعى في إزالته فلم يقدر على ذلك إلى أن أتى حبراً من أحبار بنى إسرائيل، فشكا له، فقال: لا أجد لك دواء إلا أن تدعو عليك هذه المرأة، فأرسل إليها من قال لها: أين دجاجتك؟ فقالت: سرقت، فقال: لقد آذاك من سرقها. قالت: قد فعل، ولم تدع عليه. قال: وقد فجعتك في بيضها. قالت: هو كذلك، فما زال بها حتى أثار الغضب منها، فدعت عليه، فتساقط الريش من وجهه، فقيل لذلك الخبر: من أين علمت ذلك؟ قال: لأنها لما صبرت ولم تدع عليه انتصر الله لها، فلما انتصرت لنفسها ودعت عليه سقط الريش من وجهه. فالواجب على العبد أن يصبر على ما يصيبه من الشدة، ويحمد الله ويعلم أن النصر مع الصبر وأن مع العسر يسراً، وأن المصائب والرزايا إذا توالى أعقبها الفرج والفرح عاجلاً.

ومن أحسن ما قيل في ذلك من المنظوم:

عظمت دونه الخطوب وجلت
سئمت نفسك الحياة وملت
فـالـرزـايـا إذا توالى تولت
كشفت عنك جملة وتخلت

وإذا مسك الزمان بضرر
وأتت بعده نوائب أخـري
فـاصـطـبر وانتظر بلوغ الأمان
وإذا أوهنت قـواك وجلت

ولمحمد بن بشر الشارحي:

إن الأمور إذا استدت مسالكها
لا تيسأس وإن طالت مطالبه
ولزهير بن أبي سلمى^(١):

ثلاث يعز الصبر عند حلولها
خروج اضطرار من بلاد يحبها
وقال بعضهم:

عليك بإظهار التجلد للعدا
أما تنظر الريحان يشمم ناضراً
ولابن نباتة:

صبراً على نوب الزمما
فلكل شئ آخر
وقال أبو الأسود^(٢) وأجاد:

وإن امرؤ قد جرب الدهر لم يخف
ومما الدهر والأيام إلا كمما ترى

ومن كلام الحكماء: ما جاهد الهوى بمثل الرأى، ولا استنبط الرأى بمثل المشورة، ولا حفظت النعم بمثل المواساة، ولا اكتسب البغضاء بمثل الكبر، وما استنجحت الأمور بمثل الصبر. وقال نهشل:

ويوم كأن المصطلين بحرّه
صبرنا له صبراً جميلاً وإنما
قال ابن طاهر:

حذرتني ماذا الحذر
ليس من يكتنم الهوى
إنما يعرف الهوى
نفس يا نفس فاصبر

وإن لم يكن ناراً قياماً على الجمر
تفرج أبواب الكريهة بالصبر

ليس يغنى من القدر
مثل من باح واشتتهر
من على ممره صبر
فأز بالصبر من صبر

وكان يقال: من تبصر تصبر. وكان يقال: إن نوائب الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر. وكان يقال: لا دواء لداء الدهر إلا بالصبر. والله در القائل:

الدهر أدبني والصبر رباني
وحنكتني من الأيام تجربة
وما أحسن ما قال محمود الوراق:

إنني رأيت الصبر خير معول
ورأيت أسباب القناعة أكدت
فلذا نبأ بي منزل جاوزته
وإذا غلا شئ علي تركتته

والفسوت أقنعني واليسأس أغنانني
حتى نهيت الذي قد كان ينهاني

في النائبات لمن أراد معولاً
بعرى الغنى فجعلتها لي معقلاً
وحملت منه غييره لي منزلاً
فسيكون أرخص ما يكون إذا غلاً

(١) سبق ترجمته.

(٢) أبو الأسود ظالم بن عمرو: هو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل بن يعمر بن حلس بن نفاثة بن عدى بن الدئل بن بكر الديلي، ويقال الدؤلي؛ وفي اسمه ونسبه ونسبه اختلاف كثير، صحب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو بصرى، كان من أكمل الرجال رأياً وأسداهم عقلاً، ثقة، كان أول من تكلم في النحر، ولد في أيام النبوة، وأسلم في حياة النبي ﷺ وتوفي سنة تسع وستين في طاعون المجارف الذي وقع بالبصرة.

وقال بعضهم:

إذا ما أتاك الدهر يوماً بنكبة
فلن تصاريف الزمان عجيبة
وقال بعضهم:

وما مستنى عسر ففوضت أمره
إلى الملك الجبار إلا تيسرا
وما أحسن ما قيل:

الدهر لا يلقى على حاله
فإن تلقاك بمكروهه
لابد أن يقبل أو يدبر
فاصبر فإن الدهر لا يصبر

ونقل عن محمد بن الحسن رحمه الله قال: كنت معتقلاً بالكوفة، فخرجت يوماً من السجن مع بعض الرجال وقد زاد همى وكادت نفسى أن تزهق وضاعت على الأرض بما رحبت، وإذا برجل عليه آثار العبادة قد أقبل على ورأى ما أنا فيه من الكآبة فقال: ما حالك؟ فأخبرته القصة، فقال: الصبر الصبر، فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «الصبر ستر للكروب وعون على الخطوب». وروى عن ابن عمه على رضى الله تعالى عنه أنه قال: الصبر مطية لاتدبر وسيف لا يكل، وأنا أقول:

ما أحسن الصبر فى الدنيا وأجمله
من شد بالصبر كفاً عند مؤلمة
فقلت له: بالله عليك ردى، فقد وجدت بك راحة. فقال: ما يحضرنى شيء عن النبى ﷺ ولكنى أقول:
أما والذى لا يعلم الغيب غيره
لئن كان بدء الصبر مرّاً مذاقه
عند الإله وأنجاه من الجزع
ألوت يداه بحبل غير منقطع
ومن ليس فى كل الأمور له كفو
لقد يجتنى من بعده الثمر الحلو

ثم ذهب، فسألت عنه، فما وجدت أحداً يعرفه ولا رآه أحد قبل ذلك فى الكوفة، ثم أخرجت فى ذلك اليوم من السجن، وقد حصل لى سرور عظيم بما سمعت منه وانتفعت به. ووقع فى نفسى أنه من الأبدال الصالحين قيضه الله تعالى لى يوقظنى ويؤدبنى ويسلينى. وقيل: إن رجلاً كان يضرب بالسياط ويجلد جلدأً بليغاً، ولم يتكلم ويصبر ولم يتأوه، فوقف عليه بعض مشايخ الطريقة فقال له: أما يؤلمك هذا الضرب الشديد؟ فقال: بلى، قال: لم لاتصيح؟ فقال: إن فى هذا القوم الذين وقفوا على صديقاً لى يعتقد فى الشجاعة والجلادة وهو يرقبني بعينه، فأخشى إن ضجيت يذهب ماء وجهى عنده ويسوء ظنه بى، فأنا أصبر على شدة الضرب وأحتمله لأجل ذلك. قال الشاعر:

على قدر فضل المرء تأتى خطوبه
فمن قل فيما يلتقيه اضطباره
ويحمد منه الصبر مما يصيبه
لقد قل فيما يرتجيه نصيبه

وقال رسول الله ﷺ لعائشة رضى الله عنها: يا عائشة إن الله تعالى لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر ولم يكلفنى إلا ما كلفوا به، فقال عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وإنى والله لأصبرن كما صبروا. فإن النبى ﷺ لما صبر كما أمر أسفر وجه صبره عن ظفـره ونصره، وكذلك الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين الذين هم أولو العزم لما صبروا ظفروا وانتصروا، وقد اختلف أهل العلم فيهم على أقوال كثيرة، فقال مقاتل رضى الله تعالى عنه: هم نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويونس وأيوب صلوات الله عليهم، وقال قتادة: هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام. ويقال: ما الذى صبروا عليه حتى سماهم الله تعالى أولى العزم؟ فأقول ذكر ما صبروا عليه.

أما نوح عليه الصلاة والسلام: فقد قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: كان نوح عليه الصلاة يضرب ثم يلف

فى لبد ويلقى فى بيته يرون أنه قد مات، ثم يعود ويخرج إلى قومه ويدعوهم إلى الله تعالى، ولما أيس منهم ومن إيمانهم جاءه رجل كبير يتوكأ على عصاه ومعه ابنه، فقال لابنه: يا بنى انظر إلى هذا الشيخ واعرفه ولا يغرك، فقال له ابنه: يا أبت مكنتى من العصا، فأخذها من أبيه وضرب بها نوحاً عليه الصلاة والسلام فشج بها رأسه، وسال الدم على وجهه، فقال: رب قد ترى ما يفعل بى عبادك، فإن يكن لك فيهم حاجة فاهداهم، وإلا فصبرنى إلي أن تحكم، فأوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٦) وأصنع الفلك ﴿[هود: ٣٦، ٣٧]﴾. قال: يارب، وما الفلك؟ قال: بيت من خشب يجرى على وجه الماء أنجى فيه أهل طاعتى وأغرق أهل معصيتى، قال: يارب، وأين الماء؟ قال: أنا على كل شىء قدير، قال: يارب، وأين الخشب، قال: أغرس الخشب، فغرس الساج عشرين سنة. وكفّ عن دعائهم وكفّوا عن ضربه، إلا أنهم كانوا يستهزئون به، فلما أدرك الشجر، أمره ربه، فقطعها وجففها، وقال: يارب كيف أتخذ هذا البيت؟ قال: اجعله على ثلاث صور، وبعث الله له جبريل فعلمه، وأوحى الله تعالى إليه أن عجل بعمل السفينة، فقد اشتد غضبى على من عصانى، فلما فرغت السفينة جاء أمر الله سبحانه وتعالى بانتصار نوح ونجاته، وإهلاك قومه، وعذابهم إلا من آمن معه. وفار الثور وظهر الماء على وجه الأرض، وقذفت السماء بمطار كأفواه القرب، حتى عظم الماء وصارت أمواجه كالجبال، وعلا فوق أعلى جبل فى الأرض أربعين ذراعاً، وانتقم الله سبحانه وتعالى من الكافرين ونصر نبيه نوحاً عليه الصلاة والسلام. وفى تمام قصته وحديث السفينة كلام مبسوط لأهل التفسير ليس هذا موضع شرحه وبسطه، فهذا زبدة صبر نوح عليه الصلاة والسلام وانتصاره على قومه.

وأما إبراهيم عليه الصلاة والسلام: فإنه لما كسر أصنام قومه التى كانوا يعبدونها، لم يروا فى قتله ونصرة آلهتهم أبلغ من إحراقه، فأخذوه وحبسوه بيت ثم بنوا حائزاً كالحوش طول جداره ستون ذراعاً فى سفح جبل عال ونادى مناد ملكهم أن احتطبوا لإحراق إبراهيم ومن تخلف عن الاحتطاب أحرقه، فلم يتخلف منهم أحد، وفعلوا ذلك أربعين يوماً ليلاً ونهاراً حتى كاد الخطب يساوى رؤوس الجبال، وسدوا أبواب ذلك الحائز، وقذفوا فيه النار، فارتفع لهبها حتى كان الطائر يمر بها فيحترق من شدة لهبها، ثم بنوا بنياناً شامخاً، وبنوا فوقه منجنيقاً، ثم رفعوا إبراهيم على رأس البنيان، ورفع إبراهيم عليه الصلاة والسلام طرفه إلى السماء ودعا الله تعالى وقال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) ﴿[آل عمران: ١٧٣]﴾. وقيل كان عمره يومئذ ست وعشرين سنة، فنزل إليه جبريل عليه الصلاة والسلام، وقال يا إبراهيم: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، فقال جبريل: سل ربك، فقال: حسبى من سؤالى علمه بحالى. فقال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩) ﴿[الأنبياء: ٦٩]﴾. فلما قذفوه فيها نزل معه جبريل عليه الصلاة والسلام، فجلس به على الأرض وأخرج الله له ماء عذباً، قال كعب: ما أحرقت النار غير كتافه، وأقام فى ذلك الموضع سبعة أيام، وقيل: أكثر من ذلك، ونجاه الله تعالى، ثم أهلك ثمود وقومه بأخس الأشياء وانتقم منهم وظفر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهم، فهذه ثمرة صبره على مثل هذه الحالة العظمى، ولم يجزع منها وصبر وفوض أمره إلى الله تعالى فى ذلك، وتوكل عليه ووثق به. ثم جاءت قصة ذبح ولده، وأمره الله تعالى بذلك فقابل أمره بالتسليم والامثال، وسارع إلى ذبحه من غير إهمال ولا إهمال، وقصته مشهورة، وتفاصيل القصة فى كتب التفسير مسطورة، فلما ظهر صدقه ورضاه ومبادرته إلى طاعة مولاه وصبره على ما قدره وقضاه عوضه الله تعالى عن ذبح ولده أن فداه، واتخذ خليلاً من بين خلقه واجتباه، وأما الذبيح صلوات الله وسلامه عليه، فإنه صبر على بلية الذبح.

وتلخيصها أن الله تعالى لما ابتلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذبح ولده قال: إنى أريد أن أقرب قرباناً، فأخذ ولده والسكين والحبل، وانطلق، فلما دخل بين الجبال قال ابنه: أين قربانك يا أبت؟ قال: إن الله تعالى قد أمرنى بذبحك، فانظر ماذا ترى، ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (١١٢) ﴿[الصافات: ١٠٢]﴾، يا أبت اشدّد وثاقى كى لا أضطرب واجمع ثيابك حتى لا يصل إليها رشاش الدم فتراه أُمى فيشتد حزنها، وأسرع إمرار السكين على حلقي ليكون أهون للموت على وإذا لقيت أُمى، فاقرأ السلام عليها، فأقبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام على ولده يقبله ويكي ويقول: نعمّ العون أنت يا بنى على ما أمر الله تعالى، قال مجاهد: لما أمر السكين على خلقه انقلبت السكين،

فقال يا أبت: اطعن بها طعناً. وقال السدى: جعل الله حلقه كصفحة من نحاس لاتعمل فيها السكين شيئاً، فلما ظهر فيهما صدق التسليم نودى أن يا إبراهيم هذا فداء ابنك، فأناه جبريل عليه السلام بكبش أملح، فأخذه وأطلق ولده وذبح الكبش، فلا جرم أن جعل الذبيح نبياً بصبره وامتناله لأمره.

وأما يعقوب عليه الصلاة والسلام: فإنه لما ابتلى بفراق ولده وذهاب بصره واشتداد حزنه قال: فصبر جميل. وكذلك يوسف صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لما ابتلاه الله تعالى بإلقائه في ظلمة الحب وبيعه كما تباع العبيد، وفراقه لأبيه، وإدخاله السجن، وحبسه فيه بضع سنين، وأنه تلقى ذلك كله بصبره وقبوله، فلا جرم أورثهما صبرهما جمع شملهما واتساع القدرة بالملك في الدنيا مع ملك النبوة في الآخرة.

وأما أيوب عليه الصلاة والسلام: فإنه ابتلاه الله تعالى بهلاك أهله وماله، وتتابع المرض المزمن والسقم المهلك حتى أفضى أمره إلى ما تضعف القوى البشرية عن حمله. ولنذكر شيئاً مختصراً من ذلك وهو أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل كان يظلم الناس، فنهاه جماعة من الأنبياء عن الظلم وسكت عنه أيوب عليه الصلاة والسلام، فلم يكلمه ولم ينهه لأجل خيل كانت له في مملكته، فأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام تركت نهيه عن الظلم لأجل خيلك، لأطيلن بلاءك، فقال إبليس لعنه الله: يارب سلطني على أولاده وماله، فسلطه، فبث إبليس مردته من الشياطين، فبعث بعضهم إلى دوابه، ورعاتها، فاحتملوها جميعاً وقذفوها في البحر، وبعث بعضهم إلى زرعهم وجناتهم فأحرقوها، وبعث بعضهم إلى منازلهم وفيها أولاده وكانوا ثلاثة عشر ولداً وخدمه وأهله، فزلزلوها فهلكوا، ثم جاء إبليس إلى أيوب عليه الصلاة والسلام، وهو يصلي، فتمثل له في صورة رجل من غلماناه فقال: يا أيوب أنت تصلي ودوابك ورعاتك قد هبت عليها ريح عظيمة، وقذفت الجميع في البحر، وأحرقت زرعك وهدمت منازلك على أولادك وأهلك، فهلك الجميع، ما هذه الصلاة؟ فالتفت إليه وقال: الحمد لله الذي أعطاني ذلك كله، ثم قبله مني. ثم قام إلى صلاته، فرجع إبليس ثانياً، فقال: يارب سلطني على جسده، فسلطه، فنفخ في إبهام رجله فانتفخ ولا زال يسقط لحمه من شدة البلاء إلى أن بقي أمعاؤه تبيين وهو مع ذلك كله صابر محتسب مفوض أمره إلى الله تعالى، وكان الناس قد هجروه واستقذروه وألقوه خارجاً عن البيوت من نتن ريحه، وكانت زوجته رحمة بنت يوسف الصديق قد سلمت فترددت إليه مستفقدة، فجاءها إبليس يوماً في صورة شيخ ومعه سخلة وقال لها: ليذبح أيوب هذه السخلة على اسمي فيببراً، فجاءته، فأخبرته، فقال لها: إن شفاني الله تعالى لأجلدنك مائة جلدة. تأمريني أن أذبح لغير الله تعالى، فطردها عنه، فذهبت وبقي. ليس له من يقوم به، فلما رأى أنه لا طعام له ولا شراب ولا أحد من الناس يتفقده خر ساجداً لله تعالى وقال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]. فلما علم الله تعالى منه ثباته على هذه البلوى طول هذه المدة وهى على ما قيل ثمانى عشرة سنة، وقيل غير ذلك، وأنه تلقى جميع ذلك بالقبول وما شكا إلى مخلوق ما نزل به. عاد الله تعالى بالطفاه عليه، فقال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]. وأفاض عليه من نعمه، ما أنساه بلوى نقمه، ومنحه من أقسام كرمه أن أفتاه في يمينه تحلة قسمه، ومدحه في نص الكتاب، فقال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]. فلو لم يكن الصبر من أعلى المراتب وأسنى المواهب لما أمر الله تعالى به رسله ذوى الحزم وسماهم بسبب صبرهم أولى العزم، وفتح لهم بصيرهم أبواب مرادهم وسؤالهم ومنحهم من لدنه غاية أمرهم ومأولهم ومرامهم، فما أسعد من اهتدى بهداهم واقتدى بهم، وإن قصر عن مداهم. وقيل: العسر يعقبه اليسر، والشدة يعقبها الرخاء، والتعب يعقبه الراحة، والضيق يعقبه السعة، والصبر يعقبه الفرج، وعند تنهى الشدة تنزل الرحمة، والموفق من رزقه صبراً وأجرأ، والشقى من ساق القدر إليه جزعاً ووزراً.

وما شنف السمع من نجاح هذه الإشارة، وأتحف النفع في نهج هذه العبارة، ما روى عن الحسن البصرى رضى الله تعالى عنه أنه قال: كنت بواسط، فرأيت رجلاً كأنه قد نبش من قبر، فقلت: ما دهالك يا هذا؟ فقال: أكتم على أمرى، حبسنى الحجاج منذ ثلاث سنين، فكنت فى أضيق حال، وأسوأ عيش، وأقبح مكان، وأنا مع ذلك كله صابر لا أتكلم، فلما كان بالأمس أخرجت جماعة كانوا معى، فضربت رقابهم، وتحدث بعض أعوان السجن أن غداً تضرب عنقى،

فأخذنى حزن شديد وبكاء مفرط، وأجرى الله تعالى على لسانى فقلت: إلهى اشتد الضر وفقد الصبر وأنت المستعان، ثم ذهب من الليل أكثره، فأخذتنى غشية، وأنا بين اليقظان والنائم إذ أتانى آت فقال لى: قُمْ فصل ركعتين وقل: يا من لا يشغله شيء عن شيء، يا من أحاط علمه بما ذرأ وبرأ وأنت عالم بخفيات الأمور ومحصى وساوس الصدور، وأنت بالمتزل الأعلى، وعلمك محيط بالمتزل الأدنى، تعاليت علواً كبيراً، يا مغيث أغثنى، وفكّ أسرى، واكشف ضرى، فقد نفذ صبرى، فقممت وتوضأت فى الحال وصليت ركعتين وتلوت ما سمعته منه، ولم تختلف علىّ منه كلمة واحدة، فما تم القول حتى سقط القيد من رجلى ونظرت إلى أبواب السجن فرأيتها قد فتحت، فقممت، فخرجت ولم يعارضنى أحد، فأنا والله طليق الرحمن، وأعقبني الله بصبرى فرجاً، وجعل لى من ذلك الضيق مخرجاً، ثم ودعنى وانصرف يقصد الحجاز.

وفيما يروى عن الله تعالى أنه أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام، يادأود من صبر علينا وصل إلينا، وقال بعض الرواة: دخلت مدينة يقال لها: دقار، فبينما أنا أطوف فى خرابها إذا رأيت مكتوباً بباب قصر خرب بماء الذهب واللازورد هذه الآيات:

يامن ألحَ عليه الهمُّ والفكر	وغَيَّرت حاله الأيام والغِير
أما سمعت لما قيل فى مثل	عند الأياس فـأين الله والقـدر
ثم الخطوب إذا أحداثها طرقت	فاصبر فقد فاز أقوامٌ بما صبروا
وكلّ ضيقٍ سيأتى بعده سعةٌ	وكلّ فوتٍ وشيكٌ بعده الظفر

ولما حبس أبو أيوب فى السجن خمس عشرة سنة ضاقت حيلته، وقلّ صبره، فكتب إلى بعض إخوانه يشكو إليه طول حبسه وقلة صبره، فرد عليه جواب رقعة يقول:

صبراً أبا أيوب صبراً مُبرِّح	وإذا عجزت عن الخطوب فمن لها
إنّ الذى عقّد الذى انعقدت به	عقّد المكاره فيك يملك حلّها
صبراً فإن الصبر يعقب راحة	ولعلّها أن تنجلى ولعلّها

فأجابه أبو أيوب يقول:

صبرتني ووعظتني وأنا لها	وستنجلي بل لا أقول لعلّها
ويحلّها من كان صاحب عقدها	كرماً به إذ كان يملك حلّها

فما لبث بعد ذلك أياماً حتى أطلق مكرماً:

وأنشدوا:

إذا ابتليت فثق بالله وارضَ به	إنّ الذى يكشف البلوى هو الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه	لاتيأسنّ فإن الصانع الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرته	فما ترى حيلةً فيما قضى الله

الفصل الثالث: من هذا الباب: فى التأسى فى الشدة والتسلى عن نوائب الدهر

قال الثورى رحمه الله تعالى عليه: لم يفقه عندنا من لم يعد البلاء نعمة، والرخاء مصيبة، وقيل: الهموم التى تعرض للقلوب كفارات للذنوب. وسمع حكيم رجلاً يقول لآخر: لا أراك الله مكروهاً، فقال: كأنك دعوت عليه بالموت، فإن صاحب الدنيا لا بد أن يرى مكروهاً. وتقول العرب: ويلّ أهون من ويلين. وقال ابن عيينة: الدنيا كلها غموم، فما كان فيها من سرور فهو ربح. وقال العتبي: إذا تناهى الغم انقطع الدمع بدليل أنك لاترى مضروباً بالسياط ولا مقدماً لضرب العنق يبكى.

وقيل: تزوج مغن بنائحه فسمعها تقول: اللهم أوسع لنا فى الرزق، فقال لها: يا هذه إنما الدنيا فرح وحزن وقد أخذنا بطرفى ذلك، فإن كان فرح دعونى، وإن كان حزن دعوك. وقال وهب بن منبه^(١): إذا سلك بك طريق البلاء سلك بك طريق الأنبياء. وقال مطرف: ما نزل بى مكروه قط فاستعظمته إلا ذكرت ذنوبى فاستصغرت. وعن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه يرفعه: «يود أهل العافية يوم القيامة أن لحومهم كانت تقرض بالمقاريض لما يرون من ثواب الله تعالى لأهل البلاء». وروى أبو عتبة عن النبى ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه. قالوا: وما اقتناه؟ قال: لا يترك له مالا ولا ولداً». ومر موسى عليه الصلاة والسلام برجل كان يعرفه مطيعاً لله عز وجل قد مزقت السباع لحمه وأضلّاعه وكبده ملقاة على الأرض، فوقف متعجباً، فقال: أى رب عبدك ابتليته بما أرى، فأوحى الله تعالى إليه إنه سألنى درجة لم يبلغها بعمله، فأحببت أن أبتليه لأبلغه تلك الدرجة.

وكان عروة بن الزبير صبوراً حين ابتلى، حكى أنه خرج إلى الوليد بن يزيد فوطىء عظماً، فما بلغ دمشق حتى بلغ به كل مذهب، فجمع الوليد الأطباء، فأجمع رأيهم على قطع رجله، فقالوا له: اشرب مرقدأ، فقال: ما أحب أن أغفل عن ذكر الله تعالى، فأحمى له المنشار، وقطعت رجله، فقال ضعوها بين يدى ولم يتوجع، ثم قال: لئن كنت ابتليت فى عضو فقد عوفيت فى أعضاء. فبينما هو كذلك إذ أتاه خبر ولده أنه اطلع من سطح على دواب الوليد، فسقط بينها فمات. فقال: الحمد لله على كل حال لئن أخذت واحداً لقد أبقيت جماعة. وقدم على الوليد وفد من عبس فيهم شيخ ضرير، فسأله عن حاله وسبب ذهاب بصره فقال: خرجت مع رفقة مسافرين ومعى مالى وعيالى، ولا أعلم عسبياً يزيد ماله على مالى، فعرسنا فى بطن واد، فطرقنا سيل، فذهب ما كان لى من أهل ومال وولد غير صبي صغير وبغير، فشرد البعير، فوضعت الصغير على الأرض ومضيت لأخذ البعير، فسمعت صيحة الصبي، فرجعت إليه فإذا رأس الذئب فى بطنه وهو يأكل فيه، فرجعت إلى البعير، فحطم وجهى برجليه، فذهبت عيناى، فأصبحت بلا عينين ولا ولد ولا مال ولا أهل، فقال الوليد: اذهبوا إلى عروة ليعلم أن فى الدنيا من هو أعظم مصيبة منه. وقيل: الحوادث الممضة^(٢) مكسبة لحظوظ جليلة، إما ثواب مدخر أو تطهير من ذنب أو تنبيه من غفلة أو تعريف لقدر النعمة. قال البحتري: يسلى محمد بن يوسف على حبسه:

فمن منزلٍ رحبٍ إلى ضنك
صفا الذهب الإبريز قبلك بالسَّك
لمثلك محبوسٌ عن الظلم والإفك
فآل به الصبر الجميل إلى الملك

ومــــا هـذه الأيام إلا منازل
وقد دهمتك الحوادث وإنما
أما فى نبى الله يوسف أسوة
أقام جميل الصبر فى السجن برهة

وقال على بن الجهم لما حبسه المتوكل:

حبسى وأى مهندٍ لا يغمد
عن ناظريك لما أضواء الفرقد
لا تصطللى إن لم تشرها الأزد
شنعاء نعم المنزل المتودد
ويُزار فيسه ولا يزور ويحمد
لا تستذلك بالحجاب الأعبد

قالوا حبست فقلت ليس بضائرى
والشمس لولا أنها محجوبة
والنار فى أحجارها مخبوءة
والحبس ما لم تغشيه لندية
بيتٌ يجدد للكریم كرامه
لو لم يكن فى الحبس إلا أنه

(١) وهب بن منبه: هو وهب بن منبه بن كامل بن سيج بن ذى كبار، أبو عبد الله الأبنائى اليمانى الذمارى الصنعانى، ولد فى زمن (عثمان بن عفان) سنة (٣٤هـ)، توفى سنة (١١٤هـ) وقيل سنة (١١٣هـ).

(٢) المفضى: وجع المصيبة.

غَرَّ اللِّيالِي بَادِيَاتُ عَوْدٍ والمَالُ عَارِيَةٌ يَعارُ وَيَنفَدُ
ولِكُلِّ حَيٍّ مَمْعَقِبٌ وَلرَبِّمَا أَجْلَى لَكَ الْمَكْرُوهَ عَمَّا يَحْمَدُ
لَا يُؤْسِنُكَ مِنْ تَفَرُّجِ نَكْبَةٍ خُطْبٌ رَمَّاكَ بِهِ الزَّمَانُ الْآتِكُ
كَمْ مِنْ عَليْلِ قَد تَخَطَّاهُ الرَّدَى فَنجَا وَمَاتَ طَبِيبُهُ وَالْعَوْدُ
صَبْرًا فَإِنَّ الْيَوْمَ يَعْقِبُهُ غَدٌ وَيَدُ الْخِلَافَةِ لَا تَطَاوِلُهَا يَدُ

قال وأنشد إسحاق الموصلي في إبراهيم بن المهدي حين حبس:

هِيَ الْمُقَادِيرُ تَجْرِي فِي أَعْنَتِهَا فَاصْبِرْ فَلَيْسَ لَهَا صَبْرٌ عَلَى حَالِ
يَوْمًا تَرِيكَ خَسِيسَ الْأَصْلِ تَرْفَعُهُ إِلَى الْعِلَاءِ وَيَوْمًا تَخْفِضُ الْعَالِي

فما أمسى حتى وردت عليه الخلع السنية من المأمون رضى الله عنه، وقال إبراهيم بن عيسى الكاتب في إبراهيم بن المدنى حين عزل:

لِيَهْنَأَ أَبَا إِسْحَاقَ أَسْبَابَ نَعْمَةٍ مَجْدَدَةٍ بِالْعِزْلِ وَالْعِزْلُ أَنْبَلُ
شَهِدْتَ لَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ وَأَحْسَنُوا لِأَنَّكَ يَوْمَ الْعِزْلِ أَعْلَى وَأَفْضَلُ

وقال آخر:

قَدْ زَادَ مَلِكُ سُلَيْمَانَ فَعَاوِدُهُ وَالشَّمْسُ تَنْحَطُّ فِي الْمَجْرَى وَتَرْتَفِعُ

وقال أبو بكر الخوارزمي^(١) لمعزول: الحمد لله الذى ابتلى فى الصغير وهو المال، وعافى فى الكبير وهو الحال:

وَلَا عَارَ إِنْ زَالَتْ عَنِ الْحَرِّ نَعْمَةٌ وَلَكِنْ عَارًا أَنْ يَزُولَ التَّجْمُلُ

وقيل: المال حظ ينقص ثم يزيد، وظل يتحسر ثم يعود. وسئل بزرجمهر عن حاله فى نكبته؟ فقال: عولت على أربعة أشياء: أولها أنى قلت القضاء والقدر لا بد من جريانهما، والثانى: أنى قلت إن لم أصبر فما أصنع، الثالث: أنى قلت قد كان يجوز أن يكون أعظم من هذا، الرابع: أنى قلت لعل الفرج قريب، والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) أبو بكر الخوارزمي: هو محمد بن موسى بن محمد أبو بكر الخوارزمي، البغدادى، إمام الحنفية، توفى فى جمادى الأولى سنة (٤٠٣هـ).

ما جاء فى اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة

والفرج والسرور ونحو ذلك مما يتعلق بهذا الباب

فمما يليق بهذا الباب من كتاب الله عز وجل قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَاءٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠]. ويروى عن ابن مسعود رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «لو كان العسر فى جحر لدخل عليه اليسر حتى يخرج». وقال عليه الصلاة والسلام: «عند تنهى الشدة يكون الفرج، وعند تضايق البلاء يكون الرخاء». وقال على رضى الله عنه، عن النبى: «أفضل عبادة أمتى انتظارها فرج الله تعالى». وقال الحسن: لما نزل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [٥] إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ [الشرح: ٥، ٦]، قال النبى ﷺ: «أبشروا فلن يغلب عسر يسرين».

ومن كلام الحكماء: إن تيقنت لم يبق هم. وقال أبو حاتم:

إذا اشتملت على البؤس القلوبُ
وأوطنت المكاره واطمأننت
ولم نر لانكشاف الضرِّ وجهاً
أتاك على قنوطٍ منك غـوـثُ

وقال آخر:

عسى الهمُّ الذى أمسيت فيه
فيأمن خائف ويغاث عـانِ

وقال آخر:

تصبرأيها العبد اللبيب
وكل الحـادـثات إذا تناهت

وقال إبراهيم بن العباس:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها

وقال آخر:

لئن صدع البين المشتت شملنا
وللنجم من بعد الرجوع استقامة
وإن نعمة زالت عن الحرِّ وانقضت
فكن واثقاً بالله واصبر لحكمه

ولنذكر نبذة ممن حصل له الفرج بعد الشدة:

روى أن الوليد بن عبد الملك كتب إلى صالح بن عبد الله عامله على المدينة المنورة، أن اخرج الحسن بن الحسن بن

على من السجن وكان محبوباً واضربه في مسجد رسول الله ﷺ خمسمائة سوط، فأخرجه إلى المسجد واجتمع الناس، وصعد صالح يقرأ عليهم الكتاب ثم نزل يأمر بضربه، فبينما هو يقرأ الكتاب إذ جاء على بن الحسين عليه السلام، فأفرج له الناس حتى أتى إلى جنب الحسن، فقال: يا ابن العم مالك ادع الله تعالى بدعاء الكرب يفرج الله عنك، قال: ما هو يا ابن العم؟ فقال: لا إله إلا الله الحليم الكريم لا إله إلا الله العلي العظيم، سبحان رب السموات ورب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، ثم انصرف عنه، وأقبل الحسن يكررها فلما فرغ صالح من قراءة الكتاب ونزل قال: أراه في سجنه مظلوماً أخرجوه وأنا أراجع أمير المؤمنين في أمره، فأطلق بعد أيام وأتاه الفرج من عند الله تعالى. وقال الربيع لما حبس المهدي موسى بن جعفر، رأى في المنام علياً رضي الله تعالى عنه وهو يقول: يا محمد «فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم» [محمد: ٢٢]، قال الربيع، فأرسل المهدي إلى ليلاً فراعني ذلك، فجئت، فلما هو يقرأ هذه الآية، وكان حسن الصوت، فقصص علياً الرؤيا ثم قال: اتنى بموسى بن جعفر، فجئت به فعانقه وأجلسه إلى جانبه، وقال يا أبا الحسن رأيت أمير المؤمنين يقرأ علياً كذا فعاهدني أن لا يخرج علياً ولا على أحد من ولدي، فقال: والله ماذا من شأني، فقال: صدقت، ثم قال: ياربيع أعطه ثلاثة آلاف دينار ورده إلى أهله بالمدينة، قال الربيع: فأحكمت أمره ليلاً، فما أصبح إلا على الطريق، وقال إسماعيل بن بشار:

وكلُّ حرٍّ وإن طالت بليتهُ يوماً تفرج غمّاه وتنكشفُ

وقال مسلم بن الوليد: كنت يوماً جالساً عند خياط بإزاء منزلي فمر بي إنسان أعرفه، فقممت إليه وسلمت عليه وجئت به إلى منزلي لأضيفه وليس معي درهم بل كان عندي زوج أخفاف، فأرسلتها مع جاريتي لبعض معارفني فباعهما بتسعة دراهم واشترت بها ما قلته لها من الخبز واللحم، فجلسنا نأكل وإذا بالبواب يطرق فنظرت من شق الباب وإذا بإنسان يسأل هذا منزل فلان؟ ففتحت الباب وخرجت، فقال أنت مسلم بن الوليد، قلت: نعم، واستشهدت له بالخياط على ذلك فأخرج لي كتاباً وقال هذا من الأمير يزيد بن مزيد، فإذا فيه: قد بعثنا لك بعشرة آلاف درهم لتكون في منزلك وثلاثة آلاف درهم تتجمل بها لقدمك علينا، فأدخلته إلى داري وزدت في الطعام واشترت فاكهة وجلسنا نأكل ثم وهبت لضيفي شيئاً يشتري به هدية لأهله وتوجهنا إلى باب يزيد بالرقعة فوجدناه في الحمام، فلما خرج استؤذن لي عليه فدخلت، فإذا هو جالس على كرسى ويده مشط يسرح به لحيته فسلمت عليه فرد أحسن رد وقال: ما الذي أقعدك عنا؟ قلت: قلة ذات اليد وأنشدته قصيدة مدحته بها، قال: أتدرى لم أحضرتك؟ قلت: لا أدري، قال: كنت عند الرشيد منذ ليالٍ أحادثه فقال لي: يا يزيد من القائل فيك هذه الأبيات:

سلّ الخليفة سيفاً من بني مضر يمضي فيخترق الأجسام والهواما
كالدهر لا ينثنى عمّاهم به قد أوسع الناس إنعاماً وإرغاماً

فقلت والله لا أدري يا أمير المؤمنين، فقال سبحان الله، أيقال فيك مثل هذا ولا تدري من قاله؟ فسألت فقيل لي هو مسلم بن الوليد، فأرسلت إليك فانهض بنا إلى الرشيد، فسرنا إليه واستؤذن لنا فدخلنا عليه فقبلت الأرض وسلمت فرد علياً السلام فأنشدته ما لي فيه من شعر، فأمر لي بمائتي ألف درهم وأمر لي يزيد بمائة وتسعين ألف درهم وقال: ما ينبغي لي أن أساوي أمير المؤمنين في العطاء فانظر إلى هذا التيسير الجسيم بعد العسر العظيم وما أحسن ما قيل:

الأمّن واخفّ أيامٌ مـداولةً بين الأنام وبعد الضيق تتسع

ولما وجه سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد إلى العراق ليطلق أهل السجون ويقسم الأموال، ضيق على يزيد بن أبي مسلم فلما ولي يزيد بن عبد الملك الخلافة ولي يزيد بن أبي مسلم أفريقية، وكان محمد بن يزيد والياً عليها فاستخفى محمد بن يزيد فطلبه يزيد بن أبي مسلم وشد في طلبه فأتى به إليه في شهر رمضان عند المغرب وكان في يد يزيد بن أبي مسلم عنقود عنب فقال لمحمد بن يزيد حين رآه: يا محمد بن يزيد، قال: نعم، قال: طالما سألت الله أن يمكنني منك، فقال: وأنا والله طالما سألت الله أن يجيرني منك، فقال: والله ما أجارك ولا أعادك، وإن سبقني ملك الموت إلى قبض روحك سبقته، والله لا أكل هذه الحبة العنب حتى أقتلك. ثم أمر به فكُتِف ووضع في النطع وقام السيف فأقيمت الصلاة، فوضع العنقود من يده وتقدم ليصلي، وكان أهل أفريقية قد أجمعوا على قتله فلما رفع رأسه

ضربه رجل بعمود على رأسه فقتله، وقيل لمحمد بن يزيد: اذهب حيث شئت فسبحان من قتل الأمير وفك الأسير.

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: رأيت رسول الله ﷺ في النوم وهو يقول اطلق القتاتل، فارتعت لذلك ودعوت بالشموع ونظرت في أرواق السجن وإذا ورقة إنسان ادعى عليه بالقتل وأقر به، فأمرت بإحضاره فلما رأيته وقد ارتاع فقلت له إن صدقتني أطلقتك، فحدثني أنه كان هو وجماعة من أصحابه يرتكبون كل عزيمة، وأن عجبوراً جاءت لهم بامرأة فلما صارت عندهم صاحت الله الله وغشى عليها، فلما أفاقت قالت: أنشدك الله في أمرى فإن هذه العجوزة غرتني وقالت إن في هذه الدار نساء صالحات وأنا شريفة جدى رسول الله ﷺ وأمى فاطمة وأبى الحسين بن على فاحفظوهم فى، فقممت دونها وناضلت عنها فاشتد على واحد من الجماعة، وقال: لا بد منها وقتلنى فقتلته، وخلصت الجارية من يده، فقالت: سترك الله كما سترتنى، وسمع الجيران الصيحة فدخلوا علينا فوجدوا الرجل مقتولاً والسكين بيدي فأمسكونى وأتوا بى إليك وهذا أمرى، فقال إسحاق: قد وهبتك لله ولرسوله فقال: وحق للذين وهبتنى لهما لا أعود إلى معصية أبداً. وأمر الحجاج بإحضار رجل من السجن فلما حضر أمر بضرب عنقه فقال: أيها الأمير أخرجنى إلى غد، قال: وأى فرج لك فى تأخير يوم واحد؟ ثم أمر برده إلى السجن فسمعه الحجاج فى السجن يقول:

عسى فرج يأتى به الله إنه له كل يوم فى خليقتيه أمر

فقال الحجاج: والله ما أخذه إلا من كتاب الله وهو قوله تعالى: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. وأمر بإطلاقه.

وقال بعض جلساء المعتمد، كنا بين يديه ليلة فخفق رأسه بالنعاس فقال: لا تبرحوا حتى أغفى سويعة، فغفا ساعة ثم أفاق جزعاً مرعوباً وقال: امضوا إلى السجن واتنوني بمنصور الجمال فجاءوا به فقال له: كم لك فى السجن؟ قال: سنة ونصف، قال: على ماذا؟ قال: أنا جمال من أهل الموصل وضاق على الكسب ببلدى فأخذت جملى وتوجهت إلى بلد غير بلدى لأعمل عليه فوجدت جماعة من الجند قد ظفروا بقوم غير مستقيمي الحال وهم مقدار عشرة أنفس وجدوهم يقطعون الطريف فدفع واحد منهم شيئاً للأعوان فأطلقوه وأمسكونى عوضه وأخذوا جملى فناشدتهم الله فأبوا وسجنت أنا والقوم، فأطلق بعضهم ومات بعضهم وبقيت أنا فدفع له المعتمد خمسمائة دينار وأجرى له ثلاثين ديناراً فى كل شهر وقال: اجعلوه على جمالنا، ثم قال: أتدرون ما سبب فعلى هذا؟ قلنا: لا. قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو يقول اطلق منصوراً الجمال من السجن وأحسن إليه، وأخذ الطاعون أهل بيت فسد بابه، ففضل فيه طفل يرضع لم يشعر به أحد ففتح الباب بعد شهر فوجدوا الطفل قد عطف الله عليه كلبة ترضعه مع جرو لها، فسبحان القادر على كل شيء لا إله غيره ولا معبود سواه. قال الشاعر:

إذا تضايق أمر فانتظر فرجاً فأضيق الأمر أدناه إلى الفرج

وقال آخر:

فلا تجزعن إن أظلم الدهر مرة فإن اعتكار الليل يؤذن بالفجر

وقال آخر:

لعمرك ما كل التعاطيل ضائر إذا كانت الأرزاق فى القرب والنوى
فإن ضقت فاصبر يفرج الله ما ترى
ولا كل شغل فيه للمرء منفعة
عليك سواء فاغتنم لذة الدعة
ألا رب ضيق فى عواقبه سعة

وقال الرياشي: ما اعترانى هم فأنشدت قول أبى العتاهية حيث قال:

هى الأيام والغـيـر
أيسأس أن ترى فرجاً
وأمر الله ينتظر
فأين الله والقدر

إلا سرى عنى وهبت ريحُ الفرج.

ويروى أن سلطان صقلية أرق ذات ليلة ومنع النوم، فأرسل إلى قائد البحر وقال له: انفذ الآن مركباً إلى أفريقية يأتونى بأخبارها، فعمد القائد إلى مقدم مركب وأرسله فلما أصبحوا إذا بالمركب فى موضعه كأنه لم يبرح، فقال الملك لقائد البحر: أليس قد فعلت ما أمرتك به؟ قال: نعم، قد امتثلت أمرك وأنفذت مركباً فرجع بعد ساعة وسبحدثك مقدم المركب، فأمر بإحضاره فجاء ومعه رجل فقال له الملك: ما منعك أن تذهب حيث أمرت؟ قال: ذهبت بالمركب فبينما أنا فى جوف الليل والرجال يجدفون إذا بصوت يقول: يا الله يا الله يا غياث المستغيثين، يكررها مراراً، فلما استقر صوته فى أسماعنا، نادينا: لبيك، لبيك، وهو ينادى يا الله، يا الله، يا غياث المستغيثين فجسدتنا بالمركب نحو الصوت فلقينا هذا الرجل غريقاً فى آخر رمق من الحياة فطلعنا به المركب وسألناه عن حاله فقال: كنا مقلعين من أفريقية فغرقت سفينتنا منذ أيام وأشرفت على الموت وما زلت أصبح حتى أتانى الغوث من ناحيتكم، فسبحان من أسهر سلطاناً وأرقه فى قصره لغريق فى البحر حتى استخرجه من تلك الظلمات الثلاث ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة الوحدة، فسبحانه لا إله غيره ولا معبود سواه.

وحكى سيدى أبوبكر الطرطوشى فى كتابه (سراج الملوك) قال: أخبرنى أبو الوليد الباجى عن أبى ذر قال: كنت أقرأ على الشيخ أبى حفص عمر بن أحمد بن شاهين ببغداد جزءاً من الحديث فى حانوت رجل عطار، فبينما أنا جالس معه فى الحانوت إذ جاء رجل من الطوافين ممن يبيع العطر فى طبق يحمله على يده، فدفع إليه عشرة دراهم وقال له: اعطنى بها أشياء سماها له من العطر فأعطاه إياها فأخذها فى طبقه وأراد أن يمضى فسقط الطبق من يده فانكب جميع ما فيه فبكى الطواف وجزع حتى رحمناه فقال أبو حفص لصاحب الحانوت: لعلك تعينه على بعض هذه الأشياء، فقال سمعاً وطاعة، فنزل وجمع له ما قدر على جمعه منها ودفع له ما عدم منها، وأقبل الشيخ على الطواف يصبره ويقول له: لا تجزع فأمر الدنيا أيسر من ذلك فقال الطواف: أيها الشيخ ليس جزعى لضياح ما ضاع لقد علم الله تعالى أنى كنت فى القافلة الفلانية فضاع لى هميان فيه أربعة آلاف دينار ومعها فصوص قيمتها كذلك فما جزعت لضياحها حيث كان لى غيرها من المال، ولكن ولد لى ولد فى هذه الليلة فاحتجنا لأمه ما تحتاج النساء ولم يكن عندى غير هذه العشرة دراهم فخشيت أن أشتري بها حاجة النساء فأبقى بلا رأس مال وأنا قد صرت شيخاً كبيراً لا أقدر على التكسب، فقلت فى نفسى: أشتري بها شيئاً من العطر فأطوف به صدر النهار فعسى استفضل شيئاً أسد به رمق أهلى ويبقى رأس المال أنكسب به، واشتريت هذا العطر فحين انكب الطبق علمت أنه لم يبق لى إلا الفرار منهم، فهذا الذى أوجب جزعى، قال أبو حفص وكان رجل ضد الجند جالساً إلى جانبى يستوعب الحديث فقال للشيخ أبى حفص: يا سيدى أريد أن تأتى بهذا الرجل إلى منزلى، فظننا أنه يريد أن يعطيه شيئاً، قال: فدخلنا إلى منزله فأقبل على الطواف وقال له: عجبت من جزعك، فأعاد عليه القصة فقال له الجندى: وكنت فى تلك القافلة؟ قال: نعم وكان فيها فلان وفلان فعلم الجندى صحة قوله فقال: وما علامة الهميان وأى موضع سقط منك؟ فوصف له المكان والعلامة، قال الجندى: إذا رأيته تعرفه، قال: نعم، فأخرج الجندى له همياناً ووضع بين يديه فحين رآه صاح وقال: هذا هميانى والله وعلامة صحة قولى أن فيه من الفصوص ما كيت وكيت، ففتح الهميان فوجده كما ذكر فقال الجندى: خذ مالك بارك الله لك فيه، فقال الطواف: إن هذه الفصوص قيمتها مثل الدنانير وأكثر فخذها وأنت فى حل منها ونفسى طيبة بذلك، فقال الجندى ما كنت لأخذ على أمانتى مالا، وأبى أن يأخذ شيئاً ثم دفعها للطواف جميعها فأخذها ومضى ودخل الطواف وهو من الفقراء وخرج وهو من الأغنياء، اللهم اغن فقرنا ويسر أمرنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

وحكى أن الملك ناصرالدولة من آل حمدان كان يشكو وجع القولنج حتى أعيا الأطباء دواؤه ولم يجدوا له شفاء، فدرسوا على قتله وأرصدوا له رجلاً ومعه خنجر فلما كان فى بعض دهاليز القصر وثب عليه ذلك الرجل وضربه بالخنجر فجاءت الضربة أسفل خاصرته فلم تخط المعى الذى فيه القولنج فخرج ما فيه من الخلط فعافاه الله تعالى وبرئ أحسن

ما كان، وبضد هذا ما حكاه أبو بكر الطرطوشي قال: حدثنا القاضي أبو مروان الداراني بطرطوشة قال: نزلت قافلة بقرية خربة من أعمال دانية فأووا إلى دار خربة هناك فاستكنوا فيها من الرياح والأمطار واستوقدوا نارهم وسوا معيشتهم، وكان في تلك الخربة حائط مائل قد أشرف على الوقوع، فقال رجل منهم: يا هؤلاء لاتقعدوا تحت هذا الحائط ولا يدخلن أحد في هذه البقعة فأبوا إلا دخولها فاعتزلهم ذلك الرجل وبات خارجاً عنهم، ولم يقرب ذلك المكان، فأصبحوا في عافية وحملوا على دوابهم، فبينما هم كذلك إذ دخل الرجل إلى الدار ليقضى حاجته فخر عليه الحائط فمات لوقته. وقال: وأخبرني أبو القاسم بن حبیش بالموصل قال: لقد جرت في هذه الدار وأشار إلى دار هناك، قضية عجيبة، قلت: وما هي؟ قال: كان يسكن هذه الدار رجل من التجار ممن يسافر إلى الكوفة في تجارة الخز، فاتفق أنه جعل جميع ما معه من الخز في خرج وحمله على حمارة وسار مع القافلة، فلما نزلت القافلة أراد إنزال الخرج عن الحمار فنقل عليه فأمر إنساناً هناك فأعانه على إنزاله، ثم جلس يأكل فاستدعى ذلك الرجل ليأكل معه فسأله عن أمره فأخبره أنه من أهل الكوفة وأنه خرج لحاجة عرضت له بغير نفقة ولا زاد، فقال له الرجل: كن رقيقاً آنس بك وتعينني على سفري ونفقتك ومؤنتك على، فقال له الرجل: وأنا أيضاً أختار صحبتك وأرغب في مرافقتك، فسار معه في سفره وخدمه أحسن خدمة إلى أن وصلا إلى تكريت، فنزل الرفقة خارج المدينة ودخل الناس إلى قضاء حوائجهم، فقال التاجر لذلك الرجل: احفظ حوائجنا حتى أدخل المدينة وأشتري ما نحتاج إليه، ثم دخل المدينة وقضى جميع حوائجه ورجع فلم يجد القافلة ولا صاحبه، ورحلت الرفقة ولم ير أحداً فظن أنه لما رحلت الرفقة رحل ذلك الخادم معهم فلم يزل يسير ويجد السيفي المشي إلى أن أدرك القافلة بعد جهد عظيم وتعب شديد، فسألهم عن صاحبه فقالوا: ما رأيناه ولا جاء معنا ولكنه ارتحل على أثرك فظننا أنك أمرته. فكر الرجل راجعاً إلى تكريت وسأل عن الرجل فلم يجد له أثراً ولا سمع له خبراً، فبش منه ورجع إلى الموصل مسلوب المال فوصلها نهراً فقيراً جائعاً عرياناً مجهوداً فاستحى أن يدخلها نهراً فتشمت به الأعداء - نعوذ بالله من شماتتهم - وخشى أن يحزن الصديق إذا رآه على تلك الحالة، فاستخفى إلى الليل ثم عاد إلى داره فطرق الباب فقبل له من هذا قال فلان يعني نفسه، فأظهر واه سروراً عظيماً وحاجة إليه وقالوا: الحمد لله الذي جاء بك في هذا الوقت على ما نحن فيه من الضرورة، والحاجة، فإنك أخذت مالك معك وما تركت لنا نفقة كافية، وأطلت سفرك واحتجنا وقد وضعت زوجتك اليوم والله ما وجدنا ما نشترى به شيئاً للنفساء، فاتنا بدقيق ودهن نسرج به علينا فلا سراج عندنا، فلما سمع ذلك ازداد غماً على غمه وكره أن يخبرهم بحاله فيحزنهم بذلك فأخذ وعاء للدهن ووعاء للدقيق وخرج إلى حانوت أمام داره وكان فيه رجل يبيع الدقيق والزيت والعسل ونحو ذلك، وكان البائع أطفأ سراجيه وأغلق حانوته ونام، فناداه فعرفه فأجابه، وشكر الله على سلامته، فقال له افتح حانوتك وأعطنا ما نحتاج إليه من دقيق وعسل ودهن، فنزل البائع إلى حانوته وأوقد المصباح ووقف يزن له ما طلب، فبينما هو كذلك إذ حانت من التاجر التفاتة إلى قعر الحانوت فرأى خرج الذي هرب به صاحبه فلم يملك نفسه أن وثب إليه والتزمه، وقال: يا عدو الله اتنى بمالي، فقال له البائع: ما هذا يا فلان؟ والله ما علمت متعدياً وأنا أبداً ما جنيت عليك ولا غيرك فما هذا الكلام، قال: هذا خرجي هرب به خادم كان يخدمني وأخذ حماري وجميع مالي، فقال البائع: والله ما لي علم غير أن رجلاً ورد على بعد العشاء واشترى مني عشاء وأعطاني هذا الخرج فجعلته في حانوتي وديعة إلى حين يصبح، والحمار في دار جارنا والرجل في المسجد نائم، قال له: احمل معي الخرج وامض بنا إلى الرجل فرفع الخرج على عاتقه ومضى معه إلى المسجد فإذا الرجل نائم في المسجد فوكزه برجله فقام الرجل مرعوباً، فقال مالك؟ قال: أين مالي يا خائن؟ قال: ها هو في خرجك فوالله ما أخذت منه ذرة، قال فأين الحمار وألته؟ قال: هو عند هذا الرجل الذي معك، فعفا عنه وخلي سبيله ومضى بخبرجه إلى داره فوجد متاعه سالماً فوسع على أهله وأخبرهم بقرنته فازداد سرورهم وفرحهم وتبركوا بذلك المولود. فسبحان من لا يخيب من قصده ولا ينسى من ذكره.

(ولنلق بهذا الباب ذكر شيء مما جاء في التهنتة والبشائر)

كتب بعضهم إلى أخيه وقد أتاه خبراً استبشر به: سمعت عنك خبراً ساراً كتب في الألواح وامتزج بالأرواح، وعد في جملة البشائر العظام، وجرى في العروق وتمشى في العظام. وكان خالد بن عبد الله القسري أخا هشام بن عبد الملك من الرضاع وكان يقول له: إني لأرى فيك آثار الخلافة ولا تموت حتى تليها، فقال له: إن أنا وليتها فلك العراق فلما ولي أتاه فقام بين الصفين، وقال يا أمير المؤمنين أعزك الله بعزته وأيدك بملائكته وبارك لك فيما ولاك ورعاك فيما استرعاك وجعل ولايتك على أهل الإسلام نعمة وعلى أهل الشرك نقمة، لقد كانت الولاية إليك أشوق منك إليها، وأنت لها أزين منها لك، وما مثلها ومثلك إلا كما قال الأوصى هذه الأبيات:

وإن الدر زاد حسن وجوهه كان للدر حسن وجهك زينا
وتزیدن أطيب الطيب طيباً إن تمسسه أين مثلك أيننا

ودخل على المهدي أعرابي فقال له: فيم جئت؟ قال: أتيتك برسالة، قال: هاتها. قال: أتاني آت في منامي فقال: انت أمير المومنين فأبلغه هذه الأبيات:

لكم أرث الخلافة من قريش تُزفُ إليكمو أبدأ عروسا
إلى هرون تُهدى بعد موسى تميس ومالها أن لا تميسا

فقال المهدي يا غلام: عليّ بالجواهر، فحشاه حتى كاد ينشق، ثم قال: اكتبوا هذه الأبيات واجعلوها في بخانق صبياننا.

وقال إبراهيم الموصلي في تهنئة الرشيد بالخلافة:

ألم تر أن الشمس كانت مريضة فلمسا أتى هارون أشرق نورها
تلبست الدنيا جمالاً بملكه فهارون واليسها ويحيى وزيرها

وغناه بهما من وراء الحجاب، فوصله بمائة ألف دينار ويحيى بخمسين ألفاً. ودخل عطاء بن أبي صيفي على يزيد بن معاوية وهو أول من جمع بين التهنئة والتعزية، فقال: رزئت خليفة الله وأعطيت خلافة الله قضى معاوية نجه فغفر الله ذنبه، ووليت الرئاسة وكنت أحق بالسياسة، فاحتسب عند الله أعظم الرزية واشكر الله على أعظم العطية. ومر عمر بن هبيرة بعد إطلاقه من السجن بالرقعة، فإذا امرأة من بني سليم على سطح لها تحادث جارة لها ليلاً وهي تقول: لا والذي أسأله أن يخلص عمر بن هبيرة مما هو فيه ما كان كذا، فرمى إليها بصرة فيها مائة دينار وقال: قد خلاص الله عمر بن هبيرة، فطوى نفساً وقرى عيناً. والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى ذكر العبيد والإماء والخدم وفيه فصلان

الفصل الأول: فى مدح العبيد والإماء والاستيلاء بهم خيراً

عن على رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من يدخل الجنة شهيدٌ وعبدٌ أحسن عبادة ربه، ونصح لسيده». وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما (رفعه) «إن العبد إذا نصح لسيده وأحسن عبادة ربه فله أجره مرتين». وكان زيد بن حارثة خادماً لخديجة رضى الله تعالى عنها، اشترى لها بسوق عكاظ، فوهبته لرسول الله ﷺ، فجاءه أبوه يريد شراءه منه، فقال رسول الله ﷺ: إن رضى بذلك فعلت، فستل زيد فقال: ذلك الرق مع صحبة رسول الله ﷺ أحب إلى من عز الحرية مع مفارقتة. فقال رسول الله ﷺ: إذا اختارنا اخترناه، فأعتقه وزوجه أم أيمن، وبعدها زينب بنت جحش. وعن على رضى الله تعالى عنه قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «أوصيكم بالصلاة واتقوا الله فيما ملكت أيما نكم». وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه: لا يقولن أحدكم: عبدى وأمتى كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقُل غلامى وجارىتى وفتاتى. وعن ابن مسعود الأنصارى قال: ضربت غلاماً لى فسمعت من خلفى صوتاً: «اعلم يا أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك عليه». فالتفت فإذا هو النبى ﷺ، فقلت: يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى، فقال: أما إنك لو لم تفعل للفتحك النار.

وروى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كم تعفو عن الخادم؟ ثم أعاد عليه فصمت، فلما كانت الثالثة قال له: أعفو عنه كل يوم سبعين مرة. وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: حدثنى أبو القاسم نبي التوبة ﷺ: «من قذف مملوكه وهو برئ مما قال جلد له يوم القيامة حداً». وقيل: أراد رجل بيع جاريته فبكت، فقال لها: مالك؟ فقالت: لو ملكت منك ما ملكت منى ما أخرجتك من يدى، فأعتقها وتزوجها. وقال أبو اليقظان: إن قريشاً لم تكن ترغب فى أمهات الأولاد حتى ولدن ثلاثة هم خير أهل زمانهم، على ابن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وذلك أن عمر رضى الله تعالى عنه أتى ببنات يزدجرد بن شهريار بن كسرى مسيبات، فأراد بيعهن فأعطاهن للدلال ينادى عليهن بالسوق، فكشف عن وجه إحداهن فلطمته لطمه شديدة على وجهه فصاح: واعمره، وشكا إليه، فدعاهن عمر وأراد أن يضربهن بالدرة، فقال على رضى الله تعالى عنه: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال: «أكرموا عزيز قول ذل، وغنى قوم افتقر». إن بنات الملوك لا يبعن، ولكن قوموهن، فقومهن وأعطاهن أثمانهن، وقسمهن بين الحسين بن على ومحمد بن أبى بكر وعبد الله بن عمر، فولدن هؤلاء الثلاثة، وقيل: استبق بنو عبد الملك فسبقوا مسلمة وكان ابن أمة، فتمثل عبد الملك بقول عمرو العبدى:

نهيتكمو أن تحملوا فوق خيلكم	هجيناً لكم يوم الرهان فيدرك
فتعثر كفاه ويسقط سوطه	ويخدر ساقاه فما يتحرك
وهل يستوى المرآن هذا ابن حرة	وهذا ابن أخرى ظهرها متشرك

فقال له مسلمة: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ليس هذا مثلى، ولكن كما قال ابن المعمر هذه الأبيات:

فما أنكحونا طائعين بناتهم	ولكن خطبناهم بأرماحنا قسرا
فما رادنا فيها السباء مذلة	ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قدرا
وكم قد ترى فينا من ابن سبيبة	إذا لقي الأبطال يطعنهم شـزرا
ويأخذ ريان الطعان بكفـه	فيوردها بيضاً ويصدرها حمرا

فقبل رأسه وعينه وقال: أحسنت يا بنى ذاك والله أنت، وأمر له بمائة ألف درهم مثل ما أخذ السابق والله أعلم.

الفصل الثامن: في ذم العبيد والخدم

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بش المال في آخر الزمان المماليك». وقال مجاهد: إذا كثرت الخدم كثرت الشياطين. وقال لقمان لابنه: لا تأمن امرأة على سر ولا تطلأ خادماً تريد لها للخدمة. ووصف بعضهم عبداً فقال: يأكل فارهاً ويعمل كارهاً ويبغض قوماً ويحب نوماً. وقيل لبعضهم: ألك غلام؟ فقال:

ومالي غلامٌ فادعوه به سوى من أبوه أخو عممتي
وقال أكثم :

الحرُّ حرٌّ وإن مسَّه الضرُّ والعبدُ عبدٌ وإن ألْبَسَّه الدرُّ

ودعا بعض أهل الكوفة إخوانه وله جارية فقصرت فيما ينبغي لهم من الخدمة فقال:

إذا لم يكن في منزل المرء حـرٌّ رأى خللاً فيمما تولي الولائد
فلا يتخذ منهنَّ حرَّ قعيدة فهنَّ لعمر الله بشس القعائد

وكان لرجل غلام من أكسل الناس، فأرسله يوماً يشتري له عبداً وتيناً، فأبطأ عليه حتى عيل صبره، ثم جاء بأحدهما فضربه وقال: ينبغي لك إذا استقضيتك حاجة أن تقضى حاجتين، فمرض الرجل، فأمر الغلام أن يأتيه بطبيب، فغاب ثم جاء بالطبيب ومعه رجل آخر، فسأله عنه فقال: أما ضربتني وأمرتني أن أقضى حاجتين في حاجة، فجئتك بالطبيب، فإن شفاك الله تعالى، وإلا حفر لك هذا قبرك، فهذا طبيب وهذا حقار. وقيل: كان عمرو الأعجمي يلي حكم السند، فكتب إلى موسى الهادي أن رجلاً من أشرف أهل الهند من آل المهلب بن أبي صفرة اشترى غلاماً أسود فرباه وتبناه، فلما كبر وشب اشتد به هوى مولاته فراودها عن نفسها، فأجابته، فدخل مولاه يوماً على غفلة منه من حيث لا يعلم، فإذا هو على صدر مولاته، فعمد إليه فجب ذكره وتركه يتشحط في دمه، ثم أدركته عليه رقة، وندم على ذلك فعالجه إلى أن برئ من علته، فأقام الغلام بعدها مدة يطلب أن يأخذ ثأره من مولاه ويدبر عليه أمراً يكون فيه شفاء غليله، وكان لمولاه ابنان أحدهما طفل والآخر يافع كأنهما الشمس والقمر، فغاب الرجل يوماً عن منزله لبعض الأمور فأخذ الأسود الصبيين فصعد بهما على ذروة سطح عال، فنصبهما هناك وجعل يعللهما بالمطعم مرة وباللعب أخرى إلى أن دخل مولاه، فرفع رأسه فرأى ابنه في شاق مع الغلام فقال: ويلك عرضت ابني للموت، قال: أجل والله الذي لا يحلف العبد بأعظم منه لئن لم تجب ذكرك مثل ما جيبتنني لأرمين بهما، فقال: الله الله يا ولدي في تربيتي لك، قال: دع هذا عنك، فوالله ما هي إلا نفسي وإنني لأسمح بها في شربة ماء، فجعل يكرر عليه ويتضرع له، وهو لا يقبل ذلك ويذهب الوالد يريد الصعود إليه، فيدليهما من ذلك الشاق، فقال أبوهما: ويلك، فاصبر حتى أخرج مدية وأفعل ما أمرت، ثم أسرع وأخذ مدية فجب نفسه وهو يراه، فلما رأى الأسود ذلك رمى الصبيين من ذلك الشاق فتقطعا، وقال: إن جيبك لنفسك ثأري، وقتل أولادك زيادة فيه، فأخذ الأسود وكتب بخبره لموسى الهادي، فكتب موسى لصاحب السند عمرو الأعجمي بقتل الغلام، وقال: ما سمعت بمثل هذا قط، وأمر أن يخرج من مملكته كل أسود، فما ترى أردأ من العبيد ولا أقل خيراً منهم. وأكثرهم رداة المولدون لو أحسنت إلى أحدهم الدهر كله بكل ما تصل يدك إليه أنكروه، كأن لم ير منك شيئاً، وكلما أحسنت إليه تمرد، وإن أسأت إليه خضع وذل وقد جربت أنا ذلك كثيراً. وما أحسن ما قيل:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وقيل: إن العبد إذا شيع فسق، وإن جاع سرق. وكان جدى لأمي يقول: شر المال تربية العبيد، والمولدون منهم الأم من الزوج وأردأ، لأن المولد لا يعرف له أباً وربما يعرف الزنجى أبويه. ويقال في المولد: بغل لأنه مجنس والبغل تكون أمه فرساً وأبوه حماراً، وبالعكس فلا تثق بمولد لأنه قل أن يكون فيه خير وإن كان فذاك نادر والنادر لا حكم له، وأنا استغفر الله العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى أخبار العرب الجاهلية وأوابدهم وذكر غرائب

من عوائدهم وعجائب من أكاذيبهم

للعرب أو ابد وعوائد كانوا يرونها فضلا، وقد دل على بعضها القرآن العظيم وأكذب الله دعاويهم فيها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَآكَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٣]. قال أهل اللغة: البحيرة ناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن وكان الأخير ذكراً بحراً أذنها أى شقوا أذننها وامتنعوا من ذكاتها ولا تمنع من ماء ولا مرعى. وكان الرجل إذا اعتق عبداً وقال: هو سائبة فلا عقد بينهما ولا ميراث. وأما الوصيلة ففي الغنم، كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهى لهم، وإن ولدت ذكراً جعلوه لآلهتهم، فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلا يذبح الذكر لآلهتهم. وأما الحام، فالذكر من الإبل، كانت العرب إذا نتج من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: حمى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى.

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠]، فالخمر: ما خامر العقل، ومنه سميت الخمر خمراً، والميسر: القمار، والأنصاب: حجارة كانت لهم يعبدونها وهى الأوثان واحدها نصب، والأزلام: سهام كانت لهم مكتوب على بعضها أمرنى ربى وعلى بعضها نهانى ربى، فإذا أراد الرجل سفراً أو أمراً يهتم به ضرب بتلك القداح فإذا خرج الأمر مضى لحاجته وإذا خرج النهى لم يمس. ومن أوابدهم: وأد البنات أى دفنهن أحياء. كانوا فى الجاهلية إذا رزق أحدهم أنثى وأدها وإذا بشر بها ضاق صدره وكظم غيظه، واسود وجهه وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الإسراء: ٣١]. وقد قيل: إنهم كانوا يقتلونهن خوف العار. وبمكة جبل يقال له: أبو دلالة كانت قريش تدد فيه البنات. وقيل: إن صعصة جد الفرزدق كان يشتري البنات ويفديهن من القتل كل بنت بناتين عشراوين وجمل. وفاخر الفرزدق رجلاً عند بعض خلفاء بنى أمية فقال: أنا ابن محبى الموتى، فأنكر الرجل ذلك، فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢].

وأما الرفادة فى الحج: فكانت خرجاً تخرجه قريش فى كل موسم من أموالهم إلى قصى، فيصنع به طعاماً للحاج، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد، وذلك أن قصياً فرضه على قريش، فقال لهم حين أمرهم به: يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم، وإن الحجاج ضيوف الله، وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم، ففعلوا وكانوا يخرجون ذلك كل عام من أموالهم، فيدفعونه إليهم. وقيل: أول من أقام الرفادة عبد المطلب وهو الذى حفر بئر زمزم وكانت مطمومة، واستخرج منها الغزالين الذهب اللذين عليهما الدر والجوهر وغير ذلك من الحلى وسبعة أسياف وخمسة دروع سوابغ، فضرب من الأسياف باب الكعبة وجعل أحد الغزالين الذهب صفائح الذهب وجعل الآخر فى الكعبة.

واعلم وفقنى الله وإياك أنه لم يسمع بعجب أعظم من عجب سعيد بن زرارة وعبد الله بن زياد التميمى وابن سماك الأسدى الذين ضرب بهم المثل. فأما سعيد بن زرارة فقيل: إنه مرت به امرأة فقالت له: يا عبد الله كيف الطريق إلى مكان كذا، فقال لها: يا هتاه مثلى يكون من عبيد الله؟! وأما عبد الله بن زياد التميمى، فقيل: إنه خطب الناس بالبصرة فأحسن وأوجز، فنودى من نواحى المسجد كثر الله فينا مثلك، فقال: لقد كلفتم الله شططا. وأما ابن سماك، فإنه أضل راحلته فالتمسها فلم توجد فقال: والله لئن لم يرد راحلتى على لا صليت له أبداً. فوجدت وقد تعلق زمامها ببعض أغصان الشجر، فقيل له: قد رد الله عليك راحلتك فصل، فقال: إنما كانت يمينى يميناً قصداً. فانظر رحمك الله إلى هذا العجب كيف ذهب بهم حتى أفضى بهم إلى الكفر وصاروا حديثاً مستبشعاً ومثلاً بين العالمين مستشنعاً،

نعوذ بالله من الخذلان المؤدى إلى النيران ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

حكى عن الحجاج بن يوسف الثقفى أنه قيل له: كيف وجدت منزلك بالعراق؟ قال: خير منزل إن الله أظفرنى بأناس بلغنى الأمل فيهم، وأعانى على الانتقام منهم، فكنت أتقرب إليه بدمائهم، فقيل له: من هم؟ فذكر هؤلاء الثلاثة وذكر حديثهم ولا محالة أنها من محاسن الحجاج، وإن قلت فى جنب سيئاته. والله تعالى أعلم.

ذكر أديان العرب فى الجاهلية: كانت النصرانية فى ربيعة وغسان وبعض قضاة، وكانت اليهودية فى نجر، وبنى كنانة، وبنى الحرث بن كعب، وكندة، وكانت المجوسية فى بنى تميم، منهم زرار بن عدى، وابنه على، وكان تزوج ابنته ثم ندم، ومنهم الأقرع بن حابس كان مجوسياً، وكانت الزندقة فى قريش أخذوها من الجزيرة وكانت بنو حنيفة اتخذوا فى الجاهلية صنماً من حيس فعبدوه دهرًا طويلاً، ثم أدركتهم مجاعة فاكلوه. وقد قيل: إن أول من غير الحنيفية عمرو بن لحي أبو خزاعة، وهو أنه رحل إلى الشام فرأى العماليق يعبدون الأصنام، فأعجبه ذلك، فقال: ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدونها؟ قالوا: هذه أصنام نستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا. فقال: أعطونى منها صنماً أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه فأعطوه صنماً يقال له: هبل، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه. وقيل: إن أول ما كانت عبادة الأحجار فى بنى إسماعيل، وسبب ذلك أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حتى ضاقت عليهم وتفرقوا فى البلاد، وما من أحد إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، وأفضى ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحسوه من الحجارة، ثم خلفت الخلف ونسوا ما كانوا عليه من دين إسماعيل، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلال. وكانت قريش قد اتخذت صنماً على بئر فى جوف الكعبة يقال له: هبل، وأيضاً اتخذوا إسافاً ونائلة على موضع زمزم فينحرون عندها ويطعمون. وكان إساف ونائلة رجلاً وامراً، فوقع إساف على نائلة فى الكعبة فمسخهما الله حجرين واتخذ أهل كل دار فى دارهم صنماً يعبدونه فإذا أراد الرجل سفرًا تمسح به حين يركب، وكان ذلك آخر ما يصنع إذا توجه إلى سفره. وإذا قدم من سفره بدأ به قبل أن يدخل إلى أهله. واتخذت العرب الأصنام وانهمكوا على عبادتها وكانت لقريش وبنى كنانة العزى، وكان حجابها بنى شيبه. وكانت اللات لشقيف بالطائف، وكان حجابها بنى مغيث من ثقيف. وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم. وأما يغوث ويعوق ونسر، فقيل: إنهم كانوا أسماء أولاد آدم عليه الصلاة والسلام وكانوا أتقياء عباداً فمات أحدهم فحزنوا عليه حزناً شديداً، فجاءهم الشيطان وحسن لهم أن يصوروا صورته فى قبلة مسجدهم ليذكروه إذا أنظروه، ففكروا ذلك، فقال: اجعلوه فى مؤخر المسجد، ففعلوا وصوره من صفر ورصاص. ثم مات آخر، ففعلوا ذلك إلى أن ماتوا كلهم، فصورهم هناك، وأقام من بعدهم على ذلك إلى أن تركوا الدين وحسن لهم الشيطان عبادة شيء غير الله، فقالوا له: من نعبد؟ قال: آلهتكم المصورة فى مصلاكم فعبدوها إلى أن بعث الله نوحاً عليه الصلاة والسلام، فنهاهم عن عبادتها، فقالوا: كما أخبر الله عنهم: ﴿لَا تَدْرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ [نوح: ٢٣]. ولما عم الطوفان الأرض طمها وعلا عليها التراب زماناً طويلاً، فأخرجهما الشيطان لمشركى العرب فعبدوها.

وذكر الواحدى فى «الوسيط» أن هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح عليهما الصلاة والسلام، فسول الشيطان لقومهم بعد موتهم أن يصوروا صورهم ليكون أنشط لهم وأشوق للعبادة كما رأوهم ففعلوا، ثم نشأ بعدهم قوم جهال بالأحوال فحسن لهم عبادتها. وأن من سبقهم من قومهم عبدوها فسموها بأسمائهم. وقال الواقدى: كان ود على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر، والله تعالى أعلم أى ذلك كان.

ذكر أوابدهم: الرتم: شجر معروف كانت العرب إذا خرج أحدهم إلى سفر عمد إلى شجرة منه فيعقد غصناً منها، فإذا عاد من سفره ووجده قد انحل قال: قد خائنتنى امرأتى، وإن وجده على حالته قال: لم تخنى. الرثيمة: ناقة كانت العرب إذا مات واحد منهم عقلوا ناقته عند قبره وسدوا عينيها حتى تموت. يزعمون أنه إذا بعث من قبره ركبها. التعمية والتفقتة: كان الرجل إذا بلغت إبله ألفاً قلع عين الفحل. يقولون إن ذلك يدفع عنها العين، فإذا ازدادت على الألف فقاً

عينه الأخرى. العرب: داء يصيب الإبل شبه الجرب، كانوا يسمون السليمة يزعمون أن ذلك يبرئ داء العرب. ضرب الثور عن البقر، كانت البقر إذا امتنعت عن الشرب ضربوا الثور، يزعمون أن الجن يركبون الثيران فيصدون البقر عن الشرب. الهامة: كانوا يزعمون أن الإنسان إذا قتل ولم يؤخذ بثأره يخرج من رأسه طائر يسمى الهامة وهو كالبومة، فلا يزال يصيح على قبره اسقوني إلى أن يؤخذ بثأره.

وكان للعرب مذاهب في الجاهلية في النفس وتنازع في كفياتها، فمنهم من زعم أن النفس هي الدم وأن الروح الهواء الذي في باطن جسم الإنسان الذي منه نفسه. وقالوا: إن الميت لا يوجد فيه الدم وإنما يوجد في الحياة مع الحرارة والرطوبة، لأن كل حي في حرارة ورطوبة، فإذا مات ذهب حرارته وحل به اليبس والبرودة. وطائفة منهم يزعمون أن النفس طائر ينشط من جسم الإنسان إذا مات أو قتل، ولا يزال متصوراً في صورة الطائر يصرخ على قبره مستوحشاً له وفي ذلك يقول بعضهم:

سُلِّطَ الموتُ والمنونُ عليهم فلهم في صدى المقابر هامُ

ثم جاء الإسلام، والعرب ترى صحة أمر الهام، حتى قال النبي ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة ولا صفر ولا هام». وزعموا أن هذا الطائر يكون صغيراً ويكبر حتى يصير كضرب من البوم ويتوحش ويصرخ، ويوجد في الديار المعطلة والنواويس ومصارع القتلى، يزعمون أن الهامة لا تزال عند ولد الميت لتعلم ما يكون من خبره فتخبر الميت. والصفر: زعموا أن الإنسان إذا جاع عض على شرسوفه الصفر وهي حية تكون في البطن. تثنية الضربة: زعموا أن الحية تموت في أول ضربة، فإذا تثبت عاشت.

الغيلان والتغول للعرب: في الغيلان والتغول أخبار وأقاويل، يزعمون أن الغول يتغول لهم في الخلوات في أنواع الصور فيخاطبونها وتخاطبهم، وزعمت طائفة من الناس أن الغول حيوان مشثوم وأنه خرج منفرداً لم يستأنس وتوحش، وطلب القفار، وهو يشبه الإنسان والبهيمة ويتراءى لبعض السفار في أوقات الخلوات وفي الليل.

وحكى أن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه رآه في سفره إلى الشام فضربه بالسيف. وقال الجاحظ: الغول كل شيء يتعرض للسيارة ويتلون في ضروب من الصور والشباب وفيه خلاف، وقالوا: إنه ذكر وأنثى إلا أن أكثر كلامهم أنه أنثى. وأما القطرب في قولهم، فهو نوع من الأشخاص المتشيطنة يعرف بهذا الاسم فيظهر في أكناف اليمن وصعيد مصر في أعاليه، وربما أنه يلحق الإنسان فينكحه، فيدود دبره فيموت. وربما نزا على الإنسان وأمسكه فيقول أهل تلك النواحي التي ذكرناها أمتكوح هو أو مذعور؟ فإن كان فد نكحه أيسوا منه، وإن كان قد ذعر سكن روعه وشجع قلبه، وإذا رآه الإنسان وقع مغشياً عليه، ومنهم من يظهر له فلا يكثر به لشهامته وثبات قلبه.

ذكر الهواتف: أما الهواتف: فقد كانت كثر في العرب وكان أكثرها أيام ولد سيدنا رسول الله ﷺ وإن من حكم الهواتف أن تهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئي.

ومن عجيب ما حكى من أمر الهواتف: ما حكاه أبو عمرو بن العلاء قال: خرجنا حجاجاً، فصاحبنا رجل وجعل يقول في طريقه:

* ليت شعري هل بغت على *

فلما انصرفنا من مكة قالها في بعض الطريق، فأجابه صوت في الظلام:

نعم نعم وناكها حجية وهو رجل أحمر ضخم في قفاه كيه

فسكت الرجل، فلما سرنا إلى البصرة أخبرنا ذلك الرجل قال: دخل جيراني يسلمون على فإذا فيهم رجل أحمر ضخم في قفاه كيه، فقلت لأهلي من هذا؟ قالت: رجل كان ألطف جيراننا بنا، فجزاه الله خيراً، فسألته عن اسمه،

فقلت: حجية، فقلت: الحقى بأهلك.

وأما بكاء المقتول، فكانت النساء لا يكيين المقتول حتى يؤخذ بثأره فإذا أخذ بثأره بكينه.

وأما رمى السن، فكانوا يزعمون أن الغلام إذا ثغر، فرمى سنه فى عين الشمس بسببته وإيهامه، وقال: أبدلنى بأحسن منها، فإنه يأمن على أسنانه العوج والفلج.

وأما خضاب النحر، فكانوا إذا أرسلوا الخيل على الصيد، فسبق واحد منها خضبوا صدره بدم الصيد علامة.

وأما نصب الراية: فكانت العرب تنصب الرايات على أبواب بيوتها لتعرف بها.

وأما جز النواصى: فكانوا إذا أسروا رجلا ومثوا عليه، وأطلقوه جزوا ناصيته.

وأما الالتفات: فكانوا يزعمون أن من خرج فى سفر والتفت وراءه لم يتم سفره، فإن التفت تطيروا له وكانوا يقولون: من علق عليه كعب الأرنب لم تصبه عين ولا سحر، وذلك أن الجن تهرب من الأرنب لأنها تحيض وليست من مطايا الجن. ويزعمون أن المرأة إذا أحببت رجلا وأحبها ثم لم يشق عليها ردائه وتشق عليه برقعها فسد جبهما. ويزعمون أن الرجل إذا قدم قرية، فخاف وباءها، فوقف على بابها قبل أن يدخلها ونهق كما تنهق الحمير لم يصبه وباءها. ويزعمون أن الحرقوص وهو دويبة أكبر من البرغوث تدخل فى فروج الأبقار فتفتضهن. ويزعمون أن الرجل إذا ضل، فقلب ثيابه اهتدى. وكانوا يزعمون أن الناقة إذا نفرت وذكر اسم أمها فإنها تسكن. وكانت لهم خرزة يزعمون أن العاشق إذا حكها وشرب ما يخرج منها صبر وتسمى السلوان. ونكاح المقت من سنتهم وهو أن الرجل إذا مات قام ولده الأكبر فالقى ثوبه على امرأة أبيه فورث نكاحها، فإن لم يكن له بها حاجة زوجها لبعض أخوته بمهر جديد، فكانوا يرثون النكاح كما يرثون المال. ولهم حكايات عجيبة وأحوال غريبة، والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والطيرة

والفراسة والنوم والرؤية وما أشبه ذلك

أما الكهانة: فكانت فاشية فى الجاهلية حتى جاء الإسلام، فلم يسمع فيه بكاهن، وكان ذلك من معجزات النبوة وآياتها.

وللكهنة أخبار فمنهم: سطيح ورد عليه عبد المسيح وهو يعالج الموت وأخبره على ما يزعمون بما جاء لأجله، وذلك أن الموبدان رأى إبلا صعباً تقود خيلاً عرباً قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها، فلما أصبح أعلم كسرى بذلك، فتصبر كسرى تشجعاً، ثم رأى أن لا يكتفى بذلك عن وزرائه ورؤساء مملكته، فلبس تاجه وقعد على سريره وجمع وزراءه ورؤساء مملكته فأخبرهم بالخبر، فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النيران وارتجاس الإيوان فازدادوا غمّاً على غمهم، فكتب كسرى كتاباً إلى النعمان بن المنذر: أما بعد: فوجه إلى رجلاً عالماً بما أريد أن أسأله عنه. فوجه إليه عبد المسيح الغسانى، فقال له كسرى: أعندك علم بما أريد أن أسألك عنه؟ قال: ليخبرنى الملك فإن كان عندى علم منه وإلا أخبرته بمن يعلمه به، فأخبره بما رآه الموبدان فقال: علم ذلك عند كاهن يسكن مشارف الشام يقال له: سطيح. قال: فاته فأسأله عما سألتك واثنى بالجواب، فركب عبد المسيح وتوجه إلى سطيح فوجده قد أشرف على الضريح، فسلم عليه وحياه ولم يخبر عبد المسيح بما جاء بسببه غير أنه أنشده شعراً يذكر فيه أنه جاء برسالة من قبل ملك العجم ولم يذكر له السبب فرفع رأسه وقال: عبد المسيح على جمل يسبح إلى سطيح، بعثك ملك بنى ساسان لارتجاس الإيوان وخمود النيران ورؤيا الموبدان، رأى إبلاً صعباً تقود خيلاً عرباً قد قطعت الدجلة وانتشرت فى بلادها، يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة، وفاض وادى سماوة وغاضت بحيرة ساوة وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شاماً ولا العجم لعبد المسيح مقاماً، يرتفع أمر العرب وأظن أن وقت ولادة محمد قد اقترب، يملك منهم ملوكاً وملكات بعدد الشرفات وكل ما هو آت. ثم قضى سطيح مكانه، فثار عبد المسيح إلى راحلته وعاد فأخبر كسرى بذلك.

وحكى أن ربيعة بن مضر اللخمي رأى مناماً هاله فأراد تفسيره فقال له أهل مملكته: ما يفسره لك إلا شق وسطيح، فأحضرهما وقال لسطيح: إني رأيت مناماً هالني فإن عرفته فقد أصبت تفسيره، فقال رأيت جمجمة خرجت من ظلمة فوقعت بأرض نهمة فأكل منها كل ذات جمجمة، فقال له الملك: ما أخطأت شيئاً ما تفسيره، قال: ليهبطن بأرضك الحبش وتملك ما بين أبين إلى جرش، فقال الملك: إن هذا الغائظ موجه فمتى هو كائن أفى زمانى أم بعده؟ قال: بل بعده بحين أكثر من ستين أو سبعين تمضى من السنين ثم يقتتلون بها أجمعين ويخرجون منها هارين. قال: ومن ذا الذى يملك بعدهم؟ قالك أراه ذا يزن يخرج عليهم من عدن فما يترك منهم أحداً باليمن. قال الملك: فيدوم ذلك أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع. قال: ومن يقطعه؟ قال نبي زكى يأتيه الوحي من العلى، قال: ومن يكون هذا النبي؟ قال: من ولد عدنان بن فهر بن مالك بن النضر يكون فى قومه الملك إلى آخر الدهر. قال: وهل للدهر من آخر؟ قال: نعم، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ويسعد فيه المحسنون ويشقى المسيئون. قال: أو حق ما تخبر قال: والشفق والقمر إذا اتسق أن ما أنباتك به لحق. ثم دعا بشق فقال مثل ما قاله سطيح. ومن ذلك ما حكى أن أمية بن عبد شمس دعا هاشم بن عبد مناف إلى المفخرة، فقال له هاشم: أفاخرك على خمسين ناقة سود الحديق تنحر بمكة، فرضى أمية بذلك وجعل بينهما الخزاعى الكاهن حكماً، فخبثوا إليه شيئاً وخرجوا إليه ومعهما جماعة من قومهما فقالوا: قد خبأنا لك خبيثاً فإن علمته تحاكمنا إليك، وإن لم تعلمه تحاكمنا إلى غيرك. فقال: لقد خبأتكم لى كيت وكيت، قالوا: صدقت أحكم بين هاشم بن عبد مناف وبين أمية بن عبد شمس أيهما أشرف بيتاً ونسباً، فقال والقمر الباهر والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما بالجو طائر وما امتدى بعلم مسافر لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر ولأمية أواخر، فأخذ هاشم الإبل ونحرها وأطعمها من حضر وخرج أمية إلى الشام وأقام بها عشر سنين، ويقال: إنها أول عداوة وقعت بين بنى هاشم وبنى أمية.

وحكى أن هند بنت عتبة بنت ربيعة كانت تحت الفاكه بن المغيرة وكان الفاكه من فتيان قريش وكان له بيت ضيافة خارجاً عن البيوت تغشاه الناس من غير إذن، فخلا البيت ذات يوم واضطجع فيه هو وهند، ثم نهض لحاجة فأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولج، فلما رأى هنداً رجع هرباً، فلما نظره الفاكه دخل عليها فضربها برجله وقال لها: من هذا الذى خرج من عندك؟ قالت: ما رأيت أحداً قط وما انتبهت حتى نهيتى، قال: فارجعى إلى بيت أبيك وتكلم الناس فيها فقال أبوها: يا بنية إن الناس قد أكثروا فيك الكلام فإن يكن الرجل صادقاً دسيت عليه من يقتله لينقطع كلام الناس، وإن يك كاذباً حاكمته إلى بعض كهان اليمن. فقالت له: لا والله ما هو على بصادق. فقال له: يا فاكه إنك قد رميت ابنتى بأمر عظيم فحاكمنى إلى بعض كهان اليمن، فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم وخرج أبوها فى جماعة من بنى عبد مناف ومعهم هند ونسوة، فلما شارقوا البلاد قالوا: غداً نرد على هذا الرجل فتغيرت حالة هند فقال لها أبوها: إنى أرى حالك قد تغير وما هذا إلا لمكروه عندك، فقالت: لا والله، ولكن أعرف أنكم تأتون بشراً يخطئ ويصيب ولا آمنه أن يسمنى بسيما تكون على سبة. فقال لها: لا تخشى فسوف أختبره، فصفر لفرسه حتى أدلى ثم أدخل فى إحليله حبة حنطة وربطه فلما أصبحوا قدموا على الرجل فأكرمهم، ونحر لهم فلما تغدوا قال له عتبة: قد جئناك فى أمر وقد خبأنا لك خبيئة نختبرك بها، قال: خبأتى لى ثمرة فى كمرة. قال: إنى أريد أن أبين من هذا. قال: حبة بر فى إحليل مهر، قال: فانظر فى أمر هؤلاء النسوة، فجعل يأتى إلى كل واحدة منهن ويضرب بيده على كتفها ويقول لها: انهضى حتى بلغ هنداً فقال: انهضى غير رسحاء^(١) ولا زانية وستلدين ملكاً اسمه معاوية، فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها، فجذبت يدها من يده وقالت إليك عنى فوالله إنى لأحرص أن يكون ذلك من غيرك. فتزوجها أبو سفيان فولدت منه أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه.

وأما القيافة: فهى على ضربين قيافة البشر وقيافة الأثر. فأما قيافة البشر فالاستدلال بصفات أعضاء الإنسان وتختص بقوم من العرب يقال لهم بنو مدلج، يعرض على أحدهم مولود فى عشرين نفراً فيلحقه بأحدهم.

وحكى : عن بعض أبناء التجار أنه كان فى بعض أسفاره راكباً على بعيره يقوده غلام أسود فمر بهؤلاء القبيلة فنظر إليه واحد منهم وقال: ما أشبه الراكب بالقائد، قال ولد التاجر: فوقع فى نفسى من ذلك شئ فلما رجعت إلى أمى ذكرت لها القصة فقالت: يا ولدى إن أباك كان شيخاً كبيراً ذا مال وليس له ولد فخشيت أن يفوتنا ما له فمكنت هذا الغلام من نفسى فحملت بك، ولولا أن هذا شئ ستعلمه غداً فى الدار الآخرة لما أعلمتك به فى الدنيا. وأما قيافة الأثر فالاستدلال بالأقدام والخوافر والخفاف وقد اختص به قوم من العرب أرضهم ذات رمل إذا هرب منهم هارب أو دخل عليهم سارق تتبعوا آثار قدمه حتى يظفروا به. ومن العجب أنهم يعرفون قدم الشاب من الشيخ والمرأة من الرجل والبكر من الثيب والغريب من المستوطن. ويذكر أن فى قطية وثغر البرلس أقواماً بهذه الصفة وقد وقعت من قريش حين خرج النبى ﷺ وأبو بكر إلى الغار على صخر صلد وأحجار صم ولا طين ولا تراب تبين فيه الأقدام فحجبهم الله تعالى عن نبيه ﷺ بما كان من نسيج العنكبوت وما لحق القائف من الحيرة، وقوله إلى ههنا انتهت الأقدام. هذا ومعهم الجماعة من قريش أبصارهم سليمة ولولا أن هناك لطيفة لا يتساوى الإنسان فيها يعنى فى علمها لما استأثر بعلم ذلك طائفة دون أخرى. وقيل: القيافة لبنى مدلج فى أحياء مضر. واختلف رجلان من القافة فى أمر بعير وهما بين مكة ومنى فقال أحدهما: هو جمل، وقال الآخر: هى ناقة، وقصدا يتبعان الأثر حتى دخلا شعب بنى عامر فإذا بعير واقف فقال أحدهما لصاحبه: أهو ذا؟ قال: نعم، فوجداه خشى فأصابا جميعاً. ومنهم من كان يخط الرمل فى الأرض ويقول فيوافق قوله ما يأتى بعد. وقال رجل شردت لى إبل فجئت إلى خراش فسألته عنها، فأمر بته أن تخط لى فى الأرض فخطت ثم قامت فضحك خراش ثم قال: أتدري قيامها لأى شئ؟ قلت: لا، قال: قد علمت أنك تجد إبلك وتتزوجها، فاستحييت ثم خرجت فوجدت إبلى ثم تزوجتها. وخرج عمرو بن عبد الله بن معمر ومعه مالك بن خراش الخزاعى غازيين، فمرا بامرأة وهى تخط للناس فى الأرض فضحك منها مالك هزواً وقال: ما هذا؟ فقالت: أما والله لا تخرج من سجستان حتى تموت ويتزوج عمرو هذا زوجتك فكان كما ذكرت.

(١) الرسحاء: القبيحة من النساء.

وأما الزجر والعرافة: فأحسنه ما روى أن كسرى أبرويز بعث إلى النبي ﷺ حين بعث زاجراً ومصوراً، فقال للزاجر انظر ما ترى في طريقك وعنده، وقال للمصور اتنى بصورته، فلما عاد إليه أعطاه المصور صورته ﷺ فوضعها كسرى على وسادته ثم قال للزاجر: ماذا رأيت؟ قال: ما رأيت ما أزعج به إلا أنه سيعلو أمره عليك لأنك وضعت صورته على وسادتك. وبعث صاحب الروم إلى النبي ﷺ رسولا وقال له: انظر إليه ومل إلى جانبه وانظر إلى ما بين كتفيه حتى ترى الخاتم والشامة، فقدم الرسول فرأى النبي ﷺ على نشز عال واضعاً قدميه في الماء وعن يمينه على رضى الله عنه فلما رآه رسول الله ﷺ قال له: تحول فانظر ما أمرت به، فنظر الرسول فلما رجع إلى صاحبه أخبره الخبر فقال: ليعلون أمره وليمكن ما تحت قدمي، فتفاءل بالنشز العلو وبالماء الحياة. وقال المدائني: وقع الطاعون بمصر في ولاية عبد العزيز ابن مروان، حين أتاها فخرج هارباً ونزل بقرية من قرى الصعيد، فقدم عليه حين نزلها رسول لعبد الملك بن مروان فقال للرسول: ما اسمك؟ قال: طالب بن مدرك، فقال: أواه ما أظن أنى أرجع إلى القسطنطينية. فمات ولم يرجع. وكانت نائلة بنت عمار الكلبي تحت معاوية فقال لفاخته بنت قرظة: اذهبي فانظري إليها، فذهبت ونظرت فقالت: ما رأيت مثلها ولكني رأيت تحت سرتها خالاً ليوضعن معه رأس زوجها في حجرها فطلقها معاوية، وتزوجها بعده رجلان حبيب ابن مسلمة والنعمان بن بشير فقتل أحدهما ووضع رأسه في حجرها. وبينما مروان بن محمد جالس في إيوانه يتفقد الأمور إذ تصدعت زجاجة من الإيوان فوقعت منها الشمس على منكب مروان، وكان هناك عراف وقيل قيساف، فقام فتيبه ثوبان مولى مروان فسأله فقال: صدع الزجاج صدع السلطان ستذهب الشمس بملك مروان بقوم من الترك أو خراسان ذلك عندى واضح البرهان، فما مضى غير شهرين حتى مضى ملك مروان.

وروى المدائني أن علياً رضى الله عنه بعث معقلاً، في ثلاثة آلاف ليقيم بالرقعة وذلك في وقعة صفين، فسار حتى نزل الحديبية فبينما هو ذات يوم جالس إذ نظر إلى كبشين يتطحان فجاء رجلان فأخذ كل واحد منهما كبشاً فذهب به، فقال شداد بن أبي ربيعة الخثعمي الزاجر: إنكم لتصرفون من موجهكم هذا لا تغلبون ولا تغلبون أما ترى الكبشين كيف انتطحا حتى حجز بينهما فترقا ولا فضل لأحدهما على الآخر.

وحكى: أن الإسكندر ملك بعض البلاد فدخل فيها فوجد امرأة تنسج ثوباً فلما رآته قالت له: أيها الملك قد أعطيت ملكاً ذا طول وعرض ثم دخل عليها بعد ذلك فقالت ستعزل من الملك، قال: فغضب عند ذلك فقالت له: لا تغضب فإنك في المرة الأولى دخلت على والشقة بيدى أدير طولها وعرضها، ودخلت على الآن والشقة في يدى أريد قطعها لأنى قد فرغت من نسجها فلا تغضب فإن النفوس تعلم أشياء بعلمات. قال الراوى: فكان كذلك.

وحكى: أن سيف بن ذى يزن لما استنجد كسرى على قتال الحبشة بعث إليه بجيش عظيم، فخرج إليهم ملك الحبشة وهو مسروق بن أبرهة في مائة ألف من الحبشة، وكان بين عينييه ياقوتة حمراء بعلاقة من الذهب على تاجه تضيء كالنور وهو على فيل عظيم، قال: وكان في عسكر ذى يزن رجل يقال له زهير فتأمل ذلك منه ثم قال لأميره: اصبر لتنظر ما يكون من أمره، قال: فتحول مسروق من الفيل إلى جمل فقال: اصبر، فتحول بعد ذلك إلى فرس ثم إلى بغل ثم إلى حمار وكأنه أنف من مقاتلتهم على شيء من ذلك إلا على حمار لما أنه استصغروهم واستحقروهم، وتفرس ذلك الرجل فيه من الانتقال من أعلى إلى أدنى وقال: احملوا عليهم فإن ملكهم قد ذهب فإنه انتقل من كبير إلى صغير فحملوا عليهم فكسروهم وقتل الملك.

وحكى: أنه كان عراف من الطريقين ببغداد يخبر بما يسأل عنه فلم يخطئ فسأله رجل عن شخص محبوس هل ينطلق، قال: نعم ويخلص عليه. قال: فقلت له: بأى شيء عرفت ذلك؟ فقال: إنك لما سألتني التفت يميناً وشمالاً فوجدت رجلاً على ظهره قربة ماء ففرغها ثم حملها على كتفه فأولت الماء بالمحبوس وتفرغته بالانطلاق، ووضعها على كتفه بالخلعة، قال وكان الأمر كذلك.

وأما الفأل: فقد روى أن النبي ﷺ كان يحب الفأل الصالح والاسم الحسن. وروى أنه ﷺ لما نزل المدينة على كلثوم دعا غلامين له يا بشار ويا سالم فقال ﷺ لأبى بكر رضى الله عنه: أبشر يا أبا بكر فقد سلمت لنا الدار. وقال الأصمعي: سألت ابن عون عن الفأل؟ فقال: هو أن يكون مريض فيسمع يا سالم أو طالب حاجة فيسمع يا واجد وما

أشبه ذلك .

وأما الطيرة: فقد كان ﷺ يحب الفأل ويكره الطيرة . وقيل : ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال : «من عرض له من هذه الطيرة شيء ، فليقل اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» . وعنه ﷺ أنه قال : «ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له» . وعن ابن عباس رضي الله عنهما رفعه من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر» . وعن أبي هريرة رضي الله عنه : «من أتى كاهناً فصدقه فيما يقول أو أتى امرأته حائضاً في دبرها فقد برئ مما نزل على محمد» . وأنشد المبرد هذه الأبيات يقول :

لا يعلم المرء ليلاً ما يصبحه إلا كواذب ما يجري به الفأل
والفأل والزجر والكهان كلهم مضللون ودون الغيب أقفال

وقال لييد:

لعمري ما تدرى الطوارق بالخصي ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وقال آخر:

تعلم أنه لا طير إلا على مستطير وهو الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء أحاييناً وباطله كثير

وكانت العرب تتطير بأشياء كثيرة منها العطاس . وسبب تطيرهم منه أن دابة يقال لها: العاطوس كانوا يكرهونها وكانوا إذا أرادوا سفر خرجوا من الغلس والطير في أوكارها على الشجر فيطيرونها، فإن أخذت يميناً أخذوا يميناً وإن أخذت شمالاً أخذوا شمالاً، ومنه قول امرئ القيس:

وقد اغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل

والعرب أعظم ما يتطيرون منه الغراب، فالقول فيه أكثر من أن يطلب عليه شاهد ويسمونه حاتمًا لأنه يحتم عندهم بالفراق، ويسمونه الأعور على جهة التطير إذ كان أصح الطير بصراً، وفيه يقول بعضهم:

إذا ما غراب الين صاح فقل به ترقى رماك يا طير بالبعد
لأنت على العشاق أقبح منظر وأبشع في الأبصار من رؤية اللحد
تصيح بين ثم تعثر ماشياً وتبرز في ثوب من الحزن مسود
متى صحت صح الين وانقطع الرجا كأنك من يوم الفراق على وعد

وأعرض بعضهم عن الغراب وتطير بالإبل، وسبب ذلك لكونها تحمل أثقال من ارتحل . وفي ذلك قال بعضهم مفرداً وأجاد:

زعموا بأن مطيرهم سبب النوى والمؤذات بفرقة الأحباب

وقالوا: من تطير من شيء وقع فيه .

وحكى عن إبراهيم بن المهدي قال: أرسل إلى محمد بن زبيدة في ليلة من ليالي الصيف مقمرة يقول: يا عم إنى مشتاق إليك فاحضر الآن عندنا، فجثته وقد بسط له على سطح زبيدة وعنده سليمان بن أبي جعفر وجاريتيه نعيم فقال لها: غنيا شيئاً فقد سررت بعمومتى فغنت وهى تقول هذه الأبيات:

همـو قـتـلـوهـ كى يـكـونـوا مـكـانـه كـمـا فـعـلـت يـومـاً بـكـسـرى مـرـازبـه
بـنـى هـاشـم كـيـف التـواصـل يـيـنـنا وـجـنـد أـخـيـه سـيـفـه وـنـجـائـبـه

قال: فغضب وتطير وقال لها: ما قصتك ويحك انتبهى وغنى ما يسرنى. فغنت تقول:

كـلـيـبٌ لـعـمـرى كـان أكـثر نـاصـراً وأكـثر حـزماً مـنـك ضـرُجٌ بـالـدم

فقال لها: ويحك ما هذا الغناء فى هذه الليلة غنى غيره فغنت تقول هذه الأبيات:

مـا زال يـعـدـو عـلـيـهـم رـيـب دـهـرهم حـتـى تـفـانـوا وريـب الدـهـر عـدـاءُ
تـبـكى فـراقـهم عـيـنى فـأرقـهـا إن التـفـرقَ لـلـمـشـتـاق بـكـاءُ

قال: فانتهرها وقال لها قومي إلى لعنة الله فقالت: والله يا مولاي لم يجر على لسانى غير هذا وما ظننت إلا أنك تحبه. ثم إنها قامت من بين يديه وكان بين يديه قدح بلور وكان أبوه يحبه فأصابه طرف رداثها فانكسر. قال إبراهيم بن المهدي: فالتفت إلى وقال: يا عمى أرى أن هذا آخر أمرنا، فقلت: كلا بل يقيقك الله يا أمير المؤمنين ويسرك فسمعت هاتفاً يقول: قضى الأمر الذى فيه تستفتيان. فقال لى: أسمعت ما سمعت يا عم؟ فقلت: ما سمعت شيئاً وما هذا إلا توهم فإذا الصوت قد علا فقال: يا عم اذهب إلى بيتك فمحال أن يكون بعد هذا اجتماع. قال: فانصرفت من عنده وكان هذا آخر عهدي به. وخرج أبو الشمقمق مع خالد بن يزيد بن مزيد وقد تقلد الموصل، فلما أراد الدخول إليها اندق لواؤه فى أول درب منها فتطير لذلك فأنشده أبو الشمقمق يقول:

مـا كـان مـنـدقَ اللـواء لـرـيـبـة تـخـشى ولا أـمـر يـكـون مـبـذـلاً
لـكنّ هـذا الرـمـح ضـعـف مـتـنـه صـغـر الـولـايـة فـاسـتـقلّ المـوصـلاً

فسر خالد وأمر لأبى الشمقمق بعشرة آلاف درهم. ودخل الحجاج الكوفة متوجهاً إلى عبد الملك فصعد المنبر فانكسر تحت قدمه فعلم أنهم قد تطيروا له بذلك، فالتفت إلى الناس قبل أن يحمد الله تعالى فقال: شأهت الوجوه وتبت الأيدى وبؤتم بغضب من الله إذا انكسر عود جذع ضعيف تحت قدم أسد شديد تفاءلتم بالشؤم، وإنى على أعداء الله تعالى لأنكد من الغراب الأبقع وأشأم من يوم نحس مستمر، وإنى لأعجب من لوط وقوله لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد، فأى ركن أشد من الله تعالى أو ما علمتم ما أنا عليه من التوجه إلى أمير المؤمنين وقد وليت عليكم أخى محمد بن يوسف وأمرته بخلاف ما أمر به رسول الله ﷺ معاذاً فى أهل اليمن فإنه أمره أن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، وقد أمرته أن يسئ إلى محسنكم وأن لا يتجاوز عن مسيئكم، وأنا أعلم أنكم تقولون بعدي لا أحسن الله له الصحابة، وأنا معجل لكم الجواب لا أحسن الله عليكم الخلافة، أقول قولى هذا واستغفر الله العظيم لى ولكم. وخرج بعض ملوك الفرس إلى الصيد فأول من استقبله أعور فضربه وأمر بحبسه، ثم ذهب للصيد فاصطاد صيداً كثيراً فلما عاد استدعى بالأعور فأمر له بمال فقال: لا حاجة لى به ولكن ائذن لى فى الكلام، فقال: تكلم، فقال: أيها الملك إنك تلقيتنى فضربتني وحبستنى وتلقيتك فصدت وسلمت فأينا أشأم صباحاً على صاحبه؟ فضحك منه وأمر له بصلة.

وحكى أيضا أن صاحب قرطبة أصابه وجع فأمر بعض جواريه أن تغنيه ليلهو عن وجعه فقالت:

هذى الـليـالى علمنا أن سـتـطوينا فـشـعـشـعينا بماء المزن واسـقينا

قال: فتطير من ذلك وأمرها بالانصراف ولم يقم بعد ذلك غير خمسة أيام ومات.

وحكى: أن نور الدين محمود وهمام الدين ركبا في يوم عيد وخرجا للتفرج، فتجاولا في الكلام ثم قال محمود: يا من درى هل نعيش إلى مثل هذا اليوم؟ فقال له همام الدين: قل هل نعيش إلى آخر هذا الشهر، فإن العام كثير قال فأجرى الله على منطقهما ما كان مقدراً في الأزل فمات أحدهما قبل تمام الشهر ومات الآخر قبل تمام العام.

وأما الفراسة: فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]. وقال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله». وقال على رضى الله تعالى عنه: ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه. وقيل: أشار ابن عباس رضى الله تعالى عنهما على على رضى الله تعالى عنه بشيء فلم يعمل به، ثم ندم فقال: يرحم الله ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق.

وحكى أبو سعيد الخراز أنه كان في الحرم فقير ليس عليه إلا ما يستر عورته فأنفقت نفسى منه، فتفرس ذلك منى فقراً ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥] فندمت واستغفرت الله في قلبى فتفرس ذلك أيضاً فقراً: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥].

وحكى عن الشافعى ومحمد بن الحسن أنهما رأيا رجلاً فقال أحدهما: إنه نجار وقال الآخر: إنه حداد، فسألاه عن صناعته فقال: كنت حداداً وأنا الآن نجار.

وحكى أن شخصاً من أهل القرآن سأل بعض العلماء مسألة فقال له: اجلس فإننى أشم من كلامك رائحة الكفر، فاتفق بعد ذلك أنه سافر السائل فوصل إلى القسطنطينية فدخل في دين النصرانية قال: من رآه: ولقد رأيته متكئاً على دكة ويده مروحة يروح بها عليه، فقلت: السلام عليكم يا فلان، فسلم على وتعارفنا ثم قلت له بعد ذلك: هل القرآن باق على حاله أم لا؟ فقال له: لا أذكر منه إلا آية واحدة وهى قوله تعالى: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢]. قال: فبكيت عليه وتركته وانصرفت. وكان الحسن ابن السقاء من موالى بنى سليم ولم يكن فى الأرض أحرز منه، كان ينظر إلى السفينة فيحرز ما فيها فلا يخطئ وكان حرزه للمكيول والموزون والمعدود سواء. كان يقول فى هذه الرمانة كذا وكذا حبة وزنتها كذا وكذا ويأخذ العود الآس فيقول فيه كذا وكذا ورقة فلا يخطئ. وقالوا: إذا رأيت الرجل يخرج بالغداة ويقول لشيء ما عند الله خير وأبقى فاعلم إن فى جواره وليمة ولم يدع إليها، وإذا رأيت قوماً يخرجون من عند قاض وهم يقولون ما شهدنا إلا بما علمنا، فاعلم أن شهادتهم لم تقبل. وإذا قيل للمتزوج صبيحة البناء على أهله كيف ما تقدمت عليه؟ فقال: الصلاح خير من كل شيء، فاعلم أن امرأته قبيحة، وإذا رأيت إنساناً يمشى ويلتفت، فاعلم أنه يريد أن يحدث. وإذا رأيت فقيراً يعدو ويهرول فاعلم أنه فى حاجة غنى. وإذا رأيت رجلاً خارجاً من عند الوالى وهو يقول يد الله فوق أيديهم فاعلم أنه صفع. ويقال: عين المرء عنوان قلبه. وكانوا يقولون: عظم الجبين يدل على البله، وعرضه يدل على قلة العقل وصغره يدل على لطف الحركة، وإذا وقع الحاجب على العين دل على الحسد، والعين المتوسطة فى حجمها دليل الفطنة، وحسن الخلق والمروءة، والتى يطول تحديقها تدل على الحمق، والتى يكسر طرفها تدل على خفة وطيش، والشعر فى الأذن يدل على جودة السمع والأذن الكبيرة المنتصبة تدل على حمق وهذيان، وكانت الفرس: تقول إذا فشا الموت فى الوحوش دل على ضيقة، وإذا فشا فى الفأر دل على الخصب، وإذا نعت غراب فجوابته دجاجة عمر الخراب، وإذا قوقت دجاجة فجوابها غراب خرب العمار. والله أعلم بكل شيء عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً. وعنده مفاتيح الغيب لا يعملها إلا هو، ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض، ولا رطب، ولا يابس إلا فى كتاب مبين.

وأما النوم والسهر وما جاء فيهما: فقد روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن الرسول ﷺ أنه قال: «أشراف أمتى حملة القرآن وأصحاب الليل». وروى أن أم سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام قالت: يا بنى لا تكثر النوم

بالليل فإن صاحب النوم يجئ يوم القيامة مفلساً. وكان زمعة بن صالح يصلى ليلاً طويلاً فإذا أسحر نادى أهله:

يا أيها الـركب المعـرسـونا أكل هذا الليل ترقـسـدونا

فيتواثبون بين باك وداع ومتضرع فإذا أصبح نادى: عند الصباح يحمد القوم السرى. (وأنشدوا):

يا أيها الراقـد كم ترقـدُ قم يا حبيبي قد دنا الموعدُ
وخـذ من الليل وسـاعـاته حظاً إذا ما هجع الرقـسـدُ
من نام حـتى ينقـضى ليله لم يبلغ المنزل أو يجـهـد
قل لذوى الألبـاب أهل التـقى قنطرة الحـشـر لكم موعـد

وقيل: إن نومة الضحى تورث الغم والخوف، ونومة العصر تورث الجنون وأنشد بعضهم:

ألا إن نومـات الضـحى تورث الفـتى غمومًا ونومـات العـصير جنون

وعن ابن العباس بن عبد المطلب أنه مرّ يوماً بابنه وهو نائم نومة الضحى فركزه برجله وقال له: قم لا أنام الله عينك أنام فى ساعة يقسم الله تعالى فيها الرزق بين العباد؟ أو ما سمعت ما قالت العرب إنها مكسلة مهزلة منسية للحاجة. والنوم على ثلاثة أنواع: نومة الخرق ونومة الخلق ونومة الحمق، فنومة الخرق: نومة الضحى ونومة الخلق: هى التى أمر النبى ﷺ بها أمته فقال: «قلوا فإن الشياطين لا تقبل»، ونومة الحمق: النومة بعد العصر لا ينامها إلا سكران أو مجنون. وكان هشام بن عبد الملك يقول لولده: لا تصطح بالنوم فإنه شؤم ونكد. وقال الثورى لطبيب: دُلنى على شىء إذا أردت النوم جاءنى، فقال: ادهن رأسك وأكثر من ذلك واتق الله. وكان طاوس يقول: لأن تختلف الشياطين على ظهري أحب إلى من أن أنام يوم الجمعة، والإمام يخطب. وكان شداد بن أوس يتلوى على فراشه كالحبة على المقلَى ويقول اللهم إن النار منعتنى النوم وأنشدوا فى المعنى:

غـيـرت مـوضـع مـرقـدى يومًا فـفـارقـنى السـكونُ
قل لى فـسـأول ليلتى فى حـفـفـرتى أنى أكـونُ

وأنشد أبو دلف:

أمـالكـتى ردى عـلى رـقـاديا ونومى فـقـد شـردته عن وسـاديا
أما تـتقـين الله فى قـتل عـاشقـي أمت الكرى عنه فأحيا الليـاليا

وأنشد أبو غانم الثقفى:

رقـدت رقاد الهـيم حـتى لو أننى يكون رقادى مـغـنمًا لغـنيت

ف قيل : لمن هذا؟ فقال: لرقاد من رقاد العرب. وقيل: إن نوم عبود يضرب به المثل، وكان عبود هذا عبداً أسود قيل: إنه نام أسبوعاً وقيل إنه تماوت على أهله وقال اندبوني لأعلم كيف تندبوني إذا أنا مت فسجى ونام وندب فإذا هو قد مات.

وأما الرؤيا: فقد قيل فيها أقاريل وهو أنهم قالوا: إن النوم هو اجتماع الدم وانحداره إلى الكبد، ومنهم من رأى أن ذلك هو سكون النفس وهدوء الروح. ومنهم من زعم أن ما يجده الإنسان في نومه من الخواطر إنما هو من الأطعمة والأغذية والطبائع. وذهب جمهور الأطباء إلى أن الأحلام من الأخلاط وإن ذلك بقدر مزاج كل واحد منها وقوته، فالذي يغلب عليه الصفراء يرى بحوراً وغيوناً ومياهًا كثيرة ويرى أنه يسبح ويصيد سمكاً، ومن غلبت على مزاجه السوداء رأى في منامه أجداثاً وأمواتاً مكفينين بسواد وبكاء وأشياء مفزعة، ومن غلب على مزاجه الدم رأى الخمر والرياحين وأنواع الملاحى والثياب المصبغة. والذي يقع عليه التحقيق أن الرؤيا الصالحة كما قد جاء جزء من ستين جزء من النبوة، وكان النبي ﷺ أول ما بدئ به من الوحى الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. والرؤيا على ضربين فمنهم من يرى رؤيا فتجئ على حالها لا تزيد ولا تنقص، ومنهم من يرى الرؤيا في صورة مثل ضرب له.

فمن ذلك ما حكى: أن النبي ﷺ رأى في الجنة غرقاً فقال: لمن هذه؟ فقيل: لأبى جهل بن هشام فقال: ما لأبى جهل والجنة والله لا يدخلها أبداً. قال: فأتاه عكرمة ولده مسلماً، فتأولها به وكذلك تأول في قتل الحسين لما رأى أن كلباً أبقع يلغ في دمه، وكان ذلك بعد رؤياه عليه الصلاة والسلام بخمسين عاماً. وكذلك حين قال لأبى بكر رضى الله تعالى عنه: إني رأيت كأنى رقيت أنا وأنت درجاً في الجنة فسبقتك بدرجتين ونصف، فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه: يا رسول الله أقبض بعدك بستين ونصف. ورأت عائشة رضى الله تعالى عنها سقوط ثلاثة أقمار في حجرتها فأولها أبوها بموته، وموت النبي ﷺ، وموت عمر رضى الله تعالى عنهما، ودفنهم في حجرتها فكان الأمر كذلك.

وحكى: أن أم الشافعى رضى الله تعالى عنه لما حملت به رأت كأن المشتري خرج من فرجها وانقض بمصر ثم تفرق في كل بلد قطعة، فأول بعالم يكون بمصر وينتشر علمه بأكثر البلاد فكان كذلك.

وحكى أيضاً: أن عاملاً أتى عمر رضى الله تعالى عنه فقال: رأيت الشمس والقمر اقتتلا، فقال له عمر: مع من كنت؟ قال: مع القمر، فقال: مع الآية المحوثة والله لا وليت لى عملاً فعزله. ثم اتفق أن علياً رضى الله تعالى عنه وقع بينه وبين معاوية ما وقع فكان ذلك الرجل مع معاوية.

وأما من مهر في تعبیر الرؤيا فهو ابن سيرين. جاءه رجل فقال له: رأيت كأنى أسقى شجرة زيتون زيتاً، فاستوى جالساً فقال: ما التى تحتك؟ قال: علجة اشتريتها، وفي رواية جارية، وأنا أطوها فقال: أخاف أن تكون أمك فكشف عنها فوجدتها أمه. وجاءه رجل فقال: رأيت كأن فى يدي خاتماً اختم به فروج النساء وأفواه الرجال، فقال له: أنت مؤذن تؤذن بالليل فتمنع الرجال والنساء من الأكل والوطء. وجاءه رجل فقال: رأيت جارة لى قد ذبحت فى بيت من دارها، فقال هى امرأة نكحت فى ذلك البيت، وكانت امرأة لصديق ذلك الرجل فاغتم لذلك ثم بلغه أن الرجل قدم فى تلك الليلة وجامع زوجته فى ذلك البيت. وجاءه رجل معه جراب فقال له: رأيت فى النوم كأنى أسد الزقاق سداً وثيقاً شديداً، فقال له: أنت رأيت هذا؟ قال: نعم، فقال لمن حضره: ينبغى أن يكون هذا الرجل يخنق الصبيان وربما تكون فى جرابه آلة الخنق، فوثبوا عليه وفتشوا الجراب فوجدوا فيه أوتاراً وحلقاً فسلموه إلى السلطان. وجاءته امرأة وهو يتغدى فقالت له: رأيت فى النوم كأن القمر دخل فى الثريا، ونادى مناد من خلفى أن اتى ابن سيرين فقص عليه، فتقلصت يده وقال: ويلك كيف رأيتى هذا؟ فأعادت عليه فقال لأخته: هذه تزعم أنى أموت لسبعة أيام وأمسك يده على فؤاده وقام يتوجع ومات بعد سبعة أيام. وجاءه رجل فقال: رأيت كأنى أخذ البيض وأقشره فأكل بياضه وألقى صفاره، فقال: إن صدق منامك فأنت نباش الموتى فكان ذلك.

وحكى: أن ابن سيرين رأى الجوزاء قد تقدمت على الثريا فجعل يوصى، وقال: يموت الحسن وأموت بعده. وهو أشرف منى فمات الحسن ومات بعده بمائة يوم.

وحكى أن رجلاً رأى عيسى عليه السلام فقال له: يا نبى الله صلبك حق؟ قال: نعم، فعبره على بعضهم، فقال تكذب رؤياك بقوله تعالى: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ [النساء: ١٥٧] ولكن هو عائد على الرائي فكان كذلك. وأتى ابنه مغيث آت فى المنام فقال لها:

لك البشيري بولد أشبه شيء بالأسد إذا الرجال في كبد
تغالبوا على بلد كان له حظ الأسد

فولدت المختار بن أبي عبيد وذلك في عام الهجرة. وقال رجل لسعيد بن المسيب: رأيت كأنى بليت خلف المقام أربع مرات. قال: كذبت لست صاحب هذه الرؤيا، قال: هو عبد الملك، فقال: يلي أربعة من صلبه الخلافة. وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه: رأيت علياً رضي الله تعالى عنه في المنام فقال لي: ناولني كتبك فناولته إياها فأخذها وبددها فأصبحت أختاً كآبة، فأتيت الجعد فأخبرته فقال: سيرفع الله شأنك وينشر علمك.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: من رأى في منامه فقد رأى حقاً، فإن الشيطان لا يتمثل بي، وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: رأيت كأن رأسي قد قطع وأنا انظر إليه فضحك رسول الله ﷺ وقال: بأى عين كنت تنظر إلى رأسك فلم يلبث رسول الله ﷺ أن توفي وأولوا رأسه بنبيه ونظره إليه باتباع سته، وقال رجل لعلى بن الحسين: رأيت كأنى أبول في يدي، فقال: تحتك محرم فنظروا فإذا بينه وبين امرأته رضاع. وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: رأيت كأنى نبشت قبر رسول الله ﷺ فضممت عظامه إلى صدرى فهالنى ذلك فسألت ابن سيرين، فقال: ما ينبغي لأحد من أهل هذا الزمان أن يرى هذه الرؤيا، قلت: أنا رأيته. قال: إن صدقت رؤياك لتحين سنة نبيك ﷺ. وقال النبي ﷺ «الرؤيا الصالحة بشارة للمؤمن بما له عند الله من الكرامة في الدنيا والآخرة» وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: تضرعت إلى ربي سنة أن يرينى أبى في النوم حتى رأيته وهو يمسح العرق عن جبينه، فسألته فقال: لولا رحمة الله لهلك أبوك. إنه سألنى عن عقال بعير للصدقة، فسمع بذلك عمر بن عبد العزيز فصاح وضرب بيده على رأسه وقال: فعل هذا بالتقى الطاهر فكيف بالمقترف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم أجمعين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الحيل والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد والتيقظ والتبصر

الحيلة من فوائد الآراء المحكمة وهى حسنة ما لم يستبح بها محظور، وقد سئل بعض الفقهاء عن الحيل فى الفقه فقال: علمكم الله ذلك فإنه قال: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّهُ وَجَدَنَاهُ صَابِرًا نَعِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]. وكان عليه السلام إذا أراد غزوة، ورى بغيرها، كان يقول: «الحرب خدعة». ولما أراد عمر رضى الله عنه قتل الهرمزان استسقى ماء فأتوه بقدر فيه ماء، فأمسكه فى يده واضطرب فقال له عمر: لا بأس عليك حتى تشربه، فألقى القدر فى يده فأمر عمر بقتله: فقال: أولكم تؤمننى؟ قال: كيف أمنتك. قال: قلت لا بأس عليك حتى تشربه وقولك لا بأس عليك أمان ولم أشربه، فقال عمر: قاتلك الله أخذت منى أماناً ولم أشعر. وقيل: كان دهاة العرب أربعة، كلهم ولدوا بالطائف: معاوية، وعمر بن العاص، والمغيرة بن شعبة، والسائب بن الأقرع. وكان يقال: الحاجة تفتح أبواب الحيل. وكان يقال: ليس العاقل الذى يحتال للأمور إذا وقع فيها، بل العاقل الذى يحتال للأمور أن لا يقع فيها. وقال الضحاك بن مزاحم لنصرانى: لو أسلمت، فقال: ما زلت محباً للإسلام إلا أنه يمنعنى منه حبى للخمر، فقال: أسلم واشربها، فلما أسلم قال له: قد أسلمت، فإن شربتها حدينك وإن ارتددت قتلناك، فاختر لنفسك، فاختر الإسلام وحسن إسلامه، فأخذه بالحيلة.

وقيل: دلت من السماء سلسلة فى أيام داود عليه الصلاة والسلام عند الصخرة التى فى وسط بيت المقدس، وكان الناس يتحاكمون عندها فمن مد يده إليها وهو صادق نالها ومن كان كاذباً لم ينلها إلى أن ظهرت فيهم الخديعة، فارتفعت، وذلك أن رجلاً أودع رجلاً جوهرة، فخبأها فى مكانه فى عكازة، ثم إن صاحبها طلبها من الذى أودعها عنده فأنكرها، فتحاكما عند السلسلة، فقال المدعى: اللهم إن كنت صادقاً فلتدن منى السلسلة، فدنت منه فمسها، فدفع المدعى عليه العكازة للمدعى وقال: اللهم إن كنت تعلم أنى رددت الجوهرة إليه، فلتدن منى السلسلة، فدنت منه فمسها، فقال الناس: قد سوت السلسلة بين الظالم والمظلوم، فارتفعت بشؤم الخديعة، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: أن احكم بين الناس بالبين واليمين. فبقى ذلك إلى قيام الساعة. وكان المختار بن أبى عبيدة الثقفى فى من دهاة ثقيف وثقيف دهاة العرب، قيل: إنه وجه إبراهيم بن الأشتر إلى حرب عبيد الله بن زياد، ثم دعا برجل من خواصه، فدفع إليه حمامة بيضاء وقال له: إن رأيت الأمر عليكم فارسلها، ثم قال للناس: إنى لأجد فى محكم الكتاب، وفى اليقين والصواب أن الله ممدكم بملائكة غضاب صعب، تأتى فى صور الحمام تحت السحاب. فلما كادت الدائرة تكون على أصحابه عمد ذلك الرجل إلى الحمامة، فأرسلها، فتصايح الناس: الملائكة الملائكة وحملوا، فانتصروا وقتلوا ابن زياد. وعن أبى هريرة رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خرجت امرأتان ومعهما صبيان فعدا الذئب على صبي أحدهما فأكله، فاخصما فى الصبي الباقي إلى داود عليه الصلاة والسلام فقال: كيف أمركما؟ فقستا عليه القصة، فحكم به للكبرى منهما، فاخصما إلى سليمان عليه الصلاة والسلام فقال: اتنوى بسكين أشق الغلام نصفين لكل منكما نصف، فقالت الصغرى: أشقه يا نبي الله؟ قال: نعم، قالت: لا تفعل ونصيبى فيه للكبرى، فقال: خذيه، فهو ابنك، وقضى به لها، وجاء رجل إلى سليمان بن داود عليه الصلاة والسلام، وقال: يا نبي الله إن لى جيراناً يسرقون أوزى، فلا أعرف السارق، فنادى الصلاة جامعة، ثم خطبهم وقال فى خطبته: وإن أحدكم ليسرق أوز جاره، ثم يدخل المسجد والريش على رأسه، فمسح الرجل رأسه، فقال سليمان: خذوه فهو صاحبكم.

وخطب المغيرة بن شعبة وفتى من العرب امرأة، وكان شاباً جميلاً، فأرسلت إليهما أن يحضرا عندها، فحضرا وجلست بحيث تراهما وتسمع كلامهما، فلما رأى المغيرة ذلك الشاب، وعان جمالاً علم أنها تؤثره عليه، فأقبل على الفتى وقال: لقد أوتيت جمالاً، فهل عندك غير هذا؟ قال: نعم، فعدد محاسنه ثم سكت، فقال له المغيرة: كيف حسابك من أهلك؟ قال: ما يخفى على من شئ وإنى لأستدرك منه أدق من الخردل. فقال المغيرة: لكنى أضع البدة فى بيتى، فينفقها أهلى على ما يريدون فلا أعلم بتفادها حتى يسألونى غيرها. فقالت المرأة: والله لهذا الشيخ الذى لا

يحاسبني أحب إلى من هذا الذي يحصى على مثقال الذرة، فتزوجت المغيرة.

وبلغ عضد الدولة أن قومًا من الأكراد يقطعون الطريق، ويقومون في جبال شامخة ولا يقدر عليهم، فاستدعى بعض التجار ودفع إليه بغلا عليه صندوقان فيهما حلوى مسمومة كثيرة الطيب في ظروف فاخرة، ودنانير وافرة، وأمره أن يسير مع القافلة ويظهر أن هذه هدية لأحد نساء الأمراء، ففعل التاجر ذلك، وسار أمام القافلة، فنزل القوم، فأخذوا الأمتعة والأموال، وانفرد أحدهم بالبغل، وصعد به الجبل، فوجد به الحلوى، فقبح على نفسه أن ينفرد بها دون أصحابه، فاستدعاهم، فأكلوا على مجاعة، فماتوا عن آخرهم، وأخذ أرباب الأموال أموالهم.

وأتى لبعض الولاة برجلين قد اتهما بسرقة، فأقامهما بين يديه، ثم دعى بشربة ماء، فجئ له بكوز، فرماه بين يديه، فارتاع أحدهما وثبت الآخر، فقال للذي ارتاع: اذهب إلى حال سبيلك، وقال للآخر: أنت أخذت المال، وتلذذت به، وتهده فآقر، فسئل عن ذلك، فقال إن اللص قوى القلب، والبرئ يجزع ولو تحرك عصفور لفزع منه.

وقصد رجل الحج، فاستودع إنسانًا مالا، فلما عاد طلبه منه، فجحدته المستودع، فأخبر بذلك القاضي إياسًا، فقال: أعلم بأنك جتنتي قال: لا، قال: فعد إلى بعد يومين، ثم إن القاضي إياسًا بعث إلى ذلك الرجل، فأحضره، ثم قال له: أعلم أنه قد تحصلت عندي أموال كثيرة لأيتام وغيرهم وودائع للناس وإنى مسافر سافرًا بعيدًا وأريد أن أودعها عندك لما بلغنى من دينك وتحصين متزلك، فقال: حبًا وكرامة. قال: فاذهب وهىء موضعًا للمال وقومًا يحملونه، فذهب الرجل وجاء صاحب الوديعة. فقال له القاضي إياس: امض إلى صاحبك، وقل له ادفع إلى مالى وإلا شكوتك للقاضي إياس، فلما جاء، وقال له ذلك دفع إليه ماله واعتذر إليه، فأخذه وأتى إلى القاضي إياس وأخبره. ثم بعد ذلك أتى الرجل ومعه الحمالون لطلب الأموال التى ذكرها له القاضى، فقال له القاضى بعد أن أخذ الرجل ماله منه: بدا لى ترك السفر امض لشأنك لا أكثر الله فى الناس مثلك. ولما أراد شيرويه قتل أبيه أبرويز قال أبرويز للداخل عليه ليقتله: إنى لأدلك على شىء فيه غناك لوجوب حقك على. قال: وما هو؟ قال: الصندوق القلانى، فلما قتله وذهب إلى شيرويه وأخبره الخبر، فأخرج الصندوق فإذا فيه حق فيه حب، ورقعة مكتوب فيها: من تناول منه حبة واحدة افتض عشرة أباكرا وكان لشيرويه غرام فى الباه، فتناول منه حبة فهلك من ساعته، فكان أبرويز أول مقتول أخذ بثأره من قاتله.

ولما بايع الرشيد لأولاده الثلاثة بولاية العهد تخلف رجل مذكور من الفقهاء، فقال له الرشيد: لم تخلفت؟ فقال: عاقنى عاتق، فقال: اقرأوا عليه كتاب البيعة، فقال يا أمير المؤمنين: هذه البيعة فى عنقى إلى قيام الساعة، فلم يفهم الرشيد ما أراد، وظن أنه إلى قيام الساعة يوم الحشر، وما أراد الرجل إلا قيامه من المجلس. وقال المغيرة بن شعبة: لم يخدعنى غير غلام من بنى الحرث بن كعب، فإنى ذكرت امرأة منهم لأتزوجها، فقال: أيها الأمير لا خير لك فيها، فقلت: ولم؟ قال: رأيت رجلا يقبلها، فأعرض عنها، فتزوجها الفتى، فلمته، وقلت ألم تخبرنى أنك رأيت رجلا يقبلها؟ قال: نعم رأيت أباه يقبلها. وأتى رجل إلى الأحنف، فلطمه، فقال: ما حملك على هذا؟ فقال: جعل لى جعل على أن أطم سيد بنى تميم، فقال: لست بسيدهم عليك بحارثة بن قدامة، فإنه سيدهم، فمضى إليه، فلطمه، فقطعت يده.

وقال الشعبى: وجهنى عبد الملك إلى ملك الروم، فقال لى: من أهل بيت الخلافة أنت؟ قلت: لا، ولكنى رجل من العرب، فكتب إلى عبد الملك رقعة ودفعها إلى، فلما قرأها عبد الملك قال لى: أتدرى ما فيها؟ قلت: لا، قال فيها: «العجب لقوم فيهم مثل هذا كيف يولون أمرهم غيره». قال: أتدرى ما أراد بهذا؟ قلت: لا، قال: حسدنى عليك، فأراد أن أقتلك، فقلت: إنما كبرت عنده يا أمير المؤمنين لأنه لم يترك شيئًا إلا سألنى عنه، وأنا أجيبه، فبلغ ملك الروم ما قاله عبد الملك للشعبى. فقال: لله أبوه ما عدا مافى نفسى.

ولما ولى عبد الملك بن مروان أخاه بشرًا الكوفة، وكان شابًا ظريفًا غزلاً، بعث معه روح بن زنباع وكان شيخًا متورعًا، فنقل على بشر مرافقته، فذكر ذلك لندمائه، فتوصل بعض ندمائه إلى أن دخل بيت روح بن زنباع ليلاً فى خفية، فكتب على حائط قريب فى مجلسه هذه الأبيات:

يا روحُ من لبنيّات وأرملة إذا نعاكَ لأهل المغرب الناعى

إن ابن مروان قد حانت منيته فاحتل بنفسك يا روح بن زنباع

فتخوف من ذلك وخرج من الكوفة، فلما وصل إلى عبد الملك أخبره بذلك، فاستلقى على قفاه من شدة الضحك، وقال: ثقلت على بشر وأصحابه، فاحتالوا لك.

ومن الحيل الطريفة: ما حكى أن النبي ﷺ لما فتح خيبر وأعرس بصفية، وفرح المسلمون بجهاد الحجاج بن علاط السلمى، وكان أول من أسلم فى تلك الأيام وشهد خيبر، فقال يا رسول الله: إن لى بمكة مالا عند صاحبتى أم شيبه ولى مال متفرق عند تجار مكة، فأذن لى يا رسول الله فى العود إلى مكة عسى أسبق خبر إسلامى إليهم، فإنى أخاف إن علموا بإسلامى أن يذهب جميع مالى بمكة، فأذن لى لعلى أخلصه، فأذن له رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنى أحتاج إلى أن أقول، فقال له رسول الله ﷺ: قل، وأنت فى حل، قال الحجاج: فخرجت، فلما انتهيت إلى الثانية ثنية البيضاء وجدت بها رجالاً من قريش يتسمعون الأخبار، وقد بلغهم أن رسول الله ﷺ سار إلى خيبر، فلما أبصرونى قالوا: هذا لعمر الله عنده الخبر، أخبرنا يا حجاج، فقد بلغنا أن القاطع يعنون محمداً ﷺ قد سار إلى خيبر، قال: قلت إنه سار إلى خيبر وعندى من الخبر ما يسركم، قال: فأحدقوا حول ناقتى يقولون: إيه يا حجاج؟ قال: فقلت: هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وأسر محمد وقالوا: لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة، فيقتلونه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم. قال: فصاحوا بمكة قد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم، فيقتل بين أظهركم. قال: فقلت أعينونى على جمع مالى من غرمائى فإنى أريد أن أقدم خيبر، فأغنم من ثقل محمد وأصحابه قبل أن يسبقنى التجار إلى هناك، فقاموا معى، فجمعوا لى مالى كأحسن ما أحب، فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر أقبل على حتى وقف إلى جانبى، وأنا فى خيمة من خيام التجار، فقال: يا حجاج ما هذا الخبر الذى جئت به؟ قال: فقلت: وهل عندك حفظ لما أودعه عندك من السر؟ فقال: نعم والله قال: قلت استأخر عنى حتى ألقاك على خلاء، فإنى فى جمع مالى كما ترى، فانصرف عنى حتى إذا فرغت من جمع كل شىء كان لى بمكة، وأجمعت على الخروج، لقيت العباس، فقلت له: احفظ على حديثى يا أبا الفضل، فإنى أخشى أن يتبعونى، فاكم على ثلاثة أيام، ثم قل ما شئت. قال: لك على ذلك. قال: قلت والله ما تركت ابن أخيك إلا عروساً على ابنة ملكهم يعنى صفية، وقد افتتح خيبر، وغنم ما فيها، وصارت له ولأصحابه. قال: أحق ما تقول يا حجاج؟ قال: قلت أى والله، ولقد أسلمت، وما جئت إلا مسلماً لأخذ مالى خوفاً من أن أغلب عليه، فإذا مضت ثلاثة، فإظهر أمرك فهو والله على ما تحب، قال: فلما كان فى اليوم الرابع لبس العباس حلة له وتخلق بالطيب، وأخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى الكعبة، فطاف بها، فلما رأوه قالوا: يا أبا الفضل هذا والله هو التجلد لحر المصيبة، قال: كلا والذى حلفتكم به لقد افتتح محمد خيبر وترك عروساً على ابنة ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها، فأصبحت له ولأصحابه، قالوا: من جاءك بهذا الخبر؟ قال: الذى جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مسلماً وأخذ ماله وانطلق ليلحق محمداً وأصحابه ليكون معهم. قالوا: ثقلت عدو الله أما والله لو علمنا به لكان لنا وله شأن. قال: ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك، فتوصل الحجاج بفطنته واحتياله إلى تخليصه وتحصيل ماله.

ولما اجتمعت الأحزاب على حرب رسول الله ﷺ عام الخندق، وقصدوا المدينة، وتظاهروا وهم فى جمع كثير وجم غفير من قريش وخطفان، وقبائل العرب وبنى النضير، وبنى قريظة من اليهود، ونازلوا رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، واشتد الأمر، واضطرب المسلمون، وعظم الخوف على ما وصفه الله تعالى فى قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ١١﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١]. فجاء نعيم بن مسعود بن عامر الغطفانى إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إنى قد أسلمت وإن قومى لم يعلموا بإسلامى، فمرنى بما شئت، فقال له رسول الله: خذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة وكان نديماً لهم فى الجاهلية، فقال: يا بنى قريظة قد علمتم ودى إياكم، وخاصة ما بينى وبينكم. قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشاً وخطفان ليسوا كاتنم،

فإن البلد بلدكم وبه أموالكم، وأبناؤكم، ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهروهم عليه وأموالهم، وأولادهم ونساؤهم بغير بلدكم، وليسوا مثلكم لأنهم إن رأوا فرصة اغتصموها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرفهم يكونون بأيديهم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً، قالوا: أشرت بالرأى، ثم أتى قريشاً، فقال لأبى سفيان بن حرب: وكان إذ ذاك قائد المشركين من قريش ومن معه من كبراء قريش: قد علمتم ودى لكم، وفراقى محمداً، وإنه قد بلغنى أمر وأحببت أن أبلغكموه نصحاً لكم، فاكتموه على. قالوا: نعم، قال: اعلموا أن معشر يهود بنى قريظة قد ندموا على ما فعلوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه يقولون: إننا قد ندمنا على نقض العهد الذى بيننا وبينك، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجلاً من أشرفهم، فنسلمهم إليك، فتضرب رقابهم، ثم نكون معك على من بقى منهم، فنستأصلهم، فأرسل يقول نعم. فإن بعث إليكم يهود بنى قريظة يلتصمون منكم رهائن من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً، ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم، فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان ورؤس بنى غطفان إلى بنى قريظة يقولون لهم: إننا لسنا بدار مقام، وقد هلك الخف والحافر، فاعتدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ فيما بيننا وبينه، فأرسلوا يقولون لهم: إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ولنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً، فإننا نخشى إن دهمتكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تسمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلدنا ولا طاقة لنا به، فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله إن الذى حدثكم به نعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا إلى بنى قريظة يقولون: إننا لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال، فاخرجوا وقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل: إن الكلام الذى ذكره نعيم بن مسعود لحق، وما يريد القوم إلا أن تقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك شمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلدكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان إننا لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً، فأبوا عليهم، فخذل الله تعالى بينهم، وأرسل عليهم الريح، ففترقوا وارتحلوا. وكان هذا من لطف الله تعالى أن ألهم نعيم بن مسعود هذه الفتنة وهداه إلى اليقظة التى عمّ نفعها وحسن وقعها.

وأما ما جاء فى التيقظ والتبصر فى الأمور: فقد قالت الحكماء: من أيقظ نفسه وألبسها لباس التحفظ أيس عدوه من كيدته له وقطع عنه أطماع الماكرين به. وقالوا: اليقظة حارس لا ينام وحافظ لا ينسام، وحاكم لا يرتشى، فمن تدرّع بها أمن من الاختلال والغدر والجور والكيد والمكر. وقيل: إن كسرى أنو شروان كان أشد الناس تطلعاً فى خفايا الأمور، وأعظم خلق الله تعالى فى زمانه تفحصاً وبحثاً عن أسرار الصدور، وكان ييث العيون على الرعايا والجواسيس فى البلاد ليقف على حقائق الأحوال، ويطلع على غوامض القضايا، فيعلم المفسد فيقابله بالتأديب، والمصلح فيجازيه بالإحسان، ويقول: متى غفل الملك عن تعرف ذلك، فليس له من الملك إلا اسمه، وسقطت من القلوب هيئته.

وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال: خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى ليلة من الليالى يطوف يتفقد أحوال المسلمين، فرأى بيتاً من الشعر مضروباً، فلم يكن قد رآه بالأمس، فدنا منه، فسمع فيه أنين امرأة، ورأى رجلاً قاعداً، فدنا منه وقال له: من الرجل؟ فقال له: رجل من البادية قدمت إلى أمير المؤمنين لأصيب من فضله، قال: فما هذا الأنين؟ قال: امرأة تتمخض قد أخذها الطلق. قال: فهل عندها أحد؟ قال: لا، فانطلقت عمر والرجل لا يعرفه فجاء إلى منزله، فقال لامرأته أم كلثوم بنت على بن أبى طالب بنت فاطمة الزهراء رضى الله عنهما: هل لك فى أجر قد ساقه الله تعالى لك؟ قالت: وما هو؟ قال: امرأة تتمخض ليس عندها أحد. قالت: إن شئت، قال: فخذى معك ما يصلح للمرأة من الخرق والدهن، واتنى بقدر وشحم وحبوب. فجاءت به، فحمل القدر، ومشيت خلفه حتى أتى البيت، فقال: ادخلى إلى المرأة، ثم قال للرجل: اوقد لى ناراً، ففعل، فجعل عمر ينفخ النار ويضرمها والدخان يخرج من خلال لحيته حتى أنضجها وولدت المرأة، فقالت أم كلثوم رضى الله عنها: بشر صاحبك يا أمير المؤمنين بغلام، فلما سمعها الرجل تقول يا أمير المؤمنين ارتاع وخجل، وقال: واخجلتاه منك يا أمير المؤمنين أهكذا

تفعل بنفسك؟ قال: يا أخا العرب: من ولى شيئاً من أمور المسلمين ينبغي له أن يتطلع على صغير أمورهم وكبيره، فإنه عنها مسئول ومتى غفل عنها خسر الدنيا والآخرة. ثم قام عمر رضى الله عنه، وأخذ القدر من على النار وحملها إلى باب البيت، وأخذتها أم كلثوم. وأطعمت المرأة، فلما استقرت وسكنت طلعت أم كلثوم، فقال عمر رضى الله عنها للرجل: قم إلى بيتك وكُل ما فى البرمة، وفى غد انت إلينا، فلما أصبح جاء، فجهزه بما أغناه به وانصرف.

وكان رضى الله عنه من شدة حرصه على تعرف الأحوال وإقامة قسطاس العدل وإزاحة أسباب الفساد وإصلاح الأمة يعس بنفسه، ويباشر أمور الرعية سرّاً فى كثير من الليالى، حتى أنه فى ليلة مظلمة خرج بنفسه فرأى فى بعض البيوت ضوء سراج، وسمع حديثاً، فوقف على الباب يتجسس، فرأى عبداً أسوداً قدامه إناء فيه مزر وهو يشرب ومعه جماعة، فهم بالدخول من الباب، فلم يقدر من تحصين البيت، فتسور على السطح ونزل إليهم من الدرجة، ومعه الدرة، فلما رآوه قاموا، وفتحوا الباب وانهزموا فمسك الأسود، فقال له: يا أمير المؤمنين قد أخطأت وإنى تائب، فاقبل توبتى، فقال: أريد أن أضربك على خطيئتك. فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت قد أخطأت فى واحدة، فأنت قد أخطأت فى ثلاث: فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢] وأنت تجسس، وقال تعالى: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] وأنت أتيت من السطح، وقال تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]، وأنت دخلت وما سلمت، فهب هذه لهذه، وأنا تائب إلى الله تعالى على يدك أن لا أعود، فاستتوبه، واستحسن كلامه.

وله رضى الله تعالى عنه وقائع كثيرة مثل هذه.

وكان معاوية بن أبى سفيان رضى الله تعالى عنه قد سلك طريق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى ذلك، وكان زياد بن أبيه يسلك مسلك معاوية فى ذلك حتى نقل عنه أن رجلاً كلمه فى حاجة له وجعل يتعرف إليه ويظن أن زياداً لا يعرفه، فقال: أنا فلان ابن فلان فتبسم زياد وقال له: أتعرف إلى، وأنا أعرف بك منك بنفسك؟ والله إنى لأعرفك وأعرف أباك وأعرف أمك، وأعرف جدك وجدتك، وأعرف هذه البردة التى عليك وهى لفلان، وقد أبارك إياها، فبهت الرجل وارتعد، حتى كاد يغشى عليه.

ثم جاء بعدهم من اقتدى بهم وهو: عبد الملك بن مروان، والحجاج، ولم يسلك بعدهما ذلك الطريق، واقتفى بآثار ذلك الفريق إلا المنصور ثانى خلفاء بنى العباس ولى الخلافة بعد أخيه السفاح، وهى فى غاية الاضطراب فنصب العيون، وأقام المتطلعين، وبث فى البلاد والنواحي من يكشف له حقائق الأمور والرعايا، فاستقامت له الأمور، ودانت له الجهات ولقد ابتلى فى خلافته بأقوام نازعوه، وأرادوا خلعه، وتمردوا عليه، وتكاثروا، فلولا أن الله تعالى أعانه بتيقظه وتبصره ما ثبت له فى الخلافة قدم، ولا رفع له مع قصد أولئك القاصدين علم، لكنه بث العيون فعرف من انطوى على خلافه فعالجه بإتلافه، واطلع على عزائم المعاندين فقطع رؤوس عادهم بأسيافه، وكان بكمال يقظته يتلقى المحذور بدفعه دون رفعه، ويعاجل المخوف بتفريق شمله قبل جمعه، فذلت له الرقاب ولانت لخلافته الصعاب، وقرر قواعدها وأحكمها بأوثق الأسباب، فمن آثار يقظته وفطته ما نقله عنه عقبة الأزدى قال: دخلت مع الجند على المنصور فارتابني، فلما خرج الجند أدناني وقال لى: من أنت؟ فقلت: رجل من الأزد، وأنا من جند أمير المؤمنين قدمت الآن مع عمر بن حفص، فقال: إنى لأرى لك هبة وفيك نجابة، وإنى أريدك لأمر وأنا به معنى، فإن كفيئته رفعتك، فقلت: إنى لأرجو أن أصدق ظن أمير المؤمنين، فقال: اخف نفسك واحضر فى يوم كذا. قال: فغبت عنه إلى ذلك اليوم، وحضرت، فلم يترك عنده أحداً، ثم قال لى: اعلم أن بنى عمنا هؤلاء قد أبوا إلا كيد ملكنا واغتيالهم ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا يكاتبونهم ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم والطفاد بلادهم، فخذ معك عيناً من عندى، والطفاداً، وكتباً، واذهب حتى تأتى عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب، فاقدم عليه متخشعاً، والكتب على السنة أهل تلك القرية والالطفاد من عندهم إليه، فإذا رآك، فإنه سيردك ويقول لا أعرف هؤلاء القوم، فاصبر عليه وعاوله وقل له: قد سيرونى سرّاً، وسيروا معي الطافاً وعيناً، وكلما جبهك، وأنكر اصبر عليه، وعاوله، واكشف باطن أمره، قال عقبة: فأخذت كتبه والعين والالطفاد، وتوجهت إلى جهة الحجاز حتى قدمت على عبد الله بن الحسن، فلقيته بالكتب،

فأنكرها ونهرنى وقال: ما أعرف هؤلاء القوم قال عقبة: فلم أنصرف، وعاودته القول وذكرت له اسم القرية وأسماء أولئك القوم، وأنا معى الطافاً، وعيناً، فأنس بى، وأخذ الكتب وما كان معى. قال عقبة: فتركته ذلك اليوم، ثم سألتها الجواب، فقال: أما كتاب، فلا أكتب إلى أحد، ولكن أنت كتابى إليهم، فأقرئهم السلام وأخبرهم أن ابني محمداً وإبراهيم خارجان لهذا الأمر وقت كذا وكذا، قال عقبة: فخرجت من عنده، وسرت حتى قدمت على المنصور فأخبرته بذلك، فقال لى المنصور: إنى أريد الحج، فإذا صرت بمكان كذا وكذا وتلقانى بنو الحسن وفيهم عبد الله، فإنى أعظمه وأكرمه وأرفعه، وأحضر الطعام، فإذا فرغ من أكله، ونظرت إليه، فتمثل بين يدى، وقف قدامه، فإنه سيصرف وجهه عنك، فدر حتى تقف من ورائه واغمز ظهره بإبهام رجلك حتى يملأ عينيه منك، ثم انصرف عنه، وإياك أن يراك وهو يأكل. ثم خرج المنصور يريد الحج حتى إذا قارب البلاد تلقاه بنو الحسن، فأجلس عبد الله إلى جانبه وحادثه، فطلب الطعام للغداء فأكلوا معه، فلما فرغوا أمر برفعه، فرفع، ثم أقبل على عبد الله بن الحسن وقال: يا أبا محمد قد علمت أن مما أعطيتنى من العهود والمواثيق أنك لا تريدنى بسوء ولا تكيد لى سلطاناً، قال: فأنا على ذلك يا أمير المؤمنين. قال عقبة: فلحظنى المنصور بعينه، فقامت حتى وقفت بين يدى عبد الله بن الحسن، فأعرض عنى، فدرت من خلفه وغمزت ظهره بإبهام رجلى، فرفع رأسه وملأ عينيه منى ثم وثب حتى جثى بين يدى المنصور وقال: أقلنى يا أمير المؤمنين أقالك الله. فقال له المنصور: لا أقالنى الله إن لم أقتلك، وأمر بحبسها وجعل يتطلب ولديه محمد وإبراهيم ويستعلم أخبارهما. قال علي الهاشمى صاحب غدائه، دعانى المنصور يوماً فإذا بين يديه جارية صفراء، وقد دعا لها بأنواع العذاب وهو يقول لها: ويلك اصدقينى، فوالله ما أريد إلا الألفة، ولئن صدقتينى لأصلن رحمه ولأتابعن البر إليه. وإذا هو يسألها عن محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب. وهى تقول: لا أعرف له مكاناً، فأمر بتعذيبها، فلما بلغ العذاب منها أغمى عليها، فقال: كفوا عنها، فلما رأى أن نفسها كادت تتلف قال: ما دواء مثلها؟ قالوا: شم الطيب وصب الماء البارد على وجهها وأن تسقى السويق، ففعلوا بها ذلك، وعالج المنصور بعضه بيده، فلما أفاقت سألها عنه، فقالت: لا أعلم، فلما رأى إصرارها على الجحود قال لها: أتعرفين فلانة الحجامة، فلما سمعت منه ذلك تغير وجهها وقالت: نعم يا أمير المؤمنين تلك من بنى سليم قال: صدقت. هى والله أمتى ابتعتها بمالى ورزقى يجري عليها في كل شهر، وكسوة شتائها وصيفها من عندى، سيرتها وأمرتها أن تدخل منازلكم وتحجمكم وتتعرف أحوالكم وأخباركم، ثم قال لها: أتعرفين فلاناً البقال؟ قالت: نعم يا أمير المؤمنين هو فى بنى فلان، قال: صدقت هو والله غلامى دفعت إليه مالا، وأمرته أن يبتاع به ما يحتاج إليه من الأمتعة، وأخبرنى أن أمة لكم يوم كذا وكذا جاءت إليه بعد صلاة المغرب تسأله حناء، وحوائج، فقال لها: ما تصنعين بهذا؟ قالت: كان محمد بن عبد الله بن الحسن فى بعض الضياع بناحية البقيع، وهو يدخل الليلة، وأردنا هذا ليتخذ النساء ما يحتجن إليه عند دخول أزواجهن من المغيب، فلما سمعت الجارية هذا الكلام من المنصور ارتعدت من شدة الخوف، وأذعنت له بالحديث وحدثته بكل ما أراد. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في ذكر الدواب والوحوش والطيور والهوام والحشرات
وما أشبه ذلك مرتباً على حروف المعجم

حرف الهمزة: (الأسد) من السباع، والأنثى أسدة، وله أسماء كثيرة، فمن أشهرها: أسامة، والحرث، وقسورة، والغضنفر، وحيدرة، والليث، والضرغام. ومن كناه: أبو الإبطال، وأبو شبل، وأبو العباس، وهو أنواع: منها ما وجهه وجه إنسان، وشكل جسده كالبقرة، وله قرون سود نحو شبر، ومنها ما هو أحمر كالعنب وغير ذلك، وتلد أمه قطعة لحم، وتستمر تحرسه ثلاثة أيام، ثم يأتي أبوه فينفخ فيه، فتتفرج أعضاؤه وتتشكل صورته، ثم ترضعه، وتستمر عيناه مغلقة سبعة أيام، ثم تفتح ويقوم على تلك الحالة بين أبيه وأمه إلى ستة أشهر، ثم يتكلف الكسب بعد ذلك وله صبر على الجوع والعطش وعنده شرف نفس يقال: أنه لا يعاود فريسته، ولا يأكل من فريسة غيره، ولا يشرب من ماء ولغ فيه كلب وفي ذلك يقول بعضهم:

سأترك حبيكم من غير بغض
إذا وقع الذباب على طعام
وتجنب الأسود ورود ماء
وإذا كان الكلاب يلغن فيه
وذلك لكثرة الشركاء فيه
رفعت يدي ونفسي تشتهيه
إذا كان الكلاب يلغن فيه

وإذا أكل نهش نهشاً، وريقه قليل جداً، لذلك يوصف بالبحر^(١)، وعنده شجاعة وجبن وكرم، فمن شجاعته الإقدام على الأمور، وعدم الاكتراث بالغير، ومن جنبه: أنه يفر من صوت الديك والسنور، والطست، ويتحير عند رؤية النار. ومن كرمه: أنه لا يقرب المرأة خصوصاً إذا كانت حائضاً. وقيل: أربع عيون تضيء بالليل، عين الأسد، وعين النمر، وعين السنور، وعين الأفعى.

وروى أنه لما تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] قال عتبة بن أبي لهب: كفرت برب النجم يعني نفسه، فقال رسول الله ﷺ: اللهم سلط عليه كلباً من كلابك ينهشه، فخرج مع أصحابه في غير إلى الشام حتى إذا كانوا بمكان يقال له الزرقاء، زار الأسد، فجعلت فرائضه ترتعد، فقالوا له: من أي شيء ترتعد فرائضك^(٢)، فوالله ما نحن وأنت إلا سواء؟ فقال: إن محمداً دعا علياً: ووالله ما أظلت السماء من ذي لهجة أصدق من محمد. ثم وضعوا العشاء، فلم يدخل يده فيه، ثم جاء النوم، فحاطوا أنفسهم بمناعمهم، وجعلوه بينهم، وناموا، فجاء الأسد يتهمس وشمهم رجلاً رجلاً حتى انتهى إليه، فضغطة ضغطة كانت إياها، فسمع وهو بأخر رمق يقول: ألم أقل لكم إن محمداً أصدق الناس. ول بعضهم في الأسد:

عبوس شموس مصلخد مكابد
جري على الأقران للقرن قاهر
برائنه شثن وعيناه في الدجى
كجمر القضي في وجهه الشر ظاهر
يدبل بأنياب حداد كأنها
إذا قلص الأشداق عنها خناجر

فائدة: إذا أقبلت على واد مسبح، فقل: أعوذ بدانيال والجب من شر الأسد^(٣)، وسبب ذلك ما قيل: إن بختنصر رأى في نومه أن هلاكه يكون على يد مولود، فجعل يأمر بقتل الأطفال، فخافت أم دانيال عليه، فجاءت إلى بشر، فألقته فيه، فأرسل الله له أسداً يحرسه، وقيل: إن بختنصر توهم ذلك في دانيال، فضرى له أسدين وجعلهما في الجب وألقاه عليهما، فلم يوذياه، وصارا يصبسان حوله، ويلحسانه، فأقام ما شاء الله تعالى أن يقيم، ثم اشتهى الطعام والشراب، فأوحى الله تعالى إلى أرميا بالشم أن اذهب إلى أخيك دانيال بجب كذا بمكان كذا. قال أرميا: فمرت إلى ذلك الموضع، فلما وقفت على رأس الجب ناديت به، فعرفني فقال: من أرسلك إلي؟ قلت: أرسلني الله إليك بطعام

(١) البحر: التَّن يكون في الفم وغيره.

(٢) الفريضة: لحمه عند تغض الكتف في وسط الجنب عند منبض القلب، وهما فريستان ترتعدان عند الفزع.

(٣) طلب العوذ لا يكون إلا من الله.

وشراب، فقال: الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره، والحمد لله الذى لا يخيب من قصده، والحمد لله الذى من وثق به لا يكله إلى غيره، والحمد لله الذى يجزي بالإحسان إحساناً وبالصبر نجاه وغفراناً، والحمد لله الذى يكشف ضرنا بعد كربنا، والحمد لله الذى هو ثقتنا حين تسوء ظنوننا بأعمالنا، والحمد لله الذى هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا. قال: ثم صعد به أرمياء من الجب، وأقام عنده مدة، ثم فارقه ورجع.

وحكى أن يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام مرّ بقبر دانيال عليه الصلاة والسلام، فسمع منه صوتاً يقول: سبحان من تعزز بالقدرة وقهر العباد بالموت. قال بعض الصالحين: من قال هذه الكلمات استغفر له كل شيء.

وحكى أن إبراهيم بن أدهم كان فى سفره ومعه رفقة، فخرج عليهم الأسد، فقال لهم: قولوا اللهم احرسنا بعينك التى لاتنام واحفظنك بركنك الذى لايرام، وارحمنا بقدرتك علينا، فلا نهلك وأنت رجاؤنا يا الله يا الله يا الله قال: فولى الأسد هارباً. وقيل: لما حمل نوح عليه الصلاة والسلام فى سفينته من كل زوجين اثنين قال أصحابه: كيف نظمئن ومعنا الأسد؟ فسلب الله عليه الحمى، وهى أول حمى نزلت فى الأرض، ثم شكوا إليه العذرة، فأمر الله تعالى الخنزير، فعطس فخرج منه الفأر، فلما كثر وزاد ضرره، فشكوا ذلك لنوح عليه السلام، فأمر الله سبحانه وتعالى الأسد، فعطس، فخرج منه الهر، فحجب الفأر عنهم، ويحرم أكل السبع لنهييه عليه الصلاة والسلام عن أكل كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير.

خواصه: فمن خواصه أن صوته يقتل التماسيح، وشحمه من طلى به يده لم يقربه سبع، ومرارة الذكر منه تحل المعقود، ولحمه ينفع من الفالج، وإذا وضعت قطعة من جلده فى صندوق لم يقربه سوس ولا أرضة، وإذا وضع على جلد غيره من السباع تساقط شعره، وهو من الحيوان الذى يعيش ألف سنة على ما ذكر، وعلامة ذلك كثرة سقوط أسنانه.

(الإبل) قيل: ما خلق الله شيئاً من الدواب خيراً من الإبل. إن حملت أثقلت، وإن سارت أبعدت، وإن حلبت أروت، وإن نحرت أشبعت. وفى حديث: «الإبل عز لأهلها والغنم بركة، والخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة»، وهى من الحيوان العجيب، وإن كان عجبه قد سقط لكثرة مخالطته الناس، وقد أطاعها الله للأدمى وغيره حتى قيل: إن قطاراً كان ببعض حبله دهن، فمرت فارة، فجذبتة، فسار معها القطار بواسطة جذبيها له، وهى مراكب البر، ولذلك قرنها الله تعالى بالسفن فقال تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢]. ولما كانت مراكب البر والبر فيه ما ماؤه قليل، وما ماؤه كثير جعل الله تعالى لها صبراً على العطش حتى قيل: إنه يرتفع ظمؤها إلى عشر. وفى الحديث: «لاتسبوا الإبل فإنها من نفس الله تعالى أى مما يوسع به على الناس». حكاه ابن سيده. والذى يعرف: لاتسبوا الريح فإنها من نفس الرحمن، قال أصحاب الكلام فى طبائع الحيوان: ليس لشيء من الفحول مثل ما للجمل عند هيجانه، فإنه يسوء خلقه، فيظهر زبده، ويقل رغاؤه فلو حمل عليه ثلاثة أضعاف عادته حمل، ويقل أكله، ويخرج له عند رغائه شقشقة لاتعرف من أى شيء هى من أجزائه، وهو من الأحرار حتى قيل: إنه لايتزو لا على أمه ولا على أخته حتى قيل: إن بعض العرب ستر ناقته بثوب ثم أرسل عليها ولدها، فلما عرف ذلك عمد إلى إحليله، فأكله، ثم حقد على صاحبه حتى قتله، وليس له مرارة، ولذلك كثر صبره. وقيل: يوجد على كبده شيء رقيق يشبه المرارة ينفع الغشاوة فى العين كحلاً، وفى معدته قوة حتى أنها تهضم الشوك وتستطيعه، ويحل أكله بالنص والإجماع، وأما تحريم يعقوب عليه السلام أكلها فباجتهاد منه، وذلك أنه كان يسكن البوادي، فاشتكى عرق النساء، فلم يجد ما هو يلائمه إلا ترك أكل لحومها، فلذلك حرّمها. وأما انتقاض الوضوء بأكل لحمها، فاختلف العلماء فى ذلك، فذهب الأكثرون إلى أنه لاينقض، وعليه الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وأبى، وابن عباس، وأبو الدرداء، وأبو طلحة، وعامر بن ربيعة، وأبو أمامة، وجماهير التابعين، وبه أخذ مالك، والشافعى، وأبو حنيفة، وأصحابهم، وخالف فى ذلك أحمد وإسحاق، ويحيى بن يحيى، وابن المنذر، وابن خزيمة، واختاره البيهقى، وهو مذهب الشافعى القديم.

خواصه: قال ابن زهير وغيره: أكله يزيد فى الباه وفى الإنعاض بعد الجماع، وبوله يفيق السكران، ووبره إذا أحرق وذّر على دم سائل قطعه، وقراده إذا ربط على كم عاشق يزول عشقه.

(الأرضة) بفتح الهمزة والراء، دويبة صغيرة كنصف العدسة تأكل الخشب والورق، ولما كان فعلها في الأرض أضيف اسمها إليها. قال القزويني: إذا أتى على الأرضة سنة نبت لها جناحان طويلان تطير بهما، ويقال: إنها الدابة التي دلت الجن على موت سليمان عليه الصلاة والسلام، ومن شأنها أنها تبنى لنفسها بيتاً من عيدان تجمعها مثل بيت العنكبوت منخرطاً من أسفله إلى أعلاه، وله في إحدى جهاته باب مربع، ومنه تعلم الأوائل وضع النواويس لموتاهم، والنمل عدوها، وهو أصغر منها، فيأتي من خلفها ويحتملها ويمشي بها إلى جحره لأنه لو أتاها مستقبلاً لا يغلبها.

(الأرنب) حيوان شبه العنق قصير اليدين طويل الرجلين يطأ الأرض على مؤخر قدميه، وهو اسم يطلق على الذكر والأنثى وله شدة شبق وربما تسفد وهي حبلى، ويكون عاماً ذكراً وعاماً أنثى. ومن عجائبها أنها تنام وعيناها مفتوحتان، فيأتي الصياد، فيظنها مستيقظة، قيل: من رأى أرنباً عند خروجه من بيته أول ما يخرج أو رآه عند قيامه من نومه، واصطبج به لم تقض له حاجة في ذلك اليوم، ومن عجيب أمره أن تحمل الأنثى منه باثنين وثلاثة وأربعة، ولا تلد إلا تحت الأرض خوفاً على أولادها من الإنسان، وتحفر تحت الأرض الحفائر القوية حتى أنها تخرب الجدران، وعند ولادتها يتحل شعرها وهي تحضن الأولاد إلى عشرين يوماً، ومن طبعه أنه أبله، وفيه قوة وشدة وفي سفاده حالة نزوه يصرخ الذكر والأنثى كالسنانير، فإذا وقع منه الإنزال وقع على الأرض قليل الحركة، وعند سفاده تدير له وجهها فإذا ملكها بعد ذلك فإنها تجرى به وهو راكب عليها ويجرى معها.

فائدة: ذكر ابن الأثير في الكامل أن صديقاً له اصطاد أرنباً وله أنثيان وذكر وفرج. وقيل: التقطت الأرنب ثمرة فاختمتها الثعلب، فأكلها، فانطلقا يتخاصمان إلى الضب، فقال الأرنب: يا أبا حسل، فقال: سمياً دعوت. قالت: أتيناك لنختصم قال: عادلاً وحكيماً. قالت: فاخرج إلينا، قال: في بيته يؤتى الحكم. قالت: إني وجدت ثمرة حلوة قال: فكليها. قالت: اختلسها الثعلب. قال: لنفسه بغى الخير. قالت: فلطمته. قال: بحقك أخذت، قالت: فلطمني. قال: اقتص. قالت: فاقض بيننا. قال: قد قضيت، فذهبت أقواله أمثالا.

ومن ذلك ما حكى أن عدى بن أرطاة أتى شريحاً القاضي في مجلس حكمه، فقال له: أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط. قال: فاسمع مني. قال: للاستماع جلست. قال: إني تزوجت امرأة. قال: بالرفاء والبنين، قال: شرط أهلها أن لا أخرجها من بينهم، قال: أوف لهم بالشرط. قال: فأنا أريد الخرج. قال: الشرط أملك. قال: أريد أن أذهب. قال: في حفظ الله. قال: فاقض بيننا. قال: قد فعلت. قال: فعلى من قضيت؟ قال: على ابن أمك. قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أخت خالك.

الخواص: قال الجاحظ: من علق عليه كعب أرنب لم تضره عين ولا سحر، وأكل دماغه يبرئ من الارتعاش العارض من البرد، وإن شربت المرأة الحامل أنفحة الذكر، ولدت ذكراً، وإن شربت أنفحة الأنثى ولدت أنثى، وإن علقت عليها زبلها لم تحمل، والأرنب البحري من السموم فلا يحل أكله.

(الأفعى) الأنثى من الحيات والذكر أفعوان، وهو يعيش ألف سنة على ما يقال، ويعرف بالشجاع، والأسود، وهو أشر الحيات وأشرها حيات وأفاعى سجستان، ومن عجيب ما يحكى عنها أنها لدغت إنساناً في رجله فانصدعت جبهته.

وحكى أنها نهشت ناقة وفصيلها يرضع، فمات قبل أمه، وقيل: لما دخل شبيب بن شبة على المنصور قال له: يا شبيب أدخلت سجستان؟ فقال له: نعم. قال: صف لي أفاعيها قال يا أمير المؤمنين: هي دقاق الأعناق، صغار الأذنان، مقلصة الرؤوس، رقص برش، كأنما كسين أعلام الحبرات، كبارهن حتوف، وصغارهن سيوف، وقيل: إنها تندفن في التراب أربعة أشهر في البرد، ثم تخرج، وقد أظلمت عيناها فتمر بشجر الرازيانج وهو الشمر الأخضر، فتحك عينيها به، فيرجع إليها بصرها، فسبحان من ألهمها ذلك، وقال الزمخشري: إذا عميت الأفعى بعد ألف سنة ألهمها الله تعالى أن تأتي البساتين تلقى نفسها على هذه الشجرة، وتحك عينيها بها فتبصر، وقيل: إذا قطع ذنبها عاد كما كان وإذا قُلع نابها عاد بعد ثلاثة أيام، وهي أعدى عدو للإنسان، وقال بعضهم: رأيت حية قد ابتلعت كبشاً عظيم القرنين، فجعلت تضرب به الحجارة يميناً ويساراً حتى كسرت القرنين، وابتلعت وقرنيه والله تعالى أعلم، وقيل: إذا قطع ذنب الحية تعيش إن سلمت من الذر، وقيل: إن بالحبة حيات لها أجنحة تطير بها، وقيل: إن جلدتها ينسلخ عنها في كل سنة مرة وقيل:

إن الجلد لا ينسلخ، وإنما الذى ينسلخ قشر فوق الجلد، وغلاف يخلق لها كل عام، وهى تبيض على عدد أضلاعها، أى ثلاثين بيضة، فيجتمع عليها النمل، فيفسدها بقدرة الله تعالى إلا نادراً. ومن عجيب أمرها أنها لا ترد الماء ولا ترده ولكنها إذا شمت رائحة الخمر، فلا تكاد تصبر عنه مع أنه سبب هلاكها لأنها إذا شربت سكرت، فتعرضت للقتل، والذكر لا يقيم فى الموضع، وإنما تقيم الأنثى لأجل فراخها حتى تكتسب قوة، فإذا قويت أخذتهم وانسابت، فأى جحر وجدته دخلت فيه، وأخرجت صاحبه منه، وعينها لا تدور وإذا قلعت عادت. ومن عجيب أمرها أنها تهرب من الرجل العريان وتفرح بالنار وتقرب منها، وتحب اللبن حباً شديداً، وإذا دخلت بصدرها فى جحر لا يستطيع أقوى الناس إخراجها منه، ولو قطعت قطعاً وليس لها قوائم ولا أظفار وإنما تقوى بظهرها لكثرة أضلاعها.

وحكى عمر بن يحيى العلوى قال: كنا فى طريق مكة، فأصاب رجلاً منا استسقاء، فاتفق أن العرب سرقوا منا، قطار جمال على أحدها ذلك الرجل قال: ثم بعد أيام جمعتنا المقادير، فوجدته قد برئ، فسألناه عن حاله، فقال: إن العرب لما أخذوني جعلوني فى أواخر بيوتهم، فكنت فى حالة أتمنى فيها الموت، وبينما أنا كذلك إذ أتوا يوماً بأفاعى اصطادوها وقطعوا رؤوسها وأذنانها وشووها بعد ذلك، فقلت فى نفسى: هؤلاء اعتادوها، فلا تضرهم، فلعلنى إن أكلت منها مت فاسترحت، فاستطعمتهم، فأطعموني واحدة، فلما استقرت فى بطنى أخذنى النوم، فنمت نوماً ثقيلاً، ثم استيقظت، وقد عرقت عرقاً شديداً، واندفعت طبيعتى نحو مائة مرة، فلما أصبحت وجدت بطنى قد ضم، وقد انقطع الألم، فطلبت منهم مأكولاً، فأكلت، وأقمت عندهم أياماً، فلما نشطت، ووثقت من نفسى بالحركة أخذت فى الطريق مع بعضهم وأتيت الكوفة.

فائدة: قيل إن الريحان الفارسى لم يكن قبل كسرى، وإنما وجد فى زمانه، وسببه أن كسرى كان ذات يوم جالساً فى بعض متفرجاته إذ جاءته حية، فانسابت بين يديه، وقرغت وصارت تتقلب مثل الذى يشتكى، فأراد بعض الجند قتلها، فمنعهم الملك، ثم قال لهم: انظروا أمرها، فلما سمعت ذلك انسابت بين يديه، فأمرهم أن يتبعوها إلى المكان الذى تريده، قال: فجاءت إلى بئر وصارت تنظر فيه قال: فنظروا فإذا فيه حية عظيمة وعلى ظهرها عقرب أسود فنخسها بعضهم برمح، فقتلها، وتركوها ورجعوا، فأخبروا الملك بذلك، فلما كان الغد جاءت الحية للملك وفى فمها بزر فشرته بين يدي الملك، وذهبت، فقال الملك: إنها أرادت مكافأتنا اجعلوه فى الأرض لننظر ما يكون من أمره قال: ففعلوا ذلك، فطلع منه الريحان قال: فلما انتهى أمره أتوا به إلى الملك قال: وكان به زكام، فشمه فبرئ.

لطيفة: من غريب ما اتفق لعماد الدولة أنه لما ملك شيراز اجتمع عليه أصحابه وطلبوا منه مالاً، ولم يكن عنده ما يرضيهم به، فاغتم لذلك ونام مستلقياً على قفاه مفكراً فى ذلك، وإذا بحية عظيمة خرجت من سقف ذلك المجلس ودخلت فى سقف آخر قال: فطلب سلماً وصعد لينظر المكان الذى خرجت منه. فلما رآه وجد كوة فنظر فى داخلها، فإذا هى مطمورة، فدخلها، فوجد فيها صندوقاً فيه خمسمائة ألف دينار، فأمر بإخراجها وإنفاقه على عسكره.

ومن اللطف ما اتفق له أيضاً: أنه كان بتلك البلد خياط أطروش^(١)، وكان الملك الذى قبله قد أودع عنده وديعة مال قال، فطلبه عماد الدولة ليخيط له على عادته لأنه هو الذى يخيط للملوك قال: فتوهم الأطروش أنه غمز عليه بسبب الوديعة فلما حضر بين يدي عماد الدولة قال له: إن فلاناً الملك لم يدع عندى سوى اثنى عشر صندوقاً، ولم أدر ما فيها، فأمر بإحضارها، فأحضرها فأخذها عماد الدولة، ووسع بها على جنده، وتعجب من هاتين القضيتين فكانت هذه الأسباب من دلائل السعادة له. وأمر النبى ﷺ بقتل الحيات بعد أن تنذر ثلاث مرات، وقيل: ثلاثة أيام، وأما سكان البيوت، فالإنذار لها متعين. وفى الحديث: «من قتل حية فكأنما قتل مشركاً ومن لبس خفاً فلينفذه، ومن آوى إلى فراشه فلينظفه».

الخواص: يقال إن دمها يجلو البصر وقلبها إذا علق على إنسان لا يؤثر فيه السحر وضرسها إذا علق على من به وجع الضرس سكن الأيمن للأيمن والأيسر للأيسر، ولحمها قال بقراط الحكيم: من أكله أمن من الأمراض الصعبة.

(الأنيس) وتسميه الرماة الأنيسة لأنه من طيور الواجب عندهم وهو طير له لون حسن غذاؤه الفاكهة ومأواه الأنهار والبساتين والغياض وله صوت حسن كالقمرى.

(١) أطروش: اصم.

(الأوز) طير يحب السباحة وفراخه تخرج من البيضة تسبح.

الخواص: فى جوفه حصاة تنفع المبطون ودهنه ينفع من ذات الجنب وداء الثعلب إذا طلى به، ولسانه ينفع لقطار البول وغذاؤه جيد إلا أنه بطئ الهضم.

(الأيل) بتشديد الياء المكسورة، ذكر الوعل، وله أسماء باختلاف اللغات، وهو يشبه بقر الوحش وإذا خاف من الصياد رمى بنفسه من رأس الجبل ولا يتضرر بذلك، وإذا لسعته حية ذهب إلى البحر فأكل السرطان فيشفى.

خواصه: إن السمك يحب رؤيته وهو يحب ذلك، ولذلك أكثر ما يكون بقرب البحر والصيادون يعرفون ذلك، فيلبسون جلده ليراهم السمك، فيأتى لهم وهو مولع بأكل الحيات وربما لسعته، فتسيل دموعه تحت محاجر عينيه حتى تصير نقرتين من كثرة ذلك، ثم تجمد تلك الدموع فتصير كالشمع، فتؤخذ وتجعل دواء للسم، وهو الذى يسمى بالبتزهير الحيوانى، وأجوده الأصفر، وأكثر ما يكون ببلاد الهند والسند وفارس، وإذا وضع على لسعة الحيات أبرأها وإن وضعه الملسوع فى فيه نفعه، وهذا الحيوان لا تنبت قرناه إلا بعد ستين وينبتان فى أول الأمر مستقيمين، ثم بعد ذلك يحصل فيهما التشعب ولا يزال يزيد إلى ست سنين، فحينئذ يصيران كنعلتين، ثم بعد ذلك يلقيهما فى كل سنة مرة، ثم ينبتان. قال أرسطو: وهذا النوع يصاد بالصفير والأصوات المطربة، فإنه يحب الطرب والصيادون يشغلونه بذلك ويأتونه من ورائه، فإذا رآوه قد استرخت أذناه وثبوا عليه، وقرنه مصمت وإحليله من عصب لا عظم فيه ولا لحم وهو من الحيوان الذى يزيد فى السمن، فإذا حصل له ذلك فر من مكانه خوفاً من الصيادين وحكمه حل أكله.

الخواص: إذا بخر بقرنه البيت طرد الهوام التى فيه، وإذا أحرق واستاك به الذى به صفرة الأسنان زال ذلك عنه، ومن علق عليه شئ منه ذهب نومه، ومن خواصه: أن دمه يفتت الحصاة التى بالثانة شرباً، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

حرف الباء الموحدة: (باز) كنيته أبو الأشعث وهو من أشد الحيوان تكبراً، وأضيقتها خلقاً، قال القزوينى: إنها لا تكون إلا أنثى وذكرها من غيرها إما من جنس الحداة أو الشواهين، ولأجل ذلك تختلف ألوانها، وهو أصناف منها البازى، والباشق، والشاهين، والبيدق، والصقر، والبازى أحرها مزاجاً لأنه لا يصبر على العطش، فلذلك لا يفارق الماء والأشجار المتسعة والظل والظليل، وهو خفيف الجناح سريع الطيران تكثر أمراضه من كثرة طيرانه، لأنه كلما طار انحط لحمه وهزل، وأحسن أنواعه ما قل ريشه، واحمرت عيناه مع حدة فيهما. قال الشاعر:

لو استضاء المرء فى إدلاجـه بعينه كفته عن سراجـه

ودونه الأزرق الأحمر العينين والأصفر دونهما. ومن صفاته المحمودة: أن يكون طويل العنق، عريض الصدر، بعد ما بين المنكبين، شديد الانحطاط من الجوف، غليظ الذراعين مع قصر فيهما.

لطيفة: من عجيب أمره أن الرشيد خرج ذات يوم للصيد، فأرسل بازاً، فغاب قليلاً ثم أتى وفى فمه سمكة، فأحضر الرشيد العلماء وسألهم عن ذلك، فقال مقاتل يا أمير المؤمنين: رويانا عن جدك ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال: إن الجوف معمور بأمم مختلفة الخلق، وفيه دواب تبيض وتفرخ على هيئة السمك لها أجنحة ليست بذوات ريش، فأجاز مقاتلاً على ذلك وأكرمه.

(بالة) سمكة عظيمة. قال القزوينى: يقال إن طولها يبلغ خمسمائة ذراع، وقال غيره: خمسون، ويقال لها: العنبر وهى تظهر فى بعض الأحيان لأصحاب المراكب، فإذا رآوها طلبوا بالطبول حتى تنفر لأن لها جناحين كالقناطر إذا نشرتها أغرقتهم، فإذا بغت على حيوان البحر وزاد شرها أرسل الله عليها سمكة نحو الذراع تلتصق بأذنها ولا خلاص لها منها، فتنزل إلى قعر البحر وتضرب رأسها به حتى تموت ثم تطفو بعد ذلك، فيقذفها الريح إلى الساحل، فيأخذها أهله ويشقون جوفها ويستخرجون منها العنبر.

(بيغاء) هى أصناف كثيرة منها الأخضر والرمادى والأصفر والأبيض يتخذها الملوك والرؤساء لحسن لونها وصوتها وفصاحتها.

حكى: أنه أهدى لمعز الدولة درة بيضاء سوداء الرجلين والمنقار ويقال إن نوعاً منها يقرأ القرآن.

الخواص: من أكل لسانها تفصح وإذا جفف دمها وجعل بين الصديقين حصلت بينهما الخصومة وزيلها يخلط بماء الحصرم ويكتحل به ينفع من الرمد وظلمة البصر.

(بجع) طائر أبيض اللون يميل إلى الصفرة طويل المنقار كبير البطن أكثر أكله السمك.

(بج) طائر لطيف يأوى أطراف الماء وهو خلقة شريفة لم يوجد غالباً إلا اثنين فقط.

(براق) هو الدابة التي ركبها النبي ﷺ وهو دون البغل وفوق الحمار أبيض اللون.

(برذون) نوع من الخيل دون الفرس العربى، وفى الحديث أن النبي ﷺ ركبته وكذا عمر رضى الله تعالى عنه فلما ركب عمر جعل يتخلخل به فنزل عنه وضرب وجهه وقال: لا علم الله من علمك هذه الخيلاء ولم يركب برذوناً قبله ولا بعده وكنيته أبو الأخطل لطول ذنبه. وأنشد السراج الوراق فى ذم البراذين يقول:

لصاحب الأحبـاس برذونة	بعيدة العهد عن القـرط
إذا رأت خيلاً على مـربط	تقول سـبحانك يا معطى
تمشى إلى خلف إذا مـاشت	كأنما تكتب بالقـبطى

الخواص: إذا شربت امرأة دمه لم تحبل أبداً وزيله يخرج المشيمة والجنين الميت وإذا جفف وذر منه على من به الرعاف انقطع رعاfe وكذا الجرح.

(برغوٹ) تفتح منه الباء وتضم وكنيته أبو طامر وأبو عدى وأبو وثاب وهو يشب إلى ورائه.

حكى: أنه يعرض له الطيران كالنمل وهو يطيل السفاد ويبيض ويفرخ وأصله أولاً من التراب لاسيما فى الأماكن المظلمة وسلطانه فى أواخر الشتاء وأول فصل الربيع، ويقال إنه على صورة الفيل وله أنياب وخرطوم، وقال بعضهم ديبها من تحتى أشد من عضها وليس ذلك بدبيب ولكن البرغوٹ خبيث يستلقى على ظهره ويرفع قوائمه فيزغزغ بها فيظن من لا علم له أنه يمشى تحت جنبيه وكان أبو هريرة رضى الله تعالى عنه يلقى ثوبه فيلتقط البراغيث ويدع القمل، فقال له أنس فى ذلك فقال: أبداً بالفرسان وأكر على الرجالة، وأنشد أعرابى:

ليل البراغيث أعيانى وأنصبنى	لا بارك الله فى ليل البراغيث
كأنهن وجلدى إذ خلون به	أيتام سوء أغاروا فى المواريث

وقال أبو الرماح الأزدي:

تطاول بالفسطاط ليلى ولم يكن	بوادى الغضى ليلى على بطول
تورقنى حـدب قـصار أذلة	وإن الذى يؤذينه لذليل
إذا جلت بعض الليل منهن جـولة	تعلقن فى رجلى حيث أجـول
إذا ما قتلناهن أضـعن كـثرة	علينا ولا ينعى لهن قـتـل
ألا ليت شـعرى هل ابـيت ليلة	وليس لبرغوٹ على سبـل

وقال ابن أبيك الصفدى:

أشكو إلى الرحمن ما نالنى	من البراغيث الخفاف الثقال
تـعـصـبوا بالليل لما دروا	أنى تقنعت بطيف الخـيال

ولا يسب البرغوٹ لما ورد أن النبي ﷺ سمع رجلاً يسب برغوٹاً فقال: لا تسبه فإنه أيقظ نبياً إلى صلاة الفجر.

فائدة: سئل مالك عن البرغوٹ من يقبض روحه فقال: أله نفس؟ قيل: نعم. قال: الله يتوفى الأنفس حين موتها.

ولقد شكّا عامل إفريقية إلى عمر بن عبد العزيز شر الهوام فكتب إليه إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليقرأ: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١٢] الآية. وقال حنين بن إسحاق: الحيلة في دفع البرغوث أن تأخذ شيئاً من الكبريت فتدخن به في البيت فإنها تفر من ذلك. وقيل يرش البيت بماء السذاب، وقيل: مشاق المراكب يحرق في البيت مع قشور النارج.

(بعوض) قيل: إنه على خلقه الفيل إلا أنه أكثر أعضاء منه فإن للفيل أربعة أرجل وللبعوض ستة ويزيد عليه بأربعة أجنحة وله خرطوم مجوف نافذ فإذا طعن به جسد إنسان استقى الدم وقذف به إلى جوفه فهو له كالبلعوم والحلقوم وبما ألهمه الله تعالى أنه إذا جلس على عضو إنسان يتبع مسام العروق فإنها أرق وأسرع له في إخراج الدم وعنده شره في مصه حتى قيل إنه لا يمض شيئاً فيتركه باختباره إلى أن ينشق أو يطار. ومن عجيب أمره أنه ربما قتل البعير وغيره من ذوات الأربع فيتركه طريحاً. وقال الجاحظ: من علم البعوض أن وراء جلد الجاموس دماً وأن ذلك الدم غذاء لها وأنها إذا طعنت في ذلك الجلد الغليظ نفذ فيه خرطومها مع ضعفه ولو أنك طعنت فيه بمسلات شديدة المتن رهيفة الحد لانكسرت فسبحان من رزقها على ضعفها بقوته وقدرته. قال بعضهم:

أقول لنازل البساتان طوبى	لعيشك لم تشك فيه البعوض
يلم له فليس له قـرار	ويثخنه فليس له نهـوض
حماء قـرصه وطنينه أن	يبيت وعينه فيها غـموض
كذلك حين تهـدى بالأغاني	تكر وفي مسامعك العـروض

ومن الحكم التي أودعها الله تعالى إياها أن جعل الله فيها قوة الحافظة والفكر وحاسة اللمس والبصر والشم ومنفذ الغذاء وجوفاً وعروفاً ومخاً وعظاماً فسبحان من قدر فهدى ولم يترك شيئاً سدى، وقال الزمخشري في تفسير سورة البقرة في ذلك:

يا من يرى مد البعوض جناحها	في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها في نحرها	والمخ من تلك العظام النحل
ويرى خريز الدم في أوداجها	مستقلاً من مفصل في مفصل
ويرى وصول غذا الجنين ببطنها	في ظلمة الأحشا بغير تمقل
ويرى مكان الوطاء من أقدامها	في سيرها وحديثها المستعجل
ويرى ويسمع حس ما هو دونها	في قاع بحر مظلم متـهـول
امن على بتوبة تمحو بها	ما كان منى في الزمان الأول

(بغل) معروف وكنيته أبو قموص وأبو حرون وله كنى غير ذلك كثيرة وهو مركب من الفرس والحمار ولذلك صار له صلابة الحمار وعظم الخيل وهو عقيم لا نسل له.

روى ابن عساكر في تاريخ دمشق عن علي كرم الله وجهه أنها كانت تتناسل فدعا عليها إبراهيم الخليل لأنها كانت تسرع في نقل الخطب لنار المنجنيق فقطع الله نسلها وهو أشر الطباع لأنه تجاذبه الأعراق المتضادة والأخلاق المتباينة والعناصر المتباعدة، ومن العجيب أن كل عضو فرضته منه كان بين الفرس والحمار.

الخواص: يقال إن حافر البغلة السوداء ينفع لطرده الفأر إذا بخر به البيت وإذا سحق حافره بعد حرقه وخلط بدهن الأس وجعل على رأس الأقرع نبت شعره وزبله إذا شمه المزكوم زال زكامه على ما ذكر.

(بقر) هو حيوان شديد القوة خلقه الله تعالى لمنفعة الإنسان وهو من أنواع الجواميس وهي أكثر الباناً وكل حيوان إنائه أرق أصواتاً من ذكوره إلا البقر وأثناء يضربها الفحل في السنة مرة وإذا اشتد شبقها تركت المرعى وذبحت وإذا طلع عليها

الفحل التوت تحته إذا أخطأ المجرى لشدة صلابة ذكره. قال المسعودي: رأيت بالرى البقر تحمل كالبعير فتترك على ركبتيها ثم تثور بالحمل.

(عجيبة) حكى فى الأحياء أن شخصاً كان له بقرة وكان يشوب لبنها بالماء ويبيعه، فجاء السيل فى بعض الأودية وهى واقفة ترعى فمر عليها ففرقتها، فجلس صاحبها يندبها فقال له بعض بنيه: يا أبت لا تندبها فإن المياه التى كنا نخلطها بلبنها اجتمعت ففرقتها.

فائدة: ذكر ابن الفضل فى كتابه عن وهب بن منبه أنه قال: لما خلق الله تعالى الأرض ماجت واضطربت كالسفينة، فخلق الله تعالى ملكاً فى نهاية العظم والقوة وأمره أن يدخل تحتها ويجعلها على منكبيه فدخل وأخرج يداً من المشرق ويداً من المغرب وقبض على أطراف الأرض وأمسكها ثم لم يكن لقدميه قرار فخلق الله تعالى صخرة من ياقوتة حمراء فى وسطها سبعة آلاف ثقب فخرج من كل ثقب بحر لا يعلم عظمه إلا الله تعالى ثم أمر الصخرة أن تدخل تحت قدمى الملك ثم لم يكن للصخرة قرار فخلق الله تعالى ثوراً عظيماً يقال له كيوثاء له أربعة آلاف عين ومثلها أنوف وآذان وأقواء والسنة وقوائم ما بين كل قائمتين منها مسيرة خمسمائة عام، وأمر الله تعالى هذا الثور فدخل تحت الصخرة وحملها على ظهره وقرونيه ثم لم يكن للثور قرار فخلق الله تعالى حوتاً يقال له يهموت ثم أمره الله تعالى أن يدخل تحته ثم جعل الحوت على ماء ثم جعل الماء على الهواء ثم جعل الهواء على ماء أيضاً ثم جعل الماء على الثرى، ثم جعل الثرى على الظلمة ثم انقطع علم الخلائق.

الخواص: شحم البقر إذا خلط بزرنيخ أحمر طرد العقارب وإذا طلى به إناء اجتمعت البراغيث إليه وإذا شرب لبنها زاد فى الإنعاط وقرنها إذا سحق وجعل فى طعام صاحب الحمى فأكله زالت الحمى، ومرارتها إذا خلطت بماء الكراث نفعت من البواسير طلاء وإذا طلى به على الأثر الأسود فى البدن أزاله، وخصية الفحل إذا جففت وسحقت وجعلت فى عسل وأكلت فإنها تزيد فى الباه وشعرها إذا أحرق واستيك به نفع من وجع الأسنان وإذا خلط مع السكنجيين وشرب نفع من الطحال على ما ذكره.

(بومة) وكنيتها أم الخراب وأم الصبيان ومن طبعها أن تدخل على كل طير فى وكره وتأكل أفراخه ولمعاداة الطيور لها يجعلها الصيادون فى أشراكهم حتى يقع عليها الطير. ونقل المسعودي عن الجاحظ أن البومة لا تخرج بالنهار خوفاً من العين لأنها تظن أنها حسناء وهى أصناف وكلها تحب الخلوة بنفسها.

الخواص: من خواصها أنها تنام بإحدى عينيها والأخرى مفتوحة فإذا أخذت المفتوحة وجعلت تحت فص خاتم، فمن لبسه لم ينم ما دام فى يده وعكسها المغموضة، وإذا أردت معرفة ذلك فالفهما فى الماء، فالراسبة للنوم والطافية لليقظة، وإذا أخذ قلب البومة وجعل على اليد اليسرى من المرأة وهى نائمة تحدثت بجميع ما فعلته فى نومها.

(بوقير) طير أبيض يأتى منه فى كل سنة طائفة إلى جبل بالصعيد يقال له جبل الطير، فيه كوة، فتدخل من تلك الكوة فيمسك منها شئ فإن أمسكت واحدة كان ذلك العام متوسط الخصب، وإن أمسكت اثنتين كان كثير الخصب، وإن لم تمسك شيئاً كانت السنة مجدبة وأهل تلك الناحية تعرف ذلك، وهذا الجبل بالقرب من بلدة مارية أم إبراهيم ولد النبى ﷺ.

حرف التاء: (تمساح) حيوان عجيب على صورة الضب له فم واسع وفيه ستون ناباً، وقيل ثمانون، وبين كل نابين سن صغيرة وهى أنثى فى ذكر إذا أطبق فمه على شئ لا يفلته حتى يخلعه من موضعه وله لسان طويل وظهر كالسلحفاة ولا يعمل الحديد فيه وله أربعة أرجل وذنب طويل وهو لا يوجد إلا بنيل مصر. وقال المسافرون: إنه يوجد ببحر الهند وطوله فى الغالب ستة أذرع إلى عشرة فى عرض ذراعين أو ذراع، ويقيم فى البحر تحت الماء أربعة أشهر لا يظهر وذلك فى زمن الشتاء ويتغوط من فيه فى الغالب، ويحصل فى فيه الدود فيؤذيه فيلهمه الله تعالى فيخرج إلى بعض الجزائر ويفتح فاه فيرسل الله تعالى له طيراً يقال له القطقاط فيدخل فى فيه فيأكل ما فيه من الدود فيحصل له راحة فعند ذلك يطبق فمه على الطير ليأكله فيضربه بريشتين خلقهما الله تعالى فى جناحيه كريشة الفصاد فيؤلمه فيفتح فاه فيخرج ولذلك يضرب به المثل فيقال جازاه مجازاة التمساح، وزعم الباحثون عن أحوال التمساح أن له ستين ناباً وستين عرقاً ويسفد

ستين مرة بيضة ويحضن ذلك ستين يوماً ويعيش ستين سنة، فإذا أفرخ فما صعد الجبل صار ورلاً وما نزل البحر صار تمساحاً، وفكه الأسفل لا يستطيع تحريكه لأن فيه عظماً متصلاً بصدره، وإذا أراد السفاد أخذ أنثاه وطلع بها إلى البر وقلبها وجامعها، فإذا قضى حاجته قلبها ثانياً لأنه لو تركها على تلك الحالة بقيت حتى تموت، وما ذلك إلا لأنها لا تستطيع الانقلاب ليوسه ظهرها وصلابته، وقد سلط الله تعالى عليه أضعف الحيوان وهو كلب الماء يقال إنه يتبلط بالطين ويغافل التمساح ويقذف بنفسه في فيه فيبتلعه لنعمته فإذا حصل في جوفه ذاب ما عليه من سخونة بطنه فيعمد إلى أمعائه فيقطعها ويقطع مراق بطنه فيقتله.

الخواص: عينه تشد على من به رمد اليمنى لليمنى واليسرى لليسرى وشحمه إذا قطر في أذن من به صم نفعه.

(تنين) ضرب من الحيات وهو طويل كالنخلة السحوق وجسده كالليل أحمر العينين لهما بريق واسع الفم والجوف يبتلع الحيوان، وأول أمره يكون حية متمردة ثم تطغى وتتسلط على حيوان البر فيستغيث منها فيأمر الله تعالى ملكاً فيحملها ويلقيها في البحر فتقيم فيه مدة ثم تتسلط على حيوانه أيضاً فيستغيث منها إلى ربه فيأمر الله تعالى بإلقائها في النار فيعذب بها الكافرين وقيل يأمر الله تعالى بإلقائها على يأجوج ومأجوج.

وروى ابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري رضى الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يسلط الله على الكافر في قبره تسعة وتسعين تنيناً تنهشه وتلدغه حتى تقوم الساعة ولو أن تنيناً نفخ على الأرض ما نبتت فيها خضراء».

حرف الثاء: (ثعلب) وهو معروف ذو مكر وخديعة وله حيل في طلب الرزق. فمن ذلك أنه يتماوت وينفخ بطنه ويرفع قوائمه حتى يظن أنه مات فإذا قرب منه حيوان وثب عليه وصاده، وحيلته هذه لا تتم على كلب الصيد. ومن حيلته أنه إذا تعرض للقنفذ نفش شوكة فيسلح^(١) هو عليه فيلم شوكة فيقبض على مراق بطنه ويأكله وسلحه أنتن من سلح الحبارى.

ومن لطيف أمره أنه إذا تسلطت عليه البراغيث حملها وجاء إلى الماء وقطع قطعة من صوفه وجعلها في فيه ونزل في الماء والبراغيث تطير قليلاً قليلاً حتى تجتمع في تلك الصوفة فيلقونها في الماء ويخرج وفروه أدنى الفراء وفيه الأبيض والرمادى وغير ذلك، وذكر في عجائب المخلوقات أنه أهدى إلى أبي منصور الساماني ثعلب له جناحان من ريش إذا قرب الإنسان منه نشرهما وإذا بعد لصقهما.

لطيفة: ذكر ابن الجوزى في آخر كتاب (الأذكىاء) والحافظ أبو نعيم في (حلية الأولياء) عن الشعبي أنه قال: مرض الأسد فعادته السباع والوحوش ما خلا الثعلب فتم عليه الذئب فقال الأسد: إذا حضر فأعلمنى، فلما حضر الثعلب أعلمه الذئب بذلك وكان قد أخبر بما قاله الذئب فقال الأسد: أين كنت يا أبا الفوارس؟ قال: كنت أطلب لك الدواء. قال: وأى شئ أصبته؟ قال: قيل لى خرزة فى عرقوب أبى جعد. قال: فضرب الأسد بيده فى ساق الذئب فأدماه ولم يجد شيئاً فخرج ودمه يسيل على رجله وانسل الثعلب فمر به الذئب فتأده: يا صاحب الخف الأحمر إذا قعدت عند الملوك فانظر ما يخرج منك فإن المجالس بالأمانات. وقيل: خرج الأسد والثعلب والذئب يتصيدون فاصطادوا حمار وحش وضباً وغزالاً ثم جلسوا يقتسمون فقال الأسد للذئب: أقسم علينا فقال: حمار الوحش لى والغزال لأبى الحرث والضب للثعلب فضربه الأسد فى رأسه فرضخها فقال الثعلب: أنا أقسم حمار الوحش لأبى الحرث يتغذى به والغزال لأبى الحرث يتعشى به والضب لأبى الحرث يتنقل به فيما بين ذلك فقال له الأسد: لله درك من فرضى، ما أعلمك بالفرائض من علمك هذا؟ قال: علمنى التاج الأحمر الذى ألبسته هذا، وأشار إلى الذئب.

وحكى: أن الثعلب مر فى السحر بشجرة فرأى فوقها ديكاً فقال له: أما تنزل نصلى جماعة؟ فقال: إن الإمام نائم خلف الشجرة فأيقظه فنظر الثعلب فرأى الكلب فضرط وولى هارباً فتأده: أما تأتى لنصلى؟ فقال: قد انتقض وضوئى فاصبر حتى أجدد لى وضوءاً وأرجع.

ومن العجيب فى قسمة الأرزاك أن الذئب يصيد الثعلب فيأكله والثعلب يصيد القنفذ فيأكله والقنفذ يصيد الأفعى

(١) بسلح: يخرج ما فى بطنه من البراز.

فياكلها والأفعى تصيد العصفور والعصفور يصيد الجراد والجراد يصيد الزنابير والزنانير تصيد النحل والنحل تصيد الذباب والذباب يصيد البعوض والبعوض يصيد النمل والنمل يأكل كل ما تيسر من صغير وكبير فتبارك الله الذي أتقن ما صنع .

الخواص: رأسه إذا ترك في برج حمام هرب الحمام منه ونابه يشد على الصبي يحسن خلقه ومرارته تجعل منها في أنف المصروع يبرأ ولحمه ينفع من اللقوة والجذام وخصيته تشد على الصبي تنبت أسنانه وفروه أنفع شئ للمربوط ودمه إذا جعل على رأس أقرع نبت شعره إذا كان دون بلوغ وطحاله يشد على من به وجع الطحال يبرأ .

(ثعبان) هو الكبير من الحيات ذكراً كان أو أنثى وهو عجيب الشأن في هلاك بني آدم يلتوى على ساق الإنسان فيكسرها وليس له عدو إلا النمس ولولا النموس لأكلت الثعابين أهل مصر .

لطيفة: قيل إن عبد الله بن جدعان كان في ابتداء أمره صعلوكاً وكان شريراً يفتك ويقتل وكان أبوه يعقل عنه فضجر من ذلك وأراد قتله فخرج هارباً على وجهه فتوصل لجبل فوجد فيه شقاً فدخل فيه فوجد في صدره شيئاً كهيئة الثعبان فدنا منه وقال لعله يشب على فيقتلني وأستريح، قال: فدنا منه فوجده مصنوعاً من ذهب وعيناً ياقوتتان ثم وجد من داخله بيتاً فيه جثث طوال بالية على أسرة الذهب والفضة وعند رؤوسهم لوح مكتوب فيه تاريخهم وإذا بهم رجال من جرهم وفي وسط البيت كوم من الياقوت الأحمر والزمرد والذهب والفضة واللؤلؤ فأخذ منه قدر ما يحمل وعلم الشق وذهب إلى قومه فأغناهم ورجع فلم يدر مكان الشق قال رسول الله ﷺ: «لقد كنت أستظل بجفنة عند عبد الله بن جدعان من الهجير، قالت عائشة: يا رسول الله هل ينفعه ذلك شيئاً؟ قال: لا لأنه لم يقل رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين» .

حرف الجيم: (جراد) حيوان معروف وليس له جهة مخصوصة وإنما يكون هائماً هارباً وإذا أراد أن يبيض ذهب إلى بعض الصخور فضربها بذنبه فتفرج له فيلقى بيضه فيها وله ستة أرجل وطرفاً أرجله كالمنشار وهو ألوان عديدة وفيه خلقة عشرة من الجبابرة وجه فرس، وعينا فيل، وعنق ثور، وقرنا إبل، وصدر أسد، وبطن عقرب، وجناحا نسر، وفخذا جمل، ورجلا نعامة، وذنب حية، وهو من الحيوان الذي يتقاد إلى رئيسه كالعسكري إذا ظعن أميره تتابع خلفه، وفي الحديث أن جرادة وقعت بين يدي رسول الله ﷺ فإذا مكتوب على جناحها بالعبرانية نحن جند الله الأكبر ولنا تسعة وتسعون بيضة ولو تمت لنا المائة لأكلنا الدنيا بما فيها فقال عليه الصلاة والسلام: «اللهم اقل كبارها وأمت صغارها وأفسد بيضها وسد أفواهها عن مزارع المسلمين وعن معاشهم إنك سميع الدعاء» . قال: فجاء جبريل فقال: إنه قد استجيب لك في بعضها وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: إن الله تعالى خلق ألف أمة، ستمائة منها في البحر وأربعمائة في البر وإن أول هلاك هذه الأمة الجراد فإذا هلك الجراد تابعت الأمم مثل الدر إذا قطع سلكه . قيل كان طعام يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام الجراد وقلوب الشجر وكان يقول من أنعم منك يا يحيى وقد أجمع المسلمون على أكل لحمه، ومن خواصه أن الإنسان إذا تبخر به نفعه من عسر البول .

(جرو) بكسر الجيم وفتحها وضمها وهو الصغير من أولاد الكلاب والسباع، وقد كان ﷺ أمر بقتل الكلاب وسببه أن جبريل عليه السلام وعده ليأتيه فتأخر، قال: فلقى النبي ﷺ بعد ذلك فقال: ما أخرك عن وعدك فقال: ما تأخرت ولكن لا ندخل بيتاً فيه صورة ولا كلب فأمر بقتلها، وروى مسلم والطبراني عن خولة بزيادة ولفظها أن جرواً دخل تحت سرير في بيته ﷺ فمات، فمكث النبي ﷺ أياماً لا يأتيه الوحي قال: لعله حدث في البيت شئ فخرج للمسجد فنزل عليه الوحي قالت خولة فقممت البيت فوجدت الكلب تحت السرير .

عجيبة: حكى أن رجلاً لم يولد له ولد فكان يأخذ أولاد الناس فيقتلهم فنهته زوجته عن ذلك وقالت: يؤاخذك الله بذلك فقال: لو أخذ لفعل في يوم كذا وضار يعدد أفعاله لها فقالت له إن صاعك لم يمتلئ ولو امتلأ أخذك قال: فخرج ذات يوم وإذا بغلامين يلعبان ومعهما جرو فأخذهما الرجل ودخل البيت فقتلتهما وطردهما الجرو قال: فطلبهما أبوهما فلم يجدهما فانطلق إلى نبي لهم فأخبره بذلك فقال: ألهما لعبة كان يلعبان بها؟ قال: جرو كلب . قال: اتنتى به فأتاه به فجعل خاتمه بين عينيه ثم قال له اذهب خلفه فأى بيت دخله ادخل معه فإن أولادك فيه قال: فجعل الجرو يجوب الدروب والحارات حتى دخل بيت القاتل فدخل الناس خلفه وإذا بالغلامين متعفران بدمهما وهو قائم يحضر لهما مكاناً يدفنهما فيه فأمسكوه وأتوا به لنيهم فأمر بصلبه فلما رآته زوجته على الخشبة قالت: ألم أحذرك من هذا اليوم تقول ما

تقول الآن امتلاً صاعك وسيأتى الكلام على الكلب فى حرف الكاف إن شاء الله تعالى .

(جعل) دويبة معروفة تسمى أبا جعران والزعقوق يعرض البهائم فى وجهها فتهرب منه وهو أكبر من الخنفساء شديد السواد فى بطنه لون حمرة للذكر قرنان يوجد كثيراً فى مراح البقر والجاموس قيل: إنه يتولد من أخثاها ومن شأنه جمع الروث وادخاره ومن عجيب أمره أنه إذا شم الورد مات ويعيش بعوده للروث وله جناحان لا يكادان يريان إلا إذا طار وله ستة أرجل وسنام مرتفع جداً وهو يمشى القهقري، ومن طبعه أنه يحرس النيام فإذا قام أحدهم يتغوط تبعه ليأكل من رجليه وذلك من شدة شهوته للغائط .

حرف الحاء: (حجل) طير فوق الحمامة أغبر اللون أحمر المنقار والرجلين يسمى دجاج البر وهو صنفان مجدى وتهامى، النجدى أغبر والتهامى أبيض وله شدة الطيران وإذا تقاتل ذكران تبعت الأنثى الغالب وله شدة شبق وأفراخه تخرج من البيض كاسية ويعمر فى الغالب عشرين سنة وإذا قوى على غيره أخذ بيضه فحضنه، ومن سر الله تعالى أنه إذا أفرخ ذلك البيض تبع الفرخ أمه التى باضته، ومن طبعه أنه يخدع غيره فى قسقرته ولذلك يتخذ الصيادون فى أشراكهم .

غريبة: قيل إن أبا نصر بن مروان أكل مع بعض مقدمى الأكراد فأتى على سباطه بحجلتين مشويتين فلما رآها ضحك فقال: مم تضحك؟ قال: كنت أقطع الطريق فى عنفوان شبابه فمربى تاجر فأخذته فلما أردت قتله تضرع إلى فلم أقتله فلما علم أنه لا بد لى من قتله التفت يميناً وشمالاً فرأى حجلتين كانتا بقربنا فقال: اشهدا لى أنه قاتلى ظلماً فقتلته، فلما رأيت هاتين الحجلتين تذكرت حمقه فى استشهاده بهما فقال أبو نصر والله لقد شهدتا عليك عند من أقادك بالرجل ثم أمر به فضربت عنقه .

الخواص: لحمها جيد معتدل الهضم ومرارتها تنفع الغشاوة فى العين وإذا سعط بها إنسان فى كل شهر مرة جاد ذهنه وقل نسيانه وقوى بصره .

(حدأة) بكسر الحاء وفتح الدال مع همزة أخس الطير تبيض بيضتين وربما باضت ثلاثاً وتحضن عشرين يوماً ومن ألوانها الأسود والرمادى، وهى لا تصيد إلا خطفاً وفى طبعها أنها تقف فى الطيران وهى أحسن الطير مجاورة لأنها إذا جاعت لا تأكل أفراخ جارها ويقال إنها طرشاء وفى طبعها أنها لا تخطف من الجهة اليمنى لأنها عسراء وهى سنة ذكر وسنة أنثى كالأرنب .

عجبية: روى الحافظ النسفى فى فضائل الأعمال أن عاصم بن أبى النجود شيخ القراء فى زمانه قال: أصابتنى خصاصة فجئت إلى بعض إخوانى فأخبرته بأمرى فرأيت فى وجهه الكراهة فخرجت من منزله إلى الجبانة فصليت ما شاء الله ثم وضعت رأسى على الأرض وقلت: يا سامع الأصوات يا مجيب الدعوات يا قاضى الحاجات اكفنى بحلالك عن حرامك واغننى بفضلك عن سواك، قال: فوالله ما رفعت رأسى حتى سمعت وقعة بقربى فإذا بحدأة قد طرحت كيساً أحمر فقممت فأخذته فإذا فيه ثمانون ديناراً وجوهرة ملفوفة فى قطن قال فاتجرت بذلك واشتريت لى عقاراً وتزوجت .

الخواص: مرارتها تحفف فى الظل وتنفع فى إناء زجاج، فمن لسع وقطر منها فى ذلك الموضع واكتحل مخالفاً لجهة اللسع ثلاثة أميال أبرأته ودسمها إذا خلط بقليل من المسك وماء الورد وشرب على الريق نفع من ضيق النفس وإذا وضع فى بيت لم تدخله حية ولا عقرب .

(حرباء) دويبة صغيرة على هيئة السمك ورأسها تشبه رأس العجل . إذا رأت الإنسان انتفششت وكبرت، ولها أربعة أرجل وسنام كهية الجمل ولها كنى كثيرة منها أم قره، ويقال لها جمل اليهود وهى أبدأ تطلب الشمس فمن أجل ذلك يقال إنها مجوسية وتستقبلها بوجهها وتدور معها كيفما دارت فإذا غابت الشمس أخذت فى كسبها ومعاشها . ويقال إن لسانها طويل نحو ذراع وهو مطوى فى حلقها، فذلك تخطف به ما بعد عنها من الذباب وتبتلعه، والأنثى من هذا النوع تسمى أم حبين ويقال إن الصبيان ينادونها أم حبين انشربى برديك إن الأمير ناظر إليك وضارب بسوطه جنبيك، فإذا زادوا عليها نشرت جناحيها وانتصبت على رجليها فإذا ازدادوا عليها أيضاً نشرت أجنحة أحسن من تلك ملونة، وإذا مشت

تطاطى برأسها وتتلون ألواناً ولذا يقال يلتون كالخرباء .

(حمار أهلى) معروف ليس فى الحيوان من يتزو على غير جنسه إلا هو والفرس ، ونزوه بعد تمام ثلاثين شهراً وكنيته أبو محمود وأبو جحش وغير ذلك ، وهو أنواع ، فمنه ما هو لين الأعطاف سريع الحركة ، ومنه ما هو بضد ذلك ، ويوصف بالهداية إلى سلوك الطريق .

لطيفة: فى الحديث عن النبى ﷺ أنه لما فتح خيبر أصاب حماراً أسود فكلمه فقال: ما اسمك؟ فقال: يزيد من شهاب أخرج الله تعالى من نسل جدى ستين حماراً كلها لا يركبها إلا نبى ولم يبق من الأنبياء غيرك ، وكنت أتوقعك لتركبنى وأنا عند يهودى يجيع بطنى ويضرب ظهرى ، وكنت أعثر به عمداً فسماء النبى ﷺ يعفوراً وقال له: أتستهى الإناث؟ قال: لا . وكان ﷺ يركبه فى حوائجه وإذا أراد حاجة عند إنسان أرسله إليه فيدفع الباب برأسه فيخرج صاحب البيت فيعرفه ويقضى حاجته ، فلما مات النبى ﷺ ذهب إلى بئر كانت لأبى الهيثم فتردى فيها جزعاً على النبى ﷺ فكانت قبره وقيل هذا الحديث منكر ، وقد ذكره السهيلي فى التعريف والإعلام ، وللناس فى ذمه ومدحه أقوال متباينة بحسب الأغراض . فمن مدحه أن أبا صفوان وجد راكباً على حمار فقيل له فى ذلك فقال: عير هى من نسل الأكراد يحمل الرحل ويبلغ العقبة ويمنعنى أن أكون جباراً فى الأرض . وقال آخر: أقل الدواب مؤنة وأكثرها معونة وأخفها مهوى وأقربها مرتعاً . وكان حمار أبى يسارة مثلاً فى الصحة والقوة وهو حمار أسود حمل الناس عليه من منى إلى المزدلفة أربعين سنة ، وكان خالد بن صفوان والفضل بن عيسى الرقاشى يختاران ركوب الحمار ويجعلان أبا يسارة قدوة لهما وحجة . ومن ذمه ما نقل عن عبد الحميد الكاتب أنه قال: لا تتركب الحمار فإنه إن كان فارهاً أتعب يدك وإن كان بليداً أتعب رجلك وقيل: ما ينبغي لمركب الدجال أن يكون مركباً للرجال . وقال أعرابى الحمار بنس المطية إن أوقفته أدلى وإن تركته ولى: كثير الروث قليل الغوث سريع إلى الفرارة بطئ فى الغارة لا توقى به الدماء ولا تمهر به النساء ولا يحلب فى الإناء ، قال الزمخشري:

إن الحمار ومن فوقه حماران شرهما راكب

ومن العرب من لا يركبه أبداً ولو بلغت به الحاجة والجهد .

قيل: كان لرجل بالبادية حمار وكتب وديك فالديك يوقظه للصلاة والكلب يحرسه إذا نام والحمار يحمل أثاثه إذا رحل . قال: فجاء الثعلب فأكل الديك فقال: عسى أن يكون خيراً ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم عسى أن يكون خيراً ، ثم جاء الذئب فبقر بطن الحمار فقال عسى أن يكون خيراً ، قال: ثم إن جيرانه من الحى أغير عليهم فأخذوا فأصبح ينظر إلى منازلهم وقد خلت فليلهم إنا أخذوا بأصوات دوابهم فقال: إنما كانت الخيرة فى هلاك ما عندى فمن عرف لطف الله رضى بفعله .

(حمام) هو أنواع كثيرة والكلام فى الذى ألف البيوت وهو قسمان: أحدهما برى وهو الذى يوجد فى القرى والآخر أهلى ، وهو أنواع وأشكال ، فمنه الرواعب والمراعيش والشداد والغلاب والمنسوب ، ومن طبعه أنه يطلب وكره ولو كان فى مسافة بعيدة ولأجل ذلك يحمل الأخبار ، ومنه من يقطع عشرة فراسخ فى يوم واحد ، وربما صيد وغاب عن وطنه عشر سنين وهو على ثبات عقله وقوة حفظه حتى يجد فرصة فيطير ويعود إلى وطنه وسباع الطير تطلبه أشد الطلب وخوفه من الشاهين أشد من غيره وهو أظير منه ، لكن إذا أبصره يعتريه ما يعتري الحمار إذا رأى الأسد والشاة إذا رأت الذئب والفأر إذا رأى الهر ، ومن طبعه أنه لا يريد إلا ذكره إلى أن يهلك أو يفقد أحدهما ويحب الملاعبة والتقبيل ويسفد لتمام أربعة أشهر ويحمل أربعة عشر يوماً ويبيض بيضتين ويحضن عشرين يوماً ويخرج من إحدى البيضتين ذكر والأخرى أنثى واتخاذها فى البيوت لا بأس به ، غير أنه لا يجوز تطيورها والاشتغال بها والارتقاء بها على الأسطحة وعليه حمل أهل العلم قوله عليه الصلاة والسلام: «شيطان يتبع شيطانه حين رأى شخصاً يتبع حمامه» ، فإن لم يحصل شئ مما ذكر جاز اتخاذها . قال رسول الله ﷺ: «اتخذوا الحمام فى بيوتكم فإنها تلهى الجن عن صبيانكم واللعب بها من عمل قوم لوط» . وقال النخعي: من لعب بالحمام لم يميت حتى يذوق ألم الفقر ولم يوجد شئ أبله من الحمام ، فإنه تؤخذ أفراخه ، فتذبح فى مكان ثم يعود فى ذلك المكان ويبيض فيه ويفرخ .

وقال الجاحظ: وللحمام من الفضيلة والفخر أن الحمامة قد تبتاع بخمسمائة دينار، ولم يبلغ ذلك القدر شيء من الطير غيره، وهو الهادر الذي جاوز الغاية. قالوا: ولو دخلت بغداد والبصرة وجدت ذلك بلا معاناة ولو حدثت أن برذوناً أو فرساً بيع بخمسمائة دينار لكان ذلك سمرّاً، وقد تباع البيضة الواحدة من بيض ذلك الحمام بخمسة دنائير، والفرخ بعشرين، فمن كان له روج منه قام في الغلة مقام ضيعة وأصحابه يبنون من أثمانه الدور والخوانيت وهو مع ذلك ملهى عجيب ومنظر أنيق.

الخواص: دمه ينفع الجراحات العارضة للعين والغشاوة، ويقطع الرعاف ويبرئ حرق النار إذا خلط بالزيت منه، وزيل الأحمر منه ينفع للسع العقرب إذا وضع عليه وإذا شرب منه مقدار درهمين مع ثلاثة دراهم دار صيني نفع من الحصاة.

حرف الخاء: (الخطاف) أنواع كثيرة، فمنه نوع دون العصفور رمادي اللون يسكن ساحل البحر، ومنه ما لونه أخضر، وتسميه أهل مصر الخطار، ونوع طويل الأجنحة رقيق يآلف الجبال ونوع أصفر يآلف المساجد يسميه الناس السنونو، وزعم بعضهم أنه الطير الأبايل ويقال: إن آدم عليه الصلاة والسلام لما أهبط إلى الأرض حصل له وحشة، فخلق الله له هذا الطير يؤنسه، فلأجل ذلك لا تجدها تفارق البيوت، وهي تبني بيتها في أعلى مكان بالبيت وتحكم بنيانه وتطينه، فإن لم تجد الطين ذهبت إلى البحر فتمرغت في التراب والماء وأتت فطيتها، وهي لا تزبل داخله بل على حافته أو خارجاً عنه وعنده ورع كثير لأنه وإن آلف البيوت لا يشارك أهلها في أقواتهم ولا يلتمس منهم شيئاً، ولقد أحسن واصفه حيث يقول:

كن زاهداً فيما حوته يد الورى تبقى إلى كل الأنام حبيباً
وانظر إلى الخطاف حرم زادهم أضحي مقيماً في البيوت ريباً

ومن شأنه إنه لا يفرخ في عش عتيق بل يجدد له عشاً، وأصحاب اليرقان يلطخون أفراخه بالزعفران، فيذهب، فيأتي بحجر اليرقان، ويلقيه في عشه لتوهمه أن اليرقان حصل لأولاده وهو حجر صغير فيه خطوط يعرفه غالب الناس، فعند ذلك يأخذه من به اليرقان ويحكه ويستعمله. ومن عجيب أمره أنه يكاد يموت من صوت الرعد وإذا عمى ذهب إلى شجرة يقال لها عين شمس فيتمرغ فيها، فيفيق من غشوته ويفتح عينيه.

لطيفة: قيل: إن خطافاً وقف على قبة سليمان وتكلم مع خطافة، وراودها عن نفسها، فامتنعت، فقال لها: تتمنعين مني ولو شئت قلبت هذه القبة. قال: فسمع سليمان، فدعاه وقال: ما حملك على ما قلت؟ فقال: يا نبي الله إن العشاق لا يؤخذون بأقوالهم.

الخواص: مرارته تسود الشعر ولحمه يورث السهر وقلبه يهيج الباه إذا أكل جافاً، ودمه يسكن الصداع.

(خفاش) طير يوجد في الأماكن المظلمة وذلك بعد الغروب وقبل العشاء لأنه لا يبصر نهاراً ولا في ضوء القمر وقوته البعوض، وهذا الوقت هو الذي يخرج فيه البعوض أيضاً لطلب رزقه، فيأكله الخفاش، فيتسلط طالب رزق على طالب رزق، وهو من الحيوان الشديد الطيران. قيل إنه يطير الفرسخين في ساعة وهو يعمر مثل النسر وتعاديه الطيور فتقتله، لأنه قيل: إن عيسى عليه الصلاة والسلام لما سأل النصارى في طير لا عظم فيه صنع لهم ذلك بإذن الله تعالى فهي تكرمه لأنه مبين لخلقها ومن طبعه الخنو على ولده حتى قيل: إنه يرضعه وهو طائر.

(خنزير) حيوان معروف وله كنى كثيرة، منها أبو جهم وأبو زرعة وأبو دلف وهو مشترك بين البهيمة والسبع لأنه ذو ناب، ويأكل العشب والعلف، وهو كثير الشبق حتى قيل إنه يجامع الأنثى وهي سائرة فيرى في مشيها ستة أرجل، فيتوهم الرائي أنه حيوان بستة أرجل وهو ليس كذلك والذكر منها يطرد الذكر مثله، فمن غلب استقل بالتزو على الأنثى وتحرك أذناها في زمن هيجانها وتطاطى رأسها وتغير أصواتها وتحمل من نزوة واحدة، وتحمل ستة أشهر وتضع عشرين ولداً، وينزو الذكر إذا بلغ ستة أشهر، وقيل: أربعة باختلاف البلاد، وقيل: ثمانية، وإذا بلغت الأنثى خمس عشرة سنة لا تحمل، وهذا الجنس أفسد الحيوان، والذكر أقوى الفحول وليس لذوات الأربع ما للخنزير في نابه من القوة حتى قيل إنه يضرب به السيف والرمح فيقطع مالاقاء، وإذا التقى ناباه من الطول مات لأنهما حينئذ يمنعان من الأكل. ومن

عجيب أمره أنه يأكل الحيات ولا يؤثر فيه سمها، وإذا عض كلباً سقط شعره، وإذا مرض وأطعم السرطان يفيق، ومن عجيب أمره أيضاً أنه إذا ربط على ظهره حمار وبال الحمار وهو على ظهره مات، ولا يسلخ جلده إلا بالقلع مع شئ من لحمه على ما ذكروا.

(خنفساء) دويبة تتولد من عفونات الأرض وبينها وبين العقرب مودة، وكنيتها أم فسو، لأن كل من وضع يده عليها يشم رائحة كريهة.

فائدة: قيل إن رجلاً رأى خنفساء، فقال: ما يصنع الله بهذه، فابتلاه الله تعالى بقرحة عجز الأطباء فيها، فبينما هو ذات يوم إذا بطرقى يقول: من به وجع كذا إلى أن قال: من به قرحة، فخرج إليه ذلك الرجل فلما رأى ما به، قال: اتنوني بخنفساء، فضحك منه الحاضرون، فقال: اتنوه بالذى يطلب، فأتوه بها، فأخذها، فأحرقها، وأخذ رمادها وجعل منه على تلك القرحة فبرئت، فعلم ذلك المقروح أن الله تعالى ما خلق شيئاً سدى وأن في أنحس المخلوقات أهم الأدوية، فسبحان القادر على كل شئ.

الخواص: إذا قطعت رؤوس الخنافس وجعلت في برج الحمام كثر الحمام في ذلك البرج والاحتفال بما في جوفها من الرطوبة يحد البصر ويجلو الغشاوة والبياض، وإذا بخر المكان بورق الدلب هربت منه الخنافس على ما ذكر.

(خيل) جماعة الأفراس، وسميت بذلك لأنها تختال في مشيتها، وهي من الحيوان المشرف، ولقد مدحها الله تعالى ووصى بها النبي عليه الصلاة والسلام، فقال: «الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة». وقال: «عليكم بإنات الخيل، فإن ظهورها عز وبطونها كثر». وروى عن ابن عباس أو على رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: لما أراد الله تعالى خلق الخيل أوحى إلى الريح الجنوب، وقال: إني خالق منك خلقاً، فاجتمعى، فاجتمعت، فأتى جبريل، فأخذ منها قبضة، فخلق الله منها فرساً كميّاً، وقال: خلقتك عربياً وفضلتك على سائر البهائم، فالرزق بناصيتك، والغنائم تقاد على ظهرك، وبصهيلك أهرب المشركين وأعز المؤمنين، ثم وسمه بغرة وتحجيل، فلما خلق الله تعالى آدم قال: يا آدم اختر أى الدابتين: الفرس أو البراق، فقال: الفرس يارب، فقال الله تعالى: اخترت عرك وعز أولادك، وفي الحديث: «ما من فرس إلا ويقول في كل يوم اللهم من جعلتنى له فاجعلنى أحب أهله إليه» وقيل: الخيل ثلاثة: فرس للرحمن، وهى المغزو عليها، وفرس لك وهى التى تسابق عليها، وفرس للشيطان وهى التى جعلت للخيلاء. وفي الحديث: «إن الملائكة لا تحضر شيئاً من اللهو إلا فى مسابقة الخيل وملاعبة الرجل أهله». ولقد سابق النبي ﷺ على الخيل، وقيل: إن الذكر من الخيل أقوى من الأنثى، ولا يرد علينا ركوب جبريل فى قصة موسى وفرعون الأنثى لأن ذلك من حكمة الله تعالى حتى تبتعتها أحصنهم، فأغرقوا لأن الحصان إذا رأى الحجرة تبعها، وقيل: إن الله تعالى أمر نبيه موسى عليه الصلاة والسلام أن يعبر البحر فعبره، وهم خلفه، فأعمى أعينهم عن الماء، فكانوا يرون بلقعا، والخيل تراه ماء، فلولا دخول جبريل البحر بفرسه لما دخلت خيلهم، وهى أصناف منها: الصافنات، وهى التى إذا ربطت فى مكان وقفت على إحدى رجليها وقلبت بعض الأخرى فى الوقوف، وقيل غير ذلك وكانت الصافنات ألف فرس لسليمان عليه الصلاة والسلام، فعرضها يوماً ففاته الصلاة، قيل صلاة العصر، فأمر بعقرها فعوضه الله عنها الريح، فكانت فرسه وقيل: إنما عقرها على وجه القربى كالهدي وقيل: إن الفرس لا يحب الماء الصافى ولا يضرب فيه بيده كما يضرب بها فى الماء الكدر، فرحاً به، فإنه يرى شخصه فى الماء الصافى فيفرغه، ولا يراه فى الماء الكدر، وقد قيل فى الحث على حب الخيل:

أحبوا الخيل واصطبروا عليها

فإن العز فيها والجمال

ربطناها فأشركت العيال

وتكسبنا الأباغر والجمال

إذا ما الخيل ضيعها أناس

نقاسمها المعيشة كل يوم

حرف الدال: (دابة) اسم لكل ما دب على الأرض وأما التى ذكرها الله تعالى فى سورة سبأ، فقيل: الأرضة، وقيل السوسة، وسبب ذلك أن سليمان عليه الصلاة والسلام كان قد أمر الجن ببناء صرح فبنوه، ودخل فيه وأراد أن يصفو له

يوم واحد من دهره، فدخل عليه شاب، فقال له: كيف دخلت من غير استئذان؟ فقال: أذن لي رب البيت، فعلم سليمان أن رب البيت هو الله تعالى، وأن الشاب ملك الموت أرسل ليقبض روحه فقال: سبحان الله هذا اليوم طلبت فيه الصفاء فقال: طالبت ما لم يخلق قال: وكان قد بقي من بناء المسجد الأقصى بقية، فقال له يا أخى يا عزرائيل أمهلنى حتى يفرغ قال ليس فى أمر ربى مهلة قال: فقبض روحه، وكان من عادته الانقطاع فى التعبد شهرين وثلاثة، ثم يأتى، فينظر ما صنعت الجن، فلما قبض كان متوكئاً على عصاه، واستمر ذلك مدة، والجن تتوهم أنه مشرف عليها، فتعمل كل يوم بقدر عشرة أيام حتى أراد الله ما أراد، فسلط على العصا الأرضة فأكلتها، فخر ميتاً، ففرقت الجن عنه، وقيل إن واحداً منهم مر عليه، فسلم، فلم يجبه فدنا منه، فلم يجد له نفساً، فحركه، فسقطت العصا، فإذا هو ميت. قال: وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة، والعصا التى اتكأ عليها من خرنوب، قال الله تعالى: ﴿فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين﴾ [سبأ: ١٤]. قال: فشكرت الجن الأرضة حتى قيل إنهم كانوا يأتونها بالماء حيث كانت.

وأما الدابة التى من أشراط الساعة، فاختلف فى أمرها، فقيل: تخرج من الصفا، وهو الصحيح، وقيل: من الطائف، وقيل من الحجر وطولها ستون ذراعاً ذات قوائم، وهى مختلفة الألوان وذلك فى ليلة يكون الناس مجتمعين بمنى أو سائر إلى منى ومعها عصا موسى وخاتم سليمان لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب تلحق المؤمن، فتضربه بالعصا فتكتب فى وجهه مؤمن وتدرك الكافر، فتسمه بالخاتم وتكتب فى وجهه كافر. وروى أنها تخرج إذا انقطع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقل الخير.

(داجن) وهو ما يربيه الناس فى البيوت من صغار الغنم والحمام والدجاج وغير ذلك، وفى حديث الإفك: «ما نعلم لها قضية غير أنها جارية حديثة السن تعجن وتنام فتأتى الداجن، فتأكل العجين».

(دب) من السباع وكنيته: أبو جهل وأبو جهينة وغير ذلك، ولا يخرج زمن الشتاء حتى يطيب الهواء وإذا جاع يمض يديه ورجليه، فيندفع جوعه، وهو كثير الشبق وينعزل بأنثاه، وتضع جرواً واحداً، وتصعد به إلى أعلى شجرة خوفاً عليه من النمل لأنها تضعه قطعة لحم، ثم لا تزال تلحسه وترفعه فى الهواء حتى تنفجر أعضاؤه وتخشى ويصير له جلد، وفى ولادتها صعوبة وربما ماتت منها وقد تلده ناقص الخلق شوقاً منها للسفاد وهى من الحيوان الذى يدعو الإنسان للفعل به، وقيل: إن الدب يقيم أولاده تحت شجرة الجوز، ثم يصعد فيرمى بالجوز إليها إلى أن تشبع، وربما قطع من الشجر الغصن العتل الضخم الذى لا يقطع إلا بالفأس، والجهد، ثم يشد به على الفارس فلا يضرب أحداً إلا قتله.

(دجاجة) وكنيتها أم ناصر الدين وأم الوليد وغير ذلك، وإذا هرمت لم يبق لبيضها مخ، وتوصف بقلّة النوم. وقيل إن نومها بقدر ما تنفس وعندها خوف فى الليل، ولأجل ذلك تطلب وقت الغروب مكاناً عالياً وتخشى الثعلب. قيل إنها إذا رأت ألفت نفسها إليه من شدة الخوف ولا تخشى من بقية السباع، وقيل: يعرف الذكر من الأنثى بإمساك منقاره، فإن تحرك فذكر وإلا فأنثى، ومن الدجاج ما يبيض فى اليوم مرتين وهو من أسباب موتها ويستكمل خلق البيضة فى بطن الدجاجة فى عشرة أيام، وفى الحديث «أن النبى ﷺ أمر باتخاذ الغنم للأغنياء وباتخاذ الدجاج للفقراء» ومن العجيب فى صنعة الله تعالى أن خلق الفروج من البياض، وجعل الصفار غذاء له كما خلق الطفل من المنى وجعل دم الحيض غذاء له، فتبارك الله أحسن الخالقين.

الخواص: لحم الدجاج الفتى يزيد فى العقل ويصفى اللون، ويزيد فى المنى ويقيم الباه والمداومة عليه تورث النقرس والبواسير على ما ذكر.

(دج) طير كبير أغبر يكون بساحل البحر كثيراً وبالقرب من الإسكندرية، والناس يصطادونه ويأكلونه. (دود) اسم جنس، ومنه دود القز ويقال لها الهندية. ومن عجيب أمرها أنها تكون أولاً مثل بزر التين ثم تصير دوداً، وذلك فى أوائل فصل الربيع، ويكون عند خروجه مثل الذر فى قدره ولون، ويخرج فى الأماكن الدافئة إذا كان

مصروراً في حق، وربما تأخر خروجه فتجعله النساء تحت ثديهن بصوته، فيخرج وغذاؤه ورق التوت الأبيض. قال: ولا يزال يكبر حتى يصير بقدر إصبع، ويتقل من السواد إلى البياض وكل ذلك في مدة ستين يوماً. قال: ثم يأخذ في النسج بما يخرج من فيه إلى أن ينفذ ما في جوفه ثم يخرج شيئاً كهيئة الفراش له جناحان لا يسكنان من الاضطراب، وعند خروجه يهيج إلى السفاد ويلصق الذكر مؤخره إلى مؤخر الأنثى ويلتحمان مدة، ثم يفترقان. قال ويكون قد فرش لهما خرقة بيضاء فينثران البزر عليها، ثم يموتان، هذا إذا أريد منهما البزر وإن أريد الحرير تركا في الشمس بعد فراغهما من النسج، فيموت، وهو سريع العطب، حتى إنه ليخشى عليه من صوت الرعد والعطاس ومس المرأة الحائض والرجل الجنب، ورائحة الدخان والحر الشديد والبرد الشديد، ونحو ذلك، قال أبو الفتح البستي:

ألم تر أن المرء طول حـيـاتـه معنى بأمر لا يزال يعالجه
كذلك دود القـز ينسج دائماً ويهلك غمماً وسط ما هو ناسجه

وقال آخر:

يفنى الحـريـص بجمع المال مـدته وللحوادث ما يبقى وما يدع
كدودة القـز ما تبنيه يهلكها وغـيـرها بالذى تبنيه ينتفع

(ديك) وكنيته أبو حسان وأبو حماد وغير ذلك، ويسمى الأنيس والمؤانس، ومن طبعه لا يألف زوجة واحدة، وهو أبله الطبيعة لأنه إذا سقط من بيت أصحابه لا يهتدي إلى الرجوع إليه، وفيه من الخصال الحميدة ما لا يحصر منها أنه يساوى بين أزواجه في الطعمة، ويذكر الله تعالى في الليل حتى قيل إنه ليوقته ويقسمه، وربما لا يخرم في توقيته، وفي الحديث: «إذا سمعتم صياح الديك، فاذكروا الله تعالى، فإنه يصيح بصياح ديك للعرش». وروى الغزالي عن ميمون بن مهران أن الله ملكاً تحت العرش على صورة الديك، فإذا مضى ثلث الليل الأول ضرب بجناحيه، وقال: ليقيم المسلمون، فإذا مضى الثلث الثاني ضرب بجناحيه وقال: ليقيم الذاكرون، فإذا كان السحر وطلع الفجر ضرب بجناحيه وقال: ليقيم الغافلون، وعليهم أوزارهم، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «إن لله ديكاً أبيض له جناحان موشحان بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ جناح بالمشرق، وجناح بالمغرب، ورأسه تحت العرش وقوائمه في الهواء، فإذا كان ثلث الليل الأول خفق بجناحيه وقال سبحان الملك القدوس، فإذا كان الثلث الثاني خفق بجناحيه وقال: قدوس قدوس، فإذا كان الثلث الثالث خفق بجناحيه وقال: ربنا الرحمن الرحيم لا إله إلا هو». وروى الثعلبي بإسناده عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى: صوت الديك، وصوت قارئ القرآن، وصوت المستغفر بالأسحار». وفي الحديث: «لا تسبوا الديك، فإنه يؤقت للصلاة». وزعم أهل التجربة أن الرجل إذا ذبح الديك الأبيض الأفرق لم يزل ينكب في أهله وماله.

نادرة: قيل كان لإبراهيم بن مزيد ديك، وكان كريماً عليه، فجاء العيد وليس عنده شيء يضحي عليه، فأمر امرأته بذبحه واتخاذ طعام منه وخرج إلى المصلى، فأرادت المرأة أن تمسكه، ففر، فتبعته، فصار يخترق من سطح إلى سطح، وهي تتبعه، فسألها جيرانها وهم هاشميون عن موجب ذبحه، فذكرت لهم حال زوجها، فقالوا ما نرضى أن يبلغ الاضطراب بأبي إسحاق إلى هذا القدر، فأرسل إليه هذا شاة وهذا شاتين وهذا بقرة وهذا كبشاً حتى امتلأت الدار، فلما جاء ورأى ذلك قال: ما هذا؟ فقصت عليه زوجته القصة، فقال: إن هذا الديك لكريم على الله، فإن إسماعيل نبي الله فدى بكبش واحد، وهذا فدى بما أرى.

حرف الذال: (ذباب) وكنيته أبو جعفر وهو أصناف كثيرة يتولد من العفونة. ومن عجيب أمره أنه يلقي رجليه على الأبيض يسود وعلى الأسود يبيض ولا يقعد على شجرة الدباء، وفي الحديث: «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم، فليغمسه، فإن في أحد جناحيه دواء وفي الأخرى داء»، وإن من طبعه أن يلقي نفسه بالجناح الذي فيه الداء.

وحكى أن المنصور كان جالساً، فآلح عليه الذباب حتى أضجره، فقال: انظروا من بالباب من العلماء، فقالوا: مقاتل ابن سليمان، فدعا به، ثم قال له: هل تعلم لأي حكمة خلق الله الذباب؟ قال: ليذل به الجبابرة. قال: صدقت، ثم أجازته. ومن خصائص النبي ﷺ أنه كان لا يقع عليه ذباب قط، وقال المأمون: قالوا إن الذباب إذا ذلك به موضع لسعة

الزنبور سكن ألمه، فلسعنى زنبور، فحككت على موضعه أكثر من عشرين ذبابة، فما سكن له ألم، فقالوا هذا كان حتفاً قاضياً، ولولا هذا العلاج لقتلك، وقال الجاحظ: من منافع الذباب أنها تحرق وتخلط بالكحل، فإذا اكتحلت به المرأة كانت عينها أحسن ما يكون، وقيل: إن المواشط تستعمله ويأمرن به العرائس، وقيل: إن الذباب إذا مات وألقى عليه برادة الحديد عاش، وإذا بخر البيت بورق القرع هرب منه الذباب.

(ذئب) حيوان معروف وكنيته أبو جعدة وأبو جاعد، وأبو ثمانية لونه رمادى وهو من الحيوان الذى ينام بإحدى عينيه ويحرس بالأخرى حتى تمل، فيغمضها، ويفتح الأخرى كما قال بعض واصفيه:

ينام بإحدى مقلتيه ويتسقى بأخرى المنايا فهو يقظان هاجع

وإذا أراد السفاد اختفى، ويطول فى سفاده كالكلب. وإذا جاع عوى، فتجمع الذئاب حوله، فمن هرب منها أكلوه وإذا خاف منه الإنسان طمع فيه، وليس فى الأرض أسد يعض على عظم إلا ويسمع لتكسيه صوت بين لحيه إلا الذئب، فإن لسانه يبرى العظم برى السيف ولا يسمع له صوت، وقيل: إذا أدماه الإنسان، فشم الذئب رائحة الدم لا يكاد ينجو منه، وإن كان أشد الناس قلباً وأتمهم سلاحاً، كما أن الحية إذا خدشت طلبها الذر فلا تكاد تنجو منه، وكالكلب إذا عض الإنسان يطلبه الفأر فيبول عليه، فيكون فى ذلك هلاكه، فيحتال له بكل حيلة، وقيل: لا يعرف الالتحام عند السفاد إلا فى الكلب والذئب، وإذا هجم الصياد على الذئب والذئبة وهما يتسافدان قتلها كيف شاء، والله أعلم.

حرف الراء: (رخ) طير عظيم الخلقة يوجد بجزائر الصين، قال أبو حامد الأندلسى: ذكر لى بعض المسافرين فى البحر أنهم أرسوا بجزيرة، فلما أصبحوا وجدوا فى طرفها لمعناً وبريقاً، فتقدموا إليه، وإذا هم بشئ مثل القبة قال: فجعلوا يضربون فيه الفؤوس إلى أن كسروه، فوجدوه كهيئة البيضة، وفيه فرخ عظيم قال، فتعلقوا بريشه وجروه، ونصبوا القدور، وخرجوا يحتطبون من تلك الجزيرة حطباً يقال له: حطب الشباب فلما أكلوا ذلك الطعام اسودت لحيه ولة كل ذى شيب قال، فلما أصبحوا جاءهم الرخ، فوجدهم قد صنعوا بفرخه ما صنعوا، فذهب، وأتى فى رجليه بحجر عظيم وتبعهم بعدما ساروا فى البحر وألقاه على سفيتهم، فسبقت السفينة، وكانت مشرعة بتسع قلع، ووقع الحجر فى البحر، فنجاهم الله تعالى منه، وكان ذلك من لطف الله تعالى بهم قال: وقد كان بقى معهم أصل ريشة قيل: إنهم كانوا يجعلون فيها الماء فتسع مقدار قرية، فسبحان الخالق الأكرم.

(رخم) طير أغبر أصفر المنقار معروف وهو من أشر الطيور ويقال: إنها صماء وسبب ذلك ما قيل فى بعض الحكايات: أن موسى عليه الصلاة والسلام لما مات تكلمت بموته، وكانت تعرف مكانه، فأصمها الله تعالى حتى لا ترشد أحداً إلى موضعه.

حرف الزاى: (زرافة) حيوان غريب الخلقة، ولما كان مأكولها ورق الشجر خلق الله تعالى يديها أطول من رجليها، وهى ألوان عجيبه يقال: إنها متولدة من ثلاث حيوانات: الناقة الوحشية والبقرة الوحشية والضبع، فينزو الضبع على الناقة فيأتى بذكر فينزو ذلك الذكر على البقرة فتولد منه الزرافة، والصحيح أنها خلقت بذاتها ذكر وأنثى كبقية الحيوانات لأن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا بحكمة.

(زنبور) حيوان فوق النحل له ألوان وقد أودعه الله حكمة فى بنيانه بيته وذلك أنه يبنيه مربعاً له أربعة أبواب كل باب مستقبل جهة من الرياح الأربع، فإذا جاء الشتاء دخل تحت الأرض ويبقى إلى أيام الربيع، فينفخ الله تعالى فيه الروح فيخرج ويطير، وفى طبعه التهافت على الدم واللحم، ومن خاصيته أنه إذا وضع فى الزيت مات وفى الخل عاش، ولسعته تزال بعصارة الملوخية.

حرف السين: (سعلاة) نوع من المتشيطنة. قال السهيلي: هو حيوان يتراءى للناس بالنهار ويغول بالليل، وأكثر ما يوجد بالغياض، وإذا انفردت السعلاة بإنسان وأمسكته صارت ترقصه وتلعب به كما يلعب القط بالفأر قال: وربما صاها الذئب وأكلها وهى حيث ترفع صوتها وتقول: أدركونى فقد أخذنى الذئب، وربما قالت: من ينقذنى منه وله ألف دينار، وأهل تلك الناحية يعرفون ذلك، فلا يلتفتون إلى كلامها.

(سقنقور) دابة شكلها كالوزغة إذا أخذت وسلخت وملحت وشرب منها مثقال زاد في الباه وهو من الأشياء النفيسة عند أهل الهند يقال: إنه يهدى إليهم فيذبحونه بسكين من الذهب، ويحشونه من ملح مصر، فإذا وضعوا منه مثقالاً على لحم أر بيض نفع نفعاً عظيماً.

(سمندل) حيوان يوجد بأرض الصين، ومن عجيب أمره أنه يبيض في النار، ويفرخ فيها ويؤخذ وبره، فينسج ويجعل منه المناشف، وهذه المناشف إذا اتسخت جعلت في النار، فتأكل النار وسخها ولا تحرقها.

حكى أن شخصاً بلّ واحدة من هذه المناشب بالزيت وجعلت في النار، وأوقدت ساعة ولم تحترق.

(سنباب) حيوان كهية الفأر يوجد في بلاد الترك على قدر اليربوع إذا أبصر الإنسان هرب منه، وشعره كشعر الفأر وهو ناعم، فيؤخذ ويسلخ جلده ويجعل فرواً يلبس، وطبعه موافق لكل طبع وأحسنه الأزرق.

(سنور) حيوان متواضع ألوف خلقه الله تعالى لدفع الفأر والحشرات، كناه وأسماءه كثيرة.

حكى أن أعرابياً صاد سنوراً، فرآه شخص، فقال: ما تصنع بهذا القط، ولقيه آخر، فقال: ما تصنع بهذا الخيدع؟ ولقيه آخر، فقال: ما تصنع بهذا الخيطل؟ ولقيه آخر، فقال: ما تصنع بهذا الهر؟ قال: أبيع. قال: بكم؟ قال: بمائة درهم، فقال: إنه يساوي نصف درهم، قال: فرمى به، وقال: لعنه الله ما أكثر أسماءه وأقل قيمته، وهذا الحيوان يهيج في زمان الشتاء في شهرين منه وتراهنّ يترددن صارخات في طلب السفاد، فكم من حرة خجلت وذى غيرة هاجت حميته، وعزب تحركت شهوته، وطيب فم السنور كطيب فم الكلب في النكهة، وقيل: إن الهرة تحمل خمسين يوماً، وهو يجمع بين العض والنباب والخمش بالمخلاب، وليس كل سبع كذلك، وهو يناسب الإنسان في بعض الأحوال، فيعطس ويتمطى، ويغسل وجهه بلعابه ويلطخ وبره بلعابه حتى يصير كأنه الدهن يسرى في جلده، وقيل: إذا بال الهر شم بوله ودفنته قيل: لأجل الفأر، فإذا شمه علم أن هناك هراً، فلم يخرج، وأما سنور الزباد، فهو بأرض بالهند ويوجد الزباد تحت إبطيه وفخذه.

(سوس) هو دود الحبوب والفاكهة. ومن الفوائد التي تكتب في الحبوب فلا تسوس أسماء الفقهاء السبعة الذين كانوا بالمدينة وقد نظمها بعضهم، فقال:

فقسّمته ضيزى عن الحق خارجه	ألا كلّ من لا يقدّر بئس
سعيد أبو بكر سليمان خارجه	فخذهم عبيد الله عروة قاسم

حرف الشين: (شاد هوار) حيوان يوجد بأرض الترك يقال إن له قرناً عليه اثنتان وسبعون شعبة مجوفة، فإذا هبت الريح سمع لها تصويت عجيب يكاد يدهش، وربما قيل إن فيه شعبة يورث سماعها البكاء والحزن، وأخرى تورث الفرح والضحك، وأنه أهدى إلى بعض الملوك شيء من شعبها، فرأى ذلك، ويقال إن من الحيوان شيئاً يوجد بالغياض في قصبة أنفه اثنا عشر ثقباً إذا تنفس يسمع له صوت كصوت المزمارة، فتأثيه الحيوانات لتسمعه، فتدهش، فيغفل بعضها من الطرب، فيشب عليه، فيأخذه، ويأكله، وهي تعلم ذلك منه وتحترز، فإذا لم يمك منها شيئاً ضاق خلقه وصاح بها صيحة، فتهرب وتتركه.

(شاهين) طير يكون كهية الصقر إلا أنه عظيم الهامة واسع العينين، ومزاجه أيس من مزاج الصقر، وحركته من العلو إلى أسفل أقوى، ولذلك ينقض على الطير بشدة، وربما يخطئه فيضرب نفسه بالأرض بشدة، فيموت، وقيل: أول من صاد به قسطنطين، وذلك أنه قد جعل له الحكماء الشواهين تظله من الشمس إذا سار، فاتفق في بعض الأيام أنه ركب فدارت الشواهين عليه، وسار. قال: فطار واحد منها وانقض على صيد، فأخذه، فأعجب الملك ذلك وصار يتصيد به.

(شحرور) طير أسود فوق العصفور يصوت بأصوات مطربة.

حرف الصاد: (صرد) حيوان يسمى الصرصار على قدر الخنفساء له جناحان ويقال له الصوام لأنه أول طير صام يوم

(صعو) طير من صغار العصفير أحمر الرأس .

حرف الضاد: (ضأن) نوع من الحيوانات ذوات الأربع ، وهو من الحيوانات المباركة تحمل الأنثى منه بواحد واثنين ، وفيها البركة ، وغيرها تحمل بالسبعة والتسعة ، وليس فيها بركة ، وإذا رعت زرعاً نبت عوضه ، وذلك لبركتها بخلاف ذوات الشعر ، ومن عجيب أمرها أنها إذا رأت الذئب تخور وتخاف منه ولا تخاف من سائر السباع . قال بعض القصاص: مما أكرم الله تعالى به الكباش أن خلقه مستور العورة من قبل ومن دبر ، ومما أهان به التيس أن خلقه مهتوك الستر مكشوف العورة من قُبُل ومن دُبر ، ويقال الضأن من دواب الجنة ، وهي صفوة الله من البهائم ، ويقال في المدح: هو كبش من الكباش وفي الذم هو تيس من التيوس ، وأهدى بعضهم إلى صديقه شاة هزيلة فقال:

تقول لى الإخوان حين طبختها أتطبخ شطرنجاً عظاماً بلا لحم

ومن العجب أنه يأتي غنم من الهند للكبش منها آلية في صدره وآليات في كتفيه ، وآلية على ذنبه ، وربما تكبر آلية الضأن حتى تمنعه من المشى ، ومن عجيب أمرها أنها إذا تسافتت وقت المطر لاتحمل وعند هبوب الريح إن كانت شمالية حملت ذكراً ، وجنوبية حملت أنثى ، والله أعلم .

ومن خواصها: أن لحمها ينفع للسوداء ، ويزيد في المنى والباه ، وإذا تحملت المرأة بصوفها قطع حبلها ، وإذا غطى إناء العسل بصوف الضأن الأبيض منع وصول النمل إليه ، وإذا دفن قرن كبش تحت شجرة كثر حملها على ما ذكر والله أعلم .

(ضب) حيوان يجعل جحره في الأرض الصلدة وعنده بله ، وربما لايهتدى لجحره إذا خرج منه ، فلذلك لايحفره إلا بقرب كدوية أو إشارة ، وهو من الحيوان الذى يعمر . قيل: إنه يعيش سبعمائة سنة ، ومن طبعه أنه يصبر على الماء ، يقال: إنه لايشرب ، فإنه يبول في كل أربعين يوماً قطرة ، والأنثى تبيض سبعين بيضة وأكثر ، وتجعلها في الأرض ، وتتعاهدا في كل يوم إلى أربعين يوماً ، فيخرج ، ويبضها قدر بيض الحمام ، وهذا الحيوان شديد الخوف من آدمى ، ولذلك يجعل العقارب في جحره حتى يمتنع بها ، ويخرج من جحره كليل البصر ، فيستقبل الشمس ، فيحصل له بذلك حدة في بصره ، وإذا عطش نشق النسيم فيروى ، وبينه وبين الأفاعي مناسبة ، وذلك أنه لا يخرج زمن الشتاء .

فائدة: قيل: إن أعرابياً أتى النبي ﷺ وفي كفه ضب قد صاده ، وقال: لولا أن تسميني العرب عجولاً لقتلتك ، وسررت الناس بقتلك ، فقال عمر: دعنى يا رسول الله أقتله ، فقال عليه الصلاة والسلام: مهلاً يا عمر أما علمت أن الحليم كاد أن يكون نبياً؟ قال: ثم أقبل الأعرابي على النبي ﷺ وقال: والله لا آمنت بك إلا أن يؤمن بك هذا الضب ، وأخرجه من كفه قال: فعند ذلك قال النبي ﷺ يا ضب: فأجابه بلسان فصيح لييك وسعديك يا رسول رب العالمين ، فقال: من تعبد؟ قال: الذى فى السماء عرشه ، وفى الأرض سلطانه ، وفى البحر سبيله ، وفى الجنة رحمته ، وفى النار عذابه ، فقال: من أنا يا ضب؟ قال: رسول رب العالمين قد أفلح من صدقك وقد خاب من كذبك ، قال: فقال الأعرابي عند ذلك: يا ويلاه ضب اصطدته بيدى من البرية يشهد لك بالرسالة . أنا أولى منه بذلك ، هات يدك أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله حقاً ، ولقد أتيتك وما على وجه الأرض أحد أكثر بغضاً منى إليك ، ولقد صرت الآن أذهب من عندك وما على وجه أحد أكثر محبة منى إليك ، ولأنت الساعة أحب إلى من أهلى وولدى وما تملك يدى ، فقد آمن بك شعرى وبشرى وداخلى وخارجى وسرى وعلايتى ، فقال النبي ﷺ: الحمد لله الذى هداك لهذا الدين الذى يعلو ولا يعلو عليه ، ولكن لا يقبله الله إلا بصلاة ، ولا يقبل الصلاة إلا بقراءة . قال: فعلمنى يا حبيبى . قال: فعلمه سورة الفاتحة ، وسورة الإخلاص ، وقال: من قرأها ثلاث مرات ، فكأنما قرأ القرآن . قال: إلهنا يقبل اليسير ويعفو عن الكثير ، ثم سأله: ألك مال؟ فقال: يا حبيبى ليس فى بنى سليم أفقر منى ، فقال لأصحابه: اعطوه ، فأعطوه حتى أثقلوه ، فقال عبد الرحمن بن عوف يا رسول الله: عندى ناقة عشارية أعطيها له ، فقال: إن الله يعطيك ناقة فى الجنة من درة قوائمها من الزبرجد الأخضر وعيناها من الياقوت الأحمر ، وعليها هودج من السندس تخطفك من الصراط كالبرق . قال:

فخرج الأعرابي من عنده، فتلقياه ألف فارس من المشركين كلهم يريدون قتل النبي ﷺ فأخبرهم بقصته، فأسلموا عن آخرهم، وأمر النبي ﷺ خالد بن الوليد عليهم، وهذه القصة ذكرها الدارقطني بتمامها، والبيهقي والحاكم، وابن عدي.

الخواص: قلبه يذهب الحزن والخفقان، وشحمه يطلى به الذكر يزيد في الباه، وكعبه يشد على وجه الضرس يبرأ، وإذا جعل على وجه فرس لا يسبقه شيء، وبعره يذهب البرص والكلف طلاء، ومن أكل لحمه لا يعطش زماناً طويلاً.

(ضبع) حيوان معروف ومن كناه أم عامر ومن طبعه حب آدمي حتى قيل: إنه ينبش القبور وإذا مر بإنسان نائم حفر تحت رأسه ووثب عليه وبقر بطنه وشرب دمه.

الخواص: من شرب دمه ذهب وسواسه، ومن علّق عليه عينه أحبه الناس، وإذا جعلها في خل سبعة أيام ثم جعلها تحت فص خاتم فكل من كان به سحر، وجعل الخاتم في قليل ماء وشربه زال سحره.

(ضفدع) حيوان يتولد من المياه الضعيفة الجرى، ومن العفونات وعقيب الأمطار وأول ما يظهر مثل الحب الأسود، ثم ينمو، ثم تتشكل له الأعضاء، وإذا نق جعل فكه الأسفل في الماء والأعلى من خارج وفي صوته حدة. قال سفيان: ليس من الحيوان أكثر ذكراً لله تعالى من الضفدع، وفي الآثار أن داود عليه السلام قال: لأسبحن الله تعالى بتسبيح ما سبحه أحد قبلي، فنادته ضفدعه يا داود تمنّ على الله بتسبيحك، وأنا لي تسعون سنة ما جف لساني عن ذكر الله تعالى قال: فما تقولين في تسبيحك؟ قالت أقول: سبحان من هو مسبح بكل لسان، سبحان من هو مذكور بكل مكان، فقال داود: ما عسى أن أقول. وقال بعضهم: إنها كانت تأخذ الماء بفيها وتجعله على نار إبراهيم الخليل، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حرف الطاء: (طاوس) طير مليح ذو ألوان عجيبة وعنده الزهو في نفسه والعجب، ومن طبعه العفة وهو من الطير كالفرس من الحيوان، والأنثى تبيض حين يمضي لها من العمر ثلاث سنين وفي ذلك الأوان يكمل ريش الذكر ويتم لونه، وتبيض الأنثى مرة واحدة في كل شهر، ففي السنة اثنتا عشرة بيضة أو أقل أو أكثر، ويسفد الذكر في أيام الربيع، ويرمي ريشه في أيام الخريف، كالشجر فإذا بدأ طلوع الورق طلع ريشه، ومدة حضنه ثلاثون يوماً.

فائدة: قيل: إن آدم لما غرس الكرمة جاء إبليس لعنه الله، فذبح عليها طاوساً، فشربت دمه، فلما طلعت أوراقها ذبح عليها قرداً، فشربت دمه، فلما طلعت ثمرتها ذبح عليها أسداً، فشربت دمه، فلما انتهت ثمرتها ذبح عليها خنزيراً، فشربت دمه، فمن أجل ذلك تجد شارب الخمر أول ما يشربها وتدب فيه يزهو بنفسه، ويميس عجباً كالطاووس، فإذا جاء مبادئ السكر لعب وصفق بيديه كالقرد، فإذا قوى سكره قام وعربد، كهيشة الأسد، فإذا انتهى سكره انقبض كما ينقبض الخنزير، ثم يطلب النوم والناس تشاءم بإقامته بالدور، قيل: لأنه كان سبباً لدخول إبليس الجنة وخروج آدم منها، والله على كل شيء قدير.

حرف الظاء: (ظبي) واحد الغزلان، وهو ثلاثة أصناف: الأول الآرام، وهو ظباء الرمل ولونها رمادي وهي سمينة العنق، والثاني العفر لونها أحمر وهي قصيرة العنق والثالث الآدم وهي طويلة العنق وتوصف بحدة البصر، وقيل: إن الظبي يقضم الحنظل ويمضغه مضغاً وماؤه يسيل من شذقيه ويرد الماء المالح فيشرب الماء الأجاج ويغمس خرطوميه فيه كما تغمس الشاة لحبيها في العذب، فأى شيء أعجب من حيوان يستعذب ملوحة البحر ويستحلى مرارة الحنظل.

الخواص: لسانه يجفف ويطعم للمرأة السليطة تزول سلاطتها، وبعره وجلده يحرقان ويسحقان ويجعلان في طعام الصبي يزيد ذكاؤه ويصير فصيحاً ذلقاً حافظاً.

(ظربان) دويبة فوق جرو الكلب متنة الريح تزعم العرب أن من صاهاها وفست في ثوبه لاتزول الرائحة منه حتى يبلى الثوب. ويحكى من شؤمها أنها تأتي بيت الظبي، فتفسو فيه ثلاث مرات فتقتل ما فيه، وتأكله بعد ذلك.

حرف العين: (عجل) حيوان معروف وهو ذكر البقر وسمى بذلك لاستعجال بني إسرائيل بعبادته والسبب في ذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام وقت الله له ثلاثين ليلة ثم أتمها بعشر وكان فيهم شخص يسمى موسى بن ظفر السامري في قلبه من حب عبادة البقر شيء فابتلى الله به بني إسرائيل، فقال: اتنوني بحلي قال: فأتوه بجميع حليهم فصنع منه

عجلاً جسداً وألقى عليه قبضة من التراب الذى كان أخذه من أثر فرس جبريل عليه السلام فصار له خوار كما أخبر الله تعالى، فعكفوا على عبادته من دون الله تعالى، وكانوا يأتون إليه ويرقصون حوله ويتواجدون فيخرج منه تصويت كهيئة الكلام فيتعجبون من ذلك ويظنون أنه تكلم، وإنما فعل ذلك بإغواء إبليس لعنه الله حتى يطغيهم.

فائدة: نقل القرطبي عن سيدى أبو بكر الطرطوشى رحمهما الله أنه سئل عن قوم يجتمعون فى مكان فيقرأون من القرآن ثم ينشد لهم الشعر فيرقصون ويطربون، ثم يضرب لهم بعد ذلك بالدف والشبابة هل الحضور معهم حلال أم حرام فقال: مذهب الصوفية أن هذه بطالة وجهالة وضلالة وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذوا العجل، فهذه الحالة هي حالة عباد العجل وإنما كان النبي ﷺ مع أصحابه فى جلوسهم كأنما على رؤوسهم الطير مع الوقار والسكينة، فينبغى لولاة الأمور وفقهاء الإسلام أن يمنعوهم من الحضور فى المساجد وغيرها ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ولا يعينهم على باطلهم، هذا مذهب الشافعى وأبو حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل رحمهم الله تعالى.

(عقرب): هو من الحشرات. قال الجاحظ إنها تلد من فيها مرتين وتحمل أولادها على ظهرها وهم كهيئة القمل كثير العدد، وقال غيره إذا حملت تسلط عليها أولادها فأكلوا بطنها وخرجوا كهيئة الذر ثم يكثرون ويطوفون بالأرض، ولها ثمانية أرجل، ومن عجيب أمرها أنها لا تضرب النائم إلا إذا تحرك شيء منه، والخنفس تأوى إليها وربما لسعت التين العظيم فتقتله.

غريبة: قال ذو النون المصرى، بينما أنا فى بعض سياحتى إذا مررت بشاطئ البحر فرأيت عقرباً أسود قد أقبل إلى أن جاء إلى شاطئ البحر، فظننت أنه يشرب فقامت لأنظر فإذا بضفدع قد خرج من الماء وأناه فحمله على ظهره وذهب به إلى ذلك الجانب، قال ذو النون: فاتزرت بمئزرى وعمت خلفه حتى إذا صعد من ذلك الجانب صعدت وسرت وراءه فما زال حتى جاء إلى شجرة، فوجدت تحتها غلاماً نائماً من شدة السكر قد أقبل عليه تين عظيم، قال: فلصقت العقرب برأس التين ولسعته فقتلته ثم رجعت إلى ظهر الضفدع فعبّر بها إلى الماء وسار بها إلى المكان الذى جاءت منه قال ذو النون فتعجبت من ذلك وأنشدت:

يا راقداً والجليلُ يحفظه من كل سوءٍ يكون فى الظلم
كيف تنام العيونُ عن ملكٍ يأتيك منه فوائد النعم

ثم أيقظت الغلام وأخبرته بذلك قال: فلما سمع ذلك قال: أشهدك على أن قد تبث عن هذه الخصلة، ثم جرينا ذلك التين ورميناه فى البحر ولبس ذلك الغلام مسحاً وساح إلى أن مات رحمة الله تعالى عليه، وما أحسن ما قال بعضهم:

إذا لم يسالك الزمان فحارب وباعد إذا لم تنتفع بالأقارب
ولا تحتقر كيد الضعيف فربما تموت الأفاعى من سموم العقارب
فقد ههنا قدماً عرش بلقيس ههنا وخرب فأر قبل ذا سد مأرب
إذا كان رأس المال عمرك فاحترز عليه من التضییع فى غير واجب
فبين اختلاف الليل والصبح معرك يكر علينا جيشه بالعجائب

فائدة: إذا لدغ أحد فاقراً عليه هذه الكلمات وهى: سلام على نوح فى العالمين وصلى الله على سيدنا محمد فى المرسلين أعينك من حاملات السم أجمعين لادابة بين السماء والأرض إلا ربى آخذ بناصيتها كذلك يجزى عباده المحسنين إن ربى على صراط مستقيم نوح قال لكم من ذكرنى لاتلدغوه إن ربى بكل شيء عليم وصلى الله على سيدنا محمد الكريم. وقال بعض العلماء: من قال عقدت زبان العقرب ولسان الحية ويد السارق بقول: أشهد أن لا إلا الله وأن محمداً رسول الله أمن من العقرب والحية والسارق.

وفى البخارى «أن رجلاً جاء إلى النبی ﷺ وقال: يا رسول الله ماذا لقيت من عقرب لدغتنى البارحة فقال له النبی ﷺ: أما إنك لو قلت إذا أمسيت أعوذ بكلمات التامات من شر ما خلق لم تضرك»، وروى الترمذی «أن من قال حين يمسى أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ثلاث مرات ثم قال سلام على نوح فى العالمين لم تضره الحية والعقرب»، والسّر فى ذكر نوح دون غيره هو أنه لما ركب فى السفينة سأله الحية والعقرب أن يحملهما معه فشرط عليهما أنهما لا يضران من ذكر اسمه بعد ذلك فشرطا له ذلك.

الخواص: من بخر البيت بزرنیخ أحمر وشحم بقر هربت منه العقارب، ومن شرب مثقالين من حب الأترج أبراه من سمها، ومن علق عليه شىء من ورق الزيتون برئ أيضاً لوقته.

(عقّوق) طير ذو لونين طويل الذنب قدر الحمامة على شكل الغراب وجناحاه أكبر من جناحي الحمامة وهو لا يأوى إلا الأماكن العالية وإذا باض جعل حول بيضه ورق الدلب خوفاً عليه من الخفاش لا يفسده.

الخواص: دمه إذا جعل على قطن وألصق على موضع النصل والشوكة الغائبة فى البدن أخرجه.

(علق) دود أحمر وأسود يكون بالماء يعلق بالخیل والأدمى فإذا علقت بك فرش عليها ماء وملحاً وإذا علقت بفرس فبخره بوبر الثعلب فإنها تنفصل من رائحة دخانه. ومن خواصه أن البيت إذا بخر به هرب ما فيه من البق والبعوض وإذا جفف وسحق وقلع الشعر وطفى به مكانه منع نباته.

(عنقاء) اختلف فيها فقال بعضهم: هو طائر عظیم الخلقة له وجه إنسان وفيه من كل حيوان لون وقال بعضهم هو طير غريب الشكل بيض بيضاً كالجبال ويبعد فى طيرانه، وسميت بذلك لأنه كان فى عنقها طوق أبيض، قال القزوينى: إنها تخطف الفيلة لعظمها وكبر جثتها كما تخطف الحداة الفأر، قال: وكانت فى قديم الزمان بين الناس إلى أن خطفت عروساً بحليها فذهب أهلها إلى نبي ذلك الزمان فشكوها إليه فدعا عليها فذهب بها إلى بعض الجزائر التى خلف خط الاستواء وهى جزيرة لا يصل إليها أحد وجعل لها فيها ما تقتات به من السباع كالفيل والكرکند وغير ذلك. وقال أصحاب التواريخ إن هذا الطير يعمر حتى قيل إنه يعيش ألفى سنة ويتزوج إذا مضى عليه خمسمائة.

وحكى الزمخشري فى «ربيع الأبرار»، أن الله تعالى خلق فى زمن موسى عليه الصلاة والسلام طيراً يقال له: العنقاء له وجه كوجه الإنسان، وأربعة أجنحة من كل جانب وخلق له أنثى مثله ثم أوحى الله تعالى إلى موسى أنى خلقت خلقاً كهيئة الطير وجعلت رزقه الوحوش والطير التى حول بيت المقدس قال: فتناسلا وكثر نسلهما فلما توفى موسى عليه الصلاة والسلام انتقلت إلى نجد والعراق، فلم تزل تأكل الوحوش وتخطف الصبيان إلى أن تنبأ خالد بن سنان العيسى، فشكوها له، فدعا عليها، فانقطعت وانقطع نسلها وانقرضت.

(عنكبوت) دوية لها ثمانية أرجل وستة عيون وهى من الحيوان الذى صيده الذباب وولده يخرج قوياً على النسج من غير تعليم ولا تلقين ويخرج أولاده دوداً صغيراً ثم يتغير وتصير عنكبوتاً وتكمل صورته.

فائدة: قيل إن امرأة ولدت جارية، ثم قالت لخدام لها اقتبس لها ناراً، فخرج، فوجد بالباب سائلاً، فقال له: ما ولدت سيدتك؟ فقال: بنتاً، فقال: لا تموت حتى تبغى بألف رجل ويتزوجها خادماً ويكون موتها بالعنكبوت، فقال الخادم، وأنا أصبر لهذه حتى يحصل منها ما يحصل، فصبر حتى قامت أمها لتقضى بعد شؤونها وعمد إلى البنت، فشق بطنها بسكين وهرب، قال فجاءت أمها، فوجدتها على تلك الحالة، فدعت بمن يعالجها حتى شفيت، فلما كبرت بغت، قال: ثم إنها سافرت وأتت مدينة على ساحل من سواحل البحر، فأقامت هناك تبغى قال، وأما الرجل فإنه صار من التجار، وقدم لتلك المدينة ومعه مال كثير، فقال لامرأة عجوز هناك اخطبى لى امرأة حسنة أتزوج بها قال: فوصفتها له وقالت: ليس هنا أحسن منها، ولكنها تبغى، فقال للعجوز اتنى بها، قال: فذهبت وأخبرتها بالقصة، فقالت لها: حباً وكرامة، فإنى قد تبت من البغى، فتزوج بها، وأحبها حباً شديداً وأقام معها أياماً، وكان يود أن يراها متجردة، فلم يمكنه ذلك حتى إذا كان فى بعض الأيام خرج على عادته لقضاء أشغاله ودخلت هى الحمام، وعرضت له حاجة، فرجع إلى الدار، وصعد إلى قصرها، فلم يرها، فسأل عنها، فقيل له هى فى الحمام، فدخل عليها، فرآها

متجردة، ورأى فى بطنها أثر كالحياطة، فقال: ما هذا؟ قالت: لا أعلم إلا أن أمى أخبرتنى أنه كان لنا خادماً وأنه يوم ولادتى غافل أمى وشق بطنى بسكين وهرب وأنها حين رأتنى كذلك دعت بعض الأطباء، فخطاط بطنى وعالجنى حتى اندمل جرحى، وشفيت، وبقي هذا الأثر، فقال لها: أنا ذلك الخادم، وحكى لها السبب، وأن ذلك السائل أخبره أنها تموت بالعنكبوت، ثم إنه اهتم بأمرها وجمع مهندسى البلدة التى هم فيها وسألهم أن يبنوا له بناء لا ينسج عليه العنكبوت، فقالوا: كل بناء ينسج عليه إلا أن يكون البلور لنعمته لا ينسج عليه، فأمرهم أن يصنعوا لها قصراً من البلور، وبذل لهم ما أرادوا، فعملوه وفرشه، وأمرها أن تقيم فيه لا تخرج منه خوفاً عليها من العنكبوت، قال: فبينما هو ذات يوم إذ رأى عنكبوتاً قد نسج فى ذلك القصر، فقام إليه، فرماه وقال لها هذا الذى يكون موتك منه قال: فداسته بإبهامها وقالت كالمستهزئة: أهذا الذى يقتلنى، فشدخته، فتعلق بطرف إبهامها من مائه شئ فعمل بها حتى ورمت ساقها، ثم وصل الورم إلى قلبها، فقتلها، فما أفاده قصره ولا صرحه شيئاً. قال الله تعالى: ﴿يَذَرِكُمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

فائدة: نسج العنكبوت على ثلاثة مواضع: على غار النبى ﷺ، وعلى غار عبد الله بن أنيس لما بعثه النبى ﷺ لخالد الهذلى، فقتله، وحمل رأسه، ودخل به فى غار خوفاً من أهله، ونسج على عورة زيد بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم لما صلب عرياناً، وقيل إنها نسجت مرتين على داود حين كان جالوت يطلبه.

الخواص: نسجها إن وضع على الجراح الطرية يقطع دمها، ويجلو الفضة إذا دلكت به والذى يوجد من نسجها فى بيت الخلاء ينفع المحموم إذا تبخر به.

(ابن عرس) حيوان معروف وهو بأرض مصر كثير ويسمى العرسة وهو عدو للفار وعنده الخيل، قيل: إنه عدا خلف فار، فصعد منه على شجرة، فصعد خلفه، وأمر أنثاه أن تقف تحت الشجرة، ثم قطع الغصن الذى كان عليه الفار، فسقط، فأخذته أنثاه. ومما حكى أنه يحب الذهب فيسرقه ويلد عليه.

عجيبة: قيل إن رجلاً صاد فرخاً من أولاده وحبه تحت طاسة، فجاء أبوه، فوجده، فذهب وأتى بدينار، فوضعه، فلم يفلته، ثم ذهب وأتى بآخر وما زال كذلك حتى أتى بخمسة دنانير، فلم يفلته، ثم أتى بخرقه، فلم يفلته، فأراد ابن عرس أن يأخذ ما برطله به فلم علم الرجل ذلك فهم أنه لم يبق عنده شئ، فأفلته له.

حرف الغين: (غراب) وكنيته أبو حاتم وله كنى غير ذلك، وهو أنواع كثيرة، منها الأكحل، وغراب الزرع، والأزرق وهذا النوع يحكى جميع ما سمعه، والعرب تتفاءل بصياح الغراب، فتقول: إذا صاح مرتين فشر، وإذا صاح ثلاثة فخير، وهو كالإنسان عند الجماع، وفى طبعه الاستتار عن الناس عند مجامعته، والأنثى تبيض ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، وتحضن ذلك والأب يسعى فى طعمتها إلى أن تفرخ، فإذا فرخت خرجت أفراخها قبيحة المنظر، فتتفرق عنها وتركها وتغيب فيرسل الله لها البعوض فتغذى به ثم لاتزال تتعاهدها حتى ينبت لها الريش فتأنيها ومنه قول الحريرى:

يا رازق النعماب فى عشه وجابر العظم الكسير المهيض

ومن طبعه أنه لا يتعاطى الصيد بل إن وجد رمة أكل منها ويقم من الأرض ما وجد ويسمى بالفاسق لأنه لما أرسله نوح عليه السلام ليكشف عن الماء، فوجد فى طريقه رمة فسقط عليها وترك ما أرسل إليه، ويسمى بالبين لأنه إذا رحل العرب من مكان نزل فيه وزعق فى أثرهم. ومن الغرائب أن بين الغراب وبين الذئب ألفه وذلك أنه إذا رأى الذئب بقر بطن شاة سقط وأكل منها ومعه الذئب لا يضره.

الخواص: إذا غمس الغراب فى الخل ثم جفف وسحق ريشه وطلسى به الشعر سوده، وإذا علق منقاره على إنسان زالت عنه العين. وزبل الغراب الأبقع ينفع الخوانيق والخنازير طلاء، وإن صر فى خرقه على من به السعال زال.

(غرغر) دجاج بنى إسرائيل يقال إن فرقة من بنى إسرائيل كانت بتهمامة، فطغت وبغت وتجبرت وكفرت، فعاقبهم الله تعالى بأن جعل رجالهم القردة وكلابهم الأسود وعنبهم الأراك وجوزهم المقل ودجاجهم الغرغر، وهو دجاج الحبشة فلا ينفع لحمه لرائحته الكريهة، وهذا مشاهد فى زماننا هذا الآن على ما نقل، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حرف الفاء (فاخنة) طير أغبر من ذوات الأطواق بقدر الحمام لها حسن الصوت، يحكى أن الحيات تهرب من صوتها، وفي طبعها الأنس، فمن أجل ذلك تتخذ بيتها في البيوت، وهى من الحيوان الذى يعمر وقد ظهر منها ما عاش خمساً وعشرين سنة.

الخواص: دمها ينفع من الآثار فى العين من ضربة أو قرحة إذا قطر فيها.

(فأرة) وكنيتها أم خراب وغير ذلك وتسمى بالفويسقة، وذلك أن النبى ﷺ انتبه ليلة، فوجدها قد جذبت الفتيلة، وأحرقت طرف سجاده، فقتلها، وأمر بقتلها، وهى التى قطعت حبل سفينة نوح، وأذاها لا يكاد ينحصر ومنه: أنها تأتى إلى إناء الزيت، فتشرب منه، فإذا نقص صارت تشرب بذيبتها، فإذا لم تصل إليه ذهبت وأتت فى فيها بماء وأفرغته فيه حتى يعلو لها الزيت، فتشربه، وربما وضعت فيه حجراً، فكسرتة، ويقال إنها بقايا الممسوخين الذى كانوا يهودا ومن أراد أن يعلم ذلك فليضع لها لبن نافعة فى إناء، فإن لم تشربه فهى منهم.

الخواص: عينه تشد على الماشى يسهل تعبته، وإذا بخر البيت بزبل الذئب أو الكلب ذهب منه القار.

(فرس البحر) حيوان غليظ أفطس الوجه ناصيته كالفرس ورجلاه كالبقرة وذنبه قصير يشبه ذنب الخنزير، وجلده يوجد بالنيل ووجهة أوسع من وجه الفرس يصعد البر ويرعى الزرع وربما قتل الإنسان وغيره.

(فهد): حيوان شرس الأخلاق. قال أرسطو: هو متولد من الأسد والنمر فى طبعه مشابهة بطبع الكلب، ونومه ثقيل، وفى طبعه الحنو على أنثاه وقيل: أول من صاد به كليب بن وائل وأول من حملة على الخيل يزيد بن معاوية وأكثر من اشتهر باللعب به أبو مسلم الخراسانى.

(فيل) حيوان يوجد بأرض الهند، وكنيته أبو الحجاج، والأنثى أم سبل وهو ينزو على أنثاه إذا بلغ من العمر خمس سنين، وتحمل أنثاه ستين ثم تضع ولا يقربها الذكر فى مدة حملها، ولا بعده بثلاث سنين ولا يلقح إلا ببلاده وإذا أرادت الوضع دخلت النهر لأن رجلها لا يثبتان، فتخاف عليه، والذكر يحرسها خوفاً على ولده من الحيات، فإنها تأكله، وهو عند شدة غلمته كالجمل، ويهيج فى زمن الربيع، وزعم أهل الهند أن لسانه مقلوب، ولولا ذلك لكان يتكلم لشدة ذكائه، وقيل: إن ثدييه فى صدره كالإنسان، وهو أضخم الحيوان، وأعظمه جرماً، وما ظنك بخلق ربما كان نابه أكثر من ثلاثمائة سن، وهو مع ذلك أملح وأظرف من كل نحيف الجسم رشيق، وربما مر الفيل مع عظم بدنه خلف القاعد فلا يشعر برجله ولا يحس بمروره لحفة همسه، واحتمال بعض جسده لبعض، وأهل الهند يزعمون أن أنياب الفيل، وقرناه يخرجان مستبطنين حتى يخرقان، وخرطوم الفيل أنفه ويده وبه يتناول الطعام إلى جوفه وبه يقاتل وبه يصيح، وصياحه ليس فى مقدار جرمه، وقيل: إن الفيل جيد السباحة وإذا سبح رفع خرطومه كما يغيب الجاموس جميع بدنه، إلا منخره ويقوم خرطومه مقام عنقه والخرق الذى فى خرطومه لا ينفذ، وإنما هو وعاء إذا ملأه من طعام أو ماء أوجه فى فيه لأنه قصير العنق لا ينال ماء ولا مرعى، وأهل الهند تجعله فى القتال وهو أيضاً يقاتل مع جنسه، فمن غلب دخلوا تحت أمره، وقيل: جعل الله فى طبع الفيل الهرب من السور.

حكى عن هارون مولى الأزدي أنه خبأ معه هراً ومضى بسيف إلى الفيل، فلما دنا منه رمى بالهر فى وجهه فأدبر هارباً وكبر المسلمون، وظنوا أنه هرب منه. قال أبو الشمقمق:

يا قومُ إني رأيت الفيل بعدكم تبارك الله لى فى رؤية الفيل
رأيت بيتاً له شئ يحركه فكدت أفعل شيئاً فى السراويل

وقيل إذا اغتم الفيل لم يكن لسواسه هم إلا الهرب بأنفسهم ويتركونه، ومن عجب أمره أن سوطه الذى به يحث ويضرب محجن حديد أحد طرفيه فى جبهته والآخر فى يد راكمه، فإذا أراد شيئاً غمز به فى لحمه وأول شئ يؤدبون به الفيل يعلمونه السجود للملك.

قيل: خرج كسرى أبرويز لبعض الأعياد وقد صفوا له ألف فيل وأحدق به ثلاثون ألف فارس، فلما رآته الفيلة سجدت له، فما رفعت رؤوسها حتى جذبت بالمحاجن وراضتها الفيالون، وتزعم أهل الهند أن جبهة الفيل تعرق كل عام عرقاً غليظاً سائلاً أطيب من رائحة المسك، ولا يعرض ذلك العرق إلا فى بلادها خاصة، وإن عظام الفيل كلها عاج إلا أن جوهر نابه أكرم وأثمن، ولولا شرف العاج وقدره لما فخر الأحنف بن قيس على أهل الكوفة فى قوله: نحن

أكثر منكم عاجاً وساجاً وديباجاً وخراجاً، وقيل: إن الفيلة لاتسافد في غير بلادها.

فائدة: من قرأ سورة الفيل ألف مرة في كل يوم عشر أيام متوالية، ثم جلس على ماء جار، وقال: اللهم أنت الحاضر المحيط بمكنونات الضمائر، اللهم عز الظالم وقلّ الناصر، وأنت المطلع العالم، اللهم إن فلانا ظلمنى وأساءنى ولا يشهد بذلك غيرك أنت مالكة، فأهلكه اللهم سربله سربال الهوان، وقمصه قميص الردى، اللهم اقصفه ست مرات، اللهم اخفضه مرتين، فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق، فإن الله يستجيب له ما لم يكن ظالماً.

الخواص: جلده إذا بخر به بيت هرب بقه وإذا سقى إنسان من وسخ أذنه نام نومة طويلة، وإذا علق من نابيه شيء على شجرة لم تثمر، وإذا عمل من جلده ترس يكون أصلب من كل ترس.

حرف القاف: (قاقم) دويبة تشبه السنجاب إلا أنه أبرد منه مزاجاً، وهو أبيض يقق وجلده أعز قيمة من السنجاب. (قاوند) طير يكون بساحل البحر يبيض في الرمل ويحضر بيضه سبعة أيام، ثم تخرج أفراخه بعد ذلك، فيزقها بعد سبعة أيام، ويقال ما يمسك الله البحر في هيجانه عن أن يفيض على الساحل إلا إكراماً له لأنه يقال إنه يبر والديه. خواصه: أنه يقيم المقعد ويحلل البلاغم المزمنة وينفع الأمراض الباردة وأوجاع الأعصاب.

(قرد) حيوان معروف وكنيته أبو خالد، وغير ذلك، وهو قبيح المنظر، مليح الذكاء، سريع الفهم، يتعلم الصنائع. قيل: إنه أهدى للمتوكل قرد خياط، وآخر صانع، وأهل اليمن يعلمون القرد البيع والجلوس في الدكاكين حتى قيل إنه يخز النعل ويصر القرطاس، وهو ذو غيرة، وعنده لواط حتى قيل إنه يعدو خلف المليح من شدة المحبة، والتفت ابن الرومي يوماً إلى أبي الحسن الأخفش وهو يحاكي مشية القرد فقال:

هنيئاً يا أبا الحسن المـفـدَى بلغت من الفـضائل كل غـاية
شركت القرد في قبح وسخف وما قصّـرت عنه في الحكاية

(قنفذ) بالذال المعجمة وكنيته أبو سفيان، ومن عجيب أمره أنه يصعد الكرم، فيرمى العنقود، ثم ينزل، فيأكل منه ما أطاق، فإن كان له أفراخ ترغ في الباقي فيتعلق بشوكه، فيذهب به إلى أولاده، وهو مولع بأكل الأفاعى، فإذا لدغته لا يؤثر فيه سمها لدفع ذلك بشوكه، وإذا تأذي منها ذهب فأكل السعتر البرى، فيزول أذاها، وهو الحيوان الذي يسفد مباطنة كالرجل وله خمسة أرجل.

حرف الكاف (كركند) حيوان يوجد ببلاد الهند والنوبة وهو دون الجاموس وله قرن واحد عظيم لا يستطيع رفع رأسه منه لثقله، وهو مصمت قوى يقاتل به الفيل، فيغلبه، ولا تعمل ناباه شيئاً معه وعرض قرنه شبران، وليس بطويل جداً، وهو محدد الرأس شديد الملامسة، وإذا نشر قرنه ظهرت في معافيه صور عجيبة كالطواويس، والغزلان، وأنواع الطير، والشجر وبنى آدم، ولذلك يتخذ منه صفائح الاسرة والمناطق للملوك، ويتغالون في ثمنها بحيث تبلغ المنطقة أربعة آلاف أو أكثر، والأنثى تحمل ثلاث سنين ويخرج ولدها نابت الأسنان والقرون، قوى الحافر، ويقال إنها إذا قاربت الوضع أخرج الولد رأسه من بطنها وصار يرعى أطراف الشجر، فإذا شبع أدخل رأسه في بطن أمه، ويزعم أهل الهند أنه إذا كان ببلاد لم يدع فيها من الحيوان شيئاً حتى يكون بينها وبينه مائة فرسخ من جميع الجهات هيبة له وهرباً منه، ويسمى الحمار الهندي، وهو شديد العداوة للإنسان يتبعه إذا سمع صوته، فيقتله، ولا يأكل منه شيئاً.

(كروان) طير معروف لا ينام غالب الليل خصوصاً في القمر، وعنده ذكاء. قيل: إنه يتكلم بجميع ما يبصره ولا يحتمل المغابنة.

(كركى) طير محبوب للملوك وله مشتى ومصيف، فمشتاه بأرض مصر، ومصيفه بأرض العراق، وهو من الحيوان الرئيس، قيل: إنه إذا نزل بمكان اجتمع حلقه ونام، وقام عليه واحد يحرسه وهو يصوت تصريراً لطيفاً حتى يفهم أنه يقظان، فإذا تمت نوبته أيقظ غيره لنوبته، قال القزويني: وإذا مشى وطىء الأرض بإحدى رجليه، وبالأخرى قليلاً خوفاً

من أن يحس به، وإذا طار سار سطرأ يقدمه واحد كهيئة الدليل، ثم تتبعه البقية.

(كلب) معروف وهو نوعان أهلى وسلوقى، وهذان النوعان سواء إلا أن الأنثى السلوقى أسرع فى التعلم من ذكره، وهذا الحيوان حليم، وعنده رياضة، وفى طبعه إكرام الأجلاء من الناس.

وحكى أن رجلاً عزم جماعة، فتخلف شخص منهم فى منزله، ودخل على زوجة صاحب المنزل فضاجعها، فوثب الكلب عليهما، فقتلهما، فرجع صاحب المنزل، فوجدهما قتيلين، فأنشد يقول:

وما زال يرعى ذمتي ويحوطنى ويحفظ عهدى والخليل يخونُ
فواعجباً للخل يهتك حرمتى وواعجباً للكلب كيف يصون

وحكى أبو عبيدة قال: خرج رجل إلى الجبانة ومعه أخوه وجاره لينظروا إلى الناس، فتبعه كلب له، فضربه ورماه بحجر، فلم ينته، ولم يرجع، فلما قعد ربيض الكلب بين يديه، فجاء عدو له فى طلبه، فلما رآه خاف على نفسه، فإذا بثر هناك قرية القعر، فنزل فيها وأمر أخاه وجاره أن يهيلا عليه التراب، ثم ذهب أخوه وجاره إلى سيبلهما، وصار الكلب ينبح حوله فلما انصرف العدو أتاه الكلب، فمازال يبحث فى التراب إلى أن كشفه عن رأسه، فتنفس الرجل، ومر به أناس، فتناولوه وردوه إلى أهله، فلما مات ذلك الكلب عمل له قبراً ودفنه فيه، وجعل عليه قبة يسمى ذلك قبر الكلب وفى ذلك قيل:

تفرق عنه جاره وشقيقه وما حاد عنه كلبه وهو ضاربه

ومن ذلك ما حكى أن رجلاً قتل ودفن، وكان معه كلب فصار يأتى كل يوم إلى الموضع الذى دفن فيه، وينبح وينبش ويتعلق برجل هناك، فقال الناس: إن لهذا الكلب شأنًا، فكشفوا عن ذلك وحفروا ذلك الموضع، فوجدوا قتيلًا، فقبضوا على ذلك الرجل الذى ينبح عليه الكلب وضربوه، فأقر بقتله، فقتل، وهو من الحيوان الذى يعرف الحسنة، وقيل: إن الأنثى تحيض فى كل شهر سبعة أيام، وأكثر ما تضع اثنا عشر جرواً، وذلك فى النادر، والغالب خمسة أو ستة، وربما ولدت واحداً، ويعيش الكلب فى الغالب عشر سنين، وربما بلغ عشرين سنة، ووصف للمتوكل كلب بأرمينية يفترس الأسد، فأرسل من جاء به إليه، فجوع أسداً وأطلقه عليه، فتهاشأ وتواثبا حتى وقعا ميتين، وقيل: كلب الصياد يشبه به الفقير المجاور للغنى لأنه يرى من نعمته ويؤس نفسه ما يفتت كبده، وقيل لرجل: ما بال الكلب يرفع رجله إذ بال؟ قال: يخاف أن يلوث ذراعيه. وقيل: أو للكلب ذراعان؟ قال: هو يتوهم ذلك.

فائدة: حكى أن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه سمع شخصاً من وراء النهر يروى أحاديث مثله، فسار إليه، ودخل عليه فوجده يطعم كلباً، وهو مشغل به. قال الإمام أحمد: فأخذت فى نفسى، وأضمرت أن أرجع إذا لم يلتفت الرجل إلى، ثم قال: حدثنى أبو الزناد عن الأعرج، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَطَعَ رجاء من ارتجاء قطع الله رجاءه يوم القيامة، فلم يلج الجنة»، وإن أرضنا هذه ليست بأرض كلاب، وقد قصدنى هذا الكلب، فخشيت أن أقطع رجاءه. قال: فقال الإمام أحمد رحمه الله: هذا الحديث يكفينى، ثم رجع قافلاً إلى أهله.

فائدة أخرى: قال الترمذى: لما أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض سلط عليه إبليس السباع، وكان أشدها الكلب، قال: فنزل عليه جبريل عليه السلام، وأمره أن يضع يده عليه، ففعل، واطمأن إليه، وألفه وصار يحرسه، وبقيت الألفة فيه لأولاده إلى يوم القيامة، وقيل: إن أول من اتخذ الكلب بعد آدم نوح عليهما الصلاة والسلام، وذلك لأن قومه كانوا يعمدون بالليل، فيفسدون ما صنعه فى السفينة بالنهار، فأمره الله أن يتخذ كلباً حارساً، ففعل، قال: فكان الكلب إذا أتاه مفسد قام عليه، فيتقظ نوح عليه الصلاة والسلام فيدفعه.

فائدة أخرى: قيل: كان كلب أهل الكهف أسمر، واسمه قطمير، وقيل: أصفر، وقيل: خلنجى اللون، وليس فى الحيوان ما يدخل الجنة إلا هو وكبش إسماعيل وناقة صالح وحمار العزيز وبراق النبى ﷺ.

فائدة أخرى: إذا نبح عليك كلب، وخفت منه فاقرا ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣)﴾ (الرحمن: ٣٣). وقل بعد ذلك: لا إله إلا الله، فإنك تكفاه.

حرف اللام (لغلق) طير معروف. قيل: إنه من طيور الفواخت ويأتى إلى أرض مصر فى أيام الشتاء، فيأكل ما قسم الله له من الرزق، ويأكل منه من له فيه رزق، ثم يرحل إلى بلاده.

حرف الميم: (مالك الحزين) طير يوجد بالضحضاح غذاؤه السمك وسمى بذلك لأنه قيل: إنه لا يشرب حتى يروى خوفاً من أن ينقص الماء، وإذا نشف انضضاح حزن لأنه لا يستطيع العوم، ونظيره دويبة بأرض فارس معروفة عندهم يقال: إن غذاها التراب، فإذا أكلت لاتشبع خوفاً من أن يفرغ.

(حرف النون): (نمل) قال عليه الصلاة والسلام: «ألا تنظرون إلى صغير من خلق الله كيف أحكم خلقه وأتقن تركيبه، وفلق له السمع والبصر، وسوى له العظم والبشر، انظروا إلى النملة فى صغر جثتها ولطافة هيئتها لاتكاد تتال بلحظ البصر ولا بمستدرك الفكر كيف دبت على الأرض، وسعت فى مناكبها، وطلبت رزقها تنقل الحبة إلى جحرها تجمع فى حرها لبردها وفى وردها لصدورها لا يغفل عنها المنان، ولا يحرمها الديدان، ولو فكرت فى مجارى أكلها فى علوها وسفلها وما فى الجوف من شراسيف بطنها، وما فى الرأس من عينها وأذنها لقضيت من خلقها عجباً، وللقيت من وصفها تعجباً، فتعالى الذى أقامها على قوائمها، وبنائها على دعائمها لم يشركه فى فطرها فاطر، ولم يعنه على خلقها قادر، لا إلا هو ولا معبود سواه». وقيل: إذا خافت على حبيها أن يعفن أخرجته إلى ظهر الأرض ليجف، وقيل: إنها تفلق الحبة نصفين خوفاً من أن تنبت، فتفسد إلا الكزبرة، فإنها تفلقها أرباعاً لأنها من دون الحب ينبت نصفها، وليس كل أرباب الفلاحة يعرف هذا، فسبحان من ألهمها ذلك، وقيل: إنها تشم رائحة الشئ من بعيد ولو وضعت على أنفك لم تجد له رائحة، وإذا عجزت عن حمل شئ استعانت برفقتها، فيحملونه جميعاً إلى باب جحرها، وقيل: إذا انفتح باب قرية النمل، فجعلت فيه زرينخاً أو كبريتاً هجرتها، والله أعلم.

(نحل) حيوان له له نظر فى العواقب وله معرفة بفصول السنة، وأوقاتها وأوقات المطر، وفى طبعه الطاعة لأميره والانقياد له، ومن شأنه فى تدبير معاشه أنه يبنى له بيتاً من الشمع شكلاً مسدساً لا يوجد فيه اختلاف كالقطعة الواحدة إذا طار ارتفع فى الهواء وحط على الأماكن النظيفة، وأكل نوار الزهر، والأشياء الحلوة وشرب من الماء الصافى، وأتى، فأخرج ذلك، فأول ما يخرج الشمع ليكون كالوعاء، ثم العسل وقيل: إنه يقسم الأعمال، فبعضه يعمل البيوت، وبعضه يعمل الشمع، وبعضه يعمل العسل، وفى طبعه النظافة فيجعل رجليه خارج الخلية، وما مات منه أخرجه ورماه، وعند الطرب فيحب الأصوات اللذيذة، وله آفات تقطعه كالظلمة والغيمة والريح، والمطر والدخان والنار، وكذلك المؤمن له آفات تقطعه منها ظلمة الغفلة، وغيمة الشك، وريح الفتنة، ودخان الحرام، ونار الهوى.

فائدة: قيل مرض شخص، فقال: أئتوني بماء وعسل، فأتوه بذلك، فخلط الجميع وشربه فشفى، وروى أن شخصاً شكى النبي ﷺ بطن أخيه، فأمره بشرب العسل، فشربه، ثم جاء ثانياً، فأمره بشربه، ثم جاء فى الثالثة، فقال يارسول الله: إن بطنه لم يزل، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلاً، فسقاه الثالثة فشفى».

نادرة: قيل إن بعضهم حضر مجلس المنصور، فقال بعض الحاضرين المراد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩] أهل البيت فإنهم النحل، والشراب القرآن، فقال له بعض من حضره من اللطفاء: جعل الله طعامك وشرابك ما يخرج من بطون بنى هاشم، فضحك الحاضرون عليه، وأبهته.

الخواص: إذا خلط العسل الخالص بمسك خالص، واكتحل به نفع من نزول الماء فى العين والتلطيخ به يقتل القمل، ولعقه علاج لعضة الكلب، والمطبوخ منه نافع للمسموم.

(نسر) هو سيد الطيور ويعمر طويلاً، قيل: إنه يعيش ألف سنة وله قوة على الطيران حتى قيل: إنه يقطع من المشرق إلى المغرب فى يوم، وجثته عظيمة حتى قيل: إنه يحمل أولاد الفيلة، وله قوة حاسة الشم، حتى قيل: إنه يشم رائحة الجيفة من مسيرة أربعمائة فرسخ، وإذا سقط على جيفة تباعدت عنها الطيور هيبة له حتى يفرغ من الأكل، وعنده شره، قيل: إنه يأكل حتى يضعف عن الحركة بحيث إن أضعف الناس لو أراد إمساكه فى تلك الحالة أمسكه، وإذا باض ذهب وأتى بورق الدلب، فجعله فى عشه خوفاً من الخفاش أن يفسد بيضه، وهو لا يحضن البيض، وإنما يبض فى الأماكن

العالية ويقيه في الشمس، فتكون حرارتها له بمنزلة الحظن، ومن طبعه أنه لو شَمَّ الطيب مات، وعنده الحزن على فراق إلفه حتى قيل: إنه ليموت كمدأ، ويقال للأنثى منه أم قشعم، وفي الحديث: «أتاني جبريل عليه السلام فقال يا محمد: لكل شيء سيد، فسيد البشر آدم، وسيد ولد آدم أنت، وسيد الروم صهيب، وسيد فارس سلمان، وسيد الحبش بلال، وسيد الطيور النسر، وسيد الشهور رمضان، وسيد الأيام الجمعة، وسيد الكلام العربي، وسيد العربي القرآن، وسيد القرآن سورة البقرة».

الخواص: إذا أخذ قلب النسر وجعل في جلد الذئب وعلق على شخص كان مهاباً عند الناس مقضى الحاجة، وإذا عسر على المرأة الوضع جعل تحتها من ريشه يسهل وضعها.

(نعام) يذكر ويؤنث، وتسمى الأنثى بأم البيض والذكر بالظليم، ومن عجيب أمرها أنها تبيض بيضاً طوالاً متساوية القدر وتجعلها أثلاثاً ثلاثاً للحظن وثلاثاً تأكله في حظنها، وثلاثاً تكسره وتفتحه فيستعفن ويدود فيكون منه غذاء أولادها، وعندها الحمق أنها تخرج من حظنها فتجد بيض غيرها، فتحضنه وتترك بيض نفسها.

فائدة: روى كعب الأحبار رضي الله تعالى عنه أن الله تعالى لما خلق القمح وأنزله على آدم كان على قدر بيض النعام، وقال له: هذا رزقك ورزق أولادك قم فاحرث وازرع، قال: ولم يزل الحب على ذلك مدة، ثم نزل إلى بيض الدجاجة، ثم الحمامة، ثم النبق وكان في زمن العزيز على قدر الحمص، وقيل: كل حيوان إذا كسرت رجله مشى بالأخرى إلا النعام، فإنه يبرك إلى أن يموت، وخلق الله تعالى له قوة الشم البليغ حتى قيل: إنه يشم رائحة القناص من مسيرة نصف ميل، وهي لا تشرب الماء كالضب ويقال: إن القناص إذا أدركها أدخلت رأسها في شيء إما شعب أو جحر تظن أنها قد استترت منه، ولها معدة قوية تقطع الحديد والصوان والجرم، وفي طبعها الأذى، يقال: أنها تخطف الحلق من أذن الصغير، وقيل إن الذئب لا يتعرض لبيض النعام وأفراخه مادام الأبوان حاضرين لأنهما إذا رأياه ركضه الذكر إلى أن يسلمه إلى الأنثى، فتركضه إلى أن تسلمه إلى الذكر ولا يزالان به حتى يقتلاه أو يعجزهما هرباً، وقيل: أشد ما يكون عدوها إذا استقبلت الريح وتقول العرب صنفان من الحيوان أصمان لا يسمعان النعام والأفاعى، وسأل أبو عمرو الشيباني بعض العرب عن الظليم هل يسمع، فقال: يعرف بعينه وأنفه ولا يحتاج معهما إلى سمع.

(نمير) حيوان أغبر وكنيته أبو الصعب، وهو صنفان: صنف عظيم الجثة صغير الذئب، والآخر بالعكس. قال الجاحظ: وهو يحب الشراب وعنده شراسة في خلقه، ويقال: إن أثاء لا تدع ولدها إلا مطوقاً بحية ولا يضرها نهشها، وذلك لأجل الصيد حتى لا يظفر به، وإذا مرض أكل الفأر فيبرأ، وفي طبعة عداوة الأسد، وعنده شرف في نفسه يقال: إنه لا يأكل جيفة ولا يأكل من صيد غيره، ولا يملك نفسه عند الغضب، وأدنى وثبة عشرون ذراعاً وأكثرها أربعون.

الخواص: من حمل من جلده شيئاً صار مهاباً عند الناس، ومن كان به بواسير فجلس على جلده زالت بواسيره.

(حرف الهاء): (هدهد) طير معروف، وهو من رسل سليمان عليه الصلاة والسلام وعنده حدة البصر حتى قيل: إنه يرى الماء تحت الأرض وسبب غيابه عن خدمة سليمان عليه الصلاة والسلام حين سأل عنه ولم يجده هو أن هدهداً من سبأ أخبره أن عرش بلقيس صفته كذا وكذا، فذهب لينظره فدخلت الشمس من مكانه، فرأها سليمان عليه السلام والسلام، فتفقدته وطلبه، فلما حضر قال يا نبي الله: إني رأيت كيت وكيت، وقص عليه القصة، ويقال: إنه قال لسليمان عليه الصلاة والسلام لما أراد تعذيبه، يا نبي الله: اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى، فارتعد سليمان من هذا الكلام وأطلقه.

الخواص: إذا بخر البيت بريشه طرد الهوام عنه، وعينه إذا علقت على صاحب النسيان ذكر ما نسيه وريشه إذا حمله إنسان وخاصم غلب خصمه وقضيت حاجته وظفر بما يريد، ولحمه إذا أكل مطبوخاً نفع من القولنج، وإن بخر بمخه برج الحمام لم يقربه شيء يؤذيه، ومن علق عليه لحيه الأسفل أحبه الناس، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(حرف الواو): (ورشان) طير يتولد بين الحمام والفاخته، وهو حسن شديد الحنو يقال إنه يكاد يقتل نفسه إذا أمسك القناص أولاده من شدة حنوه، وقال بعضهم: إنه يقول في صياحه: لدوا للموت وابنوا للخراب، والهدهد يقول: إذا

نزل القضاء عمى البصر، والفاخنة تقول: ليت هذا الخلق ما خلقوا وليتهم إذا خلقوا علموا لماذا خلقوا وليتهم عملوا لما علموا، والخطاف يقول: قدموا خيراً تجدوه عند ربكم، والحمامة تقول: سبحان ربى الأعلى، والبارى يقول: سبحان ربى ويحمده، والسرطان يقول: سبحان المذكور بكل لسان، والدراج يقول: الرحمن على العرش استوى، والعقاب يقول: البعد عن الناس رحمة، ومن الطيور من يقرأ الفاتحة كالدرة ويمد صوته فى الضالين كالقارئ.

(حرف الباء): (يأجوج ومأجوج): سموا بذلك لكثرتهم، وقيل: بل هو اسم أعجمى غير مشتق، قال مقاتل: وهم ولد يافث بن نوح عليه الصلاة والسلام، وقول من قال: إن آدم نام، فاحتلم، فالتصق منه بالتراب. فتولد منه هذا الحيوان مردود بعدم احتلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفى الحديث: «يأجوج ومأجوج أمة عظيمة لا يموت أحدهم حتى يرى من صلبه ألف نسمة» انتهى. وهم أصناف منهم: ما طوله عشرون ذراعاً، وما طوله ذراع وأقل وأكثر. وعن على بن أبى طالب كرم الله وجهه: إن لهم مخالب الطير، وأنياب السباع، وتداعى الحمام، وتسافد البهائم، ولهم شعور تقيهم الحر والبرد، وإذا مشوا فى الأرض كان أولهم بالشام وآخرهم بخراسان، يشربون مياه المشرق إلى بحيرة طبرية، ويمنعهم الله تعالى من دخول مكة والمدينة وبيت المقدس، ويأكلون كل شئ يمرون به، ومن مات منهم أكلوه، ويقال: إن صنفاً منهم له أذنان إحداهما صلدة، والأخرى وبرة، فهو يلتحف بإحداهما ويفترش الأخرى، وفى الحديث: أنه عليه الصلاة والسلام: سئل هل بلغتهم الدعوة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «دعوتهم ليلة أسرى بى، فلم يجيبوا، فهم خلق النار». وفى الحديث أيضاً: «إن الله عز وجل إذا كان يوم القيامة قال: يا آدم أرسل بعث النار، فيقول يارب، وما بعث النار؟ فيقول الله تعالى من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون للنار وواحدة للجنة. قال: فاشتد الأمر على المسلمين: فقال رسول الله ﷺ: أبشروا، فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنك واحداً، وفى الحديث أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فأخبره بالردم. فقال: صفه، فقال يارسول الله: انطلقت إلى أرض ليس لأهلها إلا الحديد يعملونه، فدخلت فى بيت، فلما كان وقت الغروب سمعت ضجة عظيمة أفرعتنى، فارتعدت منها قال، فقال صاحب البيت لا بأس عليك إن هذه الضجة أصوات قوم يذهبون هذه الساعة من خلف هذا الردم، أتريد أن تنظر إليه فإذا لبنة مثل الصخرة ومساميره مثل جذوع النخل، كله من حديد كأنه البرد المخبر، فقال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى من رأى الردم، فليتنظر إلى هذا الرجل»، قال المفسرون: وهذا هو السد الذى بناه ذو القرنين، وهذه الأمة خلفه تطلب المجيء إلى هذه الجهة تنقبه كل يوم، فيعيده الله كما كان إلى أن يقضى الله أمره ثم يسلط الله عليهم بعد ذلك دوداً يطلع فى حلاقيمهم، فيهلكهم الله به، والأخبار فى ذلك كثيرة.

(يجمور) دابة وحشية لها قرنان طويلان كأنهما منشاران تنشر بهما الشجر، وقيل: هو كالأيل يلقى قرنيه فى كل سنة، وهما صامتان. وقال الجوهري: هو الحمار الوحشى.

نادرة: قيل: ترافق رجلان فى طريق، فلما قربا من مدينة من المدن قال أحدهما للآخر: قد صار لى عليك حق، وإنى رجل من الجان ولى إليك حاجة، قال: وما هى؟ قال: إذا وصلت إلى المكان الفلانى من هذه المدينة، فهناك عجوز عندها ديك، فاشتره منها واذبحه، فقال له الآخر: وأنا أيضاً لى إليك حاجة، قال: وما هى؟ قال: إذا ركب الجنى إنساناً ما يعمل له قال: تشد إبهاميه بسير من جلد اليجمور وتقطر فى أذنيه من ماء السذاب فى اليمنى أربعاً، وفى اليسرى ثلاثاً، فإن الراكب له يموت تفرقاً ودخل الأنسى ففعل ما أمره به الجنى من شراء الديك، وذبحه، فلم يشعر بعد أيام إلا وقد أحاط به أهل صبية من تلك البلدة وقالوا له: أنت ساحر. ومن حين ذبحت الديك سلبت من صبية عندنا عقلها، فلا نفلتك إلا إلى صاحب المدينة، قال: اتئوني بسير من جلد اليجمور وقليل من ماء السذاب، ودخلت على الصبية، فشددت وقطرت ماء السذاب فى أذنيها، فسمعت صوتها يقول: آه علمتك على نفسى، ثم مات من ساعته، وشفى الله تلك الشابة.

فصل: فى خواص الطير والحيوان على الإجمال

الضب والخنزير لا يلقىسان شيئاً من أسنانهما أبداً، وكل حيوان يعوم بالطبع، إلا الإنسان والقرد وكل ذى عين، فإن أهذاب عينه فى الجهة العليا فقط إلا الإنسان فإنه فى الجهتين، والفرس لا طحال له والبعير لا مرارة له، والظليم لا مخ لعظمه، والحيات لا ألسنة لها، والسمة لا رئة لها لأنها تتنفس من كبدها، وكل حيوان لا حافر له فله قرن وما لا قرن له فله حافر، والحيوان المتهم باللواط القرد، والخنزير والحمار، والسنور، والعيون التى تضىء بالليل عين الأسد والنمر والأفعى والسنور، والذى يدخر القوت من الحيوان الإنسان والفأر والغراب والنحل والنمل، والذى يحيض من الحيوان الإنسان والفرس والكلب والأرنب والضبع والخفاش، ويقال أيضاً: الرعاد من السمك فتبارك الله أحسن الخالقين، وهذا آخر ما قصدت إيرادها فى هذا الباب، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

فى ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم

ذكر المسعودى فى كتابه عن بعض العلماء: أن الله سبحانه وتعالى خلق فى الأرض قبل آدم ثمانياً وعشرين أمة على خلق مختلفة، وهى أنواع منها: ذوات أجنحة وكلامهم قرقة، ومنها ما له أيدان كالأسود ورؤوس كالطير، ولهم شعور وأذنان وكلامهم دوى، ومنها ما له وجهان واحد من قبله والآخر من خلفه، وأرجل كثيرة، ومنها ما يشبه نصف الإنسان بيد ورجل وكلامهم مثل صياح الغرائق، ومنها ما وجهه كالأدمى وظهره كالسحفاة وفى رأسه قرن وكلامهم مثل عوى الكلاب ومنها ما له شعر أبيض وذنب كالبحر، ومنها ما له أنياب بارزة كالخناجر وأذان طوال، ويقال: إن هذه الأمم تنكحت وتناسلت حتى صارت مائة وعشرين أمة، ولم يخلق الله تعالى أفضل ولا أحسن ولا أجمل من الإنسان، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: خلق الله تعالى ألف أمة وعشرين أمة منها ستمائة فى البحر، وأربعمائة وعشرون فى البر، وفى الإنسان من كل خلق، فلذلك سخر له جميع الخلق، واستجمعت له جميع اللذات وعمل بيده جميع الآلات، وله النطق والضحك والبكاء، والفكرة، والفطنة، واختراعات الأشياء، واستنباط جميع العلوم، واستخراج المعادن وعليه وقع الأمر والنهى والوعد والوعيد والتعظيم والعذاب، وإياه خاطب وله قرب، وخلق الله تعالى إسرافيل عليه السلام على صورة الإنسان، وهو أقرب الملائكة إليه، وفى الحديث: «لاتضربوا الوجوه»، فإنها على صورة إسرافيل. وآيات الله تعالى فى البشر أكثر من أن تحصر: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون: ١٤]. وقال الشيخ عبد الله صاحب كتاب (تحفة الألباب): دخلت إلى باشقرد فرايت قبور عاد، فوجدت سن أحدهم طوله أربعة أشبار وعرضه شبران، وكان عندى فى باشقرد نصف ثنية أخرجت لى من فك أحدهم الأسفل، فكان نصف الثنية شبرين ووزنها ألف ومائة مثقال، وكان دور فك ذلك العادى سبعة عشر ذراعاً وطول عظم عضد أحدهم ثمانية أذرع. وعرض كل ضلع من أضلاعهم ثلاثة أشبار كلوح الرخام. قال: ولقد رأيت فى بلغار سنة ثلاثين وخمسمائة من نسل عاد رجلاً طويلاً طوله أكثر من سبعة وعشرين ذراعاً وكان يسمى: دنقى أو دبقى وكان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الإنسان الولد الصغير، وكان من قوته يكسر بيده ساق الفرس ويقطع جلده وأعضائه كما يقطع باقة البقل، وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعاً تحمل على عجلة بيضاء عادية لرأسه كأنها قطعة من جبل، وكان يأخذ فى يده شجرة من البلوط كالعصا لو ضرب بها الفيل لقتله، وكان خيراً متواضعاً، كان إذا لقينى يسلم على ويرحب بى ويكرمنى، وكان رأسى لا يصل إلى ركبتيه رحمة الله تعالى عليه، ولم يكن فى بلغار حمام يمكنه دخولها إلا حمام واحدة، وكانت له أخت على طوله ورأيتها مرات فى بلغار، وقال لى قاضى بلغار يعقوب بن النعمان: إن هذه المرأة العادية قتلت زوجها وكان اسمه آدم وكان أقوى أهل بلغار قيل: إنها ضمت إليها، فكسرت أضلاعه، فمات من ساعته.

وروى عن وهب بن منبه فى عوج بن عنق أنه كان من أحسن الناس وأجملهم إلا أنه كان لا يوصف طوله، قيل: إنه كان يخوض فى الطوفان، فلم يبلغ ركبته، ويقال إن الطوفان علا على رؤوس الجبال أربعين ذراعاً، وكان يجتار المدينة فيتخطاها كما يتخطى أحدكم الجدول الصغير، وعمره الله دهرأ طويلاً حتى أدرك موسى عليه السلام، وكان جباراً فى أفعاله يسير فى الأرض براً وبحراً ويفسد ما شاء، ويقال: إنه لما حصر بنو إسرائيل فى التيه ذهب فأتى بقطعة من جبل على قدرهم واحتملها على رأسه ليلقيها عليهم فبعث الله طيراً فى منقاره حجر مدور فوضعه على الحجر الذى على رأسه، فانثقب من وسطه وانخرق فى عنقه، وأخبر الله عز وجل نبيه عليه الصلاة والسلام بذلك، فخرج إليه وضربه بعضاً فقتله، ويقال: إن موسى عليه الصلاة والسلام كان طوله عشرة أذرع وعصاه عشرة أذرع، وقفز فى الهواء عشرة أذرع، وضربه فلم يصل إلى عرقوبه، فتبارك الله أحسن الخالقين، ومن ذلك ما قيل عن أمه عنق بنت آدم عليه الصلاة والسلام، وكانت مفردة بغير أخ، وكانت مشوهة الخلقة لها رأسان، وفى كل يد عشرة أصابع، ولكل أصبع ظفران

كالمجنولين. وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: هي أول من بغى فى الأرض وعمل الفجور، وجاهر بالمعاصى واستخدم الشياطين وصرفهم فى وجوه السحر، وكان قد أنزل الله على آدم عليه الصلاة والسلام أسماء عظيمة تطيعه الشياطين بها وأمره أن يدفعها إلى حواء لتحترز بها، فغافلتها عنق وسرقتها واستخدمت بها الشياطين، وتكلمت بشيء من الكهانة، فدعا عليها آدم، وأمنت على ذلك حواء، فأرسل الله عليها أسداً أعظم من الفيل، فهجم عليها وقتلها، وذلك بعد ولادتها عوجاً بستين.

ومن ذلك ما حكى عن بعض فقهاء الموصل: أنه شاهد بيلاده الأكراد المحمدية فى جبل من جبال الموصل إنساناً طوله تسعة أذرع وهو صبي لم يبلغ الحلم وكان يأخذ بيده الرجل القوى ويرميه خلف ظهره فأراد صاحب الموصل استخدامه، فقبل له فى عقله خبل، فتركه.

وروى عن الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه أنه قال: دخلت بلدة اليمن، فرأيت بها إنساناً من وسطه إلى أسفله بدن واحد، ومن وسطه إلى أعلاه بدنان مفترقان برأسين ووجهين وأياد أربعة، وهما ياكلان ويشربان ويتقاتلان ويتلاطمان ويصططحان. قال: ثم غبت عنهما قليلاً ورجعت، فقبل لى: أحسن الله عزاءك فى أحد الشقين، فقلت: وكيف صنع به؟ فقبل: ربط فى أسفله جبل وثيق وترك حتى ذبل، ثم قطع ورأيت الجسد الآخر بالسوق ذاهباً وراجعاً.

ومنه: ما أرسله بطاركة الأرمن إلى ناصر الدولة، وهو رجلان فى جسد واحد، فأحضر الأطباء وسألهم عن انفصال أحدهما عن الآخر فسألوهما هل تجوعان وتعطشان معاً؟ قال: نعم. فقالوا له: لا يمكن فصلهما، ويقال: إنه أحضر أباهما فسأله عن حالهما، فأخبر أنهما يختصمان فى بعض الأحيان وأنه يصلح بينهما.

ومن ذلك: ما ذكر أنه أهدى إلى أبى منصور السامانى فرس له قرنان، وثعلب له جناحان إذا قرب منه إنسان نشرهما، وإذا بعد الصقهما، وذكر القاضى عياض رحمة الله تعالى عليه أنه: ولد له مولود على أحد جنبه مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهذا لا يبعد، فإنه يوجد كثيراً فى السنور الدبرى، وذكر أنه ولد بالقاهرة غلام له أربعة أرجل، ومثلها أيد، وذكر أنه كان لبعض ولاية مصر مملوك يدعى طقطو، فولاه قوص من أعمال الصعيد فتزوج بها وولد له ولد، ثم انقلب امرأة فتزوج بها وولدت ولدين، وأما كبش بأربعة قرون ودجاجة بأربعة أرجل، وحيوان برأسين، والمخرج واحد، فكثير، وعجائب الله فى مصنوعاته غير متناهية، فلله الحمد على ما أنعم به علينا لانحصى ثناء عليه.

ومن ذلك: إنسان الماء وهو حيوان يشبه الأدمى، وفى بعض الأوقات يطلع ببحر الشام شيخ بلحية بيضاء، ويستبشر الناس فى تلك السنة بالخصب.

ومن ذلك: بنات الماء وهم أمة ببحر الروم يشبهن النساء ذوات شعور وثدى وفروج، وهن حسان ولهن كلام لا يفهم، وضحك ولعب، ولهن رجال من جنسهن ويقال: إن الصيادين يصطادونهن ويجامعونهن، فيجدون لذة عظيمة لا توجد فى غيرهن من النساء، ثم يعيدوهن فى البحور ثانياً، ويقال: إن هذا الصنف يوجد بالبرلس ورشيد على ما ذكر.

وحكى عن الشيخ أبى العباس الحجازى قال: حدثنى بعض التجار أنه فى سنة من السنين خرجت إليه سمكة عظيمة فتقبوا أذننها وجعلوا فيها الحبال، وأخرجوها، ففتحت أذننها، فخرجت جارية حسناء بيضاء سوداء الشعر حمراء الخدين كحلاء العينين من أحسن ما يكون من النساء ومن صررتها إلى نصف ساقىها شيء كالثوب يستر قبلها ودبرها ودائر عليها كالإزار، فأخذها الرجال إلى البر، فصارت تلطم وجهها وتتنف شعرها، وتعض يدها وتصبح كما تصبح النساء حتى ماتت فى أيديهم فألقوها فى البحر، فبارك الله أحسن الخالقين.

وحكى القزوينى عن بعض البحريين: أن الريح ألقتهم على جزيرة ذات أشجار، وأنهار، فأقاموا بها مدة وكانوا إذا جاء الليل يسمعون بها همهمة وأصواتاً وضحكاً ولعباً، فخرج من المركب جماعة وكمنوا فى جانب البحر، فلما جاء

الليل خرج بنات الماء على عاداتهن، فوثبوا عليهن، فأخذوا منهن اثنتين، فتزوج بهما شخصان، فأما أحدهما فوثق بصاحبه، فأطلقها، فوثبت في البحر، وأما الآخر فبقى مع صاحبه زمناً وهو يحرسها حتى ولدت له ولداً كأنه القمر، فلما طاب الهواء، وركبوا البحر ووثق بها، فأطلقها، فأغفلته وألقت نفسها في البحر، فتأسف عليها تأسفاً عظيماً، فلما كان بعد أيام ظهرت من البحر ودنت من المراكب وألقت لصاحبها صدفاً فيه در وجوهر، فباعه وصار من التجار.

ونظير هذه الحكاية: ما ذكره ابن زولاق في (تاريخه) أن رجلاً من الأندلس من الجزيرة الخضراء صاد جارية منهن حسناء الوجه سوداء الشعر حمراء الخدين نجلاء العينين كأنها البدر ليلة تمام كاملة الأوصاف فأقامت عنده سنين وأحبها حباً شديداً وأولدها ولداً ذكراً، وبلغ من العمر أربع سنين، ثم إنه أراد السفر فاستصحبها معه، ووثق بها، فلما توسطت البحر أخذت ولدها وألقت نفسها في البحر، فكاد أن يلقي نفسه خلفها حسرة عليها، فلم يمكنه أهل المركب من ذلك، فلما كان بعد ثلاثة أيام ظهرت له وألقت له صدفاً كثيراً فيه در، ثم سلمت عليه وتركته، فكان ذلك آخر العهد بها، فتبارك الله ما أكثر عجائب خلقه، وما لم نشاهده ونسمع به أكثر، فسبحان القادر على كل شيء لا إله إلا هو ولا معبود سواه، فالعقل يعرف الجائر، والمستحيل، ويعلم أن كل مقدور بالإضافة إلى قدره الله تعالى قليل، وإذا سمع عجباً جائزاً استحسنته ولم يكذب قائله: والجاهل إذا سمع ما لم يشاهده قطع بتكذيب قائله، وتزييف ناقله، وذلك لقلة عقله، وقد وصف الله تعالى الجاهل بعدم العقل بقوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ [الفرقان: ٤٤]. وقد أودع الله تعالى من عجائب المصنوعات في الآفاق والسموات ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَايْنِ مِنَ آيَةِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]. فلا تكن منكر العجائب، فكل الأشياء من آياته:

فيا عجباً كيف يُعصى الإله — هـ أم كيف يجحده الجاحدُ
وفى كل شيء له آية — تدلُّ على أنه الواحدُ

ومن شاهد حجر المغناطيس وجذبه للحديد، وكذلك حجر الماس الذي يعجز عن كسره الحديد ويكسره الرصاص ويثقب الياقوت والفلواذ، ولا يقدر على ثقب الرصاص يعلم أن الذي أودعه هذا السر قادر على كل شيء، فلا تكن مكذباً بما لا تعلم وجه حكمته، فإن الله تعالى قال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩]. قال صاحب (تحفة الألباب): إن في بلاد السودان أمة لا رؤوس لهم. وقد ذكرهم الشعبي في كتاب سير الملوك، وذكر في بلاد المغرب أمة من ولد آدم كلهم نساء، ولا يعيش في أرضهم ذكر، وأن هؤلاء النساء يدخلن في ماء عندهم، فيحبطن من ذلك، وتلد كل امرأة منهن بنتاً ولا يلدن ذكراً أبداً، وقيل: إن ولد تبع اليماني وصل إليهم لما أراد أن يصل إلى الظلمات التي دخلها ذو القرنين، وأن ولد تبع هذا كان اسمه إفريقش، وهو الذي بنى إفريقية، وسماها باسمه، وأنه وصل إلى واد السبت، وهو واد يجرى فيه الرمل كما يجرى فيه السيل لا يمكن أن يدخل فيه حيوان إلا هلك، فلما رآه استعجل الرجوع، وذو القرنين لما وصل إليه أقام إلى يوم السبت، فسكن جريانه فعبه إلى أن وصل إلى الظلمات، فيما يقال والله سبحانه وتعالى أعلم، وتلك الأمة التي لا رؤوس لهم أعينهم في مناكبهم وأفواههم في صدورهم، وهم كثيرون كالبهائم يتناسلون ولا مضرة على أحد منهم، وأما الملك العظيم والعدل الكثير والنعم الجزيلة والسياسة الحسنة، والرخاء والأمن الذي لا خوف معه، ففي بلاد الهند وبلاد الصين، وأهل الهند أعلم الناس بعلم الطب وعلم النجوم والهندسة والصناعات العجيبة التي لا يقدر أحد سواهم على أمثالها، وفي بلادهم وجزائرهم ينبت العود وشجر الكافور، وجميع أنواع الطيب كالقرنفل والسنبل والدارصيني، والكباب، والبسباسة، وأنواع العقاقير والأدوية، وعندهم حيوان المسك، وهو حيوان كالغزال يجتمع المسك في سرتة، وعندهم حيوان الزباد وهو حيوان كالسنور يخرج منه عرق كالقطران أسود ثخين يسيل من جسده وتزيد رائحته بالتغرب بحيث يكون أذكى من المسك الأذفر، ويخرج من بلادهم

أنواع اليواقيت، وأكثرها فى جزيرة سرنديب، وعلى جبلها نزل آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة فيما يقال. وحكى أنه كان ببابل سبع مدائن كل مدينة فيها أعجوبة كان فى إحدها تمثال الأرض، فإذا التوى على الملك بعض أهل مملكته وامتنعوا عن القيام بالخراج خرج أنهارها عليهم فى التمثال، فلا يطيق أهل تلك الناحية سد الماء حتى يعتدلوا، وما لم يسد التمثال لا يسد فى ذلك البلد، وفى الثانية حوض إذا أراد الملك أن يجمعهم لطعامه أتى كل واحد بما أحب من الشراب، فصبه فى ذلك الحوض، فاختلطت الأشربة، فكل من سقى من ذلك الحوض كان شرا به الذى جاء به، وفى الثالثة طبل إذا أرادوا أن يعلموا حال الغائب عن أهله قرعوه، فإِنْ كان حياً سمع له صوت، وإن كان ميتاً لم يسمع له صوت.

وفى الرابعة مرآة إذا أرادوا أن يعلموا حال الغائب نظروا فيها، فأبصروه على أى حالة هو عليها، كأنهم يشاهدونه، وفى الخامسة أورة من نحاس، فإذا دخل الغريب صوتت الأورة صوتاً يسمعه أهل المدينة، وفى السادسة قاضيان جالسان على الماء فيأتى الخصمان، فيمشى المحق على الماء حتى يجلس مع القاضيين، ويقع المبطل فى الماء، وفى السابعة شجرة ضخمة لا تنزل إلا ساقها، فإن جلس تحتها أحد أظلمت إلى ألف شخص، فإذا رادوا على الألف واحداً جلسوا فى الشمس كلهم، ولو بسطت المقال فى ذلك لاتسع المجال، وقد اقتصرنا فى ذلك على ما ذكرت والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى، وعلى آله وصحبه وسلم.

فى خلق الجن وصفاتهم

روى عن الشيخ عبد الله صاحب (تحفة الألباب) أنه قال: قرأت فى بعض الكتب المتقدمة الماثورة عن العلماء رحمهم الله تعالى أن الله تعالى لما أراد أن يخلق الجن خلق نار السموم ﴿[الحجر: ٢٧]﴾ وقال الله تعالى فى موضع آخر: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [الرحمن: ١٥]. وقيل: إن الله تعالى خلق الملائكة من نور النار، والجان من لهبها والشیاطین من دخانها، وقد جاء فى بعض الأخبار أن نوعاً من الجن فى قديم الزمان قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام كانوا سكاناً فى الأرض قد طبقوها برأً وبحراً، سهلاً وجبلاً، وكان فيهم الملك والنبوة والدين والشریعة، وكانوا يطیرون إلى السماء، ويسلمون على الملائكة، ويتعلمون منهم خبر ما فى السماء، وكثرت نعم الله عليهم إلى أن بغوا وطغوا وتركوا وصايا أنبيائهم، فأرسل الله تعالى عليهم جنداً من الملائكة فحصل بينهم مقتلة عظيمة، وغلبوا الجن وطردهم إلى أطراف البحار وأسروا منهم أمماً كثيرة، وذكر المسعودى أن الفرس واليونان قالوا: كان الجن بالأرض قبائل منهم من يشرق السمع، ومنهم من ينط مع لهب النار، ومنهم من يطير، ولكل قبيلة ملك، وكان من جملتهم إبليس لعنه الله، ثم بعد خمسة آلاف سنة افترقوا وملكوا عليهم ملوكاً، وأقاموا على ذلك مدة طويلة، ثم تحاسدوا على الملك، وأغار بعضهم على بعض وجرت بينهم وقائع وحروب، وكان إبليس لعنه الله يصعد إلى السماء ويختلط بالملائكة، فبعثه الله تعالى بجيوش من الملائكة، فهزم الجن، وقتلهم، وتملك الأرض مدة طويلة إلى أن خلق آدم عليه الصلاة والسلام واتفق له معه ما اتفق، وأهبط آدم إلى الأرض وعظم شأنه، فعند ذلك انتقل إبليس إلى البحر المحيط وسكن هناك، ثم ألقى عليه قوة شهوة السفاد فهو لا يلد بل يلقح كالطير، ويبض ويفرخ قيل: إنه يخرج من كل بيضة ستون ألف شيطان، فيسلطهم على الخلق، وأقربهم إليه وأدناهم منه، ومن مجلسه أكثرهم إيذاء للخلق. وفى الحديث: «إن إبليس لعنه الله قال يارب أنزلتنى إلى الأرض وطرדתنى وجعلتنى رجيماً فاجعل لى مسكناً قال: مسكنك الأسواق قال: فاجعل لى طعاماً، قال: ما لم يذكر اسمى عليه. قال: فاجعل لى شرباً قال: كل مسكر. قال: فاجعل لى مؤذناً. قال: المزامير. قال: فاجعل لى صيداً، أو قال مصائد قال: النساء».

فصل: فى مكابده لعنه الله

منها: أنه كان فى بنى إسرائيل عابد يدعى برصيصا وله جار له بنت فحصل لها مرض، فقال له جيرانه لو حملتها إلى جارك برصيصا ليدعو لها، قال فجاء إبليس إلى العابد، وقال: إن لجارك عليك حق الجوار، وإن له بتاً مريضة، فما ضررك لو جعلتها عندك فى جانب البيت ودعوت الله لها عقب عبادتك، فعسى أن تشفى من مرضها، قال: فلما أتاه جاره بالبنت قال له العابد: دعها وانصرف. قال: فتركها عنده مدة حتى شفيت، فجاء له إبليس ووسوس له حتى وطئها، فحملت منه، فلما حملت جاء له إبليس لعنه الله فقال له: اقتلها لئلا تفتضح قال: فقتلها، ودفنها. قال: فعند ذلك ذهب الشيطان إلى أهلها وأعلمهم بذلك، فجاءوا إلى العابد وكشفوا عن قضيتهم، ثم أخذوه ومضوا ليقتلوه، فعارضه إبليس اللعين فى الطريق، فقال له: إن سجدت لى خلصتك منهم، فسجد له، فعند ذلك تبرأ منه ومات الرجل كافراً. اللهم اعصمنا من مكائد الشيطان برحمتك يا أرحم الراحمين.

ومن ذلك ما اتفق أن بنى إسرائيل اتخذوا شجرة وصاروا يعبدونها فجاء بعض عبادهم بفأس ليقطعها، فعارضه إبليس لعنه الله، وقال له: تركت عبادتك وجئت لشيء لا يعود عليك نفعه، ولم يزل به حتى تقاتل معه، فصرعه العابد، وجلس على صدره، ثم رجع ولم يزل يعمل معه ذلك فى كل يوم ثلاثة أيام، فلما رآه لا يرجع قال له: اترك قطعها، وأنا أجعل لك فى كل يوم دينارين تستعين بهما على نفقتك وعبادتك، وعاهده على ذلك، فرجع. قال: فجعل له تحت وسادته دينارين، ثم دينارين، ثم قطع ذلك عنه، فأخذ العابد الفأس وذهب إلى قطع الشجرة،

فعارضه إبليس فى الطريق، وتحاور معه، وتجاذبا، فصرعه إبليس وجلس على صدره، وقال له: إن لم ترجع عن قطعها، وإلا ذبحتك، فقال له العابد: خل عني، واخبرني كيف غلبتني، فقال له: لما غضبت لله غلبتني، ولما غضبت لنفسك غلبتك.

ومنها أشياء كثيرة ليس هذا محل استيفائها. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠].

فصل: فى المشيطة وهم أنواع كثيرة

منها: الولهان يوجد فى جزائر البحار على صورة الإنسان.

حكى بعض المسافرين أنه عرض لمركب وهو راكب على نعامة يريد أخذ المركب، وصاح بهم صيحة عظيمة، خروا منها على وجههم، وأخذ بعض من فى المركب، ومنها السعلاة يحكى أن صنفاً منها يتزيا بزي النساء، ويتراءى للرجال. وحكى أن بعضهم تزوج امرأة منهن وهو لا يعلم، فأقامت معه مدة وولدت منه أولاداً ذكوراً وإناثاً، فلما كانت ذات ليلة صعدت معه السطح، فنظرت، فرأت ناراً من بعد عند الجبابة، فاضطربت، وقالت: ألم تر نيران السعالى، وتغير لونها، وقالت: بنوك وبناتك أوصيك بهم خيراً، ثم طارت ولم تعد إليه، ومنها نوع يقال له: المذهب يخدم العباد ومقصوده بذلك أن يعجبوا بأنفسهم.

وحكى أن بعض العباد نزل صومعة يتعبد فيها، فأثاه شخص بسراج وطعام، فتعجب العابد من ذلك، فقال له شخص بالصومعة: إنه المذهب يريد أن يخيل لك أن ذلك من كرامتى، والله إنى لأعلم أنه شيطان، وقال بعض الصوفية: المذهب أصناف منهم من يحمل الفانوس بين يدي الشيخ، ومنهم من يأتيه بالطعام والشراب وغير ذلك، ومنهم من ينشد الشعر.

وقال بعض المسافرين أبق لى غلام، فخرجت فى أثره، فإذا أنا بأربعة يتناشدون شعر الفرزدق وجريز، قال: فدنوت منهم، وسلمت عليهم، فقالوا: ألك حاجة؟ فقلت: لا، فقال بعضهم: تريد غلامك قلت: وما أعلمك بغلامى؟ قال: كعلمى بجهلك، قلت: أو جاهل أنا؟ قال: نعم، وأحمق، قال: ثم غاب وأتانى بالغلام مقيداً، فلما رأيته غشى على، فلما أفقت قال: انفخ فى يده، ففعلت، فانفج القيد عنه وصرت لا أنفخ فى شىء من ذلك ولا فى وجع من الأوجاع إلا برئ وخلص صاحبه، ومنها نوع يقال له: العفريت يخطف النساء، يقال: إن رجلاً اختطف ابنته فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه.

وقال بعض المسافرين: بينما نحن سائرون ذات ليلة إذ عرض لى قضاء الحاجة، فانفردت عن رفقتى، وضللت عنهم، فبينما أنا سائر فى أثرهم إذ رأيت ناراً عظيمة وخيمة، فجئت إلى جانبها، وإذا أنا بجارية جميلة جالسة فيها، فسألته عن حالها، فقالت: أنا من فزارة اختطفنى عفريت يقال له: ظليم وجعلنى ههنا، فهو يغيب عني بالليل، ويأتينى بالنهار، فقلت لها: امضى معى، فقالت: أهلك أنا وأنت، فإنه يتبعنا ويأتينا، فياخذنى ويقتلك، فقلت: لا يستطيع أخذك ولا قتلى، ومازلت أرددها الحديث حتى رضيت، فأنخت لها ناقتى، فركبتها، وسرت بها حتى طلع الفجر، فالتفت، فإذا بشخص عظيم مهول قد أقبل ورجلاه تخطان فى الأرض، فقالت: ها هو قد أتانا، فأنخت ناقتى وخططت حولها خطأ، وقرأت آيات من القرآن، وتعوذت بالله العظيم، فتقدم وأنشد يقول:

يا ذا الذى للحين يدعوه القدر

خل عن الحسنة ثم رسلاً سر

وإن تكن ذا خبيرة فينا اصطبر

قال، فأجبتة:

يا ذا الذى للحين يدعوه الحـمق
خل عن الحـسـناء رسـلاً وانطلق
مما أنت فى الجنّ بأوّل من عـشـق

قال: فتبدى لى فى صورة أسد، وجاذبنى وجاذبته ساعة، فلم يظفر أحد منا بصاحبه، فلما أيس منى قال: هل لك فى جز ناصيتى، أو إحدى ثلاث خصال؟ قلت: وما هن؟ قال: مائتان من الإبل، أو أخدمك أيام حياتى، أو ألف دينار الساعة، وخلّ بينى وبين الجارية، فقلت: لا أبيع دينى بدنياى، ولا حاجة لى بخدمتك، فاذهب من حيث أتيت. قال: فانطلق، وهو يتكلم بكلام لا أفهمه، وسرت بالجارية إلى أهلها، وتزوجت بها، وجاءنى منها أولاد.

وقيل: لما سخر الله تعالى الجن لسليمان عليه الصلاة والسلام نادى جبريل عليه السلام: أيها الجن أجيئوا نبي الله سليمان بن داود بإذن الله تعالى، قال: فخرجت الجن والشياطين من الجبال والكهوف والعيان والأودية والفلوات والآجام وهم يقولون: لبيك لبيك والملائكة تسوقهم سوق الراعى للغنم حتى حشرت بين يدي سليمان عليه الصلاة والسلام طائفة ذليلة، وكانوا إذ ذاك أربعاً وعشرين فرقة، فنظر إلى ألوانها، فإذا هى سود وشقر ورقط وبيض وصفر وخضر، وعلى صور جميع الحيوانات، ومنهم من رأسه رأس أسد وبدنه بدن الفيل، ومنهم من له خرطوم وذنب، ومنهم من له قرون وحوافر، وغير ذلك من الأنواع. قال: فعند ذلك تعجب نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام من هذه الأشكال، وسجد شكراً لله تعالى، وقال: إلهى ألسنى هيبة من عندك، وجعل يسألهم عن طباعهم، وعن طعامهم وشرابهم، وهم يجيبونه، ثم فرقهم فى الصنائع: من قطع الصخور والأحجار والأشجار والغوص فى البحار، وأبنية الحصون، وفى استخراج المعادن والجواهر. قال الله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٩). ونكتفى من ذلك بهذا القدر اليسير، والله المستول فى تيسير كل عسير، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

فى ذكر البحار وما فيها من العجائب وذكر الأنهار والآبار وفيه فصول

الفصل الأول: فى ذكر البحار

روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال: لما أراد الله تعالى أن يخلق الماء خلق ياقوتة خضراء لا يعلم طولها وعرضها إلا الله سبحانه وتعالى، ثم نظر إليها من الهيبة، فذابت وصارت ماء فاضطرب الماء، فخلق الريح ووضع عليها الماء، ثم خلق العرش ووضع على متن الماء وعليه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧].

واعلم أن بحر الظلمات لا يدخله شمس ولا قمر، وأن بحر الهند خليج منه، وبحر اللاذقية خليج منه، وبحر الصين خليج منه، وبحر الروم خليج منه، وبحر فارس خليج منه، وكل هذه البحار التى ذكرتها أصلها من البحر الأسود الذى يقال له: البحر المحيط، وأما بحر الخزر وبحر خوارزم، وبحر أرمينية، والبحر الذى عند مدينة النحاس، وغير ذلك من البحار الصغار فهى منقطعة عن البحر الأسود، ولذلك ليس فيها جزر ولا مد، وقيل: سئل النبى ﷺ عن الجزر والمد، فقال: هو ملك عال قائم بين البحرين إن وضع رجله فى البحر حصل له المد، وإذا رفعها حصل الجزر، وقيل: إنما سمي البحر الأسود لأن ماءه فى رأى العين كالحبر الأسود، فإن أخذ منه الإنسان فى يده شيئاً رآه أيضاً صافياً إلا أنه أمر من الصبر مالح شديد الملوحة، فإذا صار ذلك الماء فى بحر الروم تراه أخضر كالزنجار، والله تعالى يعلم لآى شيء ذلك، وكذلك يرى فى بحر الهند خليج أحمر كالدم، وبحر أصفر كالذهب، وخليج أبيض كاللبن تتغير هذه الألوان فى هذه المواضع، والماء فى نفسه أبيض صاف، وقيل: إن تغير الماء بلون الأرض.

وأما ما يخرج من البحر من السمك وغيره، فقد روى عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى ساحل البحر، وأمر علينا أبا عبيدة رضى الله تعالى عنه نتلقى غير قريش، وزودنا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة نمصها ثم نشرب عليها الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل، فأشرفنا على ساحل البحر، فرأينا شيئاً كهية الكتيب الضخم، فأتيناه، فإذا هو دابة من دواب البحر تدعى العنبر، فأقمنا شهراً نأكل منها، ونحن ثلاثمائة حتى سمنا، ولقد رأينا نأترف من الدهن الذى فى وقب عينيها بالقلال، ونقطع منه القطعة كالثور، ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم فى وقب عينيها، وأخذ ضلعاً من أضلاعها فأقامها، ثم رحل أعظم بعير معنا، فمر من تحتها وتزودنا من لحمها، فلما قدمنا المدينة ذكرنا لرسول الله ﷺ ذلك، فقال: هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم شيء من لحمها، فتطمعون، فأرسلنا له منه، فأكله، وقيل: يخرج من البحر سمكة عظيمة، فتبعها سمكة أخرى أعظم منها لتأكلها فتهرب منها إلى مجمع البحرين، فتتبعها، فتضيق عليها مجمع البحرين، لعظمتها وكبرها، فترجع إلى البحر الأسود، وعمرن مجمع البحرين مائة فرسخ، فتبارك الله رب العالمين.

وقال صاحب «تحفة الألباب»: ركبت فى سفينة مع جماعة، فدخلنا إلى مجمع البحرين، فخرجت سمكة عظيمة مثل الجبل العظيم، فصاحت صيحة عظيمة لم أسمع قط أهول منها ولا أقوى، فكاد قلبى ينخلع، وسقطت على وجهى أنا وغيرى، ثم ألفت السمكة نفسها فى البحر، فاضطرب البحر اضطراباً شديداً، وعظمت أمواجه، وخفنا الغرق، فنجانا الله تعالى بفضلته، وسمعت الملاحين يقولون هذه سمكة تعرف بالبغل قال: ورأيت فى البحر سمكة كالجبل العظيم، ومن رأسها إلى ذنبها عظام سود كأسنان المنشار كل عظم أطول من ذراعين وكان بيننا وبينها فى البحر أكثر من فرسخ، فسمعت الملاحين يقولون: هذه السمكة تعرف بالمنشار إذا صادفت أسفل السفينة قصمتها نصفين، ولقد سمعت أنا من يقول إن جماعة ركبوا سفينة فى البحر، فأرسوا على جزيرة فخرجوا إلى تلك الجزيرة، فغسلوا ثيابهم واستراحوا ثم أوقدوا ناراً ليطلبخوا، فتحركت الجزيرة، وطلبت البحر، وإذا بها سمكة، فسبحان القادر على كل شيء لا إله إلا هو، ولا معبود سواه، وقيل: إن فى البحر سمكة تعرف بالمنارة لطولها يقال: إنها تخرج من البحر إلى جانب السفينة، فتلقى نفسها عليها، فتحطمها، وتهلك من فيها، فإذا أحس بها أهل السفينة صاحوا وكبروا وضجوا وضربوا الطبول

ونقروا الطسوت والسطول والاختشاب لأنها إذا سمعت تلك الأصوات، ربما صرفها الله تعالى عنهم بفضله ورحمته.

وقال الشيخ عبد الله صاحب «تحفة الألباب»: كنت يوماً في البحر على صخرة، فإذا أنا بذنب حية صفراء منقطة بسواد طولها مقدار باع فطلبت أن تقبض على رجلى، فتباعدت عنها، فأخرجت رأسها كأنه رأس أرنب من تحت الصخرة، فسللت خنجراً كبيراً كان معي فطعنت به رأسها، فغار فيها، فلم أقدم على خلاصه منها، فأمسكت نصابه بيدي جميعاً وجعلت أجره حتى ألصقتها بيباب الحجر، فتركت الحجر، وخرجت من تحت الصخرة، فإذا هي خمس حيات في رأس واحدة، فتعجبت من ذلك، وسألت من كان هناك عن اسم هذه الحية فقال: هذه تعرف بأسم الحيات، وذكروا أنها تقبض على آدمى في الماء فتتمسكه حتى يموت وتأكله، وأنها تعظم حتى تكون كل حية أكثر من عشرين ذراعاً وأنها تقلب الزوارق، وتاكل من قدرت عليه من أصحابها، وأن جلدها أرق من جلد البصل، ولا يؤثر فيها الحديد شيئاً. قال: ورأيت مرة في البحر صخرة عليها شيء كثير من النارج الأحمر الطرى الذى كأنه قطع من شجرة، فقلت في نفسي: هذا قد وقع من بعض السفن، فذهبت إليه، فقبضت منه نارنجية، فإذا هي ملتصقة بالحجر، فجذبتها، فإذا هي حيوان يتحرك ويضرب في يدي، فلففت يدي بكم ثوبى، وقبضت عليه وعصرته، فخرج من فيه مياه كثيرة، وضمر، فلم أقدر أن أقبله من مكانه، فتركته عجزاً عنه، وهو من عجائب خلق الله تعالى، وليس له عين ولا جارحة إلا الفم، والله سبحانه وتعالى أعلم لآى شيء يصلح ذلك.

قال: ولقد رأيت يوماً على جانب البحر عنقود عنب أسود كبير الحب أخضر العرجون كأنما قطف من كرمه، فأخذته، وكان ذلك في أيام الشتاء، وليس في تلك الأرض التى كنت فيها عنب، فرمت أن أكل منه، فقبضت على حبة منه، وجذبتها، فلم أقدر أن أقتلعها من العنقود حتى كأنها من الحديد قوة وصلابة، فجذبتها جذبة أقوى من الأولى، فانقشرت قشرة من تلك الحبة فكشّر العنب وفي داخلها عجم كعجم العنب، فسألت عن ذلك، فقيل لى: هذا من عنب البحر ورائحته كرائحة السمك، وفي البحر أيضاً حيوان رأسه يشبه رأس العجل، وله أنياب كأنياب السباع، وجلده له شعر ك شعر العجل، وله عنق وصدر وبطن، وله رجلان كرجل الضفدع، وليس له يدان يعرف بالسمك اليهودى، وذلك أنه إذا غابت الشمس ليلة السبت يخرج من البحر، ويلقى نفسه فى البر ولا يتحرك، ولا يأكل، ولو قتل، ولا يدخل البحر حتى تغيب الشمس ليلة الأحد، فحينئذ يدخل البحر ولا تلحقه السفن لحفته وقوته وجلده، يتخذ منه نعل لصاحب النقرس، فلا يجد له الماء مادام ذلك الجلد عليه، وهو من العجائب، وقيل: إن فى بحر الروم سمكاً طويلاً طول السمكة مائة ذراع، وأكثر، وله أنياب كأنياب الفيل تؤخذ وتباع فى بلاد الروم، وتحمل إلى سائر البلاد وهى أحسن وأقوى من أنياب الفيل، وإذا شق الناب منها يظهر فيه نقوش عجيبة، ويسمونه الجوهر، ويتخذون منه نصيباً للسكاكين، وهو مع قوته وحسن لونه ثقيل الوزن كالرصاص، وفي البحر أيضاً سمك يسمى الرعاد إذا دخل فى شبكة، فكل من جر تلك الشبكة أو وضع يده عليها أو على حبل من حبالها تأخذه الرعدة حتى لا يملك من نفسه شيئاً كما يرعد صاحب الحمى، فإذا رفع يده زالت عنه الرعدة، فإن أعادها عادت إليه الرعدة، وهذا أيضاً من العجائب، فسبحان الله جلّت قدرته.

وقال صاحب «تحفة الألباب»: حدثنى الشيخ أبو العباس الحجازى قال: حدثنى رجل يعرف بالهارونى من ولد هارون الرشيد أنه ركب سفينة فى بحر الهند، فرأى طاووساً قد خرج من البحر أحسن من طاووس البر وأجمل ألواناً. قال: فكبر لحسنه فجعل يسبح وينظر لنفسه، وينشر أجنحته، وينظر إلى ذنبه ساعة، ثم غاص فى البحر، وفى البحر دابة يقال لها: الدرّفين تنجى الغريق لأنها تدبوا منه حتى يضع يده على ظهرها، فيستعين بالالتكاء عليها، ويتعلق بها، فتسبح به حتى ينجيه الله تعالى بقدرته، فسبحان من دبر هذا التدبير اللطيف، وأحكم هذه الحكمة البالغة، وزعموا أن السمك يتجه نحو الغناء والصوت الحسن، ويصبوا لسماعه، وربما قيل إن بعض الصيادين يحفرون فى البحر حفائر، ثم يجلسون فيضربون بالمعارف وآلات الطرب، فيجتمع السمك، ويقع فى تلك الحفائر، وقيل: إن الدرّفين وأنواع السمك إذا سمعت صوت الرعد هربت إلى قعر البحر، وقيل: إن خيل البحر توجد بنيل مصر، وهى صفة خيل البر. وقيل: إنها تاكل التماسيح وربما خرجت فرعت الزرع، وإذا رأى أهل مصر أثر حوافرها حكموا أن ماء النيل ينتهى فى طلوعه إلى ذلك المكان، وقيل: إن فى البحر المحيط شيئاً يترأى كالحصون، فيرتفع على وجه الماء ويظهر منه صور كثيرة، ويغيب، ومن عجيب ما حكى أن فيه جزيرة فيها ثلاث مدن عامرة، وهى كثيرة الأمطار، وأهلها يحصدون زرعها قبل جفافه لقلة

طلوع الشمس عندهم ويجعلونه فى بيت ويوقدون حوله النيران حتى يجف. وعجائبه لا تحصى، ولا يمكن حصرها، ويقال: إن الإسكندر لما سار إلى بحر الظلمات مر بجزيرة بها أمة رؤوسهم مثل رؤوس الكلاب يخرج من أفواههم مثل لهب النار، وخرجوا إلى مراكبه، وحاربوه، ثم تخلص منهم وسار، فرأى صوراً متلونة بألوان شتى وسمكاً طوله مائة ذراع، وأكثر، وأقل، فسبحان الله تعالى ما أكثر عجائب خلقه.

ويقال إنه مر فى بعض الجزائر على قصر مصنوع من البلور على قلعة محكمة البناء وحولها قناديل لا تطفأ، ومن جزائر البحر جزيرة القمر يقال: إن بها شجراً طول الشجرة مائتا ذراع، ودور ساقها مائة وعشرون ذراعاً، وبها طوائف من السودان عرايا الأبدان يلتحفون بورق الشجر وهو ورق يشبه ورق الموز لكنه أسمك وأعرض وأنعم، ويقال: إن هذه الجزيرة بالقرب من نيل مصر، وإن هذه الأمة التى بها يتمذهبون بمذهب الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه، وهم فى غاية اللطافة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالقرب منهم معدن الذهب والياقوت وبها الفيلة البيض وحيوانات مختلفة الأشكال من الوحوش وغيرها، وبها العود القمارى والأبنوس والطواويس، وبها مدن كثيرة، ومنها جزيرة الواق خلف جبل يقال له: اصطفيون داخل البحر الجنوبى، ويقال إن هذه الجزيرة كانت ملكتها امرأة، وإن بعض المسافرين وصل إليها ودخلها ورأى هذه الملكة، وهى جالسة على سرير، وعلى رأسها تاج من ذهب وحولها أربع مائة وصيفة كلهن أبكار، وفى هذه الجزيرة من العجائب شجر يشبه شجر الجوز، وخيار الشنبر ويحمل حملاً كهيئة الإنسان، فإذا انتهى سمع له تصويت يفهم منه واق واق، ثم يسقط، وهذه الجزيرة كثيرة الذهب حتى قيل إن سلاسل خيمهم ومقاود كلابهم وأطواقها من الذهب، ومنها جزيرة الصين يقال: إن بها ثلاثمائة مدينة ونيفا سوى القرى والأطراف، وأبوابها اثنا عشر باباً، وهى جبال فى البحر بين كل جبلين فرجة، وهذه الجبال تمر بها المراكب مسيرة سبعة أيام، وإذا جاوزت السفينة الأبواب سارت فى ماء عذب حتى تصل إلى الموضع الذى تريده، وفيها من الأدوية والأشجار والأنهار ما لا يمكن وصفه، فتبارك الله رب العالمين.

وقيل: إن الإسكندر لما فرغ من بناء سده حمد الله تعالى وأثنى عليه ثم نام، وإذا بحيوان عظيم صعد من البحر إلى أعلى وسد الأفق، فظن من حول الملك أنه يريد ابتلاعهم، ففزعوا، فقال: ما لكم؟ فقالوا له: انظر ما حل بنا، فقال: ما كان الله ليأخذ نفساً قبل انقضاء أجلها، وقد منعنى من العدو فلا يسלט على حيواناً من البحر. قال: فإذا بالحيوان قد دنا من الملك، وقال: أيها الملك أنا حيوان من هذا البحر، وقد رأيت هذا السد بنى وخرب سبع مرات، ولم يزد على ذلك، ثم غاب فى البحر، فتبارك من له هذا الملك العظيم، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

وقيل: إن بجزيرة النسناس باليمن مدينة بين جبلين وليس لها ماء يدخل فيها إلا من المطر، وطولها نحو ستة فراسخ، وهى حصينة ذات كروم ونخيل، وأشجار، وغير ذلك، وإذا أراد الإنسان الدخول فيها حثى فى وجهه بالتراب، فإن أبى إلا الدخول خنق أو صرع، وقيل: إنها معمورة بالجان، وقيل: بخلق من النسناس، ويقال: إنهم من بقايا عاد الذى أهلكهم الله بالريح العقيم، وكل واحد منهم شق إنسان، ونقل عن بعض المسافرين أنه قال: بينما نحن سائرون إذ أقبل علينا الليل فبتنا بواد، فلما أصبح الصباح سمعنا قائلاً يقول من الشجر: يا أبا بجير الصبح قد أسفر، والليل قد أدير، والقناص قد حضر، فالحذر الحذر. قال: فلما ارتفع النهار أرسلنا كليين كانا معنا نحو الشجرة، فسمعت صوتاً يقول: ناشدتك. قال، فقلت لرفيقي: دعهما، قال: فلما وثقا بنا نزلا هارين، فتبعهما الكلبان وجدداً فى الجرى، فأمسكا شخصاً منهما قال: فأدر كناه وهو يقول:

دهرى من الهموم والأحزان

إلى متى إلى تيجريان

الويل لى مما به دهانى

قفا قليلاً أيها الكلبان

قال: فأخذناه ورجعنا، فذبحه رفيقى وشواه، فعفته ولم أكل منه شيئاً، فتبارك الله ما أكثر عجائب خلقه، لا إله إلا هو ولا معبود سواه.

الفصل الثاني: في ذكر الأنهار والآبار والعيون

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]. قال المفسرون: هو المطر، ومعنى سلكه أدخله في الأرض، وجعله عيوناً ومسائيل ومجاري كالعروق في الجسد، فمن الأنهار ما هو من الأمطار المجتمعة، ولهذا ينقطع عند فراغ مادته، ومنها ما ينبع من الأرض، وأطول ما يكون من الأنهار ألف فرسخ، وأقصره عشرة فراسخ إلى اثنين وثلاثة، وبين ذلك، وكلها تبتدئ من الجبال وتنتهي إلى البحار والبطائح، وفي ممرها تسقى المدن والقرى وما فضل منها ينصب في البحر المالح ويختلط به، ولا يمكن استيفاء عددها لكننا نشير إلى بعضها فنقول:

النيل المبارك: ليس في الأنهار أطول منه لأنه مسيرة شهرين في بلاد الإسلام، وشهرين في بلاد النوبة، وأربعة في الخراب، وقيل: إن مسافته من منبعه إلى أن يصب في البحر الرومي ألف وسبعمائة فرسخ وثمانية وأربعون فرسخاً. قال ذلك صاحب (مباهج الفكر ومناهج العبر). واختلف في زيادته، فقيل إن الأنهار والعيون تمده في الوقت الذي يريده الله تعالى. وفي الحديث: «إنه من أنهار الجنة»، وقال أهل الأثر: إن الأنهار التي من الجنة تخرج من أصل واحد من قبله في أرض الذهب، ثم تمر بالبحر المحيط، وتشق فيه. قالوا ولولا ذلك لكانت أحلى من العسل وأطيب رائحة من الكافور.

نهر الفرات: يوجد بأرض أرمينية. فضائله كثيرة، والنيل أصدق حلاوة منه، وبه من السمك الأبيض ما تكون الواحدة قنطاراً بالدمشقي، وطول هذا النهر من حين يخرج من عند ملطية إلى أن يأتي إلى بغداد ستمائة وثلاثون فرسخاً، وفي وسطه مدن وجزائر تعد من أعمال الفرات.

جيحون: نهر عظيم تتصل به أنهار كثيرة، ويمر على مدن كثيرة حتى يصل إلى خوارزم، ولا يتفجع به شيء من البلاد سوى خوارزم لأنها منسلفة عنه، ثم يصب في بحيرة بينها وبين خوارزم ستة أيام، وهو يجمد في الشتاء خمسة أشهر، والماء يجري من تحت الجمد، فيحفر أهل خوارزم منه لهم أماكن ليستقوا منها، وإذا اشتد جموده مروا عليه بالقوافل والعجل المحملة، ولا يبقى بينه وبين الأرض فرق ويعلوه التراب ويبقى على ذلك شهرين.

سيحون: نهر عظيم. قيل: إن مبدئه من حدود الترك ويجري حتى يتصل ببلاد الفرغانة، وربما يجتمع مع جيحون في بعض الأماكن.

الدجلة: نهر بغداد. وله أسماء غير ذلك وماؤه أعذب المياه بعد النيل، وأكثرها نفعاً. قيل: مقداره ثلاثمائة فرسخ، وفي بعض الأوقات يفيض حتى قيل إنه يخشى على بغداد الغرق منه، وهو نهر مبارك كثيراً ما ينجو غريقه.

حكى أنه وجد به غريق فيه الروح، فلما أفاق سأله عن حاله، فأخبرهم أنه لما غلب على نفسه رأى كأن أحداً يحمله ويصعد به، وروى في الأثر أن الله تعالى أمر دانيال عليه الصلاة والسلام أن يحفر لعباده ما يستقون منه وينتفعون به، فكان كلما مر بأرض ناشده أهلها أن يحفر ذلك عندهم إلى أن حفر دجلة والفرات.

وأما الأنهار الصغار فكثيرة ولكننا نذكر منها طرفاً فنقول:

نهر حصن المهدي: قال صاحب (تحفة الألباب): إنه بين البصرة والأهواز، وإنه يرتفع منه في بعض الأوقات شيء يشبه صورة الفيل، ولا يعرف أحد شأنه.

نهر أذربيجان: قيل إن بالقرب منه نهراً يجري فيه الماء ستة، ثم ينقطع ثمان سنين، ثم يعود في التاسعة، وقيل إنه ينعد حجراً ويستعمل منه اللبن ويبني به. وقيل إن في تلك الأرض بحيرة تحف فلا يوجد فيها ماء ولا سمك، ولا طين سبع سنين، ثم يعود الماء والسمك والطين، فتبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

نهر صقلاب: يجري فيه الماء يوماً واحداً في كل أسبوع ثم ينقع ستة أيام.

نهر العاصي: بأرض حماة. وقيل: بحمص وهو نهر معروف. وفيه يقول بعضهم:

مدينة حمص كعبة القصف أصبحت	يطوف بها الداني ويسعى لها القاصي
بها روضة من حسناتها سندسية	تعلق في أكناف أذيالها العاصي

نهر العمود: بأرض الهند عليه شجرة نابثة من حديد، وقيل: من نحاس وتحتها عمود من نحاس وقيل: من حديد طوله من فوق الماء نحو عشرة أذرع وعرضه ذراع، وعلى رأسه ثلاث شعب مسنونة محددة، وعنده رجل يقرأ كتاب الله تعالى، يقول: يا عظيم البركة طوبى لمن صعد هذه الشجرة وألقى بنفسه على هذا العمود، فيدخل الجنة، وقال أهل تلك الناحية: من يريد ذلك فليصعد على تلك الشجرة ويلقى نفسه، فيقطع.

نهر باليمن: قال صاحب (تحفة الألباب): إنه عند طلوع الشمس يجرى من المشرق إلى المغرب، وعند غروبها يجرى من المغرب إلى المشرق.

نهر ببلاد الحبشة والسودان: يجرى إلى المشرق يشبه النيل في زيادته ونقصانه، وأرضه بها الخصب والبركة وبها شجر كالأراك يحمل ثمراً كالبطيخ داخله شيء يشبه القند^(١) في الحلاوة، ولكن فيه بعض حموضة، وهذا النهر يجرى في بلادهم ثمانية أشهر، ثم ينصب في البحر المحيط، فسبحان من دبر هذا التدبير، وأحكم هذه الصنعة، لا إله إلا هو الحكيم الخبير.

الفصل الثالث: في ذكر الآبار

قال مجاهد: كنت أحب أن أرى كل شيء غريب، فسمعت أن ببابل بئر هاروت وماروت، فسرت إليها، فلما وصلت إلى ذلك المكان وجدت عنده بيوتاً، فدخلت في بعضها، فوجدت شخصاً، فسلمت عليه، فرحب بي وسألني عن حاجتي، فذكرت له غرضي فأمر يهودياً يذهب معي، فيوقفني على البئر، ويطلعني على الملكين. قال، فسرنا إلى البئر، ففتح سرداباً ونزلنا، فأمرني أن لا أذكر اسم الله تعالى. قال: فلما رأيت الملكين رأيت شيئاً كالجليلين العظيمين منكسين على رؤوسهما وعليهما الحديد من أعناقهما إلى ركبهما. قال مجاهد: فلما رأيت ذلك ذكرت الله تعالى. قال: فاضطربا اضطراباً شديداً حتى كادا يقطعان السلاسل. قال، ففر اليهودي، فتعلقت به، فقال: أما أمرتك أن لا تذكر اسم الله تعالى كدنا والله نهلك.

بئر برهوت: بقرب حضرموت، وهي التي قال النبي ﷺ إنها مجمع أرواح الكفار. قال عليّ كرم الله وجهه: أبغض البقاع إلى الله تعالى بئر برهوت ماؤها أسود منتن تأوى إليها أرواح الكفار، والموكل بها ملك يسمى دومة.

بئر صفان: ماؤها يستشفى به، قيل إن النبي ﷺ نفل فيها، قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما: كنا نغسل المريض منها، فيعافى. وقيل: إن النبي ﷺ توضأ منها.

بئر معروفة بأرض حلب: خاصيتها أنها إذا شرب منها المكروب زال كلبه ما لم يجاوز الأربعين، وبنيسابور آبار كثيرة، وهي معادن الفيروزج، وإنما يمنع الناس عنها كثرة عقاربها. وبأرض فارس بئر ينبع منها ماء في وقت من السنة، فيرتفع على وجه الأرض لمحة واحدة ويجري، فيستفح به في سقى الزرع، ثم يعود إلى ما كان، وعجائب الله كثيرة لا تكاد تنحصر. لا إله إلا الله ولا معبود سواه.

(١) القند: صل قصب السكر إذا جمد.

فى ذكر عجائب الأرض وما فيها من الجبال والبلدان وغرائب البنيان وفيه فصول

الفصل الأول: فى ذكر الأرض وما فيها من العمران والخراب

روى وهب بن منبه رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «إن لله تعالى ثمانية عشر ألف عالم، الدنيا منها عالم واحد، وما العمران فى الخراب إلا كخردلة فى كف أحدكم». وقال رواة الأثر: إن لله عز وجل دابة فى مرج من مروجها فى غامض علمه رزقها فى كل يوم بقدر رزق العالم بأسره. وجميع مدائن الدنيا أربعة آلاف مدينة وخمسمائة وست وخمسون مدينة، وقيل غير ذلك، وأقاليم الأرض سبعة. الإقليم الأول الهند، والثانى الحجاز، والثالث إقليم مصر، والرابع إقليم بابل، والخامس إقليم الروم والشام، والسادس إقليم الترك، والسابع إقليم الصين. وأوسط الأقاليم إقليم بابل، وهو أعمرها، وفيه جزيرة العرب، وفيه العراق الذى هو سرّة الدنيا وبغداد فى وسط هذا الإقليم فلاعتداله اعتدلت ألوان أهله، فسلموا من شجرة الروم وسواد الحبشة، وغلط التبرك، وجفاء أهل الجبال، ودمامة أهل الصين. والممالك المشهورة التى ضبقت عدتها فى زمن المأمون ثلاثمائة وثلاث وأربعون مملكة، أوسعها ثلاثة أشهر وأضيقتها ثلاثة أيام. وقال أهل الهيئة: إنه يكون عند خط الاستواء ربيعان وصيفان وخريفان وشتاءان فى سنة واحدة، وأنه يكون فى بعض البلاد ستة أشهر ليل وستة أشهر نهار وبعضها حر وبعضها برد، فسبحان من خلق كل شىء، فأتقنه. لا إله إلا هو ولا معبود سواه.

الفصل الثانى: فى ذكر الجبال

قيل: إن الله تعالى لما خلق الأرض ساجت واضطربت، فخلق الجبال وأرساها بها، فاستقرت، ومجموع ما عرف بالأقاليم السبعة من الجبال مائة وثمانية وتسعون جبلاً، فمنها ما طوله عشرون فرسخاً، ومنها ما طوله مائة فرسخ إلى ألف فرسخ. ولذا ذكر منها ما هو مشهور ومعروف بين الناس.

فمن أعجبها جبل سرنديب: وطوله مائتان ونيف وستون ميلاً وفيه أثر أقدام آدم عليه الصلاة والسلام حين أهبط، وحوله الياقوت وفى أوديته الماس الذى يقطع به الصخور ويثقب به اللؤلؤ، وفيه العود والفلفل ودابة المسك ودابة الزباد. جبل الروم: الذى فيه السد طوله سبعمائة فرسخ ويتهى إلى بحر الظلمات.

جبل أبى قيس: سمي بذلك لأن آدم عليه الصلاة والسلام كنّاه بذلك حين اقتبس منه النار التى بين أيدي الناس، وقيل غير ذلك.

جبل القدس: جبل شريف مبارك فيه غار يضيء بالليل من غير سراج، ويؤوره الناس.

جبل أروند بهمدان: برأسه عين تخرج من صخرة أياماً معدودة فى السنة تقصد من كل وجه يستشفى بها.

جبل بالشام: لونه أسود كالصخر وتراه أبيض تبيض به الثياب.

جبل الأندلس: فيه غار إذا دهنت فتيلة وأدخلها فيه أوقدت، وبها جبل به عيتان إحدهما باردة والأخرى حارة، والمسافة التى بينهما مقدار شبر، وجبل به معدن الكبريت والزئبق والزنجفر.

جبل سمرقند: يقطر منه ماء فى الصيف يصير جليداً وفى الشتاء يحرق من حرارته.

جبل الصور: بكرمان يكسر حجره، فيخرج منه كصور الآدميين قائمين وقاعدين ومضطجعين، وإذا سحق وطرح فى الماء يرى كذلك.

جبل الأرجان: بطبرستان يقطر منه ماء كل قطرة تصير حجراً مسدساً أو مشمناً.

جبل هرمز: ينزل منه ماء إلى وهدة، فإن صاح إنسان صيحة وقف فإن ثنى جرى.

جبل الطير: بإقليم الصعيد يجتمع عنده الطير فى كل سنة مرة ويدخل فى كوة هناك، فتمسك الكوة على واحدة، وتطير البقية، ويكون ذلك علامة الخصب فى تلك السنة. ولتقتصر على ذلك، ومن أراد الوقوف على جميعها فعليه بتاريخ مرآة الزمان.

الفصل الثالث: في ذكر المباني العظيمة وغرائبها وعجائبها

قال أهل التواريخ، ونقله الأخبار: إن أول بناء بنى على وجه الأرض الصرح الذي بناه نمرود الأكبر بن كوش بن حام ابن نوح عليه الصلاة والسلام ويقعته بكوثر من أرض بابل وبه إلى عصرنا أثر ذلك البناء كأنه جبال شاهقات. قالوا: كان طوله خمسة آلاف ذراع بناه بالحجارة والشمع واللبن ليمتنع هو وقومه من طوفان ثان، فأخرب الله تعالى ذلك الصرح في ليلة واحدة بصيحة، فتبليت بها ألسنة الناس، فسميت أرض بابل.

إرم ذات العماد: التي لم يخلق مثلها في البلاد.

حكى الشعبي في كتاب (سير الملوك): أن شداد بن عاد ملك جميع الدنيا وكان قومه قوم عاد الأولى زادهم الله بسطة في الأجسام وقوة حتى قالوا: من أشد منا قوة؟ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. وأن الله تعالى بعث إليهم هوداً نبياً عليه الصلاة والسلام فدعاهم إلى الله تعالى، فقال له شداد: إن آمنت بإلهك فماذا لي عنده؟ قال: يعطيك في الآخرة جنة مبنية من ذهب ويواقيت ولؤلؤ وجميع أنواع الجواهر. قال شداد: أنا أبني مثل هذه الجنة ولا أحتاج إلى ما تعدني به. قال: فأمر شداد ألف أمير من جبابرة قوم عاد أن يخرجوا ويطلبوا أرضاً واسعة كثيرة الماء طيبة الهواء بعيدة من الجبال لينى فيها مدينة من ذهب. قال: فخرج أولئك الأمراء، ومع كل أمير ألف رجل من خدمه وحشمه، فساروا في الأرض حتى وصلوا إلى جبل عدن، فرأوا هناك أرضاً واسعة طيبة الهواء، فأعجبهم تلك الأرض، فأمروا المهندسين والبنائين، فخطوا مدينة مربعة الجوانب دورها أربعون فرسخاً من كل جهة عشرة فراسخ، فحفروا الأساس إلى الماء وبنوا الجدران بحجارة الجرز اليماني حتى ظهر على وجه الأرض ثم أحاطوا به سوراً ارتفاعه خمسمائة ذراع وغشوه بصفائح الفضة المموهة بالذهب فلايكاد يدركه البصر إذا أشرقت الشمس، وكان شداد قد بعث إلى جميع معادن الدنيا، فاستخرج منها الذهب واتخذ له لبناً، ولم يترك في يد أحد من الناس في جميع الدنيا شيئاً من الذهب إلا غصبه، واستخرج الكنوز المدفونة، ثم بنى داخل المدينة مائة ألف قصر بعدد رؤساء مملكته كل قصر على عمد من أنواع الزبرجد واليواقيت معقودة بالذهب طول كل عمود مائة ذراع، وأجرى في وسطها أنهاراً، وعمل منها جداول لتلك القصور والمنازل، وجعل حصاها من الذهب والجواهر واليواقيت وحلى قصورها بصفائح الذهب والفضة، وجعل على حافات الأنهار أنواع الأشجار جذوعها من الذهب والجواهر واليواقيت واللآلئ، وطلّى حيطانها بالمسك والعنبر، وجعل فيها جنة مزخرفة له، وجعل أشجارها الزمرد واليواقيت وسائر أنواع المعادن، ونصب عليها أنواع الطيور المسموعة الصادح والمغرد، وغير ذلك، ثم بنى حول المدينة مائة ألف منارة برسم الحراس الذين يحرسون المدينة، فلما كمل بناؤها أمر في مشارق الأرض ومغاربها أن يتخذوا في البلاد بسطاً وستوراً وفرشاً من أنواع الحرير لتلك القصور والغرف، وأمر باتخاذ أواني الذهب والفضة، فاتخذوا جميعاً ما أمر به، فلما فرغوا من ذلك جميعه خرج شداد من حضرموت في أهل مملكته، وقصد مدينة إرم ذات العماد، فلما أشرف عليها ورآها قال: قد وصلت إلى ما كان هود يعدني به بعد الموت، وقد حصلت عليه في الدنيا، فلما أراد دخولها أمر الله تعالى ملكاً، فصاح بهم صيحة الغضب، وقبض ملك الموت أرواحهم في طرفة عين، فخرجوا على وجوههم صرعى. قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠]. وذلك قبل هلاك عاد بالريح العقيم، وأخفى الله تعالى تلك المدينة عن أعين الناس، فكانوا يرون بالليل في تلك البرية التي بنيت فيها معادن الذهب والفضة واليواقيت تضيء كالمصابيح، فإذا وصلوا إليها لم يجدوا هناك شيئاً.

وقد نقل أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له: عبد الله بن قلابة الأنصاري دخل إليها وذلك أنه ضلت له إبل، فخرج في طلبها، فوصل إليها، فلما رآها دهش وبهت ورأى ما أذهله وحيره، وقال في نفسه: هذه تشبه الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين في الآخرة، فقصد باباً من أبوابها، فلما وصل إليه أناخ راحلته، ودخل المدينة، فرأى تلك القصور والأنهار والأشجار، ولم ير في المدينة أحداً، فقال: أرجع إلى معاوية وأخبره بهذه المدينة وما فيها، ثم حمل معه شيئاً من تلك الجواهر واليواقيت في وعاء، وجعله على راحلته وعلم على المدينة علامة، وقال قربها من جبل عدن كذا، ومن الجهة الفلانية كذا، ثم انصرف عنها بعدما ظفر بإبله، ثم دخل على معاوية رضى الله تعالى بدمشق،

وأخبره بجميع ما رآه، فقال له معاوية: فى اليقظة رأيتها أم فى المنام؟ قال: بل فى اليقظة، وقد حملت من حصبتها وأخرج له شيئاً مما حملة من الجواهر والياقوت فتعجب معاوية من ذلك، ثم أرسل إلى كعب الأحبار رضى الله تعالى عنه، فلما دخل عليه قال له معاوية: يا أبا إسحاق هل بلغك أن فى الدنيا مدينة من ذهب؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، وقد ذكرها الله عز وجل فى القرآن لنبىه ﷺ بقوله عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨)﴾ [الفجر: ٦ - ٨]. وقد أخفاها الله تعالى عن أعين الناس، وسيدخلها رجل من هذه الأمة يقال له عبد الله بن قلابة الأنصارى، ثم التفت، فرأى عبد الله بن قلابة فقال: ها هو يا أمير المؤمنين، وصفه واسمه فى التوراة، ولا يدخلها أحد بعده إلى يوم القيامة. وقيل: إن ذلك كان فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، وأن الرجل الذى دخلها حكى ذلك لعمر بن الخطاب فلم ينكره ولا من كان حاضراً بل قال إن النبى ﷺ قال يدخلها بعض أمتى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومن المباني العجيبة الخورنق: الذى بناه النعمان بن امرئ القيس وهو النعمان الأكبر بناه فى عشرين سنة، فلما انتهى أعجبه، فخشى أن يبنى لغيره مثله، فأمر أن يلقى بانيه من أعلاه، فألقوه فتقطع، واسم بانيه سنمار، فصارت العرب تضرب به المثل: يقولون جزاه جزاء سنمار. قال الشاعر:

جَازَى بَنُو أَبَا الْغِيلَانِ عَنْ كَبِيرٍ وَحَسَنَ فَعَلٍ كَمَا يَجْزَى سَنِمَارَ

ومن المباني العجيبة حائط العجور: واسمها دلوك القبطية، وسبب بنائها لذلك أنها ولدت ولداً، فأخذت له الرصد، فقبل لها يخشى عليه من التمساح، فلما شب الغلام خافت عليه، فبنت الحائط وجعلته من العريش إلى أسوان شاملاً لكورة مصر من الجانب الشرقى، وقيل: بنته خوفاً على مصر وأهلها بعد غرق فرعون أن يطمع الملوك فيها، وقد قيل إنها أرادت أن تخوف ولدها من التمساح حتى لا ينزل البحر، فصورت له صورة التمساح، فرآه شكلاً مهولاً، فأذهله، وأخذ الفرع والههم فضعف وانسل إلى أن مات. لامر من قضاء الله تعالى.

ومن المباني العجيبة الأهرام: وهى بالجانب الغربى من مصر مشاهدة فى زماننا هذا. قيل: إن دور الهرم الأكبر من الثلاثة ألفا ذراع من كل جهة خمسمائة ذراع وعلوه خمسمائة ذراع، وقد ذهب المأمون إلى مصر حتى شاهدها على ما ذكر، وفتح منها هرمًا، وتعجب من بنيانها وصفتها وقيل: إن كل حجر من حجارته ثلاثون ذراعاً فى عرض عشرة أذرع، وقد أحكم إلصاقه ونحته وتسويته ولا يقدر النجار الصانع أن يتخذ من خشب صندوقاً صغيراً على إحكامه، وهى من عجائب الدنيا. قال بعضهم:

أَيْنَ الَّذِى الْهَرَمَانِ مِنْ بَنِيَانِهِ مَا قَوْمُهُ مَا يَوْمُهُ مَا الْمَصْرُ
تَتَخَلَّفُ الْأَثَارُ عَنْ سَكَانِهَا حِينَ وَيَدْرِكُهَا الْفَنَاءُ فَتُصْرُ

وزعم قوم أن الأهرام الموجودة بمصر قبور ملوك عظام أرادوا أن يتميزوا بها عن الناس بعد مماتهم كما تميزوا عنهم فى حياتهم، ورجوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور وتراخى العصور. ولما وصل المأمون إلى مصر أمر بتقيها، فنقب أحدها بعد جهد شديد وعناء طويل، فوجد داخله مزاليق ومهاوى يهول أمرها ويعسر السلوك فيها، ووجد فى أعلاه بيت وفى وسطه حوض من رخام مطبق، فلما كشف غطاؤه لم يوجد فيه إلا رمة بالية، فعند ذلك أمر المأمون بالكف عما سواه. ويقال: إن الذى بناها اسمه سوريد بن سهرق بن سرياق لرؤيا رآها وهى آفة تنزل من السماء وهى الطوفان، فقالوا: إنه بناها فى ستة أشهر وقال: قل لمن يأتى بعدنا يهدمها فى ستمائة سنة، والهدم أيسر من البنيان، وكسوناها الديباج الملون، فليكسها حصراً، والحصر أهون من الديباج، والأمر فيها عجيب جداً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومن المباني العجيبة منار الإسكندرية: التى بناها ذو القرنين، قيل: إنها كانت مبنية بحجارة مهندسة مغموسة فى الرصاص، فيها نحو من ثلاثمائة بيت تصعد الدابة بحملها إلى كل بيت، وللبیوت طاقات تطل على البحر ويقال: إن

طولها كان ألف ذراع، وفي أعلاها تماثيل من نحاس منها تمثال رجل قد أشار بيده إلى البحر، فإذا صار العدو على نحو ليلة منه سمع له تصويت يعلم به أهل المدينة مجيء العدو، فيستعدون له، ومنها تمثال كلما مضى من الليل ساعة صوت تصويتاً مطرباً، ويقال: إنه كان بأعلاها مرآة من الحديد الصيني عرضها سبعة أذرع كانوا يرون فيها المراكب بجزيرة قبرص، وقيل: كانوا يرون فيها من يخرج من البحر من جميع بلاد الروم، فإن كانوا أعداء تركوهم حتى يقربوا من المدينة، فإذا مالت الشمس للغروب أداروا المرآة مقابلة الشمس، واستقبلوا بها السفن، فيقع شعاعها بضوء الشمس على السفن فتحرق في البحر، ويهلك كل من فيها، وكانت الروم تؤدي الخراج ليأمنوا بذلك من إحراق السفن، ولم تزل كذلك إلى زمن الوليد بن عبد الملك.

قال المسعودي: قيل إن ملكاً من الروم تحيل على الوليد وأظهر أنه يريد الإسلام، وأرسل إليه تحفاً، وهدايا، وأظهر له بواسطة حكماء كانوا عنده أن يبلاده دقاتن، وأرسل له بذلك قسيسين من خواصه، وأرسل معهم أموالاً قيل إنهم حفرها بقرب المنارة ودفنوا تلك الأموال وقالوا للوليد: إن تحت المنارة كنزاً وبإرائها خبئة بها كذا وكذا ألف دينار، فأمرهم باستخراج ما بالقرب من المنارة، فإن كان ذلك حقاً استخرجوا ما تحت المنارة بعد هدمها فحفروا واستخرجوا ما دفنوه بأيديهم، فعند ذلك أمر الوليد بهدم المنارة واستخراج ما تحتها فهدموها، فلم يجدوا تحتها شيئاً، وهرب أولئك القسيسون، فعلم الوليد أنها مكيدة عليه، فندم على ذلك غاية الندم، ثم أمر ببنائها بالآجر ولم يقدر أن يرفعوا إليها تلك الحجارة، فلما أتموها نصبوا عليها المرآة كما كانت، فصدمت، ولم يروا فيها شيئاً مثل ما كانوا يرون أولاً، وبطل إحراقها، فندموا على ما فعلوا، وفاتهم من جهلهم وطمعهم نفع عظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقد عملت الجن سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام في الإسكندرية مجلساً على أعمدة من الجوزع اليماني المصقول كالمرآة إذا نظر الإنسان إليها يرى من يمشي خلفه لصفائها، وفي وسط ذلك المجلس عمود من الرخام طوله مائة وأحد عشر ذراعاً، وفي تلك الأعمدة عمود واحد يتحرك شرقاً وغرباً بطلوع الشمس وغروبها يشاهد الناس ذلك ولا يعلمون ما سببه.

وفي مدينة حمص مدينة أخرى تحت المدينة المسكونة العليا فيها من عجائب البنيان والبيوت والغرف والماء الجاري في كل طريق من طرقها ما لا يعلمه إلا الله تعالى. وعند حوران مدينة عظيمة يقال لها: اللجأة، فيها من البنيان ما يعجز عن وصفه السنة العقلاء. كل دار منها مبنية من الصخر المنحوت ليس في الدار خشبة واحدة بل أبوابها وغرفها، وسقوفها ويسوتها من الصخر المنحوت الذي لا يستطيع أحد أن يعمل من الخشب، وفي كل دار بئر وطاحون، وكل دار مفردة لا يلاصقها دار أخرى، وكل دار كالقلعة الحصينة إذا خاف أهل تلك النواحي من العدو دخلوا إلى تلك المدينة، فيتزل كل إنسان في دار بجميع عياله وخيله، وغنمه وبقره، ويغلق بابه، ويجعل خلف الباب حصاة فلا يقدر أحد على فتح ذلك الباب لإحكامه، وفي هذه المدينة أكثر من مائتي ألف دار، فيما يقال، ولا يعلم أحد من بناها، وسمتها العرب اللجأة لأنهم يلجأون إليها عند الخوف.

ومن المباني العجيبة إيوان كسرى أنوشروان: بناء سابور ذو الاكتاف في نيف وعشرين سنة، وطوله مائة ذراع في عرض خمسين، بناء بالآجر، والجص، وجعل طول كل شرافة من شرايفه خمسة عشر ذراعاً، ولما ملك المسلمون المدائن أحرقوا هذا الإيوان، فأخرجوا منه ألف ألف دينار ذهباً.

وحكى أن المنصور لما أراد بناء بغداد عزم على هدمه وأن يجعل آتاه في بنائه، فقيل له: إن نقضه يتكلف بقدر العمارة، فلم يسمع وهدم شرافة، وحسب ما أنفق عليه، فوجد الأمر كذلك، وقيل إن بعض رؤساء مملكته قال له لما أراد هدمه: هو آية الإسلام، فلا تهدمه.

وحكى أنه كان بمدينة تيسارية كنيسة بها مرآة إذا اتهم الرجل امرأته بزنا نظر في تلك المرآة، فيرى صورة الزاني، فاتفق أن بعض الناس قتل غريمه، فعمد أهلها إليها، فكسروها والله سبحانه وتعالى أعلم، وقد اقتضت من ذلك على هذا القدر اليسير، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

في ذكر المعادن والأحجار وخواصها

المعادن لاتكاد تخصى لكن منها ما يعرفه الناس ومنها ما لا يعرفونه وهي مقسومة إلى ما يذوب وإلى ما لا يذوب، والذي اشتهر بين الناس من المعادن سبعة: وهي: الذهب، والفضة، والنحاس، والحديد، والقصدير، والأسرب، والخارصيني، ولنبدأ أولاً بذكر:

(الذهب) فقل طبعه حار لطيف لشدة اختلاط أجزائه المائية بالترايبية. قيل: إن النار لاتقدر على تفريق أجزائه فلا يحترق ولايبلى ولايصداً، وهو لين براق، حلو الطعم، أصفر اللون، فالصفرة من ناريتها، والليونة من دهنيته، والبراقة من صفاء مائه.

خواصه: يقوى القلب ويدفع الصرع تعليقاً، ويمنع الفزع والخفقان ويقوى العين كحلاً ويجلوها إذا كان ميلاً، ويحسن نظرها وإذا ثقت به الأذن لم تلتحم وإذا كوى به لم ينفط ويبرأ سريعاً، وإمساكه فى القم يزيل البخر. (الفضة) قريبة منه وتصدأ وتحترق وتبلى بالتراب، وإذا أصابتها رائحة الرصاص والزئبق انكسرت أو رائحة الكبريت اسودت.

ومن خواصها: أنها تزيل البخر من القم إذا وضعت فيه، وإذا أذيت مع الزئبق وطلت بها البدن نفع ذلك من الحكمة والجرب وعسر البول.

(النحاس) قريب منها ولكنه أيسر، وأغلظ فى الطبع.

ومن خواصه: إذا صدئ وطلت بالحامض زال صدؤه والاكل فى آنيته يولد مرضاً لا دواء لها.

(الحديد) كثير الفائدة إذ ما من صنعة إلا وله فيها مدخل.

ومن خواصه: أنه يمنع غطيظ النائم إذا علق عليه، وحمله يقوى القلب ويزيل الخوف والأفكار والأحلام الرديئة، ويسر النفس، وصدؤه ينفع أمراض العين كحلاً والبواسير تحملاً.

(القصدير) صنف من الفضة دخل عليه آفات من الأرض.

ومن خواصه: أنه إذا ألقى فى قدر لم ينضج ما فيها.

(الأسرب) هو الرصاص. ومن خواصه: أنه يكسر الماس، ومن خواص الماس الدخول فى كل شىء، وإذا شد من الرصاص قطعة على الخنازير، والغدد أبرأتها.

(الخارصيني) حجر لونه أسود، لونه يعطى حمرة.

ومن خواصه: إذا عمل منه مرآة ونظر فيها فى الظلمات نفعت للقوة وإذا نتف الشعر بملقاط منه لم ينبت.

الأحجار الجوهريّة: أصل الجواهر، وهو الدر على ما قيل إن حيواناً يصعد من البحر على ساحله وقت المطر ويفتح أذنه يلتقط بها المطر، ويضمها ويرجع إلى البحر، فينزل إلى قراره ولايزال طابقاً أذناه على ما فيها خوفاً أن يختلط بأجزاء البحر حتى ينضج ما فيها، ويصير دراً، فإن كانت القطرة صغيرة كانت الدرة صغيرة، وإن كانت كبيرة فكبيرة، فإن كان فى بطن هذا الحيوان شىء من الماء المر كانت الدرة كدرة، وإن لم يكن كانت صافية، وقيل غير ذلك. والدر نوعان: كبير، وصغير. قيل: إنه تصل الواحدة إلى مثقال.

ومن خواصه: إنه يفرح القلب ويسط النفس ويحسن الوجه، ويصفى دم القلب، وإذا خلط مع الكحل شد عصب العين.

(الياقوت) سيد الأحجار، وأصول ألوانه أربعة: الأحمر، والأصفر، والأزرق، والإسمانجونى، ويتولد منها ألوان كثيرة وأعدلها الأحمر الخالص الرمانى الشبيه بحب الرمان الأحمر، ودونه الأحمر المشرب ببياض، ثم الوردى، ثم الخمرى، ثم العصفرى وأردؤه الأزرق، الذى لونه يشبه زهر السوسن وأقله قيمة الأبيض.

خواصه: أنه لا يعمل فيه الفولاذ ولا حجر الماس ولا تندسه النار ويورث لابسها مهابة ووقاراً، ويسهل قضاء الحوائج ويندر الريق في الفم ويقطع العطش ويدفع السم ويقوى القلب، وجميعه ينفع للمصروع تعليقاً، والأبيض منه يسط النفس، ويوجد من الأصفر ما وزنه ثلاثون مثقالاً على ما قيل.

(البليخش) هو مقارب الياقوت في القيمة ودونه في الشرف.

ومن خواصه: إنه يورث قبض النفس وسوء الخلق والحزن وهو ألوان: أحمر، وأخضر، وأصفر.

(البنيش) أصناف أحمر مفتوح اللون صاف وأحمر قوى الحمرة، وأسود يعلوه حمرة مطوسة بزرقة خفيفة، ثم أصفر مفتوح اللون.

(عين الهر) حجر يتكون من معدن الياقوت، والغالب عليه البياض الناصع بإشراق مفرط ومائته رقيقة شفافة وفي مائته سر إذا حرك يميناً تحركت يساراً وبالعكس.

ومن خواصه: إذا علق على العين آمن عليها من الجدرى على ما قيل.

(الماس) يوجد بواد بالهند يقال: إنه مشحون بالحيات، فيأتى من يريد استخراجها من ذلك الوادى فيضع في الوادى مرآة كبيرة، فتأتى الحيات فتتنظر إلى خيالها في المرآة فتفر من ذلك الجانب فيتزل، فيأخذ ما له فيه رزق، وقيل إنهم ينحرون الجزر ويلقون لحمها في ذلك الوادى، فيلتصق الماس وغيره باللحم، فتأتى الطير، فتختطف اللحم وتبعد به إلى الجبال فتأكل اللحم وتترك الحجر، فيأخذه صاحب اللحم، وقيل: إن الحيات لها مشتى ستة أشهر في مكان، ومصيف ستة أشهر في مكان آخر، فإذا ذهبت إلى مشتاتها ومصيفها أخذ الحجر في غيبتها، والله أعلم بصحة ذلك، ومن عجيب أمره أنه إذا أريد كسره جعل في أنبوبة قصب وضرب فإنه يفتت وكذا إذا جعل في شمع أو قار، وإذا جعل عليه دم تيس وقرب من النار ذاب.

ومن خواصه: أن الملوك يتخذونه عندهم لشرفه، وهو من السموم القاتلة القطعة الصغيرة منه إذا حصلت في الجوف ولو بقدر السمسة خرقت الأمعاء.

ومن خواصه الجليلة: أنه يعرق عند وجود السم أو الطعام المسموم.

(الزمرّد) ويسمى الزبرجد وهو ألوان أخضر، وزنجارى وصابونى، ويكون الحجر منه خمسة مثاقيل وأقل.

ومن خواصه: إنه يدفع العين ويفرح القلب ويقوى البصر، ويصفى الذهن وينشط النفس.

(الفيروزج) نوعان: إسحاقى، وخلنجى، وأجوده الإسحاقى الأزرق الصافى.

خواصه: النظر فيه يجلو البصر، ويقويه، وينشط النفس، ولا يصيب المتختم به آفة من قتل أو غرق، وقال جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه: ما افتقرت يد تختمت فيروزج، وإذا مضى له بعد خروجه من معدنه عشرون سنة نقص لونه، ولا يزال كذلك حتى ينطفئ.

(العقيق) معدن بأرض صنعاء باليمن، وهو ألوان يوجد عليه غشاوة ويحمى عليه بعر الإبل، ثم يبرد ويكسر، وقيل: يوجد بالهند ولكن اليمن أجود.

خواصه: التختم به وحمله يورث الحلم والأناة، وتصويب الرأى ويسر النفس، ويكسب حامله وقاراً، وحسن خلق، ويسكن الحدة عند الخصومة، قال رسول الله ﷺ: «من تختم بالعقيق لم يزل في بركة».

(الجزع) هو حجر أيضاً يؤتى به من اليمن والصين، وألوانه كثيرة، والناس يكرهونه لأنه يورث الهم والأحلام الرديئة، وسوء الخلق، وتعسر قضاء الحوائج، ويكثر بكاء الصبى وسيلان لعابه، ويشغل اللسان إذا سحق وشرب ماؤه، وإذا وضع بين قوم لا علم لهم به حصلت بينهم العداوة لكنه يسهل الولادة تعليقاً.

(البلور) هو صنف من الزجاج، يحكى أن بيلاد كيسان جبلين: أحدهما بلور، وإذا أريد قطع البلور في ذلك الموضع قطع في الليل لأنه في النهار يكون له شعاع عظيم.

خواصه: النظر فيه يشرح القلب، ويسط النفس، ويسكن وجع الضرس.

(المرجان) هو واسطة بين النبات والمعدن لأنه بتشجره يشبه النبات، وبتحجره يشبه المعدن، ولا يزال ليناً في معدنه، فإذا فارقه تحجر ويبس.

خواصه: النظر فيه يشرح الصدر ويسط النفس ويفرح القلب، ويذهب بالداء المحتبس في العين، ويسكن الرمد، وسحاقتة المخلوطة بالخل تجلو قلع الأسنان، وإذا وضع على الجرح منعه من الانتفاخ، وأنواعه كثيرة: أحمر، وأزرق، وأبيض، وأصله من البحر، قيل: إنه شجر ينبت، وقيل: إنه من حيوانه.

(حجر المايطيس) هو حجر هندي لا يعمل فيه الحديد، والبيت الذي يكون فيه لا يدخله السحر ولا الجن ولا أجل ذلك كان الإسكندر يجعله في عسكره.

(الحجر الماهاني) من تختم به أمن من الروح والهم والحزن والغم، ولونه أبيض وأصفر، ويوجد بأرض خراسان.

(حجر مراد) يوجد بناحية الجنوب.

وخاصيته: إن الجن تتبع حامله وتعمل له ما أراد.

(الدهنج) خاصيته: أنه إذا سقى إنسان من محكه يفعل فعل السم، وإذا سقى شارب السم منه نفعه، وإذا مسح به موضع اللدغ سكن وينفع من خفقان القلب وإذا طلى بحكاكته بياض البرص أزاله، وإن علق على إنسان غلب عليه الباء.

(السبج) خواصه: أنه يقوى النظر الضعيف من الكبر أو نزول الماء، ولبسه ينفع عسر البول وإدمان النظر فيه يحد البصر، وسحاقتة تجلو البصر، وإذا علق على من به صداع زال عنه.

(المغناطيس) يوجد في بحر الهند، وهناك لا يتخذ في السفن حديد، ويوجد ببلاد الأندلس أيضاً وأجود أنواعه ما كان أسود يضرب إلى حمرة.

خواصه: الاكتحال بسحاقتة يورث ألفة بين المكتحل وبين من يحبه، ويسهل الولادة تعليقاً، ومن تختم به كانت حاجته مقضية، وتعليقه في العنق يزيد في الذهن، وإذا سحق وشرب من سحاقتة من به سم بطل سمه، وإذا أصابته رائحة الثوم بطلت خاصيته، وإذا غسل بالخل عاد إلى حالته، وأجوده ما جذب نصف مثقال من الحديد.

(حجر الخطاف) الخطاف يوجد في عشه حجران، أحدهما أحمر، والآخر أبيض، فالأحمر إذا علق على من يفرع في نومه زال فزعه، والأبيض إذا علق على من به صرع زال عنه.

(حجر الزاج) إذا دخن البيت بسحاقتة هرب منه الفأر والذباب.

(حجر الزنجفر) أصله من الزئبق واستحال.

وخاصيته: أنه يدمل الجراحات وينبت اللحم.

(حجر الملح) هو أنواع، وأجوده ما يوجد بأرض سدوم بالقرب من بحر لوط، وقد جعله الله قواماً للعالم.

ومن خاصيته: أنه يحسن الذهب، ويزيد في صفوته، وعن النبي ﷺ أنه قال: «يا على ابدأ بالملح واختم به، فإن فيه شفاء من سبعين داء».

(حجر النظرون) قال أرسطو: ينفع الأرحام التي غلبت عليها الرطوبة ينشفها ويقويها، وإذا ألقى في العجين طيبه ويبضه ونشفه، وهو نوعان: أبيض وأحمر.

(حجر اللازورد) مشهور، قال أرسطو: من تختم به عظم في أعين الناس، وينفع من السهر، والله أعلم، ومن أراد التعمق في ذلك، فعليه بالكتب الموضوعة له، ولكن قد ذكرنا ما هو معروف، والحمد لله على كل حال، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في الأصوات والألحان وذكر الغناء واختلاف الناس فيه ومن كرهه ومن استحسنته

وما ذكرت ذلك إلا لأنى كرهت أن يكون كتابى هذا بعد اشتماله على فنون الأدب والتحف والنوادر والأمثال عاطلاً من هذه الصناعة التى هى مراد السمع، ومرتع النفس، وربيع القلب، ومجال الهوى، ومسلة الكتيب، وأنس الوحيد، وزاد الراكب لعظم موقع الصوت الحسن من القلب، وأخذ بمجامع النفس.

فصل: فى الصوت الحسن

قال بعض أهل التفسير فى قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١]. هو الصوت الحسن، وعن النبى ﷺ أنه قال: «أتدرون متى كان الحداء؟ قالوا: لا بأينا أنت وأما يارسول الله. قال: إن أباكم مضر خرج فى طلب مال له، فوجد غلاماً قد تفرقت إبله، فضربه على يده بالعصا، فعدا الغلام فى الوادى وهو يصيح: وايداه، فسمعت الإبل صوته، فعطفت عليه، فقال مضر: لو اشتق من الكلام مثل هذا لكان كلاماً تجتمع عليه الإبل، فاشتق الحداء». وقال النبى ﷺ لأبى موسى الأشعرى رضى الله عنه لما أعجبه حسن صوته: «لقد أوتيت زمزماً من مزامير آل داود». وقيل: إن داود عليه الصلاة والسلام كان يخرج إلى صحراء بيت المقدس يوماً فى الأسبوع، وتجتمع عليه الخلق، فيقرأ الزبور بتلك القراءة الرخيمة، وكان له جاريتان موصوفتان بالقوة والشدة فكانتا تضبطان جسده ضبطاً شديداً خيفة أن تنخلع أوصاله مما كان يتحب، وكانت الوحوش والطير تجتمع لاستماع قراءته. قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: بلغنا أن الله تعالى يقيم داود عليه الصلاة والسلام يوم القيامة عند ساق العرش، فيقول: يا داود مجدنى اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم. وقال سلام الحادى للمنصور، وكان يضرب المثل بحدائه: مر يا أمير المؤمنين بأن يظمنوا إيلاً ثم يوردوها الماء فإنى آخذ فى الحداء فترفع رؤوسها، وترك الشرب، وزعم أهل الطب أن الصوت الحسن يجرى فى الجسم مجرى الدم فى العروق، فيصفو له الدم، وتنمو له النفس ويرتاح له القلب، وتهتز له الجوارح، وتخف له الحركات، ولهذا كرهوا للطفل أن ينام على أثر البكاء، حتى يرقص ويضطرب، وزعمت الفلاسفة: أن النغم فضل بقى من النطق لم يقدر اللسان على استخراجها، فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع لا على التقطيع، فلما ظهر عشقته النفس وحنّت إليه الروح. ألا ترى إلى أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملالة والفتور على أبدانهم ترغوا بالألحان، واستراحت إليها أنفسهم، وليس من أحد كائناً من كان إلا وهو مطرب من صوت نفسه، ويعجبه طنين رأسه، ولو لم يكن من فضل الصوت الحسن إلا أنه ليس فى الأرض لذة تكتسب من مأكّل ولا مشرب ولا ملبس ولا نكاح ولا صيد إلا وفيها معاناة على البدن، وتعب على الجوارح ما خلا السماع، فإنه لا معاناة فيه على البدن ولا تعب على الجوارح، وقد يتوصل بالألحان الحسان إلى خيرى الدنيا والآخرة، فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف، وصلة الأرحام، والذب عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب، وقد يبكى الرجل بها على خطيئته، ويتذكر نعيم الملكوت، ويمثله فى ضميره، ولأهل الرهبانية نغمات، وألحان شجية يمجّدون الله تعالى بها، ويكون على خطاياهم، ويتذكرون نعيم الآخرة. وكان أبو يوسف القاضى يحضر مجلس الرشيد، وفيه الغناء، فيجعل مكان السرور به بكاء، كأنه يتذكر نعيم الآخرة، وقد تحن القلوب إلى حسن الصوت حتى الطير والبهائم، وكان صاحب الفلاحات يقول: إن النحل أطرب الحيوان كله على الغناء، قال الشاعر:

والطير قد يسوقه للموت إصغـاؤه إلى حنين الصوت

وزعموا أن فى البحر دواب ربما زمزت أصواتاً مطربة، ولحونا مستلذة يأخذ السامعين الغشى من حلاوتها، فاعتنى بها، وضعة الألحان بأن شبهوا بها أغانيهم، فلم يبلغوا، وربما يغشى على سامع الصوت الحسن للطفة وصوله إلى الدماغ وممارجته القلب. ألا ترى إلى الأم كيف تناغى ولدها، فيقبل بسمعه على مناغاتها، ويتلهى عن البكاء، والإبل تزداد نشاطها وقوتها بالحداء، فترفع آذانها يمناً ويسرة، وتتبختر فى مشيتها، وزعموا أن السماكين بنواحي العراق يبنون فى جوف الماء حفائر ثم يضربون عندها بأصوات شجية فيجتمع السمك فى الحفائر، فيصيدونه، وقد نبهت على ذلك فى باب ذكر البحار، وما فيها من العجائب، والراعى إذا رفع صوته، ونفخ فى يراعه تلقته الغنم بأذانها، وجذت فى

رعيها، والدابة تعاف الماء، فإذا سمعت الصفير بالغت في الشرب وليس شيء مما يستلذ به أخف مؤونة من السماع. قال أفلاطون: من حزن فليسمع الأصوات الحسنة، فإن النفس إذا حزنت خمدت نارها، فإذا سمعت ما يطربها ويسرها اشتعل منها ما خمدت وما زالت ملوك فارس تلهي المحزون بالسماع، وتعلل به المريض، وتشغله عن التفكير، ومنهم أخذت العرب حتى قال ابن غيلة الشيباني:

وسماع مسمعة يعللنا حتى ننام تناوم العجم

وحكى أن البعلبكي مؤذن المنصور رجع في أذانه ليلة وجارية تصب الماء على يد المنصور، فارتعدت حتى وقع الإبريق من يدها، فقال له المنصور: خذ هذه الجارية، فهي لك لاتعد ترجع هذا الترجيع، وقال عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمارة في قينة:

ألم ترها لا أبعد الله دارها إذا رجعت في صوتها كيف تصنع
تدير نظام القبول ثم تردّه إلى صلصل من صوتها يترجع

وبعد، فهل خلق الله شيئاً أوقع بالقلوب، وأشدّ اختلاساً للعقول من الصوت الحسن لاسيما إذا كان من وجه حسن كما قال الشاعر:

ربّ سماع حسن سمعته من حسن
مفعّر من فرج مفعّد من حزن
لا فارقناني أبداً في صيحة من بدن

وهل على الأرض من جبان مستطار الفؤاد يغنى بقول جرير:

قلّ للجبان إذا تأخّر سرجه هل أنت من شرك المنيّة ناجي

إلا شاجن شجعت نفسه، وقوى قلبه، أم هل على الأرض من بخيل قد انقبضت أطرافه يوماً يغنى بقول حاتم الطائي:

يرى البخيل سبيل المال واحدةً إن الجواد يرى في ماله سُبُلاً

إلا انبسطت أنامله، ورشحت أطرافه، واختلف الناس في الغناء، فأجازه عامة أهل الحجاز، وكرهه عامة أهل العراق، فمن حجة من أجازه ما روى أن النبي ﷺ قال لحسان: «شن الغطاريف على بني عبد مناف، فوالله لشعرك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام». واحتجوا في إباحة الغناء، واستحسانه بقول النبي ﷺ لعائشة رضي الله تعالى عنها: «أهديتم الفتاة إلى بعلها؟ قالت: نعم. قال: فبعثتم معها من يغني؟ قالت: لم نفعل. قال: أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم القول، ألا بعثتم معها من يقول:

أتيناكم أتيناكم فحيّونا نحييكم
ولولا الحبة السمراء لم نُحلّل بواديكم

ولا بأس بالغناء إذا لم يكن فيه أمر محرم، ولا يكره السماع عند العرس والوليمة والعقيقة وغيرها، فإن فيه تحريكاً لزيادة سرور مباح أو مندوب، ويدل عليه ما روى من إنشاد النساء بالدف والألحان عند قدوم النبي ﷺ حيث قلن:

طلع البدر علينا من ثنيّات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها الميمون فينا جئنا بالأمير المطاع

ويدل عليه ما روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه، وأنا أنظر إلى الحبشة

يلعبون في المسجد الحرام حتى أكون أنا التي أسأله»، ويدل عليه أيضاً ما روى في الصحيحين من حديث عقيل، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله تعالى عنها «أن أبا بكر دخل عليها، وعندها جارتان في أيام منى يدفقان ويضربان والنبي ﷺ متغش بثوبه، فانتهرهما أبو بكر، فكشف النبي ﷺ عن وجهه، وقال: دعهما يا أبا بكر، فإنها أيام عيد»، وعن قرّة بن خالد بن عبد الله بن يحيى قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه للنابغة الجعدي: أسمعني بعض ما عفا الله لك عنه من هناتك، فأسمعه كلمة، فقال له: وإنك لقائلها. قال: نعم قال: طالما غنيت بها خلف جمال الخطاب، وعن عبد الله بن عوف قال: أتيت باب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فسمعتة يغني بالركابية يقول:

فكيف ثوائي بالمدينة بعدما
قضى وطراً منها جميل بن معمر

وكان جميل بن معمر من أخصاء عمر قال: فلما استأذنت عليه قال لي: أسمعت ما قلت؟ قلت: نعم. قال: إذا خلونا قلنا ما يقول الناس في ييوتهم، وقد أجازوا تحسين الصوت في القراءة والأذان، فإن كانت الألحان مكروهة، فالقراءة والأذان أحق بالتنزيه عنها، وإن كانت غير مكروهة، فالشعر أحوج إليها لإقامة الوزن، وما جعلت العرب الشعر موزوناً إلا لمد الصوت والدندنة، ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخبر المشور. ومن حجة من كره الغناء أنه قال: إنه ينفر القلوب ويستفز العقول، ويبعث على اللهو، ويحضر على الطرب، وهذا باطل في أصله، وتأولوا في ذلك قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً﴾ [لقمان: ٦]. وأخطأ من أول هذا التأويل إنما نزلت هذه الآية في قوم كانوا يشترون الكتب من أخبار السير، والأحاديث القديمة ويضاهون بها القرآن، ويقولون: إنها أفضل منه، وليس من سمع الغناء يتخذ آيات الله هزواً، وقال رجل للحسن البصري: ما تقول في الغناء يا أبا سعيد؟ فقال: نعم العون على طاعة الله تعالى يصل الرجل به رحمه ويواسي به صديقه. قال: ليس عن هذا أسألك. قال: وعمّ سألتني؟ قال: أن يغني الرجل. قال: وكيف يغني؟ فجعل الرجل يلوى شذقيه ويفتح منخريه، فقال الحسن: والله يا ابن أخي ما ظننت أن عاقلاً يفعل بنفسه هذا أبداً، فلم ينكر الحسن إلا تشويه وجهه وتعويج فمه، وسمع ابن المبارك سكران يغني هذا البيت:

أذلنى الهوى فأنأ الذليل
وليس إلى الذى أهوى سبيل

قال: فأخرج دواة وقراطساً، وكتب البيت، فقبل له: أنكتب بيت شعر سمعته من رجل سكران، فقال: أما سمعتم المثل: رب جوهرة في مزبلة. وكان لأبى حنيفة جار من الكياليين مغرم بالشراب، وكان يغني على شرايه بقول العرجي:

أضاعونى وأى فتى أضاعوا
ليوم كـريهة وسداد ثغر

قال: فأخذه العسس^(١) ليلة وحبسه، ففقد أبو حنيفة صوته، واستوحش له، فقال لأهله: ما فعل جارنا الكيال؟ قالوا: أخذه العسس، وهو في الحبس، فلما أصبح أبو حنيفة توجه إلى عيسى بن موسى، فاستأذن عليه، فأسرع إذنه، وكان أبو حنيفة قليلاً ما يأتي أبواب الملوك، فأقبل عليه عيسى بن موسى، وسأله عما جاء بشيئه، فقال: أصلح الله الأمير: إن لى جاراً من الكياليين أخذه عسس الأمير ليلة كذا، فوقع في حبسه، فأمر عيسى بن موسى بإطلاق كل من في الحبس إكراماً لأبى حنيفة، فأقبل الكيال على أبى حنيفة يتشكر له، فلما رآه أبو حنيفة قال له: هل أضعناك يافتي؟ يعرض له بشعره الذى ينشده قال: لا والله ولكنك بررت وحفظت. وكان عروة بن أديّة ثقة في الحديث روى عنه مالك ابن أنس، وكان شاعراً مجيداً لبقاً غزلاً، وكان يصوغ ألحان الغناء على شعره وينحلها للمغنين. قيل: إنه وقفت عليه امرأة يوماً وحوله التلاميذ، فقالت له: أنت الذى يقال فيك الرجل الصالح، وأنت تقول:

إذا وجّدت أوار الحب فى كبدى
عمدت نحو سقاء القوم أبرد
هبى بردت ببرد الماء ظاهره
فمن لنار على الأحشاء تقيد

(١) العسس: اسم للجمع، وهو الخدم.

وكان عبد الملك الملقب بالقس عند أهل مكة بمنزلة عطاء بن أبي رباح في العبادة. قيل: إنه مر يوماً بسلامة وهي تغني، فأقام يسمع غناءها فرآه مولاهما، فقال له: هل لك أن تدخل، وتسمع، فأبى، فلم يزل به حتى دخل فغنته، فأعجبته، ولم يزل يسمعها، ويلاحظ النظر حتى شغف بها، فلما شعرت بلحظه إياها غتته:

ربّ رسولين لنا بلغنا
رسالة من قبل أن نبرحنا
الطرف للطرف بعثناهم
فقضيا حاجاً وما صرّحنا

قال فأغنى عليه، وكاد يهلك، فقالت له: إني والله أحبك. قال: وأنا والله أحبك، قالت: وأحب أن أضع فمي على فمك. قال: وأنا والله كذلك. قالت: فما يمنعك من ذلك؟ قال: أخشى أن تكون صداقة ما بيني وبينك عدواة يوم القيامة. أما سمعت قوله تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. ثم نهض وعاد إلى طريقته التي كان عليها، وأنشأ يقول:

قد كنت أعذل في السفاهة أهلها
فأعجب لما تأتي به الأيام
فاليوم أعذرهم وأعلم إنما
سبل الضلالة والهدى أقسام

وقدم عبد الله بن جعفر على معاوية بالشام، فأنزله في دار عياله، وأظهر من إكرامه ما يستحقه، فغاض ذلك فاخنة بنت قرظة زوج معاوية فسمعت ذات ليلة غناء عند عبد الله بن جعفر، فجاءت إلى معاوية فقالت: هلم، فاسمع ما في منزلك الذي جعلته من لحمك ودمك، وأنزلت بين حرمك، فجاء معاوية، فسمع شيئاً حركه وأطربه، فقال: والله إني لأسمع شيئاً تكاد الجبال أن تخر له، ثم انصرف، فلما كان في آخر الليل سمع معاوية قراءة عبد الله بن جعفر، وهو قائم يصلي، فنه فاخنة، وقال لها: اسمعي مكان ما أسمعني، هؤلاء قومي ملوك بالنهار رهبان بالليل، ثم إن معاوية أرق ذات ليلة، فقال لخدمته: اذهب فانظر من عند عبد الله بن جعفر، وأخبره إني قادم عليه، فذهب وأخبره، فأقام عبد الله كل من كان عنده، فلما جاء معاوية لم ير في المجلس غير عبد الله، فقال: مجلس من هذا؟ قال عبد الله: هذا مجلس فلان يا أمير المؤمنين، فقال معاوية: مره، فليرجع إلى مجلسه حتى لم يبق إلا مجلس رجل واحد. قال: مجلس من هذا؟ قال: مجلس رجل يداوى الأذان يا أمير المؤمنين. قال إن أذنني عليلة، فمره أن يرجع إلى مجلسه، وكان مجلس بديح المغني، فأمره عبد الله بن جعفر، فرجع إلى موضعه، فقال له معاوية: داو أذنني من علتها، فتناول العود وغنى وقال:

ودع سعد فإن الركب مرتحل
وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

قال: فحرك عبد الله بن جعفر رأسه، فقال له معاوية: لم حركت رأسك يا ابن جعفر؟ قال: أريحية أجدها يا أمير المؤمنين لو لقيت لأبليت، ولو سئلت لأعطيت، وكان معاوية قد خضب. قال، فقال ابن جعفر لبديح: هات غير هذا، وكان عند معاوية جارية من أعزّ جواريه عليه، وكانت تتولى خضابه، فغنى بديح وقال:

ليس عندك شكر للتي جعلت
ما ابيض من قادمات الرأس كالحمم
وجددت منك ما قد كان أخلقه
صرف الزمان وطول الدهر والقدم

فطرب معاوية طرباً شديداً، وجعل يحرك رجله، فقال له ابن جعفر يا أمير المؤمنين إنك سألتني عن تحريك رأسي، فأجبتك وأخبرتكَ، وأنا أسألك عن تحريك رجلك، فقال: كل كريم طروب، ثم قام، وقال: لا يبرح أحد منكم حتى يأتي له إذنني، ثم ذهب، فبعث إلى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار ومائة ثوب من خاصة كسوته، وإلى كل رجل منهم بألف دينار وعشرة أثواب. وحدث ابن الكلبي، والهيثم بن عدي قالاً: بينما عبد الله بن جعفر في بعض أزقة المدينة إذ سمع غناء، فأصغى إليه، فإذا صوت رقيق لقينة تغني وتقول:

قل للكرام ببابنا يلجوا ما فى الثصابى على الفتى حرج

فتزل عبد الله عن دابته، ودخل على القوم بلا إذن، فلما رآوه قاموا إجلالاً له، ورفعوا مجلسه، فأقبل عليه صاحب المجلس، وقال يا ابن عم رسول الله ﷺ: أتدخل مجلسنا بلا إذن، وليس هذا من شأنك؟ فقال عبد الله: لم أدخل إلا بإذن. قال: ومن إذن لك؟ قال: قيتك هذه سمعتها تقول: قل للكرام ببابنا يلجوا، فولجنا، فإن كنا كراماً، فقد أذن لنا، وإن كنا لثاماً خرجنا مذمومين، فقبل صاحب المنزل يده، وقال: جعلت فداك، والله ما أنت إلا أكرم الناس، فبعث عبد الله إلى جارية من جواريه، فحضرت ودعا بثياب وطيب، فكسا القوم، وطيبهم، ووهب الجارية لصاحب المنزل، وقال: هذه أحذق بالغناء من جاريتك. وسمع سليمان بن عبد الملك مغنياً فى عسكره، فقال: اطلبوه، فجاءوا به، فقال: أعد على ما غنيت به، فغنى واحتفل. وكان سليمان أغير الناس، فقال لأصحابه: كأنها والله جرجرة الفحل فى الشوك، وما أظن أننى تسمع هذا إلا صبت إليه، ثم أمر به فخصى.

أصل الغناء ومعدنه:

قال أبو المنذر هشام: الغناء على ثلاثة أوجه: النصب والسناد والهزج، فأما النصب: فغناء الفتيان والركبان، وأما السناد: فالثقل الترجيع الكثير النغمات، وأما الهزج: فالخفيف كله وهو الذى يستفز القلوب ويهيج الحليم. وقيل: كان أصل الغناء ومعدنه فى أمهات القرى، فاشياً ظاهراً، وهى المدينة والطائف وخيبر وفدك ووادى القرى، ودومة الجندل، واليمامة، وهذه القرى مجامع أسواق العرب، ويقال: إن أول من صنع العود لامك بن قايين بن آدم، وبكى به على ولده، ويقال: إن صانعه بطليموس صاحب الموسيقى، وهو كتاب اللحن الثمانية، والله سبحانه ونعالى أعلم بحقيقة ذلك، وحسبنا الله، ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم ونوادير الجلساء فى مجالس الرؤساء

قيل: إن أول من غنى فى العرب قيتان للنعمان يقال لهما: الجرادتان، ومن غنائهما:

ألا يا قين ويحك قم فـهـيـنـم لعل الله يسقينا غماما

وإنما غنتا هذا حين حبس الله عنهما المطر، وقيل: أول من غنى فى الإسلام الغناء الرقيق طويس وهو الذى علم ابن سريج والدلال نوبة الضحى، وكان يكنى أبا عبد النعيم، ومن غنائه، وهو أول صوت غنى به فى الإسلام هذا البيت:

قـد برانى الشـوق حـتى كـدت من وجـدى أذوب

ثم نجم بعد طويس بن طنبور، وأصله من اليمن، وكان أهزج الناس وأخفهم غناء، ومن غنائه:

وفتيان على شرب جميعاً دلفت لهم ببساطية هدور

فلا تشرب بلا طرب فلا تـرى رأيت الخليل تشرب بالصفير

ومنهم حكم الوادى، ومن غنائه:

أمـدح الكـاس ومن أعـمـلـها وأهـج قومـاً قـتلونا بالعـطش

إنما الراح ربيع باكر فـإذا ما وافـت المرء انتـعش

وكان لهارون الرشيد جماعة من المغنين منهم: إبراهيم الموصلى، وابن جامع السهمى وغيرهما، وكان له زامر يقال له: برصوما، وكان إبراهيم أشدهم تصرفاً فى الغناء، وابن جامع أحلاهم نغمة، فقال الرشيد يوماً لبرصوما: ما تقول فى ابن جامع؟ قال يا أمير المؤمنين، وما أقول فى العسل الذى من حيثما ما ذقته فهو طيب. قال: فإبراهيم الموصلى؟ قال: بستان فيه جميع الأزهار والرياحين، وكان ابن محرز يغنى كل إنسان بما يشتهي كانه خلق من قلب كل إنسان، وغنى رجل بحضرة الرشيد بهذه الأبيات:

وأذكر أيام الحمى ثم أنشئ على كبدى من خشية أن تصدعا

فليست عشيات الحمى برواجع عليك ولكن خل عينيك تدمعا

بكت عيني اليسرى فلما نهيتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معاً

قال: فاستخف الرشيد الطرب، فأمر له بمائة ألف درهم.

وحدث ابن الكلبي عن أبيه قال: كان ابن عائشة من أحسن الناس غناءً وأنبههم فيه، وكان من أضييق الناس خلقاً إذا قيل له غنّ قال: لمثلى يقال غنّ على عتق رقبة إن غنيت يومى هذا، فلما كان فى بعض الأيام سال وادى العقيق، فلم يبق فى المدينة مخبأة ولا مخدرة ولا شاب ولا كهل إلا خرج يبصره، وكان فيمن خرج ابن عائشة المغنى وهو معتجر بفضل رداءه، فنظر إليه الحسن بن الحسن بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم، وكان الحسن فيمن خرج إلى العقيق وبين يديه عبدان أسودان كأنهما ساريتان يمشيان أمام دابته، فقال لهما: أقسم بالله إن لم تفعلما ما أمركما به لأنكلن بكما، فقالا: يا مولانا قل ما أمرتنا به، فلو أمرتنا أن نقتحم النار فعلنا. قال: فاذهبا إلى ذلك الرجل المعتجر بفضل رداءه فأمسكاه، فإن لم يفعل ما أمره به وإلا فاقدقا به فى العقيق. قال: فمضيا والحسن يقفوهما، فلم يشعر ابن عائشة إلا وهما آخذان بمنكبيه، فقال: من هذا؟ فقال له الحسن: أنا هذا يا ابن عائشة، فقال: لبيك وسعديك بأبى أنت

وامى قال: اسمع منى ما أقول لك، واعلم أنك مأسور فى أيديهما، وقد أقسمت إن لم تغن مائة صوت ليطرحانك فى العقيق. قال: فصاح ابن عائشة: واويلاه واعظم مصيبتاه، فقال له الحسن: دعنا من صياحك وخذ فيما ينفعنا. قال: اقترح وأقم من يحصى، ثم أقبل يغنى، فترك الناس العقيق، وأقبلوا عليه، فلما تمت أصواته مائة كبر الناس بلسان واحدة تكبيرة ارتجت لها أقطار الأرض، وقالوا للحسن: صلى الله على جدك حياً وميتاً، فما اجتمع لأحد من أهل المدينة سرور قط إلا بكم أهل البيت، فقال له الحسن: ما فعلت هذا بك يا ابن عائشة إلا لأخلاقك الشرسة، فقال ابن عائشة: والله ما مرت بى شدة أعظم من هذه لقد بلغت أطراف أعضائى، فكان ابن عائشة بعد ذلك إذا قيل له: ما أشد يوم مر عليك؟ يقول: يوم العقيق.

وحدث أبو جعفر البغدادى قال: حدثنى عبد الله بن محمد كاتب بغداد عن أبى عكرمة قال: خرجت يوماً إلى المسجد الجامع، فمررت بباب أبى عيسى بن المتوكل، فإذا على بابه المشدود، وهو أحذق خلق الله تعالى بالغناء، فقال: أين تريد يا أبا عكرمة؟ قلت: المسجد الجامع لعلى أستفيد حكمة أكتبها، فقال: ادخل إلى أبى عيسى. قلت: أمثل أبى عيسى فى قدره وجلالته يدخل عليه بلا إذن؟ فقال للحاجب: أعلم أمير المؤمنين بمكان أبى عكرمة، فما لبث إلا ساعة حتى خرج الغلمان إلى فحملونى حملاً، فدخلت إلى دار ما رأيت أحسن منها بناء، ولا أظرف منها هيئة فلما نظرت إلى أبى عيسى قال لى: ما يعيش من يحتشم اجلس، فجلست، فأتينا بطعام كثير، فلما انقضى أتيننا بشراب، وقامت جارية تسقىنا شرباً كالشعاع فى زجاجة كأنها كوكب درى، فقلت: أصلح الله الأمير وأتم عليه نعمه ولا سلبه ما وهبه. قال: فدعا أبو عيسى بالمغنيين وهم المشدود وديس ورقيق. ولم يكن فى ذلك الزمان أحذق من هؤلاء الثلاثة بالغناء، فابتدأ المشدود وغنى يقول:

واخضرَ فوق بياض الدرِّ شاربُه
واهتزَّ أعلاه وارْتَجَّتْ حقائبُه
فكان من رده ما قال حاجبُه

لما استقلَّ بأردافٍ تجاذبُه
وأشرق الوردُ من نسرين وجنته
كلمته بجفونٍ غير ناطقةٍ

ثم سكت وغنى ديس:

وصاحبُ الحبِّ صبُّ القلبِ دائبُه
يوم الفراقِ ودم العين ساكبُه
ارفقْ بقلبك قد عزتْ مطالبُه

الحبُّ حلوا أمرته عواقبُه
استودع الله من بالطرف ودعنى
ثم انصرفت وداعى الشوق يهتف بى

ثم سكت وغنى رقيق:

قد لاح عارضه واخضرَّ شاربُه
أو ينطق القول يوماً فهو كاذبه
فقام يشدو وقد مالت جوانبه

بدر من الإنس حفته كواكبُه
إن يوعد الوعد يوماً فهو مخلفُه
عاطيته كدم الأوداج صافية

ثم سكت، وابتدأ المشدود يقول:

من يصحُّ عنك فلانى لست بالصاحي

يا دير حنة من ذات الأكـيـراح

ثم سكت وغنى ديس:

دع البسـاتين من آسٍ وتَفـاح
واعـدلْ إلى فـتيةٍ ذابت لحومهم
وخـمرةٌ عُنُتْ في دَنُها حـقبا

ثم سكت وغنى رقيق:

واعـدلْ هـديت إلى شيخ الأكـيراح
من العـبادة إلا نضـو أشـباح
كأنها دـمعة في جـفن سـباح

لأنـحـفلن بقـول اللائم اللاحى
كأساً إذا انـحدرت في حلق شاريها
ما زلت أسقى نديمي ثم الثـمـه
فقام يشـدو وقد مالت سـوالفه

واشرب على الورد من مشـمـولة الراح
اغـناه لالأثـما عن كل مـصـباح
والليل ملـتـحف في ثوب أمـسـاح
يا دير حنـة من ذات الأكـسـيراح

ثم أقبل أبو عيسى على المشدود وقال له غنّ لى شعري فغناه:

يا لجة الدمع هل للغـمض مرجـوع
ما حـيلتى وفـؤادى هائمٌ دنفٌ
لا والذى تـلفت نفسى بفـرقـتـه
ما أرقّ العين إلا حبٌ مـبـتـدع

أم للكرى من جـفـون العين مـمنوعٌ
بعـقرب الصـدغ من مـولـاى مـلسـوع
فالقلب من فرق الأحـزان مـصـدوع
ثوابُ الجـمـالِ على خـدّيه مـخـلوع

قال أبو عكرمة: فوالله لقد حضرت من المجالس ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى، فما حضرت مثل ذلك المجلس ولولا أن أبا عيسى قطعهم ما انقطعوا.

وحكى عن الرشيد أنه قال يوماً للفضل بن الربيع: من الباب من الندماء؟ قال: جماعة فيهم هاشم بن سليمان مولى بن أمية، وأمير المؤمنين يشتهي سماعه. قال: فأذن له وحده، فدخل، فقال: هات يا هاشم، فغناه من شعر جميل حيث يقول:

إذا ما تراجـعنا الذى كان بيننا
فيا ويح نفسى حسب نفسى الذى بها
خليلىً فيما عشتما هل رأيتما

جرى الدمع من عيني بشينة بالكحل
ويا ويح عقلى ما أصـبـت به أهلى
قتيلاً بكى من حبٍ قاتله قبلى

قال: فطرب الرشيد طرباً شديداً، وقال: أحسنت لله أبوك، ثم قلده عقداً نفيساً، فلما رآه هاشم ترقرت عيناه بالدموع، فقال له الرشيد: ما يبكىك يا هاشم؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن لهذا العقد حديثاً عجيباً إن أذن لى الأمير حدثته به، قال: قد أذنت لك. قال يا أمير المؤمنين: قدمت يوماً على الوليد وهو على بحيرة طبرية، ومعه قيتان لم ير مثلهما جمالاً وحسناً، فلما وقعت عينه علىّ قال: هذا أعرابى قد ظهر من البوادي ادعوه به لنسخر به، فدعاني، فسرت إليه، ولم يعرفنى، ففنت إحدى الجاريتين بصوت هو لى، فأخطأته الجارية، فقلت لها: أخطأت يا جارية، فضحكت، ثم قالت: يا أمير المؤمنين ألم تسمع ما يقول هذا الأعرابى يعيب علينا غناءنا؟ فنظر إلىّ كالمنكر، فقلت يا أمير المؤمنين: أنا أبين لك الخطأ، فلتصلح وتر كذا، وتر كذا، ففعلت وغنت شيئاً ما سمع منها إلا فى هذا اليوم، فقامت الجارية مكبة علىّ وقالت: أستاذى هاشم ورب الكعبة، فقال الوليد: أهاشم بن سليمان أنت؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، وكشفت عن وجهى، وأقمت معه بقية يومنا، فأمر لى بثلاثين ألف درهم، فقالت الجارية: يا أمير المؤمنين أتأذن لى فى بر أستاذى؟ فقال الوليد: ذلك إليك، فحلت يا أمير المؤمنين هذا العقد من عنقها ووضعت فى عنقى، وقالت: هو لك، ثم

قربوا إليه السفينة ليرجع إلى موضعه، فركب في السفينة، وطلعت مع إحدى الجاريتين، وأتبعتهما صاحبتى، فأرادت أن ترفع رجلها، وتطلع السفينة فسقطت في الماء، ففرقت لوقتها، وطلبت، فلم يقدر عليها، فاشتد جنح الوليد عليها، وبكى بكاء شديداً، وبكى أنا عليها أيضاً بكاء شديداً، فقال لى يا هاشم: ما نرجع عليك مما وهبناه لك، ولكن نحب أن يكون هذا العقد عندنا نذكرها به، فبغنى إياه، فعوضنى عنه ثلاثين ألف درهم، فلما وهبتى العقد يا أمير المؤمنين تذكرت قضيته، وهذا سبب بكائى، فقال الرشيد: لا تعجب، فإن الله كما ورثنا مكانهم ورثنا أموالهم. وقال على بن سليمان النوفلى: غنى دحمان الأشقر عند الرشيد يوماً فأنشده:

إذا نحن أدلجنا وأنت أمــــامنا كفى لمطايانا برؤياك هاديا
ذكرتك بالديزين يوماً فأشرفت بنات الهوى حتى بلغن التراقيا
إذا طواك الدهرُ يا أمــــالك فشان المنايا الفاضيات وشانيا

قال: فطرب الرشيد طرباً شديداً واستعاده منه مرات، ثم قال له: تمنّ علىّ. قال: أتمنى الهنىء والمرىء وهما ضيعتان غلتهما أربعون ألف دينار فى كل سنة، فأمر له بهما، فقبل له يا أمير المؤمنين: إن هاتين الضيعتين من جلالتهما يجب أن لا يسمح بمثلهما، فقال الرشيد: لاسيّل إلى استرداده ما أعطيت، ولكن احتالوا فى شرائهما منه، فساوموه فيهما حتى وقفوا معه على مائة ألف دينار، فرضى بذلك، فقال الرشيد: ادفعوها له، فقالوا: يا أمير المؤمنين فى إخراج مائة ألف دينار من بيت المال طعن، ولكن نقطعها له، فكان يوصل بخمسة آلاف وثلاثة آلاف حتى استوفاهما.

ومن ذلك ما حكى إسحاق الموصلى قال: كان الواصل بن المعتصم أعلم الناس بالغناء، وكان يضع الألحان العجيبة ويغنى بها شعره، وشعر غيره، فقال له يوماً: يا أبا محمد لقد فقت أهل العصر فى كل شىء، فغنى شعراً أرتاح إليه، وأطرب عليه يومى هذا، قال إسحاق: فغنيته هذه الأبيات:

ما كنت أعلم ما فى البين من حرقٍ حتى تناودا بأن قد جىء بالسفن
قامت تودّعنى والدمع يغلبها فهممت بعض ما قالت ولم تبين
مالت إلىّ وضمتنى لترشفنى كما يميل نسيم الريح بالغصن
وأعرضت ثم قالت وهى باكية يا ليت معترفتى إياك لم تكن

قال: فخلع علىّ خلعة كانت عليه وأمر لى بمائة ألف درهم، وقال وغنيته يوماً:

قفى ودّعينا ياسعداً بنظرة فقد حان منا يا سعاد رحيلُ
فيا جنة الدنيا ويا غاية المنى ويا سؤل نفسى هل إليك سبيلُ
وكنت إذا ما جئت جئت لعله فأفانيت علأتى فكيف أقول
فما كل يوم لى بأرضك حاجةً ولا كل يوم لى إليك وصول

فقال: والله لا سمعت يومى غيره وألقى علىّ خلعة من ثيابه، وأمر لى بصلة ما أمر لى قبلها بمثلها.

ومن حكايات الخلفاء ومكارم أخلاقهم: ما حكى عن إبراهيم بن المهدي قال: قال جعفر بن يحيى يوماً لبعض ندمائه: إنى قد استأذنت أمير المؤمنين فى الخلوة غداً، فهل من مساعد؟ فقلت: جعلت فداك أنا أسعد بمساعدتك وأسر بمشاهدتك، فقال: بكر بكور الغراب، قال: فأتيته عند الفجر، فوجدت الشموع قد أوقدت بين يديه وهو ينتظرنى فى الميعاد، فما زلنا فى أطيب عيش إلى وقت الضحى، فقدمت إلينا موائد الأطعمة عليها أفخر الطعام وأطيبه، فأكلنا وغسلنا أيدينا، ثم خلعت علينا ثياب النادمة، وضممنا بالخلوق وانتقلنا إلى مجلس الطرب ومدت الستائر وغنت

القينات فظللنا بأنعم يوم ثم إنه داخله الطرب، فدعا بالحاجب وقال له: إذا أتى أحد يطلبنا فأذن له ولو كان عبد الملك ابن صالح بنفسه، فاتفق بالأمر المقدر أن عم الرشيد عبد الملك بن صالح قدم علينا في ذلك الوقت وكان صاحب جلالة رهيبة ورفعة، وعنده من الورع والزهد والعبادة ما لا مزيد عليه، وكان الرشيد إذا جلس مجلس لهو لا يطلعه على ذلك لشدة ورعه، فلما قدم ودخل به الحاجب علينا فلما رأيناه رمينا ما في أيدينا وقمنا إجلالاً له نقبل يده وقد ارتعنا لذلك وخجلنا، وزاد بنا الحياء، فقال: لا بأس عليكم كونوا على ما أنتم عليه، ثم صاح بغلام، فدفع له ثيابه، ثم أقبل علينا وقال: اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم قال: فما كان أسرع من أن طرحت عليه ثياب خز معلم وقدمت إليه موائد الطعام والشراب، فطعم وشرب لساعته، ثم قال: خففوا عني فإنه شيء ما فعلته والله قط قال: فتهلل وجهه جعفر ثم التفت إلى عبد الملك، فقال له: جعلت فداك قد علوت علينا وتفضلت، فهل من حاجة تبلغها مقدرتي وتحيط بها نعمتي فأقضيها لك مكافأة لك على ما صنعت قال: بلى إن في قلب أمير المؤمنين بعض تغير على فتسأله الرضا عني، فقال جعفر: قد رضى عنك أمير المؤمنين قال: وعلى عشرة آلاف دينار، فقال جعفر: هي حاضرة لك من مالى ولك من مال أمير المؤمنين مثلها، قال: أريد أن أشد ظهر ابني إبراهيم بمصاهرة من أمير المؤمنين قال: قد زوجه أمير المؤمنين بابنته الغالية قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه قال: وقد ولأه أمير المؤمنين مصر، فانصرف عبد الملك بن صالح وبقيت متعجباً من إقدام جعفر على ذلك من غير استئذان وقلت: عسى أن يجيب أمير المؤمنين إلى ما سأله من الولاية والمال والرضا إلا المصاهرة. قال: فلما كان من الغد بكرت إلى باب الرشيد لأنظر ما يكون من أمرهم، فدخل جعفر فلم يلبث أن دعى بأبي يوسف القاضي ثم بإبراهيم بن عبد الملك بن صالح فخرج إبراهيم وقد عقد نكاحه بالغالية بنت الرشيد، وعقد له على مصر الرايات والألوية تخفق على رأسه وخرج كل من في القصر معه إلى بيت عبد الملك بن صالح، قال: ثم بعد ذلك خرج إلينا جعفر وقال: أظن أن قلوبكم تعلقت بحديث عبد الملك بن صالح وأحببتم سماع ذلك، قلنا هو كما ظننت قال: لما دخلت على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه قال: كيف كان يومك يا جعفر بالأمس؟ فقصصت عليه القصة حتى بلغت إلى دخول عبد الملك بن صالح فكان متكئاً فاستوى جالساً، وقال: لله أبوك ما سألك؟ قلت: سألتني رضاك عنه يا أمير المؤمنين، قال: بم أجبتة؟ قلت: قد رضى عنك أمير المؤمنين، قال: قد رضيت عنه، ثم ماذا؟ قلت: وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار، قال: فبم أجبتة؟ قلت: قد قضاها عنك أمير المؤمنين، قال: وقد قضيتها عنه، ثم ماذا؟ قلت: ورغب أن يشد أمير المؤمنين ظهر ولده إبراهيم بمصاهرة منه قال: فبم أجبتة؟ قلت: قد زوجه أمير المؤمنين ابنته الغالية، قال: قد أجبتة إلى ذلك، ثم ماذا؟ قلت: قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه، قال: فبم أجبتة؟ قلت: قد ولأه أمير المؤمنين مصر، قال: وقد وليته إياها، ثم نجز له جميع ذلك من ساعته قال إبراهيم ابن المهدي: فوالله ما أدرى أى الثلاثة أكرم وأعجب فعلاً ما ابتدأه عبد الملك بن صالح من المنادمة ولم يكن فعل ذلك قط أم إقدام جعفر على الرشيد أم إمضاء الرشيد جميع ما حكم به جعفر، فهكذا تكون مكارم الأخلاق.

وحكى أبو العباس عن عمر الرازي قال: أقبلت من مكة أريد المدينة فجعلت أسير في جمد من الأرض، فسمعت غناء لم أسمع مثله، فقلت والله لأتوصلن إليه فإذا هو عبد أسود، فقلت له: أعد على ما سمعت فقال: والله لو كان عندي قرى^(١) أقريكه لفعلت، ولكنى أجعله قراك، فإني والله ربما غنيت بهذا الصوت وأنا جائع فأشبع، وربما غنيت وأنا كسلان فأنشط، أو عطشان فأروى، ثم اندفع يغنى ويقول:

وكنْتُ إذا ما جئتُ سَعْدِي أزوورها أرى الأرض تُطوى لى ويدنو بعِيدُهَا
من الخفريات البيض ودَّ جليسها إذا ما انقضت أحدىة لو تعيدُهَا

قال عمر: فحفظته منه، ثم تغنيت به على الحالات التي وصفها إلى فإذا هي كما ذكر، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) قرى: كل ما يؤتى من كرم الضيافة.

فى ذكر القينات والأغانى

حكى على بن الجهم قال: لما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المتوكل أهدى إليه عبد الله بن طاهر من خراسان جارية يقال لها محبوبة كانت قد نشأت بالطائف فبرعت فى الجمال والأدب وأجادت قول الشعر، وحذاقة الغناء، فشغف بها أمير المؤمنين المتوكل حتى كانت لا تفارق مجلسه ساعة واحدة، ثم إنه حصل منه عليها بعد ذلك جفاء، فهجرها، قال على بن الجهم: فبينما أنا نائم عنده ذات ليلة إذا أيقظنى، فقال: يا على قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: قد رأيت الليلة فى منامى كأنى رضيت على محبوبة وصالحتها، فقلت: خيراً رأيت يا أمير المؤمنين، أقر الله عينك إنما هى جاريتك والرضا والجفاء بيدك، فوالله إنا لفى حديثها إذ جاءت وصيفة فقالت: يا أمير المؤمنين سمعت صوت عود من حجرة محبوبة. فقال: قم بنا يا على ننظر ما تصنع، فنهضنا حتى أتينا حجرتها فإذا هى تضرب العود وتقول:

أدور فى القصر لا أرى أحداً	أشكو إليه ولا يكلمنى
كأننى قد أتيت مصيبة	ليس لى توبة تخلصنى
فهل شفيع لنا إلى ملك	قد زارنى فى الكرى وصالحنى
حتى إذا ما الصباح لاح لنا	عاد إلى هجره وصارمنى

قال: فصاح أمير المؤمنين، فلما سمعته تلقته، وأكبت على رجليه تقبلهما، فقال: ما هذا؟ قلت: يا مولاي رأيت فى منامى هذا الليلة كأنك قد رضيت عنى، فأنشدت ما سمعت، قال: وأنا والله رأيت مثل ذلك، ثم قال يا على: هل رأيت أعجب من هذا الاتفاق، ثم أخذ بيدها ومضى إلى حجرتها وكان من أمرهما ما كان.

قيل: وكان أمير المؤمنين الواثق إذا شرب رقد فى موضعه الذى شرب فيه ومن كان معه من ندمائه وشرب رقد ولم يخرج، فشرب يوماً وخرج من كان عنده إلا مغنياً واحداً أظهر التراقذ فترك وكانت مغنية من حظايا الخليفة نائمة، فلما خلا المجلس كتب المغنى رقعة ورمى بها إليها فإذا فيها:

إنى رأيتك فى المنام ضجيعتى	مسترشفاً من ريق فيك البارد
وكان كفك فى يدي وكأننا	بتنا جميعاً فى لحاف واحد
ثم انتبهت ومنكباك كلاما	فى راحتى وتحت خدك ساعدى
فقطعت يومى كله متراقداً	لأراك فى نومى ولست براقداً

فكتبت إليه على ظهرها تقول:

خيراً رأيت وكلاما أملت	سبتناله منى برغم الحاسد
وتبيت بين خلاخلى ودمالجى	وتحل بين مشاشفى ونواهدى
ونكون أنعم عاشقين تعاطيا	ملح الحديث بلا مخافة راصد

فلما مدت يدها لترمى إليه بالرقعة رفع الواثق رأسه فأخذها من يدها وقال: ما هذا؟ فحلها له أنه لم يجر بينهما قبل ذلك كلام ولا كتاب ولا رسول إلا أن العشق قد خامرهما قال: فأعنتها من وقتها وزوجها به، وقال: أخذها ولا تقرنا

بعد اليوم . وكان لأسماء بنت المهدي جارية يقال لها كاعب وكانت بكرأ ناهداً بنت ثلاث عشرة سنة قال : فتلاعب عليها أبو نواس ، فتمنعت فوقع في قلبه منها ما وقع وأحبته هي أيضاً ، فجعل أبو نواس كلما أمسكها تمنعت ، فظفر بها ليلة من الليالي في ناحية من القصر ، فأمسكها ، فبكت وقالت له : يا سيدي الموت دون ذلك ، فقال أبو نواس : هذا جزع الأبقار ، فاتفق أنه خرج يوماً من القصر وقد تفرق الدجا فوجدها نائمة في سدة وهي سكرى لا تفيق ، فتقرب منها وحل سراويلها ووقع عليها فإذا هي خالية من البكارة ، فارتاع وظن أن يكون أتاها دم ، فلم يجد ، فقام عنها وندم على ما كان منه وأنشد يقول :

وناهدة الشدين من خدم القصر	مرقوة الخدين ليلية الشعر
كلفت بها دهرأ على حسن وجهها	طويلاً وما حب الكواعب من أمرى
فما زلت بالأشعار حتى خدعتها	وروضتها والشعر من خدع السحر
أطالبها شيئاً فقالت بعبرة	أموت ولا هذا ودمعتها تجري
فلما تعارضنا توسطت لجة	غرقنا بها يا قوم في لجج البحر
فصحت أغثنى يا غلام فجاءنى	وقد زلقت رجلى وصرت إلى الصدر
ولولا صياحى بالغلام وإنه	تداركنى بالحبل صرت إلى القعر
فأقسمت عمرى لا ركبت سفينة	ولا سرت طول الدهر إلا على ظهر

ومن ذلك ما حدث الشيباني قال : كان عند رجل بالعراق قينة ، وكان أبو نواس يختلف إليها ، وكانت تظهر له أنها لا تحب غيره وكان كلما دخل إليها وجد عندها شاباً يجالسها ويحدثها فقال فيها هذه الأبيات :

ومظهمـــــرة لخلق الله ودأ	وتلقى بالتححية والسلام
أتيت لبابها أشكو إليها	فلم أخلص إليه من الزحام
فيا من ليس يكفيتها خليل	ولا ألفاً خليل كل عام
أراك بقية من قوم موسى	فهم لا يصبرون على طعام

وقال أبو سويد : حدثني أبو زيد الأسدي قال : دخلت على سليمان بن عبد الملك وهو جالس في إيوان مبطن بالرخام الأحمر مفروش بالديباج الأخضر في وسط بستان ملتف قد أثمر وأينع وعلى رأسه وصائف كل واحدة منهن أحسن من صاحبها ، وقد غابت الشمس وغنت الطيار فتجاوبت وصفقت الرياح على الأشجار فتمايلت ، فقلت : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ، وكان مطرقاً ، فرفع رأسه ، وقال : أبا زيد في مثل هذا الحين تصاحبنا ، فقلت أصلح الله الأمير أو قامت القيامة ؟ قال : نعم على أهل المحبة ، ثم أطرق ملياً ورفع رأسه وقال : أبا زيد ما يطيب في يومنا هذا ؟ قلت : أصلح الله الأمير قهوة حمراء في زجاجة بيضاء تنولها عادة هيفاء مضمومة لفاء أشربها من كفها وأمسح فمى بخدها ، فأطرق سليمان ملياً لا يرد جواباً تنحدر من عينيه عبرات بلا شهيق ، فلما رأت الوصائف ذلك تنحين عنه ، ثم رفع رأسه ، فقال : أبا زيد حضرت في يوم فيه انقضاء أجلك ومتهى مدتك وتصرم عمرك والله لأضربن عنقك أو لتخبرنى ما أثار هذه الصفة من قلبك . قلت : نعم أصلح الله الأمير كنت جالساً عند دار أخيك سعيد بن عبد الملك ، فإذا أنا بجارية قد خرجت من باب القصر كأنها غزال انفلت من شبكة صياد عليها قميص سكب اسكندراني بين منه بياض بدننها وتدوير سرتها ونقش تكتها ، وفي رجليها نعلان صراران قد أشرق بياض قدميها على حمرة نعلها بذؤابتين تضربان إلى حقويها لها صدغان كأنهما نونان وحاجبان قد قوسا على محاجر عينيها ، وعينان مملوءتان سحراً ،

وأنف كأنه قصبة بلور، وفم كأنه جرح يقطر دماً وهي تقول: عباد الله من لى بدواء ما لا يشتكى وعلاج ما لا يسمى طال الحجاب وأبطأ الجواب، والقلب طائر، والعقل عازب والنفس والهة، والفؤاد مختلس، والنوم محتبس، رحمة الله على قوم عاشوا تجلداً وماتوا كمدأ، ولو كان إلى الصبر حيلة أو إلى ترك الغرام سبيل لكان أمراً جميلاً، ثم أطرقت طويلاً ورفعت رأسها، فقلت لها: أيتها الجارية إنسية أنت أم جنية، سماوية أنت أم أرضية؟ فقد أعجبني ذكاء عقلك وأذهلني حسن منطقك، فسترت وجهها بكمها كأنها لم ترني، ثم قالت: اعذر أيها المتكلم فما أوحش الساعد بلا مساعد، والمقاساة لصب معاند، ثم انصرفت، فوالله ما أكلت طعاماً طيباً إلا غصصت به لذكرها، ولا رأيت حسناً إلا سمج في عيني لحسنها فقال سليمان: أبا زيد كاد الجهل يستفزني، والصبا يعاودني، والحلم يعزب عني لشجو ما سمعت. اعلم يا أبا زيد أن تلك التي رأيته هي الذلفاء التي قيل فيها:

إنما الذلفاء يا قسوتة أخرجت من كـيس دهقان

شراؤها على أخى ألف ألف درهم، وهي عاشقة لمن باعها والله إن مات ما يموت إلا بحبها ولا يدخل القبر إلا بغصتها، وفي الصبر سلوة وفي توقع الموت نهية، قم أبا زيد في دعة الله تعالى، ثم قال: يا غلام نفلة بيدرة، فأخذتها وانصرفت، قال فلما أفضت الخلافة إليه صارت الذلفاء إليه، فأمر بفسطاط، فأخرج على دهناء الغوطة وضرب في روضة خضراء مونقة زهراء ذات حدائق بهجة تحتها أنواع الزهر ما بين أصفر فاقع وأحمر ساطع وأبيض ناصع، وكان لسليمان مغن يقال له: سنان، به يأنس وإليه يسكن فأمره أن يضرب فسطاطه بالقرب منه، وكانت الذلفاء قد خرجت مع سليمان إلى ذلك المتزه، فلم يزل سنان يومه ذلك عند سليمان في أكمل سرور، وأتم حبور إلى أن انصرف من الليل إلى فسطاطه، فتزل به جماعة من إخوانه فقالوا له نريد قرأ أصلحك الله، قال: وما تراكم؟ قالوا: أكل وشرب وسماع، قال: أما الأكل والشرب فمباحان لكم، وأما السماع فقد عرفتم شدة غيرة أمير المؤمنين ونهيه عنه إلا ما كان في مجلسه، قالوا: لا حاجة لنا بطعامك وشرابك إن لم تسمعنا. قال: فاخترأوا صوتاً واحداً أغنيكموه. قالوا: غننا صوت كذا، فرفع صوته يغنى بهذه الأبيات:

محجوبة سمعت صوتي فأرقها من آخر الليل لما نبه السحر
في ليلة البدر ما يدرى مضاجعها أوجهها عنده أبهى أم القمر
لم يحجب الصوت أحراس ولا غلق فدمعها لطروق الصوت منحدر
لو مكنت لمشت نحوى على قدم تكاد من لينها في المشى تنفطر

قال فسمعت الذلفاء صوت سنان، فخرجت إلى صحن الفسطاط تسمع، فجعلت لا تسمع شيئاً من حسن خلق ولطافة قد إلا رأت ذلك كله في نفسها وهيئتها، فحرك ذلك ساكناً من قلبها، فهملت عيناها، وعلا نحيبها، فانتبه سليمان فلم يجدها معه، فخرج إلى صحن الفسطاط فرأها على تلك الحال، فقال: ما هذا يا ذلفاء؟ فقال:

ألا رب صوت رائع من مشوه قبيح المحيا واضع الأب والجيد
يرورك منه صوته ولعله إلى أمة يعزى معاً وإلى عبد

فقال سليمان: دعيني من هذا، فوالله لقد خامر قلبك منه ما خامر، ثم قال: يا غلام على بسنان، فدعت الذلفاء خادماً لها، فقالت له: إن سبقت رسول أمير المؤمنين إلى سنان، فحذرتي، فلك عشرة آلاف درهم، وأنت حر لوجه الله تعالى، فخرج الرسولان، فسبق رسول أمير المؤمنين سليمان، فلما أتى به قال يا سنان: ألم أنك عن مثل هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين حملني على ذلك حلمك، وأنا عبد أمير المؤمنين، وغرس نعمته فإن رأى أمير المؤمنين أن يعفو عن

عبده، فليفعل، قال: قد عفوت عنك ولكن أما علمت أن الفرس إذا صهل دقت له الحجرة، وأن الفحل إذا هدر ضبعت له الناقة، وأن الرجل إذا تغنى أصغت له المرأة، إياك إياك والعود إلى ما كان منك، فيطول غمك.
وحكى: أن الرشيد فصد يوماً فأرسلت إليه بعض حظاياها قدحاً فيه شراب مع وصيفة لها حسنة الوجه جميلة الطلعة بديعة المحيا، وغطته بمنديل مكتوب عليه هذه الأبيات:

فصدت عرقاً تبتغي صحة	البسك الله به العافية
فاشرب بهذا الكأس يا سيدي	واهناً به من كف ذي الجارية
واجعل لمن أنفذه خلوة	تحظى بها في الليلة الآتية

قال: فنظر الرشيد إلى الوصيفة التي جاءت بالقدح فاستحسنها، فافتضاها، ثم أرسلها فعلمت مولاتها بذلك، فكتبت إليه رقعة تقول فيها هذه الأبيات:

بعثت الرسول فأبطأ قليلاً	على الرغم مني فصبراً جميلاً
وكنت الخليل وكان الرسول	فصرت الرسول وصار الخليل
كذا من يوجهه في حاجة	إلى من يحب رسولا جميلاً

قال: فاستحسن الرشيد ذلك منها وأرسل إليها: أنا عندك الليلة. وأهدى داود بن روح المهلبى إلى المهدي جارية، فحظيت عنده، فواعدته المبيت عنده ليلة، فمنعها الحيض، فكتب إليها يقول:

لا هجرن حبيباً خان موعده	وكان منه لصفو العيش تكدير
--------------------------	---------------------------

فأرسلت إليه تجيبه:

لا تهجرن حبيباً خان موعده	ولا تذهبن وعداً فيه تأخير
ما كان حبسى إلا من حدث أذى	لا يستطاع له بالقول تفسير

وقال محمد بن مروان يصف جارية له:

أمت تباع ولو تباع بوزنها	دراً بكى أسفاً عليها البائع
--------------------------	-----------------------------

وكان للمأمون جويرية من أحسن الناس، وأسبقهم إلى كل نادرة فحظيت عنده، فحسدها الجوارى وقلن لا حسب لها، فنقشت على خاتمها حبسى حسنى، فازداد بها المأمون عجباً، فسمتها الجوارى، فماتت، فجزع عليها المأمون جزعاً شديداً وقال:

اخست ريحانتي من يدي	أبكى عليها آخر الأبد
كانت هي الأنس إذا استوحشت	نفسى من الأقرب والأبعد
وروضة كان بها مرتعى	ومنهلاً كان بها موردى
كانت يدي كان بها قوتي	فاخست الدهر يدي من يدي

وللمتوكل فى قينة:

أما زحها فتغضب ثم ترضى فكل فمالها حسن جميل
فإن غضبت فأحسن ذى دلال وإن رضيت فليس لها عديل

وحدث أبو عبد الله بن عبد البر قال: حدثنى إسحاق بن إبراهيم عن الهيثم بن عدى قال: كان فى المدينة رجل من بنى هاشم وكان له قيتان يقال لإحدهما رشا وللأخرى جوزر، وكان بالمدينة رجل مضحك لا يكاد يغيب عن مجلس المستظرفين، فأرسل الهاشمى إليه ذات يوم ليسخر به، فلما أتاه قال له: أصلحك الله إنك لفى لذتك ولا لذة لى قال: وما لذتك؟ قال: تحضر لى نبيذاً، فإنه لا يطيب لى عيش إلا به، فأمر الهاشمى بإحضار نبيذ وأمر أن يطرح فيه سكر العشر، فلما شربه المضحك تحرك عليه بطنه فتناوم الهاشمى وغمز جاريتيه عليه، فلما ضاق عليه الأمر واضطر إلى التبرز قال فى نفسه: ما أظن هاتين المغنيتين إلا يمانيتين وأهل اليمن يسمون الكنف بالمراحيض، فقال لهما: يا حبيبتى أين المرحاض؟ فقالت إحدهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا قال يقول غنيانى:

رحضت فوآدى فخليتنى أهيم من الحب فى كل وادى

فاندفعتا تغنيانه: فقال فى نفسه: واللّه ما أظنهما فهمتا عنى، وما أظنهما إلا مكيتين وأهل مكة يسمونها المخارج، فقال يا حبيبتى أين المخرج؟ فقالت إحدهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت يقول غنيانى:

خرجت لها من بطن مكة بعدما أقام المنادى بالعشى فأعتما

فاندفعتا تغنيانه، فقال فى نفسه لم يفهما عنى، وما أظنهما إلا شاميتين وأهل الشام يسمونها المذاهب، فقال: يا حبيبتى أين المذاهب؟ فقالت إحدهما لصاحبتها: ما يقول حبيبتنا؟ قالت يقول غنيانى:

ذهبت من الهجران فى كل مذهب ولم يك حقاً كل هذا التجنب

فغنتاه الصوت، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم لم يفهما عنى، وما أظن القبيحتين إلا مدنيتين، وأهل المدينة يسمونها بيت الخلاء، فقال: يا حبيبتى أين بيت الخلاء؟ فقالت إحدهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنيانى:

خلا على بقاء الأرض إذا ظنوا من بطن مكة واسترعىانى الحزن

قال فغنتاه، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون ما أظن الفاسقتين إلا بصريتين، وأهل البصرة يسمونها الحشوش، فقال: يا حبيبتى أين الحشوش؟ فقالت إحدهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنيانى:

أوحشونى وعز صبرى فيهم ما احتيالى وما يكون فعالى

قال: فاندفعتا تغنيانه فقال: ما أراهما إلا كوفيتين، وأهل الكوفة يسمونها الكنف، فقال لهما: يا حبيبتى أين الكنيف؟ فقالت إحدهما لصاحبتها: يعيش سيدنا ما رأيت أكثر اقتراحاً من هذا الرجل قالت: ما يقول: قالت: يسأل أن تغنى له:

تكنفى الهوى طفلاً فشيبنى وما اكتهلاً

فقال: واويلاه، واعظم مصيبتاه، هذا والهاشمى يتقطع ضحكاً فقال لهما: يا رانيتان إن لما تعلمانى به أنا أعلمكما ثم رفع ثيابه وسلح عليهما وعلى الفراش، فانتبه الهاشمى وقد غشى عليه من شدة الضحك، وقال: ويلك ما هذا تسلح على وطائى؟ فقال الرجل: حياة نفسى أعز على من وطائك، وقيل إنه لما قيل له: ويلك ما هذا؟ قال المضحك هذه الآيات:

تكنفنى الملاح واضـجـجـرونى على مـا بى بنىـات الزوانى
فلـمـا قل عن ذاك اصـطـبـبارى قـذفت به على وجـه الغـوانى

قال، فانبط الهاشمى ودفع إليه مالا ومضى إلى سبيله.
قال على بن الجهم: قلت لقينة:

هل تعلمين وراء الحب منزلة تدنى إليك فلان الحب أقصانى
قالت: تأتى من باب الذهب وأنشدت:

اجعل شفيـعك منقوشاً تقدـمه فلم يزل مـدنىـاً من ليس بالدانى

وكان أشعث يختلف إلى قينة بالمدينة، فجلس عندها يوماً يطارحها الغناء فلما أراد الخروج قال لها: ناولينى خاتمك أذكرك به قالت: إنه من ذهب، وأخاف أن تذهب، ولكن خذ هذا العود، فلعلك أن تعود، وناولته عوداً من الأرض وكان بعض القينات من الجمال والحسن بجانب ثم أصابتها علة فتغير حالها، فكانت تنشد:

ولى كـبد مقـروحة من يـبـيعـنى بهـا كـبـداً لـيـست بذات قـروح
أباها على الناس لا يشـتـرونها ومن يشـتـرى ذا علة بصـحـيح

وكان المعتصم يحب قينة من حظاياها فاتفق أنه خرج إلى مصر وتركها فذكرها فى بعض الطريق، فاشتاق إليها، فغلبه الوجد، فدعا مغنياً له وقال: ويحك قد ذكرت جاريتى فلانة بنت فلان، فأقلقنى الشوق إليها فعسى أن تغنينى شيئاً فى معنى ما ذكرته لك، فأطرق ملياً ثم غناه:

وددت من الشـوق المـبـرح أنـى أعـسار جناحـى طائر فـأطـير
فما لنـعيم لـيس فـيـه بشاـشة وما لسـرور لـيس فـيـه سـرور
وإن امـرؤ فى بلدة نصف قـلـبه ونصف باخـرى غـيـرها لصـبـور

والحكايات فى معنى ذلك كثيرة ولو أردت بسطها لاحتجت إلى مجلدات، ولكن ما قل وجل خير من كثير يمل، وفيما ذكرته كفاية، واللّه المستول أن يمدنى منه باللطف والعناية ونسأله التوفيق والهداية، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى ذكر العشق ومن بلى به والافتخار بالعفاف

وأخبار من مات بالعشق وما فى معنى ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: فى وصف العشق

قال الجاحظ: العشق اسم لما فضل عن المحبة كما أن السرف اسم لما جاوز الجود، وقال أعرابى: العشق خفى أن يرى وجلى أن يخفى فهو كامن ككمون النار فى الحجر إن قدحته أورى وإن تركته توارى، وقيل: أول العشق النظر وأول الحريق الشرر، وكان العشاق فيما مضى يشق الرجل برقع حبيبته، والمرأة تشق رداء حبيبها ويقولان: إنهما إذا لم يفعلا ذلك عرض البغض بينهما، وقال عبد بن الحسحاس:

وكم قد شققنا من رداء محبـر ومن برقع عن طفلة غير عانس
إذا شقَّ برد شقَّ بالبـرد برقع من الحب حتى كلنا غير لابس

وقيل لأعرابى: ما بلغ من حبك لفلانة؟ قال: إني لأذكرها وبينى وبينها عقبة الطائف، فأجد من ذكرها رائحة المسك، وقيل: رأى شبيب أخو بئنة جميلاً عندها، فوثب عليه وآذاه، ثم إن شبيباً أتى مكة وجميل فيها، فقبل لجميل: دونك شبيباً، فخذ بئارك منه فقال:

وقالوا يا جميل أتى أخوها فقلت أتى الحبيب أخو الحبيب

وأشد الأخفش الحداد يقول:

مطارق الشوق منها فى الحشى أثر يطرقن سندان قلب حشوه الفكر
ونار كور الهوى فى الجسم موقدة ومبرد الحب لا يبقى ولا يذر

وفى «الجليس الأنيس» لأبى العالية الشامى قال: سأل أمير المؤمنين المأمون يحيى بن أكثم عن العشق ما هو؟ فقال: هو سوانح تسنح للمرء، فيهييم بها قلبه وتؤثرها نفسه، وقال ثمامة: العشق جليس ممتع، وأليف مؤنس وصاحب ملك مسالكة ضيقة ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائزة ملك الأبدان وأرواحها والقلوب وخواطرها والعيون ونواظرها، والعقول وآراءها وأعطى عنان طاعتها وقوة تصريفها توارى عن الأبصار مدخله، وخفى فى القلوب مسلكه، وكان شيخ بخراسان له أدب وحسن معرفة بالأمور قال لسليمان بن عمرو ومن معه: أنتم أدباء، وقد سمعتم الحكمة ولكم حذاء ونغم، فهل فيكم عاشق؟ قالوا: لا. قال: اعشقوا، فإن العشق يطلق اللسان، ويفتح جبلة البليد، والبخيل، ويبعث على التلطف وتحسين اللباس وتطيب المطعم، ويدعو إلى الحركة والذكاء، وتشريف الهمة وقال المجنون:

قالت جنتت على ذكرى فقلت لها الحب أعظم مما بالمجانين
الحب ليس يفيق الدهر صاحبـه وإنما يصـرع المجنون فى الحين

قال ذو الرياستين: إن بهرام جور كان له ابن وكان قد رشحه للأمر من بعده، فنشأ الفتى ناقص الهمة ساقط المروءة خامل النفس مسمى الأدب، فغمه ذلك، فوكل به من المؤدبين والمنجمين والحكماء من يلازمه ويعلمه وكان يسألهم عنه، فيحكون له ما يغمه من سوء فهمه وقلة أدبه إلى أن سأل بعض مؤدبيه يوماً، فقال له المؤدب: قد كنا نخاف سوء أدبه فحدث من أمره ما صيرنا إلى الرجاء فى فلاحه، قال: وما ذاك الذى حدث؟ قال: رأى ابنة فلان المربان، فعشقتها،

فغلبت عليه، فهو لا يهدأ إلا بها ولا يتشاغل إلا بها، فقال بهرام: الآن رجوت فلاحه، ثم دعا بأبى الجاريد فقال له: إنى مسر إليك سرّاً، فلا يعدوك، فضمن له ستره، فأعلمه أن ابنه قد عشق ابنته، وأنه يريد أن ينكحها إياه، وأمره أن يأمرها بإطماعه فى نفسها ومراسلته من غير أن يراها، وتقع عينه عليها، فإذا استحکم طمعه فيها تجتنبه وتهجره، فإن استعلمها علمته أنها لا تصلح إلا للملك، ثم لتعلمنى خبرها وخبره، ولا تطلعهما على ما أسره إليك، فتبل أبوها ذلك منه، ثم قال للمؤدب، والموكل بأدبه: حضه وشجعه على مراسلة المرأة، ففعل ذلك، وفعلت المرأة كما أمرها أبوها فلما انتهت إلى التجنى عليه، وعلم الفتى السبب الذى كرهته لأجله أخذ فى الأدب وطلب الحكمة والعلم والفروسية والرماية وضرب الصولجان حتى مهر فى ذلك، ثم رفع إلى أبيه أنه محتاج إلى الدواب والآلات والمطاعم والملابس والندماء، وما أشبه ذلك، فسر الملك بذلك، وأمر له بما طلب، ثم دعا مؤدبه، فقال له: إن الموضع الذى وضع به ابنى نفسه من خبر هذه المرأة لا يدري به، فتقدم إليه وأمره أن يدفع أمرها إلى ويسألنى أن أزوجه إياها، ففعل المؤدب ذلك، فرفع الفتى ذلك لأبيه، فدعا بأبيها وزوجه إياها، وأمر بتعجيلها إليه، وقال: إذا اجتمعت أنت وهى فلا تحدث شيئاً حتى أصير إليك، فلما اجتمعا صار إليه، فقال: يا بنى لا يضمن قدرها عندك مراسلتها إياك، وليست فى خباثك فإنى أمرتها بذلك وهى أعظم الناس منة عليك بما دعتك إليه من طلب الحكمة والتخلق بأخلاق الملوك حتى بلغت الحد الذى تصلح معه للملك من بعدى فزدها من التشريف والإكرام بقدر ما تستحق منك، ففعل الفتى وعاش مسروراً بالجارية، وعاش أبوه مسروراً به وأحسن ثواب أبيها، ورفع منزله لصيانة سره، وأحسن جائزة المؤدب لامثال ما أمره به.

وكان عبد الله بن عبيدة الريحانى يهوى جارية، فزارته يوماً، فأقام يحدثها ويشكو إليها ألم الفراق، فحان وقت الظهر، فناداه إنسان الصلاة يا أبا الحسن، فقال: رويدك حتى تزول الشمس أى حتى تقوم الجارية، وقالت ليلى العامرية فى قيسها:

لم يكن المجنون فى حـالة
لكنه باح بسـر الهـوى
إلا وقد كنت كـما كانا
وإننى قد ذبت كـتـمـانا

وقال أحمد بن عثمان الكاتب:

وإنى ليرضىنى المر بـبابها
وأقنع منها بالشـتـيمة والزجر

وقال الفتح بن خاقان صاحب المتوكل:

أيها العاشق المعذب صـبراً
زفـرة فى الهـوى أحط لذنب
فخطايا أخى الهـوى مغفـورة
من غـزاة وحـجة مـبرورة

وقال عمر بن أبى ربيعة: كنت بين امرأتين هذه تساررنى وهذه تعضنى فما شعرت بعضة هذه من لذة هذه، وأنشد شيبان العذرى يقول:

لو حـز بالسيف رأسى فى محبتـها
لطار يهوى سـريعاً نحوها رأسى

وقال يحيى بن معاذ الرازى: لو أمرنى الله أن أقسم العذاب بين الخلق ما قسمت للعاشقين عذاباً.

الفصل الثاني من هذا الباب: فيمن عشق وعف والافتخار بالعفاف

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «من عشق فجع، فمات، فهو شهيد»^(١)، وقال ﷺ: «عفوا نعف نساؤكم»^(٢). وقال بعضهم: رأيت امرأة مستقبله البيت فى غاية الضعف والنحافة رافعة يديها تدعو، فقلت لها: هل من حاجة؟ فقالت: حاجتى أن تنادى فى الموقف بقولى:

تَزُودُ كُلَّ النَّاسِ زَادًا يَـقْـمِيهِمْ وَمِثَالِي زَادَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ نَفْسِي

فناديت كما أمرتني، وإذا بفتى نحيل الجسم قد أقبل إليّ، فقال: أنا الزاد، فمضيت به إليها، فلما زاد على النظر والبكاء، ثم قالت له: انصرف بسلام، فقلت: ما علمت أن لقاءكما يقتصر على هذا، فقالت: امسك يا هذا. أما علمت أن ركوب العار ودخول النار شديد؟ قال إبراهيم بن محمد المهلبى:

كما قد ظفرت بمن أهوى فيمنعني
وكم خلوت بمن أهوى فبـقـنـعـني
أهوى الملاح وأهوى أن أجـالـسـهم
كذلك الحب لا إتيان معصية

وقال بعض بني كلب:

وَالَّذِي يَمْلِكُ الْفُؤَادَ عَفِيفٌ

ونحو ذلك قول القائل:

فَقَالَتْ بِحَقِّ اللَّهِ لَا أَتَيْتُنَا
فَجِئْتُ وَمَا فِي الْقَوْمِ يَفْظَانُ غَيْرَهَا
فَسَجِسْنَا بِلَيْلٍ طَيِّبٍ نَسْتَلِذُهُ
إِذَا كَانَ لَوْنُ اللَّيْلِ شَبِيهَ الطِّيَّالِ
وَقَدْ نَامَ عَنْهَا كُلُّ وَاشٍ وَحَارَسَ
جَمِيعاً وَلَمْ أَقْلِبْ لَهَا كَفَّ لَامِسَ

ونزل رجل على صديق له مستتراً خائفاً من عدو له، فأنزله في منزله وتركه فيه، وسافر لبعض حوائجه، وقال لامرأته: أوصيك بصيفي هذا خيراً، فلما عاد بعد شهر قال لها: كيف صيفنا؟ قالت: ما أشغله بالعمى عن كل شيء، وكان الصيف قد أطبق عينيه، فلم ينظر إلى امرأة صاحبه ولا إلى منزله إلى أن عاد من سفره. وكان عمر بن أبي ربيعة عفيفاً يصف ويعف ويحوم ولا يرد. ودخلت بثينة على عبد الملك بن مروان، فقال لها: يا بثينة ما أرى فيك شيئاً مما كان يقوله جميل، فقالت: يا أمير المؤمنين إنه كان يرنو إلى بعينين ليستا في رأسك، قال: فكيف رأيته في عشقه؟ قالت: كان كما قال الشاعر:

لا والذي تسجد الجبابه له
ولا بفقيهها ولا ميمت بها
مالي بما تحت ذيلها خبير
مما كان إلا الحديث والنظر

وقد قدمت هذين البيتين في الجزء الأول، فيما جاء في الكتابة على سبيل الرمز. وعن أبي سهل الساعدي قال: دخلت على جميل وبوجهه آثار الموت، فقال لي: يا أبا سهل إن رجلاً يلقي الله ولم ينفك دماً، ولم يشرب خمرًا،

(١) ذكره ملا علي القاري في «الأسرار المرفوعة في الأحاديث الموضوعة» صفحة (٣٣٨) الحديث رقم (٥٠٨).

(٢) ذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/٦٠٣).

أما الحرام فالحمām^(١) دونه
فكيف بالأمر الذي تبغينه
وقال آخر:

والحل لا نابى ونستدينه
يحمى الكريم عرضـه ودينه

وذى حاجة قلنا له لا تبح بها
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه
وقال ابن ميادة:

حور حرائر ما هممن بريبة
يحسن من لين الكلام فواسقاً
وكان الأصمعي يستحسن بيتي العباس بن الأحنف :

واختفى إبراهيم بن المهدي في هربه من المأمون عند عمته زينب بنت أبي جعفر، فوكلت بخدمته جارية لها اسمها ملك، وكانت واحدة زمانها في الحسن والأدب، طلبت منها بخمسمائة ألف درهم، فهويها إبراهيم، وكره أن يراودها عن نفسها، فغنى يوماً وهي قائمة على رأسه:

(١) الحمام : الموت.

(٢) الخنى: الفحش.

ففهمت الجارية ما أراد، فحككت ذلك لمولاتها فقالت: اذهبي إليه، فاعلميه أنى وهبتك له، فعادت إليه، فلما رآها أعاد البيتين، فأكبت عليه، فقال لها: كفى، فلست بخائن، فقالت: قد وهبتى لك مولاتى وأنا الرسول، فقال: أما الآن فنعم، وأنشد المبرد:

ما إن دعانى الهوى لفاحشة إلا نهانى الحياء والكرم
فلا إلى فاحش مددت يدي ولا مشيت بى لزلة قدم

وقال آخر:

يقولون لا تنظر فذاك بليّة بلى كل ذى عيينين لابد ناظر
وهل باكتحال العين بالعين ربيّة إذا عف فيمما بينهن السرائر

وكان بعض الخلفاء قد نذر على نفسه أن لا ينشد شعراً، ومتى أنشد بيت شعر فعليه عتق رقبة. قال: فبينما هو فى الطواف يوماً إذا نظر إلى شاب يتحدث مع شابة جميلة الوجه، فقال له: يا هذا اتق الله أفى مثل هذا المكان؟ فقال: يا أمير المؤمنين والله ما ذاك لحنى، ولكنها ابنة عمى وأعز الناس على وإن أباهما منعنى من تزوجها لفقرى وفاقتى، وطلب منى مائة ناقة، ومائة أوقية من الذهب، ولم أقدر على ذلك. قال: فطلب الخليفة أباهما، ودفع إليه ما اشترطه على ابن أخيه، ولم يقم من مقامه حتى عقد له عليها، ثم دخل الخليفة إلى بيته وهو يترنم ببيت من الشعر، فقالت له جارية من حظاياه: أراك اليوم يا مولاي تنشد الشعر، أفنسيّت ما نذرت أم نراك قد هويت، فأنشد هذه الأبيات يقول:

تقول وليدتى لما رأتنى طربت وكنت قد أسليت حيناً
أراك اليوم قد أحدثت عهداً وأورثك الهوى داءً دفينا
بحقك هل سمعت لها حديثاً فشاقك أو رأيت لها جبيناً
فقلت شكاً إلى أخ محب كم مثل زماننا إذ تعلمينا
وذو الشجى القديم وإن تعزى محب حين يلقي العاشقينا

ثم عد الأبيات فإذا هى خمسة أبيات، فأعتق خمس رقاب، ثم قال: لله درك من خمسة أعتقت خمسة، وجمعت بين رأسين فى الحلال. وروى عن عثمان الضحاك قال: خرجت أريد الحج فتزلت بخيمة بالأبواء فإذا بجارية جالسة على باب الخيمة، فأعجبني حسنهما فتمثلت بقول نصيب:

بزينب ألم قبل أن يرحل الركب وقل لا تعلمينا فمما ملك القلب

فقالت: يا هذا أتعرف قائل هذا البيت؟ قلت: بلى هو نصيب، فقالت: أتعرف زينبه؟ قلت: لا. قالت: أنا زينبه. قلت: حياك الله وحباك. قالت: أما والله إن اليوم موعده، وعدنى العام الأول بالاجتماع فى هذا اليوم، فلعلك أن لا تبرح حتى تراه. قال: فبينما هى تكلمنى إذا أنا براكب قالت: ترى ذلك الراكب؟ قلت: نعم. قالت: إنى لأحسبه إياه، فأقبل فإذا هو نصيب، فتزل قريباً من الخيمة، ثم أقبل فسلم، ثم جلس قريباً منها، فسأله أن ينشدها، فأنشدها، فقلت فى نفسى محبان قد طال التناهى بينهما، فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة، فقممت إلى بعيرى لأشد عليه، فقال: على رسلك إنى معك، فجلست حتى نهض معى فسرنا وتسامرنا، فقال لى: أقلت فى نفسك محبان التقيا بعد طول تناء فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة؟ قلت: نعم قد كان ذلك. قال: ورب البيت منذ أحببتها ما

جلست منها مجلساً هو أقرب من مجلسي هذا، فتعجبت لذلك، وقلت: والله هذه هي العفة في المحبة.

وعن محمد بن يحيى المدني قال: سمعت بعض المدنيين يقول: كان الرجل إذا أحب الفتاة يطوف حول دارها حولاً يفرح أن يرى من يراها، فإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار، واليوم هو يشير إليها، وتشير إليه ويعدها وتعهده، فإن التقيا لم يتشاكيا حباً ولم يتناشدا شعراً بل يقوم إليها، ويجلس بين شعبتيها كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة، وقال الأصمعي قلت لأعرابية: ما تعدون العشق فيكم؟ قالت: الضمة والغمزة والقبلة، ثم أنشأت تقول:

مما الحب إلا قبلة وغممـز كـف وعـضـد
مما الحب إلا هكذا إن نكح الحب فـمـد

ثم قالت: كيف تعدون أنتم العشق؟ قلت: نمسك بقرنيها ونفرك بين رجليها. قالت: لست بعاشق أنت طالب ولد، ثم أنشأت تقول:

قد فسد العشق وهان الهوى وصار من يعشق مستعجلاً
يريد أن ينكح أحبابه من قبل أن يشهد أو ينحلاً

وقيل لرجل: وقد زفت عشيقته على ابن عم لها: أيسرك أن تظفر بها الليلة؟ قال: نعم والذي أمتعني بحبها وأشقاني بطلبها. قيل: فما كنت صانعاً بها قال: كنت أطيع الحب في لثمها وأعصى الشيطان في إثمها، ولا أفسد عشق عشرين سنة بما يبقى ذميم عاره، وينشر قبيح أخباره إنى إذن للنيم لم يلدني كريم.

ومر سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه في ليلة في بعض سكك المدينة، فسمع امرأة تقول:

ألا طال هذا الليل وازور جانبـه وليس إلى جنبى خليل الأعـبـه
فوالله لولا الله تخشى عواقبـه لحرك من هذا السرير جوانبـه
مخافة ربي والحياء يعفنى وإكرام بعلى أن تنال مراتبـه

قال: فسأل عمر رضي الله تعالى عنه عنها، فقيل له: إنها امرأة فلان، وله في الغزاة ثمانية أشهر، فأمر عمر رضي الله تعالى عنه أن لا يغيب الرجل عن امرأته أكثر من أربعة أشهر.

ومن ذلك ما ذكره ابن الجوزي في كتاب (تلقيح فهم الأثر) عن محمد بن عثمان بن أبي خيثمة السلمى عن أبيه عن جده قال: بينما عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يطوف ذات ليلة في سكك المدينة إذا سمع امرأة تقول:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أم من سبيل إلى نصر بن حجاج
إلى فتى ماجد الأعراق مقتبل سهل المحيا كريم غير ملجج
تيممه أعراق صدق حين تنسبه أخى وفاء عن المكروب فـراج

فقال عمر رضي الله تعالى عنه: لا أرى معي بالمدينة رجلاً تهتف به العواتق في خدورهن. على بنصر بن حجاج، فلما أصبح أتى بنصر بن حجاج فإذا هو من أحسن الناس وجهاً وأحسنهم شعراً، فقال عمر: عزيمة من أمير المؤمنين لناخذ من شعرك، فأخذ من شعره، فخرج من عنده وله وجنتان كأنهما شقتا قمر، فقال له: اعتم فاعتم، فافتن الناس بعينه، فقال له عمر: والله لا تساكنتي في بلدة أنا فيها، فقال يا أمير المؤمنين: ما ذنبي؟ قال: هو ما أقول لك،

ثم سيره إلى البصرة، وخشيت المرأة التي سمع منها عمر ما سمع أن يبدر من عمر إليها شيء فдست إليه المرأة أبياتاً وهي:

قل للإمام الذى تخشى بواده
لا تجعل الظن حقاً أن تبينه
مالى وللخمر أو نصر بن حجاج
إن السبيل سبيل الخائف الراجى
إن الهوى زم بالتقوى فتحبسه
حتى يقرر بإلجام وإسراج

قال. فبكى عمر رضى الله تعالى عنه وقال: الحمد لله الذى زم الهوى بالتقوى قال: وطال مكث نصر بن حجاج بالبصرة، فخرجت أمه يوماً بين الأذان والإقامة متعرضة لعمر فإذا هو قد خرج فى إزار ورداء ويده الدرة، فقالت له: يا أمير المؤمنين والله لأقفن أنا وأنت بين يدي الله تعالى، وليحاسبك الله أيبتن عبد الله وعاصم إلى جنبيك، وبينى وبين ابنى القيافى، والأودية، فقال لها: إن ابنى لم تهتف بهما العواتق فى خدورهن، ثم أرسل عمر إلى البصرة بريدأ إلى عتبة بن غزوان فأقام أياماً ثم نادى عتبة: من أراد أن يكتب إلى أمير المؤمنين، فليكتب، فإن البريد خارج، فكتب نصر ابن حجاج: بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليك يا أمير المؤمنين أما بعد، فاسمع منى هذه الأبيات:

لعمري لئن سيرتني أو حرمتني
فأصبحت منفياً على غير ريبة
وما نلت من عرضي عليك حرام
وقد كان لى بالمكتين مقام
لئن غبت الذلفاء يوماً بمنية
ظننت بى الظن الذى ليس بعده
وبعض أماني النساء غرام
ببقاء ومالى جرمة فالام
وأبى صدق سالفون كرام
وحنال لها فى قومها وصيام
فقد جب منى كاهل وسنام
فيمنعها مما تقول صلاتها
فهاتان حالان فهل أنت راجعى

قال: فلما قرأ عمر رضى الله تعالى عنه هذه الأبيات قال: أما ولى السلطان، فلا وأقطعه دارأ بالبصرة فى سوقها، فلما مات عمر ركب راحلته وتوجه نحو المدينة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل الثالث من هذا الباب: فى ذكر من مات بالحب والعشق

حدث أبو القاسم بن إسماعيل بن عبد الله المأمون قال: حدثنى أبى قال: كان بالمدينة قينة من أحسن الناس وجهأ وأكملهم عقلاً وأكثرهم أدبأ قد قرأت القرآن وروت الأشعار وتعلمت العربية فووقت عند يزيد بن عبد الملك فأخذت بمجامع قلبه فقال لها ذات يوم: ويحك أما لك قرابة أو أحد تحين أن أضيفه وأسدى إليه معروفأ؟ قالت: يا أمير المؤمنين أما قرابة فلا ولكن بالمدينة ثلاثة نفر كانوا أصدقاء لمولأى وأحب أن ينالهم خير مما صرت إليه فكتب إلى عامله بالمدينة فى إحضارهم إليه وأن يدفع إلى كل واحد منهم عشرة آلاف درهم، فلما وصلوا إلى باب يزيد استؤذن لهم فى الدخول عليه فأذن لهم وأكرمهم غاية الإكرام وسألهم عن حوائجهم فأما اثنان منهم فذكرا حوائجهما فقضاها، وأما الثالث فسأله عن حاجته فقال: يا أمير المؤمنين ما لى حاجة، قال: ويحك أولست أقدر على حوائجك؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين ولكن حاجتى ما أظنك تقضيها فقال: ويحك فاسألنى فإنك لا تسألنى حاجة أقدر عليها إلا قضيتها، قال: فلى الأمان يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، قال: إن رأيت يا أمير المؤمنين أن تأمر جاريتك فلانة التى أكرمتنا بسببها تغنى ثلاثة أصوات أشرب عليها ثلاثة أرطال فافعل، قال: فتغير وجه يزيد ثم قام من مجلسه فدخل على الجارية فأعلمها فقالت: وما

عليك يا أمير المؤمنين فأمر بالفتى فأحضر وأمر بثلاثة كراسى من ذهب فنصبت فقع يزد على أحدها والجارية على الآخر والفتى على الثالث ثم دعا بصنوف الرياحين والطيب فوضعت ثم أمر بثلاثة أرتال فملئت ثم قال للفتى سل حاجتك فقال: تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغنى بهذا الشعر:

لا أستطيع سلواً عن مودتها أو يصنع الحب بى فوق الذى صنعها
أدعو إلى هجرها قلبى فيسمعنى حتى إذا قلت هذا صادق نزعها

فأمرها فغنت وشرب يزد وشرب الفتى وشربت الجارية ثم أمر بالأرتال فملئت وقال للفتى سل حاجتك فقال: مرها يا أمير المؤمنين أن تغنى بهذا الشعر:

تخيرت من نعمان عود أراكه لهند ولكن من يبلغه هنداً
ألا عرجا بى بارك الله فيكما وإن لم تكن هند لأرضكما قصداً

فأمرها فغنت وشرب يزد وشرب الفتى وشربت الجارية ثم أمر بالأرتال فملئت ثم قال للفتى: سل حاجتك؟ قال: تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغنى بهذا الشعر:

منى الوصال ومنكم الهجر حنى يفرق بيننا الدهر
والله لا أسلوكم أبداً ما لاح بدراً وبدا فجر

فأمرها فغنت قال: فلم تتم الأبيات حتى خر الفتى مغشياً عليه فقال يزد للجارية: قومى انظرى ما حاله فقامت إليه فحركته فإذا هو ميت، فقال لها يزد: ابكيه، فقالت: لا أبكيه يا أمير المؤمنين وأنت حى فقال لها: ابكيه فوالله لو عاش ما انصرف إلا بك فبكت الجارية وبكى أمير المؤمنين وأمر بالفتى فجهز ودفن، وأما الجارية فلم تمكث بعده إلا أياماً قلائل وماتت.

وحكى عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه قدم على عبد الملك بن مروان فجلس ذات ليلة يسامره فتذاكر الغناء والجوارى المغنيات والعشق فقال عبد الملك لعبد الله: حدثنى بأمر ما مر لك فى هذه الأغاني وما رأيت من الجوارى؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين اشتريت جارية مولدة بعشرة آلاف درهم وكانت حاذقة مطبوعة فوصفت ليزيد بن معاوية فكتب إلى فى شأنها فكتبت إليه: والله لا تخرج منى ببيع ولا هبة فأمسك عنى فكانت عندى على تلك الحالة لا أزداد فيها إلا حباً، فبينما أنا ذات ليلة إذ أتتنى عجوز من عجائزنا فذكرت لى أن بعض أعراب المدينة يحبها وتحبه ويراه وتراه وأنه يجيء كل ليلة متنكراً فيقف بالباب فيسمع غناها ويبكى شغفاً وحباً، فراعيت ذلك الوقت الذى قالت عليه العجوز فإذا به قد أقبل مقنعاً رأسه وقعد مستخفياً فلم أذع لها فى تلك الليلة وجعلت أتأمل موضعها وموضعها فإذا بها تكلمه ويكلمها ولم أر بينهما إلا عتياً ولم يزا كذلك حتى ابيض الصبح فدعوت بها وقلت لقيمة الجوارى: أصلحى فلانة بما يمكنك فأصلحتها وزيتها، فلما جاءت بها قبضت على يديها وفتحت الباب وخرجت فجئت إلى الفتى فحركته فانتبه مذعوراً فقلت: لا بأس عليك ولا خوف منى إليك، فدهش الفتى ولم يجبنى فدنوت إلى أذنه وقلت: قد أظفرك الله تعالى ببيغيتك فقم وانصرف بها إلى منزلك فلم يرد جواباً فحركته فإذا هو ميت فلم أر شيئاً قط كان أعجب من أمره قال عبد الملك: لقد حدثتنى بعجب فما صنعت الجارية قلت: ماتت والله بعده بأيام بعد نحول عظيم وتعليل وماتت كمدأ ووجدأ على الغلام. وقيل: إن عبد الله بن عجلان الهندى رأى أثر كف عشيقته فى ثوب زوجها فمات.

وذكر محمد بن واسع الهيثى أن عبد الملك بن مروان بعث كتاباً إلى الحجاج بن يوسف الشقى يقول فيه: بسم الله

الرحمن الرحيم من عند عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف، أما بعد... إذا ورد عليك كتابي هذا وقرأته فسير لى ثلاث جوار مولدات أبكراً يكون إليهن المنتهى فى الجمال واكتب لى بصفة كل جارية منهن ومبلغ ثمنها من المال فلما ورد الكتاب على الحجاج دعا بالنخاسين، وأمرهم بما أمره به أمير المؤمنين وأمرهم أن يسيروا إلى أقصى البلاد حتى يقعوا بالغرض وأعطاهم المال وكتب لهم كتباً إلى كل الجهات فساروا يطلبون ما أراد أمير المؤمنين فلم يزالوا من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم حتى وقعوا بالغرض ورجعوا إلى الحجاج بثلاث جوار مولدات ليس لهن مثيل قال: وكان الحجاج فصيحاً فجعل ينظر إلى كل واحدة منهن ومبلغ ثمنها فوجدهن لا يقام لهن بقيمة وأن ثمنهن ثمن واحدة منهن ثم كتب كتاباً إلى عبد الملك بن مروان يقول فيه بعد الثناء الجميل وصلنى كتاب أمير المؤمنين أمتعننى الله تعالى ببقائه يذكر فيه أنى أشتري له ثلاث جوار مولدات أبكراً وأن أكتب له صفة كل واحدة منهن وثننها فأما الجارية الأولى أطل الله تعالى بقاء أمير المؤمنين: فإتتها جارية عطاء السوالف عظيمة الروادف كحلاء العينين حمراء الوجنتين قد أنهدت نهداها والتفت فخذها كأنها ذهب شيب بفضة وهى كما قيل:

بيضاء فيها إذا استقبلها دعج كأنها فضة قد شابها ذهب

وثننها يا أمير المؤمنين ثلاثون ألف درهم، وأما الثانية: فإنها جارية فائقة فى الجمال، معتدلة القد والكمال، تشفى السقيم بكلامها الرخيم، وثننها يا أمير المؤمنين ستون ألف درهم، وأما الثالثة: فإنها جارية فائقة الطرف لطيفة الكف عميمة الردف شاكرة للقليل، مساعدة للخليل، بديعة الجمال كأنها خشف الغزال، وثننها يا أمير المؤمنين ثمانون ألف درهم ثم أطلب فى الشكر والثناء على أمير المؤمنين وطوى الكتاب وختمه ودعا النخاسين فقال لهم: تجهزوا للسفر بهؤلاء الجوارى إلى أمير المؤمنين فقال أحد النخاسين: أيد الله الأمير إنى رجل كبير ضعيف عن السفر ولى ولد ينوب عنى أفأذن لى فى ذلك؟ قال: نعم، فتجهزوا وخرجوا ففى بعض مسيرهم نزلوا يوماً ليستريحوا فى بعض الأماكن فنامت الجوارى فهبت الريح فانكشف بطن إحداهن وهى الكوفية فبان نور ساطع وكان اسمها مكتوم فنظر إليها ابن النخاس وكان شاباً جميلاً ففتن بها لساعته فأتاها على غفلة من أصحابه وجعل يقول:

أمكتوم عـيـنـى لا تمـل من البكا
وقلـبـى بإسـهـام الأسى يتـشـرق
أمكتوم كم من عاشق قتل الهوى
وقلـبـى رهين كـيـف لا أتـعـشق

فأجابته تقول:

لو كان حقاً ما تقول لزرتنا ليلاً إذا هجعت عيون الحسد

قال: فلما جن الليل انتضى الفتى ابن النخاس سيفه وأتى نحو الجارية فوجدتها قائمة تنتظر قدومه فأخذها وأراد أن يهرب بها ففطن به أصحابه فأخذوه وكتفوه وأوثقوه بالحديد ولم يزل مأسوراً معهم إلى أن قدموا على عبد الملك بن مروان فلما مثلوا بالجوارى بين يديه أخذ الكتاب ففتحه وقرأه فوجد الصفة وافقت اثنتين من الجوارى ولم توافق الثالثة ورأى فى وجهها صفرة وهى الجارية الكوفية فقال للنخاسين: ما بال هذه الجارية لم توافق حليتها التى ذكرها الحجاج فى كتابه وما هذا الاصفرار الذى بها والانتحال فقالوا: يا أمير المؤمنين نقول ولنا الأمان، قال: وإن كذبتن هلكنم فخرج أحد النخاسين وأتى بالفتى وهو مصفد بالحديد فلما قدموه بين يدى أمير المؤمنين بكى بكاء شديداً وأيقن بالعذاب ثم أنشأ يقول:

أمير المؤمنين أتيت رغماً
وقد شـدـت إلى عنقـى يديا
مقراً بالقبيح وسوء فعلى
ولست بما رـمـيت به برياً
فإن تـقتـل فـفـوق القـتل ذنبى
وإن تعـفـو فـمـن جـود عليا

فقال عبد الملك: يا فتى ما حملك على ما صنعت، أستخفاف بنا أم هوى الجارية، قال: وحق رأسك يا أمير المؤمنين وعظم قدرك ما هو إلا هوى الجارية فقال: هي لك بما أعدته لها فأخذها الغلام بكل ما أعده لها أمير المؤمنين من الحلوى والحلل وسار بها فرحاً مسروراً إلى نحو أهله حتى إذا كان ببعض الطريق نزلاً بمرحلة ليلاً فتعانقا وناما فلما أصبح الصباح وأراد الناس السير نبهوهم فوجدوهم ميتين فبكوا عليهما ودفنوهما بالطريق ووصل خبرهما إلى عبد الملك فبكى عليهما وتعجب من ذلك.

ومن ذلك ما روى عن النبي ﷺ أنه أخرج خالد بن الوليد المخزومي رضى الله تعالى عنه إلى مشركى خزاعة قال خالد: فأخرجنى إليهم رسول الله ﷺ فى عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والبأس قال: فجد بنا المسير إليهم فسبق إليهم الخبر فخرجوا إلينا فقاتلناهم قتالاً شديداً حتى تعالى النهار وطار الشرار وهاجت الفرسان وتلاحمت الأقران فلولا الله تعالى أيدنا بنصره لكادت الدائرة أن تكون علينا ولكن تداركنا الله برحمته منه فهزمناهم وقتلناهم قتلاً ذريعاً ولم ندع لهم فارساً إلا قتلناه ثم طلبنا البيوت فنهبنا وسبينا فلما هدا القتال والنهب أمرت أصحابى بجمع السبايا لنقدم بهن على رسول الله ﷺ فلما خرجنا وأحصيناهم خرج منهم غلام لم يراهق الحلم ولم يجر عليه القلم وهو ماسك بشابة جميلة فقلنا له: يا غلام انعزل عن النساء فصاح صيحة مزعجة وهجم علينا فوالله لقد قتل منا فى بقية نهارنا مائة رجل، قال خالد: فرأيت أصحابى قد كرهوا قتاله وتأخروا عنه فملك منهم جواداً وعلا على ظهره ونادى البراز يا خالد قال: فبرزت إليه بنفسى بعد أن أنشدت شعراً فوالله لم يمهلىنى حتى أتم شعري بل حمل على فتطاعنا حتى تكسرت القنا ووتضاربنا بالسيوف حتى تقللت فوالله لقد اقتحمت الأهوال ومارست الأبطال فما رأيت أشد من حملاته ولا أسرع من هجماته فبينما نحن نعتك إذا كبا به فرسه فصار بين قوائمه فوئيت عليه وعلوت على صدره وقلت له: افد نفسك بقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأنا أردك من حيث جئت، قال: يا خالد ما أنصفتنى اتركنى حتى أجد من نفسى القوة، قال خالد: فتركته وقلت: لعله أن يسلم ثم شدته وثاقاً وصفدته بالحديد وأنا أبكى إشفاقاً على حسن شبابه ثم أوثقته على بعير لى فلما علم أن لا خلاص له قال: يا خالد سألتك بحق إلهك إلا ما شددت ابنة عمى على ناقة أخرى إلى جانبى؟ قال خالد: فأخذتها وشدتها على ناقة أخرى إلى جانبه ووكلت بهما جماعة من أشد القوم بالقواضب والرماح وسرنا، فلما استقامت مطاياهما جعل الغلام والجارية يتناشدان الأشعار ويكيان إلى آخر الليل فسمعت يذكر قصيدة يسب فيها الإسلام ويذكر أن لا يسلم أبداً فأخذت السيف وضربتة فرميت رأسه فصاحت الجارية وأكبت صارخة فحركتها فوجدتها ميتة فأبركنا الأباغر وحفرنا ودفناها فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أقبلنا نحدثه بعجيب ما رأينا مع الغلام فقال: لا تحدثونى شيئاً أنا أحدثكم به فقلنا: من أعلمك به يارسول الله ﷺ قال: أخبرنى جبريل عليه السلام وتعجب رسول الله ﷺ من موافقتهم وموافقة أجلهم.

ومن ذلك، ما حكاه الثورى، قال: حدثنى جبلة بن الأسود وما رأيت شيئاً أصبح ولا أوضح منه قال: خرجت فى طلب إبل لى ضلت، فما زلت فى طلبها إلى أن أظلم الغلام وخفيت الطريق فسرت أطوف وأطلب الجادة فلا أجدهما فبينما أنا كذلك إذ سمعت صوتاً حسناً بعيداً وبكاء شديداً فشجاني حتى كدت أسقط عن فرسى فقلت: لأطلبن الصوت ولو تلفت نفسى فما زلت أقرب إليه إلى أن هبطت وادياً فإذا راع قد ضم غنماً له إلى شجرة وهو ينشد ويترنم:

وكنـت إذا ما جئت سـعدى أزورها أرى الأرض تطوى لى ويدنو بـعـيـدها
من الخـفـرات البـيـض ود جـليـسها إذا ما انقضت أحـدوثـة لو تعـيـدها

قال، فدنوت منه وسلمت عليه فرد السلام وقال: من الرجل؟ فقلت: منقطع به الممالك أذاك يستجير بك ويستعينك، قال: مرحباً وأهلاً انزل على الرحب والسعة فعندى وطاء وطىء وطعام غير بطىء فتزلت فتزع شملته وبسطها تحتى ثم أتانى بتمر وزيد ولبن وخبز ثم قال: اعذرنى فى هذا الوقت فقلت: والله إن هذا لخير كثير فمال إلى فرسى فربطه وسقاه وعلفه فلما أكلت توضأت وصليت واتكأت فإنى لبين النائم واليقظان إذ سمعت حس شىء وإذا بجارية قد أقبلت من كبد الوادى فضحت الشمس حسناً فوثب قائماً إليها وما زال يقبل الأرض حتى وصل إليها وجعل

يتحادثان فقلت: هذا رجل عربى ولعلها حرمة له، فتناومت وما بى نوم فما زال فى أحسن حديث ولذة مع شكوى وزفرات إلا أنهما لا يهم أحدهما لصاحبه بقبیح فلما طلع الفجر عانقها وتنفسا الصعداء وبكى وبكت ثم قال لها: يا ابنة العم سألتك بالله لا تبطئى عنى كما أبطأت الليلة، قالت: يا ابن العم أما علمت أنى أنتظر الواشين والرقباء حتى يناموا ثم ودعته وسارت وكل واحد منهما يلتفت نحو الآخر ويبكى، فبكيت رحمة لهما وقلت فى نفسى: والله لا أنصرف حتى أستضيفه الليلة وأنظر ما يكون من أمرهما، فلما أصبحنا قلت له: جعلنى الله فداءك الأعمال بخواتيمها وقد نالنى أمس تعب شديد فأحب الراحة عندك اليوم، فقال: على الرحب والسعة لو أقمت عندى بقية عمرك ما وجدتنى إلا كما تحب ثم عمد إلى شاة فذبحها وقام إلى نار فأججها وشواها وقدمها إلى فأكلت وأكل معى إلا أنه أكل أكل من لا يريد الأكل، فلم أزل معه نهارى ذلك ولم أر أشفق منه على غنمه ولا ألين جانباً ولا أحلى كلاماً إلا أنه كالولهان ولم أعلمه بشيء مما رأيت فلما أقبل الليل وطأت وطائى فصليت وأعلمته أنى أريد الهجوع لما مر بى من التعب بالأمس، فقال لى: نم هنيهة، فأظهرت النوم ولم أتم فأقام ينتظرها إلى هنيهة من الليل فأبطأت عليه فلما حان وقت مجيئها قلق قلقاً شديداً وزاد عليه الأمر فبكى ثم جاء نحوى فحركنى فأوهمته أنى كنت نائماً فقال: يا أخى، هل رأيت الجارية التى كانت تتعهدنى وجاءتنى البارحة: قلت: قد رأيتها، قال: فتلك ابنة عمى وأعز الناس على وإنى لها محب ولها عاشق وهى أيضاً محبة لى أكثر من محبتى لها، وقد منعنى أبوها من تزويجها لى لفقرى وفاقتى وتكبر على فصرت راعياً بسببها فكانت تزورنى فى كل ليلة وقد حان وقتها الذى تأتى فيه واشتغل قلبى وتحديثى نفسى أن الأسد قد اقترسها، ثم أنشأ يقول:

ما بال مية لا تأتى كعادتها أعاقها طرب أم صدها شغل
نفسى فداؤك قد أحللت بى سقماً تكاد من حره الأعضاء تنفصل

قال: ثم انطلق عنى ساعة فغاب وأتى بشيء فطرحة بين يدى فإذا هى الجارية قد قتلها الأسد وأكل أعضائها وشوه خلقتها ثم أخذ السيف وانطلق فأبطأ هنيهة وأتى ومعه رأس الأسد فطرحة ثم أنشأ يقول:

ألا أيها الليث المدل بنفسه هلكت لقد جرئت حقاً لك الشرا
وخلفتنى فرداً وقد كنت آنساً وقد عادت الأيام من بعدها غبرا

ثم قال: بالله يا أخى إلا ما قبلت ما أقول لك فإننى أعلم أن المنية قد حضرت لا محالة فإذا أنا مت فخذ عبايتى هذه فكفنى فيها وضم هذا الجسد الذى بقى منها معى، وإفناً فى قبر واحد وخذ شويهاتى هذه وجعل يشير إليها فسوف تأتىك امرأة عجوز هى والدتى فاعطها عصاى هذه وثيابى وشويهاتى وقل لها مات ولدك كمدأ بالحب فإنها تموت عند ذلك فادفنها إلى جانب قبرنا وعلى الدنيا منى السلام، قال: فوالله ما كان إلا قليل حتى صاح ووضع يده على صدره ومات لساعته، فقلت: والله لأصنعن له ما أوصانى به فغسلته وكفنته فى عبايته وصليت عليه ودفنته ودفنت باقى جسدها إلى جانبه وبت تلك الليلة باكياً حزيناً فلما كان الصباح أقبلت امرأة عجوز وهى كالولهاة فقالت لى: هل رأيت شاباً يرعى غنماً فقلت لها: نعم، وجعلت أتلف بها ثم حدثتها بحديثه وما كان من خبره فأخذت تصيح وتبكي وأنا الأطفها إلى أن أقبل الليل وما زالت تبكى بحرقة إلى أن مضى من الليل برهة فقصدت نحوها فإذا هى مكبة على وجهها وليس لها نفس يصعد ولا جارحة تتحرك فحركتها فإذا هى ميتة فغسلتها وصليت عليها ودفنتها إلى جانب قبر ولدها وبت الليلة الرابعة فلما كان الفجر قمت فشددت فرسى وجمعت الغنم وسقتها فإذا أنا بصوت هاتف يقول:

كنا على ظهرها والدهر يجمعنا والشمل مسجتماع والدار والوطن
فمزق الدهر بالتفريق ألفتنا وصار يجمعنا فى بطنها الكفن

قال: فأخذت الغنم ومضيت إلى الحى لبنى عمهم فأعطيتهم الغنم وذكرت لهم القصة فبكى عليهم أهل الحى بكاءً شديداً ثم مضيت إلى أهلى وأنا متعجب مما رأيت فى طريقى.

ومن ذلك ما حكى أن زوج عزة أراد أن يحج بها فسمع كثير الخير فقال: واللّه لأحجن لعلى أفوز من عزة بنظرة، قال: فبينما الناس فى الطواف إذ نظر كثير لعزة وقد مضت إلى جملة فحيته ومسحت بين عينيه وقالت له: حييت يا جمل فبادر ليلحقها فقائه فوقف على الجمل وقال:

حيـتـك عـزـة بـعـد الحـج وانـصـرـفـت فـحـى وـيـحـك مـن حـيـاك يـا جـمـل
لو كـنت حـيـتـها ما كـنت ذا سـرف عـنـدى ولا مـسـك الإـدـلاج والعـمـل

قال: فسمعه الفرزدق فتبسم وقال له: من تكون يرحمك الله، قال: أنا كثير عزة فمن أنت يرحمك الله؟ قال: أنا الفرزدق بن غالب التميمي، قال: أنت القائل:

رحـلت جـمـالـهم بـكل أـسـيـلة تـركـت فـؤادى هـائـمـاً مـخـبـولـا
لو كـنت أـمـلـكـهم إذـاً لـم يـرحـلـوا حـتـى أودع قـلـبى المـتـبـولـا
سـاروا بـقـلـبى فى الحـدـوج و غـادـروا جـسـمى يـعـالـج زـفـرة وعـويـلا

فقال الفرزدق: نعم، فقال كثير: واللّه لولا أنى بالبيت الحرام لأصيحن صبيحة أفزع هشام بن عبد الملك وهو على سرير ملكه، فقال الفرزدق: واللّه لأعرفن بذلك هشاماً ثم توادعا وافترقا، فلما وصل الفرزدق إلى دمشق دخل إلى هشام بن عبد الملك فعرفه بما اتفق له مع كثير فقال له: اكتب إليه بالحضور عندنا لنطلق عزة من زوجها ونزوجه إياها، فكتب إليه بذلك فخرج كثير يريد دمشق فلما خرج من حيه وسار قليلاً رأى غراباً على بانه وهو يفلئ نفسه وريشه يتساقط فاصفر لونه وارتاع من ذلك، وجد فى السير ثم إنه مال ليسقى راحلته من حى بنى فهد وهم زجرة الطير، فبصر به شيخ من الحى فقال: يا ابن أخى أرايت فى طريقك شيئاً فراعك؟ قال: نعم، رأيت غراباً على بانه يتفلى ويتنف ريشه فقال له الشيخ: أما الغراب فإنه اغتراب والبانة بين والتفلى فرقة، فازداد كثير حزناً على حزنه لما سمع من الشيخ هذا الكلام وجد فى السير إلى أن وصل إلى دمشق ودخل من أحد أبوابها فرأى الناس يصلون على جنازة فنزل وصلى معهم، فلما قضيت الصلاة صاح صائح لا إله إلا الله ما أغفلك يا كثير عن هذا اليوم، فقال: ما هذا اليوم يا سيدى؟ فقال: إن هذه عزة قد ماتت وهذه جنازتها فخر مغشياً عليه، فلما أفاق أنشأ يقول:

فـما أعـرف الفـهـدى لا در دره وأزجره للطير لا عز ناصره
رأيت غراباً قد علا فوق بانه ينتف أعلى ريشه ويطايره
فقال غراب واغتراب من النوى وبانه بين من حبيب تعاشره

ثم شهق شهقة فارقت روحه الدنيا ومات من ساعته ودفن مع عزة فى يوم واحد.

وحكى الأصمعى: قال: بينما أنا أسير فى البادية إذ مررت بحجر مكتوب عليه هذا البيت:

أيا معشر العشاق بالله خبروا إذا حل عشق بالفتى كيف يصنع

فكتبت تحته :

يدارى هواء ثم يكتم سره ويخشع فى كل الامور ويخضم

ثم عدت فى اليوم الثانى فوجدت مكتوباً تحته :

فكيف يدرى والهوى قاتل الفتى وفى كل يوم قلبه يتقطع

فكتبت تحته :

إذا لم يجد صبراً لكتمان سره فليس له شئ سوى الموت أنفع

ثم عدت فى اليوم الثالث فوجدت شاباً ملقى تحت ذلك الحجر ميتاً لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وقد كتب قبل موته :

سمعنا أطلعنا ثم متنا فبلغوا سلامى على من كان للوصل يمنع

وحكى أيضاً عن الأصمعى رحمه الله تعالى أنه قال : بينما أنا نائم فى بعض مقابر البصرة إذا رأيت جارية على قبر تنذب وتقول :

بروحى فتى أوفى البرية كلها وأقواهم فى الحب صبراً على الحب

قال : فقلت لها يا جارية بم كان أوفى البرية ويم كان أقواها؟ فقالت : يا هذا، إنه ابن عمى هوينى فهويته فكان إن أباح عنقه وإن كتتم لاموه فأنشد بيتى شعر وما زال يكررها إلى أن مات والله لأندبته حتى أصير مثله فى قبر إلى جانبه فقلت لها : يا جارية فما البيتان؟ قالت :

يقولون لى إن بحث قد غرك الهوى وإن لم أبح بالحب قالوا تصبرا
فما لا مرى يهوى ويكتم أمره من الحب إلا أن يموت فمعذرا

ثم إنها شهقت شهقة فارقت روحها الدنيا رحمة الله تعالى عليها والحكايات فى ذلك كثيرة، وفى الكتب مشهورة ولولا الإطالة والخوف من الملالة لجمعنا فى هذا المعنى أشياء كثيرة، ولكن اقتصرنا على هذه النبذة اليسيرة والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى ذكر رقائق الشعر والموااليا والدوبيت وكان وكان
والموشحات والزجل والحماق والقومة والألغاز
ومدح الأسماء والصفات وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: فى الشعر

قد قسم الناس الشعر خمسة أقسام: مرقص كقول أبى جعفر طلحة وزير سلطان الأندلس:

والشمس لا تشرب خمر الندى فى الروض إلا من كؤوس الشقيق
ومطرب كقول زهير:

تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذى أنت سائله
ومقبول كقول طرفة بن العبد:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتىك بالآخبار من لم تزود
ومسموع مما يقام به الوزن دون أن يمجى الطبع كقول ابن المعتز:

سقى المطيرة ذات الظل والشجر ودير عابدون هطال من المطر
ومتروك وهو ما كان كلاً على السمع والطبع كقول الشاعر:

تقلقلت بالهم الذى قلقل الحشى قـلـلـلـمـمـ كلهن قـلـلـلـلـ

وقد قسم الناس فنون الشعر إلى عشرة أبواب حسبما بوب أبو تمام فى الحماسة، وقال عبد العزيز بن أبى الأصم
الذى وقع لى أن فنون الشعر ثمانية عشر فناً وهى: غزل، ووصف، وفخر، ومدح، وهجاء، وعتاب، واعتذار،
وأدب، وزهد، وخمريات، ومراث، وبشارة، وتهانى، ووعيد، وتحذير، وتحريض، وملح، وباب مفرد للسؤال
والجواب. ولنذكر إن شاء الله تعالى من ذلك ما تيسر على سبيل الاختصار ولنبدأ من ذلك بذكر الغزل المذكور (ابن
نباتة):

أغصان بان ما أرى أم شمائل وأقمار تم ما تضم الغلائل
وبيض رقاق أم جفون فواتر ونمر دقاق أم قدود قوائل
وتلك نبال أم لحاظ رواشق لها هدف منى الحشى والمقاتل
بروحى أفدى شادناً قد ألفته غدوت وبى شغل من الوجد شاغل
أمير جمال والملاح جنوده يجور علينا قـدـه وهو عادل
له حاجب عن مقلتى حاجب الكـ رى وناظره الفتان فى القلب عامل
رفعت إليه قصة الدمع شاكياً فوقع يجرى فهو فى الخد سائل

شكوت فما ألوى وقلت فما صفى
طويل التروانى دله مستوراتر
أطارحه بالنحو يوماً تعلقاً
ويرفع وصلى وهو مفعول فى الهوى
تفقهت فى عشقى له مثل ما غدا
فيا مالكى ما ضر لو كنت شافى
فلانى حنىفى الهوى متحنبل

كمال الدين بن النبیه:

الله أكبر كل الحسن فى العرب
صبح الجين بليل الشعر منعقد
تنفست عن عبير الراح ريقته
لا فى العذيب ولا فى بارق غزلى
كانه حين يرمى عن حنيتته
يا جاذب القوس تقرباً لوجتته
أليس من نكد الأيام يحرمها
من لى بأغيد قاسى القلب مبتسم
فكم له فى وجود الذنب من سبب
تميل أعطافه تيهها بطرته
أشار نحوى وجنح الليل معتكر
بكر جلاها أبوها قبل ما جلّيت

البها زهير:

يعاهدنى لا خاننى ثم ينكث
وذلك دابى لا يزال ودأبه
أقول له صلى يقول نعم غداً
وما ضر بعض الناس لو كان زارنى
أمولاي إنى فى هواك معذب
فخذ مرة روحى ترحنى ولا أرى
فلانى لهذا الضيم منك لحامل
أعيبك من هذا الجفاء الذى بدا

وجد بقلبي حبيبته وهو هازل
مديد التجنى وافر الحسن كامل
فيبدو وللإعراب فيه دلائل
وينصب هجرى عامداً وهو فاعل
خبيراً بأحكام الخلاف يجادل
بوصلك فافعل بى كما أنت فاعل
بعشقتك لا أصفى وإن قال قائل

كم تحت لمة ذا التركى من عجب
والخند يجمع بين الماء واللهب
وافتر مبسمه الشهدى عن حبيب
بل فى جنى فممه أو ريقه الشنب
بدر رمى عن هلال الأفق بالشهب
والهائم الصب منها غير مقترب
فمى ويلثمها سهم من الخشب
لا عن رضا معرض عنى بلا غضب
وليس لى فى قيام العذر من سبب
كما تميل رماح الخط بالعذب
بمعصم بشعاع الكأس مختضب
فى حجرة الدن أو فى قشرة العنب

وأحلف لا كلمتته ثم أحنث
فيا معشر العشاق عنا تحدثوا
ويكسر جفننا هائناً بى ويعبث
وكنا خلونا ساعة نتحدث
وحتمام أبقى فى الغرام وأمكث
أموت مراراً فى النهار وأبعث
ومتظر لطفاً من الله يحدث
خلاتك الحسنى أرق وأدمث

تردد ظن الناس في فاكثروا
وقد كرمتم في الحب مني شمائل

النايلسي:

ما كنت أعلم والضمائر تصدق
حتى سمعت بذكركم فهو يتكم
ولقد قنعت من اللقاء بساعة
قد ينش العطشان بلّة ريقه
فعمى عيوني أن ترى لك سيدي

أبو الحسن الجزار:

في خده من بقايا اللثم تخميش
ظبي من التبرك أغنته لوحظه
إذا تشنى فقلب الغصن منكسر
يا عاذلي إن تكن عن حسن صورته
كم ليلة بات يسقيني المدام على
والغيث كالجيش يرتج الوجود له
في مجلس ضحكت أرجاؤه طرباً

سيدي أبو الفضل بن أبي الوفاء:

ترى متى من فتور اللحظ ينتشط
قد رق لي خصره المضنى فناسبني
وقد خفى الردف عني من ثاقله
وصدره الرحب قد عانقته سحراً
وفيه تلك النهود المشتهاة ترى
إن الصواب لتعجيل السرور فقم

القاضي مجد الدين بن مكائس:

أهدى تحييته وجاد بوعده
بدر جرى ماء الحياة بثغره

أحاديث فيها ما يطيب ويخيب
ويسأل عني من أراد ويسح

إن المسمم مع كالنواظر تعشق
وكذاك أسباب المحبة تعلق
إن لم يكن لي للدوام تطرق
ويغص بالماء الكثيّر ويشرق
وجهها يكاد الحسن فيه ينطق

وبى لتشويش ذاك الصدغ تشويش
عما حوته من النبل التراكيش
وإن تبدى فطرف البدر مدهوش
أعمى فلاني عما قلت أطروش
روض له بشباب الغيم ترقيش
والبرق رايتته والرعد جاوش
لأنه يبدع الزهر مفروش

من قلبه بحبال الشعر مرتبط
فقلت خير الأمور الأنسب الوسط
فقلت هذا على ضعفى هو الشطط
والقلب منبعث الآمال منبسط
رمانها فيه قلبى أمره فرط
قبل الفوات فأوقات الهنا غلط

أفديه من قمر بدا في سعده
وترددت فضلاته في خده

أسكتته قلبى فأوقد خـده
من لى به حلو الشـمائل أهيف
يا عاذلى فى حبه لو أبصرت
لعذرت كل متـم في حبه
فو حق موتى فى هواه صـبابة
ما جاد غيث الدمع إلا عن هوى
قم يارسول وأبلغ العشاق ما
وإذا سألتك أن تؤدى فى الهوى

عز الدين الموصلى:

والصحيح أن هذه الأبيات لابن نباتة لأنها فى ديوانه:

نفسٌ عن الحب ما أغفت وما غفلت
دعها ومدمعها الجارى لقد لقيت
أفديك من ناشط الأجفان فى تلقى
وأوضح الحسن لو شاءت ذوائبه
معسل بنعاس فى لواظه
من لى بالحفاظ ظبى يدعى كـسلاً
وحمرة فوق خديه ومرشفه
أما كفانى تكحيل الجفون أسى
استودع الله أعطافاً شوت كبدى
ومهجة لى كم ألفت بسمـعها

غيره للفاضل:

شرح الشباب بحبكم أفنيته
وأنا الذى لو مـرى من نحوكم
كيف التـعرض للسلو وحبكم
لله داء فى الفـؤاد أجنه
قالوا حبيبك فى التجنى مسرف
أروم من كلفى عليه تخلصاً
ولو استطعت بكل اسم فى الورى

نيران أحشائى عليه ووجده
روت العـوالى عن مثقف قـده
عيناك فوق الردف مسـبل جمده
وعلمت أن ضلاله فى رشده
وحياة مبسمه الشهى وبرده
خلع القلوب بـبرقه وبرعه
القاء من جور الحبيب ويعده
خبرى فصف فعل الغرام وأبده

بأى ذنب وقاك الله قد قتلت
ما قدمت من أسى قلبى وما عملت
والسحر يوهم طرفى أنها كسـلت
فى الأفق وصل دجا الظلماء لاتصلت
أما تراها إلى كل القلوب حلت
وكم ثياب ضنى حاكت وكم غزلت
هذى محاسنها تزهو وذى ذبلت
حتى المرائف منه باللمى كـحلت
وكلمما رمت تجديد الوصال قلت
إلى الملام ولا والله ما قبلت

والعمر فى كلف بكم قضيته
داع وكنت بحفرتى لبيته
حب بأيام الشباب شرـيته
يزداد نكساً كلما داوـيته
قاس على العشاق قلت فديته
لا والذى بطحاء مكة بيته
من لذة الذكرى به سمـيته

وللشيخ بدر الدين الدماميني:

سلّ سيفاً من الجفون صقيلاً
صح عن جفنه حديث فتور
من أبدى لنا من الخصر ردفاً
ذو قوام كأنه الغصن لكن
كامل الحسن وافر ظل وجدى
فاتك الجفن ذو جمال كثير
قلت إذ لاح طرفه ولماه
كيف حالى وهل لصب إليه

وقال آخر:

لو أن قلبك لى يرق ويرحم
ومن العجائب أننى لا سهم لى
يا جامع الضدين فى وجناته
عجيبى لطرفك وهو ماض لم يزل
ومن المروءة أن تواصل مدنفاً

وقال آخر:

تصدق بوعد إن دمعى سائل
فخذك موجدود به التبى دائماً
أيا قمرأ من شمس طلعة وجهه
تنقلت من طرف مع القلب والهوى
جعلتك للتمييز نصباً خاطرى

وقال ابن صابر:

قبلت وجته فألفت جیده
فأنهلّ من خديه فوق عذاره
فكأننى استقطرت ورد خدوده

وقال آخر:

مذ تصدى جلاه رحت قتيلاً
وهو ما زال من قديم عليلاً
فأرانا مع الخفيف ثقيلاً
بالهوى نحو وصلنا لن يميلاً
فيه يا عاذلى مديداً طويلاً
ألف العاشقين إلا قليلاً
فاتر اللحظ بكرة وأصيلاً
من سبيل فقال لى سل سبيلاً

مأبى من ألم الجوى أتالم
من ناظريك وفى فؤادى أسهم
مأى يرق عليه نار تضررم
فعلام يكسر عندما تتكلم
والدهر سمح والحوادث نوم

وزود فؤادى نظرة فهو راحل
وحسبك معدوم لديه المائل
وظل عذاريه الدجا والأصائل
وهايك للبدر المنير منازل
فهلا رفعت الهجر والهجر فاعل

خجلاً ومال بعطفه المياس
عرق يحاكى الطل فسوق الأس
بتصاعد الزفرات من أنفاسى

وغزال كل من شبيهه
قال إذا قبلت وهماً فمه
وقال آخر:

بابي غلام لست غير غلامه
ذر حاجب ما إن رأيت كنونه
وقال جمال الدين بن مطروح:

ذكر الحمى فصبا وكان قد ارعوى
تجرى مدامعه ويخفق قلبه
وإذا تالق ببارق من بارق
فخذوا أحاديث الهوى عن صادق
وبهجتي رشاً أطالت عذلي
قالوا أفيه سوى رشاقة قد
ما أبصرته الشمس إلا واكتست
يروى الأراك محاسناً عن ثغره
وقال آخر:

عبث النسيم بقده فتأودا
رشاً تفرد فيه قلبي بالهوى
قاسوه بالغصن الرطيب جهالة
حسن الغصون إذ اكتست أوراقها
وقال غيره:

يا حسناً مالك لم تحسن
رقيمت بالورد وبالسوسن
وقد أبى خدك أن أجتنى
يا حسنه إذ قال ما أحسنى
قلت له كلك عندي سنأ
ففوق السهم ولم يخطني
وقال كم من عاشق حبنى
يرحمه الله على أننى

بهلال أو يسدر ظلمه
قد تعديت وأسرفت فمه

مذ جاد لي بسلامه وكلامه
أبدأ وصدغ ما رأيت كلامه

صب على عرش الغرام قد استوى
مهما جرى ذكر العقيق مع اللوى
فهناك ينشر من هواه ما انطوى
ما ضل فى شرع الغرام وما غوى
فيه الملام وقد حوى ما قد حوى
وفتور عينيه وهل موتى سوى
خجلاً ولا غصن النقا إلا التوى
يا طيب ما نقل الأراك وما روى

وسرى الحياء بخده فتوردا
لما غدا بجسماله متفردا
تالّه قد ظلم المشبّه واعتدى
وتراه أحسن ما يكون مجردا

إلى قلوب فى الهوى متمعبه
صفحة خد بالسنا مذهبه
منه وقد السمعنى عقر به
ويا لذاك اللفظ ما أعذبه
وكل الفاظك مستععبه
ومذ رآنى ميتاً أعجبه
وحببه إياى قد أتعبه
قتلى له لم أدر ما أوجبه

وقال آخر:

مليح يغار الغصن عند اهتزازه
فما فيه معنى ناقص غير خصره

وقال يحيى بن أكثم:

دنا هاجري نحوى بمقلته الكحلا
فتيئمنى شوقاً وأنحلنى أسى
شكوت فمما ألوى وولى ومما لوى
إذا ما دعاه فرط سقمى لزورة

وقال أيضاً:

بأبى غزالاً غازلته مقلتى
وسألت منه زورة تشفى الجوى
بتنا ونحن من الدجا فى خيمة
عاطيته والليل يسحب ذيله
وضممته ضم الكمى لسيفه
حتى إذا مالت به سنة الكرى
أبعدته عن أضلع تشتاقيه
لما رأيت الليل آخر عميره
ودعت من أهوى وقلت تأسفناً

وقال ابن نباتة:

بدا ورنيت لواحظه دلالة
وأسفر عن سنا قمر منير
صقيل الخد أبصر من رآه
وممنوع الوصال إذا تبيدى
عجبت لشغره البسام أبدى
شهدت بشهد ريقته لائى
فيا عجيباً لحسن قد حواه
سأشكو الحسن ما بقيت حياتى

ويخجل بدر التم عند شروقه
وما فيه شيء بارد غير ريقه

فلما رأى ذلى ثنى عطفه دلا
وأفقدنى صبراً وأعدمنى عقلا
وأعرض مزوراً فسل الحشى سلا
يناديه فرط العجب من عطفه كلا

بين العذيب وبين شطى بارق
فأجابنى عنها بوعد صادق
ومن النجوم الزهر تحت سرادق
صهباء كالمسك الذكى لناشق
وذؤابتاه حمائل فى عاتقى
رحزحته عنى وكان معانقى
كى لا ينام على فراش خافق
قد شاب فى لم له ومفارق
صعب على بأن أراك مفارقى

فما أبهى الغزالة والغزالا
ولكن قد وجدت به الضلالا
سواد العين فيه فخال خالا
وجدت له من الألفاظ لالا
لنا دراً وقصد سكن الزلالا
رأيت على سـوالفـه نمالا
وقصد أهدى إلى قلبى الوبالا
وأشكر من صنائعـه الجمالا

القاضي فخر الدين بن مكائس:

يا غصناً في الرياض مـالا
يا رائحاً بعد أن سبباني

وله أيضاً:

أجـارك الله قـد رثت لي
وعـاذلي مـذ رأى ضلوعي

ابن رفاعه:

يقولون هل من الحبيب بزورة
فقالوا لنا غوصوا على قـده وما

الشيخ برهان الدين القيراطي:

ووردي خـد نرجسي لواحظ
وواوات صدغيه حكين عقارباً
ووجنته الحمرا تلوح كجمرة
وودي له باق ولست بـسامع
ووالله ما أسلو ولو صـرت رمة

وللشيخ برهان الدين القيراطي أيضاً:

شبهه السيف والسنان بعيني
فأبى السيف والسنان وقـالا

وله أيضاً:

بأبى أهيف المعـاطف لدن
ذو جفون مـذ رمت منها كلاماً

وقال آخر:

تملك رقي شادن قـد هويتـه
أقول لصحبي حين يرنو بطرفه

حـملتني في هواك مـالا
حسبك رب السما تعـالي

مما ألقى عـدا وحسـد
تعد سقـمماً بكى وعـدد

ومناكم المـطلوب قلنا لهم منا
يحاكي إذا ما اهتز قلنا لهم غصنا

مشايخ علم السحر عن لحظه رووا
من المسك فوق الجـلنار قـد التـروا
عليها قلوب العاشقين قـد اكتـروا
لقول حـسود والعواذل إذ عـروا
فكيف وأحشائي على حبه انطـروا

من لقتلى بين الأنـام، استـحـلا
حـدنا دون ذاك حـاشى وكـلا

حسـد الأسمر المثقف قـده
كلمتني سيوفهن مـحده

من الهند معسول اللمى أهيف القـد
خذوا حذرکم قـد مل صارمه الهندي

ومما قيل فى الغزل المؤنث للشيخ شمس الدين بن البديرى:

خيال سلمى عن الأجفان لم يغب
وذكرها أنس روى وهى نائبة
لم أصغ فيها للراح يمدلنى
عذابها فى الهوى عذب الذبه
فإن نأت أو دنت وجدى كما علمت
دعها فأمر هوى المحبوب متبع

وقال عفا الله عنه:

سقى ظللاً حلت به سلمى معاهد
فربح به سلمى مصيف ومربيع
وحيث ثوت أرضاً فأعذب مورد
رعى الله دهرأ سالتنى صروفه
وقد غفل الواشون عنى ولم أرل
وأيامنا بالقرب بيض أزهري
وأرواحنا ممزوجة وقلوبنا
وكم قد مرجنا فى مروج صبابة
تجر ذيول اللهو فى قمص الهوى
ولم يخطر التفريق منا بخاطر
فهل أنت يا سلمى وقد حكم الهوى
وهل ودنا باق وإلا تغيبرت
وهل محبت آثار رسم حديثنا
وهل تذكير العهد إذ نحن بالهوى
وهل أنت غيبت الذى أنا حافظ
وهل بدلت منك المودة بالجفاف
وإنى ما بدلت عهدك فى الهوى
ولا بت مسروراً وعيشك ليلة
فإن كنت حبل الود صرمت طرفه
وإن قلت إن الحب غير النوى
وإن أوردوا يوماً صبابة عاشق
فما شئت كرونى إنى بك مدنف

وطيفها عن عياني غير محتجب
والقلب ما زال عنها غير منقلب
ولا لواش خللى بات يلعب بى
ومر هجرانها أحلى من الضرب
تشيب فيه الليالى وهو لم يشب
وغير طاعته فى الحب لم يجب

وحياه من دمعى مذاب وجامد
وأرض نأت عنها قفار جلامد
ولو كدرت منها على الموارد
وظلت ليالى به بسلمى تساعد
ويقظان طرف البين عنى راقد
وأوقاتنا بالوصل خضر أمالد
ونحن كأننا فى الحقيقة واحد
ولم يطرد فسينا من البين طارد
تلوح علينا لتلغرام شواهد
ولم نحسب الأيام فينا تعاند
كما كنت لى أم حاد بالقلب حائد
على عادة الأيام منك العوائد
وأناك حفظ الود هذا التباعد
وقولك لا عاش الخئون المعاهد
وهل أنت أحللت الذى أنا عاقد
وفيك يقينى بالوفاء منك شاهد
ولا اختلفت فيما علمت العوائد
وكيف سلوى والحبيب مباعد
فودى طريف فى هواك وتالد
لعمري وجدى بالحشاشة واقد
فبى يضرب الأمثال من هو وارد
صبور على البلوى شكور وحامد

ومنك تساوى عندى الوصل والجفا
ولو رمت ألوى من هواك أعنتى
نصبت شرك الحب صدت حشاشتى
بعدت وقلت البين يسلى أخا الهوى
وما غير التفريق ما تعهدينه
وجل منأى القـرب منك وإنما

وقال عفا الله عنه :

تهددنى بتـبـريـح وبين
وتحلف لى لتلبسنى سقـاماً
وترمىنى بنبل من جفـون
وتحرقنى بنار الصـد حتى
فقلت لها ودمعى فى انسكاب
ومن لى أن يقال قتيل وجد

وقال عفا الله عنه :

سُـلـوتى عنك شىء ليس يروى
ولم يمرر سواك على ضميرى
ومالك عن سواد العين يوماً
وما اخضرت دواعى الشوق إلا

وقال عفا الله عنه :

قفـا نـبك داراً شط عنا مـزارها
وعوجا بأطلال محبتها يدى النوى
فقدنا بها ريماً من الإنس إن رنت
تصيد قلوب العاشقين أنيسة
ويهزأ بالأغصان لين قوامها
وليس لبدر التـم قـامة قـدها
منارلها منى الفـؤاد وإن نأى
يمثلها بالوهم فكرى لناظرى
وهيج دمعى حر نار صـبـابـتى
وساعدنى بالأيك ليلاً حمائم
بكين ولم تسفح لهن مـدامع

وفيك لقد هانت على الشـدائد
لقاد زمامى نحو حبك قائد
فكيف خلاصى والهوى منك صائد
وهل يسلى ذا الأشجان هذا التباعد
وسوق سلوى فى المحبين كاسد
إذا عظم المطلوب قل المسـاعـد

وتوعـدنى بتـفـريق وصد
تهى جـلدى به وتذيب جـلدى
فتـضـينى وتضمـينى وتردى
تذيب حشاشتى كمدأ وكبـدى
يفيض دماً على صفحات خدى
وأذكر فى هواك ولو بصـدى

وحبى فـيك سار مع الركب
ووجدى فـيك أيسره عـذابى
وما لسواد قلبى من حجاب
هزرت إليك أجنحة التـصـابى

وأحلنا بعد البعد أدكارها
فأظلم بالنأى المشت نهـارها
بمقلتها يصمى القلوب احـوارها
ويحسن منها صـدها ونفـارها
إذا مال فوق الغصن منها خمـارها
وما هو إلا حـجلها وسـوارها
عن العين مـثـواها ففى القلب دارها
وأكثر ما يضىئ النفوس افتكارها
وما خمـدت بالدمع منى نارها
تهاتف شـجـواً لا يقر قـرارها
وعينى فاضت بالدموع بحـارها

ولمؤلفه رحمه الله تعالى، وهو قول ضعيف على قدر حاله لكنه يسأل الواقف عليه من أفضاله ستر ما يراه من عيوبه وأن يدعو له بمغفرة ذنوبه:

بلطف وقل عن حال صـبـك سائـلى
قـريـح جـفـفـون من دـمـوع هـوامـل
حـلـيف الضـنى لم يصـغ يـومـاً لـعـاذل
يـثـن غـرامـاً فـارحـمـيه وواصـلى
وهاجـت بـتـبـريـح الغـرام بلا بـلى
فـلم يـخـط قـلـبى والحـشـا ومـقـاتـلى
بـسـر فـناحـت أدمـعى بـرسـائـلى
فـقـد عـاد لى حـال لـه رـق عـاذلى
بـوعـد بـعد الوـعد إن شئت مـاطـلى
فـبـالسـقم أعضائى وهت ومـفاصـلى
وعـظـم أنـينى لا يـرانى مـسـائـلى
وفـاضت عـلى حـالى عـيون عـواذلى
ومـا فـزت فى الأيـام مـنك بطـائل
ضـنى جـسـدى فـالـوجـد لا شـك قـاتلى
نـبى لـه فـضـل عـلى كـل فـاضـل

نسـيم الصـبـا بـلـغ سـليـمى رسائـلى
فـقـد صـار بـالـأسـقم صـبـا مـعـذباً
صـبـوراً عـلى حـر الغـرام وبـردـه
يـبـيت عـلى جـمر الغـضـى مـتـقـلباً
ألا يا سـليـمى قـد أضـربى الهوى
رـمـيت بـسـهم من لحـاظـك قـاتـل
كـتـمـت غـرامى فى هـواك ولم أبـح
سـليـمى سـلى ما قـد جـرى لى من النوى
لـعل تـجـودى لـلـكـنـيب وتـسـمـحى
عـسى تـنـطـفى بـالـوـعد نارى وأشـتـفى
خـفـفـيت عـن العـوداد لولا تـأوهمى
فـرقى فـقـد رقت عـداى لـذلتى
قـطـعت زـمـانى فى عـسى ولـعلها
فـما آن أن تـرضى عـلى وترحـمى
تـوسـلت بـالمـخـتـار فى جـمع شـملنا

وله رحمه الله تعالى:

حـتى قـتلت بـفـرط الهـجر مـضـناكى
مـن فى الـورى يا تـرى بـالقـتل أفتـناكى
فى النـوم طـيف خـيال من مـحـياكى
أضـحى عـليلاً حـزـيناً لم يـزل بـاكي
فـهل تـرى تـسـمـحى يـومـاً برؤياكى
فـالـله يـعلم أنا مـا نـسـيناكى
أضـحى فـؤادى أسـيراً لـحـظ عـيناكى
ولا عـذاب نـفـوس قـبـل أهـواكى
أمسى أسـيراً سـوى فى حـسن مـعـناكى
ولا تـطـيلى بـحق الـله جـفـفـواكى
ومـهـجـة تـلفت يا هـند ما أقـساكى
وأنت يا هـند لا تـرثى لمـضـناكى
ولو فـنيت غـرامـاً لـست أنـساكى

يا ربة الحـسن من بـالصـد أوصـاكى
ويا فتاة بـفتـان القـوام سـبت
لـقـد جـنت غـراماً مـذ رأى نظـرى
ومـذ رآه جـفـفا طـيب المـنام وقـد
عـذبـتنى بـالتـجـنى وهـو يـعـذب لى
إن كـنت لم تـذكـرينا بـعد فـرقـتنا
ما آن أن تـعـطـفى جـوداً عـلى فـقـد
ما كـنت أحـسب أن العـشق فـيه ضـنى
حـتى تـولع قـلـبى بـالـغـرام فـما
رقى لـعـبـدك جـوداً واعـطـفى وذرى
يا هـند رـفـقاً بـقـلب ذاب فـيك أسى
رق العـاذول لـحـالى فى الهوى ورثى
والله لو مـت مـا أـمـلاك يا أـمـلى

وقال آخر:

كان فؤادى يوم سـرت دليل
فسـرت عـقيب الطاعنين لكى أرى
وقائلة لى كيف حالك بعدنا
فقلت لها قد مت قبل ترحلى
وقلت فليلى طال همًّا فأنشـدت
فقلت وجسمى لم يزل مترجفاً
فقلت لها لو كنت أدرى فراقنا
قلعت لعينى فى هواك بأصـبى

وقال الوأواء الدمشقى^(١) عفا الله عنه:

يا من نفت عنى لذيذ رقـادى
فببـأى ذنب أم بأية حـالة
وصدـدت عنى حين قد ملك الهوى
ملكـت لحاظك مهـجتي حتى غدا
لا غـرو إن قتلت عيونك مـغرماً
يا من حـوت كل المحاسن فى الورى
رفقاً بمن أسـرت عيونك قلبه
وتعطفى جـوداً على بـقـيلة
ماتت أطال الله عـمـرك سلوتى
ومن المنى لو دام لى فسـيك الضنى
وأجـيل منك نواظرى فى ناضـر
وأقول ما شئت اصنعى يا منيتى
إلا مـديح المصطفى هو عـمـدتى

وقال البها زهير:

إذا جن ليلى هام قلبى بذكـركم
وفوقى سحاب يـطر الهم والأسى
سلوا أم عمرو كيف بات أسيرها
فلا أنا مقتول فى القتل راحة

يسـير أمام العيس وهو ذليل
فؤادى سرى فى الركب وهو عجول
لتعلم ما هذا إليه يئـول
فمن باب أولى أن يجـد رحـيل
وما زال ليل العاشـقين طويـل
فقلت وجسم العاشـقين نحـيل
بيوم وداع ما إليه سـبـيل
لكيلا أرى يوماً على ثقـيل

مالى ومالك قد أطلت سـهادى
أبعـدتنى ولقد سكنت فـؤادى
روحى وقلـبى والحشا وقـيادى
قلـبى أسـيراً ما له من فـادى
فلكم صـرعت بها من الأسـادى
والحسن منها عاكف فى بادى
ودعى السيوف تقر فى الأغـماد
فبـميم مبـسمى شفاء الصـادى
ولقد فنى صـبرى وعاش سـهادى
يا حـبـبـذا لأراك من عـوادى
من خـدك المتـرقـرق الوقـاد
مالى سـواك ولو حرمت مرادى
وبه سـالـقى الـه يوم مـيـعادى

أنوح كما ناح الحـمام المطوق
وتحتى بحار بالجوى تـدق
تفك الأسـارى دونه وهو موثق
ولا أنا ممنون عليه فـيـمـتق

(١) الوأواء الدمشقى: هو محمد بن أحمد الغسانى، المشهور، بالوأواء الدمشقى أبو الفرج شاعر، كان فى مبدأ أمره منادياً بدار البطيخ بدمشق من آثاره «الديوان» الذى هو صغير الجرم خفيف الحجم توفى سنة (٣٨٥هـ وقيل ٣٩٠هـ - نحو ٩٩٠م).

مجنون ليلي:

وقد خبّروني أن تيماء منزل
فهذي شهور الصيف عنا ستقضي
أعد الليالي ليلة بعد ليلة
وأخرج من بين البيوت لعلني
ألا أيها الركب اليمانون عرجوا
يميناً إذا كانت يميناً فإن تكن
أصلّي فما أدري إذا ما ذكرتها
خليلي لا والله لا أملك الهوى
خليلي لا والله لا أملك الذي
قضاها لغيري وابتلاني بها
ولو أن واش بالميمامة داره
وددت على حبي الحياة لو أنه
على أنني راض بأن أحمل الهوى
إذا ما شكوت الحب قالت كذبتي
فلا حباً حتى يلصق الجلد بالحشى

وقال آخر:

قالت لطيف خيال زارني ومضى
فقال خلفته لو مات من ظمأ
قالت عهدت الوفا والصدق شيمته

كمال الدين بن النبيه:

أما وياض مبسمك النقي
ورمّان من الكافور تعلو
وقد كالفضيض إذا ثنى
لقد أسقمت بالهجران جسمي
إلى كم أكنتم البلوى ودمعي
وكم أشكو للاهية غرامي

صفي الدين الحلّي:

أبت الوصّال مخافة الرقباء

لليلي إذا ما الليل ألقى المراسيا
فما للنوى يرمى بليلى المراميا
وقد عشت دهرأ لا أعد الليالي
أحدث عنك النفس بالليل خاليا
علينا فقد أمسى هوانا يمانيا
شمالاً ينادني الهوى عن شماليا
اثنتين صليت الضحى أم ثمانيا
إن علم من أرض ليلي بدا لي
قضى الله في ليلي ولا ما قضى ليا
فها بشيء غير ليلي ابتلانيا
وداري بأعلى حضر موت اهتدي ليا
يزاد لها في عمرها من حياتيا
وأخلص منه لا على ولا ليا
فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا
وتخسرس حتى لا تجيب المناديا

بالله صفيه ولا تنقص ولا تزد
وقلت قف عن ورود الماء لم يرد
يا برد ذاك الذي قالت على كسبي

وسمرة مسكة اللمس الشهي
عليه طوالع الندّ الندي
خششيت عليه من ثقل الحلّي
وأعطشني وصالك بعد رأيي
يروح بمضمرة السر الخفي
فويل للشجي من الحلّي

وأنتك تحت مدارع الظلماء

أصفتك من بعد الصدود مودةً
أحيت بزورتهما النفوسَ وطالما
أمسست بليلٍ والنجوم كأنها
أمسست تعاطيني المدام وبيتنا
آبت إلى جسدي لتنظر ما انتهت
ألفت به وقع الصفاح فراعها
أمصيبة منا بنبل لحاظها
أعجبت مما قد رأيت وفي الحشا
أمسسى ولست بسالم من طعنةٍ
وله رحمه الله تعالى:

قفى ودّعينا قبل وشك التفريق
قضيت وما أودى الحمام بمهجتي
قنعت أنا بالذل في مذهب الهوى
قرنت الرضا بالسخط والقرب بالنوى
قبلت وصايا الهجر من غير ناصح
قطعت رماني بالصدد ورتني
قضى الدهر بالتفريق فاصطبرى له
وقال عفا الله عنه:

جاءت لتنظر ما أبقت من المهج
جلت علينا محيّا لوجلته لنا
حورية الخد تحمى ورد وجنتها
جزت إساءة أفعالي بمغفرة
جادت لعرفانها أتى المريض بها
جست يدي لتري ما بى فقلت لها
جفوتنى فرأيت الصبر أجمل بى
جارت لحاظك فينا غير راحمةٍ
وقال ابن نباتة:

رقت لنا حين همّ السفر بالسفر
راض الهوى قلبها القاسى فجادلنا
رأت غداة النوى نار الكلیم وقد

وكسنا الدواء يكون بعد الداء
ضنت بها فقضت على الأحياء
درّ بياطن خيمنة زرقاء
عتب غنيت به عن الصهباء
من بعدها فقيه يد البرحاء
جزعًا وما نظرت جراح حشائي
مما أخطأته أسنة الأعداء
أضعاف ما عاينت فى الأعضاء
نجلاء أو من مقلة نجلاء

فما أنا من يحيا إلى حين نلتقى
وشبت وما حلّ البياض بمفرقى
ولم تفرقى بين المنعم والشقى
ومزقت شمل الوصل كل ممزق
وأحببت قول الهجر من غير مشفق
عشيمة رمت للترحل أينقى
ولا تدمى أفعاله وترفقى

فعطرت سائر الأرجاء بالأرج
فى ظلمة الليل أغتتنا عن السرج
بحارس من نبال الغنج والدعج
فكان غفرانها يغنى عن الحجج
فما على إذا أذنبت من حرج
كفى فذاك جوى لولاك لم يهج
والصمت فى الحب أولى من اللهج
ولذة الحب جور الناظر الغنج

وأقبلت فى الدجى تسعى على حذر
وكسان أبخل من تموز بالمطر
شبت فلم تبق من قلبى ولم تذر

رشيقة لو تراها عندما سفرت
رأيت بديرين من وجه ومن قمر
رشفت در الحميا من مقبلها
رنت نجموم الدجى نحوى فما نظرت
راق العتّاب وابتدأت لى سرائرها

وقال ابن الساعاتى:

قَبَلَتْهَا ورشفت خمرة ريقها
ودخلت جنة وجهها فأباحنى

وقال آخر:

بكت للفراق وقد راعها
كان الدموع على خدّها

الرواء الدمشقى تضمين:

قالت متى الظعن يا هذا فقلت لها
فأمطرت لؤلؤاً من نرجسٍ وسققت

لابن نباتة:

عذولى لست أسمع منه قولاً
له طرفٌ ضُريرٌ عن سناها

وقال آخر:

وربّ ليالٍ فى هواها سهرتها
حديثى عالٍ فى السهاد لأننى

السراج الوراق^(١):

يا لائمى فى هواها
ما يعلم الشوق إلا

وقال آخر:

وعدت أن تزور ليلاً فآلت
قلت هلاً صدقت فى الوعد قالت

لعز الدين الموصلى:

قد سلونا عن الغزال بخود

والبدر ساء إليها سهو معتذر
فى ظل جنحين من ليل ومن شعمر
إذ نبهتني إليها نسمة السحر
من يرشف الراح قبلى من قم القمر
فى ليلة الوصل بل فى غرة القمر

فوجدت نار صبابة فى كوثر
رضوانها المرجو شرب المسكر

بكاء المحب لبعد الديار
بقية طل على جلنار

إما غداً زعموا أو لا فبعد غد
ورداً وعضّت على العنّاب بالبرد

على غيذاء مثل البدرقما
ولى أذن عن الفحشاء صمّا

أراعى نجموم الليل فيها إلى الفجر
رويت أحاديث السهاد عن الزهرى

أسرفت فى اللوم جهلاً
ولا الصبابة إلا

وأنت فى النهار تسحب ذيلاً
كيف صدقت أن ترى الشمس ليلاً

ذات وجه بها الجمال تفتن

(١) السراج الوراق: هو عمر بن الحسن الوراق (سراج الدين) أديب، كاتب، شاعر، كان كاتباً لوالى مصر الأمير يوسف بن سباسلار من آثاره «ديوان شعراء» فى سبعة أجزاء كبار، ونظم «درة الغواص للحريرى»، توفى بالقاهرة فى جمادى الأولى سنة (٦٩٥هـ / ١٢٩٦م) وقد قارب التسعين أو جاورها بقليل.

ورجعنا عن التهتك فيه
وقال آخر:

قالت وناولتها سواك
سواى ما ذاق طعم ريقى
وقال آخر:

سألتهما أن تعيدا لفظا
حدِيثهما سكر شهى
ابن نباتة:

وملولة فى الحب لما أن رأت
قالت تغيرنا فقلت لها نعم
وقال أبو الطيب المتنبي^(١):

بأبى الشموس الجانحات غواربا
الناهبات عيوننا وقلوبنا
الناعمات القاتلات المحييات
حاولن تفديتى وخفن مراقبنا
وبسمن عن برد خشيت أذيه
يا حبذا المتجملون وحبذا
كيف الرجاء من الخطوب تخلصنا
وله أيضاً من جملة قصيدة:

ولما التقينا والنوى ورقبنا
فلم أر بداراً ضاحكاً قبل وجهها
الشريف الرضى:

وتيمس بين مزعفر ومصفر
هيفاء إن قال الشباب لها انهضى
وإذا سألت الوصل قال جمالها

ودفعناه بالتى هى أحسن

ساد بفئها على الأراك
قلت لها ذاقه سواكى

قالت محباً دعوه يعذر
وأحسن السكر المكرر

أثر السقام بجسمى المنهاض
أنا بالسقام وأنت بالإعراض

اللابسات من الحرير جلاببا
وجناتهن الناهبات الناهبا
المبديات من الدلال غرائبنا
فوضعن أيديهن فوق ترائبنا
من حر أنفاسى فكنت الذائبنا
وإلثمت به الغزالة كعابنا
من يعد أن أنشبن فى مخابنا

غفلولان عنا ظلت أبكى وتبسم
ولم تر قبلى ميثاً يتكلم

ومعنبر ومعك ومصنل
قالت روادفها أقعدى وتمهلى
جودى وقال دلالتها لا تفعل

(١) أبو الطيب المتنبي: هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد أبو الطيب الجعفى الكوفى المتنبي الشاعر، ولد سنة (٣٠٣هـ)، وأكثر المقام بالبادية لاقتباس اللغة، تعاطى قول الشعر فى صغره حتى طبع فيه للغاية، وسار شعره فى الدنيا، بالإضافة لنفوقه على أهل زمانه، مدح الملوك كسيف الدولة وكافور الإخشيدى، وادعى النبوة فى عصره فأخذ وحس وأشرف على الهلاك ثم استأبوه وأطلقوه، كانت وفاته بالقرب من النعمانية بمكان يقال له الصافية بعد أن تعرض له فأتك بن أبى جهل الاسدى فى عدة فى أصحابه وكان المتنبي مع جماعة أيضاً وابنه محمد وغلظه مفلح وذلك سنة (٣٥٤هـ) ومن آثاره «ديوان شعر».

ابن إسرائيل:

وعدت بوصل والزمان مسوف
نشوانة خصباء منهل ثغرها
وتخال بين البدر منها والنقا
لا تحسب الخلف شيممة مثلها
يا بانه قد اطلعت اغصانها
وغزالة يحكى الغزالة وجهها
ما تأمرين لمغرم تسطو به
قسما بوجهك وهو صبح مشرق
وبهز غصن البان منك على النقا

حوراء ناظرها حسام مرهف
در وريقها سلاف قرقف
غصنا يمس به النسيم مهف
وعدت ولكن الزمان يسوف
وردا جنيا باللواحظ يقطف
ويعبر ناظرها الحسام الاوظف
اجفانك المرضي ولا تستعطف
وسواد شعرك وهو ليل مسدف
ما لي الى احد سواك تشوف

ولنذكر ان شاء الله تعالى في هذا الباب نبذة من ملح النظم ورقائق الشعر من غير تبويب ولا ترتيب للشيخ شمس الدين بن البديوي:

ولما نأت سلمى وشط بها النوى
علقت بأخرى غيرها متلاهيًا
وكان هيامي والهوى وصبايتي
وله في المعنى:

تلاهيت عنها في الغرام بغيرها
وقبلت فاهًا مبردا لصبايتي
فكنت كمن هو ذا غريقًا بلجة
وقال أيضًا:

سألت القلب هل ملى ليلي ليلي
فقال الآن لا لكن تأني
فإن الحب يهجم بعد يأس
فلا تظهر لها يومًا سلوا
وترمى بالصمود وبالتجنى
فكن جلدًا ولا تك ذا لجساج
وقال البيطار:

يقولون هذى أم عمرو قريبة

وايقنت أنى بالغرام أذوب
ليطفي ضرام في الحشا ولهيب
لن هو في الأولى إلى حبيب

وقلت لقلبي هذه هي زينب
فأضرمت نارًا في الحشا تلهب
تمسك بالموج الذي يتسقلب

وهل عند الفؤاد لها التفات
فقلت الحب فيه تقلبات
ويعتاد المحب تغيرات
فتفضحك التصابي الواردات
وتنحلك الوعود الكاذبات
فما يغنيك إن فات الفوات

دنت بك أرض نحوها وسماء

إلا إنما قرب الحبيب ويعده
وقال غيره:

وقالوا بع حبيبك وابغ عنه
إذا كان القديم هو المصافى
وقال آخر:

لم أنس إذ قلت من وجدى لها غلطاً
سلوت عنك فقالت وهى ضاحكة
وقال آخر:

أمن المروءة أن أبیت مسهداً
وتبيت ريان الجفون من الكرى
وقال آخر:

إلى الله أشكو جور أهيف شادنٍ
جرحت بعينى خدّه وهو جارح
وقال آخر:

قد كنت أسمع بالهوى فأكذب
حتى بليت بحلوه وبمره
وقال آخر:

سألتهما التقبيل من خدّها
فمذا تلاقينا وقبلتهما
وقال آخر:

يا من سقامى من سقام جفونه
قد كنت لا أرضى الوصال وفوقه
وقال آخر:

صبّحته عند المساء فقال لى
فأجبتة إشراق وجهك غرّنى
أبو عبد الله الغواص:

من عذيرى من عذول فى رشا
قمر لم يبق منى حسنه
وقال آخر:

جاذبتها والريح تجذب برقعا

إذا هو لم يوصل إليه سواء

حبيباً آخرّاً تحيا سعيداً
وخيان فكيف أأتمن الجديدا

ووجهها مشرق فى حندس الظلم
لتقـرعن على السنّ من ندم

قلّنا أبلّ ملابسى بدموعى
وأبيت منك بليلة الملسوع

وقعت فمالي من يديه خلاص
بعينيه قلبى والجروح قصاص

وأرى المحبّ وما يقول فأعجب
من كان يتهم الهوى فيجرب

عشراً وما زاد يكون احتساب
غلطت فى العدّ وضاع الحساب

وسواد حظى من سواد عيونه
واليوم أقنع بالخـيال ودونه

تهزى بقدرى أو تريد مزاحا
حتى توهمت المساء صبّاحا

فأمر القلب هواه فقمر
وهواه غيير مقلوب قمر

من فوق خد مثل قلب العقرب

وظفقت أثلثم ثغرها فتحجبت
وقال آخر:

لو مت من كثرة الأشواق وانبدلت
ما اخترت عنك سلواً لا ولا نظرت
إبراهيم بن العباس:

تمر الصُّبا صفحاً بساكن ذى الغضى
قريبة عهدٍ بالحبيب وإنما
وقال النوفلى:

إذا اختلجت عيني رأت من تحبُّه
وما ذقت كأساً مذ علقت بحبها
وقال آخر رحمه الله تعالى:

يا ذا الذى زارا ومـــــــا زارا
قام بيباب الدار من تيهه
وقال آخر:

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثي
فالكلى منى للجليل موانس
ابن نباتة:

أناشده الرحمن فى جمع شملنا
إذا ما غدا مثل الحديد فؤاده
أمين الدين بن أبى الوفاء:

يا نازلاً منى فـؤاداً راحلاً
أضربت قلب مستقيم أهلكته
وقال آخر:

يا عــــــاذلى فى هواه
يمسُّ بى كـلّ وقـتٍ
الحاجبى:

ملأت فؤادى من محبة فائز
وقلت لقلبي قم لتعشق شادنا

وتستترت عنى بقلب العقرب

مدامعى بدم من كثرة السهر
عيني لغير محيا وجهك القمر

ويسرع قلبى إذا يهب هبوبها
هوى كل نفس أين حل حبيبها

فدام لعينى ما حيت اختلاجها
فأشربه إلا ودمعى مزاجها

كلّنه مـقـتـبـس نارا
ما ضره لو دخل الدارا

وأبحث منى ظاهرى لجليسى
وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

فيقسم هذا لا يكون إلى الحشر
فوالعصر إنّ العاشقين لفى خسر

ومن العجائب نازلاً فى راحل
وسكتته والنار مثوى القتاتل

إذا بدا كـمـيـف أسـلو
وكلمسا مسرّ يحلو

أميل إليه وهو كالظبي رائغ
سواه فقال القلب ما أنا فارغ

وقال ديك الجن^(١):

ولى كبد حرى ونفس كأنها
كان على قلبى قطاة تذكـرت

وقال عبد الله بن طاهر:

أقام ببلدة ورحلت عنه
أقل الناس فى الدنيا سروراً

وقال آخر:

ما اخترت ترك وداعكم يوم النوى
لكن خشيت بأن أموت صبابة

وقال ابن المعتز:

هب لعينى رقـادها
وارحم المقللة التى
كن صلاحاً لها كما

وقال آخر:

وقالوا دع مراقبة الثريا
فقلت وهل أفاق القلب حتى

وقال آخر:

ولى فـؤاد إذا طال النزاع به
يفـسـدك بالنفس صباً لو يكون له

وقال آخر:

وما هجرتك النفس يامى إنها
ولكنهم يا أحسن الناس أولعوا

وقال المحاربى:

إذا أنت لم توقن بما صنع الهوى
ترى حرقات يلدغ القلب حرها

وقال الأقرع بن معاذ:

أقول لمقت ذات يوم لقيتـه
بحقك أخبرنى أما تأثم التى

بكفّ عدو ما يريد سراحها
على ظمإ ورداً فهزت جناحها

كلانا بعد صاحبه غريب
محب قد نأى عنه الحبيب

والله لا ملأ ولا لتـجـنب
فيقال أنت قتلتـه فتقـاد بى

وانف عنها سهادها
كنت فىيها سوادها
كنت دهرأ فـسـسـادها

ونم فىالليل مسود الجناح
أفرق بين ليلى والصباح

طار اشتياقاً إلى لقيـا معـذبه
أعز من نفسه شىء فـدـاك به

قلتك ولا أن قل منك نصيبها
بقول إذا ما جئت هذا حبيبها

بأهل الهوى فافقد حبيباً وجرب
بأنضج من كى الغضى المتلهب

بمكة والأنضاء ملقى رحالها
أضر بجسمى منذ مر خيالها

(١) ديك الجن: هو كبير الشعراء، أبو محمد، عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب الكلبي الحمصي السلماني، الشيعي طريف ماجن خمير خليع بطل عرف (بديك الجن) أصله من سلمية وولد بحمص توفى سنة (٢٣٥هـ - ٨٥٠م) وله «ديوان».

فَقَالَ بَلَى وَاللَّهِ أَوْ سَيَصِيبُهَا
فَقُلْتُ وَلَمْ أَمْلِكْ سِوَابِقِ عَجْرَةٍ
عَفَا اللَّهُ عَنْهَا كُلَّ ذَنْبٍ وَلَقَّيْتُ

وَقَالَ آخَرُ:

بِاللَّهِ رِيكَمَا عَوْجَا عَلَى سَكْنَى
وَعَرَضَا بِي وَقَوْلَا فِي حَدِيثِكَمَا
فَإِنْ تَبَسَّمَ قَوْلَا عَنْ مَلَاظِفَةٍ
وَأِنْ بَدَا لَكُمَا مِنْ سَيِّدَى غَضَبِ

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي الشَّيْصَرِ:

وَمَعْرِضَةٍ تَنْظُرُ الْهَجْرَ فَرَضًا
كَأَنِّي قَدْ قَتَلْتُ لَهَا قَتِيلًا

وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الضَّحَّاكِ^(١):

بَعْضَى بِنَارِ الْهَجْرِ مَاتَ حَرِيقًا
لَمْ يَشْكْ عَشْقًا عَاشِقٌ فَسَمِعْتَهُ

وَقَالَ آخَرُ:

وَأَجْـمِلْ فِكْرِي فِي هَوَا
أَدْعُو عَلَيْكَ بِحَرْقَةِ

وَقَالَ آخَرُ:

يَا وَيْحَ مَنْ خَبِلَ الْأَحْبَبَةُ قَلْبُهُ
عَزَّوَا وَمَالَ بِهِ الْهَوَى فَاذَلَهُ
انْظُرْ إِلَى جَسَدٍ أَضْرَبَ بِهِ الْهَوَى
مَنْ كَانَ خَلَوًا مِنْ تَبَارِيحِ الْهَوَى

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ طَاهِرٍ:

تَقُولُ الْعَاذِلَاتُ تَسَلَّ عَنْهَا
فَكَيْفَ وَنَظَرَةٌ مِنْهَا اخْتِلَاسًا

وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ مَوْلَى الْمُهَلَّبِ:

هَبِّينِي يَا مَعْدِبَتِي أَسَاءَتْ
فَأَيُّنَ الْفَضْلَ مِنْكَ فَدَتَكَ نَفْسِي

مَنْ اللَّهُ بَلَوَى فِي الزَّمَانِ تَنَالَهَا
سَرِيعَ عَلَى جَيْبِ الْقَمِيصِ انْهَمَالَهَا
مِنَاهَا وَإِنْ كَانَتْ قَلِيلًا نَوَالَهَا

وَعَاتِبَاهُ لَعَلَّ الْعَتَبَ يَعْطِفُهُ
مَا ضَرَّ لَوْ بِوَصَالٍ مِنْكَ تَسْعَفُهُ
مَا بَالُ عَبْدِكَ بِالْهَجْرَانِ تَتَلَفُهُ
فَغَالَطَاهُ وَقَوْلَا لَيْسَ نَعْرِفُهُ

تَخَالُ لِحَاضَتِهَا لِلضَّعْفِ مَرْضَى
فَمَا مَنَى بِغَيْرِ الْهَجْرِ تَرْضَى

وَالْبَعْضُ أَضْحَى بِالدَّمْعِ غَرِيقًا
إِلَّا ظَنَنْتُكَ ذَلِكَ الْمَعِشَ شَوْقًا

كَ بَلَا لَسَانِ نَاطِقِ
مَنْ غَيَّرَ قَلْبَ صَادِقِ

حَتَّى إِذَا ظَفَرُوا بِهِ قَتَلُوهُ
إِنَّ الْعَزِيزَ عَلَى الذَّلِيلِ يَتَيَسَّرُ
لَوْلَا تَقَلُّبُ طَرَفِهِ دَفَنُوهُ
فَأَنَا الْهَوَى وَحَلِيفُهُ وَأَخُوهُ

وَدَاوُ عِلِيلَ صَبْرِكَ بِالسُّلُو
الَّذِي مِنَ الشَّمَاتَةِ بِالْعَدُو

وَبِالْهَجْرَانِ قَبْلَكُمْ بَدَأَتْ
عَلَى إِذَا أَسَاءَتْ كَمَا أَسَاءَتْ

(١) الحسين بن الضحّاك: هو الحسين بن الضحّاك بن ياسر، أبو علي البصري، خراساني الأصل مولى باهلة، شاعر معروف بالخلع، أقام ببغداد يتادم الخلفاء دهرًا طويلاً وهو حسن الافتنان في ضروب الشعر وأنواعه وبلغ سنًا عالية، توفي ببغداد سنة (٢٥٠هـ)، وقد قارب مائة سنة.

وقال أبو العتاهية:

يقول أناسٌ لو نعتَ لنا الهوى
سقامٌ على جسمي كثيرٌ موسعٌ
إذا اشتد ما بي كان أفضل حيلتي

وقال بشار:

يا قرة العين إنى لا أسمى
أخشى عليك من الجارات حاسدة
لولا الرقيبان إذا ودعت غادية
يا أطيّب الناس ريقاً غير مختبر
قد زرتنا مرة في الدهر واحدة

وقال آخر:

ألم تعلمي يا أحسن الناس أننى
أحبك ما لو كان بين قبائل

وقال آخر:

أقول لشادن في الحسن أضحي
ملككت الحسن أجمع في نصاب
وذاك بأن تجود لمستهام
فقال أبو حنيفة لى إمام

وقال آخر:

سقى الله ريعاً كنت أخلو بوجهكم
أقمنا زماناً والعيون قريرة

وقال آخر:

ألم تعلمي يا عذبة الماء أننى
وما رلت بي يا بين حستى لو أننى
أبو العباس الشهير بالنفيس^(١):

يا راحلاً وجميل الصبر يتبعه
ما أنصفتك جفوني وهى دامية

والله ما أدري لهم كيف أنعت
ونومٌ على عيني قليل مفوت
له وضع كفى فوق خدى وأسكت

أكنى بأخرى اسميها وأعنيك
أو سهم غيران يرميني ويرميك
قبّلت فاك وقلت النفس تفديك
إلا شهادة أطراف المساويك
بالله لا تجعلها بيضة الديك

أحبك حباً مستكناً وبادياً
من الناس أعداء لجر التصافيا

يصيد بطرفه قلب الكمي
فأد زكاة منظره البهي
برشف من مقبلك الشهي
يرى أن لا زكاة على الصبي

وثغر الهنا في روضة الحسن ضاحك
وأصبحت يوماً والجفون سوافك

أظل إذا لم أسق ماءك صاديا
من الوجد أستبكي الحمام بكى ليا

هل من سبيل إلى لقياك يتفق
ولا وفى لك قلبى وهو يحترق

(١) أبو العباس: هو أحمد بن عبد الغنى بن أحمد بن عبد الرحمن بن خلف بن مسلم اللخمي، المصري، المالكى القطرسى المنعوت بالنفيس (أبو العباس) أديب، شاعر، مشارك، فى الفقه وعلوم الفلاسفة له «ديوان شعر» توفى سنة (٦٠٣هـ - ١٢٠٦م).

الوزير ظهير الدين الملقب بأبى شجاع:

لَا عَذْبْنَ الْعَيْنِ غَيْرَ مَفْكُورٍ
وَلَا هَجْرَنَ مِنَ الرِّقَادِ لَذِيذُهُ
هِيَ أَوْقَعَتْنِي فِي حَبَائِلِ فِتْنَةٍ
سَفَكْتُ دَمِي فَلَأَسْفَحَنَ دُمُوعَهَا
وقال العتبي:

أَضْحَتْ بِخُدَيَّ لِلدَّمُوعِ رَسُومَ
وَالصَّبْرِ يَحْمَدُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا
الرفاء الأندلسي:

وَمَهْفَهْفٍ كَالْفُصْنِ إِلَّا أَنَّهُ
أَضْحَى يَنَامُ وَقَدْ تَكَثَّلَ خُدُّهُ
وقال آخر:

اخْضُرَّ وَاصْفَرَّ لَاعْتِلَالٍ
كَأَنَّ نَسْرِينَ وَجَتِييَهُ
يَرُشِحُ مِنْهُ الْجَسْبِينَ مَاءً
وقال آخر:

مَازَالَ يَنْهَلُ مِنْ صَرْفِ الطَّلَا قَمَرِي
وَقَامَ يَخْطُرُ وَالْأَرْدَافُ تُقَمِّعُهُ
فَعَائِلٌ فَعَلْتُ فَعَلَ الشَّمُولُ بِهِ
جَاذِبَتْهُ لِعُنَاقِي فَاثْنَى خَجَلًا
وقال لى بفتنور من لواحظه
وقال آخر:

بَارَكَا نَ هَذَا الْبَيْتِ إِنِّي لَطَائِفُ
رَعَى إِلَهَ أَيَّامًا وَنَاسًا عَهْدَتُهُمْ
وَبِي ذَهَبِيُّ اللَّوْنِ صَبِيغٌ لِمَحْنَتِي
يَذِيبُ فُؤَادًا وَهُوَ لَا غَشَّ عِنْدَهُ
وقال آخر:

أَسْنَى لِي إِلَى الدَّهْرِ عِنْدِي لَيْلَةٌ
فَرَقْتُ فِيهَا بَيْنَ جَفْنِي وَالْكَرَى

فِيهَا بَكَتْ بِالْدمْعِ أَوْ فَاضَتْ دُمًّا
حَتَّى يَعُودَ عَلَى الْجَفُونِ مُحَرَّمًا
لَوْ لَمْ تَكُنْ نَظَرْتُ لَكُنْتُ مَسْلُومًا
وَهِيَ الَّتِي بَدَأَتْ فَكَانَتْ أَظْلَمًا

أَسْفَا عَلَيْكَ وَفِي الْفُؤَادِ كَلُومَ
إِلَّا عَلَيْكَ فَإِنَّهُ مَذْمُومَ

تَحْوِيرِ الْأَلْبَابِ عِنْدَ لِقَائِهِ
عَرَفْنَا فَقُلْتُ الْوَرْدُ رُشٌّ بِمَائِهِ

فَصَارَ كَالنَّارِجِسِ الْمَضْعُوفِ
بَشَعَرَ أَصْدَاغِهِ مَغْلُوفِ
كَكُنَّا أَنَّهُ لَوْلَوْ مَنْصُوفِ

حَتَّى غَدَتِ وَجَتَاهُ الْبَيْضُ كَالشَّفَقِ
طَوَارًا وَحَاوَلَ أَنْ يَسْمَعِي فَلَمْ يَطُقِ
فَعَلَ النَّسِيمُ بِغُصْنِ الْبَنَانَةِ الْوَرَقِ
وَكَلَلْتُ وَجَتَاهُ الْحُمُرَ بِالْعَرَقِ
إِنَّ الْعُنَاقَ حَرَامَ قُلْتُ فِي عُنُقِي

وَفِي الْكُونِ أَسْرَارٌ وَفِيهِ لَطَائِفُ
جِيَادًا وَلَكِنْ اللَّيَالِي صَيَّارِفُ
يُرِيدُ امْتِحَانَاتِي وَمَا أَنَا زَائِفُ
فِيَا ذَهَبِيُّ اللَّوْنِ إِنَّكَ خَائِفُ

لَمْ أَخْلِ فِيهَا الْكَاسَ مِنْ أَعْمَالِي
وَجُمِعَتْ بَيْنَ الْقُرْطِ وَالْخُلْخَالِ

ومما قيل فى الرقباء:

لو أن لى فى الحب أمراً نافذاً
لقطعت السنة العواذل كلها
وقال أعرابى:

بهم الحب كَلَم فى فؤادى
تمكن ناظره به وأضحى
ومن حذره الرقيب إذا التقينا
ولولاه تشاكينا جميعاً
وقال آخر:

من عاش فى الدنيا بغير حبيب
عين الرقيب غرقت فى البحر العمى
وقال أحمد بن أبى سلمة:

يعذلنى فيه جميع الورى
أظن نفسى لو تعشقت بها
وأنا الغريب فلا ألام على البكا
وقال آخر:

وما فارت سعادى عن قلاها
بكيت نعم بكيت وكل ألف
وقال آخر:

وقائلة ما بال دمعى أبيض
ألم تعلمى أن البكا طال عميره
وعمما قليل لا دموع ولا دما
وقال آخر:

ولم أر مثلى غار من طول ليله
وما زلت أبكى فى دجى الليلة صبوّة
وقال آخر:

رجوت طيف خيال
والذاريات جفونى
وقال آخر:

يا نازح الطيف من نومى يعاودنى

وملكت بسط الأمر فى التعذيب
ولكنت أقلع عين كل رقيب

ولا كالكلّم من عين الرقيب
مكان الكاتبين من الذنوب
نسلم كالغريب على الغريب
كما يشكو المحب إلى الحبيب

فحياته فيها حياة غريب
لا أنت لا بل عين كل رقيب

كأننى جئت بأمر عجيب
بليت فيها بلام الرقيب
إن البكا حسن بكل غريب

ولكن شقوة بلغت مداها
إذا بان حبيبته بكاهها

فقلت لها يا علو هذا الذى بقى
فشابت دموعى عندما شاب مفرقى
ولم يبق إلا لوعتى وتحرقى

عليه لأن الليل يعشقه معى
من الوجد حتى ابيض من فيض آدمى

وكيف لى بهجوع
والمرسلات دموعى

فقد بكيت لفرط النازحين دما

أوجبت غسلًا على عيني بأدمعها
وقال آخر:

أرحم رحممت للوعسنتي
ودموع عسني لاتسل
وقال آخر:

أملت أن تعطفوا بوصالكم
وعلمت أن فراقكم لابد أن
وقال آخر:

إن عيني منذ غاب شخصك عنها
بدموع كأنهن الغوادي
وقال آخر:

يقولون لي والدمع قرح مقلتي
أدمعك جمر قلت لاتعجبوا
وقال البدر الذهبي:

قالوا تباكي بالدموع وما بكى
فأجبتهم هو من دمي لكنه
قال ابن مطروح في الغيرة:

ولو أمسى على تلفي مصراً
ولا تسمح بوصلك لي فإني
وقال آخر:

أغار عليك من نظري ومنى
ولو أنى خبأتك في جفوني
المظفر بن عمر الأمدى:

قلت للذين جفوني إذ لهجت بهم
أحبكم وهلاكى فى محبتكم
وقال غيره:

لم أنس أيام الصبا والهوى
ذاك زمان مرّ حلوا الجنى
الشريف الرضى:

علّانى بذكركم واسقيانى

فكيف وهى التى لم تبلغ الحلم

وابعث خيسالك فى الكرى
عن حالها يا ما جرى

فرأيت من هجرانكم ما لا أرى
يجرى به دمعى دماً وكذا جرى

يا امر السهد فى كراها وينهى
لاتسل ما جرى على الخد منها

بنار أسى من حبة القلب تقدح
فكلّ وعاء بالذى فيه ينضح

بدم على عيش تصرم وانقضى
لما تصاعد صار يقطر أبيضاً

لقلت معذبي بالله زدنى
أغار عليك منك فكيف منى

ومنك ومن مكانك والزمان
إلى يوم القيامة ما كفانى

دون الأنام وخير القول صدقه
كمابد النار يهواها وتحرقه

لله أيام النجاسا والنجاس
ظفرت فيه بحبيب وراح

وامزجاً لى دمعى بكأس دهاق

وخذا النوم من جفونى فإنى
وقال آخر:

قالوا أترقد مذ غبنا فقلت لهم
ما حقّ طرف هدانى نحو حسنكم
عز الدين الموصلى:

فسُدتْ لطول بعادكم أحلامنا
والطيف قد وعد الجفون بزورة
ومما قيل فى السهر وطول الليل ونحو ذلك: قال الشاعر:
وربّ ليلٍ سهـرناه وقد طلعت
كأنما أدهم الظلماء حين نجا
وقال آخر:

ليل المحبين مطوىّ جوانبه
ما ذاك إلاّ لأنّ الصبح نمّ بنا
وقال غيره:

فلم أرَ مثل ليلِ ذوى التّصايبى
فيشكو طوله أهل التّجافى
وقال آخر:

ليلى ولىلى سواء فى اختلافهما
يجود بالطول ليلى كلمما بخلت
وقال آخر:

إنّ اللـيلى الى للأنام مناهل
فقصارهن مع الهموم طويلة
وقال غيره:

ربّ ليلٍ لم أذق فـيـه الكرا
كلمما هيـج ليلى حـرقى
وقال آخر:

يا ليل ظلّ أو لا تظـل
لو بات عندى قـمـمـرى
وقال بشار بن برد:

خليلى ما بال الدجى لايزحـزح

قد خلعت الكرى على العشاق

نعم وأشفق من دمعى على بصرى
أتى أعذبه بالدمع والسهـر

وعقولنا وجفا الجفون منام
يا حبّذا إن صحت الأحلام

بقية البدر فى أولى تسايـره
من أشهب الصبح ألقى نعل حافـره

مشمرّ الذيل منسوب إلى القـصـر
فاطلع الشمس من غيظ على القـمـر

وكلّ يشتكى به بكل حال
بالطول ليلى وإن جادت به بخـلا

قد صيرانى جميعاً فى الهوى مثـلا
بالطول ليلى وإن جادت به بخـلا

تطوى وتنشر بينها الأعمـار
وطوالهنّ مع السرور قـصـار

حظّ عيني فيه دمع وسهـر
صحت بالليل أما فيك سحر

لابدّ لى من سهـر
ما بت أرعى قـمـمـرك

وما بال ضوء الصبح لايتوضّح

أضلَّ إليها المستنير طريقه
وقال آخر:

كأنَّ الشريا راحةً تشبُّر الدجى
فليلى تراه بين شرقٍ ومغربٍ
وقال ابن منقذ:

لما رأيت النجم سواه طرفه
وبنات نعشٍ فى الحداد سوافر
وقال آخر فى ليلة ممطرة:

أقول والليل فى امتدادٍ
أظن ليلى بغسيـر شكٍ
ومما جاء فى الأشعار الخمرية قول صفى الدين الحلـى:

بدت لنا الراح فى تاجٍ من الحبيب
بكرٍ إذا روجت بالماء أولدها
بقيةً من بقايا قوم نوح إذا
بعيدة العهد بالمعصار لو نطقت
باكرتها برفاقٍ قد ذهبت بهم
بكلِّ متشجٍ بالفضل مؤتزر
بل ربَّ ليلٍ غدا مثل الإهاب غدت
بذلت عـقلى صداقاً حين بت به
بتنا بكاساتها صرعى ومطربنا
بعث ألم فلم نعلم لفرحتنا
بروضةٍ ظلَّ فيها الطلُّ أدمعه
وقال أيضاً:

تاب الزمان من الذنوب فسوات
تم السرور فقم يا صاحبى
توج بكاسات الطلاهام الربا
تغدو سلاف القطر دائرة بها
تلّف النضار على العقار غنيمتى
تركى لاكياس النضار جهالة
تبت يدا من تاب عن رشف الطـ

أم الدهر ليلٌ كله ليس بـرح

ليعلم طال الليل أم قد تعرّضا
يقاس بشبـر كيف يرجى له انقضا

والقطب قد ألقى عليه سبباتا
أيقنت أن صبايحهم قد ماتا

وأدمع الغيث فى انسـفـاح
قد بات يـكى على الصـباح

فخرقت حلة الظلماء باللهب
أطقال در على مهـدٍ من الذهب
لاحت جلّت ظلم الأحـزان والكرب
لحدّثنا بما فى سالف الحـقب
قبل السلاف سلاف العلم والأدب
كأنَّ فى لفظه ضرباً من الضرب
تنقض فيه كؤوس الراح كالشهب
أروج ابن سحاب بابنة العنب
يعيد أرواحنا من شدة الطرب
من نفخة الصور أم من نفخة القصب
والزهر مـبـتـسـمٌ عن ثغره الشنب

واغنم لذى العيش قبل فسوات
تستدرك الماضى بنهب الآتى
فى روضة مطلولة الزهرات
والكأس دائرة بكف سقاة
وقراع راحاتى على الراحات
من ذا أحق بها من الكاسات
لا والكاس متقد كخـد فتاة

تابع إلى أوقاتهما داعى الصببا
تم بهما نقص السرور فإنهما
وقال أيضاً:

حى الرفقاق وطف بكاس الراح
حث الكؤوس على جسوم أصبحت
حاش الأنام وعاطنى مشمولة
حمراء لو ترك السقاة مزاجها
حبيب تظل به الكؤوس كأنها
حجب الحباب شعاعها فكأنه
حكم الزمان وغض عنا طرفه
وقال آخر:

قد قلت إذ أضحي يعبس كلما
تالله ما أنصفتها يا سيدي
عز الدين الموصلى:

لئن شبّه الساقى المدام بعسجد
ولكن رآها جوهراً سُميت طلاً
يزيد بن معاوية:

وشمة كرم برجها قعر دنها
مدام كتبير فى إناء كفضة
وقال آخر:

كأن الندامى والسقاة ودنا
شموس وأقمار وفلك وأنجم
وقال آخر:

فكأنها وكأن حامل كأسها
شمس الضحى رقصت فنقط وجهها
وقال كشاجم:

صدح الديك فى الدجى فاسقنيها
لست أدري من رقية وصفاء
كمال الدين بن النبيه:

قم يا غلام ودع مقالة من نصح

واعجب لما فيها من الآيات
عند الكرام تتسممة اللذات

واطرز بكاسك حلة الأفراح
فيها المدام شريكة الأرواح
ظنت فسادی وهى عين صلاح
أغنى تالؤها عن المصباح
خصر الفتاة منطق بوشاح
شفق تلهب تحت ذيل صباح
يا صباح لاتقنع بآنك صباح

دارت عليه بالمدام الأكسوس
تأتيك باسممة وأنت تعبس

فقد مال بالتشبيه عن صيغة الأدب
فميز ما قد حلت الكاس بالذهب

وظلعتها الساقى ومغربها فمى
وساق كبلد مع ندامى كأنجم

وكاساتنا فى الروض تملى وتشرب
ونور ونوار وششرق ومغرب

إذ قام يجلوها على الندماء
بلد الدجى بكواكب الجوزاء

خمرة تترك الحليم سفيها
هى فى الكأس أم هو الكاس فيها

فالدّيك قد صدع الدجى لما صدح

وليلة أوســــــــــــــــــــمــــــــــــــــــــتى
مـــــــــــــــــــــا زلت ألثم بدراً
عبد الله بن محمد العطار وقيل يزيد بن معاوية:
وكأس يرينا آية الضبح فى الدجى
مقطبة ما لم يزرها مزاجها
فيا عجباً للذهر لم يخل مهجة
وقال ابن تميم:

ما ضلّ في الظلماء من قدح القدح
لمقطب إلاّ تهلّل وانشـرح
لكنه مزج المسرة بالفـرح
سـرّأوها في باخلٍ إلاّ سـمح
عذر لمن خلع العذار أو افـتـضح

فأولها شمس وآخرها بدرُ
فلإن جاءها جاء التبسمُ والبشعرُ
من العشق حتى الماء يعشقه الخمرُ

192

ابن مكائس:

نزل الطلُّ بكرةً
والندامي تجمموا

الشيخ شهاب الدين بن الحجازي:

كأسنا يا صاح صرفاً
لم نجد ماءً لمزج
صفى الدين الحلبي:

كيف لا تخضع العقول لدها
ألفوا في الكؤوس إذ مزجوها
غيره:

صهبا في الكاس صرفاً
ظنها في الكاس ناراً
مجد الدين بن تميم:

نديى لا تسقى قنى
ودع كأسها أطلساً
تقي الدين بن حجة:

حيّا بها عاصرها في كأسها
وقال هذى تحفة في عصرنا
أبو الطيب المتنبي:

يا صاحبي امزجاً كأس المدام لنا
خمراً إذا ما نديى همّ يشربها
لو راح يحلف أنّ الشمس ما غربت
وقال آخر:

بنت كرم يتّموها أمها
ثم داروا حكّموها فيهم
وقال آخر:

عناقيد على قضب تدلت
إذا عصرت بدا في الكأس منها
برهان الدين بن المعمار:

باكر لكرم العنب المجستنى
واعصره واستخرج لنا ماءه

وتوالى تجمّم دداً
فأجل كأسى على الندى

جلّيت بين الندامي
لقنمنا بالندامي

وهى سلطان سائر المسكرات
بين ماء الحينا وماء المات

غلبت ضوء السراج
فطفهاها بالمزاج

سوى الصرف فهو الهنى
ولا تسقى قنى مع دنى

مشرقة باسمه كالشفر
قلت اسقنيها يا إمام العصر

كيما يضىء لنا من أفقها الغسق
أخشى عليه من اللألاء يحترق
فى فيه كذبه فى وجهه الشفق

وأهانوها بدوس بالقدم
ويليسهم من جور مظلوم حكم

حكى منظومها عقيد اللالى
دوالى قى تد تربت فى دوالى

واسستجنه من عند عتابه
لكى تزيل الهمم عنابه

جولان العاذلي:

إذا ما الخمر في الكاسات صُبَّتْ
وإن جليت على الندمان يوماً
وقال في الشراب المطبوخ:

يا من يعذب ماء الكرم يحرقه
إن التي طبختها الشمس أنفع لي
وقال أيضاً:

وعتيقة رقت وراق مزاجها
لم يبق منها غير نزرٍ ساطع
ترنو إليك من الحبيب بأعين
وقال غيره:

لا تعصرن زيباً واعتصر عنباً
هذا من الحى للأحياء معتصر
وقال غيره:

عابوا على مداماً
واستنكروها وقالوا
وقال آخر في الشراب على الرعد والبرق:

أما ترى الرعد بكى فاشتكى
فاشرب على غيم كصبيغ الدجى
وانظر لماء النيل في مـدـة
وقال آخر:

يا ليلة جمعت لنا الأحبابا
بتنا بها نسقى سلافاً قرقفاً
من كف غانية كأن بنانها
وقال آخر:

أما ترى الغيث كالباكي بأدمعه
فقم فديتك نشكو ما نكابه
ابن نباتة:

أما ترى الليل قد ولت غياهبه
فاشرب على وردة وردية قدمت
ومن شعر عضد الدولة:

رأيت لها شمساً في بروج
تراحمت الهموم على الخروج

بالنار في أي شيء تظلم العنب
ولست أخسر لا قدراً ولا حظاً

لطفاً وأنحلها الزمان الغابر
لا يستطيع يجول فيه الناظر
خلقت ولم تخلق لهن محاجر

فبين هذين فرقنا بتصريح
وذاك يعصر من جسم بلا روح

أخترتها لصباحي
ارتحت قلت روحى

والبرق قد أومض فاستضحكا
أضحك وجبه الروض لما بكى
كأنه صندل أو مصطكا

لو شئت دام لنا النعيم وطابا
يذر الصبح بعقله مرتابا
من فضة قد قمت عتابا

والأرض تضحك والأزهار في فرح
من الزمان وما نلقى إلى القـدح

وعارض الفجر بالإشراق قد طلعا
كأنها خد ريم ريم فامتعا

طربت إلى الصُّبوح مع الصُّباح
وكان الثلج كالكافور نثراً
فمشمومي ومشروبي وناري
لهيب في لهيب في لهيب
ابن وكيع:

وصفراء من ماء الكروم كأنها
كأن الحباب المستدير بطوقها
صببت عليها الماء حتى تعوّضت
وقال آخر:

وحمرء قبل المزج صفراء بعده
حكّت وجنة المعشوق صرفاً فسلطوا
وقال آخر:

إذا الكروان صاح على الرمال
وجعد وجهه بركتنا هبوباً
وحركت الغصون فشابهتها
فهات الكأس مترعة ودعني
فكل جماعية لاشك يوماً
وقال آخر في الشراب على الغيم:

أرى غيماً تؤلفه جنوباً
فوجه الرأي أن تدعو برطل
وقال آخر:

فيا بكر باكر بكرة بكر كرمية
وداو خمار الخمر بالخمر إنما
وقال الصنوبري:

لاتبكين على الأطلال والذمن
وقم بنا نصطبج صهباء صافية
بكرأ معتقة عذراء واضحة
حمرأ مروقة صفراء فاقعة
يسعى بها غنج في خلدّه ضرج
في ريقه غسل قلبي به خبل
كأنه قمر ما مثله بشر

وشرب الرّاح والغرر الملاح
وناري بين نارنجي وراحي
وثلجي والصباح مع الصباح
صباح في صباح في صباح

فراق عدو أو لقاء صديق
كواكب در في سماء عقيق
قميص بهار من قميص شقيق

أتت بين ثوبي نرجس وشقائق
عليها مزاجاً فاكتست لون عاشق

وحل البدر في برج الكمال
تمرّ به الجنوب من الشممال
قدود سقائنا في كل حال
أبادر لذتي قبل ارتحال
يفرق بينهم صرف الليالي

ويوشك أن يوافقنا بهطل
فتشربه وتدعو لي برطل

تفزز بكور باكرتك بها بكر
دواء خمار الخمر من دائها الخمر

ولا على منزل أقوى من السكن
تنفى الهموم ولا تبقى على الحزن
تبدو فتخبرنا عن سالف الزمن
كأنما مزجت من طرفك الوسنى
في ثغره فلج يئى إلى اليمن
في مشيه مئل أرى على الغصن
في طرفه حور يرنوا فيجرحني

سبحان خالقك يا وبع عاشقك
في روضة زهرت بالنبت قد حسنت
يا طيب مجلسنا والطير يطربنا
كمال الدين بن النبيه:

طاب الصبوح لنا فهناك وهات
كم ذا التواني والزمان مساعداً
قم واغتنبق من شمس كاسك واصطبج
حمراء صافية توقد نورها
ينسل في قاع الظروف حبابها
عذراء واقعها المزاج أما ترى
يسعى بها عبل الروادف أهيف
يهوى فتسبقه ذوائب شعره
لو قسمت أرزاقنا بيمينه
وقال أيضاً:

باكر صبوحك أهني العيش باكره
والليل تجرى الدارارى في مجرته
وكوكب الصبح نجاب على يده
فانهض إلى ذوب ياقوت لها حبيب
حمراء من وجنة الساقى لها شبه
ساق تكون من صبح ومن غسق
بيض سوافه لعس مراشفه
مفلج الثغر معسول اللوى غنج
مهفهم القد يدي جسمه ترقا
تعلمت بانه الوادى شممائله
كانه بسواد اللحظ مكتحل
فلو رأت مقلتنا هاروت آتسه ال
خذ من زمانك ما أعطاك مغتتما
فالعمر كالكاس تستحلى أوائله
واجسر على فرص اللذات محتقرا
وقال آخر:

شربنا بالبطاطى ثم رحنا
ولولا خيفة الإجمام قلنا

برهان الدين القيروطى:

يهدى لرامقه صنفاً من الشجن
كأنها فرشت من وجهه الحسن
والعود يسعدنا مع منشد لن

واشرب هنيئاً يا أخوا اللذات
والدهر سمح والحبيب مواتى
بكواكب طلعت من الكاسيات
فمجببت للنيران فى الجنات
والدر مجتلب من الظلمات
منديل عذرتها بكف سقاء
خنث الشمائل شاطر الحركات
ملتفة كأساود الحيات
عدل الزمان على ذوى الحاجات

فققد نرثم فوق الأيك طائره
كالروض تطفو على نهر أزهرة
مخلق تملأ الدنيا بشائره
تنوب عن ثغر من تهوى جواهره
فهل جناها من العنقود عاصره
فابيض خداه واسودت غدائره
نعس نواظره خرس أساوره
مؤنث الجفن فحل اللحظ شاطره
مخصر الخصر عبل الردف وافره
وزورت سحر عينية جاذره
وركت فوق صدغيه محاجره
كبرى لآمن بعد الكفر ساحره
وأنت ناه لهذا الدهر أمـره
لكنه ربما مـرت أواخره
عظيم ذنبك إن الله غافره

نعلل بالكؤوس وبالقناني
لساقىيها أدرها بالدنان

أرى جرار الخمر تغلو وقد
جئنا لخممار وقلنا له
قال زيببنا تريدون أم
قلنا له خمرراً فنادى زنوا
وقال أيضاً:

صرف الزبيب لصرف همى
أهلاً على سكرة لعللى
وقال:

قالوا اترك الخمر واجتنبها
قلت أراها للروح قسوتاً
ومما قيل فى شرب الفقهاء:

يحمون بالفقه عرض الدين من سفه
وبعضهم يكرع الصهباء مغتنماً
ومما قيل فيمن يطيل الحديث والكأس فى يده:

وشادن نطقه جارٍ إذا شفعت
يظل يحكى وكأس الراح فى يده
ومما قيل فى كريم السكر لثيم الصحو:

إذا هز اللثيم السكر يومئاً
يجود بماله فى الشرب سكرأ
وقيل فى شجاع السكر:

إذا شرب الجبان الخمر يومئاً
وعند الصحو تلقاه جزوعاً
وفيه أيضاً:

يقول جبان القوم فى حال سكره
وأين الخيول الأعوجيات فى الوغى
ومن لى بحرب ليس تخمد نارها
ففى السكر قيس وابن معدى وعامر
وقال فى شرب الثلاثة:

ثلاثة فى مجلس طيب
هذا يغنى ذا وهذا السدى
وقيل فى شرب الأربعة:

ألا إنما خير المجالس مجلس
فتاة وساق والمغنى وصاحب

عزت وبالإفلاس حالى عجيب
احمل إلينا جرة كى نطيب
خمرأ فإن الكل منى قريب
فى جرة عشرين قلنا الزبيب

نص على نفعه طيبى
أن أخلط الهمم بالزبيب

لا تتعد الحرام حداً
وطالب القسوت ما تعدى

علماً بمصريف أحوال وتحقيق
تحت الظلام بأفـواه الأباريق

فى مجلس الشرب كاسات بطاسات
حكاية عرضها عرض السموات

بدا فى بذل مال فيه ضناً
ويأكل كفه فى الصحو حزناً

أعارته الشجاعة باللسان
إذا اشتد اللقاء يوم الطعان

وقد شرب الصهباء هل من مبارز
أناقل فيهما كل لبث مناhez
لعمرى إنى لست فيهما بعاجز
وفى الصحو تلقاه كبعض العجائز

وعيشهم ما فيه تكدير
يسقى وذا بالشرب مسرور

به وله صفو الزمان مساعداً
وخامسهم هم على الكل زائد

وقيل في شرب الستة:

خير المجالس خمسة أو ستة
فإذا تعدى صار شغلاً شاغلاً
فأهرب إذا ما كنت تاسع مجلس
ومما قيل في الشرب مع التجار:

شربت مع التجار وكان يوماً
فذاك يقول كم أطلقت بيعاً
وهذا قال عندي كل شيء
فلا تجعلهم أبداً ندامى
ومما قيل فيمن أكل على الشراب:

وندمان إذا ما الكاس دارت
نديم دأبه في السكر أكل
وقيل في قدح:

غرامى وجدى بالذى كان في الثرى
قضى ما عليه من ورود جهنم

محمد بن جعفر الأنصاري يستدعي بعض أصدقائه إلى الشراب:

بساط الأرض منك وعبير
وقد صفى الدنان الخمر حتى
ومن يرد السرور يعش هنيئاً
وعندي اليوم فتيان كرام
وقطب الأمـر أنت وهل لأمر
فرأيك في الحضور فحق يومى
وقال آخر:

باكر صبوحك واشربها مشعشة
حمراء من بعدما احمرت مودة
كان في كأسها والماء يقرعها
لا صاحبتنى يد لم تغن ألف يد
وقال آخر:

بادر بجودك بادر قبل عائقة

سيف الدولة بن حمدان في ساق:

أو سبعة على الكثير ثمانية
وتكسرت بين الرجال الأنبيه
ولئن أتيت به فأملك زانيه

جعلت حضورنا فيه وداعاً
ووفيت الذى بعث الذراعاً
ولكن لا أبيع ولا أبايع
فتكسب من مجالسهم صداعاً

بغدير الأكل ارتعدت يده
فلا يبقى على شيء يراه

مهائاً فأضحى في المجالس حاكماً
فصار لجنات النعيم ملازماً

وزهر الروض وشى أو حـرير
لقـد عـادت لدينا وهى نور
إذ العيش الهنىء هو السرور
وجوههمو شـمـوس أو بدور
بغدير القطب فيه رحي تدور
عليك وقد دعاك له الحضور

واهناً بعيش حميد غير مذموم
طافت علينا فسرت كل مهموم
أكـارـع النـمى أو نقش الخواتيم
ولم ترد القنا حمر الخياشيم

فإن خلف الفتى عندي من اللوم

وساقٍ في صبيحٍ للصبح دعوته
يطوف بكاسات العقار كأنجم
وقد نشرت أيدي النجوم مطارفا
يطرزها قوس السماء بأصفر
كأذيال خود أقبلت في غلائل

ابن نباتة:

سقى وواعدنى وصلأ الذ به
قبيلة الله من ساق مواءه

وقال آخر في ساق:

وساق كأنهلال سعى بكاس
فقلت تأملوا بدرأ منيـراً

وفيه لابن النبيه:

ساقٍ صحيفة خده ما سودت
جمد الذي ييمينه في خده

في جارية ساقية:

ندمتي جارية ساقية
جارية أعينها جنة

فيمن حبس الكاس في يده:

قالوا الذي تهواه يحبس كاسه
فأجبتهم كفوا الملام فإته

وقال آخر في مجلس أنس:

ومجلس راق من واشٍ يكدره
ما فيه ساع سوى الساقى وليس له

صفى الدين الحلبي في عود:

ولى عود به عباد السرور لأنه
يفرب في تغريده فكأنه

وقال آخر في زامرة:

وناطقة بالنفخ عن روح ربها
سكتنا وقالت للقلوب فأطربت

ومما قيل في فانوس لابن تميم:

انظر إلى الفانوس تلق مستيماً
يبدو تلهب جسمه لنحوه

وفيه لابن قزل:

فقيام وفي أجفانه سنة الغمض
فمما بين منقض علينا ومنقض
على الجسو أدكنأ والحواشي على الأرض
على أحمر في أخضر تحت مبيض
مصبغة والبعض أقصر من بعض

عند المنام ولا والله ما وصلأ
كانت مواءيد عرقوب لها مثلاً

لربة نرجس فسقى وحيا
سقى شمساً وحيا بالثريا

عبيثاً بلام عذاره وبنونه
وجرى الذي في خده ييمينه

ونزهتى ساقية جارية
وجنة أعينها جارية

في كفه من غير ذنب موجب
قمر ينزه طرفه في كوكب

ومن رقريب له باللوم إيلام
على الندامى سوى الريحان تمام

حوى اللهو قدماً وهو ريان ناعم
يعيد لنا ما لقتته الحمام

تعبر عما دوننا وتترجم
فنحن سكوت والهوى يتكلم

ذرفت على فقد الحبيب دموعه
وتعد من تحت القميص ضلوعه

وكأنما الفانوس فى غسق الدجى
اضلأعه خففت ورق أديمه
ولبعضهم فى شمع:

حكنتى وقد أودى بى السقم شمع
ضنى وسهاداً واصفراراً ورقه

ومما قيل فى الربيع والرياض والبساتين والمياه والنواعير ونحو ذلك. قال الشاعر:

هذا الربيع وهذه أزهاره
وبدا البنفسج والشقائق مونتق
فاشرب على وجه الحبيب وغن لى
وقال غيره:

غردونا على الروض الذى طله الندى
فلم نر شيئاً كان أحسن منظراً
وقال آخر:

أما ترى الأرض قد أعطتك زهرتها
فلسماء بكاء فى جوانبها
وقال غيره:

إن السماء إذا لم تبك مقلتها
والأرض لا تنجلي أنوارها أبداً
وقال ابن قرناص:

أيا حسنها من رياض غدا
مشى الماء فيها على رأسه
وقال آخر:

انظر إلى الأغصان كيف تعانقت
كالصب حاول قبلة من إلفه
وقال ابن تميم:

وحديقة ينساب فيها جدول
يبدو خيال غصونها فى مائه
وقال أيضاً عفا الله عنه:

لم لا أهيم إلى الرياض وحسنها
والزهر حيانى بثغر باسم
وقال آخر:

قد سمعنا نبغى زيارة دوح

دنف براه شوقه وسهاده
وجرت مدامعه وذاب فؤاده

وإن كنت صباً دونها متوجعاً
وصبراً وصمتاً واحتراقاً وأدمعاً

متجاوب فى أيكه أطياره
والورد يضحك بينها وبهارة
هذا هواك وهذه آثاره

سحيراً وأوداج الأباريق تسفك
من النور يجرى دمه وهو يضحك

بخضرة واكتسى بالنور عاريها
وللربيع ابتسام فى نواحيها

لم تضحك الأرض عن شيء من الزهر
إلا إذا رمدت من شدة المطر

جنونى فنوتاً بأفنانها
لتقبيل أقدام أغصانها

وتفارقت بعد التعانق رجعاً
فرأى المراقب فائضى متوجعاً

طرفى برونق حسنها مدهوش
فكأنما هو معصم منقوش

وأظل منها تحت ظل صافى
والماء وافئانى بقلب صافى

قد حيانا باللطف والإكرام

ناولتنا أيدي الغصصون ثمارا

(ومما قيل في الأزهار والثمار) قال بعضهم في الورد:

يا راقداً ونسيم الصباح متعبه
الورد ضيف فلا تجهل كرامته
سقياً له زائراً تحيا النفوس به

وقال آخر فيه:

طاب الزمان وجاء الورد فاصطبحا
واستقبلا عيشنا بالكأس مترعة

وقال آخر:

اشرب على الورد من حمراء صافية
واستوف بالكأس من لهور ومن طرب

وقال آخر:

اشرب على ورد الخدود فإنها
ما الورد أحسن منظر من وجنة

وقال بعضهم:

ولقد رأيت الورد يلطم خده
لا تقربوه وإن تضويع نشره

(ومما قيل في البنفسج) قال ابن المعتز:

ولازوردية وافت بزورتهها
كأنما فوق طاقات صففن بها

وقال آخر:

اشرب على زهر البنفسج قهوة
فكأنه قرص بخد مهفف

أخرجتها لنا من الأكمام

في روضة القصف والأطياف تتحب
فهاتها قهوة في الكاس تذهب
يجود بالوصل شهراً ثم يحتجب

مــــا دام للورد أنوار وأزهار
لا طولت للئام الناس أعمار

شهراً وعشراً وخمساً بعدها عددا
فلست تأمن صرف الحادثات غدا

أيام ورد والصبح يطيب
حمراء جاد بها عليك حبيب

ويقول وهو على البنفسج يحرق
من بينكم فهو العدو الأزرق

بين الرياض على زرق اليواقيت
أوائل النار في أطراف كبريت

تهدي السرور لكل صب مكمدا
أو أعين زرق كحلن بأثمد

ولبعضهم في الورد:

للورد فضل على زهر الربيع سوى
كأنه وعيون الناس ترمقه

وقال آخر:

يا مهدياً لي بنفسجاً أرجاً
بشرتي عاجلاً مصحفة

وقال غيره في النرجس:

وقضب زمرد تعلقو عليها
توهمت الغمام لها رقيباً

وقال آخر فيه:

أنت يا نرجس روض
ودليل القبول فـيـك

وقال آخر:

أقول وطرف النرجس الغض شاخص
أيا رب حتى في الحداق أعين

وقال أيضاً فيه:

لما تمادى الورد في زهوه
تلون المنثور مما به

ومما قيل في اللينوفر لابن المعز المصري:

وبركة تزهو بـلينوفر
مفتح الأجفان في نومه
أطبق جفنيه على خده

وقال تميم بن المعز المصري:

رأيت في البركة لينوفرا

أن البنفسج أزكى منه في المهج
آثار قرص يد في خد ذي غنج

يرتاح صدرى له وينشـرح
بأن ضيق الأمـور ينفـسـح

عيون لم تذوق طعم الغـمـاض
فنكست الرؤوس إلى رياض

لـزهور الأرض سـت
أن أوراقك سـت

إلى وللنمام حـولى المام
علينا وحـتى فى الرياحين نـام

وراح من إعـجـابه يرأس
واصفـر من غـيـظ به النرجس

نسيمه يشبه نشر الحبيب
حتى إذا الشمس دنت للمغيب
وغاص في البركة خوف الرقيب

فقلت ما شأنك وسط البرك

فَقَالَ لِي غُرَقْتَ فِي أَدَمِي
فَقُلْتُ مَا بَالُ اصْفَرَارِ بَدَا
فَقَالَ لِي أَلْوَانُ أَهْلِ الْهَوَى

وَمَا قِيلَ فِي الْبَانِ:

قَدْ أَقْبَلَ الصَّيْفُ وَوَلَّى الشِّتَا
أَمَّا تَرَى الْبَانُ بِأَغْصَانِهِ

وَقَالَ آخِرُ فِيهِ:

أَوْ مَا تَرَى الْبَانُ الَّذِي يَزْهَوُ عَلَى
وَأَفَى يَبْشُرُ بِالرَّبِيعِ وَقَرْبِهِ

وَقَالَ فِي الشَّقِيقِ:

حَبِيبَتُهُ بِشَقَائِقِ فِي مَجْلِسِ
فَاحْمَرُ مِنْ خَجَلٍ فَأَنْبَتَ خَدَهُ

وَقَالَ آخِرُ:

لَوْ لَمْ أَعْلَنْكَ مِنْ أَحَبِّ بَرُوضَةٍ
مَا انْشَقَّ جَيْبُ شَقِيقَتِهَا حَسَدًا وَلَا

وَقِيلَ إِنَّ ابْنَ الرُّومِيِّ زَارَ قَبْرَ أَخِيهِ يَوْمًا فَوَجَدَ الشَّقَائِقَ قَدْ نَبَتَ عَلَى قَبْرِهِ فَأَنشَدَ يَقُولُ:

قَالَتْ شَقَائِقُ قَبْرِهِ
فَارْقُتْهُ وَلِزِمْتَهُ

وَمَا قِيلَ فِي الْمَثُورِ:

تَخَالُ مَثُورُهَا فِي الدُّوْحِ مَتَشُورًا
وَالطَّيْرُ يَنْشُدُ فِي أَغْصَانِهِ سَحَرًا

وَقَالَ آخِرُ:

قَدْ أَقْبَلَ الْمَثُورُ يَا سَيِّدِي
ثَنَّاكَ لَا زَالَ كَأَنْفَاسِهِ

وَصَادَنِي ظَبْيُ الْفَلَاحِ بِالشَّرْكَ
فَبَيْكَ وَمَا هَذَا الَّذِي غَيَّرَكَ
صَفَرٌ وَلَوْ ذُقْتَ الْهَوَى صَفَرَكَ

وَعَنْ قَلِيلٍ تَسْلَامُ الْحَرَا
قَدْ قَلَبَ الْفَرُّو إِلَى تَبَرَا

كُلُّ الْغُصَّوْنَ بِقَدِّهِ الْمِيَّاسِ
يَخْتَالُ فِي السَّنَجَابِ وَالْبِرْطَاسِ

وَرَأَى الرَّقِيبَ فَشَقَّ ذَاكَ عَلَيْهِ
أَضْعَافَ مَا حَمَلَتْ يَدَايَ إِلَيْهِ

أَحْدَاقُ نَرْجَسِهَا إِلَيْنَا تَنْظُرُ
بَاتَ النَّسِيمُ بِذَيْلِهِ يَتَمَثَّرُ

وَلَرَبُّ أَخِي نَاطِقُ
فَأَنَا الشَّقِيقُ الصَّادِقُ

كَأَنَّمَا صَبِغَ مِنْ دُرٍّ وَعَقِيمَانِ
هَذَا هُوَ الْعَمِيشُ إِلَّا أَنَّهُ فَنَانِي

كَالدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ فِي نَظْمِهِ
وَمِنْ مَنْ يَشْنَاكَ مِثْلَ اسْمِهِ

ولبعضهم فيه:

ولقد خلوت مع الأحبة مرة
ما بين مشور أقام ونرجس
هذا يشير بأصبع وعيون ذا

ومما قيل في الياسمين:

والأرض تبسم عن ثغور رياضها
وكان مخضر الرياض ملاءة

وقال آخر:

رأيت الفأل بشرني بخير
فلا تحزن فإن الحزن شين

ومما قيل في السوسن لأخطل الأهوازي:

سقيًا لأرض إذا ما غمت نبهني
كان سوسنها في كل شارقة

ومما قيل في الأقحوان لعبد القادر بن مهنا المغربي:

أفدى الذي زارني سرًا فأتحفني
فبت من فرحي أفنى مقبله

ولبعضهم فيه:

إن فاه ثغر الأقاحي في تشبهه
فقل له عندما يحكيه مبتسمًا

ومما قيل في الجلنار:

وجلنار مشرق
كانه في غصنه
قراضة من ذهب

ومما قيل في الآس:

في روضة للزهر فيها معرك
مع أقحوان وصفه لا يدرك
ترنو إليه وثغر هذا يضحك

والأفق يسفر تارة ويقطب
والياسمين لها طراز مذهب

وقد أهدى إلى الياسمين
ولا تبأس فإن اليأس مين

بعد الهدو بها قرع النواقيس
على الميادين أذئاب الطواويس

بأقحوان يحاكي ثغر مبتسم
لثمًا وأرشف من ريق له شميم

بشعر حبك واستولى به الطرب
لقد حكيت ولكن فأتك الشنب

على أعالي شجره
أحمره وأصفره
في خرقية معصفه

أهديت مشبهه قدك المياس
فكأنما يحكيك فى حركاته
ومما قيل فى الريحان:

وغصن من الريحان أخضر ناضر
يريك إذا كف الصبا عبت به
وفيه أيضاً:

وريحان يمس بحسن قد
كسودان لبسن ثياب خزر
وقال آخر:

قضيب من الريحان شاكل لونه
فشبهته لما بدا متجعداً

(ومما قيل فى الفواكه والثمار على اختلافهما) قال ابن الرومى فى الأترج:

كل الخلال التى فيكم محاسنكم
كأنكم شجر الأترج طاب معاً
ولبعضهم فيه:

حياك من تهوى بأترجة
فجلدها من ذهب أصفر
وقال آخر:

يا حبيبـ إذا أترجة
كأنها كافورة

فى الليمون قول أبى الحسن رئيس الرؤساء:

يا حسن ليمونة حيا بها قمر
كأنها أكرة من فضة خرطت

غصناً نضيراً ناعماً من آس
وكأنما تحكيه فى الأنفاس

نما بين غصنى نرجس وشقائق
شمائل معشوق وذلة عاشق

يلذ بشممه شرب الكؤوس
وقد قاموا مكاشيف الرؤوس

إذا ما بدا للعين لون الزبرجد
عذار تبدى فى سواف أغيد

تشابهت منكم الأخلاق والخلق
حملاً ونشراً وطاب العود والورق

ناعمة مقدودة غضه
وجسمها الناعم من فضه

تحدث للنفس الطرب
لها غشا شاء من ذهب

حلو المقبل الملى بارد الشنب
واستودعوها غلاقاً صيغ من ذهب

وفيه أيضاً:

وصاحب ناديتُهُ
انهض إلى السراح ولا
واشرب سلاقاً قرقفلاً
قد اكتست تلهباً
ولا تدع مجتهداً
أما ترى الليثيون في
كأكرة من فضة

في النارج لعبد الله بن المعتز:

نظرت إلى نارنجية في يمينه
فقربها من خده فتألفت

وقال آخر:

ونارنجية بين الرياض نظرتها
إذا ميلتها الريح مالت كأكرة

وقال آخر:

ونارنج يلوح على غصون
أشبهها ثديا ناهدات

وقال آخر:

وأشجار نارنج كأن ثمارها
نطالعها بين الغصون كأنها
أتت كل مشتاق برى حبيب

في التفاح لبعضهم:

ولما بدا التفاح أحمر مشرقاً
وقلت لساقية أدرها فعندنا

وقال آخر في تفاحة:

والطير لم يغرد
ترضى بمعيش نكد
من كفاً ساق أغيد
من خسة المورد
لذة يوم لغد
غصن من الزبرجد
مملوءة من عسجد

كجمرة نار وهي باردة للمس
فشبهتها المريح في دارة الشمس

على غصن رطب كقمامة أغيد
بدت ذهباً في صولجان زبرجد

ومنه ما نرى كالصولجان
غلائلها صبغن بزعران

حقاق عقيق قد ملئن من الدر
قدود عذارى في ملاحفها الخضر
فهاجت له الأشجان من حيث لا يدري

دعوت بكاسي وهي ملأى من الشفق
خدود الأغاني قد جمعن على طبق

وتفاحية من سندس صيغ نصفها
كان الهوى قد ضم من بعد فرقة
ولبعضهم فيه :

تفاحية كسيت لونين خلتهما
تعانقا فبدا واش فراعهما
وقال آخر:

وتفاحية وردية ذهبية
كان سلاف الخمر روى أديمها
تذكرنى شكل الحبيب وحسنه

وقال آخر:

حمرة التفاح فى خضرته
فعلى التفاح فاشرب قهوة
وفيه أيضا:

أهدى لنا التفاح من كفه
وخط بالمسك على بعضهما
ومما قيل فى السفرجل:

حار السفرجل لذات الورى فغدا
كالراح طعمًا وشم المسك رائحة
وقال آخر:

سفرجلة صفراء تحكى بلونها
إذا شمها المشتاق شبه ريحها
وطيبة عند المذاق فطعمها
وقال آخر:

سفرجلة جمعت أربعًا

ومن جلنار نصفها وشقائق
بها خد معشوق إلى خد عاشق

خدى محب ومحبوب قد التصقا
فاحمر ذا خجلًا واصفر ذا فرقًا

تجلى عن المهموم ليل همومه
بخمر فجاءت باحمرار أديمه
خديه وطيب نسيمه

أشبهه الألوان من قوس قزح
واسقنيها بنشاط وفرح

من لم يزل يجنيه من خسده
قد عطف المولى على عبده

على الفواكه بالتفضيل مشهورا
والتسبر لوئًا وشكل البدر تدويرا

محيًا شجاء للحبيب فراق
بريح حبيب لذ منه عناق
كريق حبيب طاب منه مذاق

فكان لها كل معنى عجيب

صفار النضار وطعم العقار

وقيل في الكمثرى:

وكمثرى لذيذ الطعم حلو
مناقير الطيور إذا اقتتلنا

ابن برغش متغزلاً:

وكمثرى سباني منه طعم
لذيذ خلقه لما أتانا

ما قيل في المشمش:

بدا مشمش الأشجار يذكر شهابه
حكى وحكت أشجاره في اخضراره

ما قيل في الإجاص:

انظر إلى شجر الإجاص قد حملت
تراه في أخضر الأوراق مستتراً

ما قيل في الخوخ:

أهدى إلى الصديق خوفاً
من كل مخرصة بحسن
حمراء صفراء مستعير
كوجنة مسها خلوق

وما قيل في الفستق:

تفكرت في معنى الثمار فلم أجد
سوى الفستق الرطب الجنى فإنه
غلالة مرجان على جسم فضة

ما قيل في البندق:

ولقد شربت مع الحبيب مدامةً

ولون المحب وريح الحبيب

شهي جساء من دوح الجنان
مغبرة بلون الزعفران

كطعم الشهد شبيب بماء ورد
نهود السممر في معنى وقد

على غصن أغصان من الروض مُيد
جلجل تبر في قباب زبرجد

أغصانه ثمرأ ناهيك من ثمر
كما اختبى الزنج في خضر من الأزرد

منظره منظر أنيق
معناه في مثلهما دقيق
بهجتها التبر والعقيق
فزال عن بعضهما الخلق

لها ثمرأ يبدو بحسن مسجرد
زها بمعان زينت بتسجرد
وأحشاء ياقوت وقلب زبرجد

حمراء صافية بغير مزاج

فتفضل الظبي البهي ببندق
فكسرتة فوجدت ثوباً أحمرّاً

ومما قيل في النبق:

وسدرة كل يوم
كأما النبق فييها
جلجل من نضار

ومما قيل في اللوز:

ومهد إلينا لوزة قد تضمنت
كأنهما حبان فازا بخلوة

في العنب لبعضهم:

هدية شرفتنا من أخ ثقية
نوعان من عنب جاءا على طبق
فأبيض العين يحكى لون أبيضه

وقال في قصب السكر:

ورمّاح لغير طعن وضرب
كملت في استوائها واستقامت

ومما قيل في البطيخ الأصفر:

أنا غلام فاق حسناً على الورى
فشبهته بدرّاً يقدر أهله

وقال آخر:

وبطيخة وافى بها فوق كفه
فخيل لى شمس الأصل أهله

ومما قيل في البطيخ الأخضر:

وظبى أتى فى الكف منه بمدية

شبهته ببندق من ساج
قد لف فيه بنادق من عاج

من حسنها فى فنون
وقد حلا فى العيون
قد علقت فى الغصون

لبصرها قلين فيهما تلاصقا
على رقبة فى مجلس فتعانقا

نعم الهدية إذا وافتك من يده
كأن طيبهما من طيب محتده
وأسود العين يحكى لون أسوده

بل لأكل ومص لب ورشف
باعته دال وحسن قد ولطف

ببطيخة صفراء فى لون عاشق
من الشمس ما بين النجوم ببارق

إلينا غلام فاق كل غلام
يقطعها بالبرق بدر تمام

وقد لاح فى خديه شبه شقيق

فمال إلى بطيخةٍ ثم شققها
فشبهتها لما بدت في أكفهم
صفائح بلورٍ بدت في زبرجدٍ

وقال آخر:

وبطيخةٍ خضراء في كف أغيدٍ
وأقبل يفريها بمديته وقد فرى

ومما قيل في القناء:

أنظر إليها أنابيباً منضدةً
إذا قلبت اسمها بانت ملاحتها

ومما قيل في الباذنجان:

وكأنما الأبنج سود حمامٍ
نقرت مناقره الزمرد سمسماً

(ومما قيل في الأنهار والبرك والنواعير):

أما ترى البركة الغراء قد كسيت
والنهر من فوقه يلهميك منظره
كأنه السيف مصقولاً يقلّبه

وقال آخر في البركة:

يا من يرى البركة الحسناء رؤيتها
فلو تمر بها بلقيس عن عرض
كأنها الفضة البيضاء سائلة
إذا علتها الصبا أبدت لها حبيكاً
فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها
إذا النجوم تراءت في جوانبها

وقال آخر:

ويركة للعيون تبدو

وفرقتها ما بين كل صديق
وقد عملت فيهم كؤوس رحيق
مرصعة فيها فصوص عقيق

أنا بها فارتاح ذو الهم وابتهج
طرفه الساجي القلوب مع المهج

من الزمرد خضراً ما لها ورق
وصار في عكسه أنى بكم أثق

أوكلاره خمل الربيع المبكر
فاستودعته حواصل من عنبر

نوراً من الشمس في حافاتهما طلعا
شهب سماوية فارتج والتمعا
كف الكمي إلى ضرب الكماة سعى

والأنسات إذا لاحت مغانيها
قالت هي الصرح تمثيلاً وتشبيها
من السبائك تجري في مجاريها
مثل الجواشن مصقولا حواشيها
وريق الغيث أحياناً ياكبها
ليلاً حسبت سماء ركبت فيها

في غاية الحسن والصفاء

كأنها إذا صفت وراقت

وقال محمد بن سارة المغربي:

النهر قد رقت غلالة صبغه
تترقرق الأمواج فيه كأنها

وقال آخر:

يوم لقيا بالنيل مختصر
فكأنما أمواجيه عكن

وقال آخر في نهر يسبح فيه الغلمان:

خليج كالخسام له صقال
رأيت به الملاح تجيد عومًا

وقال آخر في النيل:

النيل قسال وقسوله
في غيظ من طلب العسلا
وعيونهم بعبد الوفا

وقال آخر:

كأن النيل ذو فهم ولب
فيأتي عند حاجتهم إليه

وقال آخر فيه:

وفت أصابع نيلنا
وأنت بكل مسرة

وقال آخر:

سد الخليج بكسره جبر الوري
والماء سلطان فكيف تواترت

في الأرض جزء من السماء

وعليه من صبغ الأصيل طراز
عكن الخصور تهزها الأعجاز

ولكل وقت مسرة قصر
وكأنما دارته سسر

ولكن فيه للرائي مسره
كأنهم نجوم في المجره

إذ قال ملء مسامعي
عم البلاد منافعي
قلعتيها بأصابعي

لما يبدو لعين الناس منه
ويمضي حين يستغنون عنه

وطغت وطافت في البلاد
مما ذي أصابع ذي أباد

طرأ فكل قد غدا مسرورا
عنه البشائر إذا غدا مكسورا

وقال آخر:

ونهر خالف الأهواء حتى
إذا عصفت على الأغصان ألفت

وقال آخر في ناعورة:

وكريمة سقت الرياض بدها
بلسان محزونٍ ومدمع عاشقٍ

وقال آخر:

وناعورة قالت وقد حال لونها
أدور على قلبي لأنى فقـدته

وفيها أيضاً:

وحنانة من غير شوق ولا وجد
أحن إذا حنت وأبكى إذا بكـت
ولكنها تبكى بغير صـبابة
وأدمعها من جدول مستعمارة

وفيها أيضاً قال الخطيرى:

رب ناعورة كأن حبيباً
أبدأ هكذا ثثن بشـجـو

ابن تميم:

تأمل إلى الدولاب والنهر إذ جرى
كأن نسيم الجو قد ضاع منهما

غدت طوعاً له فى كل أمر
إليه بها فى أخذها ويجرى

فغدت تنوب عن الغمام الهامع
ومسير مشتاقٍ وأنه جازع

وأضلمها كادت تعد من السقم
وأما دموعى فهى تجرى على جسمى

يفيض لها دمع كمتثر العقـد
فليس لنا من ذلك الفـعل من بد
وأبكى بإفراط الصـبابة والوجد
ودمعى من عيني يفيض على خدى

فأرقته فقد غدت لى تحكى
وعلى إلفها تدور وتبكى

ودمعهما بين الرياض غدير
فأصبح ذا يجرى وذاك يدور

فصل: فى ذكر أرياب الصنائع والحرف والأسماء وما أشبه ذلك

لابن عفيف فى قاض مليح:

ورب قـاضٍ لنا مليح
إذا رنا لى بـسـمـهم لحظـ

يعـرب عن منطقٍ لذيذ
قلنا له دائـم النـفـسـوـذ

وقال في فقيه مليح:

وبمهجتي ظبي غدا متفقهًا
أمسى بسيط الشعر منه مطولاً

وقال في محدث مليح:

علقته محدثاً
حديثه ووجهه

وقال في إمام:

جاء يسعى إلى الصلاة بوجه
فتمنت أن وجهه هي أرض

ابن الرومي في عروضي وأجاد:

بى عروضي مليح
عزلاتي في هواه

في مؤذن مليح:

ومؤذن أضحي كريماً وجهه
أبدًا أموت بهجره لكتني

لابن عربي:

وبنفسي مؤذن قد سيباني
كيف أصغى لما يقول حبيب

وقال آخر في مريد:

مراد قلبي مريد
وليس ذا بعجيب

وفي فقير مليح:

بى فقيري يتفنى
لا تلمني في افتضاحي

وهو المهذب في الرشاقة والخور
لكن وجيز الخصر منه المختصر

شرد عن جفني الوسن
كلاهما عندي حسن

يخجل البدر في ليالي السعود
حين يومي بوجهه للسجود

موتى فية حياة
فاعات فاعات

لكنه بالوصل أي شحيح
من بعد ذاك أعيش بالتسريح

لم يفدني شكوى الغرام إليه
واضع أصابعه في أذنيه

مخبباً في الزوايا
ففي الزوايا خبباً

بسنا وجسه منير
فغرامى بالفقير

فى مليح بخانقى:

تلطن فى الملاح بـخـانـقـى
وقـد صـفـت له الأتراك جنـدا

فى مليح فراء:

قلت لفـراء فـرى أديـمى
قـد فـر نـومى وفـر صـبـرى

سيدى أبو الفضل بن أبى الوفاء فى مزين:

حـبـى المـزـين وافى
ومـص دـمـل قـلـبى

فى مليح قصاص:

أشكو إلى الله قـصـاصاً يجرعنى
إن تحسن القص يمناه فـمـقـلتـه

فى مليح صياد:

ومـولـع بـفـخـاخ
قـالـت له العـين مـاذا

فى مليح رامى بندق:

وأهيف القـدـذى دلال
كـالشـمس فى كـفـه هلال

وقال آخر فى راع:

أفـدـيه من راع كـبـدر الدجى
ضـيـفـنى بالجـدى ناديتـه

القيراطى فى مليح طحان:

حـسـن طـحـان سـبـانى
خـاف من واش فـأضـحى

ولا يرضى بـبـدر التـم نائـب
وأصـبح راكـباً تـحت العـصـائب

وزاد صـدأ وطال هـجـرا
فـقـال لما عـشـقت فـرا

بـعد البـعـاد بـنـشـطـه
بـكـأس راح وبـطـه

بالهجر والصد أنواعاً من الغصص
أيضاً تقص علينا أحسن القصص

يـمـدـها وشـشـراك
تـصـيـد قـال كـراكى

طائر قلبى عـلـيـه واجب
يـرمـى إلى البـدر بالكواكب

قوامه فاق الغصون الرشاق
ما القـصـد يا مـولـاى إلا العناق

بلحـاظ وبـقـامـه
يـجـعـل الغـمـز عـلامـه

القاضي بدر الدين البلقيني في تراب:

رب تراب مـلـيـح
قلـت لـمـا أن بـدا لـي

وقال آخر في مليح عوام:

يا حسن عوام كفـصن النقا
وتقنع العـشـشـاق منه بأن

ابن نباتة في مليح حبشي:

بروحى مشروطاً على الخـد أسـمـراً
وقال على اللثم اشترطنا فلا تزد

وله أيضاً:

ومن عـجـب تدعى للطفك سنبلاً
وسعدك إقبال وحسبك مرشد

وقال آخر فيمن به صفرة:

قالوا به صفرة شانت محاسنه
عيناه مطلوبة في ثار من قتلت

للشيخ شهاب الدين ابن حجر في مليح اسمه زائد:

وزائر قـلـبـي
مدحتـه فتـجـنى

وقال آخر في مليح أرمد:

شكا رـمـداً فـقـلت الآن كلت
وقالوا سيف مـقـلتـه تصدى

لمجد الدين بن مكانس فيه:

تورمت مـقـلة المحـبـوب من رمد
وبات يرمى محـبـيه بأسمهـمـه

أورث القلب عـمـدا
ليـمـتـنى كنت ترابا

يـبـخل بالوصل لمن هـامـما
يريهـم الأرـداف إن عـامـما

دنا ووفى بعـد التجنب والسـخـط
فـقـبـلتـه ألقا على ذلك الشرط

ونشرك كـافـور وذـكـرك عـبـر
وخلـقـك رـيـحـان ولفظك جـوهر

فـقـلت ما ذاك من عـيـب به نـزلا
فـلـست تـلقـاه إلا خائفاً وجـلا

للطرف يا طرف شـاهـد
تـيـهـا عـلى بـزائد

لواظـه من الفـتـكات فـيـنا
فـقـلت نـعم لـقـتل العـاشـقـيـنا

وبات يشكو لهـيـب القلب والألـمـا
فـيـا له من حـبـيبٍ قد شكا ورما

لابن أبي حجلة^(١) في أعور:

مقلوعة بحسان متزايدة
ما ظل ينظرهم بعين واحد

ما شان من أهواء عين أصبحت
لولا استخف العالمين بأسرهم

وقال آخر في مليح راهب:

من علم البدر ضرباً بالنواقيس
ضرب النواقيس أم ضرب النوى قيسى

رأيت به يضرب الناقوس قلت له
وقلت للنفس أي الضرب يؤلمكي

القيراطي في مليح اسمه بدر:

أن فـسـاق في حـسـنه وتما
بأنه اسم على مـسـمى

سـمـوه بدرًا وذاك لما
وأجـمـع النـاس إذ رأوه
وآخر في مليح اسمه حمزة:

ويرثى لى وينظر فى بلائى
وأجمع بين حمزة والكسائى

متى يبدو لـحمـزة ما بقلبي
وأشـفـى بالمـبـرد من لمـاه

وقال آخر:

غزال قد تحكم فى قيادى
وفى معمول فيه وفى فؤادى

كلفت به ولم أبلغ مـرـادى
فتـصـحـيف اسمـه فى وجـتـيـه
فى مليح اسمه سروجى:

به قد ذبت وجداً من ضجيجى
يلذ لى الركوب على السروج

فتنت به سـرـوجيـاً بديعاً
إذا جـذب الغـرام له عنائى
وقال آخر في مليح محموم:

أنا الذى كنت فى حمائه السببا
فأثرت فيه تلك النار فالتهبنا

قالوا حبيبك محموم فقلت لهم
عانقته ولهيب النار فى كبدى

لأبى نواس فى مليح ألثغ:

تصبوا إليه ذوى العقول الرجح
من كاشح متدللاً بالشاء اثتحى

ومـهـفـهـف دنف الصبـا ذى لثـغـة
قـبـلت فـاه فـقال لى مـتـخـوفاً

(١) ابن أبي حجلة: هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد التلمسانى المعروف بابن أبي حجلة نزيل دمشق ثم القاهرة، أديب، ناظم، ناثر، ولد بزاوية جدة بتلمسان، وكان حنفى المذهب، وكان يقول للشافعية إنه شافعى وللحنفية إنه حنفى، وللمحدثين إنه على طريقهم، وقيل إنه سعى بأبى حجلة، لأن حجلة أنت وباضت على كـمـه، وكان كثير النوادر والنكت ومكارم الاخلاق له: «ديوان الصبابة» و «منطق الطير» و «أدب الغصن» و «أطيب الطيب» توفى سنة (٧٧٦هـ - ٣٧٥م).

وقال في ملبح خباز:

إن خبـبـازنا الملبـح المـفـدى
خلت دكانه البديع سماء

في حشا الصب من جفاه كلوم
وهو بدر والخبـبـز فيه نجوم

وقال في ملبح حائك:

وحائك يا صاح أبصرته
فلـم أرح إلا وروحى لما

كالـبدر فى كـفـيه مـاسـوره
عاينت فى كـفـيه مـأسـوره

وقال في ملبح لاعب شطرنج:

لعمـبت بالـشطرنـج مع أهيف
أحل عـقـد البند من خـصـره

رشاقـة الأغـصان من قـده
وألثم الشـامـات من خـده

وفيه أيضاً قال:

تلاعـبت بالـشطرنـج مع من أحـبـه
وأنشـدنى مـالى أراك مـفـكراً

فنادمنى حتـى سـكرت من الـوجـد
تدور على الشـامـات وهى على الخـد

فى ملبح خياط:

خـيـاطنا الفـاتن المـفـدى
فـصل للجـسم ثوب سـقم

بـديـع حـسن فـريد شـكل
لما جـفـفـانى وكفـاً وـصـلى

وقال غيره:

فـتنت بـخيـاط بـديـع مـلاحـة
تراه على الكرسى للثوب خائطاً

له طـلـعة أبهى ضياء من الشـمس
فـتـقسم حـقاً أنه آية الكـرسى

الصفى الحلى فى ملبح قلع ضرره:

لـحـا الله الطـبيب لـقد تـعدى
أعـناق الظبى فى كلـتـى يـديه

وجاء لـقـلـع ضـرسك بـالمـحال
وسـلـط كـلبـتـين على غـزال

وقال في ملبح سلم عليه:

تنبأ فيك قلبى فاستترابت
وصـلـدهم الـهـوى أن يؤمنوا بى

بـه قـوم وعـمـمهم الضـلال
وقـالوا إن مـعـجزه مـحـال

ومــذ سـلـمـت سـلـمـت البـرـايـا

وقال في مـلـيـح يـرمـى بـالسـهـام:

وظبى بشـعـر فـوق طـرف مـفـوـق
كـبـبـدـر بـأفـق بـرق بـكـفـه

وقال في مـلـيـح يـضـرب بـالعـود:

فـتـن الأـنـام بـعـودـه وبـشـودـه
حـتـى كـأن لـسـانـه يـمـيـنـه

وقال أيضاً فيه:

واغـنَّ قـد أبـدى لـنا مـن عـودـه
بـيـدٍ إذا سـخـطـت عـلى أوتـارـه

وقال في مـلـيـح مـشـبـب:

يا نـافـخ الطـور بـل يا بـاعـث الصـور
قـرنت حـسـنـك بـالإحـسان فـيـه لـنا
ضـمـنت لـلصـحـب إقـبال السـرور كـما
صـوت بـسـيـط به أرواحـنا انـبـسـطـت

وقال في مـلـيـح سـاق:

وسـاق مـن بـنى الأتـراك طـفل
أـمـلـكـه قـيـادى وهـو رقى

وقال أيضاً في رسول مـلـيـح أتاـه مـن عـند مـن يـحـبه:

مـن كـنت أنـت رـسـولـه
يا طـلـعـة الشـمس الذى
لـم يـبـد وجـهـك قـبـلـه
فـلـذاك إذ واجـهـتـنى

فى مـلـيـح قـارىء:

إلى وقـيـل كـلـمـه الغـزال

بـقـوس رـمى فـى النـقـع وحـشـا بـأسـهـم
هـلال رـمى فـى اللـيـل جـنا بـأنـجـم

شـاد تـجـمـعت المـحـاسـن فـيـه
وكـأن ما بـيـمـيـنـه فـى فـيـه

نـغـمـا أصـح به القـلـوب وأمـرـضـا
نـال الرـفـاق بـسـخـطـها عـين الرـضـا

مـن رـقـدة السـكر لا مـن رـقـدة الحـفر
فـكان فـيـك مـراد السـمـع والبـصر
ضـمـنت نـايـك نـأى الـهـم والفـكر
إذ جـئت فـى اللفـظ والمعنى عـلى قـدر

أتـيـه به عـلى جـمـع الرـفـاق
وأفـلـديه بـعـيـنـى وهـو سـاقى

كـان الجـواب قـبـولـه
جـاء الصـبـاح دليـله
إلا ارتـقـبـت وصـولـه
بـل الفـؤاد غـليـله

نفسى الفداء لشادن شاهده
فتن الأنام بيهجبة ويلهجة
فتلا مليًا جل سورة يوسف

وقال آخر فى مليح مكتمل العذار:

وكامل العارض قبلته
وقال كم أنهاك عن مثل ذا

وقال آخر فى مليح حجّام:

كلّفت بحجّام تحكّم طرفه
أضحى كثير الاشتطاط ولم تكن

يوم الزيارة قارنًا فى المصحف
تسبى وتضنى كل صب مدنف
وجلا محيا مثل صورة يوسف

فصدنى وازور من قبلتى
وأنت ما تفكر فى لحييتى

فغدا على سفك الدماء يواطى
منه اللحاظ كليلة المشراط

فصل: فى الألفاظ

فى غزال:

اسم من قـد هويتـه
فـإذا زال ربعـه

فى كوز فقاع:

ومحبـوس بلا ذنب جنـاه
إذا أطلقـته وثب ارتفـاعـه

فى زر موزة:

مطية فارسـها راجـل
واقفة بالباب مزبولة

وقال فى طاحون:

ومسرعة فى سيرها طول دهرها
وفى سيرها ما تقطع الأكل ساعة
وما قطعت فى السير خمسة أذرع

فى دواة:

تراها مدى الأيام تمشى ولا تتعب
وتأكل مع طول المدى ولا تشرب
ولا ثلث ثمن من ذراع ولا أقرب

ومرضعة أولادها بعد ذبحهم
وفى بطنها السكين والثدى رأسها

وفى دواة أيضاً:

وما أمٌ يجامعها بنوها
كأنهم إذا ولجوا حشاها

فى قلم:

وأهيف مدبوح على صدر غيره
تراه قصيراً كلما طال عمره

وفيه أيضاً:

بصير بما يوحى إليه وما له
كأن ضمير القلب باح بسرّه

وفيه أيضاً:

وأصفر عارٍ أنحل السقم جسمه
حمى الجيش مفطوماً كما كان تحتمى

فيه أيضاً:

وذى نحولٍ راكع ساجد
ملازم الخمس لأوقساتها

فى مرملة:

معشوقة لذوات العز قد صنعت
كأنها من صروف الدهر خائفة

فى كتاب:

وذوى أوجهٍ لكنه غير بائع
تناجيك بالأسرار أسرار وجهه

لهالين ما لذ قط لشارب
وأولادها مدخورة للنوائب

وليس عليهم تجب الحدود
أفـاعى فى أماكنها رقود

يتـرجم عن ذى منطقٍ وهو أبكم
ويضحى بليغاً وهو لا يتكلم

لسان ولا قلب ولا هو سامع
إليه إذا ما حركته الأصابع

يشئت شمل الخطب وهو جموع
به الأسد فى الغابات وهو رضيع

أعمى بصير دمعه جارى
مجتهد فى طاعة البارى

حزينة ما تراها قط تبـتسم
تبكى دمـاء على ما سطر القلم

بسر وذو الوجهين للسر يظهر
فتسمعها بالعين ما دمت تبصر

فى سلطان حسن لابن أبى حجلة:

ما اسم محبوب للقلوب لأنه
تصحيفه أمسى حبيبًا كلما
لو جاد لى يومًا برؤية وجهه

فى شبابة:

وما صفراء شاحبة ولكن
مكتوبة وليس لها بنان
تصبح لها إذا قلبت فاما
ويحلو المدح والتشبيب فيها

وفىها أيضا:

ومقروحة الأجفان مثلى شجيرة
تزوجها عشر وذاك محرم
إذا وطنها قوم تصرخ صرخة

وفىها أيضًا:

منقبة مهما خلت مع محبوبها
وتصحيفها فى كف حاملها فقل

فى دملج:

إلى النساء يلتجى
الجسم منه فضة

فى خلخال:

أيا عجبًا من صابر صامت ولم
أقام ولم يبرح مكانًا ثوى به

فى شعر اللحية:

وذى عدد كالرمل سام محله
يحاذر من موسى ويرهب باسمه

حسن الحروف يجود بالإحسان
صحفت أحرفه بحسن بيان
نلت المراد وعشت بالسلطان

تزينها النضارة والشباب
منقبة وليس لها نقاب
أحاديث تلذ وتسقططاب
وليست لاسمعاد ولا الرباب

تئات عن الأهلين أسقمها البعد
ولا حرج كلا ولا وجب الحد
يلين إليها كل قلب ولو صلد

يزودها لثمًا وينظرها شزرا
إذا شئت فى اليمنى وإن شئت فى اليسرى

وعندهن يوججد
والقلب منه جلمدد

يفه بكلام قط فى ساعة الضرب
على أنه أضحى يدور على الكعب

جميل على كل الملاح له حق
وفى قلب هرون له الهلك والمحق

وتحبل فى الوقت هى وأختها

فى شطرنج:

يا ذا النُّهى ما اسم له حالة
له حروف خمسة إنما

فى فيل:

أَيُّما اسم تركيبه من ثلاث
حيوان والقلب منه نبات
فيك تصحيفة ولكن إذا ما

فى بجع:

ما طائر فى قلبه
منقاره فى بطنه

فى نار:

وما اسم ثلاثى به النفع والضرر
وليس له وجه وليس له قففا
يمد لساناً يختشى الرمح بأسه
يموت إذا ما قمت تستقيه عامداً
فيا قارئ الأبيات دونك شرحها

وفىها أيضاً:

وأكلة بغير فم وبطن
إذا أطعمتها انتعشت وعاشت

فى يد الهاون:

قل لى فما شئ يُرى ناعماً
أطول من شبرٍ له حزة
يسمع فى القمعر له رنة

وفى ساعة يضممان الولد

يحرار فيها الذهن والفكر
ثلاثة منها له شطر

وهو ذو أربع تعمالى الإله
لم يكن عند جوعه يرعاه
رمت عكساً يكون لى ثلاثاه

يلوح للناس عجب
والعين منه فى الذنب

له طلعة تغنى عن الشمس والقمر
وليس له سمع وليس له بصر
ويهزأ يوم الضرب بالصارم الذكر
ويأكل ما يلقي من النبت والشجر
والأفتم عنها ونبه لها عمر

لها الأشجار والحيوان قوت
وإن أسقيتها ماءً تموت

منتصب القامة طول الزمان
مفيشل الرأس قوى الجنان
ويظهر الصنفق بأعلى مكان

خبرونی ای شیء
وابینه فی بطنه
وقد علا صیاحه

وما قبة مبنية فوق شاهق
وأولادها فى بطنها فى جماعة
ويأخذها الطفل الصغير بجهله

وَذِي أُذُنٍ بِلَا سَمْعٍ
إِذَا اسْتَوَلَىٰ عَلَىٰ صَبَ

اسم الذى أعشقه
إن فـاتنـى أوله

وما شيء له حد وحد
وكل حلقة منه من تحت راس

ما بلدة بالشام قلب اسمها
وثلثه إن زال من قلبه

وما اسم سداسي إذا ما محته
له ثلث يأتي به الموت فجاءة
وثلث رعاك الله يا صاحبى له
وفي نصفه لما تحرك بعضه

لَهَا عِلْمٌ يَحْكِي الْمَلَا حَةَ بِالْظَرْفِ
يَكُونُونَ الْقُـا أَوْ يَزِيدُونَ عَنِ الْفِ
وَيَقْلِبُهَا عَسْفًا عَلَى رَاحَةِ الْكَفِ

أولـه فـى نـاظـره
فـان لـى فـى آخـره

يَكْلَمُ مِنْ يَلَامُ بِهِ بِحَلْقِهِ
وَهَذَا الرَّأْسُ صَارَتْ تَحْتَ حَلْقِهِ

تصحيفه أخرى بأرض العجم
وجددته طيِّراً شجى النغم

تري فيه اجزاء تدم وتشكر
وثلت مع الكتاب يطوى وينشر
على مدى الأيام نشر معطر
حديث شهى في الليالي يذكر

وفى نصفه الثانى إذا ما أعدته
ففسر لنا ذا اللغز إن كنت ذا حجبى

وقال فى كمون:

إلى النار لتحلل العقد سكر
فليس على ذى العقل لغز معسر

عن اسم شىء قل فى سـومكا
كـمما ترى بالقلب فى نومكا

يا أيها العطار أعرب لنا
تراء بالعين فى يقظة

وقال فى قالب الطوب:

ولقمته أضعاف أضعاف وزنه
سوى لحظة أو لحظتين ببطنه

وما أكل فى قعدة ألف لقمة
إذا أنزل المأكول جنبه لم يقم

فى العين:

وتسبق ما يطير ولا تطير
وتجزع أن يياشـرها الحرير

وبأسطة بلا عصب جناحها
إذا ألقمتها الحجر اطمأنت

ويكفى من ذلك ما أشرت إليه وما نهت من هذا الفن عليه، وقد مضى القول من الفنون السبعة على فن الشعر القريض وما فيه من الفنون المتقدم ذكرها.

ولنذكر إن شاء الله تعالى بقية الفنون السبعة على وجه الاختصار والفنون السبعة المذكورة عند الناس هى الشعر القريض، والموشح، والدوبيت، والزجل، والمواليات، والكان وكان، والقوما، ومنهم من جعل الحماق من السبعة، وفى ذلك اختلاف وعند جميع المحققين أن هذه الفنون السبعة منها ثلاثة معربة أبدا لا يغتفر اللحن فيها، وهى الشعر القريض والموشح والدوبيت، ومنها ثلاثة ملحونة أبداً، وهى: الزجل، والكان وكان، والقوما، ومنها واحد وهو البرزخ بينهما يحتمل الإعراب واللحن وهو المواليا، وقيل: لا يكون البيت منه بعض ألفاظه معربة وبعضها ملحونة، فإن هذا أقرب العيوب التى لا تجوز، وإنما يكون المعرب منه نوعاً بمفرده، ويكون الملحون فيه ملحوناً لا يدخله الإعراب وقد أوضح قاعدة الجميع وأمثلتها صفى الدين أبو المحاسن الحلى فى ديوانه، وسماه: «بالعاطل الخالى، والمرخص الغالى» ولو بسطت المقال لاتسع المجال وكثر المقال، ولكن الاختصار يذهب الأوجال، والحمد لله رب العالمين على كل حال.

فصل: فى بيان الفن الثانى وهو الموشح

لابن المبارك:

وأوجل القلب فـيـه مـذ حل

قد أنحل الجسم اسمـر أكـحل

دور:

يـحـول وعنه لا أحـول

أمـيل له فـلا يـمـيل

أقـول إذا زاد بى النـحـول

أما حل عقد الصدود ينحل وترحل عن نجم المرحل
دور:

كم أبعد وكم أبيت مكمم ويعمد بهجره لا فقد
وأجهد لارتصاد من قد
تحمل والحاسدون رحل تمحل والوعد منه ما حل
دور:

متزوج بالحسن هذا الأبلج مدبج عذاره البنفسج
مسفلج وطرفه ذا الأدعج
مكحل وثغره منحل مخلخل بعنبر ممجل
دور:

برغمى من يستحل ظلمى ويرمى بحربه لسلمى
وجسمى من التزام سقمى
منحل وقد غدا مرحل فمن حل دمي وما حل
دور:

قلانى واشتط ذا الفلانى غزانى بطرفه اليمانى
ترانى أنشئد لمن يرانى
قد أنحل الجسم أسمر أكحل وأوحل القلب فسيه مذ حل
لابن سناء الملك:

كللى يا سحب تيجان الربا بالخللى واجعللى سوارك منعطف الجدول
دور:

يا سماء فيك وفى الأرض نجوم وما كلما أخفيت نجمًا أظهرت أنجما
ومى ما تهطل إلا بالطللى والدمما
فماطلى على قطوف الكرم كى تمتلى وانقللى للذن طعم الشهد والقرنفل
دور:

تتقد كالكوب الدرى للمرتصد
يعتقد فيها المجوسى بما يعتقد

فاتنذ يا ساقى الراح بها واعتمد

وامل لى حتى ترانى عنك فى معزل
قل لى فالراح كالعشق إن يزد يقتل

دور:

لا أليم فى الشرب صهبا وفى عشق ريم
فالنعيم عيش جديد ومدام قديم

لا أهيم إلا بهذين فقم يا نديم

واجل لى من أكؤس صيرت من فوفل
الذلى من نكهة العنبر والمندل

دور:

خذ هنى واعطنى كاسى مثل كاسك هنى
واسقنى على رصاب الفطن الملين

والهنى ببعض ما صيغ من الألسن

لو تلى مدح سناه مع رشا أكحل
لذلى على سنا الصهباء والسلسل

دور:

أزهت ليلتنا بالوصل منذ أسفرت
أصدرت بزورة المحبوب إذ بشرت

أخرت فقلت للظلماء مذ قصرت

طولى يا ليلة الوصل ولا تنجلى
واسلبى سترك فالمحبوب فى منزلى

دور:

من ظلم فى دولة الحسن إذا ما حكم
فالآلم يجول فى باطنه والندم

والقلم يكتب فيه عنت لسان الأمم

من ولى فى دولة الحسن ولم يعدل
يعزى لالحاظ الرشا الأكحل

وله أيضاً:

تري هل يشـتـفى منك الغليل ويشـفى من صـبـابـته العليل

لقد أسرفت في هجرى وصدى بلا سبب سوى كلفى ووجدى

وماذا فى سلو عنك يجدى

خضاب الوجد ليس له نصول وأسـيـاف الهوى فـيـنا تصول

دور:

لئن شـحـيت عني بالسلام وطيفك قد جفا لجفا المنام

فقد جادت بأربعة سجام

جفون بالبكا كادت تحول على خـد أسفاً به النحول

دور:

لقد أرسلت فى طى النسيم حديث هوى عن الوجد القديم

فعادت وهى عاطرة الشميم

تخـبـرُ أن ظعنهم نزول بدارٍ لا يـلمُ لهُـمُ نـزـيـل

دور:

تلقتـه الموالى والموالى بألـحـاظ وزرق من نصال

وأعطافٍ وسـمـرٍ من عوالى

وله أيضاً:

شمس الحيا أم القـمـر أم بارق الثـغـر بـشـر

أم البـهـا حـفـه الخـفـر بطـرـز خـديـك مـسـتـطـر

سلسلة:

قم تبـاها بما تبـاها ولا تلاها

قفلة:

فكل أحـبـابنا حـضـروا والعـود يشـجـيك والوتر

الدور :

أفـديـك بالسـمع والبـصر
بدر بدا فى دجى الشـمـس
سلسلة:

إذا تجلى وقـد تجـ
قفلة :

تـحـير فى وصـفـه الفـكر
الدور:

فـهـاك حـدث عن الطرب
إذا سـقـاها مع الضرب
سلسلة:

فى ظل بان على المـثـ
قفلة:

إلا النـدامى إذا سـكـروا
وقال رحمه الله تعالى:

وانسـيم السـحر هل لك خـبر
فـسـارقـونى ولم أقض الوطر
قلت يا قلب صـبراً ما صـبر
ما كـتـمت الهوى إلا ظـهر
دور:

ليش تمنع وصـالك يا حـبـيب
راقب الله وارجع من قـسـريب
لست ألقى لدائى من طـبـيب
لو رأى حـالى العـاذل عـذر
دور:

يا قـمـر فوق غـصـن من نقـا
يا رعى الله لويلات اللـقـا
ليلة السعد ما فيها شقا
صفرها لا يمازجه كدر
غيره:

حملت منذ سارت الحـمـول

يا أهـيف وصلـه وطـرى
قد لذ فى حبه سـهـرى

لى عـلـيك يـجـلى

والعـقل والسـمع والنظر

وعن سـلـاف ابنة العنب
بدر بأفق الجـمـال ربي

انى من غـيـر ثـانى

والروض والماء والشـجـر

عن عـرـيب همـسـو بالمتحنى
من لقـسـاهم ولا نلت المنى
والنـبى مـا الهوى إلا عـنا
مع شـهـود المدامع والضنى

عن مـحـبك وهو لا يعشق سواك
قبل يلى جسـمـه فى هواك
غير رشفى يا حـبـيبى من لماك
حينما ينظر جـمـالك والسنا

أثـخـنتنا مطالك والصـدود
ليـتـها يا خلُّ يـومـالى تـعود
كيف تشقى وطالعها سـعود
بالمسـرات وأوقـات الهنا

وجد مـضى العـمـر وهو باقى

دور :

ساروا وسار الفؤاد لكن جسمي مقيم على الساكن
وعن الحب صار ظاعن

مالي إلى وصله وصلول لو سرت بالبرق والبراق

دور:

وغادة كالقضيبي قدًا والورد والياسمين خدًا
كأنها البدور إذ تبدي

وشعرها أسود طويل كأنه ليلة الفراق

دور:

هونا أتننا تميل مبيلاً سحابة كالسحاب ذيلًا
فقلت شمس تزور ليلاً

وما دري كاشح عذول فذاك من أعجب اتفاق

دور:

وسدتها ساعدي لسعدى وبنت أرعى رياض وردى
وخمر ريق كذوب شهيد

لو ذاقها مدنف عليل لعاش والروح فى التفراقى

دور:

لما رأتنى أذوب سقمًا ومن ورود الرضاب أظمًا
قالت كلمت الخدود لثما

ما يشتفى منك ذا الغليل بغير نومي وشيل ساقى

فصل: فى الفن الثالث وهو الدوييت

لسيدى شرف الدين بن الفارض رحمه الله تعالى:

أهوى قمرًا له المعانى رق من صبح جبينه أضاء الشرق
تدرى بالله ما يقول البرق مسابن ثناياه وبينى فرق
وقال أيضًا:

أهوى رشا كل الأسى لى بعثا منذ عاينه تصبرى مالبثا
ناديت وقد فكرت فى خلقته سبحانك ما خلقت هذا عبثا
وقال أيضًا:

عرج بطويلع فلى ثم هوى واذكر خبىر الغرام واسنده إلى
واقصص قصصى عليهم وابك على قل مسات ولم يحظ من الوصول بشى

وقال أيضاً:

يا مؤنس وحـدتي إذا الليل هـدا
لا أسـفر بعـد ذاك صـبح أبـدا

روحى لك يا زائراً فى الليل فـدا
إن كان فـراقنا مع الصـبح بـدا
وقال آخر:

ساعات وصولك كلها أفراح
ماتوا كـمداً وبالهوى ما باحوا

يا شمس ضحى جبينه وضاح
عشاقك لو فعلت ما شئت بهم
وقال آخر:

كالبدر يجلُّ حسنه عن وصف
يارب عسى تكون واو العطف

أهواه مهفها ثقيل الردف
ما أحسن واو صدغه حين بدت
وقال التلعفري:

ما الصبر على بـعادكم عادته
لا كان فـراقكم ولا سـاعته

قلبي ذهب لـبـعدكم راحتـه
بنتم فرثى لما به شـامته
وقال المنشدى:

لا أذكر بعـد خالقى إلا هو
مولاي خليفـتى عليك الله

إحسانك طول الدهر لا أنساه
إن أبعدك الزمان عني حسدا
وقال آخر :

فاذكر ولهى وما جناه البـعد
ياليـنهم عادوا وعاد الصـد

إن جئت ربا الحمى ولاحت نـجد
قد كنت أقاسى الصـدق حتى رحلوا

فصل : فى الفن الرابع وهو الزجل

حمل للغبارى:

قل لغزلان وادى مصر والشام يقصروا ذا النفار
لهم اجعل حشاشتى مرعى وفؤادى قفار

دور:

مصر والشام فيها ملاح أقمار بالمحاسن تسود

وذا غزال صار يفوق على الغزلان ويصيد الأسود
وذا بدر الكمال ظهر فى الليل وذا شمس النهار

ذا أبيض وذا أحمر وذا مليح أسمر لوعيون نجل سود
وذا غصن بان أهيف قوام قد وقد الأغصان جهار

دور:

تدر بالله إيش قالت مليح الشام بعد ذاك الصدود

وتخضب تفاحنا الأحمر فوق بياض الخدود
أنتم التفاح وما نقصد منكم إلا الخيار

قد سمينا بصحة الأبدان واعتدال القدود
وأنتم يا عشاق لكم قلنا والحسود راح بنار

دور:

وملاح مصر قالت إحنأ أصحاب الوجوه الملاح

والحلاوة وطبيعة الأحلاق فى الخلأق مباح
وفى الألفاظ والظرف والمعنى ليس لنا حد صار
دور:

حسن حبى الفرارجى فرحه بدر فى السعد لاح
فرخ ناجب خرج من القشرة فاق ملاح الملاح
ومن البىضة قد خرج نافر رد جفنى بنار
دور:

وقع الطل خط بالأبيض فى اخضرار الطروس
قم يا ساقى على بساط زهرى تحت ظل العروس
عروس لها صفو النسيم ولطف اللمى وابتهاج الثمار
دور:

خمر فيها سر لو جعل أشياف رد الأعمى بصير
اقطع القطف أسود يحاكى الليل شفق أحمر يصير
وترى النوردا عليه يلمع ذاك من إيش استنار
دور:

فهو عطار عندو وشراب هندی وبرانى جفاه
كل من مص من لسانو ريقو يلتقى فيه شفاه
جبل آس عارضو أسر قلبى والكبار والصغار
دور:

دورونى الملاح على كعبى ونصوا نصوص
بلا دعوى التف لف اليسير فى هواهم خصوص
والبساط انطوى وحين مارأوا خلف له همه ولو اصطبار
دور:

لحبيى ثغر من جوهر والشفيفات عقيق
وعوارض ما ضرهم عارض غير نبات الشقيق
يحرس الورد خال عنبر تحت أهذاب غزار
دور:

فى رياض صفوف من الأزهار قابلتها صفوف
كيف لا ترقص والنسيم بها موصول وورقها دفوف
واعجب من النهر إذا صفق لو من الموج كفوف

والغيوم نقطت وحين جا النسيم طار أعلى مطار
باختلاف الألحان سحر في الروض صاح على عود وطار
دور:

أشرف الخلق بين الإسلام والهدى والضلال
والشرائع والحق والباطل والحرام والحلال
ولو أن النبات جميعه أقلام والمداد البحار
دور:

خلف أستاذ في الفن ما ينطاق ذاق عداه المتون
ما يعيبو في الفن غير ناقص عقل زايد جنون
شيخ مصدر لبيب قيم في جميع الفنون
باتضاعو مع الصغار مرفوع فوق رؤوس الكبار
غيره لناصر الغيطى:
تلتقى در الندى يزهج فوق فصوص غرائب النوار
دور:

كتر روضى نزهة الطالب جوهر وبين الندى يزهج
ولجين الما بيتكسر يا خليع هيا تعا اتفرج
بين عنابر تلتقى الخلع كل حد مع إلفو يدرج
بساط زمرد ذو قضبان كل وردة أحكت لنا دينار
دور:

وترى الياسمين بحال فضه ضربت لأهل النزه صلبان
والشحارير لابسين أسود وقلائس كنهم رهبان
وكذا الكتاب وهو أصفر بعمائم زرق للناس بان
وانجلت بين القسوس فى ألحان وعلينا دارها الخمار
دور:

الفراق نار والوصال جنة والخلائق بعضهم يعشق
دا حبيب قلبو عليه راضى ودا محبوبو عليه يشفق
ولهيب الهجر يتوقد والوصال من الملاح يشفق
والمليح عندى وأنا مطمئن وسط روضا زهر لها معطار فى
دور:

وعمل فى الروض سماع باكر بين الأغصان والزهور أنغام
والنسيم شبب والغدير صفق والخليع من كتر وجدو هام
والنخيل بأكمائها ترقص وأقبل الريحان بحال أعجام
والعصافير شيخهم ريق لو طريق بين الأزاهر طار
دور ناصر الغيطى:

يا خلأيا صحبت إنسان أنكر الصعبة وعادانى
وبغضنى حين بقيت مسمي والإله بالفضل أسمانى
فى بلاد قبلى وأرض الشام يشكرونى ساير أقرانى
والشجيع الشاطر المذكور فى جميع الأرض لو تذكاري
والبلط يوقع لو تعلق ما يحصل شىء مع الشطار

للغبارى:

جار حبيبى فقلت ذا الحجاج جا يجوز أو يزيد
لو عدل عشت بو مسرور ويكون الرشيد
دور:

أقلع القلب فى هوى العشاق والدموع فى انحدار
ويحور الهوى إذ هاجت ليس لها من قرار
صحت لما وحلت يا محبوب قلبى بحر عشقك يزيد
خفت فيه الغرق فقال افرح من غرق مات شهيد
دور:

أنا يوم فى الغبوق باتفرج على شط الغدير
إذ رأيت على الشط واحد واقف شب صياد صغير
قلت يا عين إن غرك الصياد بالجمال المصيد
نظرت مقلتي إلى منظر ما لحسنو نظير
يوقعك فى فخاخ شباك عشقو وكراكى يصيد
دور:

من نحبو جديد حبيب قلبى يوم صدفو صدف
قلت لين يا قاسى لمن دمعو سال وحالو وقف
قال علينا يكتب ومن يسمع ذا الكلام يستفيد
دار وقال لى ما لاسم بالانجيل قلت اسمى خلف
فى الحقيقة من لا يكون داود ما يلين لو الحديد
دور:

لك عوارض فى الخد مرقومة ليس لها من مثال
وجفاك صار حماق وباب وصلك كان وكان يا غزال
ولك ألفاظ صارت مواليا بالزجل والنشيد
وأنت دوييت موشح القامما يا عزيز الدلال
وبشعرك متوج القامما وأنت بيت القصيد
دور:

عن محرم شراينا ضمنا ونفطر بالثمار
حين وجدنا سفرجل البستان يذهب الاصفرار
فى ربيع حين رأى الثمر قاعد فيه تعاليق عقيد
وغنا الطير به الجماد يطرب وكذا الجلنار
وحسب الروض النص من شعبان صار يقيد فيه وقيد
دور:

من لهيب مدمعى جرى الطوفان للهب ما طفى
وأنا هو الغبارى فى العشاق ما جرى لى كفى
جار حبيبى فقلت ذا الحجاج جا يجوز أو يزيد
حين عليا بالصد والهجران والبعد والجفا
لو عدل عشت بو مسرور ويكون الرشيد
غيره:

حين سكنت القلب يا عيسى
وتقدس بك ولكنو
أمسى من بعدك الحزين فرحان
ما جرت فيه يا ابن عين سلوان
دور:

عارضوا لما عشق خدو غرت من وجدى بقيت حائر

جيت إلى طرفو وناديت لو أحرسو وكون عليه ناظر
وعليه قد دب بالسرقة جيت لطرفو قلت يا كسلان
دور:

بدر شعبان ميتى لما فى بروج السعد لاح نجمو
فقلت لو أقضى بفيض دمعى أطلقوا واجراه على رسمو
ايش قد أذنب حين قطرتو دا يمغلط قول بالبهتان
دور:

حين تدبح احمرار خدو باخضرار العارض أسباني
ضحك فايض وابتسم واسوداد شعري وأبكاني
قال لى لونك قد صبح حایل وقد أبصر مدمعى طوفان
دور:

قلت لو حين عنى تخلف لله كن لى يا رشيد مهدى
قد تلون دمعى من بعدك وتجري اليوم على خدى دار
إلى إنسان مقلتى قال لو أنت من عندك نظر بعدى
ما ترى ما قد جرى منك على الخدود قال يا فتان
دور:

ذا الغزال النافر الأنسى للغزالة قد أعار النور
كسر قلبى كسير جفنو فاعجبوا للكاسر المكسور
ويخمر الدن قد عريد وادعى أنى أنا المخمور
وابتسم لى عن نقا ثغرو وخطر والبشر فيا بان
للصنى الحللى:
أنت يا قـــــــــــــــــبلة الكرام
الله يعطيك فـــــــــوق ذا المقـــــــــام
دور:

أنت يا شاما بين الأنام الله يحرس شمايلك
ويزيدك بالدوام كى نعيش فى فــــــــواضلك
ما ينطوى ذكر الكرام لم تنشر فضائلك
ونهنيك لكل عام والخلائق تقول آمين
دور:

ما رأينا تحت ذا الفلك من ندى كفك أعم
كل من جا ليسألك ليش تقول له سوى نعم
أملك أنت أو ملك ضاعف الله لك النعم
أنت فى الجود كالغمام وسماك فوق ماردین
دور:

لا عدمننا كل صوم ذا السحور فيك والهنا
كل ليلة ولك يوم ينشبر الذكر والثنا

دور:

حتى تقضى ذا الصيام ويليه باقى السنين
غيره:

خال عبد الرحيم نقطة حبر من غير قاف ولا م
شال السعد فوق راسو عين ولا م وميم
مليح ما رأيت مثله ظا وبا ويا
ذقت من صدود حبي غين وصاد وصاد
النوم من جفون عيني خا ولا م وصاد
قلت يوم لمن كان لى سين ونون ودال
ولا تهجر العشاق با وعين ودال
جمل فى الألفاظ: (المطلع فى العين):

وما طير أكلوا الحجر يا كرام
ولس الحرير يؤذيه وریش النعام
دور فى السراج:

وما بحر ما هو ما وفى الليل يزيد
وفيه شىء صفات حية لا وكر استفيد
بلا شك ينظره القريب والبعيد
يغيب فى النهار لكن إذا جا الظلام
ويسهر بحال عاشق حليف الغرام
دور فى جورة الكثافة:

وما هى التى تركب على ستين ألف
مليحة وقصيفة وتلبس ترف
لها عشرة أعوان حالهم مختلف
لها فحل يخدمها عليه السلام
وأكثر تعبها فى ليالى الصيام
دور فى الغريال:

وما هو الذى يا سعد كله عيون
وهو بين خشب مصلوب لتلك الفنون
إذا غاب عن أهله فرد يوم ما يهون
وكم من رقيص فى صنعتيه باهتمام
ويحتاج له الناس كل يوم فى الدوام

وتعيش يا ذا الهمام بين ولدان وعين

وميم ثغر معشوقى الفتان نون وعين وميم
دالى قد هواه قلبى صداد وبا ويا
ما أحلاه عندما يلبس قاف وبا ويا
ولما رأيت صبرى نون وقاف وصاد
وأصبحت وجود فكرى عين ودال وميم
اعدل فى الذى صبرو نون وفا ودال
ما أفلح قط يا ناس من ظا ولا م وميم

وجوهر حبابه يفسد أهل الصلاح
يصول بين جناحين سود كبيض الصفاح

وينقص ولا هو خوض ولا هو غريق
لها جوهره فى فمها يا رفيق
ويخفى ويظهر كل يوم عن حقيق
تشوفو يضى بين الوجوه الصباح
قتيل الهوى بين الربا والبطاح

وما مثل ذاك فسر لنا يا خبير
وتحمل وتوضع كل يوم فى السعير
يشيلو أودها الكبير والصغير
يحادى سراها فى المجى والرواح
وذا اللغز قلته ومن غير مزاح

ولا يعتلم ضوء الظلام والضياء
وميت وهو يحى أصول الحيا
ولا حد يعرض مرضعه لوعيا
مكابد عجاجة فى المسا والصباح
على شان فنونه دول فنون صلاح

الفن الخامس فى المواليا

وله وزن واحد وأربع قوافى فمن تلك الأربعة واحد لصفى الدين الحللى:

والمخصب الربيع والأمواه قد غارت
والشهب مذ شاهدت أضواك قد غارت

ومرشفيك من رشف منها سلاسلها
كم من أسود ضواری فى سلاسلها

فى ظل بستان حافف بالتمر نخلو
ومن كلام الأعادى قط ما نخلو

ومن أمرنا بمسجدها وجامعها
كأن أفتتن فى محاسنها وجامعها

أما ترى الصبح قد لاحت أباريقو
سقى المداما وإن عزت سقى ريقو

اثنين مثل البدورة فى الدجى جيىن
قالوا لمن قد وعدنا فى الخفاجيين

ارحم خضوعى وخف فى قتلتى ربك
ما ظن فى الناس أقسى قلب من قلبك

وصار لما حوى حمراء مكلل در
ما حل مملوك إلا صار ملك حر

سماع يطرب له السامع وينفى الكرب
سيوف تفنى وكفك لا يمل الضرب

فى القرب والبعد من شرقها والغرب
ذا الكرب فرج وهذا قد رمى فى الكرب

يا طاعن الخليل والأبطال قد غارت
هواطل السحب من كفيك قد غارت
وقال أيضاً:

سل مقلتيك الكحال عمن سلاسلها
وعارضيك التى مدت سلاسلها
وقال آخر:

قد أوعدونا الغضابا أننا نخلو
والطل من فوقنا قد بلنا نخلو
وقال آخر:

قسمًا وبالله مفرقها وجامعها
لو حل مع بغيتى عايد وجامعها
ومن اثنين واثنين قال آخر:

قوم اسقنى ما تبقى فى أباريقو
مع شادن كلما دار شفقاريقه
وقال:

البارحة رأيت بعينى فى الدجاجيين
ناديتهم فىن كتم يا خفاجيين
وقال:

قد زدت هجرى فجد بالعفو عن صبك
يكفيك بهجر تكدر قلب من حبك
غيره خمري عاطل:

كس الطلا لطلاها طال لما سر
مدام لو طعم كله حلو ما هو مر
غيره حربى:

لك يا إمام الوغا فى كل موقع حرب
هذا ولك كلما دارت رحاة الحرب
الصفى الحللى فى المدح:

أغنت وأقت كفوفك فى الندى والحرب
وفىض جودك وسيقك بالعطا والضرب
وقال أيضاً:

من قال جودة كفوفك والحيا مثلين
ما جدت إلا وثغرك مبتسم يازين
وقال فى التهنئة:

رأيت العيد أول يوم فى عـصـرك
وديت ذا الشهر مع ذا العام طوع أمرك
فى المعاتبـة:

عن تسليت وأسيف الجفـا سـليت
لما تمليت بالأعمـمال لى ملـيت
وقال أيضاً:

يا قلب إن غـدورا فـاغـدر وإن خـانوا
فلن وإن قـربوا فـاقـرب وإن بانوا
وقال آخر:

حلف عـليـا جـكاره أن يقـطـاعـنى
كم ذا يـصـد وكم يـرجـع يـصـدعـنى
وقال آخر هجواً:

قطع قـفا ابن أخت خـالك وابن أخـو عـمك
وإن تكلمت تصـفـع بل يـسـيـل دـمك
وقال آخر:

إن ردت تسلم بطول الدهر ما تـبـرح
واستعمل الصبر لا تحزن ولا تـفـرح
وقال آخر:

إن كنت عـاقـل وريـك بالتـقـى بـرك
وإن تعدى حـسـودك والحـسـد ضـرك
وقال آخر:

يا قلب إن خـانك المحـبـوب لا تـدبر
واستعمل الصبر دائم للعدا تقهر

الفن السادس كان وكان:

وله وزن واحد وقافية واحدة ولكن الشطر الأول من البيت أطول من الثانى فمنه هذه الوعظيات:

ومن حرارة وعظى قد لانت الأحجار
ليتك على ذى الحالة تقلع عن الإصرار
فكيف يا متخلف تحسب من الحضار

يا قاسى القلب مالك تستمع وما عندك خبر
أفـنيت مالك وحالك فى كل ما لا ينفعك
تحضر ولكن قلبك غايب وذهنك مشغول

ويحك تنبه يا فتى وافهم مقالى واستمع
يحصي دقائق فعلك وغمز لحظك يعلمه
تلوت قسولى ونصحى لمن تدبر واستمع
وقال أيضاً:

صرح بذكر المحبة ما فى المعنى فائدة
ودع حديث العواذل ليس الخبر مثل النظر
من أين للبدر حسن يحكيه أو شمس الضحى
إن غبت فهو أنيسى وإن حضرت نديمى
فمنه روى وراحى إذا سكرت وراحتى
قولوا لمن يلحانى فى الحب قصر واعتبر
الصفى الحلى:

شاهدت فى الليل طيرى وقمت حتى أنصب شرك
طيرى الذى كان إلفى لو ردت مثله ما حصل
قد كان شرطى وخلقى لبرج غيرى ما عرف
من قبل ما أبصص له يجرى ويدخل قصورى
وقال آخر:

ما ذقت عمري جرعة أمر من طعم الهوى
الناس تعلم منى حال الجلالة والقوى
لى حب مثل الخوخة لو لون وطعم وريحة
أنا عرفتو حظى وكل ما أحسن لوىسى
وله فى الفراقيات:

يا سادة هجرونى وهم نزول بخاطرى
أو حشتم العين منى وأنسكم فى خاطرى
قد انتهى الصبر منى وما بقى فى رفق
لم يبق غير خيالى يلوح كالشبح الخفى
ودعتمونى وسرتم والقلب يتبع ركبتكم
ما مر ما ريت ضدى يقول لى من فرحته
لو لم أسل روى وأرض نفسى بالمنى
وقفت لما رحلت حيران بين أظعانكم
طول الليالى أساهر كنى أريد الكيمياء
ما أطول لىالى جفاكم ساعتها مثل السنة

ففى المجالس محاسن تحجب عن الأبصار
وكيف تعزب عنه غوامض الأسرار
ما فى النصيحة فضيحة كلا ولا إنكار

وقل نعم أنا عاشق صادق بلا تمويه
أنا عاشق لحبيب كل المعانى فيه
حاشا لذاك المحيا من مشبه يحكيه
وإن شريت مدامى فالكأس هو ساقيه
وفيه عزى وذلى بمهجتى أفديه
هذا الذى قد عشقته قد حار وصفى فيه

ما كل صيد يحصل يفرح الصياد
وهو على معبود وأنا عليه معتاد
كأننا فى الصحبة جينا على ميعاد
أنا أرصده فى مطاره خائف عليه ينصاد

الله يصبر قلبى على الذى يهواه
وما أطيع التجلد على أليم جفاه
ما أكثر مغاين حبيبى وما أقل وفاه
لو كنت أعشق ظلى ما كنت قط أراه

لا أوحش الله منكم فى سائر الأوقات
والقلب فى النور منكم والعين فى ظلمات
هيهات إنى أحيا من بعدكم هيهات
أعد بين الأحياء وأنا مع الأموات
إيش ضر لو كان جسمى من جملة التبعات
هنا تشق المراير وتسكب العسبرات
لكان قلبى تقطع من بعدكم حسرات
أخفف جناح المذلة وأرفع الأصوات
أقطر الدموع منى وأصد الزفرات
وما أقصر أيام وصلى كأنها ساعات

وسينثات الأعادى اتبدلت حسنات
كذا العبيد تتابع أوامر السادات
والدهر من عاداته يقلب الحالات

مالي أرى حسناتي بالسينثات تبدلت
خالفتهموني وعمري مازلت أتبع أمركم
أسكت وأصبر عنكمو ويفعل الله ما يشا

الفن السابع فى فن القوما:

قيل أول من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر والصحيح أنه مخترع من قبله. وكان الناصر يطرب له، وكان لابن نقطة ولد صغير ماهر فى نظم القوما، فلما مات أبوه أراد أن يعرف الخليفة بموت أبيه ليجريه على مفروضه، فتعذر عليه ذلك، فصبر إلى دخول شهر رمضان ثم أخذ أتباع والده من المسحرين ووقف أول ليلة من الشهر تحت الطيارة وغنى القوما بصوت رقيق، فأصغى الخليفة إليه وطرب له، فكان أول ما قاله قوله:

يا ســــــــــــيد الســــــــادات لك بالكرم عــــــــادات
وأنا بنى ابن نقطة تعــــــــيش أبويا مــــــــات

فأعجب الخليفة منه هذا الاختصار، فاستحضره وخلع عليه وفرض له ضعفى ما كان لأبيه.

ومنها للصفى الحلى:

من كان يهوى البــــــــدور ووصل بيض الخــــــــدور
بالبيض والصففر يســــــــخو وقد جلس فى الصــــــــدور
من حب بيض الخــــــــدور ورام لزوم الصــــــــدور
يســــــــمح وإلا فــــــــيبقى من بينهم مــــــــهــــــــدور
كم بين ســــــــجف الخــــــــدور من عاشق مــــــــصــــــــدور
يرعى الكواكب تــــــــعلو يرى جمــــــــال البــــــــدور
بين الحلل والخــــــــدور وجوه مــــــــثل البــــــــدور
إشراقها فى المحاــــــــجر وغربها فى الصــــــــدور
قد كنت فوق الصــــــــدور بين الظبــــــــا والبــــــــدور
فصرت أحسد من أبصر خــــــــيامهم والخــــــــدور
نوائب المــــــــقدور مــــــــثل الكواكب تــــــــدور
من بعد طيب الخــــــــواطر يقضى بضيق الصــــــــدور
غــــــــيرى يلازم الصــــــــدور أنا عليــــــــكم أدور
واصطفى الصــــــــدد وأنا من بينهم مــــــــهــــــــدور

وقال أيضاً:

حال الهوى مــــــــخبور يريد جلد صــــــــبور
يصــــــــون مــــــــره وإلا يبقى من أهل القــــــــبور
من كان هواه مــــــــستور يحظى برفع الســــــــتور
ومن هتك ســــــــر حــــــــبور يمحى من الدســــــــتور
أبذل لبيــــــــض النــــــــحور أموال مــــــــثل البــــــــحور

إن أردت تملك وتظفر
قم فـاـبـهـذـل المـذخـر
تريد هـذـى المـحـبـه
كم حـول تـلك الخـدور
مـثل الدوالـيب تجـرى
من يركـب المـحـذور
يظفر بحـبـه ويـلـغ
كن بالهـوى مـسـرور
واجـل تـراب أعتـابهم
طـرق المـحـبـه وعـور
من فـتـك بيـض السـوالف
كم عـاشق مـذعـور
يغـار قـلـبـه ولـكن
كم بيـنهم يعـفـور
من أهـل بـدر فـديتـه

ومن ذلك ما نظمه بعضهم ليسحر بعض الخلفاء فى رمضان:

لا زال سـعدك جـديد
ولا بـرحت مـهـنى
فى الدهر أنت الفـريد
والخلق شـمـر منقـح
يا من جنابه شـديد
ومن يلاقى الشـديد
لا زلت فى تأيـيد
ولا بـرحت مـهـنى
نحن لذكـرك نشـيد
ونبـعث أوصاف مـدحك
ظـلك علينا مـديد
وكم غـمرت بـفضلك
لا زلت فى كل عـيد
عمـرك طـويل وقـدرك

ولـدانهم والـحـر
وفى العـطا لا تجـر
قلوب مـثل الصـخور
من عـاشق مـذعـور
دمـوعـها وتـدور
هو فى الهـوى مـمـذور
قـصـده ويوفى النـذور
ولا تـبـيت مـغـرور
لأجـفـان عـينك درور
كم بيـنهم مـعـذور
على سـواد الشـمـر
فى حب بيـض الثـغـور
مـدامـه ما تـغـور
كـالظـبى أنـس نـفـور
إيش ما عـمل مـغـفور

دائم وجـدك سـعيد
بكل صـوم وعـيد
وفى صـفاتك وحـيد
وأنت بيت القـصـيد
ولطف رأيه سـديد
بقلب مـثل الحـديد
فى الصـوم والتـعـيد
بكل عـام جـديد
بقـولنا والنشـيد
على خـيـول البـريد
ما فـوق جـودك مـزيد
قـرينا والبـعـيد
تـحـظى بجـد سـعيد
وافـر وظـلك مـديد

لا زال قدرك مجيد
ولا برحت موقى
منا زال برك يزيد
ومنا برح جود كفك
لا زال برك مزيد
ولا عدمننا نوالك
ومما قيل فى فن الحماق:

أنا ما عبورى الحمام
إلا لدمع جارى
وديك المجارى تجرى
تقول الأنام فى الحمام
وقال آخر:

ترى كل من نعيش قو
فأساسه لاه واترك هواء
وإن زاد على عيش قوا
تركوا ولو كان يحيى

وظل جودك مزيد
كمما يوقى الوليد
على أقل العبيد
منا كحبل الوريد
دائم وبأسك شديد
فى صوم فطر وعيد

لجسمى لكى ينظف
على الماء ولا يوقف
ودمعى يسابقها
له أحباب فارقها

علينا يقسم أنفسه
وسدد الطريق خلفه
وزاد بى الهوى والذل
لأهل القبور الكل

وقد انتهى الكلام فيما أشرت إليه من الفنون السبعة وذكرت منها ما تبتهج به النفوس وتقر به العيون، واختصرت ذلك إلى الغاية، فجاء بتوفيق الله فى الحسن نهاية، وأسأل الله التوفيق بمنه وكرمه والمزيد من بره ونعمه، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى ذكر النساء وصفاتهن ونكاحهن وطلاقهن وما يحمد ويذم من عشرتهن وفيه فصول

الفصل الأول: فى النكاح وفضله والترغيب فيه

قال الله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣]. وقال تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. وقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء». وقال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوار عندكم»، وقال رسول الله ﷺ: «تزوجوا الودود الولود، فإننى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة». وقال ﷺ: «سوداء ولود خير من حسناء عقيم». وقال رسول الله ﷺ: «أحسن النساء بركة أحسنهن وجهاً وأرخصهن مهراً فينبغى للرجل إذا أراد أن يتزوج أن يرغب فى ذات الدين وأن يختار الحسب والشرف».

كما حكى أن نوح بن مريم قاضى مرو أراد أن يزوج ابنته، فاستشار جار له مجوسياً، فقال: سبحان الله يستفتونك وأنت تستفتينى! قال: لا بد أن تشير على: قال: إن رئيسنا كسرى كان يختار المال، ورئيس الروم قيصر كان يختار الحسب والنسب، ورئيسكم محمد كان يختار الدين، فانظر أنت بأيهم تقتدى. وقال رجل للحسن: إن لى ابنة فمى ترى أن أزوجه لها؟ قال: زوجها ممن يتقى الله عز وجل، فإن أحباها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها. وقيل لرجل من الحكماء: فلان يخطب فلانة. فقال: أموسر من عقل ودين؟ فقالوا: نعم. قال: فزوجوه إياها، ويستحب أن يختار البكر لقوله ﷺ: «عليكم بالأبكار فإنهن أطيب أفواه وأنتق أرحاماً» وقالوا: أشهى المطى مالم يركب وأحب اللآلىء ما لم يشق، وأنشد بعضهم:

قالوا نكحت صغيرة فأجبتهم
كم بين حبة لؤلؤ مثقوبة
فأجابته امرأة:

إن المطى لا يلذ ركوبها
والدر ليس بنافع أربابه
قال خالد بن صفوان^(١):

عليك إذا ما كنت فى الناس ناكحاً
بذات الثنابا الغر والأعين النجل

وقيل: استشار رجل داود عليه السلام فى التزويج، فقال له: سل سليمان وأخبرنى بجوابه، فصادفه ابن سبع سنين وهو يلعب مع الصبيان راكباً قسبة فسأله فقال: عليك بالذهب الأحمر أو الفضة البيضاء، واحذر الفرس لا يضربك. فلم يفهم الرجل ذلك، فقال له داود عليه الصلاة والسلام: الذهب الأحمر البكر، والفضة البيضاء الثيب الشابة، ومن وراءهما كالفرس الجموح. وقال رسول الله ﷺ: «تخيروا لنطفكم»، وقال ﷺ: «انظر فى أى شىء تضع ولدك، فإن العرق دساس». وقال عليه الصلاة والسلام: «إياكم إياكم وخضراء الدمن. قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: المرأة الحسناء فى المنبت السوء»، وأنشدوا فيه:

إذا تزوجت فكن حاذقاً
وقال بعضهم:

وأول خبث الماء خبث ترابه
وأول خبث القوم خبث المناكح

(١) خالد بن صفوان: هو خالد بن عبد الله بن عمرو بن الأهم التميمى المقرئ البصرى أحد فصحاء العرب، ومن مشاهير الأخباريين، وله أخبار فى البخل، كان يجالس عمر بن عبد العزيز، وهشام بن عبد الملك، ولد ونشأ بالبصرة، وكان أيسر أهلها مالاً، ولم يتزوج، له كلمات سائرة، ومن كلامه عندما سئل: أى إخوانك أحب إليك؟ قال: الذى يغفر زلى، ويقبل على، ويسد خللى، عاش إلى أن أدرك خلافة السفاح العباسى وحظى عنده، وكان لفصاحته أقدر الناس على مدح الشىء وذمه، توفى بعد أن كف بصره سنة (نحو ١٣٣هـ - نحو ٧٥٠م).

وعن عليّ رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا تسترضعوا الحمقاء ولا العمشاء فإن اللبن يعدى». وقيل: إن جعفر بن سليمان بن عليّ عاب يوماً على أولاده، وأنهم ليسوا كما يجب، فقال له ولده أحمد بن جعفر: إنك عمدت إلى فاسقات مكة والمدينة وإماء الحجاز فأوعيت فيهن نطفك ثم تريد أن ينجن، وإنما نحن كصاحبات الحجاز فهلافعلت في ولدك ما فعل أبوك فيك حين اختار لك عقيلة قومها، فزوجها منك، وأنشدوا:

صفات من يستحب الشرع خطبتها
صبيّة ذات دين زانه أدبٌ
غريبة لم تكن من أهل خاطبها
فيها أحاديث جاءت وهي ثابتة
وقال آخر:

مطيّات السرور فويق عشر
فإن جزت المسير فسر قليلاً
وقال آخر:

فإياك وإياك العجوز ووطأها
فمما هو إلا مثل سم الأراقم

واعلم أن العيش كله مقصور على الحليّة الصالحة، والبلاء كله موكل بالقرينة السوء التي لاتسكن النفس إلى عشرتها ولا تقر العيون برؤيتها. وفي حكمة سليمان بن داود عليهما السلام: المرأة العاقلة تعمّر بيت زوجها، والمرأة السفهية تهدمه.

وروى أنه لما حضر أبو طالب نكاح رسول الله ﷺ على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، ومعه بنو هاشم ورؤساء مضر، خطب فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته وسوأس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن محمداً بن عبد الله ابن أخي من لا يوزن به رجل من قريش إلا رجح به برأً وفضلاً وكرماً ومجداً ونبلاً، فإن كان في المال قلّ. فلما ل ظل زائل ورزق حائل، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما عاجله وآجله من مالى كذا وكذا، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل.

ولما خطب عمرو بن حجر الكندي إلى عوف بن محلم الشيباني ابنته أم إياس وأجابه إلى ذلك، أقبلت عليها أمها ليلة دخولها بها توصيها، فكان مما أوصتها به أن قالت: أى بنية إنك مفارقة بيتك الذي منه خرجت وعشك الذي منه درجت إلى رجل لم تعرفه وقرين لم تألفه، فكونى له أمة ليكون لك عبداً، واحفظى له خصلاً عشرين يكن لك ذخراً، فأما الأولى والثانية: فالرضا بالقناعة وحسن السمع له والطاعة، وأما الثالثة والرابعة: فالتفقد لمواقع عينيه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم أنفه منك إلا أطيب الريح، وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت طعامه ومنامه، فإن شدة الجوع ملهية، وتنغيص النوم مغضبة، وأما السابعة والثامنة: فالإحراز لماله والإرعاء على حشمه وعياله، وأما التاسعة والعاشرة: فلا تعص له أمراً، ولا تنفسي له سرّاً، فإنك إن خالفت أمره أو غرت صدره، وإن أفشيت سره لم تأمنى غدره، وإياك والفرح بين يديه إذا كان مهتماً، والكآبة لديه إذا كان فرحاً. فقبلت وصية أمها، فأنجبت وولدت له الحرث ابن عمرو جد امرئ القيس الملك الشاعر.

وعن الهيثم بن عدي الطائي عن الشعبي قال: لقيني شريح، فقال لى: يا شعبي عليك بنساء بنى تميم، فإنى رأيت لهن عقولا، فقلت: وما رأيت من عقولهن؟ قال: أقبلت من جنازة ظهراً، فمررت بدورهن وإذا أنا بعجوز على باب دار وإلى جانبها جارية كأحسن ما رأيت من الجوارى، فعدلت إليها، واستسقيت وما بى عطش. فقالت لى: أى الشراب أحب إليك؟ قلت ماتيسر قالت: ويحك يا جارية ائتيه بلبن، فإنى أظن الرجل غريباً، فقلت للعجوز: ومن تكون هذه الجارية منك؟ قالت: هى زينب بنت جرير إحدى نساء بنى حنظلة. قلت: هى فارغة أم مشغولة؟ قالت: بل فارغة.

(١) شريح: هو شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندي قاضى الكوفة، ويقال: شريح بن شراحيل، وابن شراحيل، ويقال: هو من أبناء الفرس الذين كانوا باليمن. يقال: له صحبة، ولم يصح، بل هو ممن أسلم فى حياة النبي ﷺ وانتقل من اليمن زمن الصديق مات سنة (٧٨هـ).

قلت: أتزوجينيها؟ قالت: إن كنت كفؤاً - ولم تقل كفوا وهي بلغة بنى تميم - فتركتها ومضيت إلى منزلى لأقيل فيه، فامتنعت منى القائلة، فلما صليت الظهر أخذت بيد إخوانى من العرب الأشراف علقمة والأسود والمسيب، ومضيت أريد عمها، فاستقبلنا وقال: ما شأنك أبا أمية؟ قلت: زينب ابنة أخيك قال: ما بها عنك رغبة، فزوجنيها، فلما صارت فى حبالى ندمت وقلت أى شيء صنعت بنساء بنى تميم، وذكرت غلظ قلوبهن، فقلت: أطلقها، ثم قلت: لا، ولكن أدخل بها، فإن رأيت ما أحب وإلا كان ذلك. فلو شهدتنى يا شعبي وقد أقبلت نساؤها يهدينها حتى أدخلت على. فقلت: إن من السنة إذا دخلت المرأة على زوجها أن يقوم ويصلى ركعتين. ويسأل الله تعالى من خيرها ويتعوذ من شرها. فتوضأت: فإذا هى تتوضأ بوضوئى وصليت فإذا هى تصلى بصلاتى، فلما قضيت صلاتى أتتني جواريتها فأخذن ثيابى وألبستنى ملحفة قد صبغت بالزعفران فلما خلا البيت دنوت منها، فمددت يدي إلى ناصيتها، فقالت: على رسلك أبا أمية. ثم قالت: الحمد لله أحمدته وأستيعنه، وأصلى على محمد وآله، أما بعد، فإننى امرأة غريبة لا علم لى بأخلاقك فبين لى ما تحب فأتيه، وما تكره فأجتنبه، فإنه قد كان لك منكح فى قومك ولى فى قومى مثل ذلك، ولكن إذا قضى الله أمراً كان مفعولاً، وقد ملكت، فاصنع ما أمرك الله تعالى به، أما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان أقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم لى ولك ولجميع المسلمين. قال: فأحوجتني والله يا شعبي إلى الخطبة فى ذلك الموضع، فقلت: الحمد لله أحمدته وأستيعنه، وأصلى وأسلم على محمد وآله أما بعد، فإنك قلت كلاماً إن ثبت عليه يكن ذلك حظاً لى، وإن تدعيه يكن حجة عليك، أحب كذا وأكره كذا، وما رأيت من حسنة فابثيها، وما رأيت من سيئة فاستريها. فقالت: كيف محبتك لزيارة الأهل؟ قلت: ما أحب أن يملنى أصهارى. قالت: فمن تحب من جيرانك يدخل دارك أذن له، ومن تكرهه أكرهه، قلت: بنو فلان قوم صالحون، وبنو فلان قوم سوء. قال: فبت معها يا شعبي بأنعم ليلة، ومكثت معى حولاً لا أرى منها إلا ما أحب، فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء، وإذا أنا بعجوز فى الدار تأمر وتنهى. وقلت: من هذه؟ قالوا: فلانة أم حليتك، قلت: مرحباً وأهلاً وسهلاً. فلما جلست أقبلت العجوز، فقالت: السلام عليك يا أبا أمية، فقلت وعليك السلام ومرحباً بك وأهلاً قالت: كيف رأيت زوجتك قلت: خير زوجة وأوفق قرينة لقد أدبت فأحسنت الأدب، وريضت فأحسنت الرياضة، فجزاك الله خيراً، فقالت: أبا أمية إن المرأة لا يرى أسوأ حالاً منها فى حالتين قلت: وما هما: قالت: إذا ولدت غلاماً أو حظيت عند زوجها، فإن رابك مريب فعليك بالسوط، فوالله ما حاز الرجال فى بيوتهم أشر من الروعاء المدللة، فقلت: والله لقد أدبت، فأحسنت الأدب، وريضت فأحسنت الرياضة، قالت: كيف تحب أن يزورك أصهارك؟ قلت: ما شاءوا، فكانت تأتيني فى رأس كل حول فتوصيني بتلك الوصية، فمكثت معى ياشعبي عشرين سنة لم أعب عليها شيئاً. وكان لى جار من كندة يفزع امرأته ويضربها، فقلت فى ذلك:

رأيت رجلاً يضربون نساءهم	فشلت يمينى يوم تضرب زينب
أضربها من غير ذنب أتت به	فما العدل منى ضرب من ليس يذنب
فزنب شمس والنساء كواكب	إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب

وخطب الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن جعفر ابنته أم كلثوم على ألفى ألف فى السر وخمسمائة ألف فى العلانية، فأجابه إلى ذلك، وحملها إلى العراق، فأقامت عنده ثمانية أشهر، فلما خرج عبد الله بن جعفر إلى عبد الملك بن مروان وافداً نزل بدمشق، فأتاه الوليد بن عبد الملك على بغلة. ومعه الناس. فاستقبله ابن جعفر بالترحيب فقال له الوليد: لكنك أنت لا مرحباً بك ولا أهلاً. قال: مهلاً يا ابن أخى، فلست أهلاً لهذه المقالة منك، قال: بلى، والله وبشر منها، قال: وفيه ذلك؟ قال: لأنك عمدت إلى عقيلة نساء العرب وسيدة نساء بنى عبد مناف. فعرضتها لعبد ثقيف يتفخذها بتخفد. قال: وفى هذا عتبت على يا ابن أخى؟ قال: نعم فقال عبد الله: والله ما أحق الناس أن لا يلومنى فى هذا إلا أنت وأبوك، لأن من كان قبلكم من الولاة كانوا يصلون رحمى ويعرفون حقى، وإنك وأباك منعمانى رفدكما حتى ركبني الدين أما والله لو أن عبداً حبشياً مجدعاً أعطانى بها ما أعطانى عبد ثقيف لزوجتها منه إنما فديت بها رقبتي، فما راجعه كلمة حتى عطف عنانه ومضى حتى دخل على عبد الملك، فقال: ما لك يا أبا عباس؟ قال: إنك سلطت عبد ثقيف وملكته حتى تفخذ نساء بنى عبد مناف، فأدركت عبد الملك غيره، فكتب إلى الحجاج

يقسم عليه أن لا يضع كتابه من يده حتى يطلقها ففعل، قال: ولم يكن قطع الحجاج عنها رزقاً ولا كرامة يجريها عليها حتى خرجت من الدنيا وما زال واصلاً لعبد الله بن جعفر حتى مات. وما كان يأتي عليه الحول إلا وعنده غير مقبلة من عند الحجاج عليها أموال وكسوة وتحف.

وحكى أن المغيرة بن شعبه لما ولى الكوفة سار إلى دير هند بنت النعمان وهي فيه عمياء مترهبة، فاستأذن عليها، فقالت: من أنت؟ قال: المغيرة بن شعبه الثقفي. قالت: ما حاجتك؟ قال: جئت خاطباً. قالت: إنك لم تكن جئتني لجمال ولا مال، ولكنك أردت أن تتشرف في محافل العرب، فتقول: تزوجت بنت النعمان بن المنذر، وإلا فأى خير في اجتماع عمياء وأعمور. وكان عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضى الله عنهما قد تزوج عاتكة بنت عمرو بن نفيل، وكانت من أجمل نساء قريش، وكان عبد الرحمن من أحسن الناس وجهاً وأبرهم بوالديه. فلما دخل بها غلبت على عقله وأحبها حباً شديداً. فثقل ذلك على أبيه، فمر به أبو بكر يوماً، وهو في غرفة له، فقال: يا بنى إني أرى هذه المرأة قد أذهلت رأيك، وغلبت على عقلك، فطلقها، قال: لست أقدر على ذلك، قال: أقسمت عليك إلا ما طلقته، فلم يقدر على مخالفة أبيه فطلقها، فجزع عليها جزعاً شديداً، وامتنع عن الطعام والشراب، فقيل لأبى بكر: أهلك عبد الرحمن، فمر به يوماً، وعبد الرحمن لا يراه وهو مضطجع في الشمس يقول هذه الأبيات:

فرو الله لا أنساك ما ذرّ شارقُ وما ناح قمرى الحمام المطوقُ
فلم أر مثلى طلق اليوم مثلها ولا مثلها في غير شيء يطلّقُ
لها خلق عفو ودين ومحدث وخلق سوى في الحياء ومنطقُ

فسمعه أبوه فرق له وقال له: راجعها يا بنى، فراجعها، وأقامت عنده حتى قتل يوم الطائف مع رسول الله ﷺ أصابه سهم فقتله، فجزعت عليه جزعاً شديداً وقالت ترثيه:

فآليت لا تنفك نفسى حزينه عليك ولا ينفك جلدى أغبراً
فتى طول عمرى ما أرى مثله فتى أكرّ وأحمى فى الهياج وأصبراً
إذا شرعت فى الأسنة خاضها إلى القرن حتى يترك الرمح أحمرأ

ثم تزوجها بعده عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته، ودعا الناس إلى وليمته، فأتوه، فلما فرغ من الطعام، وخرج الناس قال له على بن أبى طالب رضى الله عنه: يا أمير المؤمنين ائذن لى فى كلام عاتكة حتى أهنئها، وأدعو لها بالبركة، فذكر عمر ذلك لعاتكة، فقالت: إن أبا الحسن فيه مزاح، فائذن له يا أمير المؤمنين، فأذن له، فرفع جانب الخدر. فنظر إليها فإذا ما بدا من جسدها مضمخ بالخلوق، فقال لها يا عاتكة: ألسنت القائلة:

فآليت لا تنفك نفسى حزينه عليك ولا ينفك جلدى أغبراً

وقيل: إن عمر لما قتل عنها جزعت عليه جزعاً شديداً، وتزوجت بعده الزبير بن العوام، وكان رجلاً غيوراً، وكانت تخرج إلى المسجد كعادتها مع أزواجها، فشق ذلك عليه، وكان يكره أن ينهاها عن الخروج إلى الصلاة لحديث رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»، فعرض لها ليلة فى ظهر المسجد وهي لا تعرفه، فضرب بيده عجزيتها ثم انصرف، فقعدت بعد ذلك عن الخروج إلى المسجد، وكان يقول لها: ألا تخرجين يا عاتكة؟ فتقول: كنا نخرج إذا الناس ناس ومابهم من باس، وأما الآن فلا. ثم قُتِلَ عنها الزبير قتله عمرو بن جرموز بوادى السباع وهو نائم، ثم تزوجها بعده محمد بن أبى بكر، فقتل عنها بمصر، فقالت: لا أتزوج بعده أبداً إني لأحسبني أنى لو تزوجت جميع أهل الأرض لقتلوا عن آخرهم.

وحكى عن الحارث بن عوف بن أبى حارثة أنه قال للخارجة بن سنان: أترى أخطب إلى أحد فيردنى. قال: نعم، قال: ومن هو؟ قال: أوس بن حارثة بن لام الطائي، قال: اركب بنا إليه، فركبنا إليه حتى أتينا أوس بن حارثة فى بلاده، فوجدناه فى فناء منزله، فلما رأى الحارث بن عوف قال: مرحباً بك يا حارث، ثم قال: ما جاء بك؟ قال: جئت

خاطباً. قال: لست هناك، فانصرف ولم يكلمه، فدخل أوس على امرأته مغضباً، فقالت له: من الرجل الذى سلم عليك، فلم تطل معه الوقوف ولم تكلمه؟ فقال: ذلك سيد العرب الحارث بن عوف، فقالت: فمالك لا تستتره؟ قال: إنه استهجنى. قالت: وكيف؟ قال: لأنه جاءنى خاطباً. قالت: ألسنت تزعم أنه سيد العرب. قال: نعم. قالت: إذا لم تزوج سيد العرب فى زمانه. فمن تزوج؟ قال: قد كان ذلك. قالت: فتدارك ما كان منك، قال: فبماذا؟ قالت: بأن تلحقه فترده. قال: وكيف، وقد فرط منى إليه ما فرط، قالت: تقول له إنك لقيتني وأنا مغضب لأمر، فلك المَعذرة فيما فرط منى، فارجع ولك عندى كل ما طلبت، قال: فركب فى أثرهما، قال خارجة بن سنان: فوالله إنا لنسير إذ حانت منى التفاته فرأيت. فقلت للحارث وهو ما يكلمنى هذا أوس فى أثرنا، فقال: ما أصنع به، فلما رأنا لانقف قال: يا حارث أربع على. فوقفنا له. وكلمه بذلك الكلام، فرجع مسروراً، قال خارجة بن سنان: فبلغنى أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته ادعى لى فلانة أكبر بناته. فأتته. فقال لها: أى بنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب جاءنى خاطباً. وقد أردت أن أزوجه منه. فما تقولين؟ قالت: لا تفعل. قال: ولم؟ قالت: لأننى فى خلقتى رداة وفى لسانى حدة. ولست بابنة عمه، فيراعى رحمى ولا هو بجارك فى البلد فيستحي منك. ولا آمن أن يرى منى مايكره، فيطلقنى، فيكون على بذلك مسبة، قال لها: قومى بارك الله فيك، ثم دعا ابنته الأخرى، فقال لها مثل قوله لأختها، فأجابته بمثل جوابها، فقال لها: قومى بارك الله فيك. ثم دعا بالثالثة، وكانت أصغرهن سناً، فقال لها مثلما قال لأختها، فقالت له: أنت وذاك. فقال لها: إنى عرضت ذلك على أختيك، فأبتاه، ولم يذكر لها مقالتهم، فقالت: والله إنى الجميلة وجهاً، الرفيعة خلقاً، الحسنة رأياً، فإن طلقنى فلا أخلف الله عليه فقال لها: بارك الله فيك ثم خرج إليه فقال زوجتك يا حارث بابنتى هنيئة، قال: قد قبلت نكاحها، وأمرأها أن تهيتها له، وتصلح شأنها، ثم أمر بيت فضرِب له، وأنزله إياه، ثم بعثها إليه، فلما دخلت عليه لبث هنيئة ثم خرج إلى، فقلت له: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله، قلت له: وكيف ذلك؟ قال: لما مددت يدي إليها قالت: مه أعند أبى وأخوتى هذا، والله لا يكون. ثم أمر بالرحلة فارتحلنا بها معاً وسرنا ما شاء الله. ثم قال لى: تقدم، فتقدمت، فعدل عن الطريق، فما لبث أن لحقنى، فقلت: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله، قلت ولم؟ قال: قالت تفعل بى كما يفعل بالأمه السيئة الأخيذة لا والله حتى تنحر الجزر والغنم وتدعو العرب وتعمل ما يعمل مثلك لثلى، فقلت: والله إنى لأرى همة وعقلاً، فقال: صدقت. قال: وأرجو الله أن تكون المرأة النجيبة، فوردنا إلى بلادنا، فأحضر الإبل والغنم ونحر وأولم ثم دخل عليها وخرج إلى، فقلت: أفرغت من شأنك، قال: لا والله. قلت: ولم ذاك؟ قال: دخلت عليها أريدها، فقلت لها أحضرت من المال ما تريد، قالت: والله لقد ذكرت من الشرف بما ليس فيك، قلت: ولم ذاك؟ قالت: أتستفرغ لنكاح النساء والعرب يقتل بعضها بعضاً، فكان ذلك فى أيام قيس وذيبيان. قلت: فماذا تقولين؟ قالت: أخرج إلى القوم، فأصلح بينهم، ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك ما تريد، فقلت: والله إنى لأرى عقلاً ورأياً سديداً، قال: فأخرج بنا، فخرجنا حتى أتينا القوم، فمشينا بينهم بالصلح، فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى ثم تؤخذ الدية، فحملنا عنهما الديات فكانت ثلاثة آلاف بعير، فانصرفنا بأجمل ذكر، ثم دخل عليها، فقالت له: أما الآن، فنعم، فأقامت عنده فى الد عيش وأطيبه، وولدت له بنين وبنات وكان من أمرهما ماكان، والله أعلم بالصواب.

وحكى الفضل أبو محمد الطيبى قال: حدثنا بعض أصحابنا أن رجلاً من بنى سعد مرت به جارية لأمية بن خالد بن عبد الله بن أسد ذات ظرف وجمال، وكان شجاعاً فارساً، فلما رآها قال: طوبى لمن كان له امرأة مثلك، ثم أتبعها رسولاً يسألها ألها زوج ويذكره لها وكان جميلاً، فقالت للرسول وما حرفته، فأبلغه الرسول ذلك، فقال: ارجع إليها وقل لها:

مقارعة الأبطال فى كل شارق
أمام رعييل الخيل أحمى حقائقي
علي ألم البيض الرقاق البوارق

وسائلة ما حرفتى قلت حرفتى
إذا عرضت خليل لخليل رأيتنى
أصب نفسي حين لم أر صابراً

فلحقها الرسول، فأنشدها ما قال، فقالت له: ارجع إليه، وقل له أنت أسد، فاطلب لك لبوة، فلست من نسائك، وأنشدته تقول:

كريمياً محيياًه كثير الصدائق
يعانقها فى الليل فوق النمارق

ألا إنما أبغى جـواداً بماله
فتى همه مذ كان خود خريدة

وحدث يحيى بن عبد العزيز عن محمد بن عبد الحكم عن الإمام الشافعي رضى الله عنه قال: تزوج رجل امرأة جديدة على امرأة قديمة فكانت جارية الجديدة تمر على بيت القديمة فتقول:

وما يستوى الرجلان رجل صحيحة وأخرى رمى فيها الزمان فشلت

ثم تعود وتقول:

وما يستوى الثوبان ثوب به البلى وثوب بأيدي البائعين جديد

فمرت جارية القديمة على باب الجديدة يوماً وقالت:

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألوه الفتي وحنينه أبداً لأول منزل

وقال عمرو بن العلاء، وكان أعلم الناس بالنساء:

فلن تسألوني بالنساء فلاني بصير بأدواء النساء طبيب

إذا شئنا رأس المرء أو قل ماله فليس له في ودّه نصيب

وسئل المغيرة بن شعبه^(١) عن صفة النساء فقال: بنات العم أحسن مؤاساة، والغرائب أنجب، وما ضرب رءوس الأقران مثل ابن السوداء، وقال عبد الملك بن مروان: من أراد أن يتخذ جارية للمتعة، فليخذها ببربرية، ومن أراد أن يتخذها للولد فليخذها فارسية، ومن أراد أن يتخذها للخدمة فليخذها رومية، قال الشاعر:

لاتشتمن أمراً ممن يكون له أم من الروم أم سوداء عجماء

فلئنما أمهات القوم أوعية مستودعات وللأنساب آباء

وقال الأصمعي: أتاني رجل من قریش يستشيرني في امرأة يتزوجها، فقلت: يا ابن أخي أقصيرة النسب أم طويلة؟ فلم يفهم عني، فقلت: يا ابن أخي، أما القصيرة النسب فالتى إذا ذكرت أباه اكتفت به، والطويلة النسب فهي التى لا تعرف حتى تطيل فى نسبها، فإياك أن تقع مع قوم قد أصابوا كثيراً من الدنيا مع دناءة فيهم، فتضيع نسبك فيهم. وخرج رجل من أهل الكوفة فى غزاة، فكسب جارية وفرساً وكان مملكاً على ابنة عمه، فكتب إليها يعيرها ويقول:

ألا بلّغوا أم البنين بأننا غنينا وأغتننا الغطارفة النجد

بعميد مناظ المنكبين إذا جرى وبيضاء كالتمثال زينها العقد

فهذا لأيام العود وهذه حاجة نفسى حين ينصرف الجند

فلما ورد عليها كتابه وقرأته قالت يا غلام: هات الدواة، وكتبت جوابه تقول:

ألا فاقراً منى السلام وقل له غنينا وأغتننا الغطارفة المرد

إذا شئت أغناني غلام مزجل ونازعته فى ماء معتصر الورد

وإن شاء منهم ناشى مد كفه إلى عنكن ملساء أو كفل نهدي

فما كنتم تقضون حاجة أهلكم شهوداً فتقضوها على النأى والبعد

فمعجل إلينا بالسراج فإنه منانا ولا ندعوك لك الله بالرد

فلا قفل الجند الذى أنت فيهم وزادك رب الناس بعداً على بعد

فلما ورد عليه كتابها لم يزد على أن ركب الفرس وأردف الجارية خلفه ولحق بابنة عمه، فكان أول شيء بدأها به بعد

(١) المغيرة بن شعبه: هو المغيرة بن شعبه بن أبى عامر بن مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن مسعود بن عوف الثقفى، أبو عيسى ويقال: أبو عبد الله، أبو محمد، صحابى، أسلم عام الخندق، وشهد الحديبية وما بعدها وولى العراق لعمر بن الخطاب رضى الله عنهما، وكان من رجال الدهر حزمًا ورأيًا ودهاءً، يقال له (مغيرة الرأي) شهد اليمامة وفتوح الشام والعراق، كان أول من وضع ديوان البصرة، توفى سنة (٥٠هـ) وقيل (٥١هـ) وقيل (٥٨هـ) والأول أرجح.

السلام أن قال لها: بالله عليك هل كنت فاعلة ذلك، فقالت له: الله فى قلبى أعظم وأجل وأنت فى عينى أذل وأحق من أن أعصى الله فىك، فكيف ذقت طعم الغيرة، فوهب لها الجارية، وانصرف إلى الغزاة، والله تعالى أعلم بالصواب.

الفصل الثامن: فى صفات النساء المحموده

كتب الحجاج إلى الحكم بن أيوب أن اخطب لعبد الملك بن مروان امرأة جميلة من بعيد، مليحة من قريب، شريفة فى قومها، ذليلة فى نفسها، مؤاتية لبعلها، فكتب إليه قد أصبتها لولا عظم ثدييها، فكتب إليه لا يكمل حسن المرأة حتى يعظم ثدييها، فتدفىء الضجيع، وتروى الرضيع، وقال عبد الملك بن مروان لرجل من غطفان: صف لى أحسن النساء؟ قال: خذها يا أمير المؤمنين ملساء القدمين، ردماء الكعبين، ناعمة الساقين، ضخماء الركبتين، لفاء الفخذين، ضخمة الذراعين، رخصة الكفين، ناهدة الثديين، حمراء الخدين، كحلاء العينين، زجاء الحاجبين، لمياء الشفتين، بلجاء الجبين، شماء العينين، شنباء الثغر، محلولة الشعر، غيداء العنق، مكسرة البطن. فقال: ويحك وأين توجد هذه؟ قال: تجدها فى خالص العرب وفى خالص الفرس. وقال حكيم: عليكم بمن تربت فى النعيم ثم أصابتها فاقة فآثر فيها الغنى وأدبها الفقر. وقال رجل لخطاب: ابغ لى امرأة لاتؤنس جارا ولا توطن دارا، يعنى لاتدخل على الجيران ولا تدخل الجيران عليها، وفى مثل هذه قال الشاعر:

هيفاء فيها إذا استقبلتها صلفٌ
خودٌ من الخففات البيض لم يرها
عطياء غامضة الكعبين معطار
بساحة الدار لابلعل ولا جـار

وقال الأعشى:

لم تمش مـيـلاً ولم تـركـب على جـملٍ
ولم تر الشمس إلا دونها الكلل

وكانت امرأة عمران بن حطان من أجمل الناس وجهاً، وكان هو من أقبح الناس وجهاً، فقال لها يوماً: أنا وإياك فى الجنة إن شاء الله تعالى. فقالت له: وكيف ذلك؟ فقال: لأنى أعطيت مثلك فشكرت وأعطيت مثلى فصبرت، والصابر والشاكر فى الجنة، وقال بعضهم: رأيت فى طريق مكة أعرابية ما رأيت أحسن منها وجهاً، فقعدت أنظر إليها، وأتعجب من جمالها، فجاء شيخ قصير، فأخذ بردائها وسار بها ومضى فلقيتها مرة أخرى، فقلت لها: من هذا الشيخ؟ قالت: زوجى، قلت: كيف يرضى مثلك بمثله فأنشدت:

أيا عجباً للخود يجرى وشاحها
دعانى إليه أنه ذو قرابة
تـزف إلى شـيخ بأقـبح تمـثال
يعـز علينا من بنى العم والخال

وسمع بعضهم قائلاً يقول:

ومن لا يرد مدحى فلان مدائحى
نوافق عند المشتري الحمـد بالندى
نوافق عند الأكـرمين تـوامى
نفاق بنات الحرث بن هشام

فقال: يا ابن أخى ما بلغ من نفاق بنات الحرث بن هشام؟ قال: كن من أجمل النساء وجوهاً وكان أبوهن إذا زوجهن يسوقهن ومهورهن إلى بعولتهن. فقال: يا ابن أخى لو فعل هذا إبليس بيناته لتنافست فيهن الملائكة المقربون. وقال عبد الملك لابن أبى الرقاع كيف علمك بالنساء؟ قال: أنا والله أعلم الناس بهن، وجعل يقول:

قضاعية الكعبين كندية الحشا
لها حكم لقمان وصورة يوسف
خزاعية الأطراف طائية الفم
ومنطق داود وعففة مريم

وقالوا: الوجه الحسن أحمر، وقد تضرب فيه الصفرة مع طول المكث فى الكن والتضمخ بالطيب. وقالوا: إن الوجه الرقيق البشرة الصافى الأديم إذا خجل يحمر وإذا فرق يصفر. ومنه قولهم ديباج الوجه، يريدون تلونه من رفته، قال على بن أبى زيد فى وصفه:

حمرة خلط صفرة فى بياض
مثل ما حاك حائك ديباجا

(وقال على بن عبد ربه):

بيضاء يحمر خدها إذا خجلت كما جرى ذهبٌ في صفحتي ورق

وقالوا: إن الجارية الحسنة تتلون بتلون الشمس فهي بالضحى بيضاء وبالعشى صفراء فقال ذو الرمة:

بيضاء صفراء قد تنازعها لونان من فضة ومن ذهب

قالوا: ليس المرأة الجميلة التي تأخذ ببصرك جملة على بعد فإذا دنت منك لم تكن كذلك، بل الجميلة التي كلما كررت بصرك فيها زادتك حسناً، وقالوا: إن أردت أن ينجب ولدك فاغضبها ثم قع عليها قال الشاعر:

مَن حملن به وهنَ عواقد حُبك النطاق فعاش غير مهبل

حملت به في ليلة مـزورة كرها وعقد نطاقها لم يحلل

الفصل الثالث: في صفة المرأة السوء نعوذ بالله تعالى منها

في حكمة داود عليه السلام: «إن المرأة السوء مثل شرك الصياد لا ينجو منها إلا من رضى الله تعالى عنه». وقيل: المرأة السوء غل يلقيه الله تعالى في عنق من يشاء من عباده. وقيل لأعرابي كان ذا تجربة للنساء، صف لنا شر النساء؟ فقال: شرهن النحيفة الجسم، القليلة اللحم، المحياض، المراض، المصفرة الميشومة، العسرة المشومة، السلطة البطرة، النفرة السريعة الوثبة، كأن لسانها حربة، تضحك من غير عجب، وتبكي من غير سبب، وتدعو على زوجها بالحرب، أنف في السماء وإست في الماء، عرقوبها حديد، متفخة الوريد كلامها وعيد، وصوتها شديد، وتدفن الحسنات وتفشى السيئات، تعين الزمان على بعلها، ولا تعين بعلها على الزمان، ليس في قلبها عليه رافة، ولا عليها منه مخافة، إن دخل خرجت، وإن خرج دخلت، وإن ضحك بكت، وإن بكى ضحكت، كثيرة الدعاء، قليلة الإرعاء تاكل لما، وتوسع ذماً، ضيقة الباع، مهتوكة القناع، صبيها مهزول، وبيتها مزبول، إذا حدثت تشير بالأصابع وتبكي في المجمع، بادية من حجابها، نباحة عند بابها، تبكي وهي ظالمة، وتشهد وهي غائبة، قد دلى لسانها بالزور، وسال دمعها بالفجور، ابتلاها الله بالويل والثبور وعظائم الأمور. ويقال: إن المرأة إذا كانت مبغضة لزوجها فإن علامة ذلك أن تكون عند قربها منه مرتدة الطرف عنه كأنها تنظر إلى إنسان غيره من ورائه، وإن كانت محبة له لا تنقلع عن النظر إليه، قال بعضهم:

لقد كنت محتاجاً إلى موت زوجتي ولكن قرين السوء باق معمر

فياليتها صارت إلى القبر عاجلاً وعذبها فيه نكيرٌ ومنكر

وقال زيد بن عمير:

أعاتبها حتى إذا قلت أقلعت أبى الله إلا خزيها فتعود

فإن طمشت قادت وإن طهرت زنت فهاتيك تزني دائماً وتقود

وقال داود عليه الصلاة والسلام: المرأة السوء على بعلها كالحمل الثقيل على الشيخ الكبير، والمرأة الصالحة كالنجم المرصع بالذهب كلما رآها قرت عينه برؤيتها، والله أعلم.

الفصل الرابع: في مكر النساء وغدرهن وذمهن ومخالفتهن

في حكمة داود عليه الصلاة والسلام: وجدت في الرجال واحداً في ألف ولم أجد واحدة في جميع النساء. وقيل: إن عيسى عليه الصلاة والسلام لقي إبليس وهو يسوق أربعة أحمره عليها أحمال فسأله، فقال: أحمل تجارة وأطلب مشترين، فقال: ما أحدها؟ قال: الجور، قال: ومن يشتريه؟ قال: السلاطين. قال: فما الثاني؟ قال: الحسد. قال: فمن يشتريه؟ قال: العلماء، قال: فما الثالث؟ قال: الخيانة. قال: فمن يشتريها؟ قال: التجار. قال: فما الرابع؟ قال: الكيد. قال: فمن يشتريه؟ قال: النساء. وقال حكيم: النساء شر كلهن وشر ما فيهن قلة الاستغناء عنهن. وقالت الحكماء: لا تثق بامرأة ولا تغتر بجمال، وإن كثر. وقال: النساء حبائل الشيطان. قال الشاعر:

تَمْتَعُ بِهَا مَاسَا عَفْثَكَ وَلَا تَكُنْ
وَخْنَهَا وَإِنْ كَانَتْ تَفَى لَكَ إِنَّهَا
وَإِنْ هِيَ أَعْطَتْكَ اللَّيْلَانِ فَإِنَّهَا
وَإِنْ حَلَفْتَ أَنْ لَيْسَ تَنْقُضَ عَهْدَهَا
وَإِنْ سَكَبْتَ يَوْمَ الْفِرَاقِ دُمُوعَهَا
وَقَالَ ابْنُ بَشَارٍ:

جَزَوْعًا إِذَا بَانَتْ فَسُوفَ تَبِينُ
عَلَى قَدَمِ الْأَيَّامِ سَوْفَ تَخُونُ
لَغَيْرِكَ مِنْ طَلَابِهَا سَتَلِينَ
فَلَيْسَ لِمَخْضُوبِ الْبَنَانِ يَمِينُ
فَلَيْسَ لِعَمْرٍاءِ اللَّهِ ذَاكَ يَقِينُ

رَأَيْتُ مَوَاعِيدَ النِّسَاءِ كَأَنَّهَا
وَمُتَنَظَرُ الْمَوْعُودِ مِنْهُنَّ كَالَّذِي

سَرَابٌ لِمُرْتَادِ الْمَنَاهِلِ حَافِلُ
يُؤْمَلُ يَوْمًا أَنْ تَلِينَ الْجَنَادِلُ

قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: لَمْ تَنْهَ الْمَرْأَةَ عَنْ شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا فَعَلَتْهُ، وَقَالَ الْغَنَوِيُّ:

إِنَّ النِّسَاءَ مَتًى يَنْهَيْنِ عَنْ خَلْقٍ
فَلِإِنَّهُ وَقَعَ لَا بَدَّ مَفْعُولُ

وَقَالَ النَّخَعِيُّ: مِنْ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ طَاعَةُ النِّسَاءِ، وَيُقَالُ: مِنْ أَطَاعَ عَرْسَهُ فَقَدْ أَضَاعَ نَفْسَهُ، وَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: إِيَّاكَ وَمَشَاوِرَةَ النِّسَاءِ، فَإِنْ رَأَيْتَ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ وَعَزَمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ، أَكْفَفَ أَبْصَارَهُنَّ بِالْحِجَابِ، فَإِنْ شَدَّ الْحِجَابَ خَيْرُ لِهِنَّ مِنَ الْإِرْتِيَابِ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَضَرَّ مِنْ دُخُولِ مَنْ لَا يُوثِقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَعْرِفَنَّ غَيْرَكَ فَافْعَلْ، قَالَ السَّمْعَانِيُّ:

لَا تَأْمَنْ عَلَى النِّسَاءِ وَلَوْ أَخَا

مَا فِي الرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ أَمِينُ

إِنَّ الْأَمِينَ وَإِنْ تَحَفَّظَ جِهْدَهُ

لَا بَدَّ أَنْ بِنَظَرَةٍ سَيِّخُونُ

وَقَالَ غَيْرُهُ:

لَا تَرْكَنْ إِلَى النِّسَاءِ

وَلَا تَتَّقِ بِعَهْدِهِمْ وَدَهْنُ

فَرَضَاؤُهُنَّ جَمِيعُهُنَّ

مَعْلُوقُ بِفُرُوجِهِنَّ

وَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: لَا تَطْلُعُوا النِّسَاءَ عَلَى حَالٍ، وَلَا تَأْمَنُوهُنَّ عَلَى مَالٍ، وَلَا تَذَرُوهُنَّ إِلَّا لِتَدْبِيرِ الْعِيَالِ، إِنْ تَرَكْنَ وَمَا يَرْدُنَ أَوْ رَدْنَ الْمَهَالِكِ، وَأَفْسَدْنَ الْمَمَالِكَ، يَنْسِينَ الْخَيْرَ، وَيَحْفَظْنَ الشَّرَّ، يَتَهَافَتْنَ فِي الْبَهْتَانِ، وَيَتِمَادِينَ فِي الطَّغْيَانِ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: ذَلَّ مَنْ أَسْنَدَ أَمْرَهُ إِلَى امْرَأَةٍ. وَقِيلَ: إِنْ صَيَّادًا أَتَى أَبْرُويزَ بِسَمَكَةٍ. فَأَعْجَبَهُ حَسَنُهَا وَسَمْنُهَا، فَأَمَرَ لَهُ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ، فَخَطَّاهُ سَيَّرِينَ زَوْجَتَهُ، فَقَالَ لَهَا: مَاذَا أَفْعَلُ؟ فَقَالَتْ لَهُ: إِذَا جَاءَكَ فَقُلْ لَهُ أَذْكَرُ كَانَتْ أَمْ أُنْثَى؟ فَإِنْ قَالَ لَكَ ذَكَرٌ، فَاطْلُبْ مِنْهُ الْأُنْثَى، وَإِنْ قَالَ لَكَ أُنْثَى فَاطْلُبْ مِنْهُ الذَّكَرَ، فَلَمَّا أَتَاهُ سَأَلَهُ، فَقَالَ: كَانَتْ أُنْثَى، فَقَالَ: ائْتَنِي بِذَكَرِهَا، فَقَالَ عَمَّرَ اللَّهُ الْمَلِكُ كَانَتْ بَكْرًا لَمْ تَتَزَوَّجْ، فَقَالَ: زَهْ وَأَمَرَ لَهُ بِثَمَانِيَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ، وَقَالَ: اكْتَسَبُوا فِي الْحِكْمَةِ: الْغَدْرُ وَمِطَاوَعَةُ النِّسَاءِ يُؤْدِيَانِ إِلَى الْغَرَمِ الثَّقِيلِ. وَقَالَ حَكِيمٌ: اعْصِ النِّسَاءَ وَهُوَ أَكْثَرُ مَا شَتَّ. وَقَالَ عَمْرٌ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: أَكْثَرُوا لِهِنَّ مِنْ قَوْلِ لَا، فَإِنْ نَعِمْتَ تَغْرِيهِنَّ عَلَى الْمَسْأَلَةِ، قَالَ: اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ النِّسَاءِ، وَكُونُوا مِنْ خِيَارِهِنَّ عَلَى حَذَرٍ.

وَمَا قِيلَ فِي الْبَاءَةِ: ذَكَرَ الْجَمَاعَ عِنْدَ الْإِمَامِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: قَالَ هُوَ نُورُ وَجْهِكَ، وَمَخِ سَاقُكَ، أَقَلُّ مِنْهُ أَوْ أَكْثَرُ. وَقَالَ مَعَاوِيَةُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: مَا رَأَيْتُ نَهْمًا فِي النِّسَاءِ إِلَّا عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ. وَخَلَا تَمَامُ بِجَارِيَةٍ لَهُ فَعَجَزَ عَنْهَا. فَقَالَ: مَا أَوْسَعَ حَرَكُ، فَأَنْشَأَتْ تَقُولُ:

أَنْتِ الْفَدَاءُ لِمَنْ قَدْ كَانَ يَمْلُؤُهُ
وَيَشْتَكِي الضَّيْقَ مِنْهُ حِينَ يَلْقَاهُ

وَقَالَ آخَرُ:

شفاء الحب تقبيل ولس*
ورهب تذر العـيـنان منه
وسحب بالبطون على البطون
وأخذ بالماكب والقـرون

وقالت امرأة من أهل الكوفة: دخلت على عائشة بنت طلحة، فسألت عنها، فقيل: هي مع زوجها في القيطون، فسمعت شهيقاً، وشخيراً لم أسمع مثله ثم خرجت إلى وجينها يتصب عرقاً، فقلت لها: ما ظننت حرة تفعل هذا بنفسها، فقالت: إن الخيل تشرب بالصفير. وعاتبت امرأة زوجها على قلة إتيانها، فأجابها يقول:

أنا شيخ ولى امرأة عجوز
وقالت رق أيرك منذ كبرنا
تراودنى على مـا لايجوز
فقلت بل قد اتسع القـفـيز

وكان لرجل امرأة تخاصمه وكلما خاصمته قام إليها فواقعها، فقالت: ويحك كلما تخاصمنى تأتيني بشفيح لا أقدر على رده. وأتى رجل إلى على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وقال: إن لى امرأة كلما غشيتها تقول قتلتنى، فقال: اقتلها بهذه القتلة وعلى إثمها. وقالوا: من قل جماعه فهو أصح بدنأ وأنقى جلدأ وأطول عمراً، ويعتبر ذلك بذكور الحيوان، وذلك أنه ليس فى الحيوان أطول أعماراً من البغال، ولا أقصر أعماراً من العصافير، وهى أكثرها سفادأ، والله تعالى أعلم بالصواب.

الفصل الخامس: فى الطلاق وما جاء فيه

عن عبد الرحمن بن محمد ابن أخى الأصمعى قال: قال عمى للرشيد فى بعض حديثه: يا أمير المؤمنين بلغنى أن رجلاً من العرب طلق فى يوم واحد خمس نسوة، قال: وكيف ذلك، وإنما لايجوز للرجل غير أربعة، قال يا أمير المؤمنين: كان متزوجاً بأربعة فدخل عليهن يوماً، فوجدهن متنازعات وكان شريراً، فقال: إلى متى هذا النزاع؟ ما أظن هذا إلا من قبلك يا فلانة لامرأة منهن اذهبي. فأنت طالق. فقالت له صاحبتها: عجلت عليها بالطلاق، ولو أدبتها بغير ذلك لكان أصلح. فقال لها: وأنت أيضاً طالق، فقالت له الثالثة: قبحك الله، فوالله لقد كانتا إليك محستين، فقال لها: وأنت أيضاً أيتها المعددة أياديها طالق، فقالت الرابعة، وكانت هلالية ضاق صدرك إلا أن تؤدب نساءك بالطلاق. فقال لها، وأنت طالق أيضاً، فسمعت جارة له، فأشرفت عليه، وقالت له: والله ما شهدت العرب عليك، ولا على قومك بالضعف إلا لما بلوه منكم ووجدوه فيكم، أبيت إلا طلاق نساءك فى ساعة واحدة، فقال لها، وأنت أيتها المتكلمة فيما لا يعينك طالق إن أجازنى بعلك، فأجابه زوجها قد أجزت لك ذلك فعجب الرشيد من ذلك، وطلق رجل امرأته، فما أرادت الارتحال قال لها: اسمعى وليسمع من حضر إنى والله اعتمدتك برغبة وعاشرتك بمحبة ولم أجد منك زلة ولم يدخلنى عنك ملة، ولكن القضاء كان غالباً، فقالت المرأة: جزيت من صاحب ومصحوب خيراً فما استقلت خورك ولا شكوت ضيرك ولا تمنيت غيرك ولا أجد لك فى الرجال شبيهاً وليس لقضاء الله مدفع ولا من حكمه علينا منع. وقال رجل لابن عباس رضى الله تعالى عنهما: ما تقول فى رجل طلق امرأته عدد نجوم السماء؟ فقال: يكفيه من ذلك عدد نجوم الجوزاء.

ذكر من طلق امرأته فتبعها نفسه: قال الهيثم بن عدى: كانت تحت ابن الغربان بن الأسود بنت عم له، فطلقها فتبعها نفسه، فكتب إليها يعرض لها بالرجوع، فكتبت إليه تقول:

إن كنت ذا حاجة فاطلب لها بدلاً
إن الغزال الذى ضيعت مشغولاً

فكتب إليها يقول:

إن كان ذا شغل فالله يكلؤه
وقد قضينا من استظرافه وطراً
فقد لهونا به والحبل موصول
وفى الليالى وفى أيامها طول

وطلق الوليد بن يزيد زوجته سعدى، فلما تزوجت اشتد ذلك عليه وندم على ما كان منه، فدخل عليه أشعب فقال له: هل لك أن تبلغ سعدى عنى رسالة ولك عشرة آلاف درهم، قال: أقبضنيها، فأمر له بها، فلما قبضها قال له: هات

رسالتك، قال: انتها، فأنشدها:

أسمعدي هل إليك لنا سبيلُ
بلسى ولعملٌ دهرأ أن يسؤاتسى
ولاحتى القيسامة من تلاقٍ
بموتٍ من خليلك أو فــــراقٍ

قال، فأتاها أشعب، فاستأذن عليها، فأذنت له، فدخل، فقالت له: ما بدا لك فى زيارتنا يا أشعب؟ فقال: ياسيدتى أرسلنى إليك الوليد برسالة ثم أنشدها الشعر، فقالت لجواربها: عليكن بهذا الخبيث فقال: ياسيدتى إنه دفع إلى عشرة آلاف درهم، فهى لك، واعتقنى لوجه الله، فقالت: والله لا أعتقك أو تبلغ إليه ما أقول لك، قال: ياسيدتى فاجعلى لى جعلاً قالت: لك بساطى هذا، قال: قومى عنه، فقامت. فأخذه، وألقاه على ظهره، وقال: هاتى رسالتك، فقالت:

أتبكى على سعدى وأنت تركتها
فقد ذهبت سعدى فما أنت صانعُ

فلما بلغه الرسالة ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأخذته كظمة فقال لأشعب: اختر منى إحدى ثلاث إما أن أقتلك، وإما أن أطرحك من هذا القصر. وإما أن ألقيك إلى هذه السباع فتفترسك، فتحير أشعب وأطرق ملياً ثم قال: يا سيدى ما كنت لتعذب عيناً نظرت إلى سعدى، فتبسم وخلقى سبيله، ومن طلق امرأته فتبعها نفسه الفرزدق الشاعر طلق النوار. ثم ندم على طلاقها، وقال:

ندمت ندامة الكسعى لما
فأصبحت الغداة ألوم نفسى
وكانت جتى فخرجت منها
ولو أنى ملكت بهــــا يمينى
ومن طلق امرأته، فتبعها نفسه فندم قيس بن ذريح، وكان أبوه أمره بطلاقها فطلقها وندم على ذلك فأنشأ يقول:
غــــدت منى مطلقــــة نوار
بأمرٍ ليس لى فيه اختيـار
كأدم حين أخرجه الضرار
لكان على للقدـر الخيـار
فنى صبرى وعساودونى رداعى
تكتفىنى الوشاة فأزعجـونى
فأصبحت الغداة ألوم نفسى
كمـغبون يعضُّ على يديه
وكان فراق لبنى كالحـداع
فـيـالـلناس للواشى المطاع
على أمرٍ وليس بمستطاع
تبـيـن غـبـنـه عـند البـيـاع

وحدث العتبى قال. جاء رجل بامرأة كأنها برج من فضة إلى عبد الرحمن بن الحكم وهو على الكوفة، فقال: إن امرأتى هذه شجتنى فسألها عبد الرحمن، فقالت: نعم يا مولاي غير متعمدة لذلك، كنت أعالج طيباً فوق الفهر من يدى على رأسه وليس عندى علم ولا يقوى بدنى على القصاص، فقال للرجل: علام تمسكها، وقد فعلت بك ما أرى؟ فقال يامولاي: إن صداقها على أربعة آلاف درهم، ولاتطيب نفسى بفراقها. قال: فإن أعطيتك الأربعة آلاف درهم تفارقها، قال: نعم، قال: هى لك، قال: فهى إذن طالق. فقال لها عبد الرحمن احبسى علينا نفسك، وأنشأ يقول:

يا شيخ يا شيخ من دلائك بالغزل
رضت الصعاب فلم تحسن رياضتها
قد كنت يا شيخ عن هذا بمعزل
فاعمد لنفسك نحو القرّح والذل

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى تحريم الخمر وذمها والنهى عنها

قد أنزل الله تعالى فى الخمر ثلاث آيات: الأولى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩]. فكان من المسلمين من شارب، ومن تارك إلى أن شرب رجل، فدخل فى الصلاة فهجر، فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]. فشربها من شربها من المسلمين وتركها من تركها حتى شربها عمر رضى الله تعالى عنه، فأخذ بلحى بعير وشج به رأس عبد الرحمن ابن عوف، ثم قعد ينوح على قتلى بدر بشعر الأسود بن يعفر يقول:

وكـائن بالقلب قلب بدر	من الفتيان والعرب الكرام
أيوعدنى ابن كبشة أن سنحيا	وكيف حيااة أصداء وهام
أيعجز أن يرد الموت عنى	وينشـرنى إذا بليت عظامى
ألا من مـبلغ الرحمن عنى	بأنى تارك شهر الصيام
فقل لاه يمنعنى شرابى	وقل لله يمنعنى طعامى

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج مغضباً يجر رداءه، فرفع شيئاً كان فى يده، فضربه به، فقال: أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]. فقال عمر رضى الله تعالى عنه: انتهينا انتهينا.

ومن الأخبار المتفق عليها فى تحريمها قول سيدنا رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة مدمن خمر». وقوله ﷺ: «أول ما نهانى ربى بعد عبادة الأوثان عن شرب الخمر وملاحاة الرجال». ومن تركها فى الجاهلية عبد الله بن جدعان، وكان جواداً من سادت قريش، وذلك أنه شرب مع أمية بن أبى الصلت الثقفى، فضربه على عينه، فأصبحت عين أمية مخضرة فخاف عليها الذهاب، فقال له عبد الله: ما بال عينك؟ فسكت. فآلح عليه، فقال: ألسـت ضاربها بالأمس. فقال: أو بلغ منى الشراب ما أبلغ معه إلى هذا لا أشربها بعد اليوم. ثم دفع له عشرة آلاف درهم، وقال: الخمر على حرام لا أذوقها بعد اليوم أبداً.

ومن حرمها فى الجاهلية أيضاً قيس بن عاصم، وذلك أنه سكر ذات ليلة، فقام لابنته أو لأخته، فهربت منه، فلما أصبح سأل عنها فقيل له: أو ما علمت ما صنعت البارحة؟ فأخبر القصة، فحرم الخمر على نفسه، ومن حرمها فى الجاهلية أيضاً العباس بن مرداس، وقيس بن عاصم، وذلك أن قيساً شرب ذات ليلة، فجعل يتناول القمر ويقول: والله لا أبرح حتى أنزله، ثم شب الوثبة بعد الوثبة ويقع على وجهه، فلما أصبح وأفاق قال: ما لي هكذا؟ فأخبروه بالقصة. فقال: والله لا أشربها أبداً، وقيل للعباس بن مرداس: لِمَ تركت الشراب، وهو يزيد فى سماحتك؟ فقال: أكره أن أصبح سيد قومى وأمسى سفيهم. ودخل نصيب على عبد الملك بن مروان فأنشده، فأعجبه إنشاده وشعره ووصله، ثم دعا بالطعام، فطعم منه، فقال له عبد الملك: يا نصيب هل لك فيما ينادم عليه؟ قال: يا أمير المؤمنين جلدى أسود، وخلقى مشوه ووجهى قبيح، وتكفينى مجالستك، ومؤاكلتك، ولم يوصلنى إلى ذلك إلا عقلى وأنا أكره أن يدخل عليه ما ينقصه، فأعجبه كلامه ووصله. وقال الوليد بن عبد الملك للحجاج فى وفدة وفدها عليه: هل لك فى الشراب؟ قال يا أمير المؤمنين: لا خلاف لما أمرت ولكن أنا أمتع أهل عملى منه وأكره أن أمنعهم عن شىء ولا أمتنع منه. وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]. وقيل لأعرابى: لِمَ لاتشرب النبيذ؟ فقال: لا أشرب ما يشرب عقلى. وقال الضحاك بن مزاحم لرجل: ما تصنع بشرب النبيذ؟ قال: يهضم طعامى، قال: أما إنه يهضم من دينك وعقلك أكثر؟ قال ابن أبى أوفى لقومه حين نهوا عن الخمر:

ألا يا قومى ليس فى الخمر رفعةٌ فلا تقربوا منها فليست بفاعل
فلئن رأى الخمر شيئاً ولم يزلْ أخو الخمر دخلاً لشر المنازل
وقال الحسن: لو كان العقل يشتري لتغالى الناس فى ثمنه، فالعجب ممن يشتري بماله ما يفسده، وقال عليه الصلاة والسلام: «حب الدنيا رأس كل خطيئة، والنساء حبائل الشيطان، والخمر داعية إلى كل شر». وقال بعضهم:

بلوت نبىذ الخمر فى كل بلدةٍ فليس لإخوان النبىذ حفاظ
إذا دارت الأرطال أرضوك بالمنى وإن فقدوها فالوجوه غلاظ

وقال حكيم: إياك وإخوان النبىذ فبينما أنت متوج عندهم مخدوم مكرمٍ معظم إذ زلت بك القدم، فجروك على شوك السلم، فاحفظ قول القائل فيه:

وكلُّ أناسٍ يحفظون حريمهم وليس لأصحاب النبىذ حريم
فإن قلتُ هذا لم أقلْ عن جهالةٍ ولكننى بالفلاسفة عليم
وللأعرج الطائى:

تركت الشعر واستبدلت منه إذا داعى صلاة الصبح قاما
كتاب الله ليس له شريك وودعت المداممة والتدامى

وقال الصفدى:

دع الخمر فالراحات فى ترك راحها وفى كأسها للمرء كسوة عار
وكم ألبستُ نفسُ الفتى بعد نورها مدارع قارٍ فى مدار عفار

نكتة: اجتمع نصرانى ومحدث فى سفينة، فصب النصرانى خمراً من زق كان معه فى شربة وشرب، ثم صب فيها وعرض على المحدث فتناولها من غير فكر ولا مبالاة، فقال النصرانى: جعلت فداءك إنما هى خمر. قال: من أين علمت أنها خمر؟ قال: اشتراها غلامى من يهودى وحلف أنها خمر، فشربها المحدث على عجل، وقال للنصرانى: يا أحمق نحن أصحاب الحديث نضعف مثل سفيان بن عيينة، ويزيد بن هارون، أفنصدق نصرانياً عن غلامه عن يهودى، والله ما شربتها إلا لضعف الإسناد.

ومن المجون فى ذلك ما حكى أن سكراناً استلقى على طريق، فجاء كلب فلحس شفثيه، فقال: خدمك بنوك ولاعدموك، فبال على وجهه، فقال: وماء حاراً أيضاً بارك السله فيك، وقيل: حالة السكارى ثلاث: قرد حرك رأسه فرقص، وكلب هارش فنبج، وحية زويت فنامت. ومر عقاب الناسك بمرداس بن خدام الأسدى، فاستسقاها لبناً، فصب له خمراً وعلاه بلبن فشربه، وسكر ولم يتحرك ثلاثة أيام فقال:

سقيت عقلاً بالعشيرة شربةً فمالت بعقل الكاهلى عقالى
قرعت بأم الخل حبة قلبه فلم ينتعش منها ثلاث لىالى

ويقال: الخمر مصباح السرور ولكنها مفتاح الشرور، اللهم تب علينا وعلى العصاة والمذنبين برحمتك يا أرحم الراحمين، آمين.

فى المزاح والنهى عنه وما جاء فى الترخيص فيه والبسط والتنعم وفيه فصول

الفصل الأول: فى النهى عن المزاح

قال رسول الله ﷺ: «المزاح استدراج من الشيطان واختلاع من الهوى». وعن على: ما مزح أحد مزحة إلا مجّ الله من عقله مجة. وعنه: إياك أن تذكر من الكلام ما يكون مضحكاً، وإن حكيت ذلك عن غيرك. وكتب عمر رضى الله عنه إلى عماله: امنعوا الناس من المزاح، فإنه يذهب المروءة ويوغر الصدور، وقال بعض الحكماء: تجنب سوء المزاح ونكد الهزل، فإنهما بابان إذا فتحا لم يغلقا إلا بعد غم. وقال آخر: لكل شيء بذر وبذر العداوة المزاح، وعن محمد ابن المنكدر قال: قالت لى أمى: لا تمزح الصبيان تهن عندهم، وخرج أعرابى بالليل، فإذا بجارية جميلة فراودها، فقالت: أمالك زاجر من عقلك إذا لم يكن لك واعظ من دينك، فقال: والله ما يرانا إلا الكواكب، فقالت له: يا هذا، وأين مكوكبها؟ فأخجله كلامها، فقال لها: إنما كنت مازحاً، فقالت:

فإياك إياك المزاح فإنه يُجَرِّئُ عليك الطفل والرجل النذلا
ويذهب ماء الوجه بعد بهائه ويورث بعد العز صاحبه ذلاً

وقال الأحنف: كثرة الضحك تذهب الهيبة، وكثرة المزاح تذهب المروءة، ومن لزم شيئاً عرف به، ومما روى عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم كانوا يتحادثون ويتناشدون الأشعار، فإذا جاء ذكر الله انقلبت حماليقهم كأنهم لم يعرفوا أحداً.

الفصل الثانى: فيما جاء فى الترخيص فى المزاح والبسط والتنعم

لا بأس بالمزاح ما لم يكن سفهاً، والله تعالى وعد فى اللطم بالتجاوز والعفو فقال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]. وقيل: إن يحيى بن زكريا لقي عيسى عليه الصلاة والسلام فقال: ما لى أراك لا هيأ كأنك آمن، فقال له عيسى: ما لى أراك عابساً كأنك آيس، فقالا: لا نبرح حتى ينزل علينا الوحي، فأوحى الله إليهما إن أحبكما إلى أحسنكما ظناً بى، ويروى أن أحبكما إلى الطلق البسام. وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لجارية: خلقتى خالق الخير وخلقك خالق الشر. فبكت الجارية، فقال عمر: لا بأس عليك فإن الله خالق الخير والشر، قال الشاعر:

إن الصديق يريد بسطك مازحاً فإذا رأى منك الملاة يقصّرُ
وترى العدو إذا تيقن أنه يؤذيك بالمزح العنيف يكثرُ

وكان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً، فمن مزحه ﷺ أنه جاء رجل، فقال: يا رسول الله احملنى على جمل، فقال عليه الصلاة والسلام: لا أحملك إلا على ولد الناقة، فقال يا رسول الله: إنه لا يطيقنى فقال له الناس: ويحك، وهل الجمل إلا ولد الناقة. وقال رسول الله ﷺ لامرأة من الأنصار: الحقى زوجك ففى عينيه بياض، فسعت إلى زوجها مرعوبة، فقال لها: مادهاك؟ قالت: إن النبى ﷺ قال لى إن فى عينيك بياضاً، فقال: نعم والله وسواداً، وأنت أيضاً عجوز أنصارية، فقالت: يا رسول الله ادع الله لى أن يدخلنى الجنة، فقال لها: يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز، فولت المرأة تبكى، فتبسم ﷺ وقال لها: أما قرأت قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً﴾ (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً (٣٦) عُرُباً أَتْرَاباً (٣٧) [الواقعة: ٣٥ - ٣٧]. وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها: سأبت رسول الله ﷺ فسبقته، فلما كثر لحمى سابقته، فسبقنى، فضرب بكفى، وقال: هذه بتلك، وعنهما أيضاً قالت: كان رسول الله ﷺ يدخل وأنا لعب مع صويحباتى ولا يعيب على. وسئل النخعى: هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم، والإيمان فى قلوبهم

مثل الجبال الرواسى، وكان نعيمان الصحابى من أولع الناس بالمزاح والضحك، قيل: إنه يدخل الجنة وهو يضحك، فمن مزحه إنه مر يوماً بمخرمة بن نوفل الزهرى وهو ضريبر، فقال: له قدنى حتى أبول، فأخذه بيده حتى أتى به إلى المسجد، فأجلسه فى مؤخره، فصاح به الناس إنك فى المسجد، فقال: من قادننى؟ قالوا: نعيمان، قال لله على نذر أن أضربه بعصاى هذه إن وجدته، فبلغ ذلك نعيمان، فجاء إليه وقال له: يا أبا المنور هل لك فى نعيمان، قال: نعم، قال: ها هو قائم يصلى وأخذه بيده وجاء به إلى عثمان بن عفان وهو يصلى، وقال: هذا نعيمان، فعلاه بالعصا، فصاح الناس: أمير المؤمنين، فقال: من قادننى؟ قالوا: نعيمان، فقال: والله لا تعرضت له بسوء بعدها، وقال عطاء بن السائب: كان سعيد بن جبير يقص علينا حتى يبيكننا، وربما لم يقم حتى يضحكنا. وكان رجل يسمى تاج الوعظ يعظ الناس ويقص عليهم حتى يبيكنهم، ثم لم يقم حتى يضحكهم ويبسط آمالهم.

فمن لطائفه انه حكى يوماً بعدما فرغ من ميعاده قال: سمعت الناس يتكلمون فى التصحيف وكنت لا أعرفه، فوقع فى قلبى أن أتعلمه، فدخلت فى سوق الكتبية واشتريت كتاباً فى التصحيف، فأول ما تصحفته وجدت فيه سكباج تصحيفه شك تاج، فرميت الكتاب من يدى وحلفت أنى لا أشتغل به أبداً، فضحك الناس حتى غشى عليهم. ودخل عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان، فوجده يتأوه، فقال يا أمير المؤمنين: لو أدخلت عليك من يؤنسك بأحاديث العرب وبياسطك استرحت؟ فقال: لست بصاحب لهو، فقال: ما الذى تشكوه يا أمير المؤمنين؟ قال: هاج بى عرق النساء فى ليلتى هذه، فبلغ منى ما ترى، فقال: إن بديحاً مولاي أرقى الخلق منه، فأمر بإحضاره، فلما مثل بين يديه قال عبد الملك: يا بديح أرق رجلى، فقال يا مولاي أنا أرقى الناس لها، ثم وضع يده عليها، وجعل يقول ما لا يسمع، فقال عبد الملك: قد وجدت راحة بهذه الرقية، أين فلانة اتتوني بها تكتبها لثلاث يهيج بى الوجع بالليل، فقال له بديح: الطلاق يلزمه ما أكتبها إلا بتعجيل جاترتى، فأمر له بأربعة آلاف درهم، فقال يا أمير المؤمنين: الطلاق يلزمه ما أكتبها حتى تحمل جاترتى إلى بيتى، فقال: تحمل، فحملت، فقال: يا أمير المؤمنين الطلاق يلزمه، ما رقيت رجلك إلا مباسطة بقول نصيب حيث قال:

ألا إن ليلي العامرية أصبحت على البعد منى ذنباً غيرى تنقمُ

فقال: ويلك ما تقول؟ فقال: الطلاق يلزمه ما رقيتك إلا بها، فقال: اكتمها على، فقال: كيف، وقد سارت بها الركبان إلى أخيك بمصر، فضحك حتى فحص برجليه، وأعجبه هذا البسط، وروى أن ابن سيرين كان ينشد قول الشاعر:

أنبت أن فتاة كنت أخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم فى الطول

ثم يضحك حتى يسيل لعابه.

ومما جاء فى الشطرنج واللعب به والنهى عنه والترخيص فيه: أما النهى عنه، فقد قيل: إن علياً كرم الله وجهه مر بقوم يلعبون الشطرنج، فقال لهم: ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون؟. وكان أبو القاسم الكسروى يقول: لاترى شطرنجياً غنياً إلا بخيلاً، ولا فقيراً إلا طفيلياً، ولا تسمع نادرة باردة إلا على الشطرنج. واحتضر شطرنجى فصار يقول: شاه مات شاه مات مكان الشهادتين حتى مات. وأما الترخيص فيه، فقد سئل الشعبي عن اللعب بالشطرنج، فقال: لا بأس به إذا لم يكن هناك تقامر وتبادل، وقال بعضهم: كنا فى السجن مع ابن سيرين، فكان يرانا ونحن نلعب الشطرنج، فيقوم، فيأتى ويقول: ارفع الفرس ارفع كذا افعل كذا، ولا يعيب علينا. وعن سعيد بن المسيب قال: كنت ألعب الشطرنج مع صديقى فى بيته حين خفت الحجاج. ومما قيل لعلى بن الجهم فى الشطرنج، وقيل للمأمون:

أرضٌ مربعةٌ حمراء من آدم ما بين حرين معروفين بالكرم

تذكر الحرب فاحتالاً لها فطناً من غير أن يأثم فيها بسفك دم

هذا يغـيـر على هذا وذاك على هذا يغـيـر وعين الحـزم لم تنم
فانظر إلى همم جاشـت بمـركـة فى عـسـكرين بلا طبل ولا علم

قالوا: إن سبب وضع الشطرنج أن ملوك الهند ما كانوا يرون بقتال، فلإذا تنازع ملكان فى كورة أو مملكة تلاعبا بالشطرنج، فيأخذها الغالب من غير قتال. وقيل: إنه كان لبعض ملوك الفرس شطرنج من ياقوت أحمر وأصفر والقطعة منه بثلاثة آلاف دينار.

ومما جاء فى لعب الغلمان ما حكى أن غلماناً من أهل البحرين خرجوا يعلبون بالصوالة وأسقف البحرين قاعد، فوقعت الكرة على صدره، فأخذها، فجعلوا يطلبونها منه فأبى، فقال غلام منهم: سألتك بحق محمد ﷺ إلا رددتها علينا، فأبى لعنه الله وسب رسول الله ﷺ فأقبلوا عليه بصوالمهم، فمازالوا يخطونه حتى مات لعنة الله عليه، فرفع ذلك إلى عمر رضى الله عنه فو الله ما فرح بفتح ولا غنيمة كفرحته بقتل الغلمان لذلك الأسقف، وقال: الآن عز الإسلام إن أطفالاً صغاراً شتم نبيهم فغضبوا له وانتصروا وأهدر دم الأسقف، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في النوادر وفيه فصول

الفصل الأول من هذا الباب: في نوادر العرب

خرج المهدي يتصيد، فغار به فرسه حتى وقع في خباء أعرابي، فقال: يا أعرابي هل من قرى، فأخرج له قرص شعير، فأكله، ثم أخرج له فضلة من لبن فسقاه، ثم أتاه بنبذ في ركوة فسقاه، فلما شرب قال: أتدري من أنا؟ قال: لا، قال: أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة، قال: بارك الله لك في موضعك، ثم سقاه مرة أخرى، فشرب فقال: يا أعرابي: أتدري من أنا؟ قال: زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة، قال: لا. أنا من قواد أمير المؤمنين، قال: رحبت بلادك وطاب مرادك، ثم سقاه الثالثة، فلما فرغ قال يا أعرابي: أتدري من أنا؟ قال: زعمت أنك من قواد أمير المؤمنين، قال: لا، ولكني أمير المؤمنين. قال: فأخذ الأعرابي الركوة، فوكأها^(١) وقال: إليك عنى فوالله لو شربت الرابعة لادعيت أنك رسول الله، فضحك المهدي حتى غشى عليه، ثم أحاطت به الخيل، ونزلت إليه الملوك والأشراف، فطار قلب الأعرابي فقال له: لا بأس عليك، ولا خوف، ثم أمر له بكسوة ومال جزيل. ووجد أعرابي يأكل ويتغوط ويفلى ثوبه، فقيل له في ذلك، فقال: أخرج عتيقاً وأدخل جديداً، وأقتل عدواً. وقيل لبعض الأعراب: إن شهر رمضان قدم، فقال: والله لأبددن شمله بالأسفار. وسمع أعرابي قارئاً يقرأ القرآن حتى أتى على قوله تعالى: ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً﴾. [التوبة: ٩٧] فقال: لقد هجانا، ثم بعد ذلك سمعه يقرأ: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾. [التوبة: ٩٩]. فقال: لا بأس هجا ومدح. هذا كما قال شاعرنا:

هجوت زهيراً ثم إني مدحتـه
وما زالت الأشراف تهجى وتمدح

وحضر أعرابي على مائدة يزيد بن يزيد فقال لأصحابه: أفرجوا لأخيكم، فقال الأعرابي: لا حاجة لى بإفراجكم إن أطنابى طوال يعنى سواعده، فلما مد يده ضرط، فضحك يزيد، فقال يا أخا العرب: أظن أن طنباً من أطنابك قد انقطع. ورؤى أعرابي يغطس فى البحر ومعه خيط، وكلما غطس عقد عقدة، فقيل له: ما هذا؟ قل: جنابات الشتاء أقضيها فى الصيف. وسرق أعرابي غاشية من على سرج ثم دخل المسجد يصلى فقرأ الإمام: ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ [الغاشية: ١] فقال: يا فقيه لا تدخل فى الفضول، فلما قرأ: ﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾ [الغاشية: ٢]، قال: خذوا غاشيتكم ولا يخشع وجهى لا بارك الله لكم فيها ثم رماها من يده وخرج.

وحضر أعرابي مجلس قوم فتذاكروا قيام الليل فقيل له: يا أبا أمامة أتقوم الليل؟ فقال: نعم، قالوا: ما تصنع؟ قال: أبول وأرجع أنام. وسرق أعرابي صرة فيها دراهم ثم دخل المسجد يصلى، وكان اسمه موسى، فقرأ الإمام، ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ [طه: ١٧]، فقال الأعرابي: والله إنك لساحر، ثم رمى الصرة وخرج.

وحكى الأصمعى قال: ضلت لى إبل، فخرجت فى طلبها، وكان البرد شديداً، فالتجأت إلى حى من أحياء العرب وإذا بجماعة يصلون وبقرهم شيخ ملتف بكساء، وهو يرتعد من البرد ويشد:

أيا رب إن البرد أصبح كالخـا
وأنت بحسالى يا إلهي أعلم
فلن كنت يوماً في جهنم مدخلي
ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم

قال الأصمعى: فتعجبت من فصاحته، وقلت: يا شيخ أما تستحى تقطع الصلاة وأنت شيخ كبير، فأشد يقول:

أيطمع ربي في أن أصلي عـارياً
ويكسو غيري كسوة البرد والحر
فوالله لا صليت ما عشت عـارياً
عشواءً ولا وقت المغيب ولا الوتر
ولا الصبح إلا يوم شمس دفيئة
وإن غيمت فالويل للظهر والعصر
وإن يكسنى ربي قميصاً وجبة
أصلي له مهما أعيش من العمر

(١) وكأها: ألغها ورمى بها.

قال: فأعجبني شعره وفصاحته، فترعت قميصاً وجبة كانا على ودفعتهما إليه، وقلت له: البسهما وقم، فاستقبل القبلة، وصلى جالساً وجعل يقول:

إليك اعتذاري من صلاتي جالساً
على غير طهر موميًا نحو قبلتي
فمالي ببرد الماء يا رب طاقة
ورجلاني لا تقوى على ثني ركبتي
ولكنني أستغفر الله شاتياً
وأقضيها يارب في وجه صيفتي
وإن أنا لم أفعل فأنت محكم
بما شئت من صفعي ومن نتف لحيتي

قال: فعجبت من فصاحته، وضحكت عليه وانصرفت. وصلى أعرابي مع قوم فقرأ الإمام: ﴿قل أرايتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمتنا﴾. [الملك: ٢٨]. فقال الأعرابي: أهلكك الله وحدك. إيش كان ذنب الذين معك، فقطع القوم الصلاة من شدة الضحك. وقيل: دخلت أعرابية على قوم يصلون، فقرأ الإمام: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ [النساء: ٣]. وجعل يرددنها، فجلت الأعرابية تعدو وهي هاربة حتى جاءت لأختها فقالت: يا أختاه مازال الإمام يأمرهم أن ينكحونا حتى خشيت أن يقعوا عليّ. وصلى أعرابي خلف الإمام، فقرأ الإمام: ﴿ألم نهلك الأولين﴾. [المرسلات: ١٦]، وكان في الصف الأول، فتأخر إلى الصف الآخر، فقرأ: ﴿ثم تبعهم الآخريين﴾. [المرسلات: ١٧]. فتأخر، فقرأ: ﴿كذلك نفعل بالمجرمين﴾ [المرسلات: ١٨]. وكان اسم البدوي مجرمًا، فترك الصلاة وخرج هاربًا، وهو يقول: والله ما المطلوب غيري، فوجده بعض الأعراب، فقال له: مالك يا مجرم؟ فقال: إن الإمام أهلك الأولين والآخريين وأراد أن يهلكني في الجملة، والله لا رأيته بعد اليوم. وجلس بعض الأعراب يشرب مع ندائمه فاحتاج إلى بيت الخلاء، فدلوه عليه، فلما دخل جعل يضطر ضارطاً شنيعاً، فضحكوا عليه، فأنشد يقول:

إذا ما خلا الإنسان في بيت غائط
تراخت بلا شك مصاريع فتحته
فمن كان ذا عقل فيعذر ضارطاً
ومن كان ذا جهل ففي وسط لحيته

وكان لسابور ملك فارس نديم مضحك يسمى مرزيان، فظهر له من الملك جفوة، فلما زاد ذلك عليه تعلم نبيح الكلاب وعوى الذئاب ونهيق الحمير، وصهيل الخيل، وصوت البغال، ثم احتال حتى دخل موضعاً بقرب خلوة الملك وأخفى أمره، فلما خلا الملك بنفسه نبيح الكلاب، فلم يشك الملك في أنه كلب، فقال: انظروا ما هذا، فعوى عوى الذئاب، فتزل الملك عن سريره، فنهق نهيق الحمير، فمضى الملك هارباً، ومضت الغلمان يتبعون الصوت، فلما دنوا منه صهيل صهيل الخيل، فاقتحموا عليه وأخرجوه عرياناً، فلما وصلوا به إلى الملك، ورآه مرزيان ضحك الملك ضحكاً شديداً، وقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: إن الله عز وجل مسخني كلباً وذئباً وحماراً وفرساً لما غضب على الملك قال: فأمر الملك أن يخلع عليه وأن يرد إلى مرتبته الأولى. ومن الملح قول بعض الشعراء:

أيا من فاق حسناً واعتدالاً
وولج في عطيته الشبابة
أما في مال ردفك من زكاة
فتدخل فيه لي هذا النصابة

وحكى الأصمعي أن عجزاً من الأعراب جلست في طريق مكة إلى فتيان يشربون نبيذاً، فسقوها قدحاً، فطابت نفسها، فتبسمت فسقوها قدحاً آخر، فاحمر وجهها وضحكت، فسقوها ثالثاً، فقالت خبروني عن نسائكم بالعراق أيشربن النبيذ؟ قالوا: نعم، قالت: زين ورب الكعبة، والله إن صدقتم ما فيكم من يعرف أباه، وصلى أعرابي خلف إمام، فقرأ: ﴿إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ [نوح: ١]، ثم وقف وجعل يردد، فقال الأعرابي أرسل غيره يرحمك الله، وأرحنا وأرح نفسك. وصلى آخر خلف إمام، فقرأ: ﴿فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي﴾ [يوسف: ٨٠]، ووقف وجعل يردد، فقال الأعرابي: يا فقيه إذا لم يأذن لك أبوك في هذا الليل نظل نحن وقوفاً إلى الصباح، ثم تركه وانصرف. ولزم أعرابي سفيان بن عيينة مدة يسمع منه الحديث، فلما أن جاء ليسافر قال له سفيان: يا أعرابي ما أعجبك من حديثنا؟ قال: ثلاثة أحاديث: حديث عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبي ﷺ أنه كان يحب الحلوى والعسل، وحديثه

عليه الصلاة والسلام: إذا وضع العشاء وحضرت الصلاة فابدأوا بالعشاء، وحديث عائشة عنه أيضاً: ليس من البر الصوم في السفر، وقيل لأعرابية: ما صفة الأير عندكم؟ قالت: عصابة ينفخ فيها الشيطان، فلا يرد أمرها. وانفرد الرشيد وعيسى بن جعفر ومعه الفضل بن يحيى، فإذا هو بشيخ من الأعراب على حمار وهو رطب العينين، فقال له الفضل: هل أدلك على دواء لعينيك؟ قال: ما أحوجني إلى ذلك، قال: خذ عيدان الهواء وغبار الماء فصيره في قشر بيض الذر واكتحل به ينفعك، فانحنى الشيخ وضرب ضربة قوية وقال: خذ هذه في لحيتك أجرة وصفتك، وإن زدت زدناك. فضحك الرشيد حتى استلقى على ظهر دابته. وخرج معن بن زائدة في جماعة من خواصه للصيد، فاعترضهم قطع طباء، فتفرقوا في طلبه، وانفرد معن خلف طبي حتى انقطع عن أصحابه، فلما ظفر به نزل، فذبحه، فرأى شيخاً مقبلاً من البرية على حمار، فركب فرسه واستقبله، فسلم عليه فقال: من أين وإلى أين؟ قال: أتيت من أرض لها عشرون سنة مجدبة، وقد أخصبت في هذه السنة فزرعتها مقثاة، فطرح في غير وقتها، فجمعت منها ما استحسنته، وقصدت به معن بن زائدة لكرمه المشكور، وفضله المشهور ومعروفه المأثور وإحسانه الموفور، قال: فكم أمّلت منه؟ قال: ألف دينار. قال: فإن قال: لك كثير. قال: خمسمائة. قال: فإن قال: لك كثير. قال: ثلاثمائة. قال: فإن قال لك كثير. قال: مائة، قال: فإن قال لك كثير. قال: خمسين، قال: فإن قال لك كثير. قال: فلا أقل من الثلاثين، قال: فإن قال لك كثير. قال: أدخل قوائم حماري في حر أمه وأرجع إلى أهلي خائباً. فضحك معن منه، وساق جواده حتى لحق بأصحابه ونزل في منزله، وقال لحاجبه: إذا أتاك شيخ على حمار بقاء فادخل به على، فأتى بعد ساعة، فلما دخل عليه لم يعرفه لهيئته وجلالته، وكثرة حشمه وخدمه وهو متصدر في دسته، والخدم والحفدة قيام عن يمينه وعن شماله وبين يديه، فلما سلم عليه قال: ما الذي أتى بك يا أخا العرب؟ قال: أمّلت الأمير، وأتيته بقاء في غير أوان، فقال: كم أمّلت فينا؟ قال: ألف دينار. قال: كثير، فقال: والله لقد كان ذلك الرجل ميسوماً على، ثم قال: خمسمائة دينار، قال: كثير فما زال إلى أن قال: خمسين دينار، فقال له: كثير، فقال: لا أقل من الثلاثين، فضحك معن، فعلم الأعرابي أنه صاحبه، فقال: يا سيدى إن لم تجب إلى الثلاثين فالحمار مربوط بالباب وها معن جالس، فضحك معن حتى استلقى على فراشه، ثم دعا بوكيله، فقال: أعطه ألف دينار وخمسمائة دينار وثلاثمائة دينار ومائة دينار وخمسين ديناراً وثلاثين ديناراً، ودع الحمار مكانه، فتسلم الأعرابي المال وانصرف.

الفصل الثاني: في نوادر القراء والفقهاء

عن محمد بن عبد الله قال: كنا في دهليز عثمان بن شيبة، فخرج إلينا فقال: ن والقلم في أى سورة؟ ومر بعضهم بقارئ يقرأ: ألم غلبت الترك في أدنى الأرض، فقال له: الروم. فقال له: كلهم أعداؤنا قاتلهم الله. وكان جماعة يجلسون إلى أبى العيئة وفيهم رجل لا يتكلم فقبل له يوماً: كيف علمك بكتاب الله؟ قال: أنا عالم به، فقبل له هذه الآية في أى سورة: الحمد لله لا شريك له، فقال له: فى سورة الحمد، فضحكوا عليه، وجاء رجل إلى فقيه، فقال: أفطرت يوماً في رمضان، فقال: اقض يوماً مكانه، قال: قضيت وأتيت أهلى وقد علموا مأمونية، فسبقتنى يدى إليها، فأكلت منها، فقال: اقض يوماً آخر مكانه، قال: قضيت، وأتيت أهلى وقد عملوا هريسة، فسبقتنى يدى إليها، فقال: أرى أن لا تصوم إلا ويدك مغلولة إلى عنقك. وجاء رجل إلى بعض الفقهاء، فقال له: أنا أعبد الله على مذهب ابن حنبل وإنى توضأت وصليت، فبينما أنا فى الصلاة إذ أحسست ببلى فى سراويلى يتلرزق، فشممته فإذا رائحته كريهة خبيثة، فقال الفقيه: عافاك الله خريت بإجماع المذاهب. وجاء رجل إلى فقيه قال: أنا رجل أفسو فى ثيابى حتى تفوح روائحى، فهل يجوز لى أن أصلى فى ثيابى؟ قال: نعم لكن لا كثر الله فى المسلمين مثلك. ووقع بين الأعمش وبين امرأته وحشة، فسأل بعض أصحابه من الفقهاء أن يرضيها ويصلح بينهما، فدخل إليها وقال: إن أبا محمد شيخ كبير فلا يزهدنك فيه عمش عينيه، ودقة ساقيه، وضعف ركبتيه، وثنن إبطيه، وبخر فيه، وجمود كفيه، فقال له الأعمش: قم قبحك الله فقد أريتها من عيوبى ما لم تكن تعرفه. وسكن بعض الفقهاء فى بيت سقفه يقرقع فى كل وقت فجاءه صاحب البيت يطلب الأجرة، فقال له: أصلح السقف، فإنه يقرقع، قال: لا تخف، فإنه يسبح الله تعالى قال: أخشى أن تدركه رقة فيسجد.

الفصل الثالث: فى نواذر القضاة

كان لبعض القضاة بغلة. فقرأ يوماً فى المصحف. ﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها﴾ [هود: ٦] ، فقال لغلّامه: اطلق البغلة ورزقها على الله ، فصارت البغلة تدور الأسواق والأزقة وتأكل من قشور الباذنجان وقشور الرمان وقشور البطيخ ، وقمامات الطريق ، فماتت ، فأمر الغلام بإحضار المشاعلية ليحملوها لظاهر المدينة فأحضرهم ، فطلبوا من القاضى عشرة دراهم أجرة حملها وقالوا: ليس لنا شئ نرتزق منه إلا من مثل هذا ، وسيدنا رجل غنى وله أشياء كثيرة ، العدالة ، والتزويج ، والعقود ، والوراقة ، والسجن ، والإطلاق ، وحاكمية الحكم ، وأجرة اليمين ، والتدريس ، والأوقاف ، فقال لهم القاضى: المثلّى يقال هذا ، وأنتم لكم اثنا عشر باباً من المنافع ، منها: الوسخ ، والزفر ، والهلع ، والولع ، وبيت النبذة ، وشركة النفوس ، وجباية الأسواق ، وحرّق النار ، وسلب الشطار ، ولكم الصياح ، وثمرن الإصلاح ، وما تروحوها من هذه البغلة بلا شئ ، جلدها للدباغين وذبها للغرابلية ومعرفتها للشعار وتطبيقتها للبيطار ، قال: فتقدم أحدهم إليه ، وقال: بحق من تاب عليك ورد عاقبتك إلى خير وأراحك من هذا المعاش تصدق علينا بشئ ولا تدعنا نروح بلاش .

تفسير هذه الألفاظ: الزفر: النساء الزانيات ، والوسخ: المراحض . والهلع: جباية الأسواق ، والولع: القمار ، وبيت النبذة: محل المزور ، وشركة النفوس: كل من حمل ميتاً ، ولحقوه قبل أن يخرج من باب البلد كانوا شركاءه . وسلب الشطار: كل من شنقوه لهم سلبه . وولى يحيى بن أكثم قاضياً على أهل جبلة ، فبلغه أن الرشيد انحدر إلى البصرة ، فقال لأهل جبلة: إذا اجتاز الرشيد فاذكرونى عنده بخير . فوعدوه بذلك ، فلما جاء الرشيد تقاعدوا عنه ، فسرح القاضى لحيته ، وكبر عتمته وخرج ، فرأى الرشيد فى الحراقة ومعه أبو يوسف القاضى ، فقال يا أمير المؤمنين: نعم القاضى قاضى جبلة عدل فينا ، وفعل كذا وكذا . وجعل يشنى على نفسه ، فلما رآه أبو يوسف عرفه ، فضحك فقال له الرشيد: مم تضحك؟ فقال يا أمير المؤمنين: المثنى على القاضى هو القاضى ، فضحك الرشيد حتى فحص برجله الأرض ، ثم أمر بعزله فعزل . وأحضر رجل ولده إلى القاضى فقال: يا مولانا إن ولدى هذا يشرب الخمر ولا يصلى ، فأنكر ولده ذلك ، فقال أبوه: يا سيدى أفتكون صلاة بغير قراءة ، فقال الولد: إنى أقرأ القرآن ، فقال له القاضى: اقرأ حتى أسمع فقال:

علّق القلب الربابا بعدما شأبت وشابا
إن دى الله حـ لا أرى فيه ارتياباً

فقال أبوه: إنه لم يتعلم هذا إلا البارحة ، سرق مصحف الجيران وحفظ هذا منه ، فقال القاضى ، وأنا الآخر أحفظ آية منها وهى:

فأرحمى مضنى كئيباً قد رأى الهجر عذاباً

ثم قال القاضى: قاتلكم الله يعلم أحدكم القرآن ولا يعمل به .

وتقدم اثنان إلى أبى صمصامة القاضى ، فادعى أحدهما على الآخر طنبوراً ، فأنكر فقال للمدعى: ألك بينة؟ فقال: لى شاهدان فأحضر رجلين شهدا له ، فقال المدعى عليه: سلهما يا سيدى عن صناعتهما ، فأخبر أحدهما: أنه نباذ ، وقال الآخر: أنه قواد ، فالتفت القاضى إلى المدعى عليه ، وقال: أتريد على طنبور أعدل من هذين؟ ادفع إليه طنبوره . وتحاكم الرشيد وزبيدة إلى أبى يوسف القاضى فى الفالودج واللوزنج أيهم أطيب ، فقال أبو يوسف: أنا لا أحكم على غائب ، فأمر الرشيد بإحضارهما ، وقدمما بين يدى أبى يوسف ، فجعل يأكل من هذا مرة ومن هذا مرة حتى نصف الجامين ثم قال: يا أمير المؤمنين ما رأيت أعدل منهما كلما أردت أن أحكم لأحدهما أتى الآخر بحجته . وأتى بعض المجان لبعض القضاة فقال: يا سيدى إن امرأتى قحباناً ، فقال له القاضى: طلقهانا ، فقال: عشقائنا ، فقال: قودهانا ، وادعى رجل عند قاض على امرأة حسناء بدين ، فجعل القاضى يميل إليها بالحكم ، فقال الرجل: أصلح الله القاضى حجتى أوضح من هذا النهار ، فقال له القاضى: اسكت يا عدو الله ، فإن الشمس أوضح من النهار ، قم لا حق لك عليها ، فقالت المرأة: جزاك الله عن ضعفى خيراً فقد قويته ، فقال الرجل: لا جزاك الله عن قوتى خيراً فقد أوهيتها ،

ورفعت امرأة زوجها إلى القاضي تبغى الفرقة، وزعمت أنه يبول في الفراش كل ليلة، فقال الرجل للقاضي: يا سيدى لا تعجل على حتى أقص عليك قصتى، إني أرى فى منامى كائن فى جزيرة فى البحر وفيها قصر عال، وفوق القصر قبة عالية، وفوق القبة جمل وأنا على ظهر الجمل، وإن الجمل يطأطئ برأسه ليشرب من البحر، فإذا رأيت ذلك بلت من شدة الخوف، فلما سمع القاضي ذلك بال فى فراشه وثيابه وقال: يا هذه أنا قد أخذنى البول من هول حديثه، فكيف من يرى الأمر عياناً.

وحكى أن تاجراً عبر إلى حمص، فسمع مؤذناً يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن أهل حمص يشهدون أن محمداً رسول الله، فقال: والله لأمضين إلى الإمام وأسأله، فجاء إليه، فرآه قد أقام الصلاة وهو يصلى على رجل ورجله الأخرى ملوثة بالعدرة، فمضى إلى المحتسب ليخبره بهذا الخبر، فسأل عنه فقيل: إنه فى الجامع يبيع الخمر، فمضى إليه، فوجده جالساً وفى حجره مصحف وبين يديه باطية مملوءة خمرًا وهو يحلف للناس بحق المصحف أن الخمر صرفة ليس فيها ماء، وقد ازدحمت الناس عليه وهو يبيع، فقال: والله لأمضين إلى القاضي وأخبره، فجاء إلى القاضي، فدفع الباب، فانفتح فوجد القاضي نائمًا على بطنه وعلى ظهره غلام يفعل فيه الفاحشة، فقال التاجر: قلب الله حمص، فقال القاضي: لم تقول هذا؟ فأخبره بجميع ما رأى. فقال: يا جاهل أما المؤذن، فإن مؤذنا مرض فاستأجرنا يهوديًا صيتًا يؤذن مكانه، فهو يقول ما سمعت، وأما الإمام، فإنهم لما أقاموا الصلاة خرج مسرعًا، فتلوثت رجله بالعدرة وضاق الوقت، فأخرجها من الصلاة واعتمد على رجله الأخرى، ولما فرغ غسلها، وأما المحتسب فإن ذلك الجامع ليس له وقف إلّا كرم، وعنبه ما يؤكل، فهو يعصره خمرًا ويبيعه ويصرف ثمنه فى مصالح الجامع، وأما الغلام الذى رأيته، فلإن أباه مات وخلف مالا كثيرا وهو تحت الحجر، وقد كبر وجاء جماعة شهدوا عندى أنه بلغ، فأنا أمتحنه، فخرج التاجر من البلد، وحلف أنه لا يعود إليها أبداً.

الفصل الرابع: فى نواذر النحاة

وقف نحوى على بيع يبيع أرزاً بعسل وبقلاً ببخل، فقال: بكم الأرز بالأعسل والأخلل بالأبقل؟ فقال: بالأصفع فى الأروس والأضرط فى الأذقن. ووقع نحوى فى كنيف، فجاء كناس ليخرجه، فصاح به الكناس ليعلم أهو حى أم لا، فقال له النحوى: اطلب لى حبلاً دقيقاً وشدنى شداً وثيقاً واجذبني جذباً رقيقاً، فقال له الكناس: امرأتى طالق إن أخرجتك منه، ثم تركه وانصرف. وكان لبعضهم ولد نحوى يتقعر فى كلامه. فاعتل أبوه علة شديدة أشرف منها على الموت، فاجتمع عليه أولاده، وقالوا له: ندعو لك فلائناً أختانا، قال: لا إن جاءنى قتلنى، فقالوا: نحن نوصيه أن لا يتكلم، فدعوه، فلما دخل عليه قال له يا أبت: قل لا إله إلا الله تدخل بها الجنة وتفوز من النار، يا أبت: والله ما أشغلنى عنك إلا فلان، فإنه دعانى بالأمس، فأهرس، وأعدس، واستبذج، وسكيج، وطهيج، وأفرج، ودجج، وأبصل، وأمضر، ولوزج، وافلوزج، فصاح أبوه غمضونى، فقد سبق ابن الزانية ملك الموت إلى قبض روحى.

وجاء نحوى يعود مريضاً، فطرق بابه، فخرج إليه ولده فقال: كيف وجدت أباك؟ قال: يا عم ورمت رجله، قال: لا تلحن قل: رجلاه، ثم ماذا؟ قال: ثم وصل الورم إلى ركبته. قال: لا تلحن قل: إلى ركبته. ثم ماذا؟ قال: مات وأدخله الله فى نظر عيالك وعيال سيبويه ونفطويه وجحشويه. وعاد بعضهم نحويًا، فقال: ما الذى تشكوه؟ قال: حمى جاسية، نارها حامية، منها الأعضاء واهية، والعظام بالية، فقال له: لا شفاك الله بعافية يا ليتها كانت القاضية.

الفصل الخامس: فى نواذر المعلمين

قال الجاحظ: مررت بمعلم صبيان وعنده عصا طويلة وعصا قصيرة، وصولجان وكرة، وطبل، وبوق، فقلت: ما هذه؟ فقال: عندى صغار أوباش فأقول لأحدهم اقرأ لوحك فيصفر لى بضربة، فأضربه بالعصا القصيرة، فيتأخر، فأضربه بالعصا الطويلة، فيفر من بين يدي فأضع الكرة فى الصولجان وأضربه فأشجه، فتقوم إلى الصغار كلهم بالألوح فأجعل الطبل فى عنقى والبوق فى فمى وأضرب الطبل وأنفخ فى البوق فيسمع أهل الدرب ذلك، فيسارعون إلى ويخلصونى منهم.

وحكى الجاحظ أيضاً قال: مررت على خربة. فإذا بها معلم وهو ينبج ينبج الكلاب. فوقفت أنظر إليه وإذا بصبي قد خرج من دار، فقبض عليه المعلم. وجعل يلطمه ويسبه، فقلت: عرفنى خبره. فقال: هذا صبي لثيم يكره التعليم ويهرب ويدخل الدار ولا يخرج، وله كلب يلعب به، فإذا سمع صوتى ظن أنه الكلب فيخرج فأمسكه. وجاءت امرأة إلى المعلم بولدها تشكوه فقال له: إما أن تنتهى وإلا فعلت بأمك. فقالت يا معلم: هذا صبي ما ينفع فيه الكلام فافعل ما شئت لعله ينظر بعينه ويتوب، فقام وفعل بها أمام ولدها، وقال الجاحظ: رأيت معلماً فى الكتاب وحده فسألته، فقال: الصغار داخل الدرب يتصارعون فقلت: أحب أن أراهم فقال: ما أشير عليك بذلك فقلت: لا بد. قال: فإذا جئت إلى رأس الدرب اكشف رأسك لئلا يعتدوك المعلم فيصفعونك حتى تعمى. وقال بعضهم: رأيت معلماً وقد جاء صغيران يتماسكان فقال أحدهما: هذا عض أذننى، فقال الآخر: لا والله يا سيدنا هو الذى عض أذن نفسه، فقال المعلم: يا ابن الزانية هو كان جمل يعض أذن نفسه. وقال بعضهم: رأيت معلماً وهو يصلى العصر فلما ركع أدخل رأسه بين رجله ونظر إلى الصغار وهم يلعبون، وقال: يا ابن البقال قد رأيت الذى عملت وسوف أكافئك إذا فرغت من الصلاة.

وحكى عن الجاحظ أنه قال: ألفت كتاباً فى نواذر المعلمين، وما هم عليه من التغفل، ثم رجعت عن ذلك وعزمت على تقطيع ذلك، فدخلت يوماً مدينة، فوجدت فيها معلماً فى هيئة حسنة، فسلمت عليه فرد على أحسن رد ورحب بى فجلست عنده، وباحثته فى القرآن، فإذا هو ماهر فيه، ثم فاتحته فى الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب، فإذا هو كامل الآداب، فقلت: هذا والله مما يقوى عزمى على تقطيع الكتاب. قال: فكنت أختلف إليه وأزوره، فجئت يوماً لزيارته، فإذا بالكتاب مغلق ولم أجده، فسألت عنه، فقيل: مات له ميت، فحزن عليه وجلس فى بيته للغزاء، فذهبت إلى بيته وطرقت الباب، فخرجت إلى جارية، وقالت: ما تريد؟ قلت سيدك، فدخلت، وخرجت، وقالت: باسم الله، فدخلت إليه، وإذا به جالس، فقلت: عظم الله أجرك لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة كل نفس ذائقة الموت. فعليك بالصبر، ثم قلت له: هذا الذى توفى ولدك؟ قال: لا، قلت: فوالدك؟ قال: لا، قلت: أخاك؟ قال: لا، قلت: فزوجتك؟ قال: لا. فقلت: وما هو منك؟ قال: حبيبتى: فقلت فى نفسى: هذه أول المناحس. فقلت: سبحان الله النساء كثير وستجد غيرها، فقال: أنتظن أنى رأيتها؟ قلت: وهذه منحسة ثانية، ثم قلت: وكيف عشقت من لم تر؟ فقال: اعلم أنى كنت جالساً فى هذا المكان وأنا أنظر من الطاق إذ رأيت رجلاً عليه برد وهو يقول:

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ردى علي فؤادى أينما كانا
لا تأخذين فؤادى تلعبين به فكيف يلعب بالإنسان إنساناً

فقلت فى نفسى: لولا أن أم عمرو هذه ما فى الدنيا أحسن منها، ما قيل فيها هذا الشعر فعشقتها، فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه وهو يقول:

لقد ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنها ماتت، فحزنت عليها، وأغلقت المكتب وجلست فى الدار، فقلت: يا هذا إنى كنت ألفت كتاباً فى نواذركم معشر المعلمين، وكنت حين صاحبك عزمت على تقطيعه والآن قد قويت عزمى على إبقائه وأول ما أبداً أبداً بك إن شاء الله تعالى.

الفصل السادس: فى نواذر المتنبئين

ادعى رجل النبوة فى أيام الرشيد، فلما مثل بين يديه قال له: ما الذى يقال عنك؟ قال: إنى نبي كريم، قال: فأى شئ يدل على صدق دعواك؟ قال: سل عما شئت، قال: أريد أن تجعل هذه المماليك المرد القيام الساعة بلحى، فاطرق ساعة، ثم رفع رأسه، وقال: كيف يحل أن أجعل هؤلاء المرد بلحى وأغير هذه الصورة الحسنة، وإنما أجعل أصحاب هذه اللحى مرداً فى لحظة واحدة، فضحك منه الرشيد وعفا عنه وأمر له بصلة. وتنبأ إنسان، فطالبوه بحضرة المأمون

بمعجزة، فقال: أطرح لكم حصاة في الماء فتذوب. قالوا: رضينا فأخرج حصاة معه وطرحها في الماء فذابت، فقالوا: هذه حيلة ولكن نعطيك حصاة من عندنا فدعها تذوب. فقال: لستم أجل من فرعون ولا أنا أعظم حكمة من موسى، ولم يقل فرعون لموسى: لم أرض بما تفعله بعصاك حتى أعطيك عصا من عندي تجعلها ثعباناً. فضحك المأمون وأجازه. وتنبأ رجل في أيام المعتصم، فلما حضر بين يديه قال: أنت نبي؟ قال: نعم، قال: وإلى من بعثت؟ قال: إليك، قال: أشهد أنك لسفيه أحمق، قال: إنما يبعث إلى كل قوم مثلهم، فضحك المعتصم وأمر له بشيء، وتنبأ رجل في أيام المأمون وادعى أنه إبراهيم الخليل، فقال له المأمون: إن إبراهيم كانت له معجزات وبراهين، قال: وما براهينه؟ قال: أضربت له ناراً وألقى فيها، فصارت عليه برداً وسلاماً، ونحن نوقد لك ناراً ونطرحك فيها، فإن كانت عليك كما كانت عليه آمنا بك، قال: أريد واحدة أخف من هذه، قال: فبراهين موسى، قال: وما براهينه؟ قال: ألقى عصاه فإذا هي حية تسعى، وضرب بها البحر فانغلق، وأدخل يده فأخرجها بيضاء. قال: وهذه على أصعب من الأولى. قال: فبراهين عيسى. قال: وما هي؟ قال: إحياء الموتى. قال: مكانك قد وصلت. أنا أضرب رقبة القاضي يحيى بن أكثم وأحييه لكم الساعة، فقال يحيى: أنا أول من آمن بك وصدق. وتنبأ آخر في زمن المأمون، فقال المأمون: أريد منك بطيحاً في هذه الساعة. قال: أمهلني ثلاثة أيام: فقال ما أريده إلا الساعة. قال: ما أنصفتني يا أمير المؤمنين، إذا كان الله تعالى الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ما يخرجني إلا في ثلاثة أشهر، فما تصبر أنت على ثلاثة أيام، فضحك منه ووصله. وتنبأ آخر في زمن المأمون، فلما مثل بين يديه. قال له: من أنت؟ قال: أنا أحمد النبي. قال: لقد ادعيت زوراً، فلما رأى الأعوان قد أحاطت به وهو ذاهب معهم قال: يا أمير المؤمنين أنا أحمد النبي، فهل تدمه أنت، فضحك المأمون منه وخلي سبيله. وتنبأ آخر في زمن المتوكل، فلما حضر بين يديه قال له: أنت نبي؟ قال: نعم. قال: فما الدليل على صحة نبوتك قال: القرآن العزيز يشهد بنبوتي في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾. [النصر: ١]. وأنا اسمي نصر الله، قال: فما معجزتك؟ قال: اثنوني بامرأة عاقر أنكحها تحمل بولد يتكلم في الساعة ويؤمن بي، فقال المتوكل لوزيره الحسن بن عيسى: أعطه زوجتك حتى تبصر كرامته، فقال الوزير: أما أنا فأشهد أنه نبي الله، وإنما يعطى زوجته من لا يؤمن به. فضحك المتوكل وأطلقه. وادعى رجل النبوة زمن خالد بن عبد الله القسري وعارض القرآن فأتى به إلى خالد فقال له: ما تقول؟ قال: عارضت القرآن. قال: بماذا؟ قال: قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾. [الكوثر: ١]. وقلت: إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر، ولا تطع كل ساحر. فأمر به خالد فضرب عنقه وصلب، فمر به خلف بن خليفة الشاعر، فضرب بيده على الخشبة وقال: إنا أعطيناك العود فصل لربك من قعود وأنا ضامن لك أن لا تعود.

وأتى المأمون برجل ادعى النبوة، فقال له: ألك علامة على نبوتك؟ قال: علامتي أني أعلم ما في نفسك، قال: وما في نفسي؟ قال: في نفسك أني كاذب، قال: صدقت، ثم أمر به إلى السجن، فأقام فيه أياماً. ثم أخرجه، فقال: هل أوحى إليك بشيء؟ قال: لا. قال: ولم؟ قال: لأن الملائكة لا تدخل الجبوس. فضحك منه وخلي سبيله. وأتى بامرأة تنبأت في أيام المتوكل، فقال لها: أنت نبية؟ قالت: نعم. قال: أتؤمنين بمحمد؟ قالت: نعم. قال: فإنه ﷺ قال: لا نبي بعدى، قالت: فهل قال لا نبية بعدى؟ فضحك المتوكل وأطلقها، وتنبأ رجل يسمى نوحاً، وكان له صديق نهاء، فلم يقبل. فأمر السلطان بقتله، فمر به صديقه، فقال له يا نوح: ما حصلت من السفينة إلا على الصاري.

الفصل السابع: في نوادر السؤال

وقف أعرابي بباب يسأل، فقال له صغير من باب الدار: بورك فيك، فقال: قبح الله هذا الفم لقد تعلمت الشر. صغيراً، ووقف سائل على باب فقال: يا أصحاب المنزل، فبادر صاحب الدار قبل أن يتم كلامه وقال: ففتح الله عليك، فقال السائل: يا قرنان كنت تصبر لعلی جئت أدعوك إلى وليمة. وقال أبو عثمان الجاحظ: وقف سائل يقوم فقال: إني جائع، فقالوا له: كذبت، فقال جربوني برطلين من الخبز ورطلين من اللحم. ووقف سائل على باب، فقالوا: يفتح الله عليك، فقال كسرة، فقالوا: ما نقدر عليها، قال: فقليل من بر أو فول أو شعير، قالوا: لا نقدر عليه، قال: فقطعه دهن أو قليل زيت أو لبن. قالوا: لا نجده، قال: فشرية ماء. قالوا: وليس عندنا ماء، قال: فما جلوسكم ها هنا قوموا فاسألوا، فأنتم أحق مني بالسؤال.

الفصل الثامن: فى نواذر المؤذنين

قيل لمؤذن: ما نسمع أذانك، فلو رفعت صوتك، فقال: إني أسمع صوتي من مسيرة ميل. وقال بعضهم: رأيت مؤذناً أذن ثم غدا يهرول، فقلت له: إلى أين؟ فقال: أحب أن أسمع أذاني أين بلغ. واختصم رجلان فى جارية فأودعاها عند مؤذن. فلما أصبح وفرغ من الأذان قال: لا إله إلا الله ذهبت الأمانة من الناس. فقالوا له: كيف ذهبت الأمانة من الناس؟ قال: هذه الجارية التى وضعت عندى قيل إنها بكر، فلما أتيتها وجدتها ثيباً. وسمع مؤذن حمص يقول فى سحور رمضان: تسحروا قد أمرتكم وعجلوا فى أكلكم قبل أن أؤذن، فيسخم الله وجوهكم. وشوهد مؤذن يؤذن من رقعة. فقيل له: ما تحفظ الأذان؟ فقال: سلوا القاضى، فأتوه، فقالوا: السلام عليكم، فأخرج دفترًا وتصحفه وقال: وعليكم السلام، فعذروا المؤذن. وسمعت امرأة مؤذنًا يؤذن بعد طلوع الشمس ويقول الصلاة خير من النوم، فقالت النوم خير من هذه الصلاة. ومر سكران بمؤذن ردئ الصوت فجلد به الأرض وجعل يدوس بطنه، فاجتمع الناس فقال: والله ما بى رداءة صوته، ولكن شماتة اليهود والنصارى بالمسلمين.

الفصل التاسع: فى نواذر النواتية

حكى أن بعض النواتية^(١): تولى أحد الكراسى السلطانية لما ساعده الزمان، فبينما هو جالس فى داره إذ سمع صوتًا وراء الباب فقال لزوجته: إني أسمع غاغة فى البر حلى قلعوى واعملى أسفيرتى على جامورى وقدمى إلى إسقالة الرجل، وقيمىنى بمدة، فامثلت كلامه، فتزل وجلس على مصطبة وقد علت مرتبته، واصطفت المقدمون بين يديه ووقفت الحبرية حواليه، وإذا بشيخ قد أقبل وثيابه مقطعة وعمامته فى حلقه والدم نازل من أنفه وهو يصيح بصوت عال: أنا بالله وبوالى، فقال: تعال يا شيخ مالى أرى أرطمونك فى حلقك وشبورتك مكسورة وأنت بتزلع ماء متغير وتقيم الهلילה فى الساحل دخل عليك شرد غربى وإلا دخلت على بواجى، فقال الشيخ: والله يا سيدى بعض نواتية البحر عمل بى هذا، فقال: يا أولاد جيبوا غريمو بخنسوا عدته وقشطوا ظهره وجروه على مقدمه، فامثلوا كلام الأمير وجاءوا بالغريم فلما مثل بين يديه قال له: ويلك هو أنت بغنوس بسفر البحر أنت الذى قطعت القلس وخرجت فى الشعث حتى لقيت هذا الرجل نطحت مخطمته وكسرت استقالته، لو انصلح كنت عملتك فى بدراوة وعلقتك فى الصارى، فلما سمع الرجل كلام الوالى علم أنه من أولاد المعيشة، فقال له بهمثرة النواتية: والله يا خوند هو كار زنى فى معاشى اجصطن على الوحشة وأنا عايم فى الليل إلا وشرد جانى من الشرق كابس هز أطرافى وكسر شابورتى وقطع لبانى وها هو يحمد الله على بر السلامة، وإن كن انصلح فيه شئ فأنا بمرسوم الأمير أجيب له القلقاط. أسد فتحه وأعيد له وسقه وأخليه يروح فى طريقه، فقال له الوالى: أنت تقذف فى وجهى وتطرح مقاديفك حتى تعبر على الحجر، يا رجالة الصارى سلسلوا أطرافه وعروا مقاديفه، وبلو شينة اللبان وانزلوا عليه وأوسقوه الجنين والظهر حتى تلعب المية على بطونسته، هيا قوامك خلوا جنب برًا وجنب جوا قدام الخن وراء الصارى، فأكل علقه من كعبه إلى أذنه، فقالت النواتية: يا خوندا هو خنسفت عليه الطمية البحرية؟ قال: مدراتين وقيموه فلما أقاموه باس يد الأمير وقال: يا خوندا سألتك بهبوب الرياح وطيب النسيم الرب لا يبليك بجر اللبان فى الخلافى، وأنت حافى فى الصيافى، ويكفيك شر الأربعينات قال: فرق عليه قلب الأمير وقال له: وحق من ضرب القلع باللبان الحلفا عند بخنسة الرياح وفروغ الزاد بعيد من البلاد وعياط الركاب عند قيام الموجة وبعد البر فى أيام النيل، لولا شفاعة الركاب لكنت أهد أسقالتك وأقعد فى زوايدك حتى أخلى ظهرك جيفة، فقال له: والله يا خوند ما بقى جنبى يحمل هذا الوثق العظيم ولكن إن عدت أعبر لهذا الوجه أخسف من أضلاعى لوح وغرقنى بالقيام، فقال له الأمير: أحمد الله على السلامة واخرج فى دى الطيابة وكتب له مرسوم وعلم عليه علامة الرياس البحرية للنواتية الله لك الله لى يا عملات على أبوس.

(١) الملاح الذى يُدبّر السفينة فى البحر.

الفصل العاشر: فى نوادر جامعة

سمعت امرأة فى الحديث أن صوم يوم عاشوراء كفارة سنة، فصامت إلى الظهر ثم أفطرت وقالت: يكفينى كفارة ستة أشهر منها شهر رمضان، وأسلم مجوسى فى شهر رمضان فثقل عليه الصيام، فنزل إلى سرداب وقعد يأكل فسمع ابنه حسه فقال: من هذا؟ فقال: أبوك الشقى يأكل خبز نفسه ويفزع من الناس. وسئل بعض القصاص عن نصرانى قال: لا إله إلا الله لا غير إذا مات أين يدفن؟ قال: يدفن بين مقابر المسلمين والنصارى ليكون مذبذباً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. وأهدى إلى سالم القصاص خاتم بلا فص، فقال: إن صاحب هذا الخاتم يعطى فى الجنة غرفة بلا سقف. وبنى بعض المغفلين نصف دار وبنى رجل آخر النصف الآخر. فقال المغفل يوماً: قد عولت على بيع النصف الذى لى، وأشتري به النصف الآخر لتكمل لى الدار كلها. وسئل جامع الصيدلانى عن عمر ابنته فقال: لا أدري إلا أن أمها ذكرت أنه ولدتها فى أيام البراغيث. وقيل لطفيلى: أى سورة تعجبك من القرآن؟ قال: المائدة. قال: فأى آية؟ قال: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾ [الحجر: ٣] قيل: ثم ماذا؟ قال: ﴿آتنا غداءنا﴾ [الكهف: ٦٢]، قيل: ثم ماذا؟ قال: ﴿ادخلوها بسلام آمنين﴾ [الحجر: ٤٦]، قيل: ثم ماذا؟ قال: ﴿وما هم منها بمخرجين﴾ [الحجر: ٤٨]. وقيل لعثمان بن دراج الطفيلى يوماً: كيف تصنع بدار العرس إذا لم يدخلك أصحابها؟ قال: أنوح على بابهم فيتطيرون من ذلك، فيدخلونى، وقيل له: أتعرف بستان فلان؟ قال: إى والله إنه الجنة الحاضرة فى الدنيا، قيل: لم لا تدخله وتأكل من ثماره وتستظل بأشجاره وتسبح فى أنهاره؟ قال: لأن فيه كلباً لا يتمضمض إلا بدماء عراقيب الرجال. وقيل له يوماً: ما هذه الصفرة التى فى لونك؟ قال: من الفترة من الصحنين. وقال: مرت بنا جنازة يوماً ومعى ابنى ومع الجنازة امرأة تبكى وتقول: الآن يذهبون بك إلى بيت لا فراش فيه ولا غطاء، ولا وطاء ولا خبز ولا ماء، فقال ابنى: يا أبت إلى بيتنا والله يذهبون.

وحكى عن هارون الرشيد أنه أرق ذات ليلة أرقاً شديداً، فقال لوزيره جعفر بن يحيى البرمكى: إنى أرقت هذه الليلة وضاق صدرى ولم أعرف ما أصنع، وكان خادمه مسرور وواقفاً أمامه فضحك، فقال له: ما يضحكك استهزاء بى أم استخفاً؟ فقال: وقرايتك من سيد المرسلين ﷺ ما فعلت ذلك عمداً ولكن خرجت بالأمس أتمشى بظاهر القصر إلى أن جئت إلى جانب الدجلة فوجدت الناس مجتمعين، فوقفت فرأيت رجلاً واقفاً يضحك الناس يقال له: ابن المغازلى، فتفكرت الآن فى شئ من حديثه وكلامه، فضحكت والعفو يا أمير المؤمنين، فقال له الرشيد: اتنتى الساعة به، فخرج مسروراً سريعاً إلى أن جاء إلى ابن المغازلى فقال له: أجب أمير المؤمنين، فقال: سمعاً وطاعة، فقال له: بشرط أنه إذا أنعم عليك بشئ يكون لك منه الربع والبقية لى، فقال له: بل اجعل لى النصف ولك النصف، فأبى فقال: الثلث لى ولك الثلثان، فأجابه إلى ذلك بعد جهد عظيم. فلما دخل على الرشيد سلم، فأبغ وترجم فأحسن، ووقف بين يديه، فقال له أمير المؤمنين: إن أنت أضحكتنى أعطيتك خمسمائة دينار وإن لم تضحكتنى أضربك بهذا الجراب ثلاث ضربات، فقال ابن المغازلى فى نفسه، وما عسى أن تكون ثلاث ضربات بهذا الجراب؟ وظن فى نفسه أن الجراب فارغ، فوقف يتكلم ويتمسخر وفعل أفعالاً عجبية تضحك الجلمود، فلم يضحك الرشيد، ولم يتنسم، فتعجب ابن المغازلى وضجر وخاف، فقال له الرشيد: الآن استحققت الضرب، ثم إنه أخذ الجراب ولفه وكان فيه أربع زلطات كل واحدة وزنها رطلان، فضربه ضربة، فلما وقعت الضربة فى رقبته صرخ صرخة عظيمة وافتكر الشرط الذى شرطه عليه مسرور، فقال: العفو يا أمير المؤمنين اسمع منى كلمتين. قال: قل ما بدا لك. قال: إن مسروراً شرط على شرطاً واتفقت أنا وإياه على مصلحة، وهو أن ما حصل لى من الصدقات يكون له فيه الثلثان ولى فيه الثلث وما أجابنى إلى ذلك إلا بعد جهد عظيم. وقد شرط على أمير المؤمنين ثلاث ضربات فنصيب منها واحدة ونصيبه اثنتان، وقد أخذت نصيبى وبقى نصيبه. قال: فضحك الرشيد ودعا مسروراً، فضربه، فصاح، وقال: يا أمير المؤمنين قد وهبت له ما بقى. فضحك الرشيد وأمر لهما بألف دينار، فأخذ كل واحد منهما خمسمائة دينار، ورجع ابن المغازلى شاكراً والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الدعاء وآدابه وشروطه وفيه فصول

الفصل الأول: فى الدعاء وآدابه

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾. [البقرة: ١٨٦]. اختلف فى سبب نزولها، فقال مقاتل: إن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه واقع امرأته بعد ما صلى العشاء فى رمضان فندم على ذلك وبكى وجاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك ورجع مغتمًا، وكان ذلك قبل الرخصة، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾. [البقرة: ١٨٦]. وروى الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس قال: قالت اليهود كيف يسمع ربنا دعاءنا وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام، وغلظ كل سماء مثل ذلك؟ فنزلت هذه الآية. وقال الحسن: إن قومًا قالوا للنبي ﷺ: أقریب ربنا فنناجیه أم بعيد فننادیه؟ فنزلت هذه الآية. قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾. [البقرة: ١٨٦]. أى قبل عبادة من عبدنى. فالدعاء بمعنى العبادة والإجابة بمعنى القبول. وقال قوم: إن الله تعالى يجيب كل الدعاء، فإما أن يعجل الإجابة فى الدنيا، وإما أن يكفر عن الداعى وإما أن يدخر له فى الآخرة لما رواه أبو سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخر له ثوابها، وإما أن يكف عنه من السوء بمثلها». وروى أنه إذا كان يوم القيامة واستقر أهل الجنة فى الجنة، فبينما العبد المؤمن فى قصره، وإذا ملائكة من عند ربه يأتونه بتحف من عند الله. فيقول ما هذا، أليس الله قد أنعم على وأكرمنى؟، فيقولون: ألسنت كنت تدعو الله فى الدنيا؟ هذا دعاؤك الذى كنت تدعوه قد ادخر لك.

واعلم أن إجابة الدعاء لا بد لها من شروط، فشرط الداعى أن يكون عالمًا بأن لا قادر إلا الله، وأن الوسائط فى قبضته، ومسخرة بتسخيره، وأن يدعو بنية صادقة وحضور قلب، فإن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب لاه، وأن يكون متجنبًا لأكل الحرام ولا يمل من الدعاء، ومن شروط المدعو فيه أن يكون من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعًا، كما قال عليه الصلاة والسلام: «ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم»، فيدخل فى الإثم كل ما يأتى به من الذنوب، ويدخل فى الرحم جميع حقوق المسلمين ومظالمهم. قال ابن عطاء الله: إن للدعاء أركانًا وأجنحة وأسبابًا وأوقاآت، فإن وافق أركانه قوى وإن وافق أجنحته طار إلى السماء وإن وافق مواقيته فاز وإن وافق أسبابه نجح، فأركانه حضور القلب، والخشوع، وأجنحته: الصدق، ومواقيته: الأسحار، وأسبابه: الصلاة على النبي ﷺ. ومن شروط الدعاء: أن يكون سليمًا من اللحن، كما قال بعضهم:

ينادى ربه باللحن ليث كذلك إذ دعاء لا يجاب

وقيل: إن الله تعالى لا يستجيب دعاء عريف، ولا شرطى، ولا جاب، ولا عشار، ولا صاحب عرطبة، وهى الطنبور، ولا صاحب كوبة، وهى الطبل الكبير الضيق الوسط. ومن آداب الدعاء: أن يدعو الداعى مستقبل القبلة ويرفع يديه. لما روى عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ربكم حى كريم ليستحى من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً». وأن يمسح بهما وجهه بعد الدعاء، لما روى عن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا مد يديه فى الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه وأن لا يرفع بصره إلى السماء لقوله ﷺ: «ليتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء، أو ليخطفن الله أبصارهم». وأن يخفض الداعى صوته بالدعاء لقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾. [الأعراف: ٥٥]. وعن أبى عبد الرحمن الهمداني قال: صليت مع أبى إسحاق الغداة فسمع رجلاً يجهر فى الدعاء فقال: كن كزكريا ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نَدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣٦]، وينبغى للداعى أن لا يتكلف وأن يأتى بالكلام المطبوع غير المسجوع، لقوله ﷺ: «إياكم والسجع فى الدعاء بحسب أحدكم». يقول: اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل». وأقيل: ادعوا بلسان الذلة والاحتقار ولا تدعوا بلسان الفصاحة

والانطلاق. وكانوا لا يزيدون في الدعاء على سبع كلمات، فما مدونها، كما في آخر سورة البقرة. وعن سفيان بن عيينة: لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه. فقد أجاب الله دعاء شر الخلق إبليس، إذ قال: ﴿رب انظرني إلى يوم يبعثون﴾ [الحجرات: ٣٦]. وعن النبي ﷺ: «إذا سأل أحدكم مسألة فتعرف الإجابة، فليقل: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، ومن أبطأ عليه من ذلك شيء فليقل: الحمد لله على كل حال. وعن سلمة بن الأكوع قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يستفتح الدعاء إلا قال: «سبحان ربي الأعلى الوهاب». وعن أبي سليمان الداراني: من أراد أن يسأل الله حاجة، فليبدأ بالصلاة على رسول الله ﷺ وينبغي للمؤمن أن يجتهد في الدعاء وأن يكون على رجاء من الإجابة، ولا يقنط من رحمة الله لأنه يدعو كريماً.

وللدعاء أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الإجابة، وذلك وقت السحر، ووقت الفطر، وما بين الأذان والإقامة، وعند جلسة الخطيب بين الخطبتين إلى أن يسلم من الصلاة، وعند نزول الغيث وعند التقاء الجيش في الجهاد في سبيل الله تعالى، وفي الثلث الأخير من الليل لما جاء في الحديث: «إن في الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه». وفي حالة السجود لقوله عليه الصلاة والسلام: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»، وما بين الظهر والعصر في يوم الأربعاء وأوقات الاضطراب، وحالة السفر والمرض، هذا كله جاءت به الآثار. قال جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه: دعا رسول الله ﷺ في مسجد الفتح ثلاثة أيام، يوم الاثنين، ويوم الثلاثاء، واستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين فعرفت السرور في وجهه. قال جابر: ما نزل بي أمر مهم غليظ إلا توخيت تلك الساعة فادعوا فيها فأعرف الإجابة. وفي بعض الكتب المتولة: يا عبدي إذا سألت فاسألني فإنني غني وإذا طلبت النصرة فاطلبها مني فإنني قوي، وإذا أفشيت سرك فافشه إلي فإنني وفي وإذا أقرضت فأقرضني فإنني ملي، وإذا دعوت فادعني فإنني حفي.

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له». وقال وهب بن منبه: بلغني أن موسى مر برجل قائم يبكي ويتضرع طويلاً فقال موسى: يا رب أما تستجيب لعبدك؟ فأوحى الله تعالى إليه: «يا موسى لو أنه بكى حتى تلفت نفسه ورفع يديه حتى بلغ عنان السماء ما استجبت له». قال: يا رب لم ذلك؟ قال: لأن في بطنه الحرام. ومر إبراهيم بن أدهم بسوق البصرة فاجتمع الناس إليه وقالوا: يا أبا إسحاق ما لنا ندعوا الله فلا يستجاب لنا؟ قال: لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء: الأول: أنكم عرفتم الله فلم تؤدوا حقه، والثاني: زعمتم أنكم تحبون رسول الله ﷺ ثم تركتم سنته، الثالث: قرأتم القرآن ولم تعملوا به، الرابع: أكلتم نعمة الله ولم تؤدوا شكرها، الخامس: قلتم إن الشيطان عدوكم ووافقتموه، السادس: قلتم إن الجنة حق فلم تعملوا لها، السابع: قلتم إن النار حق ولم تهربوا منها، الثامن: قلتم إن الموت حق فلم تستعدوا له، التاسع: انتبهتم من النوم واشتغلتم بعيوب الناس وتركتم عيوبكم، العاشر: دفتتم موتاكم ولم تعتبروا بهم.

وكان يحيى بن معاذ يقول: من أقر الله بإساءته جاد الله عليه بمغفرته، ومن لم يمن على الله بطاعته أوصله إلى جنته، ومن أخلص لله في دعوته من الله عليه بإجابته. وقال علي رضي الله تعالى عنه: ارفعوا أفعال البلياء بالدعاء. وعن أنس رضي الله تعالى عنه (يرفعه): «لا تعجزوا عن الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد».

الفصل الثاني: في الأدعية وما جاء فيها

كان من دعاء شريح رحمه الله تعالى: اللهم إني أسألك الجنة بلا عمل عملته، وأعوذ بك من النار بلا ذنب تركته، ودعت أعرابية عند البيت فقالت: إلهي لك أذل وعليك أذل. وكان من دعاء بعض الصالحين: اللهم إن كنا عصيانك فقد تركنا من معاصيك أبغضها إليك وهو الإشراك وإن كنا قصرنا عن بعض طاعتك فقد تمسكنا بأحبها إليك وهو شهادة أن لا إله إلا أنت وأن رسلك جاءت بالحق من عندك.

ومن دعاء سلام بن مطيع: «اللهم إن كنت بلغت أحداً من عبادك الصالحين درجة ببلاء فبلغنيها بالعافية». وقيل لفتح

الموصلى: ادع الله لنا فقال: اللهم هبنا عطاءك ولا تكشف عنا غطاءك. وكان من دعاء بعض السلف: اللهم لا تحرمنى خير ما عندك لشر ما عندى فإن لم تقبل تعبى ونصبى فلا تحرمنى أجر المصاب على مصيبتى، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى الناس فنضيع. وقال الحسن: ومن دخل المقابر، فقال: اللهم رب الأرواح الفانية والأجساد البالية والعظام النخرة التى خرجت من الدنيا وهى بك مؤمنة أدخل عليها روحاً من عندك وسلاماً منى، كتب الله له بعدد من مات من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة حسنات.

وحكى عن معروف القاضى أن الحجيج كانوا يجتهدون فى الدعاء وفيهم رجل من التركمان ساكت لا يحسن أن يدعو، فخشع قلبه وبكى فقال بلغته: اللهم إنك تعلم أنى لا أحسن شيئاً من الدعاء. فأسأك ما يطلبون منك بما دعوا، فرأى بعض الصالحين فى منامه أن الله قبل حج الناس بدعوة ذلك التركمانى لما نظر إلى نفسه بالفقر والفاقة. وقال الأصمعى: حسدت عبد الملك على كلمة تكلم بها عند الموت. وهى: اللهم إن ذنوبى وإن كثرت وجلت عن الصفة فإنها صغيرة فى جنب عفوك فاعف عنى. وركب إبراهيم بن أدهم فى سفينة، فهاجت الريح وبكى الناس وأيقنوا بالهلاك، وكان إبراهيم نائماً فى كساء، فاستوى جالساً وقال: أريتنا قدرتك فأرنا عفوك، فذهب الريح وسكن البحر. وقال الثورى: كان من دعاء السلف، اللهم زهدنا فى الدنيا ووسع علينا فيها ولا تزوها عنا ولا ترغبنا فيها. وكان بعض الأعراب إذا آوى إلى فراشه قال: اللهم إنى أكفر بكل ما كفر به محمد وأؤمن بكل ما آمن به، ثم يضع رأسه. وسمعت بدوية تقول فى دعائها: يا صباح يا مناح يا مطعم يا عريض الجفنة يا أبا المكارم، فرجرها رجل، فقالت: دعنى أصف ربى وأمجد إلهى بما تستحسنه العرب. وقال الزمخشري فى كتابه «ربيع الأبرار»: سمعت أنا من يدعو من العرب عند الركن اليمانى: يا أبا المكارم يا أبيض الوجه، وهذا ونحوه منهم إنما يقصدون به الثناء على الله تعالى بالكرم والنزاهة عن القبيح على طريق الاستعارة، لأنه لا فرق عندهم بين الكريم وأبى المكارم ولا بين الجواد والعريض الجفنة ولا بين المتزه والأبيض الوجه. وقيل لأعرابى: أحسن أن تدعو ربك؟ قال: نعم. قال: اللهم إنك أعطيتنا الإسلام من غير أن نسألك فلا تحرمنا الجنة ونحن نسألك. وذكر لعبد السلام بن مطيع أن الرجل تصيبه البلوى، فيدعو فتبطل عنه الإجابة، فقال: بلغنى أن الله تعالى يقول: كيف أرحمه من شئ به أرحمه. وقال طاوس: بينما أنا فى الحجر ذات ليلة إذ دخل على على بن الحسين، فقلت: رجل صالح من أهل بيت الخير لأسمعن دعاءه، فسمعت يقول: عبيدك بفنائك، مسكينك بفنائك فقيرك بفنائك. فما دعوت بهما فى كرب إلا فرج عنى، ودعا أعرابى فقال: اللهم إنا نبات نعمتك. وقال ابن المسيب: سمعت من يدعو بين القبر والمنبر اللهم إنى أسألك عملاً باراً ورزقاً داراً وعيشاً قاراً، فدعوت به. فما وجدت إلا خيراً. ودعت أعرابية بالموقف، فقالت: أسألك سترك الذى لا تزيله الرياح ولا تخرقه الرماح. وقيل: اتقوا مجانيق الضعفاء أى دعواتهم، ودعا أعرابى فقال: اللهم امح ما فى قلبى من كذب وخيانة واجعل مكانه صدقاً وأمانة. وصلى رجل إلى جنب عبد الله بن المبارك وبادر القيام، ف جذب ثوبه وقال: أما لك إلى ربك حاجة؟. وقال سفيان الثورى: سمعت أعرابياً يقول: اللهم إن كان رزقى فى السماء، فأنزله، وإن كان فى الأرض فأخرجه، وإن كان بعيداً فقربه، وإن كان قريباً فيسره، وإن كان قليلاً فكثره، وإن كان كثيراً فبارك لى فيه.

وقال أبو نواس:

أحببت من شعر بشار وكلمته بيتاً لهجت به من شعر بشار
يا رحمة الله حلى فى منازلنا رجاءورينا فـدتك النفس من جـار

وكان بشار يعنى بذلك جارية بصرية كان يحبها ويتغزل فيها، ونعنى بها هنا رحمة الله التى وسعت كل شئ. وسمع على بن أبى طالب رضى الله عنه رجلاً يقول وهو متعلق بأستار الكعبة: يا من لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلظه المسائل ولا ييرمه إلحاح الملحين، أذقنى برد عفوك، وحلاوة مغفرتك، فقال على: والذى نفسى بيده لو قلتها وعليك ملء السموات والأرض من الذنوب لغفر لك. ومن دعائه رضى الله تعالى عنه: اللهم صن وجهى باليسار، ولا تبدل جاهى بالإقتار. فاسترزق طامعاً رزقك من غيرك، وأستعطف شرار خلقك وأبتلى بحمد من أعطانى، وأفتن بدم من منعنى، وأنت من وراء ذلك كله، ولى الإجابة والمنع. وعن أبى عباس رضى الله تعالى عنهما، عن النبى ﷺ قال: «ما انتهيت إلى الركن اليمانى قط إلا وجدت جبريل قد سبقنى إليه يقول: قل يا محمد: «اللهم إنى أعوذ بك من الكفر

والفقر والفاقة وهى من مواقف الخزى». وهبط جبريل على يعقوب فقال: يا يعقوب إن الله تعالى يقول لك: قل يا كثير الخير يادائم المعروف رد على ابني، فقالها فأوحى الله تعالى إليه: وعزتي لو كانا ميتين لنشرتهما لك. وكان أبو مسلم الخراساني إذ نابه أمر قال: يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين. وقال جعفر بن محمد: ما المبتلى الذي اشتد بلاؤه بأحق الدعاء من المعافى الذي لا يأمن وقوع البلاء. وكان الزهري يدعو بعد الحديث بدعاء جامع فيقول: اللهم إني أسألك من خير ما أحاط به علمك في الدنيا والآخرة، وأعوذ بك من شر ما أحاط به علمك في الدنيا والآخرة. وعن عقبة بن عبد الغافر: دعوة في السر أفضل من سبعين دعوة في العلانية. واعلم أن التوحيد والدعاء عند نوازل الملمات هو سفينة النجاة من الحوادث المهلكات.

وعن أبي الدرداء قال: صلى بنا رسول الله ﷺ العصر فمر بنا كلب، فما بلغت يده رجله حتى وقع ميتاً، فلما انصرف رسول الله ﷺ من صلاته قال: من الداعي على الكلب آنفاً؟ قال رجل من القوم: أنا يا رسول الله. قال: لقد دعوت الله باسمه الذي إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى. قال: كيف دعوت الله؟ قال: قلت اللهم إني أسألك بأن الحمد لك لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام. وقيل: إنه دخلت أذن رجل من أهل البصرة حصاة فعالجها الأطباء فلم يقدرُوا عليها حتى وصلت إلى صماخه فأتى إلى رجل من أصحاب الحسن، فشكا له ما أصابه من الحصاة فدعا له بدعاء العلاء بن الحضرمي وهو: «يا علي يا عظيم يا حليم يا عليم». قال الراوى: فما برحنا حتى خرجت الحصاة من أذنه، ولها طنين حتى ضربت الحائط. وعن أنس إذا قال العبد: يا رب يا رب يا رب يقول الله عز وجل: لبيك عبدى، وعنه قال: مر رسول الله ﷺ برجل وهو يقول: يا أرحم الراحمين، فقال له الرسول ﷺ: سل حاجتك. فقد نظر الله إليك.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا فتح الله على عبد الدعاء فليكثر، فإن الله يستجيب له». وروى عن على بن أبى زفر عن أخ له، وكان فاضلاً صالحاً، فقال: دعوت الله أن يربنى الاسم الأعظم الذي إذا دعى به أجاب، فقامت ليلة أصلى فسمعت قعقة في سقف البيت، ثم هبط نور حتى صار تلقاء وجهي وإذا مكتوب بالنور فقرأته: يا الله يا رحمن يا ذا الجلال والإكرام. ومن دعاء الكرب ما روى عن وهب أن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال له: هل تجد فيما تقرأ من الكتب دعاء تدعو به عند الكرب؟ قال: نعم. اللهم إني أسألك يا من يملك حوائج السائلين ويعلم ضمير الصامتين، فإن لكل مسألة منك سمعاً حاضراً وجواباً عتيداً، ولكل صامت منك علماً ناطقاً محيطاً، أسألك بمواعيدك الصادقة وأياديك الفاضلة ورحمتك الواسعة أن تفعل بى كذا وكذا، فقال ابن عباس: هذا دعاء علمته في النوم ما كنت أرى أن أحداً يحسنه. وعن وهب أيضاً قال: لما أهبط الله تعالى آدم من الجنة إلى الأرض استوحش لفقد أصوات الملائكة، فهبط إليه جبريل وقال: يا آدم، هل أعلمك شيئاً تتفع به في الدنيا والآخرة؟ قال: بلى. قال قل: اللهم أتم النعمة حتى تهينى المعيشة، اللهم اختم لى بخير حتى لا تضرنى ذنوبى، اللهم اكفنى مؤنة الدنيا وكل هول فى القيامة حتى تدخلنى الجنة معافى. وعن معروف الكرخي قال: اجتمعت اليهود أخزاهم الله على قتل عيسى عليه الصلاة والسلام بزعيمهم، وأهبط الله تعالى عليه جبريل وفى باطن جناحيه مكتوب: اللهم إني أدعوك باسمك الأجل الأعز، وأدعوك اللهم باسمك الأحد الصمد، وأدعوك باسمك العظيم الوتر، وأدعوك اللهم باسمك الكبير المتعالى الذى ملأ الأركان كلها، أن تكشف عني ضرر ما أصبحت وأمست فيه، فأوحى الله عز وجل إلى جبريل أن ارفع عبدى إلى، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: عليكم بهذا الدعاء، ولا تستبطئوا الإجابة، فإن ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إسناده متصل إلى معروف الكرخي، ثم هو منقطع، ولو لم يكن فيه من البركة إلا رواية معروف لكان كافياً فى قبوله والعمل به.

حدث عبد الله بن إبان الثقفى رضى الله عنه قال: وجهنى الحجاج بن يوسف فى طلب أنس بن مالك، فظننت أنه يتوارى عني، فأتيته بخيلى ورجلى، فلإذا هو جالس على باب داره ماداً رجله، فقلت له: أجب الأمير، فقال: أى الأمراء؟ فقلت: أبو محمد الحجاج، فقال غير مكترث به: قد أذله الله ما أرانى أعزه لأن العزيز من عز بطاعة الله، والدليل من ذل بمعصية الله، وصاحبك قد بغى وطغى واعتدى وخالف كتاب الله والسنة، والله لينتقم الله منه، فقلت

له: اقصر عن الكلام وأجب الأمير، فقام معنا حتى حضر بين يدي الحجاج، فقال له: أنت أنس بن مالك؟ قال: نعم. قال: أنت الذي تدعو علينا وتسبنا؟ قال: نعم، قال: ومم ذاك؟ قال: لأنك عاصر لربك، مخالف لسنة نبيك، تعز أعداء الله، وتذل أولياء الله. فقال له: أتدري ما أريد أن أفعل بك؟ قال: لا، قال: أريد أن أقتلك شر قتلة، قال أنس: لو علمت أن ذلك بيدك لعبدتك من دون الله، قال الحجاج: ولم ذاك؟ قال: لأن رسول الله ﷺ علمني دعاء، وقال من دعا به في كل صباح لم يكن لأحد عليه سبيل، وقد دعوت به في صباحي هذا، فقال الحجاج: علمنيه؟ فقال: معاذ الله أن أعلمه لأحد مادمت أنت في الحياة. فقال الحجاج: خلوا سبيله. فقال الحجاج: أيها الأمير لنا في طلبه كذا وكذا يوماً حتى أخذناه، فكيف تخلص سبيله؟ قال: رأيت على عاتقه أسدين عظيمين فاتحين أفواههما. ثم إن أنساً رضي الله عنه لما حضرته الوفاة علم الدعاء لإخوانه وهو: بسم الله الرحمن الرحيم باسم الله خير الأسماء باسم الله الذي لا يضر مع اسمه أذى، باسم الله الكافي، باسم الله المعافي، باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، باسم الله على نفسي وديني، باسم الله على أهلي ومالي، باسم الله على كل شيء أعطانيه ربي، الله أكبر، الله أكبر، أعوذ بالله مما أخاف، وأحذر الله ربي لا أشرك به شيئاً، عز جارك وجل ثناؤك وتقدست أسماؤك ولا إله غيرك اللهم إني أعوذ بك من شر كل جبار عنيد، وشيطان مريد، ومن شر قضاة السوء ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم. وهذا دعاء مشهور الإجابة وله شرح طويل وتركناه لطوله وهو: اللهم كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء، وعلوت بعظمتك على العظماء، وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك، وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر في علمك، وانقاد كل شيء لعظمتك وخضع كل ذي سلطان لسلطانك وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك لا بيد غيرك، اجعل لي من كل هم وغم أصيحت أو أمسيت فيه فرحاً ومخرجاً، إنك على كل شيء قدير، اللهم إن عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي، وسترك عن قبيح عملي أطمعني أن أسألك ما لا أستوجهه منك مما قضيت لي أدعوك آمناً وأسألك مستأنساً لا خائفاً ولا وجلاً لأنك أنت المحسن إلى وأنا المسيء إلى نفسي، فيما بيني وبينك تتودد إلى بالنعم مع غناك عني، وأتبغض إليك بالمعاصي مع فقرى إليك، فلم أر مولى كريماً أعطف منك على عبد لئيم مثلي، لكن الثقة بك حملتني على الجرأة على الذنوب فأسألك بجودك وكرمك وإحسانك مع طولك، أن تصلي على محمد وآله وأن تفتح لي باب الفرج بطولك، وتحبس عني باب الهم بقدرتك ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين فأعجز، ولا إلى الناس فأضيع برحمتك يا أرحم الراحمين.

وروى الحافظ النسفي بإسناده عن الزهري، عن أبي مسلمة، عن أبي هريرة قال: مر رسول الله ﷺ برجل ساجد وهو يقول في سجوده: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك من مظالم كثيرة لعبادك قبلي، فأبى عبد من عبادك أو أمة من إمائك كانت له قبلي مظلمة ظلمتها إياه في مال أو بدن أو عرض علمتها أو لم أستطع أن أتخللها، فأسألك أن ترضيه عني بما شئت وكيف شئت، ثم تهبها لي من لدنك إنك واسع المغفرة ولديك الخير كله يا رب ما تصنع بعذابي ورحمتك وسعت كل شيء، فلتسعن رحمتك، فإنني لا شيء، وأسألك يا رب أن تكرمني برحمتك ولا تهني بذنوبي وما عليك أن تعطيني الذي سألتك يا رب يا الله، فقال رسول الله ﷺ: ارفع رأسك فقد غفر الله لك إن هذا دعاء أخى شعيب عليه السلام. وقال صالح المزني: قال لي قائل في منامي: إذا أحببت أن يستجاب لك، فقل: اللهم إني أسألك باسمك المخزون المكنون المبارك الطيب الطاهر المطهر المقدس، فما دعوت بها في شيء إلا تعرفت الإجابة.

وقيل: إن هذا الدعاء فيه اسم الله الأعظم وهو: بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إني أسألك بالعزة التي لا ترام والملك الذي لا يضام، والعين التي لا تنام، والنور الذي لا يطفأ، وبالوجه الذي لا يبلى وبالديمومة التي لا تنفد، وبالحياة التي لا تموت وبالصمود التي لا تقهر، وبالربوبية التي لا تستذل، أن تجعل لنا في أمورنا فرجاً ومخرجاً حتى لا نرجو غيرك يا أرحم الراحمين. وقال سعيد بن المسيب: دخلت المسجد في ليلة مقمرة وأظن أني قد أصبحت وإذا الليل على حاله، فقممت أصلي، وجلست أدعو وإذا بهاتف يهتف من خلفي يا عبد الله قل قلت: ما أقول؟ قال: قل: اللهم إني أسألك بأنك ملك وأنت على كل شيء قدير، وما تشاء من أمر يكون. قال سعيد: فما دعوت به قط في شيء إلا رأيت نجحه. وعن الشيخ كمال الدين الدميري قال: روي عن قاضي القضاة عز الدين بن جماعة قال: أنبأنا الشيخ شرف الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مناع الفزاري خطيب دمشق، أنبأنا الشيخ زيد الدين أبو البقاء خالد بن

يوسف النابلسي بقراءتي عليه، قال: أنبأنا الحافظ بهاء الدين ناصر السنة محمد بن الإمام أبي محمد بن الحافظ أبي القاسم علي ابن الحسين بن هبة الله بن عساكر قراءة عليه، وأنا أسمع، قال: رويت بالإسناد وذكر إسناده إلى الإمام الحجة التابعي الجليل محمد بن سيرين، قال: نزلنا بنهر تيرا، فأتانا أهل ذلك المنزل فقالوا لنا: ارحلوا فإنه لم ينزل هذا المنزل أحد إلا أخذ متاعه فرحل أصحابي وتخلفت، فلما أمسينا قرأت آيات، فما تمت حتى رأيت أقواماً قد أقبلوا وجاءوا إلى جهتي أكثر من ثلاثين نفرًا وقد جردوا سيوفهم فلم يصلوا إلي، فلما أصبحت رحلت فلقيني شيخ على فرس ومعه قوس عربية، فقال لي: يا هذا إنسى أنت أم جنى؟ فقلت: بل أنا من بنى آدم، قال: فما بالك لقد أتيناك في هذه الليلة أكثر من سبعين مرة وفي كل ذلك يحال بيننا وبينك بسور من حديد، قلت: حدثني ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: من قرأ في ليلة ثلاثاً وثلاثين آية لم يضره في تلك الليلة لص طار ولا سبع ضار، وعوفي في نفسه وأهله وماله حتى يصبح، فنزل عن فرسه وكسر قوسه وأعطى الله تعالى عهداً أن لا يعود لهذا الأمر، وهذه الآيات وهي أن تقرأ بعد الفاتحة ﴿ألم ذلك الكتاب.. إلى قوله.. المفلحون﴾. وآية الكرسي إلى قوله: هم فيها خالدون، وآمن الرسول إلى آخر السورة وأن ربكم الله الذي إلى قوله المحسنين ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ [الإسراء: ١١٠] إلى آخر السورة، والصفات صفًا إلى قوله تعالى لا زب، ويا معشر الجن والإنس إن استطعتم إلى قوله فلا تتصرون، لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت خاشعًا إلى آخرها، وأنه تعالى جد ربنا إلى قوله: شططًا زاد البوني إلى قوله شهابًا رصداً، والله من ورائهم محيط إلى قوله: محفوظ، قال محمد بن سيرين: فذكرت هذا الحديث لشعيب بن حرب، فقال: كنا نسميها آيات الحرز ويقال: إن فيها شفاء من مائة داء، وعدواً منها الجذام وغير ذلك. قال محمد بن علي: قرأتها على شيخ لنا قد أفلج فأذهب الله تعالى ذلك الفالج، قال البوني: هذه الآيات شرفها مشهور وفضلها مذكور لا ينكرها إلا غبي أو غيور، وقد جربها المشايخ، وعرف سرها من له في العلم قدم راسخ، وقدر شامخ، وهي على ما روينا بل ما رأينا أولها الفاتحة ثم أول البقرة إلى آخر الآيات.

وقال أبو العباس أحمد القسطلاني: سمعت الشيخ أبا عبد الله القرشي يقول: سمعت أبا زيد القرطبي يقول في بعض الآثار أن من قال: لا إله إلا الله سبعين ألف مرة كانت فداءه من النار، فعملت ذلك رجاء بركة الوعد، ففعلت منها لأهلي وعملت أعمالاً ادخرتها لنفسى وكان إذ ذاك يبيت معنا شاب يكاشف بالجنة والنار، وكانت الجماعة ترى له فضلاً على صغر سنه، وكان في قلبي منه شيء، فاتفق أن استدعانا بعض الإخوان إلى منزله، فنحن نتناول الطعام والشراب معاً إذ صاح صيحة منكرة، واجتمع في نفسه وهو يقول: يا عم هذه أمة في النار ويصيح بصياح عظيم لا يشك من سمعه أنه عن أمر، فلما رأيت ما به من الانزعاج قلت اليوم أجرب صدقه. فآلهمني الله تعالى السبعين ألفاً، ولم يطلع على ذلك إلا الله تعالى، فقلت في نفسى الأثر حق والذين روه لنا صادقون: اللهم إن هذه السبعين ألفاً فداء أم هذا الشاب من النار، فما استتممت هذا الخاطر في نفسى أن قال: يا عم هذه أمة أخرجت من النار، والحمد لله فحصل عندي فائدتان امتحاني لصدق الأثر وسلامتي من الشاب وعلمي بصدقه. ومن خاف إنساناً فليصل ركعتين بعد صلاة المغرب ثم يضع جبهته على التراب ويقول: يا شديد المحال يا عزيز أذلت بعزتك جميع من خلقت. صل على محمد وآله وأكفني فلاناً بما شئت، كفاه الله تعالى شره. وروى الثقفى رحمه الله تعالى بإسناده إلى محمد بن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول لولده: يا بني من أصابته مصيبة في الدنيا أو نزلت به نازلة فليتوضأ وليحسن الوضوء وليصل أربع ركعات أو ركعتين، فإذا انصرف من صلاته يقول: يا موضع كل شكوى، ويا سامع كل نجوى ويا شاهد كل بلوى ويا منجى موسى والمصطفى محمد والخليل إبراهيم عليهم السلام، أدعوك دعاء من اشتدت فاقته، وضعفت حركته وقلت حيلته، دعاء الغريب الغريق الفقير الذي لا يجد لكشف ما هو فيه إلا أنت يا أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، قال علي بن الحسين رضي الله عنهما: لا يدعو به مبتلى إلا فرج الله عنه، وقيل الاسم الأعظم هو بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إني أسألك يا مؤنس كل وحيد، يا قريباً غير بعيد يا شاهداً غير غائب يا غالباً غير مغلوب يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، وأسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم الذي عنت له الوجوه، وخشعت له الأصوات ووجلّت له القلوب أن تصلى على محمد وعلى آله وأن تعطيني كذا وكذا إنك على كل شيء قدير. وهذه أبيات الفرج لأحمد بن حمزة البوني قيل إن فيها اسم الله الأعظم وهذه هي:

إني لأرجو عطفة الله ولا
لابد أن ينشر ما كان طوى
وربما ينشر ما كان زوى
وكل شئ ينتهي إلى مدى
لطائف الله وإن طال المدى
كم فرج بعد إياس قد أتى
من لاذ بالله نجاة فيمن نجا
سبحان من نهفوا ويعفو دائماً
يعطي الذي يخطى ولا يمنع
ومن المنظوم أيضاً:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع
يا من يرجي للشدائد كلها
يا من خزائن رزقه في قول كن
مالي سوى فقري إليك وسيلة
مالي سوى قرعى لبابك حيلة
ومن ذا الذي أدعو وأهتف باسمه
حاشا لجودك أن تقنط عاصياً
ثم الصلاة على النبي وآله
وقال آخر:

يا خالق الخلق يارب العباد ومن
إني دعوتك مضطراً فخذ بيدي
نجيت أيوب من بلواه حين دعا
واطلق سراحى وامن بالخلاص كما

ثم يقرأ: ﴿وَإِذَا النُّونُ إِذْ ذُهِبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾ [الأنبياء: ٨٧]، قال بعضهم:

يارب مازال لطف منك يشملني
فاصرفه عني كما عودتني كرماً
وقال آخر:

يا من تحل بذكركه
يا من إليه المشتكى
يا حي يا قيوم يا

أقول إن قليل متى ذاك متى
جوداً وأن يطر ما كان خوى
وربما قدر ما كان لوى
والشئ يرجي كشفه إذا انتهى
كلمحة الطرف إذا الطرف رمى
وكم سرور قد أتى بعد الأسى
من كل ما يخشى ونال ما رجا
ولم يزل مهما هفا العبد عفا
جلاله من العطا لذي الخطا

أنت المعبد لكل ما يتوقع
يا من إليه المشتكى والمفزع
أمن فإن الخير عندك أجمع
فبالافتقار إليك فقري أدفع
فلئن رددت فلأى باب أقصرع
إن كان فضلك عن فقيرك يمنع
الفضل أجزل والمواهب أوسع
خير الأنام ومن به يتشفع

قد قال في محكم التنزيل ادعوني
يا جاعل الأمر بين الكاف والنون
بصبر أيوب يا ذا اللطف نجيني
نجيت من ظلمات البحر ذا النون

وقد تجدد بى ما أنت تعلمه
فمن سواك لهذا العبد يرحمه

عقد النوائب والشدائد
وإليه أمر الخلق عائد
صمد تنزه عن مضاد

ساد وأنت فى الملكوت واحد
 عك والمذل لكل جاحد
 م جـيـوشـها نحوى تطارد
 يا من له حسن العوائد
 ن به على الزمن المعاند
 ب والمسـهل والمسـاعد
 بـأ يا إلهى لا تباعد
 ت من الأقارب والأباعد
 وآله الغر الأمـاجـد
 ما خـر للرحمن ساجد

أنت الرقيب على العبد
 أنت المعزز لمن أطا
 إنى دعوتك والهـمـو
 فافرج بحولك كـرـبـى
 فحفى لطفك يستعـا
 أنت الميسر والمسـبـب
 يسر لنا فرجاً قـرـيـب
 كن راحمى فلقـد يشـد
 ثم الصلـاة على النبى
 وعلى الصـلـوة كلهم

دعاء عظيم مأثور: اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلنى، إلى بغض يتجهمنى، أو إلى قوى ملكته أمرى، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى، ولكن عافيتك أوسع لى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن يحل بى غضبك، أو ينزل بى سخطك، فلك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك يارب العالمين.

ومما جاء فى أدعية الناس بعضهم لبعض: دعا رجل لآخر فقال: سرك الله بما ساءك ولا ساءك فيما سرك. ودعا رجل لآخر فقال: لا أخلاك الله تعالى من ثناء صادق باق ودعاء صالح واق. ودعا أعرابى لآخر فقال: رحب واديك وعز ناديك، ولا ألم بك ولا طاف بك عدى، وسلمك الله، ولا أسلمك. وسمعت بعض العرب يدعوا لرجل ويقول: سلمك الله تعالى من الرهق والوهق، وعافاك الله تعالى من الوحل والزحل، وسلمك الله من الشاردات والواردات، وسلمك الله بين الأعنة والأسنة. ودعا أعرابى لعبد الله بن جعفر رضى الله عنه فقال: لا ابتلاك الله تعالى ببلاء يعجز عنه صبرك، وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك، وأبقاك ما تعاقب الليل والنهار، وتناسخت الظلم والأنوار، ودعا بعضهم لآخر فقال: زدك الله تعالى الأمن فى مسيرك والسعد فى مصيرك، ولا أخلاك من شهر تستجده وخير من الله تستمده، وعزى شبيب بن شبة يهودياً. فقال: أعطاك الله على مصيبتك ما أعطى أحداً من أهل ملكك.

ومما جاء فى الدعاء على الأعداء والظلمة ونحوهم: دعا أعرابى على ظالم فقال: لا ترك الله لك شفراً ولا ظفراً، أى عيناً ولا يداً. ومن دعاء العرب: «فته الله فتاً وحته حتاً وجعل أمره شتى». وخرج أعرابى إلى سفر وكانت له امرأة تكرهه؛ فاتبعته نواة وقالت: شط نواك ونأى سفرك، ثم أتبعته روثة وقالت: رثك أهلك وورث خيرك، ثم أتبعته حصاة، وقالت: حاص رزقك وحص أثرك. ودعا أعرابى على آخر فقال: أطفأ الله ناره وخلع نعليه، أى جعله أعمى مقعداً. ودعا أعرابى على آخر فقال: سقاء الله دم جوفه أى قتل ابنه، وأخذ ديتة فشرب لبنها. ودعا أعرابى على آخر فقال: يعث الله عليه سنة قاشورة تحلقه كلما يحلق الشعر بالنورة، ودعا رجل على أمير فقال:

فقد ثقلت على عنق الليالى

أزال الله دولته سريعاً

وقالت امرأة من بنى ضبة فى زوجها:

إلا وآخـر يتلوه بآمين
 وليستنى قبله قد صرت للصين

ومما دعوت عليه حين ألبعنه
 فليستـه كان أرض الروم منزله

وقال رسول الله ﷺ في خطبته يوم الأحزاب: «اللهم كل سلاحهم، واضرب وجوههم، ومزقهم في البلاد تمزيق الريح للجراد». ودعا رجل، فقال: اللهم أكفنا أعداءنا، ومن أرادنا بسوء، فلتحط به ذلك السوء إحاطة القلائد بترائب الولايد، ثم أرسخه على هامته كرسوخ السجيل على هام أصحاب الفيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ولنختم هذا الباب بهذا الدعاء المبارك وهو: اللهم إنك عرفتنا بربوبيتك، وغرقتنا في بحار نعمتك، ودعوتنا إلى دار قدسك، ونعمتنا بذكرك وأنسك، إلهي إن ظلمة ظلمنا لنفوسنا قد عمت. وبحار الغفلة على قلوبنا قد طمت، والعجز شامل، والحصر حاصل، والتسليم أسلم، وأنت بالخال أعلم، إلهي ما عصيتك جهلاً بعقابك، ولا تعرضاً لعذابك، ولكن سولتها نفوسنا وأعانتنا شقوتنا، وغرنا سترك علينا، وأطمعنا في عفوك برك بنا، فالآن من عذابك من ينقذنا؟ وبحبل من نعتصم إن قطعت حبلك عنا؟ واخجلتاه غداً من الوقوف بين يديك، وافضيحتاه إن عرضت فعالنا القبيحة عليك، اللهم اغفر ما علمت ولا تهتك ما سترت. إلهي إن كنا عصيناك بجهل فقد دعوناك بعقل، حيث علمنا أن لنا رباً يغفر لنا ولا يبالي، إلهي تحرق بالنار وجهاً كان لك مصلياً، ولساناً كان لك ذاكراً، وداعياً لا بالذي دلنا عليك وأمرنا بالخشوع بين يديك، وهو محمد ﷺ خاتم أنبيائك وسيد أصفيائك، فإن حقه علينا أعظم الحقوق بعد حقك، كما أن منزلته لديك أشرف المنازل، سيد خلقك، ومعدن أسرارك، صل يارب على محمد وآله وأصحابه وارحم عباداً غرهم طول إمهالك، وأطمعهم كثرة أفضالك، فقد ذلوا لعزك وجلالك ومدوا أكفهم لطلب نوالك، ولولا ذلك لم يصلوا إلى ذلك، اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولكل المسلمين أجمعين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى القضاء والقدر وأحكامه والتوكل على الله عز وجل

اعلم أن كل ما يجرى فى العالم، من حركة، وسكون، وخير، وشر، ونفع، وضر، وإيمان، وكفر، وطاعة، ومعصية، فكل بقضاء الله وقدره، وكذلك فلا طائر يطير بجناحيه ولا حيوان يدب على بطنه ورجليه، ولا تطن بعوضة ولا تسقط ورقة إلا بقضائه وقدره وإرادته ومشيتته، كما لا يجرى شئ من ذلك إلا وقد سبق علمه به. واعلم أن كل ما قضاه الله تعالى وقدره، فهو كائن لا محالة كما أن ما فى علم الله تعالى يكون فهو كائن قريب، وما قدر الله وصوله إليك بعد الطلب فهو لا يصل إليك إلا بالطلب، والطلب أيضاً من القدر فإن تعسر شئ فبتقديره، وإن اتفق شئ فبتيسيره، فمن رام أمراً من الأمور ليس الطريق فى تحصيله أنه يغلق بابه عليه ويفوض أمره لربه، ويتنظر حصول ذلك الأمر، بل الطريق أن يشرع فى طلبه على الوجه الذى شرعه له فيه.

وقد ظاهر النبى ﷺ بين درعين واتخذ خندقاً حول المدينة حين تحزبت عليه الأحزاب يحترس به من العدو وأقام الرماة يوم أحد ليحفظوه من خالد بن الوليد، وكان يلبس لأمة الحرب ويهين الجيوش ويأمرهم وينهاهم لما فيه من مصالحهم، واسترقى وأمر بالرقية، وتداوى وأمر بالمداواة، وقال: الذى أنزل الداء أنزل الدواء، فلن قيل: قد روى أن النبى ﷺ قال: من استرقى أو اكتوى فهو برئ من التوكل، قلنا: أليس قد قال: اعقلها وتوكل. فلن قيل: فما الجمع بين ذلك؟ قلنا: معناه من استرقى أو اكتوى متكللاً على الرقية أو الكى، وأن البرء من قبلهما خاصة، فهذا يخرج عن التوكل، وإنما يفعله كافر يضيف الحوادث إلى غير الله. وقد أمرنا بالكسب والتسبب. ألا ترى أن الله قال لمريم عليها السلام: ﴿ وهزى إليك بجذع النخلة ﴾ [مريم: ٢٥] فهلا أمرها بالسكون وحمل الرطب إلى فمها وأنشدوا فى ذلك:

الم تر أن الله قــــــــــــــــال لمريم وهزى إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزها جتــــــــــــــــه ولكن كل شئ له سبب

وقد تقدم هذا الشعر فى باب الكسب والتسبب ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»، فلم يحمل أرزاقها إليها فى أوكارها بل ألهمها طلبه بالغدو والرواح. وقد جمعوا بين الطلب والقدر فقالوا: إنهما كالعدلين على ظهر الدابة، إن حمل فى واحد منهما أرجح مما فى الآخر سقط حمله وتعب ظهره وثقل عليه سفره، وإن عادل بينهما سلم ظهره ونجح سفره وتمت بغيته. وضربوا فيه مثلاً عجيباً، فقالوا: إن أعمى ومقعداً كانا فى قرية بفقر وضر لا قائد للأعمى ولا حامل للمقعّد، وكان فى القرية رجل يطعمهما قوتهما فى كل يوم احتساباً لله تعالى، فلم يزالا بنعمة إلى أن هلك ذلك الرجل فلبثا أياماً واشتد جوعهما وبلغ الضر منهما جهده، فأجمع رأيهما على أن الأعمى يحمل المقعد فيدله المقعد على الطريق ببصره، فاشتغل الأعمى بحمل المقعد ويدور به ويرشده إلى الطريق وأهل القرية يتصدقون عليهما، فنجح أمرهما ولولا ذلك لهلكا. فكذلك القدر سببه الطلب، والطلب سببه القدر وكل واحد منهما معين لصاحبه، ألا ترى أن من طلب الرزق والولد ثم قعد فى بيته لم يطأ زوجته ولم ييذر أرضه معتمداً فى ذلك على الله واثقاً به أن تلد امرأته من غير موقعة، وأن ينبت الزرع من غير بذر، كان عن المعقول خارجاً، ولأمر الله كارهاً.

قال الغزالي: أما المعيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبراً لضعفهم وتسكيناً لقلوبهم وقد ادخر رسول الله ﷺ قوت سنة، ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئاً، وقال: أنفق يا بلال ولا تخش من ذى العرش إقلاقاً. وقال عبد الله بن الفرّج: أطلعت على إبراهيم بن أدهم، وهو فى بستان بالشام فوجدته مستلقياً على قفاه، وإذا بحية فى فمها بساقه نرجس، فمازالت تذب عنه حتى انتبه. فحبك توكل يؤدى إلى هذا. وعن عبد الله الهروى قال: كنا مع الفضيل بن عياض على جبل أبى قبيس فقال: لو أن رجلاً صدق فى توكله على الله ثم قال لهذا الجبل اهتز لاهتز،

فوالله لقد رأيت الجبل اهتز وتحرك، فقال له الفضيل رحمه الله تعالى: لم أعنك رحمك الله فسكن، وفي الإسرائيليات أن رجلاً احتاج إلى أن يقترض ألف دينار، فجاء إلى رجل من المتمولين فسأله في ذلك وقال له: تمهل على بديتك إلى أن أسافر إلى البلد الفلاني فإن لي مالا آتيك به، وأوفيك منه، وتكون مدة الأجل بيني وبينك كذا وكذا، فقال له: هذا غرر، فأنا ما أعطيك مالى إلا أن تجعل لي كفيلاً إن لم تحضر طلبته منه. فقال الرجل: الله كفيلاً بمالك وشاهد على أن لا أغفل عن وفائك، فإن رضيت فافعل، فدخل الرجل خشية الله تعالى، وحمله التوكل على أن دفع المال للرجل فأخذه ومضى إلى البلد الذى ذكر، فلما قرب الأجل الذى بينه وبين صاحبه جهز المال وقصد السفر فى البحر فمسر عليه وجود مركب، ومضت المدة وبعدها أيام وهو لا يجد مركباً، فاغتم لذلك، وأخذ الألف دينار وجعلها فى خشبة وسمر عليها ثم قال: اللهم إني جعلتك كفيلاً بإيصال هذه إلى صاحبها، وقد تعذر على وجود مركب وعزمت على طرحها فى البحر وتوكلت عليك فى إيصالها إليه، ثم نقش على الخشبة رسالة إلى صاحبها بصورة الحال، وطرحها فى البحر بيده وأقام فى البلدة مدة بعد ذلك، إلى أن جاءت مركب فسافر فيها إلى صاحب المال، فابتدأه وقال: أنت سيرت الألف دينار فى خشبة صفتها كيت وكيت وعليها منقوش كذا وكذا؟ قال: نعم، قال: قد أوصلها الله تعالى إلى، والله نعم الكفيل، فقال: فكيف وصلت إليك؟ قال: لما مضى الأجل المقدر بيني وبينك بقيت أتردد إلى البحر لأجدك أو أجد من يخبرني عنك، فوقفت ذات يوم إلى الشط وإذا بالخشبة قد استندت إلى ولم أر لها طالباً، فأخذها الغلام ليضعها حطباً، فلما كسرهما وجد ما فيها، فأخبرني بذلك، فقرأت ما عليها، فعلمت أن الله تعالى أملك لما توكلت عليه حق التوكل، وقيل: إن سبب بداية ذى النون المصرى رحمه الله تعالى أنه رأى طيراً أعمى بعيداً عن الماء والمرعى، فبينما هو يتفكر فى أمر ذلك الطائر، فإذا هو بسكرجتين^(١) برزتا من الأرض إحداهما ذهب والأخرى فضة، هذه فيها ماء والأخرى فيها قمح، فلقط القمح وشرب الماء. ثم غابا بعد ذلك فذهل ذو النون، وانقطع إلى الله تعالى من ذلك الوقت.

وحكى أن رجلاً من أبناء الناس كانت له يد فى صناعة الصياغة، وكان أوجد أهل زمانه، فساء حاله وافتقر بعد غناه، ففكره الإقامة فى بلده، فانتقل إلى بلد آخر، فسأل عن سوق الصاغة، فوجد دكاناً لمعلم السلطنة وتحت يده صناع كثيرة يعملون الأشغال للسلطنة، وله سعادة ظاهرة ما بين ممالك وخدم وقماش وغير ذلك، فتوصل الصانع الغريب إلى أن بقى من أحد الصناع الذين فى دكان هذا المعلم وأقام يعمل عنده مدة، وكلما فرغ النهار دفع له درهمين من فضة، وتكون أجرة عمله تساوى عشرة دراهم، فيكسب عليه ثمانية دراهم فى كل يوم، فاتفق أن الملك طلب المعلم وناولته فردة سوار من ذهب مرصعة بقصوص فى غاية من الحسن قد عملت فى غير بلاده كانت فى إحدى يد محاطيه، فانكسرت، فقال له: الحمها، فأخذها المعلم وقد اضطرب عليه فى عملها، فلما أخذها وأراها للصانع الذين عنده وعند غيره فما قال له أحد إنه يقدر على عملها، فازداد المعلم لذلك غمًا، ومضت مدة وهى عنده لا يعلم ما يصنع، فاشتد الملك على إحضارها، وقال: هذا المعلم نال من جهتنا هذه النعمة العظيمة ولا يحسن أن يلحم سواراً، فلما رأى الصانع الغريب شدة ما نال المعلم قال فى نفسه هذا وقت المروءة اعملها ولا أؤاخذه ببخله على وعدم إنصافه ولعله يحسن إلى بعد ذلك، فحط يده فى درج المعلم وأخذها وفك جواهرها وسبكها ثم صاغها كما كانت، ونظم عليها جواهرها، فعادت أحسن مما كانت، فلما رآها المعلم فرح فرحاً شديداً، ثم مضى بها إلى الملك، فلما رآها استحسناها وادعى المعلم أنها صنعته، فأحسن إليه وخلع عليه خلعة سنية، فجاء وجلس مكانه، فبقى الصانع يرجو مكافأته عما عامله به. فما التفت إليه المعلم، ولما كان النهار ما زاده على الدرهمين شيئاً، فما مضت إلا أيام قلائل وإذا الملك اختار أن يعمل زوجين أساور على تلك الصورة، فطلب المعلم ورسم له بكل ما يحتاج إليه وأكد عليه فى تحسين الصفة وسرعة العمل، فجاء إلى الصانع وأخبره بما قال الملك، فامثل مرسومه ولم يزل منتصباً إلى أن عمل الزوجين، وهو لا يزيده شيئاً على الدرهمين فى كل يوم ولا يشكره ولا يعده بخير ولا يتجمل معه، فرأى المصلحة أن ينقش على زوج الأساور أبياتاً يشرح فيها حاله ليقف عليها الملك، فنقش فى باطن أحدهما هذه الأبيات نقشاً خفيفاً يقول:

(١) سكرجة: بضم السين والكاف والراء والتشديد، وهى: إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم، وهى فارسية.

مـصـائب الدهر كـفى	إن لم تكفى فـمـمـفى
خـرجـت أطلب رزقى	وجـددت رزقى توفى
فـلا برزقى أحظى	ولا بصنعة كـفى
كم جـاهل فى الثـرىا	وعـالم مـتـخـفى

قال: وعزم الصانع على أنه إن ظهرت الآيات للمعلم شرح له ما عنده وإن غم عليه ولم يرها كان ذلك سبب توصله إلى الملك، ثم لفهما فى قطن وناولهما للمعلم فرأى ظاهرهما ولم ير باطنهما لجهله بالصنعة، ولما سبق له فى القضاء، فأخذها المعلم ومضى بهما فرحاً إلى الملك، وقدمهما إليه، فلم يشك الملك فى أنهما صنعة، فخلع عليه وشكره، ثم جاء فجلس مكانه ولم يلتفت إلى الصانع، وما زاده فى آخر النهار شيئاً على الدرهمين، فلما كان اليوم الثانى خلا خاطر الملك فاستحضر الحظية التى عمل لها السوارين الذهب فحضرت وهما فى يديها، فأخذهما ليعيد نظره فيهما وفى حسن صنعتهما، فقرأ الآيات، فتعجب وقال: هذا شرح حال صانعهما والمعلم يكذب، فغضب عند ذلك، وأمر بإحضار المعلم، فلما حضر قال له: من عمل هذين السوارين؟ قال: أنا أيها الملك، قال: فما سبب نقش هذه الآيات؟ قال: لم يكن عليهما آيات. قال: كذبت. ثم أراه النقش. وقال: إن لم تصدقنى الحق لأضربن عنقك، فأصدقته الحق. فأمر الملك بإحضار الصانع، فلما حضر سألته عن حاله، فحكى له قصته، وما جرى له مع المعلم، فرسم الملك بعزل المعلم وأن تسلب نعمته وتعطى للصانع، وأن يكون عوضاً عنه فى الخدمة ثم خلع عليه خلعة سنية، وصار مقدماً سعيداً، فلما نال هذه الدرجة. وتمكن عند الملك تلتف به حتى رضى عن المعلم الأول وصارا شريكين ومكثا على ذلك إلى آخر العمر. ورحم الله من قال:

إذا كان سعد المرء فى الدهر مقبلاً
تدانت له الأشياء من كل جانب
وقال آخر:

مـا سلم الله هو السـالم	ليس كـمـمـا يزعم الزاعم
تجـرى المقـادير التى قـدـرت	وأنف من لا يرـنـضى راغم
وقال كعب بن زهير:	
لو كنت أعجب من شئ لأعجبني	سعى الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لأمور ليس يدركها	والنفس واحدة والهـم متـشـر
والمرء مـا عـاش مـدود له أمل	لا ينتهى ذاك حتى يتهى العمر

وروى فى الإسرائيليات أن نبياً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مر بفخ منصوب وإذا بطائر قريب منه. فقال له الطائر: يا نبي الله: هل رأيت أقل عقلاً ممن نصب هذا الفخ ليصيدنى به وأنا أنظر إليه؟ قال: فذهب عنه ذلك النـبى عليه السلام ثم رجع وإذا بالطائر فى الفخ، فقال له: عجباً لك ألسـت القائل كذا وكذا آنفاً؟ فقال: يا نبي الله إذا جاء الحين لم يبق أذن ولا عين. ويروى أن رجلاً قال لبزرجمهر تعال نتناظر فى القدر. قال: وما تصنع بالمناظرة؟ قال: رأيت شيئاً ظاهراً استدلت به على الباطن، رأيت جاهلاً مبروراً وعالمًا محروماً، فعلمت أن التدبير ليس للعباد. ولما قدم موسى بن نصير بعد فتح الأندلس على سليمان بن عبد الملك قال له يزيد بن المهلب: أنت أدهى الناس وأعلمهم، فكيف طرحت نفسك فى يد سليمان؟ فقال: إن الهدهد ينظر إلى الماء فى الأرض على ألف قامة، ويبصر القريب منه والبعيد على بعد فى التخوم، ثم ينصب له الصبى الفخ بالدودة أو الحبة فلا يبصره حتى يقع فيه وأنشدوا فى ذلك:

وإذا خشيت من الأمور مقدرًا
وفررت منه فنحوه تتوجه

وقال آخر:

أقام على المسير وقد أنيخت	مطاياه وغرد حاديها
وقال أخاف عادية الليالي	على نفسي وأن ألقى رداها
مشيناها خطأ كتبت علينا	ومن كتبت عليه خطأ مشاها
ومن كانت منيته بأرض	فليس يموت في أرض سواها

ولما قتل كسرى بزرجمهر وجد في منطقته كتاب فيه: إذا كان القضاء حقاً فالحرص باطل. وإذا كان الغدر في الناس طباعاً فالثقة بكل أحد عجز. وإذا كان الموت بكل أحد نازلاً فالطمأنينة إلى الدنيا حمق. وقال ابن عباس وجعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]. إنما كان الكنز لوحاً من ذهب مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم عجبت لمن يوقن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يوقن بالرزق كيف ينصب، وعجبت لمن يوقن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يوقن بالحساب كيف يغفل، وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

وحكى الطرطوشي رحمه الله تعالى في كتابه «سراج الملوك» قال: من عجب ما اتفق بالإسكندرية أن رجلاً من خدم نائب الإسكندرية غاب عن خدمته أياماً، ففى بعض الأيام قبض عليه صاحب الشرطة وحمله إلى دار النائب فانفلت في بعض الطرق وترامى في بئر والمدينة إذ ذاك مسرده بسرداب يمشى الماشى فيه قائماً، فما زال الرجل يمشى إلى أن لاحت له بئر مضيئة، فطلع منها فإذا البئر في دار النائب، فلما طلع أمسكه النائب وأدبه، فكان فيه المثل السائر: الفار من القضاء الغالب كالمقلب في يد الطالب. وأنشدوا فيه:

قالوا تقيم وقد أحاط	بك العـدو ولا تفر
لا نلت خيراً أن بقم	ت ولا عدانى الدهر شر
إن كنت أعلم أن	غير الله ينفع أو يضر

فى التوبة والاستغفار

قد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة. وأمر الله تعالى بالتوبة فقال: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١]. ووعد بالقبول فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [الشورى: ٢٥]. وفتح باب الرجاء فقال: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

وروى فى الصحيح عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أيها الناس توبوا إلى الله تعالى فإنى أتوب إلى الله تعالى فى اليوم مائة مرة».

وروى أحمد بن عبد الرحمن السلماني قال: اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ فقال أحدهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى يقبل التوبة من عبده قبل أن يموت بيوم، فقال الثانى: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. وأنا سمعته يقول: إن الله تعالى يقبل توبته قبل أن يموت بنصف يوم، فقال الثالث: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. وأنا سمعته يقول إن الله تعالى يقبل توبة العبد قبل موته بضحية، أو قال بضجعة، فقال الرابع: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. وأنا سمعته يقول: إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر».

وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «الله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل بأرض دوية مهلكة معه راحلته، فنام واستيقظ وقد ذهبت راحلته، فطلبها حتى إذا أدركه الموت قال: أرجع إلى المكان الذى ضللتها فيه وأموت، فأتى مكانه فغلبته عينه فاستيقظ وإذا راحلته عند رأسه فيها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه. فالله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من هذابراحتة وزاده». وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة» (رواه البخارى) وعن أبى موسى عبد الله بن قيس الأشعرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إن الله تعالى يسطر يده بالليل ليتوب مسئى النهار، ويسطر يده بالنهار ليتوب مسئى الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها» (رواه مسلم) وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن نبى الله ﷺ قال: «كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعبد أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل له من توبة؟ قال: لا، فقتله وكمل به المائة. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فأتاه وقال له: إنه قد قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ قال: نعم. ومن يحل بينك وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى فاعبد الله تعالى معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق حتى كان نصف الطريق أدركه الموت فاختمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيّرًا قط. فأتاهم ملك فى صورة آدمى فحكموه بينهم فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو أقرب لها، فقياسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد، فقبضته ملائكة الرحمة (متفق عليه وفى الصحيحين) فكان أدنى إلى أرض التوبة الصالحة بشير فجعل من أهلها.

وعن أبى نجيد بضم النون وفتح الجيم عمران بن الحصين الخزاعى رضى الله عنه، أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهى حبلى من الزنا فقالت: يا رسول الله أصبت حدًا فأقمه على فدعا نبى الله ﷺ فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها فقال عمر: يا رسول الله تصلى عليها وقد زنت؟ قال: لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت أفضل ممن جادت بنفسها لله عز وجل (رواه مسلم).

وعن أبى بصرة قال: لقيت مولى لأبى بكر رضى الله عنه فقلت له: سمعت من أبى بكر شيئًا، قال: نعم، سمعته

يقول: قال رسول الله ﷺ : «ما أصر من استغفر ولو عاد إلى الذنب في اليوم سبعين مرة».

وحكى.. أن نيهان التمار وكنيته أبو مقبل أنه امرأة حسناء تشتري تمرًا، فقال لها: هذا التمر ليس بجيد وفي البيت أجود منه، فذهب بها إلى بيته وضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم على ذلك، فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ [آل عمران: ١٣٥] إلى آخر الآية. وعن أسماء بن الحكم الفزاري قال: سمعت عليًا يقول: إني كنت رجلاً إذا سمعت من رسول الله حديثًا ينفعني الله منه بما شاء أن ينفعني، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلقتة فإذا حلف لي صدقته، وإنه حدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله يقول: ما من عبد يذنب ذنبًا فيحسن الطهور ويصلي ثم يستغفر الله إلا غفر له.

وروى في الصحيح أيضًا عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أذنب العبد ذنبًا فقال يارب أذنبت ذنبًا فاغفره لي، قال الله عز وجل: علم عبدي أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به، فغفر له. ثم إذا مكث ما شاء الله وأصاب ذنبًا آخر، فقال: يارب أذنبت ذنبًا فاغفر لي، قال ربه: علم عبدي أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء». وكان قتادة رضي الله تعالى عنه يقول: القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، أما دواؤكم فالاستغفار، وأما دواؤكم فالذنوب، وكان على رضي الله تعالى عنه يقول: العجب لمن هلك ومعه كلمة النجاة، قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار. وقال رسول الله ﷺ: «من قال عشرًا حين يصبح وحين يمسي: استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه وأسأله التوبة والمغفرة من جميع الذنوب، غفرت ذنوبه ولو كانت مثل رمل عالج. ومن قال سبحانك ظلمت نفسي وعملت سوءًا فاغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، غفرت ذنوبه ولو كانت مثل ديب النمل».

وقال أبو عبد الله الوراق: لو كان عليك من الذنوب مثل عدد القطر وزيد البحر محيت عنك إذا استغفرت بهذا الاستغفار، وهو هذا: اللهم إني أسألك واستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه، واستغفرك من كل ما وعدتك من نفسي ثم لم أوف لك به، واستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك، واستغفرك من كل نعمة أنعمت بها علي فاستعنت بها على معصيتك، يقول الله عز وجل ملائكتك: ويح ابن آدم يذنب الذنب ثم يستغفرني فأغفر له، ثم يذنب الذنب فيستغفرني فأغفر له لا هو يترك الذنب من مخافتى ولا يئأس من مغفرتى، أشهدكم يا ملائكتي أني قد غفرت له.

وقال بشر الحافي: بلغني أن العبد إذا عمل الخطيئة أوحى الله تعالى إلى الملائكة الموكلين ترفقوا عليه سبع ساعات، فإن استغفرني فلا تكتبوها وإن لم يستغفرني فاكتبوها.

نكتة.. قيل: انقطع الغيث عن بني إسرائيل في زمن موسى عليه الصلاة والسلام حتى احترق النبات وهلك الحيوان، فخرج موسى عليه الصلاة والسلام في بني إسرائيل وكانوا سبعين رجلاً من نسل الأنبياء مستغيثين إلى الله تعالى، قد بسطوا أيدي صدقهم وخضوعهم وقربوا قربان تذللهم وخشوعهم ودموعهم تجري على خدودهم ثلاثة أيام، فلم يمطر لهم، فقال موسى اللهم أنت القائل: ادعوني استجب لكم وقد دعوتك وعبادك على ما ترى من الفاقة والحاجة والذل، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى إن فيهم من غذاؤه حرام وفيهم من يبسط لسانه بالغيبة والنميمة وهؤلاء استحقوا أن أنزل عليهم غضبي، وأنت تطلب لهم الرحمة كيف يجمع موضع الرحمة وموضع العذاب؟ فقال موسى: ومن هم يارب حتى نخرجهم من بيتنا؟ فقال الله تعالى: يا موسى لست بهتاك ولا غام. ولكن يا موسى توبوا كلكم بقلوب خالصة فعساهم يتوبوا معكم فأجود بإنعامي عليكم، فنادى منادى موسى في بني إسرائيل أن اجتمعوا فأعلمهم موسى عليه الصلاة والسلام بما أوحى إليه والعصاة يسمعون، فذرفت أعينهم ورفعوا مع بني إسرائيل أيديهم إلى الله عز وجل وقالوا: إلهنا جثناك من أوزارنا هاربين، ورجعنا إلى بابك طالين فارحمنا يا أرحم الراحمين، فما زالوا كذلك حتى سقوا بتوبتهم إلى الله تعالى، اللهم تب علينا وعلى سائر العصاة والمذنبين يارب العالمين. أوحى الله إلى داود عليه

الصلاة والسلام: يا داود لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظاري لهم ورفقى بهم وشوقى إلى ترك معاصيهم، لماتوا شوقاً إلىّ وتقطعت أوصالهم من محبتى، يا داود هذه إرادتى فى المدبرين عنى فكيف إرادتى بالمقبلين علىّ، ولقد أحسن من قال:

أسىء فيجزي بالإساءة إفضالاً	وأعصى فيؤلىنى برأ وإمهالاً
فحتى متى أجفوه وهو يبرنى	وأبعد عنه وهو يبدل إيصالاً
وكم مرة قد زغت عن نهج طاعة	ولا حال عن ستر القبيح ولا زالا

وهذا آخر ما يسره الله تعالى فى هذا الباب والله أعلم بالصواب.

فيما جاء في ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء وما جاء في السنة من العيادة وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: في الأمراض والعلل وما جاء في ذلك من الأجر والثواب

روى عن عبد الله بن أنيس رضى الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أيكم يحب أن يصح جسمه فلا يسقم؟ فقالوا: كلنا يا رسول الله، قال: أتحبون أن تكونوا كالحمير الصوالة، ألا تحبون أن تكونوا أصحاب بلايا وأصحاب كفارات والذي بعثنى بالحق نبياً إن الرجل لتكون له الدرجة في الجنة فلا يبلغها بشيء من عمله فيبتليه الله تعالى ليبلغ درجة لا يبلغها بعمله، وقال ﷺ: ما من مسلم يمرض إلا حط الله من خطاياه كما تحط الشجرة ورقها، وكان يقول: لاتزال الأوصاب والمصائب بالعبد حتى تتركه كالفضة البيضاء النقية المصفاة».

وقيل: إن الناس قد حُمّوا في فتح خير، فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس إن الحمى رائد الموت وسجن الله في الأرض وقطعة من النار، فإذا وجدتم ذلك فبردوا لها الماء في الشنان، ثم صبوا عليكم بين المغرب والعشاء، ففعلوا ذلك فزالت عنهم.

وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال: دخل رسول الله ﷺ على شاب وهو في الموت فقال له: كيف تجدك؟ فقال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال عليه الصلاة والسلام: «هما لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف».

وعن عفيرة بنت الوليد البصيرة العابدة الزاهدة رحمها الله تعالى، أنها سمعت رجلاً يقول: ما أشد العمى على من كان بصيراً، فقالت له: يا عبد الله عمى القلب عن الله أشد من عمى العين عن الدنيا. والله لوددت أن الله وهب لى كنه معرفته ولم يبق منى جارحة إلا أخذها.

وكتب مبارك لأخيه سفيان الثوري يشكو إليه ذهاب بصره، فكتب إليه: أما بعد... فقد فهمت كتابك فيه شكاية ربك، فاذاكر الموت يهن عليك ذهاب بصرك والسلام.

وقيل لعطاء في مرضه: ما تشتهي؟ قال: ما ترك خوف جهنم في قلبي موضعاً للشهوة. وأصاب ابن أدهم بطن فتوضاً في ليلة سبعين مرة. وقيل لأعرابي في مرضه: ما تشتهي؟ قال: الجنة، فقيل: أفلا ندعوك لك طيباً؟ قال: طيبى هو الذى أمرضنى.

الفصل الثانى من هذا الباب: في ذكر العلل كالبحر والمرض والعمى والصمم

والرمد والفالج وغير ذلك نسأل الله العفو والعافية والمعافة الدائمة في الدنيا والآخرة

قيل: تسارر أبخر وأصم، فقال له الأصم: قد فهمت ثم فارقه. فسأله رجل فقال: والله لا أدري غير أنه فسا في أذنى. وقيل: إن عبد الملك بن مروان كان أبخر فعرض يوماً على تفاحة ورمى بها إلى زوجته، فدعت بسكين فقال: ما تصنعين بها؟ قالت: أميط الأذى عنها. فشق عليه ذلك منها فطلقها. وسارر أبو الأسود الدؤلى سليمان بن عبد الملك وكان أبو الأسود أبخر، فستر سليمان أنفه بكمه فعبر أبو الأسود وهو يقول: لا يصلح للخلافة من لا يقدر على مناجاة الشيوخ البخر. وقيل: أطول انطباق الفم يورث البخر وكل رطب الفم سائل اللعاب سالم منه. وقيل: إن الزنج أطيب الناس أفواهاً، والسباع موصوفة بالبخر، والمثل مضروب بالأسد والصقر في البخر والكلب من بينهما طيب الفم، وليس في البهائم أطيب أفواها من الطباء.

وحكى... أن أبخر تزوج بامرأة. فلما ضاجعها عافته وتولت عنه بوجهها. ثم أنشدت تقول:

يا حبُّ والرحمن إنَّ فـاكا	أهلكنى فـولنى قـفاكا
إذا غـدوت فـاتخذ مسـواكا	من عـرفط إن لم تجـد أراكا
لا تقـربنى بالذى سـواكا	إنى أراك مـاضغاً خـراكا

فى ديوان المنشور: كم من ذى عرج فى درج المعالى عرج، وكم من صحيح قدم ليس له فى الخير قدم. وقيل: إن من الصم من يسمع السر، فإذا رفعت إليه الصوت لم يسمعه. ورأيت من العمش من لا ينظر صورة الإنسان من قريب، ولكن يقرأ الخط الرقيق الحواشى. وقيل: إن طريقاً الشاعر مدح عمرو بن هدا، وكان أبرص فلما انتهى إلى قوله: أبرص فياض اليدين مهذب. صاح به الناس وقالوا قطع الله لسانك، فقال عمرو مه إن البرص مما تتفاخر به العرب أما سمعتم قول سهل حيث قال:

أشـتمنى زيدُ بأن كنت أبرصاً	وكلُّ كـريم لا أبالك أبرصُ
-----------------------------	----------------------------

قال:

كفى حزنًا أنى أعاشر معشراً يخـ	موضون بعض الحديث وأمسك
وماذا لك من عي ولا من جهالة	ولكنه ما فى للصوت مسلك
فإن سد منى السمع فالله قادرٌ	على فتحه والله للعبد أملك

ومما جاء فى العمى: ما روى عن النبى ﷺ أنه قال: من عدم إحدى كريمتيه ضمنت له على الله الجنة. وكان أبو عبد الرحمن بن الحرث بن هشام يطعم الطعام، وكان أعور، فجعل أعرابى يطيل النظر إليه حاسباً نفسه عن طعامه، فكلمه المغيرة فى ذلك فقال: والله إنى ليعجبنى طعامك وتريبنى عينك، قال: فما يريك من عيني؟ قال: أعور وأراك تطعم الطعام وهذه صفة الدجال. فقيل له: إن عينه أصيبت فى فتح الروم فقال: إن الدجال لا تصاب عينه فى سبيل الله. وعن أنس رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ أنه قال: من قاد أعمى أربعين خطوة لم تمسه النار. وقال على كرم الله وجهه: ربما أخطأ البصير قصده وأصاب الأعمى رشده، وقال أبو على البصير:

لئن كان يهدينى الغلام لوجهتى	ويقتادنى فى السـير إذ أنا راكب
لقد يستضى القوم بي فى وجوههم	ويخبو ضياء العين والقلب ثاقب

وقال:

إذا عـدمت طـلابة العلم ما لها	من العلم إلا ما تسطر فى الكتب
غـدوت بتشـمير وجدّ عليهم	ومحـبرتى سمعى وها دفترى قلبى

وقال:

إن يأخذ الله من عيني نورهما	ففى لسانى وسمعى منهما نور
فهمى ذكى وقلبي غير ذى غفل	وفى فمى صارم كالسيف مشهور

وقال:

عـزاءك أيها العين السكوب	وحـققك أنهـا نوبٌ تنوب
وكنـت كـريمـتى وسـراج وجـهى	وكـانت لى بك الدنيـا طـيب

على الدنيا السلام فما لشيخ
يموت المرء وهو يعدّ حياً
إذا مات بعضك فابك بعضاً
ضري العين في الدنيا نصيب
ويخلف ظنه الأمل الكذوب
فإن البعض من بعض قريب

وحكى... أن ربيعة رمدت عينه فأرسل إلى امرأة كان يحبها ثم أنشد يقول:

عينا ربيعة رمدوا إن فاحتسبي
بنظرة منك تشفيه من الرمد
إن تكتحل بك عينا فلا رمد
على ربيعة يخشى آخر الأمد

وعن عبد الرحمن بن قيس عن النبي ﷺ أنه قال: داء الأنبياء الفالج واللقوة. قال الجاحظ: ومن المفاليج سيدنا إدريس عليه الصلاة والسلام، وأكثر ما يعتري المتوسطين من الناس لأن الشباب كثير الحرارة والشيخ كثير اليبس. وقيل: إن أبان بن عثمان كان أفلج حتى صار مثلاً، فكانت الناس تقول لا رماك الله بفالج ابن عثمان، وكان معاوية ألوق، وعبد الملك بن مروان أبخر، وحسان أعمى، وابن سيرين أصم، ومن فلج ابن أبي داود قاضى قضاة المعتصم كان من الشرف والكرم بمنزلة عظيمة قد ضرب المثل بفالجه، قال الشاعر في رجل ضرب غلامه:

أضرب مثله بالسوط عثراً
ضربت بفالج ابن أبي داود

وشجة عبد الحميد كانت مثلاً في الحسن، وهو عبد الحميد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهم، وكان بارعاً في الحسن والجمال فزادته حسناً إلى حسنه حتى أن النساء كن يخططن في وجوههن شجة عبد الحميد، وكان يقال لعمر بن عبد العزيز أشج بنى أمية، وكان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يقول: إن من ولدى رجلاً بوجهه أثر في جبهته، قال أصبغ: الله أكبر هذا أشج بنى أمية يملأ الأرض عدلاً. وقال أعور لأبي الأسود: ما الشيء ونصف الشيء ولا شيء فقال: أما الشيء فالبصير كأننا، وأما لا شيء فالأعمى، وأما نصف الشيء فأنت يا أعور. اللهم اكفنا شر العاهات برحمتك ومنك وكرمك آمين.

الفصل الثالث من هذا الباب: في التداوى من الأمراض والطب

قال رسول الله ﷺ تداؤوا فإن الذى أنزل الداء أنزل الدواء. وقال ﷺ: ما أنزل الله داء إلا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله. وسئل رسول الله ﷺ عن الدواء والرقى هل يردان شيئاً من قضاء الله تعالى؟ قال: هما من قدر الله تعالى. وقال عبد الله بن عكرمة: عجيب لمن يحتمى من الطعام خوف الداء، ولا يحتمى من الذنوب خوف النار. وقيل: إن الربيع بن خيثم لما مرض قالوا له: ألا تدعوا لك طبيباً، فقال لهم: إن مرضى من الطبيب وأنه متى أراد عافانى، ولا حاجة لى بطبيكم، وأنشد:

فأصبحت لا أدعو طبيباً لطبه
ولكننى أدعوك يا منزل القطر
وعاد الفرزدق مريضاً فقال:

يا طالب الطب من داء تخوفه
فهو الطبيب الذى يرجى لعافية
إن الطبيب الذى أهلك بالداء
لا من يذيب لك الترياق بالماء

قال: ولما مرض بشر الخافى^(١) رحمه الله تعالى قالوا: أندعوا لك طبيباً؟ فقال: إني بعين الطبيب يفعل بى ما يريد،

(١) بشر بن الحارث: هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء، يكنى أبا نصر، المعروف بالخافى مروزي. سكن بغداد، كان ممن فاق أهل عصره بالورع والزهد وتفرد بوفور العقل، وأنواع الفضل، وحسن الطريقة، واستقامة المذهب، وعزوف النفس، كان كثير الحديث، إلا أنه لم ينصب نفسه للراوية، وكان يكرهها ودفن كنه لاجل ذلك، توفي ببغداد سنة (٢٢٧هـ).

فألح عليه أهله وقالوا: لا بد أن ندفع مءاك إلى الطبيب، فقال لأخته: ادفعي إليهم الماء في قارورة وكان بالقرب منهم رجل ذمي وكان حاذقاً في الطب، فأتوه بمائه في القارورة فلما رآه قال: حركوه فحركوه ثم قال: ضعوه ثم قال: ارفعوه. فقالوا له: ما بهذا وصفت لنا، قال: وبم وصفت لكم؟ قالوا بالحذق والمعرفة، قال: هو كما تقولون غير أن هذا الماء إن كان ماء نصراني فهو راهب. قد فتنت كبده العبادة، وإن كان مسلماً فهو ماء بشر الخافى فإنه أوحده أهل زمانه في السلوك مع الله تعالى، قالوا: هو ماء بشر الخافى، فأسلم النصراني وقطع زناره فلما رجعوا إلى بشر قال لهم: أسلم الطبيب، فقالوا: ومن أعلمك؟ قال: لما خرجتم من عندي هتف لي هاتف وقال: يا بشر ببركة مائك أسلم الطبيب وصار من أهل الجنة. وفلج الربيع بن خيثم فقيل له: هلا تداويت؟ فقال: قد عرفت أن الدواء حق، ولكن عاد وتمادى وقرون بين ذلك كثيراً، كانت فيهم الأوجاع كثيرة والأطباء أكثر فلم يبق المداوى ولا المداوى وقد أبادهم الموت. ثم قال هذا المفرد:

هَلِكُ الْمَدَاوِي وَالْمَدَاوِي وَالَّذِي جَلَبَ الدَّوَاءَ وَبَاعَهُ وَالْمَشْتَرِي

وقيل لجالينوس حين نهكته العلة: أما تتعالج؟ فقال: إذا كان الداء من السماء بطل الدواء من الأرض، وإذا نزل قضاء الرب بطل حذر المربوب. ومر قوم بماء من مياه العرب فوصف لهم ثلاث بنات مطيبات وهن من أجمل الناس، فاحبوا أن يروهن فحكوا ساق أحدهم حتى آدموها ثم قصدوهن فقالوا: هذا جريح مريض فهل من طبيب؟ فخرجت صفراهن وهي كأنها الشمس الطالعة فلما رأت جرحه قالت: ليس هو بمريض بل خدشه عود بالت عليه حية فإذا طلعت الشمس مات، فكان الأمر كما قالت. وقيل دواء كل مريض بعقاقير أرضه فإن الطبيعة تتطلع لهوائها. وقالوا: من قدم إلى أرض غير أرضه وأخذ من ترابها وجعله في مائها وشربه، لم يمرض فيها وعوفي من وبائها، واحتسب أمد بن المعدل لعله أصابته فبرئ. فقال: الحمية طالع الصحة لأهل الدنيا تبرئهم من المرض، ولأهل الآخرة تبرئهم من النار. وقيل: إن الأبدان المعتادة بالحمية آفتها التخليط، والمعتادة بالتخليط آفتها الحمية، لأن الحكماء تقول عودوا كل جسد بما اعتاد. وكان كسرى أنو شروان يمسك عما تميل إليه شهوته ولا ينهمك عليه، ويقول: تركنا ما نحبه لنستغنى عن العلاج بما نكرهه. وقال لقمان: لاتطيلوا الجلوس على الخلاء فإنه يورث الباسور. وكانت هذه الحكمة مكتوبة على أبواب الخشوش أي الكتف. وقيل: كفى بالمرء عاراً أن يكون صريع مأكوله وقيل أنامله.

فَكُم أَكَلَةُ أَكَلَتْ نَفْسَ حُرٍّ وَكُم أَكَلَةُ جَلَبَتْ كُلَّ ضَرَرٍ

وقيل: من غرس الطعام أثمره الأسقام. وعن بعض أهل البيت النبوي عليهم السلام، أنه كان إذا أصابته علة جمع بين ماء زمزم والعسل واستوهب من مهر أهله شيئاً، وكان يقول قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ [ق: ٩]. وقال تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]. وقال عليه الصلاة والسلام: ماء زمزم لما شرب له. وقال تعالى: ﴿فَإِنْ طَرَفَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤]. من جمع بين ما بورك فيه، وبين ما فيه شفاء، وبين الهنيئ المرئ، يوشك أن يلقي العافية، وقيل خمسة من المهلكات: دخول الحمام على الشبع، والمجامعة على الشبع، وأكل القديد، وشرب الماء البارد على الريق، ومجامعة المرأة العجوز. وقال: لا تنكح العجوز ولا تخرج الدم وأنت مستغن عن إخراجه. وقال الإمام علي رضي الله عنه:

تَوَقَّ مَسْدَى الْأَيَّامِ إِدْخَالَ مَطْعَمٍ
وَكُلَّ طَعَامٍ يَعْجِزُ السَّنَ مَضْغَةً
وَوَفَّرَ عَلَى الْجِسْمِ الدَّمَاءَ فَإِنَّهَا
وَأَيَّاكَ أَنْ تَنَكَّحَ طَوَاعِنَ سَنِهِمْ
وَفِي كُلِّ أَسْبُوعٍ عَلَيْكَ بَقِيَّةٌ
عَلَى مَطْعَمٍ مِنْ قَبْلِ مَضْمِ الْمَطَاعِمِ
فَلَا تَقْرِيْنَهُ فَيَكُونُ شَرَّ لَطَاعِمِ
لِقُوَّةِ جِسْمِ الْمَرْءِ خَيْرُ الدَّعَائِمِ
فَإِنَّ لَهَا سَمًّا كَسَمِ الْأَرَاقِمِ
تَكُنْ آمِنًا مِنْ شَرِّ كُلِّ الْبَلَاغِمِ

ومما يورث الهزال، النوم على غير وطاء وكثرة الكلام برفع الصوت. وقال النظام رحمه الله تعالى: ثلاثة تخرب العقل: طول النظر في المرأة وكثرة الضحك والنظر إلى النجوم. وفي الحديث احتجم رسول الله ﷺ في أم مغيث وهي وسط الرأس، وكان ﷺ يحتجم في الأخدعين، ونهى عن الحجامة في نقرة القفا فإنها تورث النسيان، وأمر بالاستنجاء بالماء البارد فإنه أمان من الباسور. وخطب المأمون بمسجد مروان فوجد غالب أهل المسجد يشكون السعال، فقال في آخر خطبته: من كان يشكو سعالاً فليتناو بالخل، ففعلوا فعافاهم الله. وقال بعض الحكماء: إياك أن تطيل النظر في عين أرمد، وإياك أن تسجد على حصير جديدة قبل أن تمسها بيدك، فرب شظية حقيرة قلعت عيناً خطيرة. وقيل: كانت الأدوية تنبت في محراب سليمان عليه الصلاة والسلام ويقول كل دواء: يا نبي الله أنا دواء لكذا وكذا. وقال جالينوس: البطنة تقتل الرجال وتورث الفالج، والإسهال الذريع، والإقعاد، وصنفًا من الجذام يقال له: الفهدلا يسمع صاحبه ولا يبصر، نسأل الله العفو والعافية. وقيل: البطنة تورث الصداع، والكمنة في العينين، والضربان في الأذنين، والقولنج في البطن، فعليك أيها الإنسان بالطريقة الوسطى واتق الليل وطعامه جهدك. وقال جالينوس: الغم المفرط يميت القلب ويجمد الدم في العروق فيهلك صاحبه، والسرور المفرط يلهب حرارة الدم حتى يغلب الحرارة الغريزية فيهلك صاحبه. وقيل: إنه وضع على مائدة المأمون في يوم عيد أكثر من ثلاثين لونًا فكان يصف وهو على المائدة منفعة كل لون ومضرته. فقال يحيى بن أكثم: يا أمير المؤمنين إن خضنا في الطب فأنت جالينوس في معرفته، أو في النجوم فأنت هرمس في صناعته. أو في الفقه فأنت على بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه في علمه، أو في السخاء فأنت حاتم في كرمه، أو في الحديث فأنت أبو ذر في صدق لهجته، أو في الوفاء فأنت السموأل بن عاديء في وفائه، فسر بكلامه وقال: يا أبا محمد إنما فضل الإنسان على غيره بالعقل، ولولا ذاك لكانت الناس والبهائم سواء. وقال طبيب الهند: إن منفعة الحقنة للجسد كمنفعة الماء للشجر. وقال سفيان بن عيينة: أجمع أطباء فارس على أن الداء إدخال الطعام على الطعام، وقالوا: إدخال اللحم على اللحم يقتل السباع في البر. وقيل: الشراب في آنية الرصاص أمان من القولنج. وعرض رجل على طبيب قارورته فقال له: ما هي قارورتك لأنه ماء ميت وأنت حي تكلمني، فما فرع من كلامه حتى خر الرجل ميتًا. وقيل: إن ملكًا من الملوك حصل عنده صداع في رأسه فأحضر الطبيب فأمره أن يضع قدميه في الماء الحار وكان عنده خصى فقال: أين القدمان من الرأس؟ فقال له الطبيب: وأين وجهك من خصيتك؟ نزعنا فذهبت لحيتك. وقيل: إن المأمون حصل له صداع بطرسوس، فأحضر طبيبًا كان عنده فلم ينفعه علاجه. فبلغ قيصر فأرسل إليه قلنسوة وكتب له: بلغني صداعك فضعها على رأسك يزل ما بك، فخاف أن تكون مسمومة فوضعها على رأس القاصد فلم يصبه شيء، ثم إنه أحضر رجلاً به صداع فوضعها على رأسه فزال ما به فتعجب المأمون ثم أنه فتحها فوجد فيها رقعة مكتوبًا فيها: بسم الله الرحمن الرحيم كم من نعمة لله تعالى في عرق ساكن وغير ساكن حم عسقي لا يصدعون عنها ولا يتزفون من كلام الرحمن خمدت النيران ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وقال على رضى الله تعالى عنه: ادهنوا بالبنفسج فإنه حار في الشتاء بارد في الصيف. وقال أيضاً رضى الله عنه: عليكم بالزيت فإنه يذهب البلغم ويشد العصب ويحسن الخلق ويطيب النفس ويذهب الغم. وعنه رضى الله عنه: إن لم يكن في شيء شفاء ففي شرطة حاجم أو شربة من عسل. وقال الحجاج لطيبه: أخبرنا بجوامع الطب. فقال: لا تنكح إلا فتاتًا ولا تأكل من اللحم إلا فتية، وإذا تغذيت فتم وإذا تعشيت فامش ولو على الشوك، ولا تدخلن بطنك طعامًا حتى يستمرئ ما فيه ولا تأو إلى فراشك حتى تدخل الخلاء، وكل الفاكهة في إقبالها وذرها في إدبارها.

وأوصى حكيم خليفته وصية ووعد أنه إذا لازمها لا يمرض إلا مرض الموت. فقال: إياك أن تدخل طعامًا على طعام ولا تمش حتى تعيا، ولا تجامع عجوزًا، ولا تدخل حمامًا على شبع، وإذا جامعته فكن على حال وسط من الغذاء، وعليك في كل أسبوع بقيئة، ولا تأكل الفاكهة إلا في أوان نضجها ولا تأكل القديد من اللحم، وإذا تغذيت فتم وإذا تعشيت فامش أربعين خطوة، ونم على يسارك لتقطع الكبد على المعدة فينهضم ما فيها، وتستريح الكبد من حرارة المعدة. ولا تنم على يمينك فيسطن الهضم ولا تأكل بشهوة عينيك بعد الشبع، ولا تنم ليلاً حتى تعرض نفسك على الخلاء إن احتجت إلى ذلك أو لم تحتج. واقعد على الطعام وأنت تشتهييه وقم عنه وأنت تشتهييه. قال بعضهم:

شهره النفوس على الجسوم بليّة
ما من فتى شرهت له نفس وإن
وقال أبو الفيض القضاعى يمدح الفضل وقد فصد:
أرقت دماً لو تكب المزن مثله
دماً طيباً لو يطلق الشرع شره
فتعمّودوا من كل نفس تشرة
نال الغنى إلا رأى مـ يكره
لأصبح وجه الأرض أخضر زاهياً
لكان من الأسقام للناس شافياً

الفصل الرابع: فيما جاء فى العيادة وفضلها

قال رسول الله ﷺ : ثلاثة فى ظل العرش، عائد المريض، ومشيع الموتى، وطائع والديه. وفى رواية ومعرى
الثكلى. ومن السنة تخفيف الجلوس فى العيادة. مرض بكر بن عبد الله المزنى فعاده أصحابه فأطالوا الجلوس عنده
فقال: المريض يعاد والصحيح يزار، قال الشاعر:

يعدن مريضاً هن هيجن داءه
ألا إنما بعض العوائد دائياً

وقيل: إذا دخل العواد على الملك فحقهم أن لا يسلموا عليه فيحجوه إلى رد السلام ويتعبوه، فإذا علموا أنه
لاحظهم دعواله وانصرفوا. قيل: مرض إنسان فكتب إليه بعض أصدقائه: كشف الله عنك ما بك من السقم، وطهرتك
بالعلة من الخطايا ومتعتك بأنس العافية وأعقبك دوام الصحة. ومرض إنسان فكتب إليه صديقه:

بإخوانك الأدنين لآبك كل مـ
فكل امرئ منهم بقدر احتماله
شكوت إلى اليوم من ألم الورد
وإن عجزوا عنه تحلمته وحدى

(وقال آخر):

بى السوء والمكروه لآبك كل مـ
أراداك كانا بى وكان لك الأجر

(وقال عبد الله بن مصعب):

مالى مرضت فلم يعدنى عائد
منكم ويمرض كلبكم فاعود

فسمى بعد ذلك عائد الكلاب. وعاد مالك بن أنس رضى الله تعالى عنه بعض المرضى فقال:

عادنى مـالك فلست أبالى
بعد من عادنى ومن يعدنى

وقال على بن الجهم^(١):

أراقب الليل مسروراً عذمت إذا
الله يعلم أتى قـد نذرت له
عيشى وأحمد يرعى ليله وصبا
صيام شهر إذا ما أحمد ركبا

(١) على بن الجهم: هو على بن بدر بن الجهم بن مسعود الشامي، أبو الحسن الشاعر المشهور، أحد الشعراء المجيدين، له «ديوان شعر» مشهور، وكان جيد الشعر عالماً بفنونه، نفاه المتوكل إلى خراسان، ولى فى عهد المأمون بريد اليمن وطرازاها، وولى له الشفور. توفى فى سنة (٣٤٩هـ).

(وقال آخر):

إذا مرضتُم أتيانكم نعوذكمو وتذنبون فنأتيكم ونعتذر

(وقال آخر):

أعاذك الله من أشياء أربعة الموتُ والعشق والإفلاس والجربُ

وقيل إن حق العيادة يوم بعد يوم أو يوم بعد يومين وعلى الأول قول الشاعر:

قالتُ مرضتُ فعدتها فتبرمت
والله لو أن القلوب كقلبيها
فهي الصحيحة والعليل العائد
ما رق للولد الصغير الوالد

(وعلى الثاني قول بعضهم):

حق العيادة يومٌ بعد يومين
لا تُبرمنَ عليلاً في مُساءلة
وجلسةٌ مثل خلس اللحظ بالعين
يكفيك من ذاك تسألُ بحرفين

وفضل العيادة مشهور، وشرفها مذكور، وبها تعظم الأجور. وهذا ما انتهى إلينا من هذا الباب والله الموفق للصواب.

فى ذكر الموت وما يتصل به من القبر وأحواله

روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات لأحدكم ميت فحسنوا كفنه وعجلوا إنجازه وصيته وأعمقوا له فى قبره وجنبوه جار السوء، قيل: يا رسول الله وهل ينفع الجار الصالح فى الآخرة؟ قال: وهل ينفع فى الدنيا؟ قالوا: نعم. قال: وكذلك فى الآخرة». ومن وصية على رضى الله عنه لأبى ذر: زر القبور تذكر بها الآخرة، ولا تررها بالليل وغسل الموتى وتحرك قلبك، وصل على الجنائز لعل ذلك يحزنك فإن الحزين فى ظل الله تعالى، وقيل: جزعك فى مصيبة صديقك أحسن من صبرك، وصبرك فى مصيبتك أحسن من جزعك. ونظر فيلسوف إلى ميت يحمل إلى قبره فقال: حبيب تحمله أهله إلى حبس الأبد. ودخل عمرو بن العاص رضى الله عنه على معاوية فى مرضه مرضها، فقال له: أعاند أنت أم شامت؟ فقال له عمرو: ولم تقول هذا، والله ما كلفتنى رهقاً ولا أصدعتنى زلقاً ولا جرعتنى علقاً، فلم أستطل حياتك ولم أستبطىء وفاتك. فأنشد معاوية يقول:

فـهل من خـالدين إذا هـلكنـا وهل فى الموت بين الناس عـلـار

ولما مرض معاوية رضى الله عنه مرضه الذى مات فيه، وفد إليه الناس يعودونه فقال لأهله مهدوا لى فراشاً وأسندونى وأوسعوا رأسى دهاناً ثم أكحلوا عينى بالإثمد ثم ائذنوا للناس يدخلوا ويسلموا على قياماً ولا تجلسوا عندى أحداً، ففعلوا ذلك، فلما خرجوا من عنده أنشد يقول:

وتجلى للشـامـتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضـمـعـضـع
وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تـيـمة لا تنفع

وقيل: لمادنا منه الموت تمثل بهذا البيت:

هو الموت لا منجى من الموت والذى نحاذر بعـد الموت أدهى وأفظع

قال: ثم رفع يديه وقال: اللهم أقل العثرة واعف عن الزلة وعد بحلمك على من لم يرج غيرك ولا يثق إلا بك، فإنك واسع المغفرة، وليس لذى خطيئة منك مهرب. ومات رحمه الله تعالى. وذكر أبو العباس الشيبانى قال: وفد على أبى دلف عشرة من أولاد على بن أبى طالب رضى الله عنه فى العلة التى مات فيها فأقاموا بيابه شهراً لا يؤذن لهم لشدة العلة التى أصيب بها، ثم أفاق فقال لخادمه بشر: إن قلبى يحدثنى أن بالباب قوماً لهم إلينا حوائج فافتح الباب ولا تمنع أحداً، قال: فكان أول من دخل آل على رضى الله عنه فسلموا عليه ثم ابتدأ الكلام رجل منهم من ولد جعفر الطيار فقال: أصلحك الله أنا من أهل بيت رسول الله ﷺ وفينا من ولده وقد حطمتنا المصائب وأجحفت بنا النوائب، فإن رأيت أن نجبر كسيراً وتغنى فقيراً لا يملك قطميراً فافعل. فقال لخادمه خذ بيدي وأجلسنى. ثم أقبل معتذراً إليهم ودعا بدواة وقرطاس وقال: ليكتب كل منكم بيده أنه قبض منى ألف دينار، قالوا: فبقينا والله متحيرين فلما أن كتبنا الرقاع ووضعناها بين يديه قال لخادمه: على بالمال. فوزن لكل واحد منا ألف دينار ثم قال لخادمه: يا بشر إذا أنا مت فادرج هذه الرقاع فى كفى، فإذا لقيت محمداً ﷺ فى القيامة كانت حجة لى أن قد أغنيت عشرة من ولده ثم قال: يا غلام ادفع لكل واحد منهم ألف دينار ينفقها فى طريقه حتى لا ينفق من الألف دينار شيئاً حتى يصل إلى موضعه، قال: فأخذناها ودعونا له وانصرفنا ثم مات رحمه الله. وقيل: لما دفن عمر بن العزيز نزل عند دفنه مطر من السماء، فوجدوا بردة مكتوب فيها بالتور (بسم الله الرحمن الرحيم أمان لعمر بن عبد العزيز من النار) وقيل لأعرابى: إنك تموت. قال: وإلى أين أذهب؟ قالوا: إلى الله تعالى، فقال: لا أكره أن أذهب إلى من لا أرى الخير إلا منه، ويكى الخولانى عند موته فقيل له: ما يبكىك؟ قال: أبكى لطول السفر وقلة الزاد وقد سلكت عقبة ولا أدرى إلى أين أهبط وإلى أى مكان أسقط. ودخل ملك الموت على داود عليه السلام فقال له: من أنت؟ قال: أنا الذى لا يهاب الملوك ولا تمنع منه القصور ولا يقبل الرشاش، فقال: إذن أنت ملك الموت، وإنى لم أستعد بعد، فقال له: يا داود أين فلان جارك، أين فلان قريبك؟ قال:

ماتا. قال: أما كان لك فى موت هؤلاء عبرة لتستعد بها ثم قبضه عليه السلام (وفى الخبر) من حديث حميد الطويل عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال: إن الملائكة تكتنف العبد وتحتسبه ولولا ذلك لكان يعدو فى الصحراء والبرارى من شدة سكرات الموت. وقد أجمعت الأمة على أن الموت ليس له زمن معلوم فليكن المرء على أهبة من ذلك، وقيل بينما حسان جالس وفى حجره صبي يطعمه الزبد والعسل إذ شرب الصبي فمات. فقال:

اعمل وأنت صحيحٌ مطلقٌ فرح
مأدمت ويحك يا مغرور فى مهل
يرجو الحياة صحيحٌ ربما كمنت
له المنية بين الزبد والعسل

وقيل: إن المأمون لما قربت وفاته دخل عليه بعض أصدقائه فوجده قد فرش له جلد دابة وبسط عليه الرماد وهو يتمرغ فيه ويقول: يا من لا يزول ملكه أرحم من زال ملكه.

ولما احتضر عمرو بن العاص دعا بغل وقيد وقال: ألسونى إياهما فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن التوبة مقبولة ما لم يغرغر ابن آدم بنفسه، ثم استقبل القبلة، وقال: اللهم إنك أمرتنا فعصينا ونهيتنا فارتكبنا، وهذا مقام العائذ بك فإن تعف فأنت أهل العفو، وإن تعاقب فيما قدمت يداى. لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، ثم مات وهو مغلول مقيد، فبلغ ذلك الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهما فقال: استسلم الشيخ ولعلها تنفعه.

ولما احتضر المعتصم جعلوا يهونون عليه فقال: هان على النظارة ما يمر بظهر المجلود، وسمع أبو الدرداء رجلاً فى جنازة يقول: من هذا؟ فقال: أنت، فإن كرهت فأنا. وقيل: مات عكرمة مولى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وكثير عزة فى يوم واحد. فقال رجل: اللهم كما جمعتهم فى زيارة القبور فلا تفرق بينهما يوم النشور. فما بقى فى المدينة أحد إلا استحسّن كلامه.

ولما احتضر إبراهيم الخليل عليه السلام قال: هل رأيت خليلاً يقبض روح خليله؟ فأوحى الله إليه: هل رأيت خليلاً يكره لقاء خليله؟ قال: فاقبض روحى الساعة. وقيل: إذا قبض الله لرجل أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة فيسيره إليها. وقال بعضهم:

إذا ما حِمَامُ المرء كان ببلدةٍ
دعته إليها حاجة فيطيرُ

حكى أن شاباً تقياً من بنى إسرائيل كان يجتمع مع سليمان عليه السلام ويحضر مجالسه، فبينما هو عند سليمان فى مجلسه إذ دخل ملك الموت عليه، فلما رآه الشاب صفر لونه وارتعدت فرائضه وقال: يا نبي الله إنى خفت من هذا الرجل، فمر الريح أن تذهب بى إلى الهند، فأمر سليمان الريح فذهبت به، فما كان إلا قليل حتى دخل ملك الموت على سليمان وهو متعجب، فقال له سليمان: ممّ تتعجب؟ قال: أعجب أنى أمرت بقبض روح الشاب الذى كان عندك بأرض الهند ودخلت عليك فوجدته عندك، فصرت متعجباً، ثم توجهت إلى الهند فرأيتك هناك وقبضت روحه فهذا عجبى. فقال له سليمان: إنه لما رآك خاف وانزعج وطلب منى أن تحمله الريح إلى الهند فأمرتها فحملته. وفى ذلك المعنى قال محمد بن الحسن:

ومتعب الروح مرتاحٌ إلى بلدٍ
والموت يطلبه فى ذلك البلد

وقيل: إن الإنسان يحصل له عند الموت قوة حركة، نحو ما يحصل للسراج عند انطفائه من حركة سريعة وضياء ساطع، وتسميها الأطباء النعشة الأخيرة والله أعلم. وقيل: إن الرشيد ماتت له جارية وكانت من خواص محاضيه، فجزع عليها جزعاً شديداً، فقال لبعض أصدقائه: أما ترى ما بليت به؟ ما أحببت أحداً إلا مات. فقال يا أمير المؤمنين: أحببني، فقال: ويحك إن الحب ليس هو شئ يصنع إنما هو شئ يقع فى القلب تسوقه الأسباب. فقال: قل أنا أحبك، قال: نعم أحبك. فحُمّ من وقته ومات.

وفى الحديث (المرفوع): «كسر عظم الميت ككسره فى حياته». وقال يزيد بن أسلم: لقد كان يمضى فى الزمن الأول أربعمئة سنة ما يسمع فيها بجنازة، وعن ميمون بن مهران قال: شهدت جنازة ابن عباس رضى الله عنه بالطائف، فلما

وضع ليصلى عليه جاء طائر أبيض حتى وقف على أكفانه، ثم دخل فيها فالتمسناه فلم نجده، ولما سويينا عليه التراب سمعنا من يسمع صوته ولا نرى شخصه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]. قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما إن قبر آدم عليه السلام بمسجد الخيف بمنى. وقال عطاء: بلغنى أن قبره تحت المنارة التى وسط الخيف. وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى ما لا يبكيه عند ذكر الجنة والنار، فقيل له فى ذلك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا العبد منه فما بعده أيسر منه». وعن معاذ بن رفاعه الزرقى قال: أخبرنى رجل من قومي أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ فى جوف الليل معتجراً بعمامة من استبرق، فقال: يا محمد من هذا الميت الذى فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش، فقام رسول الله ﷺ يجر ثوبه مبادراً إلى سعد بن معاذ رضى الله عنه فوجده قبض، وقال الحسن رضى الله عنه: ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح وجوه الناس خمس مرات، فمن رآه على لهو أو لعب أو معصية أو ضاحكاً حرك رأسه وقال له: مسكين هذا العبد غافل عما يراى به، ثم يقول له: اعمل ما شئت، فإن لى فيك غمزة اقطع بها وتينك. وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لرجاء بن حيوة: يا رجاء إذا وضعت فى الحدى، فاكشف الثوب عن وجهى فإن رأيت خيراً فاحمد الله وإن رأيت غير ذلك فاعلم أن عمر قد هلك. قال رجاء: فلما دفناه كشفت عن وجهه، فرأيت نوراً ساطعاً، فحمدت الله تعالى أن قد صار إلى خير. وقال أيضاً: دخلت على عمر بن عبد العزيز وهو محتضر فقال: يا رجاء إنى أرى وجوهاً كراماً ليست بوجوه إنس ولا جان، وهو يقلب طرفه يمناً وشمالاً، ثم رفع يده فقال: اللهم أنت ربى أمرتنى فقصرت، ونهيتنى فعصيت، فإن غفرت فقد مننت وإن عاقبت فما ظلمت، إلا أنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك المصطفى وتبيك المرتضى، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، فعليه السلام والرحمة، ثم قضى نحبه رحمه الله، وعن أسماء بنت عميس قالت: كنت عند أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه بعدما ضربه ابن ملجم إذ شهق شهقة بعد أن أغمى عليه، ثم أفاق وقال: مرحباً الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء، فقيل له ما ترى؟ قال: هذا رسول الله ﷺ وهذا أخى جعفر وعمى حمزة وأبواب السماء مفتحة والملائكة ينزلون على ييشروننى بالجنة، وهذه فاطمة قد أحاط بها وصائفها من الخور العين، وهذه منازل لى مثل هذا فليعمل العاملون.

ولما احتضر عبد الملك بن مروان قال لابنه الوليد: إذا أنا مت إياك أن تجلس وتعصر عينيكَ كالمرأة الوكعاء، ولكن انتز وشمم والبس جلد النمر وضعنى فى حفرتى وخلنى وشائى، وعليك شأنك. وادع الناس إلى بيعتك فمن قال برأسه هكذا، فقل له بسيفك هكذا، ثم بعث إلى محمد وخالد ابنى يزيد بن معاوية، فقال: هل عندكما ندامة فى بيعة الوليد؟ فقالوا: لا نعرف أحداً أحق منه بالخلافة، فقال: أما إنكما لو قتلتما غير هذا لضربت الذى فيه أعينكما، ثم رفع كنار فراشه فإذا تحته سيف مسلول تحت يمينه، كل هذا وروحه تتردد فى حنجرتة، وهو يقول: الحمد لله الذى لا يبالى أصغيراً أخذ أم كبيراً، لا إله إلا الله محمد رسول الله. ثم بعد ساعة نفذت روحه فدخل عليه الوليد ومعه بناته ييكون، فتمثل بقول الشاعر:

ومستخبرٌ عنا يريد بنا الردى ومستخبراتِ والعيونُ سواكنُ
وقال محمد بن هارون:

كأننى بإخوانى على جنب حفرتى يهيلون فوقى والعيون دماً تجرى
فيا أيها المذرى على دموعه ستعرض فى يومين عنى وعن ذكرى
عفا الله عنى أنزل القبر ثاوياً أزارُ فلا أدرى وأجفى فلا أدرى

وكان يزيد الرقاشى يقول: من كان الموت موعده، والقبر بيته، والثرى مسكنه، والدود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر، كيف تكون حالته، ثم ييكي حتى يغشى عليه. فيجب على العاقل أن يحاسب نفسه بنفسه على ما فرط من عمره، ويستعد لعاقبة أمره بصالح العمل، ولا يغتر بالأمل، فإن من عاش مات ومن مات فات. وكل ما هو آت آت. نسأل الله أن يهلمنا رشدنا ويوفقنا لاتباع أوامره واجتناب نواهيه، وأن يجعل الموت خير غائب نتظره وأن يختم لنا بالخير وأن يتغمدنا برحمته إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الصبر والتأسى والتعازى والمرائى ونحو ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: فى الصبر

قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦]. وقال ﷺ: «ما من مسلم يصاب بمصيبة وإن قل عهدا فأحدث استرجاعاً إلا أحدث الله له مثله وأعطاه مثل أجره ذلك يوم أصيب بها». وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح حزيناً أصبح ساخطاً على ربه، ومن أصبح يشكو مصيبة فكأنما يشكو الله، ومن تواضع لغنى سأل ما فى يده أحبط الله ثلثى عمله، ومن أعطى القرآن ولم يعمل به وتهاون به حتى دخل النار، أبعد الله عن رحمته لأنه هو الذى فعل ذلك بنفسه حيث لم يعرف حرمة القرآن».

وروى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «من مات له ثلاثة من الولد لا يلج النار إلا تحلة القسم، يعنى قوله تعالى ﴿وإن منكم إلا واردة﴾ [مريم: ٧١]. وعن أم سلمة رضى الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنى فى مصيبتى وأعقبنى خيراً منها، إلا فعل الله به ذلك»، وروى أنه لما مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ ذرفت عيناه، فقال له عبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله ألم تنه عن البكاء؟ قال: إنما نهيت عن الغناء والصوتين الأحمقين والندب، ولكن هذه رحمة جعلها الله تعالى فى قلوبنا، ومن لا يرحم لا يرحم، فإن القلب يخشع والعين تدمع، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون، ولا نقول إلا ما يرضى الله ربنا إنا لله وإنا إليه راجعون». وقال ابن عباس رضى الله عنهما: أول شيء كتبه الله فى اللوح المحفوظ إني أنا الله لا إله إلا أنا محمد عبدى ورسولى، من استسلم لقضائى وصبر على بلائى وشكر نعمائى كتبته صديقاً وبعثته مع الصديقين، ومن لم يستسلم لقضائى ولم يصبر على بلائى ولم يشكر نعمائى فليتخذ رباً سواى. وقال ابن المبارك: إن المصيبة واحدة، فإذا جزع صاحبها فهما اثنتان لأن لإحدهما المصيبة بعينها والثانية ذهاب أجره وهو أعظم من المصيبة. وعن العلاء بن عبد الرحمن أن النبى ﷺ لما حضرته الوفاة بكت فاطمة فقال: لا تبكى يا بنتاه قولى إذا مت: إنا لله وإنا إليه راجعون، فإن لكل إنسان مصيبة معوضة. قالت: ومنك يا رسول الله؟ قال: ومنى. وعن عطاء بن أبى رباح قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابته مصيبة فليذكر مصيبتى بى فإنها من أعظم المصائب». وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال: من أخذت حبيته يعنى عينيه فصبر واحتسب أدخله الله الجنة. وقيل: إن امرأة أيوب عليه الصلاة والسلام قالت: لو دعوت الله تعالى أن يشفيك، فقال لها: ويحك كنا فى النعماء سبعين عاماً، أفلا نصبر على الضراء مثلها، فلم يلبث إلا يسيراً وأن عوفى. وقيل: الصبر مفتاح الظر، والتوكل على الله تعالى رسول النجاح. وقيل: من لم يلق نوائب الدهر بالصبر طال عتبه عليه. وقيل: إن معاوية رضى الله تعالى عنه خرج يوماً ومعه عبد العزيز بن زرار الكلبى وكان ذا منصب وشرف وعقل وأدب، فقال له معاوية: يا عبد العزيز أتانى نعى سيد شباب العرب، فقال له: ابنى أو ابنك قال: بل ابنك. قال: للموت تلد الوالدة. ومما قيل: اصبر لحكم من لا تجد معولاً إلا عليه ولا مفزاعاً إلا إليه. وقال سويد السدوسى:

بتقوى الذى أعطاكما ويراكما
وصبر لأمر الله فيما ابتلاكما

فأوصيكما يا ابنى سدوسٍ كلاكما
بشكرٍ إذا ما أحدث الله نعممةً
وقال:

لا وترقى إلى العلياء غير مزاحم
فما صابر فيما يروم بنادم

أيا صاحبي إن رمت أن تكسب الع
عليك بحمى الصبر فى كل حالة

وقال آخر:

هو الدهر قد جرّيته ويلوته فصبراً على مكروهه وتجلداً

وحدث الزبير قال: قامت عائشة بعدما دفن أبوها أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، فقالت: نضر الله وجهك، وشكر صالح سعيك، فقد كنت للدنيا مذلاً بإدبارك عنها، وللآخرة معزاً بإقبالك عليها، ولئن كان رزؤك أعظم المصائب بعد رسول الله ﷺ وأكبر الأحداث بعده، فإن كتاب الله تعالى قد وعدنا بالثواب على الصبر في المصيبة، وأنا تابعة له في الصبر، فأقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ومستعيضة بأكثر الاستغفار لك، فسلام الله عليك، توديع غير قالية لحياتك، ولا رازئة على القضاء فيك.

ولما مات ذر الهمداني جاء أبوه، فوجده ميتاً وكان موته فجأة، وعياله يبكون عليه فقال: ما لكم، والله ما ظلمناه ولا قهرناه ولا ذهب لنا بحق ولا أصابنا فيه، ما أخطأ من كان قبلنا في مثله، ولما وضعه في حفرته قال: رحمك الله يا بني وجعل أجرى فيك لك، والله ما بكيت عليك وإنما بكيت لك، فوالله لقد كنت بي باراً ولي نافعاً وكنت لك محباً وما بي إليك من وحشة وما بي إلى أحد غير الله من فاقة، وما ذهبت لنا بعزة وما أبقيت لنا من ذل، ولقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك، يا ذر لولا هول المطلاع لتمنيت ما صرت إليه، فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إنك وعدت الصابرين على المصيبة ثوابك ورحمتك، اللهم وقد وهبت ما جعلت لي من الأجر إلى ذر صلة مني فلا تحرمني ولا تعرفه قبيحاً وتجاوز عنه، فإنك رحيم بي وبه، اللهم وقد وهبت لك إساءته لي فهب لي إساءته إليك، فإنك أجود مني وأكرم. اللهم إنك قد جعلت لك عليه حقاً وجعلت لي عليه حقاً قرنته بحقك. فقلت: ﴿اشكر لي ولوالديك إلى المصير﴾ [لقمان: ١٤]. اللهم إني قد غفرت له ما قصر فيه من حقى، فاغفر له ما قصر فيه من حقك، فإنك أولى بالجود والكرم. فلما أراد الانصراف قال: يا ذر قد انصرفنا وتركناك ولو أقمنا عندك ما نفعتناك.

وفي الحديث: إذا مات ولد العبد يقول الله تعالى للملائكة: ماذا قال عبيد عند قبض روح ولده وثمره فؤاده؟ فيقولون: إلهنا حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: أشهدكم يا ملائكتي أني بنيت له بيتاً في الجنة وسميته بيت الحمد. وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه دفن ابناً له وضحك عند قبره. فقيل له: أتضحك عند القبر؟ قال: أردت أن أرغم أنف الشيطان، فينبغي للعبد أن يتفكر في ثواب المصيبة فتسهل عليه، فإذا أحسن الصبر استقبله يوم القيامة ثوابها، حتى يود لو أن أولاده وأهله وأقاربه ماتوا قبله لينال ثواب المصيبة. وقد وعد الله تعالى في المصيبة ثواباً عظيماً إذا صبر صاحبها، واحتسب وقال تعالى: ﴿وَلَبَّوْكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُو أَخْبَارَكُمْ﴾ [٣١] [محمد: ٣١]. وقال تعالى: ﴿وَلَبَّوْكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]. اللهم رضينا بقضائك وصبرنا على بلائك واغفر لنا ولوالدينا ولكل المسلمين يا رب العالمين.

الفصل الثاني من هذا الباب: في التعازي والتأسي

روى الترمذي في كتاب السنن للبيهقي عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «من عزى مصاباً فله مثل أجره». وروينا في كتاب الترمذي أيضاً بسند متصل إلى رسول الله ﷺ قال: «من عزى ثكلى كسى برداً في الجنة». وروينا في سنن ابن ماجه والبيهقي بإسناد حسن، عن عمرو بن حزم عن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن يعزى أخاه بمصيبته إلا كساه الله من حلل الكرامة يوم القيامة».

واعلم أن التعزية هي التصبير وذكر ما يسلى صاحب الميت ويخفف حزنه ويهون مصيبته وهي مستحبة، فإنها مشتملة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي أيضاً داخلة في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]. وهي من أحسن ما يستدل به في التعزية. وثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه».

واعلم أن التعزية مستحبة قبل الدفن وبعده، وتكره بعد ثلاثة أيام، لأن التعزية لتسكين قلب المصاب، والغالب سكونه بعد ثلاثة أيام، فلا يجدد الحزن. هكذا قال الجماهير من أصحاب الشافعي رضي الله تعالى عنه. وقيل: إنها لا تفعل بعد ثلاثة أيام إلا في صورتين، وهما إذا كان المعزى أو صاحب المصيبة غائباً حال الدفن فاتفق رجوعه بعد الثلاثة، وأما لفظ التعزية فلا حرج فيه فبأى لفظ عزاه حصلت، واستحب أصحاب الشافعي أن يقول في تعزية المسلم بالمسلم: عظم الله أجرك، وأحسن عزاءك وغفر لميتك. وفي المسلم بالكافر: أعظم الله أجرك، وأحسن عزاءك، وفي الكافر بالكافر: أخلف الله عليك ولا نقص لك عدداً.

روى أن النبي ﷺ فقد بعض أصحابه فسأل عنه فقالوا: يا رسول الله بنى الذي رأيته هلك، فلقية النبي ﷺ، فسأل عن بنى، فقال: يا رسول الله هلك، فعزاه فيه ثم قال: يا فلان أيما كان أحب إليك أن تتمتع به عمرك أو لا تأتي غداً باب من أبواب الجنة إلا وجدته وقد سبقك إليه، فيفتحه لك؟ فقال: يا رسول الله سبقه إلى باب الجنة أحب إلى من التمتع به في دار الدنيا. قال: ذلك لك. وروى البيهقي بإسناده في مناقب الشافعي رحمه الله: أن الشافعي قد بلغه أن عبد الرحمن بن مهدي مات له ابن فجزع عليه جزعاً شديداً، فبعث إليه الشافعي رحمه الله يقول: يا أخى عز نفسك بما تعز به غيرك واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك، واعلم أن أمض المصائب فقد سرور وحرمان أجر، فكيف إذا اجتمع مع اكتساب وزر؟ ألهمك الله عند المصائب صبراً، وأجزل لنا ولك بالصبر أجراً. وروى عن ابن المبارك قال: مات لى ابن فمر بى مجوسى وقال: ينبغى للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام، فقال: اكتبوها منه. وعن معاذ بن جبل أنه قال: مات لى ابن، فكتب إلى رسول الله ﷺ: من محمد رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل، سلام عليكم، فإننى أحمد الله الملك الذى لا إله إلا هو، أما بعد، فعظم الله لك الأجر، وألهمك الصبر ورزقنا وإياك الشكر، ثم اعلم أن أنفسنا وأموالنا وأهلنا وأولادنا من مواهب الله تعالى الهنية وعواريه المستودعة، يمتعنا بها إلى أجل معدود ويقبضها لوقت معلوم، ثم فرض الله تعالى علينا الشكر إذا أعطى، والصبر إذا ابتلى، وكان ابنك من مواهب الله الهنية وعواريه المستودعة. متعك الله به فى غبطة وسرور، وقبضه بأجر كبير إن صبرت واحتسبت، فاصبر واحتسب، واعلم أن الجزع لا يرد ميتاً ولا يطرد حزناً. وروى أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه كان إذا عزى مرزاً قال: ليس مع العزاء مصيبة ولا مع الجزع فائدة، والموت أشد مما قبله، وأهون مما بعده، فاذا ذكر مصيبتك برسول الله ﷺ تهن عليك مصيبتك. وعزى الإمام الشافعي رضى الله تعالى عنه صديقاً له فقال:

إنا نعزيك لا أنا على ثقة
فما المعزى بياق بعد ميته
من الحـياة ولكن سنة الدين
ولا المعزى ولو عاشا إلى حين

وكتب بعضهم إلى أخ يعزیه: أنت يا أخى أعزك الله عالم بالدنيا وما خلقت له من الفناء، وأنها لم تعط إلا أخذت، وكم تسر ألا أحزنت، وأن الموت سبيل محتوم على الأولين والآخرين لا دافع عنه ولا مؤخر، لما قضى الله عز وجل منه وإنا لله وإنا إليه راجعون، وعزى رجل بعض الخلفاء بابن لن فكتب إليه يقول:

تعز أمير المؤمنين فإنه
هل الابن إلا من سلاله آدم
لما قد ترى يغدو الصغير ويولد
لكل على حوض النية مورد
وكتب بعضهم إلى صديق له وقد ماتت ابنته فقال:
الموت أخفى سواة للبنات
أما رأيت الله سبحانه
ودفنها يروى من المكرمات
قد وضع النعش بجانب البنات

وكتب بعضهم إلى صديق له يعزیه بأخيه ويسليه: ما تصنع يا أخى والقضاء نازل والموت حكم شامل، وإن لم تلذ بالصبر فقد اعترضت على مالك الأمر، وأنت تعلم أن نوائب الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر، فاجعل بين هذه اللوعة الغالبة والدمعة الساكنة حاجباً من فضلك وحاجزاً من عقلك ودافعاً من دينك ومانعاً من يقينك، فإن المحن إذا لم تعالج بالصبر كانت كالمنح إذا لم تقابل بالشكر، فصبراً صبراً، ففحول الرجال لا تستفزها الأيام بخطوبها، كما أن متون الجبال لا تهزها العواصف بهبوبها، فعزیز على أن أخاطب

مولاي معزياً وأكاتبه مسلياً عن كبير أو صغير مما يتعلق بخدمته أو ينتهي إلى جملته، فكيف بالصنو الأكرم والذخر الأعظم والركن الأشد والسهم الأسد والشهاب الأسطع والحسام الأقطع، لكن التعزية سير سائرة وسنة ماضية غابرة، وقدر الله هو المقدر وأجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولولا أن الذكرى تنفع والتعزية يستوى فيها الأشرف والأوضح، لأجلت مولاي أن أفاتحه معزياً وأخاطبه مسلياً، ولكن بحمد الله العالم لا يعلم والسابق لا يتقدم فبمولاي يقتدى في الصبر على النوائب وبنوره يهتدى في مشكلات المذاهب، ولكل ما كان من الردى أوجع كان الأجر عليه أوسع جعل الله مولاي من الصابرين على المصيبة وأعظم أجره وجعل الجنة نصيبه.

وعزى رجل فتى عن أبيه فلم يجده كما أحب فقال: يا بني سوء الخلف أضر علينا من فقد السلف. ومات لبعض ملوك كندة ابنة فوضع بين يديه بكرة من المال وقال: من بالغ في تعزيتي فهي له، فدخل عليه أعرابي وقال: عظم الله أجر الملك كفيت المؤنة، وستر العورة، ونعم الصهر القبر، فقال: قد أبلغت وأوجزت ثم دفعها له. وعزت أعرابية قوماً فقالت: جافى الله عن ميتكم الثرى وأعانه على طول البلى وأجركم ورحمه. وكان لعلى بن الحسين جليس مات له ابن فجزع عليه جزعاً شديداً، فعزاه على بن الحسين رحمه الله ووعظه فقال: يا ابن رسول الله إن ابني كان مسرفاً على نفسه، فقال: لا تجزع، فإن من ورائه ثلاث خلال. أولهن: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن سيدنا محمداً رسول الله، والثانية: شفاعة جدي عليه السلام، والثالثة: رحمة الله التي وسعت كل شيء، فأين يخرج ابنك عن واحدة من هذه خلال. وقال سليمان بن عبد الملك عند موت ابنه لعمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة: إن في كبدي جمرة لا يطفئها إلا عبرة، فقال عمر: اذكر الله يا أمير المؤمنين، وعليك بالصبر، فنظر إلى رجاء كالمستريح بمشورته فقال رجاء: أفضها يا أمير المؤمنين، فما بذلك من بأس، لقد دمت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنه إبراهيم، وقال: إن العين لتدمع وإن القلب ليخشع ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون. فأرسل سليمان عيني حتى قضى أربه ثم أقبل عليهم، قال: لولا نرفت هذه العبرة لا نصدع كبدي، ثم إنه لم يبك بعدها. وكتب الإسكندر إلى أمه قبل وفاته بقليل: إذا وصل إليك كتابي هذا فاجمعي أهل بلدك وأعدى لهم طعاماً ووكلي بالأبواب من يمنع من أصابته مصيبة في أم أو أب أو أخت أو ولد، ففعلت، فلم يدخل إليها أحد، فعلمت أن الإسكندر عزاها في نفسه.

ولما قتل الفضل بن سهل دخل المأمون على أمه يعزيها فيه فقال: يا أماء لا تحزني على الفضل، فأنا خلف منه، فقالت: كيف لا أحزن على ولد عوضني عنه خليفة مثلك، فعجب المأمون من جوابها، وكان يقول: ما سمعت قط أحسن منه ولا أجلب للقلوب. فقال لها: عليك بالصبر، فإن فيه مزيد الأجر. ومن جزع على ولده جعفر بن علي لما قتله الحرث قام نساء الحى يبكون عليه، وقام أبوه إلى ولد كل شاة وناقاة فذبحه وألقاها بين أيديها وقال لها: ابكين معي على جعفر، فما زالت النوق ترغو والشيء تعير والنساء يصرخن ويبكين وهو يبكي معهن، فلم ير مأتم كان أوجع منه. وقال يحيى بن خالد: التعزية بعد ثلاثة أيام تجدد الحزن، والتهنئة بعد سنة تجدد الفرح.

ومما قيل في التأسى والتسلى بالخلف عن السلف: قيل: عزى بعض الشعراء يزيد بن معاوية في والده فقال:

اصبر يزيد فقد فارقت ذائقة	واشكر إلهك من بالملك حـاـباكـا
لا رزء أصبح في الأيام نعـرفـه	كما رزئت ولا عقيبى كعقباكا

وقال آخر:

لا بد من فقد ومن فاقـد	هيهات ما في الناس من خـالـد
------------------------	-----------------------------

وقال آخر:

تبـصـر فلو أن البكاء رد هالكـا	على أحد فأكثر بكاك على عـمـر
--------------------------------	------------------------------

وكتب بعضهم إلى أولاد صديقه يعزيهم ويسليهم في والدهم فقال:

فلو كان فيض الدمع ينفع باكـيـا	لعلمت غرب الدمع كيف يسـيـل
--------------------------------	----------------------------

فإن غاب بدر فالنجوم طوالع ثوابت لا يقضى لهن أفول
يغاب بها في ظلمة الليل حائر ويسرى عليها بالرفاق دليل

ودخل عبد الملك بن صالح على الرشيد وقد مات له ولد، وولد له في تلك الليلة ولد، فقال سرّك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك ولا ساءك فيما سرّك وجمع لك بين أجر الصابر وثواب الشاكر وقال بعضهم:

أليس لهذا صار آخر أمرنا فلا كانت الدنيا القليل سرورها
فلا تعجبنى يا نفس مما تريته فكل أمور الناس هذا مصيرها

وسئل الأصمعي عن قول الخنساء في نعيها صخر حين مات ونعته فقالت:

يذكرني طلوع الشمس صخراً وأندبه لكل غروب شمس

فقالوا له: لماذا أنها خصت الشمس دون القمر والكواكب؟ فقال: لكونه كان يركب عند طلوع الشمس يشن الغارات وعند غروبها يجلس مع الضيفان، فذكرته بهذا مدحاً لأنه كان يغير على أعدائه ويتقيد بضيفه، وقد رثته بعد البيت الأول بأبيات منها:

ألا يا نفس لا تنسيه حتى أفارق عيشتي وأزور رمسى
ولولا كثرة الباكين حولى على أمواتهم لقتلت نفسى
ومما يكون مثل أخى ولكن أسلى النفس عنه بالتأسى

وقال آخر:

ولولا الأسى ما عشت في الناس ساعة ولكن إذا ناديت جـاوينى مثلى

وقال آخر:

وهون وجـدى عن خليلى أنسى إذا شئت لاقيت الذى أنا صاحبه

وقال آخر:

ومما يؤدىنى إلى الصبر والعزّا تردد فكرى فى عموم المصائب

الفصل الثالث: فى المراثى

لما توفى رسول الله ﷺ رثاه جماعة من أصحابه وآله بمرث كثيرة منها ما روى عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، فإنه كان أقرب الناس إليه، وهو أول من رثاه فقال:

لما رأيت نبينا متجندلاً ضاقت على بعرضهن الدور
فارتاع قلبى عند ذاك لموته والعظم منى ما حيت كسير

أعنتني وبحك إن خلك قد ثوى
يا ليتني من قبل مهلك صاحبي
فلتحدثن بدائع من بعده
وقال آخر:

فقدت أرضنا هناك نبياً
خلقاً عالياً وديناً كريماً
وسراجاً يجلو الظلام منيراً
حازماً عازماً حليماً كريماً
إن يوماً أتى عليك ليوم
فعليك السلام منا جميعاً
ورثاه - رحمه الله - أبو سفيان بن الحرث فقال:

أرقت فـبـبـات ليلى لا يزول
وأسمعني البكاء وذاك فيمما
لقد عظمت مصيبتنا وجلت
وأضحت أرضنا مما عـرـاها
فقدنا الوحي والتزويل فينا
وذاك أحق ما سالت عليه
نبي كـان يجلو الشك عنا
ويهدينا فلا نخشى ملاماً
أفـاطم إن جرعت فـذاك عذر
فقبر أهلك سيد كل قبر

والصبر عندك ما بقيت يسير
غيبت في لحد عليه صخور
تعيها بهن جوانح وصدور

كان يغدو به النبات زكياً
وصراطاً يهـدى الأنام سويـاً
ونبياً مؤيداً عربياً
عائداً بالنوال برا تقياً
كسورت شمسـه وكان خليـاً
دائم الدهر بكرة وعشياً

وليل أخى المصيبة فيه طول
أصيب المسلمون به قليل
عشية قيل قد قبض الرسول
تكاد بنا جوانبها تميل
يروح به ويغدو جـبـرائيل
نفوس الناس أو كادت تسيل
بما يوحى إليه وما يقول
علينا والرسول لنا دليل
وإن لم تجزعى فهو السبيل
وفيه سيد الناس الرسول

ولما مات أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه رثاه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بهذه الأبيات حين رجع من دفنه فقال:

ذهب الذين أحـببهم
لا تذكرين العيش لى
إنى رضيع وصـالهم

ورثى بعضهم محمد بن يحيى بعد موته فقال:

سألت الندى والجود مالى أراكما
وما بال ركن المجد أمسى مهـدمـاً

فـعليك يا دنيا السلام
فالعيش بـعـدهم حرام
والطفل يؤله الفطام

تبدلتما عزاً بذل مؤيد
فقالا أصبنا بابن يحيى محمد

فقلت مهلاً متمماً بعد موته
فقالا أقمنا كي نعزي بفقدته
وقال آخر:

ولا أرتجى في الموت بعدك طائلاً
وفي المعنى لبعضهم:

لقد أمنت نفسي المصائب بعده
فمما أتقى للدهر بعدك نكبة
ورثي أشجع السلمي عبد الله بن سعيد فقال:

مضى ابن سعيد حيث لم يبق مشرق
وما كنت أدري ما فواضل كفه
وأصبح في لحد من الأرض ميتاً
سأبكيك ما فاضت دموعي فإن تغض
ومما أنا من رزء وإن جل جازع
لئن حسنت فيك المرائي بذكرها
وقال آخر:

إلى الله أشكو لا إلى الناس إنني
أخلأى لو غير الحمام أصابكم
وقال العباس بن الأحنف:

إذا ما دعوت الصبر بعدك والبكا
فإن ينقطع منك الرجاء فإنه
وقال آخر يرثي صديقه:

خليلى ما ازداد إلا صباباً
خليلى لو نفس فدت نفس ميت
وقد كنت أرجو أن تعيش وأن أمت
ألا فليمت من شاء بعدك إنما

وقد كتما عبديه في كل مشهد
مسافة يوم ثم نتلوه في غد
لا أتقى للدهر بعدك من خطب

فأصبحت منها آمناً أن أروعا
ولا أرتجى للعيش بعدك مرتعاً

ولا مغرب إلا له فيه مادح
على الناس حتى غيبتة الصفائح
وكان به حياً تضيق الصحاح
فحسبك مني ما تكن الجوانح
ولا بسرور بعد فقدك فارح
فقد حسنت من قبل فيك المدائح

أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب
عتبت ولكن ما على الدهر معتب

أجب البكا طوعاً ولم يجب الصبر
سيبقى عليك الحزن ما بقى الدهر

إليك وما ازداد إلا تنائياً
فديتك مسروراً بنفسى وماليا
فحال رجاء الله دون رجائيا
عليك من الأقدار كان حذاريا

أيسرنى عييد ولم أر وجهه
فأرقنته وبقيت أخلد بعده
من لم يمت جزعاً لفقد حبيبته
مت مع حبيبك إن قدرت ولا تعش
ما أم خشف قد ملا أحشاءها
إن نام لم تهجع وطافت حوله
منى بأوجع إذ رأيت نوائحاً
ولقد عذمت أبا الحسين جلادتي
كنت الجليلد على الرزايا كلها
ولئن بقيت وما هلكت فإن لى
لا موت لى إلا إذا أجل انقضى
حزنى عليك بقدر حبك لا أرى
مما هد ركنى بالسنين وإنما
يا ليت أنى لم أكن لك والداً
فلقد شقيت وربما شقى الفتى
من ذم جفنأ باخلاً بدموعه
فلأنظمن مراثياً مشهورة
وجميع من نظم القريض مفارق
وقال الفقيه منصور بن إسماعيل المصري:

سألت رسوم القبر عمن ثوى به
أتسأل عمن عاش بعد وفاته

وقال الإمام السبكي رحمه الله تعالى يرثي فضل الله العالم:

مصائب ليس يشبهه مصاب
إمام قد حوى من كل علم
ليبكي كل ذى علم عليه
وكم كلم موانع قد أتته
فسلطان البلاغ بغير شك
سقى الله الكريم ثراه صوباً

وقال الصفدي:

يا غائباً فى الثرى تبلى محاسنه
إن كنت جرعت كأس الموت واحدة

فيه الا بعداً لذلك عييدا
لا كان ذاك بقياً ولا تخليدا
فهو الخؤون مودة وعهودا
من بعده ذا لوعة مكمودا
حنراً عليه وجفنها تسهيذا
فيبيت مكلوماً بها مرصودا
لأبى الحسين وقد لظمن خدودا
لما رأيت جمالك المفقودا
وعلى فراقك لم أجد تجليدا
أجلاً وإن لم أحصه معدودا
فهناك لا أتجاوز المحسودا
يومياً على هذا وذاك مزيدا
أصبحت بعدك بالأسى مهودا
وكذلك أنك لم تكن مسولودا
بفراق من يهوى وكان سعيذا
فعليك جفنى لم يزل محمودا
تنسى الأثام كشيئراً ولبليدا
ولداً له أو صاحباً مفقودا

لأعلم ما لاقى فقالت جوانبه
يا حسانه إخوانه وأقاربه

لذى الالباب إذ فقد الشهاب
كنوزاً نحوها يسمى الركاب
فكم علم له ضم التراب
ثناها وهى عاصية صماب
شهاب الدين ما فيه ارتياب
له من كل رضوان رضاب

الله يوليك غفراناً وإحساناً
فى كل يوم أذوق الموت ألواناً

وقال محمد بن عبد الله العتبي يرثي أبناً له:

أضحت بخدي للدموع رسوم
والصبر يعمد في المواطن كلها
أسفياً عليك وفي الغواد كلوم
إلا عليك فإنه مضموم

وكتب أحمد بن يوسف إلى عمر بن سعيد يرثي بنتاً له فقال:

عجباً للمنون كيف أنتها
شملتنا مصيبتان جميعاً
وتخطت عبد الحميد أنكا
فقدنا هذه ورؤية ذاكا

وله يرثي الأمير بليفا:

ألا إنما الدنيا غرور وباطل
وما عجبى إلا لمن بات واثقاً
فطوبى لمن كفاه منها تفرغاً
بأيام دهر ما وعى حق بليفا
وقال آخر:

إلى الله أشكو أن كل قبيلة

وقال رجل يرثي صديقاً له توفى وكان من الكرماء:

ما درى نعشه ولا حاملوه

ولبعض الكتاب في ابن مقلة:

استشعر الكتاب فقدك سالفاً
فلذاك سودت الدواة كآبة
وقضت بصحة ذلك الأيام
أسفياً عليك وشقت الأقلام

وقال الحسن بن مطير الأسدي يرثي معن بن زائدة رحمه الله تعالى:

هلمنا إلى معن وقولا لقبيره
فيا قبر معن كنت أول حفرة
ويا قبر كيف وارت جوده
بلى قد سمعت الجود والجود ميت
فتى عاش في معروفه بعد موته
ولما مضى معن مضى الجود كله
سقتك الغواذي مربعا ثم مربعا
من الأرض خطت للسماحة مضجعا
وقد كان منه البر والبحر مترعا
ولو كان حياً ضقت حتى تصدعا
أناس لهم بالبر قد كان أوسعا
وأصبح عرنيين المكارم أجدها

وقال آخر:

عجبت لصبري بعده وهو ميت

وقد كنت أبكيه دماً وهو غائب

وقال آخر:

فديتك لم أصبر ولى فيك حيلة ولكن دعاني اليأس منك إلى الصبر

وقالت ريطة بنت عاصم:

وقفت فأبكتني ديار عشيـرتي على رزثهن الباكيات الحواسر
غدوا كسيوف الهند وراـد حومة من الموت أعـيا وردهن المصادر
فوارس حاموا عن حريمي وحافظوا بدار المنايا والقنا متشـاجر
ولو أن سلمى نالها مثل رزثنا لهدت ولكن محمل الرزء عامر

ولما قتل إبراهيم بن عبد الله بن الحسين وحمل رأسه إلى المنصور، أنفذها المنصور مع الربيع إلى عميه إدريس ومحمد وكانا في حبسه، وكان أبوه قائماً يصلى فقال له محمد: أوجز فأوجز وسلم، فلما أتاه وضع الرأس في حجره وقال: أهلاً وسهلاً يا أبا القاسم تالله لقد كنت من الناس الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿الَّذِينَ يُوَفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠)﴾ [الرعد: ٢٠]. ثم قبله بين عينيه وأنشأ يقول:

فتى كان يحميه من العار سيفه ويكفيه سوات الأمور اجتنابها

ثم قال للربيع: قل لصاحبك المنصور قد مضى من يؤسنا أيام ومن نعمتك أيام، والملتقى غداً بين يدى الله تعالى، فكان ذلك فالأعلى المنصور ولم ير بعد ذلك اليوم راحة. وقيل لحسان: ما بالك لم ترث رسول الله ﷺ؟ قال: لم أر شيئاً إلا رأيت يقصر عنه. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى ذكر الدنيا وتقلبها بأهلها والزهد فيها

قال الله تعالى ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى﴾ [النساء: ٧٧] فوصف سبحانه وتعالى جميع الدنيا بأنها متاع قليل، وأنت أيها الإنسان تعلم أنك ما أوتيت من القليل إلا قليلاً. ثم إن القليل إن تمتعت به، فهو لعب ولهو، لقوله تعالى: ﴿أَتَمَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وِزْنَةٌ﴾ [الحديد: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. فلا تبع أيها العاقل حياة قليلة تفنى بحياة كثيرة تبقى، كما قال ابن عياض: لو كانت الدنيا ذهباً يفنى، والآخرة خزقاً يبقى، لوجب علينا أن نختار ما يبقى على ما يفنى، ثم تأمل بعقلك هل أذاك الله من الدنيا مثل ما أوتى سليمان عليه الصلاة والسلام حيث ملكه الله تعالى جميع الدنيا من إنس وجن وسخر له الريح، والطير، والوحوش، ثم زاده الله تعالى أحسن منها حيث قال: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩]. فوالله ما عدها نعمة مثل ما عدتقوها ولا حسبها رفعة مثل ما حسبتموها، بل خاف أن يكون استدراجاً من حيث لا يعلم فقال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]. وهذا فصل الخطاب لمن تدبر. هذا وقد قال لك وجميع أهل الدنيا: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء». وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: «ألا أريك الدنيا بما فيها؟ قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بيدي وأتى إلى واد من أودية المدينة، فإذا مزبلة فيها رؤوس الناس، وعذرات، وخرق بالية وعظام البهائم، فقال: يا أبا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرص حرصكم وتأمل آمالكم وهى اليوم صارت عظاماً بلا جلد، ثم هى صائرة عظماً رميمًا، وهذه العذرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها فى الدنيا فأصبحت والناس يتحامونها، وهذه الخرق البالية رباشهم أصبحت والرياح تصفقها، وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا يتتبعون عليها أطراف البلاد. فمن كان باكياً على الدنيا فليبك قال: فما برحنا حتى اشتد بكأؤنا».

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل على النبى ﷺ وهو على سرير من الليف وقد أثر الشريط فى جنبه، فبكى عمر رضى الله تعالى عنه، فقال رسول الله ﷺ: ما يبكيك يا عمر؟ فقال: تذكرت كسرى وقيصر. وما كانا فيه من سعة الدنيا، وأنت رسول الله، وقد أثر الشريط بجنبك، فقال ﷺ: هؤلاء قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا، ونحن قوم أخرت لنا طيباتنا فى الآخرة. وروى عن الضحاك قال: لما أهبط الله آدم وحواء إلى الأرض ووجدوا ريح الدنيا وفقدوا ريح الجنة غشى عليهما أربعين يوماً من نتن الدنيا. وعن ابن معاذ قال: الحكمة تهوى من السماء إلى القلوب فلا تسكن فى قلب فيه أربع خصال: ركون إلى الدنيا، وهم عدو، وحسد أخ، وحب شرف. وعن النبى ﷺ أنه قال لعلى: «يا على أربع خصال من الشقاء، جمود العين، وقسوة القلب، وبعد الأمل، وحب الدنيا». وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: يؤتى بالدنيا يوم القيامة على صورة عجوز شمطاء زرقاء العينين أنيابها بادية، مشوهة الخلق لا يراها أحد إلا هرب منها، فتشرف على الخلائق أجمعين فيقال لهم: أتعرفون هذه؟ فيقولون: لا، نعوذ بالله من معرفة هذه، فيقال: هذه الدنيا التى تفاخرتم بها وتقاتلتم عليها. وعن الفضيل بن عياض أنه قال: جعل الخير كله فى بيت واحد، وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا. وجعل الشر كله فى بيت واحد. وجعل مفتاحه حب الدنيا. وقيل: إن الدنيا مثل ظل الإنسان إن طلبته فر، وإن تركته تبعك، وفيه قال بعضهم:

يشبه الظل الذى يمشى معك

وهو وإن وليت عنه تبعدك

إنما الرزق الذى تطلبه

أنت لا تدركه متبعا

وقد شبهها بعضهم بخيال الظل فقال:

رأيت خيال الظل أعظم عبيرة
شخصاً وأصواتاً يخالف بعضها
تجوى وتمضى بابة بعد بابة
وما أحسن ما قال سليمان بن الضحاك:

ما أنعم الله على عبده
وكل من عوفى في جسمه
والمال حلواً حسن جيد
ما أحسن الدنيا ولكنها
وتوفى رجال من كندة فكتب على قبره هذه الأبيات:

يا واقفين ألم تكونوا تعلموا
لو تنزلون بشعبنا لعرفتكم
لا تستعزوا بالحياة فإنكم
ساوى الردى ما بيننا فى حفرة
وقال آخر:

عن قليل أصير كرم تراب
صار تحت التراب عظماً رميمًا
وما أحسن ما قال عبد الله بن طاهر:

أليس إلى ذا صار آخر أمرنا
فلا تعسجبنى يا نفس مما ترينه
وقال شرف الدين بن أسد:

يا من تملك ملكاً لا بقاء له
هل الحياة بذى الدنيا وإن عذبت
وقال بعضهم:

وغاية هذى الدار لذة ساءة
وهاتيك دار الأمن والعز والتقى
وقال غيره:

حسنت ظنك بالأيام إذ حسنت
وسالتك الليالى فاغتررت بها
وقال آخر:

فإن كنت لا تدري متى الموت فاعلمن

لمن كان فى علم الحقائق راقى
لبعض وأشكالا بغير وفاء
وتفنى جميعاً والمحرك باقى

بنعمة أوفى من العافية
فإنه فى عيشة راضية
على الفتى لكنه عارية
مع حسناتها غدارة فانية

إن الحمام بكم علينا قدام
أن المفرط فى التزود نادم
تبنون والموت المفرق هادم
حيث المخدم واحد والخادم

وتقول الرفاق هذا فلان
وجفاه الأصحاب والخلان

فلا كانت الدنيا القليل سرورها
فكل أمور الناس هذا مصيرها

حملت نفسك آثاماً وأوزاراً
إلا كطيف خيال فى الكرى زارا

ويعقبها الأحزان والهم والندم
ورحمة رب الناس والجود والكرم

ولم تخف سوء ما يأتى به القدر
وعند صفو الليالى يحدث الكدر

بأنك لا تبقى إلى آخر الدهر

ابن آدم أين الأولون والآخرين؟ أين نوح شيخ المرسلين؟ أين إدريس رقيق رب العالمين؟ أين إبراهيم خليل الرحمن؟ أين موسى الكليم من بين سائر النبيين؟ أين عيسى روح الله وكلمته رأس الزاهدين، وإمام السائحين؟ أين محمد خاتم النبيين؟ أين أصحابه الأبرار؟ أين الأمم الماضية؟ أين الملوك السالفة؟ أين القرون الخالية؟ أين الذين نصبت على مفارقهم التيجان؟ أين الذين قهروا الأبطال والشجعان؟ أين الذين دانت لهم المشارق والمغارب؟ أين الذين تمتعوا باللذات والمشارب؟ أين الذين تاهوا على الخلائق كبراً وعتياً؟ أين الذين راحوا في الحلل بكرة وعشيا؟ أين الذين اغتروا بالأجناد؟ أين أصحاب الوزراء، والقواد؟ أين أصحاب السطوة والأعوان؟ أين أصحاب الإمرة والسلطان؟ أين أصحاب الأعمال والولايات؟ أين الذين خفقت على رؤوسهم الألوية والرايات؟ أين الذين قادوا الجيوش والعساكر؟ أين الذين عمروا القصور والدساكر؟ أين الذين أعطوا النصر في موطن الحروب، والمواقف؟ أين الذين أمنوا بسطوتهم كل خائف؟ أين الذين ملأوا ما بين الخافقين فخراً وعزاً؟ أين الذين فرشوا القصور حريراً وقزاً؟ أين الذين تضعضعت لهم الأرض هبة وعزا ﴿هل تحس منهم من أحد، أو تسمع لهم ذكراً﴾ [مريم: ٩٨] أفناهم الله مفضي الأمم. وأبادهم مبيد الرمم. وأخرجهم من سعة القصور إلى ضيق القبور، تحت الجنادل والصخور، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم، لم ينفعهم ما جمعوا، ولا أغنى عنهم ما اكتسبوا، أسلمهم الأحياء والأولياء، وهجرهم الإخوان والأصفياء، ونسيهم الأقرباء، والبعداء، لو نطقوا لأنشدوا:

مقيم بالحجون رهين رمس	وأهلى راحلون بكل واد
كأنى لم أكن لهمو حبيباً	ولا كانوا الأحبة في السواد
فعرجوا بالسلام فلإن أبيتم	فأومئوا بالسلام على البعاد

وقالوا: لا فخر فيما يزول، ولا غنى فيما لا يبقى، وهل الدنيا إلا كما قال بعض الحكماء المتقدمين: قدر يغلى وكنيف يملى، وفي هذا المعنى قال الشاعر:

ولقد سألت الدار عن أخبارهم	فتبسمت عجباً ولم تبدى
حتى مررت على الكنيف فقال لى	أمـــــوالهم ونوالهم عندى

ولقد أصاب ابن السماك حيث قال للرشيد لما قال له عظمى، وكان بيده شربة ماء فقال له: يا أمير المؤمنين لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك، قال: نعم، قال يا أمير المؤمنين: لو شربتها وحبست عن الخروج أكنت تفديها بملكك؟ قال: نعم، فقال له: لا خير في ملك لا يساوى شربة ولا بولة. وقال ابن شبرمة: إذا كان البدن سقيماً لم ينفعه الطعام، وإذا كان القلب مغرمًا لم تنفعه الموعظة، وروى أن أبا العتاهية مر بدكان وراق وإذا بكتاب فيه:

لا ترجع الأنفس عن غيها	ما لم يكن منها لها زاجر
------------------------	-------------------------

فقال: لمن هذا البيت؟ فقيل: لأبى نواس قاله للخليفة هارون الرشيد حين نهاه عن حب الجمال وعشق الملاح، فقال: وددت أنه لى بنصف شعري.

ومن استبصر من أبناء الملوك فرأى عيب الدنيا وتقضيها وزوالها، إبراهيم بن أدهم بن منصور، كان من أبناء ملوك خراسان من كورة بلخ، لما زهد الدنيا زهد في ثمانين سريراً. قال ابن بشار: سألت إبراهيم بن أدهم: كيف كان بدء أمرك حتى صرت إلى هذا؟ فقال: كان أبى من ملوك خراسان وكان قد حبب إلى الصيد، فبينما أنا راكب فرسى وكلبى معى إذ رأيت ثعلباً أو أرنباً، فحركت فرسى نحوه، فسمعت نداء من ورائى: يا إبراهيم ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت، فوقفت أنظر يمنة ويسرة، فلم أر أحداً، فقلت: لعن الله الشيطان، ثم حركت فرسى، فسمعت نداء أعلى من الأول: يا إبراهيم ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت، فوقفت أنظر يمنة ويسرة، فلم أر أحداً، فقلت: لعن الله الشيطان، ثم حركت فرسى، فسمعت النداء من قربوس سرجى: يا إبراهيم ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت، فوقفت وقلت: هيهات جاءنى النذير من رب العالمين، والله لا عصيت ربى ما عصمتى بعد يومى هذا، فتوجهت إلى أهلى وخلقت

فرسى وجئت إلى بعض رعاة أبى، فأخذت جبهته، وكساءه، وألقيت إليه ثيابى، فلم أزل أرض تقلنى وأرض تضعنى، حتى صرت إلى العراق فعملت بها أياماً فلم يصف لى شىء من الحلال، فسألت بعض المشايخ عن الحلال فقال: عليك بالشام، قال: فانصرفت إلى بلد يقام لها المنصورية، فعملت بها أياماً، فلم يصف لى شىء من الحلال، فسألت بعض المشايخ فقال: إن أردت الحلال، فعليك بطرسوس، فإن المباحات بها، والعمل فيها كثير، فانصرفت إليها. قال: فبينما أنا قاعد على باب البحر إذ جاءنى رجل فاكرانى أنظر له بستاناً، فتوجهت معه، فأقمت فى البستان أياماً كثيرة، فإذا خادم له قد أقبل ومعه أصحاب له ولو علمت أن البستان بخادم ما نظرت، فقعده فى مجلسه ثم قال: يا ناظورنا، فأجبت. قال: اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيبه. فأتيت برمان، فكسر الخادم واحدة، فوجدتها حامضة، فقال: يا ناظورنا أنت منذ كذا وكذا فى بستاننا تأكل من فاكهتنا ورماننا ولا تعرف الحلو من الحامض؟ فقلت: والله ما أكلت من فاكهتكم شيئاً، ولا أعرف الحلو من الحامض. قال: فغمز الخادم أصحابه، وقال: ألا تعجبون من هذا، ثم قال لى: لو كنت إبراهيم بن أدهم ما كنت بهذه الصفة، قال: ثم تحدث الناس بذلك، وجاءوا إلى البستان، فلما رأيت كثرة الناس اختفيت والناس داخلون، وأنا هارب منهم، وكان يأكل من كسب يده، وكان يحصد ويحفظ البساتين ويعمل فى الطين، فبينما هو يوماً يحرس كرمًا إذ مر به جندى فقال: اعطنا من هذا العنب، فقال له: إن صاحبه لم يأذن لى، فضربه بالسوط فطأ رأسه، وقال: اضرب رأساً طالما عصى الله يا سيدى الجندى، فاستحى الرجل وتركه ومضى.

وروى أن داود عليه الصلاة والسلام بينما هو يسبح فى الجبال إذ مر على غار فيه رجل عظيم الخلقة من بنى آدم ملقى على ظهره وعند رأسه حجر محفور مكتوب فيه: أنا دوسم الملك، تملك ألف عام وفتحت ألف مدينة، وهزمت ألف جيش، وافتضضت ألف بكر من بنات الملوك، ثم صرت إلى ما ترى، التراب فراشى، والحجر وسادى، فمن رآنى فلا تغره الدنيا كما غرتنى. وقال وهب بن منبه: خرج عيسى عليه الصلاة والسلام ذات يوم مع أصحابه، فلما ارتفع النهار مروا بزرع قد أفرك. فقالوا: يا نبي الله إنا جياع فأوحى الله تعالى إليه أن ائذن لهم فى قوتهم. فأذن لهم، فتفرقوا فى الزرع يفركون ويأكلون، فبينما هم كذلك إذ جاء صاحب الزرع يقول: زرعى وأرضى ورثتها من أبى وجدى، فبأذن من تأكلون يا هؤلاء؟ قال: فدعا عيسى ربه أن يبعث جميع من ملكها من لدن آدم إلى تلك الساعة، فإذا عند كل سنبلة ما شاء الله من رجل وامرأة، يقولون: أرضنا ورثناها عن آبائنا وأجدادنا، ففر الرجل منهم، وكان قد بلغه أمر عيسى ولكن لا يعرفه، فلما عرفه قال: معذرة إليك يا نبي الله إنى لم أعرفك، زرعى ومالى حلال لك، فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال: ويحك هؤلاء كلهم ورثوها وعمروها، ثم ارتحلوا عنها، وأنت مرتحل عنها ولاحق بهم، ليس لك أرض ولا مال. ولما مات اسكندر قال أرسطاطاليس: أيها الملك لقد حركتنا بسكونك، وقال بعض الحكماء من أصحابه: لقد كان الملك أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس، أخذه أبو العتاهية فقال:

كفى حزنًا بـدفنك ثم إنى
وكانت فى حياتك لى عظات
نفضت تراب قبـرك من يديا
وأنت اليوم أوعظ منك حياً

وقال عبد الله بن المعتز:

نسـير إلى الأـجال فى كل سـاعة
ولم أر مثـل الموت حـتى كـأنه
فأيامنا تطوى وهن مـراحـل
إذا ما تـخطتـه الأمانى باطل
وما أقبح التفريط فى زمن الصبا
فكيف به والشيب فى الرأس شاغل
ترحل من الدينا بـزاد من التـقى
فعمـرك أيام تغد قـلائل

وقال عبد الله بن المعلم: خرجنا من المدينة حُجَّاجًا فإذا أنا برجل من بنى هاشم من بنى العباس بن عبد المطلب قد رفض الدنيا، وأقبل على الآخرة، فجمعتنى وإياه الطريق، فأنست به وقلت له: هل لك أن تعادلنى، فإن معى فضلاً من راحلتى، فجزانى خيراً وقال: لو أردت هذا لكان سهلاً، ثم أنس إلى فجعل يحدثنى فقال: أنا رجل من ولد العباس كنت أسكن البصرة، وكنت ذا كبر شديد، ونعمة طائلة، ومال كثير، وبذخ زائد، فأمرت يوماً خادماً لى أن يحشو لى

فراشاً من حرير ومخدة بورد نثير، ففعل، فإني لنائم إذا بقمع وردة قد نسيه الخادم، ففعل إليه فأوجعته ضرباً، ثم عدت إلى مضجعي بعد إخراج القمع من المخدة، فأتاني آت في منامي في صورة فطيرة فلهزني وقال: أفق من غشيتك وانتبه من رقدتك، ثم أنشأ يقول:

يا خل إنك إن توسد لينا وسدت بعد اليوم صم الجندل
فامهد لنفسك صالحاً تسعد به فلتندمن غداً إذا لم تفعل

فانتبهت مرعوباً وخرجت من ساعتى هارباً إلى ربي كما تراني ثم أنشأ يقول

من كان يعلم أن الموت يدركه والقبر مسكنه والبعث يخرجُه
وأنه بين جنات مزخرفة يوم القيامة أو نار ستضجُه
فكل شيء سوى التقوى به سمجُ ومن أقام عليه منه أسمجُه
تري الذي اتخذ الدنيا له وطناً لم يدر أن المنايا سوف تزعجُه

قال وهب بن منبه: أصبت على قصر غمدان وهو قصر سيف بن ذي يزن بأرض صنعاء اليمن، وكان من الملوك الأجلة مكتوباً بالقلم المسندى، فترجم بالعربي، فإذا هي أبيات جليلة، وموعظة عظيمة وجميلة وهي هذه الأبيات:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم غلب الرجال فلم تنفعهم القلل
واستنزلوا من أعالي عز معقلهم فأسكنوا حفرة يا بش ما نزلوا
فإذا هم صارخ من بعد ما دفنوا أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت محجبة وكان من دونها الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طالما أكلوا دهرًا وما شربوا فأصبحوا بعد ذاك الأكل قد أكلوا

وروى أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان معه صاحب في بعض سياحاته، فأصابهما الجوع، وقد انتهيا إلى قرية، فقال عيسى عليه الصلاة والسلام لصاحبه: انطلق فاطلب لنا طعاماً من هذه القرية، وأعطاه ما يشتري به، فذهب الرجل وقام عيسى عليه الصلاة والسلام يصلي، فجاء الرجل بثلاثة أرغفة، فقعده ينتظر انصراف عيسى عليه السلام من الصلاة فأبطأ عليه، فأكل رغيماً وكان عيسى عليه الصلاة والسلام رآه حين جاء ورأى الأرغفة ثلاثة، فلما انصراف من صلاته لم يجد إلا رغيفين، فقال له: أين الرغيف الثالث؟ فقال الرجل: ما كانا إلا رغيفين، فأكلاهما. ثم مرا على وجوههما حتى أتيا على ظباء ترعى فدعا عيسى عليه الصلاة والسلام واحداً منها، فجاءه فذكاه وأكلا منه. فقال له عيسى: بالذي أراك هذه الآية من أكل الرغيف الثالث؟ فقال: ما كان إلا اثنين. ثم مرا على وجوههما حتى جاءا قرية فدعا عيسى ربه أن ينطق له من يخبره عن حال هذه القرية، فأنطق الله له لبنة، فسألها عيسى فأخبرته بكل ما أراد، وصاحبه يتعجب مما رأى، فقال له عيسى: بحق من أراك هذه الآية، من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال: ما كانا إلا اثنين. فمرا على وجوههما حتى انتهيا إلى نهر عجاج، فأخذ عيسى صوت الله عليه بيد الرجل ومشى به على الماء حتى جاوز النهر، فقال الرجل: سبحان الله، فقال عيسى عليه الصلاة والسلام: بالذي أراك هذه الآية، من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال: ما كانا إلا اثنين. فمرا على وجوههما حتى أتيا قرية عظيمة خربة، وإذا قريب منها ثلاث لبنات عظام، وقيل ثلاثة أكوام من الرمل، فقال لهما: كوني ذهباً بإذن الله، فكانت، فلما رآها الرجل قال: هذا مال، فقال عيسى: نعم، واحدة لى، وواحدة لك، وواحدة لصاحب الرغيف الثالث، فقال الرجل: أنا صاحب الرغيف الثالث، فقال عيسى عليه الصلاة والسلام: هي لك كلها، ثم فارقه عيسى، وأقام الرجل ليس معه ما يحملها عليه، فمر به ثلاثة نفر فقتلوه، فقال اثنان منهما للثالث: انطلق إلى القرية فأتنا بطعام، فانطلق فلما غاب قال أحدهما للآخر: إذا جاء قتلناه واقتسمنا المال بيننا، فقال الآخر نعم، وأما الذي ذهب ليشتري الطعام فإنه أضمر لصاحبيه سوء، وقال: أجعل لهما في الطعام سمًا

فإذا أكلاه ماتا وآخذ المال لنفسى، فوضع السم فى الطعام وجاء فقاما إليه فقتلاه وأكلا الطعام، فماتا، فمر بهم عيسى عليه الصلاة والسلام وهم مصروعون حولها فقال: هكذا الدنيا تفعل بأهلها. وقال الهيثم بن عدى: وجد غار فى جبل لبنان زمن الوليد بن عبد الملك وفيه رجل مسجى على سرير من الذهب وعند رأسه لوح من الذهب أيضاً مكتوب فيه بالرومية: أنا سبأ بن نواس خدمت عيصو بن اسحاق بن إبراهيم خليل الرب الأكبر، وعشت بعده دهرًا طويلاً ورأيت عجبًا كثيرًا ولم أر فيما رأيت أعجب من غافل عن الموت، وهو يرى مصارع آبائه ويقف على قبور أحبابه، ويعلم أنه صائر إليهم، ثم لا يتوب، وقد علمت أن الأجلاف الجفافة يستنزلوننى عن سريرى ويتولونه وذلك حين يتغير الزمان ويكثر الهذيان ويتأأس الصبيان، فمن أدرك هذا الزمان عاش قليلاً ومات ذليلاً. وعن عمرو بن ميمون أنه قال: افتتحنا مدينة بفارس فدللنا على مغارة فيها بيت، فيه سرير من الذهب، عليه رجل عند رأسه لوح مكتوب فيه: أنا بهرام ملك فارس، كنت أعتاهم بطشاً، وأقساهم قلباً، وأطولهم أملاً، وأحرصهم على الدنيا، قد ملكت البلاد، وقتلت الملوك، وهزمت الجيوش، وأذللت الجبابرة، وجمعت من الأموال ما لم يجمعه أحد قبلى، ولم أستطع أن أفندى به من الموت إذ نزل بى. ويروى فى الإسرائيليات أن عيسى عليه الصلاة والسلام بينا هو فى سياحته إذ مر بجمجمة نخرة، فسأل الله أن تتكلم فأنطقها الله له فقالت: يا نبي الله: أنا بلوان بن حفص، ملك اليمن، عشت ألف سنة، ورزقت ألف ولد واقتضت ألف بكر، وهزمت ألف جيش، وفتحت ألف مدينة، فما كان كل ذلك إلا كحلم النائم، فمن سمع قصتى فلا يغتر بالدنيا. فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام بكاء شديداً حتى غشى عليه. ووجد مكتوب على قصر قد خربت أركانه وبادت أهله وأظلمت نواحيه هذه الأبيات:

يوفون بالعهد مذ كانوا وبالذم
ترنم المجد بين الجود والكرم

هذى منازل أقوام عهدهم
تبكى عليهم ديار كان يطربها

وقيل فى المعنى:

قد كان أعمر باللذات والطرب
وصاح من بعده بالويل والخرب

بالله ربك كم قصر مررت به
نادى غراب المنايا فى جوانبه

وفيه:

لا يرد المنون عنك البناء

أيهم الرافع البناء رويداً

وحكى: أن رجلين تنازعا فى أرض، فأنطق الله تعالى لبنة من جدار تلك الأرض، فقالت: إني كنت ملكاً من الملوك ملكت الدنيا ألف سنة، ثم صرت رميمًا ألف سنة، ثم أخذنى خزاف وعملنى إناء، فاستعملت ألف سنة حتى تكسرت وصرت تراباً، فأخذنى طواب وعملنى لبناً وأنا فى هذا الجدار كذا وكذا سنة، فلم تتنازعا فى هذه الأرض؟ وأنتم عنها زائلون وإلى غيرها منقلبون. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وروى أن ملكاً بنى قصراً وقال: انظروا إن كان فيه عيب فأصلحوه، فقال رجل: أرى فيه عيبين. فقالوا له: وما هما؟ قال: يموت الملك ويخرب القصر. قال: صدقت ثم أقبل على الله وترك القصر والدنيا. وقيل: سئل الخضر عليه السلام عن أعجب شيء رآه فى الدنيا مع طول سياحته وقطعه للقفار والفلوات، فقال: أعجب شيء رأيت أنه مورت بمدينة لم أر على وجه الأرض أحسن منها، فسألت بعض أهلها متى بنيت هذه المدينة؟ فقالوا: سبحانه الله لم يذكر آبائنا ولا أجدادنا متى بنيت، وما زالت كذلك من عهد الطوفان، ثم غبت عنها خمسمائة سنة، ومررت بها، فإذا هى خاوية على عروشها ولم أر أحداً أسأله وإذا رعاة غنم فدنوت منهم فقلت: أين المدينة التى ها هنا؟ فقالوا: سبحانه الله لم يذكر آبائنا ولا أجدادنا أنه كان ها هنا مدينة، ثم غبت خمسمائة سنة ومررت بها وإذا موضع تلك المدينة بحر وإذا غواصون يخرجون منه شبه الحلية، فقلت للغواصين: منذ كم هذا البحر ها هنا؟ فقالوا: سبحانه الله لم يذكر آبائنا ولا أجدادنا إلا أن هذا البحر من عهد الطوفان. فغبت خمسمائة سنة وجئت فإذا البحر قد غاض ماؤه وإذا مكانه غيضة

صيادون يصيدون فيها السمك فى زوارق صغار فقلت لبعضهم: أين البحر الذى كان ها هنا؟ فقالوا: سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أنه كان ها هنا بحر. فغبت خمسمائة عام ثم جئت إلى ذلك، فإذا هو مدينة على الحالة الأولى، والحصون والقصور والأسواق قائمة، فقلت لبعضهم: أين الغيضة التى كانت ها هنا؟ ومتى بنيت هذه المدينة؟ فقالوا: سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذه المدينة على حالها من عهد الطوفان. فغبت عنها نحو خمسمائة سنة ثم أتيت إليها، فإذا عاليها سافلها وهى تدخن بدخان شديد، فلم أر أحداً أسأله ثم أتيت راعياً فسألته أين المدينة؟ قال: سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذا المكان هكذا منذ كان. فهذا أعجب شئ رأيته فو. سياحتى. فسبحان مبيد العباد ومفنى البلاد ووارث الأرض ومن عليها وياعث من خلق منها بعد رده إليها. ولبعضهم:

قف بالديار فهذه آثارهم
كم قد وقفت بها أسائل أهلها
فأجابنى داعى الهوى فى رسمها
ولبعضهم:

أيها الربيع الذى قدد دثرا
أين سكانك ماذا فعلوا
فلققد نادى منادى دارهم
وكان عينا ثم أضحى أثرا
خبرن عنهم سققت المطرا
رحلوا واستودعوني عبرا

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: أوحى الله إلى الدنيا من خدمنى فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه، يا دنيا مرى على أوليائى ولا تحلى لهم فتفتنيهم، وقال بعض الحكماء: الدنيا كالماء المالح كلما ازداد صاحبها شرباً ازداد عطشاً، أو كالكأس من عسل وفى أسفله سم، فللذائق منه حلاوة عاجلة وفى أسفله الموت، أو كحلم النائم يفرح فى منامه فإذا استيقظ زال فرحه، أو كالبرق يضىء قليلاً ثم يذهب. ولما بنى المأمون قصره الذى ضرب به المثل نام فيه فسمع قائلاً يقول:

أتبنى بناء الخالدين وإنما
لقد كان فى ظل الأراك كفاية
بقاؤك فيها إن عقلت قليل
لمن كل يوم يقتضيه رحيل

قال، فلم يلبث بعدها إلا قليلاً ومات وقال:

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض
ووجد مكتوب على قصر باد أهله:

هذى منازل أقوام عهدهم
صاحت بهم نائبات الدهر فانقلبوا
فى خفض عيش نفيس ماله خطر
إلى القبور فلا عين ولا أثر

ولو قيل للدنيا صفى نفسك ما عدت ما وصفها به أبو نواس بقوله:

ومما الناس إلا هالك وابن هالك
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشف
وذو نسب فى الهالكين عريق
له عن عدو فى ثياب صديق

وروى أن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه لما رجع من صفين، ودخل أوائل الكوفة رأى قبراً فقال: قبر من هذا؟ فقالوا: قبر خباب بن الأرت، فوقف عليه وقال: رحم الله خباباً، أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً، وابتلى فى جسمه آخرأ، ألا وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ثم مشى فإذا هو بقبور، فجاء حتى وقف عليها، وقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة، أنتم لنا سلف، ونحن لكم تبع، وبكم عما قليل لاحقون، اللهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز عنا وعنهم، طوبى لمن ذكر المعاد، وعمل ليوم الحساب، وقنع بالكفاف، ورضى عن الله تعالى، ثم قال: يا أهل القبور أما الأزواج فقد نكحت، وأما الديار فقد سكنت وأما الأموال فقد قسمت وهذا ما عندنا، فما عندكم؟ ثم التفت إلى أصحابه وقال: أما إنهم لو تكلموا لقالوا: وجدنا خير الزاد التقوى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فيما جاء من فضل الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم

وهو آخر الأبواب وبه يختتم الكتاب

ولنذكر أربعين حديثاً في فضل الصلاة على النبي ﷺ:

الحديث الأول: عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على صلت عليه الملائكة ومن صلت عليه الملائكة، صلى الله عليه ومن صلى الله عليه لم يبق شيء في السموات ولا في الأرض إلا صلى عليه».

الحديث الثاني: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على صلاة واحدة أمر الله حافظه أن لا يكتب عليه ذنباً ثلاثة أيام».

الحديث الثالث: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على مرة خلق الله من قوله ملكاً له جناحان جناح بالشرق وجناح بالمغرب رأسه وعنقه تحت العرش وهو يقول: اللهم صلى على عبدك ما دام يصلى على نبيك».

الحديث الرابع: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على مرة صلى الله عليه بها عشراً ومن صلى على عشراً صلى الله عليه بها مائة ومن صلى على مائة صلى الله عليه ألفاً ومن صلى على ألفاً لم يعذبه الله بالنار».

الحديث الخامس: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على مرة كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات».

الحديث السادس: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل يوماً وقال يا محمد جئت بك ببشارة لم آت بها أحداً من قبلك وهي أن الله تعالى يقول لك من صلى عليك من أمته ثلاث مرات غفر الله له إن كان قائماً قبل أن يقعد وإن كان قاعداً غفر له قبل أن يقوم فعند ذلك خر ساجداً لله شاكراً».

الحديث السابع: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على في الصباح عشراً محيت عنه ذنوب أربعين سنة».

الحديث الثامن: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على ليلة الجمعة أو يوم الجمعة مائة مرة غفر الله له خطيئة ثمانين سنة».

الحديث التاسع: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على ليلة الجمعة أو يوم الجمعة مائة مرة قضى الله له مائة حاجة ووكل الله به ملكاً حين يدفن في قبره يبشره كما يدخل أحدكم على أخيه بالهدية».

الحديث العاشر: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على في يوم مائة مرة قضيت له في ذلك اليوم مائة حاجة».

الحديث الحادي عشر: قال رسول الله ﷺ: «أقربكم مني مجلساً أكثركم على صلاة».

الحديث الثاني عشر: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على ألف مرة بشر بالجنة قبل موته».

الحديث الثالث عشر: قال رسول الله ﷺ: «جاءني جبريل عليه السلام وقال لي: يا رسول الله لا يصلى عليك أحد إلا ويصلى عليه سبعون ألفاً من الملائكة».

الحديث الرابع عشر: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء بعد الصلاة على لا يرد».

الحديث الخامس عشر: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة على نور على الصراط وقال عليه الصلاة والسلام: لا يلج النار من يصلى على».

الحديث السادس عشر: قال رسول الله ﷺ: «من جعل عبادته الصلاة على قضى الله له حاجة الدنيا والآخرة».

الحديث السابع عشر: قال رسول الله ﷺ: «من نسي الصلاة على أخطأ طريق الجنة».

الحديث الثامن عشر: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة فى الهواء بأيديهم قراطيس من نور لا يكتبون إلا الصلاة على وعلى أهل بيتى».

الحديث التاسع عشر: قال رسول الله ﷺ: «لو أن عبداً جاء يوم القيامة بحسنات أهل الدنيا ولم تكن فيها الصلاة على ردت عليه ولم تقبل منه».

الحديث العشرون: قال رسول الله ﷺ: «أولى الناس بى أكثرهم على صلاة».

الحديث الحادى والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على فى كتاب لم تزل الملائكة تصلى عليه ما لم يندرس اسمى من ذلك الكتاب».

الحديث الثانى والعشرون: «إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغونى الصلاة على من أمتى فأستغفر لهم».

الحديث الثالث والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على كنت شفيعه يوم القيامة، ومن لم يصل على فأنا برىء منه».

الحديث الرابع والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «يؤمر بقوم إلى الجنة فيخطئون الطريق قالوا: يا رسول الله ولم ذاك؟ قال: سمعوا اسمى ولم يصلوا على».

الحديث الخامس والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «يؤمر برجل إلى النار فأقول ردوه إلى الميزان فأضع له شيئاً كالأتملة معى فى ميزانه وهو الصلاة على فيرجح ميزانه وينادى سعد فلان».

الحديث السادس والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمع قوم فى مجلس ولم يصل على فيه إلا تفرقوا كقوم تفرقوا عن ميت ولم يغسلوه».

الحديث السابع والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى وكل بقبرى ملكاً أعطاه أسماء الخلائق كلها فلا يصلى على أحد إلى يوم القيامة إلا بلغنى اسمه وقال: يا رسول الله إن فلان بن فلانة صلى عليك».

الحديث الثامن والعشرون: عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنه قال: «الصلاة على النبى ﷺ أمحى للذنوب من الماء لسواد اللوح».

الحديث التاسع والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام إن أردت أن أكون إليك أقرب من كلامك إلى لسانك ومن روحك لجسدك فأكثر من الصلاة على النبى الأسمى ﷺ».

الحديث الثلاثون: قال رسول الله ﷺ: «إن ملكاً أمره الله تعالى باقتلاع مدينة غضب عليها فرحمها ذلك الملك ولم يبادر إلى اقتلاعها، فغضب الله عليه وكسراً أجنحته فمر به جبريل عليه السلام فشكا له حاله فسأل الله فيه فأمره أن يصلى على النبى ﷺ فصلى عليه فغفر الله له ورد عليه أجنحته ببركة الصلاة على النبى ﷺ».

الحديث الحادى والثلاثون: عن عائشة رضى الله عنها قالت: من صلى على رسول الله ﷺ عشر مرات وصلى ركعتين ودعا الله تعالى تقبل صلاته وتقضى حاجته ودعاؤه مقبول غير مردود.

الحديث الثانى والثلاثون: عن زيد بن حارثة قال: سألت رسول الله ﷺ عن الصلاة عليه فقال ﷺ: «صلوا على واجتهدوا فى الدعاء وقولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد».

الحديث الثالث والثلاثون: عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ: «صلوا على فإن صلاتكم على زكاة لكم واسألوا الله لى الوسيلة».

الحديث الرابع والثلاثون: عن سهل بن سعد الساعدى أن النبى ﷺ قال: «لا صلاة لمن لا يصلى على نبيه ﷺ».

الحديث الخامس والثلاثون: عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على».

الحديث السادس والثلاثون : عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «من قال جزى الله عنا محمداً خيراً وجزى الله نبينا محمداً بما هو أهله فقد أتعب كتابيه».

الحديث السابع والثلاثون: عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ : «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً وصلوا على فإن صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم».

الحديث الثامن والثلاثون: عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ : «ما من أحد يصلى على إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه».

الحديث التاسع والثلاثون: قال رسول الله ﷺ : «أقربكم منى منزلاً يوم القيامة أكثركم على صلاة».

الحديث الأربعون: نقل الشيخ كمال الدين الدميرى رحمه الله تعالى عن «شفاء الصدور» لابن سبع أن النبى ﷺ قال : «من سره أن يلقى الله وهو عليه راض فليكثر من الصلاة على فإنه من صلى على فى كل يوم خمسمائة مرة لم يفتقر أبداً وهدمت ذنوبه ومحيت خطاياهم ودام سروره واستجيب دعاؤه وأعطى أمه وأعين على عدوه وعلى أسباب الخير وكان ممن يرافق نبيه فى الجنان».

اللهم صل على سيد المرسلين، وخاتم النبيين، ورسول رب العالمين، الذى أنزل عليه فى محكم الكتاب العزيز تعظيماً له وتوقيراً : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً (٤٧)﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٧]. فهذا خطاب خاص الخاص ولم يخاطب الله أحداً من المرسلين ولا من الأنبياء ولا رسولا بالرسالة إلا سيد خلقه محمد ﷺ فإن الله تعالى نادى أبا البشر: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] ﴿وَيَانُوحَ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ [هود: ٤٨] ﴿وَيَا إِبْرَاهِيمَ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [هود: ٧٦] ﴿وَيَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] ﴿وَيَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ١١٠] وقال لمحمد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]. ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنكَ﴾ [المائدة: ٤١] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التحریم: ١] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]. وما ناداه باسمه يا محمد كغيره إلا فى أربعة مواضع اقتضت الحكمة أن يذكر هناك باسمه محمد ﷺ. الأول قوله عز وجل ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾. [آل عمران: ١٤٤]. لأن سبب إنزالها أن الشيطان صاح يوم أحد قد قتل محمد وكان ما كان فأنزل الله تعالى هذه الآية، ولو قال وما رسولى لقال الأعداء ليس هو محمد فذكره باسمه لأنهم ما كانوا ينكرون أن اسمه محمداً. الثاني قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. الثالث قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلُّ أَعْمَالُهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾. [محمد: ٢]. فلو قال وآمنوا بما نزل على رسولى لقال الأعداء ليس هو فعرفه باسمه محمد ﷺ. الرابع قوله عز وجل ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] والحكمة فى ذكره هنا باسمه أنه سبحانه وتعالى قال قبلها: ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الصف: ٩] فكان من الأعداء من يقول من هو رسوله الذى أرسله فعرفه باسمه فقال: محمد رسول الله ﷺ وسماه تعالى باسمه أحمد فى موضع واحد وله حكمة وهى أن الله تعالى لما أرسل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قال لقومه من بنى إسرائيل ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ [الصف: ٦] التى أنزلت على موسى ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] لأنهم كانوا يعرفونه فى التوراة أحمد فما ناداه سبحانه وتعالى باسمه محمد ولا أحمد وإنما ذكر ذلك إعلاماً به وتعريقاً له وما ناداه إلا بالنبوة والرسالة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]. أى شاهداً بالإيمان للمؤمنين ومبشراً لأهل التمجيد ونذيراً لأهل التجحيد، وقيل: شاهداً لأهل القرآن ومبشراً لهم بالغفران ونذيراً لأهل الكفر والعصيان. وقيل: شاهداً لأمتك ومبشراً بشفاعتك ونذيراً لمن ارتكب مخالفتك. وقيل: شاهداً بالمنة

ومبشراً بالجنة وقوله وداعياً إلى الله بإذنه أى تدعو الناس بأمر الله تعالى إلى لا إله إلا الله . قال تعالى : ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾ [الجن: ١٩] وسمى رسول الله ﷺ نفسه داعياً فقال: أنا الداعى إلى الله، وقوله تعالى: ﴿وسراجاً منيراً﴾ [الأحزاب: ٤٦]. أى يهتدى به كما يهتدى بالسراج فى ظلمة الليل.

فإن قلت: ما الحكمة فى قوله تعالى: ﴿وسراجاً منيراً﴾. ولم يقل قمراً منيراً. فالجواب عن ذلك أن السراج أعم من القمر لأن المراد بالسراج هنا الشمس. قال تعالى: ﴿وجعل الشمس سراجاً﴾ [نوح: ١٦]. والشمس أعم نفعاً ونوراً من القمر، وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿وسراجاً منيراً﴾. السراج الذى يقتبس منه لأن القمر لا تصل إليه الأيدي حتى يقتبس منه، والسراج إذا كان فى بلد يملأ ذلك البلد نوراً لأن كل من جاء يقتبس منه، والقمر ليس كذلك ولهذا كانت الدنيا قبل ولادته ﷺ ظلاماً فلما ولد ظهر سراج دينه بمكة، فكان أول من اقتبس من الرجال أبو بكر. ومن النساء خديجة، ومن الشباب على، ومن الموالى زيد، ومن العبيد بلال، رضى الله تعالى عنهم أجمعين. وجاء سلمان من أرض فارس فاقتبس، وصهيب من الروم، وبلال من الحبشة، ووفد الوفود واقتبسوا، وأبو لهب إلى جانب البيت ولم يقتبس، واقتبس الناس من مشارق الأرض ومغاربها حتى امتلأت الأرض من نور سراجِه فهو ﷺ أعظم الأنبياء، وأكرم المرسلين، وسيد الخلق أجمعين، لم يخلق الله أحسن، ولا أجمل، ولا أكمل، ولا أفضل، ولا أفصح، ولا أرجح، ولا أسمع، ولا أصبح، ولا أجل، ولا أعظم، ولا أسخى، ولا أكرم، ولا أبهى، ولا أنصف، ولا أعدل، منه ﷺ، فلو أن البحار مداد والنبات أقلام وجميع الخلق تكتب معجزاته ﷺ لعجزوا عن وصف نزر النزر من معجزاته ﷺ. اللهم اجعلنا من خالص أمته واحشرنا فى زمرة وأمتنا على محبته ولا تخالف بنا عن ملته ولا عما جاء به برحمتك يا أرحم الراحمين آمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى عدد ما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون نحمدك يا من هيات لكسب الآداب جميع المعدات وفتحت للتحلى بأنوار آياتك سبل الخيرات ونصلى ونسلم على من كملت آدابه ورشحت بكمال البيان وإعجاز التبيان جنابه سيدنا محمد القائل: «إن من البيان لسحراً» وعلى آله وصحبه ما أطلعت حدائق الأتباع زهراً.

أما بعد فقد تم بحمده تعالى طبع كتاب المستطرف فى كل فن مستظرف تأليف العلامة الفاضل واللودعى الكامل الشيخ شهاب الدين أحمد الأبشيهى رحمه الله وأعلى منزله فى دار رضاه.

المحتويات

٣ مقدمة المؤلف
٧ الباب الأول: فى مبانى الإسلام وفيه خمسة فصول
١٦ الباب الثانى: فى العقل والذكاء والحمق وذمه وغير ذلك
٢٠ الباب الثالث: فى القرآن وفضله وحرمة وما أعد الله تعالى لقارئه من الثواب العظيم والأجر الجسيم
٢٣ الباب الرابع: فى العلم والأدب وفضل العالم والمتعلم
٢٩ الباب الخامس: فى الآداب والحكم وما أشبه ذلك
٣٢ الباب السادس: فى الأمثال السائرة وفيه فصول
٤٧ الباب السابع: فى البيان والبلاغة والفصاحة وذكر الفصحاء من الرجال والنساء وفيه فصول
٦٦ الباب الثامن: فى الأجوبة المسكتة والمستحسنة ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك
٧٠ الباب التاسع: فى ذكر الخطب والخطباء والشعر والشعراء وسرقاتهم وكبوات الجياد وهفوات الأمجاد
 الباب العاشر: فى التوكل على الله تعالى والرضا بما قسم والقناعة وذم الحرص والطمع وما أشبه ذلك وفيه فصول
٧٧ الباب الحادى عشر: فى المشورة والنصيحة والتجارب والنظر فى العواقب
٨٧ الباب الثانى عشر: فى الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة وما أشبه ذلك
٩٢ الباب الثالث عشر: فى الصمت وصون اللسان والنهى عن الغيبة والسعى بالنميمة. ومدح العزلة وذم الشهرة وفيه فصول
٩٦ الباب الرابع عشر: فى الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام وما يجب للسلطان على الرعية وما يجب لهم عليه
١٠٢ الباب الخامس عشر: فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبته
١٠٤ الباب السادس عشر: فى ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم وما أشبه ذلك
١٠٦ الباب السابع عشر: فى ذكر الحجاب والولاية وما فيها من الغرر والخطر
١٠٨ الباب الثامن عشر: فيما جاء فى القضاء وذكر القضاء وقبول الرشوة والهدية على الحكم وما يتعلق بالديون وذكر القصاص والمتصوفة وفيه فصول
١١٣ الباب التاسع عشر: فى العدل والإحسان والإنصاف وغير ذلك
١١٧ الباب العشرون: فى الظلم وشؤمه وسوء عواقبه وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك
١٢٠ الباب الحادى والعشرون: فى بيان الشروط التى تؤخذ على العمال وسيرة السلطان فى استجابة الخراج وأحكام أهل الذمة وفيه فصلان
١٢٥ الباب الثانى والعشرون: فى اصطناع المعروف وإغاثة الملهوف وقضاء حوائج المسلمين وإدخال السرور عليهم
١٢٩

١٣٢	الباب الثالث والعشرون: فى محاسن الأخلاق ومساوئها.....
١٣٦	الباب الرابع والعشرون فى حسن المعاشرة والمودة والأخوة والزيارة وما أشبه ذلك.....
	الباب الخامس والعشرون: فى الشفاعة على خلق الله تعالى والرحمة بهم وفضل لشفاعة وإصلاح
١٤٤	ذات البين وفيه فصلان.....
١٤٦	الباب السادس والعشرون: فى الحياء والتواضع ولين الجانب وخفض الجناح وفيه فصلان.....
١٤٧	الباب السابع والعشرون: فى العجب والكبر والخيلاء وما أشبه ذلك.....
١٤٨	الباب الثامن والعشرون: فى الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت.....
١٥٤	الباب التاسع والعشرون: فى الشرف والسؤود وعلو الهمة.....
	الباب الثلاثون: فى الخير والصلاح وذكر السادة الصحابة وذكر الأولياء والصالحين رضى الله تعالى
١٥٧	عنهم أجمعين.....
١٦٦	الباب الحادى والثلاثون: فى مناقب الصالحين وكرامات الأولياء رضى الله عنهم.....
١٧٥	الباب الثانى والثلاثون: فى ذكر الأشرار والفجار وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاهة....
	الباب الثالث والثلاثون: فى الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق واصطانع المعروف وذكر
١٧٧	الأمجاد وأحاديث الأجواد.....
١٩٢	الباب الرابع والثلاثون: فى البخل والشح وذكر البخلاء وأخبارهم وما جاء عنهم.....
	الباب الخامس والثلاثون: فى الطعام وآدابه والضيافة وآداب المضيف وأخبار الأكلة وما جاء عنهم
١٩٨	وغير ذلك.....
	الباب السادس والثلاثون: فى العفو والصفح وكظم الغيظ والاعتذار وقبول المعذرة والعتاب وما
٢٠٨	أشبه ذلك.....
٢١٩	الباب السابع ولثلاثون: فى الوفاء بالعهد وحفظ العهد ورعاية النعم.....
٢٢٨	الباب الثامن والثلاثون: فى كتمان السر وتحصينه ودم إفشائه.....
٢٣١	الباب التاسع والثلاثون: فى الغدر والخيانة والسرقه والعداوة والبغضاء والحسد وفيه فصول
	الباب الأربعون: فى الشجاعة وثمرتها والحروب وثمرتها وتديريها وفضل الجهاد وشدة البأس
٢٣٩	والتحريض على القتال وفيه فصلان.....
	الباب الحادى والأربعون: فى ذكر أسماء الشجعان وذكر الأبطال وطبقاتهم وأخبارهم وذكر الجبناء
٢٤٤	وأخبارهم ودم الجبن.....
٢٥٣	الباب الثانى والأربعون: فى المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة وفيه فصول.....
٢٧٠	الباب الثالث والأربعون: فى الهجاء ومقدماته.....
٢٧٧	الباب الرابع والأربعون: فى الصدق والكذب وفيه فصلان.....
	الباب الخامس والأربعون: فى بر الوالدين ودم العقوق وذكر الأولاد وما يجب لهم وعليهم وصلة
٢٨٠	الرحم والقربابات وذكر الأنساب وفيه فصول.....

الباب السادس والأربعون: فى الخلق وصفاتهم وأحوالهم وذكر الحسن والقبيح والقصر والألوان والثياب وما أشبه ذلك وفيه فصول.....	٢٨٤
الباب السابع والأربعون: فى التختيم والحلى والمصوغ والطيب والتطيب وما أشبه ذلك.....	٣٠٥
الباب الثامن والأربعون: فى الشباب والصحة والعافية وأخبار المعمرين وما أشبه ذلك وفيه فصول	٣٠٨
الباب التاسع والأربعون: فى الأسماء والكنى والألقاب وما استحسن منه.....	٣١٤
الباب الخمسون: فيما جاء فى الأسفار والاعتراب وما قيل فى الوداع والفراق والحث على ترك الإقامة بدار الهوان وحب الوطن والحنين إليه.....	٣١٩
الباب الحادى والخمسون: فى ذكر الغنى وحب المال والافتخار بجمعه.....	٣٢٧
الباب الثانى والخمسون: فى ذكر الفقر ومدحه.....	٣٣٤
الباب الثالث والخمسون: فى التلطف فى السؤال وذكر من سئل فجاد.....	٣٣٦
الباب الرابع والخمسون: فى ذكر الهدايا والتحف وما أشبه ذلك.....	٣٤٢
الباب الخامس والخمسون: فى العمل والكسب والصناعات والحرف إلخ.....	٣٤٤
الباب السادس والخمسون: فى شكوى الزمان وانقلابه بأهله والصبر على المكاره والتسلى عن نوائب الدهر وفيه ثلاثة فصول.....	٣٤٨
الباب السابع والخمسون: ما جاء فى اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة والفرح والسرور ونحو ذلك مما يتعلق بهذا الباب.....	٣٦٠
الباب الثامن والخمسون: فى ذكر العبيد والإماء والخدم وفيه فصلان.....	٣٦٦
الباب التاسع والخمسون: فى أخبار العرب الجاهلية وأوابدهم وذكر غرائب من عوائدهم وعجائب من أكاذيبهم.....	٣٦٨
الباب الستون: فى الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والفراسة والنوم والرؤية وما أشبه ذلك..	٣٧٢
الباب الحادى والستون: فى الحيل والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد والتيقظ والتبصر.....	٣٨١
الباب الثانى والستون: فى ذكر الدواب والوحوش والطير والهوام والحشرات وما أشبه ذلك مرتباً على حروف المعجم.....	٣٨٧
الباب الثالث والستون: فى ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم.....	٤١٧
الباب الرابع والستون: فى خلق الجن وصفاتهم.....	٤٢١
الباب الخامس والستون: فى ذكر البحار وما فيها من العجائب وذكر الأنهار والآبار وفيه فصول...	٤٢٤
الباب السادس والستون: فى ذكر عجائب الأرض وما فيها من الجبال والبلدان وغرائب البنيان وفيه فصول.....	٤٢٩
الباب السابع والستون: فى ذكر المعادن والأحجار وخواصها.....	٤٣٣
الباب الثامن والستون: فى الأصوات والألحان وذكر الغناء واختلاف الناس فيه ومن كرهه ومن استحسنه.....	٤٣٦

٤٤١	الباب التاسع والستون: فى ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم ونوادر الجلساء فى مجالس الرؤساء . . .
٤٤٦	الباب السبعون: فى ذكر القينات والأغاني
	الباب الحادى والسبعون: فى ذكر العشق ومن بلى به والافتخار بالعفاف وأخبار من مات بالعشق
٤٥٢	وما فى معنى ذلك وفيه فصول
	الباب الثانى والسبعون: فى ذكر رقائق الشعر والمواليا والدوبيت وكان وكان والموشحات والزجل
٤٦٥	والحماق والقومة والألغاز ومدح الأسماء والصفات وما أشبه ذلك وفيه فصول
	الباب الثالث والسبعون: فى ذكر النساء وصفاتهم ونكاحهن وطلاقهن وما يحمده ويذم من
٥٤٥	عشرتهن وفيه فصول
٥٥٦	الباب الرابع والسبعون: فى تحريم الخمر وذمها والنهى عنها
	الباب الخامس والسبعون: فى المزاح والنهى عنه وما جاء فى الترخيص فيه والبسط والتنعيم وفيه
٥٥٨	فصول
٥٦١	الباب السادس والسبعون: فى النوادر وفيه فصول
٥٧٠	الباب السابع والسبعون: فى الدعاء وآدابه وشروطه وفيه فصول
٥٧٩	الباب الثامن والسبعون: فى القضاء والقدر وأحكامه والتوكل على الله عز وجل
٥٨٣	الباب التاسع والسبعون: فى التوبة والاستغفار
	الباب الثمانون: فيما جاء فى ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء وما جاء فى السنة من العبادة وما
٥٨٦	أشبه ذلك وفيه فصول
٥٩٣	الباب الحادى والثمانون: فى ذكر الموت وما يتصل به من القبر وأحواله
٥٩٦	الباب الثانى والثمانون: فى الصبر والتأسى والتعازى والمراثى ونحو ذلك وفيه فصول
٦٠٧	الباب الثالث والثمانون: فى ذكر الدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها
	الباب الرابع والثمانون: فيما جاء من فضل الصلاة على رسول الله ﷺ وهو آخر الأبواب وبه يختم
٦١٥	الكتاب
٦١٩	الفهرس

المكتبة التوفيقية
امام الباب الأخضر - سيدنا الحسين



Bibliotheca Alexandrina



0680074